

عالم الفكر

المجلّد الرّابع   العدد الثالث - اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٣

القانون والمجتمع

- القتل بدافع الشفقة
- الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة
- الحقائق الاقتصاديّة والفن القانونى
- القانون وأمن المجتمع الدّولى
- القانون والإرادة



رئيس التحرير : أحمد مشارى العدوانى
مستشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام فى الكويت * اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ـ
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية * وزارة الاعلام ـ الكويت : ص ٠ ب

المحتويات

القانون والمجتمع

تمهيد	بقلم التحرير	٣
القتل بدافع الشفقة	دكتور عبد الوهاب حومد	١٣
الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة	دكتور حسن صادق المرصفاوى	٣٩
القانون وأمن المجتمع الدولى	دكتور اسماعيل صبرى مقلد	٧٩
الحقائق الاقتصادية والفن القانونى	دكتور حازم الببلاوى	١١٩
القانون والارادة	دكتور سمير عبد السيد تناغو	١٥٩

* * *

آفاق المعرفة

الشك المنهجى عند الغزالى وديكارت	دكتور محمود حمدى زقزوق	٢٠٥

* * *

ادباء وفنانون

اوجست رودان	الاستاذ بدر الدين ابو غازى	٢٥١

* * *

عرض الكتب

الحرية والعدالة خلف الاسوار	٢٧٩
السلالة والذكاء والتربية	٢٨٧

الدراسات التى تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم .

القانون والمجتمع

 *

ما من شك فى ان عبارة « القانون والمجتمع » — المتخذة عنواناً لبحوث هذا العدد — تبعث فى الذهن ، أول ما تبعث ، تساؤلاً هاماً عن مدى قوة الوشيجة التى تربط بين شطرى هذا العنوان. اهى رابطة عارضة تغدو وتروح ، وتقوى وتضعف ، تبعاً لتقلب الأحداث والأزمات .. ؟ أم هى عروة وثقى تجمع بينهما فلا فكاك لهما منها ، ولا انفصال لأحدهما عن الآخر .. ؟

سبق فلاسفة اليونان الى الجواب على هذا التساؤل بما يؤكد المعنى الثانى قائلين "Ubi Societas, ibi jus; Ubi jus, ibi societas" أى « أنى توجد الجماعة يوجد القانون ، وانى يوجد القانون توجد الجماعة » .

واذا تأملنا هذا القول وجدناه يثير فى الحقيقة قضيتين متكاملتين : فهو من ناحية يقرر حقيقة — ترقى الى مستوى المسلمات الأولية —وهى « ربط القانون بالمجتمع » ذلك لأن القانون

---

* كتب التمهيد وراجع المادة العلمية للدراسات المنشورة فى هذا العدد الدكتور عثمان خليل عثمان الخبير الدستورى بمجلس الامة الكويتى .

هو « مجموعة من القواعد العامة الملزمة تنظم سلوك الانسان فى الجماعة » ومن ثم لا وجود له الا فى نطاق مجتمع ، فلا يتصور عقلياً أن يوجد القانون خارج المجتمع ليعيش فى فراغ . حقاً ان هناك قوانين طبيعية لازمت الكون قبل ظهور البشر عليه ، وستلازمه ما بقى ولو خلا من بنى البشر كافة ، ولكن هذه القوانين الطبيعية ليست هى « القانون » بالمعنى المقصود الذى ذكرناه .

اما القضية الثانية (التى يتضمنها القول السابق ايراده) فهى الحقيقة العكسية التى تؤكد « **ربط المجتمع بالقانون** » .. **فهل يرقى هذا** الربط كذلك الى مستوى المسلمات الأولية بحيث لا يمكن قيام مجتمع بغير قانون .. ؟

يبدو هذا الوجه بديهياً كسابقه او يكاد .

اما **البداهة** هنا فمردها الأول ان المقصود « **بالمجتمع** » معنى ادق واكثر تقدماً من مجرد اللقاء او التجمع العابر ، فقد يلتقى الناس مصادفة عند ملتقى الطرق مثلاً او موارد المياه او ما الى ذلك ، **فاذا ما مرت الصدفة مضى كل الى حال سبيله لا يلوى على شىء** ، فمثل هذا اللقاء او التجمع ، لا يصل الى مستوى « المجتمع » الذى نتحدث عنه ، ذلك أن المجتمع يفترض قدراً من التنظيم ــ ولو كان بدائياً ــ بحيث تظهر رغبة الناس فى العيش معاً لتحقيق اغراض مشتركة ، ولتعاطى منافع متبادلة ، ولاقتسام العمل لاشباع الحاجات التى تلزمهم او لدرء الاخطار التى تتهددهم ، « وفى سبيل تنظيم هذه المنافع وبقائها يجب أن يكون هناك مرجع معترف به يمكن للجماعة أن تلتف حوله وتنتمى اليه وبهذه الطريقة تنشأ التكتلات العديدة التى يتالف منها النظام الاجتماعى » (١) . وعليه فالمجتمع المقصود يجب أن يكون على شىء من التنظيم ، ولا تنظيم بغير **سلطة عامة تسنده وتكفل احترامه** (٢) . **هذا** المجتمع القائم على ضرورة «التنظيم» و « **السلطة العامة** » هو بذلك « مجتمع قانونى » ، لأن قواعد هذا التنظيم التى تكلفها سلطة عامة هى ما يسمى « بالقانون » كما سبق القول . وعليه يكون من البداهة أن وجود « المجتمع » يستلزم وجود « القانون » الذى يحكمه .

ونذكر بصدد هذا التلازم بين المجتمع والقانون ، أن أول مجتمع فى تاريخ البشرية عندما بدأ بآدم وحواء ، قد لازمه القانون منذ بدئه ، فقد صاحب نشأته أمر ونهى من الله سبحانه وتعالى ، وكان لامتثال الأمر ثواب وعلى مخالفة النهى جزاء ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وقلنا **يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها** رغداً حيث شئتما ولا **تقربا** هذه الشجرة **فتكونا من الظالمين** . فازلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى **فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** » (الآيات ٣٥ ــ ٣٩ من سورة البقرة) .

---

(١) Leslie Lipson : الحضارة الديمقراطية ــ الطبعة ٣ ــ ١٩٦٤ تعريب فؤاد موبسانى وعباس العمر (بيروت) ص ١٢ .

(٢) يلاحظ ان ارسطو قد ارجع هذه السلطة الى البداهة وطبيعة الأشياء حيث انها توجد ايضا فى الكائن الحى متمثلة فى سلطان العقل على الغريزة . (السياسة لارسطوطاليس ، تعريب احمد لطفى السيد عن ترجمة بارتلمى للفرنسية ، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ص ١٠٢) .

هذا ولا يخفى أن التلازم بين المجتمع وقانونه يستتبع أن يتطور القانون ايضاً بتطور المجتمع ، عبر الآفاق والأزمان ، ولا نعنى بذلك حتمية التلازم التام فى خطو كل منهما ، فقد يسبق القانون المجتمع فى اتجاه ما ليشده الى خير يرتجى فيه ، وقد يتخلف القانون عن المجتمع قليلاً أو كثيراً فى مجال آخر ليمنع خطوه فيه أو يعوقه ، لانه يوجس شراً منه . وفى هذا وذاك يؤدى القانون وظيفته الاجتماعية كأداة توجيه واصلاح للمجتمع .

اذا كان ذلك ، فلماذا قلنا ان ((ارتباط المجتمع بالقانون أمر بديهى أو يكاد .. ؟

قلنا ((يكاد)) لنترك مجالاً لقول القائلين بتصور **((مجتمع بغير قانون))** ، ولعل اقرب هؤلاء الى الذهن أنصار ((المذهب الفوضوى)) أو ((الفوضوية Anarchisme)) (برغم الشذوذ الواضح فى وصف الفوضوية بانها ((مذهب)) لأن المذهب يقوم على اصول وضوابط مما يتناقض كلية مع الفوضى) . فالفوضويون - وفى مقدمتهم أمثال برودون وبالونين - يرون أن منشودهم هو الحرية المطلقة والعدالة التامة ، دون طاعة لخالق أو لمخلوق ويرون كذلك انه يعوق هذا الهدف قيام الدولة ووجود القانون والملكية الفردية ، وعليه فالدولة شر ، والقانون شر ، والملكية الفردية شر ، ولذلك كفروا بها جميعاً وبالله ، ونادوا بالثورة عليها كافة ليحل محلها التعاون الاختيارى بين الناس . على أن بعضهم يرون ضرورة الرجوع فى هذا التنظيم الجديد للعلاقات الاجتماعية الى ((العقل والعلم)) .

هذا الضرب الفوضوى من التفكير يرى اذا أن المجتمع يمكن تحققه **((بدون قانون))** ولكن عندما يضطر للقول بالرجوع الى ((العقل والعلم)) - يكون فى الحقيقة قد عاد الى جادة ((القانون)) أو الى الجادة المؤدية فى النهاية حتماً الى ((القانون)) تعبيراً عن ((العقل والعلم)) .

على أن هناك نهجاً آخر من الفكر يقول - لا بامكان - بل بحتمية مجىء مجتمع بغير قانون ولكن هذا النهج لا يبدأ بالغاء الدولة والقانون وانما ينتهى الى ذلك . ونعنى هنا الفكر الاشتراكى الماركسى ، وجمهور من التزموا بآراء ماركس فى مصير الدولة والقانون .

ويقيم هذا النهج رايه فى حتمية هذا المصير على أساس علمى (سميت الاشتراكية من أجله بالاشتراكية العلمية) معتمداً على التفسير المادى للتاريخ منذ مهده ، وهو ما يعرف باسم ((المادية التاريخية Matérialisme historique)) . ويرد هذا التفسير كل التطور التاريخى للبشرية الى الصراع الحتمى بين الطبقات بسبب الملكية الفردية ، ويؤمن كذلك بحتمية المصير فى هذا التطور ، وهو انتصار الطبقة العاملة الفقيرة (البروليتاريا) ، **انتصاراً يحقق فى مرحلته الاولى القضاء على الراسمالية (أو البورجوازية) ويعمل خلال هذه المرحلة على اجتثاث جذور الراسمالية ومخلفاتها ، وذلك بفضل دكتاتورية الأغلبية العمالية اللازمة فى تلك المرحلة لتحقيق هذه العملية ولتهيئة الجو للمرحلة الحاسمة التالية المقصودة بالذات وهى مرحلة ((الشيوعية)) . فاذا ما تحققت هذه الأخيرة اصبح المجتمع طبقة واحدة - هى الطبقة العمالية - وذابت فيها سائر الطبقات ، وبذلك ينتقل الوضع من ((المجتمع الطبقى)) القديم الى ((مجتمع لا طبقى)) جديد حيث يبلغ الناس من الوعى الاشتراكى والدافع الذاتى التلقائى ما يجعلهم يقبلون على الانتاج ويزيدونه ولا ياخذ كل الا ما يلزمه ، ومن ثم يعيش المجتمع الجديد على أساس المبدأ الشيوعى القائل : ((من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته)) وبهذا التعاون الاختيارى اللاطبقى**

وبالتوحيد الارادى بين ابناء الامة ، تنتهى مرحلة دكتاتورية البروليتاريا ، ويصبح المجتمع فى غير حاجة لقوة أو لسلطة عامة ، كما ينتفى تحكم ارادة فى ارادة او خضوع انسان لانسان .

وبذلك يأفل نجم الدولة ذاتها ، وتختفى من الوجود بزوال اسباب وجودها (وهى فى نظر هؤلاء الاشتراكيين انما وجدت لحفظ سيطرة طبقة على غيرها) ، ومن ثم أيضاً لا تكون حاجة ولا مكان فى ذلك المجتمع الشيوعى للقانون ، اذ تنتفى الحاجة فيه لأى أمر أو نهى .

بهذا النحو من التفكير الاشتراكى ينتهى الأمر الى زوال الدولة والقانون ـ يوماً قرب أو بعد ـ وحينذاك يتحقق فى المجتمع الشيوعى « **مجتمع بغير قانون** »(٣) .

ولئن كان خطأ المذهب الفوضوى من الوضوح بمكان فان الاشتراكية العلمية فى تفسيرها وفى تسلسلها المرحلى السابق حتى زوال الدولة والاستغناء عن القانون قد اتسمت بمسحة براقة استهوت الكثيرين ، ولكن يكفى لكشف الخطأ فى تقديراتها ـ فى خصوصية الدولة والقانون التى تعنينا فى هذا المقام ـ أن الثورة الاشتراكية السوفيتية التى نجحت وطبقت منذ سنة ١٩١٧ لا تزال حتى اليوم أبعد ما تكون عن احتمال زوال الدولة (والقانون بالتالى) بل على العكس من ذلك ازدادت قوة الدولة هنالك الى أبعد الحدود ، حتى أن ستالين ـ أحد عمالقة الفكر الاشتراكى الماركسى ـ قد جابه توقعات ماركس ولينين بهذا الخصوص مؤكداً أن الدولة لا تزول فى بلد معين بمجرد بلوغها المرحلة الشيوعية ، بل يلزم أولاً أن تعم الشيوعية كل بلاد العالم (الشيوعية العالمية) ، أما قبل ذلك فيجب أن تقوى الدولة لحماية نفسها ومثيلاتها من مخاطر الدول الراسمالية المحيطة بها .

ولسنا نبالغ ازاء ذلك اذا قلنا ان توقع زوال الدولة والقانون على هذا السياق ليس فقط ضرباً من الخيال ، بل هو اغراق فى غير المعقول من الخيال .

من أجل هاتين النظريتين الشاذتين ـ الفوضوية وحتمية زوال الدولة والقانون ـ استعملنا كلمة « **يكاد** » التى يمكننا الآن اسقاطها بعد ايضاح مدى الشذوذ فى هاتين النظريتين لكى نقول دون تحفظ انه من المسلمات أيضاً انه « لا مجتمع بغير قانون » .

•••

لكن لماذا يخضع المجتمع للقانون .. ؟

ليس يكفى فى ذلك ما انتهينا اليه فيما سبق من تلازم حتمى بين المجتمع والقانون ، فهذه حقيقة أو ضرورة واقعية تحتاج ـ برغم رتابتها التاريخية ـ الى معرفة أساسها الفلسفى ومبررها الشرعى . فلماذا يخضع المجتمع للقانون .. ؟ أو بعبارة اخرى : **لماذا تخضع ارادة الانسان للقانون وهو بدوره تعبير عن ارادة انسانية تصدر باسم الدولة أو سلطة من السلطات العامة .. ؟**

أفاض فى الاجابة على هذا السؤال « **الخالد** » الدكتور سمير عبد السيد تناغو فى مقاله المنشور فى هذا العدد بعنوان « القانون والارادة » مبيناً بادىء ذى بدء « أن ارادة الانسان فى نظر فلاسفة

---

(٣) يرى بعض الفقهاء ان هذه الشيوعية فيما تنتهى اليه من زوال الدولة والسلطة العامة والقانون ليست الا نوعاً من « الفوضوية » وأن الخلاف فقط فى فورية التحول الفوضوى او عدم فوريته .

القانون اما **خاضعة لقيود** تؤدى الى المحافظة عليها**أو مطلقة من كل قيد** بما يؤدى الى تحطيمها ، أو **غير موجودة على الاطلاق** » .

ومن بين هذه الاتجاهات الفلسفية الثلاثةناصر الباحث أولها مقدراً أنه « لا توجد حرية مطلقة للارادة فى أى دولة من الدول ، لأى فردمن الأفراد سواء كان حاكماً أو محكوماً . فالجميع يخضعون للقانون ، وضرورة خضوع الارادة للقانون ، هو ما يفرضه القانون الطبيعى وما يقرره العقل . فالحماية الحقيقية لحرية الارادة لا تكون الا عن طريق اخضاع كل ارادة لمبادىء العدل وأحكام القانون الطبيعى .. »(٤) .

لذلك كان لنظرية القانون الطبيعى نصيب الأسد فى هذا المقال حيث فصل مقوماتها فى صورتها الأصلية التى وضعها أرسطو « فيلسوف الفلاسفة » مع تركيز الأضواء على عدم الخلط بين « القانون الطبيعى » و « القانون الوضعى » ،لأن فى الفصل بينهما جوهر الحماية لحرية الارادة، بينما يؤدى الخلط بينهما الى عكس ذلك تماماً ،وهذا هو « الانحراف » الذى أصاب النظرية فيما بعد (والذى دحضه المقال) سواء على يد هوبز (عندما اعتبر « عقل الدولة أو المشرع » هو مصدر القانون الطبيعى ، ومن ثم اطلقت ارادة الحاكم دون قيد) أو على يد هيجل (اذ رأى أن الدولة انما هى تجسيد للالوهية على الأرض وأوجب بالتالى عبادتها وبرر استبدادها – فى الداخل وفى الخارج – ومهد الطريق للفاشية والنازية وما اليهما) .

واذا خلصنا نظرية القانون الطبيعى من هذا الانحراف نجد المقال يتابع ما مرت به من تطورات لاحقة بدءاً بما سماه « **تعبيراً حديثاً** »عنها من خلال نظرية العقد الاجتماعى (التى سبق اليها أفلاطون ثم تطورت تباعاً لدى هوبز ولوك وروسو) ونظرية سلطان الارادة (فى فلسفة كانت) . ثم ما تلا ذلك من مسيرة لهذه النظرية فى خضم الفلسفات المعاصرة (كفلسفة الحياة وفلسفة الجوهر ، وفلسفة الوجودية بشعبتيها المؤمنة والملحدة وغيرها) حتى صار موقفها فى القرن العشرين على نحو ما استظهره المقال من أن نظرية القانون الطبيعى « **تحتل مكان الصدارة حتى الآن فى القانون الحديث** » .

أما الاتجاهان الآخران فى شأن حرية الارادة (وهما الاتجاه القائل بالحرية المطلقة لها ، والاتجاه العكسى نحو انكار هذه الارادة أصلاً) فقد اقتضى المقام تناولهما بالايجاز الملائم ، بدءاً بفلسفة نيتشه (أو نظرية ارادة القوة) القائمة على أساس أنه ليست هناك حقيقة فى الحياة سوى ارادة الانسان ، ارادة مطلقة متحررة من كل قيد أخلاقى أودينى ، وليس يخفى أن هذا الأطلاق يحمل معول « اهدار تلك الارادة وتحطيمها بدرجة تفوق كل تصور » ، وانتهاءً بالفلسفات المنكرة للارادة متمثلةً فى مذهب الشك بزعامة باسكال ، ومذهب المادية التاريخية بزعامة ماركس وانجلز .

---

(٤) من مظاهر هذه « الاخلاقية » المزعومة للارادة القول باطلاق « الحق » باعتباره – وفقاً للرأى الرجح – قدرة ارادية ، ولذلك قيل : « ان الحق ، مطلقاً من كل قيد ، لم يكن الا صورة مصطنعة او مجرد اسطورة ، فالحق المطلق لم يوجد ابداً ولا يصح التفكير فيه ، اذ ان وجوده يعنى عدم وجود القانون ، بل عدم الحق ذاته » . (ظ . عبد الحى حجازى ، المدخل لدراسة العلوم القانونية ، – الحق – ، مطبوعات جامعة الكويت ، سنة ١٩٧٠ ، ص ٤٣ وما بعدها ، والمراجع التى اشار اليها) .

وبعد هذه السبحات الفلسفية ــ كراً وفراً ــ استطاع الباحث أن يقرر باطمئنان ، فى ختام البحث رجحان مبــدأ « **تقييد الارادة** » قائلاً : « فلتخضع ارادة الانسان للعدل والعقل ، **فهذا** هو الطريق الوحيد الى حريتها الحقيقية » .

وهذا القول الذى ننتهى اليه حديثاً ، يتجاوب تماماً مع ذلك القول الذى بدأ به ارسطو قديماً عندما قال : « **اذا كان الانسان الذى بلغ كماله الخاص كله هو أول الحيوانات ، فانه حقاً آخرها ايضاً متى حيى بلا قوانين وبلا عدل** »(٥) .

●●●

قواعد الدين والأخلاق تكمل مهمة القانون فى ضبط حياة المجتمع :

ليس مقتضى ما سبق من ربط حتمى بين القانون والمجتمع أن القانون يحتكر مهمة تنظيم السلوك وحكم الروابط كافة فى الجماعة ، فالقانون يقف فقط عند تنظيم علاقات الانسان مع غيره من الناس (ولا يجاوز ذلك الى علاقة الانسان بربه أو الى علاقته بنفسه أو بضميره ، الا على سبيل الاستثناء) . على أن **القواعد القانونيــة** لا تغطى كل صور علاقة الانسان بغيره من الناس فى الجماعة وانما تحكم قدراً منها فقط ، وبنــاء على ذلك نجد ــ من وراء القانون ــ قواعد الدين والأخلاق واصول المجاملات لتحكم سائر العلاقات التى لم يتناولها القانون ، ولكن باسلوب يختلف عن اسلوب القانون من حيث الجزاء ، فجزاء قواعد القانون مادى وضعى يكفل احترام تلك القواعد ، ولو اقتضى الأمر الالتجاء الى المحاكم واستعمال القوة الجبرية التى بيد السلطة العامة (٦) .

ولئن كان الرباط وثيقاً حتماً بين مختلف هذه القواعد (القانونية وغيرها) ــ اذ جميعها تستلهم العدل وأحكام القانون الطبيعى من جهة ، وهدفها جميعاً كذلك هو خير المجتمع وسعادته ــ الا أن التلازم غير حتمى بين القانون وغيره مــن القواعد وبذلك أمكن ــ على سبيل الاستثناء ــ أن تتعارض أحكام القانون مع أحكام الدين أو الأخلاق ، مثال ذلــك تنظيم القانون للمعاملات الربوية أو للبغاء الرسمى ، حيث يأبى الدين ذلك والأخلاق . ولئن كان القاضى ملزماً فى مثل هذه الحالات بتطبيق القانــون الوضــعى ، وكانت المسئولية الدينية والأخلاقية تنصب أصلاً على المشرع الذى ابتدع القانون اللادينى أو اللاأخلاقى ، الا أن الأمر يدق جداً فى بعض الحالات لعل أهمها وأكثرها شغلاً لبال الباحثين والدينيين والاجتماعيين حالة تعارض دوافع الأخلاق والشفقة مع قانون العقوبات أو الجزاء ، وبصدد جريمة هى أخطر الجرائم ، الا وهى **القتل** وذلــك فيمــا يسمى « بقتل المرحمة » أو « القتل بدافع الشفقة » . هنا تقف المعانى الانسانية والأخلاقية وجهاً لوجه ضد نص القانون ، جاهدة أن تعطل حكمه وتخلص رقبة القاتل بل ولتقرر انه « **غير مذنب** » .

---

(٥) ارسطوطاليس ، تعريب احمد لطفى السـيد ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٦) ونشير هنا فقط الى تشكك البعض فى اشتاط هذا الجزاء « المادى » كركن فى القاعدة القانونية ، وهو تشكك يخفف ــ على الأقل ــ من حدة تشكك آخرين فى توفر صفة « القاعدة القانونية » لقواعد القانون الدستورى والقانون الدولى العام ، وانى منهم .

هذه المعضلة القانونية ، الدينية ، الأخلاقية،هي موضوع المقال المنشور فى هذا العدد للدكتور عبد الوهاب حومد ، وفيه بيان لأهم الوقائع التىحدثت فى العالم من هذا القبيل،على تنوع صورها وتباين ملابساتها ، ومع بيان ما انتهى اليه القضاءفى كل منها . ثم عقب الدكتور على ذلك بالمعركة الجدلية الحادة التى نشبت — ولا تزال — بينانصار التبرئة وأنصار الادانة فى هذا النوع من القتل ، وقد غطى هذا الجدل مختلف النواحىالدينية والأخلاقية والطبية والقانونية للمشكلة ، كما تناول حكم الحالات التى يقع فيها القتل برضاء المجنى عليه (وربما بتوسله) أو بموافقة ذويه ورجائهم . ولست أشك فى أن سيكون لكل قارىء للمقال موقف خاص لا يخلو من شىء من « الحيرة » بين عامل الكره للاجرام وعامل الرحمةوالشفقة .. فليس الامر فى تقديرى تعارضاً بين رايين بقدر ما هو صراع بين عاطفتين .

ولئن كان « القتل بدافع الشفقة » قد حيرالكاتب والقارىء فى المقال السابق ، فان مشكلة « الاجرام » عموماً — فيما وراء تلك الحالةالخاصة ومثيلاتها — تعتبر مشكلة خطيرة كأكثر ما يكون الخطر على المجتمع . وهو خطر ظل يتزايد ويتنوع منذ سن قابيل سنة الاجرام بقتل أخيه هابيل وسيظل الأمر فى تطوره هذا — جريمة وعقاباً — تبعاً لتطور الجماعات المتواصل . وكما أن الغرائز هى المحرك لكل عدوان ، فهى ايضاً المحرك لكل دفاع فى مواجهة هذا العدوان ، سواء اكان هذا «الدفاع الشرعى » صادراً من المعتدى عليه أم من قبـل المجتمع الذى ينتمى اليه ذلك الفرد ، وبذلك يرتد الى الغرائز كل من العدوان، والدفاع الفردى، والدفاع الاجتماعى ضده .

فما هو موقف القانون من هذه المشكلة الاجتماعيةالخطيرة الشان .. ؟

تناول هذا الموضوع بالبحث — من الناحيتين العامة والعربية — الدكتور حسن المرصفاوى فى مقاله بهذا العدد وعنوانه « الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة ووضعه فى المجتمع العربى » . وقد مهد للموضوع بكلمة عن تزايد الاجرام مع الزمن وتنوع الجريمة، وبكلمة اخرى عن الغرائز باعتبارها منشأ الاجرام ، ومنشأ حق « الدفاع الاجتماعى » ضد الجريمة .

ولما كانت الجريمة — على حد تعبير الباحث — ظاهرة اجتماعيةمتطورة بتطور المجتمعات ، وهى بهذا تحتاج الى تقصى أسبابها فى سـبيل مكافحتها وتدعو — فضلاً عن مجازاة المجرم — الى محاولة اصلاحه وتقويمه بغية اعادته الى الجماعة ، كان لزامـاً أن يتنـاول المقـال أولاً — وبالتفصيل المناسب — تطور الفكر الفلسفى بالنسبة الى العقاب عبر العصور (عصر الانتقام الفردى ، فعصر الانتقام الالهى والانتقام العام ، ثم العصر الانسانى ، فالعصر الحديث) . ومن خلال هـذه المسيرة عـرض لفكرتى « الاختيار والجبر » كأساس للمسئولية الجنائية ، فان كانت الاولى كان أساس العقاب هو المسئولية الأدبية أو الأخلاقية وكان طابعه القسوة . أما ان كانت فكرة الجبر فقد اصبح أساس العقاب هو دفاع المجتمع عن نفسه ضد الأفعال الضارة بكيانه مع الاهتمام باصـلاح الجانى . كما عرض فى مرحلة العصر الحديث للمدرسة التقليدية (بصورتيها الاولى ، والثانية أو الجديدة) فالمدرسة الوضعية، ثم اختار للبحث بعضاً من المذاهب التوفيقية أو المدارس الوسيطة .

وفى ضوء نتائج هذا العرض التاريخى دلف الى « الدفاع الاجتماعى » ذاته مشيراً الى الآراء الرائدة بصدده ومؤثراً منها ـ هنا ـ بالدراسة رأى « مارك انسل » (قائد حركة الدفاع الاجتماعى الحديث ضد الجريمة) مع بيان صدى سياسة الدفاع الاجتماعى فى التشريعات الحديثة. ومن بعد ذلك أتم البحث بالكلام عن « **الدفاع الاجتماعى والمجتمع العربى** » ، ثم بخاتمة أجملت مضمون المقال . وضمنها خمسة بنود ، وجد فيها السبيل الى مكافحة الاجرام عندنا ، على أن « **يجرى تطبيقها كلياً أو جزئياً وفقاً للظروف الخاصة بكل مجتمع من المجتمعات العربية** » .

• • •

القانون وشؤون المجتمع الاقتصادية :

اذا كان القانون من المجتمع على ما رأينا من تلازم واهمية واحاطة ، فان فى مقدمة الامور الأساسية التى يعالجها القانون فى المجتمع الشئون الاقتصادية ، واذا صح القول بأن القانون بكل ذلك : « **يقوم فى المجتمع بنفس دور الأعصاب فى الجهاز العضوى** » ، فانه لا يقل صحة القول بأن للثروة (وهى العمود الفقرى للاقتصاد ، انتاجاً وتداولاً وتوزيعاً) أصداءها فى مختلف فروع القانون ، بل ولا تكاد تخلو من أصدائها جزئيات كل فرع . كذلك لا يخفى عمق تأثر القواعد القانونية بالاعتبارات الاقتصادية ، وعمق تأثير القانون فى التطورات الاقتصادية . ويكفى أن ينظر الانسان الى التغييرات الجذرية التى عمت فلسفة القانون واتجاهاته نتيجة للفلسفة الاقتصادية الماركسية فى الدول الاشتراكية من جهة ، وان ينظر من جهة اخرى الى الدور الخطير الذى تؤديه القوانين فى دول المعسكر الغربى لمقاومة زحف الايديولوجية الاقتصادية الاشتراكية ، ولقد حدا عمق هذا التفاعل **الى التساؤل عما اذا كانت الاعتبارات الاقتصادية هى التى تحكم وتحدد القواعد القانونية ، أم ـ على العكس ـ يخضع علم الاقتصاد لارادة القانون .. ؟**

بهذه المعانى بدأ الدكتور حازم الببلاوى مقاله المنشور فى هذا العدد وعنوانه « **الحقائق الاقتصادية والفن القانونى** » دون أن يسهب فى بحث هذه النواحى الفلسفية المجردة ، على حساب الحقائق الاقتصادية ، التى يستهدف التوسع فى بحثها بالذات . ولهذا انتهى فى المقدمة الى تلك النتيجة العامة وهى : « أن هناك علاقة تأثير متبادل بين القانون والاقتصاد ، وأية محاولة لبيان مدى الأهمية النسبية فى هذه العلاقة المتبادلة أو لتحديد علاقة السببية ، انما هى محاولة لا تخلو من كثير من التحكم ، على اقل تقدير » .

أما فى تحدثه بعد ذلك عن « **حقائق الحياة الاقتصادية** » الأساسية ، ومدى تطور الفن القانونى وخلقه تصورات قانونية لمجاراة هذه الحقائق ، فقد تخير منها مجموعة بالغة الدقة والأهمية وهى :

ـ تعدد الوحدات الاقتصادية ـ ظاهرة التبادل ـ الحق العينى .

ـ الامتداد (أو البعد) الزمنى للكميات الاقتصادية ـ التمويل ـ الحق الشخصى (او الالتزام) .

ــ الشخصية القانونية (وظاهرة عدم القابلية للانقسام فى الحياة الاقتصادية) .

ــ الترابط الاقتصادى والسيطرة الاقتصادية .

ــ قوانين الأعداد الكبيرة ــ التوزيع الاحصائى للظواهر .

ــ الانتاج غير المباشر ــ فكرة المسئولية .

ــ الرشادة الاقتصادية ــ الاستقرار القانونى .

ــ الادارة الاقتصادية ــ العقد والسلطة .

وقد استظهر بهذه الدراسة المستفيضة كيف ان « **التصورات القانونية قد ادت خدمة هائلة للحياة الاقتصادية ذاتها** » ، ولذلك عاد فى خاتمة المقال الى توكيد ما قرره فى مطلعه من أن « التأثير بين القانون والاقتصاد متبادل » بحيث لا يستساغ القول بوجود « خضوع » أو « سيطرة » من أى من الجانبين ازاء الآخر .

●●●

تعدد المجتمعات التى ينظم القانون علاقاتها :

عنيت المقالات السابق ذكرها بالمجتمع « **الوطنى** » بصفة خاصة ، اى داخل الدولة الواحدة . وهذه ليست الصورة الوحيدة للمجتمع . فهناك من فوق المجتمعات الوطنية العديدة « المجتمع العالمى » وفيه يؤوى عملية حكم العلاقات والتنظيمات الدولية ، فرع القانون الخارجى ، القانون الدولى العام ، (بصرف النظر ــ هنا ــ عن الخلاف حول خلع الصفة القانونية على قواعده لعدم توفر عنصر الجزاء المادى اللازم لكفالة احترامها حتى الآن) .

ومن الواضح أن اخطر مشكلة عانى ويعانى منها « المجتمع الدولى » هى مشكلة « الحرب والسلام » . ولقد خصها الدكتور اسماعيل صبرى مقلد بمقال فى هذا العدد باسم « الأمن الجماعى وازمة السلام العالمى » .

ولما كانت نظم « الأمن الجماعى » تمثل خطوة متقدمة فى مسيرة الفكر والسعى الى ايجاد وسيلة لمقاومة « شريعة الغاب » ومنع العدوان فى المجال الدولى ، فقد اقتضى الأمر التعرض لما سبق مرحلة « الأمن الجماعى » من محاولات وجهود وافكار ، وقد تمثل ذلك فيما يسمى « **سياسة توازن القوى** » ، التى عرفت وعاشت سحابة ثلاثة قرون حتى أوائل القرن العشرين ، وثبت فشلها بالكامل فى تحقيق الأهداف المنشودة ومنع العدوان .

وهنا ظهر للوجود التنظيم الخاص « بالأمن الجماعى » ، وتمثل أولا ــ عقب الحرب العالمية الاولى ــ فى « عصبة الامم » وثانياً ــ بعد الحرب العالمية الثانية ــ فى « منظمة الامم المتحدة » .

وقد تابع المقال الخطوات التى تمت باسم « الأمن الجماعى » فى ظل كل من الهيئتين المذكورتين ، فكراً وتطبيقاً ، وتخير من واقع الحياة الدولية بعضاً من أهم المجالات التى امتحنت فيها التجربة ، وخاصة تدخل الامم المتحدة العسكرى فى الكونغو سنة ١٩٦٠ ،

وارسال قوة دولية الى قبرص ابتداء من مارس سنة ١٩٦٤ ، وتمويل العديد من عمليات حفظ السلام فى العالم ، وتدخلها فى ازمة الشرق الأوسط (سنة ١٩٥٦ ثم سنة ١٩٦٧) .

وفى عملية تقييم ختامية لنظرية « الأمن الجماعى » انتهى الباحث الى عدة أسباب وصعوبات حالت دون بلوغ الهدف المرجو حتى الآن ، بل وتكاتفت لتجعل المنظمة الدولية الحالية « فى عجز عن تحمل مسئولياتها نحو حفظ السلام والأمن الدوليين » ومن هذه الأسباب استعمال حق الفيتو فى مجلس الأمن . وقد اشار بحق الى أن ذلك الوضع قد « حدا بكثير من الدول الى اقامة ترتيبات أمن خاصة بها خارج نطاق الامم المتحدة » كما أكد ــ بحق كذلك ــ « أن فشل الأمن الجماعى سيعنى استمرار الصراع ، وتجدد العدوان ، وتفاقم التوترات الدولية ، على نحو قد يدفع العالم الى كارثة حرب عامة ... قال خروشوف فى وصفها : ان الأحياء فيها سيحسدون الأموات ... » .

●●●

واخيراً هنالك « مجتمع دولى » من نوع خاص ، (ولعلنا نستطيع القول انه « مجتمع على الورق ») ، ونعنى بذلك ــ تجوزاً ــ مجتمع أبناء الدول المختلفة اذا ما دخلوا فى علاقات تجاوز العناصر الوطنية المعتادة فيدخل فيها بذلك « **عنصر أجنبى** » (٧) ، وهنا يكون المجال للقانون الدولى الخاص ، وتكون الصدارة بين موضوعات هذا القانون لما يسمى « قواعد الاسناد » ، وهى القواعد التى ترشد الى القانون الواجب التطبيق من بين القوانين الدولية التى تتنازع حكم العلاقة ذات العنصر الأجنبى .

هذه المشكلة هى موضوع مقال « **القانون والحياة الخاصة الدولية** » الوارد فى هذا العدد للدكتور هشام على صادق .

وقد عمد الباحث ــ بعد شرح العناصر الرئيسية للموضوع ــ الى تحديد نطاق اعمال قواعد الاسناد والى القاء الضوء على الملامح الرئيسية لتطورها التاريخى ، ثم انتقل الى بيان « طابع قاعدة الاسناد ، وعناصرها ، وتفسيرها » والى تطبيق القانون الأجنبى وموانع تطبيقه (بمقتضى النظام العام أو بسبب الغش نحو القانون) .

●●●

بهذه الجولات العديدة بين زوايا علاقة « القانون بالمجتمع » ارجو ان يسهم هذا العدد من مجلة « عالم الفكر » فى اشباع رغبة القراء فى سبر بعض اغوار هذا الموضوع الفنى التخصصى أصلاً ، والا يكون قد بلغ من هذه الأغوار ما قد يشق على غير المتخصصين . والله ولى التوفيق .

★★★

(٧) وذلك بان تجاوز العلاقة القانونية دائرة أبناء الوطن الواحد او نطاق الاقليم الوطنى ، او بان يتسرب العنصر الاجنبى الى موضوع العلاقة او الى الواقعة المنشئة لها .

عبدالوهاب حومد *

القتل بدافع الشفقة

عرض الموضوع :

القتل فى مفهوم الجزائيين ، هو ازهاق روح انسان حي ، بقصد او بخطأ . والمقصود بالانسان الحي ، المخلوق الذى برز اى جزء منه الى الخارج وان لم يكن قد تنفس ، أو ولد ولادة تامة (١) . وهذا التعريف ، يخرج حالات اسقاط الأجنة ، التى تتكون من تلقيح البويضة ، حتى تتم الولادة الطبيعية . وقد نصت المادة ١٥٥ من قانون الجزاء الكويتي على أنه : « يعتبر المولود انساناً يمكن قتله متى نزل حياً من بطن امه ، سواء فى ذلك تنفس أو لم يتنفس ، وسواء أكانت الدورة الدموية مستقلة فيه أم لم تكن ، وسواء كان حبل سرته قد قطع أو لم يقطع » .

---

* الاستاذ الدكتور عبد الوهاب حومد استاذ القانون الجزائي بجامعة الكويت حاليا ، كان استاذا لكرسى مادة القانون الجزائي والاجراءات الجزائية بجامعة دمشق ، كما شغل وزارات العدل والمعارف والمالية فى الجمهورية السورية وفى حكومة الجمهورية العربية المتحدة . وكان أحد الاعضاء الثلاثة الذين وضعوا قانون العقوبات السورى وقانون اصول المحاكمات الجزائية . من مؤلفاته : الحقوق الجزائية العامة ، الاجرام السياسى ، وشرح قانون الجزاء الكويتى (القسم العام) (تحت الطبع) .

(١) التفسير الثالث للمادة ٢٤٦ من قانون العقوبات السودانى .

وقد فرق القانون الجزائى فى العقاب بين القتل بأنواعه ، وبين الاجهاض ، أو قتل الوليد ، كما نظر نظرة خاصة الى الانتحار ، فلم يعاقب فاعله ، ولكنه عاقب الشريك اذا مات الفاعل . وكثير من العلماء اليوم ، يدعون الى التساهل فى معاقبة الاجهاض ، بسبب انفجار السكان ، وتعقد الحياة الاقتصادية والاجتماعية . حتى ان المؤتمر الدولي التاسع لقانون العقوبات ، الذى انعقد فى لاهاى فى صيف ١٩٦٤ ، أصدر توصية شهيرة ، قال فيها : « يجب الاكثار من عدد الحالات التى يباح فيها الاجهاض فى الدول التى تعاقب عليه » . وكثيرة هى الشعارات التى تنادى: « تحديد النسل أو الفناء » .

وقد حرمت الديانات القتل . قال تعالى :« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » ، وقال تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » ، ولذلك يقتل العالم بالجاهل والشريف بالوضيع والعاقل بالمجنون ، والبالغ بالصبى ، والذكر بالأنثى والحر بالعبد والمسلم بالذمى (٢) .

وعاقبت القوانين الوضعية على القتل ، ولكنها نوعت المعاقبة : **ففى قانون الجزاء الكويتى** الصادر سنة ١٩٦٠ ، القتل مع سبق الاصرار أو الترصد معاقب بالاعدام (المادة ١٥٠) والقتل **العمد ، المجرد عن هذين الظرفين المشددين ، يعاقب بالحبس المؤبد (المادة ١٤٩) ، والقتل** الذى ينجم عن جرح او ضرب ، دون نية ازهاق الروح ، **يعاقب بالحبس مدة لا تجاوز عشر سنوات** (المادة ١٥٢) . والقتل الناجم عن خطأ يرتكبه الفاعل ، يعاقب بالحبس مدة لا تجاوز ثلاث **سنوات (المادة ١٥٤) . وقد تضاف الغرامة** الى هذه العقوبات .

وقد ذكر القانون الكويتى حالتين اخريين من القتل ، أخذ فيهما بالدافع الذى دفع الفاعل الى القتل ، وهما :

حالة الزوج الذى يفاجىء زوجته متلبسة بالزنا ، فيقتلها فى الحال ، أو يقتل شريكها او كليهما . وعقوبة الزوج لا تجاوز ثلاث سنوات فى القانون الكويتي (المادة ١٥٤) ، مع انه يعفى فى قوانين عربية اخرى ، كالقانون السورى .

والحالة الثانية ، حالة المراة التى حملت سفاحاً ، فقتلت وليدها ، فور ولادته دفعاً للعار ، فان عقوبتها لا تجاوز خمس سنوات (المادة ١٥٩ كويتى) .

وهذه حالات من القتل لا ينازع فيها احد . بل أن هناك ميلاً الى تشديد عقوبة القتل الخطأ ، بسبب ازديادها المفرط ، الناشىء عن رعونة وطيش بعض سائقى السيارات ، كما ان هناك دعوة واسعة الى الغاء عقوبة الاعدام أصلاً .

والى جانب حالات المعاقبة هذه ، توجد حالات من القتل لا يعاقب عليها القانون ، وهى :

١ ـ القتل تنفيذاً لحكم صادر بالاعدام . ٢ ـ **والقتل فى حالة الدفاع الشرعى .**
٣ ـ والقتل فى حالة الضرورة . ٤ ـ والقتل فى حالة الحرب .

---

(٢) الكاسانى بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع ج ٧ ص ٢٣٧ .

وهذه حالات لا خلاف عليها أيضاً ، وقدقبلت قوانين الجزاء بعضها بصورة صريحة ، كما قبلت الأعراف الدولية ، بعضها الآخر .

ولكن توجد حالة للقتل ، يرتكبها الفاعلبدافع من شـفقة ، وهذه هى التى تشـغل بال الفقهاء والقضاء على السواء ، فى أيامنا هذه .

والسؤال المطروح على الضمير العام ، هو : اذا يئس شخص من شفاء والدته ، المصابة بداء عضال لا يرجى برؤه ، واطلق عليها النار ، أو دس لها السم ، تخليصاً لها من آلامها، واستجابة لتوسلاتها ، فهل يُعتبر قاتلاً تطبق عليه نصوص جريمة القتل ؟

وتوسيعاً للموضـوع ، اذا ادرك **الطبيب**الذى يعالج مريضاً انه لم يعد له أمل فى انقاذه ، فهل يُعاقب اذا انهى حياتـه ، تخليصـاً له من **آلامه ؟**

هذا هو موضوع هذه الدراسة .

●●●

(١) تعريف قتل المرحمة :

ان أول ما يجب ان نبدأ به ، **هو تعريف هذاالسلوك .** فالفرنسيون يسمونه **L'euthanasie** ، والانكليز يدعونه **Euthanasia** . والكلمة مركبة من كلمتين ـ كما جاء فى معجم لاروس ـ **eu** ومعناها **الطيب** و **Thanatos** ومعناها **المـوت ، فالتعبير يعنى لغوياً المـوت الطيب ، أو الموت الهـادىء ، بدون آلام .** وهـو يعنى قانوناً فعلاً ايجابياً أوسـلبياً ، ينهى آلام مريض لا يرجى شـفاؤه ، بالقضاء عليه رحمـة به (ولذلك سُـمىَّ قتلهالمرحمة) .

وقد عرفه LTTRE فى معجمه ، كما يلى :

« الاوتانازيا ظاهـرة لا تتضمن شـيئاًاستثنائياً : فهى الموت الطيب ، هى اطفاء شعلة الحياة بصورة سريعة أو بطيئة ، دون آلام . هىنهاية الشيوخ الذين ينطفئون ، وهى موت كثير غيرهم ، ممن اصيبوا باصابات تستهلكهم ببطء ، فى أيام أو ساعات ، ثم هى الموت الفجائى » .

وعلى هذا الأساس ، يتحدد الموضوع ، وهوهل يحق للطبيب ، أو لأى شخص آخر ، أن يقتل انساناً بصورة عمدية ، **لكى ينهى آلامه ؟** وبتعبير آخر ، هل يمكن قانوناً تبرير جناية القتل التى يكون ضحيتها مريض لا يؤمل شفاؤه ، لمساعدته **على انهاء آلامه ، بعد أن يئس منه الطب ، وترك** لنفسه فى حالة فظيعة من الانهيار ، اشفاقاً عليه ؟هل هذا القتل جناية ؟ هل هو جناية مبررة ؟ أم هو أرقى مراتب الاحسان ، كما يقـول الدكتورRegnault ؟

تزايد حالات قتل المرحمة :

ان ما حرك هذا الموضوع فى هذه الأيام ، هو تزايد الحالات العلمية ، بحيث أصبحتقييم الحياة نفسها مطروحاً على ضمائر الناس .

وانه لأمر محقق وأكيد ، ان قيمة الانسان ، فيما مضى من الزمن القديم ، كانت تقاس بمقدار

ما يقدمه لمجتمعه الصغير من خدمات عامة واقتصادية . فقد كان يشارك فى الغزو ، وفى الدفاع عن القبيلة ، كما كان يسهم فى الصيد وفى كسب الرزق ورعي القطيع . ثم جاءت الأديان السماوية ، فرفعت قدر الانسان ، وأمرت باحترام حياته ، واعتبرت كل عدوان عليها ، معصية كبيرة ، وعززت هذا الاتجاه ، المذاهب الفلسفية التى قامت فى القرون الأخيرة . ولكن النظرة الى الحياة أخذت تتعرض لشيء من التبديل ، عميق ، حينما عمت موجة الاستعمار ، واندلعت نيران الانظمة الدكتاتورية ، وعاشت البشرية ، تحت كابوس حربين عالميتين رهيبتين ، قتل خلالهما عشرات الملايين من الناس ، وشرد عشرات الملايين غيرهم من الأطفال والنساء والشيوخ ، واقيمت معسكرات الابادة ، والقيت قنبلتان ذريتان على اليابان المنكسرة ، دون مبرر ، فأبادتا أعداداً ضخمة من البشر الأبرياء ، ثم دخلت شعوب كثيرة من شعوب العالم المتخلفة فى جحيم الانقلابات العسكرية ، فتعرضت الكرامات الفردية لامتحانات خطيرة ، وسفكت الدماء غزيرة، وغصت السجون بنزلائها ، دون حاجة أو مبرر قانونى ، وكانت النتيجة الحتمية ، اهتزاز قيمة الحياة الانسانية وانهيار مفاهيم الكرامة . ومن مظاهر هذه الانهيار ، أن دفن الموتى ، بعد ان كان يتم فى احتفالات كبرى ، أصبح يتم فى كثير من البساطة ، وأن فترات الحزن اخذت تتقلص فى أضيق حدودها ، بل ان مما يسترعى الانتباه ان مجتمعاتنا العربية تشهد ظاهرتين خطيرتين ، الاولى تزايد جرائم القتل ، وخاصة القتل الذى يتم بوساطة السيارات الطائشة لاستهتار اصحابها بأرواح الآخرين وتذكر الاحصاءات أن ١٠٠ الف شخص يقتلون كل سنة فى العالم فى حوادث الطرق : يقابل كل قتيل ما بين ١٠ الى ١٥ جريحاً خطيراً . وهذه الأرقام تجعل حوادث الطرق تأتى فى المرتبة الثالثة ، بين الأوبئة التى تهدد حياة الناس (٣) . والثانية كثرة الانتحار .

لقد كان الانتحار جريمة معاقباً عليها فيما مضى ، حتى ان قانون فرنسا الشهير الصادر عام ١٦٧٠ كان ينظم اصول ملاحقة الذين ينتحرون بعد موتهم ، وأن البلاد الانجلوسكسونية ، ظلت طويلا ، تلاحق من يحاول الانتحار ، ويفشل فيه . ولكن التعامل المعاصر ، بل والتشريع نفسه ، اخذ يخرج الانتحار من نطاق القانون الجزائى . وتشير الاحصاءات ، الى أن نسبة المنتحرين ، كانت عام ١٩٦٤ بين كل ١٠٠ الف من السكان ، كما يلى :

فى الولايات المتحدة ٨ر١٠ ، وفى كندا ٢ر٨ ، وفى النمسا ٢ر١٥ وفى المانيا الغربية ٢ر١٩ وفى هولندا ٥ر٦ وفى بلجيكا ١٤ ، وأن هذه النسبة فى اليابان ، وصلت عام ١٩٦٠ الى ١ر٢٣ ، وربما ساعدت على ذلك معتقدات سياسية أو قومية ، فى هذا البلد .

ويجب أن نلاحظ أن هذه الاحصاءات ليست دقيقة ، لأن كثيراً من الاسر ، تتستر على اسباب الموت اخفاء للانتحار ، وتجهد فى أن تعزو الوفاة الى أسباب اخرى ، دفعاً للتقولات والاشاعات (٤) .

---

(٣) من مقال للدكتور ملاك جرجس ، مجلة العربي ، نيسان / أبريل ١٩٧٢ ص ٨٥ .

(٤) هذه الاحصاءات ماخوذة من محاضرة للاستاذ Paul Cornil بعنوان Criminalité et deviance ، منشورة فى مجلة العلوم الجنائية عام ١٩٧٠ ص ٢٨٩ . والشريعة الاسلامية تنظر الى المنتحر كآثم ، يحاسب على اثمه ، ويقول الشافعي انه تجب الكفارة فى ماله . اما اذا فشل فى محاولة الانتحار ، فانه يعاقب بالتعزير . (عبدالقادر عودة ، التشريع الجنائى فى الاسلام ج ١ ص ٤٤٦) .

ومما ساعد على الحط من قيمة الحياة الانسانية ، التيارات الشاذة ، التى تغزو الشبيبة المعاصرة ، فى بعض البلاد ، وتحملها على التنكر لكل القيم الاخلاقية والمقدسات ، وتلقى بها فى احضان الجنس الذى لا ضوابط له ، والخمر والمخدرات ، وكلها مظاهر استهتار بالحياة ، وازدراء بالكرامة الانسانية ، ولو رفعت شعارات اعتناق المذاهب الوجودية ، ونسيان الواقع ، والخلاص من القيود الاجتماعية التى يزعمون انها تكبل الحرية وتعيق الانطلاق .

ومن جهة اخرى ، فان تقدم التكنولوجيا المذهل فى جيلنا هذا بهر الانسان ، ومكنته الكيمياء ، والفيزياء والهندسة والطب ، من السيطرة على المادة وتسخيرها لخدمته ، وغزا القمر وحام حول بعض النجوم يستطلع اسرارها ، ويتسلل الى ضمائرها ، فاسكرته النشوة واحس بانه قادر على كل شىء ، فاستهان بالمفاهيم الحياتية ، واستخف بمن هم اضعف منه ، وخرج على القواعد الانسانية المتوارثة ، حتى ان رئيس دولة عظمى ، هو السيد جونسون ، اخذته العزة بالاثم ، فقال يوماً لجمع من الطلبة الأمريكيين : « انتم ابناء امة لا شىء يقف فى سبيل قدرتها الا ارادتها هى » . . . وعبرت دولته عن هذه الفطرسة واستخفافها بحياة الناس ، بمساعدتها فى تشريد شعب بمجموعه من أرضه ، (هو شعب فلسطين) ، والقائه تحت الخيام ، يقاسى من الظلم القوى ، وتنكر الانسان وشدة الأنواء وارهاقها ، مالا عين رات ، ولا اذن سمعت ، وكذلك بضربها شعباً آخر ، هو شعب فيتنام الذى ضربته فى عقر داره لسنوات طويلة ، بمنتهى الشراسة ، وباقصى العنف .

فى هذا الاطار من الوقائع المتشابكة ، تطرح مسالة **الاوتانازيا** على بساط البحث .. وانها لتطرح نفسها بعد سلسلة من القضايا ، لفتت اليها الانظار ، واصبح على رجل القانون أن يتخذ منها موقفاً ان استطاع الى ذلك سبيلاً .

ولنستعرض بايجاز أبرز هذه الوقائع التى وصلت الى علمنا ، توطئة للمناقشة والحكم على هذا الموضوع الدقيق :

١) ففى عام ١٩١٢ ، قتل احد وكلاء النيابة الفرنسيين زوجته المصابة بشلل نصفى ، ناشىء عن اصابة دماغية (Hémiplégique) ، وحين سؤاله عن سبب فعلته ، قال انه قام بواجبه ، تجاه زوجته التى كانت تعانى آلاماً لا تطاق . وقد برأته المحكمة .

٢) وفى عام ١٩٢٥ ، قتلت فتاة تدعى Uminska خطيبها ، الذى كان مصاباً بالسرطان ، واجريت له عملية جراحية ، ونقل دم ، ولكن الآلام التى ظل يعانى منها ، كانت آلاماً لا انسانية ، ولا يمكن أن تحتمل ، فراح يتوسل الى خطيبته بصورة ملحة ، لتنهى آلامه ، فضعفت ارادتها ، وحقنته بكمية كبيرة من المورفين ، ثم ادخلت فوهة مسدس فى فمه ، واطلقت النار فوجد الراحة فى احضان الفتاة . وبرأتها المحكمة .

٣) وفى عام ١٩٣٠ قتل شخص اسمه ريشار كوربيت R. Corbett امه المصابة بالسرطان أيضاً ، وبرأته المحكمة .

٤) وفى عام ١٩٣٢ ، قتل الطبيب Sukow خطيبته ، لانه وجدها مصابة بنوع من السرطان (Carcinome) . وحين شرحت الجثة ، تبين ان الاصابة بسيطة ، فابلغ النيابة بالواقعة ، وانتحر . وقد ثبت أنه قتل اربعين شخصاً مصابين بامراض عضالة ، من باب الرفق بهم .

٥) وفى عام ١٩٤٠ ، ابلغ رئيس بلدية منطقة Orsay قرب باريس وكيل النيابة بوجود ست حالات موت تمت فى ظروف مشبوهة ، كانت اعمار ضحاياها تتراوح بين ٢٧ سنة و ٩٣ سنة . وقد اثبت التحقيق انهم كانوا فى حالة متردية ، لا يمكن فيها نقلهم الى مكان آخر . وانى لاذكر تماماً ذلك الاسبوع الكئيب من حزيران ، حينما احدقت الجيوش الألمانية الغازية بباريس ، من كل جهة ، ووجهت انذاراً الى السلطات الفرنسية بضرورة اعلان المدينة مدينة مفتوحة ، وردت حكومة الجمهورية الفرنسية ، بانها ستدافع عن العاصمة حياً حياً ، وشارعاً شارعاً وبيتاً بيتاً . . عندها انقطع رجاء كل انسان فى البقاء فيها ، وراح يسعى الى النجاة بنفسه ، باية وسيلة متاحة ، على ندرة هذه الوسائل . . وفى هذه الظروف ، اقدمت اربع ممرضات على حقن هؤلاء المرضى بالمورفين والستريكنين والسيدول Sédol انقاذاً لهم من آلامهم وخوفاً عليهم الا يظل احد الى جانبهم يرعاهم بعد الهجرة الجماعية من المدينة وضواحيها . . واعتبرتهن المحكمة مذنبات .

٦) وفى عام ١٩٤٨ ، قتلت السيدة Hildgard Fasan زوجها بسبب اصابته بسرطان الكبد ، وكانت تنوى أن تموت معه . ولكنها انقذت فى اللحظات الأخيرة . وبرأتها محكمة ڤينا .

٧) وفى الولايات المتحدة ، قتلت طالبة تدعى Paigt Carol Ann عام ١٩٤٩ والدها المصاب بالسرطان ، فبرأتها المحكمة .

٨) وبعد سنة من هذه الحادثة اى عام ١٩٥٠ اهتزت المحافل الطبية والقانونية ، بحادثة اخطر ، ارتكبها طبيب يدعى ساندر SANDER من مقاطعة New Hamchire فقد قتل ساندر زوجة احد زملائه ، وابلغت عنه ممرضة ، فأحيل الى القضاء ، وكانت قضيته موضع اهتمام عام ، بسبب انقسام الناس الى مؤيد والى معارض .

كان الدكتور ساندر ، وهو طبيب فى الحادية والأربعين من عمره ، يعالج مريضة ، تدعى السيدة Borroto ، عمرها ٥٩ سنة ، دخلت المستشفى منذ اسابيع عديدة ، لاصابتها بداء السرطان . وقبل موتها بخمسة عشر شهراً ، اجريت لها عملية جراحية ، وارسلت الى بيتها ، ولكنها اعيدت الى المستشفى بعد ذلك ، واظهر الكشف الطبى انها سائرة قدماً نحو نهايتها المحتومة . فقد ذاب لحمها ولم يبق عليها الا العظم والجلد ، وانخفض وزنها من ستين كيلوجراماً الى ٣٥ فقط ، ولم تعد قادرة على أن تأكل شيئاً ، حتى انها كانت تبتلع الماء بصعوبة ، فقرر الأطباء تغذيتها بصورة اصطناعية ، واصبحت الادوية المسكنة ، عاجزة عن تهدئة آلامها ، بسبب اعتياد الجسم عليها . . فكان كل من رآها ، يتمنى فى اعماق نفسه ، لو انطفأت شعلة حياتها الخابية ، تخليصاً لها مما تعانيه .

وذات يوم وكان ذلك فى ١٩٤٩/١٢/٤ ، طلب احد اطباء المستشفى ، وهو الدكتور ساندر ، الى ممرضة أن تهيىء له اداة حقن معقمة ، ووضع فيها عشرة سنتيمترات مكعبة من الهواء ، وحقنها فى ساعد المريضة ، وكرر العملية مرتين او ثلاثاً ، ولم تمض الا دقائق قليلة ، حتى فارقت الحياة جسمها الى الأبد . وابلغ الطبيب اهل المريضة بوفاتها ، ونظم وثيقة تتضمن ان الموت نشأ عن السرطان . غير انه طلب بعد اسبوع الى احدى السكرتيرات ، ان تسجل على ورقة الملاحظات ان المريضة حقنت اربع مرات ، كل مرة بعشرة سنتيمترات مكعبة من الهواء ، فماتت خلال عشر دقائق . وحين سألت السكرتيرة الطبيب عن مفعول الهواء فى الوريد ، قال باختصار : لقد ماتت المريضة موتاً هادئاً . وقد ابلغت السكرتيرة الطبيب مدير المستشفى

بالملاحظة ، فأبلغ على الفور الطبيب الشرعي بالواقعة ، وهذا بدوره ابلغ السلطات القضائية ، فقام « الشريف » واحد معاوني النيابة باستجواب ساندر ، فقال ان زوج المريضة رجاه مراراً ، ان ينهي آلام زوجته ، وكان هو يتألم لآلامها ، فأقدم على انقاذها منها ، واضاف ، بأنها ، عملياً ، ما كان ممكناً أن تعيش اكثر من اسبوع آخر ، ثم ان حالة زوجها كانت تثير في قلبه الشفقة أيضاً ، وانه حين أعلمه بموتها ، قال : الحمد لله ، اني سعيد أنها استراحت ... ولما لاحظ له الشريف : بأنه لا يوجد قانون في الولاية يبيح القتل ولو بدافع الشفقة ، قال الطبيب : اني اعرف ذلك ، وكل الأطباء يعرفون ، ومن المحتمل أن يكون ما عملته مخالفة للقانون ، ولكن ، من وجهة نظر الأخلاق ، لا اظن أن في عملي جريمة .

وقد حبس الطبيب احتياطياً ، يومين ، ثم افرج عنه ، بكفالة مالية قدرها ٢٥٠٠٠ دولار . وقد صرح نقيب الأطباء للصحافة ، ثاني يوم الاعتقال ، بأن مجلس النقابة لا يستطيع ان يتخذ موقفاً من الاتهام الموجه ضد الطبيب ساندر ، لأن العدالة وضعت يدها على القضية .. ولكن بكل راحة ضمير ، يصرح مجلس النقابة بان الدكتور ساندر « رجل كفء ، ويتمتع بصفات اخلاقية عالية .

ولم تقرر المحكمة منع ساندر من مزاولة مهنته ، في انتظار محاكمته . وقد عقدت الجلسة الاولى أمام هيئة المحلفين الكبرى ، لاجراء التحقيق الابتدائي ، يوم ٥ كانون الثاني / يناير / ١٩٥٠ ، فاتهمته هذه الهيئة بارتكابه القتل من الدرجة الاولى ، وهذا الاتهام يعني في هذه الولاية ، الحبس مدى الحياة

وعقدت المحكمة اولى جلساتها ، لمحاكمته ، يوم ٢٠ شباط / فبراير / ١٩٥٠ ، وخصصت للاقتراع على المحلفين . وقد وجهت اعتراضات رد كثيرة من الادعاء والدفاع على السواء ، حتى بلغ عدد الأشخاص الذين تم استدعاؤهم ١٠٦ .

فقد كان الدفاع حريصاً على الاعتراض على الأشخاص الكاثوليك المتدينين ، ظناً منه أن الكنيسة تقف موقفاً معارضاً من الاوتانازيا ، كما أن الاتهام اعترض على عشرة اشخاص ، اعتقد أنهم متحيزون للمتهم . وبعد اقتراع متتابع ، خلال يومين ، أمكن تشكيل هيئة المحلفين من اثنى عشر عضواً أصيلاً ومن عضو آخر احتياطي ، بينهم تسعة من الكاثوليك وأربعة من البروتستانت ، وقد كان القاضي السيد Weskot ، وهو رجل أنضجته التجارب ، في ردائه الأسود يدير الجلسة بوقار وحياد كبيرين .

وبعد تلاوة صك الاتهام ، أعلن المتهم انه غير مذنب ، وشهد عدة شهود . ولكن أثقل الشهادات ، كانت شهادة زوج القتيلة ، اذ قرر بعد اداء القسم ، أنه لم يطلب الى الطبيب أبداً أن ينهي آلام زوجته بقتلها . ولكن الذي خفف من وطأة هذه الشهادة ، شهادة الممرضة النهارية ، التي وجدت بين أوراقها ، ورقة مؤرخة بتاريخ ٤ تشرين الثاني / نوفمبر فيها هذه الملاحظة ، « مريضة لم تعد تشعر بشيء ، جسمها متصلب ، واطرافها باردة » . واضافت أنها دعت أحد أطباء المستشفى لاسعافها ، فوضع السماعة على صدرها ، فلم يسمع نبضات القلب ، وانصرف ، ولكنها مع ذلك شعرت بنفس المريضة الضعيف جداً ، يتردد ببطء ، زائد . وفي هذه اللحظة حضر الدكتور ساندر ، وحقنها بالهواء .

واستمعت المحكمة الى الطبيب الشرعي الذي قام بتشريح الجثة ، فقال ان المريضة كانت مصابة بسرطان المعاء الغليظ ، ثم انتقل الداء الى الكبد والكليتين والى غشاء المعدة ، والغدة الدرقية

والغدة اللنفاوية ، يضاف الى هذه الاصابات ،اصابة اخرى هى الاحتقان الرئوى . غير انه قال ، ان الموت نشأ مباشرة من حقن الهواء ، لأن الهواء يمنع وصول الدم من القلب الى الرئتين ، فتتوقف عضلة القلب ويحدث الموت .

وقد تبنى الدفاع عن المتهم خطة لا تخلو من مغامرة ، لكي يجنبه صدور اى حكم ضده ، وهى الدفع بأن المريضة كانت ميتة حينما حقنها بالهواء . وهذا زعم يناقض اقوال المتهم اثناء التحقيق ، ولكن الدفاع كان يضع كل آماله فى التأثير على المحلفين ، ليحصل منهم على تصريح ينفى جرمية المتهم ، لا سيما وأنه اعترف بأنه ،انما حقنها بناء على رغبة زوجها ، وليس بناء على موافقتها هى ، ومع ذلك فان الزوج انكر هذا الادعاء ...

وتتكون هيئة المحلفين من مواطنين عاديين ،يُختارون بالقرعة ، من قائمة تتضمن عدداً معقولاً من الأشخاص الذين يتمتعون بسمعة طيبة. وانصار هذه المؤسسة يعتبرونها اصدق تمثيلاً للضمير العام من القضاة المحترفين . وينعى عليها خصامها ، أنها من مخلفات الماضى الغابر ، وقد برهنت عن عجز صارخ فى ممارسة مهمتها،بسبب جهل اعضائها بالقانون ، وضعفهم فى مواقف كثيرة .

ولكن الذى نود ان نشير اليه ، بمناسبة هذه القضية ، أن قرارات هيئة المحلفين لا تعلل ، فهى تكتفى بأن تعلن ، باختصار ، بعد المداولة ، ان المتهم الماثل ، مذنب أو غير مذنب . فاذا تمكن الدفاع من التأثير على المحلفين ، وانتزع منهم قراراً بأن موكله غير مذنب ، انتهت القضية ، واعتبر الفاعل بريئاً . وهذا القرار بات ، لا يطعن فيه أمام اية هيئة اخرى ، ولا يجوز الرجوع عنه ، لأى سبب كان . وقد ختم المحامى عن المتهم دفاعه ، بأن ممثل النيابة العامة Attorney General لم يستطع أن يثبت ان الضحية كانت على قيد الحياة ، حين حقنها الطبيب بالهواء ، وان احدى القواعد التى يقوم عليها التشريع الجزائى ، هى القاعدة التى تقرر أن الشك فى صالح المتهم Dulium pro reo ، على الرغم من أن التعامل الطبى لا يلجأ عادة ، الى حقن الموتى بالهواء .. وأنهى مرافعته ، بأنه لا يقيم دفاعه على الاوتانازيا .

وحين لخص القاضى الوقائع للمحلفين ،لخصها باختصار زائد ، وألح بصورة تستلفت النظر على قضية الشك ، وقال لهم :

« اذا وجدتم أن ممثلى الاتهام قد عجزوا عن اقامة دليل قاطع على ان المريضة ، كانت على قيد الحياة حين حقنها المتهم بالهواء ، فانه يتوجب عليكم اعلان براءته من التهمة » .

واختلى المحلفون الاثنا عشر لمدة تزيد قليلاً عن الساعة ، ثم خرجوا بقرار اعلنوا به براءة المتهم . وارتفع فى القاعة تصفيق طويل وهتاف متواصل (٥) .

---

(٥) تنص المادة ٣٥٣ من قانون الاجراءات الجزائية الفرنسى الجديد ، على ان رئيس محكمة الجنايات يتلو النص على المحلفين علنا ، ويجب اصلا ان يكون هذا النص مكتوبا بحروف كبيرة ومعلقا فى غرفة المداولة :

« ان القانون لا يطلب من القضاة ـ وقد كان نص المادة ٣٤٢ السابقة يخص المحلفين وحدهم بهذا التنبيه ـ حسابا عن الطريقة التى اقتنعوا بها ، ولا يفرض عليهم طريقة معينة للحصول على هذه القناعة ... انهم ملزمون بان يسائلوا انفسهم ، فى سكون وخشوع ، واخلاص وجدان ، ما هو الانطباع الذى تركته فى نفوسهم البيانات المعروضة ، ضد المتهم أو لصالحه . والقانون لا يوجب الا الاجابة عن سؤال واحد ، يشتمل على كامل واجباتهم ، وهو : هل كونتم لأنفسكم قناعة شخصية ؟ » .

ولكن انصار الاوتانازيا شعروا بخيبة املمريرة ، لان الحكم ابتعد عن حل هذه المسالة ، حلا مباشراً . ودار حولها دوراناً .

وعلى اثر قرار البراءة تحرك مجلس نقابةالاطباء ، فاقام دعوى مسلكية على الطبيب ساندر « لانه لم يتقيد بالواجبات الاخلاقية التى يفرضهاعليه القانون وقواعد المهنة » ، واصدر بياناً قال فيه :

« أن مجلس نقابة الأطباء يعلن عن استنكارهلكل عملية من شانها انهاء الالام الجسدية ، بالقضاء على الحياة الانسانية ، بما فى ذلك الطريقةالتى تدعى الاوتانازيا ، أو القتل بدافع الشفقة ».

واتخذ المجلس قراراً بشطب اسمه من نقابةمحافظته ، غير أن هذا الشطب لم يدم طويلاً لان حقوقه الكاملة اعيدت اليه بعد قليل .

وبذلك تكون قضية الاوتانازيا قد طرحتعلى الضمائر ، وعلى القواعد القانونية ، دون ان تجد حلا .

٩) واهتزت المحافل الانسانية والقانونيةمرة اخرى ، بمناسبة القضية الثانية ، التى كانت مدينة لييج البلجيكية مسرحاً لها ، بعد احدىعشرة سنة . ونرى مفيداً أن نوجزها فيما يلى :

فى شهر آذار / مارس من عام ١٩٦١ ، تزوجالسيد Vandeput الآنسة Coipel فى مدينة لييج Liége البلجيكية . وبعد فترة قصيرة ، شعرتالزوجة بانهاك جسدى ، أورثها عصبية زائدة ، فوصف لها طبيب الاسرة ، فى شهر تموز / يوليومن نفس السنة ، دواء مسكناً ، لا يعتبره الأطباء مؤذياً ، وهو Le softenon ، فتناولته بانتظامخلال شهرى تموز / يوليو ، وآب / اغسطس . وفى هذه الاثناء حملت ، وولدت طفلة يوم ٢٢ايار / مايو من السنة التالية ، كانت مصابة بتشويه فظيع . وحين عرضوها عليها انهارتوصرخت : « هل تتركون هذه الطفلة تعيش هكذا ؟ » . وكانت امها واختها من هذا الراى ،فالحت النجدة والاخت على الطبيب المعالج ، ويدعى Casters ليساعد هذه الاسرة المنكوبةعلى الخلاص من هذه المأساة البشرية ، فتردد ، ثم كتب وصفة من الجواهر التالية : Luminal, Lamital et seconyl ، وكانت الكمية التى كتبها تفوق ثلاث مرات الكمية المطلوبةللقتل . ويوم عودة الاسرة الى بيتها من العيادة ، دعا الزوج طبيباً صديقاً له ليسجل محضراًبالوفاة ، (هو الطبيب Herpin) . ولكن احد اطباء المستشفى أخبر الشرطة بما تم الاتفاقعليه ، دون أن يذكر اسمه ، فانتقل رجالها الى بيت الاسرة ، ولكن شعلة الحياة كانت قد خبتفى هذه المخلوقة البائسة ،فنظموا محضراً بالواقعة، واحيل المتهمون الى محكمة الجنايات ، التىيهيمن المحلفون فيها علىتقرير المسئولية أو نفيها، حسب قناعتهم الوجدانية ، التى تتركها فىنفوسهم الوقائع المعروضة أمامهم ، وقرر المحلفون براءة جميع المتهمين ، حين اعلنوا انهم غير مذنبين،دون أن يعللوا هذا القرار . وبذلك لم يحلوا ، هم أيضاً ، موضوع الاوتانازيا ، الا بصورة غير مباشرة ، وبقى الموضوع مطروحاً على بساط البحث .

وبعد هاتين القضيتين الشهيرتين ، وقعتعدة قضايا نشير الى اثنتين منها فيما يلى :

١٠) قضية Mireille Gourand التى قتلت طفلها ، بمادة الـ gardinal « لانه كان

مصاباً بفقدان التوازن والصمم والبكم والعمى » . وحين سالها رئيس المحكمة (فى مدينة Chambery الفرنسية) ، لو وجدت نفسك مرة اخرى فى هذاالموقف ، فهل كنت تعاودين ما فعلته ؟ فاجابت على الفور : **أن نعم** (٦) .. **وقد برأتها المحكمة** .

١١) قضية السيدة جاكان التى قتلتزوجها البالغ من العمر ٧٥ سنة ، فى مقاطعة Yonne بموسى حلاقة لأنه كما قالت كان مريضاً ، فاقد الحركة ، ولأنها كانت تخشى أن تموت قبله ، ويبقى فى الحياة وحده ، وليس لهمن يعنى بأمره » . وقد قررت المحكمة وضعها فى مستشفى الأمراض العقلية (٧) .

.وما دامت مسألة القتل بدافع الشفقة ، قداكتست هذا الطابع من الأهمية ، **أولاً** من ناحية تعدد الوقائع وكثرتها ، **وثانياً** من ناحية موقفالقضاء الذى يقرر البراءة ، دوماً تقريباً ، فقد أصبح لزاماً أن نبحث هذا الموضوع ، مستعرضينآراء انصاره وآراء اخصامه ، لعلنا نستثير همم الباحثين به ، حتى اذا عرضت واقعة من هذهالوقائع على قضاء عربى (ولم نسمع حتى الآن بشىء من ذلك قد حدث) كان فى هذه الأبحاث ماينير السبيلللقضاة العرب ، الذين عليهم ان يعللوا احكامهم ، من حيث الموضوع ووقائعه، ومن حيثالأحكام القانونية تعليلاً منطقياً مبنياً على النصوص وروحها ، كما تلزمهم بذلك تشريعاتناالتى لا مكان فيها لمحلفين ، لحسن الحظ .

●●●

(٢) راى انصار قتل الرحمة :

ان الذين يبررون القتل بدافع الشفقة ،يعتمدون على الحجج التالية :

١ ـ كانت بعض النظم القديمة ، التى كانتتحكم سلوك بعض امم العالم القديم واخلاقياتها ، تقبل هذا النوع من القتل . فقد كانت تختبر صلاحية الرجل الهرم للعيش،بحمله على التسلق **على شجرة عالية ، والتشبث بغصن من اغصانها** ،ثم **كان يتصدى للغصن بعض الاقوياء من الشباب** يهزونه بعنف ، فان ظل الشيخ قادراً على البقاءمتشبثاً بالغصن ، اعتبروه أهلاً للحياة ، وان سقط وقضى نحبه ، يكون أمره قد انتهى . وقديكون تعليل ذلك،فى نظرهم،انالظروف الاقتصادية الشديدة ما كانت تسمح بترف ابقاء فم فاغر ،لا ينفع صاحبه فى حرب او سلم ، فكانوا يفضلون تقديم ما كان سيستهلكه من طعام ، الى من هواكثر نفعاً للمجتمع ، الذى كان عرضة لعنف الطبيعة ، وعنف الغزو ، وكانت بعض الشعوبالاخرى تترك العجزة فى مجاهل الصحراء ، يواجهون فيها مصيرهم المحتوم .

٢ ـ بعض الفلاسفة الأقدمين كانوا مننانصارهذا الراى . فقد كتب أفلاطون،فى الكتاب الثالث من مؤلفه الشهير **« الجمهورية »** ما يلى :

« ان على كل مواطنفى دولة متمدينة، واجباً يجب **أن يقوم به ، لأنه لا يحق لأحد أن يقضى** حياته بين الأمراض والأدوية . وعليك يا غلوكونأن تضع قانوناً واجتهاداً ، كما نفهمه نحن ، مؤداه

(٦) Le Monde le 2/12/66.

(٧) Le Monde le 19/11/67.

وجوب تقديم كل عناية للمواطنين ، الأصحاء جسماً وعقلاً ، أما الذين تنقصهم سلامة الأجسام ، فيجب أن يتركوا للموت » .

وفي القرن الثالث عشر ، كان القس الفيلسوف الانجليزي الشهير ، بيكون Bacon (١٢١٤ — ١٢٩٤) من هذا الرأي . واليه تنسب كلمة euthanasie التي كانت تعني « الموت الهادىء او الموت اللذيذ » ، حتى انه لقب « بالطبيب العظيم » . يقول بيكون :

« ان على الأطباء أن يعملوا على اعادة الصحة للمرضى ، وتخفيف آلامهم . ولكن اذا وجدوا أن شفاءهم لا أمل فيه ، ترتب عليهم ان يهيئوا لهم موتاً هادئاً وسهلاً . ان الأطباء لا يزالون يعذبون مرضاهم ، رغم قناعتهم انهم لا يرجون براهم . وفي رايي ، أن عليهم فقط ، في هذه الأحوال ، أن يلطفوا بأيديهم الآلام والنزع » .

ويرى توماس مور Thomas Moore ، في كتابه الـ Utopie (١٥١٦) ، أن على القسس والقضاة ان يحثوا التعساء على الموت .

وفي هذا القرن ، القرن العشرين ، يطالب الدكتور Carrel في كتابه « **الانسان ، هذا المجهول** » باعدام الضعفاء ، والقضاء عليهم بالطرق العلمية .

وقد كان نيتشه من انصار القضاء على المرضى والشواذ ، باعتبارهم جراثيم تعيش لتعيث في المجتمع . وقد اعجب النظام الألماني النازي بهذه الفلسفة ، وطبقها على عدد من المصابين بعاهات جسدية أو عقلية ، صوناً لصفاء العرق الآري .

٣ — وقالوا كذلك : ان الانتحار غير معاقب عليه ، وفي التشريع المصري والفرنسي لا يعاقب أيضاً الشريك في الانتحار (من يحرض المنتحر أو يساعده (٨)) . فاي فرق بين من يقتل نفسه ، أو يطلب من آخر ان يعاونه في ذلك ، أو يقوم بالعمل ؟ أليس عدم العقاب على هذا ، قبولاً بحق الرجل في أن يتصرف بحياته ؟ فاذا كان هذا الحق مقرراً له ، فأية اهمية لوسيلة التنفيذ وهي الشخص الآخر ؟

٤ — منذ الربع الأول من هذا القرن ، قامت في وضح النهار ، حركة تنادي بتقنين هذا النوع من القتل ، بغية اباحته في حالات ، لا يستطيع الطبيب (أو الفرد العادي) مقاومة مشاعره فيها ، تجاه مخلوق فقد كل امل في انقاذ حياته ، ولم تعد تنفع المسكنات في تهدئة آلامه المبرحة ، أو تجاه مخلوق ليس لديه اي امل في أن يحيا حياة انسانية كريمة كسائر الناس ، بسبب تشويهه الفظيع ، وانه سيكون عالة عليهم وعلى المجتمع وعلى نفسه .

وقد قاد هذه الحملة في المانيا ، الفقيه ساندينج Sanding وطبيب الأمراض العقلية Hoche منذ عام ١٩٢٠ ، وتقدم الاستاذ Borchadt بمشروع قانون لاباحة قتل المرضى العقليين ، ولكنه لم يجد طريقه الى الاقرار بسبب ما لقيه من مقاومة . كما قادها في بريطانيا ، اللورد Moyniham أشهر الجراحين البريطانيين ، الذي راس جمعية تشكلت للمطالبة باباحة الاوتانازيا ، وتضم في عضويتها عدداً من رجال السياسة والاطباء ورجال الدين . وقد قدم

---

(٨) الدكتور محمود محمود مصطفى ، شرح قانون العقوبات (القسم العام) ١٩٦٩ ، رقم ٢٤٩ . وستيفاني ولوفاسور ، القانون الجنائي العام ١٩٧١ رقم ٢٥٤ .

اقتراح قانـون لاباحة هذه الحالات من القتل ،ولكن مجلس اللوردات رفضه عام ١٩٣٦ ، واعاد المحاولة مرة اخرى ، اللورد Chorley عام ١٩٥٠ ،باقتـراح تقدم به الى المجلس نفسـه ، وللغاية نفسها . وقد برر طلبه بأن تياراً متزايداً من الراى العام أخذ يتقبل الفكرة . ولكن الحكومة انضمت الى معارضى الاقتراح ففشل .

ويقول الاسـتاذ **ماكسميليان جاكتا** ، اناستفتاء اجرى فى بريطانيا لمعرفة حقيقة مشـاعر الناس فجاءت نتيجته تشـير الى ان ٦٨٪ منالذين استشيروا ، كانوا الى جانب الاوتانازيا .

٥ ـ وقد القى رجلان من كبار رجال المذهبالبروتسـتانتى ، بثقلهما الى جـانب الحـركة الجديدة ، اولهما **رئيس اساقفة كنتربرى** ، الذىصرح اثناء مناقشة الموضوع فى مجلس اللوردات عام ١٩٣٦ بانـه « لا يعقل أن يعاقب طبيب ، فىهذه الحال ، بل انه لا يجوز توجيه التهمة اليه » ، واعرب **اسـقف برمنجهام** عن راى مماثل ، فىمناقشات ١٩٥٠ ، فى نفس المجلس المذكور ، ولكن رجال دين آخـرين ، مثـل **اسقف يورك** اتخذواموقفاً مخالفاً .

وقد ظهر اتجاه الكنيسة البروتستانتية ،الموالى « للقتل الانسانى » فى سلسلة من الأحكام ، اتخذها المحلفون المنتسبون لهذه الكنيسة ، فىالبلاد الاوربية الشمالية ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث كان الدفاع يحرص على استبعادالمحلفين الكاثوليـك ، من الجلوس على منصـة القضـاء .

بل ان المحلفين الكاثوليك،رغم شبهة تأثرهمبالموقـف الكاثوليكى ، كانـوا يقفون الى جانب المحلفين الآخرين ، فى تقرير عدم المسئولية ، حين يطرح عليهـم رئيس المحكمة السـؤال النهائى : « هل المتهم مذنبام غير مذنب » . وجميع الأحكامالتى وصلت انباؤها الى علمنا ، حتى فى البلاد الكاثوليكية ، كانت تصدر باجماع المحلفين ، بانالمتهم غير مذنب . وهذه الظاهـرة بدت بأجلى وضوح ، فى محكمة لييج فى بلجيكا ، ومحاكمات فرنسا ، التى سبقت الاشارة الى بعضها .

على أن هناك من يعتقد أن التصريح الذىادلى به **البابا بيوس الثانى عشر** بتاريخ ١١ ايلول/سبتمبر ١٩٥٦ ، يعتبر بدء تحولفىموقف الكنيسةالكاثوليكية بالنسبة لهذا الموضوع . فقد قال :

« ان القانون الطبى لا يسـمح أبداً للطبيب أوللمريض ان يطبق الاوتانازيا بصورة مباشرة » . وكرر هذا القول فى خطاب القاه فى ٩ ايلول / سبتمبر ١٩٥٨ ، غير أنه أضاف :

« يجوز للطبيب اعطاء المسـكنات للمريضالمحتضر بعد موافقته بكميـة كافيـة ، **لتخفيف الألم وتعجيلاً للموت** » ، وبتعبير آخر ، اذا لم يكن الموت هو المقصـود مباشرة من اعطاء الدواء المسكن بكمية كبيرة ، وانما المقصود هو تخفيفالألم ، وكانت كمية المسـكن صـالحة لاحداث الموت ، فى نفس الوقت ، فان العمليـة تكـون مشروعة ...

وقد ذكـر قبـلاً أن القس الكاثوليكى Thomas Moore ، كـان من انصـار الاوتانازيا ، المتحمسين . ولقد استرعى انتباهنا قول ادلىبه راهب كاثوليكى (٩) ، فى ندوة عقدت فى جامعة ستراسبورج عـام ١٩٦٢ ، لمناقشـة « دعوىلييج » بعد أن أصر على أن الديانة المسيحية تجعل

---

(٩) Le chanoine Robert, dans : reflexions sur le procés de liège, P.83.

من احترام الحياة الانسانية مبدأ مقدساً مطلقاً . وهو « ان الدولة قد تتعرض لمواقف يشق فيها تطبيق القانون الالهى ، وخاصة حينما تكون العواطف الشاملة مهتاجة ... أو يصطدم حق وواجب أساسيان وهما هنا ، حق الحياة وواجب الشفقة .. » وكان لقس آخر فى الندوة المذكورة، موقف يدعو الى الدهشة ، وهو انه ضد قرار المحلفين ، ولكنه مع البراءة !

٦ - ان الراى العام اخذ يتفهم الغاية الانسانية من اللجوء الى هذه التدابير التى تهدف الى تخفيف آلام مبرحة ، أو انقاذ مولود مشوه تشويهاً فظيعاً من حياة مظلمة ، وبشر لا يرحمون ففى أواخر الثلاثينات ، وجهت ورقة استفتاء الى اطباء نيويورك تتضمن سؤالهم عن رأيهم فى هذا الموضوع . وقد أعرب ٣٧٠٢ منهم عن رأيهم . وكانت نتيجة الاستفتاء أن ثمانين فى المئة يوافقون على الاوتانازيا وعشرين فى المئة يعارضونها . وأرسل مثل هذا السؤال الى رجال الدين البروتستانت فأعربت غالبيتهم عن الموافقة ، وعلل كثيرون منهم اتجاههم ، بأن الاوتانازيا ليست مخالفة للدين ، ولا تستقبحها الأخلاق .

بل ان المواطنين العاديين ، فى أمريكا ، اجابوا فى استفتاء نظمه معهد جالوب Gallup عام ١٩٣٩ ، بنسبة ٤٦٪ بالموافقة عليها ، وطالبوا بسن تشريع ، ينظم قانوناً الحالات التى يجوز فيها اللجوء الى هذا القتل .

وحين أصدر المحلفون فى محكمة لييج ، قرارهم ببراءة المتهمين ، حدثت عاصفة من التصفيق والابتهاج ادهشت جميع المراقبين .

٧ - على النطاق العملى ، يظهر أن الأطباء حين يقفون وجهاً لوجه أمام حالة يعترفون فى أعماق ضميرهم ، بانهم اصبحوا فيها عاجزين عن الشفاء وعن تسكين الآلام ، يقدمون راضين ، على وضع حد لحياة لم يعد لها مكان فى هذه الدنيا .

وقد كتب عدد من الأطباء الى الطبيب ساندر ، يقولون له : لماذا اعلنت عن تصرف ، نحن جميعاً نطبقه فى كل يوم ، دون ان نعلنه ؟ انك سبقت التطور ببضع عشرات من السنين ، يريدون بذلك ، **ان تقنين الاوتانازيا لا بد ان يأتى ، ذات يوم ، مع الزمن ، فيصبح على شىء كبير من المرونة والاباحة .**

٨ - ويقولون اخيراً ، ان القانون لا يعاقب على الجريمة المرتكبة تحت وطأة الاكراه المعنوى ، وهو الذى يشل ارادة الفاعل . أفليس الذى يقف الى جانب شخص عزيز عليه ، وهو يتلوى من آلام شديدة ، ويستغيث به ويستجير ، ليضع حداً لآلامه ، واقعاً تحت هذا القهر الروحى ، المدعم بقناعة راسخة بأن هذه الآلام التى لا تحتمل لن تنفع فى تهدئتها المسكنات ؟

ان القانون لم يحدد طبيعة هذا الاكراه ومصدره ، وكل الذى يشترطه ، هو أن يشل قدرة الانسان على الادراك والارادة ، وهذا واقع فعلاً فى كثير من هذه الحالات .

●●●

(٣) رأى خصوم قتل المرحمة :

ان خصوم هذا القتل ، يستندون الى حججدينية وطبية واخلاقية وقانونية ، نستعرضها بايجاز فيما يلي :

أ) الحجة الدينية : فى الندوة التى عقدت فىستراسبورج ، لخص الراهب Robert وجهة نظر الديانة المسيحية الكاثوليكية ، بأن التوراة تتضمننصاً صريحاً ، وهو الأمر الذى وجهه الله سبحانه الى موسى علىجبل سيناء ، بأن « لا تقتل ابداً » . واعترف بأن نقداً كثيراً وجه الى هذه القاعدة ، التى يزعم خصومها بأنها قاعدة غير عملية ، لانها مفروضة من اعلى ، وانها تصطدم بحالات استثنائية . ولكنه يرى انها قاعدة تتمم قواعدالاخلاق وفلسفة القانون الغربية ، وبصورة خاصة « احترام الحياة » .

واضاف ان **الكتاب المقدس** الح بشدة علىاحترام هذه الحياة ، وان الله وضع فى الوصايا العشر (Décalogue) اخلاقاً كانت معروفة قبلالتوراة الا انه اسبغ عليها قيمة علوية ، وجعلها قانوناً اخلاقياً ليس لبنى اسرائيل وحدهم ، ولكنلكل امم الارض وشعوبه . وفى رأيه « ان احترام الحياة قيمة جوهرية فى الدين المسيحى ، لأنالانسان لا يستطيع ان يتجه الى الله بأفكاره ، الا اذا انطاق من مبدأ احترام الحياة ، التى لا يجوز ان تمس ، والتى هى منحة من الـه سيد متعال » .

ولكنه اعترف بوجود حالات صعبة ،وخاصةحينما يصطدم حق الحياة المطلق بواجب الشفقة، مشيراً بذلك الى دعوى لييج . وفى مثل هذهالحالات يكون تطبيق القانون الالهى عسيراً .

ويرى علماء الكاثوليكية ان قتل البرىءعدوان على حق الله ، رب الحياة والممات ، ولا يخفف من مسئولية القاتل ، ان ضحيته لا يرجى شفاؤها ، أو لانها مشوهة تشويها شديدا . ولو أننا قبلنا مناقشة مبدأ قيمة الحياة ، لوجب انناقش مبررات حياة كثير من الناس لا تنفع حياتهم فى شىء ، بل ان منهم من هو عنصر ضاربمجتمعه ... وهذه النظرة ستقودنا الىالتساؤل عن اسباب الابقاء على الأفواه التى تأكل دون نفع،وعلى كل شخص غير مرغوب فيه ، لسبب او لآخر ، كالمعتوهين والمجانين والمجرمين الخطرين.

ولكن رجال المذهب البروتستانتى ، علىما رأينا من اقوال رئيس اساقفة كنتربرى فى مجلس اللوردات عام ١٩٣٦ وكذلك اسقفبرمنجهام فى المجلس المذكور عام ١٩٥٠ ، يقفون موقفاً فيه كثير من التساهل .

وقد وقفت الشريعة الاسلامية الى جانبحق الحياة ، استناداً الى قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » .و « ومنيقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » .

وقد توجهت بسؤال مكتوب الى زميلىالاستاذ الشيخ بدر المتولى عبد الصمد ، عميد كلية الشريعة فى جامعة القاهرة سابقاً ، ورئيسقسم الشريعة فى كلية الحقوق والشريعة فى جامعة الكويت أسأله رأى القسمفى هذه القضية الشائكة،فسلمنى مشكوراً هو والاساتذة الأجلاء اعضاء هيئة التدريس فى القسم المذكور ، الرسالةالتالية :

« اما بعد ، فقد اطلعت واطلعت اخوانى علىاستفتاء سيادتكم عن حكم الشريعة الاسلامية فى

شان الطبيب الذى يعجل بحياة مريض ميئوس منه كثير الآلام بقصد تخفيف آلامه ، وكذا التعجيل بموت المولودين المشوهين رحمة بهم وبذويهم .

واحب أن أضع أمامكم صورة مفصلة لهذه المسألة :

أ) اتفق رأينا على ما يأتى :

١ - ان اقدام الطبيب على مثل هذا - مهما كان الدافع له - جريمة عظمى . فانه قتل لنفس معصومة الدم ، فانه لا يحل دم امرىء الا باحدى ثلاث ، ردة بعد اسلام ، ونفس بنفس ، وزنا بعد احصان ، وهذه الجريمة تعتبر ثانى الجرائم بعد الشرك بالله ، فمن ناحية الحل لا سبيل الى القول به فى مثل الظروف التى تحدثت عنها .

٢ - اذا كان القتل باذن المريض نفسه - وهو بكامل عقله - سقط القصاص عن الطبيب ولكن لم يسقط عنه الاثم ، فان النفوس البشرية لا تحتمل البراءة ، وانما سقط القصاص لوجود شبهة ، لأن القصاص أهو حق للمقتول أم حق للأولياء ، فوجدت شبهة تدفع القصاص .

٣ - اذا عفا أولياء المريض المقتول بعد موته عن الطبيب سقط القصاص ولا عبرة باذنهم قبل الوفاة تصريحاً أو تلميحاً ، والا كان ذلك تواطؤاً منهم معه على التعجيل بموته ويكونون شركاء له فى الجريمة .

٤ - فى الأحوال التى يسقط فيها القصاص لا يسقط مبدأ العقوبة التعزيرية .

ب) اختلف رأينا فى وجوب القصاص اذا لم يكن - هناك - اذن سابق من المريض ، ولا عفو لاحق من أولياء الدم ، فذهب البعض - منا - الى وجوب القصاص ، لأنه قتل عمد لنفس معصومة لها حق الحياة ، وكم من مريض ميئوس منه شفى ، ولأن ترك القصاص يفتح التآمر بين ورثة المريض وبعض الأطباء ضعاف الأخلاق ، فباسم الرحمة تزهق روح بريئة . وأما المشوهون فان واجب المجتمع ان ييسر لهم حياة فيها شىء من الراحة ، وكم من مشوه نبغ فى نواح لا تمر على بال .

وذهب بعضنا الى أن القصاص يسقط - متى ثبت يقيناً - أن الدافع هو الرحمة ، فان الشبهة مسقطة للحد ، والقصاص فيه معنى الحد فيسقط بالشبهة ، ولكن لا يسقط عنه الاثم ولا العقوبة التعزيرية .

واذا قال قائل : ان الطبيب قد اجتهد فكان له أجر المجتهد ان اخطأ - على فرض الخطأ - فنقول : ان الخطأ - هنا - واضح ، فى مقابلة النص ، ولولا اشتباه الأمر على بعض الناس لوجب أن يقتص منه . على أنه بعد ان يشتهر هذا الحكم يصبح القصاص واجباً من الطبيب الذى يقدم عليه .

ولا فرق بين ان يكون القتل بسبب من شأنه القتل مباشرة او مفضٍ الى القتل بطريق غير مباشر لاكثار المادة المخدرة كثرة لا يحتملها جسم الانسان العادى . وهذا راى اكثر الفقهاء .

وذهب أبو حنيفة الى ان القتل اذا كان بغير مُحَدَّدٍ أو ما فى معناه فانه لا قصاص فيه ، وهذا

راى خالف فيه جمهور العلماء لما صح ان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ رضخ راس امراة لانها رضخت رأس انسان .

هذا تفصيل هذه المسالة والله الهادى الى سواء السبيل » .

واود ان اضيف كلمة حول هذه الحجة ، وهى أن هناك ملاحدة لا يؤمنون بالآخرة . ولذلك فان من الحق ان أقرر أنهم يخصون بتكريمهم الحياة التى يحياها الانسان على هذه الأرض ، لانها هدفهم النهائى من الوجود . فأن تنكروا لقيمتها المطلقة ، فانهم ، عندئذ ، لا يكونون مؤمنين بأية قيمة أبداً .

ب) الحجة الأخلاقية :

حينما يصبح المخلوق البشرى مضغة ، تتفتح للحياة ، يحتاج الى حماية خاصة ، لاستكمال أسباب حياته ، ولا يرفض له هذه الرعاية الا الآباء الشواذ . والناس ، بدافع اعتبارات انسانية وخلقية ، ينقمون على الحيوانات التى تقتل صغارها تحت وطأة حمّى تعتريها او كَلَبٍ ينتابها . وقد درجت المجتمعات البشرية منذ الأزل على طرد القتلة من صفوفها ، كما تطرد الوحوش المفترسة ، أو نبذهم لانهم يتخلون باجرامهم عن الصفة التى تميز الانسان من غيره ، بقتلهم البرىء والعاجز عن الدفاع عن نفسه . حتى أن المنتصر فى حرب ، يعف عن قتل المنهزم الذى القى سلاحه . ذلك أن احترام الحياة امرغريزى ، حينما تكون الحالة النفسية والميول سليمة ، غير منحرفة . ولا يُرَدَّنَّ على هذا ، ان بعض المجتمعات عرفت القتل ، على شكل قرابين تقدم للآلهة ، أو اضاحى بريئة ، كقتل الزوجات فى الهند ، أو واد البنات عند العرب فى الجاهلية ، أو التخلى عن الشيوخ والعجزة فى الفيافى الرملية أو الجليدية ، عندما يصبحون عاجزين عن تقديم اى نفع لمجتمعهم الفقير ــ وخاصة فقد القدرة الانجابية وتقديم اية فائدة اقتصادية ــ لأن هذه حالات ، كان أصحابها يعتقدون ــ خطأ ــ انهم بعملهم هذا انما يكرمون الحياة نفسها ، اما تقرباً الى الآلهة ، لتحمى حياة الآخرين وتبارك الزرع والضرع ، واما لاعتبارات اخلاقية ، هى تجنب العار ، فى مجتمع حساس جداً ، بل وفقير أيضاً ، وفى حالات نادرة ، واما لاعتبارات اجتماعية روحانية ، أو اقتصادية ، أصبحت قانوناً للسلوك العام ، فى أزمنة وامكنة معينة ، ثم انها كلها اندثرت تقريباً ، بعد أن سما بالناس ضميرهم وخلقهم ، واصبحت من الذكريات الأليمة ، فى ذاكرة البشرية . واذا كانت بعض الانظمة السياسية أو الاجتماعية تتطاول بين حين وآخر على الحياة ، كالانظمة الفاشية أو النازية ، فتذل مفهومها النبيل ، فانها تكون خارجة على المفاهيم الأخلاقية ، بتبنيها فلسفات وانظمة مادية متطرفة . ولهذا ، فان الاخلاقيين يرفضون قتل المَرْحَمَة ، لأن الحياة ليست ملك صاحبها ، فهو لم يمنحها لنفسه ، وليست ملك والديه ، لانهما ليسا اكثر من وسيلة طبيعية لنقل الحياة اليه ، كما انها ليست كذلك ملك المجتمع ليتصرف بها ، بل ان من واجبات هذا المجتمع ان يحميها ويصونها ، بكل الوسائل المتاحة له .

وعلى ضوء هذه المبادىء ، يترتب على الطبيب ، أن يحافظ على الحياة ، بكل ما اوتى من علم واجتهاد وجَلَد ، وليس من حقه أبداً أن يقضى عليها .

ولو قُنِّن هذا القتل وابيح اللجوء اليه ، ولو كان ذلك فى اضيق حدوده ، افلا يحدث ذلك ذعراً

لكل مريض ، يصف له الطبيب دواء يتناوله اوزرقة فى وريده ؟ ان كل مريض يعرف ان الطبيب لا يصارحه دوماً بخطورة مرضه ، وانما يترك لهباب الرجاء والأمل مفتوحاً ، وكل انسان يتشبث بالحياة بكل قوة ، بفعل الغريزة وحب البقاء . ومن المحقق انه سيكون فريسة هلع دائم ، كلما فسر حركة من حركات الطبيب ، أو لمحة من أسارير وجهه ، على انها ستحمل اليه النهاية المحتومة . وليس فى وضع شاذ كهذا ، ما يساعدعلى الابقاء على الثقة بين الطبيب والمريض . ثم ان استعداد المريض النفسى يلعب دوراً بارزاً فى شفائه من بعض الأمراض ، فاذا انكمش هذا الاستعداد ، بفعل الشكوك والحذر ، فان مهنةالطب سوف تتأذى فى سمعتها ، وحق الشفاء سوف يصاب بضربة أليمة ، وسوف يظل المريضنهباً مقسماً بين المرض الذى يعانى منه والخوف الذى يشعر به من الطبيب الذى القى بين يديهأمر معالجته وشفائه .

أما بالنسبة للمشوهين ، فان ما يدفعآباءهم الى القضاء عليهم ، خوفهم من التعب الدائب الذى سيتسببون لهم به ، والاعتباراتالاجتماعية ، بانهم سيعيشون تعساء .

ولكن ، الم يكن الآباء هم السبب فى نقلالحياة اليهم ؟ واذن أفليس عليهم أن يقوموا بواجب التضحية تجاههم ؟ ثم اليس فى احتمالاتمساعدة الدولة ومؤسساتها لهم ، ما يشجعهم على التصدى لحمل مسئولياتهم كاملة ؟ اما انهمسيعيشون تعساء ، وانهم لن يغتفروا لآبائهم ، أنهم تركوهم أحياء ، فهذه نظرة من يحكم علىمستقبل مجهول . ومن يستطيع أن يؤكد أن Héléne Keller و Marie Heurtin الصماوينالبكماوين أو Denise Legris التى ولدت بلا ذراعين ولا ساقين ، يعشن تعيسات رغم ما بهنمن تشويه فظيع ، بعد النجاح المدهش الذى حققنه ؟

والانسان ، من هو الانسان ؟ أهو جلد ولحمٍوعظم ، أم هو قلب وعقل ؟ يقول **باسكال** : « ان جميع الأجسامونجوم السماء ، والأرض وممالكها، لا تعادل أية روح . ذلك أن الروح تعرف نفسها وتعرف هذه الأشياء ، والأكوان ، ولكن هذه الأكوان لا تعرف حتى نفسها » .

ان **هيبوقراط** ، الذى وضع لتلامذتهقسمهم الشهير ، بألا يصفوا لمرضاهم دواء قاتلاً ، لم يكن مسيحياً ، لأنه عاش قبل المسيح بخمسةقرون ، ولكنه كان طبيباً أخلاقياً ، عاشت روحه فى سلوك تلميذه Desgenettes ذلك الطبيبالفرنسى ، الذى طلب منه نابليون ، وقد تفشى الوباء فى جيشه على أبواب عكا ، ان يعطى المرضىمن جيشه ، مقادير كبرى من الأفيون ليقضى عليهم ، فأجابه « كلا يا مولاى ، ان واجبى أنأحافظ على حياتهم » .

وان الشفقة ، لا تكون بالقتل ، ولكن ببذلالحب والتضحية ، للذين قست عليهم الطبيعة ليجدوا فى كنف ذويهم الامان والاطمئنان .

ج) الحجة الطبية :

ان الأطباء لا يقرون ، عامة ، القتل بدافعالشفقة ، وقد تمسكوا بهذا المبدا منذ الأزل ، ذلك انهم يعتبرون أن واجب الطبيب أن يخففآلام المريض ، اذا وقف امامه عاجزاً عن شفائه ، وانه لقادر دوماً على ذلك . وقد أذاع رئيسالمجلس الوطنىلأطباء فرنسا فى شهر تشرين الثانى / نوفمبر لعام ١٩٤٩ ، غداة محاكمة ليبج ، البيانالتالى :

« ان اكاديمية الطب ترفض بشدة كلالوسائل التى تهدف الى ازهاق أرواح المشوهين والممسوخين والمجانين والمرضى الذين لا يرجىشفاؤهم ، لأن كل مذهب طبى أو إجتماعى ، لا

يحترم الحياة ، ينتهى به المطاف الى انتهاك قوانين المجتمع وارتكاب الجريمة ، بتضحيته بافراد ــ رغم تشوههم واليأس من شفائهم ــ قد يستطيعون المساهمة فى بناء المدنية . وان قانون الواجبات الطبية قاطع وجازم ، حين ينص على ان احترام الحياة وتكريم شخص الانسان ، هما واجب الطبيب الأساسى . وهذا مبدأ لا يقبل اى استثناء » . والمادة ٢٣ من قانون الواجبات الطبية الفرنسى صريحة فى هذا الشأن .

وقد اتخذت اكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية الفرنسية فى ١٤ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٤٩ قراراً مماثلاً ، ادانت به الاوتانازيا ، كما ان الجمعية الطبية العالمية التى عقدت اجتماعاً لها فى نيويورك فى شهر تشرين الأول / اكتوبر ١٩٥٠ ، وقفت هذا الموقف نفسه ، وهاجمت بشدة ما ذهب اليه الطبيب الانجليزى E. A. Gregg. والطبيب الهندى S. G. Sen فى نفس المؤتمر من ان القتل بدافع الشفقة كثيراً ما يُمارس دون ان تتسرب انباؤه أو يعرف به غير الذين قاموا به .

وقد كتب الدكتور **عصام فكرى** (١٠) ، عن آداب مهنة الطب عند العرب ما يلى :

« عنى العرب بآداب مهنة الطب . ومن مآثرهم فى هذا السبيل آراء «البغدادى» فى صفات الطبيب ، وآراء « ابن رضوان » العالم المصرى الذى خدم الحاكم بأمر الله ، وعين كبيراً للأطباء .

وهو الذى وضع للطبيب سبع خصال واجبة الاتباع ، وهى :

« حسن الخلق ، والمظهر والملبس ، وحفظ أسرار المرضى، والرغبة فى علاج الفقراء ، والحرص على التعلم ، ونفع الناس وسلامة القلب ، والتنزه عن التعرض لحرمات المنازل ، ووصف الدواء القاتل أو اسقاط الأجنة » .

واذا اجيز السماح بقتل المشوهين ، فان من المحتمل أن تنتقل البشرية الى حالات قتل جماعية . فقد كان المشوهون يولودون بالآلاف ، حتى قبل أن تنتشر مأساة التاليدوميد ــ وهو الدواء الذى انتشر منذ سنوات قليلة كمسكن ، ولكنه أحدث فى الأجنة تشوهات فظيعة . فهل يحق للاطباء ، فى مثل هذه الحالات ، اللجوء الى ابادة الاعداد الضخمة من المشوهين ؟ .

على أن بعض الاطباء ، لا ينكرون انه فى حالات نادرة ، قد يتصرف الطبيب كانسان ، لانه انسان . فهو يتساءل فى أعماق نفسه ، فى بعض حالات النزع او التشويه ، عما اذا كان عليه ان يتمسك بحرفية المذهب الطبى . ومن رأى الدكتور Roumajon ان الطبيب ، اذا قرر ان يتخذ قراراً خطيراً كهذا ، ــ وهو الذى يعرف كرم الطبيعة ــ فانه يكون قد اطال التفكير فى قراره ، فى أعماق قلبه وضميره ، وفكر بمسئولية فعله . واذا كانت هذه المسألة مطروحة على ضمائر الأطباء منذ الأزل ، دون ان تجد لها حلاً ، فانهم لا يستطيعون فى تصرفهم هذا ، ان يكونوا فى تشدد رجل الاخلاق . ولكن عليهم ، منذ الآن ، أن يطالبوا الدولة بانشاء مؤسسات لمثل هؤلاء البؤساء . وكثير من الدول فعلت ذلك . ومن الحق ان نذكر ما كتبه الدكتور هنرى ميللر ، اخصائى أمراض الاعصاب الانجليزى بشأن الاوتانازيا استكمالاً للصورة ، اذ قال :

« لقد نوقش موضوع الاوتانازيا كثيراً . ولكنى اعتقد ان أمره اقل اهمية ... ومع انى

---

(١٠) استاذ الامراض الباطنية بكلية الطب جامعة الاسكندرية ، فى مقال عنوانه « الحضارة والمرض » منشور فى مجلة عالم الفكر ، المجلد الثانى ــ العدد الثالث ١٩٧١ ص٦٨٨ .

اساند من يقول بأن مهمة الطبيب هى تخفيف آلام المريض ، واعطاؤه حياة افضل ، وان لم تكن اطول .. الا انى أعتقد انه لا يوجد غير عدد قليل من الأمراض لا يستطيع الطبيب فيها أن يجعل أيام المريض الأخيرة مريحة باستعمال المخدرات كالهيروين والكوكائين التى هى ، بالاضافة الى ازالة الآلام ، تشعر المريض بالتحسن وتضعف وعيه .. ولكن هناك أمراضاً يمكن استثناؤها ، مثل مرض سرطان الحوض Pelvic Cancer الذى يشعر المريض به انه عبء على نفسه وعلى الآخرين ، وهو عالم بالنتيجة الحتمية لمرضه .. ان الجراح الذى يساعد على انهاء هذه الحالة المؤلمة بجرعة من المورفين ، لهو فى رأيى متبع لأنبل الخطى فى مهنته . ولكن هذه حالة خاصة بين الطبيب ومريضه ، ولن يؤثر فيها أى قانون » (١١). وانه لمن أوجب الواجبات ، ونحن نناقش أمراً خطيراً ، وازلياً ، أن نتذكر أن المكتشفات الطبية ، فى عصرنا المدهش ، تأتى كل يوم بجديد مذهل . وليس بمستبعد أبداً أن تنقل الاذاعات ذات صباح أنباءً مبهجة عن اكتشاف أدوية مثيرة ، للحالات المستعصية . فلماذا لا يتذرع الطبيب بالصبر ، على أمل أن تحدث المفاجأة ؟

د) الحجة القانونية :

ان العلاقة القانونية بين الطبيب والمريض ، علاقة ترتكز الى عقد ضمنى قائم على وعد من الطبيب أن يبذل قصارى جهده ، وعلمه ، لشفاء المريض . ولا يكون الطبيب مسئولاً عن النتائج التى تنشأ عن المعالجة ، ولو كانت مؤذية أو قاتلة ، الا اذا نسب اليه خطأ فى تصرفه .

وقد مرت مسئولية الطبيب فى مرحلتين :

الاولى : لم يكن فيها الطبيب مسئولاً أبداً عن نتائج أعماله الطبية ، وبتعبير أوضح ، لم يكن فيها الطبيب ليسأل مهما بلغ به الجهل فى فنه . وقد سقطت هذه النظرة نهائياً من عالم القانون .

والثانية : لم يكن الطبيب فيها ليسأل الا عن « الخطأ الفاحش » الذى يرتكبه . أما الخطأ العادى ، فلم يكن ليرتب عليه أية مسئولية . وقد كانت هذه النظرة ، نظرة برلمان باريس (اى المحكمة العليا آنذاك) عام ١٦٩٨ ، عندما قرر : « لا يعاقب الاطباء على أدويتهم ما دام لا يوجد على أساسها الا الجهل والحماقة » ، وأيده فى ذلك برلمان بوردو فى ٦ حزيران / يونيو ١٧١٤ (١٢) . وقد انتهت هذه المرحلة أيضاً من عالم القانون .

ولكن العرب كانوا ينظرون الى هذا الموضوع نظرة اعمق ، فقد كان على الطبيب ان يكتب للمريض « قانوناً » يصف له فيه الدواء ، فاذا برىء أخذ الطبيب اجرته ، وان مات حضر أولياؤه عند طبيب مشهور فى المدينة ، منصوب لهذه الغاية وأروه الوصفات ، فان رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب ، قال : هذا قضى بفروغ اجله ، وان رأى الأمر بخلاف ذلك ، قال : خذوا دية صاحبكم من الطبيب ، فهو الذى قتله بسوء صناعته وتفريطه (١٣) .

---

(١١) فى مقال ترجمه الدكتور عبد الرزاق العدوانى ، بعنوان « مآزق الطبيب الحديثة » ، مجلة عالم الفكر ١٩٧٠ المجلد الاول العدد ٣ ص ٢٨١ .

(١٢) انظر كتاب Pommerol ، المسئولية الطبية عام ١٩٣١ . ، **وانظر كتابنا** ، الحقوق الجزائية العامة ، الطبعة السادسة ١٩٦٣ ص ٥١٦ .

(١٣) اورد هذا المقطع الدكتور منير العجلانى ، فى مقال له عن « الحسبة فى الاسلام » ، نشر فى مجلة المعهد الحقوقى السنة الاولى ج ٢ .

وقد جاء فى حديث عن **النبى** ، رواه **عمرو بن شعيب** عن جده قال : « ان من تطبب (اى تعاطى مهنة الطب) ولم يعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن » .

أما اليوم ، فان مسئولية الطبيب تترتب بمجرد ارتكابه خطأ عادياً . وهذا هو راى القضاء اللبنانى (استئناف لبنان المختلطة فى ١٩٤٥/٣/٢٢) ، والسورى والسويسرى ، حيث قضت محكمة الاتحاد بتاريخ ١٨٩٢/١٢/٩ بأن الطبيب الذى يلحق بأهماله ضرراً بجسم المريض ، يخالف نصوص العقد واوامر القانون العامة التى توجب الحفاظ على صحة المرضى وسلامتهم من كل ضرر ، سواء أحدث ذلك بنية جرمية أو بخطأ ، وهو راى القضاء الفرنسى (انظر محكمة النقض فى ١٩٦٢/٧/١٢ منشور فى دالloz ١٩٦٢ رقم ٢٣) والقضاء المصرى (النقض فى ١٩٦٨/١/٨ ، مجموعة احكام النقض س ١٩ رقم ٤ ص ٢١) . وهو رأى الفقهاء اجمالاً (١٤) .

فاذا اقدم طبيب (أو فرد عادى) على انهاء حياة مريض بناء على طلبه الملح ، مدفوعاً بعامل الشفقة ، تجاه الآلام المبرحة التى يعانيها ، والتى لم تنفع المسكنات فى تهدئتها ، بعد قناعته التامة بأن ابواب الشفاء موصدة نهائيا فى وجهه ، **فما هو موقف قانون العقوبات منه ؟**

أود ، قبل الاجابة ، أن الاحظ ، باننى سأعالج الموضوع من وجهة نظر القانون الجنائى التقليدى الحديث ، وعلى أكثر تقدير ، من وجهة النظر الانتقائية (éclectisme) ، التى تقف من قضايا ما وراء الطبيعة ، وبخاصة مسالة حرية الارادة ، موقفاً حيادياً ، حتى لا نشعب الموضوع، فى متاهات المدرسة الوضعية وحركة الدفاع الاجتماعى الجديد . ذلك أن المدرسة الوضعية ، بقيادة **لومبروزو وفرى وجاروفالو** ، واتباعهم ، وفى مقدمتهم الاستاذ السويدى المعاصر **كنبرج** ، تنفى حرية المجرم فى ارتكاب الجريمة ، وتعتبر مسئوليته مسئولية اجتماعية لا معنوية ، وان حركة الدفاع الاجتماعى ، بشقيها ، المثالى المتطرف ، الذى يتزعمه الاستاذ الايطالى **فيليبو جراماتيكا**(١٥) ، والذى بقي يتيماً لا انصار له على ما نعتقد ، والمعتدل الذى يقوده المستشار الفرنسى **آنسل** ، لا تزال بين اخذ ورد بين الفقهاء . ومن الخير لنا ولها الا نزج بها فى موضوع لا نعرف لها

---

(١٤) جاروج ٢ رقم ٤٦٠ ، وجرسون فى شرح المواد ٣٠٩ ـ ٣١١ رقم ٨٠ ـ ٨٦ . وراى الفقهاء العرب . فقد كتب الدكتور محمود محمود مصطفى ، فى كتابه شرح قانون العقوبات القسم العام ، الطبعة الثامنة رقم ١٣٧ ما يلي : « على الطبيب ان يبذل للمريض جهوداً صادقة يقظة ومتفقة ، فى غير الظروف الاستثنائية ، مع الاصول العلمية المقررة ، وهى الاصول التى يعرفها اهل العلم ، ولا يتسامحون مع من يجهلها ممن ينتسب الى علمهم وفنهم » .

(١٥) يقول جراماتيكا : « ان المسئولية الجنائية يجب ان تقدر وفقاً للعنصر الذى يساهم فى تكييف عدم اجتماعية الفرد نفسه ، اى ارادته غير المتجاوبة مع المجتمع ، بناء على ارتكابه الجريمة . فليست الجريمة هى مركز النظام القانونى، ولا يمكن أعتبار الشخص مسئولاً لمجرد ارتكابه هذه الجريمة، وانما يتعين الاستعانة بعنصر جديد ، يتوقف على التقدير الاجتماعى للسلوك من جهة ، وعلى شخصية الجانى من جهة اخرى . وكل ذلك لا يتاتى الا بالغاء فكرة المسئولية الجنائية المرتبطة بالواقعة ، لكى تحمل بدلاً منها ، فكرة اخرى ، هى « عدم اجتماعية » الجانى ... وعلى هذا يجب ان تتلاءم تدابير الدفاع الاجتماعى مع كل فرد ، وفقاً لمقتضيات شخصيته (عدم اجتماعية الشخصية) لا وفقاً (لمسئوليته) عن الضرر الذى احدثه (الجريمة) » .

احمد فتحى سرور ، السياسة الجنائية ، ص ٧٨ ، دار النهضة العربية ١٩٦٩ ، وانظر كتاب جراماتيكا بالفرنسية La défense sociale **ص ٦ وما يليها .**

وانظر كذلك سلسلة المقالات التى نشرتها مجلة العلوم الجنائية الفرنسية ، عن المقابلة بين القانون الجزائى والدفاع الاجتماعى عام ١٩٦٤ ص ٧٢١ وما يليها .

فيه رأيا واضحا . وقد نغامر بالقول ، اذا استنتجنا من آرائها انها قد لا تتشدد فيه ، نظراً لأنها ترى فى العقاب عملاً اجتماعياً — لا قانونياً — يهدف الى حماية المجتمع ، عن طريق تأهيل الجانى ، واعادة تربيته . وطبيب ، كالذى نحن فى صدده ، ليس فى حاجة الى تأهيل أو تربية أصلاً ، لأنه لا يمثل فى الحقيقة أى خطر على المجتمع .

أما بالنسبة لقانون العقوبات ، القائم على مبادىء الادراك والارادة (ولا نود أن نقول : القائم على مبدأ الحرية المعنوية) ، فان فعل الطبيب ، بدون ريب ، يشكل جريمة القتل العمدى ، لأن هذه الجريمة تكون تامة ، اذا تحققت اركانها الثلاثة وهى : الركن المادى (ازهاق الروح) والركن القانونى (وجود نص يحرم القتل) ، والركن المعنوى (معرفة الفاعل انه يرتكب فعلاً ممنوعاً) . وحتى اذا كان لا يعرف انه يخالف بعمله ، فان الشارع افترض فيه هذه المعرفة ، حتى لا يحتج أحد بجهل القانون .

ولكن اذا رفض الطبيب تنفيذ القتل ، فان من المحقق ان هذا من حقه ، لأن العقد ، الذى يهدف الى الشفاء ، يصبح مفسوخاً ، للسبب غير المشروع ، والمخالف للنظام العام .

ولكن بعد أن قررنا المبدأ يجب ان نتساءل عن دور موافقة المجنى عليه أو موافقة ذويه ، وعن اثر الدافع فى المسئولية الجزائية .

ا — موافقة المجنى عليه :

اذا وافق شخص على أن يرتكب آخر ضده فعلاً ، يعتبره القانون جريمة ، أو اذا طلب هو ذلك والح فى طلبه ، فلباه ذلك الآخر ، وتمت الفعلة ، فهل تكون تلك الموافقة أو هذا الطلب سبباً مانعاً للمسئولية الجنائية ؟

لم يكن فى المجتمعات البدائية ، التى كانت تعيش تحت حكم الطاغوت ، وهو مجموعة الأعراف الصلبة والقاسية (كالجاهلية العربية) ، قانون مكتوب ينظم العلاقات بين الناس ، ويحدد حقوق الدولة عليهم . وكانت تلك المجتمعات تتشبث أشد التشبث ، وتحافظ أقوى المحافظة على اعرافها وعاداتها التى ورثتها كابراً عن كابر ، لأن مثل هذه المجتمعات تتصف دوماً بسبب من ضيق الافق وضعف فى الثقافة ، بالمحافظة الشديدة ، بل والتعصب الذميم أيضاً . وقد لقي النبى العربى مقاومات شديدة عندما كان يريد تغيير سنن العرب ، حتى قال الله فيهم ، فى معرض الذم والسخرية ، « انا وجدنا آباءنا على امة ، وانا على آثارهم مقتدون » (الزخرف ٢٣) .

والذى يلفت النظر فى هذه المجتمعات ، عدم وجود سلطة عامة تقتص للمجنى عليه من الجانى ، بل كان كل فرد — اذا كان قادراً — يقتص لنفسه ، وقد تعاونه عشيرته للثأر له . وقد يتدخل العقلاء ، فيعقدون الصلح بين الفريقين ، مقابل دية يدفعها الجانى أو ذووه .

ذلك ان الجريمة كانت عندهم دائماً **حقاً خاصاً** ، والحقوق الخاصة يجوز فيها العفو ، **ويسقطها الرضا (١٦) .**

---

(١٦) انظر الدكتور مصطفى محمد حسنين ، نظام المسئولية عند العشائر العراقية العربية المعاصرة ، بغداد ١٩٦٧ ، ص ٣ ، والدكتور صالح احمد العلى ، محاضرات فى تاريخ العرب ج ١ ص ١٤٠ .

ولكن منذ ان وضعت الدولة يدها على مؤسسات العقاب ، اصبح موضوع الجريمة حقاً عاماً ، تقوم هي بأعبائه ، وتلاحق فاعليه ، وتحاكمهم وتعاقبهم . ولا يستثنى من ذلك الا بعض حالات ، رات القوانين أن تنحنى امامها ، حرمة لاعتبارات اعلى شاناً ، كما فى حالات الزنا أو السرقة بين أفراد الاسرة الواحدة .

وقد سنت الدول المتمدينة ، قوانين تنظم سلوك الأفراد فى حياتهم العامة ، وتبصرهم بالمحرمات فلا يقارفونها . ومن هذه القوانين ، مابحث رضا الضحية ومنها ما سكت عنه .

فالقوانين التى بحثت الرضا فى القسم العام، **زمرتان : زمرة** رفضت الاعتداد به كسبب مبيح ، الا فى حالات قليلة ذكرتها ، وليس منها القتل (كالقانون الاثيوبى المادة ٦٦ ، والقانون المكسيكى المادة ١٥ ، ولكنه استثنى الجرائم التى لا تلاحق الا بناء على شكوى المضرور ، والقانون النمساوى، المادة ٤ وهو نص غامض اجمالا) ، **وزمرة** سارت فى الطريق المعاكس للاتجاه الاول ، فقبلت مبدأ الرضا ، ولكنها استثنت منه بعض الحالات التى تراها ضارة بالمجتمع . ومن هذه القوانين ، القانون الهندى ، الذى خصص للرضا ستة فصول فى قسمه العام ، والقانون الايطالى لعام ١٩٣٠ الذى نصت مادته الخمسون على انه « لا يسأل من اضر أو أساء الى حق بموافقة الشخص الذى يتصرف به شرعاً » ، ولكنه استثنى من ذلك الرضا بالقتل صراحة (المادة ٥٧٩) (١٧) .

والفقاء انفسهم غير متفقين على حل موحد : فبعضهم يريد أن يعتبر الرضا سبباً مبيحاً ، وهم انصار الفيلسوف « **كانت** Kant » ، ومنهم فى أيامنا **كيسلر** Kessler ، وبعضهم الآخر يرفضه اجمالا . ولكن هناك فريقاً ثالثاً يبدو لنا ان الغلبة بجانبه ، وهو القائل بنظرية متوسطة معتدلة ، ترفض الرضا كسبب مبيح للجريمة ، كمبدأ عام ، ولكنها تستثنى من ذلك الحقوق القابلة للتصرف بها (aliénables) وهى الحقوق التى لها صفة مالية .

أما الحقوق الفطرية (innés) أو غير القابلة للتصرف بها (inaliénables) كحق الحياة ، وسلامة الجسد ، والحياة الخلقية ، فان القانون الجنائى يحميها ، ولا ينفع الرضا فى اباحتها .

والتشريعات الجنائية العربية تنطلق عامة من مبدأ عدم الاعتداد بالرضا كسبب مبيح ، الا فى حالات معينة . منها دخول المسكن بموافقة صاحبه ، واخذ المال وتسليمه ، وحجز الحرية ، والعلاقات الجنسية (١٨) (فى بعض التشريعات) ، والجرائم التى اشترط القانون لملاحقتها شكوى من المتضرر (كجريمة السب ، والسرقة بين الاصول والفروع والازواج ، وجريمة الزنا ، ما عدا القانون الكويتى ، الذى أباح ملاحقتها بدون شكوى ، ولكنه أجاز للزوج أن يوقف الدعوى

---

(١٧) انظر الدكتور انطون فهمى عبده :

Le Consentement de la victime, thèse de doctorat, Paris 1967.

(١٨) تختلف القوانين الجزائية فى نظرتها للعلاقات الجنسية . فبعضها ، وهى الكثرة ، اخذ يخفف من حالات تحريمها ، الا فى حالات الاكراه ، أو حماية القاصر او شخص وقع ضحية تضليل ، بحيث لا يكون رضاؤه صحيحاً . وتعليل ذلك ان القانون يحمى الناس من العدوان عليهم ، فاذا كانوا هم المفرطين فى حقوقهم ، فانهم هم الملومون . فقد كانت المادة ٣٣١ من قانون الجزاء الفرنسى (صياغة عام ١٨٣٢) ، تعتبر الموافقة على العلاقات الجنسية صحيحة اذا كان الشخص قد اكمل الحادية عشرة من عمره . وتجاه ضغط الرأى العام ، رفعت هذه السن ، منذ عام ١٨٦٣ الى ١٣ سنة واصبحت الآن ١٥ سنة ، منذ تعديل ٢ تموز / يوليو ١٩٤٥ . اما التشريع الكويتى ، فانه لا يعتبر الرضا سبباً مبيحاً فى العلاقات الجنسية ، (المادة ١٩٤) .

العامة اذا رضى بالمعاشرة الزوجيـة كما كانت .المادة ١٩٧ المعدلة) . ووقف التشريع الكـويتى موقفا آخر ، حين قرر فى المادة ٣٩ من قانـونالجزاء ، اعتبار الرضا سبباً مبيحاً ، كمبدأ عام ولكنه ضيق كثيراً من نطاقه حين قال :

« ومع ذلك لا يُعتد برضاء المجنى عليـه ،ويعد الفعل جريمة اذا كان من شـأنه ان يحدث **الموت** أو يحدث **أذى بليغاً** ، أو كان يعد جريمةبغض النظـر عن الضرر الذى يحتمل ان يحدثه للمجنى عليه ، أو نص القانون على الا يعتد بهذاالرضاء » .

ومن هذا الذى قدمناه ، يتضح بجلاء أنموافقة الضحية (أو طلبه) لا تعتبر سبباً مبيحاً للقتل ولا سبباً من اسـباب موانع المسـئولية ،وتبقى الجريمة قائمة ، لتوافر اركانها الثلاثة .

ولكن رجـال علم الاجتماع ، لا يكتفـون ،كرجل القانون ، بتعريف قانونى خالص للجريمة ، بل يريدون أن يعملوا حسـاباً لطبيعـة الفعل الاجتماعية ، ولذلك يرون أن الجريمة خروج على معايير السلوك الجماعىالذىيحترمه المجتمع(١٩).

ب ــ دافع الشفقة :

ان الطبيبالذى ينهىحياة شخص لا يُرجىشفاؤه ، وهو نهب مقسم لآلام مبرحة ، انما يُقدم على ذلك ، مدفوعاً بدافع ، يختلف عن القاتـلالذى يزهـق روح آخر ، انتقاماً أو حقـداً ، أو لاستلاب ماله ، أو لازاحته عن طريقه . فهل يكونهذا الدافع سبباً من اسباب اسقاط الجريمة أو تخفيفها على أقل تقدير ، اذا كان انسانياً ، اونبيلاً ؟

فى مفهوم المذهب الوضعى (Ecole Positiviste) ، يختلط الدافع بالقصد ، لانه هـو الذى يحركه . ولذلك يطالب أنصاره بأن يكون للدافع دور حاسم ، فى بعض الأحيان ، مسقط للمسـئولية الجزائيـة ، كالقتـل بدافع المحبةوالشفقة ، والسرقة لاطعام جائع .

اما المذهب التقليدى (Ecole Classique) ، الذى تقوم تشريعاتنا على فلسفته ، من ناحية المسئولية المعنوية ، فانه يعتبر القصد الجنائىارادة مجردة (Volonté abstraite) وبذلك يكون القصـد مختلفاً عن الدافع تماماً . وقد عـرفالفقهاء الدافع بأنه المصلحة أو العاطفة التى سببت الفعل الاجرامى (٢٠) . وهذا هو التعريف الذىتبناه القانون السورى فى المادة ١٩١ . والدافع متحول ، متغير ، يختلف من فرد الى فرد ، منالمشتركين فى جريمة واحدة ، ويختلف فى الفرد نفسـه من ظرف الى ظـرف . فالسارق الذىيختلس مال الغير بدون رضاه ، ليتملكه ، انما يفعل ذلك ، اما لحاجته الى المـال ، أو لحرمانصاحبه منه ، أو للمقامرة به،أو لانفاقه فى مباذله. فقصد التملك واحد ، ولكن الدافع مختلف ، منحالة الى اخرى .

والقاعدة العامة فى الدافع ، أنه لا يعتبر سبباً مبيحاً الا اذا نص القانون على اعتباره ركناً من أركان التجريم فى حالات قليلة ، كما فى حالةنشر وعرض الوسـائل الخاصـة التى ترتكب

---

(١٩) الدكتور زكريا ابراهيم : الجريمة والمجتمع ص ٢٩ . وسذرلاند ، علم الاجتماع،الترجمة الفرنسية والترجمة العربية للاستاذين حسن الرصفاوى ومحمود السـباعى ،القاهرة ١٩٦٨ .

(٢٠) Stefani et levasseur, n° 185.

« للدعاية ضد الحمل » . ولكن ذلك لا يرد في موضوع القتل ، لأن الشارع لم يضع مثل هذا النص فيه .

ولكن بعض القوانين الجزائية ، فرقت ، استجابة للعاطفة الانسانية، بين الدوافع الشائنة، والدوافع النبيلة ، فشددت على الاولى ، ورفقت بأصحاب الثانية ، ولكنها لم تلغ مسئوليتهم (٢١). ومن هؤلاء المجرمون السياسيون (٢٢) وأعضاء الجمعيات الدينية ، والقتل بدافع انسانى بلا ريب . فأمثال هؤلاء « المجرمين » هم من النوع الذى يدعى « بالمجرم المثالى Le criminel par idéologie » لأنه طراز اجرامى قائم بذاته ، يرى اجرامه واجباً عليه ، ولذلك فانه لا يهتم بتجريم القانون . ونود أن نذكر فى هذه الزمرة من المجرمين ، الأطباء الذين يمارسون تعقيم الذكور المشوهين أو المتخلفين عقلياً للقضاء على القدرة الانجابية فيهم ، لتخليص المجتمعات من ذرياتهم التى تحمل جرثومة الاستعداد للاجرام (٢٣) ، أو كفاحاً ضد الانفجار السكانى . (ولا يدخل فى ذلك استعمال الحبوب المنظمة للأسرة ، اما لأن السلطة العامة تبيح استعمالها ، فلا تكون جريمة أصلاً ، أو لأنها تدخل فى قانون الجزاء تحت تهمة الوسائل المانعة للحمل ، أو المسقطة للأجنة) . وكل الظواهر تدل على ان كثيراً من الدول ، رغم النصوص المكتوبة ، أخذت تبيح هذه الحبوب ، وتغض الطرف عن الاجهاض، بل ان بعضها عدل قانونه الجزائى لهذه الغاية .

وعلى هذا الأساس ، خفف القانون السورى عقوبة القاتل بدافع الشفقة بناء على الحاحه بالطلب ، وجعلها الاعتقال مدة لا تجاوز عشر سنوات . وهذا هو موقف القانون اللبنانى (المادة ٥٣٨) . ولكن اللجنة المصرية السورية التى وضعت مشروع قانون العقوبات الموحد ، استبعدت هذا النص « بالنظر الى ما وجه الى هذا الحكم من النقد ، واحتراماً للحياة الانسانية وخوفاً من اساءة استعماله ، واكتفاء بتقدير القاضى عملاً بالظروف المخففة ، حيث لا يصح اعتبار رضاء المجنى عليه مبرراً للتصرف فى حياته او للقضاء عليها . وهو فى الغالب رضاء معيب ، لصدوره عن ارادة غير مكتملة » (الصفحة ٢٥٤ من المشروع الموحد) .

واذا كانت غالبية القوانين الجنائية قد سكتت عن اعتبار الدافع سبباً مخففاً ، فانها تتضمن نصوصاً تطلق يد القاضى فى معالجة هذه الحالات الشاذة . ففى مقدور النيابة العامة عدم اقامة الدعوى الجزائية بالمرة (ولا يحق لذوى المتضرر اجبارها فى التشريع الكويتى على ذلك ، عن طريق الادعاء الشخصى أو الادعاء المباشر) ، ومن حق قاضى الموضوع أن يمنح الفاعل ظرفاً مخففاً ، يتيح له النزول بالعقوبة الى حدها الأدنى ، وقد يُتاح له أن يقرر وقف تنفيذ عقوبته ، بل ان التشريع الكويتى دون سائر التشريعات العربية ، يتضمن نصاً من اخطر

---

(٢١) حتى ان قانون اورجواى ، فى المادة ٣٧ ، لم يقرر اعتبار هذا القتل مبرراً ، ولكنه ترك للقاضى الحق فى اعفاء الفاعل من كل عقاب « لأسباب تتعلق بالشفقة » .

(٢٢) Ernest seelig, traité de criminologie, Paris 1965 P. 127.

وانظر كتابنا : الاجرام السياسى ، بيروت ١٩٦٣ .

(٢٣) يذكر هذا المؤلف النمساوى انه تم فى ٢٩ ولاية امريكية حتى عام ١٩٣٩ تعقيم ٣٠٦٩٠ شخصاً اكثريتهم من مرضى العقول والمأفونين Imbéciles . وقد انشأت ألمانيا الهتلرية ما اسمته « محاكم الصحة الوراثية » ، لتعقيم المصابين بأمراض وراثية ، ومدمنى الكحول ، لتحسين الصحة العامة . (سيلينج ، المرجع نفسه ص ٣٩٧) .

النصوص ، ولكنه قد يكون مجدياً فى مثل هذهالحالات ، وهو نص المادة ٨١ من قانون الجزاء ، التى تجيز للمحكمة أن تقرر الامتناع عن اصدارحكم على المتهم « اذا رات من اخلاقه أو ماضيه أو سنه أو الظروف التى ارتكب فيها جريمته . . .ما يبعث علىالاعتقاد انه لن يعود الى الاجرام . . » .

وهذا ، أيضاً ، هو الموقف الذى اتخذهالاتحاد البلجيكى ـ اللوكسمبرجى للقانون الجنائى، المنعقد فى ١٩٥٠/١١/١٨ ، برئاسة المحامىالاستاذ Sasserath ، بناء على تقرير من نقيب المحامين الاستاذ Collignon والطبيب الكبير De Laet بقراره الذى طالب فيه بعدم تعديل النصوص الجزائية ، رغبة منه فى عدم اباحةالقتل لأى دافع كان ، أو جعله جريمة خاصة ، لها أركانها المميزة .

ومن نافلة القول ، الاشارة الى أن القتلبدافع الشفقة ، وهو فعل ايجابى ، يجبان يشمل الامتناع عن المعالجة ، وهو فعل سلبى ، لأنالعقاب يجب ان ينال الفعل والامتناع على حد سواء ، ما دام القانون قد نص على معاقبتهماصراحة . ويتمثل هذا الفعل السلبى ، حينما يمتنع الطبيب عن اعطاء الدواء ، أو اجراء العمليةالجراحية ، ليترك المريض يقضى نحبه لتخليصه من آلامه .

• • •

وفى ختام هذا الموضوع ، اود ان اعترفبشعورى بالحيرة فى تبيان رأى حاسم ، يلتزم بالقطيعة المطلقة . ولكنى اعتقد ، مخلصاً ، انالقانون الجزائى يعتبر هذا القتل جريمة تامة ، ولا يبررها وجود الدافع الانسانى فى الطبيب او فى غيره ، حينما يقدم على انهاء الحياة . كذلك فانى قانع أن الدين والأخلاق وحق الثقة بالطبيب ،تقف ضده أيضاً . ولذلك ، فانى لا أجد مبرراً ، لاعادة النظر فى التشريعات الجزائية الراهنة ،لأنها أعطت القاضى امكانات كبيرة لمعالجة هذه الحالات ، التى أرجو ان تكون نادرة الحدوث ،حرمة للكرامة الانسانية وتقديساً لمهنة الطب .

ولست انكر أن الطبيب انسان ، قبل كل شىء ، ومن حقه أن يتحسس بمشاعر الناس وآلامهم ، حين يقف أمامهم عاجزاً . وكل ما هومطلوب منه ، هو أن يبذل جهده فى تخفيف هذه الآلام ، والاستعانة بآراء غيره ممن هم اكفأ منه ،بالنسبة لاختصاصاتهم ، لأن فوق كل ذى علم عليم ، الى أن يحم القضاء ،ويقضى المريض بأجله.

فاذا وقع من طبيب تفريط مقصود ، فىظرف شاذ ، فانى قانع بأن القاضى ، سيأخذ بعين الاعتبار دوافعه الانسانية ، ولن تكون النظرةاليه كالنظرة الى القاتل العادى .

والله سبحانه يقول : « ولا تقنطوا من رحمةالله » .

★ ★ ★

المراجـع

DOUBLIER : **le consentement de la victime,** Paris 1956.

TAHON : le consentement de la victime.,

Revue belge du droit pénal et de criminologie, 1951-1952, p. 323 et s.

PHILIPPE TOUSSAINT, **Le procés de LIÉGE,** Bruxelles, Ed. Actuelles, 1963.

MADELEINE JACOB, **Le procés de Liége,**

Paris, ed. les YEUX OUVERTS, 1962.

PAULUS et ROZET, **le procés de la THALIDOMIDE,** Paris, 1962.

SIMONE PELLETIER, "de l' EUTHANASIE, L'ORTHOTHANASIE et la DYSTHANASIE ", Rev. **Internationale de droit pénal,** 1952 No. 2-3.

MAURICE GARCON, **Procés sombres-Les piqueuses d'Orsay.**

E. RIST, **La morale professionnelle du medecin.**

STEFANI et LEVASSEUR, **Droit pénal général,** Paris, 5 eme ed. 1971.

MAXIMILIAN JACTA, **Accusés, levez-vous.** 19 **grandes affaires judiciaires aux U.S.A.,** Paris, 1968.

Reflexions sur le procés de Liége.

Revue des seiences criminelles, Paris 1963 P 83.

GRAVEN, " faut-il punir l'euthanasie ? " **Revue crim. et police technique,** vol IV Mars, 1950.

BENET, "le probléme de la mort par pitié" **revue bélge de droit pénal et de criminologie,** 1952, P 928.

NETTRE, " l'euthanasie " **Revue int. pol. crim.** Avril 1955.

E. SEELIG, **traité de criminologie.** PARIS, 1956.

وفى اللغة العربية ، تراجع مؤلفات الفقه الجزائى ، فى ابواب رضا الضحية والدافع . ونشير خاصـــة الى مؤلف الاستاذ الدكتور محمود محمود مصطفى شرح قانون الجزاء ـ القسم العام ، **القاهـرة ١٩٦٩ ، الارقام ١٢٢ ـ ١٢٨ ، والرقم ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، ومؤلف الاستاذ عبد القادر عـودة** ،التشريع الجنائى الاسلامى ، **القاهرة ١٩٥٩ .**



حسن صادق المرصفاوى *

الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة ووضعه فى المجتمع العربى

أ ــ **تزايد الاجرام وتنوع الجريمة :** تشغل الجريمة فى عصرنا الراهن بال الكثير من الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، بعد أن تكشف مدى خطورتها وتفاقمت جسامتها وزاد انتشارها بين أفراد عديدين من مختلف الجماعات مهما تباينت اتجاهاتها أو اختلفت درجتها فى التقدم والرقى ، فالجريمة موجودة دائماً وان تغيرت صورها ومظاهرها . ولا يمكن القطع بمقياس واقعى يوصل الى النسبة الحقيقية للزيادة فى الاجرام أو قدر انتشاره ولو فى وقت معين أو مكان معين لأننا نفتقر الى **امرين جوهريين . وأول** هذين الأمرين هو **تحديد مفهوم** الجريمة ، اذ لا شك فى أن الفعل الواحد قد يُعتبر جريمة فى **وقت ما** ولا يعتبر كذلك فى وقت سابق أو لاحق ، حسب ما تراه الجماعة من أمر تجريمه من عدمه. فنشاط الفرد **قد يتعدى دائرة الأخلاق أو الدين الى دائرة النموذج القانونى للجريمة** ، وقد ينكمش عن هذا النموذج ويقتصر على الدائرة الاولى ، بل قد يكون الفعل جريمة فى نظر القانون ــ لاعتبارات معينة يراها واضعه ــ فى حين **أن لا علاقة للأخلاق والدين به ، وهذا اساس مبحث المقارنة بين دائرة الدين والأخلاق من ناحية ودائرة القانون من ناحية اخرى .** والفعل الواحد أيضاً قد يُعتبر جريمة فى مكان ما فى حين أنه لا يعد كذلك **فى مكان**

---

* الدكتور حسن صادق المرصفاوى استاذ القانون الجزائى بكلية الحقوق والشريعه بجامعة الاسكندرية .

آخر وفقاً للتقاليد والاعتبارات السارية فى كل من المكانين ، ونضرب مثالاً واضحاً لهذا بالاعمال المخلة بالحياء . **والأمر الآخر** الذى يفتقر لمعرفة قدر الزيادة فى الاجرام هو توافر **الاحصائيات الدقيقة** القائمة على اسس علمية سليمة . فالمسلم به **أن من أصعب أنواع الاحصائيات** واقلها اطمئنانا الى النتائج التى تسفر عنها ما تعلق بأمر الجريمة، **لأن الجريمة بطبيعتها امر مخالف للقانون** وهى لهذا يسعى مرتكبها فى غالبية الحالات الى **اخفاءأمرها** حتى يفلت من جزاء يوقع عليه ، فكثيرة هى الجرائم التى لا يعرف أمرها ، اما لخفائها اولعدم الابلاغ عن وقوعها لسبب أو لآخر . بل يحدث أحياناً أن تعرف الجريمة على غير صورتها الحقيقية مما يؤدى الى نتائج احصائية خاطئة .

ورغم كل ما تقدم فيكاد يكون من المجمع عليه ان الاجرام فى ازدياد والمحاولة لكفاحه مستمرة ، ويكفى للتدليل على هذا أن ينظر الانسان من حوله ويمد بصره الى فترة سابقة من الزمان عاشها ليتبين صوراً من الجريمة خلقت مع الأيام وليدة ظروف معينة ، تستوى فى هذا الدول المتقدمة والدول النامية ، لأن الأمر لايتعلق بالتقدم أو التخلف ، فأثرهما يقتصر على تنوع الجريمة التى تختلف من مجتمع الى غيره . والتطور فى حد ذاته يؤدى الى صور جديدة للاجرام ، لا سيما حين يكون التغير بخطى سريعة قد لا تستطيع الأفكار والتقاليد السائدة مسايرته، **فتختل القيم وتضطرب الموازين فى المجتمع** ، مما يسفر عن صعوبة الاهتداء الى السبيل القويم فترتكب الجرائم . ولو اردنا أن نستقى من واقع الحياة دليلاً ، لوجدناه فى الجرائم التى برزت حديثاً بشكل ملموس ، لا سيما فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وهى التى تمس الجوانب الاقتصادية من الحياة .

واذا كان بحثنا يتناول الجريمة فى المجتمعات الراهنة ، فان هذا لا يعنى انها وليدة هذه **المجتمعات أو أنها مقصورة عليها** كاحدى ظواهر العلاقات المتشابكة والمعقدة بين افرادها ، او بين هؤلاء الأفراد والسلطة القائمة فيهم . فالأمر على خلاف ذلك ، لأن الجريمة وان وجدت بين أفراد فى جماعة ــ مهما قل عدد أفرادها ــ الا أنها قديمة قدم الجماعة وقدم اجتماع الانسان بغيره من الأفراد ، وآية هذا ما يذكره التاريخ عن قابيل وهابيل . وكل ما فى الأمر ــ كما سبق أن اشرنا ــ أن الجريمة تختلف فى مفهومها وفى مدى انتشارها وفقاً لتقاليد ونواميس جماعة معينة فى وقت معين وفى مكان معين . وحينما نعرض لتطور الفكر العقابى ، سوف نجد الدليل فى قيام فكرة الجريمة والعقاب لدى مختلف الجماعات .

ولفظ **الجريمة** يُعتبر مصطلحاً قد جرى التعارف على استعماله حديثاً ، وهو يعنى فى نظر رجال القانون الاطار النموذجى لما يعتبره المشرع خروجاً على أوامره أو نواهيه فيقرر من أجله العقاب . والجريمة تعنى **العدوان** على أية صورة كان ، اى العدوان على الأنظمة والقواعد التى يضعها المشرع أو يفترض قيامها ، حتى بالنسبة الى الجرائم غير العمدية التى بها يُفترض فى الانسان سلوك معين ، فلا يراعيه فى تصرفاته حتى الدرجة التى تصل الى النتائج المجرمة . والعدوان الذى هو الأساس فى تعريف النموذج القانونى للجريمة حديثاً ، هو الأساس كذلك فى كل الأفعال التى تلحق بالغير ضرراً وتستوجب رد فعل لهذا الضرر . ولقد كانت الجريمة فى العصور القديمة تعتبر من الأفعال التى تسفر عن أضرار خاصة تولد للمضرور وحده الحق فى التعويض ، ثم انتزعت الدولة هذا الحق لها فى بعض الأفعال التى اعتبرتها ماسة بمصلحتها ــ على ما سنرى فيما بعد ــ ولكن بقى الضرر هو الأساس فى توقيع الجزاء او فى اقتضاء التعويض .

ب ــ **الغرائز منشأ الاجرام** : العدوان ــ سواء شكل جريمة فى مفهومنا الراهن أو لم يشكل ــ منشؤه بعض الغرائز التى اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ايجادها فى الانسان . واولى الغرائز واخطرها هى غريزة حب البقاء التى تدفع بالانسان وتحركه نحو كل ما من شأنه أن يحافظ على وجوده ، ومن هنا ينشأ تضارب المصالح ، وفى سبيل البقاء ينشب العدوان الذى هو أساس كل نزاع ، عدوان مرجعه للغريزة . فلو أن لدى كل انسان ما يكفيه لبقائه ما اعتدى ، وما كان للجريمة وجود فى المجتمع . ولو أردنا تقصى أسباب الجريمة والبواعث عليها لانتهينا معها الى الغرائز البدائية فى الانسان ، ولهذا فالملاحظ أنه كلما تهذبت غرائز الانسان كلما قل عدوانه ، وتبعاً لهذا انكمش الاجرام ولكن دون أن ينعدم .

واذا كانت الغرائز هى المحركة لكل عدوان ، فهى أيضاً المحركة لكل دفاع فى مواجهة العدوان . فغريزة حب البقاء التى تدفع بالانسان الى السعى نحو المحافظة على كيانه مهما يكن فى تصرفه من مساس بغيره ، هى بذاتها التى تحرك هذا الغير الى دفع الاعتداء محافظة على بقائه ، ولو كان فى هذا مساس بالمعتدى ، وهذا هو الأصل فى النظرية الخاصة بالدفاع الشرعى ، والتى تقرها التشريعات جميعاً على اساس ان المحرك للدفاع المتمثل فى اعتداء هو الغريزة التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى الانسان . ومتى كان الأمر كذلك فالجريمة اذن مرتبطة بالانسان وجوداً وعدماً ، **فالجريمة والانسان كلمتان متلازمتان ، وجدا سوياً وينتهيان سوياً ، وبهذا فان تصور قيام مجتمع بغير جريمة ــ على أية صورة كانت ــ** أمر غير مقبول .

والعدوان فى الصورة التى عرضناها هو الذى يقع من فرد ، والدفاع الموجه نحو العدوان يصدر عن فرد ، ولكن الفرد المنعزل عن غيره انعزالاً كاملاً لا وجود له ، بل ان من علماء الاجتماع من يرى أن الانسان وجد دائماً فى مجتمع خلال كل فترات التطور التاريخى التى مرت بها الانسانية . وعلى كل حال فان صورة العدوان ــ مع تطور المجتمعات ــ بدات تتغير وآثاره أخذت فى التنوع . **فاشكال الاعتداء اخذت فى التعدد ، وأثرها لم يعد مقصوراً على من وجهت اليه أفعاله ،** بل أصبحت الجماعة ذاتها كوحدة متكاملة تحس بالعدوان ولو بصورة غير مباشرة ، وشعرت بأن عليها واجباً ازاء ذلك العدوان . فالجماعة لها كيان ذاتى مستقل ، ومنذ وجودها خلقت بها **غريزة** المحافظة على بقائها ــ وهى ذات الغريزة التى دفعت الانسان للمحافظة على نفسه ــ ووجهتها نحو طريق رد كل عدوان ، سواء وجه اليها بطريق مباشر ، أم وجه الى احد أفرادها فلحق بها بسبيل غير مباشر .

وقد صاحب هذا التطور تطور آخر من ناحية اخرى . فاذا كان المجتمع قد انتقل من البداوة الى الحضارة ، فانه فى الوقت ذاته أخذ يتدرج نحو الرقى والتقدم . ولم يقتصر هذا على النواحى المادية فى الحياة بل شمل الجوانب الانسانية . ودراسة التاريخ وتطور المجتمعات تكشف عن كفاح ــ سواء صاحبه نجاح أو فشل ــ فى سبيل احترام الذات الانسانية ، وكفالة حد أدنى من الحقوق يتمتع به الانسان ويحفظ له آدميته . ولقد تعددت وتشعبت الدراسات التى تغوص فى النفس الانسانية ، وتربط بينها وبين المجتمع الذى تنشأ فيه وتعيش . وكثير من الثورات فى التاريخ كان من بين بواعثها كفالة الحماية والاحترام لشخص الانسان وحقوقه .

ولا يسعنا ونحن نتكلم عن الدفاع الاجتماعى الذى يعتبر حركة انسانية الا أن نشير الى مقتطفات من آثار الكفاح فى سبيل تقرير حقوق الانسان . وحقوق الانسان هى تلك الحقوق الطبيعية التى

يجب أن تثبت لكل انسان فى كل مكان وزمان ، لمجرد كونه انسانا وتمييزا له عن سائر الكائنات الاخرى . ولقد نصت المادة الثانيــة من اعلان حقوق الانسان والمواطن الصادر فى فرنسا غداة الثورة بتاريخ ١٧٨٩/٨/٢٦ ــ على أن ((**هدف كل جماعة سياسية هو الحفاظ على حقوق الانسان الطبيعية الدائمة ، وان هذه الحقوق هى الحرية والملكية والطمانينة ومقاومة الاضطهاد**)) . ونصت المادة الثامنة على أن ((**لا يجوز للتشريع أن ينشىء من العقــوبات الا ما كان لازمــاً لزوماً شــــديداً وواضحاً ، ولا يعاقب شخص الا بمقتضى قانون وضع واصدر قبل وقوع الجريمة وطبق تطبيقاً سليماً**)) . ونصت المادة التاسعة على أن ((**يفترض فى كل شخص انه برىء حتى يقضى بادانته ، فاذا لم يكن مناص من القبض عليــه وجــب تحــريم استعمال كل قســوة لا يقتضــيها التحفظ على شخصه**)) . وفى العاشر من ديسمبر سنة ١٩٤٨ أصــدرت الجمعية العامة للامم المتحدة الاعلان العالمى لحقوق الانســـان وضمنت الديباجــة أن الاعتراف بالكرامة المتأصلة فى جميع اعضاء الاسرة الانسانية وبحقوقهم المتســـاوية والتى لا يجوز النزول عنها هو دعامة الحرية والعدل والسلام . وأن اهدار حقوق الانسان واحتقارها قد أفضيا الى أفعال همجية اشمأز منها ضمير الانســـان ، وأن أعلى ما تصبو اليه آمال الانسانية هو أن يوجد عالم يكون الناس فيه احراراً فيما يقولون وفيما يعتقدون ويكونون فى مأمن من الفزع والبؤس . وأن شعوب الامم المتحدة قد اكدت فى الميثاق من جديد ايمانها بحقوق الانسان الأساسية وبكرامة الشخص الانسانى وقدره والمساواة بين الرجال والنساء فى الحقوق ، وحزمت أمرها على تهيئة الســـبيل الى التقدم الاجتماعى واتاحــة احسن الظروف للعيش فى جو من الحرية أرحب واوسع .

والنظرة الانسانية التى صــاحبت تطــور البشرية كان من اللازم ان تترك بصــماتها على علاقة المجتمع بالأفراد الخارجين عليه . فاذا كان من الامور الطبيعية أن يوجد رد فعــل لما يمس المجتمع من أفعال ، فقد اتســـم فى بدايته بطابع المجتمع الذى وجد فيه ، أى بالشدة والقسوة ، وهو ما يكشف عنه التطـــور التاريخى العقوبة . ولما اخذ الطابع الانسانى يسود القيم الاجتماعية انعكس هذا بدوره على المعاملة العقابيــة لمرتكب الجريمة ، كما سيتضح عند الكلام على تطـور الفكر العقابى .

واذا كان الاجمــاع يكــاد ينعقد فى عصرنا الحاضر على ان الجريمة ظاهرة اجتماعية تحتاج الى تقصى اسبابها فى ســبيل مكافحتها ، وتدعو ــ فضلا عن مجازاة المجرم ــ الى محاولة اصلاحه وتقويمه بغية اعادته الى الجماعة ، فان هنـــاك نقاطاً عديدة ما زالت تثير تساؤلات وفى حاجة الى ايضاحات وتدور جميعها حول معنى الجريمة فى نظر المجتمعات الراهنة وكيف يكون النظــر اليها والانعكاس الذى يترتب عليها كرد فعل من جانب المجتمع ، وما هو أمل الانســـانية بالنســـبة الى الجريمة ومرتكبها ، وامكان تحقيق تلك الآمال فى المجتمعات العربية .

وبحثنا لموضوع الدفــاع الاجتماعى ضــد الجريمة فى المجتمعات العربية يقتضى اولاً بيان تطور الفكر العقابى ، لأن قطع الصلة بين الماضى والحاضر قد يضل طريق الباحث ، لا سيما وان الجريمة ــ كما سبق القول ــ ظاهرة اجتماعية متطورة بتطور المجتمعات . ويقتضى ثانياً أن نبين المفهوم الخاص بالدفاع الاجتماعى ، وذلك قبل أن ننتهى أخيراً الى ما نراه فى هذا الصدد بالنسبة الى مجتمعنا العربى .

●●●

أولاً ــ تطور الفكر العقابى

يعتبر القانون الجنائى فى مفهومه الواسع من اقدم القوانين ، فهو قرين البشرية منذ وجودها ، ذلك لانه يتصل بالغرائز التى أودعها الله الانسان كما ذكرنا . فالانسان فى مجتمعه تتنازعه قوتان متعارضتان ، الفردية متمثلة فى أنانيته للاستئثار بكل شىء واهدار حقوق الآخرين ، والغريزة الاجتماعية التى تبغى بقاء الجماعة والمحافظة عليها ، الأمر الذى يقتضى ضبط الشهوات والنزعات . وكان من الطبيعى أن تقوم بين أفراد الجماعة الواحدة منافسة على الحياة تستتبع وجود المنازعات التى تؤدى بدورها الى الخلل والاضطراب فيها ان لم يكن الى فنائها . ولكن بمرور الزمان أحل الانسان السلم مكان الحرب وانتهت تجاربه الى أن تمتعه بحريته يوجب عليه التنازل عن شىء من اطلاقها والسماح للآخرين بالتمتع بحرياتهم بالشروط ذاتها . وكان تحديد الحريات المختلفة فى شكل قواعد التزم كل فرد باتباعها فى علاقته مع الآخرين ومن هذه القواعد تكوّن القانون . ولهذا فان الحديث عن التطور التاريخى للقانون الجنائى ــ وتبعاً الفكر العقابى ــ انما يتناول تطور الجماعات ذاتها ، وكذلك الأفكار والآراء والمعتقدات التى صاحبت ذلك التطور ، الأمر الذى يؤدى الى عدم جواز فصل تطور الجماعة عن تطور الجريمة والعقاب ، ولعل هذا هو ما حدا الى اعتبار القانون الجنائى من العلوم الاجتماعية ؛ بل ونرى كثيراً من الباحثين الاجتماعيين يتعرضون لمشكلات الجريمة والمجرم والعقاب .

وتطور الفكر العقابى يشمل تطور فكرة الجريمة ذاتها ورد الفعل فى مواجهتها المتمثل فى العقاب . وقد استتبع هذا أن تختلف النظرة الى المجرم على ما سيأتى بيانه .

أولاً ــ عصر الانتقام الفردى : كانت القوة هى القانون فى العصور القديمة ، فأى عمل يقع على الفرد ويعتبره عدواناً عليه يهب لدفعه أو للرد عليه (١) ، وكانت الغلبة للقوى ، لا لمن كان الحق فى جانبه . والفرد بذاته هو الذى يقرر ماذا كان الفعل ماساً به من عدمه ، ومقدار الرد الذى يواجه به المعتدى . ومن الطبيعى أن لايكون معنى الجريمة والعقاب معروفاً ، وانما كانت الغرائز هى المحركة لمختلف التصرفات .

والانسان بحكم الغرائز القائمة فيه يميل الى الاتصال بغيره والارتباط به ، ومن ثم نشأت الجماعات وكانت نواتها وأصغرها الاسرة . فقد وهب الانسان الحياة ودفعته غريزة حب البقاء الى المحافظة عليها ، فأخضع الطبيعة لقوته وسلطانه ، ثم قادته غريزته الاجتماعية الى الاندماج مع غيره من الافراد ، حيث تعذر عليه العيش بمفرده ، فكما قال ارسطو من يعيش فى عزلة تامة ، اما أن يكون من الضوارى أو الآلهة أو شيئاً أكثر أو أقل من انسان . وقد اقتضى واجب المحافظة على هذه الجماعة الصغيرة ــ اى الاسرة ــ أن يقوم فيها رئيس يباشر شئونها ، فان وقع اعتداء من احد أفرادها على فرد آخر أوقع المجنى عليه تحت اشراف رئيس الاسرة اعتداء مماثلاً ، ومن هنا كانت القاعدة « عين بعين وسن بسن » . وفى سبيل حفظ النظام داخل الاسرة بدأ الرئيس فى توقيع بعض العقوبات التى كانوا قد تعارفوا عليها مثل القتل والضرب والطرد من الاسرة الذى يترتب عليه حرمان الفرد من حمايتها واهدار دمه . ولما انضمت الاسر الى بعضها البعض وتكونت العشائر بقيت القواعد ذاتها مطبقة (٢) . وكان هذا الأمر مقصوراً فى البداية على الأفعال

---

(١) Roger Merle et André Vitu : **Traité de droit criminel**, 1967 p. 10

(٢) H. Donnedieu de Vabres : **Traité élémentaire de droit criminel et de legislation pénale comparée**, 1947, p. 16.

الخطيرة التى تهدد كيان العشيرة واعتبرت نوعاً من الخيانة ، اما الجرائم الصغيرة فكانت تخضع لمبدأ الانتقام الفردى ، الذى أخذت تضيق دائرته بمرور الزمن ، فيحل محله القصاص ، ووجدت بعض القيود التى تحرمه فى مناسبات تتصل بالمعتقدات السائدة (٣) .

على أن الاعتداء قد يقع من فرد فى اسرة او عشيرة على آخر فى اسرة او عشيرة اخرى ، ولم تكن هناك سلطة عليا يخضع لها افراد الاسرتين أو العشيرتين حتى تستطيع أن تجازى الفاعل على ما قدمت يداه . وكان الأمر فى هذه الحالة يسفر عن ان يستنصر المجنى عليه أفراد عشيرته للثأر من الجانى وعشيرته ، فيقوم النزال والعراك بل والحرب بين العشيرتين الى درجة لا يعرف مداها . ولا شك فى أن هذا الوضع بدوره أساسه الغرائز الموجودة فى كل فرد من أفراد الجماعة . وكما هو الحال بالنسبة الى الافراد كانت الغلبة للقوى ، ومن ثم لم يكن الحق فى جانب المنتصر دائماً ، بل ان القوة هى الأساس فى انتصاره .

واذا نظرنا الى الصورتين سالفتى الذكر لا نستطيع القول بأن فكرة القانون الجنائى قد ظهرت فيهما ، الا حينما كان يقوم رئيس الاسرة والعشيرة بتوقيع عقوبة مما تعارفوا عليه على احد الأفراد الخاضعين له . اما فيما عدا هذا فلا يتوافر مفهوم الجريمة او العقاب وانما قوة وسلطان .

ولما كانت سنة الحياة هى البقاء وكان استمرار الحال على الصورة آنفة البيان قد يؤدى الى فناء الجماعات ، وبالأقل ايقاع الاضطراب والاختلال فيها ، فانا نجد تطوراً يطرأ على معاملة الجناة ابتغاء المحافظة على الجماعة ، فظهر نظام الدية والقصاص (٤) . والأصل فى الدية انها مبلغ من المال يتحدد بين الطرفين المتنازعين اى العشيرتين أو القبيلتين ويُعتبر مقابلاً لما لحق المجنى عليه من ضرر وبمثابة الصلح الذى يؤدى الى انهاء النزاع بينهما ... ومن الطبيعى ان يختلف مقدارها وفق ما اذا كانت ثمناً لفقد الحياة او احد الأعضاء . اما القصاص ففيه يوقع المجنى عليه أو عشيرته ضرراً مماثلاً لما حدث له بذات الجانى . قال تعالى « وكتبنا عليهم ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص » . ويُعتبر كل من النظامين مظهراً من مظاهر العقاب الخاص ، اذ يقتصر على العلاقة بين الجانى والمجنى عليه او عائلتيهما دون أن يكون للجماعة حق عام تباشره . وقد اريد به السيطرة على غريزة الانتقام والحد منها ، حتى لا يستمر العدوان بسببها فى حلقة مفرغة لا نهاية لها الا بفناء الجماعة ذاتها .

على أن الأخذ بأحد النظامين كان اختيارياً ، ان شاءت ارتضته قبيلة المجنى عليه وان ارادت رفضته . ومع مرور الزمان رسخت التقاليد وانقلب نظام القصاص والدية الى اعتباره الزامياً ، يُفرض على الطرفين وفقاً لقواعد ثابتة (٥) . وكان هذا فى العصور الاولى لتكوين الدول وظهور سلطانها .

وواضح انه فى ذلك العصر الانتقامى لم يكن الهدف من الجزاء مكافحة الجريمة سواء بما

---

(٣) Vidal G. et j. Magnal, **Cours de droit criminel et de science penitentiare**, 1935, p. 13.

(٤) مرل وفيتى ، المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٥) دى فابر ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

يحدثه من ردع خاص أو عام ، ولكنه كان نتيجةطبيعية لمجتمع المقاتلين حيث كانت القـوة أمراً عادياً (٦) . ولم تكن فكـرة الخطيئة معروفة . وكانت للجزاء صفة آلية ، بل ان المسئولية عن الفعل الخاطىء تقع على عاتق الجماعة من أقرباءالفاعل .

ثانياً ــ عصر الانتقام الالهى والانتقام العام : انتهى العصر الأول بظهور الدولـة ، وكان هذا متمشياً مع ظهور الأديان . وأخذ سلطان الدولةيقوى بمرور الزمن ، وفى سبيل تثبيت وجودها واستمرارها أخذت على عاتقها مؤاخذة المجرم عنالجريمة التى يرتكبها منتزعة بهذا سلطان رؤساء القبائل . وقد استندت الدولة فى هذا الى انالجريمة تعد مخالفة لأوامـر الله وفيهـا ازعاج للمجتمع . ففى العقابتكفير من الجانى عنارتكابالجريمة وردع له من أن تساوره نفسه لمقارفة جرم آخر ، فضلاً عما فى هـذا من ردع للغير . فلقد كانـت المعتقدات الدينيـة التى تؤمن بهـا المجتمعاتالاولى هى من بيناسس الارتباط بينها، ومن بين ما اعتمدت عليه فى سبيل المحافظة على كيانها .. ولهذا فانها نظرت الى الجريمةباعتبارها فعلاً يثير غضب الآلهة ، وان ما صدر عن الجانى كان بسبب الأرواح الشريرة التى تقمصته ، وعملاًعلى استجلاب رضاء الآلهة يتعين تطهير الجانى من تلك الأرواح وذلك بانزال أقسى العقوبات به ، التىكان يحاط تنفيذها بطقوس دينية متعارف عليها ، ومن ثم نشأت فكرة التكفير عن الذنب (٧) .

وكان من الطبيعى والدولة فى بدء نشأتها انتوجه كل قوتها وسـلطانها للانتقام من الجانى ، الأمر الذى تمثل فى عدم تحديد الجرائم وفى قسوةالعقوبات والتفرقة بين الأفراد فى المعاملة . فلم تكن الجرائم محددة ولا معروفة سلفاً ، وانما كانتحديد الفعل وما اذا كان يعد جريمة من عدمه متروكاً لتقدير القاضى . والعقوبات كذلك لم تكنمعينة الأنواع أو مضبوطة الحدود ، والعقوبـة الغالبة هى الاعدام . وكان تنفيذ العقوبات يتسمبالقسوة والشـدة ، فعقوبـة الاعدام تنفذ بعد تعذيب المحكوم عليه ، وتتم بصورة علنية يقشعرمنها البدن . اما عقوبة السـجن فكانت تنفذ فى أماكن خالية من كل رعاية صحية ، بل كان المحكومعليهم يساقون الى السجون تحت رحمة القائمين عليها دون طعـام او اشراف . واسـفر هذا عنتحويلها الى بؤرات للاجرام ، فلم يعد السـجن مكاناً للاصلاح وانما أداة للافسـاد . ولم تكنقاعدة المساواة بين الأفراد ــ المعروفة حديثاً ــ مطبقة أو معمولاً بها ، بل كانت هناك طبقة النبلاءورجال الجيش ، وطبقة الشعب ، وكانت الاولى تعامـل معاملـة خاصـة لمركـزها الخاص فىالمجتمع (٨) . وعلى سبيل المثال كان المرسـوم الملكى الصادر سنة ١٦٧٠ الذى نظم الاجراءاتالجنائية موجزاً ولم يشمل الا بعض النصوص عن الأفعال المجرمة والجزاءات المقررة لهـا ، دونتحديد ، وهذا قد جعل القضاة يتمتعون بسلطة واسعة فى تحديد الأفعال التى تعد جـرائم وفىتقرير العقوبات عند ارتكابها . وكان هذا هـو المدخل الواسع لتعسف بعض القضاة . وكان الملكوهو مصدر العدالة يستطيع عن طريق القضـاة العسف بالحريات .

تلك الفترة من فترات القانون الجنائى كانتمن أسوأ العصور فى تطور العدالة . ولعلنا نجد

---

(٦) Raymond Saleilles, L'individualisation de la peine, 1927, p. 27.

(٧) سالى ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٨) Emile garcon, **Le droit pénal**, 1922, p. 15 et su.

من وراء هذا رغبة الملوك والحكام في فرض السيطرة على الدولة بعد نشأتها ، ولم يكن احترام القيود التى تفرض على حرية الأفراد نتيجة لذلك بالأمر الميسور لهم بعد الحرية المطلقة التى كانوا يتمتعون بها (٩) . فأول ما عنيت به الدولة فى بدء نشأتها هو المحافظة على سيادتها وكيانها من العدوان ، وذلك بمقاومة الجرائم الماسة بسلطانها ، كالخيانة والتجسس والهرب من الجندية . واخذت الدولة تزيد فى قائمة الجرائم التى تعاقب عليها فامتدت الى كل ما يمس بالمصلحة العامة ولو بطريق غير مباشر ، وفرضت لها أشد العقوبات اى الاعدام (١٠) . على أن الحكام استندوا الى نظرية التفويض الالهى وتوسيع نطاقها فى سبيل تدعيم سلطانهم ، والتخلص من خصومهم السياسيين والمناوئين لحكمهم (١١) .

ولما أصبحت الجريمة ظاهرة اجتماعية وفيها تهديد للنظام العام ، لم يعد الهدف من العقاب مقصوراً على الانتقام من الجانى ـ حلولاً محل المجنى عليه ـ ولكن اتجه نحو اتخاذ الوسائل الضرورية لمنع الجرائم فى المستقبل ، وتلك الوسائل ـ كما كان الحال فى القديم ـ تعتمد على القوة . على أن استخدام القوة قد تغير أساسه والغاية منه (١٢) فالأساس هو تطهير نفس الجانى الذى وقع منه خطأ بارتكاب الجريمة ويستوجب جزاء يوقعه الملك الذى يستمد سلطانه من تفويض الهى . وكانت الغاية هى حماية النظام العام باعتبار الجزاء حين توقعه الدولة مثالا من شأنه أن يمنع الجانى من معاودة ارتكاب الجريمة ، ويمنع الغير من الاقدام عليها . فكان القانون الجنائى الفرنسى فى القديم منذ القرن السابع عشر يقوم على أساس كلمتين : التكفير والردع (١٣) .

وخلاصة القول أنه فى هذه المرحلة تحولت فكرة القصاص والدية الى العقوبة ، فاخذت السلطة الحاكمة لنفسها حق العقاب العام الذى حل مكان العقاب الخاص وأصبحت هى وحدها المختصة بتوقيع الجزاء على الجانى نتيجة لما احدثه فعله من مساس واضطراب فى انظمة المجتمع . كما وأنها احتجزت لنفسها قدراً من الدية التى يحكم بها كمقابل لما شاركت به سلطاتها من اجراءات تحصيلها من الجانى ، ثم نشأت فكرة الغرامة الجنائية التى تطورت حتى اصبحت عقوبة مستقلة قد يحكم بها وحدها عن الجريمة التى تقع من الجانى ، وبقى حق المتضرر من الجريمة متمثلاً فى التعويض الذى يقتضيه باعتباره مجرد حق مدنى له . وعلى أساس ما تقدم يمكن القول بأن الانتقام الخاص قد تأثر بظهور الدولة التى اخذ حقها فى العقاب ينتقص منه تدريجياً الى أن وصل لصورته الراهنة .

ثالثاً ـ العصر الانسانى : يقضى المنطق والمعقول أن يتحمل الانسان نتائج تصرفاته الضارة سواء ما تعلق منها بمعاملاته أو بما يحرمه القانون وبوصف بأنه جريمة . وقد تناول الفلاسفة دراسة الأساس الذى تبنى عليه مسئولية الفرد جنائياً وانقسموا الى فريقين أساسيين ، **الأول** منهما رأى أن الانسان متى اكتملت مداركه العقلية أصبح حراً فى تصرفاته يوجه ارادته حيث يشاء ويكون

---

(٩) Garraud, Traité de droit pénal, I m. 50.

(١٠) دكتور على راشد ، « المفهوم الاجتماعى للقانون الجنائى » ، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية ، السنة العاشرة ، العدد الاول ، ص ٢٢ .

(١١) فيدال ومانيول ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

(١٢) مرل وفيتى ، المرجع السابق ، ص ١١ .

(١٣) جارسون ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

مسئولاً عن كل أفعاله ، فأمامه طـريقا الخير والشر ، وحسبما يوجه ارادته يتحمل مسئولية تصرفه . وعلى هذا فالجريمة وليدة ارادة الفرد الحرة ، وحيـث تنعدم الارادة والاختيار تنتفى مسئوليته ، أى ان أساس المسئولية الجنائية هو المسئولية الادبية أو الاخلاقية . **أما الفريق الآخر** فقد نظر الى المسألة من وجهة مغايرة مقرراً ان تصرفات الانسان مقدرة عليه ليس لارادته فيهـا دخل كبير ، وانما هى نتيجة لعوامل وظروف مختلفة طبيعية وشخصية وعائلية تضافرت جميعاً فدفعت به الى طريق الجريمة ، ومن ثم فلم يكن له قِبَلَها اية قوة أو مقاومة . وكان من نتيجة الرأى الأول أن اصبحت العقوبة جـزاء على تصرفات الشخص ضد المجتمع ، ويتوافر لها معنى تحقيق العدالة بين أفراده . أما الرأى الآخر ــ ويعتبر الجريمة ولا ارادة للفرد فيها ــ فان اساس العقوبة عنده دفـاع المجتمع عن نفســـه قِبلَ الأفعال الضارة التى تؤثر فى كيانه .

ولقد كانت النظـرة الاولى ــ اى حريـة الاختيار والجبرية ــ محوراً للفلسفة الجنائية منذ أواخر القرن السابع عشر ، ذلك أن أخذ الدولة لنفسها حق العقاب وعملاً منها على اسـتقرار الأمن فيها قد ادى الى تلك القسوة فى العقوبات ، مما ابعد السياسة الجنائية عن العدالة ، وبدأت الأذهان تتنبه الى ما بالعقوبات من ظلم والى ما فى تنفيذها من قسوة لا مبرر لها ، مما حمل رجال الكنيسة على مناهضتها ، والفلاسفة على مهاجمتها ومحاولة تأصيلها ابتغاء وضع الضوابط لها .

فمن ناحية لعبت **المحاكم الكنيسة** فى العصور الوسطى دوراً هاماً ، وكان تسلطها واضحاً على دول اوربا فى الجانب الأكبر من تلك العصـــور ، فادخلت فى اختصاصها كل الافعال التى تمس من قريب أو بعيد المصالح الدينية ، كالجرائم ضـد الأماكن المقدسة وأموال الكنيسة والسحر والزنا ... الخ . وجعـل النظام الكنسى فكرة العقاب متمشية مع فكرة الخطيئـة والمجازاة عليهـا . فالعقوبة الكنسية لها أسـاس فى التكفير وتمهيد لسلوك سبيل التوبة . فهى جـزاء المسـئولية الأخلاقية للمذنب وتتناسب مع خطورة الخطأ ، ومدى مسئولية المخطىء ، ولا يحكم بها من أجل شهوة انتقام المجنى عليه أو الاهتمام باتخاذه قدوة للغير . فالمذنب يعاقب فى الحدود التى يستحقها ولأنه أذنب . ومن أجل هذا ــ ولـما تتسـم به المبادىء المسيحية من التسامح والرحمة ــ خلت العقوبات من مظاهر القسوة والشـدة ، بل ان عقوبة الاعدام فى ذاتهـا لم تلق رضـاء كبيراً من رجال الكنيسة (١٤) .

وسارت الكنيسة فى طريقها لتحقيق هدف أكثر واقعية وأكبر فائدة . فالعقـوبة لها قيمة اصلاحية اذ هى وسيلة لتقويم المذنب . ولأول مرة أخذ فى الاعتبار مستقبل الجانى ومحاولة اعادته الى الحياة الاجتماعية ، وكان هذا هو أكبر تجديد فى تاريخ الأفكار العقابية (١٥) . فلقد كان للكنيسة وتعاليمها أثر بالغ فى تعديل النظم العقابية ، اذ أخذت تشيع مبادىء الرحمة والمغفرة والاخـوة وتحاول مساعدة المجرم على النهوض من عثرته ، ولهذا الغيت عقوبة الاعـدام وخففت العقوبات الاخرى وطبق نظام الكفارات الدينية . وكان أهم حدث هو اصلاح السـجون حتى يعامل فيهـا المسجونون معاملة تتسم بالانسانية وتهدف الى اصلاح حالهم . وقد كان لهذا التطور أثر بالغ فى اصلاح السجون فى اوربا لا سـيما بعد حملة الاصلاح التى حمل لواءها هوارد الانجليزى .

ولكن بالرغم من تعاليم المسيحية التى تنطوى على جوانب انسانية ، فانه لم يكن لها من أثر كبير

---

(١٤) دى قابر ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

(١٥) مرل وفيتى ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

بسبب الاعتبارات السياسية التى كانت تسيطرعلى الحكام ابتغاء تثبيت دعائم سلطانهم ، ولهذا ما كانت الجرائم محددة سلفاً ولا العقوبات المقررةلها ـ كما قلنا ـ ، وكانت القسوة هىسمةالعقاب فى تلك العصور . فعقوبة الاعدام كانت مقررةلعدد كبير من الجرائم ـ بلغت فى فرنسا مائة وخمس عشرة جريمة ـ بعضها ليس من الخطورةالتى تستوجبها . وكان تنفيذ الاعدام يجرى علنا، وبطرق يقشعر منهـا البدن ومنها دفن المحكوم عليه وهو على قيد الحياة ، وربط اطراف الجسم باربعة احصنة يجرى كل منهـا فى اتجاه حتىيتمزق الجسم ، وغلى المحكوم عليه فى الزيت وتحطيم عظامه فوق عجلة خاصـة (١٦) . أماالعقوبات البدنية فكانت عديدة ، ومنها الجلد علانية وبتر الأعضاء وكى كتف المحكوم عليه بحديدمحمى بما يدمغه بالاجرام ولا يزول مع الزمن .

ولقد قام **الفلاسفة** من ناحية ثانية بحملةينكرون فيها قسوة العقوبات التى لا مبرر لها ، راسمين الأساس فى توقيعها والهدف الذى يرجىتحقيقه منها حماية للجماعة . ومن هؤلاء الفلاسفة **منتسكيو** الذى أخرج كتابه « روح القـوانين »وحمل فيه على قسوة العقوبات لا سيما ما كان منها مهيناً ، واستبعد نظريات العقاب التى تقومعلى فكرة التكفير والردع ، موضحاً أن القانون الجنائى يختلف باختلاف الوقت والاقليم والمناخ ،فهو نسبى فى اعماله . الى جانب ذلك ظهـرت كتابات **هوبز ولوك وروسو** التى بنيت على أساسالعقد الاجتماعى (١٧) ، وكان ذلك سنداً لرجال المدرسة التقليدية الاولى التى سيأتى ذكرها .

فذهب **هوبز** الى أن عقداً ابرم بين الأفرادجميعا نقل الحق الطبيعى المطلق الذى كان لكل فرد على كل شىء الىشخص ليس طرفا فى العقد ،وبالتالى فارادة هذا الأخـير وحدها تحل محل ارادة الجميع وتمثلهم . اما **لوك** فقد قرر انجميعاطراف الجماعة طـرف فى العقد بما فى ذلك من يتولى السلطة العامة ، وهم لا ينزلون بمقتضاهعن حقوقهم كلها ، وانما عن الجـزء اللازم منها لخلق تلك السـلطة التى لا يجـوز أن تمس مـااحتفظوا به من هذه الحقوق . فظهور الحاجة الى تنظيم الحرية وضمانها وحماية الملكية الخاصـة ـاقامة العدالة اضـطر الأفـراد الى الانضـمام لبعضهم البعض ـ برغبتهم ـ بعد أن تنازل كلمنهم عن جزء من حريته وبعض حقوقه (واهمها حق الدفاع عن النفس والملكية الخاصة ، وحقعقاب الغـير حين يعتدون عليـه أو على ملكيته الخاصة) الى المجتمع أو الى الحكومة كيما تسهرعلى رعايتهم وتنظيم حقوقهم وحـرياتهم (١٨) . واخيراً بدأ **جان جاك روسو** كتابة العقد الاجتماعى عبارة « يولد الانسان حراً ، ولكنه يكبل بالأغلال فى كل مكان فكيـف حـدث هـذا التغيير ؟ » .وبموجب عقده الاجتماعى ، نزل كل مشـترك نزولا كليا عن شخصه بحقوقـه جمعاء للجماعة كلها .وكلما كان النـزول كليـا من غير تحفظ كلما كان الاتحاد أكمل . واذ يعطى كل واحد نفسـه للكللا يعطيها فى الواقع لأحد . وتلك هى صيغة الميثاق الجماعى « يضع كل واحد منا نفسه وكل ما اوتىمن قوة مشتركةتحت الادارةالعليا للارادة العامة، ونلتقى بهيئتنا كل عضو كجزء من كل لا يتجزأ ».

---

(١٦) فيدال ومانيول ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(١٧) راجع فى هذا الصدد ، دكتور محمد طه بدوى ،امهات الافكار السياسية الحديثة ، ١٩٥٨ ، ص ٥١ ، ٩٣ ، ١٠٩ .

(١٨) عزمى اسلام ، جون لوك ، نوابغ الفكر الغربى ،١٩٦٤ ، ص ٢٠٩ .

رابعاً ــ العصر الحديث : كان لكتابات الفلاسفة أثر بالغ فى رجال الفكر الجنائي ، الذين استوحوا أفكارهم من فلسفة العقد الاجتماعي واخذوا فى دراسة علاقة الدولة بالفرد وأساس حقها فى العقاب محاولين بذلك ايجاد ضوابط واضحة تحمى حريات الأفراد ، واضعين بذلك حجر الأساس للقانون الجنائى الحديث . وقد استمر تطور القانون الجنائى ، وسادته نظريات مختلفة اتخذت كل منها اسم مدرسة على النحو التالى :

١ ــ المدرسة التقليدية الاولى : وهذه تتفرع فى الحقيقة الى مدرستين تسمى اولاهما المدرسة التقليدية أو التقليدية الاولى وتسمى الثانية المدرسة التقليدية الجديدة وقد رأينا فيما سبق كيف وصل سوء الحال بالسياسة الجنائية خلال العصور الوسطى . وقد كان ذلك نواة لظهور المدرسة التقليدية الاولى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ويعتبر **شيزار بكاريا** رائد المدرسة التقليدية الاولى فقد كان لكتابه الذى اخرجه عن الجرائم والعقوبات عام ١٧٦٤ وقع كبير حيث تصدى البعض لافكاره بالدفاع عنها ، فى حين صدمت الأوساط القضائية والجامعية بآرائه الجديدة (١٩) . ومن رواد هذه المدرسة ايضاً **بنتام** الانجليزى فى كتابه عن العقوبات والمكافآت (عام ١٨١٨) . **وفورباخ** الألمانى فى كتابه الذى نشره عام ١٨٠١ عن شرح قانون العقوبات الألمانى .

وقد كانت آراء فقهاء هذه المدرسة رد الفعل الطبيعى للحال التى كانت قائمة من قبل ، فاقرت مبدأ شرعية الجرائم والعقوبات ، وهو الذى يقضى بأن لا جريمة ولا عقوبة الا بنص فى القانون ، وبهذا يأمن الناس على حرياتهم ، اذ ان النتيجة الطبيعية لهذا هى القضاء على السلطة الواسعة التى كانت للقضاة فى التجريم والعقاب ، فلا يستطيع القاضى ان يجرم أفعالاً لم ينص عليها القانون ، ولا يوقع عقوبة لم يرد فى شأنها نص . وقد أدى تحديد العقاب كذلك الى المساواة فيه بين من يرتكبون جريمة من نوع واحد . ولتأثر هذه المدرسة بفكرة العقد الاجتماعى ، حملت على القسوة فى العقوبات ونادت بتخفيفها مع استبعاد وسائل التعذيب المختلفة .

ولذا فانا نجد ان **بكاريا** يقول انه « لا يجوز ان تكون العقوبة عمل عنف يصدر من فرد أو أكثر ضد فرد آخر من أفراد المجتمع ، ولكن ينبغى أن تكون فى أقل قدر ممكن بالنسبة الى الحالة التى توقع فيها ، وينبغى أن تكون متناسبة مع الجريمة ومحددة بناء على قانون » . ويرى **بنتام** وجوب أن تكون العقوبة من الجسامة بحيث يجد الشخص فى الموازنة بين الاقدام على الجريمة واحتمال العقوبة ، وبين الاحجام عنها والافلات من العقاب ، يجد مصلحته وفائدته فى اختيار الاحجام (٢٠) . ويقرر **فورباخ** أن الدافع النفسى الى الجريمة هو اللذة التى يستشعرها الشخص ارضاء لاحدى شهواته بارتكابها ، وأن فى الامكان القضاء على هذا المصدر اذا علم كل انسان سلفاً بأن فعله سوف يجلب له حتماً أذى أشد مما يجلبه له عدم ارضاء شهوته من حرمان من الاحساس باللذة (٢١) .

فقد حمل **بكاريا** على الوسائل العقابية السائدة فى عصره ، مبيناً أن الغاية من العقوبة هو النفع الذى يتوصل اليه عن طريقها ، وهو يتمثل فى منع المجرم من العودة الى ارتكاب الجريمة

---

(١٩) مرل وفيتى ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢٠) دى قابر ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٢١) دى قابر ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

وردع غيره عن محاولة الاقتداء به ، وبين هذين الحدين فقط يتقرر العقاب . ومتى تحققت تلك الغاية فلا محل لتعذيب المجرم أو التنكيل به . والعقوبة الرادعة فى نظره ليست العقوبة الشديدة فى قدرها بل العقوبة الموثوق من اعمالها ، فتطبيق القانون هو الذى يتمثل فيه عامل الردع . ومن ثم فلا محل للعقوبات الشديدة ، التى ينبغى ان يحددها القانون فلا يترك أمرها لهوى القضاة وتحكمهم . وانه وان اعتنق كل من بنتام وفورباخ مبدأ المنفعة الذى نادى به بكاريا ، الا انهما استندا الى نظرية المصلحة الاجتماعية فى تبرير العقوبة ، فهى وسيلة ضرورية لتحقيق مصلحة مشروعة للمجتمع فى مكافحة الاجرام ، ومن ثم يجب ان تكون العقوبة رادعة . ويتحقق الردع بأن يكون الضرر الذى يحيق بالمجرم نتيجة لها ، أكبر من النفع الذى يحصل عليه من الجريمة . فهما يناصران سياسة الردع والارهاب والقسوة فى العقاب خلافاً لآراء بكاريا الذى يرى ان يكون العقاب بالقدر الضرورى متأثراً بفكرة العقد الاجتماعى .

وقد اعتنقت المدرسة التقليدية الاولى مبدأ حرية الاختيار كأساس للمسئولية الجنائية، وهى القدرة المجردة على الاختيار بين طريقى الخير والشر ، اى الطريق الموافق للقانون والطريق المخالف للقانون . فلا يسأل عن الأشخاص جنائياً الا من توفرت لديه الملكات الذهنية والنفسية التى تكفل له تمييز الخير والشر ، وبالتالى ادراك ما فى تصرفاته من احترام أو مخالفة لمبادىء الأخلاق . وقد افترضت هذه المدرسة أن حرية الاختيار متساوية لدى كل الأفراد ، ما دام لا يقوم لدى أحدهم مانع من موانع المسئولية كالجنون. وكانت النتيجة المنطقية لهذا أنها لم تعترف بالمسئولية المخففة بالنسبة الى بعض المجرمين كالشواذ .

وكان من فضل عناية المدرسة الاولى بموضوع الجريمة وتركيز الاهتمام حوله اعتناقها لمبدأ الشرعية حيث حددت كل جريمة والعقوبة المقررة والتى تطبق على كل مرتكب لها ، فتخلصت من تحكم القضاة وتوصلت الى التخفيف من العقوبات تحت تأثير فكرة العقد الاجتماعى . بيد انه قد اخذ على تلك المدرسة اغفالها شخص المجرم اغفالاً تاماً ، مع انه محور الجريمة والعقاب ، فضلاً عن أن تحديد العقوبات بشكل يحرم القاضى من كل تقدير أبعد العقاب عن العدالة بسبب الاختلاف فى الظروف الخاصة بكل واقعة تعد جريمة وان اتحدت فى نوعها .

وأثرت كتابات اولئك الفلاسفة فى التشريعات السابقة على الثورة الفرنسية ، ومنها الغاء التعذيب فى فرنسا سنة ١٨٧٠ . وصدر اعلان حقوق الانسان والمواطن على اثر الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ مقرراً مبدأ شرعية الجرائم والعقوبات، أى لا جريمة ولا عقوبة الا بنص فى القانون . ولما صدر قانون العقوبات الفرنسى الأول بعد الثورة سنة ١٧٩١ أخذ بكثير من المبادىء التى نادت بها تلك المدرسة ، فتقررت شخصية العقوبة وخفف كثير من العقوبات ، وقلت الجرائم التى يحكم من أجلها بالاعدام الى درجة كبيرة فنزلت الى ٣٢ حالة فقط بعد ان كانت ١١٥ حالة . واكتفى فى عقوبة الاعدام بمجرد ازهاق الروح ، والغيت العقوبات المؤبدة والمصادرة العامة والتعذيب وبتر الأعضاء والجلد ومحاكمة جثث الموتى . بيد ان العقوبات كانت ذات حد واحد بمعنى ان القاضى متى تحقق من الادانة ينطق بالعقوبة التي ينص عليها القانون دون تقدير لظروف الواقعة او الجانى، ولعل هذا مرجعه الى الحالة النفسية للتخلص من آثار عسف القضاة فى العهود السابقة على الثورة. على ان هذا كان من عيوب ذلك التشريع ، فليست ظروف الحياة جميعا واحدة ولا ظروف الجرائم ذاتها بقدر واحد .

ولما أقام **نابليون** امبراطوريته وعمل على حماية المجتمع الفرنسي وضع قانون العقوبات سنة ١٨١٠ متأثراً بمبدأ المنفعة كما نادى به كل من بنتام وفورباخ (٢٢) ـ أى مناصرة سياسة الردع والارهاب والقسوة فى العقاب ـ فاعيدت بعض العقوبات التى كانت قد الغيت كعقوبة قطع يد قاتل أبيه قبل تنفيذ حكم الاعدام ، وعقوبة المصادرة العامة للأموال فضلاً عن تشديد العقوبات فى بعض الجرائم وزيادة الجرائم التى يحكم من اجلها بالاعدام . ولكن هذا القانون يتميز عن سابقه بأنه وضع حدوداً دنيا وقصوى للعقوبات ، وبهذا جعل للقاضى فرصة لتقدير العقوبة التي تتناسب مع حالة الجانى وظروف الجريمة ، كما أخذ بنظام الظروف المخففة فى مواد الجنح بشروط معينة .

٢ ـ **المدرسة التقليدية الثانية او الجديدة** : انه وان كان للمدرسة التقليدية الاولى فضل كبير فى ارساء كثير من القواعد الأساسية فى القانون الجنائى كما بينا ، فان آراءها برغم ذلك لم تخل من نقد بسبب قصرها غاية العقوبة على الردع العام المبنى على نظرية المنفعة والتى يسفر اعمالها احيانا عن مجافاة للعدالة .

وكانت آراء الفيلسوف الألمانى **كانت** (Kant) قد بدات فى الانتشار ، ومن مقتضاها أن ما يبرر العقوبة هو تحقيق العدالة فى حد ذاتها دون النظر الى اى اعتبار آخر ، والعدالة فى ذاتها أمر نسبى ينظر فيه الى ظروف الجريمة وحالة كل مجرم ، ولا محل بعد هذا للاعتداد بمنفعة العقوبة للمجتمع . فلقد أصدر «كانت» عام ١٧٩٦ كتابه : Eléments métaphysiques de la doctrine de Proit وبين فيه أن أساس مشروعية حق الدولة فى العقاب هو العدالة المطلقة ، اى العدالة لذاتها مجردة عن فكرة المنفعة ، وان غاية العقوبة ووظيفتها قبل كل شيء ارضاء شعور العدالة وتدعيم قوانينها ، وذلك باصلاح الأذى الذى أعقبته الجريمة اى بالتكفير عنها (٢٣) . وقد ذكر « كانت » مثالاً خيالياً مشهوراً يعرف بفرض الجزيرة المهجورة ، مقتضاه انه اذا فرض أن جماعة تقيم فى جزيرة وقررت أن تهجر الجزيرة وتتشتت ، فلا بد لها قبل ان تقدم على ذلك أن لا تغفل تنفيذ حكم الاعدام فى آخر من يحكم عليه بهذه العقوبة من مجرميها . ومن الجلى أن فكرة « كانت » تقوم على أساس من قواعد القانون الأخلاقى ومبادىء المسئولية الانسانية .

واذا كانت المدرسة التقليدية الاولى تأخذ بمبدأ المنفعة كأساس للعقاب ، وكان مذهب « كانت » مبنياً على العدالة المطلقة فانه لأمر منطقى أن يوجد من يحاول التوفيق بين النظرين . فوجد من أنصار المدرسة التقليدية من يتمسك بمبدأ المنفعة مع محاولة الافادة من قاعدة العدالة ، وعرفوا باسم **المدرسة التقليدية الجديدة** بسبب تمسكهم بالأساس الأخلاقى الذى قامت عليه المدرسة التقليدية الاولى ، مع ادخال التعديل على أساس وظيفة العقاب .

فالمدرسة التقليدية الجديدة أو ـ الثانية ـ تأخذ بقاعدة حرية الاختيار ، فالانسان العادى هو الذى يسلك واحداً من طريقين ، اما طريق الخير أو طريق الشر ، ، فان سلك الطريق الأخير اى طريق الشر ، وجب عليه أن يتحمل مسئولية تصرفه ، فهو مسئول اخلاقياً . وهى بهذا تأخذ بالمذهب النفعى الذى يحقق الردع العام ، بتهديد المجرم من معاودة ارتكاب الجريمة وتهديد غيره من محاولة السير فى طريق الاجرام . على انها من الناحية الاخرى تأخذ بمبدأ العدالة ، ويبدو هذا

---

(٢٢) دى قابر ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٢٣) دى قابر ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

جلياً فى تطلبها الاعتدال فى العقاب ، حيث توجب تقييد العقوبة بحد اقصى مزدوج هو الا يتجاوز ما تقتضيه العدالة ، ولا ما تستدعيه المصلحة ، فاذا كانت العدالة اساس حق المجتمع فى العقاب فان المنفعة هى الضابط الذى يرسم حدود العدالة .

ولقد اهتمت المدرسة التقليدية الجديدة هذه بوظيفة المنع الخاص التى للعقاب ، حتى لا يعود المجرم الى الاجرام (٢٤) ، كما أوصلتها فكرة العدالة الى الاهتمام بشخص المجرم ، ذلك لأن تحقيق العدالة فى تقدير العقاب يقتضى النظر فى شخصية المجرم واخذها فى الاعتبار عند ذاك من كافة نواحيها الشخصية والنفسية والاجتماعية وادى هذا بها أيضاً الى توسعها فى موانع المسئولية فلم تقصرها على المجانين ، كما اعترفت بالمسئولية المخففة لأشباه المجانين .

واثرت المدرسة التقليدية الجديدة تأثيراً واضحاً فى كثير من التشريعات لاسيما فى قانون العقوبات الفرنسى عند تعديله سنة ١٩٣٢ ــ ومن ثم فى القوانين التى اخذت عنه ــ فقد خفف العقوبات وتوسع فى نظام الظروف المخففة التى اطلقها بالنسبة الى كل الجرائم واستبعد وسائل التنكيل كقطع يد قاتل او احد اصوله قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه ، والغاء عقوبة الوصم بالحديد المحمى والعرض على الجمهور .

على انه بالرغم من تأثير تلك المدرسة فى كثير من التشريعات فقد لوحظت زيادة مضطردة فى الاجرام ، مما جعلها هدفا للنقد . بيد ان انصارها ذهبوا الى أن الخطأ ليس فى النظرية ذاتها وانما يرجع الى فساد انظمة السجون ، فوجهت العناية اليها لتحقيق الغاية منها فى سبيل اصلاح المجرم . واقترح انصارها توجيه الجهد نحو نظام الحبس الانفرادى فى السجون تفادياً لمضار الاختلاط . على أن خطورة العزلة فى حياة المساجين ونفسياتهم اسفرت عن قيام النظام التدريجى ، ومن بعده نظام التصنيف على ماهو معروف فى تطور انظمة السجون .

وقد نشأت المدرسة العقابية من بين فقهاء المدرسة التقليدية الجديدة ، وبفضلها انشئت عام ١٨٧٧ الجمعية العامة للسجون التى اهتمت بدراسة السجون فى فرنسا واقترحت سبل اصلاح نظمها ، وشاركت فى عدة مؤتمرات دولية ونشرت بحوثها فى المجلة العقابية .

٣ ــ المدرسة الوضعية : بالرغم من الأثر الذى أحدثته النظريات السابقة فى التشريعات ، ومن وضعها لمبادىء تعتبر من اسس السياسة الجنائية ، الا أن مشكلة الاجرام فى المجتمع لم تحل ، فأساس المسئولية هو الارادة ، فان انتفت لا توقع أية عقوبة على الجانى ، كحالة المجنون والمكره رغم ما فى فعلهما بل فيهما من خطورة على المجتمع ، وحتى بالنسبة الى الأشخاص الذين يتوافر لديهم الادراك والارادة ، كانت العقوبات تطبق بصورة متشابهة دون مراعاة الظروف الخاصة بكل جان . ومال القضاة الى توقيع العقوبات قصيرة المدة والخفيفة ، وهى اسوأ العقوبات أثراً على المجرمين ، ذلك أنها ما كانت تكفى لاصلاحهم ، بل ادت الى افسادهم ونقل عدوى الاجرام اليهم ، وبجوار ما تقدم ظهرت الفلسفة الوضعية التى اساسها أن الحقائق المستخلصة من الواقع المادى ــ اى عن طريق المشاهدة والتجربة ــ هى كل ما يتسنى للمرء ان يعرفه من الحقائق على وجه الدقة .

---

(٢٤) دى فابر ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

وعلى أثر هذا نشأت المدرسة الوضعية خلال الثلث الاخير من القرن التاسع عشر . وتسمى ايضا المدرسة الايطالية بسبب نشأتها ووجود اقطابها فى ايطاليا . وأقطاب هذه المدرسة هم **سيزارى لومبروزو** الذى اصدر كتابه الانسان المجرم سنة ١٨٧٦ (L'homme criminel) ، **وانريكو فرى** الذى اصدر كتاب علم الاجتماع الجنائى سنة ٨٨٨١ (La sociologie criminel) ، **ورافائيل جاروفالو** الذى اصدر كتاب علم الاجرام سنة ١٨٨٥ (La criminologie) .

وقد أنكرت هذه المدرسة الأساس الذى قامت عليه المدرسة التقليدية فى صورتيها الاولى والثانية ، اى مبدأ حرية الاختيار ، كما انتقدت تركيز الاهتمام فى الجانب الموضوعى او المادى وهو الجريمة ، واعتبارها وحدها مقياس الخطأ ، فى حين اغفلت شخص الجانى ، وفضلاً عن هذا فان تخفيف المسئولية بالنسبة الى ناقصى الادراك والارادة قد لا يكون سليما بسبب ما فيهم من خطورة على المجتمع .

وبنت المدرسة الايطالية مبادئها على اساس دراسة الواقع ، ثم استقراء النتائج التى تسفر عنها تلك الدراسة الواقعية . ووجهت اهتمامها الى شخص المجرم دون الفعل المسند اليه ، وذلك أن الجريمة بمجرد وقوعها ينتهى أمرها ويبقى شخص الجانى وآثار الجريمة ، ولهذا فالعناية يجب أن توجه الى المجرم . ولقد اخذت هذه المدرسة بمبدأ الجبرية، فالمجرم لا يرتكب الجريمة مختاراً بل هو ينساق اليها تحت تأثير دوافع ومسببات شتى تعدم حريته واختياره أو بالأقل تجعل منهما وهما لا حقيقة . ومع ذلك فمسئولية المجرم مسألة حتمية لانها ضرب من المسئولية الاجتماعية ليحمى المجتمع نفسه ضد الجريمة . فالمجرم يعيش فى المجتمع وبارتكابه الجريمة قد افصح بصفة مؤكدة عن حالته الخطرة (٢٥) .

وقد حصرت هذه المدرسة اسباب الاجرام فى نوعين وترجع الى مختلف الظروف الشخصية والاجتماعية التى تحيط بالمجرم ، لا الى ارادته كما يذهب الفقه التقليدى . وأول النوعين هو **الأسباب الداخلية** التى تتصل بشخص المجرم من ناحيته الجسمية والعقلية والنفسية والميول والطباع . والنوع الآخر **أسباب خارجية** تتصل بالوسط والبيئة التى يعيش فيها وما بها من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية . وعلى هذا قسمت المجرمين الى عدة طوائف واقترحت الاجراء المناسب الذى يباشر قبل كل منها . ولا يعتبر هذا الاجراء عقوبة بالمعنى المفهوم انما هو من التدابير التى يقتضيها المجتمع حماية له من الاجرام . وبهذا تستند المدرسة الى مبدأ النفعية ، وتطبق تلك التدابير بالنسبة الى كل فرد ، يستوى فيها المجنون والعاقل ، كل بما يناسبه ، ولا يشترط ان تكون متناسبة مع درجة مسئوليته أو خطئه .

وكان تقسيم هذه المدرسة للمجرمين الى خمسة انواع : (١) **المجرم بفطرته** او بطبيعته (criminel né) وهو الشخص الذى يولد مجرماً ويعرف بعلامات ظاهرة فيه ، كصغر جمجمته وبروز ذقنه الى الأمام . ومثل هذا الشخص لا يرجى اصلاحه ، ولهذا يجب أن يتخلص منه المجتمع اما باعدامه أو بنفيه الى مستعمرة زراعية تأميناً للمجتمع من شره .

(٢) **المجرم المختل العقل** أو المجرم المجنون (criminel aliené) ، وهو من يرجع اجرامه الى

---

(٢٥) علي بدوى . (L'état dangereux du délinqunt) مجلة القانون والاقتصاد السنة الاولى ، ص ٢٢ .

مرض فى عقله ، سواء بسبب طبيعى خلقى فيه ،أم بسبب مكتسب ، وهذا الشخص يعتبر مريضاً يودع احدى المصحات لعلاجـه ان أمكن ذلك .

(٣) المجرم بالعاطفة (criminel passionnel) وهو الشخص العصبى شديد الحساسية الذى يقترف الجريمة متأثراً بعاطفة جامحة كالغيرة اوالحقد ثم يندم عليها بعد ذلك . وهذا الشخص لا داعى لعقابـه وانما يُبعـد مؤقتـاً عن مكـان الجريمة ، على أن يلزم بتعويض الضرر الناشىء عن فعله .

(٤) المجرم بالصدفة (criminel d'occasion) ، وهو الشخص الذى يقترف الجريمة متأثراً بالوسط الذى يعيش فيه وبالظروف التى تحيط به كالحاجة الملحة والاغراء الشديد ، وهو شخص يخشى دائماً من معاودته الاجرام ، ويتعين ابعاده عن وسطه ووضعه فى مستعمرة زراعية أو صناعية لمدة غـير محددة مـع الزامـه بتعويض الأضرار الناشئة عن فعله .

(٥) المجرم المعتاد (criminel d'habitude) ، وهو الشخص الذى ارتكب الجريمة تحت تأثير البيئة ثم أفسدته السجون فاحترف الاجرام ولا أمل فى اصـلاحه ، ومن ثم وجـب ابعاده عن المجتمع ، كالشأن بالنسبة الى المجرم بطبيعته .

ومع اهتمام هذه المدرسة بالجانب الشخصى للمجرم فقد دعت لمكافحة الجريمـة عن طـريق مكافحة الأسباب الداعية لها ، كعـلاج البطالـة والتشرد وتعاطى المخدرات والمسـكرات ونشر التعليم ودور التربية . ذلك أنه لما كان لكل حدث سبب ، وكل سبب يدور مع مسـببه وجـوداً وعدماً ، فانه بالبحث عن أسباب الاجرام ومحاولة القضاء عليها تكون مكافحة الاجرام ، وهذه غاية تلك المدرسة .

وكان للمدرسة الوضـعية فضـل توجيه العنايـة الى شخص الجـانى ، واوجدت بعض المبادىء والنظم الحديثـة فى القانـون الجنائى ، فوضعت التدابير الاحترازية والافـراج الشرطى ووقف تنفيذ العقوبة حين يرجى اصلاح الجانى ، والعقوبة غير محددة المدة وابعاد المجرمين العائدين ، واهمهـا اعمال فكـرة تفريد العقوبـة ، فتكون الجـزاءات والتدابير ملائمـة من حيـث نوعهـا ومقدارها تمام الملاءمة لكل مجرم على حدة .

على أن هذه النظرية رغم بنائها على الواقع واسـتقراء النتائج ، ورغم ما لها مـن آثـار فى التشريعات الحديثة فقد اخذ عليها انها سـلمت بمبدأ الحتمية أو الجبرية مع انه لا يوجد دليل علمى قاطع عليه ، كالشأن بالنسبة الى مبدأ حرية الاختيار . وقد أنكرت فكرة العدالة ، وقد يؤدى هذا الى عدم تناسب العقاب مع جسامة الجريمة . وقد ركزت المدرسة الاهتمام كله حـول شخص الجانى مغفلة الجانب المادى وهو الجريمـة ذات الأثـر المباشر على المجتمع والتى اخلت بأمنـه ، وتبقى آثارها ظاهرة فيه . ثم ان أساس العدالة الجنائية هو شعور الجماعة وتجاوبها مع الاجراءات التى تباشر قبل الجناة . فلن يقبل المجتمع اعدام شخص او نفيـه لمجرد بعض المميزات الطبيعية او الخلقيـة التى به ، كما لا يقبـل عدم توقيع العقوبة على مرتكب جريمة القتل مثلاً لمجرد انها وقعت منه تحت تأثير العاطفة (٢٦) . والى جانب هذا فان الدليل العلمى على تفرقة طوائف المجرمين على الوجه السالف الذكر لم يتحقق بعد ، فكثير من الأشخاص الذين بدت فيهم العلاقات العضوية

---

(٢٦) فى هذا العدد من المجلة مقال للدكتور عبد الوهاب حومد عن « القتل بدافع الشفقة » اى « قتل الرحمة » .

المميزة للمجرم بفطرته لم تقع منهم جرائم ، كماوقعت اخطر الجرائم من أشخاص لم تكن بهم مثل تلك العلامات .

٤ ـ المدارس الوسيطة أو مذاهب التوفيق : برغم النظريات المختلفة حول المسئولية والجريمة فان الاجرام لم يتوقف عن الازدياد والانتشار ،مما دعا كثيراً من الباحثين الى معاودة النظر فى الأفكار السابقة . وانه وان وجه الى كل منهابعض النقد فلا شك أن فيها جانباً من الصواب لا ينبغى طرحه ، والأجدر الافادة منه . ولهذاقامت بعض الاتجاهات الفكرية نحو التوفيق بين المدارس السابقة ، بل لقد ذهب فريق من الباحثين الى وجوب عدم الانشغال بالخلافات الفقهية ، لا سيما حول أساس حق العقاب، وتوجيه الجهودحول عمل أكثر اهميةهو تنظيم الدفاع عن المجتمع على أرض من الواقع العملى (٢٧) . **وقد اطلق على هذه الاتجاهات اسم « المدارس الوسيطة » أو « مذاهب التوفيق »** ونخص بالذكر منها « المدرسة الثالثة » و « الاتحاد الدولى لقانون العقوبات » الذى حلت محله « الجمعية الدولية لقانون العقوبات » .

٥ ـ المدرسة الثالثة أو المدرسة الوضعية الانتقادية : سميت هذه المدرسة بالمدرسة الثالثة نظراً لأن النظرية التقليدية الاولى والتقليدية الثانية (أو هذه الجديدة) تعتبران مدرسة اولى ولأن النظرية الوضعية تعتبر المدرسة الثانية . ويُطلق على هذه المدرسة الثالثة كذلك اسم **« المدرسة الوضعية الانتقادية »** . وقد قامت هذه المدرسة أساساً على مبدأ عام هو جمع الجانب الصواب فى المدارس المختلفة السابقة عليها .

وقد كان أساس المدرسة الثالثة هو المذهب الوضعى الذى لم تتخل عنه ، ولهذا سايرت المدرسة الوضعية فى استنادها الى مبدأ الحتمية ،وأن الجريمة ظاهرة ناشئة عن عوامل شخصية وعوامل خارجية (٢٨) . وبدا هذا أيضا فى اهتمامها بالوسائل التجريبية وبعلم الاجرام . ولكنها تخلت عن فكرة المجرم بطبيعته التى اخذت بها المدرسة الوضعية ، كما خالفتها فى اقرارها بفائدة العقوبة فى الردع العام (٢٩) . واعترفت هذه المدرسة بالتدابير الاحترازية الى جوار العقوبات ، وجعلت مجال الأخيرة حيث تكون لدى المجرم أهلية كاملة للمسئولية الجنائية ، أما مجال التدابير الاحترازية فانه يكون حيث لا تتوافر هذه الأهلية .

الاتحاد الدولى لقانون العقوبات : لاحظ فريق من العلماء زيادة فى الاجرام دفعت بهم الى وجوب مواجهة المشكلات العلمية ، واتخذوا لهم سياسة تمثل التوفيق بين السياسة الجنائية القائمة على العناية بشخص المجرم ونظرية تفريد العقوبة ، وبين تلك التى تقوم على أن قياس العقوبة وتحديد وظائفها يقتضى العناية بالجانب المادى للجريمة ومقدار جسامتها تحقيقاً لمعانى الردع وتهدئة شعور السخط العام (٣٠) .

ففى عام ١٨٨٠ انشأ ثلاثة من العلماء **« الاتحاد الدولى لقانون العقوبات »** (Union Internationale de Droit Pénail) وهم **فون ليست** (Von List) الاستاذ بجامعة برلين

---

(٢٧) Gy Stefani et G. Levasseur, **Droit pénal general.** 1968, p. 75.

(٢٨) Pierre Bouzat et jean Pinatel, **Traite de Droit Pénal et de Criminologie** T. 1, 1963, p. 57.

(٢٩) دى فابر ، المرجع السابق ، ص ١٩ ، مرل وفيتى ، المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٣٠) فيدال ومانيول . المرجع السابق ، بند ٤١ وما بعده .

(ألمانيا) وفان هامل Van Hamel الاستاذ بجامعة امستردام (هولندا) ، وادولف برنس (Adolphe Prins) الاستاذ بجامعة بروكسل (بلجيكا) . وعقدت باسم هذا الاتحاد عدة مؤتمرات منذ سنة ١٨٨٩ حتى نشوب الحرب العالمية الاولى . ومن اهمها المؤتمر الدولي المنعقد في بروكسل سنة ١٩١٠ والذى أوصى بالجمع بين العقوبات والتدابير الاحترازية فى سياسة العقاب ومكافحة الاجرام بالنسبة الى طوائف معينة من المجرمين كالأحداث المشردين ومعتادى الاجرام والشواذ .

وفى عام ١٩٢٤ انشئت **الجمعية الدولية لقانون العقوبات** Association Internationale de Droit Pènal ، وخلفت الاتحاد الدولى لقانون العقوبات بعد أن توقف نشاطه بقيام الحرب العالمية الاولى ، وقد جعلت الجمعية مقراً لها باريس . وهى تضم المشتغلين بالمسائل الجنائية أياً كانت مذاهبهم . وتسعى الى التوفيق والتقريب بين النظريتين المتعارضتين ، واتخذت موقف الحياد بالنسبة الى الخلاف الدائر حول فكرة حرية الاختيار والحتمية (٣١) . وتصدر حاليا المجلة الدولية لقانون العقوبات .

وتتلخص الاسس التى يقوم عليها الاتحاد الدولى والجمعية الدولية لقانون العقوبات فى وجوب الاستفادة من خطة البحث العلمى فى دراسة المجرمين وتحرى أسباب الجريمة تمهيداً لاستخلاص خير الوسائل التى تكفل مكافحة الاجرام ، فأحسن تنظيم للسياسة الجنائية هو الذى يعطى افضل النتائج . ويجب أن تراعى فى العقاب فكرة الردع وارضاء الشعور العام تحقيقا لمبدأ العدالة ، كما يجب ان تراعى فيه فكرة اصلاح المجرم ما أمكن ذلك أو ابعاده اذا كان خطراً لا يرجى اصلاحه . وبهذا يمكن الافادة بدرجة متساوية من العقوبات واجراءات الأمن ، فلا يكتفى بغاية واحدة للعقاب . ويتعين الاقرار بفكرة الحالة الخطرة فى نطاق محدد بالنسبة الى فريق معين من المجرمين ، واعمال نظرية تفريد العقوبة ، لامن الناحيتين التشريعية والقضائية فقط بل مدها الى مرحلة التنفيذ . وهذا ما ادى الى انشاء مراكز الملاحظة وتخصيص السجون (٣٢) .

●●●

ثانياً ـ الدفاع الاجتماعى

(١) مفهوم الدفاع الاجتماعى : ان مصطلح « **الدفاع الاجتماعى** » ليس من مستحدثات القرن العشرين ، بل انه قديم قدم الجريمة ذاتها ، وكل ما فى الأمر أن مفهومه يتغير من وقت لآخر وفقاً لتطور المجتمعات البشرية ذاتها . فالدفاع الاجتماعى قديماً كان يقصد به حماية المجتمع من العناصر الضارة به ، ومن ثم كان يوجه ضد المجرم فيضحى به فى سبيل المصلحة العامة دون أية محاولة لمساعدته فى العودة الى المجتمع بل لقد وجد هذا التفكير عند افلاطون الذى جعل للعقوبة غاية بعيدة هى الوقاية من الجريمة فى المستقبل ، سواء من جانب المجرم الذى توقع عليه أو من جانب الغير . ففكرة الدفاع الاجتماعى قائمة عنده فى معنى النفع الخاص فضلا عن النفع العام ، ووسيلته هى العقوبة السالبة للحرية التى تتيح فرصة لمحاولة اصلاح المجرم كما تكفى لتخويف الغير (٣٣) .

---

(٣١) مرل وفيتى ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٣٢) مرل وفيتى ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ، بوزا وبناتل ، المرجع السابق ، ص ٥٧ ، دكتور على راشد ، مبادىء القانون الجنائى ، ١٩٥٠ ، ص ٥١ وما بعدها .

(٣٣) دكتور على راشد ـ نحو مفهوم عربى لسياسة الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة . مجموعة اعمال الحلقة العربية الاولى للدفاع الاجتماعى ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٠١ .

فكان أساس استخدام مصطلح « الدفاع الاجتماعى » هو بيان الغاية المرجوة منه من وراء ما يتخذه تجاه مرتكب الجريمة وهى قد اختلفت من عصر الى عصر وحسب وجهة النظر التى يعتنقها القائل بها ، وتلك الغاية هى حماية المجتمع - من الأفعال الضارة به - عن طريق العقاب . وقد سبق أن فصلنا ذلك عند الكلام على تطور الفكر العقابى . فالتشريعات السابقة على الثورة الفرنسية كانت تتسم بالقسوة وتبريراً لها قيل ان غايتها الدفاع عن المجتمع (٣٤) . ولما كانت المدرسة التقليدية الاولى تعتنق المبدأ النفعى ، اى ان الغاية من العقاب هى تحقيق الردع العام فانها اعتبرته موصلاً للدفاع عن المجتمع . وقد اتخذت المدرسة السجونية الناشئة عن المدرسة التقليدية الثانية المسماة بالجديدة سياسة لها جعلت من العقوبة وسيلة لتقويم المجرم اخلاقياً واعداده بذلك للاندماج فى المجتمع ثانية بعد الافراج عنه ، واعتمدت فى ذلك على العاطفة الدينية من ناحية وعلى العمل السجونى من ناحية اخرى . واعتمدت المدرسة الوضعية بدورها على ما اسمته تدابير الأمن ، وهو ما يتمشى مع وجهة نظرها فى حتمية الجريمة وعدم الحاجة بعد هذا الى عقاب (٣٥) . وفى بداية القرن العشرين كان مفهوم الدفاع الاجتماعى فى نظر الفقه - كما هو الحال بالنسبة الى فرى - هو الدفاع النفعى للجماعة ضد الجريمة التى تمس النظام العام (٣٦) .

على انه ان كان **جراماتيكا** يعتبر أول من وضع أفكاراً محددة حول الدفاع الاجتماعى . الا انه قد سبقه الى هذا **ادولف برنس** ، كما تبعه عالم فرنسى آخر هو **مارك أنسل** الذى قاد حركة الدفاع الاجتماعى الحديث وحسبنا فى هذا المقام التعرض لآراء أنسل بهذا الخصوص :

يُعد انسل - وهو مستشار بمحكمة النقض الفرنسية - زعيم الجانب المعقول من حركة الدفاع الاجتماعى ، اذا ما قورنت آراؤه بالمبادىء التى نادى بها جراماتيكا والتى تعتبر متطرفة فى نظر كثير من المفكرين وتصل الى المناداة بالغاء القانون الجنائى بوجه عام ، واحلال تنظيمات اخرى جديدة بدلاً منها لمواجهة الحالات التى تسند فيها الى الفرد تصرفات تعتبر مناهضة للمجتمع ، وعلى العكس من جراماتيكا يبقى أنسل على القانون الجنائى ويدفع به الى التقدم فى حركة انسانية عالمية ويحافظ بصفة أساسية على ضمانات الحرية الفردية . وسميت هذه الحركة « **بالدفاع الاجتماعى الحديث** » تمييزاً لها عن آراء جراماتيكا فى الدفاع الاجتماعى . وقد أصدر انسل عنها الطبعة الاولى من كتابه عام ١٩٥٤ وسرعان ما كثر انصار هذه الحركة واصبحت تُعرف باسم مدرسة الدفاع الاجتماعى الحديث . وظهرت لها ابحاث عديدة ، وانشىء فى فرنسا مركز لدراسات الدفاع الاجتماعى وتعقد المؤتمرات سنوياً منذ عام ١٩٥٢ ، وتنشر آراؤها فى مجلة العلوم الجنائية (٣٧) .

وتقوم حركة الدفاع الاجتماعى الحديث على أساس أفكار انسانية للسياسة الجنائية فى محاولة لتجديد النظم العقابية بهدف تنظيم الكفاح ضد الجريمة بطريقة عقلية وعلمية ، اى مع الاستفادة من تقدم ومكتشفات العلوم الانسانية . فالدفاع الاجتماعى يبدو كرابطة بين القانون الجنائى

---

(٣٤) Marc Ancel, **La défense sociale nouvelle**, 1954, p. 19.

(٣٥) مارك انسل ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٣٦) مرل وفيتى ، المرجع السابق ، ص ٣١ هامش ٢ .

(٣٧) مرل وفيتى ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

بمفهومه العادى بوصفه نظاماً مبنياً على قواعدمعينة وبين علـم الاجرام الذى يتضمن فى ذاته اجتماع عدة علوم انسانية ، كالطب وعلم التشريحوعلم الاجتماع وعلم العقاب ... الخ (٣٨) . وذلك ان الحقيقة الثابتـة هى الانسـان الذى ارتكبالجريمة ـ رجلاً كان أم امرأة أم طفلاً ـ وهـو الذى ينبغى معاونته حتى لا يعود اليهـا . ومنهذا الانسان المحدد يجب الابتداء ـ اى فى كل مرة يجب البدء من نقطة الصـفر ـ لأن لكل انسـانشخصية يجب الاعتداد بها قبل اى شىء ، والتى تعتبر الجريمة بالنسبة لها رمزاً مادياً لا يستغرقالا فترة وجيزة من حياته . فيجب ان نعرف لماذا وصل الى الجريمة بالبحث خلال طبيعته بهدفكشف افضل الاجراءات التى يعامل على أساسها.

ومع أن الدفـاع الاجتماعى الحديث يُعدناشئاً عن ثورة المدرسة الوضـعية ، الا انـه لم يتبعها وعارضها فى كثير من المواضيع . فقد عرضالمستشار انسل لرد الفعل الناشىء عن وقـوع الجريمة ابتداء من الفكرة الدينيـة حين كانـتالجريمةتستثير غضب الآلهة،ولا بد منالتفكيرعنها بعقاب يهدىء من ذلـك الغضـب . ثم الفكـرةالسياسية وقت أن كانت الجريـمـة عملاً مخلاً بأمن الجماعة تستوجب تدخل السلطة بتوقيـعالعقاب تحقيقاً لسياسة الردع العام . ثم الفكرة القانونية التى جاءت كرد فعل لعسـف القضاةواسفرت عن مبدأ الشرعية فى الجرائم والعقوبات وتحقيق العدالة . وقد رفض مبدأ الحتمية الذىاخذت به المدرسة الوضيعة سواء بنيت الحتمية على أسـباب بيولوجية كما ذهـب لومبروزو أوأسباب اجتماعية كما يرى فرى (٣٩) . ولم يوافق على الغاء القانون الجنائى واحـلال تدابير الأمنمحل العقوبات ولا يتفق الدفاعالاجتماعىالحديث مع المدرسة التقليديـة الجديدة فيما تقـره منافتراضات قانونية عامة ، كمبدأ استعارة الشريك اجرامه من الفاعل ونظرية الجريمة المسـتحيلةوتقسيمها الى اسـتحالة مطلقة ونسـبية وعدم الاعتداد بالباعثعلى ارتكابالجريمة،والأخذبقاعدةالجهل بالقانون ليس بعذر (٤٠) .

وقد سار **انسل** فى الطريق الذى سبق أناخذ به **برنس** ، اى الابتعاد عن الخلافات الفلسفية حول حرية الارادة والحتمية والبحـث فى تنظيماجراء اجتماعى أصيل لمكافحة الاجـرام (٤١) . واعتبر فكرة الدفاع الاجتماعى الحديث على انهارد فعل ضـد الأفكار الميتافيزيقيـة التى يعتمد عليها القانون الجنـائى التقليدى وضـد الفكرةالمجردة للعدالة الجنائيـة ، وضـد طريقة فهم الجريمة والعقوبة على انها مجرد وسائل قضائيةتباشر بالنسبة لها الاجراءاتالفنية القانونية(٤٢) .

واخذ انسل من المبادىء التقليدية قواعدثلاثاً ، مبدأ الشرعية فى الجرائم والعقوبات وحرية الارادة كأساس للمساءلة الجنائية واعتبار العقابجـزاء على قـدر الخطأ . والدفاع الاجتماعى الحديث لا ينكر فكرة المسئولية ، بل يجعل لهاأهمية فى الحكم وفى معاملة المذنب . وفكرة الخطأ كأساس للمسئولية عنده بعيدة عن الفكرة المجردةعن حرية الارادة كأساس للمسئولية الأدبية التى تأخذ بها المدرسة التقليدية الجديدة ، بل أساسهاالشـعور الداخلى بالالتزام الاجتماعى لدى الفرد نفسه أو على الأقل امكانية وجوده ، والذى يحيافى كل فرد بالجماعة (٤٣) .

---

(٣٨) بوزا وبناتل ، المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٣٩) Jacques Bellon, **Droit pénal soviétique et droit pénal Occidental.** 1961, P. 140.

(٤٠) بوزا وبناتل ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٤١) بللون ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٤٢) مارك انسل ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٤٣) بوزا وبناتل ، المرجع السابق ، ص ٦٢ ، بللون ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

ويرتكز الدفاع الاجتماعى الحديث على دراسة شخصية المجرم ، سواء من الناحية البيولوجية أو الاجتماعية للافادة بها فى مختلف مراحل الدعوى الجنائية ، ولذا فهو يتطلب دواماً ايجاد ملف الشخصية الذى يحوى البحوث العلمية عن شخص المتهم عن طريق مجموعة من الفنيين ، من أطباء وعلماء نفس وعلماء اجرام وعلماء اجتماع ... الخ . اذ لما كانت الجريمة عملاً صادراً من انسان تعين الاهتمام بالدراسة الكاملة لشخصيته ، وبهذا تكمل الناحية الموضوعية بالناحية الشخصية . ولن يصبح القاضى فى يد القانون اداة لتوزيع العقوبات بل يطلب منه الاستمرار فى مباشرة التنفيذ حتى بعد أن تنتهى الدعوى بالحكم . وبهذا يمكن الافادة من التطور الحديث لعلوم الانسان كفن دقيق محدد للكفاح ضد الاجرام للتمكين من اعادة المتهم الى حظيرة المجتمع .

ولا ينكر الدفاع الاجتماعى الحديث توقيع العقوبات التقليدية ، وكل ما فى الأمر أنه لا ينبغى اعطاء العقوبة محتواها القديم المؤسس على فكرة المسئولية الأدبية ، ولكن يجب أن توجه العقوبة نحو معاملة المذنب معاملة تدخل فى سياسة جنائية مبنية على حماية اجتماعية لا على الردع ، أى لا ينبغى أن يكون مجرد الضرب على يد المتهم ، انما تطبق وسائل معاملة كفيلة باعادته الى المجتمع مع الأخذ فى الاعتبار بالجريمة المرتكبة وحالة المتهم الشخصية ومختلف الاعتبارات الاجتماعية والأخلاقية والنفسية ذلك أن هناك واجباً على الجماعة نحو الفرد ، يجب أن يحدد بنظام دقيق فى نطاق قاعدة الشرعية ، وهو حمايته من الوقوع فى الاجرام (٤٤) . وعلى ذلك لا تنظر المدرسة الحديثة للدفاع الاجتماعى الى المجرمين كمرضى يحتاجون الى علاج كما تذهب المدرسة الوضعية .

ولا يرتبط الدفاع الاجتماعى الحديث بفكرة مسبقة عن معاملة المذنبين ، وانما يترك للقاضى الحرية الكاملة فى تقدير الاجراء الذى يراه مناسباً بالنسبة الى كل حالة على حدة مستعيناً بملف الشخصية ، حتى يستطيع ان يعيد المذنب الى المجتمع . وقد يكون سبيل القاضى الى هذا احدى العقوبات التقليدية أو اجراء أمن ، بل يستطيع القاضى أن يجمع بين الاثنين أو يقرر تطبيق أيهما قبل الآخر ، ذلك أنه كما سبق القول لا ينتهى دور القاضى بالحكم فى الدعوى ، بل قد يعدل من معاملة المذنب خلال فترة التنفيذ حسبما تقتضيه الضرورة . فالدفاع الاجتماعى الحديث لا يهمه العقوبة أو التدبير الاحترازى من الناحية القانونية وانما العبرة بالمحتوى ، ولذا فان مارك انسل لا يوافق على وصف عقوبة وتدابير احترازية وانما يرى ضمها فى نظام موحد يسمح للقاضى بتطبيق ما يراه مناسباً منها ، ويكون القانون الجنائى بالنسبة لها الحامى للحرية الفردية (٤٥) .

ويرفض انسل فكرة الخطورة الاجرامية وتطبيق تدابير سابقة على وقوع الجريمة لما فى هذا من مساس بمبدأ الشرعية الذى يتمسك به . ومع هذا فان متطلبات الوقاية من الجريمة قد تقتضى سياسة جنائية خاصة ينبغى أن تراعى فيها الحرية الفردية ، وذلك بتحديد دقيق واضح للحالة الخطرة وادراجها فى صياغة قانونية محددة والاعتراف للدولة بحق التدخل للوقاية من الجريمة فى الحدود المقررة قانوناً ، ووضع تلك الحالات ضمن نظام يتضمن ضمانات قضائية واجرائية تكون بذاتها القائمة فى القانون العام (٤٦) .

---

(٤٤) ستيفانى وليفاسير ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٤٥) مارك انسل ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٤٦) بللون ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

ويمكن القول بأن حركة الدفاع الاجتماعي الحديث هي حركة انسانية اجتماعية تهدف الى محاولة اعادة المذنب الى المجتمع ، وذلك برسم سياسة جنائية تدخل في المجال التشريعي والقضائي والتنفيذي مستفيدة في هذا بالتطور الحديث في العلوم الانسانية ، مع احترام كامل للكرامة الانسانية وللحريات العامة .

هذا وقد وضعت الجمعية الدولية برنامجاً اطلقت عليه اسم « برنامج الحد الأدنى للدفاع الاجتماعي » (٤٧) ، باعتباره يمثل قدراً مشتركاً من القواعد التي لا يجوز النزول عنها وتصلح للتطبيق في كل دولة تأخذ بالدفاع الاجتماعي في السياسة الجنائية . وقد تضمن هذا البرنامج المبادىء الأساسية لحركة الدفاع الاجتماعي ، والمبادىء الاساسية للقانون الجنائي ، والنظرية العامة للقانون الجنائي ، وبرنامج تطور القانون الجنائي . **وفيما يلي نص البرنامج .**

أ ــ المبادىء الأساسية لحركة الدفاع الاجتماعي :

(١) يجب الاعتراف بأن الكفاح ضد ظاهرة الاجرام من الواجبات الأساسية التي تقع على عاتق المجتمع .

(٢) في هذا الكفاح يجب على المجتمع ان يلجأ الى وسائل مختلفة سواء قبل وقوع الجريمة او بعد ارتكابها . ويعتبر القانون الجنائي احدى الوسائل التي يمكن أن يستخدمها المجتمع للاقلال من تلك الظاهرة .

(٣) يجب النظر الى هذه الوسائل باعتبارانها تهدف لا الى حماية المجتمع ضد المجرمين وحسب ، بل كذلك الى حماية أعضائه من خطر الوقوع في الجريمة . وبما يحققه المجتمع في سبيل هذين الغرضين ينشأ ما يمكن تسميته بالدفاع الاجتماعي . وحركة الدفاع الاجتماعي في اهتمامها بتوفير الحماية للجماعة عن طريق حماية أعضائها تهدف الى أن يسود في جميع نواحي التنظيم الاجتماعي احترام الشخصية الانسانية .

ب ــ المبادىء الأساسية للقانون الجنائي :

(١) يجب أن تعتبر الغاية الحقيقية للقانون الجنائي هي حماية المجتمع وافراده ضد ظاهرة الاجرام .

(٢) يجب أن تكون الوسائل التي تطبق على الجانحين مطابقة لمبادىء المدنية الحديثة التي تقوم على التقاليد الانسانية .

(٣) يجب ان يتقيد القانون الجنائي باحترام حقوق الانسان فيراعي دائما جانب الحرية الشخصية ومبدأ الشرعية .

ج ــ النظرية العامة للقانون الجنائي :

(١) يجب أن يؤسس القانون الجنائي في صياغته او في تطبيقه على الحقائق العلمية .

---

(٤٧) Une programme minimum de défense sociale, Revue de science Criminelle, 1954, P. 807.

(٢) يجب أن يتجنب وقـوع القانون أوتطبيقه تحت تأثير أفكار مجردة عن حرية الاختيار لدى الانسـان أو عن الخطأ والمسئولية وذلك دون انكار للقيم الأخلاقية الراسخة، فى ضمير المجتمع، والاعتماد على شـعور كل انســان بمســئوليته الأخلاقية .

(٣) التدابير التى توقع على الجانحين يجب أن تختار على أساس انها انسب فى كل حالة على حدتها لاصلاح المحكوم عليه وتأهيله . فاذا كانت بعض تلك التدابير تسمى عقوبات كالغرامة والتدابير الماسة بالحرية فانها أيضا تعتبر من تدابير الدفاع الاجتماعى .

د ــ برنامج تطور القانون الجنائى :

(١) من المناسب أن تنسق التدابير المختلفة التى ينص عليها القانون الجنائى فى سبيل الوصول الى نظام موحد لرد الفعل الاجتماعى فى مواجهة الفعل الاجرامى .

(٢) يجب أن يكون فى هذا النظام من تنوع التدابير ما يسمح للقاضى باختيار التدبير المناسب لكل حالة على حدتها .

(٣) يجب أن تعتبر الاجراءات القضائية والمعاملة داخل الســجون عملية واحدة ترســم مراحلهـا فى هدى مبـادىء الدفـاع الاجتماعى وروحه .

• • •

(٢) صدى سياسة الدفاع الاجتماعى

كان للدفاع الاجتماعى صــدى فى كثير من التشريعات لا سيما فى بداية القرن الحالى ، وفى تشريعات ما بين الحربين ، فوجه الاهتمام قبـل المجرمين ذوى الحالة الخطرة وتقررت بالنســبة اليهم اجراءات أمن كجزاء جنـائى مسـتقل عن العقوبة . ومن أشهر تلك القوانين **القانون النرويجى** الصادر سنة ١٩٠٢ الذى عنى باجراءات الأمن التى تطبـق بالنسـبة الى الشــواذ والمجرمين العائدين . وكذلك **القانون البلجيكى** الصـادر فى ٩/٤/١٩٣٠ الخاص بالدفاع الاجتماعى بالنســبة الى الشواذ والمجرمين العائدين . بل لقد أصبح اسم **القانون الجنائى فى كوبا** سنة ١٩٣٧ « قانون الدفاع الاجتماعى » ، وجاء فى مذكرته الايضاحية « أن هذه التسمية يجب أن تحل محل التسمية العتيقة ، فان الأمر لم يعد كما كان أمــر مدونة للعقوبات شرعت لعقاب الجانح بانزال الألم به ، وانما المدونة الجديدة تصــدر عن مبدأ مختلف جذريـا هــو الدفاع عن المجتمع ضــد الجريمة وتهذيب الجانى وتأهيله للتآلف الاجتماعى . . . ، وهكذا يحل الاتجاه العلمى الجديد للقانون الجنائى محل كل فكرة عقابية عتيقة ، ولا ريب فى أنه أمام هذه الاعتبارات الجوهرية تصبح التسمية القديمة للمدونة الجنائية غير ملائمة أبداً (٤٨) .

وحظيت حركة الدفـاع الاجتماعى بتأييد من هيئة الامم المتحدة التى قررت أن تســير مع حركة منع الجريمة ومعاملة المذنبين ، فباشرت اللجنــة الاجتماعيــة التابعة للمجلس الاجتماعى والاقتصادى نشاطا منذ عام ١٩٦٤ تحــت اسم برنامج الدفاع الاجتماعى وسمى الجهاز الخاص به قسم الدفاع الاجتماعى . وهو يعمل على تطوير سياسة جنائيــة دوليــة ذات أهداف اجتماعية

(٤٨) دكتور على راشد ، « نحو مفهوم اجتماعى للقانون الجنائى » ، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية ، س ١٠ ص ١٥ .

وبرنامج عملى، وتنظيم النشاط الضرورى لتحقيق هذه السياسة على المستوى الدولى ، وتقديم المساعدة الفنية الضرورية لكى يمكن أن تكون هذه السياسة ذات فعالية ، ونشر المعلومات عن الدفاع الاجتماعى وتحديد وتحريك التنظيم الفنى والادارى المناسب لتحقيق هذه الأهداف (٤٩) .

وفى نطاق الدول العربية انشئت المنظمة الدولية العربية للدفاع الاجتماعى ضد الجريمة بموجب اتفاقية أقرها مجلس جامعة الدول العربية فى ١٩٦٠/٤/١٠ . والغرض من انشاء هذه المنظمة هو العمل على دراسة اسباب الجريمة ومكافحتها ومعاملة المجرمين وتأمين التعاون المتبادل بين الشرطة الجنائية فى البلاد العربية ومكافحة المخدرات . وتتولى أجهزتها اتخاذ كل ما يلزم لتحقيق مستوى متطور من الدفاع الاجتماعى فى الدول الأعضاء . وللمنظمة جمعية عمومية تتكون من مندوبى الدول الأعضاء فيها ولها مكاتب ثلاثة دائمة هى المكتب الدائم لمكافحة الجريمة والمكتب الدائم للشرطة الجنائية العربية والمكتب الدائم لشئون المخدرات .

ولا يفوتنا ونحن نتكلم عن الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة فى المجتمعات العربية أن نعرض لموقف **الشريعة الاسلامية** من هذا الموضوع . واذا كنا قد رأينا فيما سبق أن هناك من المبادىء الأساسية فى القانون الجنائى ما يُعتبر من منجزات النهضة القانونية الحديثة ، فان لها مع هذا اصولاً ثابتة فى أحكام الشريعة الاسلامية منذ أربعة عشر قرناً .

فلقد تدارس فقهاء الشريعة الاسلامية الأساس فى تحمل التبعة ، وانقسموا فى هذا الى ثلاثة مذاهب ، **مذهب الجبرية ومذهب المعتزلة والمذهب المتوسط . فالأول** ـ اى مذهب الجبرية ـ يبنى رأيه على أن أفعال الانسان مقدرة عليه حتى قبل ولادته ، لأن ارادة الله تعالى شاملة لكل شيء وعلمه محيط بكل شيء ومن ثم فلا ارادة للانسان فيما يفعل وكل ما فى الحياة بارادة الله وقدره . أما **الفرق الثانى** ـ وهم المعتزلة ـ فقد قرروا أن الله خالق لكل شيء وقد خلق فى الانسان قوة تمكنه من سلوك الطريق الذى يريد ، ومن ثم فان أى معصية فهى مسندة الى ارادته ، فالله سبحانه وتعالى لا يعاقب الانسان على امور ليست من افعاله ، ولا يقبل ان يقدر عليه أمراً ثم يفرض عليه عقوبة لارتكابه ، فللانسان ارادة حرة مطلقة فى كل ما يرتكب من أفعال . وأخيراً فان **المذهب المتوسط** يرى أن لكل انسان ارادة يوجهها الى الطريق الذى يريده ، على أنها ليست ارادة مطلقة فان **الأفعال جميعاً** لله سبحانه وتعالى ، وللانسان فيها نوع من الاختيار يكون به مسئولا عما يفعل ، والا لتعذر اعمال أحكام الشرائع . ويقابل هذا فى العصر الحديث النظرية الوضعية والنظرية التقليدية ، وأخيراً النظرية التقليدية الحديثة او الثانية .

ولقد عرف **الماوردى** (٥٠) الجرائم بأنها **محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحد أو تعزير** ولها عند التهمة حال استبراء تقتضيه السياسة الدينية ولها عند ثبوتها وصحتها حال استيفاء توجيه الأحكام الشرعية ، والقاعدة العامة فى الشريعة الاسلامية هى أن الأصل فى الأشياء الاباحة ، فما لم يرد حكم بتحريمه يبقى على حكم الاباحة . وعلى هذا الأساس ما لم تتقرر عقوبة على اتيان أمر أو تركه سواء بحد أو تعزير فان للفرد الخيار فى ارتكابه او الامتناع عنه . ومن

---

(٤٩) مارك انسل ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٥٠) فى كتابه الاحكام السلطانية .

الآيات القرآنية التى دلت على تلك القاعدة قوله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امهارسولا يتلو عليهم آياتنا » ، « لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل » ، « قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر الله لهم ما سلف » . وبهذا تقررت فى الاسلام قاعدة « شرعية الجرائم والعقوبات » التى تعتبر من القواعد الحديثة فى القانون وكانت من اسس الخلاف بين مدرستى الدفاع الاجتماعى .

وتشترط الشريعة الاسلامية فى فاعل الجريمة ان يكون مختاراً غير مكره ، مدركاً لا فاقد الادراك، وعلى هذا لا يصح أن يكون محلاً للمساءلة الجنائية الا من يتوافر لديه الاختيار والادراك .

وقامت نظرية العقوبة فى الشريعة الاسلامية على مبدأين **الأول** محاربة الجريمة بحماية المجتمع من الاجرام فى كل الأحوال **والآخر** العناية بشخص المجرم فى أغلب الأحوال . فالعقوبة يجب أن تكون بحيث تمنع الكافة من الجريمة قبل وقوعها ، فاذا وقعت الجريمة تكون العقوبة بحيث تؤدب الجانى وتزجر غيره عن التشبه به . فهى موانع قبل الفعل وزواجر بعده ، أى العلم بشرعيتها يمنع من الاقدام على الفعل وايقاعها بعده يمنع من العود اليه (٥١) . وقد شرعت العقوبات رحمة من الله تعالى بعباده فهى صادرة عن رحمة بالخلق واردة الاحسان اليهم . ولهذا ينبغى لمن يعاقب الناس على ذنوبهم أن يقصد بذلك الاحسان اليهم والرحمة بهم ، كما يقصد الوالد تأديب ولده ، وكما يقصد الطبيب معالجة المريض (٥٢) .

● ● ●

(٣) الدفاع الاجتماعى والمجتمع العربى

بعد أن عرضنا تطور الفكر العقابى وبينا مفهوم الدفاع الاجتماعى قديما وحديثا بقى علينا بيان مدى ما يكون لهذا التنظيم من انعكاس فى مجتمعنا العربى ، ومدى ما يقدر له من نجاح . ومن المسلم به أن نجاح أى مشروع أو تنظيم يكون رهيناً بمدى ملاءمته للبيئة التى يطبق فيها بأن ينبعث من احتياجاتها ويتفق مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية فيها . فنقل نظام طبق فى اقليم وثبت نجاحه لا يعنى الوصول الى ذات النتيجة فى اقليم آخر لاختلاف الظروف الخاصة بكل منهما . على أنه ليس ثمة ما يمنع من الاهتداء بالدراسات التى تمت والنظم التى طبقت فى دول اخرى للاستفادة منها .

وليس يكفينا فى هذا الصدد وجود منظمة الدفاع الاجتماعى التابعة لجامعة الدول العربية للقول بأن حركة الدفاع الاجتماعى لها امتداد فى الوطن العربى ، لأن هذا يتطلب انعكاسا فى النواحى السياسية والتشريعية والاجتماعية والقضائية ، وهو أمر بلا شك نفتقده . ومن ناحية اخرى اذا وجدت بعض الأنظمة العقابية التى قد تتفق مع حركة الدفاع الاجتماعى وتنادى بها ، فلا يعنى هذا أنها استجابة لتلك الحركة ، بل لا يعدو الحال مجرد تطبيق بعض الأنظمة التى ثبتت ملاءمتها لبيئة معينة ، وعلى هذا يكون من اللازم استعراض فكرة الجريمة والدفاع الاجتماعى فى ضوء مفهوم عربى عام لأن الجريمة وان ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالنواحى السياسية

---

(٥١) ابن همام ، شرح فتح القدير ، ج ٤ ص ١١٢ .

(٥٢) عبد القادر عودة ، القانون الجنائى الاسلامى مقارناً بالقانون الوضعى ، طبعة ثالثة ، ج ١ ص ٦١٠ .

والاقتصادية والاجتماعية لكل دولة ، وكان هناك تباين ضرورى فيما بين الدول العربية، الا انه يوجد فيها جميعاً حد أدنى مشترك من رد الفعل ازاء الجريمة ، وهذا ما نحاول تبيانه فيما يلى .

ان الغاية البعيدة لكل سياسة جنائية هى مكافحة الجريمة على مختلف صورها فى وقت وفى مجتمع معين ، يستوى فى هذا الالتجاء الى وسائل مانعة من مقارفتها أو معالجة لأمرها حتى لا يتكرر وقوعها . وتعتبر الجريمة بوجه عام اقليمية ، بمعنى انها تختلف من مجتمع الى آخر ، حتى مع وحدة الجريمة . فهناك من الجرائم ما يقع فى اقليم ما ولكنها قد لا تحدث فى غيره ، لأن الأمر يرتبط بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لكل مجتمع ، بل ان الجريمة الواحدة قد تختلف من مكان لآخر ، فالسرقة وان كانت تقع فى اى مجتمع ، الا اننا لو حللناها وفقاً للمجتمعات التى تقع فيها لوجدنا فيها اختلافاً بيناً ، سواء من ناحية الدوافع اليها أو اشخاص مرتكبيها أو موضوعها . وينظر الى الجريمة ايضاً عند مكافحتها الى الوقت الذى وقعت فيه ، لأنها اذا كانت ترتبط بالظروف المختلفة لمجتمع معين فان هذه الظروف تتغير من وقت الى آخر اذ ان هناك انواعاً من الجرائم تظهر فى أوقات معينة ثم تختفى بعد هذا لانتفاء الملابسات والأسباب المهيئة لها ، وأبرز مثال لهذا فى عصرنا الراهن هى الجرائم التى تعرف بالجرائم المادية .

ونقطة البدء فى موضوعنا هى تحديد المراد بالجريمة التى توجه اليها السياسة الجنائية ، ذلك ان الجريمة فى رأينا لها مفهوم قانونى ، وداخل هذا المفهوم يوجد آخر هو المفهوم الاجتماعى ، فالمشرع قد يجعل من فعل معين جريمة ، لأنه رأى بلوغه درجة من الخطورة تستوجب تدخله بالعقاب . ولكن المجتمع قد لا يدرك الغاية البعيدة من ذلك التجريم ، فينتفى أو يقل احساسه بالمسئولية الأدبية أو الاجتماعية عن ذلك الفعل ، ومن هذا القبيل بعض الجرائم المادية على ما أشرنا اليه فيما سلف . وهناك فرق بين المفهوم الاجتماعى للجريمة ، والنطاق الأخلاقى ، فالدائرة الاخيرة أوسع بكثير من الاولى، حيث لا يتدخل المشرع بالعقاب على كل الأفعال المنافية للاخلاق ، ويقتصر المفهوم الاجتماعى على جزء من الأفعال التى يتناولها المشرع بالتجريم ، فدائرة المفهوم الاجتماعى تنطوى داخل دائرة المفهوم القانونى . والأمر يدعو الى بعض من البيان .

درج شراح القانون على تعريف الجريمة بأنها كل نشاط يصدر من الجانى ـ ايجابيا كان هذا النشاط أم سلبيا ـ يقرر القانون عقوبة من اجله . ومن هذا يؤخذ وجوب توافر عدة امور فى فعل ما حتى يمكن اعتباره جريمة من نوع النموذج القانونى الذى يتضمنه التشريع . واول هذه الامور ان يصدر نشاط عن الشخص ، بمعنى استعماله لقدراته فى اتجاه معين يريده ، ويستوى حينئذ ان يكون توجيه النشاط نحو اقتراف فعل معين أو ان يكون بعدم توجيهه نحو القيام بواجب محدد . ويتعين أيضاً أن يكون النشاط مخالفاً للقانون ، فالقانون يخاطب الأفراد اما بتحذيرهم من ارتكاب فعل معين او بأمرهم باتيان تصرف ما ، وتجب اطاعته والا عد الفرد مخالفاً . ومن الضرورى للشخص ـ حتى يحاسب على نشاطه ـ ان تتوافر فيه الأهلية لتحمل نتيجة اعماله ، فيكون مدركاً خطأ الأفعال التى تصدر منه . ولا يكفى ان يخالف الفرد نواهى القانون أو اوامره حتى يعد مرتكباً لجريمة ، وانما يجب أن تكون هناك عقوبة مقررة لتطبق عند المخالفة .

والجريمة بالصورة آنفة البيان تدخل فى اطار النموذج القانونى الذى وضعه المشرع ، بيد انه من ناحية اخرى بالنظر الى طبيعتها لا تخرج عن كونها حدثاً فى مجتمع معين ، ومن أجل هذا

تعد الجريمة ظاهرة اجتماعيـــة بما تمســـه من علاقات سواء بين أفراد المجتمع بعضهم وبعض او بين افراد المجتمع والدولة ذاتها . والأصل ان الدولة توقع العقاب جزاء الخروج على القواعد المقررة فى الجماعة ازاء ما من شأنه ان يخل بالأمن والنظام فيها . وكان هذا واضحا فى الجرائم التى يتمثل فيهـا عنصر العـدوان كالقتـل والضرب والاستيلاء على أمـوال الغير فى صـوره المختلفة ويتالم منها شعور الجماعة فتتحرك فيها عاطفة القصاص من الجـانى ، ولهذا ما كان القانـون الجنائى يتدخل فى العلاقات الخاصة بالأفراد مهما حدث فيها من اخلال بالالتزامات المترتبة عليهم . وان تصفح مدونات الجزاء التى صدرت فى القرن التاسع عشر يكشف عن هذه الحقيقة بما جاء فيها من انواع الجرائم والعقوبات . ومن اجل هذا كان هناك انفصال تام بين الأحكام الواردة فى قانـون العقوبات بوصفه أحد فروع القانـون العام وبين الأحكام الواردة فى القانون المدنى بوصفه أحد فروع القانون الخاص .

وكان من شأن التطور الحديث أن تدخلت الدولة فى كثير من العلاقات الخاصة على وجهين ، الأول منهما تنظيم تلك العلاقات الفردية على النحو الذى يحافظ على مصلحة طرفيها ، والآخر كفالة احتـرام تلك التنظيمات بما تضـعه الدولة من جزاءات على مخالفتها باعتبارها صاحبة السلطان. ولم تقتصر الاستعانة بالجزاء الجنائى على دائرة العلاقات الناشئة عن أحكام القانون الخاص ، بل امتدت الى الأحكام المقررة فى بعض فروع القانون العام كالقانـون الادارى الدسـتورى والادارى المالى .

وقد تقتصر التشريعات الجنائية على بيان افعال معينة رأى المشرع ان يعدها من الجرائم لما رآه لها من خطورة على المجتمع أوجبت تدخله ، كما هو الحال بالنسبة الى جرائم التشرد والاشتباه وحمل الســلاح والمخدرات . وقد تعد بعض القوانين الخاصة لتنظم أساساً مسائل معينة فى مختلف شئون الحياة الاجتماعية والاقتصـادية والسياسية ، وعملاً على احتـرام احكامها يقرن المشرع مخالفتها بجزاءات مما نص عليه فى قانون العقوبات . والمشاهد حاليا فى كل الدول ان غالبية تشريعاتها تحـوى فى خواتيمها نصوصـاً تجرم مخالفة بعض احكامها اذ بهذا يظهر سلطان الدولة فى فرض القواعد التى تراها كفيلة بتنظيم مختلف شئون الحياة . وقد استلفتت هذه الظاهرة نظر الشراح ودعتهم الى دراسة العقوبات الجنائيـة المقررة فى غير مجال العقوبات ، وهل هى تنسجم مع الغاية من العقوبة ومع الاسس والنظريات التى يبنى عليها علم العقاب من عدمه (٥٣) .

والأصل فى القانـون أنه صـدى لحاجات مجتمع معين فى وقت معين ، ولذا فانه عن طريقه يمكن التعرف على ما كان عليه حال جماعة ما فى عصر من العصور ، وهذا الأمر أشد ظهـوراً فى القانون الجنائى لاتصاله الوثيق بالجريمة التى تعد احدى الظواهر الاجتماعية . ولقد وضـعت مجموعات القوانين الحديثة فى القـرن الماضى كما قلنا وكانت تعبر عن الظواهر الاجتماعية لأفراد المجتمع القائم وقت وضعها وكان القانون الجنائى من بينها .

فالجريمة اذن قد تكون تصرفاً يتأذى ويتضرر منه الشعور العام للمجتمع ، فيستجيب المشرع لذلك الشعور ويقرر من أجله العقاب ، بسبب ما وقعه التصرف من اخلال بأمن المجتمع ذاته . اذ انه لما كان المجتمع يتكـون من مجمـوع الأفراد المكونين له وكان الأصل فى الفرد البقاء استجابة

---

(٥٣) يراجع مؤلف Jean Hemard « الصادر سنة ١٩٢٦ » عن : « الجزاءات الجنائية فى القانون الخاص » .

للغريزة القائمة فيه ، فكذلك الشان بالنسبة الى المجتمع ، وبهذا يتلاقى الفرد والمجتمع ـ كما سبق القول ـ فى غريزة حب البقاء ، ويتحرك المجتمع للدفاع عنهما ضد أى اختلال أو اضطراب فيه . على أن الجريمة قد تكون لها صورة اخرى، حين يخلقها المشرع لما يراه من مصلحة المجتمع تأسيساً على أن الفعل يمثل خطورة فعلية على بقائه أو نظامه . وقد لا يستبين الشعور العام للجماعة الغاية البعيدة للتشريع فلا يحس بما فى التصرف الذى جرمه المشرع من مساس بالنواميس والمعتقدات التى تسوده ، ولذلك تنشأ هوة بين موقف المشرع من ناحية ، واستجابة الجماعة له من ناحية اخرى .

ولو أردنا ان نضرب مثالاً لهذا لوجدناه فى التشريعات الضريبية ، فهى تنظم فرض الضريبة وكيفية سدادها باعتبارها جزءاً من ميزانية الدولة التى يعود نفعها على المجتمع كله. ومع هذا يدخل فى عقيدة كثير من الممولين ان التهرب من الضريبة لا جريمة فيه من الناحية الأخلاقية ، وهم يقارنون فعل التهرب بجريمة اخرى عادية كالسرقة أو النصب ، حيث يتضمن العمل عدواناً على مال الغير ، فى حين أن عدم سداد الضريبة يسفر عن ابقاء المال فى حوزة صاحبه ، ولا يمكن فى نظر الأخلاق العامة ان يُعد السارق او النصاب مثل المتهرب من الضريبة . ولذلك نجدهم يحملون على القانون حينما يقرر بعض العقوبات الجنائية على ما يعده المشرع جريمة ضريبية (٥٤) . بل لقد ذهب البعض قديما الى القول بأن كل استيلاء على حق الدولة من هذا القبيل لا يتسم بعدم المشروعية ، وأن من يقوم بأداء الضرائب هو انسان ساذج (٥٥) .

فأى النوعين من الجرائم هو الذى ينبغى ان تهدف السياسة الجنائية الى مكافحته . هل هى الأفعال التى يجرمها المشرع للغايات التى يبغى تحقيقها ، أم يقتصر الأمر على افعال تتجاوب دائماً مع الشعور الانسانى العام ، والتى تكاد تتفق فيها كل المجتمعات مع خلافات غير جوهرية، بصرف النظر عن زمانها أو ظروف مجتمعها ؟

نرى أن العناية والدراسة يجب توجيههما الى النوع الأخير ، اى الجرائم التى تمس الشعور الانسانى العام ، ويمكن تحديدها بأنها الجرائم التى تمس مقومات الفرد كانسان له الحق فى حياة حرة هادئة ، وهى ما يكون فيها عدوان على شخصه أو حريته أو ماله . فهذه الأفعال قديمة قدم الانسان ، ومنشؤها الغرائز التى أوجدها الله سبحانه وتعالى فى الانسان كما بينا ، والتى توجد فى كل زمان ومكان ، وهى التى يحار الباحثون فيها لأنها تتصل بالجانب الانسانى والنفسى للفرد ، والتى لم يصل العلم بعد الى نتائج قاطعة فى أسرارها . ولو اننا رجعنا الى التطور التاريخى للفكر الفلسفى فى مكافحة الجريمة لما وجدنا فى ذهنه الا الصورة التى نشير اليها ، ولهذا كانت الأفكار تتناقل من دولة الى اخرى وتجرى دراستها ، لان الجريمة فى أساسها واحدة فى كل دولة . ولو كانت الجريمة محلية من خلق المشرع لما حظيت بعناية المفكرين فى الدول الاخرى . ويؤدى هذا التحديد الى نتيجة عملية فى غاية الأهمية . ذلك اننا اذا كنا بصدد وضع سياسة جنائية فى مكافحة الجريمة ، فمعنى هذا انها تتصل بكثير من أجهزة الدولة ، وتحديد نطاق الجريمة يؤدى الى تركيز الاهتمام فى مكافحتها ويوصل الى نتائج ايجابية ، وعلى العكس من هذا

---

(٥٤) Delugo Tullio, Droit pénal fiscal, 1958, p. 49 et s.

(٥٥) Piatier, Andre, L'évasion fiseale et l'assistance administrative entre Etats, 1938, p. 15 et s.

اذا اتسعت دائرةالاجرامتشتت الجهد ، وضعفتالنتائج الى الدرجة التى قد لا يكون لها اثر ظاهر يجعل اليأس يدب الى قلوب القائمين على مكافحةالاجرام .

وأما الجريمة التى يخلقها المشرع لظروفخاصة وجرياً وراء منفعة يريد تحقيقها فانهـا تختلف من مجتمع الى آخر ، بل انهـا تتغير فىالمجتمع الواحد وفق الأزمنة المختلفة . فالحادث الواحـد قد يختلف معناه وأثره من مجتمع الىآخر . ونظراً لطبيعة الجريمة الخاصة على النحو السابق ، تختلف وسـائل المجازاة عنها أيضـاًحسب كل مجتمعوحسب زمانه ، ذلك أنها دواماً رهينة بظروف خاصة قابلة للتغيير والتبديل بلوالـزوال . والمشرع حيثما يبغى مقاومـة تلك الجرائم فانه يتخير الوسائل والجزاءات المناسبة(وقد لا تدخل فى المفهوم العام للجزاء) التى يكون من شأنها التأثير فى كل من تساوره نفسهلارتكابها. والمثال البارز لذلك الجرائم الماديـة والجـرائم الاقتصادية .

واذا حددنا الجريمة على الوجه آنف البيانوكانت الغاية من السياسة الجنائية هى مكافحة الاجرام ، اقتضانا هذا بيان الجريمة باعتبارهاظاهرة فى المجتمع ، ذلك انها متى وقعت اصبحت حدثاً فيه تستوجب اجراءات معينة ينص عليه القانون . على أنها قبـل هذا قد تجمعت لهـا العناصر التى ادت الى وقوعهـا ، وهى من بعدالاجراءات القانونية توجه الالتفات الى وجـوب مباشرة اجراءات اخرى بقصد حماية المجتمع من معاودة ارتكابها . فالجريمة اذا أريدت مكافحتها، لا تؤخذ على أنها حدث مجـرد منبت الصـلةبالأسباب السابقة عليه أو بالظروف اللاحقة له . ونحن نعتبر الجريمة ظاهرة اجتماعيـة ، لأنهاصادرة عن شـخص فى مجتمع معين ، وجاءت مخالفة لقوانين ونواميس هذا المجتمع ، ومن ثم فهى مرتبطة به ، ودراستها فى سبيل الوصـول الى مكافحتها والقضاء عليها تقتضى تعرف مختلفالظروف الخاصة بالمجتمع الذى وقعت فيـه . وفضلا عن المجتمع ذاتـه ، فان المحيط الخاصبالفـرد يرتبـط بدوره بالجريمـة ، سواء تعلق باعتباره فرداً فى اسرة ، أو كان ذلك فى نطاق تنظيمعمل معين . وأخيراً فان الفرد ذاته بوصفه انساناً يختلف عن غيره من الأفراد ، فلا يوجد الفرد الذىيتطابق مع غيره فى كل مـا يتعلق به ، ونحن اذا تكلمنا على الفرد العـادى فانما نتناول النواحىالغالبـة والتى تتوافر بوجـه تقريبى فى جميع الأفـراد .

وهذه الظـروف المختلفـة سـواء تعلقتبشخص الفرد او محيطه الخاص أو المجتمع الذى يوجد فيه ، ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً ، ويؤثركل منها فىالآخر تأثيراً يختلف مداه من فرد الى فرد ومن واقعة الى اخرى . ومكافحة الاجرام تحتاجالى دراسة مستفيضة لهذه العناصر جميعا لتنتهى الى تنظيم عام يمكن الوصول به الى مجتمع يقل فيه الاجرام الى درجة كبيرة ، وان كان لا ينعدم اطلاقاً ، ذلك لأن الجريمة لاصقة بالغرائز على ماسلف القول . وتلك الدراسـة تتفرع حتى أنها لتتناول علوما قائمة بذاتها ، وليس هذا مجالنا . ونحن نقتصر على الجريمة من جانبها القانـونى والقضائى توصلاً الىالهدف الأساسىمنالسياسةالجنائية وهو مكافحة الاجرام ، ويكون هذا بعد وقوع الجريمة .

أما قبل وقوع الجريمـة ، فان العمل علىمنعوقوعها يعتبر من عمل أفراد الضبط الادارى، وذلك بما يتولون من اجراءات ، كتنظيم الدورياتواقامة الحراسة ومراقبة المشتبه فيهم وتلك مهام متصلة بالأمن فى ذاته . ومهما بلغ هذا العمل منالاتساع فانه لن يصل الى مكافحة الجريمة الا فى أضيق الحدود . ولكن مكافحة الجريمـة قبـلوقوعها يكون بمحاولة القضـاء على اسـبابها .

والأسباب التى قد تؤدى الى وقوع الجريمة هيعلى نوعين أولهما أسباب عامة اى تتعلق بالنواحى العامة فى المجتمع ذاته ، والنوع الآخر أسبابخاصة تتعلق بمقارف الجريمة نفسه .

والنواحى العامة التى تتصل بأسبابالجريمة قد تكون سياسية او اقتصادية او اجتماعية فلا شك أن الأنظمة التى تحكم هذهالنواحى الثلاث لها دخل كبير فى الاجرام . فالضغط السياسى قد يكون من الأسباب المؤديةللاجرام ، على عكس الحرية السياسية . وللظروف الاقتصادية دور كبير فى خط سيرالاجرام ، لأن الكثير من الجرائم خاصة ما تعلق منها بالأموال يقع تحت تأثير أسباب اقتصاديةللفرد . وكذلك فان للعلاقات الاجتماعية التى تسود فى مجتمع معين أثرها فى الاجرام ، ظهوراًاو خفاء ، زيادة أو نقصاً . وعلى ما قلنا تحتاج هذه النواحى المختلفة الى دراسات مستفيضة .

اما النواحى الخاصة فهى التى تتعلقبشخص الفاعل سواء تعلقت بالمجنى عليه ، او الوسط الذى يعيش فيه ، والاسرة التى ينشأ فيها وحالتهالشخصية كانسان . وهذه النواحى كذلك تحتاج الى دراسات مستفيضة لتعرف أثرها فى مسببات الاجرام ، والعمل بعد هذا على علاجها . ولما كانت كل دولة تختلففى ظروفها السياسيةوالاقتصاديةوالاجتماعية عن غيرها من الدول فان تقصى أسباب الاجرام المتعلقة بها تحتاج الى دراسة خاصة بها .

واذا انتقلنا بعد هذا كله الى الحال بعد انوقعت الجريمة وبوشرت فى شأنها الاجراءات التى رستها القوانين ، فنكون بصدد شخص سبق لهأن اجرم وهذا يدعو الى توجيه المجهود نحو العمل على عدم عودته الى طريق الجريمة . ولا شك فىان هذه المرحلة تتصل بالمرحلة الاولى (اى مرحلة القضاء على الأسباب الناشئة عن الظروفالسياسية والاقتصادية والاجتماعية فى دولة ما) لانه بالتغلب على اسباب الاجرام غلق لبابه فلايلجه الفرد مرة ثانية . ولكن هناك المجرم فى ذاته الذى يحتاج الى اجراءات معينة تأخذ به الىالطريق القويم ، قد يبدأ بعضها مع الاجراءات الجنائية التى تباشر قبله ، كما انها قد تقومبذاتها مستقلة بعد انتهاء تلك الاجراءات ، ونضرب مثالاً لهذا الرعاية اللاحقة بالمساجين المفرج عنهمبعد انقضاء فترة العقوبة .

واذا كان موضوع كلامنا يتناول الجريمةبعد وقوعها (أى الاجراءات الجنائية التى تبدأ مباشرتها من وقت وقوعها الى حين انتهاء الجهاتالقضائية والجهات المعاونة لها من امر الجريمة) فان هذا يقتضينا تناول الدعوى الجزائية بالبيانمحددين مراحلها المختلفة وما يمكن ان تشمله من اجراءات تساعد على مكافحة الجريمة ، وعلىالأخص الأخذ بيد الجانى وابعاده عن سبيل الاجرام ، والانتقال به الى الطريق القويم .

على أنه لما كان ما تتناوله الاجراءات الجنائيةهو أمر الجريمة ، وجب علينا بيان مسالتين على جانب كبير من الأهمية ، **اولاهما** تحديد الأفعالالتى تعتبر جريمة فى خصوص موضوعنا بالذات ، **والاخرى** هى رد الفعل الذى يواجه به المجتمعأمر الجريمة .

وبالنسبة الى الأمر الأول ــ أى تحديدمرادنا من الجريمة ــ فلقد سبق القول بأنها اما أن تكون من خلق المشرع لظروف معينة ولمصالحخاصة يبغى حمايتها او يتأذى منها الشعور الانسانى بوجه عام ، وقلنا ان كلامنا ينصب علىالنوع الاخير . واهمية هذه التفرقة تبدو فيما يترتب عليها بعد ذلك من نتائج . واولى هذهالنتائج ان المشرع يستطيع بالنسبة الى الجرائم

التى من النوع الأول أن يجرم ما يشاء من الأفعال،ويقرر لها العقاب المناسب أو ما يراه من تدابير الأمن ، كما هو الحال بالنسبة الى الجرائم الاقتصادية . وحبذا لو جعل نظر هذه الجرائم من اختصاص محاكم خاصة لتخرج من الاختصاص القضائى العام . وبهذا نحقق امرين، الأول أن نرفع عبئاً يكبر مع الزمن عن كاهل السلطة القضائية ؛ذلك أن المشاهد حالياً أن تلك الجرائم زادت بدرجة كبيرة حتى أنها تستغرق وقتا وجهداكبيرين من القضاة . والأمر الآخر يترتب على الأول ، وهو تفرغ القضاة لدراسة الجرائم دراسةحقه فى وقت كاف يجعل القاضى يقدر الاجراء المناسب الذى يتفق مع كل مرتكب لجريمة تحقيقاً لسياسة التفريد العقابى القضائى ، ويؤدى الى تحقيق الغاية المرجوة من كل اجراء يهدف الىمكافحة الاجرام . وبذلك لا يصبح القاضى فى اصداره للأحكام مجرد أداة لعملية حسابية .

وأما الأمر الآخر ـ الخاص برد الفعل الذىيواجه به المجتمع أمر الجريمة ـ فقد سبق ان تناولناه ضمن تطور الفكر الفلسفى بالنسبة الىالعقاب ، على أن الأمر الذى يستلفت النظر أن ذلك التطور يتسم بالطابع الانسانى كلما مرالوقت ، ومعنى هذا انه مع تقدم الانسانية تتغير النظرة الى مرتكب الجريمة فبعد أن كان ينظراليه على أنه عدو للمجتمع صار فى نظر الجماعة شخصاً ضل الطريق ، وان وجبت مجازاته الا انهمع ذلك ينبغى الأخذ بيده ومعاونته على ان يعود الى الحياة الطبيعية من جديد ، حتى وصل الحالالى آراء تبدو متطرفة تنظر الى المتهم كمريض فى حاجة الى رعاية لا كمجرم فى حاجة الى عقاب .ومن هنا يتعين علينا تحديد رد الفعل الذى يواجه به المجتمع أمر الجريمة .

ورد الفعل فى مواجهة الجريمة غير مقصودلذاته ، ولكن له غاية مزدوجة يحققها ، تتمثل فى مصلحة المجتمع من ناحية ومصلحة الفرد ذاته مناحية اخرى . فالجريمة حدث فى المجتمع أخل بما ينبغى أن يسوده من هدوء وأمن ، وهى بهذاظاهرة يجب أن يتحرك المجتمع فى مواجهتها ليعيد الهدوء فلا تقع الجريمة مرة اخرى . ثم ان الجانىهو أحد أفراد المجتمع ويبقى فيه حتى بعد وقوع الجريمة ، فالمجتمع لا يتخلى عنه ، ولكن حتى لايضر بالمجتمع من جديد يجب أن يسعى هذا المجتمع لاصلاحه .

ونحن نرى وجوب التمسك بالعقوبة اساساكرد فعل يواجه به المجتمع أمر الجريمة ، ذلك لأن اى فكرة تثور فى مجتمع معين لن يقدر لهاالنجاح الا اذا كان المجتمع قد تهيأ لقبولها ، فالأفكار والآراء التى تبدو غريبة على المجتمع لايتقبلها ، ومعنى هذا أنه لن يعاون فى تحقيقها ، وان فرضت عليه فانه ينصاع لها بغير ايمانويلفظها عند أول سانحة يستطيع معها أن يتخلص منها . فاذا اردنا الاختيار بين فكرة العقاب وفكرةالاجراء العلاجى أو الوقائى ، لا بد أن نستشف موقف المجتمع . فاذا وقعت جريمة من الجرائم ـ بالصورة التى سبق لنا تحديدها ـ فهل يقبل المجتمع اطلاق سبيل الجانى تأسيساً على أنه فىحاجة الى علاج لا الى عقاب ؟ لقد رأينا فيما سبق أن أشد النقد الذى وجه الى المدرسة الوضعية ،أساسه محاولتها التخلى عن فكرة العقاب ، وما كان ليقدر لهذه الفكرة النجاح لأنها تتعارض معشعور الجماعة .

لقد وجد الأفراد ـ الذين يتكون منهم اىمجتمع ـ وهم يؤمنون فى وجدانهم بفكرة الثواب والعقاب ، أى المكافأة عن أعمال الخير والجزاء علىافعال الشر ، نجد هذا الاحساس فى الصغير والكبير أى فى أفراد المجتمع عامة . فالطفل الصغيرمنذ أن يبدأ فى ادراك ما حوله يتعلم بأن هناك ما يجوز عمله ، وهناك ما يمتنع عليه اتيانه ، فانارتكب فعلاً مخالفاً لما تلقنه أصابه عقاب يؤدى

الى ايلامه على اية صورة كان الالم . والعاطفةالدينية التى تقوم فى وجدان كل فـرد تشعره بالفضيلة وتحثه عليها ، وتنفره من الرذيلة وتهدده بالجزاء عند اقترافها . قال تعالى فى سورة النساء : « من يعمل سوءاً يجز به » وقال تعالى فى سورة الزلزلة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » فهل يمكن بعدهذا الغاء فكرة الجزاء ، أو الغاء فكرة الألم من العقاب ؟ نحن نرى أن العقاب لا يمكن الاستغناءعنه ، والألم فى العقاب كذلك على ان لا يقصر فى معنى الالم على مجــرد الايذاء أو التعذيب ، بل الألم على اية صورة كانت حتى ولو كان ألماً نفسياً ، لانه يحمل معنى الجزاء . ولقد تطور العقاب ذاته فبعد أن كان يتسم بالقسوة والتعذيب ، زالت عنه تلك الصبغة ، حتى أصبح الألم يتمثل فى مجرد فقدان الحرية .

واذا كان العقاب أمراً لازماً بصدد من وقعت منه جريمة ، فان المجتمع لا يتخلى عن فاعلها لأنه أحد أفراده ، ومن ثم تقـوم وظيفتـه فى محاولة اصلاح أمره واعادته الى السبيل القويم . ولا شك فى أن الألم الذى يـلازم العقاب مما يسـاعد فى الوصول الى تلك الغاية ، لأن التجربة التى مر بها المتهم ، سوف تجعله يتردد كثيراً قبـل الاقدام على جريمة جديدة . ولكن الوقـوف عند هذا يجعل موقـف المجتمع سـلبياً بصـــدد مرتكب الجريمة . ولا شك أن هناك أسباباً دفعت به الى سلوك سبيل الجـريمة ، فضـلاً عن ان توقيع العقاب عليه قد يسفر عن أسباب اخـرى تغلق أمامه الطريق المستقيم . ومن هنا تبرز وظيفة المجتمع ويقتضيه واجبه التحرك ومساعدة الجانى منذ بداية الاجراءات الجنائية وخلالها وحتى بعد الانتهاء منها .

وعلى أساس ما تقدم لا يمكن الاعتداد بمجرد الألم الذى يصيب الجانى (كرد فعل من المجتمع ازاء الجريمة التى اقترفها) لأنه يؤدى الى عودة للوراء ، كما لا يقبل مجرد محاولة اصلاح المتهم وعلاج امـره لأن هذا لن يرضى المجتمع ، ولكن تحقيق الغاية المرجوة يكون بالجمع بين الأمرين معاً ، جزاء واصلاح .

واذا كنا قد حددنا نطاق بحثنا فى الاجراءات الجنائية التالية لوقوع الجريمة ــ اى فى الدعوى الجنائية ــ تعين علينـا تحديد المراد من هـذه الدعوى . وتعرف الدعوى الجنائية عادة بأنهـا الطريق الموصل الى التحقق من وقوع فعل معين ، وأن هذا الفعل يشكل جريمة فى القانون وأن هذه الجريمة يناط بها شخص معين ليرفع أمرها الى القضاء فيقضى بالادانـة أو بالبراءة . فالدعوى الجنائية على هذا الأساس تمر برحلتين ، الاولى مرحلة التحقيق الابتدائى الذى تباشره السـلطة المختصة به ، والمرحلة الثانية هى مرحلة التحقيق النهائى الذى يجرى امام المحكمة . والسـؤال الذى يثير البحث هو معرفة مكان مرحلة تنفيذ الحكم من الدعوى الجنائية ذاتها ، اى هل يعتبر التنفيذ جزءاً من الدعوى الجنائية ام انه اجراء يبدأ بعد أن تنتهى هذه الدعوى ؟ وبصورة اخرى يثور التساؤل عن بداية ونهاية الدعوى الجنائية .

تعتبر الدعوى الجنائيـة اسـتعمالاً لحق المجتمع فى مؤاخذة الجانى ، ومع هذا فلا يُعتبر هذا الحق ملكاً لفرد معين ولا هـو ملك للنيابـة العامة ، وانما هو حق تسـتعمله هذه نيابة عن المجتمع . والحكم الذى يصدر فى الدعوى يكون لمصلحة المجتمع وتنفيذه واجب ، اذ لن تكـون للحكم أية قيمة ما لم ينته الأمر الى تنفيذه ، لأن الغاية من العقاب لا تقف عند مجرد وصول المجتمع الى تقرير حقه فى مجازاة الجانى ، وانما تمتد الى محاولة اصلاحه ، ومنع غيره من الاقتداء به ، ولا يتحقق هذا ما لم يكن تنفيذ الحكم يقينياً .

ومتى كان الأمر كذلك ـ أى متى كانت اهمية وفائدة الحكم الجنائى تكمن فى تنفيذه ـ فانه لا يمكن فصل الاجراءات القضائية السابقة على التنفيذ عن اجراءات التنفيذ ذاتها ، لانه لا معنى ولا فائدة لوجود الواحدة منهما دون الاخرى . الأمر الذى ينتهى بنا الى أن الدعوى الجنائية تنشأ من وقت وقوع الجريمة حتى الانتهاء من التنفيذ ، لانها تمثل المطالبة بحق المجتمع ، وهو يقوم بمجرد وقوع الجريمة ولا ينتهى الا اذا نفذ الحكم الصادر فى الدعوى الجنائية .

ولقد اصبحت لمرحلة التنفيذ فى الدعوى الجنائية طبيعة خاصة ، حيث لم يعد الأمر مقصوراً على مجرد اقتضاء المجتمع حقه من مرتكب الجريمة بجزاء يوقع عليه ، اذ تلعب شخصية المجرم دوراً كبيراً فى هذه المرحلة ، حيث ينبغى العمل على تقويمه واصلاحه وحتى فى المرحلة السابقة على الحكم فى الدعوى نجد ان القانون قد منح القاضى سلطات واسعة ليتخير منها ما يراه متمشياً مع صالح المجتمع والمتهم معاً ، فأعطاه حرية تقدير العقوبة بين حدين أدنى واقصى ، كما منحه حق الأمر بوقف تنفيذ العقوبة ، وغير هذا من الصلاحيات التى تهدف لذات الفرض . وحتى تتمشى الغاية من هذا الاتجاه مع مرحلة التنفيذ يكون من الأوفق منح ذات السلطة التى قررت الجزاء أو التدبير الاشراف على تنفيذه ، وهذا ما يقضى به المنطق الذى يتفق مع واقع الامور ، فتختص جهة واحدة بكل الاجراءات الموصلة الى ذات الغاية .

ويكاد ينعقد الاجماع على وجوب أن يُعهد بالاشراف المذكور الى جهة قضائية ولا يعترض فى هذا الصدد بالقول بأن القضاة يعتبرون من الموظفين ـ كما هو الشأن بالنسبة الى موظفى الادارة العقابية ـ فيجب أن يلاحظ انهم فى الواقع يتمتعون باستقلال يمكنهم من مباشرة عملهم دون تأثرهم بالسلطة التنفيذية . هذا فضلاً عن ان هناك من الأسباب ما يوجب أن يُعهد بالاشراف الى السلطة القضائية ، فهذه الجهة هى التى تعرف ماضى المتهم لا سيما فيما يتعلق بالسلوك الاجرامى ، ومن ثم تستطيع تقدير ما اذا كان الاجراء الذى يباشر قبله يؤدى الى اصلاحه أم انه لا يعدو أن يكون اجراء شكلياً . فقد يسلك المحكوم عليه خلال فترة التنفيذ سلوكا قويما يؤدى الى سرعة الافراج عنه . فاذا عاد الى المجتمع سقط فى هوة الجريمة من جديد . وفضلا عن هذا فان مهمة القاضى تنتهى عادة عند الحكم بالعقوبة ، وبهذا تنقطع صلته بالمحكوم عليه ، الأمر الذى لا يتفق مع اجراءات الدفاع الاجتماعى التى تتطلب وجود تناسق بين تقرير الاجراء ومباشرة تنفيذه بالفعل . ويؤدى هذا الى وجوب الغاء التفرقة القائمة بين مرحلتى الحكم والتنفيذ . واخيراً فانه لما كانت اجراءات الدفاع الاجتماعى بطبيعتها متغيرة وفقاً لمتطلبات اصلاح المحكوم عليه فان هناك احتمالاً أن تمس بالحرية الفردية ، وحامى هذه الحرية هى الجهة القضائية (٥٦) .

والمشكلة بالنسبة الى المذنب لا تنتهى بمجرد الحكم عليه ، فينبغى أن يتقرر الاجراء الذى يمكن من اعادة المتهم الى حظيرة المجتمع . وكان من شأن الأفكار الانسانية الحديثة أن تغيرت النظرة

---

(٥٦) Pierre Bouzat, “ La controle de l’exécution des mesures de défense sociale ”. **Revue internationale de droit pénal,** 1957 p. 579.

وراجع « دور القاضى فى الاشراف على التنفيذ الجنائى » للدكتور حسن المرصفاوى والدكتور محمد ابراهيم زيد ، ص ٩ وما بعدها .

الى العقوبة واصبحت وسيلة اصلاح تعمل على اعادة حياة المذنب فى المجتمع ، ولن يتحقق هذا اذا قسمت الاجراءات القضائية الى مرحلتين ــ ما قبل الحكم وما بعد الحكم أى مرحلة التنفيذ ــ كل منهما منفصلة عن الاخرى ، فمن الصعب فصم الرابطة بين تنفيذ العقوبة ومن اصدر الحكم بها . فهذا التنفيذ لا يعدو أن يكون امتداداً للدعوى القضائية ، كالحال بالنسبة الى تنفيذ العلاج الطبى بعد تشخيص المرض (٥٧) .

واذا كانت الجريمة ظاهرة اجتماعية، فمفادهذا انها حدث يقع من فرد فى الجماعة ، اى الانسان وهو الذى توجه اليه المعاملة التى يرسمها المشرع والتى هى موضوع بحثنا . وهنا تعرض مسالة جديرة بالتحديد هى معرفة من من المتهمين يقصد بتلك المعاملة ؟ هل كل متهم أياً كانت حالته أو الجريمة المسندة اليه ؟ أم نقصرها على فريق معين وفق ضوابط محددة ؟

لو اردنا أن نصل الى حل مقبول ومعقول فى هذا الصدد ، لوجب علينا أن نعتد بشعور الجماعة ، حتى تؤمن بجدوى أى اجراء تمكن مباشرته وتعمل فى المعاونة على نجاحه . والجماعة فى حياتها العادية ترى أفرادها يسيرون فى مختلف نواحى الحياة ، وحتى تشعر بأمنها لا ترى مبرراً لاغفال مجازاة من يقع منه خطأ فى حقها ، وهى على هذا الأساس تفترض فى الناس جميعا كأصل عام أنهم اهل لتحمل المسئولية العادية . فان حدث تهاون فى هذا الأمر فقدت الجماعة ثقتها فى مقوماتها ، اذ ليس لها الا الظاهر . ولما كانت اجراءات الدفاع الاجتماعى على الصورة التى ينادى بها أصحابها تشمل اجراءات تربوية وعلاجية واجتماعية ، وقد يقتصر الأمر بالنسبة الى شخص معين على هذه الاجراءات وحدها دون أى جزاء آخر ، فان الجماعة قد لا تشعر بالرضى عنها أو الاقتناع بجدواها الى درجة قد تهتز معها الثقة فى العدالة . وبهذا ان اريد لتلك الحركة نجاح لوجب قصر تطبيقها على اشخاص يشعر المجتمع بأنهم حقاً جديرون باتخاذها قبلهم . وان تمثلت الخطورة بعد هذا فى العقوبات قصيرة المدة ــ التى كثيراً ما تكون سبباً فى العودة الى الاجرام ــ فان هناك من الأنظمة القانونية ما يعالج تلك الصورة ، ومنها على سبيل المثال ايقاف تنفيذ العقوبات .

والخروج على القواعد العامة فى قانون العقوبات وقانون الاجراءات الجنائية لا يثار ــ فى رأينا ــ الا بالنسبة الى اشخاص يخشى على المجتمع من اجرامهم أو اندفاعهم فى تيار الجريمة . فالفرد الذى يقع منه ما يعد جريمة فى القانون لن يمثل خطورة على المجتمع الا اذا وجد احتمال عودته الى طريقها ، أما لو وقف الأمر عند تلك الجريمة وحدها ، فهى حدث وقع فى المجتمع وانتهى أمره مع فاعله . وبهذا يكون المجرم المعتاد هو محل الدراسة . وكذلك الشأن بالنسبة الى المجرم الشاذ ، اذ أن احتمال عودته الى الجريمة قائم دائما . ويحتاج للدراسة معهما الحدث الصغير اذ لم تكتمل فيه بعد مقدرة مقاومة المؤثرات المختلفة . ومن الطبيعى أن تكون لكل فريق الاجراءات التى تناسبه . وهذا الاتجاه هو الذى تسير عليه كثير من التشريعات حيث تخص

---

(٥٧) Piere Cannat ; **Le prison école** 1955., p. 97, Jean Graven: "Introdustion â une, procédure pénale rationelle de prvéention et de défence sociale". **Revue pénal suisse** 1959. p. 190.

الأحداث بأحكام خاصة فيما يتعلق بقانونى العقوبات والاجراءات . وهو الحال ايضاً بالنسبة الى العائدين والشواذ من المجرمين كما سبق ان أشرنا فى القانون البلجيكى . ولا داعى مطلقاً لتغيير كامل فى الانظمة الجنائية القائمة بشكل لا يتجاوب مع المشاعر العامة ، ولا يمكن قبول الغاء النظام القائم الغاءً كلياً ، ولكن الواجب هو مواءمة التشريع للحاجة العملية .

ولعل هذا هو ما دعا انصار حركة الدفاع الاجتماعى الحديث الى القول بأن حركتهم انسانية لا تهدف الى الغاء قانون العقوبات ، ولقد عبر عن هذا جان جرافن فى قوله « ان القانون والدفاع الاجتماعى يتكاملان ويعزز الواحد منهما الآخر ، وغير صحيح أنهما لا يتلاءمان . ان الدفاع عن المجتمع ليس هو الدفاع الأعمى عن الدولة ، على انها الصنم الذى يمتهن ويحطم الانسان ويحطمه . فلن يكون ثمة خطأ أفدح من هذا ولا أشد ضرراً . ان الدفاع الاجتماعى عندنا اتجاه انسانى يخدم الانسان والنظم الاجتماعية والحكومية معاً . ولن نتوصل الى تحسين أوضاع المجتمع وحمايته هو ذاته الا اذا وضعنا الانسان فى مكانه فى المجتمع واعطيناه حقوقه واحترمنا كرامته واخذنا فى فى الاعتبار متطلبات سعادته » .

وتحديد الأشخاص الذين نرى أن يكونوا موضوعاً لاجراءات خاصة عقابية واصلاحية أمر واجب يقتضيه احترام الحرية الفردية ومبدا شرعية الجرائم والعقوبات . ونعنى اولاً المجرم الشاذ — وهو فى نظرنا من ضعف لديه الادراك أو ضعفت ارادته عن توجيه تصرفاته نتيجة لمرض عقلى أو نفسى أو عصبى . وعدم تحديد المرض الذى يؤثر فى الارادة من شأنه ان يترك الباب مفتوحاً للاكتشافات العلمية الخاصة بتلك الامراض ، وهذه مسألة يستفاد فيها برأى رجال الطب العقلى والنفسى كخبراء (٥٨) — كما نعنى المجرم العائد ، والمجرم الحدث على التحديد الذى يبينه القانون .

واسناد جريمة الى اى من الافراد سالفى الذكر يقتضى طرح الأمر على القضاء ، ولا تقتصر مهمته على توقيع العقوبة أو عدم توقيعها أو تحديد القدر المناسب منها ، وانما ليقول كلمته فى شأن الاجراء الذى يتبع بالنسبة الى المتهم ، وهو اجراء له هدفان ، ارضاء المجتمع وعلاج المجرم . ومن ثم تعينت — قبل أن يكون القاضى رأيه فى مدى مسئولية المتهم — دراسة شخصيته من أوجه عدة صحية ونفسية وعصبية واجتماعية ، ليفيد من حكم القانون بالنسبة اليه ، اذ ان كلاً منها يساعد القاضى على تكوين عقيدته فى أن يكون الاجراء مناسباً لحالة المتهم بما يؤدى الى تحقيق الغاية المرجوة من اى نظام يطبق فى حقه . وتعرف حالة المتهم لا تكفى فيها المعلومات التى يستقيها القاضى من التحقيق أثناء نظر الدعوى . بل يجب وجود بيانات علمية تعينه فى هذا الصدد ، ويستعين لها بالفنيين من العلماء سواء فى النواحى العقلية أو العضوية أو الاجتماعية . ويجب ان يحاط المتهم بالضمانات القضائية والعلمية الممكنة فى مباشرة تلك الاجراءات ، لأن النتيجة التى تنتهى اليها تقارير الخبراء تحدد مدى مسئولية المتهم أو عدم مسئوليته وما اذا كانت تطبق بالنسبة اليه احكام القانون العام أو القواعد الخاصة .

---

(٥٨) مجموعة اعمال الحلقة العربية الاولى للدفاع الاجتماعى ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٦ .

واول تلك الامور أن يكون الاختصاص فى وضع المتهم تحت الملاحظة للفحص والدراسة للجنة قضائية ، اذ يطبق القانون بالنسبة الى شخص اسند اليه ارتكاب جريمة ، وقد يترتب على نتيجة الملاحظة والفحص تقرير وتحديد مسئوليته جنائياً . ويستوى فى الاختصاص جهات التحقيق وجهات الحكم فيصدر من ايهما الأمر بوضع المتهم تحت الملاحظة . وتعتبر الجهات القضائية الموئل التقليدى للحريات الفردية فى أية مرحلة من مراحل الدعوى الجنائية ، فلا يعهد اختصاص اتخاذ الاجراءات السابقة الى جهة الادارة لأن مباشرتها قد تنتهى الى تقرير اجراء بالنسبة الى المتهم يتضمن صفة الجزاء بالاضافة الى العمل على اصلاحه واعادته للمجتمع .

وفضلاً عن اختصاص القضاء باصدار كلمته بشأن المتهم سواء فيما يتعلق بمسئوليته عن الجريمة المسندة اليه أو عدم مسئوليته ، او فيما يتعلق بالاجراء الذى يباشر قبله بغية اصلاحه ، فانه يتعين أن يدخل فى اختصاصه أيضاً الاشراف على تنفيذ تلك الاجراءات ، ولقد رأينا فيما سبق أن الدعوى الجنائية لا تنتهى بمجرد صدور الحكم من القضاء ، وانما هى تمتد حتى تمام تنفيذ كلمة القضاء ، وهذه مهمة قاضى الاشراف على التنفيذ.

● ● ●

خاتمة :

فى ختام هذا البحث نستطيع القول بأن الدفاع عن المجتمع أمر لازم فى كل وقت ، بل لقد باشرته الجماعات فى كل العصور ، فهو رد فعل طبيعى تحركه غريزة حب البقاء الموجودة فى المجتمع ازاء كل ما يمثل خطورة عليه من اخلال بأمنه ونظامه . وغاية الأمر ان تطور الجماعات وتقدمها يستتبع بدوره تغيراً فى المفاهيم والمعتقدات والتقاليد . وينعكس اثر هذا التطور على طريق مجابهة المجتمع للأفعال الماسة به . وتقدم الجماعات يزيد الاهتمام بالجانب الانسانى فى الفرد الذى هو عماد المجتمع ، ومن ثم اصبح فلكاً يدور فيه كثير من الأبحاث .

وحركة الدفاع الاجتماعى ــ سواء الحديث منها أو السابق عليه ــ لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل تطور نظرة المجتمع الى الانسان حين ارتكابه ما يعد مخلاً بأمنه ونظامه . ولعل الباعث عليها وعلى اهتمامها بالانسان ذاته ــ كما رأى كثير من المفكرين ــ هو ما قاسته البشرية من اهوال الحرب العالمية الثانية ، وما لحق الكثير من الأفراد نتيجة لأنظمة وظروف فى الدول التى يوجدون بها . ومن الملاحظ دائما أن ردود الفعل بازاء تصرفات معينة تبدأ متطرفة فى مقاومتها ، ثم يصيبها نوع من الاعتدال . وهو الحال بالنسبة الى فكرة الدفاع الاجتماعى التى قال بها جراماتيكا، وتلك التى تبنتها مدرسة الدفاع الاجتماعى الحديث تحت زعامة مارك انسل .

واذا كانت مصلحة الجماعة فى اصلاح كل خارج على نواميسها واعادته الى حظيرتها أمراً لا جدال حوله ، فانه لتحقيق هذه الغاية يجب سلوك سبيل يتسم بالبساطة حتى يستجيب له المجتمع . فالمسائل المعقدة والبعيدة عن مشاعر الجماعة لا ينعكس صداها لدى أى فرد فى المجتمع، بل يجب أن تكون تلك المسائل هى الصدى لتلك المشاعر . واذا كان كل فرد فى المجتمع يرجو فى

كل من ارتكب جريمة أن ينصلح حاله فلا يعود اليها ، فلماذا لا يكون تحقيق هذا الأمر من طريق سهل واضح ، ومالداعى لأن نجسم الأمر تحت اسم نظرية معينة ، أو حركة خاصة ، قد يتعذر فهمها وبالتالى الاستجابة لها . واذا أردنا النزول الى أرض الواقع العملى وسألنا الفرد العادى عما يفضله بالنسبة الى من ارتكب جريمة ، هل يوقع عليه عقاب أو يباشر اجراء دفاع اجتماعى ، لما اختار الا العقاب . فان وجهته الى محاولة اصلاح الجانى لرحب بالأمر ، ولكن من خلال العقاب الذى يوقع عليه . فان قلت انه قد ارتكب الجريمة تحت تأثير حالة مرضية لديه لالتمس له العذر راجيا علاجه . تلك هى الصورة الواقعية التى ينبغى الاعتداد بها ، بغير حاجة الى استحداث مصطلحات توقع اللبس فى نفس الجمهور الى درجة قد يفقد فيها ثقته فى مقدرة القانون على مجابهة الأفعال التى تمس نظام المجتمع وتخل بأمنه .

ومن فكرة الواقع العلمى هذه ، والتى نستقيها من واقع مجتمعنا العربى ، نرسم السبيل الى مكافحة الاجرام - لا تحت اسم نظرية معينة أو حركة خاصة - فى حدود واضحة يجرى تطبيقها كليا أو جزئيا وفقا للظروف الخاصة بكل افق من آفاق المجتمع العربى .

١ - ان الجريمة التى ينبغى أن توجه عناية خاصة الى مكافحتها ، هى التى ينفعل لها الشعور العام للجماعة ، ويتحدد هذا بالأفعال التى من شأنها ان تمس من الانسان شخصه أو حريته أو ماله . أما الجرائم المستحدثة والتى يطلق عليها أحيانا اسم « الجرائم الاصطناعية » فهى تختلف من مكان الى آخر ، ومن وقت الى غيره ، فلا تدخل فى نطاق بحثنا ، ولكل دولة ان تتخذ فى مواجهتها ما تشاء من الاجراءات مراعية فى ذلك القواعد العامة فى القانون .

٢ - ان مكافحة الاجرام لا ينبغى أن توجه الى كل من تسند اليه جريمة ، وانما يستبعد من نطاقنا من تعتبر الجريمة أمرا عارضا فى حياته ، أما من يقوم الاحتمال فى عودته اليها فهو الذى يجب أن يكون محل العناية . ويمكن تحديد ذلك بالحدث أولا لقيام الاحتمال دائما فى اندفاعه مع تيار الجريمة لسهولة القيادة ولنقص فى حسن تقديره للامور . وكذلك الشأن بالنسبة الى الشاذ ، الذى قد تسوقه حالته الخاصة الى السير فى طريق الجريمة . واخيرا المتهم العائد ، فعودته الى الاجرام دائما ماثلة .

٣ - واذا خصص أفراد معينون باجراءات خاصة بالنسبة الى فعل يعد جريمة ، فانه يجب أن لا تباشر هذه الاجراءات الا بعد وقوع الجريمة فعلا ، اى والفرد فى دور الاتهام ، وذلك حفاظا على الحرية الفردية واحتراما لمبدأ شرعية الجرائم والعقوبات الذى يعتبر سياجا لتلك الحرية قبل اى محاولة للعسف والجور .

٤ - ان الاجراءات التى تباشر بالنسبة للأشخاص المشار اليهم ، ينبغى أن تشمل عنصرين واضحين ، الألم والاصلاح ، اى الجزاء والعلاج ، فلا بد أن يشعر كل فرد بنتيجة ما ارتكبه فى حق الجماعة ، وهذه يجب الاعتداد بشعورها فى مواجهة الجريمة ، ولكنها لا تتخلى عمن أخطأ ، وانما تأخذ بيده الى الطريق القويم .

٥ ـ اذا رسمت اجراءات خاصة تضمنت الجزاء والاصلاح فمن الضرورى أن تكون فى نطاق الضـمانات التى يتمتع بها الفـرد العادى وفقا للقواعد العامة المقررة . وأول هذه الضمانات أن يعهد بتلك الاجراءات الى جهة قضـائية ، منذ البدء فى الاجراءات الجنائية ، حتى نهاية التنفيذ ، اى حتى اعادة الفرد الى مجتمعه . بل ينبغى أن تحدد السلطات التى تتمتع بها الجهات القضائية وحدودها ، حتى لا يرجـع التاريخ الى الوراء ، ويكون القضاء وسيلة لاهدار الحرية لا حافظا لها . فالحرية الفردية أساس فى الكرامة الانسانية، وامتهانها مساس بالمجتمع وهدم له ، ورعايتها اقامة للفرد وتدعيم لقوة المجتمع .

★ ★ ★

بيـان المـراجع

(أولا) باللغة العربية

١ ـ ابن همام ، شرح فتح القدير ، ج ٤ .

٢ ـ اسلام ، عزمى ، جون لوك ـ نوابغ الفكر الغربى ـ ١٩٦٤ .

٣ ـ الماوردى ، ابو الحسن ، الاحكام السلطانية .

٤ ـ المرصفاوى ، حسن ومحمد ابراهيم زيد ، دور القاضى فى الاشراف على التنفيذ الجنائى ، ١٩٧٠ .

٥ ـ بدوى ، على ، الحالة الخطرة للمجرم بالفرنسية ـ مجلة القانون والاقتصاد السنة الاولى .

٦ ـ بدوى ، محمد طه ، امهات الافكار السياسيةالحديثة ، ١٩٥٨ .

٧ ـ جراماتيكا ، فيلبو ، المبادىء الاساسية لفكرةالدفاع الاجتماعى ، مجاوعة اعمال الحلقة العربية الاولى للدفاع الاجتماعى ، القاهرة عام ١٩٦٦ .

٨ ـ راشد ، على احمد ، مبادىء القانون الجنائى ١٩٥٠ .

٩ ـ راشد ، على احمد ، نحو مفهوم عربى لسياسةالدفاع الاجتماعى ضد الجريمة ، مجموعة اعمال الحلقة العربية للدفاع الاجتماعى ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٠ ـ راشد ، على احمد ، نحو مفهوم اجتماعى للقانونالجنائى ، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية ، السنة العاشرة .

١١ ـ عودة ، عبد القادر ، القانون الجنائى الاسلامىمقارنا بالقانون الوضعى طبعة ثالثة .

(ثانيا) باللغة الفرنسية

1 — Ancel, Marc, La défense sociale nouvelle, 1954.

2 — Bellon, Jaques, Droit pénal soviètique et droit pénal occidental 1961.

3 — Bauzat, Pierre, Traité théorique et pratique de droit pénal 1951.

4 — „ „ , Le controle de l'exécution des mesures de défense sociale, Revue international de droit pénal, 1957.

5 — „ „ , et Jean Pinatel, Traité de droit pénal et de criminolgie, 1963.

6 — Cannat, Pierre, Le prison école, 1955.

7 — Delugo, Tullio, Droit pénal fiscal, 1958.

8 — Garcon. Emile, Le droit pénal, 1922.

9 — Garraud, Traité de droit pénal, T.1.

10 — Granatice, Filippo, Principes de défense sociale, 1963.

11 — Graven, Jean, Introduction à une procedure pénale rationelle de prevention et de defence sociale Revue pénal suisse, 1959.

12 — Hemard, Jean, les sanctions pénales en droit privé, 1946.

13 — Merle, Roger et André Vitu, Traité de droit criminel, 1967.

14 — Piatier, André, L'évasion fisseale et l'assistance administrative entre Etats, 1938.

15 — Saleilles, Raymond, L'individualisation de la peine, 1827.

16 — Stefani, J. et G. Levasseur, Droit pénal géneral, 1968.

17 — Vabres, H. Donnedieude, Traité èlèmentaire de droit criminel et de legislation pénale comparée, 1947.

18 — Vidal, G et J Magnol, Cours de droit criminel et de science penitentiare, 1935.

* * *

اسماعيل صبرى مقلد *

القانون وأمن المجتمع الدولى

ــ تمهيد ــ

الأوضاع الدولية السابقة على نظام الأمن الجماعى

أ ــ القوة فى المجال الدولى : كانت القوة ولاتزال محور الارتكاز الرئيسى فى تحديد اطار الاستراتيجيات القومية للدول ، وفى تكييف أنماط علاقاتها الخارجية ، وتقرير طبيعة الأهداف المتوخاة من وراء هذه الاستراتيجيات والسياسات . ولما كانت امكانات الدول من القوة تتفاوت ، كماً وكيفاً ، بحسب ظروف كل دولة وتبعاً لحجم الموارد المادية والطبيعية والبشرية التى تستحوذ عليها ، وكذلك بمدى تطورها التكنولوجي والصناعي وبكفاية مؤسساتها السياسية والادارية والعسكرية والدعائية ، فقد حدا هذا ببعض الدول الى محاولة استغلال تفوقها النسبى فى امكاناتها من القوة لترتب أوضاعاً وعلاقات لا تستجيب الا لدواعى مصالحها القومية واستراتيجيتها الخاصة مهما نجم عن ذلك من اضرار بمصالح الدول الاخرى . وهذه الحقيقة

* الدكتور اسماعيل صبرى مقلد استاذ العلوم السياسية المساعد بكلية التجارة جامعة اسيوط .

بالذات ، ونقصد بذلك الضغوط المتولدة عن الاتساع في حجم امكانات الدول من القوة القومية، هي التي تستطيع أن تفسر لنا سر الديناميكية الهائلة التي تتميز بها العلاقات السياسية الدولية، كما أنها هي التى تكشف لنا عن طبيعة الأسباب التي تؤدى الى حدوث العدوان ووقوع الحرب فى المجتمع الدولى . ولعل هذا هو ما دعا الكثيرين من علماء العلاقات الدولية الى أن يجردوا هذه العلاقات ويردوها الى حقيقة أساسية واحدة وهى أنها لا تخرج عن كونها صراعات قوى أو سياسات قوى ، ولا شيء غير ذلك (١) .

ومن البديهي أن ظاهرة القوة القومية بديناميكيتها الهائلة وتقلباتها الدائبة ، وما يؤدى اليه هذا التقلب بالضرورة من اختلال فى نماذج القوى وتراكيبها المسيطرة ، هذه القوة اذا ما تركت دون تحكم أو ترويض واذا لم تخضع لضوابط تنظم ممارستها وتبقى عليها داخل اطار دولى مشروع ومقبول ، فانها لا بد وأن تدفع بالمجتمع الدولى الى أوضاع من الحرب والفوضى الدائمة ، كما انها ستنسف كل ثقة فى الارتباطات والالتزامات التي تدخل الدول أطرافاً فيها ، حيث أن مصير هذه التعهدات الدولية سيكون رهناً بالتغيير الذى يطرأ على مقدرات القوة التى تتاح لكل طرف من أطرافها .

لذلك كله حاولت الدول أن تعالج ظاهرة القوة القومية بطريقة تحاول على قدر الامكان أن تخفف من سلبياتها وأن تحد من آثارها المخربة للسلام والأمن الدوليين ، وكانت الأداة الرئيسية الاولى التى استحدثها المجتمع الدولي فى هذا الشأن هي تطبيق سياسة توازن القوى فى العلاقات الدولية (The Balance of Power System) ، وهو التطبيق الذى استمر قرابة ثلاثة قرون تبدأ من منتصف القرن السابع عشر وتنتهي فى أوائل القرن العشرين .

ب ـ سياسة ((توازن القوى)) فى العلاقات الدولية : يتخلص جوهر فكرة توازن القوى ، على الأقل بمفهومها التقليدى ، فى ان وجود عدد كبير من الدول تتفاوت قواها ، يدفع بهذه الدول الى التكتل فى محالفات ومحاور قوى متكافئة أو شبه متكافئة ، وهذه التجمعات والتكتلات المتضادة تقلل من احتمالات الحرب وتزيد من فرص السلام . او بمعنى آخر فان تجمعات القوى المتوازنة هذه لا تمكن دولة أو مجموعة من الدول من الاعتداء على غيرها تحت وهم الاعتقاد بأنها تتمتع بالتفوق الذى يمكنها من هذه السيطرة . ومن هنا يحقق توازن القوى بمفهومه هذا اثرين هامين يتعلق أولهما بحفظ السلام الدولى ، بينما يتعلق ثانيهما بحماية استقلال الدول الأطراف فى هذه المحاور والتجمعات .

---

(١) بخصوص مشكلة القوة ودورها فى العلاقات السياسية الدولية راجع :

Security and the Power Problem, in, "Frederick H. Hartmann, The Relations of Nations, 3rd edition (The Macmillan Company, New York. 1967) PP. 255 — 265.

The Management of Power in International Relations, in, "Inis L. Claude Jr., "Power and International Relations" (Random House, New York. 1962) PP. 3—10.

Political Power, in "Hans J. Morganthan, Politics Among Nations,) Alfred Knopf, New York, 1960, PP. 27—37.

Martin Wright, Power Politics, in "The Theory and Practice of International Relations" edited by william Olson and Fred Sondermann (Prentice Hall, Englewood Cliffs, N.J., 1966) P. 84.

ومن ذلك نخلص الى أن سياســة توازنالقوى تستند على ركيزتين اساسيتين : (اولاهما) أن الدول الأطراف فى محاور القــوى المتضــادةبجمعها غرض واحد هو الابقاء على الاســتقرار السائد فى علاقات القوى ، ومن ثم ردع العدوانواحباطه (وثانيتهما) انه فى أى موقف دولى ، فان التوازن يتم عن طريق قدرةهذا الاسلوب على توليدضغوط متضادة ومتعادلة ، وبذلك يمكن تجنب أى اختلال غير مرغوب فيه فى علاقات القوىهذه .

وقد انقسمت توازنات القوى من حيــثالشكل الى نوعين رئيسيين : (أ) توازنات القوى البسيطة (Simple Balance) ، وهي التي تتكوناما من دولتين متعادلتي القوى أو من مجموعتين من القوى المتضادة والتي هي فى حالة من التكافؤاو التعادل النسبي من حيث امكانات القــوى ، وهذا النموذج المبسط من توازن القوى وجد فىاوروبا فىاواخر القرن التاسع عشر ، ومن امثلته التحالف الفرنسي الروسي فى عــام ١٨٩٣ ضدالمحالفة الثلاثيــة التي كانــت اطرافهــا المانيــا والامبراورية النمسوية المجرية وايطاليا ، وكذلكمحور برلين روما الذى انبثق الى الواقع فى عام ١٩٣٥ ضد الدول الأعضــاء فى عصــبة الامم .(ب) توازنات القــوى المركبــة أو المتعددة ، (Multiple Balance) وهــي التــي تتكــون منمجموعات قوى كثيرة تعمل على موازنة بعضــها البعض ، وليس ثمة قيد على عدد هذه المحاور والتجمعات فى ظل النظام المتعدد لتوازن القوى . وابرز تصوير لهذا النموذج أوضاع التوازن التيوجدت فى اوروبا فى القــرن الثامن عشر ، ففى غرب اوروبا وممتلكاتها عبر البحار كانت اطرافتوازن القوى القائم آنذاك هي بريطانيا من جهة ، وفرنسا واسبانيا من جهة اخرى . وفى وســطوشرق اوروبا كانت اطراف التوازن هى النمسا وبروسيا من ناحية ، وروســيا وتركيا من ناحيةاخرى ، وكان كل توازن منها يشتمل على عدد من الدول الصغرى .

وتختلف توازناتالقوىالبسيطة عنتوازناتالقوى المركبة أو المتعددة فى جانب آخر هو وجود مستوى مرتفع نسبياً من التوتر الدولى ، وصراعبين محورى القوى أكثر حدة فى ميدان ســباق التسلح عن ذلك الذى يحدث فى ظل التوازناتالمتعددة المحاور (٢) .

واذا تركنا مظهر التوازن بســيطاً كان امعقداً ، وبحثنا فى الأدوات التى ارتكــز عليهــا تطبيق مبدأ توازن القوى فى العلاقات الدولية ، فلســوف نجد انهــا كانت عديدة ومتنوعــة ومن أهمها (٣) :

(١) وسيلة التعويضات الاقليمية (Territorial compensations) وقد ســيطرت هــذه الوسيلة فى القــرن الثامن عشر بشــكل خاص ، وورد ذكرهــا صراحــــة فى معاهــدة اوترخــت Treaty of Utrecht التــى عقــدت فى عــام ١٧١٣ والتى أنهت الحــرب حــول مشــكلة الخلافة على الملك فى اسبانيا اذ اعتبرت التعويضات وسيلةمقبولة ومشروعة للابقاء على توازن القوى دون

---

(٢) راجع فى ذلك : Martin Wright, Power Politics, op. cit. P. 85

وكذلك A.K.F. Organski World Politics (Alfred Knopf, New York. 1968) PP. — 274 — 275.

(٣) للتعرف على الوسائل المختلفة التى استخدمتفى تحقيق مبدا توازن القوى فى العلاقات الدولية يمكن الرجوع الى : A.K.F. Organski, World Politics, op. cit. PP. — 276 — 279.

Hans J. Morganthan, Politics Among Nations, op. cit PP. 178 — 194.

تغيير ، وتبعاً لذلك قسمت كل الممتلكات الاسبانيةفى اوروبا والمستعمرات بين عائلتي الهابسبرج والبوربون . كذلك فان تقسيم بولندا ثلاث مراتفى أعوام ١٧٧٢ ، ١٧٩٣ ، ١٧٩٥ كان تطبيقاً لهذه السياسة بين الدول الاوروبية . وقد تطورتوسيلة التعويضات فى مؤتمر فينا الذى انعقد فى عام ١٨١٥ حيث انشأ لجنة احصائية تقوم باجراءحصر اقليمي بمقاييس الموقع والامكانيات وتعداد السكان ونوعيتهم ، وذلك حتى يسهل تطبيقوسيلة التعويضاتالاقليمية بين الدول علىأساس من الدراسة الواقعية . وفى أواخر القرن التاسععشر والقرن العشرين طبق مبدأ التعويضات الاقليمية على شكل توزيع مناطق النفوذوالمستعمرات بين الدول الاوروبية الكبرى . وكانت القارة الافريقية بوجه خاص هدف هذاالتقسيم الاستعماريوكل المعاهدات لتى حصلت عليها هذه الدول الاوروبية كانت خاصة بالتسابقعلى مناطق النفوذ ، فمعاهدة عام ١٩٠٦ بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا حول اثيوبيا قسمتاثيوبيا الى ثلاث مناطق نفوذ على نفس النمط الذى اتبع فى تقسيم بولندا فى القرن الثامن عشر ،والمعاهدة الانجلو ــ روسية فى عام ١٩٠٧ قسمت ايران بين بريطانيا وروسيا الى منطقتى نفوذللدولتين،وعموما يمكن القول ان مبدأ التعويضات والتنازلات الاقليمية كان فى وقت ما من اكثرالوسائل المطبقة فى حفظ توازن القوى الدولى ، وكانت هذه التعويضات هى دائماً هدف المباحثاتوالمفاوضات الدبلوماسية بين الدول الكبرى .

(٢) ومن الوسائل التى اتبعت فى تحقيقمبدأ توازن القوى بين اثنتين من الدول القوية او الكبرى العمل على وضع دولة محايدة كمنطقةعازلة أو فاصلة بينهما (Buffer Zone) . وغالبا ما كانت هذه الدولة المحايدة دولة ضعيفة لا تمثلخطراً على امن ومصالح اى من الدولتين ، وانحصرت وظيفتها أساساً فى تقليل احتمالاتالاحتكاك والصدامبينهما من خلال وضعها كمنطقة فاصلة . ومن أمثلةهذهالمناطق العازلة او الفاصلةبولندا فى الماضى كفاصل بين روسيا وألمانيا ، وبلجيكا وهولندا كفاصل بين فرنسا والمانيا ، كماانه فى القرن التاسع عشر كان الذى يفصل روسيا عن الامبراطورية البريطانية حاجز من الدولالصغرى الضعيفة ، وقد حرصت بريطانيا طيلة القرن التاسع عشر على الابقاء على هذا الحاجزالفاصل رغم ضعفه . كذلك كانت هناك دول شرق اوروبا التي جعلتها معاهدة فرساى منطقة عازلةبين روسيا وألمانيا واطلقت عليها المنطقة الوسطى (Middle Zone) وذلك بعد الحرب العالميةالاولى مباشرة حين لم تكن اى من الدولتين داخلة فى عداد الدول الكبرى ، ولكن بمجرد أن استعادتالدولتان قواهما بدأتا تتدخلان فى هذا الحزام الفاصل من الدول الضعيفة وهو الحزام الذىكان يمثل منطقة فراغ قوى يمكن لأى من روسيا أو ألمانيا أن تتدخل لتملأه بقوتها الخاصة ، وكانذلك مقدمة للصراع الدامى الذى نشب بين الدولتين فيما بعد .

(٣) وسيلة التدخل Intervention ومضمونها تدخل بعض الدول فى الشئون الداخلية للدول الاخرى فى محاولة منها للابقاء على توزانالقوى القائم ، وأحياناً يكون هدف التدخل تغيير التوازن القائم بشكل آخر من أشكال التوازنالدولى . وعلى ذلك ينقسم التدخل الى نوعين :

(أ) ــ تدخل دفاعي Defensive Intervention ويعني اصرار دولة على عدم تغيير توازن القوى فى اتجاه لا يلائم مصالحها اذا ما حدثتغيير فى النظام السياسي الداخلي لدولة من الدول ، ولذلك فهى تتدخل لاحباط هذا التغييروضمان استمرار الوضع على ما هو عليه ، ومن

امثلة التدخل الدفاعي تدخل الحلفاء فى **روسيابين ١٩١٨ ، ١٩٢٠** للقضاء على الثورة البولشفية، وتدخل بريطانيا فى **العراق فى عام ١٩٤١** لسحق ثورة رشيد عالي الكيلاني واستعادة حكومة نوري السعيد ، وتدخل بريطانيا فى **اليونان عام ١٩٤٤** ،وتدخل الاتحاد السوفيتى فى **المجر وبولندا عام ١٩٥٦** ، وفى **تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨** ، وتدخل امريكا فى الشئون السياسية الداخلية **لدول امريكا اللاتينية** ، وفى **فيتنام الجنوبية** منذ عام ١٩٦١ .. الخ .

(ب) **ـ تدخل هجومى** Offensive Intervention ويعني التدخل بقصد اسقاط نظام حكم معين وتغييره كوسيلة لتغيير التوازن فى اتجاه اكثر تلاؤما مع مصالح الدولة التي تمارس هذا التدخل . ومن امثلة ذلك تدخل المانيا وايطاليا لقلب نظام الحكم فى اسبانيا اثناء الحرب الأهلية الاسبانية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) وتدخل المانيا النازية بالطابور الخامس فى الأوضاع الداخلية لبعض الدول الاوروبية وعلى نحو لم يكن مألوفاً من قبل .وعموماً فان التدخل كوسيلة لاقرار توازن القوى ظاهرة شائعة وبخاصة بين الدول الكبرى وتوابعها أو التى يطلق عليها Satellites (٤) .

(جـ) ـ فشل سياسة توازن القوى كاداة لحفظ السلام الدولي : على ان سياسة توازن القوى لم ينجح تطبيقها فى العلاقات الدولية وذلك لأكثر من سبب (٥) ومن ذلك :

أولاً ـ ان فكرة وجود عدد من الدول التى لا تستطيع احداها ان تحصل على القوة التى تتمكن معها من احداث اختلال فى أوضاع التوازن الموجود ، تميل الى تصوير النظام الدولى وكأنه يعمل بطريقة آلية محضة ، وذلك لأنها بنيت على أساس أن حسابات الدول وردود الفعل التى تبديها ازاء تصرفات بعضها البعض تتم اوتوماتيكياً وبشكل دقيق يتيح فى كل مرة اعادة توزيع القوى او تجميعها بطريقة متكافئة يستمر معها التوازن بشكل أو بآخر .

وهذه الآلية فى ردود الفعل وسياسات توزيع القوى تتطلب أن تكون هناك مقاييس كمية معترف بها من قبل الدول كلها ، ويمكن بوساطتها تقييم القوة النسبية لكل دولة ولكل تحالف ومقارنتها بطريقة تثبت التكافؤ أو التعادل الذى يشكل حجر الزاوية فى نظام توازن القوى . وقد حاولت الدول فعلاً أن تتوصل الى معايير للقياس الكمي وبخاصة فى النواحي الاقليمية والسكانية ومعدلات التسليح ، الا ان هذه المقاييس لم تكن كافية فى ذاتها حيث ان القوة القومية للدول لا تبنى على العوامل والاعتبارات الكمية وحدها ، وانما هى مزيج معقد ومتداخل ودائب التفاعل من العوامل الكمية والكيفية معاً . وقد نتج عن ذلك ان أصبحت تقديرات القوة تبنى على التخمين اكثر مما تبنى على الحقيقة والواقع ، ومن هنا فان التكافؤ الذى نسب الى محالفات القوى انما كان تكافؤاً وهمياً أكثر منه تكافؤاً فعلياً أو حقيقياً .

ثانياً ـ ان المنطق الذى يبنى على حتمية التوازن وآليته فى مجتمع متعدد الأطراف ومعقد

---

(٤) راجع فى ذلك : Martin Wright, Power Politics, op. cit. P. 87.

(٥) فى نقد نظرية توازن القوى فى العلاقات الدولية يمكن الرجوع الى :

A.K.F. Organski, World Politics, op. cit. pp. 282 - 295.

وكذلك Hans Morganthan, Politics Among Nations, op. cit. pp — 204 — 220.

A Critique of the Balance of Power in Inis Claude power and International Relations op. cit PP. 40. — 93.

العلاقات والمصالح . وفى ظل ديناميكيــة التغيير الذى ينتاب مختلف أوضــاعه وجــوانبه بصــفة مستمرة ، يجعل من هذا التوازن الدولى للقوى شيئاً اقرب الى التصور النظرى البحث منه الى الواقع العملى .

ثالثاً ــ ان مبدأ توازن القــوى قــام على افتراض ان الدول لا تربطها ببعضها علاقات دائمة وانما هى فى حالة حركة مستمرة مدفوعة فى ذلك باعتبارات القوة . وهذا الافتراض يفصــل عامل القوة عن غيره من الاعتبارات ولا سيما الاعتبارات الاقتصادية ، ذلك أن تعقد المصالح الاقتصــادية وتداخلها بين الدول يجعل من التحلل منها والانفراد باتخاذ القرار الخاص بالدخول فى تحالف مع بعض الدول ضد غيرها عملية صعبة وليست مرنة اوممكنة فى كل الظروف . وبالاضافة الى ضــغط التعقد فى المصالح الاقتصادية ، فان الانتقال من علاقة تحالف الى علاقــة تحالف اخــرى يتطلب جهوداً دعائية ضخمة لاقناع الراى العام الداخلى بالدوافع والتبريرات التى تملى التحول من جانب بعض الحلفاء الى الجانب الآخر المضاد او المعادى لهم ، وهو ما يفترض توازن القــوى انه لا يمثل عقبة أمــام هذه التحولات المفاجئــة فى تجمعات القوى . ويزيد من عدم مرونة الخروج والدخول فى تجمعات القوى ازدياد تأثير العوامل الايديولوجية على سلوك الدول ، وهناك امثلة عديدة لذلك منها انه على الرغم من الضــــغوط والتهديدات التى تعرضت لها يوغسلافيا من الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٤٨ والتى كان من ضــمنها طــردها من الكومنفورم ، الا ان يوغســـلافيا لم تجسر على الدخول فى علاقة تحالف مع الكتلة الغربية للرد على التهديدات السوفيتية .

لذلك كله لم يكن من المســتغرب أن تقــع حروب كثيرة فى المجتمع الدولي ، وان كان افظعها وأكثرها تخــريباً هما الحــربان العالميتان اللتان وقعتا فى النصــف الأول من القــرن العشرين ، واللتان كان لهما أبلغ الأثر فى حفز الدول على أن تجرب وسيلة اخرى خلاف وسيلة توازن القوى لدعم السلام والأمن الدوليين ، وكانت الوسيلة الجديدة هي ((**نظام الامن الجماعي**)) ، وذلك من خلال منظمات دولية تتولى هذه المسئولية (مثل عصبة الامم والامم المتحدة فيما بعد) .

●●●

(أولاً) ــ نظام الأمن الجماعى

ــ **الفكرة والمضــمون** : يتركــز مضــمون نظام الامن الجماعي فى الحيلولة دون تغيير الواقع الدولى او الاخلال بأوضاعه وعلاقاته وتبديلها فى الاتجاه الذى يلائم مصالح دولة من الدول ، وذلك بواسطة اتخاذ اجــراءات جماعية دوليــة كقوة ضاغطة ومانعة لمحاولات التغيير هذه . ونظــام الامن الجماعي لا يزيل الاختلافات أو التناقضات القائمة فى مصالح الدول وسياساتها ، وانما ينكر وسيلة العنف المسلح كاسلوب لحل هذه التناقضات ويركز بدلاً من ذلك على الطــرق والأســاليب السلمية (٦) .

(٦) بخصوص فكرة الأمن الجماعى راجع :

Roland N. Stromberg, "The Idea of Collective Security" and "Kenneth W. Thompson, Collective Security Re-examined" both in From Collective Security to Preventive Diplomacy, edited by Joel Larus, (John Wiley & Sons, Inc., New York, 1965) PP. 273 — 305.

وتبنى التقديرات التى يقوم عليها نظام الامن الجماعي على أن أكثر القوى الضاغطة والمؤثرة في ردع العدوان فى المجتمع الدولى لا تتحقق بالاحتكام الى المنطق أو الأخلاقيات (**حيث ان العدوان بطبيعته عملية لا أخلاقية كما أنه لا يتحرك دوما بدواعي المنطق**) ، وانما يتحقق ذلك بوضع العدوان فى مواجهة قوى متفوقة عليه ، فهذا التفوق هو الذى ينتج آثاراً رادعة تضمن الابقاء على الوضع القائم Status Quo دون تغيير .

ومفهوم السلام الدولي فى ظل نظام الأمن الجماعي هو انه من القيم الدولية التي لا تقبل التجزئة أو المساومة (An Indivisible Value) ، لان التجزئة والمساومة تعنيان أوضاعاً من التمييز وما يرتبط بذلك من ثغرات تسهل على العدوان تحقيق اهدافه دون أن يقابل مقاومة دولية فعالة . أو بمعنى آخر ، فان الهجوم على أى دولة مهما كانت بعيدة أو قريبة ، كبيرة أو صغيرة ، قوية أو ضعيفة ، لا بد وأن يقابل بالقوة الجماعية المتكاملة للمجتمع الدولى كله . وترتيباً على ذلك كله ، وانطلاقاً منه ، فان نظام الأمن الجماعى يقوم على ردع العدوان الفعلى والمحتمل ، أياً كانت مصادره ، وأياً كانت القوى التى يتحرك فى اطارها ، وبذا فانه لا يستهدف مصادر محددة ، كما لا يعمل على تقييد بعض الدول دون البعض الآخر ، وانما هو يعاقب دون ما تحيز أو تمييز أى دولة تنتهك الأوضاع القائمة وتلجأ الى الاستخدام غير المشروع للقوة فى علاقاتها الدولية (٧) .

مقارنة الأمن الجماعى بسياسة توازن القوى : اذا قارنا بين الاسس التى يرتفع عليها نظاما توازن القوى والأمن الجماعى فى العلاقات الدولية ، نجدان هذه الاسس تلتقى فى بعض النقاط بينما تختلف حول البعض الآخر . وفيما يلى مقارنة تفصيلية لهذه الاسس :

(أ) ـ جوانب الاتفاق فى اسس نظامى الأمن الجماعى وتوازن القوى :

(١) ـ ان محور التركيز فى نظامي الأمن الجماعي وتوازن القوى هو البحث عن كيفية دولية ملائمة لمواجهة مشكلة القوة فى العلاقات الدولية ، وذلك بالشكل الذى يضمن ترويض هذه القوة والتحكم فيها وتوجيهها فى الناحية التى تدعم امكانات السلام والأمن الدوليين . وكلا النظامين يقومان على عدم الثقة فى نوايا الدول التى تتيح لها ظروفها أن تحشد من امكانات القوة المادية والعسكرية ما يعطيها تفوقاً واضحاً على الدول الاخرى حيث ان هذا التفوق هو الذى قد يغرى بممارسة العدوان . وهذا التشكك فى النوايا هو الذى يدفع بنظام توازن القوى الى انشاء محاور وتجمعات قوى مضادة يكون هدفها هو ردع أية محاولة للمساس بالأوضاع الدولية القائمة ، كما انه هو الذى يدفع نظام الأمن الجماعي الى تكتيل الدول كلها فى محور قوى واحد ضد الدولة أو الدول التى تهدد السلام الدولي بسلوكها العدواني. ونظام الأمن الجماعي لا يسمح بوجود أى مظهر من مظاهر التفوق للمجتمع الدولى ، وهى القوة التى توجه للدفاع عن استقلال الدول الاعضاء فى هذا المجتمع الدولى . وباختصار فان كلاً من نظامى توازن القوى والأمن الجماعى يتفقان بصفة اساسية على التسليم بوجود تهديد للسلام الدولى فى الحالات التى تنزع فيها دولة أو بعض الدول الى امتلاك رصيد ضخم من مقدرات القوة وامكاناتها .

---

(٧) Organski, World Politics op. cit, PP. 407 — 425.

(٢) ـ ان نظامي توازن القوى والأمن الجماعي ينبنيان فى جوهرهما على فكرة الردع Deterrence بمعنى أن منع دولة من استخدام تفوقها فى امكانات القوى للاخلال بالأوضاع القائمة ، لا يمكن أن يتم الا من خلال مواجهة العدوان بقوة رادعة أضخم منه ، ورفع درجة المخاطرة بالنسبة للدولة المعتدية الى حد غير مقبول لها بالمرة . ومن ناحية اخرى فان كلاً من النظامين يقوم على افتراض أن سلوك الدول لا يخلو من وجود حد أدنى من الترشيد Rationalization الذى يدفع بها الى اجراء موازنات دقيقة على قدر الامكان ، بين عنصرى المخاطرة المحتملة والمزايا المتوقعة (أو ما يعرف عموماً بحسابات المخاطرة) ، حتى اذا ما كانت حسابات المخاطرة أعلى من حسابات المزايا ، أحجمت هذه الدول عن ممارسة العدوان ، وهذا هو الذى يُبقى على الوضع القائم دون تغيير .

وتطبيق فكرة الردع فى نظام توازن القوى ينصرف الى التعادل النسبى فى توزيع قوة المحاور والأحلاف المضادة بينما ينصرف هذا التطبيق فى نظام الأمن الجماعى الى التفوق الساحق لقوة المجتمع الدولي فى مواجهة مراكز العدوان . اوبكلمة اخرى فان الردع فى توازن القوى ينبني على عنصر التكافؤ فى توزيع القوى الدولية ، على حين ينتفي شرط التكافؤ ـ وهذا مهم ـ كأساس للردع فى نظام الأمن الجماعي ، وانما يصبح تفوقاً هائلاً وساحقاً للمجتمع الدولى ضد الأطراف الشاذة والخارجة على ارادته الجماعية .

(٣) ـ ان كلاً من نظامى توازن القوى والأمن الجماعى يتبنى وجهة النظر التى تعتقد أن أقوى السبل لدعم السلام الدولى تكمن فى تملك أو تحقيق مستوى عال من الاستعداد للحرب والتصميم على القتال اذا ما دعت الضرورات الى ذلك (ويُطلق على ذلك War for Peace) ، وهذا الترابط أو بالأحرى التكامل بين الرغبة فى السلام والمقدرة الفعالة على الدخول فى الحرب هو الذى يحقق للردع فى كل من النظامين المستوى الضرورى من الفعالية والتأثير . وفقدان هذا التكامل فى اى جانب من جوانبه هو الذى يؤدى الى فشل الردع ووقوع الحرب .

(٤) ـ ان نظامي توازن القوى والأمن الجماعي يتشابهان فى ناحية اخرى أساسية وهى أنهما يقيمان افتراضاتهما على أساس الاعتقاد فى أن مواجهة العدوان واحباطه ستتحقق من خلال الجهد المشترك للدول الأعضاء فى المجتمع الدولي حتى وان كانت هناك دول لا يمسها هذا العدوان ولا يؤثر فى أمنها أو فى مصالحها القومية بشكل مباشر وحاد . ومن هنا ، فان نظريتي توازن القوى والأمن الجماعي ترفضان الرأى القائل ان الدول لا تشارك فى ترتيبات جماعية ولا تقبل بالمخاطر المترتبة على الدخول فيها ، ما لم يكن هناك تهديد قائم ومباشر وخطير لمصالحها وأوضاعها . وبعبارة اخرى ، فان كلتا النظريتين تغلبان دافع الرغبة فى تحقيق السلام على دافع المصالح القومية الضيقة للدول . وبصرف النظر عن مدى واقعية هذا الافتراض ، فهو من أهم مظاهر الاتفاق فى نظريتي توازن القوى والأمن الجماعى .

(٥) ـ ان كلاً من نظامى توازن القوى والأمن الجماعي يعتقد أن الدول التي تشارك فى الترتيبات الجماعية التى تستهدف ردع العدوان واحباطه ، انما تتمتع بحرية ومرونة كاملتين فى تكييف مواقعها وربطها بهدف السلام وحده دون ما عداه من الأهداف . وهما بذلك لا يأخذان فى الاعتبار أن حرية الحركة قد تكون مفقودة بسبب الالتزامات التى تدخل الدولة طرفاً فيها مع غيرها ، مما يجعل هذا الافتراض لا وجود له فى أرض الواقع ، بل انه قد يحدث احياناً ان تكون بعض الدول مرتبطة مع الدولة المعتدية بعلاقات مصالح معينة ، والخروج على هذه العلاقات قد يضر بمصالح هذه الدول أبلغ الضرر ، كما أن هذا الخروج قد لا يتيسر اطلاقاً فى حالات اخرى .

ومن جهة ثانية ، فان نظامي توازن القــوى والأمن الجماعي يفترضان ان هذه الحرية والمرونة فى تصرفات هذه الدول وسلوكها سيدفعان بها الى الاستجابة الاوتوماتيكية والفورية فى اتجاه التجمع والعمل المشترك فى صــف الدولة أو الدول التى يستهدفها العدوان ، وذلك دون ما اعتبار لطبيعة العلاقة التى تربطها بهذه الدول ومــا اذا كانت تسمح بمثل هذه الاستجابة .

(٦) ـ اما المظهر الأخير من مظاهر الاتفاق بين النظامين فمرده اعتقــاد كثيرين من خبــراء العلاقات السياسية الدولية أن نظام الامن الجماعي ما هو في حقيقته الا صيغة معدلة من نظام توازن القوى ، وهو لا يمثل انفصالا عنه كما لا يمكن اعتباره بديلا له . وقد عبر **سـبيكمان** عن هذا الرأى بقوله انه ((**على الرغم من أن عصبة الامم ـ وهى أول تطبيق فعلى لفكرة الأمن الجماعى في السياســة الدولية ـ قد عدلت من الالتزامات القانونية للدول ، الا أنها لم تغير من تنظيم القوة فى المجتمع الدولى . فمثل هذا النظام الذى تبقى فيه الدول على سيطرتها على قواتها المســلحة لا يمكن أن يكون الا شكلاً آخر من أشــكال توازن القــوى حتى وان اطلــق عليـــه نظــام الأمن الجماعى**)) (٨) .

ونفس هذا الاعتقاد عبر عنه **ادوارد جيوليك** الذى يعتبر أن نظام توازن القوى قد تطــور من المرحلة التى يقوم فيها تطبيقه على وسيلة التحالف Alliance الى المرحلــة التى يطبــق فيهــا على أساس الائتلاف Coalition وهو ما انتهى أخــيراً الى نظام الأمن الجماعي ، وفى ذلك يقول : « ان نظام الأمن الجماعى لا يمكن النظر اليــه على انه يشكل انفصالاً عن نظام توازن القوى ، بل انه فى حقيقة الأمر مشتق منه ، وهو التطور المنطقى وكذلك المثالى له فى نفس الوقت ، حتى وان كان هذا التطور قد تم ببطء واستغرق بضع مئات من السنين . ان أساس نظام الأمن الجماعي بالشكل الذى انبثق به الى الواقع فى عام ١٩١٩ مع عصبة الامم وفى عام ١٩٤٥ مع الامم المتحدة ليس سوى توسيع وتنقيح لفكرة التوازن فى صورة الائتلاف منذ سنة ١٨١٥ ، تماماً كما أن التوازن الائتلافى كان هو الآخر تطويراً وتنقيحاً لفكرة التوازن المرتكز على اسلوب المحالفات » (٩) .

أما **كوينزى رايت** Quincy wright استاذ العلاقات السياسية الدولية المعروف فهو يعتقد أن « مبادىء نظــام الأمن الجماعي لا تتناقض مع مبادىء نظام توازن القوى ولكنها مكملة لها ، وأن ســعى التنظيم الدولي الى الأخذ بنظــام الأمن الجماعي ليس الا تطوراً منظماً ومخططاً للاتجاه الطبيعي الذى يدفع بالدول الى تبني سياســات توازن القوى » (١٠) .

(ب) جوانب الاختلاف فى اســس نظامي الأمن الجماعي وتوازن القوى : واذا اســتعرضنا الجانب الآخر المتعلق بالاختلاف فى اسس نظامي الأمن الجماعى وتوازن القــوى فسنجد أن هذا الاختلاف يمكن رده وارجاعه الى المصادر التالية :

---

(٨) راجع فى ذلك : Nicholas Spykman, America's Strategy in World Politics (Harcourt & Brace, New York, 1942) P. 109.

(٩) Edward Qulick, Europe's Classical Balance of Power (Cornell University Press. Ithaca, 1955) pp — 307 — 308.

(١٠) Quincy Wright, The Study of International Relations (Appleton-Century — Crofts. 1955) P. 163.

(١) ـ ان نظام الأمن الجماعي يقوم فى صلبه على وجود تحالف عام او تحالف عالمى Universal Alliance من القوى فى مواجهة المصادر المحتملة للعدوان ، على حين أن نظام توازن القوى يقوم على ما يسمى بالمحالفات التنافسية Competitive alliances أو بمعنى آخر ، فان نظام الأمن الجماعي يستهدف تركيز القوى القومية للدول وتجميعها فى جبهة عريضة قادرة على ردع العدوان أياً كانت القوى التى تمارسه وأياً كان الاطار الذى تتحرك فى داخله ، أما نظام توازن القوى فهو يقوم على تجزئة القوة فى المجتمع الدولي بين عدد من محاور القوى التى تتعادل امكاناتها ، والردع المتبادل Mutual deterrencc بين هذه القوى المتكافئة هو الذى يضمن بقاء الأوضاع القائمة دون تغيير . وفى حالة نظام الأمن الجماعي تكون علاقة الدول الداخلة مع بعضها فى هذا التجمع العالمي للقوى علاقة ودية طابعها التعاون والوفاق ، بعكس الحال بشأن العلاقة التى تسود بين تجمعات القوى المضادة فى ظل نظام توازن القوى فهى علاقة خصومة وعداء . وهذه الحقيقة الجوهرية أكدها كوردل هل Cordell Hull وزير خارجية أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية حين أشار الى نظام الأمن الجماعي الذى حاولت الامم المتحدة أن تطبقه فى عالم ما بعد الحرب ، وقال انه ليس تحالفاً موجهاً ضد مجموعة من الدول بالذات ولكنه موجه ضد اى معتد وهو تحالف لا يقوم من أجل الحرب ولكن بقصد تدعيم السلام (١١) .

(٢) ـ ان المحالفات التى تتواجد فى اطار نظام توازن القوى تكون موجهة الى الدول او التجمعات الخارجية وذلك فى المواقف التى يظهر فيها الميل الى الاخلال بتوزيعات القوى القائمة ، وينطلق على هذه المحالفات Externally Oriented Grouping وعلى النقيض من ذلك فان نظام الامن الجماعي ، وهو تحالف عالمي أو شامل ، ليس موجهاً ضد الخارج ، وانما ضد التصرفات العدوانية التى تصدر عن اى دولة داخلة فى هذا التحالف Internally oriented Alliance . وذلك مظهر حيوى آخر من مظاهر الاختلاف فى محور اهتمامات كل من نظامي توازن القوى والأمن الجماعي ، حتى وان كان الهدف النهائي لكليهما هو ردع العدوان واحباطه .

(٣) ـ ان نظام توازن القوى يقوم على اعتبار ان القاعدة فى العلاقات الدولية هى الصراع Conflict ، أما التعاون الذى يحدث بين الدول فهو من قبيل الاستثناء ، ومن هنا فان الاسلوب الذى يتحقق به التوازن والاستقرار انما هو مرتبط فى الاساس بطبيعة هذا التفسير الخاص للواقع الدولى . ويختلف الحال بالنسبة لنظام الأمن الجماعي الذى يرى أن التعاون الدولى هو الأساس فى حين أن الصراع هو الاستثناء ، ولذلك فهو يرتكز فى تطبيقه على هذا التفسير المختلف أو المغاير لطبيعة علاقات المجتمع الدولى . وانطلاقاً من ذلك نرى ان الدعامة الأساسية التى يستند عليها نظام توازن القوى هى فكرة الصراع فى حين ان الدعامة الأساسية التى يستند عليها نظام الأمن الجماعى هى فكرة التعاون ، وهما فكرتان نقيضتان بلا ادنى شك ، وان كان توجيههما يستهدف فى النهاية هو الآخر تحقيق السلام وردع العدوان .

(٤) ـ ان صلب نظام الأمن الجماعي يقوم على افتراض أن هناك تجانساً تاماً ومطلقاً بين المصالح القومية للدول وبين تحقيق السلام والاستقرار الدوليين ، وانه لا يمكن ان يقوم هناك تصارع بين هذين الاعتبارين . وفى اطار هذا التصور ، فان استجابة الدول ، كل الدول ، يجب أن تكون استجابة اجماعية ضد أى دولة معتدية فى أى مكان بغض النظر عن اعتبارات المصلحة القومية . فوقوع الحرب فى أى مكان يُعتبر تحدياً لمصالح كل الدول ، لأن هذه الحرب

---

(١١) Inis Claude, Power and International Relations op. cit, p. 145.

تعنى تهديداً للسلام الدولى الذى يؤثر فى النهايةعلى امن كل دولة . أما نظام توازن القــوى فهو على العكس من ذلك يترك مجالاً أوسع لتقديم وتفسـير ما يعتبـر تهديداً للمصالح القوميـــة ويستوجب الاقدام على رد فعل قوىأو الاستجابةبأية كيفية اخرى ملائمة . وبعبارة اخرى ، فان نظام توازن القوى لا يربط هذا الربط المطلق بين المصلحة القومية والاستقرار الدولى، وانما يخضع هذا الأمر للحكم التقديرى للدول التى تدخـل طرفاً فى تجمعات القوى المضادة التى ينبنى عليها عمل هذا النظــام ، بل الأكثر من ذلك ان هنــاك مواقف صراع تجندها بعض هذه المحالفات لانها ترى فى استمرارها وتفاقمها اضراراً بمراكز قوى المحالفات المضادة وذلك فى نطاق التصور الخاص بالتوزيع الدولى القائم للقوى من وجهة نظر الدول الأطراف فى هذا التوزيع .

واجمال هذا المظهــر للاختــلاف فى اسس النظامين يجعلنا نضعه بالشكل التالى : وهو أن الاستجابة الدولية فى نظــام الأمن الجماعى هى استجابة الزامية ومطلقة فى حين أن الاستجابة الدولية فى نظام توازن القــــوى هى اســتجابة اختيارية ونسبية . ونظام الأمن الجماعى يفترض ان العدوان ــ أياً كان مركزه ــ يؤثر فى مصالح جميع الدول بنفس الدرجة ، على حين أن نظام توازن القــوى يقــوم على افتراض أن العدوان ــ تبعاً لحجمه ومصدره ــ يمكن ان يؤثر فى الأمن القومى والمصالح القومية لمحاور القوى بدرجات متفاوتة .

(٥) ــ ان نظامى توازن القـــوى والأمن الجماعى يختلفان من حيث درجة مركزية السلطة والتحكم فى كل منهما . ففى نظام توازن القوى يكون هناك استقلال نسبى أكبر من جانب الدول التى تشــترك فى الاحــلاف وتجمعات القـــوى المضادة ، اى انه اقرب فى كيفية توجيهه وتشغيله الى الطريقة اللامركزيـــة ، بينما ان نظام الأمن الجماعى يقوم على مركزية اكبـر فى موضــــوع التشغيل والتوجيه ، ومركز التوجيه فيه هــو سلطة التنظيم الدولى التى تبرز فى شكل مؤسسـات دولية تشــارك فى عضويتها كافة الدول القائمة فى المجتمع الدولى بغض النظر عن طبيعــة أنظمتها السياســـية ومعتقداتها الايديولوجيـــة ومواقعها الجغرافية واوزانها النسبية من القوة .. الخ .

وعلى الرغم من ان النظامين قد يصلان فى النهاية الى نفس النتائج عن طريق تطبيق وسائلهما الخاصة ، الا أن الكيفية التى يتم بها ذلك فى نظام توازن القوى ترجع بالدرجة الاولى الى الحسابات المستقلة التى تجريهــا كل محالفة على حدة ، فى حين أن نظام الأمن الجماعى يصل الى هذا الهدف بوساطة ادوات محددة وتعريفات هى الاخـرى شبه محددة للمواقف التى يتحتم اتخاذ اجـراء جماعى بشأنها على نحو او آخر . وبمعنى آخر ، فان لامركزية التوجيه والتحكم والتشــغيل فى نظام توازن القوى تجعل التنبؤ بشكل الاستجابة وأساليب التنفيذ أمراً صــعباً ، بينما ان هذه المركزية فى نظام الأمن الجماعى تجعل التنبؤ بشكل الاستجابة وأساليب التنفيذ أمراً ممكناً .

كان هذا بوجه عام تحليلاً مختصراً لطبيعة نظام الأمن الجماعى الذى عولت عليه الدول فى المراحل الحديثة من تطور العلاقات الدولية كوسيلة دولية ملائمة لردع العدوان ، والتمكين لأوضاع السلام والأمن الدوليين . وقد كانت الأداة التى توصل اليها المجتمع الدولى لتنفيذ نظام الأمن الجماعى الدولى ، هى عصبة الامم التى نشأت بعد الحرب العالمية الاولى ، ومنظمة الامم المتحدة التى نشأت بعد الحرب العالمية الثانية ، وان كان تاريخ هاتين المنظمتين الدوليتين يكشف عن تعثرهما فى تنفيذ هذا النظام بأية كيفية فعالة ، وعلى نحو لم يمنع نشوب الحرب أو وقوع العدوان ، ويكفى أن نذكر الحرب العالمية الثانيـــة كدليل واحــد على هذا الفشل ، ناهيك عن الحروب الكثيرة التى وقعت فى أجزاء كثيرة من العالم منذ أن طبقت فكرة الأمن الجماعى فى العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية

الاولى . وفشل التنظيم الدولى فى موضوع الأمن الجماعى يرجع فى جانب كبير منه الى عدم واقعية الكثير من الافتراضات التى قامت عليها نظرية الأمن الجماعى ، على النحو الذى سنبينه تفصيلاً عند تحليلنا وتقييمنا لفكرة الأمن الجماعى .

وقبل ان نستعرض الكيفية التى تم بها تنفيذ نظام الأمن الجماعى فى ظل عصبة الامم ومنظمة الامم المتحدة وبحث النتائج التى انتهى اليها هذا التطبيق ، نجد أن هاتين المنظمتين قد وضعتا منذ البداية فى مواجهة عدة تساؤلات تعين عليهما أن يدبرا اجابات مناسبة لها ، وهذه التساؤلات يمكن تبيانها على النحو الآتى :

(أ) ما هى الظروف أو المواقف التى تبرر فرض العقوبة على الدول التى تنتهك الأوضاع الدولية القائمة بوسيلة العدوان والحرب غير المشروعة ؟

(ب) من الذى يتولى تجميع الحقائق المتعلقة بهذه الظروف والمواقف للتوصل الى قرار دولى مناسب فى هذا الخصوص ؟

(ج) من هى السلطة التى لها حق اتخاذ القرار بتوقيع العقوبة بعد الانتهاء من تحديد المواقف التى تبرر التدخل الجماعى ؟

(د) ما هى الكيفية التى تتحدد بها طبيعة هذه العقوبات والجزاءات ، وما هو المدى الذى يذهب اليه التنظيم الدولى فى توقيعها ؟

(هـ) ما هى الترتيبات والاجراءات التنفيذية التى يسلكها تطبيق العقوبة ، أو بكلمة اخرى ، ما هى الكيفية التى تتحول بها العقوبات من مجرد قرارات نظرية الى خطط عملية محددة ؟

والاجابات التى بلورها سلوك الدول حول هذه الأسئلة الحيوية هى التى حددت فى النهاية مصير نظام الأمن الجماعى فى العلاقات الدولية منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وهو ما سنحاول ان نبينه فى القسم التالى من هذا التحليل .

● ● ●

(ثانياً) ـ تطبيق نظام الامن الجماعى

(أ) تطبيقه فى عهد عصبة الامم : لقد تضمن عهد أو ميثاق عصبة الامم عدداً من النصوص التى حاولت أن تترجم فكرة الأمن الجماعى الى واقع دولى محدد فى اطار المؤسسات التى اشتملت عليها العصبة .

فقد طالبت المادة العاشرة من عهد عصبة الامم الدول الأعضاء فى العصبة بالتعهد باحترام الاستقلال السياسى والسيادة الاقليمية لكل دولة ضد خطر العدوان الخارجى ، وفى الحالات التى يقع فيها العدوان ، أو يكون هناك تهديد بالعدوان ، فان على مجلس العصبة أن يشير بما يلزم اتخاذه لتحقيق هذا الالتزام الدولى .

وقد تأكد هذا الالتزام فى **المادة الحادية عشرة من عهد عصبة الامم ، وهى المادة التى أعلنت**

المسئولية الجماعية لدول العصبة ازاء كل ما يقع فى المجتمع الدولى من حرب أو تهديد بالحرب ، وسواء أثرت هذه الاوضاع بطريقة مباشرة وعاجلة فى أمن أى من الدول الأعضاء أو لم تؤثر ، وفى مثل هذه الحالات ، كان يتعين على السكرتير العام للمنظمة الدولية أن يدعو الى انعقاد مجلس العصبة للاتفاق حول الترتيبات الدولية الجماعية لمواجهة هذه الطوارىء . وقد اعطت هذه المادة من ميثاق عصبة الامم كل دولة الحق فى تبليغ جمعية أو مجلس العصبة بالمواقف التى تشتمل على تهديد للسلام والأمن الدوليين .

ومن الامور التى اتفقت عليها الدول الأعضاء فى عصبة الامم ، تعهدها بأن تخضع نزاعاتها ــ اذا ما تضمنت تهديداً للسلام الدولى ــ للتحكيم أو التسوية القضائية أو عرضها على مجلس العصبة. كما اتفقت هذه الدول على عدم الالتجاء الى اثارة الحرب قبل انقضاء ثلاثة اشهر على صدور أحكام بشأن هذه النزاعات من لجان التحكيم ، أو لجان التسوية القضائية أو من مجلس العصبة . اما عن الحدود الزمنية لاصدار هذه الأحكام فقد رؤى أن يكون اصدارها فى غضون وقت معقول فى حالة لجان التحكيم والتسوية القضائية . وأن يكون فى خلال ستة أشهر من تاريخ عرض النزاع وذلك فى حالة الأحكام التى تصدر عن مجلس عصبة الامم (المادة الثانية عشرة) . وفيما يتعلق بالموضوعات التى اتفق على أن تحال الى لجان التحكيم والتسويات القضائية فقد اشتملت على : الاختلافات التى تنشأ حول تفسير المعاهدات الدولية أو بعض قواعد القانون الدولى ، والتصرفات التى تتضمن اخلالاً من جانب بعض الدول بتعهداتها الدولية ، والتعويضات التى يتعين دفعها عن الأضرار التى يسببها الخروج على هذه المعاهدات . ومن أمثلة المؤسسات القضائية التى رؤى أن تحال ليها هذه النزاعات: محكمة العدل الدولى الدائمة ، أو أى محكمة اخرى تتفق عليها الأطراف المتنازعة .

وقد تعهدت الدول الأعضاء فى العصبة فى المادة الثالثة عشرة ، بأن تعمل على تنفيذ الأحكام التى تصدر عن هذه المؤسسات واللجان الدولية بحسن نية ، كما اتفق على انه فى الحالات التى لا تنفذ فيها هذه الأحكام بالشكل الواجب ، فان مسئولية مجلس العصبة تحتم عليه التدخل باقتراح الاجراءات التى يراها ملائمة لوضع هذه القرارات والأحكام موضع التنفيذ .

أما المادة السادسة عشرة من عهد عصبة الامم فقد نصت على انه اذا التجأت احدى الدول الأعضاء فى العصبة للحرب ، متجاهلة بذلك تعهداتها المقررة فى المواد ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، من عهد العصبة ، فان هذا العمل العدوانى ينظر اليه على أنه موجه ضد كل الدول الأعضاء فى العصبة بلا استثناء .

وقد طلب من هذه الدول أن تتصرف فوراً فى مواجهة الدولة المعتدية بعدد من الاجراءات التى من بينها : قطع كل العلاقات المالية والتجارية والاقتصادية مع هذه الدولة ، كذلك خولت هذه المادة مجلس العصبة حق اقتراح مايراه فعالاً من الترتيبات العسكرية البرية والبحرية والجوية التى تشارك فيها دول العصبة لردع العدوان وتصفيته . وقد اتفقت الدول الأعضاء على انها ستساعد بعضها بعضاً فى تنفيذ هذه الاجراءات المالية والاقتصادية حتى يمكن التخفيف من حدة الأضرار والمتاعب التى تسببها للدول التى تشارك فى توقيع هذا الشكل من أشكال العقوبة على الدولة المعتدية . كما اتفقت أيضاً على مساعدة بعضها البعض لتخفيف الآثار الناتجة عن ممارسة اساليب الضغط الاقتصادى التى قد تلجأ اليها الدولة المعتدية ضد أية واحدة من هذه الدول . وكذلك نصت هذه المادة على انهاء عضوية أية دولة تثبت عليها مسئولية الاخلال بالتزاماتها المقررة فى ميثاق عصبة الامم ، وتنهى هذه العضوية بقرار يصدر من مجلس العصبة .

وبالنسبة للنزاعات التى تكون أطرافها دولاً غير أعضاء فى عصبة الامم ، دعا الميثاق هذه الدول الى قبول التعهدات التى تلتزم بها الدول الأعضاءفى موضوع تسوية منازعاتها . وفى الحالات التى تقبل فيها الدول غير الأعضاء فى العصبة هذهالدعوة ، فانها تخضع بذلك لأحكام المواد من ١٢ الى ٢٦ . ويقوم مجلس العصبة بعمل التحرى والاستقصاء الضرورى عن الظروف التى تحيط بهذه النزاعات واقتراح ما يراه ملائماًمن الترتيبات الجماعية فى مثل تلك الظروف . اما اذا رفضت دولة غير عضو فى العصبة التقيد بهذا الالتزام ، فان الميثاق كان يدعو كل دول عصبة الامم الى اتخاذ اجراء مشترك ضدها ، وقد ورد ذكر ذلك فى المادة السابعة عشرة من عهد العصبة .

وفيما يتصل بتطبيق المواد السابقة من عهدعصبة الامم والخاصة بنظام الأمن الجماعى ، يمكن القول بأن العصبة قد قامت بخمس محاولات بارزة فى هذا الخصوص نوجزها فيما يلى :

(١) ــ التحضير لمشروع معاهدة المساعدة المتبادلة Draft Treaty of Mutual Assistance وهو المشروع الذى وافقت عليه جمعية العصبة فى عام ١٩٢٣ . وقد اعلنت هذه المعاهدة اعتبار الحرب العدوانية جريمة دولية كما أكدت ان الدول المنضمة اليها قد قررت نبذها لهذه الوسيلة غير المشروعة فى علاقاتها الدولية . ونصت المعاهدة على انه اذا ما وقعت مثل هذه الأعمال العدوانية ، فان على مجلس العصبة أن ينتهى خلال أربعة أيام من تحديد الطرف المعتدى ، وكذلك الاتفاق على المساعدات المالية والعسكرية التى تقدم للدول التى يمارس ضدها العدوان ، وان كان قد اتفق على أن تقديم المساعدة العسكرية انما يأتى فقط من جانب الدول القريبة جغرافياً من الدولة المعتدية . هذا بالاضافة الى أن التعهد باستخدام القوة المسلحة ضد مصدر العدوان قد اقتصر على الدول الموقعة على معاهدة المساعدة المتبادلة فقط ، ولم يمتد الى كل الدول الأعضاء فى عصبة الامم ، وأعطت هذه المعاهدة للدول غير الأعضاء فى العصبة حق الانضمام اليها .

ومن ناحية اخرى ، فان معاهدة المساعدة المتبادلة قد حاولت أن تربط بين ناحيتى الأمن ونزع السلاح ، وذلك بأن نصت على انه ما لم توافق كل دولة على تحديد مستوى تسليحها أو تخفيضه واتخاذ اجراءات عملية لتحقيق ذلك ، فانه كان عليها الا تتوقع تقديم مساعدة دولية عامة لها اذا ما استهدفها العدوان . وقد عارضت بريطانيا هذا الاشتراط مما أدى فى النهاية الى احباط هذا المشروع الذى حاول أن يؤكد الرابطة المنطقية والحيوية بين عنصرى الأمن ونزع السلاح (١٢) .

(٢) ــ توقيع بروتوكول جنيف فى عام ١٩٢٤ : اعلنت ديباجة هذا البروتوكول ان الحرب العدوانية تشكل تهديداً لتضامن الدول الأعضاء فى المجتمع الدولى، كما أنها جريمة دولية . ومثلما حدث فى مشروع معاهدة المساعدة المتبادلة اعلنت الدول الأعضاء فى بروتوكول جنيف امتناعها عن الالتجاء الى الحرب تحت أى ظرف من الظروف الا فى الحالات التى يوجبها حق الدفاع عن النفس فى مواجهة العدوان أو بناء على اذن من مجلس أوجمعية عصبة الامم . ولم يقتصر تعهد الدول المنضمة الى هذا البروتوكول على نبذ الحرب ، وانما امتد أيضاً ليشمل الامتناع عن اى تصرف يشكل تهديداً بالعدوان ضد أية دولة خارجية .

---

(١٢) راجع فى ذلك : Vidya Dhar Mahajan International, Politics since 1900 (S. Chand & Co. Delhi, 1964) P. 336.

وقد تولى بروتوكول جنيف هذا تحديدالمعتدى فذكر أنه الدولة التى تلجأ الى اثارة الحرب دون أن تحاول تسوية خلافاتها مع غيرهامن الدول بالطرق السلمية . وفى حالات الاختلاف حول تحديد الدولة المعتدية ، انيطت هذهالمسئولية بمجلس عصبة الامم ليقرر فى ضوء تحرياته طبيعة الجزاءات التى توقع ضدها اذا ماثبتت عليها جريمة ممارسة العدوان .

وبروتوكول جنيف اختلف عن مشروعمعاهدة المساعدة المتبادلة فى ناحية هامة ، وهى أن البروتوكول لم ينص صراحة وبطريقة محددةعلى موضوع الجزاءات العسكرية التى تتخذ فى مواجهة المعتدى . ولكنه اتفق مع المعاهدة فىناحية اخرى ، وهى أنه — مثلها — دعا الدول غير الأعضاء فى عصبة الامم الى الانضمام اليهوالتقيد بنصوصه واحكامه .

ومرة اخرى،فان معارضة بريطانيا ورفضهالبروتوكول جنيف أدى الى فشله تماماً مثلما حدث من قبل مع مشروع معاهدة المساعدةالمتبادلة (١٣) .

(٣) — وقد استتبع فشل بروتوكولجنيف ، قيام عصبة الامم بمحاولة ثالثة تبلورت عام ١٩٢٥ فيما أصبح يعرف بميثاق لوكارنو Locarno Pact الذى وقعت الى جانبه سبع معاهدات (من أهمها معاهدة ضمان الحدودالفرنسية الالمانية ، والالمانية البلجيكية) بين كل من المانيا وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا وايطاليا ،كما كانت هناك اتفاقات تحكيم Arbitration Conventions بين المانيا وبلجيكا ،والمانيا وفرنسا ، والمانيا وبولندا ، والمانيا وتشيكوسلوفاكيا . وكذلك وقعت معاهدتانللمساعدة المتبادلة بين فرنسا وبولندا ، وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا ، وهما المعاهدتان اللتان كانمقرراً لهما أن تنفذا فى حالة وقوع عدوان من المانيا ضد اية واحدة من هذه الدول .

وقد تضمنت معاهدة ضمان الحدودالفرنسية الالمانية ، والالمانية البلجيكية النص على أن الدول الأطراف فى هذه المعاهدة سوف تحاولجماعيا أن تضمن الأوضاع الاقليمية التى انشأتها معاهدة فرساى والتى ترسم الحدود بين المانياوبلجيكا وبين المانيا وفرنسا . كما ان هذه المعاهدة قد اكدت الوضع الآخر الذى فرضته معاهدةفرساى وهو نزع سلاح ذلك الاقليم من المانيا الذى يمتد حوالىخمسين كيلو متراً شرقى الراين.وفى هذه المعاهدة تعهدت كل من المانيا وفرنسا وبلجيكا بعدم اللجوء الى الحرب ضد بعضهاالبعض الا فىحالة الدفاع الشرعى ضد اى محاولة تقع لانتهاك الاوضاع المتفق عليها ، وخاصة ماتعلقمنها بالمناطق المنزوعة السلاح .

كذلك تعهدت هذه الدول الثلاث بتسويةمنازعاتها بالطرق السلمية أيا كانت طبيعة هذه المنازعات . اما بالنسبة للحالات التى كان يحتملأن ينشأ معها خلاف حول تفسير احد التعهدات الواردة فى هذه المعاهدة ، فقد اتفق على أن تتماحالة النقاط موضع الخلاف الى مجلس عصبة الامم حتى يبت فيها بالشكل المناسب . وأماسريان مفعول المعاهدة فقد رؤى أن يبدأ بعد انضمام المانيا الى عصبة الامم .

وفيما يتعلق بمعاهدات واتفاقات التحكيم الاربع المشار اليها آنفاً ، اتفق على انه فى حالة نشوب خلافات بين المانيا وبين الدول الاخرىالموقعة على هذه الاتفاقات ، ولم تمكن تسويتها

---

(١٣) Ibid, pp. 336 — 337.

بالاجـراءات الدبلوماسـية العاديـة ، فان هذه الخلافات كان مقرراً أن تحال الى محكمة تحكيم متفق عليها أو الى محكمة العدل الدولية الدائمة لاتخاذ قرار بشـأنها . على أن اتفاقات التحكيم هذه قد أوردت تحفظاً هاماً على تطبيقها من جانب الدول الموقعة عليها وذلك بأن استبعدت من نطاق هذا التحكيم الخلافات والمنازعات التى ترجع الى ظروف سابقة على توقيع هذه المعاهدات ، والتى لم تدخل فى اطار تسويات الصلح التى أوجدتها معاهدة فرساى .

وقد امتدحت معاهدات لوكارنو على أكبر نطاق ممكن حتى أن البعض اعتبرها بمثابة الخط الفاصل بين سنوات الحرب وسنوات السلام (١٤) . وكان الاعتقاد السائد هو أن هذه المعاهدات خلقت استقراراً أكبر على الحدود الألمانية وأتاحت انضمام المانيا الى عصبة الامم بعد أن كان ينظر اليها على أنها خارجة على القانـون الدولى ومتمردة على الأوضاع القائمة فى القارة الاوروبية .

وكما جـاء فى تصريح ارسـتيد بريان بعد توقيعها مباشرة حين قال « ان معاهدات لوكارنو تضمن الأمن لكل من فرنسا والمانيا ، وهذا يعنى أننا قد وضعنا حداً نهائيـاً وفاصلاً للنزاعات الدموية التى استنزفتنا ومزقتنا ، ونحن وان كنا لا ننفى وجود نزاعات بين دولتينا ، الا ان السبيل الى حلها هو حكم القانون . ان اسلوب القـوة المسلحة قد اختفى ليحل محله اسلوب التوفيق والتحكيم والسلام » (١٥) .

(٤) ــ توقيع ميثاق بريان ــ كيلوج Briand Kellog Pact : وقع هذا الميثاق عام ١٩٢٨ بوساطة **ممثلين عن خمس عشرة دولـة** ، وهو الميثاق الذى بلغ عدد الدول الموقعة عليه فى نهاية عام ١٩٣٠ **حوالى احدى وستين دولة** . وقد أعلن هذا الميثاق نبذ الحرب كأداة فى السياسات القومية للدول ، كما أكد ضرورة حـل المنازعات الدولية ــ أياً كانت طبيعتها وأياً كانت أطرافها ــ بالطرق والوسائل السلمية .

ومن الملاحظ على الميثاق انه لم يُورد أى ذكر للجزاءات الواجب تطبيقها فى حالة الاخـلال بهذا التعهد الدولى الذى ينبذ الحرب ويدينها ، وانما اكتفى باسـتنكارها كعمل غـير مشروع فى العلاقات الدولية ، ولم يذهب مدى أبعد من ذلك فى ترجمة الميثاق من مجرد امنية دولية الى واقع يفرض نفسه على الدول التى تشارك فى رسم هذا الواقع . ومثل هذا الوضع غير المحدد كان لا بد وأن يخلق ثغرات واسـعة تسـهل التلاعب بهذا الميثاق ، حيث مالت الدول الى تبرير حـروبها وتصرفاتها العدوانية بدعوى الدفاع الشرعى عن النفس وما الى ذلك من التعليلات .

وعلى أية حال فقد انقسمت الآراء بشـأن القيمة العمليـة لميثاق بريان ــ كيلوج ، فبينما امتدحه البعض على أنه انتصار للارادة الخيرة فى الانسان على نوازع الشر والحـرب والعدوان ، وعلى أنه نقطة تحول بارزة فى علاقات عالم ما بعد الحرب العالمية الاولى ، الا أن آخرين أنكروا عليه مثل هذه الأهمية ، وكما يقول بول وكيلاد : « ان انهيار سلطة ميثاق بريان ــ كيلوج يرجع الى **نقاط الضعف المتعددة الكامنة فيه** . فهو على الرغم من أنه أنكر مشروعية الحرب كأداة للسياسات القومية للدول ، الا أن ما قصد اليـه هو **ادانة الحـرب الهجومية ، لا الحرب الدفاعيـة** . وهنا تظهـر الفجوة التى لم يستطع الميثاق أن يتغلب عليها ، اذ أن معظم الدول ، ان لم تكن كلها ، تعلل حروبها

---

(١٤) Ibid, p. — 258.

(١٥) Ibid, pp. 259 — 260.

فى اطار العوامل الدفاعية وحدها ، وليس منها من اعترف البتة بأن حربه كانت مدفوعة بنوايا هجومية . والأدهى من ذلك وأمر ، ان واضعى هذا الميثاق لم يضمنوه نصوصاً تحدد كيفية تنفيذه ونقله من مجرد كونه وثيقة دولية نظرية الى ان يصبح له تأثير فعلى فى حيز الواقع . ان القيمة الكبرى لميثاق بريان – كيلوج سيكلوجية بالدرجة الاولى ، وحتى هذا الجانب السيكلوجى فيه لم يعمر طويلاً . ان انبثاق الاتفاقات الثنائية والمتعددة الاطراف للضمان المتبادل لأمن الدول – رغم وجود الميثاق – كان امراً منطقيا ، لأن الميثاق لم يدعم بأية كيفية نظام الأمن الجماعى الذى خلقته عصبة الامم والذى يبدو انه كان قد فقد تأثيره تماما في الواقع » (١٦) .

وهذا التقييم يبدو لنا صحيحاً الى حد كبير ، حيث ان الميثاق – كما سنرى فيما بعد – لم يمنع اليابان من الاعتداء على منشوريا ، ولا المانيا من الاعتداء المتكرر فى اوروبا ، ولا ايطاليا من حربها العدوانية ضد اثيوبيا . لقد كان من الصعب التصور بأن جملة نصوص نظرية كهذه يمكن أن تلغى ببساطة أداة الحرب وتسقطها من يد السياسات القومية للدول .

(٥) – اما المحاولة الخامسة التى قامت بها عصبة الامم فقد تمثلت فى اصدارها لما اسمى **بالنظام العام لتسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية** General Act of the Pacific Settlement of International Disputes ، وقد تكوّن هذا النظام العام من اربعة فصول يتعلق أولها بالتوفيق ، وقد نص على أن كل المنازعات السياسية وغير السياسية التى لا يمكن تسويتها بالطرق الدبلوماسية لا بد وان تحال الى لجنة توفيق ثنائية (Conciliation) . أما الفصل الثانى فقد تناول **المنازعات القضائية** ، ونص على أن كل النزاعات ذات الصبغة القانونية يجب أن تحال الى محكمة العدل الدولية الدائمة لاصدار قرارفيها ، وان كان هذا النص لم يستبعد امكانية الاتفاق بين الدول الاطراف فى هذه النزاعات على تسويتها بطريق التحكيم أو بأى اسلوب آخر من أساليب التسوية السلمية .

وتناول الفصل الثالث موضوع التحكيم Arbitration الذى رأى أن تلجأ اليه أطراف النزاعات اذا ما أخفق اسلوب التوفيق فى تحقيق التسوية المطلوبة . ونص هذ الفصل على أن قرارات التحكيم تعتبر ملزمة لأطراف النزاع .كما تضمن هذا الفصل نصاً آخر يقضى بأنه اذا ما فشلت هيئة التوفيق فى الوصول الى تسوية سلمية فى النزاعات السياسية خلال شهر ، فان هذه النزاعات يمكن أن تحال الى محكمة تحكيم Arbitral Tribunal تتكون من خمسة أعضاء وتقام خصيصاً لهذا الغرض . وكان على هذه المحكمة أن تطبق القواعد القانونية فى هذه النزاعات على غرار ما تفعله محكمة العدل الدولية الدائمة فى لاهاى . أما الفصل الرابع فقد تضمن عدة أحكام عامة مثل اباحة انضمام الدول الى هذا النظام العام لتسوية المنازعات ، اما بشكل كامل أو بشكل جزئى ، وفى حالة القبول بالعضوية الجزئية يكون من حق هذه الدول اما القبول باجراء التوفيق وحده ، أو التوفيق والتسوية القضائية ، دون أن يقيدوا أنفسهم بمبدأ التحكيم الاجبارى (Compulsory Arbitration) فى كل الحالات .

---

(١٦) Ibid, p. — 265.

وقد امتدح هذا النظـام العام لتســويةالمنازعات الدولية بالطرق السامية على اساس أنه احسن تعبير منظم عــن مبدأ التنظيم الفضائىالدولى (١٧) .

يبقى بعد ذلك أن نشير الى حقيقة جوهريةوهى أن النصوص التى اشتمل عليها ميثاق عصبة الامم ، وما انبثق عنه من معاهدات، واتفاقات ، لم تكن كافية لتطبيق نظام الأمن الجماعى بالفاعلية والكفاءة المطلوبتين ، وانما احتــوت على ثغرات واسعة جعلت من هذا التطبيق امــرا متعذراً ، ويشهد بذلك ــ كما قلنا ــ عدد من حالات العدوان التى وقعت فى عهد عصبة الامم ومن أهمها : اعتداء اليابان على منشوريا ، وفشل العصبة فى مساعدةالصين ، واعتداء ايطاليا على اثيوبيا ، واعتداءات هتلر المتكررة على الدول الاوروبية .

وبالاضــافة الى ضــعف المؤســسـات التىاستند عليها تطبيق الأمن الجماعى فى ظل عصبة الامم وعدم وجود قــوة بوليســـية فعالة يمكن أن تســتخدمها لردع العدوان واحباطه ، كانــت هناك عدة مؤثرات اخرى هامة تتعلق فى معظمهابسلوك الدول او القوى الكبرى داخل المنظمــة الدولية وخارجها مما عقد تماما قدرة المنظمة على تطبيق هذا النظام بأى كيفية فعالة ، فقد انبنى سلوك هذه الدول على اعتبارات المصلحة القومية وحدها دون اعتبار ما لتأثيرات هذا السلوك على السلام الدولى ، هذا فضلاً عن ازدهار الدكتاتورالمتمثلة فى الفاشــية الايطالية والنازيــة الالمانية والعسكرية اليابانيــة ، وهى الدكتاتوريات التى قامت على انتهاك الأخلاقيات والمواثيق الدولية ، وضربت بدستور المنظمة الدولية وكل ما يمثله من مثل وقيم عرض الحائط (١٨) .

ظهور احلاف ومحاور قــوى جديدة : ان فشل عصبة الامم فى ردع العدوان ومجابهته بحزم قد ترك معظم الدول أمام خيارين لا ثالث لهما : اما التركيز على امكانات القوة الذاتية لكل دولة فى حماية أمنها القومى ، واما الانضواء تحت لواء المحالفات ومحاور القوى الجديدة للحصول على

---

(١٧) Ibid, p. — 269.

وراجع ايضــا فى الوقوف على تفاصيل المحاولات التى قامت بها عصبة الامم لتطبيق نظام الأمن الجماعى :

Walter R. Sharp and Grayson Krik Contemporary International Politics (Farrar and Rinehart, 1944) pp. 526 — 552.

(١٨) راجع فى الظروف التى احاطت بفشل عصبة الامم فى تطبيق نظام الأمن الجماعى :

Jack C. Plano & Robert E. Riggs, Forging World Order : The Politics of International Organization (The Macmillan Company, New York, 1967) pp. 27 — 37.

Quincy Wright, The Sino — Japanese Dispute of 1931 — 1933 The Manchurian Crisis, in Joel Larus, From Collective Security to preventive Diplomacy, **op. cit.** pp. 91 — 108.

Sean Lester, The Far East Dispute From the Point of View of the Small States, in From Collective Security to Preventive Diplomacy, **op. cit,** pp. 118 — 125.

The End of Appeasement and after in, Walter Sharp & Grayson Kirk Contemporary International Politics, **op. cit.** pp. 655 — 684.

A.J.P. Taylor, The Abyssinian Affair and the End of Locarno, in his "The Origins of the Second World War", (Fawcett Publications, Inc., 1963) pp. 87 — 101.

V.D. Mahajan, International Politics Since 1900, **op. cit** P. 339.

الحماية التى عجزت عصبة الامم عن أن توفرهاالاعضائها ، ومن امثلة هذه المحالفات ومحاور القوى التى انبثقت فى عالم ما بين الحربين العالميتين نذكر :

(١) ـ **الحلف المعروف بدول الوفاق الصغير** (The Little Entente Powers) : وقد تكون هذا الحلف من تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافياورومانيا ، وكان هدفه منع تغيير الأوضاع التى خلقتها تسويات الحرب بخصوص هذه الدول ،وكان يعنى ذلك التصميم على مقاومة اى محاولة لمراجعة هذه التسويات لترضية الأطراف الاخرى غير القانعة بها . كذلك كان من بين أهداف هذا الحلف الحيلولة دون اتحاد النمسا مع المانيا . وقد حظى هذا الحلف بتأييد فرنسا من الناحيتين العسكرية والمالية . وفى الفترة بين سنتى ١٩٢٤و ١٩٢٧ دخلت فرنسا فى عدة محالفات مع قوى الوفاق الصغير . ولكن هذا الحلف بدأ يتقوض تحت ضغط عاملين يتعلق اولهما بتدهور وانهيار خطر المجر وهو الذى شد هذه الدول الى بعضها على هذا النحو ، وينصرف ثانيهما الى ضعف تأييد فرنسا للحلف وسعيها للتحالف مع دول اخرى فى اوروبا ، وهى امور افقدت الحلف فعاليته وأوصلته فى النهاية الى حالة من العجز التام .

(٢) ـ **الحلف الرباعى** (The Four Power Pact) : وهو الذى وقع فى يوليو سنة ١٩٣٣ من كل من المانيا وفرنسا وبريطانيا وايطاليا ،والذى اقترح فكرته موسولينى على رمزى ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا أثناء تباحث الزعيمين حول مشكلة نزع السلاح . وكان الهدف من ورائه هو اقامة سبل للتشاور المنتظم والمستمر بين الدول الكبرى خارج اطار عصبة الامم ، وكان رأى موسولينى أن الحلف كان ضرورياً نظراً لحالة الشلل التى وصلت اليها العصبة بسبب اشتراط الاجماع فى موافقة الدول على القرارات الصادرة عن المنظمة الدولية . ومن ناحية اخرى فقد رأى موسولينى أن قيام هتلر فى المانيا كان يحتم تعديل تسويات الصلح لصالح المانيا .

وقد ادينت فكرة هذا الحلف فى روسيا وبولندا ، كما أن فرنسا ابدت تحفظات عليها ، وكذلك فعلت بريطانيا خاصة فيما تعلق بمراجعة معاهدة الصلح لحساب المانيا النازية .

على أن الميثاق قد وقع فعلاً ، وأعلنت الدول الأربع عن التزامها بنصوص ميثاق عصبة الامم وخاصة المواد ١٠ و ١٦ و ١٩ المتعلقة بالأمن الجماعى ، وأكدت هذه الدول حرصها على أن تحل نزاعاتها مع بعضها بالطرق السلمية وبما يتمشى مع روح ميثاق عصبة الامم . وكانت مدة سريان هذا الحلف عشر سنوات . وكان من المفروض أن يبدأ سريان هذا المفعول بعد التصديق عليه فى روما غير أن المانيا وفرنسا عادتا وامتنعتا عن التصديق على هذا الميثاق ، وبذا انهار منذ بدايته لعدم واقعيته فى مواجهة صراعات القوى وأطماع النازية فى اوروبا .

(٣) ـ **حلف البلقان** (The Balkan Pact) : وهو الحلف الذى انشىء فى فبراير عام ١٩٣٤ من كل من رومانيا واليونان وتركيا ويوغسلافيا ، وكان الهدف منه ـ بحسب ما جاء فى ديباجته ـ تدعيم الأمن فى منطقة البلقان . وقد نص الحلف على أن تقوم هذه الدول بالضمان المتبادل لحدودها فى البلقان . كما اتفقت دول الحلف على ان تجرى المشاورات الضرورية فى الحالات التى يحدث فيها تهديد لمصالحها بالشكل الذى اشتمل عليه ميثاق الحلف . كذلك تعهدت هذه الدول بالامتناع عن الدخول فى تعهدات سياسية مع أية دولة بلقانية اخرى الا بعد الحصول على موافقة الأطراف الاخرى المتعاقدة .

وقد حظى الحلف بموافقة فرنسا فى الوقت الذى انتقدته ايطاليا . وقد ترتب على عدم انضمام كل من بلغاريا والبانيا اليه ان اصبح غير قادر على دعم استقرار منطقة البلقان وامنها . وقد ادين الحلف لضعفه منذ البداية ، وقد تسبب فى هذا الضعف عدم التقاء اهداف الدول الاطراف الداخلة فيه ، فيوغسلافيا ارادت أن تحصل على مساعدات تستخدمها ضد ايطاليا ، على حين رفضت اليونان بذل مثل هذه المساعدات ليوغسلافيا . وبالرغم من أن بلغاريا انضمت الى تحالف البلقان فى عام ١٩٣٨ ، الا أن ذلك لم يحسن من أوضاعه فى شيء .

(٤) محور برلين روما طوكيو (The Berlin - Rome - Tokyo Axis) : وهو المحور الذى ضم قوى النازية والفاشية فى المانيا وايطاليا والدكتاتورية العسكرية فى اليابان . وقد بدا المحور على شكل توقيع ميثاق ثنائى بين كل من المانيا النازية واليابان فى نوفمبر ١٩٣٦ ، وهو الذى طلق عليه **الميثاق المعادى للكومينترن** (The Anti-Comintern Pact) . وقد نصت ديباجة هذا الميثاق على أن الفرض من عقده هو عدم تمكين قوى الشيوعية الدولية من ان تهدد استقلال الدول بما اتيح لها من ادوات وامكانات . واعلن الحلف الالمانى اليابانى هذا عن موافقة الطرفين على القيام بالمشاورات الضرورية ، وابلاغ بعضهما البعض بتحركات الشيوعية الدولية ، وتنسيق مواقفهما ازاء هذه التحركات . وكان من المفروض ان يسرى مفعول الحلف لمدة خمس سنوات ، يترك للدولتين بعدها النظر فى أمر تجديده .

وقد اتسعت عضوية هذا الحلف بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ليشمل ايطاليا ايضا ، ووقع الحلف الجديد الثلاثى فى سبتمبر ١٩٤٠ واسمى بمعاهدة التعاون التى حددت مدتها بعشر سنوات . وفى **تحالف المحور الجديد** اعترفت الدول الأطراف بزعامة كل منها فى مناطق نفوذها وفى اطار الأوضاع الاقليمية الجديدة التى كانت تحاول دائبة أن تخلقها فى القارتين الاوروبية والآسيوية .

(٥) ـ ميثاق عدم الاعتداء السوفيتى ـ الالمانى او ميثاق مولوتوف ـ روبينتروب :

وهو الميثاق الذى وقع فجاة وبدون مقدمات تمهيدية بين الاتحاد السوفيتى والمانيا النازية فى ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ . وهذا الميثاق أملته بعض الضرورات التكتيكية المرتبطة بالاستراتيجية النازية فى اوروبا من جهة ، وبالمخططات الدبلوماسية السوفيتية وموازنات القوى بالمقاييس السوفيتية من جهة اخرى . وقد انتهى الميثاق بغزو المانيا النازية للاتحاد السوفيتى فى يونيو ١٩٤١ ، اى انه لم يدم الا اقل من عامين .

هذه هى بعض جوانب الصراع الدولى فى فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى ، وهو الصراع الذى قاد فى النهاية الى وقوع حرب عالمية اخرى على عكس ما كان متوقعاً فى تبنى فكرة الأمن الجماعى التى اعتبرت فتحاً جديداً فى ميدان العلاقات الدولية والتى اقيمت عصبة الامم لتحولها الى واقع ملموس . ولقد لخص **انس كلود** حصيلة تجربة عصبة الامم فى مجال تطبيق نظام الأمن الجماعى بقوله : « ان تجربة العصبة فى هذه الناحية كشفت عن اخفاقها فى الانتقال بالأمن الجماعى من فكرة نظرية الى نظام له وجود فى المجتمع الدولى . ولم يكن فشل تطبيق نظام الأمن الجماعى راجعاً فى الجانب الأكبر منه الى عدم استطاعة هذا النظام ان يعمل بنجاح ، وانما لأن هذا النظام لم يطبق فى الواقع بطريقة تضمن نجاحه . ان المؤسسات الضعيفة التى قامت على

تطبيقه نشأت وهى لا تبشر بأى أمل فى امكانية تحقيق هذا النظام على اى نحو فعال . ان مشروع الأمن الجماعى الذى تبناه ولسون فى أعقاب الحرب ربما احرز نجاحه الأكبر فى ميدان الايديولوجية النظرية ، ولكنه منى بالفشل الذريع على ايدى الدوائر التى كان بيدها رسم السياسات واتخاذ القرارات » (١٩) .

(ب) – تطبيق نظام الأمن الجماعى فى ظل منظمة الامم المتحدة :

١ – تفاؤل وحذر: لقد اعطت الحرب العالمية الثانية الفرصة لمراجعة الجهود والمحاولات التى بذلها المجتمع الدولى فى ظل عصبة الامم لترويض استخدام القوة فى العلاقات الدولية ، وهى الجهود التى تبلورت كما أشرنا فى تحليلنا السابق ، فى شكل نظام عالمى للأمن الجماعى ، او هذا على الأقل هو ما حاولت عصبة الامم ان تفعله فى عالم ما بعد الحرب العالمية الاولى . ثم انعكست هذه الجهود الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية فى انشاء الامم المتحدة بما تضمه من مؤسسات تقوم على تطبيق نظام الأمن الجماعى على أمل ان تقدر هذه المنظمة العالمية الجديدة على ممارسة مسئولياتها فى هذا الصدد بفعالية اكبر .

والواقع أن الاتجاهات التى ظهرت خلال المباحثات والاتصالات التى جرت لانشاء الامم المتحدة كانت كلها تعبر عن رغبة عامة فى تقوية المؤسسات التى يقوم عليها تطبيق نظام الأمن الجماعى ، وخاصة ما اتصل منها بقوة التنفيذ الجبرى ضد مصادر العدوان فى المجتمع الدولى ، وذلك فى محاولة لتجنب نواحى الضعف التى غلبت على هذا النظام فى ظل عصبة الامم ، وهو النظام الذى قيل فى وصفه انه كان بلا أسنان تجعله موضع احترام من دول العالم المختلفة .

وهذه الاتجاهات الدولية المجندة لتدعيم نظام الأمن الجماعى بأقصى ما يمكن بذله من طاقات دولية ، ظهرت أوضح ما تكون خلال الدورات الافتتاحية لمؤتمر **سان فرنسيسكو** حيث ركزت كل الدول تقريباً على معنى واحد ، وهو انه اذا **اريد لنظام الأمن الجماعى أن يثبت وجوده ويحقق الأهداف المعلقة عليه ، فان ذلك كان يتطلب منطقياً وبالضرورة اقامة منظمة عالمية تستخدم القوة فى دعم السلام الدولى كلما حتمت الضرورات ذلك** . ومن أمثلة ذلك قول جوزيف بيك ممثل دولة لكسمبورج فى مؤتمر سان فرنسيسكو : « ان شعوب العالم لن تغتفر لقادتها اى محاولة من جانبهم للعودة الى اتباع سياسات توازن القوى التى ستقود حتماً الى سباق جديد وحاد للتسلح ، بما سيورطنا فى حرب عالمية جديدة . ان حماية السلام الدولى لا يمكن ان تتوفر الا من خلال اقامة نظام قوى وفعال للأمن الجماعى ، وان ما نأمل فيه ونحن بصدد ارساء دعائم هذا النظام هو أن نضع تحت تصرفه كل مايستلزمه من امكانات القوة المسلحة حتى نضمن الاحترام الدولى الكامل للقرارات والالتزامات التى يضطلع بها » (٢٠) .

ونظام الأمن الجماعى بالشكل الذى صممه وأورده ميثاق سان فرنسيسكو جعل كثيراً من الدول تعتقد انه قد امكنه فعلا ان يتلافى جوانب الضعف التى عانى منها تطبيق هذا النظام فى ظل عصبة الامم . نذكر فى هذا الخصوص ما كان قد صرح به **جوزيف بول بونكور** فى الخطاب الذى

(١٩) Inis Claude, Power & International Relations, op. cit. p — 155.

(٢٠) Ibid, p. 157.

القاه أمام مؤتمر ســان فرنسيسكو فى جلســاته الختامية حين قال : « ان المنظمة الدولية من الآن فصــاعداً لن تكون فى موقــف عدم الاســتعداد العسكرى ضد مثيرى الشغب والعدوان فى المجتمع الدولى ، وهذا هو الحدث التاريخى العظيم الذى أمكن لمؤتمر سان فرنسيسكو أن ينجزه » (٢١) . وهــو نفس الاعتقاد الذى عبر عنه ايضــاً **جان سمتس** رئيس الوفد الامــريكى فى مؤتمر ســان فرنسيســكو حين قال عن ميثــاق الامم المتحدة « انه يسلح السلام بالاســنان اللازمة ، كما انه يخلق جبهة عريضة من الدول المحبة للســلام فى مواجهة أى مصدر محتمل للعدوان . ان الميثاق قد أمكنه أن يخلق كذلك جبهة موحدة من الدول الكبرى التى تســاندها وتؤازرها قوة الدول الصغرى ايضــاً . ان من أهــم الانجازات التى استطاع أن يحققها الميثاق هو انه قد اوجد شكلاً فعالاً من أشكال التنظيم والادارة المركزية للقوة الجماعيــــة التى توفرهــــا الدول لحمايــــة السلام » (٢٢) .

وبالرغم من هــذا التفاؤل الــذى شــاب اتجاهات الدول عن نظام الأمن الجماعى بالكيفية التى حاولت الامم المتحدة أن تحققها ، فان ثمة حقيقة حيوية تمخضت عنها أعمال مؤتمر ســان فرنسيسكو ، وهى الاعتقاد العام فى صعوبة ــ ان لم يكن فى استحالة ــ خلق نظام للأمن الجماعى يســتطيع أن يردع التهديدات التى تصــدر عن الدول الكبرى ضد السلام الدولى . وقد بنيت تصورات الدول التى شــاركت فى مؤتمر ســان فرنسيسكو على افتراض ثبت فيما بعد خطؤه أو بالأحرى عدم واقعيته ، وهو ان الدول الكبرى ستظل تعمل فى جو من التفاهم والوفاق ــ كما كان الحال فى وقت الحــرب ــ لكى توفر للأمن الجماعى الفعالية المطلوبة . ولكن تطور أوضاع الحرب الباردة بين الكتلتين ، وسوء استعمال **حق الفيتو** فى مجلس الأمن اثبت القصور الواضح فى هذه التصورات والافتراضات .

والحقيقة أن فلسفة منح حق الفيتو للدول الكبرى الدائمة فى مجلس الأمن ، تركزت فى انه كان من الأفضل ان يتعرقل عمل مجلس الأمن من أن تتفق غالبية الدول فى المجلس على اتخاذ قرار أو ترتيب معين لا توافق عليه دولة كبرى ، لأن الاحتمال الأرجح فى مثــل هذه الحالــة ان هذه الدولة المعارضة ستلجأ فى مواجهة هذا الوضع الى اتخاذ اجراءات مضادة الى درجة قد تورط المجتمع الدولى كله فى صراع بغير حدود . وهذا التبرير الكامن وراء اعطاء الدول الكبرى حــق الفيتو كان موضع تأييد من جانب دول كثيرة ، فمثلاً كان من راى الهند ان حق الفيتو هو ضمانة لكل الدول تحول دون توريطها فى حــرب ضــد احدى الدول الكبرى باسم الامم المتحدة (٢٣) .

ومن هذا كله يمكن القول بأن من الامور التى كانت موضع اتفاق فى مؤتمر سان فرنسيسكو عند صــياغة ميثاق الامم المتحدة ، تفادى اخضاع الدول الكبرى لأى ترتيب مــن ترتيبات القــوة الجماعية ، أو بمعنى آخر عدم اســتخدام القوة المشتركة للمجتمع الدولى ضد اى واحدة من هذه

---

(٢١) Ibid, pp. 157 — 158.

(٢٢) Ibid, p. 158.

(٢٣) India and the United Nations, Report of a Study Group set up by the Indian Council of World Affairs, (the Carnegie Endowment of International Peace, New York), p. 33.

الدول الكبرى . وعلى هذا ، وكما يقول خبراءالعلاقات الدولية والتنظيم الدولى ، فان ترتيبات الأمن الجماعى التى استحدثتها الامم المتحدةكانت موجهة أولاً وبالدرجة الاولى ضد الدول التى تهدد السلام العالمى ، من غير الدول الكبرى ،وذلك فى الحالات التى يمكن فيها للدول الكبرى أن توحد جهودها وتنسق امكاناتها فى مواجهة تلك المصادر التى يأتي منهـا التهديد بالعداوة (٢٤) . ومن هنا فان نظام الأمن الجماعى بشكله هذا لم يكن الا نظاماً محدوداً فى أساسه وفى نطاق تطبيقه، وهو أيضاً السبب الذى ادى الى انتشار الأحلافالعسكرية ومواثيق الدفاع المشترك فى عالم ما بعد الحرب (٢٥) .

---

(٢٤) وايضاً Inis Claude op. cit., p. 162.
V. Mahajan, op. cit., P. 341.

(٢٥) من امثلة هذه الاحلاف والترتيبات الدفاعية الاقليمية :

١ ـ ميثاق ريو Rio Pact او معاهدة المساعدة المتبادلةبين الدول الأمريكية الذى وقع فى ريو دى جانيرو عام ١٩٤٧ خلال انعقاد مؤتمر الدول الأمريكية الخاص ببحث وسائل دعمالسلام فى القارة الامريكية . وقد اشتملت عضوية ميثاق ريو على كل من الولايات المتحدة وكوبا وهندوراس والمكسيكوجواتيمالا والسلفادور ونيكاراجوا وهايتى وجمهورية الدومينكان وكوستاريكا وبنما وفنزويلا والاكوادور وكولومبياوبيرو وبوليفيا وباراجواى والبرازيل وشيلى والارجنتين واورجواى . وقد نصت ديباجة الميثاق على أن الهدف منعقده هو كفالة السلام لكل الدول الامريكية من خلال تقديم المساعدات الضرورية لأى دولة تتعرض لخطر الاعتداء عليها منالخارج . كما ان الدول الأطراف فى الميثاق اعلنت نبذها وادانتها للحرب كاداة للسياسة القومية وتعهدت بالامتناع عناستخدام القوة او التهديد باستخدامها فى علاقاتها الدولية تمشياً مع نصوص ميثاق الامم المتحدة .

٢ ـ معاهدة حلف شمال الاطلنطى : The North Atlantic Treaty Organization وهى المعاهدة التى وقعت فى ابريل ١٩٤٩ فى واشنطون من كل من الولايات المتحدةوكندا وبلجيكا والدانيمارك وفرنسا وأيسلندة وايطاليا ولكسمبورج وهولندا والنرويج والبرتغال والمملكة المتحدة ، ثمانضمت اليها تركيا واليونان فى عام ١٩٥٢ ، وجمهورية المانيا الاتحادية فى عام ١٩٥٥ بعد التوقيع على معاهدة اتحاد غرباوروبا . وحلف الاطلنطى هو اكبر واضخم تنظيم عسكرى للدفاع عن أمن العالم الغربى ، وتغطى منطقة دفاعالحلف أمريكا الشمالية واقاليم الدول الاوروبية الداخلة فيه ، والجزر الواقعة فى منطقة الاطلنطى شمال مدار السرطانوالتى يمتد اليها اختصاص أى من الدول الحليفة ، وكذلك السفن والطائرات التابعة لأى من هذه الدول فى تلك المنطقة .

٣ ـ معاهدة حلف جنوب شرقى آسيا : South East Asia Treaty Organization او حلف مانيلا الذى وقع فى سبتمبر ١٩٥٤ ويضم كلاً من الولايات المتحدةوبريطانيا وفرنسا واستراليا ونيوزيلندة والباكستان وتايلاند والفلبين . والمنطقة التى يشملها دفاع الحلف هى منطقةجنوب شرقى آسيا ومنطقة جنوب غربى الباسفيكى .

٤ ـ منظمة المعاهدة المركزية : Central Treaty Organization او حلف بغداد سابقاً ، وقد وقع الحلف فى ابريل ١٩٥٥ وكان يتكون من بريطانيا وتركيا والعراقوالباكستان وايران ، ثم انضمت اليه الولايات المتحدة فيما بعد . ولكن بعد قيام ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ فى العراق واعلانهاانسحاب العراق من حلف بغداد تغير اسم الحلف الى منظمة المعاهدة المركزية . وهذا الحلف يتركز نشاطه فى منطقةالشرق الأوسط .

٥ ـ حلف وارسو Warsaw Pact وهو الاداةالرئيسية للدفاع عن الاتحاد السوفيتى وحلفائه فى كتلة شرق اوروبا ، وقد ظهر الى حيز الواقع فى ١٤ مايو ١٩٥٥ كبديللمعاهدات التحالف الثنائية بين الاتحاد السوفيتى ودول شرق اوروبا . وهى المعاهدات التى وقع معظمها خلال المراحلالنهائية للحرب العالمية الثانية .

والى جانب الاحلاف والمنظمات الدفاعية المتعددةالأطراف التى اقامها الغربفىاوروبا وآسيا والشرق الأوسط، فقد ابرمت الولايات المتحدة مسلسلة من المواثيق الدفاعيةالثنائية مع عدد آخر من دول العالم ومن امثلتها : المعاهدة

←

٢ ـ نظام الأمن الجماعي في نصوص الميثاق :

ان الاسس التى ارساها الميثاق لنظام الأمن الجماعي قد ورد ذكرها كلها في الباب السابع الذى خصص بالكامل لكل ما يتعلق بالتهديدات الموجهة ضد السلام الدولى ، والافعال العدوانية التى ترتكبها الدول ضد بعضها البعض . ونورد أحكامها فيما يلى :

المادة التاسعة والثلاثون : « يقرر مجلس الأمن ما اذا كان قد وقع تهديد للسلم أو اخلال به أو كان ما وقع عملا من أعمال العدوان ، ويقدم في ذلك توصياته أو يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير طبقاً لأحكام المادتين ٤١ و ٤٢ لحفظ السلم والامن الدولى أو اعادته الى نصابه » .

المادة الاربعون : « منعاً من تفاقم الموقف ، لمجلس الامن قبل أن يقدم توصياته أو يتخذ التدابير المنصوص عليها في المادة ٣٩ ، ان يدعو المتنازعين للاخذ بما يراه ضرورياً أومستحسنا من تدابير مؤقتة ، ولا تخل هذه التدابير المؤقتة بحقوق المتنازعين ومطالبهم أو بمركزهم ، وعلى مجلس الامن أن يدخل في حسبانه عدم اخذ المتنازعين بهذه التدابير المؤقتة » .

المادة الحادية والأربعون : « لمجلس الامن ان يقرر مايجب اتخاذه من التدابير التى لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته ، وله أن يطلب الى اعضاء الامم المتحدة تطبيق هذه التدابير ، ويجوز أن يكون من بينها وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية وغيرها من وسائل المواصلات وقفا جزئيا أو كليا وقطع العلاقات الدبلوماسية » .

المادة الثانية والأربعون : « اذا رأى مجلس الامن ان التدابير المنصوص عليها في المادة ٤١ لا تفى بالغرض أو ثبت انها لم تف به ، جاز له أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الاعمال ما يلزم لحفظ السلم والامن الدولى أو لاعادته الى نصابه ، ويجوز أن تتناول هذه الأعمال المظاهرات والحصر Blockade والعمليات الاخرى بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لاعضاء الامم المتحدة » .

وتنص المادة الثالثة والأربعون على الامور التالية :

(١) يتعهد جميع أعضاء الامم المتحدة في سبيل المساهمة في حفظ السلم والأمن الدولى أن يضعوا تحت تصرف مجلس الامن ـ بناء على طلبه وطبقا لاتفاق أو اتفاقات خاصة ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والأمن الدولى .

→

الأمريكية الاسبانية في عام ١٩٥٤ التى اعطت الولايات المتحدة بموجبها حق اقامة القواعد الجوية والبحرية في الاراضى الاسبانية في مقابل حصول اسبانيا على بعض المعدات العسكرية الأمريكية ، وجددت مدة سريان المعاهدة بعشرين عاما ، والمعاهدة التى عقدتها امريكا مع كوريا الجنوبية في عام ١٩٥٣ والتى تعهدتا فيها بالمساعدة المتبادلة في حالة وقوع اعتداء على أى منهما في منطقة الباسفيكى ، والمعاهدة الامريكية الصينية (الصين الوطنية) في عام ١٩٥٣ وبمقتضاها تعهدت امريكا بالدفاع عن فرموزا وجزر البسكادور ضد أى تهديد من جانب الصين الشيوعية ، والمعاهدة الأمريكية اليابانية التى عقدت مع اليابان في عام ١٩٥١ ثم جددت في عام ١٩٦٠ ومعاهدة الانزوس Anzuz Treaty التى عقدتها الولايات المتحدة مع كل من استراليا ونيوزيلندا في عام ١٩٥١ للدفاع عن منطقة الباسفيكى .

راجع في ذلك ايضا : Kurt London, To Have and to Hold : Problems of Security "in his", The Permanent Crisis", (Blaisdell Publishing Company, Mass, 1968) pp. 86 —120).

Alliances for Regional Security, in "Forging World Order", by Jack Plano & Robert Riggs, op. cit. pp. 279—312.

(٢) يجب أن يحدد ذلك الاتفاق أو تلك الاتفاقات عددهذه القوات وأنواعها ومدى استعدادها وأماكنها عموما ونوع التسهيلات والمساعدات التى تقدم .

(٣) تجرى المفاوضة فى الاتفاق أو الاتفاقات المذكورةبأسرع ما يمكن بناء على طلب مجلس الامن ، وتبرم بين مجلس الأمن وبين أعضاء الامم المتحدة او بينه وبين مجموعات منأعضاء الامم المتحدة ، وتصدق عليها الدول الموقعة وفق مقتضيات أوضاعها الدستورية .

المادة الرابعة والأربعون : « اذا قرر مجلس الامناستخدام القوة فانه قبل أن يطلب من عضو غير ممثل فيه تقديم القوات المسلحة وفاء بالالتزامات المنصوص عليها فىالمادة الثالثة والأربعين ، ينبغى له أن يدعو هذا العضو الى أن يشترك اذا شاء فى القرارات التى يصدرها فيما يختصباستخدام وحدات من قوات هذا العضو المسلحة » .

المادة الخامسة والأربعون : « رغبة فى تمكين الامم المتحدة من اتخاذ التدابير الحربية العاجلة يكون لدى الأعضاء وحدات جوية أهلية يمكن استخدامها فوراً لأعمال القمعالدولية المشتركة . ويحدد مجلس الأمن قوة هذه الوحدات ومدى استعدادها والخطط لاعمالها المشتركة ، وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب وفى الحدود الواردة فى الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار اليها فى المادة الثالثة والأربعين » .

ونصت المادة السادسة والأربعون على أن مجلس الأمن ،تساعده فى ذلك لجنة أركان الحرب ، هو الذى يتولى وضع الخطط اللازمة لاستخدام القوة المسلحة . وقد تولت المادةالسابعة والأربعون شرح الكيفية التى تشكل بها لجنة أركان الحرب وتحليل مسئولياتها على النحو التالى :

(١) - تشكل لجنة من اركان الحرب تكون مهمتها أنتسدى المشورة والمعونة الى مجلس الامن وتعاونه فى جميع المسائل المتصلة بما يلزمه من حاجات لحفظ السلم والأمنالدولى ولاستخدام القوات الموضوعة تحت تصرفه وقيادتها ولتنظيم التسليح ونزع السلاح بالقدر المستطاع .

(٢) - تشكل لجنة أركان الحرب من رؤساء أركان حربالأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن أو من يقوم مقامهم ، وعلى اللجنة أن تدعو أى عضو فى الامم المتحدة من الأعضاء غير الممثلين فيها بصفة دائمة للاشتراك فى عملها اذا اقتضى حسن قيام اللجنة بمسئولياتها أن يساهم هذا العضو فى عملها .

(٣) - لجنة أركان الحرب مسئولة تحت اشراف مجلسالأمن عن التوجيه الاستراتيجى لأية قوات مسلحة موضوعة تحت تصرف المجلس .

(٤) - للجنة أركان الحرب أن تنشىء لجاناً فرعيةاقليمية اذا خولها ذلك مجلس الأمن وبعد التشاور مع الوكالات الاقليمية صاحبة الشأن .

المادة الثامنة والأربعون : « الأعمال اللازمة لتنفيذ قرارمجلس الأمن لحفظ السلم والأمن الدولى يقوم بها جميع أعضاء الامم المتحدة أو بعض هؤلاء الأعضاء وذلك حسبمايقرره المجلس . كما نصت هذه المادة على أن يقوم أعضاء الامم المتحدة بتنفيذ القرارات المتقدمة مباشرة وبطريق العملفى الوكالات الدولية المتخصصة التى يكونون أعضاء فيها » . واكدت المادة التاسعة والأربعون « أعضاء الامم المتحدةيتضافرون فى تقديم المعونة المتبادلة لتنفيذ التدابير التى قررها مجلس الأمن » .

ثم ذكرت المادة الخمسون « اذا ما اتخذ مجلس الأمنضد أية دولة تدابير منع أو قمع فان لكل دولة أخرى - سواء أكانت من أعضاء الامم المتحدة أم لم تكن - تواجه مشاكلخاصة تنشأ عن تنفيذ هذه التدابير ، الحق فى أن تتذاكر مع مجلس الأمن بصدد حل هذه المشاكل » .

المادة الحادية والخمسون : « ليس فى ميثاق الامم المتحدة ما يضعف أو ينتقص الحق الطبيعى للدول فرادى أو جماعات ، فى الدفاع عن أنفسهم اذا اعتدت قوة مسلحة علىأحد أعضاء الامم المتحدة ، وذلك الى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى ، والتدابير التىاتخذها الأعضاء استعمالاً لحق الدفاع عن النفس تبلغ الى المجلس فوراً ، ولا تؤثر تلك التدابير بأى حال فيما للمجلس- بمقتضى سلطته ومسئولياته المستمدة من أحكام الميثاق - من الحق فى أن يتخذ فى أى وقت ما يرى ضرورة لاتخاذه منالأعمال لحفظ السلم والأمن الدولى أو اعادته الى نصابه » .

والحقيقة ان المادتين ٤٣ ، ٤٥ قد اعتبرتا تدعيماً ضخماً لنظام الأمن الجماعي فى ظل الامم المتحدة عنه فى زمن عصبة الامم . وان كانت المادة ٤٣ بالذات قد أصبحت موضع مجادلات عنيفة ومستمرة من قبل الدول الكبرى ، ولم يمكنها ان تصل الى اتفاق عام بشأنها . وقد انحصرت نقطة الخلاف الرئيسية بخصوص المادة ٤٣ حول تحديد حجم ونوعية القوات التى يتعين على الدول الكبرى أن تضعها تحت تصرف مجلس الأمن . وقد اتضحت خطورة هذا الخلاف من واقع ما كان قد اتفق عليه أثناء التحضير لميثاق الامم المتحدة وهو أن الدول الكبرى ذات المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن ستتحمل العبء الأكبر فى توفير هذه القوة تأكيداً لسلطة القمع التى سيمارسها المجلس فى ردع التهديدات الموجهة ضد السلام الدولى .

٣ ـ المشكلات التى أحاطت بتطبيق نظام الأمن الجماعى الذى نص عليه الميثاق :

(أ) عند التطبيق ثارت عدة تساؤلات ملحة ملحة لم تجد اجابات قاطعة عليها ، ومن بينها على سبيل المثال : **ما هى القوة التى يجب أن تكون عليها الذراع العسكرية للامم المتحدة .. ؟ وما هى طبيعة الدور الذى ستقوم به القوة العسكرية ، وتحت اى ظروف ، وضد من سيوجه استخدامها .. ؟ وما هى الكيفية التى يتم بها تحديد ذلك القدر من القوة العسكرية الذى يتناسب مع طبيعة وحجم التهديد الذى يواجهه السلام الدولى .. ؟**

انقسمت مواقف الدول الكبرى ، حول هذه النقاط الجوهرية فلم ير الاتحاد السوفيتى مبرراً للاحتفاظ بقوة عسكرية كبيرة تحت تصرف الامم المتحدة ، وكان من محبذى ضغط هذه القوة الى الحد الأدنى الضرورى . وقد شارك الاتحاد السوفيتى فى اتجاهه هذا كل من بريطانيا والصين وفرنسا ، بينما اختلفت عنهم الولايات المتحدة ، ويظهر ذلك جلياً من التقديرات التى اجرتها كل واحدة من الدول الكبرى حول ما تعتقد انه الحجم المناسب لهذه القوة العسكرية الدولية ، وهى التقديرات التى قدمت الى الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧ . ففى هذه التقديرات اقترحت الولايات المتحدة أن تتألف هذه القوة من ثلاثة آلاف وثمانمائة طائرة ، بينما اقترحت الدول الأربع الكبرى الا يتجاوز عدد هذه الطائرات الفاً ومائتين وخمساً وسبعين طائرة . وفى مجال القوات البرية اقترحت الولايات المتحدة الا يقل حجم القوة البرية الدولية عن عشرين فرقة ، على حين تراوحت تقديرات الدول الأربع الاخرى بين ثمان وست عشرة فرقة ، واقترحت الولايات المتحدة ان تزود هذه القوة الدولية بتسعين غواصة بينما لم يزد اقتراح الدول الاخرى عن اثنتى عشرة غواصة . وبينما اقترحت الولايات المتحدة ان يضاف الى هذه القوة اربع وثمانون مدمرة ، لم تر الدول الاخرى مبرراً لأن يزيد عدد هذه المدمرات عن أربع وعشرين مدمرة (٢٦) .

وقد انبنى منطق الاتحاد السوفيتى فى هذه المشكلة على أن هزيمة دول المحور فى الحرب قد الغت المبرر للاحتفاظ بقوات كبيرة فى حوزة الامم المتحدة . كما أن الدخول فى مباحثات للاتفاق حول نزع السلاح ، قد أضعف هو الآخر من الحاجة الى وضع قوات كبيرة تحت تصرف مجلس الأمن . وربما كان هذا الاتجاه السوفيتى اقرب فى مضمونه الى الاتجاه العام الذى كان يسيطر على مؤتمر سان فرنسيسكو ، وهو أن استخدام مثل هذه القوة الدولية المشتركة لن يكون ممكناً بحال ضد

---

(٢٦) Year Book of the United Nations 1947 — 1948, p.495.

أى من الدول الكبــرى ، وهذا بعكس الاتجـاه الأمريكى الذى اعتقد امكانية استخدام هذه القوة ضد أى دولة تهدد الســلام ، بما فيهــا الدول الكبرى نفسها ، ومن هنــا كان الموقف الأمريكى يمثل اتجاه الأقلية فى المؤتمر .

أما النقطة الرئيسية الاخرى التى اثارت الجدل حول تفسير مضمون المادة ٤٣ من الميثاق ، فكانت متعلقة بكيفية تكوين القوات التى تقدمها الدول الكبرى لمجلس الأمن ، فالاتحاد السوفيتى كان من انصار المبدأ الذى يدعو الى تشكيل هذه القوات على أساس قاعدة التكافؤ أو المساواة بين هذه الدول ، اى انه كان على كل واحدة من الدول الكبرى ان تقدم قــوات تتطابق تماما فى حجمها وتركيبها مع تلك التى تقدمها الدول الاخــرى . ولكن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والصين اختلفت مع الاتحاد السوفيتى فى هذا الموضوع . فهذه الدول برغم أنها وافقت على مبدأ التكافؤ أو المساواة فى حجم القوات التى تقدمها كل واحدة من الدول الكبرى لمجلس الأمن الا أنهــا رات ان يترك أمر تحديد عناصر هذه القوة ــ براً وبحراً وجواً ــ بحسب ظروف كل دولة على حدة ، غير أن الاتحاد السوفيتى التزم بموقفه ولم يحد عنه .

وفى الواقــع ان كــلاً من وجهتــى النظــر الســابقتين قد اســتندت على بعض الحجــج والتبريرات المنطقية . فوجهة النظــر الأمريكيةــ التى شاركتها فيها بريطانيا وفرنسا والصين ــ انبنت على أساس انه كان من الافضل أن تترك مسئولية تحديد عناصر القوة التى تقدمهــا كل دولة كبرى لها شخصياً ، دون التــزام مسبق بشىء قد لا يكون متاحاً لديها امكانيــة توفيره فى الوقت المناسب . أو بمعنى آخــر ، فان وجهة النظر هذه رات فى مرونة التشــكيل عنصراً من عناصر الايجابيــة والواقعية ، بعكس ما اذا تم التقيد بالتزام معين ثم ثبتت فيما بعد صــعوبة الوفاء به . أما وجهة النظر السوفيتية فقد صدرت عن الاعتقاد بأن هذا التشكيل المتكافىء او المتماثل من قبل الدول الكبرى كان شرطاً أساسياً لقدرة مجلس الأمن على الأداء الكفء لمســئولياته فى موضوع الأمن الجماعى بالشكل الذى بينه دستور المنظمة الدوليــة . كما رات فى اختلاف عناصر القوات التى تقدمها الدول الكبــرى ، داعياً من دواعى اضعاف المفعول النهائى لهذه القوة الدولية المشتركة وترك الأمر كله معلقاً على ارادة الدول دون التزامها بشىء محدد ازاء الامم المتحدة .

ولم ينحصر عدم الاتفاق بين الدول الكبرى حول كيفية تنفيذ المــادة ٤٣ فى الاعتبارات التى أسلفنا ذكرها ، وانما تعداه الى عدد من النقاط الاخرى التى من بينها مثلاً ، أن الاتحاد السوفيتى اعترض على ما دعته اليه الدول الكبرى الاخرى من امكانيــة وضــع قوات تابعة للامم المتحدة فى قواعد خارج الدول التى تتبعها هذه القوات . كما أنه أبدى تحفظاته على النص الــذى كان يطلــب المساعدة العسكرية بشكل اجبارى من بعض الدول وفاء بالتزاماتها تجاه مجلس الأمن فى موضــوع الأمن الجماعى . وفضلا عن هذا وذاك ، فقد دعا الاتحاد السوفيتى للعمل على ضمان انســحاب القوات الدولية التى تســتخدم فى ردع العدوان وعودتها الى الدول التى تتبعها بعد انجازها لمهامها فى غضون مدة زمنيــة محددة ، واصر على انه لايمكن استبقاء هذه القوات بحال من الأحوال ، الا اذا صــدر قــرار فى مجلس الأمن بضرورة هذا الاستبقاء من أجل السلام والأمن الدوليين .

يتضح من هذا كله كيف ان الدول الكبرى لم تســتطع ان تتفق فيما بينهــا على التــدابير

الأساسية المتعلقة بانشاء قوة دولية فعالة يمكن استخدامها بواسطة مجلس الأمن فى الظروف التى يقع فيها العدوان ضد اى دولة عضو فى المنظمة الدولية (٢٧) .

(ب) ـ الجمعية العامة واصدار توصية « الاتحاد من اجل السلام » : لقد ترتب على هذه المشكلات والاختلافات ـ التى أوجزنا بعضاً منها ـ أن مجلس الامن قد أصبح غير قادر على ان يقوم بأى دور فعال فى تنفيذ نظام الأمن الجماعى بالشكل الذى تخيله واضعو ميثاق الامم المتحدة فى مؤتمر سان فرنسيسكو ، وقد عقدت الأمر كله وزادته سوءاً على سوء ، اساءة استخدام حق الفيتو من قبل بعض الدول الكبرى بطريقة عرقلت عمل المجلس وكادت تصل به الى وضع من العجز والشلل التامين .

ومن ناحية اخرى لم تكن الجمعية العامة للامم المتحدة مؤهلة للاضطلاع بهذا الدور الذى اصبح من المتعذر على مجلس الأمن أن يمارسه وسط صراعات ومناورات الدول الكبرى ذات المقاعد الدائمة فيه . بيد أن قيام الحرب الكورية فى عام ١٩٥٠ قد أوضح الحاجة الى ضرورة مراجعة نظام الأمن الجماعى والبحث عن وسائل يمكن من خلالها تدعيمه على نحو أو آخر . وكان التوصل الى اصدار **توصية الاتحاد من أجل السلام** (Unity for Peace Resolution) فى ٣ نوفمبر ١٩٥٠ احدى نقاط التحول البارزة فى هذا الخصوص . وكان الهدف من اقرار هذه التوصية تمكين الجمعية العامة للامم المتحدة من الوصول الى قرار حول الموضوعات العاجلة التى قد تتطلب تطبيق بعض الجزاءات وذلك فى حالة تعذر الاتفاق على اصدار مثل هذه القرارات فى مجلس الامن بتأثير الفيتو ، ففى مثل هذه الحالات تدعى الجمعية العامة الى الانعقاد فى ظروف اربع وعشرين ساعة بناء على دعوة من مجلس الأمن (باغلبية سبعة من اعضائه) او بطلب من اغلبية الدول الأعضاء فى الامم المتحدة .

وتكون الجمعية العامة حرة فى عمل التوصيات التى قد تطلب فيها من الدول الأعضاء اتخاذ عمل جماعى ، بما فى ذلك استخدام القوة المسلحة حيثما تكون هناك ضرورة لذلك ، والجزاءات التى توقع فى الجمعية العامة تنفيذاً لتوصية الاتحاد من أجل السلام ، تنفذ بطريقة اختيارية Voluntarily ، على اعتبار ان سلطة الجمعية العامة هى سلطة اقتراح وليست سلطة اصدار قرارات لها صفة الالزام .

وقد دعت توصية الاتحاد من أجل السلام (ضمن ما دعت اليه) لانشاء **لجنة مراقبة للسلام** (Peace Observation Commission) تتكون من أربع عشرة دولة تمثل فيها الدول الخمس الدائمة فى مجلس الأمن ، وتكون مهمة اللجنة التحرك دون ابطاء الى مناطق التوتر والاضطراب التى تشكل تهديداً للسلام والأمن الدوليين ، والعمل بصفة مراقبين لتطورات الأحداث والابلاغ عنها للمنظمة الدولية . وهذه اللجنة لم يقدر لها أن تعمل سوى مرة واحدة فقط حين ارسلت الى مناطق الحدود الشمالية لليونان لتحل محل لجنة الامم المتحدة الخاصة فى البلقان . ثم انهى عمل هذه اللجنة بناء على طلب من اليونان فى اغسطس سنة ١٩٥٤ . وفي مايو ١٩٥٤ طالبت تايلاند بارسال لجنة مراقبة السلام لتراقب ما يحدث على حدودها مع كمبوديا ولاوس غير أن هذا الطلب رفض فى مجلس الأمن ، ولم تشأ تايلاند أن تنقله الى الجمعية العامة .

---

(٢٧) Lester B. Pearson, Force For U.N., in The United Nations Political System, edited by David A. Kay (John Wiley & Sons, Inc.) New York, 1967) p. 194.

كذلك تضمنت توصية « الاتحاد من اجل السلام » انشـــاء لجنـــة للتدابير الجماعيـــة (Collective Measures Committe) لبحث ودراســة الوسائل التى يمكن تطبيقها لدعم قوة المؤسسات القائمة على تطبيق نظام الأمن الجماعى . بل ان هذه التوصية قد طالبت كل دولة عضو في الامم المتحدة بأن تحتفظ بجزء من قواتها المسلحة يكون جاهزاً للاستعمال كوحدات تابعة للامم المتحدة اذا ما دعت الحاجة الى ذلك . كما نصت التوصية المذكورة على انشاء لجنة من الخبراء العسكريين يصدر بتشكيلها قرار من السـكرتير العام للامم المتحدة وتكون وظيفتها استشارية .

وقد انشئت بالفعل لجنة التدابير الجماعية وأمكن لها ان تطور بعض المبادىء التى استهدفت فى الأساس دعم تطبيق نظـام الأمن الجماعى من خلال الجمعية العامــة وفى الوقت نفســه طالب السكرتير العام للامم المتحدة الدول الأعضاء بأن تجرى مسحا لامكانياتها حتى يمكنها تحديد حجم وطبيعة المشاركة العسكرية التى ستقوم بتقديمها للمنظمة الدولية . ولكن درجة الاســتجابة لهذا النداء كانت صدمة مخيبة للآمال ، اذ ان سـبعاً وثلاثين حكومة فقط هى التى عنيت بالرد ، وابدت خمس عشرة حكومة منها تجاوباً محدوداً ، على حين أن ثمانى حكومات أعربت عن عدم استعدادها للمشاركة بحال فى اى من هذه التدابير الجماعية التى اقترحتها اللجنـة ، واكتفت احدى عشرة حكومــة باعلان استعدادها للمشـاركة ولكن فى أضيـق الحدود الممكنة ، وكان لهذه الاتجاهات الســلبية اكبر الأثر فى تجميد لجنـــة التدابير الجماعية ، حتى انتهى الأمر كله بتصفية أعمالها في نوفمبر ١٥٤ (٢٨) .

وقد ظلت توصـية « الاتحاد من اجــل السلام » فى الاطار النظرى البحت لمدة سـت سنوات تقريباً حتى حدوث ازمة السويس فى عام ١٩٥٦ حيث أمكن للجمعية العامة للامم المتحدة أن تتدخل وتثبت وجودها فى هذه الأزمــة الدولية الخطيرة . والذى حدث فى ذلك الوقت هو أن الجمعية العامــة دعيت الى دورة انعقاد طارئة لمناقشة الموقف المتفجر فى منطقة الشرق الأوسط، ولم تكن الجمعية العامة مستعدة حينذاك لمجابهة الأمر بالاجراءات البوليسية حيـث لم يكن تحت تصرفها اى قوات عسكرية يمكن استخدامها لهذا الفرض . وقد ضاعف من الصعوبات التى واجهتها الجمعية العامة فى هذا الصدد ، عدم وجود سابقة يمكن الاستناد عليها فى تشكيل هذه القوة الدولية، وبمعنى آخر ، كان من المتعين على الجمعية العامة أن تبدأ من نقطة الصفر وفى ظروف بالغة الخطورة والحساسية .

ولما كانت طبيعة الموقف فى الشرق الأوسط تتطلب التصرف بسرعة خشـية أن تتطـور تلك الحرب المحدودة الى حرب عالمية ، فقد اقـرت الجمعية العامة توصية فى ٤ نوفمبر ١٩٥٦ تدعو الى انشـــاء قوة طــوارىء تابعــة للامم المتحدة (United Nations Emergency—Force) ويتولى السكرتير العام للمنظمة الدولية تنظيمها والاشراف على تشكيلها فى خلال ثمان وأربعين ساعة، وبالفعل فقد أمكن اقامة هذه القوة الدولية (التى وصـل عدد افرادها فى وقـت ما حـوالى سـتة آلاف جندى) بسرعة فائقة ، وكان هذا نجاحاً باهراً للجمعية العامة فى ممارستها لمسئولياتها الجديدة النامية فى ميدان الأمن الجماعى .

وقد اشتملت الخطة التى وضعها السكرتير العام للمنظمة الدولية (داج همرشيلد) لتشكيل

---

(٢٨) راجع فى ذلك : Jack Plano & Robert Riggs, Farging World Peace, op. cit. pp. 257 — 259.

قوة الطوارىء الدولية والتى وافقت عليها الجمعية العامة فى التوصيات الصادرة عنها فى ٥ و ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، اشتملت على عدد من المبادىء الرئيسية التى حددت كيفية تنظيم هذه القوة وكذلك طبيعة وظيفتها ، ومن هذه المبادىء :

(١) استبعاد الدول الكبرى من تشكيل قوة الطوارىء الدولية . (٢) تركيز مسئولية الاشراف السياسى على قوة الطوارىء الدولية فى يد السكرتير العام للامم المتحدة ، كما ابيح له حق الاستعانة بلجنة عسكرية استشارية Advisory Committee تتكون اساسا من ممثلين للدول المشتركة فى القوة الدولية ، وتكون اعمال هذه اللجنة فى اطار توجيهات الجمعية العامة .

(٣) ان وظيفة قوة الطوارىء الدولية ليست قتالية (Non-Fighting Function) وانما مراعاة اتفاقات وقف اطلاق النار والحيلولة دون تجدد الاشتباكات العسكرية فى منطقة النزاع .

(٤) الاحتفاظ لقوة الطوارىء الدولية بحيادها السياسى تجاه الأطراف المتنازعة .

(٥) ان الابقاء على القوة الدولية فى الاقاليم التى يجرى عليها النزاع ، انما هو رهن بموافقة الدولة المضيفة أو الدولة صاحبة هذا الاقليم .

(٦) ان نفقات تمويل قوة الطوارىء الدولية ـ وبخاصة تلك التى لا تسمح بها الميزانية العادية للامم المتحدة ـ تقسم بين الدول الأعضاء فى المنظمة الدولية بنسب يتم تحديدها والاتفاق عليها (٢٩) .

وفى التقرير الذى قدمه داج همرشيلد الى الجمعية العامة فى عام ١٩٥٨ ، اضاف السكرتير العام عدة اقتراحات جديدة فيما يتعلق بوظائف القوات التى ستشكل فى المستقبل للقيام بعمليات حفظ السلام . ومن ابرز هذه الاقتراحات والنقاط :

(١) انه لا يجوز تشكيل قوات حفظ السلام الا بتصريح من الجمعية العامة او مجلس الأمن . أما الامور الادارية المتصلة بأوضاع هذه القوات فتتولاها السكرتيرية العامة للمنظمة الدولية فى اطار التعليمات التى يصدرها السكرتير العام فى هذا الشأن .

(٢) ان اللجنة العسكرية الاستشارية وظيفتها أن تقدم المشورة فقط ، وليس من حقها أن تتحكم فى الكيفية التى يمارس بها السكرتير العام واجباته ومسئولياته فى موضوع حفظ السلام .

(٣) ان القوات الدولية لا يجوز أن تكون طرفا فى النزاعات الداخلية ، كما لا يجوز استخدامها لأغراض ذات طبيعة داخلية محضة ، أو لاملاء حلول سياسية لبعض المشكلات المعلقة .

---

(٢٩) راجع فى هذا ايضا كلا من : Ibid pp. 265 — 267.

Inis Claude, United National Use of Military Force, in "The United Nations Political System" edited by David A. Kay, op. cit. PP. 201 — 217.

Herbert G. Nicholas, UN PEACE Forces and the Changing Globe : The Lessons of Suez and Congo, in "The United Nations" edited by Maurice Waters, (The Macmillan Company, New York 1967) pp. 405 — 413.

(٤) ان الطبيعة غير القتالية لوظيفة قوةالطوارىء الدولية لا يمكن ان تحرم هذه القوة من حقها الطبيعى فى الدفاع عن النفس ، وان كان قداشترط الا تكون قوة الطوارىء الدولية هى البادئة باطلاق النار ، وانما يجب أن يجىء هذا الاطلاق كرد فعل للنار التى تطلق عليها .

(٥) ان الدول التى تشـارك بوحدات فى هذه القوات الدولية تستمر فى تحمل نفقات هذه الوحدات بنفس المقدار فيما لو كانت هذه الوحدات ضمن الخدمة الوطنية العاملة ، وما زاد عن ذلك من نفقات تتحمله كل الدول الأعضـاء فى الامم المتحدة بنسب اشتراكها فى ميزانية المنظمة (٣٠) .

وقد ظلت قوات الطوارىء الدولية فى غزة وفى شرم الشـيخ من نوفمبر ١٩٥٦ حتى مايو ١٩٦٧ حين طلبت حكومـة الجمهورية العـربية المتحدة سـحب هذه القـوات فأجابهـا يوثانت (السكرتير العام للمنظمة الدوليـة) الى طلبها ،وهو الاجراء الذى سبق وقوع الهجوم الاسرائيلى على مصر وسوريا والاردن فى ٥ يونية عام ١٩٦٧ ،وهو الهجـوم الذى عرف فيما بعد بحرب الأيام الستة .

(جـ) ـ الامم المتحدة والتدخل العسـكرى فى الكونغو :

جاء من بعد ذلك تدخل الامم المتحدة بقواتها الدولية للمرة الثانية خلال ازمة الكونغو ، وهى الأزمة التى اثارها انفصال مويس تشومبى باقليم كاتانجا عن الكونغو عقب حصـول الكونغو على استقلالها من بلجيكا فى صيف عام ١٩٦٠ . وقد هددت أزمة الحرب الأهلية فى الكونغو بنشـوب صراع عنيف تكون أطرافه الدول الكبرى نفسها ،أى أن ما كان يحدث فى الكونغو أوشك على التحول الى حرب افريقية اوروبية بسبب الاتهامات التى وجهتها الدول الافريقية الى بلجيكا لمسـاندتها حركة تشومبى الانفصالية .

وقد جاء تدخل الامم المتحدة أثر النداء الذى وجهه باتريس لومومبا رئيس حكومة الكونغو فى ذلك الوقت والذى طالب فيه بتدخل المنظمة الدولية لكى تحول دون تدهور الوضع الى أبعد من المدى الذى وصـل اليه . وقد اسـتجاب السكرتير العـام للامم المتحدة حينـذاك (داج همرشيلد) لهذا النداء ، ودعا مجلس الأمن الى اجتماع خاص لمناقشة امكانية التدخل بقـوات عسكرية دولية فى الكونغـو . وفى هذا الاجتماع تقدمت تونس بتوصية تقترح فيهـا على المجلس ارسال قوة دولية الى الكونغو ، ولم تعترض اى من الدول الأعضاء فى مجلس الامن على مشروع التوصية ، بل فوضت السكرتير العام فى تنفيذ هذا الترتيب بأيـة كيفية ملائمة . والواقع أن المنظمة الدولية كانت قد افادت من تجربة حرب السنـويس فيما يتعلق بتكوين قـوات الطوارىء الدولية ، لذا فانها لم تجد مشكلة فى وضع ترتيب مماثل فى الكونغو ، وقد بدىء فى ممارسـة هذه المسئولية عن طريق ارسال بعض وحدات تونسية الى الكونغو وتبعها ارسال وحدات سويدية .

ومن الامور التى اعاد داج همرشيلد التاكيد عليها آنذاك ان الهدف من وجود قوات الطوارىء الدولية فى الكونغو كان استعادة النظام والاستقرار الداخلى ومنع تحول الحرب الأهلية الى صراع بين الدول الكبرى ، واضاف ان هذه القوات الدولية لا تستطيع أن تفرض أوضاعاً معينة بالقوة حيث ان مثل هذا الأمر لم يكن داخلا فى اطار المسئولية الدولية لهذه الوحدات البوليسية ، وبمعنى آخر ، فان الامم المتحدة قد أعلنت التـزامها بموقـف الحياد تجاه كل من الحكومة المركزية فى ليوبولدفيل

---

(٣٠) Forging World Peace, op. cit. PP. 267 — 268.

والحكومة الانفصالية فى كاتانجا ، وذلك بالرغم من ان حكومة كاتانجا رفضت دخول القوات الدولية الى أراضيها . وقد بلغ عدد هذه القوات حوالى عشرين الفا وكانوا ينتمون فى غالبيتهم العظمى الى الدول الافريقية ، وذلك انسجاماً مع اتجاه السكرتير العام الذى راى ان يكون تحمل العبء الأكبر فى تكوين هذه القوة الدولية بواسطة الدول الافريقية المجاورة للكونغو . وقد بلغت تكاليف الاحتفاظ بهذه القوة الدولية فى الكونغو حداً خيالياً حيث بلغت فى وقت من الأوقات حوالى عشرة ملايين دولار شهرياً ، الأمر الذى أرهق كاهل المنظمة الدولية وحملها اعباء مالية فوق طاقتها على النحو الذى سنتعرض له بالتحليل بعد قليل .

وقد اتسع نطاق العمليات التى تقوم بها القوات الدولية فى الكونغو عقب وفاة باتريس لومومبا فى عام ١٩٦١ ، وذلك على اثر توصية قدمت الى مجلس الأمن بهذا المعنى . وقد اشتمل الاتساع فى مسئولية القوات الدولية على عدة امور منها : العمل على تطهير اراضى الكونغو من المرتزقة الأجانب (Mercenaries) ، وانهاء أوضاع الفوضى والاضطرابات السائدة حتى ولو اضطرت هذه القوات الى القتال تنفيذاً لمهامها الجديدة . ومن أجل ذلك تحركت قوات الامم المتحدة الى كاتانجا برغم العقبات التى وضعها تشومبى فى طريق هذه القوات . وقد استمر وجود قوات الامم المتحدة فى الكونغو حتى منتصف عام ١٩٦٤ حين سحبت عقب القضاء على حركة الانفصال التى قادها وتزعمها تشومبى وبعد أن كانت ازمة تمويل هذه القوات قد وصلت ذروتها (٣١) .

(د) ـ الامم المتحدة وعملية حفظ السلام فى قبرص :

أما الأزمة الدولية الثالثة التى تدخلت فيها الامم المتحدة بقوات دولية فهى الازمة القبرصية التى نشأت بسبب الصراع بين القبارصة الأتراك والقبارصة اليونانيين ، وكادت ان تتحول فى نهاية الأمر الى حرب حقيقية بين تركيا واليونان ، مهما كان يمكن ان ينتهى اليه هذا الوضع المتفاقم من حدوث مواجهة مسلحة بين الكتلتين الغربية والسوفييتية فى منطقة البحر الأبيض المتوسط .

لذا فقد أصدر مجلس الأمن توصية تدعو الى انشاء قوة دولية ترسل الى قبرص ، وترك أمر تحديد حجمها وكيفية تشكيلها لتقدير السكرتير العام للامم المتحدة بالتشاور مع كل من قبرص وتركيا واليونان وبريطانيا . وقد حددت مهام هذه القوة الدولية فى اطار المحافظة على السلام والأمن الدوليين فى المنطقة ، والحيلولة دون تجدد الاشتباكات المسلحة فى قبرص ، والعمل لاستعادة النظام والاستقرار الى تلك الجزيرة المضطربة . اما نفقات بقاء هذه القوات فى قبرص فقد رؤى أن تتحملها الدول التى تشارك بوحدات فى هذه القوات وكذلك قبرص ، وغير ذلك من المشاركات المالية الاختيارية . وقد حددت فترة عمل هذه القوات أول الأمر بثلاثة اشهر تبدأ فى ٤ مارس ١٩٦٤ .

---

(٣١) راجع فى ازمة الامم المتحدة فى الكونغو :

Authur L. Burns & Nina Heathcote. "The United Nations as a Peace Preserving Force" in "International Stability: Military Economic & Political Dimensions", edited by Dale Heknuis and others, (John Wiley & Sons, Inc., New York, 1964) pp. 261 — 289.

Rene, Maheu "The Triple Role of International Organizations Today" in "The Theory and Practice of International Relations" edited by William Olson and Fred Sondermann, op. cit. pp. 423 — 428.

Stanley Hoffmann, In Search of the Thread; The UN in "the Congo Labyrnith" in "The United Nations Political System" op. cit pp. 230 — 261.

وقد تكونت هذه القوة الدولية فى البداية من حوالى سبعة آلاف فرد يتبعون كندا وايرلندا وفنلندا والدنيمرك والنمسا والسويد وبريطانيا . وفى الواقع ان اشراك وحدات بريطانية فى هذه القوة جاء خرقاً للمبدأ الذى كان قد اتفق عليه واستقر الرأى على الأخذ به ، وهو ابعاد الدول الكبرى عن المشاركة بعناصر منها فى هذه القوات منعاً لحدوث مشاكل أو مضاعفات محتملة . غير أن العرض الذى تقدمت به بريطانيا للمشاركة فى تدعيم هذه القوة الدولية لم يلق اعتراضاً من الدول الممثلة فى مجلس الأمن آنذاك . وفضلاً عن المشاركات التى قدمتها هذه الدول ، فقد قدمت كل من النمسا واستراليا ونيوزيلندا والدنيمرك والسويد وحدات صغيرة من البوليس المدنى للقيام ببعض المهام التى تتطلبها عملية حفظ السلام فى قبرص . اما تكاليف هذه القوات فقد وصلت الى ما يقرب من ثلاثين مليون دولار سنوياً ، ووصل عدد الدول التى شاركت بطريقة اختيارية فى تحمل جانب كبير من هذه النفقات سبع عشرة دولة ، بالاضافة الى الأنصبة التى دفعتها قبرص واليونان وتركيا وبريطانيا . ومن بين هذه الدول الاحدى والعشرين كانت احدى عشرة دولة عضواً فى حلف الاطلنطى ، وهذا منطقى ومفهوم على اعتبار أن طرفى المواجهة فى الأزمة القبرصية كانا دولتين عضوين فى هذا الحلف (٣٢) .

(هـ) ـ الامم المتحدة ومشكلة تمويل عمليات حفظ السلام فى العالم :

لقد المحنا بايجاز الى النفقات المرهقة التى تتكلفها الامم المتحدة فى عمليات حفظ السلام فى العالم ، وهذا العبء المالى الذى يفوق طاقة المنظمة الدولية كاد أن يمنعها فى وقت من الأوقات من الاستمرار فى تحمل هذه المسئولية الحيوية . وقد ثارت هذه المشكلة أول ما ثارت عند تكوين قوة الطوارىء الدولية التى ارسلت الى منطقة الشرق الأوسط فى أعقاب نشوب حرب السويس فى عام ١٩٥٦ . ففى ذلك الوقت اقترح السكرتير العام للامم المتحدة أن يتم تحديد مشاركات الدول فى تمويل عمليات حفظ السلام على أساس أنصبتها فى ميزانية المنظمة الدولية عن عام ١٩٥٧ ، ولكن اتجاهات الدول اختلفت جذريا بصدد هذا الاقتراح :

(أ) فالولايات المتحدة ـ وتؤيدها بعض الدول الغربية ـ حبذت اقتراح السكرتير العام ورأت أن تنفيذه كان حاسما بالنسبة لمستقبل المنظمة الدولية .

(ب) الاتحاد السوفيتى وقد عارض الاقتراح وانتقده على اساسين ، أولهما أن الدول المعتدية هى التى يجب ان تتحمل نفقات هذه القوات باعتبار أنها المسئولة عن خلق هذه الأزمة وكل ما يرتبط بها من أوضاع ، وثانيهما أن تشكيل قوة الطوارىء الدولية كان اجراءً غير قانونى وغير دستورى على أساس أن الجهاز المسئول عن ذلك هو مجلس الأمن وليس الجمعية العامة .

(جـ) معظم الدول الصغيرة ـ وقد وافقت من حيث المبدأ على المشاركة فى تمويل عمليات حفظ السلام ـ لكنها قصرت مشاركتها على أضيق الحدود ورأت أن تدفع الدول الكبرى النسبة العظمى من نفقات تمويل هذه القوات ، وذلك فى مقابل الامتيازات الضخمة التى يؤثرها بها الميثاق .

وقد قدمت توصية فى ذلك الوقت تدعو كل الدول الى المشاركة فى تمويل هذه العمليات ،

---

(٣٢) Jack Plano & Robert Riggs, Forging World order, op. cit. pp. 271 — 273.

ومررت التوصية بأغلبية ٦٢ صوتا ومعارضة ٨ وامتناع ٧ دول عن التصويت ، والكتلة السوفيتية هي وحدها التى صوتت ضد هذه التوصية ، وقد وعدت الولايات المتحدة بعمل مشاركات مالية اختيارية لتعويض النقص فى الامكانيات المادية لبعض الدول (٣٣) .

ولكن المشكلة الاخرى التى ثارت لم تكن حول الموافقة على مبدأ مشاركة كل الدول فى المسئولية المالية لهذه العمليات ، وانما فى الكيفية التى يجب ان تتبع لتحصيل هذه المشاركات والأنصبة ، وكان موقف السكرتير العام أن هناك التزاما قانونيا يفرض على كل الدول عدم التخلف عن الدفع ، وقد تجددت هذه المجادلات مرة اخرى وبشكل اكثر عنفاً وحدة مع الأزمة المالية التى تعرضت لها الامم المتحدة بسبب عملية حفظ السلام التى قامت بها فى الكونغو ، حيث بلغت تكاليف هذه القوات حسبما جاء فى تقديرات السكرتير العام فى ٢٤ اكتوبر ١٩٦٠ حوالى ستة وستين مليون دولار . وقد ركز السكرتير العام من جديد على مبدأ المسئولية الجماعية لكل الدول فى تحمل هذه النفقات . وبرغم أن الاتحاد السوفيتي وافق فى مجلس الأمن على تكوين هذه القوة الا انه رفض المشاركة فى تحمل نفقاتها وطالب بأن يتحمل الاستعماريون البلجيكيون العبء الأكبر منها على أن يتم تحصيل النفقات الباقية على أساس اختيارى بحت ليس فيه الزام للدول الأعضاء .

وقد أحال السكرتير العام المشكلة الى اللجنة الخامسة التابعة للجمعية العامة واوضح طبيعة المشكلة المالية ، وما يترتب على تخاذل بعض الدول من اضرار بعمليات حفظ السلام التى تقوم بها المنظمة الدولية .

وعلى الفور أقرت اللجنة توصية قدمتها الباكستان وتونس والسنغال وايدتها الولايات المتحدة ودعت فيها الى جمع مبلغ ٤٨ مليون دولار على أساس أنصبة الدول فى ميزانية الامم المتحدة لعام ١٩٦٠ ، واكدت اللجنة ان هذه الأنصبة ملزمة قانونياً للدول فى اطار المادة ١٧ من الميثاق ، كما دعت حكومة بلجيكا الى عمل مشاركة مالية على نحو اكبر فى تمويل هذه العمليات ، كما اقرت فكرة المشاركات الاختيارية .

وفى عام ١٩٦١ قدرت تكاليف هذه القوات بمائة مليون دولار ، ونظراً لضخامة هذا المبلغ فقد حدث انقسام داخل اللجنة الخامسة وبخاصة بين الدول الكبرى ، فبينما وافقت الولايات المتحدة على زيادة نصيبها الى عشرة ملايين دولار ورفع مشاركتها الاختيارية الى اكثر من أربعة ملايين دولار ، عارض الاتحاد السوفيتي باعتبار أن عملية حفظ السلام فى الكونغو كانت تدخل فى اختصاص مجلس الأمن بمقتضى المادة (٤٨) ، ولم يكن للجمعية العامة سلطة اتخاذ قرار بشأن هذا الموضوع ، ومن هنا أعلن الاتحاد السوفيتي أن موضوع تمويل عملية حفظ السلام فى الكونغو لا تدخل فى اطار المادة (١٧) وانما فى اطار الاتفاق الاجماعى فى مجلس الأمن . وقد اعترض السكرتير العام على وجهة النظر السوفيتية قائلا ان نقل مبدأ الاجماع بين الدول الخمس الكبرى الى الموضوعات المالية سيشل هذه العملية التى تقوم بها الامم المتحدة فى الكونغو .

---

(٣٣) John G. Stoessinger, "The United Nations Financial Crisis and the Superpowers" in, World Crisis, edited by Frederick Hartmann, (The Macmillan Company, New York, 1967) pp. 127 — 128.

ولكن اللجنة الخامســـة مررت توصـية بأغلبية كبيرة دعت فيها الى جمع المائة مليون دولار المطلوبة لاستمرار عمليات حفظ السلام فى الكونغو على أساس انصبة الدول لعام ١٩٦٠ ، كما دعيت الدول الخمس الكبرى وبلجيكا الى زيادة نطاق مشاركاتهـا الاختياريـة ، وقد عارضـت هذه التوصية الكتلة السوفيتية والمكسيك وبلجيكا ، بينما امتنعت عن التصويت كل من فرنسا وجنوب افريقيا ورفضتا الدفع (٣٤) .

وقد بلغت جملـة ديـون المنظمة الدوليـة بسبب عمليات حفظ السلام فى يونيو عام ١٩٦٢ اكثر من مائة مليون دولار ، ويرجع ذلك ـ كما رأينا ـ الى ان بعض الدول الكبـرى امتنعت عن الدفع وهى الاتحاد السوفيتي وفرنسا ، كما ان الصين الوطنية تخلصت هى الاخرى من الدفع ، وبذا أصبحت عملية حفظ السـلام تعتمد على المشـاركة الماليـة التى تقدمها دولة واحدة هى الولايات المتحدة التى بلغت مشاركتها فى نفقات هذه العملية حوالى ثلاثة واربعين فى المائة فى عام ١٩٦١ ، وان كان الاتحاد السوفيتي وفرنسا قد قبلا فيما بعد أن يدفعا ديونهما المتخلفة عن هذه العمليات للامم المتحدة .

ومن هذه العملية التى تحيط بالأزمة المالية للامم المتحدة بسبب عمليات حفظ السلام يمكننا ان نقرر الامور التالية :

(١) ان الاختلاف بين الدول الكبرى حول موضوع المشـاركة المالية لا يرجع الى اختلاف هذه الدول حول مبرر وجـود المنظمة الدولية ، فكلهـم متفقون على هذا ، ولكن يرجع الى رغبة بعض هذه الدول فى الابقاء على أجهـزة المنظمة الدولية دون تطوير ، والى رغبة البعض الآخر فى تطويرها على نحـو أكثر فعالية ، ومثـال ذلك السؤال الذى انقسمت بسـببه الدول الكبرى وهو : هل تظل مسئولية حفظ السـلام مناطة بمجلس الأمن وحده حتى مع التعطيل الذى ينشأ بسبب سوء استخدام الفيتو ، أم ينقل جانب هام من هذا الاختصاص الى الجمعية العامة .

(٢) لم يكن موقـف الاتحاد السـوفيتي الرفض التام والمستمر لكل عمليات حفظ السلام التى قامت بهـا الامم المتحدة وانما كان يتراوح اتجاهه بين القبول ـ ولو على مضض ـ لبعضها ، والمعارضة الصريحة لبعضها الآخر ، كما اختلفت اتجاهاته أحياناً فى خلال العملية الواحدة مثلما حدث فى الكونغو .

(٣) ان اتجاهات الدول التى توافق على هذه العمليات تختلف أيضاً من حيـث تصويتها على تحديد الأنصبة والمشاركات المالية .. الخ ، اى انها توافق على المبدأ ولكنها قد تختلف حول التنفيذ .

(٤) ان اتجاهات الدول من عمليات حفظ السلام لا تحكمها اعتبارات المبادىء المجردة ولكن اعتبارات المصلحة القومية ، ومن هنا تصبح الأزمة المالية بمثابة انعكاس للأزمة السياسية التى تنشأ حول أنسب اطار لدور هذه القوات ، واسلوب قيادتها وتوجيهها .

(٥) انه مما يضعف هذه العمليات أن تنفذ فى مواجهة احدى الدول الكبرى حتى ولو كانت هذه المعارضة حول المسئولية المالية (٣٥) .

---

(٣٤) Ibid, p. 130.

(٣٥) Ibid, pp. 140. — 142.

(و) ـ الامم المتحدة وازمة الشرق الأوسط :

لقد واجهت الامم المتحدة اختباراً قاسياً لمقدرتها على تطبيق نظام الأمن الجماعى فى عام ١٩٦٧ بعد وقوع حرب يونيو بين الدول العربيةواسرائيل ، وهى الحرب التى ترتب عليها وقوع شبه جزيرة سيناء وغزة ورفح والعريش وشرم الشيخ ومرتفعات الجولان والضفة الغربية من الاردن والأجزاء العربية من القدس تحت الاحتلال الاسرائيلى . وبالرغم من ان احتلال هذه الأراضى العربية يعتبر عملاً سافراً من أعمال العدوان والاغتصاب ، وتهديداً خطيراً لأوضاع السلام والاستقرار فى الشرق الأوسط ، الا أن الامم المتحدة لم تفلح فى اتخاذ اجراءات رادعة تضمن اجلاء اسرائيل عن هذه الأراضى التى تحاول تهويدها والقضاء على عروبتها بكل الأساليب غير المشروعة .

وكان الشيء الوحيد الذى استطاعت الامم المتحدة ان تتوصل اليه هو القرار الصادر عن مجلس الأمن فى ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٧ الذى ينص على ضرورة انسحاب اسرائيل من هذه الاراضى فى مقابل انهاء حالة الحرب فى المنطقة ، والتوصل الى حدود آمنة ومعترف بها لكل الأطراف الداخلة فى هذا الصراع ، وما الى ذلك من الترتيبات المتعلقة بتنظيم حقوق المرور فى الممرات المائية .. الخ . الا أن اسرائيل لجأت الى تكتيك المناورة والتعطيل ، وحاولت تعقيد تنفيذ هذا القرار بأن اشترطت عقد مفاوضات سلام مباشرة بين الدول العربية واسرائيل ، وهو أمر رفضته الدول العربية فى أى مظهر من مظاهره ، وسواء تم بالطريق المباشر أو غير المباشر ، وذلك انطلاقاً من حقيقة أساسية وهى أن اسرائيل قامت منذ بدايتها على الاغتصاب والاحتلال ، وهى امور لا ترتب لها أى كيان شرعى يعترف به العرب ، ويسلمون بما يرتبط به من نتائج .

وقد اتضح من الاجراءات التى نفذتها ، ولاتزال تنفذها اسرائيل فى الأراضى العربية المحتلة ان لها أطماعاً عدوانية توسعية لم تعد تخفى على المجتمع الدولى او الرأى العام العالمى ، وأن ما تقوله من دعاوى السلام والحاجة الى اتفاقات صلح تأتى بوسيلة المفاوضات المباشرة ، ليس الا من قبيل كسب الوقت لتوطيد أقدام احتلالها فى هذه المناطق ، واكسابها مسحة من الشرعية ، ووضع العالم كله أمام الأمر الواقع وجعله يقبل به . وفى مواجهة ذلك كله ، اثبتت الامم المتحدة عدم قدرتها على الارتفاع الى مستوى هذه الأزمة الخطيرة التى يسببها استمرار العدوان الاسرائيلى فى منطقة الشرق الأوسط ، وهو أمر تأكد تماماً خلال ما انتهت اليه المشاورات الدبلوماسية التى أجراها الوسيط الدولى جونار يارنج ، وكذلك حسبما دلت عليه مشاورات الدول الأربع الكبرى ، بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، وهى الدول التى يفترض فيها انها تتحمل أكبر قسط من المسئولية تجاه اقرار السلام والأمن فى العالم بأسره .

لقد كان بامكان الامم المتحدة ان تتخذ تدابير قمع ضد اسرائيل تجبرها فى النهاية على انهاء احتلالها ، ولكن يبدو أن الدعم العسكرى والدبلوماسى والدعائى الذى تحصل عليه اسرائيل من بعض الدول الكبرى فى مجلس الأمن ، هو الذى يزيد من عنادها ويجعلها تستمر فى اتباع سياساتها العدوانية رغم ما فيها من انتهاك صارخ لميثاق الامم المتحدة . وهذا الوضع اذا ما استمر أبعد مما وصل اليه ، فقد يهدد بالتحول الى مواجهة نووية مباشرة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، وهو أمر لن يكون فى صالح المجتمع الدولى كله بحال ، وعندئذ سيكون فشل المنظمة الدولية فى تنفيذ نظام الأمن الجماعى بالحزم المطلوب هو السبب وراء وقوع كارثة الحرب تماماً كما كان تخاذل عصبة الامم وراء كارثة الحرب العالمية الثانية .

(ثالثاً) تقييم نظرية الأمن الجماعى فى العلاقات الدولية المعاصرة :

ننتقل فى الجزء التالى الى تقييم نظرية الأمن الجماعى فى العلاقات الدولية المعاصرة ، لكى نرى ما اذا كانت الاسس التى ارتكزت عليها النظرية لا تزال متفقة منطقياً مع الواقع الدولى الراهن ؛ أم أن هذا الواقع قد أفقد هذه الاسس القوة التى استند عليها دعاة النظرية منذ أن انبثقت الى حيز الوجود فى أعقاب الحرب العالمية الاولى وبالشكل الذى تطورت اليه بعد الحرب العالمية الثانية ممثلة فى الامم المتحدة ونظام الأمن الجماعى الذى أوجدته .

يعتقد البعض وعلى راسهم انس كلود ، ان سجل العلاقات السياسية الدولية منذ انتهاء الحرب الثانية يبين الى حد كبير كيف ان مؤسسى الامم المتحدة قد غالوا فى تقدير امكانات نظام الأمن الجماعى فى ردع العدوان حتى ولو لم تساند هذا العدوان قوة أى من الدول الكبرى فى المجتمع الدولى . بل ان كل الشواهد – فى رايهم – تنفى نية الدول الأعضاء فى الامم المتحدة للانضمام الى مثل هذا النظام – وسواء كان نطاق التطبيق عالمياً أو محدوداً – أو على الأقل فى اطار المؤسسات الحالية لهذه المنظمة الدولية .

وعدم الالتزام بايديولوجية الأمن الجماعى كمعيار لسلوك الدول فى اطار هذا التنظيم الدولى أى الامم المتحدة ، يرجع فى جانب رئيسى منه الى فقدان الاقتناع من جانب هذه الدول بأن الأمن الجماعى ، بصيغته الراهنة وفى ظل الظروف القائمة ، يمكن أن يشكل استجابة واقعية وملائمة لمشكلة ادارة علاقات القوى العالمية بطريقة تضمن توجيهها فى النهاية نحو هدف السلام والاستقرار . فنظام الأمن الجماعى ربما كان أكثر تلاؤما على مراحل سابقة من تطور النظام الدولى . أما الآن ومع التغييرات العميقة الجذور التى طرات على كل جانب من جوانب النظام الدولى ، والتى حدث جانب كبير منها تحت ضغط التطورات التكنولوجية العسكرية ، فان الأمن الجماعى لم يعد قادراً على توفير صيغة دولية مناسبة لمشكلة الحرب والسلام فى المجتمع الدولى المعاصر .

فالحرب التى قام تصميم نظام الأمن الجماعى على مو جهتها وردع الأطراف التي تثيرها ، هى تلك الحرب التى تدخل فى اطار المواصفات التقليدية القديمة ، أى الحروب ذات الخصائص الاستراتيجية والتكتيكية الكلاسيكية ، حيث كانت هذه الحروب تسمح بحشد الجيوش وتعبئتها على فترة طويلة نسبياً ، بما كان من شأنه أن يدعم فعالية نظم الأمن الجماعى على مجابهة التحديات التى تخلقها هذه الحروب العدوانية ، لأن الدول الأطراف في نظم الامن الجماعى كان يمكنها أن تمارس أساليب المقاطعة الاقتصادية ضد العدوان ، كما كان بامكانها أن تنسق امكاناتها وطاقاتها العسكرية فى مواجهته ، والدخول كتحالف او كتجمع منظم من الدول التى تشارك فى مسئولية تصفية العدوان .

وهذه الحروب التقليدية قد تغيرت طبيعتها تماماً بسبب التطورات التكنولوجية العسكرية منذ سنة ١٩٤٥ حيث أدت الأسلحة الهيدروجينية والنووية وأسلحة الصواريخ الى مشكلات استراتيجية تمس بطريق مباشر وحاد الكيفية التى تنفذ بها نظم الأمن الجماعى فى العلاقات الدولية . فقد أصبح من غير المتصور مثلاً أن يكون لنظام الأمن الجماعى الذى تطبقه الامم المتحدة أى آثار رادعة فعالة على التصرفات العدوانية التى ترتكبها احدى القوى النووية الكبرى فى المجتمع الدولى . كما أن التطور المذهل فى أساليب الهجوم المفاجىء يجعل من المستحيل عملياً على هذه الدول أن تتجمع فى اطار تحالف عريض لمعاقبة العدوان ، ولا تكون هناك فرصة بالمرة لخلق مثل هذه المخالفات والتجمعات الدولية كما كان الحال فى الماضى ، وقد وصف كلود هذا

التغيير الخطير فى طبيعة الجوانب الاستراتيجية للحرب النووية الحديثة بقوله ان السرعة المتناهية ـ التى لا تكاد تصدق ـ للحرب الحديثة ربما ادت الى تدمير الدولة التى يستهدفها العدوان قبل أن تتمكن أى من المؤسسات التى يقوم عليها تنفيذ نظام الأمن الجماعى من اتخاذ اجراء حول كيفية مواجهة العدوان ، ناهيك عن النتيجة الخطيرة الاخرى ، وهى أن الحرب ربما تكون قد انتهت تماماً حتى قبل أن يتم تحديد المعتدى .

ويضيف كلود الى تحليله السابق بعداً آخر فيقول ان القدرات التدميرية الهائلة للحرب النووية قد اضعفت كثيراً من ميل الدول الى الاعتماد على نظم الأمن الجماعى فى مجابهة المشكلات المتعلقة بأمنها القومى ، وذلك ان دعم الوجود القومى للدول فى مواجهة تحدى الحرب النووية اصبح يحتم عليها ان توفر من امكانات الحماية الذاتية ما يغنيها عن حماية جماعية مشكوك فى قيمتها على الاطلاق . ومن هنا فان الظروف الاستراتيجية والعسكرية التى تحيط بتطبيق نظام الأمن الجماعى فى عالمنا المعاصر اصبحت تختلف شكلاً وموضوعاً عن الحقائق العسكرية لعالم فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى .

ولا تقتصر صعوبات تطبيق نظام الأمن الجماعى فى اطار الواقع المعاصر للعلاقات السياسية الدولية على التغييرات التى احدثتها الثورة التكنولوجية فى الطبيعة الاستراتيجية للحرب الحديثة ، وانما تتعداها الى امر آخر يتعلق بظاهرة انقسام العالم الى كتلتين دوليتين متصارعتين (Bipolavization) فلم يعد هناك ذلك الوضع الذى ساد فى فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى حيث وجدت عدة دول كبرى متقاربة من حيث توزيعات القوى بالاضافة الى عدد كبير من القوى الصغيرة . وكانت هناك مرونة أكبر فى تصرفات الدول بسبب عدم تقيدها فى اطار احدى الكتلتين ـ سياساً وايديولوجياً واستراتيجياً وعسكرياً ـ كما يحدث اليوم ، ومثل هذا الوضع القديم كان ادعى الى تطبيق نظام الأمن الجماعى بفاعلية أكبر نسبياً بكثير من امكانية تطبيقه فى ظل نظام القطبية الثنائية ، فالصراعات والتصادمات التى تقسم الكتلتين لا تسمح بفرصة اتخاذ وتنسيق ترتيبات جماعية مشتركة لردع العدوان وتصفيته ، فاحتمالات الخلاف بين الكتلتين اكبر بكثير من احتمالات الاتفاق ، هذا فضلاً عن العوامل الدعائية التى تخلعها كل كتلة دولية على موقفها ، وبذا نجد أن المناورات الدعائية والدبلوماسية فى ظل الانقسامات السياسية والايديولوجية والاستراتيجية تجعل من الصعب ـ أن لم يكن من غير الممكن ـ تنفيذ نظام الأمن الجماعى على اى نحو فعال فى عالمنا المعاصر .

ثم هناك عامل آخر يبرز مدى الصعوبة الراهنة فى تطبيق نظام الأمن الجماعى ، وهو العامل المتعلق بموضوع العدوان والمعتدى فى المجتمع الدولى . فنظام الأمن الجماعى يقوم فى جوهره على ردع المعتدى الذى يمارس عدوانه وحده وعلى مسئوليته الخاصة وبامكاناته وقدراته الذاتية ، ويعتمد هذا الردع على مقابلته ـ كما شرحنا فيما سبق ـ بالقوة المشتركة لكل الدول الاخرى الأطراف فى هذا النظام . ولكن فى ظل نظام القطبية الثنائية ، لا يكون المعتدى دولة منعزلة تمارس هذه التصرفات وحدها ، وانما قد تكون دولة تتزعم كتلة من الدول وتحت تصرفها رصيد ضخم من امكانات القوة المادية والعسكرية. ومثل هذا الوضع يجعل من غير المجدى تطبيق نظام الأمن الجماعى ، اذ كيف تواجه بعض الدول البعض الآخر بقوة قد يكون مشكوكاً فى فعاليتها وقدرتها على ردع العدوان اطلاقاً . فالأمن الجماعى يحقق مفعوله فى ردع العدوان حين يجابهه بتفوق ساحق لا قبل له على مواجهته أو تحديه ، ولكن عندما يضبح هذا التفوق أمراً لا

وجـود له ، فان الردع سـيفقد كل تأثـير له ،وحينذاك يمكن للمعتدى أن يجنى ثمار عدوانه بعيدا عن اى مظهر من مظاهر العقاب الدولى ،وبدلاً من ان يجد المعتدى نفسه منعزلاً فى المجتمع الدولى ، سيجد نفسه مدعماً بقوة عدد من الدول الاخـرى التى ترتبط معه برباط من السياسات والمصالح المشتركة .

وما دمنا بصدد تحليل الصـعوبات التى يثيرها موضوع العدوان والمعتدى فى تطبيق نظم الأمن الجماعى ، فان هناك اعتباراً آخر لا بد ان يكون ماثلاً فى أذهاننا ، وهـو أن نظـرية الأمن الجماعى تؤكد فى أساسها وبصفة خاصـة على عنصر التيقن عند تحديد المعتـدى أو مصـدر العدوان ، لأن الاجتهاد فى هذه الناحية قد يخلق ثغـرات تفقد الأمن الجماعى فعاليته فى الردع . فالاجتهاد قد يخلق مجالاً للانقسـام ولاختلاف الآراء مما قد يغرى المعتدى ويشجع على العدوان استناداً الى أنه لن يكون فى مقدور الدول الأعضاء فى نظام الأمن الجماعى أن تتفق على ما يعنيه هذا العدوان بالنسبة للسلام الدولى . والحادث اليوم هو انه ليست هناك معايير موضوعية متفق عليها من قبل الدول كلها ويمكن من خـلالها تفسـير العدوان بطريقة موحدة ، ومن ثم اتخاذ اجـراء جماعى مشـترك فى مواجهته . ويزيد من تعقيد المشـكلة أن التحديد أو التصـور القديم لمفهوم العدوان قد اختلف كثيراً بسبب التطـور الذى ادخلته الحرب الباردة على هذا المفهوم . فالمظهر الرئيسي للعدوان قبل نشوء ظاهرة الحرب الباردة كـان ينحصر فى الغـزو العسكـرى الـذى تمارسه دولة ضد دولة اخرى ، اما اليـوم فان العدوان يتنوع وقد يأخذ مظهراً او اكثر من المظاهر الآتية : الحرب ضد دولة اخـرى بالطـريق غير المباشر مثل ارسال المتطوعين (أو ما يطلق عليه War-by Proxy) ، والحـرب الأهليـة التى تتدخل فيها الدول الأجنبيـة ، والتمرد الذى تشجع عليه دولة بعض الجماعات فى اقليم دولة اخرى ، والتغلغل والتخريب .. الخ ، وهى امور تفسح المجال لتأويلات مختلفة فيما يتعلق بتحديد طبيعتها العدوانيـة ونوعية الاجـراءات الدولية المشتركة التى تناسبها .

ويضيف الى الصـعوبات سـالفة الذكـر صعوبة اخرى لا تقل من حيث اهميتها ، وهى ان تطبيق نظام الأمن الجماعى بنجاح ، يستوجب اول ما يستوجب ، وجود قيادات سياسية قادرة على أن تخلق وعياً وتقديراً للسـلام الدولى يفوق فى تأثيره التفوق الهائل الحالى لفكرة المصالح القومية ، أو على الأقل تحاول ان تربط المصـلحة القومية بتحقيق السلام والاستقرار الدولى ، حتى اذا ما حدث تهديد لهذا السلام كانت هنـاك استجابة عالمية اوتوماتيكية لهذا التهديد ، وبمعنى آخر فان التطبيق الفعال لنظام الأمن الجماعى يجب ان يتم فى اطـار المبدأ الذى يقـول ان ما يحقق الخـير للمجتمع الـدولى يحقق الخـير للدولة ، وليس العكس . ولا زال المجتمع الدولى بأوضاعه الراهنة بعيداً عن الوصول الى هذا الاعتقاد ، اذ أن المصالح القومية لا زالت تقسم الدول ضد بعضها البعض بشكل خطير وحاد .

ومن ناحية اخـرى ، فان التطبيق الفعال لنظام الأمن الجماعي لا يتطلب فقط ربط المصلحة القومية دوماً وباستمرار بمصلحة دولية عامة وهى السلام والاسـتقرار لكل الدول ، وانما يتطلب ايضاً أن تتنازل الدولة عن سـيادتها وحريتهـا القومية فى مجال حيوى ، وهو مجال السياسـة الخارجية ، أى أن على الدولة أن تتخلى عن كل مظهر من مظاهـر التحيـز القومى ضـد الدول

الاخرى ، وأن تشارك مع المؤسسات الدولية فى دفع العدوان عن أى دولة تتعرض له مهما كان هناك من تعارض فى الميول والاتجاهات القومية . ومثل هذا الوضع لا يمكن الادعاء بأننا قد وصلنا اليه أو أننا بصدد الوصول اليه فى المستقبل القريب .

بقى أن نشير الى عامل آخر عقد الامور من جملة الأوضاع التى ذكرناها ، وزاد من أزمة المنظمة الدولية وتسبب فى عجزها عن تحمل مسئولياتها نحو حفظ السلام والأمن الدوليين ، الا وهو سوء استخدام **حق الفيتو** من جانب بعض الدول الدائمة فى مجلس الأمن ، واتخاذ سلطة الفيتو وسيلة للتعويق والضغط والمناورة وفى ظروف لم تكن لتسمح بالتسويف فى اتخاذ قرارات حاسمة لمواجهة النزاعات والأزمات الناشبة فى بعض المناطق الاستراتيجية من العالم . لقد كان معنى هذا تجميد قدرة المنظمة الدولية على التصرف ، واعطاء المعتدى فسحة من الوقت يستطيع معها أن يحقق الأهداف التى يرمى اليها من وراء عدوانه .

من هذا كله ، نستطيع ان نتبين بوضوح الصعوبات الكامنة فى بيئة العلاقات الدولية الراهنة بالشكل الذى يجعل من تطبيق نظام الأمن الجماعى بفعاليته أمراً مشكوكاً فيه ، وهو الاعتبار الذى حدا بكثير من الدول الى اقامة ترتيبات أمن خاصة بها خارج نطاق الامم المتحدة وان كانت كلها تدعى أنها تدعيم وتأكيد المبادىء والأهداف التى ارساها ميثاق المنظمة الدولية ، وهو الأمر الذى أشرنا اليه فى موضع سابق من هذا البحث .

واذا جاز لنا أن نقول كلمة فى ختام هذا البحث ، فهى أن طغيان تأثير المصالح القومية على سياسات الدول الخارجية ومخططاتها الاستراتيجية ، وهو تأثير لا نعتقد انه سيضعف أو يتلاشى فى المستقبل القريب على الأقل ، يهدم الركيزة الاولى التى يستند عليها التطبيق الناجح لأى نظام للأمن الجماعى ، الا وهى تغليب الرغبة فى حماية السلام والاستقرار على ما عداها من الاعتبارات القومية الضيقة . ان فشل الأمن الجماعى سيعنى استمرار الصراع ، وتجدد العدوان ، وتفاقم التوترات الدولية على نحو قد يدفع العالم كله الى كارثة حرب عامة لم يعد أحد يقدر على تصور عواقبها مهما جنح به الخيال ، وهى الحرب التى قال خروشوف فى وصفها : **ان الأحياء فيها سيحسدون الأموات** ، وليس هناك أبلغ من تصوير لكارثة الحرب النووية من هذا القول ، والذى يشارك فيه كل من يدرك عن قرب فظائع الحرب النووية وأخطارها المروعة .

★ ★ ★

حازم الببلاوى *

الحقائق الإقتصادية والفن القانونى

مقدمة : القانون والاقتصاد ـ تحديد مجال البحث :

ـ العلاقة بين القانون والاقتصاد ـ

١ ـ ان موضوع علاقة القانون بالاقتصادموضوع واسع ومتشعب بدرجة يكاد يستحيل معها على اى فرد أن يتناوله وان يوفيه حقه من الدراسة . وموضوع كهذا يمكن أن يدرس من زوايا متعددة يلقى كل منها ضوءاً على طبيعة هذه العلاقة دون أن يكون لأى منها القدرة على استكشاف كل معالم العلاقات المتبادلة بين القانون والاقتصاد وان ساعدت على فهم بعض الجوانب .

فالاقتصاد يتناول كيفية استخدام الموارد المتاحة من أجل اشباع حاجات الانسان والعمل على زيادة هذه الموارد باستمرار ومن ثم زيادة الاشباع الممكن . وهكذا يتعرض الاقتصاد لاختيار الجماعة لأهدافها وترتيب أولويات التفضيل بينها ، واختيار وسائل الانتاج اللازمة لتحقيق

* دكتور حازم الببلاوى استاذ الاقتصاد المساعد ـ بكلية الحقوق ـ بجامعة الاسكندرية (مصر) .

هذه الأهداف فى أحسن الظروف . وبالمثل يقتضى ذلك ان يتعرض الاقتصاد لكيفية توزيع الانتاج الناجم من هذا النشاط على مختلف الطبقات الاجتماعية وما يرتبط به من توزيع على مختلف الصناعات. ولا يتوقف الاقتصاد عند هذه المشاكل **للاختيار** بين الأهداف والوسائل وكيفية التوزيع، بل يتناول أيضاً الاختيار فى الزمان بين الأجيال المتعاقبة . **وهكذا فان الاقتصاد يتناول نشاط الانسان فى الانتاج فى الفروع المختلفة وكيفية توزيع هذا الانتاج بين الاستهلاك والاستثمار ، وتوزيع الاستهلاك بين الطبقات الاجتماعية المختلفة** . وتقوم **النظم الاقتصادية** المختلفة ببيان المؤسسات والقواعد اللازمة لاعطاء حلول لهذه المشاكل الاقتصادية وبيان كيفية تحقيق ذلك فى العمل .

والقانون هو مجموع قواعد السلوك الاجبارية التى تنظم نشاط الأفراد فى المجتمع والتى تتولى تنفيذها جبراً ــ عند الاخلال بها ــ السلطة العليا فى الدولة . واذا كان القانون لا يقوم وحده بحكم علاقات الأفراد بل هناك قواعد اخرى للسلوك وللضوابط الاجتماعية ، فان القانون يعد أهم هذه الضوابط الاجتماعية (١) . والسبب فى ذلك يرجع الى أن القانون يتميز عن غيره من الضوابط الاجتماعية بانه ، ليس مجرد مجموعة من القواعد التى تحكم سلوك الأفراد ، وانما هو نظام هيكلى شامل . كذلك فان القانون يتميز عن غيره من الضوابط الاجتماعية بقيام اعتقاد جماعى بوجوب الاجبار على تطبيق ما يتضمنه من تنظيمات وقواعد . **فالقانون هو عصب الحياة الاجتماعية . بل ان « دوركايم » يرى أنه يقوم فى المجتمع بنفس دور الأعصاب فى الجهاز العضوى** .

ويتضح من مجرد التعريف بموضوعات الاقتصاد والقانون مدى الصلة الوثيقة التى تربط بينهما ، فالقانون يبين الاطار الذى يتم فيه نشاط الانسان ، سواء فى علاقاته الاقتصادية او فى غيرها من العلاقات مثل علاقات الاسرة والزواج . فالعلاقات الاقتصادية تمثل موضوعاً أساسياً للقانون ، ولكنها ليست الموضوع الوحيد ، ومن ثم كانت العلاقات الاجتماعية التى يتناولها القانون بالتنظيم تجاوز ــ فى كثير أو قليل ــ هذه العلاقات الاقتصادية .

ويرى احد كبار فقهاء القانون الذين تركوا أثراً واضحاً على الفكر القانونى المعاصر وهو چينى (F.Geny) أن التكوين العلمى للفقيه يدور بين محورين أساسيين اطلق عليهما اسماء الجوهر أو **المعطى** (donné) ، والصياغة أو المبنى (construit) (٢) . فأما **المعطى** فهو يمثل جوهر القاعدة القانونية والمادة الأولية اللازمة لها كما تظهر من « طبيعة الأشياء » . وأما المبنى فهو صياغة هذا الجوهر بأدوات فنية ووضع طابع شخصى صناعى على تلك المادة الأولية لتتحول القاعدة القانونية الى عمل يؤثر فى سلوك الأفراد . فالمعطى هو نشاط أقرب الى « العلم » ، والمبنى هو « فن » من الفنون (وفقاً لتعريفات چينى) .

وقد أعطى « چينى » أربعة معطيات للنظام القانونى (٣) : معطيات واقعية ، ومعطيات

---

(١) انظر : جلال العدوى ، القانون والاجتماع الانسانى ، مجلة الحقوق ، العددان الثالث والرابع ــ السنة الخامسة عشرة ــ ١٩٧٢ ص ٢٠٢ .

(٢) Cf. F. Gény, Science et Technique en Droit Privé Positif, tome I, Sirey, Paris, 1923, pp., 96 et ss.

(٣) المرجع السابق . جـ ٢ ص ٣٧١ وما بعدها .

تاريخية ، ومعطيات عقلية ، ومعطيات مثالية .وتدخل العلاقات الاقتصادية بين هذه المعطيات . فالموارد الاقتصادية المتاحة وبواعث الأفرادوأهدافهم والفن الانتاجى السائد ودرجة المعرفة الفنية كل ذلك يكون جزءاً من **المعطيات الواقعية** .وما تبلور عبر التاريخ من عقائد وما استقر من تقاليد حول العلاقات الاقتصادية يمثل أيضاً جزءاً من **المعطيات التاريخية** . وبالمثل فان نتائج التجارب السابقة وما يستخلصه العقل البشرىمن أفكار حول الرشادة الاقتصادية وأسلم الطرق لتحقيق الكفاءة الاقتصادية يدخل ضمن **المعطياتالعقلية** . واخيراً فان ما يسود من قيم حول العدالة وكيفية توزيع الثروات والدخول يكون جزءاً من **المعطيات المثالية** .

ولم تخلُ أفكار « چينى » من نقد يرجعبوجه خاص الى المغالاة فى الاعتداد بهذه المعطيات وعدم وضوح الحدود الفاصلة التى تبرزدورها (٤) . ومع ذلك فلا جدال فى أن القانون لا يصدر فى فراغ ، وأنه ينظم الحياة الاجتماعية ومنثم فان جزءاً كبيراً من من اهتمامات القانون لا بد وان تتجه الىتنظيم العلاقاتالاقتصادية السائدة.

ـ طبيعة العلاقة بين القانون والاقتصاد ـ

٢ ـ **وبصرف النظر عن أن موضوع القانون لا بد وان يشمل قدراً كبيراً من العلاقات الاقتصادية ، فقد ثار خلاف كبير بين المفكرينحول طبيعة هذه العلاقة** . فلا يكفى القول بأن النشاط الاقتصادىيمثل جزءاً هاماً منموضوعاتالقانون ، فهناك محل للتساؤل عما اذا كانت هناك علاقة سببية . أو بعبارة اخرى هل نستطيعالقول بأن الاعتبارات الاقتصادية تحكم وتحدد القواعد القانونية ، أم على العكس يؤثر القانونفى التطور الاقتصادى بحيث يخضع علم الاقتصاد لارادة القانون ؟

(أ) ــ الواقع أن الجدل بهذا الصدد يرتبطبوجه خاص بالجدل المستمر بين الأفكار الماركسية والأفكار غير الماركسية حول طبيعة واسباب« **التطور التاريخى** » .

فالماركسيون ــ وهم أصحاب الماديةالتاريخية ــ يرون أنه لكى يستطيع الناس أن يصنعوا التاريخ يجب أولاً أن يتمكنوا من الحياةومن ارضاء حاجاتهم الأولية (٥) . والناس فى سبيل ذلك يدخلون فى صراع مع الطبيعة من ناحيةويدخلون فى علاقات للانتاج من ناحية اخرى . ويرى ماركس أن الانسان فى عملية الانتاج لا يؤثرفى الطبيعة وحدها بل يؤثر الناس فى بعضهم البعض ، فالانتاج لا يتم بعيداً عن هذه العلاقاتالانتاجية . واذا كان الحدث الأول فى تاريخ الانسان هو الانتاج ، فانه يستخدم فى سبيلذلك أدوات معينة بالاضافة الى قوة عمله وما حققه أثناء تجربته السابقة من معرفة وخبرة .وقد أطلق ماركس وانجلز على هذه العناصر اسم **قوى الانتاج** . وفى أثناء القيام بعملية الانتاجيدخل الأفراد فى علاقات متبادلة يتحدد على أساسها بوجه خاص من يملك وسائل الانتاجويتصرف فيها ، وهذه يسميها ماركس وانجلز « **بعلاقات الانتاج** » . ولكل نوع من انواع « **قوىالانتاج** » نوع معين يلائمه من « علاقات الانتاج » .

---

(٤) انظر : شمس الدين الوكيل « نظرات فى فلسفةالقانون » ، مجلة الحقوق . العدد الأول والثانى ٦٤/١٩٦٥ ص ١٢٩ .

(٥) انظر : جلال احمد أمين : الماركسية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٦١ وما بعدها .

ومجموع علاقات الانتاج يكوّن لدى ماركس الهيكل الاقتصادى للمجتمع وهى تمثل البناء الأساسى أو ما يطلق عليه اسم البناء السفلى (infrastructure) ويقوم عليها بناء علوى (superstructure) من القانون والسياسة . فالقانون اذن تعبير عن الاقتصاد وتابع له .

ولكن ليس معنى ما سبق أن الفكر الماركسى يقدم العلاقة بين الاقتصاد والقانون على هذا النحو من التبسيط والسذاجة ، فالعلاقة بينهما ليست علاقة ميكانيكية وانما قد يحدث أن تستمر أوضاع قانونية تعبيراً عن ظروف اقتصادية قديمة وزائلة . وهنا يحدث التناقض ، وهذا التناقض هو أساس التطور . ومع ذلك فان النمط الأساسى فى الفكر الماركسى لا يزال كما تقدم ، وهو أن الأساس هو التطور الاقتصادى ، وأن القانون تعبير وانعكاس لهذا التطور .

ويرى البعض أن فهم القانون وتطوره يقتضى فهم هذه الحقائق الاقتصادية . فاذا كان الفقه التقليدى فى العالم الراسمالى يقف عند الشكل ولا يتعرض للواقع ، باعتبار أن القانون مجموعة من القواعد الملزمة التى تحكم علاقات الناس فى المجتمع ، فان ذلك لا ينبغى أن يعمينا عن فحوى هذه القواعد والى أى هدف تسير وعن أى مصالح تدافع (٦) . فالفقه التقليدى يسلط الأضواء على « الجانب الشكلى فى القانون ... ثم يسدل الستار على الواقع الاجتماعى الذى يعبر عنه القانون الراسمالى ، وهو حماية مصالح الطبقة المالكة » . فالبرجوازية الفرنسية ضمنت قانون نابليون بعد الثورة الفرنسية « المبادىء الثلاثة التقليدية : الملكية حق مطلق ، والعقد شريعة المتعاقدين ، ولا مسئولية بدون خطأ » . أما فى المانيا وحيث لم يكن هناك مجموعة تشريعية مثل قانون نابليون ، فان الدوجماتية اطلقت عقيدة الملكية لصالح الطبقات المالكة ، وكذلك استخدمت التأصيل والتفريع فى مجال المسئولية والخطأ لحماية الطبقات المخدومة . « ودرج القضاء الأمريكى الآتى من صفوف رجال القانون على ابتداع الأفكار القانونية مفترضاً وجودها منذ الأزل ، ثم تطبيقها بطريقة ميكانيكية لحماية مصالح رب العمل » . وفى خلال القرن العشرين وبعد أن تقدمت فرنسا والمانيا وامريكا صناعياً منذ أواخر القرن التاسع عشر ، حدثت تقلبات هائلة فى ظروف الحياة الاقتصادية « حملت البشر على اعادة النظر فيما حولهم من نظم » .

هذا النظر ، الذى لا يرى فى القانون الامجرد تعبير عن الأوضاع الاقتصادية ، يرتبط فى الواقع بفكرة اخرى تكمله ، وترجع الى أساس القانون ذاته وما يتضمنه من قهر . فالقانون يتضمن ارادة جماعية منظمة تفرض على الأفراد ويُوقع جزاء على مخالفة القواعد التى تضعها هذه الارادة . لذلك فان القانون انما يمثل أرقى ، وربما أكفأ ، مظاهر القهر . وتتجه الأفكار الماركسية ذاتها الى النظر الى القانون باعتباره وسيلة للقهر معبرة عن ارادة الحاكم . ففى كل مجتمع هناك حكام ومحكومون ، وارادة الحكام يتضمنها القانون . وهذا الانقسام فى المجتمع بين طبقتى الحكام والمحكومين يمثل فى نفس الوقت تعارضاً وتناقضاً فى المصالح الاقتصادية . ويستخدم القانون لتحقيق وحماية المصالح الاقتصادية الغالبة . واذا كان القانون كوسيلة للقهر مظهراً للتناقض فى المصالح والصراع الطبقى فانه يزول بزوال أسبابه وهى تحقيق الشيوعية ومجتمع بلا طبقات ولا صراع . واذا كانت لا توجد اشارات صريحة عند ماركس نفسه عن زوال

(٦) ثروت انيس الاسيوطى « المنهج القانونى بين الراسمالية والاشتراكية » ، مجلة مصر المعاصرة ، عدد يوليو ١٩٦٨ وعدد ابريل ١٩٦٩ .

الدولة والقانون بعد اقامة الاشتراكية ، فاننا نجدنصوصاً صريحة متعددة عند زميله انجلز فى هذا المعنى(٧) ، بالاضافة الى ما يفهم ضمناً من تحليلماركس نفسه .

(ب) ــ وجهة النظر المتقدمة لا يمكن قبولهاعلى اطلاقها ، حقاً لا جدال فى أن الظروف الاقتصادية تطبع القانون بآثار بعيدة لا يمكنانكارها بل ان الجزء الأكبر من القواعد القانونية انما يتجه لاعطاء حلول لمشاكل ذات طابعاقتصادى . ولكن القول بأن القانون لا يعدو أن يكون مرآة ومجرد تعبير عن الأوضاع الاقتصاديةفيه تجاهل كبير للدور الذى يستطيع أن يلعبه القانون والقهر . فاذا كانت الظروف الاقتصاديةتضع أمام رجال السياسة والحكم المشاكل الأساسية ، فانه لا يمكن القول بأن الحلول لهذهالمشاكل تكون محددة سلفاً وانه لا يوجد مجال للاختيار بين هذه الحلول . ولا جدال فى أن اختيارنوع من الحلول القانونية لبعضالمشاكلالاقتصادية لما يؤثر على تطور الأوضاع الاقتصادية فىالمستقبل . **وفى كثير من الأحوال نجد أن القانون يسبق الأوضاع الاقتصادية ويمهد لها ويخلقالظروف المناسبة لتطور اقتصادى معين .**

كذلك يصعب القول بأن القانون يخدم دائماً المصالح الاقتصادية الغالبة ، رغم أنه فى الظروف العادية تجد هذه المصالح الاقتصادية رعاية كبيرةمن النظام القانونى السائد . ولكن هذا شىء ، وقبول النظرة الحتمية التى تجعل القانون خادماًللمصالح الاقتصادية شىء آخر . ففى كثير من الأحوال يكون القانون نفسه وسيلة لاعادة التوزيعلصالح الطبقات المهضومة وهنا تخضع الأوضاع الاقتصادية لقهر القانون وتتبعه . بل لعل ذلكأوضح ما يمكن فى تجربة الدول التى طبقت الاشتراكية الماركسية ذاتها . فالاشتراكية لمتطبق فى دول وصلت الى مرحلة الرأسمالية المتقدمة وبعد أن تكون الأوضاع الاقتصادية فيهاقد مهدت للأخذ بهذا النظام ــ كما تنبأ ماركس ــ وحيث يبلغ التناقض مداه بينشكل الملكية الفرديةواسلوب الانتاج الجماعى . بل على العكس من ذلك تماماً ، فان الدول التى اعتنقت الاشتراكيةالماركسية كانتفىمراحل بدائيةمنالراسمالية(٨)، وسواء فى ذلك حالة الاتحاد السوفيتى عند قيامالثورة ١٩١٧ أو الدول الآسيوية مثل الصين وكوريا (وتقع دول اوروبا الوسطى والشرقية فىمرحلة متوسطة) . وفى مثل هذه الظروف لا يمكن القول بأن القانون كان مجرد تعبير عن الأوضاعالاقتصادية ، وأنه يقوم بانشاء الملكية الجماعية لعناصر الانتاج ، لتتفق مع جماعية الانتاجالراسمالى ــ بعد التركز والاحتكارات الكبيرة وتقسيم العمل الشديد ... الى غير ذلك مماتقتضيه هذه الجماعية فىاسلوبالانتاج ــ . ولعل الصحيح هنا هو ان القانون يقوم بتعديل الظروفالاقتصادية لتناسب هذا النظام الجديد . وفى ضوء ذلك نستطيع أن نفهم دور فكرة**« دكتاتورية البروليتاريا »** وأن نفهم أفكار ستالين

---

(٧) Cf. F. Engels, **Orignines de la Famille, de la Propriété et de l'Etat—**, édition Castes, p. 229, Anti-Duhring, édition Caste, p. 319.

وانظر ايضاً :

Gérard Lyon — Caen, "Mise au point sur le dépérissement de l'Etat, **Arichives de Philosophie du Droit**, No. 8, 1963, p. 115.

(٨) وقد قدم لينين تفسيراً لذلك يتفق مع تعاليم الماركسية ، وهو ان الثورة الاشتراكية انما تقوم عندما يبلغ التناقض فى العالم الراسمالى فى مجموعه ما يبرر قيام الثورة . وعندئذ تقوم الثورة فى أضعف حلقات النظام الراسمالى العالمى ، وهى ليست بالضرورة دولة راسمالية متقدمة .

فى ضرورة تقوية الدولة بعد الاشتراكية ، وليس اضعافها أو ـ من باب أولى ـ زوالها ، وذلك حتى تتحقق الاشتراكية العالمية (٩) .

كذلك فانه فى ظل التطور الديمقراطى لا يمكن قبول فكرة حكم الطبقة الواحدة على اطلاقه . فالسلطة السياسية لا تعمل فقط لمصلحة طبقة واحدة وعلى حساب الطبقات الاخرى ، فالوضع اقرب الى نوع من التصالح والتوازن بين عدة طبقات ، والنظام السياسى القائم لا يعدو أن يكون حصيلة لهذا التوازن . وليس معنى ذلك ان القوى السياسية متعادلة تماماً ، فهذا أبعد الأشياء عن الواقع . فهناك دائماً أطراف أكثر قوة وديناميكية من الأطراف الاخرى . ولكنه يندر أن توجد طبقة مسيطرة تماماً ودون ضغوط ومقاومات مستمرة من الطبقات الاخرى . ولا يقتصر الأمر على التوازن بين هذه المصالح المتعارضة ، بل انه لا توجد علاقات قوة مستقرة خلال الزمن فهناك دائماً تغيير فى علاقات القوى النسبية للطبقات المختلفة . فليست المصالح الوحيدة التى تجد تعبيراً لها فى القانون هى مصالح رأس المال والملكية الخاصة ، فقد ادى تقرير الحقوق السياسية للعمال الى تقييد نفوذ الملكية الخاصة . فنقابات العمال والأحزاب الاشتراكية فى كثير من الدول الغربية تباشر تأثيراً حقيقياً على القوانين . فالتأميمات المختلفة للبنوك وكثير من صناعات الاستخراج الأساسية فى انجلترا وفى فرنسا تمت فى ظل نظم رأسمالية أساساً . كذلك فان استقرار الحكم فى السويد وفى كثير من الدول الاسكندنافية فى ايدى الأحزاب الاشتراكية يعبر عن مدى قوة العمل فى مواجهة رأس المال . أضف الى ما تقدم ان تطور المجتمعات الحديثة والدور الذى بدأت تلعبه المعرفة الفنية قد ادى الى ظهور نوع جديد من رأس المال الانسانى المتمثل فى العلماء ورجال البحث والادارة وما يمثله هؤلاء من تقدم فنى مستمر وتطبيق متزايد للأساليب الحديثة فى الانتاج (١٠) . ورأس المال البشرى هذا يعتمد أساساً على المعرفة وهى استثمار بشرى لصيق بشخص الانسان ومن ثم لا يقبل التنازل او التصرف فيه . ولذلك يحلو للبعض أن يطلق عليه اسم الملكية الشخصية بالمقابلة الى الملكية الخاصة . ومن الواضح أن هذه الفئات قد أصبحت تتمتع بنفوذ وتأثير متزايدين فى المجتمعات الحديثة ، وهو ما اطلق عليه البعض اسم « ثورة المديرين » . وهذا تأثير اقتصادى جديد لا يرتبط مباشرة بفكرة الملكية .

ــ تحديد مجال البحث ــ

٣ ـ يظهر لنا مما تقدم نوع من القضايا الأساسية التى تفرض نفسها عند الحديث عن علاقة القانون بالاقتصاد . **وقد رأينا أن نستبعدها كلية من البحث ، وان نركز ـ على العكس ـ على موضوعات اخرى على مستوى أدنى من التجريد** . والسبب فى هذا الاختيار يرجع الى أن ذلك النوع من القضايا انما يطرح فى الواقع قضايا فلسفية يصعب ـ ان لم يستحل ـ الوصول فيها الى نتيجة قاطعة . واكثر ما يستطيع الانسان الوصول اليه ، هو تلك النتيجة العامة ، وهى أن هناك علاقة تأثير متبادل بين القانون والاقتصاد . وأية محاولة لبيان مدى الأهمية النسبية فى هذه العلاقة المتبادلة أو لتحديد علاقة السببية ، انما هى محاولة لا تخلو من كثير من التحكم ـ على اقل تقدير .

---

(٩) Cf. J. Stalin, **Question du Leninisme,** édition de Mosco, 1947.

(١٠) انظر فى هذا الموضوع كتابنا ، المجتمع التكنولوجى الحديث ، الاسكندرية ١٩٧٢ .

وازاء كل ذلك ، فاننا نفضل أن نتناول موضوعنا فى علاقة القانون بالاقتصاد من زاوية أقل طموحاً وأكثر تحديداً وهى علاقة الفن القانونى أو الصياغة القانونية بحقائق الحياة الاقتصادية . وسوف نقتصر على تلك الحقائق الاقتصادية الأساسية والتى تجاوز الى حد بعيد الجدل المذهبى حول طبيعة المصالح الاقتصادية ومدى تعارضها ، وهى أيضاً امور تتمتع بقدر كبير من الشمول بحيث تتخطى الاختلافات القائمة فى النظم الاقتصادية (رأسمالية او اشتراكية) قدر الامكان . ولذلك فاننا سوف نتعرض لبعض الحقائق الأولية فى الحياة الاقتصادية ونرى الى أى حد تطور الفن القانونى وخلق تصورات قانونية لمجاراة هذه الحقائق . بقى أن نشير الى اننا سنعرض الى بعض ــ وليس كل ــ هذه العلاقات، وقد تكفى « العينة » **التى نختارها ليتبين مدى ما** بلغه الفن القانونى من درجات عالية من التقدم ،دون أن ندرى !

• • •

ــ تعدد الوحدات الاقتصادية ــ ظاهرة التبادل ــ الحق العينى ــ

٤ ــ من الحقائق الأولية أن الحياة الاقتصادية قائمة على عديد من الوحدات الاقتصادية التى تدخل فى علاقات متبادلة ومتكاملة من أجل الانتاج والتوزيع والاستهلاك . فروبنسون كروزو (أو الوحدة الاقتصادية المنعزلة التى تكتفى اكتفاءً ذاتياً) وصف خيالى لا وجود له فى عالم الحقيقة. فلا يمكن أن نجد وحدة اقتصادية قادرة على انتاج السلع التى تقوم باستهلاكها ، وانما لا بد وان يتكاتف عدد كبير من الوحدات على انتاج السلع بحيث يقوم نوع من التخصص وتقسيم العمل بينهم ، ثم يتبادلون فيما بينهم هذه السلع والخدمات بما يتفق مع أذواقهم فى الاستهلاك ومدى قدراتهم على الحصول على السلع . وقد كان التخصص فى مهنة أو حرفة معينة من الامور القديمة قدماً أزلياً حيث كان يتخصص داخل كل جماعة مجموعة من الأفراد لانتاج أنواع معينة من السلع والخدمات ، وسواء حكمت هذا التخصص اعتبارات من حيث الجنس (الرجال يقومون بالصيد والنساء يقمن بالزراعة والخدمات المنزلية مثلاً) أو اعتبارات التقاليد أو غير ذلك . وبعد ذلك ظهرت أهمية تقسيم العمل داخل المهنة أو الحرفة الواحدة ، وجعل آدم سميث من « **تقسيم العمل** » الأساس النظرى لزيادة الكفاية وتقدم الامم . وغنى عن البيان أن تعدد الوحدات الاقتصادية وما يتطلبه من تخصص وتقسيم للعمل يؤدى بالضرورة الى ظهور ظاهرة **التبادل** . ومن ثم فان التاريخ الاقتصادى لأية جماعة من الجماعات هو تاريخ لظاهرة التبادل وتطورها وتنظيمها . فماذا قدم الفن القانونى لمواجهة هذه الحقيقة الاقتصادية الأولية ؟

الواقع أن القانون قد قدم فى هذا الصدد تصوراً قانونياً مفيداً ، وهو فكرة **الحق العينى** . والحق العينى هو « سلطة يعطيها القانون لشخص معين على شىء معين ، وبموجبها يستطيع الشخص أن يستخلص لنفسه ما للشىء من فوائد اقتصادية » (١١) . ولعل أخطر ما فى فكرة الحق العينى هو **التمييز بين الحق وبين الشىء** ، وهو فصل ليس من السهل تصوره . وقد احتاج من العقل البشرى تطوراً كبيراً ودرجة عالية من التجريد . فالحق هو السلطة وهو المال الذى يجرى التصرف فيه ، أما الشىء فهو موضوع للحق ومحل له (١٢) . ولذلك فالحق العينى سلطة

---

(١١) عبد الرزاق السنهورى « الوسيط فى شرح القانون المدنى » الجزء ٨ ، حق الملكية ، ١٩٦٧ ، ص ١٨٢ .

(١٢) عبد الفتاح عبد الباقى « دروس فى الاموال » القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦ وما بعدها .

قانونية مباشرة على الشيء محل الحق . وهذاالفصل بين الحق وموضوعه ، بين المال والشيء هو تصور قانوني فذ ، وقد ادى ــ كما سنرى ــالى تسهيل كبير في عمليات التبادل . وانما نود هنا أن نؤكد صعوبة هذا التصــور وخصوصــاً بالنسبة لأقوى الحقوق العينية وهو الملكية . ففي هذا الحــق يكاد يختلط الحق بالشيء ، وتقوم علاقة بين المالك وبين الشيء ذات طابع نفسي ، وهي أثر من علاقةالانسان علىالأشياء التي يصنعها(١٣). ولذلك فقد اقتضى تصــور الحق المــالي كفكرة مستقلة تجريداً ذهنياً كبيراً . ولا نزال حتى الآن نجد صعوبة في لغتنا اليومية في الفصل بين الحق وبين الشيء ، فالفرد يملك الحق ، والحق يردعلى الشيء .

وعندما نتحدث هنا عن الحق العيني باعتباره سلطة قانونية مستقلة عن الشيء الذي يرد عليه ، فلا ينبغي أن نقع في وهم بأن هذا التصور القانوني مقصور على الدول الراسمالية التي تعترف بالملكية الخاصة. فهذا تصور قانوني عام لا شأن له بشكل الملكية خاصة أو عامة . ولعل السبب في مثل هذا الوهم هو أن الملكية هي أقوى الحقوق العينية ،والدول الاشــتراكية وهي تلغي الملكية الخاصــة لأموال الانتاج « تعيش في ظل عقدة الخوف من حق الملكية بمعناه الكلاسيكي القديم ... وكان من الممكن أن يتجنبــوا ذلك كله لو انهم اســتفادوا ــ لمصلحة ولخدمة الاشتراكية ذاتها ــ من خبرة الأجيال المتعاقبة التي اسهمت في تحديد طبيعة حق الملكية، لا كوسيلة لاستغلال الانسان للانسان، وانما كوسيلة فنية قانونيــة لتحديــد وتنظيــم الاستفادة من سائر الأشياء .. » (١٤) . ونحن هنا لا يهمنا سوى الوســيلة الفنية التي يقدمها الحق العيني كسلطة قانونية مستقلة عن الشيء موضوع الحق ، ولذلك فان الجدل حول طبيعة الملكية العامة لا يهمنا بشكل مباشر . بل ان الاتجاه الغالب بين الفقهاء أن « الأموال العامة لا تفترق عن الأموال الخاصة في أنها مثلها محل للتملك . الا أن هذا لا يستتبع لزاماً أن يكون نطاق الملكية في كل منهــا متطابقاً » (١٥) . فالمعيار المســتقر في التفرقة بين أملاك الدولة العامة، وأملاكها الخاصة، هو طبيعة الغرض المخصص له المال . فاذا كان هذا الفرض ، منفعة عامة ، اعتبرت الملكية عامة ، واذا لم يكن الغرض كذلك ، اعتبرت ملكية الدولة لهذا المال خاصة . وهناك اجماع للفقه تقريباً على أن حق الدولة على الأشياء المخصصة للمنفعة العامة هو حق ملكية بالمعنى الصحيح وان كانت هذه الملكية مقيدة بقيود المصلحة العامة (١٦) .

وأياً كان الأمر حول الجدل المتقدم ، فان الفكر القانوني الذي خلق فكــرة الحــق العيني ــ أياً كان اسمها ــ قد قام بدور كبير في تسهيل عمليات التبــادل التي تتطلبهــا حقــائق الحياة الاقتصادية . فكم كانت تتعقد الامور وتصــعب المبادلات اذا لم يمكن الفصل بين الأشــياء وبين الحقوق التي ترد عليهــا . ففي ظل الأوضــاع القانونية التي نعيشها يتم التصرف في الحقوق ، وبمقتضى ذلك تنتقل السلطة على الأشياء. وبدون هذا التصــور كان ينبغي أن تتوافــر للشخص

---

(١٣) Aurel DAVID, Les Biens et leur Evolution, **Archives de Philosophie du Droit**, 1963, p. 171.

(١٤) **علي البارودي** « في سبيل نظام قانــوني موحد للمشروع التجاري العام » ، **الاسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٣٤١ .**

(١٥) **محمد زهير جرانه** « حق الدولة والافراد على الأموال العامة » ، **١٩٤٣ ، ص ١٣٢ .**

(١٦) **عبد الرزاق السنهوري ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ وما بعدها . سمير تناغو** « القرار الاداري مصدر للحق » ، **الاسكندرية ، ١٩٧٢ ، ص ٧٦ وهامش نفس الصفحة . و : مصطفى الجمال ، نظام الملكية ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .**

السيطرة المباشرة والمستمرة على الشيء حتى يحتفظ به ، وعندما يريد مبادلته فانه ينقل هذه السيطرة لشخص آخر مقابل حصوله على شيء آخر ومباشرته سيطرته الجديدة عليه . واذا كان الاحتفاظ بالأشياء ومباشرة السيطرة المباشرة عليها أمراً معقولاً نسبياً فى حالة المنقولات خفيفة الوزن ، فان ذلك يضع قيوداً رهيبة فى حالة العقارات تمنع من المرونة وسهولة الانتقال . فالشروط المطلوبة للاحتفاظ بالحقوق أسهل بكثير من شروط الاحتفاظ بالأشياء ، وبالمثل فان انتقال الحقوق بين الأشخاص ، وهى حقائق معنوية ، أسهل بكثير من انتقال السيطرة المباشرة على الأشياء وهو ما يتطلب جهداً قد يحول دون قيام المبادلات . ولذلك فان الصياغة القانونية بابتكارها فكرة الحق العينى باعتباره فكرة مجردة تعطى صاحبها القدرة على التصرف فى الشيء ـ قد ساعدت على تسهيل المبادلات وفى تحقيق الاستقرار القانونى . فيكفى انتقال الحقوق من شخص لآخر حتى تنتقل السيطرة على الأشياء والموارد من شخص لآخر . وهكذا قد أصبحت الموارد الاقتصادية تنتقل عن طريق انتقال الحقوق . **وبذلك فان انتقال الموارد الحقيقية والتغيير فى استخداماتها يتم عن طريق التصرف فى عالم آخر مقابل من الرموز والحقائق المعنوية هو عالم الحقوق العينية .**

وبعبارة اخرى قد خلق علم القانون (عن طريق الحقوق العينية) نموذجاً قانونياً مقابلاً لعالم الأشياء والموارد ، والتصرف فى الحقوق يعنى تصرفاً مقابلاً فى الأشياء والموارد . ولكن التصرف فى عالم الحقوق العينية أسهل وأيسر . ولذلك فان الفن القانونى يكون قد قدم وسيلة فعالة لتسهيل انتقال الأشياء والموارد بين الأشخاص والاستخدامات ، ويكون قد خلق عن طريق هذه الحقوق نوعاً من المحاكاة (simulation) لعالم الأشياء والموارد . وتتضح أهمية هذا الكشف القانونى فى النظم القانونية المتقدمة لانتقال الحقوق . فانظر الى البورصة **أو الشهر العقارى ،** فنحن فى الحالتين بصدد نظامين قانونيين لانتقال الحقوق المنقولة والعقارية ، وانظر كيف يؤدى ذلك الى سرعة انتقال الموارد من يد الى اخرى فى معرفة كاملة وبأقل جهد ممكن .

• • •

ـ الامتداد أو البعد الزمنى للكميات الاقتصادية ـ التمويل ـ الحق الشخصى أو الالتزام ـ

٥ ـ هنالك حقيقة اقتصادية اخرى ـ لا تقل بداهة عن الحقيقة السابقة الخاصة بتعدد الوحدات الاقتصادية ـ ذلك أن معظم الكميات الاقتصادية التى نعرفها **كميات ذات بعد زمنى . فالانتاج والاستهلاك والاستثمار ليست كميات معرفة بحجم معين ، ولكنها كميات ذات بعدين ، فهى احجام معينة فى فترات معينة ، كما هو الحال مثلاً فى السرعة ، فهى كمية ذات بعدين كذا كيلومتراً فى الساعة . وبالمثل فان هذه الكميات الاقتصادية تعرف عن طريق مقياسين : مقياس للكمية ومقياس للزمن (انتاج كذا طن فى السنة) .** ولذلك فان معرفة نتائج وجود هذا البعد الزمنى فى الكميات الاقتصادية يعتبر أساسياً لفهم العلاقات الاقتصادية . وينبغى بوجه خاص تذكر أن الانتاج يستغرق وقتاً ، طال أو قصر ، قبل ظهور الناتج النهائى من سلع أو خدمات . فاذا كان الانتاج عبارة عن تضافر جهود عناصر مختلفة من أجل اخراج سلعة أو خدمة ، فان هذه العملية تستغرق وقتاً . وهكذا فان الزمن عنصر اساسى فى الحياة الاقتصادية .

وهنا يمكن أن نتساءل عما اذا كان الفن القانونى قد خلق تصورات قانونية مناسبة تأخذ

فى الاعتبار هذا البعد الزمنى للكميات الاقتصادية . وحقيقة الأمر أن فكرة **الحق الشخصى أو الالتزام** هــى التى تستجيب الى حد بعيد لذلك الاعتبار (كما كانت الحقــوق العينية استجابة لحاجات المبادلات) . ويمكن تعريــف الحق الشخصى أوالالتزام بأنه « حالة قانونيــة يرتبط بمقتضاها شخص معين بنقل حق عينى أو بالقيام بعمل أو بالامتناع عن عمل » (١٧) . ويلاحظ أن مضمون الالتزام فى صوره كافة هو « عمل يقوم به المدين . غير أن هذا العمل قد يكون سلبياً ، وهذا هو ما يعبر عنه بالامتناع عن عمل ، وقد يكون العمل الذى التزم به المدين نقل حق عينى او انشاءه على شىء » (١٨) .

ولبيان مدى ارتبــاط فكــــرة الحقــــوق الشخصية أو الالتزامات بالبعد الزمنى للكميات الاقتصادية وبخاصة الانتاج ، نتصور عالماً فرضياً لا يستغرق فيه الانتاج اى زمن ، بحيث نعيش فى عــالم لحظى تتعاصر فيــه عمليات التحــويل . فالانتاج كما أشرنا هو تحويل للموارد والطاقة الى سلع وخدمات نافعة ؛ هو تحويل المدخلات input (مواد أوليــة ، خدمــات عناصر الانتــاج) الى مخرجات output (سلع وخدمات نافعــة) . ولنتصور الآن ان عملية التحويل هذه تتم بشكل آنى ولا يوجد اى فاصل زمنى بين دخول المدخلات (أو المستخدم) وخروج المخرجات (أو الناتج) . فماذا يحدث فى مثل هذه الحالة ؟ من الواضح انه فى مثل هذا العالم الخيالى لن يكون هنــاك محل لعلاقات الانتاج ، فلن تكون هناك عقود عمل ولاعقود توريد ولا قروض ... الخ . وكل ما يتصور هو أن تنشأ مباشرة حقــوق على توزيع الناتج الجديــد على العناصر التى ســاهمت فى الانتاج (التحويل) . أما العلاقات التى تنشأ أثناء عملية التحويل فانها تختفى بمقتضى الفرض . والحقوق التى تنشأ على الناتج الجديد هى من قبيل الحقوق العينية (حقوق ملكية ، حقوق استعمال ، حقوق انتفاع) . ومعنى ذلك أنه اذا اختفى البعد الزمنى للكميات الاقتصادية وبخاصة الانتاج ، فاننا لن نكون فى حاجة الا للحقــوق العينية التى تثبت للأشخاص سلطات على الموارد الاقتصادية . وفى مثل هذا العالم الخيــالى فان التبادل يظل قائماً (طالما اننا نفترض تعدد الوحدات الاقتصادية) وهو ما يستوجب نشوء الحقوق العينية على ماسبق أن رأينا . ولعل أقصى ما نحتاج اليــه من علاقات والتزامات شخصية فى مثل هذا العالم ، هو الالتــزام باعطاء شىء ، عند التبادل . وحتى هذا فانه لا يشكل التزاماً حقيقياً بالنظر الى اننا افترضنا عدم وجود البعد الزمنى ، فكأن عمليات التبادل تتم لحظية دون حاجة الى وضع التزام على عاتق المدين .

وتتغير الصورة كلية متى اعترفنا بوجــود البعد الزمنى للكميات الاقتصـــــادية فالانتــاج يستغرق وقتاً قبل ظهور الناتج النهائى ، وخلال هذا الوقت لا بد وأن تتضــافر خدمات عناصر الانتاج من أجل تحويل المدخلات الى سلع وخدمات نافعة . وهنا نجد أنفسنا بالضرورة فى حاجة الى توفير نوع من العــلاقات تســمح بالزام الأفراد بالقيام بعمل أو أعمــال محددة مقابل التــزام فى المستقبل بالحصول على مقــابل هذا العمل من الناتج عند ظهوره ، أو تمكن بعض الأفــراد من التنازل عن بعض مواردهم أثناء عملية الانتــاج مقابل الحصول على حقوق فى استيفاء المقابل من الناتج المستقبل . وهكذا تظهر فكرة الالتزامات الشخصية . فاذا كان مضمون الالتزام فى جميع

---

(١٧) السنهورى ، الوسيط ، الجزء الاول ، مصادر الالتزام ، ١٩٥٢ ، ص ١١٤ .

(١٨) اسماعيل غانم ، فى النظرية العامة للالتزام ، مصادر الالتزام ، ١٩٦٦ ، ص ٣٢ .

صوره هو عمل يقوم به المدين ، فمن الواضح انهذا العمل أمر مستقبل ، فجوهر الالتزام أنه يرد على المستقبل (١٩) ، ويربط الحاضر به . وكان قدثار خلاف بين رجال القانون حول طبيعة الالتزامات التى ترد على أشياء مستقبلة حيثتجيزه كافة القوانين . ومع ذلك فقد كان رأى البعض أن هذه الاجازة انما ترد عن طريق الاستثناء . ومع ذلك فيبدو أن الرأى الأرجح هو أن هذه الاجازة أصل من اصول فكرة الالتزاموهى استجابة لحاجة المعاملات الاقتصادية ، فضلاً عن أن جوهر الالتزام وهو يرد على عمل المدين هو بالضرورة أمر مستقبل (٢٠) .

وهكذا نرى ان الحياة الاقتصادية وهىتتعامل خلال الزمن تحتاج الى الوسائل القانونية الكفيلة بتحقيق ذلك . وجاء الفن القانونى وأوجد فكرة الالتزام ، وهو يتضمن علاقة شخصية بين دائن ومدين يتعهد المدين بمقتضاها بالقيام بعمل . وهكذا تظهر عقود العمل والقروض وغيرها من الارتباطات القانونية الضرورية لمعليات الانتاج . وبذلك فان الفن القانونى عن طريق الحقوق العينية والالتزامات الشخصية يكون قد خلقتصورات قانونية فعالة للاستجابة للحقائق الاقتصادية فى تعدد الوحدات الاقتصادية وفى البعد الزمنى للكميات الاقتصادية .

٦ ـ ولعل من أبرز الاقتصاديين الذيناستعرضوا خصائص الحياة الاقتصاديةالاقتصادى ليون فالراس Léon Walras **الذى يعتبر واضعها يعرف باسم نماذج التوازن الشامل** (٢١) . وقد أوضح **فالراس** أنالتوازن فىالحياةالاقتصادية يتم بين عديد من الوحدات الاقتصادية ، وأن هذا التوازن يتوقف على جميع ظروف الاقتصاد فىمجموعه ، ولذلك لا بد من أخذ مدى الترابط بين جميع الوحدات . فاذا كان التوازن فى الاقتصاد يتطلبأن يتساوى طلب كل سلعة وعرضها ، فان طلب سلعة معينة غير مستقل عن طلب السلع الاخرى ، وبالمثل العرض . فطلب سلعة معينة يتوقف على ثمنها النسبى ، ولكنه يتوقف أيضاً على أثمان السلع الاخرى . ونفس الشىء بالنسبة للعرض . وهكذا فاننا نحصل على التوازن اذا عرفنا الأثمان التى تجعل طلب كل سلعة وعرضها متساويين ، وهو ما لا يتحقق الا اذا أخذنا الاقتصاد فى مجموعه . وهكذا فاننا نستطيع أن نعرف دفعة واحدة أثمان التوازن فى الاقتصاد ولا يمكن معرفة التوازن فى أسواق منفصلة . وهذا ما يُطلق عليه اسم التوازن الشامل كما ذكرنا .

وعندما عرض « فالراس » نظامه للتوازن الشامل قسم دراسته الى مرحلتين : فى المرحلة الاولى افترض أن هناك كمية محددة من السلع والخدمات وأنه يجب توزيع هذه الكمية أحسن توزيع ممكن . وأطلق على التوازن فى هذه المرحلة اسم نظرية التبادل (Théorie d'échange) . وفى المرحلة الثانية لم يقتصر « فالراس » على توزيع كمية محددة ومعطاة من السلع والخدمات ، وانما أخذ فى الاعتبار امكان انتاج هذه السلع والخدمات ، باستخدام عناصر الانتاج المتاحة فى الاقتصاد . وأطلق على التوازن فى هذه المرحلة اسم نظرية الانتاج (Théorie de Production) . والواقع أن المرحلتين التحليليتين اللتين استخدمهما فالراس تتفقان الى حد بعيد مع التقسيم الذى أخذنا به .

---

(١٩) Samir TANAGHO, "L'Hypothèques des Biens à Venir" Revue Trimestrielle de Droit Civil, No. 3, 1970, pp. 460 — 464.

(٢٠) المرجع السابق .

(٢١) Leon Walras, Eléments d, Economie Politique Pure.

فالمرحلة الاولى تأخذ فى الاعتبار فكرة تعدد الوحدات الاقتصادية ، ومن ثم فالتوازن المطلوب هو توازن التبادل . والمرحلة الثانية تأخذ فى الاعتبار الى جانب التعدد ، فكرة الانتاج وما تنطوى عليه من بعد زمنى ، وهذا هو ما اقتضى توازن الانتاج . **ونستطيع الآن أن نقول ان الفن القانونى قد خلق الحقوق العينية كوسائل قانونية لأزمة توازن التبادل ، كما خلق الالتزامات الى جانب الحقوق العينية كوسائل قانونية لتوازن الانتاج .**

٧ ـ وينبغى ان نشير الى أن فكرة الالتزام أو المديونية (وهى القائمة على فكرة الامتداد الزمنى) تلعب فى الحياة الاقتصادية دوراً لا نستطيع ان نتصور مداه ، وأن هذا التصور القانونى قد ساعد على تحقيق تقدم اقتصادى كان من المستحيل انجازه . ويكفى فى هذا الصدد ان نتذكر **النقود** والدور الذى تلعبه فى الحياة الاقتصادية . فالنقود ـ فى آخر الأمر ـ لا تعدو ان تكون ديناً أو التزاماً ، ولكنها دين أو التزام على الاقتصاد القومى فى مجموعه .

واذا كان اكتشاف الانسان للنقود يعتبر حدثاً خطيراً فى حياته ـ ربما لا يقل اهمية عن اكتشاف النار والكتابة ـ فان الانسان لم يستطع أن يدرك حقيقة النقود وطبيعتها الا حديثاً رغم ان استخدامها قد جرى منذ زمن بعيد نسبياً . بل اننا لو اردنا الدقة ، فانه لا يكاد يعرف حقيقة النقود من غير المتخصصين الا نفر قليل .

وقد كان الاعتقاد السائد قديماً هو أن للنقود قيمة ذاتية ترجع الى طبيعة المادة المصنوعة منها (ذهب أو فضة) أو ربما لبعض الاعتبارات الخاصة المحيطة (مثل بعض القواقع ذات القيمة الدينية لدى بعض الجماعات البدائية) . ولكن التطور اللاحق لظاهرة النقود وما أدى اليه من تغيير فى شكلها ـ وخاصة بعد ظهور النقود الورقية ونقود الودائع ـ قد أدى الى مزيد من فهم حقيقة النقود (٢٢) . فالنقود قد اصبحت جزءاً من نظام الائتمان المصرفى ومن نشاط البنوك فى الاقراض . فالأفراد قد عمدوا الى ايداع نقودهم المعدنية لدى بعض البنوك أو الصيارفة مقابل سند يعطى لصاحب الوديعة ، وذلك نظراً للمخاطر التى يتعرض لها التجار من حمل كميات كبيرة من هذا المعدن النفيس . وفى نفس الوقت كان تطور التجارة قد أدى الى نشوء مجموعة من القواعد العرفية التى تساعد على تداول الحقوق بين التجار وتوفر الثقة فيها . وفى مقدمة هذه القواعد نظم الأوراق التجارية وتداولها عن طريق التظهير أو التسليم . وفى هذه المرحلة كانت السندات التى تعطيها البنوك للمودعين تتداول بدلاً من النقود المعدنية التى يظل البنك حائزاً لها لمصلحة حائز السند . ثم حدث تطور ، فلم يعد اصدار السندات مرتبطاً بودائع حقيقية يقوم الأفراد فيها بايداع نقودهم المعدنية لدى البنك ، وانما ارتبط اصدار جزء كبير من هذه السندات بعمليات الائتمان والقروض التى يمنحها البنك . فقد لاحظت البنوك أن الافراد يتداولون هذه السندات ويستخدمونها كوسيلة للوفاء ، ولم تعد تطلب كل قيمة هذه السندات للتحويل الى نقود معدنية . ولذلك عمدت هذه البنوك الى اقراض الأفراد مباشرة لسندات تصدرها وهى تدرك أن هذه السندات ستستخدم كوسيلة للوفاء فى المبادلات بين الأفراد مباشرة لسندات تصدرها وهى تدرك ان هذه السندات ستستخدم **كوسيلة للوفاء فى المبادلات** بين الافراد دون أن تقدم كلها للتحويل الى نقود معدنية . وهكذا ظهرت **النقود الورقية** كديون على البنوك تصدرها فى شكل سندات ثم تتمتع بالقبول العام فى المعاملات . وقد اقتضى ذلك تدخل القانون لحماية هذه النقود الورقية الجديدة .

---

(٢٢) كتابنا « النظرية النقدية » ، مطبوعات جامعة الكويت ، ١٩٧١ .

وقد ظهرت مع النقود الورقية طبيعة النقودكمديونية تتمتع بالقبول العام ثم ما لبث التطور ان استمر بحيث ظهرت النقود على حقيقتهاكمديونية تتمتع بالقبول العام وتجردت من كل مظهر مادى ، فلم تعد هذه المديونية متبلورة فى شكل معدن أو حتى فى شكل أوراق وسندات يصدرها البنك المركزى ، وانما اصبحت مجردمديونية البنك التجارى كما تظهر فى دفاتره وحساباته . وهذه هى مرحلة **نقود الودائع** اوالنقود الكتابية ، حيث تحررت النقود من كل وهم مرتبط بالذهب أو بغيره . وارتبطت بميدان واسعهو ميدان المديونيات بصفة عامة فى الاقتصاد القومى . فالنقود ، والحال كذلك ، ليست سوى مديونية تتمتع بالقبول العام . ومعنى ذلك ان كل فرد مستعد لأن يبادل ما لديه من سلع وخدماتمقابل هذه النقود . فالنقود اذن مديونية على الاقتصاد القومى ، اذ أن كل من يحمل النقوديتمتع بحق فى الحصول على ما يشاء من سلع وخدمات معروضة فى الاقتصاد القومى بقدر قيمةما لديه .

واذا كان للنقود ما نعرف من دور أساسىفى الحياة الاقتصادية فلا ينبغى أن ننسى أنها بناء قانونى ؛ انها التزام ، ولكنه التزام من نوع خاص ؛التزام على الاقتصاد القومى . ولذلك فان القانون نفسه يوفر حماية خاصة لهذه الديون . فجميعالتشريعات تضع تنظيمات خاصة للبنوك تنظم فيها أعمالها ونشاطها ، لأن ما تصدره من ديونلا يلزمها وحدها وانما يلزم الاقتصاد القومى أيضاً فى نفس الوقت . كذلك تذهب بعض الدول الىحد تأميم البنوك ، وعلى أى الأحوال فان غالبية الدول تؤمم البنك المركزى الذى يهيمن على البنوكالتجارية ويراقبها .

واذا كانت النقود هى اهم واخطر انواعالمديونيات المعروفة واكثرها تأثيراً فى الحياة **التزام على الاقتصاد القومى** . ولذلك فان القانونالديون والالتزامات التى تقوم بدور هام فى تدعيم المبادلات . فاذا كان اقتصاد التبادل يقتضى سرعةتداول الحقوق وتوفير أكبر قدر من الثقة فى المعاملات ، فقد نجح التجار ، ومن ورائهم القانون ، فى توفير أساليب مناسبة لتحقيق هذا الهدف . وفى مقدمة هذه الوسائل **الأوراقالتجارية . فهذه الأوراقوهى تتضمنديوناً ،تتميز** بأنها تتداولبسرعةوبدونالقيود المعروفةفىالأحوال العادية . والذى يميز الأوراق التجارية هو انها صكوك قابلة للتداول وتمثل حقاً نقدياً وتستحقالدفع بمجرد الاطلاع أو بعد أجل قصير ، ويجرى العرف على قبولها كأداة للوفاء (٢٣) . فهنا نجدأننا بصدد مديونية عادية والتزام على تاجر عادى ولكنه أصبح يتداول بسهولة اكبر ويستخدمكوسيلة للوفاء اى بدلاً من النقود .

٨ — وليس الأمر مقصوراً على هذه الأوراقالقصيرة الأجل ، بل ان الأوراق المالية من الأسهم والسندات التى تتداول فى البورصة — والتىأصبحت تمثل نوعاً من الثروة المنقولة الجديدة — قد ساعدت على مزيد من التقدم والرشادة فىالحياة الاقتصادية . وقد عملت هذه الأوراق المالية على اجراء تغيير جوهرى فى طبيعة العلاقاتحيث حلت **الحقوق والالتزامات المالية محل الملكية (٢٤)** . اذ لا يخفى أنه برغم الفارق القانونىبين السهم (باعتباره حصة شريك) والسند (باعتباره ديناً) الا أن التطور الحديث قد جعلمنهما فى الواقع أمراً متشابهاً أقرب الى وضع الدائن للمشروع . وهكذا أصبحت الأوراق الماليةعلى اختلاف أنواعها أشكالاً منالمديونية المنوعةلكى

---

(٢٣) **محسن شفيق** ، الوسيط فى القانون التجارى المصرى ، **الجزء الثانى ١٩٥٧** ، ص ١٩٠ ، و : **مصطفى كمال طه** ، الوجيز فى القانون التجارى ، **الجزء الثانى** ، **١٩٧١** ،ص ٨ .

(٢٤) Cf. G. Ripert, Aspects Juridiques du Capitalisme. Moderne, Librairie Générale de Droit et de Jurisprudence, Paris, 1946, pp. 128.

تتفق مع الظروف المختلفة للدائنين والمدينين . وهذه الاوراق المالية او الاصول المالية بدات تجذب اهتماماً متزايداً من جانب الاقتصاديين ، حتى ان النظرية النقدية الحديثة اصبح ينظر اليها كجزء من نظرية الاصول المالية (٢٥) .

فاذا نظرنا الى الوحدات الاقتصادية فاننا نستطيع أن نميز بين سلوكها كوحدات كاسبة للدخل، وبين سلوكها كوحدات منفقة لهذا الدخل . فالوحدات الاقتصادية افراداً او مشروعات تكسب دخلاً . الافراد يقدمون خدمات العمل للمشروعات، وهم يملكون أحياناً رأس المال ويقدمونه للمشروعات، وفى الحالتين يحصلون على دخل مقابل لخدمات عناصر الانتاج . والمشروعات تشترى خدمات عناصر الانتاج وتستخدمها فى العملية الانتاجية ثم تبيع الناتج فى السوق وبذلك تحصل على دخل .

كذلك تقوم هذه الوحدات بالانفاق . فالأفراد ينفقون للحصول على السلع الاستهلاكية التى تنتجها المشروعات . والمشروعات تنفق للحصول على خدمات عناصر الانتاج بالاضافة الى قيامها بشراء بعض الانتاج ، بالاضافة الى راس المال القائم (الاستثمار) .

وليس من الضرورى ان يتعادل الوضع بالنسبة لكل الوحدات الاقتصادية باعتبارها كاسبة للدخل وباعتبارها منفقة له . بل الأغلب أن توجد وحدات تتمتع غالباً بفائض بحيث يزيد دخلها على انفاقها، ووحدات تنوء غالباً بعجز بحيث يزيد انفاقها على دخلها . ووظيفة الاصول المالية بصفة عامة ، هى تحويل الفائض من الوحدات الفائضة الى الوحدات العاجزة (٢٦) . وغالباً ما يكون الأفراد وحدات فائضة والمشروعات وحدات عاجزة ، ولذلك فان الحاجة تقوم الى تحويل الفائض من قطاع الأفراد الى قطاع المشروعات . ويتم ذلك بأن تقترض المشروعات من الأفراد ، وهذه المديونية هى عبارة عن الاصول المالية التى تمكن من نقل ادخار الأفراد الى المشروعات . وسوف نشير فيما بعد الى أن الحاجة تقوم لظهور مؤسسات وسيطة يتركز نشاطها فى تحصيل مدخرات الافراد ووضعها تحت تصرف المشروعات .

ومما تقدم يتضح أن فكرة الالتزام لا تستجيب فقط للامتداد الزمنى للكميات الاقتصادية ، ولكنها ايضاً توفر **الوسيلة القانونية الضرورية لتحقيق التمويل فى الاقتصاد او نقل الفائض من الوحدات الفائضة الى الوحدات العاجزة .**

٩ ـ واذا كان الالتزام او الحق الشخصى كثيراً ما يرد على امور مستقبلة ، بل هو فى جميع الأحوال يرد على عمل المدين وهو بالضرورة أمر مستقبل ، فانه ينبغى ان يوفر القانون الضمانات الكفيلة بالاطمئنان الى تنفيذ هذا الالتزام .

وبعد تطور قانونى طويل ، كان المدين ينفذ فى شخصه عند تخلفه عن الوفاء بالالتزام بحيث يفقد حريته بل وربما حياته ، ثم تطور الأمر بحيث أصبح الدائن يرتهن عيناً أو مالاً من أموال المدين

---

(٢٥) لعل اول من اشار الى اهمية دراسة النقود من هذه الزاوية هو : J. R. Hicks فى مقاله :
(A Suggestion for simplifying the theory of money), Economica, 1935.

(٢٦) Cf. J. Gurely, E. S. Shaw, Money in a Theory of Finance, Brookings Institution, 1960.

لضمان تنفيذ الالتزام عند تخلفه . وهذا ما جعل عقد الرهن من أقدم العقود المعروفة . وبذلك يصبح الرهن لصيق الصلة بالالتزام (٢٧) بحيث لا يعدو أن يكون تعبيراً عن القوة الالزامية للالتزام نفسه . وقد كان هذا هو وضع الرهن بصفة عامة فى ظل القانون الرومانى . وكانت العادة أن يتفق على رهن جميع أموال المدين ، ومن ثم فان الرهن العام سبق فى التطبيق الرهن الخاص . وفى عهد جوستنيان كان الاتفاق على الرهن العام لأموال المدين مفترضاً فى جميع التصرفات . وقد كان الرهن على هذا النحو يعترف بالأفضلية للديون السابقة على الديون اللاحقة . ومع ذلك فلا يخفى كيف أن مثل هذا النظام كان ناقصاً ولم يساعد على استقرار المعاملات وانتعاشها . فهو باعتباره رهناً عاماً يصعب أن يتحقق فيه الاشهار والتخصيص ، مع ما يترتب على ذلك من صعوبات عملية رهيبة (على الأقل من حيث اثبات تواريخ الديون) . وقد استمر هذا الوضع فى القانون الفرنسى القديم وحتى قيام الثورة ووضع قانون نابليون .

وازاء مساوىء نظام الرهن العام ، ظهر الرهن الخاص لعين معينة من أعيان المدين يرد عليها حق عينى للدائن يمكنه من استيفاء حقه من هذه العين مقدماً على غيره من الدائنين (حق الأفضلية) وفى أى يد تكون فيه العين (حق التتبع) . وقد اقتضى ذلك ضرورة الاهتمام بشهر حق الرهن باعتباره حقاً عينياً على مال من أموال المدين ، وليس مجرد تعبير عن القوة الالزامية للالتزام نفسه .

واذا كان اصلاح نظام الرهن على هذا النحو امرا ضرورياً ، الا أن الاكتفاء به وحده يشكل نقصاً شديداً فى الأساليب القانونية اللازمة لاستقرار المعاملات وانتعاشها ، فاذا كان الرهن العام لأموال المدين يشكل صعوبات عملية أمام الدائنين فى اثبات تواريخ ديونهم ، وأمام المدينين فى الحصول على الائتمان لعدم وضوح مركزهم المالى على وجه دقيق ، فان نظام الرهن الخاص وقد صاحبه بالضرورة الشهر والاعلام الا انه يؤدى أيضاً الى عرقلة المعاملات وتعقيدها. ولذلك فقد كان من الواجب ان يجد الفن القانونى الى جانب نظم التأمينات العينية - من رهن وخلافه - تصورات قانونية جديدة تحقق للدائن ضماناً فى الحصول على حقه من المدين وتحتفظ للمدين بحرية التصرف فى أمواله خالية من القيود وبذلك تسهل المعاملات وتدعم الائتمان . وقد تحقق ذلك عن طريق تصور قانونى - مستمد الى حد بعيد من فكرة الرهن العام - **وهى فكرة الذمة المالية والضمان العام للمدينين** . ويقصد بالذمة المالية (Le Patrimoine) فى الفقه السائد (٢٨) التعبير عن مجموع ما للشخص وما عليه من حقوق والتزامات مالية . وبذلك تتكون الذمة من جانبين : جانب ايجابى هو مجموع حقوق الشخص المالية ، وجانب سلبى هو مجموع التزامات الشخص المالية . وقد أثارت فكرة الذمة المالية جدالاً كبيراً بين رجال القانون ، وهناك نظريات عديدة فى هذا المجال . فالنظرية التقليدية - وهى المعروفة بنظرية الشخصية - تقوم على أساس ارتباط الذمة المالية بالشخصية القانونية ، فى حين أن هناك نظرية حديثة سادت بوجه خاص فى الفقه الألمانى وتعرف باسم نظرية تخصيص الذمة ، وهى ترى أن الذمة المالية لا تكون مجموعة متماسكة بسبب ثبوتها لشخص معين ، وانما بسبب تخصيصها لغرض معين ذى قيمة جديرة بالرعاية .

---

(٢٧) Cf. Samir TANAGHO, loc. cit., pp. 467.

(٢٨) حسن كيره ، المدخل الى القانون ، الاسكندرية ١٩٧١ ، ص ٤٩٩ .

وأياً كان الأمر حول هذا الخلاف ، فان النتائج القانونية لهذا التصور تنحصر فى الضمان العام المقرر للدائنين على أموال المدين (انظر مادة ٢٣٤ مدنى مصرى على سبيل المثال) . فلجميع الدائنين ، على قدم المساواة (باستثناء اصحاب الحقوق العينية التبعية من رهن وخلافه) ضمان على جميع أموال المدين الموجـودة فى ذمته عند تنفيذ الالتزام .

وهكذا نجد أن الفن القانـونى قد أوجـد تصوراً قانونياً (هو الضمان العام على أمـوال المدين الموجودة فى ذمته عند تنفيذ الالتزام) وأن هذا التصـور ـ وان كان تهذيباً تاريخياً لفكرة الرهن العام ـ الا أنه يحقق اسـتقرار المعاملات ونموها على نحو افضل بكثير مما كان سائداً من قبل . « فاحتفاظ المدين ، كقاعدة عامة ، بحريته فى التصرف فى أمواله ، أساسه ان حق الدائن لا يرد على مـال معين مملوك للمدين وانمـا على عمله . اما اقتصار حق الدائن فى التنفيذ على ما للمدين وقت التنفيذ ، وشموله كل ما يكون ثابتاً للمدين فى ذلك الوقت ولو كان قد اكتسـبه فى تاريخ لاحق لنشوء الالتزام ، فيفسره أن المقصود من التنفيذ هو استيفاء الدائن حقـه من المدين جبراً عليه وهو ما يتحقق اذا تم التنفيذ على مال مملوك للمدين أياً كان تاريخ اكتسابه » (٢٩) .

والواقع انه اذا كان الالتزام يرد عادة على عمل المدين وهو بالضرورة امر مسـتقبل ، فان الضمان المقرر لامكان تنفيذ هذا الالتزام هو أن الانسان قادر على الانتاج واكتساب حقـوق فى المستقبل . ولذلك فان الانسان لا يعدو فى حقيقة الأمر أن يكون **قدرة مستمرة على توليد الدخل** . ومن هنا فاذا نظرنا له ، من وجهة اقتصـادية بحتة ، نقول انه يصبح بذلك « ثروة » أو « راس مال » ـ وذلك بصرف النظر عما يصاحب هذه الاصطلاحات من نتائج ترفضها العقلية الحديثة ، وبخاصة ما ارتبط بفكرة راس المال من القدرة على التصرف والخضوع لحق الملكية ، وهى نتائج غير لازمة منطقياً (٣٠) . فاى التزام يعقده المدين انما تضمنه هذه القدرة المستمرة على الكسب ، هذه الثروة أو الذمة المالية كما فى اصطلاح القانونيين . ويمكن للدائن ان ينفذ حقه على ما حققته هذه « الثروة » أو « رأس المـال » من عناصر عندما يحين أجل تنفيذ الالتزام ، وذلك بصرف النظر عن تواريخ عقد الالتزام ونشوء الحق ، فالضمان ليس عناصر محددة بذاتها وانما الانسان كراس مال أو قدرة على الكسب . وبطبيعة الأحوال فان هذه القدرة على الكسـب تتحدد وتتعين عندما يموت الانسان ويتوقف نشـاطه ، ولذلك نفهم القاعـدة الشرعية : « لا تركـة الا بعد سـداد الديون » . فهنا تتحدد عناصر ذمة المتوفى على نحو محدد ومن ثم تعلق الديون بهذه العناصر المحددة .

• • •

---

(٢٩) اسماعيل غانم ، محاضرات فى النظرية العامة للحق ، المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٣٠) وقد ظهر اتجاه حديث فى الأدب الاقتصادى يشير الى اهمية راس المال الانسانى ويدعو خاصة للاستثمار فى الانسان فى التعليم والصحة وغير ذلك . وقد بدأ الاقتصاديون المحدثون يوجهون الاهتمام فى الدول المتخلفة خاصـة الى ضرورة الاهتمام بالاستثمار فى راس المال الانسانى . وتعتبر مقالة T.W. Schultz من اهم المقالات التى وجهت النظر الى اهمية راس المال الانسانى ، وقد ادت هذه المقالة الى ردود فعل كبيرة مما ادى الى مولد فروع جديدة فى علم الاقتصاد وبخاصة فى مجال اقتصاديات التعليم . وهو يرى ان فكرة راس المال الانسانى تجد عداء لدى الكثيرين لاسباب عاطفية وفلسفية . فالانسان الحر الذى لا يخضع للتصرفات يتنافى مع فكرة الانسان كثروة او راس مال وهو ما ارتبط فى اذهاننا بفكرة الملكية وفكرة التصرف . انظر :

T.W. Schultz, "Investment in human capital,, **American Economic Review**, vol. 51, 1961.

ــ الشخصية القانونية وظاهرة عدم القابلية للانقسام فى الحياة الاقتصادية ــ

١٠ ــ رأينا فيما سبق كيف أن الفن القانونى قد قام بخلق تصورات قانونية مناسبة لمواجهة حقائق الحياة الاقتصادية ، ورأينا بوجه خاص كيف أدت الحقوق العينية والحقوق الشخصية أو الالتزامات ــ الى تسهيل حركة الموارد الاقتصادية وحسن استخدامها . ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل وجب خلق أشخاص قانونية يخاطب بها القانون وتكتسب هذه الحقوق والالتزامات . فالحق يستند الى شخص يكون صاحباً له بحيث يستأثر وحده ــ دون غيره من الأشخاص ــ بالتمتع بما يخوله من سلطات وامكانات(٣١) . ومن هنا قام الترادف فى الاصطلاح القانونى بين صاحب الحق وبين « الشخص » .

وهنا نجد ايضاً ان القانون قد استقل بتصوراته القانونية ، فالاصطلاح « الشخص » له معنى قانونى محدد مرتبط بفكرته عن الحقوق ، ولا شأن لهذا التصور بفكرة الشخص كما نعرفها فى حياتنا اليومية أو كما تظهر فى علوم اخرى مثل الفلسفة او الأخلاق أو علم النفس أو فى الطب . وقد كان الخلط بين المعنى القانونى والمعانى الاخرى الشائعة « للشخص » من الأسباب الرئيسية الكامنة وراء ما أحاط مشكلة الشخصية القانونية من تعقيدات كثيرة . فالشخصية القانونية لا تناط بالأدراك أو الارادة ولا بالصفة الانسانية . وانما تناط بالحقوق واجبة الرعاية القانونية ومن تنسب له هذه الحقوق . وازاء هذا الاستقلال فى التصور القانونى للشخص ، فاننا نجد ان القانون يعرف الى جانب « الشخص الطبيعى » فكرة « الشخص الاعتبارى » أو « المعنوى » مثل الشركات والمؤسسات والجمعيات ، فهذه أشخاص فى نظر القانون قادرة على اكتساب الحقوق وتحمل الالتزامات ، بل ان أهم الأشخاص الاعتبارية هى الدولة ذاتها بما تباشره من حقوق وسلطات . وقد ثار خلاف فى الفقه حول طبيعة الشخص الاعتبارى ، فذهب اتجاه الى أنها حقيقة ولا فرق بينها وبين الشخص الطبيعى ، فى حين ذهب اتجاه آخر الى أن هذه الشخصية الاعتبارية لا تعدو أن تكون « مجازاً » قانونياً اريد به تحقيق أهداف معينة . ورغم أن مرجع الخلاف الأساسى يرجع الى الرغبة فى تحديد دور الدولة فى شئون الشخص الاعتبارى ، فلا يخفى أن الأفكار الشائعة عن الشخص قد ساعدت بدورها على تغذية هذا الخلاف . وفى نظر أنصار مذهب « الحقيقة » أن الشخصية الاعتبارية لا تقل حقيقة عن الشخصية الطبيعية ومن ثم فانه لا يجوز للدولة أن تتدخل بالتقييد فى تنظيم هذه الشخصية الاعتبارية . أما أنصار مذهب «المجاز» فهم يرون أن الشخصية الاعتبارية بكونها مجازاً يفرضه القانون ــ لا يكون لها وجود الا فى الحدود التى يقبلها الشارع وبالشروط التى يحددها . وهكذا فان أنصار مذهب المجاز يوسعون من دائرة تدخل الدولة فى شئون الشخصية الاعتبارية . ومع ذلك فانه فى الدولة الحديثة ونتيجة لتطورات المجتمعات الحديثة ولتأثير المبادىء الاجتماعية والاشتراكية ، قد صارت الدولة تتدخل فى شئون الشخص الطبيعى والشخص الاعتبارى على السواء (٣٢) . ولذلك لم يعد الفقه فى حاجة الى هذا الجدل حول طبيعة الشخص الاعتبارى لتأييد أو مناهضة تدخل الدولة . والرأى الراجح

---

(٣١) حسن كيره ، المدخل الى القانون ، المرجع السابق ، ص ٥١٣ .

(٣٢) اسماعيل غانم ، محاضرات فى النظرية العامة للحق ، ص ٢٢٨ .

بين الفقهاء هو اعتبار الشخصية الاعتبارية حقيقة واقعة . والواقع أن نظريات « المجاز » تقوم على فكرة قاصرة فى اساسها ، وهى عدم الاعتراف للقانون بخصائصه كعلم مستقل ، ومن ثم عدم الاعتراف له بحرية اختيار تصوراته وافكاره . فهناك دائماً فى مثل هذه الأحوال محاولة الاستناد الى افكارنا المستقرة والمستمدة من حياتنا اليومية . والحقيقة ان كل علم يخلق له مجموعة من التصورات التى تمكنه من دراسة الظاهرة محل البحث على افضل وجه ، أو من اقامة بناء فكرى متناسق يساعد على حسن استخلاص النتائج (كما فى الرياضة) وذلك دون اعتداد بافكارنا اليومية . بل ان افكارنا اليومية ذاتها لا تعدو ان تكون مجموعة من التصورات التى اثبتت صلاحية فى نوع معين من العلاقات ، وليس من الضرورى أن تصلح نفس التصورات فى أنواع اخرى من العلاقات ، ومن ثم لا يجوز اطلاقاً أن تتخذ هذه الأفكار اليومية معياراً لكافة التصورات الاخرى .

والاعتراف للقانون بقدرته على خلق تصوراته القانونية المستقلة ، ونفى فكرة المجاز عن الشخصية الاعتبارية لا يكفى لتبريرها . فهذه الفكرة كأداة من أدوات الصياغة القانونية ليست مقصودة لذاتها . وانما هى ترمى الى تحقيق هدف معين ، وتنحصر قيمة الأداة فى مدى صلاحيتها لتحقيق الهدف المقصود منها . والهدف المقصود من فكرة الشخصية الاعتبارية هو تحقيق الوحدة والاستمرار فى نشاط قانونى يمس مصالح أفراد متعددين منفردين (٣٣) . وتوجد أدوات وتصورات قانونية اخرى لتحقيق نفس الهدف ولكن العمل اثبت تفوق فكرة الشخصية الاعتبارية عليها . فالقوانين الانجلوسكسونية تعرف أدوات اخرى مثل امانة الصرف (Trust) وحيث يعتبر فرد معين ـ اميناً للصرف (Trustee) ومالكاً للأموال التى تعهد اليه مع الزامه بأن يتصرف فيها لمصلحة افراد آخرين أو لتحقيق غرض معين . كذلك فان الشريعة الاسلامية تعرف نظام الوقف ، حيث يحبس مال معين لغرض معين . ومع ذلك فمما لا جدال فيه أن فكرة الشخصية الاعتبارية تفضل نظام امانة الصرف ونظام الوقف ، ومن هنا كان انتشارها الواسع حتى أنها دخلت القانون الانجليزى ذاته .

١١ ـ والواقع أنه اذا كان وجود الشخصية القانونية نتيجة منطقية لوجود الحقوق والالتزامات ، فان التساؤل يثور لماذا اذن تنسب بعض الحقوق والالتزامات لغير الأشخاص الطبيعيين .. ؟ بطبيعة الأحوال هناك اسباب عديدة لا يمكن حصرها ، ولكننا سنحاول ـ جرياً على الاسلوب الذى اتبعناه ـ البحث عن بعض الحقائق الاقتصادية الأولية التى قد تعطى تفسيراً لذلك . ولا نزعم أن هذه الحقائق الأولية كافية لاعطاء التفسير الكامل ، ولكنها ضرورية لالقاء بعض الضوء على كثير من النظم الاجتماعية المتعددة التى اخترعها الانسان لمواجهة بعض الخصائص الأولية لنظم الانتاج وبصفة عامة الحقائق الاقتصادية .

لعل من أهم الأشخاص الاعتبارية التى عرفها العصر الحديث والتى اثرت تأثيراً واضحاً على الحياة الاقتصادية ، **الشركات المساهمة** . ويرى احد كبار فقهاء القانون انه رغم أن فكرة عقد الشركة فكرة قديمة ، الا أن فكرة الشركة المساهمة تُعتبر فى ذاتها ثورة جديدة وتطوراً أساسياً فى حياة النظام الراسمالى (٣٤) . فقد أدت هذه الفكرة الى خلق تجارة بلا تجار !

هناك ظاهرة أساسية فى الحياة الاقتصادية وهى **عدم القابلية للانقسام** (indivisibility) فليست كل الكميات الاقتصادية قابلة للانقسام والتجزئة الى اى حد نريد ، بل ان هناك دائماً

---

(٣٣) الرجع السابق ، ص ٣٣١ .

(٣٤) Cf. G. Ripert, op. cit., p. 49.

حدودا دنيـا لا يمكن مجاوزتهـا . وقد تحدث الاقتصاديون (٣٥) منذ زمن بعيد عما أسموه بمزايا الانتاج الكبير (Economies of scale) أو مزايا الحجم الكبير ، ذلك أن زيـادة حجم المشروع تؤدى الى زيادة فى الانتاج اكبر من الزيادة النسبية فى عناصر الانتاج المستخدمة . فمضاعفة حجم المشروع قد تؤدى الى زيادة فى الانتاج أكبر من الضـعف . والسبب فى ذلك هو أن المشروع الكبير يستطيع الافادة من مزايا لا تقبل بطبيعتها الانقسام ومن ثم يحرم منها المشروع الصـغير . وهذه المزايا عديدة : مزايا فى الادارة ، مزايا فى الفن الانتاجى باستخدام نوع من الآلات أو من الطاقة الذى لا يقبل التجزئة ، مزايا فى الحصول على أنواع من العمل الماهر ، امكانيات أكبر فى دراسة الأسواق ... الخ . ووراء كل هذه المزايا للانتاج الكبير حقيقة أساسية هى ان بعض الكميات الاقتصادية لا تقبل الانقسـام والتجزئة . وهذه الحقيقـة نفسها وجدت مقاومة للدخول فى علم الاقتصاد نفسه ، بحيث أننا نجد ان فكرة المنافسة الكاملة لا زالت حتى الآن هى النموذج النظرى الأساسى فى النظرية الاقتصادية . والسبب فى ذلك هو ان هذه المنافسة الكاملة تستبعد تماماً فكرة مزايا الحجم أو النطـاق . **وقد خضع الاقتصـاد فى ذلك لتأثير العلوم الطبيعية** . فقد حققت العلوم الطبيعية تقدماً هائلاً لادخال فكـرة المتناهى فى الصغر (infinitesimale) وما ترتب عليها من دراسة معدل التغيير الذى يلحق أحد المتغيرات نتيجة لتغيير متناه فى الصغر للمتغير المستقل . وقد ادت هذه الأفكار بليبنتز ونيوتن فى القرن السابع عشر الى اكتشاف قواعد التحليل الرياضى (التفاضل والتكامل) ومـا ترتب على ذلك من نتائج هامة فى جميع العلوم الطبيعيـة . وهذه الفكرة تفترض القابلية للانقسـام والتجزئة بما يسمح باحداث تغيير صغير جداً (متناه فى الصغر حتى يقترب من الصفر) .

وهذه الفكرة نفسها عرفها الاقتصاد متاخراً بقرنين من الزمان، عندما قام ثلاثة من الاقتصاديين منفردين وفى أماكن مختلفة بتقديم أساس التحليل الحدى (كارل منجر فى النمسا ، ليون فالراس فى سويسره ، وستانلى جيفونز فى انجلترا) حوالى سنة ١٨٧٠ . وتقوم النظرية الحدية على دراسة ماذا يحدث فى أحـد المتغيرات اذا حـدث تغيير طفيف جداً فى أحد المتغيرات الاخرى (يكاد يقترب من الصفر) . ومن الواضح أن صلة القرابة قوية بين هذا التحليل الحدى فى الاقتصاد والتحليل الرياضى فى العلـوم الطبيعيـة . وقد قدم هذا التحليل الحدى نتائج باهرة فى الاقتصاد الى جانب انه ساعد على اناقة عرض النظريات الاقتصادية . ولكن هذا التحليل الحدى يفترض أيضاً القابلية للانقسام والتجزئة حتى نستطيع ان نأخذ تغييراً صغيراً جداً . وهذا هو ما يطبع النظرية الاقتصادية بصفة عامة حتى الآن . ولذلك فان نتائج ظاهرة عدم القابلية للانقسام لا زالت تمثل فى النظرية الاقتصادية وضعاً استثنائياً ولم تحتل مكانتها الطبيعية التى تتفق وحجم هذه الظاهرة فى الحياة الاقتصـادية . فمعظم الآلات الحديثـة لا يمكن استخدامها الا بحجم أدنى معين ، ودون ذلـك الحجم لا يتصور استخدام نفس الآلة ، وهكذا يجب استخدام أنواع أقل كفاءة . ومثـل ذلك يقال فى أنواع كثيرة من الطاقة . ولعل أبرز الأمثلة على عدم امكان التجزئة هو الطاقة الذرية . فمن المعروف أن الطاقة الذرية تولد طاقة كبيرة جداً ، وحيثما نكون بحاجة الى هذه الطاقـة الضخمة فانها تكون أرخص من غيرها من أنواع الطاقـة الاخرى . ولكن هذه الطاقة الذريـة لا تنتج الا

---

(٣٥) يراجع كتابنا : المجتمع التكنولوجى الحديث ، ص ٢٨ وما بعدها .

باحجام ضخمة بحيث لا يمكن استخدامها الا فى مشروعات ضخمة جداً . فهى لا تقبل الانقسام . فهذه الطاقة قد تكون أرخص من البترول بالنسبة لمشروعات ضخمة جداً مثل ازالة بعض الجبال أو تمهيد الأرض أو انشاء سفينة تدور حول الأرض عدة مرات . ولكن لن يأتى اليوم ــ على الأقل فى المدى المعقول ــ الذى تستخدم فيه هذه الطاقة لاشعال ولاعة للسجائر !

وقد عرف العصر الحديث نوعاً جديداً من العناصر التى لا تقبل الانقسام وهو مجال البحث العلمى . فأهم ما يميز البحث العلمى فى العصر الحديث هو أن التقدم العلمى لم يعد نتيجة عمل فرد عبقرى بقدر ما هو نتيجة لعمل مجموعة كبيرة من الباحثين فى فروع مختلفة ومتكاملة ، وبحيث تتوافر لهم امكانيات مالية ومعملية ضخمة جداً تمكنهم من اجراء البحوث والتجارب . وهكذا نجد أن البحث هو من أهم المجالات التى تظهر فيها مزايا الانتاج الكبير . ولذلك فلا عجب ان نجد أن التقدم انما يحدث فى المشروعات الكبيرة والعملاقة . بل ان التقدم يحدث ايضاً فى أكثر الدول غنى (الولايات المتحدة الأمريكية) .

وازاء ظاهرة عدم القابلية للانقسام ، فان جهود الفرد بل جهود أفراد قلائل تعجز عن توفير الامكانيات اللازمة للحصول على هذه الكميات الاقتصادية غير القابلة للانقسام والضرورية لتحقيق الكفاية فى الانتاج . الا تكون الشركة المساهمة تصوراً قانونياً مناسباً فى هذه الحالة لتخطى عقبة عدم القابلية للانقسام .. ؟

١٢ ــ ولنحاول الآن أن ننظر الى ظاهرة عدم القابلية للانقسام من زاوية اخرى وعلاقاتها بانشاء أشخاص قانونية اعتبارية . اذا نظرنا الى المنافع التى نحصل عليها من السلع والخدمات نجد أن بعضها لا يقبل الانقسام ولا يمكن تخصيصها وقصرها على فرد أو أفراد معينين وانما تشيع هذه المنافع بين الجميع دون امكان تحديد حصة كل واحد أو دون امكان منع احد من الافادة من هذه المنافع الشائعة . ولذلك يعمد علماء المالية (٢٦) الى التمييز فيما بين السلع والخدمات. فهناك سلع وخدمات تخضع لما يسمى **بمبدأ القصر** (The exclusion principle) **بمعنى أن منفعتها** تعود على صاحبها وحده . وهناك سلع وخدمات لا **تخضع لهذا المبدأ وهى التى تشيع** منفعتها بين الجميع . وهذه السلع والخدمات التى لا تخضع لمبدأ القصر لا يمكن ان تترك لجهاز السوق والملكية الخاصة اذ انه سوف يستحيل فى هذه الحالة الزام اى فرد بدفع ثمن السلعة او الخدمة ، طالما أنه يعرف ان فائدتها ستعم ، اذن لماذا يدفع ! فخدمات الدفاع أو الأمن أو تجميل المدينة او مكافحة التلوث ... هذه الخدمات كلها لا تخضع لمبدأ القصر ومن ثم فلا يمكن ان تترك لكى تقدم مقابل الأثمان . ولكنها مع ذلك خدمات ضرورية للجميع ولا بد أن تؤدى عن طريق آخر . هنا نجد أنفسنا فى حاجة الى انشاء شخص اعتبارى عام : الدولة ، المحافظة ... الخ ، لكى تؤدى هذه الخدمات لجميع الأفراد . ونفس المنطق يؤدى الى انشاء أشخاص اعتبارية عامة لحماية المصلحة العامة ، مثل حماية الرأى العام كما فى انجلترا حيث يدير هيئة الاذاعة شخص اعتبارى ، وهكذا .

١٣ ــ ولا يستند وجود فكرة الشخص الاعتبارى الى هذه الحقيقة الأولية : عدم القابلية

---

(٣٦) Cf. Richard A. Musgrave, **The Theory of Public Finance**, McGraw Hill, 1959.

للانقسام وحدها ، فهناك حقائق اخرى تستلزم هذا التصور القانونى . ولكننا أردنا أن نبين الى أى حد تتطلب حقائق بسيطة وأولية مفاهيم متعددة . ويمكن هنا أن نشير الى حقيقة الامتداد الزمنى للنشاط الاقتصادى – والتى سبق ان تعرضنا لها – فقد تتطلب ايضاً وجود هذا التصور القانونى للشخص الاعتبارى . فاذا كان النشاط الاقتصادى بطبيعته ممتداً فى الزمان بحيث لا يظهر الناتج النهائى الا بعد فترة ، فان التقدم الاقتصادى نفسه يحتاج الى مرور وقت . وفى كثير من الأحوال لا تنجح مشروعات انتاجية فى اكتساب خبرتها وفى تحقيق الكفاءة الاقتصادية الا بعد مرور وقت طويل يجاوز حياة الفرد . فهنا نحن نحتاج الى شكل قانونى يسمح بالاستمرار دون توقف على حياة فرد أو افراد . ولذلك فان فكرة الشخص الاعتبارى قد تكون اداة قانونية فذة لتحقيق هذا الفرض .

●●●

– الترابط الاقتصادى والسيطرة الاقتصادية –

١٤ – اشرنا فيما سبق الى أن الحياة الاقتصادية قائمة على عديد من الوحدات الاقتصادية ، وقد رأينا بعض نتائج هذه الحقيقة على التصورات القانونية . على أن التعدد فى الحياة الاقتصادية لا يعنى فقط الكثرة ، وانما يعنى فوق ذلك الترابط بين هذه الوحدات واعتمادها على بعضها البعض . وقد كان الاقتصاديون يدركون دائماً أن العلاقات الاقتصادية مترابطة ، الا أن هذا النظر لم يستقر ولم يأخذ شكلاً محدداً وصريحاً الا منذ نهاية القرن التاسع عشر (٢٧) . فقد استقر الاتجاه على النظر الى الاقتصاد باعتباره كلاً مترابطاً لا يمكن فصل اجزائه ودراستها منفصلة ، فكل جزء يتوقف على ما يتم فى الأجزاء الاخرى . وقد ظهر ذلك بوجه خاص فى أعمال **فالراس وباريتو** وهى ما تعرف بنظريات التوازن الشامل . ومع ذلك فنظراً لكثير من الصعوبات العملية فقد ظل نموذج التوازن الشامل مسألة نظرية ، ولجأ الاقتصاديون على العكس الى اسلوب أيسر لمعالجة المشاكل الاقتصادية وهو ما يعرف « **بالتحليل الجزئى** » (وخاصة مع الفرد مارشال) . ولذلك فقد ظلت فكرة الترابط فى أجزاء الاقتصاد على نحو ما عرضته نظريات التوازن الشامل ، مجرد نموذج نظرى ليس له أى تطبيق عملى . وقد ظل الأمر على هذا النحو حتى اخرج الاقتصادى الأمريكى – الروسى الأصل ليونتييف – دراسة عن جداول المستخدم / المنتج (input/output) للولايات المتحدة الأمريكية (٢٨) . وتعتمد دراسة المستخدم/المنتج على الترابط فى أجزاء الاقتصاد كما تظهر فى الترابط الفنى للانتاج . فالانتاج فى كل صناعة يعتمد على استخدام مواد اولية ونصف مصنوعة منتجة فى صناعات اخرى ، وهكذا تقوم سلسلة من العلاقات المتداخلة بين الصناعات المختلفة قبل ظهور الناتج النهائى فى سوق الاستهلاك والاستثمار والصادرات . وهذا الترابط أو التداخل بين الصناعات المختلفة هو الذى يجعل كل صناعة حلقة فى سلسلة طويلة من العمليات الانتاجية . ولذلك فانه لا يمكن دراسة توازن صناعة واحدة مستقلة عن شروط التوازن فى الاقتصاد الكلى . ومن الواضح أن هذا المظهر من مظاهر الترابط هو تطبيق مباشر لأفكار « فالراس » فى الترابط من ناحية العرض .

---

(٢٧) تناولنا هذه الموضوعات فى كتابنا : المجتمع التكنولوجى الحديث .

(٢٨) Cf. W. Leontief, The Structure of the American Economy, 1919,—1939, Oxford University Press, 1951.

وقد اظهرت دراسات المستخدم / المنتج فائدة هامة لمعرفة سلوك الاقتصاد فى الدول المتقدمة . فقد كان الفرض من دراسة « ليونتييف » ابراز اهمية الطلب غير المباشر الناتج عن الترابط الصناعى ، الى جانب الطلب المباشر الناجم عن طلب السوق النهائية (الاستهلاك ، الاستثمار ، الصادرات) ، وظهر أنه فى كثير من الأحوال يكون هذا الطلب غير المباشر من الأهمية بمكان . ولذلك فان اتخاذ اية قرارات اقتصادية دون مراعاة هذا الشكل للترابط يؤدى الى ظهور اختناقات شديدة فى الاقتصاد .

وقد اتضح انه كلما زاد التقدم الاقتصادى كلما زاد الترابط الاقتصادى بين الوحدات المنتجة وكلما زاد التداخل الصناعى . وقد حاول بعض الاقتصاديين أن يستخدم هذا الاسلوب لدراسة اقتصاديات الدول المتخلفة ، وكانت النتيجة أن جداول المستخدم / المنتج لهذه الدول كانت تظهر خالية من خاناتها (٣٩) وهو ما يعنى أن الترابط الاقتصادى بين الصناعات وبين الوحدات المختلفة لا زال ضعيفاً فى هذه الدول . **وعلى ذلك فانه مع زيادة التقدم والنمو الاقتصادى يزداد الترابط بين القطاعات تأكيداً .**

والظاهرة الثانية للترابط الاقتصادى ، هى عدم التماثل assymetry **فى النمو وظهور صناعات مسيطرة بحسب وضعها الفنى فى سوق الانتاج .** فرغم أن التطور قد ادى الى مزيد من الترابط والاندماج بين الصناعات المختلفة ، فان هذا التطور قد ادى الى ظهور علاقات سيطرة وتدرج رئاسى . فهناك صناعات تتخذ مركزاً اساسياً فى هيكل الانتاج بحيث تكاد تعتمد عليها الصناعات الاخرى بشكل أكثر من غيرها . وهذه الصناعات تمثل فى الواقع مكانة هامة لأنها تتمتع الى حد كبير بسلطة التأثير فى الصناعات الاخرى . **وهكذا نجد أن ازدياد الترابط فى الاقتصاد قد اصطحب بظهور نوع السيطرة الاقتصادية .** وهو أمر يتأكد ، الى جانب ما اشرنا اليه الآن من الانتماء الى منطقة ديناميكية ، بأسباب اخرى منها الفارق فى الحجم وفى القوة التعاقدية الناجم عن الوحدات الكبيرة والتى أشرنا الى أن مزايا الانتاج الكبير تحبذها (٤٠) .

ولذلك نستطيع أن نخلص بأن التطور قد ادى الى مزيد من الترابط والاندماج بين قرارات الوحدة الاقتصادية . واظهر فى نفس الوقت وجود وحدات استراتيجية تؤثر قراراتها بشكل اخطر فى الاقتصاد القومى فى مجموعه .

١٥ ــ **ونستطيع أن نجد فى القانون مجموعة من التصورات القانونية الفنية التى تسمح بترجمة هذا الترابط الاقتصادى الى حقائق قانونية .** فالقانون يتدخل باستمرار لوضع القيود على كثير من أوجه النشاط رعاية للمصلحة العامة ، وقد يصل الأمر ــ عندما يتضح أن التأثير فى الغير من الأهمية بمكان ــ الى نقل النشاط كلية الى مجال النشاط العام وسحبه من دائرة النشاط الخاص للأفراد . ولذلك فان كثيراً من التأميمات تجد تبريرها الاقتصادى فيما يباشره نوع معين من النشاط من تأثير على الحياة العامة ومن ثم لايمكن تركه للنشاط الخاص ، أو بعبارة اخرى فان ما يباشره هذا النشاط من تأثيرات فى التوازن الاقتصادى العام أهم من أن يترك للقطاع الخاص

---

(٣٩) Cf. Peacock, Dosser, "Input-Output in Underdeveloped Countries," **Riview of Economic Studies**, Vo. 25, 1957.

(٤٠) Cf. F. Perroux, **L'Economie du XX°Siécle**, P.U.F., Paris, 1964, p. 27.

كعنصر من عناصر التوازن الخاص . ولن نتعرض فى هذا المكان الى هذه الصور من التدخل القانونى مراعاة لأهمية الترابط فى الحياة الاقتصادية ، وانما نقتصر على ابراز التطور الحديث فى فكرة الحق ذاتها ، وهو تطور يأخذ فى الاعتبار ما ينجم عن الحياة الاقتصادية من ترابط وتداخل . فاذا كان الحق فى جوهره سلطة استئثار واختصاص لفرد ، فان الاتجاه هو نحو ابراز الوظيفة الاجتماعية للحق ، وان السلطة التى يضيفها الحق انما ترتبط بما يمثله « من قيمة معينة يعترف بها القانون ويحميها لغاية معينة اذ بذلك ترتهن حماية القانون للحق وصاحبه بالتزام هذه الغاية وترتفع بالانحراف عنها . ذلك أن الحقوق (بما تخوله من سلطات استثنائية معينة لبعض الأشخاص دون بعض او على حساب بعض ، وبما تؤدى اليه من وضع الأفراد فى مراكز غير متساوية قبل بعضهم البعض) لا يتصور أن تكون مقررة بوصفها غاية فى ذاتها وانما بوصفها وسيلة لادراك غاية معينة » (٤١) . وهكذا ظهرت فكرة **التعسف فى استعمال الحقوق** . ورغم أن جذور هذه النظرية تمتد الى الماضى بحيث نجد لها اصولاً فى القانون الرومانى وفى الشريعة الاسلامية ، الا انها لم تستقر كنظرية عامة لفكرة الحق الا حديثاً . فقد كان حق الملكية مثلاً يُنظر اليه كحق مطلق . بل بلغ من الاعتقاد فى اطلاق ما يخوله من سلطات أن ذهب البعض الى تعريفه بأنه يخول صاحب الحق فى استعمال الشيء والانتفاع به وفى « اساءة استعماله » (abuser) .

ونظرية التعسف فى استعمال الحق تختلف عن « الخروج عن الحق او مجاوزته » (٤٢) فوفقاً لتلك النظرية يكون استعمال الحق غير مشروع رغم أن صاحبه يكون فى حدود حقه ولم يتجاوز نطاقه ، ولكنه فى استعمال هذا الحق كان متعسفاً . وهكذا نجد أن نظرية التعسف فى استعمال الحقوق تؤكد أن الفرد فى استعماله لحقه وفى نطاق هذا الحق عليه أن يراعى ما يترتب على عمله من تأثير فى علاقات الآخرين . **ولذلك تنص المادة ٥ من القانون المدنى المصرى – على سبيل المثال – على ما يأتى :**

« يكون استعمال الحق غير مشروع فى الأحوال الآتية :

أ – اذا لم يقصد به سوى الاضرار بالغير .

ب – اذا كانت المصالح التى يرمى الى تحقيقها قليلة الأهمية بحيث لا تتناسب البتة مع ما يصيب الغير من ضرر بسببها .

جـ – اذا كانت المصالح التى يرمى الى تحقيقها غير مشروعة » .

ونجد تطبيقاً واضحاً لهذه الفكرة فى صدد حق الملكية ، وهو أقوى الحقوق ، فتقول المادة ٨٠٧ من نفس القانون : « على المالك الا يغلو فى استعمال حقه الى حد يضر بملك الغير » .

وسبق أن اشرنا الى ما ادى اليه تطور الترابط الاقتصادى من ظهور نوع من السيطرة والتسلط الاقتصادى لبعض الوحدات على البعض الآخر ، بحيث اصبحت بعض الوحدات قادرة على احداث تأثير فى وحدات اخرى دون أن تكون هذه الأخيرة قادرة على احداث نفس الأثر فى الاولى أو دون المقدرة على احداثه بنفس الدرجة . وهكذا اصبحت القوة والسلطة والقهر من

---

(٤١) حسن كيره ، المدخل الى القانون ، المرجع السابق ، ص ٧٦١ .

(٤٢) حسن كيره ، نفس المرجع السابق ، و : شمس الوكيل ، مبادىء القانون ، المرجع السابق ، ص ٣٩١ .

موضوعات الاهتمام بالاقتصاد السياسى . وقداثر ذلك على شكل التنظيم القانونى . فسوف نشير الى أن هنـاك اتجاهاً لتحـويل النشـاط الاقتصادى المسيطر الى القطاع العام وحيث تكون الوسيلة القانونيـة المستخدمة هى اجـراءات « السـلطة الاداريـة » **بدلا من ميدان العقد** والتراضى . ولكننا نود هنا أن نشير الى انه حتى فى الميدان الذى ظل متروكاً للعقد وارادة الأفراد فان القانون قد تدخل بأفكار وتصورات جديدة لاتترك للقهر الاقتصادى للطرف الأقوى سلطة مطلقة بلا حدود ، بل تتدخـل لتحديد ارادة الطـرف القوى (**عقود الاذعان**) . كذلك اذا قامت ظروف طارئة تجعل تنفيذ الالتزام مرهقاً (**نظرية الظروف الطارئة**) ، « ففى هاتين الحالتين وغيرهما ، فان العقد يكون مخالفـاً للعدل وليس معبراً عنـه ، ولذلك يكون من الواجب البحث عن وسيلة اخرى تنظم العلاقة بين طرفى هذا العقد تحل محل ارادة المتعاقدين ، وهذه الوسـيلة الاخرى قد تكـون ارادة القاضى أو ارادة المشرع » . والواقع أن من أهم تطبيقات فكرة السيطرة الاقتصادية فى ميدان العقود ظهور فكرة عقود الاذعان ، وحيث « يكون القبول مجرد اذعان لما **يمليه الموجب ، فالقابل** للعقد لم يصدر قبوله بعد مناقشة ومفاوضة ، فهو مضطر الى القبول » (٤٣) . ومن امثلة ذلك عقود اشـتراكات التليفـون والكهرباء والنقـل وغيرها . فتنص المادة ١٤٩ من القانـون المدنى المصرى ــ على سبيل المثال ــ على أنه « اذا تم العقد بطريق الاذعان ، وكان قد تضمن شروطاً تعسفية ، جاز للقاضى أن يعدل هذه الشروط أو أن يعفى الطرف المذعن منها ، وذلك وفقاً لما تقضى به العدالة . ويقع باطلا كل اتفاق على خـلاف ذلك » . واذا كانت القاعدة العامة فى التفسير ان « يفسر الشك فى مصلحة المدين » ، فانه أيضاً « لا يجوز أن يكون تفسير العبارات الغامضة فى عقود الاذعان ضاراً بمصلحة الطـرف المذعن » (مادة ١٥١ مدنى مصرى) .

• • •

ــ قوانين الأعداد الكبيرة ، التوزيع الاحصائى للظواهر ــ

١٦ ــ الحياة الاقتصـادية تعرف نوعاً من الانتظام الاحصائى . فالقوانين الاجتماعية ، ومنها القوانين الاقتصادية ، تشـبه القوانين الطبيعية فيما يتعلق بانتظامها وانضباطها ، ولكنها فى معظم الأحيان تخضع لتوزيع احتمالى . فمعظم القوانين الاقتصادية هى من قبيل القوانين الاحصـائية ، بمعنى أنه يمكن معرفة التوزيع الاحصائى لظاهرة معينة بدرجة معينـة من الاحتمال فى الأعـداد الكبيرة . وقد تقدمت دراسة هذه الظواهر بشكل كبير مع تطور النظـريات الرياضـية لقـوانين الاحتمالات . فنحن الآن على مقدرة لمعرفة التوزيع الاحصائى لظاهرة معينة بكثير من الدقة ، ولكن يستحيل معرفة حدوث الظاهرة بالنسـبة لفرد معين أو لعدد محدود من الأفراد . فهذه القوانين تعطى نتائج نافعة جداً فى الأعداد الكبيرة ، ولكنها تكاد تكـون عديمة النفع فى الأعداد الصـغيرة . فنسبة الذكور الى البنات فى المواليد تقدر بدرجة كبيرة من الدقة فى الأعداد الكبيرة ، وهناك اكثر قليلا من النصف احتمال أن يكون المولود ذكراً . ولكن ليس معنى ذلك اننا نسـتطيع ان نعرف بالنسبة لعائلة معينة ما اذا كان مولودها المنتظر ذكراً أم أنثى حتى لو تعدد عدد الأولاد فى هذه

(٤٣) السنهورى ، الوسيط ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

العائلــة . وعلى العكس فعلى نطاق الدولــة أوالاقليم نستطيع أن نحدد عدد الذكــور والاناث بدرجة كبــيرة من الاحتمال . واذا كانت معظم القــوانين الاقتصــادية هى من قبيــل القوانين الاحصائية ، فان العلوم الطبيعية ذاتها تعرف الآن مزيداً من القوانين الاحصائية التى تحكم الظواهر الطبيعية فى سرعة النواة ومكانها ، وغير ذلك .وفى مواجهة هذه الظواهر الاحصائية لا بد وأن نستخدم وسائل مناسبة .

ومن الظواهر التى تخضــع لهذا التوزيع الاحصائى الوفاة والحــوادث والمخاطر . فهذه الامور يمكن معرفة قوانين توزيعها الاحصائى بدرجة كبيرة من الاحتمال فى الأعداد الكبيرة ، وهى امور وثيقة الصلة بالحياة الاقتصادية لما يترتب عليها من تأثير على نشاط الوحدة الاقتصــــادية بوفــاة الشخص نفسه أو بوقــوع حادث له أو لعناصر الانتاج التى يستخدمها أو بتعرضه أو تعرضــها لبعض المخاطــر . ولذلــك فان حســن الادارة الاقتصادية يقتضى الاحتياط والعمل مقدماً على تخفيف الأضرار الناجمة عنها . وهذه الأحداث رغم أنه يمكن معرفة حجمها بدرجــة كبيرة من الاحتمال فى الأعداد الكبيرة ، فانها فى حياة الوحدة الاقتصادية أمر مستحيل التنبؤ به . وقد قدم الفكر القانونى لهذا النوع من الظواهر فكرة **عقد التامين** . « والتأمين عقد يلتزم المؤمن بمقتضاه أن يؤدى الى المؤمن له ، أو الى المســـتفيد الذى اشترط التامين لصالحه ، مبلغاً من المال أو ايراداً مرتباً أو اى عوض مالى آخــر فى حالة وقــوع الحادث أو تحقق الخطر المبين فى العقد ، وذلك نظير قسط أو اية دفعة مالية اخرى يؤديها المؤمن له للمؤمن » (٤٤) . « والتعريف على هذا النحو يصلح تعريفاً وافياً لعقد التامين من احد جانبيه ، جانب العلاقة ما بين المؤمن والمؤمن له . ولكن للتامين جانباً آخر ولا يمكن فهم التامين على الوجه الصحيح دون أن يوضع هذا الجانب محل الاعتبار الأول . فشركة التامين لا تبرم عقد التامين مع مؤمن له واحد ، أو مع عدد قليل من المؤمن لهم ... ولكن الشركة تتعاقد مع عدد كبير من المؤمن لهم ، وتتقاضى من كل منهم مقابل التأمين ، ومن مجموع ما تتقاضاه من هؤلاء جميعاً تعوض العدد القليل . لأنها تحسب مقابل التأمين على أساس فن مستمد من الاحصاء ... فالتأمين اذا نظر اليه من الجانب الآخر وهو العلاقة ما بين الشركة ومجموع المؤمن لهم لا يحمل طابع المقامرة أو الرهان » (٤٥) . وقد أثارت فكرة التأمين جدلاً كبيراً بين الفقهاء ، وخاصة بين رجال الشريعة الاسلامية ، نظراً لما قد يشوبه من فكرة المقامرة والرهان . والمقامرة توافق الرهان فى أن حــق المتعاقد فى كل منهما يتوقف على واقعة غير محققة ، هى أن يكســب المقامر اللعب فى المقامرة أو أن يصدق قول المتراهن فى الرهان (٤٦) . وقد كثرت الفتــاوى الشرعيــة فى التأمين ، بعضها يحلله والبعض يحرمه ، وان كان يبدو ان الاتجاه الغالب الآن هو نحو الاعتراف بمشروعيته . ونعتقد أن الفارق بين التأمين وعقود المقامرة أو الرهان فارق كبير وخطير . ففى حالة التأمين هناك معرفة بالتوزيع الاحصائى للظاهرة محل التأمين ، وهذه المعرفة وان كانت غير ممكنة فى الأعداد الصغيرة ، فهى معروفة بدرجة كبيرة من الاحتمال فى الأعداد الكبيرة . وبعبارة أخــرى نحن نعرف قانون التوزيع الاحصائى . أما فى حالة الرهان أو المقامرة فانه لا يوجد مثل هذا القانون

---

(٤٤) السنهورى ، الوسيط ، ج ٧ ، ص ١٠٨٤ .

(٤٥) السنهورى ، المرجع السابق ، ص ١٠٨٦ .

(٤٦) السنهورى ، نفس المرجع السابق ، ص ٩٨٦ .

ونحن لا نعرف شيئاً عن توزيع الظاهرة فى الأعداد الصغيرة أو فى الأعداد الكبيرة . **وهذه التفرقة قدمها الاقتصادى فردريك نايت** F. Knight **عندما ميز بين المخاطر** (risks) **وبين عدم اليقين** (incertainty) (٤٧) ، فالمخاطر يمكن معرفة توزيعها الاحصائى ومن ثم معرفة **قانونها بعكس عدم اليقين**. وعلى ذلك فمعرفتنا بالمخاطر دقيقة وان كانت احتمالية ، وتزداد هذه الدقة كلما زادت الأعداد محل الملاحظة . وفى مثل هذه الحالة فان التأمين ضد هذه المخاطر لأعداد كبيرة وتوزيع الأقساط على هذه الأعداد ، لا يعدو ان يكون وسيلة فنية مناسبة لتحقيق الرشادة الاقتصادية فى مواجهة نفقات هذه المخاطر على الجماعة بأقل تكاليف ممكنة على كل فرد من أفراد هذه الجماعة . والواقع ان اهمية التأمين تتزايد باستمرار . فالمخاطر بصفة عامة التى تنشأ نتيجة حسن استغلال الموارد الاقتصادية وزيادته ، تكون عادة ذات توزيع احصائى يمكن من تقدير قانون توزيعها بدرجة كبيرة من الاحتمال فى الأعداد الكبيرة .

١٧ ـ والأخذ باسلوب التأمين لا يقتصر على عقود التأمين بل انه أصبح نظاماً قانونياً يستخدم فى مجالات متعددة . فنظم التأمين والمعاشات ، وهى نظم قانونية مختلفة عن فكرة العقود ـ تقوم على نفس المبدأ بتوزيع الأعباء على الأعداد الكبيرة لمواجهة **نوع من الأحداث ذات التوزيع الاحصائى المعروف** .

ونجد تطبيقاً هاماً لفكرة الأعداد الكبيرة فى مجال **المؤسسات المالية الوسيطة وبصفة خاصة البنوك** . فالبنوك ـ كما نعلم ـ مؤسسات تتعامل فى الائتمان ، وهى تقوم الى حد بعيد ، بدور الوسيط بين جمهور المقرضين وجمهور المقترضين . واذا كنا قد ورثنا منذ أرسطو النظر الى اقراض النقود نظرة الريبة والشك ، واعتبار الفائدة التى يحصل عليها المقرض من قبيل الكسب غير الأخلاقى (وهى نظرة نجدها فى كثير من الأديان وبعض القوانين الوضعية) ـ فان مرد ذلك يرجع الى ان التنظيم السائد فى اقراض النقود كان تنظيماً قاصراً ومن ثم فقد أدى الى ظهور حالات شاذة . فالتنظيم القديم لفكرة الاقراض لم يأخذ فى الاعتبار فكرة الأعداد الكبيرة فى توزيع مخاطر الاقراض . فاذا امعنا النظر ، لوجدنا أن المقرض يتعرض دوماً لكثير من المخاطر اذا صادف مديناً مفلساً أو غير أمين ، وهو خطر قد يصيب المقرض فى كل أوفى نسبة كبيرة من رأسماله . كذلك هناك دائماً حاجة المقرض غير المتوقعة لبعض النفقات **لمواجهة ظروف طارئة** . وهذه المخاطر وغيرها يصعب تقديرها بالنسبة لأى فرد ، وهى اذا أصابت فرداً عرضته لأضرار رهيبة . ولذلك فمن الطبيعى ان نتوقع ان يعمد المقرض الى المطالبة بفائدة عالية لمواجهة هذه المخاطر الجسيمة . اما اذا اخذنا عدداً كبيراً من المقرضين والمقترضين ، فانه يمكن معرفة توزيع المخاطر المتقدمة بدرجة كبيرة من الاحتمال ، فضلاً عن أن توزيع هذه المخاطر على عدد كبير من شأنه ان يقلل الأضرار التى يمكن أن تلحق كل فرد على حدة . فحالات الغش أو عسر المدينين تخضع لنوع من التوزيع الاحصائى . وهكذا نجد المبدأ وراء ظهور البنوك كوسيط يجمع مدخرات الدائنين ليضعها تحت تصرف المدينين . وبذلك يكون البنك أقدر على الاقراض بأسعار فائدة معقولة وتقل كثيراً عن **أسعار الفائدة التى كان يحصل عليها المرابون** . وهكذا نجد ان البنوك تؤدى خدمة أساسية للاقتصاد القومى ، اذ انها تقدم الائتمان بأقل التكاليف الممكنة .

---

(٤٧) Cf. F. Knight, Risk, Uncertainty and Profit, New York, 1921.

والتطبيقات المتقدمة والتى تأخذ فى الاعتبار قانون الأعداد الكبيرة ، ما هى الا انصياع لفكرة سابقة أشرنا اليها ، وهى مزايا الانتاج الكبير الناجمة عن ظاهرة عدم القابلية للانقسام . وهنا نجد أن قانون التوزيع الاحصائى لظاهرة معينة غير قائم فى حالة الوحدات القليلة ، وانه يظهر فقط فى الأعداد الكبيرة مما يتيح للوحدات والمشروعات الكبيرة المقدرة على الافادة من معرفة هذا القانون. فهنا نجد ان القوانين الاحتمالية غير قابلة للانقسام والتجزئة ومن ثم لا يفيد من نتائج معرفتها الا الوحدات الكبيرة .

•••

ـ الانتاج غير المباشر ، فكرة المسئولية ـ

١٨ ــ من الحقائق الاقتصادية المستقرة ان الانتاج غير المباشر أكثر كفاءة من الانتاج المباشر . وقد عرف الانسان منذ زمن بعيد فوائد هذا الانتاج ، بحيث يقوم أولاً بصنع أدوات لكى يستخدمها بعد ذلك فى انتاج السلع الاستهلاكية . والواقع انه لا يوجد فى غير القبائل البدائية جداً هذا الاسلوب القائم على الانتاج المباشر لما يشبع الحاجات . وقد وجه الاقتصادى النمساوى بوهم بافريك (Bôhm Bawerk) اهتمامه الى بيان أهمية هذا الانتاج غير المباشر (round about) حيث تزيد قدرة الانسان وكفاءته كلما طالت سلسلة الانتاج . وقد ادت هذه الحقيقة الى ظهور اهمية راس المال فى الانتاج الحديث ، وهو ما ادى الى اطلاق اسم الراسمالية على النظام الاقتصادى الحديث لما تميز به من استخدام كثيف لراس المال أو أموال الانتاج . ورغم أن تعبير «الراسمالية» قد اخذ بعد ذلك مفهوماً أيديولوجياً مختلفاً ، حيث يشير الى النظام الاقتصادى القائم على الملكية الخاصة لأموال الانتاج ، وذلك بالمقابلة الى النظام الاشتراكى ــ فانه مما لا جدال فيه أن التسمية كانت تشير فى أول الأمر الى حقيقة الاقتصاد الحديث القائم على الاستخدام المتزايد لأموال الانتاج . ومن هذه الزاوية فان الاقتصاد الحديث اقتصاد راسمالى ، أياً كان شكل الملكية القائمة فيه .

وبطبيعة الأحوال قد ادى هذا الاستخدام المتزايد لراس المال فى الانتاج الى نتائج متعددة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فالى جانب زيادة الانتاج المطردة تغيرت علاقات الانتاج . فاختفى كثير من مظاهر العلاقات الشخصية فى الانتاج ، فتقسيم العمل وتفتته بين حلقات سلسلة طويلة من المراحل الانتاجية ، قد ادى الى ان اصبحت علاقات العمل تقوم أساساً بين العامل وبين الآلة أكثر مما تقوم بينه وبين غيره من العمال. كذلك فان هذا الشكل من اشكال الانتاج ، وان ادى الى زيادة الانتاج زيادة رهيبة ، فان ذلك قد تم بنفقة جديدة وهى زيادة المخاطر التى يتعرض لها الأفراد . وهذه المخاطر الجديدة يصعب تحديد المسئول عنها بشكل دقيق ، وهى لا ترجع عادة الى خطأ محدد بقدر ما هى نتيجة طبيعية للانتاج وجزء من نظام الانتاج الآلى . فهذه المخاطر لا تعدو أن تكون جزءاً طبيعياً من نفقة الانتاج ويمكن معرفة توزيعها الاحصائى بدرجة كبيرة من الدقة وخاصة فى الانتاج الكبير . ولذلك فان مخاطر الانتاج الحديث وان كان يصعب النظر اليها كأخطاء تنسب الى شخص معين ، فانها قد أصبحت جزءاً من العلاقات المادية للانتاج ويمكن ادخالها مقدماً فى نفقات الانتاج .

١٩ ــ ونود هنا ان ننظر الى نتائج واثر هذا التطور الاقتصادى على الفن القانونى فى مجال **المسئولية التقصيرية** ، كمثال . ويمكن القول (٤٨) بوجه عام ان تاريخ تطور المسئولية التقصيرية هو تاريخ توسع مستمر فى هذه المسئولية . فمن حالات معينة محدودة لا تتحقق المسئولية الا فيها ، الى توسع تدريجى فى هذه الحالات ، الى شمول وصل بالمسئولية التقصيرية الى ان تكون قاعدة عامة . ولم تلبث هذه القاعدة العامة ذاتها ان تطورت تحت ضغط الظروف الاقتصادية وبخاصة تحت ظروف الانتاج الآلى . فقد قامت المسئولية على فكرة جوهرية هى فكرة الخطأ ثم أخذت هذه الفكرة تتقلص وبدات تظهر نظريات جديدة للمسئولية تقوم على فكرة الضرر . ولذلك يقال عادة بأن **المسئولية تتطور من المسئولية الشخصية الى المسئولية الموضوعية** . والفرق الجوهرى ما بين المسئولية الشخصية والمسئولية الموضوعية ،هو أن الاولى تقوم على الخطأ ، أما المسئولية الموضوعية فتقوم على الضرر أو فكرة تحمل التبعة وهى تطبيق للقاعدة الشرعية « **الغرم بالغنم** » .

ولا زالت الدول المتأثرة بالقوانين اللاتينية تأخذ بفكرة المسئولية الشخصية القائمة على الخطأ . فأساس المسئولية هو خطأ فى جانب المسئول ، (والقانون المصرى يأخذ اساساً بهذا النظر) . ومع ذلك فان تطوراً هاماً قد لحق هذه المسئولية الشخصية ، فبعد أن كان الخطأ لا بد من اثباته ، قامت حالات صار الخطأ فيها مفترضاً بل واصبح هذا الخطأ المفترض غير قابل لاثبات العكس . وتقوم حالات الخطأ المفترض ــ عادة ــ فى المسئولية عن فعل الأشياء ــ الآلات ــ ولذلك نجد ان مسئولية حارس الآلات الميكانيكية فى مصر مثلاً قائمة على خطأ مفترض غير قابل لاثبات العكس .

وحتى فى الدول التى لا تزال تأخذ بفكرة المسئولية الشخصية القائمة على الخطأ ، ولو كان هذا الخطأ مفروضاً ــ نجد أن هناك تشريعات خاصة تأخذ بالمسئولية الموضوعية . ففى مصر مثلاً ، وحيث الأساس فى المسئولية هو الخطأ ، نجد كثيراً من القوانين الخاصة (فى مجال العمل) تربط المسئولية (التعويض) بوقوع الضرر أثناء العمل أو بسببه ، وبصرف النظر عن وقوع أى خطأ ، ويصل الأمر كثيراً الى أن يصبح التعويض عن الضرر بمثابة تأمين للأفراد عما يصيبهم من أخطار . فهنا نجد أن المسئولية قد تطورت تحت تأثير تغير الظروف . ولم تعد المسئولية مجرد جزاء على خطأ ، وانما أصبح ينظر اليها كنظام للتعويض عن مخاطر تمثل جزءاً عادياً من نفقات الانتاج الحديث . وهكذا نجد أن الفن القانونى قد قدم تصورات جديدة لملاحقة هذا التطور ، فمن خطأ ثابت الى خطأ مفترض ، وغير قابل لاثبات العكس ، وأخيراً الى مسئولية عن الضرر وتحمل التبعة . وكل هذه تصورات قانونية تعبر عن التطور الذى صاحب شكل الانتاج .

● ● ●

ــ الرشادة الاقتصادية ؛ الاستقرار القانونى ــ

٢٠ ــ لعل أهم ما يميز المجتمعات الحديثة عن المجتمعات السابقة هو التغيير المستمر . التغيير فى وسائل الانتاج وما يترتب على ذلك من تغيير مستمر فى الأذواق وفى الكفاءة الفنية لعناصر الانتاج .... الخ (٤٩) . فالمجتمعات السابقة كان يسودها نوع من الثبات والاستقرار النسبى بحيث ان العادة والروتين كانا ينظمان كل شئون الانتاج والتوزيع . الزراعة والرعى والصيد تكاد

(٤٨) السنهورى ، الوسيط جـ ١ ، ص ٧٦٢ .

(٤٩) كتابنا : المجتمع التكنولوجى الحديث ، ص ١٨ وما بعدها .

تخضع لناموس الطبيعة من حيث الدورة الزراعية ومواسم الصيد بحيث تتكون مجموعة من العادات الثابتة الموروثة للقيام بهذه النشاطات . وتتأكد هذه العادات وتنتقل من جيل الى آخر دون تغيير يذكر . وفى مثل هذه الظروف لا تقوم اية حاجة الى الحساب الاقتصادى والتخطيط والتنبؤ ، فالعادات والتقاليد كفيلة بذلك . وليس الحال كذلك فى المجتمع الصناعى .

ان تاريخ الثورة الصناعية – كما هو معروف – مرتبط بنشأة الرأسمالية ، ولا يمكن التأريخ لأحدهما دون الآخر . وقد قامت الرأسمالية الاولى – المعروفة باسم الرأسمالية التجارية – على انقاض النظام الاقطاعى وظهور أوجه جديدة من النشاطات فى مقدمتها التجارة ثم الصناعة . وقد ارتبط ذلك بعالم جديد تسوده المخاطر والتغيرات المستمرة . **وعرف المنظم** (Entrepreneur) **– وهو عماد النظام الاقتصادى فى ذلك الوقت – بانه الشخص الذى يتحمل المخاطر ويقبلها فى سبيل الانتاج** . وبذلك دخل عنصر التنبؤ والحساب كعنصر اساسى فى الحياة الاقتصادية . وظهرت النظرية الاقتصادية كمحاولة لبيان افضل الطرق للاختيار بين الامكانيات المتاحة ، وظهرت فكرة الرشادة الاقتصادية . ومن ذلك نجد أن الحساب والتفضيل بين مختلف الامكانيات المتاحة قد أصبح ضرورياً . فعلمتنا النظرية الاقتصادية سلوك المستهلك الرشيد وكيف يحاول أن يستخدم دخله المحدود للحصول على اكبر قدر ممكن من الاشباع – باختيار السلع التى تحقق له ذلك ، وتحديد الكميات المناسبة من كل منها . كذلك على المستهلك أن يختار بين الاستهلاك الحالى وبين الاستهلاك المستقبل (الادخار) مراعياً فى ذلك – قدر الامكان – تحقيق اكبر قدر من الاشباع . ونفس الأمر نجده عند المنتج ، وربما بشكل أوضح ، فنظرية المشروع تبين لنا كيف يستطيع المنتج ان يتخذ قراراته المتعلقة بالانتاج لتحقيق اكبر قدر ممكن من الربح أو اقل قدر من الخسارة . هناك اختيار المنتج لوسيلة الانتاج المناسبة ، ثم عليه أن يختار الكمية المناسبة التى يمكن انتاجها . وهو ايضاً يتخذ قرارات متعلقة بالمستقبل فيما يتعلق بالاستثمارات والاختيار بين وجوه الاستثمارات الممكنة . وفى كل ذلك نجد أن الحساب الاقتصادى قد أصبح جزءاً من حياة المجتمع ، ولم تعد العادة والتقاليد كافية للاستمرار فى الانتاج ، بل ربما أصبح الخروج على هذه العادات والتقاليد هو ما يكفل التقدم المستمر .

والحساب الاقتصادى لم يقتصر على الوحدات الأولية من مستهلكين ومنتجين ، بل اتسع نطاقه بحيث يكاد يشمل الاقتصاد فى مجموعه فى شكل سياسات اقتصادية اجمالية تتدخل بها الدول لتحقيق اهدافها الاقتصادية ، وفى شكل خطط اقتصادية تضعها – بوجه خاص – المجتمعات الصناعية الاشتراكية . وبذلك امتد مجال الحساب الاقتصادى من الوحدات الاقتصادية المنفردة الى حساب اجمالى يتضمن الاقتصاد القومى فى مجموعة ، وبحيث تتخذ السياسات الملائمة لتوقعات المستقبل بالنسبة لهذا الاقتصاد القومى فى مجموعه . وبطبيعة الأحوال فان هذه الصورة من الحساب الاجمالى تجد أكمل تطبيق لها فى الدول الاشتراكية ، حيث تضع الدولة خطة عامة للاقتصاد القومى .

ولكى تتحقق الرشادة الاقتصادية وبحيث يمكن اجراء الحساب الاقتصادى ، لا بد أن تتوافر مقومات تجعل هذا الحساب ممكناً . وفى مقدمة ذلك لا بد من توفير نوع من الاستقرار فى الاطار العام الذى يتم فيه الحساب ، وبدون هذا الاستقرار فى الاطار العام تنعدم كل امكانية للحساب

والمقارنة، فلا بد من توفير حد أدنى من الاستقرار فى المقومات الأساسية للاطار العام للنشاط الاقتصادى . ولذلك نجد أن السياســـة الاقتصادية الحكيمة تعمل دائماً على توفير الاستقرار الاقتصادى وذلك حتى فى الأحوال التى يتم فيها التغيير . فالهدف الأساسى للسياسة الاقتصـــادية هو « النمو مع الاستقرار » . وقد يبدو ذلك أمراً متناقضاً ، فالنمــو يعنى التغيير ، ومن ثم يتنافى مع فكــرة الاستقرار . ولكن الحقيقة أن المقصود بذلك هو أن تتم التغييرات الممكنة فى الاقتصاد بزيادة الانتاج دون أن يترتب على ذلك اهدار كامل للاطار العام الذى يتم فى حدوده الحساب الاقتصادى ، والا انهار أساس التقدم والنمو الاقتصادى ، وهــو الحساب الاقتصادى . ولذلك تتجــه سياسات الاســتقرار الاقتصـــادى عادة الى تثبيت قيمة النقود بوجه خاص . وذلك لأن النقــود تمثل وحدة القياس اللازمة للحســـاب **الاقتصادى** ، فضــلاً على انها باعتبارها ديناً على الاقتصـــاد القومى (مخزناً للقيم) تربط الحاضر بالمستقبل ، وتكفل **توفير اداة مناسبة للحساب الاقتصادى** . ولذلك فان أخطر ما يهدد الدول فى حالة التضخم الجامح وانهيار قيمة النقود ، هو انهيار فكــرة الرشـــادة الاقتصـــادية واستحالة الحســـاب الاقتصـــادى لعدم وجــود مقياس **للقيــم يمكن** الاعتماد عليه .

والاستقرار الاقتصادى فضلاً عن ضرورة توفير الاستقرار للنقود (وحدة القياس ووسيلة ربط الحاضر بالمستقبل) ــ يتطلب أيضاً ضرورة توفير نوع من الاستقرار فى النظم وفى الأوضاع الاقتصـــادية ، أو على الأقــل توفير القدرة على التنبؤ باتجاهات التغييرات . فاذا كان أهــم ما يميز الحيــاة الاقتصـــادية ــ على ما ســبق ان أشرنا ــ هو أن لهـــا بعداً زمنياً ومن ثم ارتباط الحاضر بالمستقبل ، فيجب على الأقل توفير بعض المقومات اللازمة لاستكشـــاف اتجاهات التغيير بدرجة معقولة من الدقة .

وبالمثل فان الرشادة الاقتصـــادية تتطلب توفير الحوافز المناسبة للوحدات الاقتصـــادية ، وتوفير الضمانات الكفيلة بحماية المزايا الاقتصادية التى تحققها هذه الوحدات أثناء نشاطها .

٢١ ــ ونستطيع ان نجد فى القانون تطبيقات متعددة استجابة لفكرة الرشادة الاقتصـــادية ، ونذكر أن ماكس فيبر قد أشار الى عدة مراحل مر بها القانون قبل أن يصل الى فكرة الرشـــادة القانونية ، وهى تقابل مراحــل تطــور الظروف الاقتصادية (٥٠) . وسوف نحاول فيما يلى اعطاء بعض الأمثلة لأفكار وتصـــورات قانونية الفرض منها توفير الاستقرار القانـــونى اللازم لتحقيق الرشادة الاقتصادية . ويكفى أن نشير هنا الى أن فكرة **« استقرار المعاملات »** تعتبر أحد المبادىء الأساسية التى **تفسر عديداً من الأفكار القانونية فى شتى المجالات** .

وقد بلغ من أهمية « الاستقرار القانونى » على نفس فكرة القانون ، أن ذهب أحد كبار فقهاء القانون المعاصرين الى نفى وجود القانون ذاته اذا تخلف هذا الاستقرار القانونى . ففى كتاب عن « افــول القانــون » (Le Declin du Droit) خصص **ريبر** الفصل السادس « لعدم الاستقرار القانونى » (٥١) : و « حيث لا تصدر القواعد من السلطة التشريعية أو حيث لا ينتظم صدورها ، أو كان يستحيل معرفتها أو فهمها ... ففى هذه الأحوال يفقد الافـــراد كل قدرة على التوجيـــه

---

(٥٠) Cf. Max Weber on Law, in Economy and Sociology, Cambridge, Harvard University Press, 1954, p. 303.

(٥١) Cf. G. Ripert, Le Declin du Droit, 1949, p. 156.

ويعيشـون فى ظل جهل وعدم يقين بالقانون » . ولذلك ينتهى « ريبر » الى ان فكرة النظام القانونى كلها تنهار فى مثل هذه الظـروف . وبالمثل فانه يرى أنه يلزم لوجود القانــون توفر حــد أدنى من الاتسـاق بين القواعد السائدة فى نفس الوقت ، بل ونوع من الاستمرار فى القواعد المتتالية . فهذه الامور ضرورية لتحقيق هذا الاستقرار القانونى .

ولذلك فانه يكون من الطبيعى ان يتطـور القانـــون بما يحقق مزيداً من هذا الاســتقرار ، وتتطور الأفكار القانونية بما يحقق نفس الهدف . فهنــاك اتجــاه عــام فى معظم الدول الى تغليــب القواعد التشريعية على مصادر القانون الاخرى . **فالقانون المكتوب** الصادر من السلطة التشريعية هو المصدر الأساسى للقواعد القانونيــة فى العصر الحديث . وغنى عن البيــان أن قواعد التشريع تتوفر لها مقومات تضمن لها – فى معظم الأحيان – الحد الأدنى من الاستقرار . فقواعد التشريع على خلاف قواعد العرف مثلاً لا تثير صعوبة فى معرفة وجود القاعدة القانونية وفى معرفة مضــمونها . فالقانون المكتوب يساعد من هذه الناحيــة على توفير الاستقرار القانونى . كذلك فانه من القواعد المستقرة أن القواعد القانونيــة التى يتضــمنها التشريع لا بد من **نشرها** (فى الجريدة الرسمية) قبل سريانها وتطبيقها على الأفراد . والأصل ان القانون لا يحكم الا الوقائع التالية لسريانه ، ومن ثم **فلا يكون للقانون أثر رجعى** . وتجيــز معظــم الدول ان يكون للقانون – فى حالات اســتثنائية وبنص صريح – أثر رجعى بحيــث يحكم بعض الوقائع السابقة عليه . ومع ذلك فهذا اســتثناء من الأصل العام ، وفى جميع الأحوال هناك قاعدة دستورية تقضى بأن القوانين الجنائية التى تُجرّم افعالاً جديدة لا يمكن أن يكون لها أثر رجعى . وغنى عن البيان ان هذا المنع للأثر الرجعى انما يُقصد به توفير الحماية والاســتقرار للأفراد فى مراكزهم القانونية ، فلا تظل هذه المراكز القانونية معرضة للتغيير مع صدور قوانين جديدة .

وبمجرد صدور القانون وسريانه فانه يطبق على جميع الأفراد دون اســتثناء . ولذلك فان هناك قاعدة أساسية فى القانــون وهى **« لا يعذر احد بجهله القانون »** . وقد ذهب بعض الفقهاء الى القول بأن هذه القاعدة انما تقوم على قرينة قانونية وهى توفر العلم بالقانون بمجرد نشره . ومع ذلك فالفقه الغالب لا يرى فى هذه القاعدة أى استناد لقرينة العلم ، وانما تبررها امــور ضرورية فى توفير حكم القانون واستقراره دون توقف على ظروف عارضة لبعض الأفراد اذا لم يتوافر لديهم العلم بالقانون . فالاستقرار القانونى يتطلب ان يطبق القانــون على المخاطبين به دون استثناء ، وأن يوفر لهم فى نفس الوقت الوسائل الفنية الكفيلة بتحقيق العلم به (بالنشر فى الجريدة الرسمية) . وفكرة استناد قاعدة عدم العذر بجهل القانون الى الاستقرار القانونى (وليس الى قرينة العلم به) هى التى سـمحت لكثير من الفقهــاء بالسماح بأحوال يجوز فيها – استثناء – العذر بجهل القانون ، اذا لم يترتب على ذلك أى مساس بهذا الاستقرار القانونى (٥٢) .

٢٢ – واذا تركنا الآن فكرة القانون ذاته وماتفترضه من تحقيق الاستقرار ، فاننا نستطيع أن نجد تطبيقات متعددة فى جميع فــروع القانون الفرض منها توفير هذا الاستقرار والمساعدة على

---

(٥٢) انظر فى جواز عذر القاضى بجهل القانون الاجنبى ، هشام صادق ، فى « مركز القانون الأجنبى أمام القضاء الوطنى » ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، نبذة ٢٠٠ وما بعدها ، وانظر فى تفرقة اخرى بين الأحكام التكليفية والاحكام الوضعية ، مصطفى الجمال ، « الجهل بالأحكام المدنية » مقال غير منشور ومعد لمجموعة الابحاث المهداة الى الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، نبذة ٢١٥ وما بعدها .

الرشادة الاقتصادية . وقد استقرت هذه التطبيقات فى معظم النظم القانونية وخلقت تصورات وأفكاراً قانونية عريقة فى الفقه القانونى ، وهى تهدف جميعاً الى تحقيق ذلك الهدف . ولا نستطيع هنا الا أن نعطى بعض الأمثلة لهذه التصورات القانونية .

اشرنا فيما سبق الى الدور الهام الذى تلعبه النقود فى تحقيق الحساب والرشادة الاقتصادية . ونود هنا أن نبين شكلاً من اشكال الحماية القانونية للنقود . اذا كانت النقود ديناً من الديون الا انها دين ذو اهمية خاصة لانها دين على الاقتصاد القومى فى مجموعه ، وهى أيضاً مقياس للقيم ، ومن ثم وسيلة للحساب الاقتصادى . ولذلك نجد أن القانون يحرم كل اتفاق من شأنه أن يضعف الثقة فى النقود . فتنص المادة ١٣٤ مدنى مصرى على سبيل المثال : « اذا كان محل الالتزام نقوداً ، التزم المدين بقدر عددها المذكور فى العقد دون أن يكون لارتفاع قيمة هذه النقود أو لانخفاضها وقت الوفاء أى أثر » .

وقد عرف ذلك بوجه خاص تحت اسم **« بطلان شرط الذهب أو شرط العملات الأجنبية »** حيث كان الدائن يعمد الى تقدير قيمة دينه بالذهب أو باحدى العملات الأجنبية لتوقى خطر انخفاض قيمة العملة المحلية . ومن الواضح أن هذه الاتفاقات تتضمن اهداراً للثقة فى العملة الوطنية ، ولذلك استقر القضاء فى معظم الدول على بطلان مثل هذه الاتفاقات .

واذا نظرنا الى معاملات الأفراد نجد ان القوانين المختلفة تفسح مجالاً لتحقيق الاستقرار . وهناك تطبيقات متعددة فى نظرية العقد ، وهى المجال الطبيعى لمعاملات الأفراد . واذا كان العقد هو توافق ارادتين على احداث أثر قانونى ، فان هناك محلاً للتساؤل عن الدور الحقيقى لهذه الارادة (وهى أمر نفسى) ومدى علاقتها بالتعبير عنها وهى ظاهرة اجتماعية (٥٣) . فهل مبنى العقد هو هذا التعبير فى ذاته ، أم مبناه هو الارادة الكامنة ، فلا تكون للتعبير قيمة بذاته وانما تقتصر قيمته على مجرد الكشف عن الارادة الباطنة ؟ وتتنازع هذا البحث نظريتان متعارضتان ، **نظرية الارادة الباطنة ونظرية الارادة الظاهرة** (أو نظرية اعلان الارادة) . وقد سادت نظرية الارادة الباطنة مع سيادة مبدأ سلطان الارادة وازدهار المذاهب الفردية . فالتعبير القانونى لسيادة هذه المذاهب الفردية هو أن العقد انعكاس للارادة الباطنة للفرد وانعكاس لنواياه الحقيقية . أما نظرية الارادة الظاهرة فقد قال بها بعض فقهاء الألمان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وتهدف الى تحقيق استقرار المعاملات ، فالقوة الملزمة للعقد انما تستمد من الاعتبارات الاجتماعية وما تقتضيه من استقرار وثقة .

والواقع أنه لا يوجد قانون واحد من القوانين الوضعية ياخذ بصفة مطلقة باحدى النظريتين المذكورتين فى كافة نتائجها المنطقية . ويمكن القول بصفة عامة ان القوانين ذات النزعة الجرمانية تميل الى ترجيح مذهب الارادة الظاهرة ، فى حين تذهب القوانين ذات النزعة اللاتينية الى تغليب مذهب الارادة الباطنة . وقد ثار خلاف حول موقف القانون المدنى المصرى ، فذهب البعض(٥٤) الى أنه قد ظل فى حظيرة التقنينات اللاتينية مع الأخذ ببعض نتائج نظرية الارادة الظاهرة الى الحد الذى

---

(٥٣) اسماعيل غانم ، فى النظرية العامة للالتزام ، المرجع المشار اليه ص ٨٩ وما بعدها .

(٥٤) السنهورى ، الوسيط جـ ١ ص ٩٦ ، وانظر ايضاً : حشمت ابوستيت ، نظرية الالتزام فى القانون المدنى الجديد ، ١٩٥٤ نبذة ٩٠ .

تقتضيه الحاجة الى استقرار المعاملات . وذهب البعض الآخر (٥٥) الى انه قد اعتد أساساً بالارادة الظاهرة لا بالارادة الباطنة ، على انه لا يقف عند الارادة كما تظهر فى التعبير وحده ، فهذه شكلية غير مقبولة فى القانون الحديث ، بل هو يعتد بجميع الظروف التى لابست التعبير . وأياً كان الأمر فهناك عدة تطبيقات تشير الى مدى حماية القانون للظاهر - وبصرف النظر عن وجود الارادة ذاتها أو ما يشوبها من عيوب . فالمادة ٢/١١٤ من القانون المدنى المصرى تنص على انه « اذا صدر التصرف (**من المجنون أو المعتوه**) قبل تسجيل قرار الحجر فلا يكون باطلاً الا اذا كانت حالة الجنون أو العته شائعة وقت التعاقد ، أو كان الطرف الآخر على بينة منها » . واذا كان **الغلط** حالة تقوم بالنفس تحمل على توهم غير الواقع ومن ثم تعيب الارادة ، فانه لا يكون سبباً فى ابطال العقد الا اذا كان المتعاقد الآخر يعلم به أو كان من السهل عليه أن يتبينه . ومثل هذا فى **التدليس والاكراه** اذا صدر من الغير . وهكذا نجد ان القانون انما يعتد فى تكوين العقد ، وفى صحته ، وفى تفسيره ، **بالارادة التى يمكن التعرف عليها** .

وقد كانت النظريات التقليدية فى القانون تقتضى توافر **سبب** للالتزام ، بمعنى الغرض المباشر من الالتزام ، بحيث يكون هناك سبب لالتزام المدين حماية له من أن يلتزم بغير سبب . على أن نفس الاعتبارات التى دعت الى الأخذ بالارادة الظاهرة فى مجال العقود ، قد دعت أيضاً لتجريد التصرف من السبب ، فلا يبقى فى مجال التعامل الا هذه الارادة الظاهرة المجردة . وهذا هو ما يسمى **بالتصرف المجرد** . وهناك فائدة كبيرة من تجريد الارادة الظاهرة (٥٦) ، اذ بهذا التجريد يصبح التصرف غير قابل للابطال لا من طريق عيوب الارادة ولا من طريق عيوب السبب . فالدائن فى التصرف المجرد يستطيع ان يتمسك بحقه دون أن يستطيع المدين الدفع بابطال التصرف لعيب فى الارادة أو لعيب فى السبب ، وكل ما يستطيعه المدين هو أن يرجع بدعوى الاثراء بلا سبب على دائنه . وبذلك يصبح التصرف المجرد أداة قوية من أدوات الائتمان ، تشتد الحاجة اليها كلما زادت الحاجة الى الاستقرار . واذا كان التعامل يتنازعه عاملان - عامل الارادة وعامل الاستقرار - فان التصرف المسبب يستجيب للعامل الأول ، ويستجيب التصرف المجرد للعامل الثانى . وينتشر التصرف المجرد فى القوانين الجرمانية ، أما فى القوانين اللاتينية فليس له الا مجال محدود . ومع ذلك فنجد حتى فى هذه القوانين بعض التطبيقات له ، من ذلك مثلاً المادة ١٥ من قانون الشهر العقارى المصرى حيث تقضى بوجوب تسجيل دعاوى الاستحقاق لأى حق من الحقوق العينية أو التأشير بها « ويترتب على هذا التسجيل أو التأشير أن حق المدعى اذا تقرر بحكم يكون حجة على من ترتبت لهم حقوق عينية ابتداء من تاريخ تسجيل الدعاوى أو التأشير بها » .

ومن الواضح أن الحاجة الى تجريد الالتزام من سببه انما ترجع الى الرغبة فى وقاية الدائن من أن يفاجأ ببطلان التزام المدين قبله لعيوب قد تشوب علاقة المدين بشخص ثالث . ولذلك فان المجال الطبيعى للتصرفات المجردة هو فى **الأوراق التجارية** . فالصفة البارزة فى الأوراق التجارية والوظيفة الأساسية التى تؤديها ، هى انها صكوك تقوم مقام النقود فى المعاملات ، فهى أداة عادية

---

(٥٥) اسماعيل غانم ، فى النظرية العامة للالتزام ، ص٩٣ ، ورسالة الدكتور شمس الدين الوكيل عن الالتزام الارادى فى القانون المصرى (بالفرنسية) ، مشار اليها فى مؤلف اسماعيل غانم .

(٥٦) السنهورى ، الوسيط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ .

للوفاء (٥٧) . وهى بهذا الشكل تتداول من يد الى يد ، ولذلك فان قيامها بوظائفها فى توفير الائتمان رهن بالحماية التى تقرر لحامل الورقة التجارية. ولذلك قامت نظرية الالتزام المصرفى على توفير هذه الحماية . فهذه النظرية تميز فى الالتزام المصرفى بين علاقتين (٥٨) : ففى العلاقة بين المدين ودائنه المباشر ، يصدر الالتزام عن العقد الأصلى ،ولذا يجوز للمدين ان يتمسك فى مواجهة دائنه المذكور بالدفوع المتصلة بهذا العقد . أما بالنسبة الى الحامل غير المباشر ، فلا يصدر الالتزام المصرفى عن ارادة المدين ، وانما عن الوضع الظاهر الذى أوجده المدين بانشاء الورقة أو بتظهيرها او بقبولها ، والذى ركن اليه الغير ، وأراد القانون رعايته لحماية الائتمان . ولذا لا يجوز للمدين أن يتمسك قبل الحامل المذكور بالدفوع التى تتناقض مع هذا الوضع الظاهر . **وهكذا نجد أن مبدأ استقلال التوقيعات وتطهير الدفوع من أهم مبادىء القانون التجارى فى الأوراق التجارية** . ولا يخفى مدى الصلة بين هذه الأوراق التجارية وبين ضرورة توفير الاستقرار اللازم لتحقيق الرشادة الاقتصادية .

كذلك نستطيع ان نجد تطبيقات عديدة فى القانون تهدف جميعاً الى تدعيم الاستقرار القانونى وحماية الأوضاع الظاهرة . فهناك عديد من الحالات التى يضفى فيها القانون حماية خاصة **للغير حسن النية** الذى اطمأن الى بعض الأوضاع الظاهرة . بل اننا نجد تطبيقات اخرى فى ميدان السلطة ، فيعرف القانون الادارى نظرية **الموظف الفعلى أو الواقعى** (٥٩) ، وهى تجد تطبيقاً فى الظروف الاستثنائية وفى الظروف العادية . فحين تقع ظروف استثنائية قد تهدد نظام الحياة الادارية فان قواعد المشروعية التى تطبق فى الظروف العادية يستعاض عنها بقواعد اخرى غير مكتوبة ولكنها اكيدة ، مقتضاها أن جميع الاجراءات الضرورية العاجلة التى تتخذ للمحافظة على سير المرافق العامة وكفالة الحياة القومية والدفاع عن المصالح العامة تصحح حتى اذا لم يكن لها سند من قواعد القانون الوضعية ، وتصبح مشروعة . وفى الظروف العادية ـ وهى المجال الصحيح لتطبيق نظرية الموظفين الفعليين ـ قد يصدر قرار من سلطة مختصة بالتعيين فى وظيفة ما ، ولكن لا تتبع فى شأن هذا القرار الاجراءات القانونية أو لا تستوفى هذه الاجراءات . فهنا قرار التعيين باطل، غير أن هذا البطلان يلحق أضراراً جسيمة بالغير من الأفراد حسنى النية . فهنا نلجأ الى نظرية الموظفين الفعليين لامكان تصحيح تصرفات هؤلاء الأفراد .

ونستطيع أن نقول **أن تطور العقود** من الشكلية الى الرضائية ثم ظهور أشكال جديدة ـ وخاصة نظم الشهر والتسجيل ـ هذا التطور لا يعدو أن يكون انصياعاً لحاجة التجارة والمعاملات وتحقيق أكبر قدر من الاستقرار . فالعقلية البدائية لم تتصور انتقال الحقوق العينية ـ وفى مقدمتها الملكية ـ بمقتضى التصرفات والعقود بل كانت الملكية تنتقل بوضع من الأوضاع المادية كالاشهاد أو التنازل القضائى أو القبض أو التقادم (٦٠) . وترجع هذه الشكلية الى صعوبة تصور انفصال الحق عن الشىء ، ومن ثم وجبت هذه الطقوس الشكلية لاثبات انتقال السيطرة على

---

(٥٧) **محسن شفيق** ، الوسيط فى القانون التجارى المصرى ، **الجزء الثانى** ، **الطبعة الثامنة ١٩٥٧** ، ص ١٩٠ .

(٥٨) **محسن شفيق** ، **المرجع السابق** ، ص ٥٤٢ .

(٥٩) **توفيق شحاته** ، مبادىء القانون الادارى ، ١٩٥٥، ص ٤٧٠ **وما بعدها** .

(٦٠) **سمير تناغو** ، عقد البيع ، **الاسكندرية ١٩٧٣** ، نبذة ٣٢ **وما بعدها** .

الشيء ــ الحق العينى ــ من شخص الى آخر . وقد تطورت هذه الطقوس الشكلية تحت ضغط حاجات المعاملات ، فأصبح التسليم اللازم لانتقال الملكية معنويا اكثر منه ماديا ، ثم وصل الفكر القانونى الى قبول فكرة انتقال الملكية بمجرد العقدودون حاجة الى اية اجراءات شكلية . وهذا هو مبدأ التراضى وسيادة العقود الرضائية . ولكن هذه الرضائية وان كانت تستجيب لحاجة المعاملات فى السرعة ، الا أنها تخلق بدورها خطرا جديدا هو تعريض حقوق الغير حسن النية ، للخطر لعدم قدرته على معرفة ما تم من تصرفات سابقة . ومن هنا ظهر نوع جديد من الشكلية الغرض منه حماية الغير . وهذا هو جوهر نظم **الشهر والتسجيل** . فالسبب فى اشتراط التسجيل هو شهر الحق العينى لامكان الاحتجاج به فى مواجهة الغير . ولهذا فان معظم التشريعات تضع قاعدة مؤداها أن شهر الحق العينى هو اساس الاعتراف به فى مواجهة الغير . والشهر ــ عادة ــ يتم بطريق التسجيل بالنسبة للحقوق العينية الأصلية ، وبطريق القيد بالنسبة للحقوق العينية التبعية (الرهن والاختصاص والامتياز). والشهر ــ فى الأصل ــ نظام واجب الاتباع بالنسبة للحقوق العقارية . أما الحقوق الوردة على منقول فقد جعل المشرع أساس الاعتراف بها ، قاعدة اخرى هى قاعدة الحيازة ، وذلك لصعوبة تطبيق قاعدة الشهر على المنقول . ومع ذلك فهناك منقولات ذات طبيعة خاصة يمكن أن يتبع بالنسبة لها نظام الشهر المعروف فى العقارات ، مثل السفن والمتجر والطائرات ... الخ (٦١) .

ولم يقتصر الأمر على توفير نظام للشهر لحماية حقوق الغير ، بل ان نظم الشهر ذاتها قد تطورت بما يحقق هذه الحماية على أحسن نحو . فنظام الشهر الشخصى يقوم على أساس اسم المتصرف . فلا يتم ترتيب الحقوق الواردة على العقار بالنسبة لكل عقار على حدة ، بل بالنسبة لكل شخص يتصرف فى العقار بحسب اسمه . وهذا النظام يؤدى الى كثير من المتناقضات (٦٢) . ولذلك يميل معظم الفقهاء الى تفضيل نظام **الشهر العينى** ، بحيث يتم الشهر على أساس العين ذاتها محل التصرف . فكل عقار تخصص له صفحة أو صفحات فى سجلات الشهر ، وتدون فى هذه الصفحات كل التصرفات التى ترد على هذا العقار . ومن الواضح أن هذا النظام يكفل حماية كبيرة جدا للمتعاملين ، اذ يكفى فى هذه الحالة الرجوع الى السجل العقارى ومعرفة ما يرد على العقار من تصرفات ومن ثم لا يتعرض لطالبات غير متوقعة .

٢٣ ــ ولا تقتصر فكرة الرشادة الاقتصادية على التأثير فى مفهوم القانون ذاته ، أو ما تؤدى اليه من خلق تصورات وأفكار قانونية متعددة ، الغرض منها توفير الحماية والاستقرار للأوضاع الظاهرة ، بل تتطلب أيضا توفير الحوافز للأفراد والضمانات الكفيلة بحماية المزايا الاقتصادية التى يحققونها .

والواقع ان فكرة **الدولة القانونية** (Etat de Droit) ــ حيث يخضع الحاكم والمحكومون لقواعد معروفة سلفا وبحيث تتحدد مراكزهم القانونية على نحو واضح لا غموض فيه ــ هذه الفكرة هى الضمانة الكبرى لتحقيق الرشادة الاقتصادية وتوفير البواعث للأفراد . وعلى عكس

---

(٦١) على البارودى ، « حول المنقولات ذات الطبيعة الخاصة » ، مجلة الحقوق ، السنة العاشرة ، ١٩٦٢ .

(٦٢) سمير تناغو ، المرجع السابق ، نبذة ٣٩ .

ذلك فان الأفراد يفقدون القدرة على التصرف اذا انهارت هذه الدولة القانونية وحلت محلها دولة الاستبداد ، حيث يحل تحكم الحاكم والادارة محل وضوح القاعدة القانونية واستقرارها . ولذلك فان القانون بما يسبغه من حماية للمراكز القانونية ــ التي يعتبرها مشروعة ــ يُعتبر الخطوة الأساسية الاولى لتوفير البواعث اللازمة للأفراد في نشاطهم الاقتصادى .

وهذه **الحماية للمراكز القانونية المشروعة** تجد تعبيراً عنها في مختلف مجالات القانون . ففى نطاق المعاملات ــ وحيث تظهر **نظرية العقد** باعتبارها الوسيلة الأساسية ــ نجد المبدأ العام فى **الالزام بالعقد** يحقق هذه الحماية اللازمة . فوفقاً لهذه القاعدة يلزم العاقد بتنفيذ العقد وفقاً لمضمونه ، وهو ما يعبر عنه بأن « العقد شريعة المتعاقدين » (مادة ١٤٧/١ مدنى مصرى) . وقد كان أساس هذا المبدأ ــ فى ظل المذهب الفردى ــ هو سلطان الارادة . على ان رفض نظرية سلطان الارادة ، لا يعنى أن يفقد العقد قوته الملزمة ، بل لا زال العقد (فى حدود القانون) شريعة المتعاقدين (٦٣) . فمصلحة المجتمع ــ لا سلطان الارادة وحده ــ تقتضيه . فضرورات الانتاج والتوزيع تقتضى ابرام العقود ، وضرورة الاستقرار فى التعامل وما يولده من ثقة فى نفوس المتعاقدين تقتضى أن يلزم العاقد بتعاقده ، وذلك سواء فى القطاع الخاص ، أو فى القطاع العام وفى علاقة المشروعات العامة فيما بينها . ولذلك فقد بقى هذا المبدأ مبدءاً اساسياً فى **جميع النظم القانونية**، حتى تلك التى يقوم اقتصادها على التأميم الشامل .

كذلك فان القانون يوفر **حماية لحقوق الأفراد وحرياتهم ، كما ينظم حماية الأموال الخاصة والعامة** . والنصوص التى توفر هذه الحماية من التعدد بحيث يصعب حتى مجرد الاشارة الى بعضها . ولذلك يكفى فى هذا الصدد أن نبين كيف أن توفير هذه الحماية من شأنه ان يوفر الحوافز اللازمة للأفراد فى نشاطهم وتوفير الضمانات القانونية لما يحققونه من مزايا .

● ● ●

ــ الادارة الاقتصادية ــ العقد والسلطة ــ

٢٤ ــ ان الحديث عن الادارة الاقتصادية للموارد يجرنا فى الواقع ــ من قريب أو بعيد ــ الى التعرض للنظم الاقتصادية المختلفة ، وهو ماذكرنا فى مقدمة البحث أننا لا نود الخوض فيه . ولذلك فاننا نشير بايجاز شديد لأشكال الادارة الاقتصادية ومدى تأثر الأفكار القانونية السائدة بذلك .

اذا كانت الحياة الاقتصادية تعرف عديداً من الوحدات الاقتصادية التى تتكاتف فيما بينها على حسن استخدام الموارد المتاحة لها والعمل على زيادتها ــ فانه يجب توفير الاداة اللازمة لتحقيق التناسق بين أفعال هذه الوحدات . ويمكن القول بأن النظم الاقتصادية ــ بنوع من التبسيط ــ قد عرفت ثلاث ادوات لتحقيق هذا التناسق . هناك التقاليد والعادات ؛ وهناك السوق ؛ وهناك السلطة

---

(٦٣) اسماعيل غانم ، النظرية العامة للالتزام ، ص ٣١١ .

المركزيـة . والتقاليد والعادات لا تصلح الا فى الاقتصاديات البدائية . ولذلك فان اشكال الادارة الاقتصادية بالنسبة للمجتمعات الحديثة تتراوح بين اسلوبين ، اسلوب الادارة اللامركزية (نظام السـوق) واسـلوب الادارة المركزيـة (نظام التخطيط) .

ففى نظام السوق تباشر الوحدات نشاطها مدفوعة بمصلحتها الخاصة . ويسود الاعتقاد بأن هذه الوحدات وهى فى سبيلها لتحقيق صالحها الخاص تحقق فى نفس الوقت المصلحة العامة . وهذه هى فكرة اليد الخفية عند آدم سميث . واذا كانت كل وحدة لا تسعى الى تحقيق التوازن العام فى الاقتصاد ، فان هذا التـوازن يتحقق بالفعـل نتيجة لتغيرات الأثمان . وهذه الأثمان كفيلة بتحقيق التوازن بين الطلب والعرض . فاذا كانت القرارات الاقتصادية تصدر من عدد كبير من الوحدات الاقتصادية التى تسـعى لتحقيق مصلحة لها ، ودون أن يقوم تنسيق مسبق بينها ، فان هذا التنسـيق يتم بالفعل نتيجـة مجموع أفعال هذه الوحدات وما يباشره ذلك من تأثير على الأثمان . ولذلك فهذا النظام يتميز بعدم وجود سلطة عليا تفرض تحقيق التوازن ، وانما يتحقق هذا التوازن خلال جهاز السوق .

ويكاد يعتبر نظـام التخطيط عكس نظـام السوق مفهوماً على النحـو المتقدم . فالتخطيط يعتمد على مركزية القرارات الاقتصادية سـواء من حيـث تحديد السـلع والخدمات الواجب اشباعها أو من حيـث اتخاذ الوسـائل الكفيلة بتحقيق هذا الاشـباع . وبذلك تحل قرارات سلطة مركزية محل قرارات وحدات المستهلكين والمنتجين . فالتوازن والتناسـق بين القرارات الاقتصادية يتم مسبقاً على مسـتوى مركزى . وليس معنى ذلك أن الأثمان لا تستخدم فى نظام التخطيـط فالـواقع أنهـا تستخـدم وتـؤدى دوراً محاسبيـاً بالنسبة لسلطـات التخطيط ، ودوراً توزيعيـاً بالنسـبة للمسـتهلكين . فالأثمان تسـتخدم لبيان القيم المختلفة ومن ثم تقوم تقديرات أجهزة التخطيط على استخدام هذه الأثمان . كما أن السلع الاسـتهلاكية توزع على المستهلكين عن طريق توزيع دخول نقدية عليهم يستخدمونها لشراء السلع الاسـتهلاكية . ولكن هذه الأثمان لا تلعب أى دور فى كيفية استخدام الموارد الاقتصادية وفى تحقيق التوازن الاقتصادى ، فهذا هو دور الخطة ، والأثمان لا تعدو ان تكون وسيلة فى يد المخطط لتحقيق بعض أهدافه .

وقد يبدو مما تقـدم أن نظامى السـوق والتخطيط على طـرفى نقيض ، ولكن الواقع أن تطور المجتمع الصـناعى الحديث قد جعل منهما أمرين متكاملين بحيث نلحظ من ناحية مزيداً من التدخل والتخطيط فى دول السوق ، ونلحظ من ناحية أخرى مزيداً من الحرية وترك المجال للسوق فى دول الخطة المركزيـة . وبدون الدخـول فى تفاصيل هذا التكامل بين النظامين (٦٤) فانه يمكن القول بأن الخطة تبين الاختيارات الأساسـية للمجتمع للمستقبل ، وأن السوق تقوم بالتنفيذ اليومى وتحقيق الاجراءات اليومية والتفصيلية اللازمة لتنفيذ هذه الخطة .

٢٥ ــ ونود الآن أن ننظر كيف تطور الفن القانونى لمجاراة هذا التطـور فى شـكل الادارة

---

(٦٤) كتابنا ، المجتمع التكنولوجى الحديث ، ص ٥٨ وما بعدها .

الاقتصادية . نشير أولاً الى ان التطور من نظام يعتمد على العادات والتقاليد كوسيلة لتحقيق التناسق فى الحياة الاقتصادية الى نظام يقوم على نظام السوق والأثمان ، قد واجهه تطور مقابل فى الحياة القانونية انتقل فيه مركز الثقل من فكرة **النظام** الى فكرة **العقد** (٦٥) .
(From status to contract)

ويمكن القول بأن **العقد** هو الوسيلة القانونية الأساسية التى يقوم عليها كل النشاط الاقتصادى حيث يسود نظام السوق ، وأن **السلطة** هى المظهر الأساسى للادارة الاقتصادية حيث يسود نظام التخطيط . فالعقد والسلطة هما الاسلوبان الأساسيان للعلاقات القانونية ، وهما يقابلان ـ بشكل عام ـ الادارة اللامركزية والادارة المركزية .

وقد شاع القول بأن العقد هو الصورة المثالية للعدل ، وأن استقرار العلاقات التعاقدية كوسائل قانونية للمعاملات انما هو تأكيد « لمبدأ سلطان الارادة » الذى ازدهر بدوره نتيجة نمو الرأسمالية وازدهار المذاهب الفردية بصفة عامة . ومع ذلك فاننا نجد ان رجال القانون قد استخدموا مبدأ سلطان الارادة فى غير المعنى الأصلى الذى أورده « كانت » الفيلسوف الألمانى ، وانهم كانوا يقصدون بذلك الارادة التعاقدية (٦٦) . أما « كانت » فهو يعتقد أن الارادة التعاقدية وهى ارادة نفعية تتعارض بالضرورة مع سلطان الارادة ، وهو مبدأ أخلاقى . وهكذا فان رجال القانون اخذوا من نظرية «كانت» اسمها فقط واستخدموه على عكس ما قصده « كانت » نفسه . فسلطان الارادة عند « كانت » انما كان يعبر عن الأخلاق أو القانون الطبيعى والذى لا ينبغى للارادة التعاقدية أن تخالفه . وسوف نشير الى أن فكرة العقد ذاتها بدات تخضع لكثير من القيود ، بحيث لم تعد ارادة المتعاقدين حرة تماما ، وانما اصبح عليها الالتزام بحدود ترسمها المصلحة العامة . وهكذا عادت العقود من جديد الى المعنى الأصلى لمبدأ سلطان الارادة (كما أورده « كانت ») باعتباره قيداً على الارادة .

وأياً كان الأمر ، فانه مما لا جدال فيه أن الاسلوب الأساسى لنشاط الأفراد يأخذ صورة التعاقد . أما الادارة فانها تعتمد ـ أساساً ـ فى نشاطها على السلطة الادارية ، وقد يصل الأمر الى تمتعها بسلطة أعلى يطلق الفقه عليها عادة اسم السيادة . ونجد أن الغالبية من فقهاء القانون الادارى يرون الآن أن أساس القانون الادارى ـ وهو الذى ينظم عمل الادارة ـ هو السلطة العامة . « فمن المسلم به أن الادارة تتمتع بسلطة . وتمتع الادارة بالسلطة أمر مقصور عليها لا مقابل له عند الأفراد . فالسلطة تجعل الادارة فى مركز أقوى من مركز الأفراد » . ولذلك فان « فكرة السلطة العامة (مع ارتباطها بأفكار اخرى أو وحدها) هى التى تمثل المعيار الحقيقى السليم الذى ترتكز على أساسه مبادىء القانون الادارى » (٦٧) .

---

(٦٥) Cf. Henry Maine, Ancient Law, Dent, 1917, pp. 99-100; Davy, La Foie Jurée Etudes Sociologique du Problème du Contrat, 1922, p. 319.

(٦٦) سمير تناغو ، « القانون والارادة » ، المقال المشار اليه سابقاً .

(٦٧) محمد كامل ليله ـ مبادىء القانون الادارى ، لبنان ١٩٦٩ ، ص ٩١ والمراجع التى يشير اليها .

وما اشرنا اليه من عدم التناقض بين السوق والخطة والاتجاه نحو تكاملهما ، نجد له مقابلا فى تطور عقود الافــراد وسلطات الادارة . فنتيجةللتغيرات الاقتصــادية وما ادت اليه من ترابط وظهور علاقات سيطرة ـ على ما سبق ان اشرنا ـ لم يكن من الممكن ترك العقود لحريــة المتعاقدين دون أية قيــود . فهنــاك اتجــاه لافــول الارادةالقانونيــة ، والعقود تفقد باستمرار « عناصرها الشخصية » لتظهر عناصر جديدة « موضوعية »(٦٨) . ومن ثم **تقترب العقود من جديد من فكرة النظم .** فالعقد قد أصبح واقعة اجتماعية لا تهم اطرافه فحسب بل تهم الجماعة كلها . ونجد أمثلة لذلك فى المجالات ذات الصلة بالأوضاع الاجتماعيةمثل عقود العمل .

ومن ناحية اخرى فان ازدياد مسئوليات الدولة فى النشاط الاقتصادى قد اقتضى اجراء تطوير جديد لقواعد القانون الادارى وبحيث يتجههذا التطوير أساساً الى اطلاق السلطة الادارية الجديدة محررة من كل القيود التى تعرفها السلطةالادارية التقليدية. وهذا التطوير الجديد لا يحتاج لأكثر من تفليب بعض الأفكار الموجودة فعلاً فىالقانــون والتى تتفق مع الدور الجديد للدولة . **ويجب بوجه خاص على القطاع العام اتباع نفس الأساليب الاقتصــادية متى ثبتت كفاءتها (٦٩) .** واذا كان قد قام خلاف بين الفقهاء حول القانون الذى يحكم هذا النشــاط الجديد للادارة (٧٠) ، وهل هو القانون الادارى بعد تطــويره (القانون الادارى الاقتصـــادى ، أو القانـــون العـــام الاقتصادى) ، أو هل هو القانون الخاص أو فرع جديد هــو قانون المشروع العام (متأثراً بقواعد القانون التجارى) فانه مما لا شك فيه أنه لا بدمن قواعد جديدة مناسبة للمشروعات العامة التى تباشرها الدولة فى ظل التخطيط .

وهكذا نستطيع ان نلمس تطوراً فى الحياةالقانونية مقابلاً لتطــور الادارة الاقتصـــادية . **فالعقد والســلطة يتعايشـــان كما يتعايش نظام السوق والخطة .** كذلك فان العقد ذاته يتطور بحيث تغلب عليه العناصر الموضوعية وتتضاءل العناصر الارادية الشخصية من ناحية ، والادارة تلجأ الى اتباع أساليب الأفراد واستخدام العقود فى معاملاتها من ناحية اخرى .

● ● ●

٢٦ ـ ولعلنا فيما تقدم نكــون قد اعطينا صورة لما قدمه الفن القانونى من خلق تصورات قانونية استجابة لحقائق الحياة الاقتصـــادية . وقد أدت هذه التصورات القانونية خدمة هائلة للحياة الاقتصادية ذاتها . واذا كنا قد استبعدنا منذ مقدمة البحث التساؤل عن مدى (خضوع) أو (سيطرة) القانون على الاقتصاد ، فذلك لاننا نعتقد أن التأثير بينهما متبادل ، وانه قد يكون من

---

(٦٨) Cf. Magdi S. Khalil, Le Dirigisme Economique et les Contrats, Bibliothèque de Droit Privé, Paris, 1967, pp. 195 et ss.

(٦٩) على البارودى ، فى سبيل نظام قانــونى موحد للمشروع التجارى العام ، ص ١٦٨ .

(٧٠) انظر فى هذا الخلاف : فؤاد مهنا ، القانــون الادارى العربى فى ظل النظام الاشتراكى الديمقراطى التعاونى ، ١٩٦٤ ، وانظر : على البارودى ، المرجع السابق .

المفيد أيضاً ، النظر الى القانون ، ليس كأداة قهر فحسب ، بل أيضاً كصياغة وفن لخلق تصورات قانونيــة تستجيب لحقائق أساســية فى الحياةالاقتصادية . ولكن ليس معنى ذلك أن دراســة الجانب الآخر من القانون ـ كأداة قهر ـ أقــل أهمية ، بل لعل العكس هو الصحيح . ولكن مثل هذه الدراسة لا ينبغى أن تكون عامة ومجردة بل يجب أن تتجه لدراســة حالات معينة بالذات . فالقانون كأداة قهر يختلف بحسب اختلاف هذه الارادات فى الزمان والمكان . ولذلك فان الدراسة الطبيعية لمثل ذلك يجب أن تكون محددة بفترة معينة فى مكان معين .



سمير عبد السيد تناغو *

القانون والإرادة

تمهيد :

العلاقة بين القانون والارادة تدخل فى تعريف القانون وتتصل بجوهره وأساس وجوده .
فالقانون هو مجموعة القواعد التى تصدر عن ارادة الدولة ، وتنظم سلوك الهيئات والأفراد الخاضعين لهذه الدولة أو الداخلين فى تكوينها .

وطبقاً لهذا التعريف فان القانون هو نفسه عمل ارادى صادر عن ارادة الدولة . وفى نفس الوقت **فان الظاهرة التى يحكمها القانون هى ظاهرة ارادية .**

وعلى وجه التحديد فان الظاهرة التى يحكمها القانون هى ارادة انسانية سواء كانت ارادة شخص عادى أو هيئة عامة أو سلطة من سلطات الدولة .

وارادة الانسان لا تمكن السيطرة عليها بطريقة حاسمة . وأكبر شاهد على ذلك أن أحكام القانون لا تحترم دائماً ، بل تقع لها مخالفات كثيرة من الأشخاص المخاطبين بها . وتأخذ هذه

---

* الدكتور سمير عبد السيد تناغو هو استاذ القانون المدنى المساعد ـ بكلية الحقوق ـ جامعة الاسكندرية .

المخالفات فى بعض الأحيان شكل الجرائم الخطيرة التى تهز كيان المجتمع وتهدد شعور المواطنين بالأمن والسلام .

وتفسير **ذلك أن ارادة الانسان** ـ وهى الظاهرة التى يحكمها القانون ـ تعنى بحسب طبيعتها القدرة على الاختيار ، أى **القدرة على الرفض أو القبول** .

وقدرة الأفراد على رفض ما يقرره القانون تظل قائمة حتى ولو ترتب على هذا الرفض توقيع جزاء على الشخص الذى صدر عنه ، ولذلك يقال ان القانون يلزم ولكنه لا يحترم . وفى هذا يوجد الفارق الأساسى بين القانون الذى ينظم المجتمع ، وبين القوانين العلمية التى تصف الطبيعة .

فالقانون الذى ينظم المجتمع يأمر ، أما القانون الذى يصف الطبيعة فانه يسجل الواقع فقط . ولهذا السبب فان قواعد القانون التى تنظم المجتمع توصف بأنها قواعد تقويمية وهو وصف يصدق على قواعد الأخلاق أيضاً ، أما قواعد القانون التى تصف الطبيعة فهى توصف بأنها قواعد تقريرية . والقواعد الاولى تتصور بالنسبة لها المخالفة ، أما القواعد الثانية فلا تتصور بالنسبة لها أدنى مخالفة (١) .

ويؤدى هذا الفهم الى وضع تقسيم ثنائى كبير للعلوم المختلفة ، وهو تقسيمها الى **علوم تقريرية** وفى مقدمتها علم الطبيعة والى **علوم تقويمية** تشمل أساساً القانون والأخلاق .

والفارق الأساسى بين هذين القسمين يوجد فى نوع الظاهرة التى يحكمها كل علم . فاذا كانت الظاهرة غير ارادية فان العلم الذى يحكمها يكون علماً تقريرياً . أما اذا كانت الظاهرة ارادية فان العلم الذى يحكمها يكون علماً تقويمياً .

ودراسة القانون هى دراسة لأحد العلوم التقويمية ، لأن الظاهرة التى تحكمها قواعد القانون هى ارادة الانسان ، وتهدف هذه القواعد الى تقويم هذه الارادة بما يجعلها متفقة فى سلوكها مع الأحكام التى تتضمنها . فالقانون يقوم سلوك الأفراد ويأمرهم باتباع طريق معين فى حياتهم . وبعبارة اخرى **فان الانسان لا تكون له حرية مطلقة فى ظل القانون ، بل تتقيد حريته بما يتضمنه القانون من أحكام** .

وهنا يبرز أكثر من سؤال هام : هل هناك أثمن عند الفرد من حريته المطلقة ؟ وهل هناك ما يدعو الانسان الى ترك حريته المطلقة والخضوع لقيود القانون ؟ واذا كان المشاهد أن كل الأفراد **فى جميع الدول يخضعون لحكم القانون بالفعل فهل يستجيب ذلك الى طبيعة الانسان ؟ أم يرجع** الى اعتبارات اخرى ؟ وما هى هذه الاعتبارات ؟ **وهل هناك أمل أن تعود للانسان حريته المطلقة مرة اخرى ؟**

---

(١) راجع فى هذا الموضوع KANT, Fodements de la métaphysique des moeurs, trad. par Victor Dellos, Paris, 1962, p. 123, 146;

HENRI BERGSON, Les deux sources de la morale et de la religion, P.U.E. ed. 100, Paris 1961, p. 4, 5, 129.

والواقع أن هذه الأسئلة تمثل أهم ما شغل الفكر الانسانى منذ بدأ الانسان فى التفكير . ولا يوجد فيلسوف واحد يستحق هذا الاسم لم يحاول أن يضع اجابات على هذه الأسئلة أو على بعضها . والواقع أن كل الفلاسفة فى جانب كبير من نشاطهم يعتبرون فلاسفة قانون أو رجال قانون . بل هم أهم رجال القانون على الاطلاق .

ولذلك لا يستطيع اى دارس للقانون أن يصل الى فهم شىء من اصول القانون ومبادئه الا بالرجوع الى كتب هؤلاء الفلاسفة ومتابعتهم فى تأملاتهم . وهو ما سنحاول القيام به فى هذا البحث مع ملاحظة ما يأتى :

١ ــ ان الفكر الفلسفى القانونى المعاصر لم يتخط حتى الآن افكار الفلسفة اليونانية التى لا زالت تحتل مكاناً مرموقاً بين الفلسفات الحديثة .

٢ ــ انه لا يوجد فيلسوف واحد فى تاريخ الفلسفة كلها ــ باستثناء **نيتشه** ــ ينادى باطلاق الحرية لارادة الانسان ، كما وأن مذهب «نيتشه» ــ وهو المذهب الارادى الوحيد فى تاريخ الفلسفة ــ لم يؤد مع ذلك الى تحرير ارادة الانسان ، بل أدى الى تحطيمها وسحقها بغير حدود .

٣ ــ باستثناء نيتشه فان كل الفلاسفة يؤمنون بضرورة التزام الارادة بقيود معينة . ويشمل هذا الاتجاه جميع الفلسفات بما فى ذلك الفلسفة **الوجودية التى اشتهرت بأنها تنادى بالحرية المطلقة** لارادة الانسان وهى شهرة غير صحيحة على اطلاقها .

٤ ــ توجد فلسفات اخرى عرفت خطأ بأنها فلسفات ارادية ، كفلسفة العقد الاجتماعى لأصحابها **هوبز ولوك وجان جاك روسو** ومن قبلهم **أفلاطون** ، وكذلك فلسفة سلطان الارادة لصاحبها ((**كانت**)) . والصحيح ان هذه الفلسفات كلها ليست فلسفات ارادية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، بل على العكس فانها تتجه بكل وضوح الى تقييد حرية الارادة .

٥ ــ الاتجاه العام فى الفلسفة وهو الذى يهدف الى تقييد حرية الارادة لا يقصد من ذلك الانتقاص من ارادة الانسان بل على العكس يقصد المحافظة عليها الى أقصى درجة ممكنة .

٦ ــ بجانب هذا الاتجاه العام فى تقييد حرية الارادة من أجل المحافظة عليها ، توجد اتجاهات اخرى ترى أن حرية الارادة لا وجود لها على الاطلاق . ويشمل هذا الاتجاه المتشككين امثال **باسكال** ، والماديين امثال **كارل ماركس** .

وهكذا فان ارادة الانسان فى نظر فلاسفة القانون اما خاضعة لقيود تؤدى الى المحافظة عليها ، أو مطلقة من كل قيد بما يؤدى الى تحطيمها ، أو غير موجودة على الاطلاق .

ولكى نستعرض اهم هذه الاتجاهات ، ندرس تباعاً ما يلى : (١) النظرية التقليدية عن القانون الطبيعى (وهى نظرية **ارسطو** والتى لاتزال تحتل مكان الصدارة حتى الآن فى القانون الحديث) .

(٢) نظريتى العقد الاجتماعى وسلطان الارادة اللتين تعبران فى الواقع بطريقة جديدة عن نظرية القانون الطبيعى .

(٣) الانحراف الذى حدث فى نظرية القانون الطبيعى على يـد **هوبز** وعلى يد **هيجل** (وهـو انحراف يبرر الاستبداد) .

(٤) واذ نتجاوز فى هذا المقام التحدث عن النظريات المنكرة اصلاً لوجود الارادة (سواء رجع ذلك الى فلسفة الشك عند **باسكال** أو الى الفلسفة المادية **عند ماركس**) ، فاننا نوجز بالقدر الملائم **الفلسفة الارادية الوحيدة** فى تاريخ الفكر الفلسفى، وهى فلسفة **نيتشه** (التى أدت الى تحطيم الارادة وتدميرها وتسمى : نظرية ارادة القوة) .

(٥) موقف الفلسفات المعاصرة من حرية الارادة (وابرزها الفلسـفة البيولوجيـة عند **برجسـون** و **تيلار دى شـاردان** ، والفلسـفة عند **سارتر** و **جاسـبير** و **جابرييل مارسـيل** ، وفلسفة الجوهـر عند **ماكس شـيلر** ، وكذلك اتجاهات علم الاجتماع) .

ولعلنا بعد كل هذا نكـون قد اجبنا على السؤال الخالد : لماذا تخضع ارادة الانسان لحكم القانون ؟

●●●

اولاً : نظرية ارسطو فى القانون الطبيعى

(١) الانسان حيوان اجتماعى :

ارسطو هو أعظم الفلاسفة ، وكان القديس **توماس الاكوينى** يشير اليه فقط باسم الفيلسوف (Le Philosophe) على أساس أنه فيلسـوف الفلاسـفة ، أو أنه هـو وحده الفيلسـوف بين الفلاسفة . وارسطو هو صاحب نظرية القانون الطبيعى التى لم يتخطها الفكر الانسـانى حتى الآن ، والتى يأخذ بها المشرع المصرى مثلاً فى المادة الاولى من القانون المدنى .

ونقطة البداية فى هذه النظرية ان الانسان حيوان اجتماعى بطبعه ، فهو لا يستطيع أن يعيش منعزلاً عن الناس ، بل لا بد أن يعيش مع غيره من الناس فى مجتمع سياسى منظم ، وهو ما يطلق عليه أسم المدينـة (La Cité) بحسب اللغة التى كان يستخدمها ارسطو ، أو الدولة (L' Etat) بحسب اللغة التى نستخدمها فى الوقت الحاضر . « ومن الواضح ان المدينة ــ كما يقول ارسطو ــ ترجع الى طبيعة الأشياء ، أما الانسان فانه أيضاً بحسـب الطبيعـة قد خلـق من أجـل المجتمع السـياسى . فلو وجد شـخص ، يعيش بحكم طبيعته لا بحكم المصادفة ، بغير وطن ينتمى اليه ، لكان شخصاً كريهاً ، أعلى بكثـير من مسـتوى الانسان ، أو أقل بكثير من مستواه ، ولكان هذا الشخص كما يقول (Homere) كائناً بغير مأوى ، بغير اسرة ، وبغير قوانين . ومثل هذا الشخص لا يفكر الا فى الحرب ، ولا يتقيد بأى قيد ، ويكون ــ كالطائر المفترس ــ مستعداً دائماً للانقضاض على الآخرين » (٢) .

---

(٢) Aristote, Politique, Bibliotheque de la Science Politique, Paris, 1950, Introduction, p. 6.

واذا كان الفـرد قد وجـد من الناحيـةالتاريخية قبل أن توجد المدينة أو الدولة ، الا أن **الطبيعة قد تصورت وجود الدولة قبل أن تتصوروجود الفرد** • « فالدولة أو المجتمع السـياسى هى ، كما يقول ارسطو **أول شيء اقترحته الطبيعة،فالكل بالضرورة يسبق الجـزء ، وما المجتمعات المنزلية والأفراد الا الأجزاء المكونة للمدينة** • وهذهالأجـزاء تتعلق بالجسـم كله ، وتتميـز بقوتها ووظائفها الخاصة ، ولكنها تصبح عديمة الفائدةاذا فرقناها عن بعضـها ، كالأيدى والأرجل اذا انفصلت عن الجسم أصبحت لا تحمل الا الاسموالمظهـر دون الحقيقة • وهكذا أفراد المدينـة لا يستطيع واحد منهم ان يكفى نفسه بنفسه .وأى شخص لا يحتاج الى غيره من النـاس أو لا يرغب فى البقاء معهم ، هو اما اله او وحش .وعلى هذا النحو فان الميل الطبيعى يحمل الناس جميعاً على هذا النوع من المجتمع » (٣) •

والطابع المميز للمجتمع السياسى ، والذىيفصل بينه وبين اى مجتمع آخر هو طابعالخضوع للقانون والعدل ، فان ((احترام القانون هو أساسالحياة المدنية)) (٤) •

(٢) ــ الهدف من الدولة :

الدولة لا تعتبر هدفاً فى ذاتها بل هى لهاهدف تسـعى الى تحقيقه ، والوصول الى هذا الهدف يجعل المجتمع السياسى دولة حقيقية ،كما أن عدم الوصول الى هذا الهدف يجعل من المجتمع السياسى دولة من حيث الاسم فقط .

والهدف الذى تسعى اليه كل دولة بحسبطبيعة الأشياء ، ليس هـو حمايـة أفرادها من الاعتداءات الخارجية ، وليس هو تبادل السـلعوالخدمات ، والا لأصبحت كل الدول التى تعقد فيما بينها اتفاقات عدم اعتداء أو اتفاقات تجاريةدولة واحدة ، والواقع غير ذلك . ولكن الهدف من كل دولة هو تحقيق الخير العام للجميع ، اى أن يعيش كل فرد حياة أفضل « فالانسان لا يوجد داخل الدولة لمجرد أن يعيش مع غيره ، بل ليعيشمع غيره بطريقة أفضل » (٥) وكل المؤسساتداخل الدولة ليست سوى وسائل لادراك هذا الهدف .« ويمكن أن تسمى الحياة الأفضل التى تهدف الدولة الى تحقيقها بأنها الحياة السعيدة الشريفة،كما أن المجتمع المدنى ليس هو الحياة المشتركة ، بقدر ما هو مجتمع الشرف والفضيلة » (٦) .

وهناك تلازم كامل بين السعادة والفضيلة ،ومن المؤكد أن أى شخص لا يسـتطيع أن يدرك السعادة الا بقدر ما يكون لديه من فضيلة وبقدرما يحرص فى تصرفاته على مراعاة الفضيلة .

وكما يصدق ذلك على الأفراد ، يصدق علىالدول • فمن المستحيل أن تكون الدولة سعيدة ، وبالتالى دولة حقيقية اذا اختفت منها الفضيلة .

---

(٣) Aristote, Politique, op. cit., p. 7.

(٤) Aristote, Politique, op. cit., p. 8.

(٥) Aristote, Politique, op. cit., Ch. 5, p. 44.

(٦) Aristote, Politique, op. cit., CH., p. 46.

واذا كانت الفضيلة لازمة لوجود الدولة والأفراد على السواء ، فانه يحسن أن يوجد بجانبها أيضاً شيء من اليسر المادى حتى تمكن مباشرتها (٧) . وعندما تصبح الفضيلة هى الأساس فى تصرفات الأفراد وفى نظام الدولة ، فانه يحدث فى الحال انسجام كامل بين الخير العام للدولة والخير الخاص للأفراد (٨) .

وهكذا اذا كانت الدولة من صنع الطبيعة ، الا أنها لا تحقق السعادة دائماً بذاتها ولذاتها ، بل لا بد من اقامتها على أساس من الفضيلة . فما هو المقصود بالفضيلة ؟

(٣) ـ العدل أساس الدولة :

تتضمن الأخلاق عند ارسطو اربع فضائل هى : **الأمانة والشجاعة والعدل والحذر** . ولكن هناك فضيلة واحدة من هذه الفضائل الأربع تحتويها جميعاً ، وتعتبر لهذا السبب مرادفة للأخلاق ، وهى فضيلة العدل (٩) . **فالعدل يشمل كل الفضائل** وهو الأساس الذى يجب أن تقوم عليه الدولة لتحقيق الغاية منها وهى الخير العام للمجموع والخير الخاص لكل فرد .

والعدل هو القانون الطبيعى الذى يجب أن توضع على أساسه القوانين الصادرة عن ارادة المشرع . كما أن العدل هو الأساس الذى تستمد منه هذه القوانين قوتها الملزمة للأفراد . **فالعدل يقتضى اطاعة القوانين التى تسنها الدولة** .

وفى عبارة هامة يقول أرسطو أن « **العدل يجعلنا نحترم القوانين والمساواة** » (١٠) ، ويقول أيضاً انه « نظراً لأن كل ما يصدر من المشرع هو قانون فاننا نعلن أن نصوص كل هذه القوانين عادلة » (١١) . وقد تدعو هذه العبارات الى **الاعتقاد بان أرسطو يخلط** بين العدل وهو القانون **الطبيعى** ، وبين ما يصدر عن المشرع وهو القانون **الوضعى** . ولكن الواقع أن أرسطو **يقصد** من هذه العبارات أن القانون الوضعى **يستمد قوته الملزمة وأسباب وجوده من العدل وهو القانون الطبيعى** . ومعنى هذا أن **العدل وهو فضيلة الفضائل وأساس الدولة** يفرض على كل فرد أن **يطيع القانون** الذى يصدر عن المشروع **وأن يخضع ارادته لارادة المشرع** .

والعدل لا يقتضى اخضاع ارادة الفرد لارادة القانون لمجرد حرمان الفرد من حريته **المطلقة** ، وانما لتأكيد الأساس الذى تقوم عليه الدولة وهوما يؤدى الى تحقيق السعادة لمجموع الأفراد فى هذه الدولة ولكل فرد على حدة فى نفس الوقت .

أما أن أرسطو لا يخلط بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى فهذا ما يقوله هو بنفسه بوضوح من ضرورة **التفرقة بين العدل فى ذاته (وهو القانون الطبيعى) وبين العدل داخل المجتمع وهو القانون الوضعى** (١٢) ـ ولذلك فان أرسطو لا ينكر الواقع من أن القانون الوضعى قد

(٧) Aristote, Politique, op. cit., Ch. 5, p. 47, 48.

(٨) Aristote, Politique, op. cit., Ch. 5, p. 48—50.

(٩) Aristote, Ethique de NICOMAQUE, 5, 1, 15.

(١٠) Aristote, Ethique, op. cit., 5, 1, 8.

(١١) Aristote, Ethique, op. cit., 5, 1, 12.

(١٢) Aristote, Ethique, op. cit., 5, 6, 4.

يخالف القانون الطبيعي بحيث يصبح محققاً للظلم وليس للعدل . ولذلك فان العلاقة بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي تنحصر في أمرين : أولهما أن القانون الطبيعي يقتضي من الأفراد اطاعة القانون الوضعي أياً كان العدل الذي يحققه ، ونظراً لأن القانون الوضعي « ليس واحداً في كل الدساتير ، فان العدالة تكون بالضرورة مختلفة في كل واحد منها عن غيره » (١٣) ، ومع ذلك ينبغي اطاعة القوانين مهما اختلفت قدرتها في التعبير عن العدل في ذاته . والأمر الثاني هو أن المشرع وهو يضع بارادته القوانين الملزمة للأفراد ، ينبغي أن يلتزم هو نفسه — في هذه القواعد — مبادىء القانون الطبيعي الذي يستمد منه القانون الوضعي قوته الملزمة . ونزيد من ايضاح هذين الأمرين فيمايلي :

(٤) — خضوع الأفراد لأحكام القانون :

حسب نظرية القانون الطبيعي فان ارادة الأفراد تخضع لأحكام القانون ، وبالتالي فان الفرد يفقد حريته المطلقة في أن يفعل ما يشاء ، بل ان تكون أفعاله منسجمة مع أحكام القانون الآمرة . أما القول بحرية الفرد في أن يفعل ما يحلو له ، فهو على حد تعبير ارسطو نوع من « السوفسطائية البائسة » (١٤) .

والاحترام للقانون يصل الى درجة يمكن فيها أن نعرف العدل وهو القانون الطبيعي بأنه هو ما يأمر به المشرع ، أي ان نعتبر القانون الوضعي تعبيراً عن القانون الطبيعي ، ولا يعني هذا الخلط بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي ، وانما يعني أن الخضوع للقانون الوضعي هو مما يقضي به القانون الطبيعي .

وما دمنا نقول بذلك فان التضحية بالارادة المطلقة تكون من أجل قيمة أسمى منها ، وهي العدل أو الأخلاق أو الفضيلة أو القانون الطبيعي ، وكل هذه مترادفات تعبر عما ينبغي أن تقوم على أساسه الدولة من أجل تحقيق وجودها الحقيقي ، وهو الوجود الذي لا غنى عنه من أجل وجود الأفراد انفسهم وتحقيق السعادة لكل منهم .

ويترتب على ذلك أن الفرد اذ يضحي بحريته المطلقة فانما يكتسب قيمة أسمى وهي الفضيلة ، ويحقق هدفاً أعلى وهو السعادة .

ولكن الطاعة للقانون الوضعي لا تكون واجبة في جميع الأحوال ؛ بل ينقضي واجب الطاعة في الحالات الخاصة التي يكون فيها نظام الحكم في الدولة استبدادياً ظالماً . ففي هذه الحالات يظهر بوضوح أن القانون الوضعي لا يعبر عن القانون الطبيعي بل يسير في اتجاه معاكس له ، وفي هذه الحالات يصبح القانون الوضعي مخالفاً للعدل ومخالفاً للطبيعة وغير واجب الاحترام . ويصبح من المشروع مقاومة الحكومات الاستبدادية ، فهي على حد تعبير ارسطو حكومات « ضد الطبيعة » (١٥) . ولكن هذا الفرض لا يتحقق الا في الحالات النادرة التي يصبح فيها طغيان الحكومة

---

(١٣) Aristote, Politique, Liv. 4, Ch. 18, p. 195.

(١٤) Aristote, Politique, ibid, Liv. 4, Ch. 18, p. 198.

(١٥) Aristote, Politique, ibid , Liv. 3, Ch. 12, p. 127.

واضحاً لا يقبل الشك ، اما فى الحالات الكثيرة التى توجد بها عيوب فى بعض القوانين دون أن يصل الأمر الى درجة الظلم المشـــار اليها ، فان اطاعة القوانين تظل واجبة رغم ما بها من عيوب .

وفى هذا المعنى يقول ارسطو « ان الخضوع للقوانين هو الأمر الأول الواجب الاتباع . أما الأمر الثانى فهــو القيمة الذاتيــة لهذه القوانين التى نخضع لها ، لأنه من الممكن أن نخضــع لقوانين سيئة » (١٦) وفى موضع آخر يقــول : « انه من الواجب جــداً أن نغلق أعيننا على مســاوىء المشرعين والحكومة ، فان الشر الأكبر هو انتزاع القــوة عن القــوانين ، واعتياد الشــــعب على مخالفتها » (١٧) .

وفى سبيل المحافظة على قوة القانون الملزمة فان أرسطو ينادى بما يمكن أن نسميه فى العصر الحديث بالسياسة الاعلامية المتفقة مع نظام الحكم فى الدولة . فالدولة يجب أن تعلم الأفراد فيها وتربيهم على حب نظام الحكم القائم أياً كان هذا النظام . ومعنى ذلك أن القانــون لا يقيد ارادة الأفراد وحسب ، بل يذهب الى أكثر من ذلك فيؤثر فى تكوينهم العقلى بما يجعلهم راضين عن نظام الحكم القائم فى دولتهم . ولعل أرسطو قد تنبه الى العيب فى الطريقة التى يدعــو اليها ، ولذلك فهو يدافع عنها بقوله : « ان تربية الشعب على وفاق مع الدولة لا يعنى مداهنة الحكام أو المحكومين » (١٨) ولكنه يؤدى فقط الى المحافظة على الدولة .

والذى يقصده أرســطو من ضرورة تربية الشعب على حب النظام القائم فى الدولة ، هو انه لا أهمية لنوع هذا النظام او شكله فطالما هو نظام غير ظالم بصفة مطلقة وغير مخالف للطبيعة فانه يكون واجب الاحترام ، وتكون القوانين الصادرة عنه واجبة الطاعة حتى ولو انطــوت على بعض العيوب ، لأن حفظ النظام فى داخل الدولة أهم من قيمة القانون ذاته ومدى تعبيره عن فكــرة العدل . بل ان الطاعة لأحكام القانون هى أول التزام تفرضه الأخلاق ويقتضيه العدل . وهل هناك أبلغ فى التعبير عن ذلك من القول بأن **القانون نفسه هو العدل** ؟ هذا هو ما قاله أرسطو ـ كما ذكرنا ـ وهو ما يدعونا الى بحث العلاقة الحقيقية بين القانون والعدل ، أى بين القانون الوضــعى والقانون الطبيعى .

(٥) ـ خضوع القانون الوضعى للقانون الطبيعى (القانون العقلى) :

ان قول أرسطو بأن القانون الوضعى هو العدل ، لا يحمل فقط أمراً الى الأفراد بالخضوع للقانون ، ولكنــه يحمــل فى نفس الوقت أمــراً للمشرعين بأن يســتوحوا أحكامهــم من مبادىء العدل . **فكما أن ارادة الفرد تخضع للقانون ، فان القانون ـ وهو نفسه ارادة انسانية ـ ينبغى أن يكون معبراً عن العدل** . ووسيلة المشرع للوصول الى العدل هى **التفكير العقلى الســليم المجرد عن العواطف والمصالح** . والانسان فيه جانب عقلى وآخر حسى . **والجانب الحسى بما يؤدى اليه من عواطف « يحول كل النــاس الى حيوانات »** . فالعداء مثلاً « يعمى كل الناس حتى أكثر الناس

---

(١٦) Aristote, Politique, Ibid, Liv. 3, Ch. 9, p. 92.

(١٧) Aristote, Politique, ibid., Appendice 3, p. 226.

(١٨) Aristote, Politique, Ibid, Liv. 4, Ch. 18, p. 197.

امتيازاً » (١٩) والمشرع لا يجب أن يضع القوانين على أساس **مصالحه أو مصالح الطبقة التى ينتمى اليها** ، بل على اساس **العقل وحده فهو المعيـار الصحيح للعدل والأخلاق** .

وفى شرح ارسـطو يقول توماس الاكوينى « ان تعريف الفضيلة الأخلاقية يكـون بوساطة العقل السـليم » ويترتب على ذلك أن « كل مايمليه العقل على الانسان فهو طبيعى بمعنى أنه معقول » (٢٠) ونظراً لأن **العقل هو وسيلة الانسان لاكتشاف العدل ومبادىء القانون الطبيعى ، فقد أمكن تسمية (القانون الطبيعى) باسم آخـر هو (القانون العقلى)** . وقد تأكد الترادف بين هذين الاصطلاحين على يد « **كانت** » الذى سـنعرض لفلسفته فيما بعد .

فالعدل هو اذن القانون العقلى الذى يدركه العقل السليم ، وهو ما ينبغى أن يستوحيه المشرع عند وضع القوانين المختلفة التى يلزم بها الأفراد . فاذا كانت السلطة التشريعية يحوزها فرد او افراد فلا بد أن يقتصر استخدامها على مـا يوحى به العقل ، **والا تحول هؤلاء الأشـخاص الى طغـاة مستبدين** . وفى هذا يقول **ارسطو « اننا نرفض اعطاء السلطة للانسان ، ولكننا نعطيهـا للعقل ، فالانسان يباشر السلطة فى الواقع لمصلحته ويتحول الى طاغية » (٢١)** .

وهكذا فاذا كان المواطن العادى يخضـع للقانون الذى يضعه مواطن آخر فى يده سـلطة التشريع ، **فان ذلك لا يعنى خضوع انسان لانسان آخر مثله** ، أو خضوع ارادة لارادة اخرى مثلها ، وانما يعنى **خضوع ارادة الانسان لحكم العقل . فالمشرع لا يضع القانون باعتباره انساناً ، ولكن باعتباره (عقلاً مجرد) ا عن المصالح والأهواء ، اوهكذا ينبغى أن يكون** .

وفى هذه الحالة فان السلطة التشريعية لاتتحول الى سـلطة قهر ، بلْ تصـبح **عملاً عقلياً** يسعى الى **ادراك الفضـيلة** ويعمل على تحقيقها والزام الناس بها .

واذا كان أرسطو قد عبر بوضـوح عن ان القانون الطبيعى هو القانون العقلى ، وأن ادراك العدل يكون بوساطة العقل السليم (Le droite raison) (٢٢) فان هذه **الفكرة نفسها لقيت فى اوروبا بعض التغيير على يد الفلاسفة المسيحيين** . فمع أخذهم بنظرية القانون الطبيعى، الا أن هذا القانون لم يعد فى نظرهم **قانوناً عقلياً يدركه الانســان** بمايشع فى عقله من ضوء ، ولكنه أصبح **قانوناً مقدساً مصدره الوحيد هو الله ودليل وجوده هو الكتب المقدسة** (٢٣) .

ومع ذلـك فان توماس الاكوينى ، أعظم الفلاسفة المسيحيين على الاطلاق ، والفيلسوف

---

(١٩) Aristote, Politique, Ibid., Liv. 2, Ch. 7, p. 123.

(٢٠) SAINT THOMAS D'AQUIN, Somme théologique, QU 57.3; QU 58.3.

(٢١) Aristote, Ethique, op. cit., Liv. 5, Ch. 6, 5.

(٢٢) Aristote, Ethique, 6, 1, 1.

(٢٣) راجع فى هذا الموضوع : Michel VILLEY, Lécon d'histoire de la philosophie du droit, Paris, Dalloz, 1962, p. 37 et s.

الذى عقد الصلح بين الفكر المسيحى والفكر الارسطى ، عاد الى تأكيد مذهب ارسطو فى ان القانون الطبيعى هو القانون العقلى ، وان الله لا يأمر بشىء الا لأنه حسن بحسب العقل ، ولا ينهى عن شىء الا لأنه قبيح فى نظر العقل . بل ان الله جلت قدرته لا يمكن ان يجعل الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً . وفى هذا يقول توماس الاكوينى « **ان نظام العدل يأتى من عند الله ، وكذلك نظام الطبيعة** . ولكن الله لا يمكن ان يصنع شيئاً خارج نظام العدل ، والا لكان يصنع شيئاً غير عادل . وكذلك فانه لا يمكن أن يصنع شيئاً خارج نظام الطبيعة » (٢٤) ، ويقول أيضاً « ان الأشياء ، فى القانون الالهى ، مأمور بها لأنها حسنة ، ومنهى عنها لانهـا قبيحـة » (٢٥) ، كما وأن « حسن تصرفات الانسان تأتى من الخضوع لأحكام العقل الذى تستمد منه تصرفات الانسان معيارها » (٢٦) .

وجدير بالذكر أن **مشكلة القانون الطبيعى قد عرفها فلاسفة الاسلام** تحت اسم مشكلة **الحسن والقبيح العقليين** . وقد انقسم الرأى فى هذه المشكلة بين ثلاثة اتجاهات : **الأول : اتجاه عقلى يتزعمه واصل بن عطاء** وهو اتجاه المعتزلة ، **والثانى : اتجاه غير عقلى وهو اتجاه الأشاعرة ، والثالث : اتجاه وسط ويتزعمه المتريدى (٢٧)** .

والخلاصة ان القانون الطبيعى عند أرسطو هو **القانون العقلى** ، وهو **مرادف للعدل فى ذاته** ، كما أن **العدل يشمل كل الفضائل** ويعبر بذلك عن **الأخلاق** ، وكل هذه الاصطلاحات تعبر عن الفكرة التى يجب ان **يستوحيها المشرعون عند وضع القوانين التى** يلتزم بها الأفراد فى المجتمع . **واذا تحقق ذلك فان القانون الوضعى يصبح تعبيراً عن القانون الطبيعى ومعياراً للعدل فى نفس الوقت** ، ولكنه **عدل وضعى** يختلف باختلاف الدول والأزمنة .

(٦) ـ القانون الطبيعى ذو التعبير المتغير :

اذا كان العدل فى ذاته ثابتاً لا يتغير ، فان التعبير عنه يمكن أن يتغير من وقت لآخر ، ومن مجتمع لآخر . بل ان اختلاف **التعبير ضرورة يقتضيها القانون الطبيعى ذاته . فلكل شعب نظام الحكم الذى يناسبه ، ولا يوجد نظام افضل من غيره من النظم بالنسبة لجميع الشعوب (٢٨) . وبقدر ما يكون شكل الحكم مناسباً للشعب ، وبقدر ما تكون القوانين ملائمة للظروف التى صدرت فيها** ، بقدر ما تكون فكرة العدل قد وجدت لها صدى حقيقياً فى الواقع . وهذه القوانين المتغيرة الملائمة تستحق أن توصف بأنها قوانين طبيعية ، اى مستمدة من طبيعة الأشياء . **ولا تعارض بين أن يكون الشىء طبيعياً وأن يكون متغيراً** ، « ذلك أنه توجد أشياء طبيعية وتكون فى فى الوقت نفسه قابلة للتغيير » (٢٩) .

---

(٢٤) Somme théologique, trad. par Ch. V. — Heris, 1959, Qu 105.

(٢٥) Somme théologique, trad. par M.S. Gillet, art 6, 1932, QU. 57, 2.

(٢٦) Somme théologique, op. cit., QU 58, 3.

(٢٧) راجع : ابو زهرة ، اصول الفقه ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٧ وما بعدها ، عبد الوهاب خلاف ، اصول الفقه ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢٨) Aristote, Politique, Liv. 2, Ch. 6, p. 116.

(٢٩) Aristote, Ethique, op. cit., 5, 7, 3.

ولكن مهما كانت القوانين الوضعية مستوحاة من العقل وموافقة لطبيعة الأشياء ، فانها **لا تختلط تماماً مع القانون الطبيعي** .

ويظل **الفارق الأساسي** بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي **في مصدر كل منهما** . فالقانون الطبيعي مصـــدره **العقل الخالص** ، أما القانـون الوضعي فمصدره **ارادة الانسان** حتى ولو حاولت هذه الارادة أن تستوحي العقل الخالص فانها تظل مع ذلك محكومة بحقيقة كونهـا ارادة انســانية **غير قادرة على التخلص تماماً من تأثيرات العالم الحسي الذي تعيش فيه** .

واذا كان الفيلســوف « كانت » قد عبـر بوضوح كامل عن الازدواج الضروري بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي ، فاننا لا نجد التعبير اقل وضوحاً عند أرسـطو الذي ينادي بضرورة المحافظة على « **التفرقـة** » بين العدل بحسـب القانون ، والعدل بصفة عامة ، بين العدل القانوني وبين العدالة (٣٠) .

والواقع كما سنرى أن **الخلط بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي** ، هو انحراف في نظرية القانون الطبيعي ادى على يد بعض الفلاسفة الى **تبرير النظم** الاستبدادية الظالمة .

والخلاصة ان القانون (الطبيعي) هو العدل في ذاته وهو ثابت لا يتغير ، اما القانون (الوضعي) فهو العدل الذي يصطنعه المشرع والذي **يجوز أو يجب ان يتغير** من وقت لآخر ومن دولة لاخرى . **فالتغيير اذن لا يمتد الى القانـون الطبيعي ذاته ولكن الى وسيلة التعبير عنـه** ، وهـو التشريع الوضعي **الذي يفترض انه يعبر** بصـورة ما عن مضمون القانون الطبيعي .

ولكن لماذا لا يحاول الفيلسوف نفسه ، وهو صاحب عقل راجح ، أن يستكشف الطـريق الى القانون الطبيعي ؟

الواقع أن أرسطو قد حاول ذلك بالفعل أو هو على الأقل حاول أن يقدم بعض الأفكار التي تساعد على تقريب فكـرة العدل الى الأذهان . **فنراه يقسـم (العدل) الى عدل توزيعي وعدل تبادلي** ، ويقسمه يضـاً الى عدل (عام) وعدل (خاص) ، ويدافع عن الملكية الخاصة ، ويحبذ تحديد الملكية ، **ويهاجم الصراع الطبقي** ، الى غير ذلك . ونشير الى هذه المحاولات فيما يلي :

(٧) ـ العدل التوزيعي والعدل التبادلي :

عندما يبدأ أرســطو في تحديد بعض **مظاهر (العدل) فانه يستخدم اصطلاحاً جديداً لهذا الغرض** و (المساواة) . (فالعدل هو المساواة) . وهناك صورتان للعدل لا بد من مراعاتهما في كل مجتمع ، **هما العدل التوزيعي والعدل التبادلي** . أما العدل التوزيعي **فهو خاص بتوزيع الثروات** والمزايا المعنوية وكل المزايا الاخرى المتاحة ، على أفراد المجتمع . والمســاواة التي تحكـم العدل التوزيعي ليست هي المساواة الحســابية ولكنها مساواة تناسبية أو جبرية . ويترتب على **ذلك أن العدل التوزيعي يكون قد تحقق رغم وجود فروق بين الأفراد في المجتمع** . فالعدل التوزيعي لا يأبى أن « توجد مســاواة وكذلك عدم مســاواة بين مواطن ومواطن » (٣١) .

---

(٣٠) Aristote, Ethique, op. cit., 5, 7, 7.

(٣١) Aristote, Ethique, op. cit., 5, 2, 12

ولكن اذا كان **العدل التوزيعي لا يقتضي المساواة الحسابية (المطلقة) بين المواطنين ، الا انه يأبى عدم المساواة المطلقة بينهم** . فالفروق بين المواطنين يجب أن تكون معقولة على أساس **الاعتدال وهو الوسط بين نقيضين** . وتعتبر سعيدة تلك الدولة التي لا توجد فيها الا « ثروات متواضعة وكافية » في نفس الوقت (٣٢) . فالثروة الكافية لازمة لكل فرد لمباشرته الفضيلة ، وصولاً الى غاية الانسان وهي تحقيق السعادة ، **والثروة المتواضعة لكل فرد تعني عدم وجود فروق كبيرة بين الأفراد والطبقات وهو ما يحمي المجتمع من الصراع ومن سيطرة طبقة على اخرى** .

ومع ذلك فان ارسطو لا يخفي انه « في مسألة العدالة والمساواة يصعب الوصول الى الحقيقة الكاملة » (٣٣) وبصفة خاصة فيما يتعلق بالعدل التوزيعي « نظراً لان بعض الأفراد متساوون في بعض الأشياء ويظنون انهم متساوون في كل شيء ، ويظن آخرون نظراً لأنهم متميزون في بعض الأشياء انهم متميزون في كل شيء وأنهم بالتالي مستحقون لكل الامتيازات » (٣٤) . وبالطبع فان الواجب على المشرع أن يراعي الاعتدال في التوزيع فلا يستجيب الا الى المطالبات المعقولة .

ولكن حتى يكون المشرع قادراً على الاضطلاع بهذه المهمة ينبغي ان يكون مستوحياً العدل في عمله ، والا يكون صادراً في تفكيره عن مصلحة طبقة معينة . أما اذا كان التشريع هو مجرد تعبير عن سيطرة طبقة معينة سواء كانت هي طبقة الأغنياء أو طبقة البروليتاريا، فان العدل التوزيعي يصبح مستحيل التطبيق ، وبالتالي فان التشريع يكون قد اتجه الى الظلم حيث كان يجب عليه ان يحقق العدل (٣٥) .

فاذا فرضنا أن المشرع تمكن بالفعل من تحقيق العدل التوزيعي فان ذلك لا يكفي ، بل ينبغي أن يستمر ذلك في المستقبل ايضاً . واستمرار العدل التوزيعي لا يكون الا عن طريق نوع آخر من العدل وهو العدل التبادلي الذي يحكم العلاقات بين الناس سواء كانت هذه العلاقات ارادية كالعقد أو غير ارادية كالعمل غير المشروع .

فالعدل التبادلي مكمل للعدل التوزيعي ، ولاتظهر الفائدة منه الا بعد أن يكون العدل التوزيعي قد تحقق بالفعل . كما أن الفائدة من العدل التوزيعي لا تستمر الا عن طريق العدل التبادلي .

وعلى خلاف المساواة في العدل التوزيعي وهي مساواة جبرية غير حسابية ، فان المساواة في العدل التبادلي مساواة حسابية مطلقة (٣٦) .

وعلى هذا النحو « اذا تسبب عمل أو تصرف في خسارة مادية او معنوية لشخص من الأشخاص، فان العدل التبادلي يقتضي أن يقوم الشخص الذي تسبب في الخسارة أو استفاد منها بأن يرد للطرف الآخر ما يعادل هذه الخسارة بحيث يصبح كل من الشخصين بعد حدوث هذا التصرف في نفس المركز الذي كان عليه من قبل » (٣٧) .

---

(٣٢) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 14, op. cit , p. 152 et s.

(٣٣) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 13, op. cit., p. 131.

(٣٤) Aristote, Politique, Liv. 4, Ch. 15, op. cit., p. 164.

(٣٥) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 6, p. 120.

(٣٦) Aristote, Ethique, 5, 4, 13.

(٣٧) Aristote, Ethique, 5, 4, 13.

والواقع أن فكرة أرسطو عن العدل التبادلى هى الأساس الذى تقوم عليه اهم نظريات القانون، كنظرية العقد والعمل غير المشروع والاثراء بلا سبب (٣٨) . بل ولا توجد مسألة فى نظرية الالتزام لا يمكن ردها الى هذه الفكرة . ويفسر هذا احتفاء رجال القانون المعاصرين بهذه الفكرة واستخدامهم لها عند دراسة الكثير من المسائل القانونية الفنية.

والخلاصة أن العدل التوزيعى يحكم توزيع الثروات والمزايا على المواطنين ويقوم على أساس مساواة نسبية غير حسابية ، أما العدل التبادلى فانه يحكم المعاملات والعلاقات بين افراد المجتمع سواء كانت ارادية أو غير ارادية ويقوم على أساس مساواة حسابية مطلقة .

ولكن فكرة العدل التبادلى تحتاج الى ايضاح أكثر فيما يتعلق بانطباقها على نظرية العقد ، كما أن فكرة العدل التوزيعى تحتاج الى ايضاح أكثر فيما يتعلق بانطباقها على نظرية الملكية .

(٨) ــ العدل التبادلى والعقد :

العقد هو أهم تصرف ارادى يقوم به الانسان فى حياته . وعن طريق العقود تتم المعاملات بين الأفراد ويتحقق النشاط فى المجتمع . ولا شك أن كل فرد يسعى الى تحقيق مصلحته والى تحقيق العدل بالنسبة لنفسه . ولذلك اذا أبرم انسان عاقل عقداً فالمفروض أن يكون هذا العقد معبراً عن العدل بالنسبة له . ونظراً لأن العقود تبرم بين طرفين فيفترض أنها تحقق العدل لكل من هذين الطرفين . ولذلك يمكن القول ان العقد تعبير عن العدل وأن من قال عقداً فقد قال عدلاً .

ولذلك فان المقصود بالمساواة فى العقد ، تلك المساواة التى يرضاها كل متعاقد لنفسه ، « لأن أحداً لا يرضى لنفسه الظلم بارادته » (٣٩) . ويضرب ارسطو لذلك مثلاً بقوله : « ان ذلك الذى يعطى ما يملكه الى شخص آخر لا يكون ضحية لظلم » ، فالواقع ان الانسان حر فى أن يتبرع ولا يمكن أن يكون لهذا السبب ضحية لظلم ما دام لا يوجد شخص آخر قد تسبب فى احداث هذا الظلم (٤٠) .

وهكذا فان ارسطو يضع المبدأ الأخلاقى فى أساس القوة الملزمة للعقد وهو افتراض مطابقة العقد للعدل . وهو نفس الافتراض الذى أقام عليه القوة الملزمة للقانون وهو أن ارادة المشرع تعبر عن العدل . بل أن افتراض العدل فى العقد يبدو أقرب من افتراضه فى القانون . لأن الانسان فى العقد يسعى الى تحقيق العدل بالنسبة لنفسه، أما فى القانون فان المشرع يسعى الى تحقيق العدل بالنسبة للشعب . وحرص الانسان على مصالحه الخاصة أقوى من غير شك من حرص المشرع على مصلحة الشعب . ولكن كما أن افتراض مطابقة القانون للعدل لا يصل الى درجة اعتبار القانون مساوياً للعدل فى ذاته ، فان افتراض مطابقة العقد للعدل لا يصل كذلك الى درجة اعتبار العقد مساوياً للعدل فى الجوهر .

فالقانون كما سبق أن ذكرنا هو عدل مصطنع صنعته ارادة المشرع ، وهو يستحق

---

(٣٨) Michel Villey, Op. cit. p. 120.

(٣٩) Aristote, Ethique, 5, 11, 6.

(٤٠) Aristote, Ethique, 5, 9, 7; 5, 9, 8.

الطاعة والاحترام لافتراض مطابقته للعدل الحقيقى ٠ ولكن فى الحالات التى يتضح فيها بجلاء أن القانون قد خالف العدل وأنه صدر عن حاكم طاغية مستبد بالناس فانه يصبح فى هذه الحالة معبراً عن الظلم لا عن العدل ويصبح غير مستحق للطاعة أو الاحترام ٠

وبالمثل فان العقد وهو نوع من الاتفاق هو شيء مصطنع من صنع الارادة التى تستخدمه لتحقيق أغراض الحياة ٠ ولذلك فهو لا يطابق تماماً العدل الحقيقى بل يظل دائماً صورة مصطنعة للعدل ، ويستحق الاحترام لهذا السبب وحده ٠ وارسطو يعالج نظرية العقد تحت عنوان « الاكتساب المصطنع للملكية » ٠ ويقول : « ليست الطبيعة هى التى خلقت التجارة بما تنطوى عليه من شراء وبيع بثمن أكبر ، فاذا كان التبادل وسيلة ضرورية لكى يحصل كل شخص على ما يفى بحاجاته ، فان الأمر لم يكن كذلك فى المجتمعات البدائية التى كانت فيها الملكية مشتركة ٠ ولم يصبح التبادل لازماً الا فى المجتمعات الكبيرة وبعد ظهور الملكيات الخاصة » (٤١) ولذلك فانه اذا كان العقد وسيلة مصطنعة للتعبير عن العدل فى معاملات الناس (وهى وسيلة لازمة لا غنى عنها ولا توجد وسيلة اخرى افضل منها بصفة عامة لأن ارادة الانسان هى أقدر وسيلة لتحقيق العدل لصاحبها) الا أن هذه الوسيلة لا ترقى أبداً الى مستوى العدل الحقيقى. وكذلك فانها لا تستطيع أن تخالف العدل مخالفة جوهرية والا فقدت سبب وجودها وأصبحت غير واجبة الاحترام ٠ وهكذا فان أرسطو لا يدعو الى احترام العقود جميعاً بغير استثناء ، بل هو ــ على العكس ــ لا يتردد فى مهاجمة بعض العقود التى يرى انها تحقق الظلم ولا تحقق العدل ٠ ومن هذا القبيل عقد الربا « فالنقود لا تلد نقوداً ، فذلك نوع من الربح مخالف للطبيعة » (٤٢) ٠

وهكذا فان ارادة الانسان تتقيد باعتبارات العدل حتى وهى تسعى الى تحقيق مصلحتها الخاصة ٠

(٩) ــ العدل التوزيعى والملكية الخاصة (مهاجمة الشيوعية) :

يتعلق العدل التوزيعى كما سبق ان ذكرنا بتوزيع الثروات الموجودة فى الدولة على المواطنين فيها ، ويقوم هذا التوزيع على اساس مساواة نسبية غير حسابية ٠ ويترتب على ذلك أمران أولهما الاعتراف بمبدأ الملكية الخاصة ، وثانيهما الاعتراف بعدم المساواة الحسابية فى الملكيات الخاصة. والواقع أن ارسطو كان من أقوى أنصار الملكية الخاصة ومن أشد أعداء الشيوعية التى نادى بها أفلاطون ٠

ولا يذهب أرسطو الى جعل كل ثروات الدولة مملوكة ملكية خاصة ، بل يرى ضرورة تقسيم هذه الثروات الى قسمين رئيسيين : الأول خاص بالأموال اللازمة للانتفاع المشترك لجميع الأفراد وهذا الجزء تظل فيه الملكية عامة للدولة .أما الجزء الثانى فهو الذى يوزع على الأفراد ويصبح مملوكاً لهم ملكية خاصة ٠ وفى هذا المعنى يقول أرسطو انه « لا يمكن مطلقاً انشاء دولة الا اذا قمنا أولاً بتقسيم الأموال وذلك بتخصيص بعضها للاستعمال العام وتوزيع الباقى على الأفراد » (٤٣) ٠

(٤١) Aristote, Politique, Liv. 1, Ch. 2, op. cit., p. 22.

(٤٢) Aristote, Politique, Liv. 1, Ch. 2, p. 26.

(٤٣) Aristote, Politique, Appendice 1, p. 212.

اما الشيوعية التى ينادى بها افلاطون فانهامخالفة للطبيعة ، وتؤدى الى عكس المقصود منها ، « واذا كان أفلاطون يقصد من الشيوعية تحقيقاكبر قدر من الوحدة داخل المجتمع ، فانى اريد أيضاً تحقيق نفس الشيء . ولكن اذا اندفعنا فيالوحدة أكثر من اللازم، فلن يبقى بعد ذلك مجتمع مدنى ، وهو ما يقوم أساساً على تعدد الأشخاص ،فالوحدة فى كل شيء ، والا فلن نبقى على هذا المجتمع ، وستزداد عيوبه بسبب اختصاره ،ويشبه ذلك الى حد ما ، حالة ما اذا اختصرنا قطعة موسيقية الى صوت واحد أو الى لحن واحد » (٤٤) .

والدفاع عن الملكية الخاصةيقوم عند أرسطوعلى اعتبارات غريزية لصيقة بالانسان ، فان كل انسان يحب ذاته ، وحب الذات ليس عيباً ، وانماالعيب هو التطرف فى حب الذات ، وهو ما يمكن ان نسميه « أنانية » . وحب التملك تعبير عنحب الانسان لذاته ، وحب التملك عند الانسان « له جاذبية تجل عن التعبير » ويؤدى الى نوع من« المتعة » و « السرور » لا يمكن تحقيقهما فى المجتمع الشيوعى الذى اقترحه أفلاطون (٤٥) .

ومن ناحية اخرى فان الملكية حافز علىالعمل ، كما انها جزاء على العمل . ومن غير المعقول أن يحصل الذين يعملون والذين لا يعملونعلى نفس الجزاء . والا لدب التكاسل فى المجتمع ، وترك كل شخص عمله ليقوم به غيره من الناس . « وهذا ما نلاحظه بصفة خاصة فى الأعمال المنزلية، فعندما يكثر الخدم ، تقل العناية المطلوبة » (٤٦) .

واذا كانت الشيوعية مدعاة للتكاسل ، فهىفى الوقت نفسه مدعاة للمنازعات كما هو مشاهد فى بعض صور الملكية المشتركة (٤٧) .

ولا يعنى هذا ان الملكية الخاصة تسمو علىالنقد ، بل هى تؤدى فى بعض الحالات الى الصراع والمشاحنات . « ولكن ليست من الملكية الخاصةتنشأ هذه العيوب وانما من فساد الناس » (٤٨) .

ومن ناحية اخرى فان الدفاع عن الملكيةالخاصة لا يعنى اطلاقها بغير حد ، بل هى تتقيد باعتبارات المصلحة العامة . واذا كان الفكرالحديث قد وصل الى القول بأن للملكية الخاصة « وظيفة اجتماعية » ، فان أرسطو عبر عن نفسالفكرة أدق تعبير بقوله : « يجب فى الواقع اعتبار الأموال عامة الى حد ما ، على أن تكون مع ذلكمملوكة للأفراد » (٤٩) ، فالملكية خاصة ولكن لها مظهر عام أو وظيفة عامة .

واذا كانت الملكية الخاصة تتقيد بوظيفتها الاجتماعية ، فهى أيضاً تتقيد فى مداها من حيث ضرورة تحديدها .

---

(٤٤) Aristote, Politique, Appendice 1, p. 206, 212.

(٤٥) Aristote, Politique, Appendice 1, p. 211.

(٤٦) Aristote, Politique, Appendice 1, p. 208, 210.

(٤٧) Aristote, Politique, Appendice 1, p. 211

(٤٨) Aristote, Politique, Appendice 1, p. 211.

(٤٩) Aristote, Politique, Appendice 1, p. 210.

(١٠) ـ تحديد الملكية الخاصة :

اذا كانت الملكية الخاصة تتفق مع طبيعة الانسان ، فهى أيضاً لازمة له لمباشرة الفضيلة . والفضيلة هى الاعتدال والوسط بين نقيضين كل منهما سيء . وكما ان الفضيلة توجد فى الوسط ، فان الملكية التى تساعد على الفضيلة ينبغى أيضاً أن تكون متوسطة ، لا هى ضئيلة جداً ولا هى كبيرة للغاية .

وفى هذا المعنى يقول ارسطو : « ان الحياة السعيدة تكون فى المباشرة الحرة للفضيلة، والفضيلة تكون فى الوسط ، ويترتب على ذلك بالضرورة ان الحياة الفاضلة هى الحياة المعتدلة المحاطة بشيء من اليسر الذى يستطيع كل شخص ان يصل اليه » (٥٠) .

وما يصدق على الأفراد ينعكس على الدولة أيضاً « فانه من أسباب السعادة الكبرى للدولة الا توجد فيها الا ثروات متواضعة وكافية . أما اذا انقسم أفراد الشعب الى أشخاص شديدى الثراء وآخرين بالغى الفقر ، لأدى ذلك الى سيطرة الطبقة الغنية او الى ثورة الطبقة الفقيرة وما يترتب على ذلك من تطرف نحو الطغيان .. أما الدولة التى يراعى فيها مبدأ الاعتدال ، فهى الدولة الأفضل وهى التى تخلو من الاضطرابات » (٥١) والفوارق الشديدة بين الطبقات تتنافى مع طبيعة نظام المجتمع ، وتؤدى الى خلق نوعين من الناس ، « عبيد وسادة لا مواطنين احرار » . وفى هذا الجو لا يتحقق التعاون الذى يستمد منه النظام الاجتماعى اساس وجوده . « ان المجتمع يحتاج بصفة خاصة الى اعضاء متساوين ومتشابهين ، وهو ما لا يمكن وجوده الا فى الوسط » (٥٢) .

واذا كان العقل هو معيار الفضيلة ، فان التطرف فى الثراء أو الفقر يذهب بالعقل لأن الانسان لا يستطيع أن يستمع الى حكم العقل بسهولة اذا كان يتمتع « بجمال فائق ، أو قوة لا تقارن أو درجة عالية من النبل الاجتماعى ، أو درجة مبالغ فيها من الثراء ، أو كان على عكس هذه الصفات من الفقر أو الضعف أو انحطاط الأصل » (٥٣) . أما صاحب القدرات المعتدلة فهو وحده الذى يستطيع أن يستجيب الى حكم العقل أى الى مقتضيات الفضيلة والعدل .

واذا كان أرسطو يربط بين تحديد الملكية الخاصة والفضيلة فمعنى ذلك انه يربط بين تحديد الملكية وبين القانون الطبيعى . فالقانون الطبيعى هو القانون العقلى وهو العدل . وهو فى الوقت نفسه الأساس الذى يستمد منه المجتمع السياسى أسباب وجوده كما تستمد منه القوانين الوضعية قدرتها على الزام الأفراد ، كما تستمد منه قيمتها الأخلاقية فى كونها تعبر عن العدل . وسنرى فيما بعد ان هذا التعبير يصبح فاسداً اذا ازدادت الفوارق بين الطبقات ودب الصراع بينها وأصبح القانون تعبيراً عن سيطرة طبقة على طبقة اخرى غيرها .

---

(٥٠) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 14, p. 150.

(٥١) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 14, p. 152.

(٥٢) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 14, p. 151.

(٥٣) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 14, p. 151.

(١١) ـ العدل العام والعدل الخاص (مبدأ سيادة القانون) :

تحت عنوان **((سمو القانون))** خصص ارسطوفصلاً من كتاب السياسة للدفاع عن مبدأ سيادة القانون وسموه على ارادة الأفراد ، بما فى ذلك ارادة الحكام انفسهم . فهو ينزع السلطة من الأشخاص ويعطيها لنصوص القانون .

ونصوص القانون لا توضع لحالات خاصة ، ولا تنطبق على افراد معينين ، وانما توضع فى عبارات عامة وتنطبق على جميع الأفراد بغير تمييز . « فلا ينبغى أن يكون للجميع سوى أمر واحد » (٥٤) وهذا المبدأ هو ما يعبر عنه الفقه الحديث بأن قواعد القانون يجب أن تكون عامة مجردة . وعمومية القانون تعنى أن العدل الذى يحققه هو عدل عام ينطبق على الناس جميعاً بغير تفرقة .

ولا شك ان سيادة القانون أفضل من تسلط الحكام ، لأن القانون وان كان واضعه شخصاً من الأشخاص الا أنه بصياغته العامة يتجرد من العواطف والمحاباة . واذا كانت هذه المؤثرات تعمى الأبصار ، فان « القانون ، على العكس ، هو العقل المجرد عن العاطفة » (٥٥) ، أما اذا خضع الأفراد لارادة الحكام وليس للقانون ، فانهم يتعرضون بذلك لأهواء الحكام وعواطفهم ، أى يتعرضون لحكم الحيوان ، فالعواطف تحول الناس جميعاً الى حيوانات ، بينما خضوع الانسان لا ينبغى أن يكون الا لحكم العقل (٥٦) .

والقانون هو العقل ، أو هو القائد الذى ينبغى الاهتداء بحكمه . ولا شك أن « اتباع قائد مجرد من الأهواء أكثر أماناً من اتباع قائد تكون الأهواء داخلة فى تكوينه . والقانون مجرد من الأهواء » (٥٧) . ولذلك يجب أن يكون الحكم للقانون ، وأن يكون العدل عاماً بالنسبة للجميع .

ومع ذلك فان أرسطو لا ينكر دور الانسان فى تحقيق العدل ، لأن القانون لا يمكن تطبيقه الا بوساطة بعض الأفراد ، وهؤلاء هم القضاة . وهنا يضع أرسطو ثقته الكاملة فى القضاة . فهو يسلمهم قواعد القانون العامة ويترك لهم بعد ذلك كل شىء .

والقضاة يطبقون قواعد القانون العامة على الحالات الخاصة التى تعرض أمامهم . وبذلك يمكن التوفيق بين العام والخاص ، وتتحقق فى كل حالة خاصة صورة العدل التى تناسبها .

والعدل الخاص هو اما تطويع للقواعد العامة ، أو الحكم بغيرها فى حالة سكوتها عن مواجهة النزاع المعروض أمام القاضى .

وارسطو يتكلم بكل تقدير عن القضاة . ذلك أنه « عندما يحدث خلاف بين الناس ، فانهم يلجأون الى القاضى . والذهاب الى القاضى ، هو ذهاب الى العدالة ، لأن القاضى ، يريد أن يكون ،

---

(٥٤) Aristote, Politique, Liv. 2, Ch. 7, p. 122.

(٥٥) Aristote, Politique, Liv. 2, Ch. 7, p. 123.

(٥٦) Aristote, Politique, Liv. 2, Ch. 7, p. 123.

(٥٧) Aristote, Politique, Liv. 2, Ch. 7, p. 125.

اذا جاز التعبير ، تجسيداً للعدالة . وفى شخص القاضى يبحث الانسان عن شخص ثالث غير متحيز ، يسميه البعض حكماً ... وهو رجل العدل ... الذى يمسك بالميزان بين الطرفين » (٥٨) . ولعل عبارة ارسطو الأخيرة هى الأصل فى الصورة المألوفة عن العدالة ، وهى صورة الشخص معصوب العينين والذى يمسك بميزان فى يده ، وهى الصورة التى ترمز فى كل بلاد العالم الآن لفكرة العدل .

والواقع أن قول ارسطو ان القاضى هو رجل العدل الذى يمسك بالميزان بين طرفين ، لا زال أقوى تعريف فنى للعمل القضائى وهو ما لم يتخطه الفكر القانونى حتى اليوم .

ولكن ارسطو لا يدعو القاضى الى تطبيق القانون تطبيقاً حرفياً فى جميع الأحوال . ذلك ان القانون يشوبه النقص ، اى قد لا يتضمن حكماً للنزاع المعروض أمام القاضى . وفى هذه الحالة يجب على القاضى أن يفصل فى النزاع ولا يتهرب من الفصل فيه بحجة أنه لم يجد الحكم فى نصوص القانون . والا فانه يكون قد ارتكب جريمة انكار العدالة ، ويكون أيضاً قد خرج على مقتضى وظيفته ، لأن وظيفته هى أن يحكم بالعدل ، وهى وظيفة يجب أن يباشرها دائماً حتى ولو لم يجد نصاً فى القانون .

ونظرية النقص فى التشريع التى اعترف بها الفقه الحديث بعد جدل طويل ، اشار اليها ارسطو بكل وضوح ، فهو يقول « عندما يكون القانون قد عبر بوضوح عن قصده فانه يترك بعد ذلك لرشادة القضاة ان يحكموا وان ينظموا الباقى ، وهو يُجيز لهم ان يكملوا ما فيه من سكوت » (٥٩) . وهو يقول أيضاً انه نظراً لعدم وجود قوانين لهذه الحالات الخاصة « فيجب على الانسان أن يكمل ذلك » (٦٠) ، وهو يقصد بالانسان هنا ، القاضى .

وفى الحالات التى لا يوجد فيها حكم فى القانون ، فان ما يحكم به القاضى يكون نوعاً من العدل الخاص بالنسبة للنزاع المعروض عليه . والعدل الخاص يعطيه أرسطو اسماً خاصا هو الـ Gevultè وهو ما يمكن أن نترجمه الى العربية بكلمة « انصاف » . فهناك اذن العدل justice ، والمقصود به العدل العام بالمعنى السابق بيانه . وهناك العدل الخاص ، أى الانصاف .

والعدل الخاص او الانصاف يتحقق فى حالتين : الاولى وقد سبق ذكرها هى عندما يوجد نقص فى التشريع ، فيقوم القاضى باكمال هذا النقص وايجاد حل للنزع يعثر عليه بمجهوده الشخصى . والحالة الثانية عندما لا يوجد نقص فى التشريع ، ولكن القاضى لا يطبق القاعدة العامة تطبيقاً حرفياً ، بل يراعى المرونة فى تطبيقها مراعاة للظروف الخاصة فى النزاع .

وفى بيان العلاقة بين العدل والانصاف فاننا لا نجد كلمات أدق أو أوضح من كلمات ارسطو نفسه ، فننقلها كما هى ، فهو يقول : « اذا قمنا بامتحان عميق لهاتين الفكرتين فلا تبدو لنا خصائصهما متطابقة بصفة مطلقة ، ومع ذلك فهما لا تختلفان من حيث النوع . وفى بعض الأحيان نجد أننا نقوم بتوجيه المديح للانصاف وللرجل الذى يتمتع بهذه الصفة ، لدرجة انه بحسب

---

(٥٨) Aristote, Ethique, 5, 4, 7, 8

(٥٩) Aristote, Politique, Liv. 2, Ch. 7, p. 125.

(٦٠) Aristote, Politique, Liv. 2, Ch. 7, p. 124.

اعتقادنا فاننا نستخدم هذه الكلمة كمرادف لكلمةحسن ... واحياناً اخرى يبدو لنا من الخطأ ان نوجه المديح للانصاف وهـو ما يخالف العدل فى بعض الوجوه . لأنه فى الواقع ، اما أن يكون العدل غير مرغوب فيه ، أو أن يكون الانصاف غير العدل لاختلافه عنه ، أو ان يكون كل منهما مرغوباً فيه فيختلط كل منهما بالآخر ! وحيرتنا حول مسألةالانصاف تأتى لأسباب من هذا القبيل . ومع ذلك فكل هذه الاصطلاحات مرضية الى حـد ما ولا يوجد اى شىء من التناقض . لأن ما هو منصف يعتبر أسمى مما هو عادل فى حالة خاصة ، وهو لهذا السبب ذاته يعتبر عادلاً . ولا ينبغى الاعتقاد بأن الانصاف يسمو على العدل لأنـه من طبيعةمختلفة . فالعدل والانصاف متطابقان ، وكلاهما مرغوب فيه، وان كان الانصاف مرغوباً فيه أكثر . والذى يدعونا الى الحيرة أن الانصاف هـو عدل ولكنه ليس عدلاً بالمطابقـة للقانون ، وانما هـو تحسين لما يعتبر عدلاً بحسب القانون . والسبب فى ذلك أن كل قانون عام ، وانه بالنسبة للحالات الخاصة لا يكـون التعبير العـام محدداً بدرجـة كافية .. والقانون لا يواجه الا الحالات العادية ،دون أن ينكر مع ذلك ما يشوبه من نقص . ولا يعتبر هذا عيباً فى القانون ، ولا يوجد فى ذلك اى خطأ أو تقصير من جانب المشرع ، وانما هو أمر طبيعى ، فعندما يصدر القانون فى عبارات عامة ثم يحدث مستقبلاً شىء لا يتفق مع هذه النصوص العامة ، فانه يكون من الطبيعى تكملة النقص الذى تركه المشرع ،واصلاح الترك الناشىء عن كون القانون يعبر بصفة عامة . والمشرع نفسه لو كان حاضراً لوافق على تكملة النقص ، ولو كان قد تنبه اليه لأدخل التحديد اللازم فى نص القانـون . وهكذا فان الانصاف هو العدل ، وهو كذلك أسمى من العدل ، ولكنه ليس أسمى من العدل فى ذاته ، بل أسمى من العدل بما يشوبه من نقص راجع الى صياغته العامة ، والصفة المميزة للانصـاف هى اصلاح القانون فى الحدود التى يبدو فيها ناقصاً بسبب صياغته العامة » (٦١) .

والى هذا الحد يكون أرسطو قد عبر بوضوح كامل عن الدور الذى يلعبه الانصـاف فى تكملة النقص فى القانون . أما الدور الذى يلعبه الانصاف فى تطويع القانون عند عدم وجود نقص فيه فهو ما يعبر عنه بطريقة لا تقل وضوحاً عن عباراته السـابقة ، فيقول : « ان القـوانين تتلاءم مع الظروف الخاصة وقد أوضحنا طبيعة الانصاف وحددنا فى اى شىء يختلط مع العدل ويسمو عليه من وجهة نظر خاصة . ومما سبق تظهر بوضوح كامل طبيعة قاضى الانصاف . فهو الرجل الذى يتصرف بطريقة عملية ، وهو ليس رجل العدل المتزمت الذى يميل الى الحلـول الأقـل ملاءمة للآخرين ، بل هو دائماً مسـتعد لأن يتـرك ما يستحق له حتى ولو كان يستطيع أن يتمسـك بالقانون لمصلحته . فالانصاف هو نوع من العدل ولا يختلف عنه أبداً » (٦٢) .

والخلاصة أن أرسطو ينادى بمبدأ سـيادة القانـون ، وهو المبدأ الـذى يجعل العدل عامـاً بالنسبة لجميع الناس ويجعل خضـوع الأفراد لقواعد القانون وليس لأهواء الحكام ، ولكنه من ناحية اخرى ينادى بالعدل الخاص اى الانصاف فى الحالات التى لا يوجد فيها حكم فى القانون أو فى الحالات التى تقتضى ظروفهـا الخاصـة تطبيق القانون بطريقة مرنة غير جامدة . ومن الواضح أن نظرية القانون لم تتخط أرسطو فى هذا الشأن حتى الآن .

---

(٦١) Aristote, Ethique, 5, 10, 1—7.

(٦٢) Aristote, Ethique, 5, 10, 7—8.

(١٢) ـ الصراع الطبقى ونظرية القانون الظالم :

انسب الحكومات فى نظر ارسطو لتحقيق العدل فى المجتمع هى الحكومة التى تتكون من ابناء الطبقة الوسطى ، والتى تعمل على تقريب الفوارق بين الطبقات عن طريق « الاعانات التى تعطيها للفقراء والتكاليف التى تفرضها على الأغنياء ، وبهذه الطريقة فان الحكومة تصبح مشتركة بين الجميع وليست فى يد طبقة دون غيرها » (٦٣) ويطلق ارسطو على هذه الحكومة اسم الجمهورية المعتدلة . وهو يرى من استقراء التاريخ انها لم تتحقق الا نادراً جداً (٦٤) .

وعلى خلاف هذه الصورة المثالية فان الذى يحدث كثيراً فى المجتمعات السياسية ، ان تتسلط **طبقة على اخرى ، بسبب الفوارق الشديدة بين** الطبقات وما يترتب على ذلك من عداء وصراع بينها يؤدى فى آخر الأمر الى سيطرة بعضها على البعض الآخر ، والأغنياء والفقراء يكونان اهم تقسيم للطبقات فى الدولة (٦٥) . « وعندما يحدث اضطراب وتقع معارك بين الفقراء والأغنياء فان الذى ينتصر منهم لا يحافظ على الاتصال او **المساواة بالمهزوم بل يحتفظ لنفسه بامتياز الحكم ،** كثمن للنصر . فاذا كان الشعب هو الذى انتصر ، فانه يقيم ديمقراطية ، واذا كان الأغنياء هم الذين انتصروا فانهم يقيمون « اوليجارشية » ، كما فعل كل هؤلاء الذين استولوا على السلطة فى اليونان ، ويخضع كل منهم شكل الحكومة لمصلحته **الخاصة دون مراعاة مصلحة الدولة على** الاطلاق » (٦٦) .

ويلاحظ ان ارسطو يقصد بالديمقراطية فى هذا المقام نفس المعنى الذى تقصده الأحزاب الشيوعية المعاصرة وهو دكتاتورية البروليتاريا ، ويقصد بالاوليجارشية دكتاتورية الطبقة الغنية . وفى الحالتين فان « الدولة تتحطم بسبب الأغنياء او الفقراء » (٦٧) .

واذا كان الصراع بين الأغنياء والفقراء يرجع الى اسباب حقيقية ، فان احتدامه يرجع فى كثير من الأحيان الى تدخل بعض « المهيجين الديماجوجيين » ، فهم يدعون الأغنياء الى التحالف « ثم يثيرون الشعب علناً ضد هذا **التحالف كما هو مشاهد فى كل مكان تقريباً** » (٦٨) . وعندما يكون أحد هؤلاء الديماجوجيين من قواد الجيش فانه ينتهى الى الاستفادة من هذا الصراع بالاستيلاء على الحكم وتحويله الى حكم مطلق يصبح فيه هذا المهيج طاغية . « ووسيلة هؤلاء الطغاة الأساسية ، هى الثقة التى يحصلون عليها من الشعب عن طريق الكراهية التى يظهرونها نحو الأغنياء » (٦٩) .

ومن ناحية اخرى فان سيطرة الطبقة الغنية تنتهى فى كثير من الأحيان الى تسلط قلة من هذه

---

(٦٣) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 14, p. 156, 156.

(٦٤) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 14, p. 153.

(٦٥) Aristote, Politique, Liv. 3, Ch. 9., p. 100.

(٦٦) Aristote, Politique, op. cit., Liv. 3, Ch. 14, p. 153.

(٦٧) Aristote, Politique, op. cit., Liv. 3, Ch 14, p. 155.

(٦٨) Aristote, Politique, Liv. 4, Ch. 16, p. 172.

(٦٩) Aristote, Politique, op. cit. Liv. 4, Ch. 16, p. 173.

الطبقة ، أو حتى شخص واحد فقط ، وهو مايؤدى الى ظهور نوع من الطغاة لا يختلف كثيراً عن الطغاة الذين يخرجون من سيطرة الطبقة الفقيرة (٧٠) .

والحكومات الطغيانية سواء كانت نتيجة لسيطرة الطبقة الفقيرة او لسيطرة الطبقة الغنية هي حكومات ضد الطبيعة ، وكل القوانين التى تخرج منها لا تكون معبرة عن العدل (٧١) .

وأهم ما فى هذه النظرة الواقعية هو عدم الخلط بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى ، بين ما هو عدل فى ذاته وبين ما هو عدل مصطنع . وبغير هذه التفرقة الواضحة فان من الممكن أن يتعرض الأفراد للطغيان والظلم باسم الخضوع للقانون الطبيعى والعدل .

على أن اهمية الصراع الطبقى عند ارسطو لم تقف عند حدود وصف الحقائق الاجتماعية والتاريخية ، بل تخطت ذلك الى درجة التأثير فى حركة التاريخ عن طريق بعض المفكرين الذين تلقفوا هذه النظرية واستخدموها لتأليب الطبقات بعضها على بعض واذكاء نار العداوة بينها لتحقيق اغراض سياسية أو فكرية يؤمن بها هؤلاء المفكرون ، وهم فى الواقع أقرب الى المهيجين الذين **اشار اليهم ارسطو نفسه . ونقصد من هؤلاء** شخصين بالذات هما **ميكيافيلى وكارل ماركس .** اما الأول فقد دعا الى اثارة الأغنياء ضد الفقراء ، وأما الثانى فقد دعا الى اثارة الفقراء ضد الأغنياء . وقد نجح كل منهما فيما أراد الوصول اليه .

اما هدف ميكيافيلى من دعوة الأغنياء الى التحالف فهو تأكيد السلطة للأمير . وهو يقول فى كتابه المشهور بهذا الاسم « **ان اى شخص يريد أن يقيم مملكة أو امارة ، لا يستطيع أن ينجح** حيث توجد المساواة ، بل لا بد أن يرفع ، فوق المستوى العادى ، الأشخاص ذوى الطموح .. باعطائهم قصوراً وأراض وباحاطتهم بالمزايا والثراء والخدم !! بحيث وهو موجود فى وسطهم يستطيع ان يعتمد فى سلطته عليهم ، ويستطيعون هم أن يعتمدوا فى طموحهم عليه ، ويجبر الباقون على احتمال ظلم لا تستطيع الا القوة وحدها ان تجعلهم يحتملونه . فقوة من بيده القهر تكون متناسبة مع قوة من يقع عليه القهر ، فيبقى كل منهما فى المكان الذى القاه فيه القدر » (٧٢) .

ولا شك أن كتاب الأمير لميكيافيلى كان ولايزال فى كثير من البلاد بمثابة الكتاب المقدس الذى تقوم عليه نظم الحكم فيها . وهو يكاد فى تحليله **للصراع الطبقى ينقل نقلاً حرفياً عن أرسطو ، ولا** يختلف عنه الا فى أنه يدعو الأمير الى الاستفادة من **هذا الصراع ، بينما أرسطو ينادى بالغاء الفوارق** بين الطبقات .

غير ان نظرية ارسطو فى الصراع الطبقى لعبت فى العصر الحديث دوراً خطيراً على يد ماركس يستحق أن ندرسه بصفة مستقلة فيمايلى :

---

(٧٠) Aristote, Politique, op. cit., Liv. 4, Ch. 16, p 174.

(٧١) Aristote, Politique, op. cit. Liv. 3, Ch. 6, p. 120.

(٧٢) Machiavel, le discours sur la prémière deçade du Tite-Live, Ch 18, in: Le Prince et autres textes, Union Générale, d' Editions, Paris, 1962, p. 157; v aussi "Les luttes des nobles et du peuple", ibid, p. 108; "La matiere et la forme" ibid, p. 155.

(١٣) ــ نظرية الصراع الطبقي في العصر الحديث :

حاول مفكران استخدام نظرية ارسطو في الصراع الطبقي ، في القرن التاسع عشر ، لتحقيق أفكارهما الفلسفية ، وقد فشل أولهما وهو **اوجست كونت** بينما نجح الآخر وهو **كارل ماركس** .

وقد كان اوجست كونت صريحاً مع نفسه عندما اعلن بوضوح أن الأفكار الفلسفية هي التي تغير التاريخ . « فان الأفكار هي التي لا تحكم وتهز العالم ، أو بتعبير آخر فان كل النظام الاجتماعي يقوم على أفكار » (٧٣) .

وقد دعا **كونت** الى فلسفة وضعية اسماها « ديانة الانسانية » ، وهي فلسفة وسياسة للحكم في نفس الوقت . « فالوضعية تتكون اساساً من فلسفة وسياسة لا يمكن الفصل بينهما » (٧٤) . وحتى يمكن تحقيق هذه الفلسفة عن طريق الاستيلاء على السلطة ، فان « اوجست كونت » يسعى الى اثارة البروليتاريا والتحالف معهم والوصول الى الحكم عن طريقهم . « فالبروليتاريا هم وحدهم المساعدون الأساسيون للفلاسفة الجدد » (٧٥) وهكذا ينبغي دفع تأثير الفلسفة الى درجة « تنظيم التناقض المادي بين هاتين الطبقتين النشيطتين » (٧٦) . وبنوع من المعجزة يتحول كل فقير الى فيلسوف . « فعندما يحدث هذا التعاطف الاساسي ، سنشعر أن كل فرد من البروليتاريا سيتحول في كثير من الوجوه الى فيلسوف تلقائي ، كما أن كل فيلسوف يصبح من نواح كثيرة واحداً من البروليتاريا » (٧٧) ولكن من سوء حظ اوجست كونت ، أن أفراد البروليتاريا رفضوا ان يصبحوا فلاسفة ماركسيين . ذلك ان كارل ماركس استطاع أن يتحدث اليهم بطريقة أفضل .

وبالنسبة لماركس ــ كما هو الشأن بالنسبة لكونت ــ فان العمال هم مجرد وسيلة مادية لتحقيق نوع معين من الفلسفة . فالفلسفة هي **التي** تحرك الانسانية وذلك بغض النظر عن تعبيرات اخرى يقول فيها : « ليس الضمير هو الذي يحدد الحياة ، ولكن الحياة هي التي تشكل الضمير » (٧٨) ، ففضلاً عن أن ماركس يعترف بالحركة الديالكتيكية بين الأساس الاقتصادي والسطح السياسي أو القانوني ، فانه زيادة على ذلك يحتفظ لنفسه بالحق في قيادة الانسانية . ويقول بوضوح : « ان الماضي الثوري لالمانيا اساسه نظري هو الاصلاح . وفي هذا الوقت بدأت الثورة

---

(٧٣) Aguste Comte, Cours de philosophie positive, 5 ed., t. 1, 1892, p. 40.

(٧٤) Aguste Comte, Systeme de politique positive, 4 ed., 1912, identique a la prémière parue en 1854, t. 1, p. 2.

(٧٥) Auguste Comte, Systeme de politique positive, op. cit. t. 1., p. 129.

(٧٦) Auguste Comte, idem, op. cit., t. 1, p. 167.

(٧٧) Auguste Comte, idem, op. cit. t, 1, p. 170.

(٧٨) Karl Marx, J. F. ENGELS, l'ideologie allemande, p. 23; Adde, la celebre preface de sa "contribution a la critique de l'économie politique" Editions sociales, 1957, p. 4.

من عقل قسيس (لوثر). واليوم فانها تبدأ من عقل فيلسوف (ماركس) » (٧٩) أى عقل ماركس هو الذى يريد أن يقود الانسانية حسب فلسفة خلاصتها أن « الانسان هو الجوهر الأعلى للانسان » (٨٠) وأن « الدين هو تحقيق مشوه للجوهر الانسانى » (٨١) . وبالوصول الى هذه الفلسفة فإن ماركس بدأ يبحث عن القوة المادية القادرة على تحقيقها . وقد وجد هذه القوة عند البروليتاريا كما فعل من قبله اوجست كونت . وفى هذا يقول ماركس : « ان النظرية تتحول الى قوة مادية عندما تتغلغل فى الجماهير (٨٢) . ولكن ماركس يدرك صعوبة اثارة الجماهير لأنه لم توجد بعد الأسباب الداعية الى هذه الاثارة . والواقع كما يقول هو « ان الثورة الأساسية ، لا يمكن أن تكون الا ثورة الحاجات الأساسية وهى فيما يبدو على وجه التحديد تفتقر الى شروط ومكان اندلاعها » (٨٣) ولذلك فهو يعلن « انه يجب تكون فى طبقة مقيدة بسلاسل أساسية ... الخ » (٨٤). وهو يهنىء نفسه بعد ذلك لأن هذه الطبقة بدأت فى التكون فعلاً (٨٥) . وهو يعلن بكل وضوح أن العلاقة بين فلسفته وبين البروليتاريا هى علاقة منفعة متبادلة . « فكما أن الفلسفة ، كما يقول : تجد فى البروليتاريا اسلحتها المادية ، فان البروليتاريا تجد فى الفلسفة اسلحتها الفكرية . وعندما يصل ضوء الفكر الى أعماق هذه الأرض الشعبية الساذجة (naif terrain populaire) فان الألمان سيتحررون ويصبحون رجالاً » (٨٦) . وهكذا فان ماركس يثير التناقض بين الطبقات ويستغل سذاجة الطبقة العاملة لتحقيق نوع معين من الفكر الفلسفى . والواقع أن الصراع الذى يجرى فى العالم الآن هو صراع فى الدرجة الاولى بين فلسفات اكثر مما هو صراع بين طبقات . وما الصراع بين الطبقات الا وسيلة استخدمها بعض الفلاسفة السياسيين فى تحقيق أفكارهم الفلسفية .

وكان لا بد للفكر الانسانى أن يعيد التفكير من جديد فى حقيقة المقصود بالصراع الطبقى . وقد أدى ذلك الى ظهور اتجاه جديد ينفى أهمية الصراع الطبقى فى حركة التاريخ وهو ما ينادى به برجسون ، وهو يقول « ان النبلاء شاركوا فى فرنسا فى ثورة ١٧٨٩ التى أدت الى الغاء الامتيازات الموروثة ، وبصفة عامة فان المبادرات فى مقاومة عدم المساواة ــ سواء كان ذلك لمبرر أو لغير مبرر ــ جاءت غالباً من أعلى ، ومن الطبقة المتميزة وليس من اسفل وهو ما كان يجب أن يحدث لو اننا أخذنا بأنه لا يوجد من محرك الا مصالح الطبقات . وهكذا فان البورجوازيين

---

(٧٩) Karl Marx, Contribution a la critique de la philosophie du droit de Heg el, in oeuvres philosophiques, trad. par Molition t. 1. 1946, p. 97.

(٨٠) Karl Marx, idem , p. 107.

(٨١) Karl Mar, idem , p. 84.

(٨٢) Karl Mar, idem., p. 96.

(٨٣) Karl Mar, idem., p. 99.

(٨٤) Karl Mar, idem., p. 105.

(٨٥) Karl Marx, idem., p. 106.

(٨٦) Marl Marx, idem., p. 107.

وليس العمال هم الذين لعبوا الدور الغالب فى ثورتى ـ ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ـ ، وهما الموجهتان ـ وبصفة خاصة الأخيرة منهما ـ ضد امتياز **الثراء . وفيما بعد فان رجالاً من ابناء الطبقة** المتعلمة هم الذين طالبوا بتعليم الكل » (٨٧) .

وبعد عرض ما قاله **برجسون** ، وهو يعبرمن غير شك عن جانب من الحقيقة ، فانه يمكن تلخيص المواقف الفلسفية من الصراع الطبقى فى الاتجاهات الآتية :

(١) الاتجاه الأساسى وهو اتجاه أرسطو صاحب نظرية الصراع الطبقى . وهو يعتبر الصراع الطبقى حقيقة قائمة وانه أدى فى كثير من المجتمعات الى سيطرة طبقة على اخرى . وهو يدين هذه السيطرة ويعتبر القوانين الصادرة عنها ظالمة وغير معبرة عن العدل ، ويدعو الى تذويب الفوارق بين الطبقات عن طريق تحديد الملكية وفرض ضرائب على الأغنياء ودفع اعانات للفقراء . وهو يرى ان الصراع الطبقى من الممكن ومن الواجب التخلص منه وهو ما تحقق فى بعض المجتمعات بالفعل .

(٢) اتجاه يستفيد من نظرية **الصراع الطبقى الأرسطية ويعمل على اذكاء هذا الصراع واشعال نار العداوة بين الطبقات اما لتحقيق** سيطرة الأمير كما فعل ميكافيلى ، او لتحقيق فلسفات معينة كما حاول ان يفعل اوجست كونت ، فشل وكما حاول ان يفعل كارل ماركس ونجح . ويلاحظ ان هذا الأخير قد ذهب فى كثير من المبالغة وفى كثير من التبسيط الى حد تفسير تاريخ البشرية كله بأنه صراع بين طبقات ، وهو مالم يقله ارسطو صاحب النظرية ، وما يكذبه التاريخ القديم والحديث أيضاً .

(٣) والاتجاه الثالث هو رد فعل للاتجاه الثانى ويذهب الى القول بأن الصراع بين الطبقات غير **موجود دائماً بل قد يحدث أن تمد الطبقة** الغنية المتعلمة يد المساعدة الى الطبقات الفقيرة الجاهلة وصاحب هذا الاتجاه برجسون . **وتؤيده بعض الأحداث التاريخية الكبرى كما تؤيده** طبيعة الانسان التى كما تنطوى على الأنانية لمصلحة الشخصية ، تنطوى ايضاً على التضحية التى يبذلها كثير من الناس لتحقيق **اهداف ابعد ما تكون عن مصلحتهم الذاتية** .

وأياً كان موقف الاتجاهات الفلسفية من الصراع الطبقى ، فبحسب نظرية القانون الطبيعى لا يُعتبر ما يصدر من سيطرة طبقة على طبقة **قانوناً عادلاً بل هو قانون ظالم يستمد قوته الملزمة** من القوة والقهر وليس من مبادىء الفضيلة والأخلاق وهى المبادىء التى يجب أن تقوم على أساسها المجتمعات السياسية وتستوحى منها التشريعات الوضعية .

هذه هى جملة القول فى نظرية القانون الطبيعى لأرسطو . وقد ظهرت نظريات اخرى تعبر عن نظرية القانون الطبيعى بطريقة مختلفة . **وقد اشتهرت بانها نظريات ((ارادية)) ولكن** الحقيقة غير ذلك ، ونقصد بذلك نظريتى العقد الاجتماعى وسلطان الارادة ، اللتين نتحدث عنهما تباعاً فيما يلى :

• • •

(٨٧) H. Bergson, Les deux Sources de la morale et de la religion, op. cit. p. 209.

ثانياً : نظرية العقد الاجتماعى ونظريـة سلطان الارادة

(١٤) ـ الصفة الارادية الزائفة التى اشتهرت بها النظريتان :

يتميز القرن التاسع عشر بأنه عصر المذهب الفردى ، والحريـة الاقتصـادية ، والراسمالية **المزدهرة . وكان مما يتفق مع كل هذه الاتجاهات** أن تحاط نظرية العقد بهالة من التقديس . فالعقد هو الوسيلة القانونية التى يقوم عليها كل النشاط الاقتصادى. وبصفة خاصة فان العقد هو الوسيلة التى يستطيع بها أصحاب المصانع أن يستخدموا العمال فى تشغيل مصانعهم بأقل الاجور ، وأشد الشروط من حيث طول سـاعات العمل وانتفاء **الحماية من اى نوع .**

وبالفعل فقد شاع القول فى ذلك القرن ان العقد هو الصورة المثاليـة للعدل ، وأن من قال **عقداً فقد قـال عدلاً . وأنـه ينبغى أن نتـرك** للمتعاقدين الحريـة الكاملـة فى تحديد شروط العقد . وينبغى دائماً احترام العقود ، فالعقد هو شريعة المتعاقدين مهما كانت الظروف الملابسـة لابرامه ، ومهما كانت الظروف التى طـرأت بعد ابرامه . ويجب كذلك تطبيق فكرة النظام العام والآداب ، وهى التى لا يجـوز للعقد ان يخالفها بحسب ما ينص عليه القانون المدنى الفرنسى أو غـيره .

وبرغم أن هذه الأفكار تحمل جزءاً كبيراً من الحقيقة ، الا انها تخالـف الحقيقة فى كثـير من الأحيان . فمن المؤكد أن العقد لا يكون معبراً عن العدل عندما يكون أحد طرفيه فى مركز أقوى من **الناحية الاقتصادية بحيث يستطيع فرض شروطه** على المتعاقد الآخر كما كان الشأن فى عقود العمل **الظالمة التى كانت تبرم طوال القرن التاسع عشر .**

ومن المؤكد أيضاً أنه اذا حدثت ظـروف طارئة لم يكن فى الوسع توقعها وقت ابرام العقد فانها قد تجعل العقد ــ طويل المدة ــ الذى كان عادلاً وقت ابرامه ، ظالماً عند تنفيذه . وفى هاتين الحالتين وغيرهما يكون العقد مخالفاً للعدل وليس معبراً عنه ، ولذلك يكون من الواجب البحث عن وسيلة اخرى تنظم العلاقة بين طرفى هذا العقد **وتحل محل ارادة المتعاقدين نفسـيهما . وهذه** الوسيلة الاخرى قد تكـون هى ارادة القاضى أو ارادة المشرع ، على أن يكـون ذلك فى أضـيق الحدود .

ونحن لا نناقش هنا قضية العقد ، ولكننا نعرض فقط للأفكار التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر والتى كانت تدعو بغير حق الى اضفاء هالة من التقديس على فكرة العقد . وحتى تنجح هذه الدعوة كان لا بد من تدعيمها بقـوة الفكر **والفلسفة وهى أعظم القوى جميعاً . ولكن ذلك لم** يحدث بطريقة صحيحة ، بل حدث بطـريقة فيها اساءة شديدة لنظريتين من أهم النظريات الفلسفية **وهما نظرية العقد الاجتماعى التى ترجع فى أصلها** الى أفلاطون ، ونظرية سلطان الارادة التى وضعها **« كانت » .**

والواقع انه حدث تشويه لهاتين النظريتين، وكان التشويه أمراً سهلاً لانه اعتمد على الاسم المعلن لكل من النظريتين. فنظرية العقد الاجتماعى **بحسب اسمها هى نظرية تعاقدية ، ونظرية سلطان** الارادة بحسب اسمها هى نظرية ارادية بل نظرية تتكلم عن قوة الارادة وسلطانها .

وسهولة التشويه تسـمح بالاعتقاد بأنه لم يكن تشويهاً مقصوداً فى جميع الاحوال ، بل ربما

كان نتيجة انزلاق غير مقصود من جانب بعض المفكرين . وهو انزلاق ساعدت عليه حالة الضمير الانسانى فى القرن التاسع عشر ، وادت اليه ايضاً الأسماء المعلنة لكل من هاتين النظريتين .

اما تشويه نظرية « **العقد الاجتماعى** » فكان يقوم على الوجه الآتى : بحسب هذه النظرية لا ينتقل الأفراد من حال الطبيعة وهى الحالة التى كان لكل فرد أن يفعل فيها ما يشاء ، الى المجتمع السياسى المنظم (وهو المجتمع الذى يفقد فيه الفرد حريته فى ان يفعل ما يشاء ويصبح خاضعاً لقوانين هذا المجتمع) الا بمقتضى اتفاق بين هؤلاء الأفراد انفسهم ، وبين فريق منهم يصبح الفريق الحاكم الذى يحق له وضع القوانين وتنظيم المجتمع . وبمقتضى هذا الاتفاق يتنازل الفرد عن جزء من حريته مقابل أن يحافظ له الحاكم على الجزء الباقى منها . فكان العقد هو أساس نشأة الدولة واساس وجود المجتمع السياسى واساس خضوع الأفراد لحكم القانون . فالفرد لا يخضع لأى أمر الا انه اراد الخضوع له ، فهو يلتزم بارادته وحده . والقول بذلك يعنى أن الارادة ـ وبصفة خاصة الارادة التعاقدية ـ هى مصدر كل قانون ومصدر كل التزام .

والحق انه لا يمكن أن يكون هناك تقديس للارادة التعاقدية بأكثر من هذا القول ، ولكنه قول لا يتفق على اى حال مع نظرية العقد الاجتماعى . بل على العكس فان الارادة ، كما سنرى ، لا تلعب فى ابرام العقد الاجتماعى دورا كبيراً ، بل هى لا تلعب فى ابرامه اى دور على الاطلاق طبقاً لما يقوله اصحاب هذه النظرية انفسهم .

اما تشويه نظرية « **سلطان الارادة** » فقد وصل الى درجة استعارة هذا الاصطلاح بأكمله وتحويله الى اصطلاح قانونى له مدلول معين وهو ان الارادة حرة فى اختيار نوع العقد وفى تحديد شروطه ، ولا تخضع فى ذلك لأى قيد يتعلق بالشكل (مبدأ الرضائية) أو يتعلق بالموضوع (الاقلال من القواعد الآمرة) ، أو يتعلق بالآثار (القوة الملزمة للعقد) ... الخ .

والواقع كما سنرى ان نظرية سلطان الارادة عند « كانت » تعنى عكس هذا المعنى الذى اعطاه لها رجال القانون . وقد اثبتت التجربة ان المعنى الصحيح للنظرية وهو المعنى الذى قصده صاحبها هو الذى انتصر فى النهاية على المعنى المزيف العكسى الذى قال به رجال القانون لفترة طويلة من الزمن . وقد كان انتصار المعنى الصحيح للنظرية فى نطاق القانون ذاته .

وعليه ، ما هى حقيقة المقصود بنظرية العقد الاجتماعى ؟ وبنظرية سلطان الارادة ؟

(١٥) ـ نظرية العقد الاجتماعى (افلاطون ، هوبز ، لوك ، جان جاك روسو) :

يرى **افلاطون** ـ صاحب **نظرية العقد** الاجتماعى ـ أن المجتمع السياسى ينشأ على أساس نوعين من العقود : **النوع الأول** خاص بالعقود بين الأفراد وهى العقود التى تنظم الحياة الخاصة للأفراد ، **والنوع الثانى** خاص بالعقد المبرم بين الحاكم والمحكومين . وعن النوع الأول يقول **افلاطون** : « ان رجلاً يأخذ معه رجلاً آخر لأداء عمل معين ، ويأخذ غيره أيضاً لعمل آخر ، وهكذا فان تعدد الحاجات يجمع فى مكان واحد عدداً كبيراً من الشركاء والمساعدين ، وعلى هذا التجمع المشترك يطلق اسم المدينة » (٨٨) .

---

(٨٨) Platon, La Republique, 369, C. Classiques Garnier, 1963, p. 56.

اما العقد الثانى المبرم بين الحكام والمحكومين فبمقتضاه « يتعهد الأولون بعدم فرض سلطتهم بطريقة عنيفة ، ويتعهد الآخرون بعدم قلب نظام الحكم » (٨٩) ويقال ان كل نظرية العقد الاجتماعى قامت فيما بعد على اساس هذه العبارة الواردة فى كتاب ((**القوانين**)) لأفلاطون (٩٠) • ولكن افلاطون لم يشأ بذلك أن يقول ان الدولة ترجع فى أساسها الى اتفاق ارادى • بل هو يؤكد فى كتاب ((**الجمهورية**)) انها ترجع الى حالة الضرورة حيث يقول : « ان ما يمنح المدينة الحياة ، فيما أعتقد ، هى حالة العجز التى يوجد فيها كل فرد من الاكتفاء بذاته » (٩١) • وهو لا يخفى عدم ارتياحه فى أن يكون العقد هو أساس الدولة ، فالعقد يعبر عن « مصالح شخصية ومتعارضة » • ذلك أنه « عندما يعطى شخص ويأخذ ، فانه يتصرف وفى تفكيره ان يتم التبادل لمصلحته وحده » • ويتساءل افلاطون كيف يمكن أن تؤسس الدولة بوساطة هذه الطريقة ؟ ثم يجيب على تساؤله بالتأكيد مرة اخرى على أن اساس الدولة هى حالة الضرورة (٩٢) • والواقع ان الدولة عند أفلاطون هى مجتمع ضرورى كما هو الشأن عند ارسطو •

وأفلاطون لا يضع ثقة كبيرة فى أمانة الناس • ومن يكون أميناً يعتبر فى نظره « نوعاً نادراً من الناس » (٩٣) • وهو بالتالى لا يضع ثقته فى العقود التى يبرمها الأفراد ، ويرى ضرورة التدخل فيها عن طريق فرض الثمن العادل فى المعاملات ومراعاة تطبيق ذلك فى الأسواق (٩٤) • والتدخل فى العقود يكون على أساس العقل • لأن المدينة يجب ان « يسودها العقل » (٩٥) •

وهكذا فان العقد يخضع لحكم العقل اوالثمن العادل وكذلك المدينة كلها • فالضرورة والعقل والعدل هى أساس القوة الملزمة للعقود والقانون ، أما ارادة الأفراد فانها تسعى لمصالحها الخاصة المتناقضة ولا تتوخى الأمانة غالباً ولذلك لا بد من اخضاعها لما هو أسمى منها وهو العدل •

والواقع أننا لا نجد فى ذلك أدنى فارق بين أفلاطون وبين أرسطو ، والفارق بينهما فقط فى التطبيقات ، وهو ما لا نعرض له هنا •

وبعد افلاطون بقرون طويلة عادت نظرية العقد الاجتماعى للظهور مرة اخرى على يد ثلاثة فلاسفة هم : هوبز ، ولوك ، وجان جاك روسو • وهؤلاء الثلاثة يؤمنون بالقانون الطبيعى ، ولا يرون فى العقد الاجتماعى الا وسيلة للتعبير عن القانون الطبيعى • فالقانون الطبيعى هو الذى فرض ابرام هذا العقد ، وهو الذى حدد شروطه • اما الارادة فلم تلعب فى ابرام هذا العقد اى دور

---

(٨٩) Platon, Les Lois, III, 684, A. in: oeuvres completes, trad. par : E. des Places, S.J., Collection des Universites de France, t. 11, Paris. 1951, p. 21.

(٩٠) A.—J. Carlyle, La notion de "contrat" dans les doctrines politiques, in : Arch. de phil. du dr. et do soc. jur., 1940, p. 78.

(٩١) Platon, Le Republique, 369, B, Classiques Garnier, traduction nouvelle, par R. Baccou, 1963, p. 55.

(٩٢) Platon, La republique, 369, G. Classiques Garnier, op. cit., p. 56.

(٩٣) Platon, Les Lois, 11, 918, D.

(٩٤) Platon, Les Lois, 11, 920, C.

(٩٥) Platon, Les Loi, 11, 919 , C.

على الاطلاق . بل ان الارادة لا تستطيع ان تضع في هذا العقد شروطاً تخالف ما يقرره القانون الطبيعي .

وهكذا فان نظرية العقد الاجتماعي ليست سوى وسيلة لتقريب فكرة القانون الطبيعي للأذهان ، ولكنها ليست نظرية مستقلة عن نظرية القانون الطبيعي . وهي بصفة خاصة ليست نظرية ارادية تصل فيها الارادة الى الاكتفاء بذاتها كقوة ملزمة للافراد ، بل لا زالت الارادة تحتاج فيها الى اساس تستمد منه قوتها الملزمة ، ولازال هذا الأساس هو العقل او العدل . وهذا الأساس هو في نفس الوقت المعيار الذي يحكم الارادة ويحدد لها طريقها .

ولبيان ذلك فاننا نرجع بايجاز الى بعض أقوال هؤلاء الفلاسفة الثلاثة بحسب الترتيب السابق ذكره .

هوبز : يعلن بوضوح انه من انصار القانون الطبيعي ، وهو يعتقد أن أول امر يصدر عن القانون الطبيعي هو « البحث عن السلام والسعي اليه . ومن هذا القانون الأساسي للطبيعة يتفرع قانون ثان ، وهو أن الانسان يكون مستعداً ـ عندما يكون الآخرون كذلك ـ لأن يلقى أرضاً هذا الحق في عمل كل شيء » (٩٦) وبهذا التنازل المتبادل ينشأ المجتمع السياسي .

والارادة ليست حرة في ان تضع في هذا العقد ما تشاء ، وبصفة خاصة فان الارادة ليست حرة في الاضرار بصاحبها . ومن ثم فانه لا يجوز بمقتضى هذا العقد التنازل عن الحقوق الأساسية للانسان . فهناك « بعض الحقوق لا يتصور ان رجلاً يتنازل عنها او يتصرف فيها بأي كلمات او اشارات » (٩٧) والحقوق التي يتحدث عنها « هوبز » في هذه العبارة هي الحقوق التي أطلق عليها فيما بعد حقوق الانسان ، وهي الحقوق الطبيعية التي تستمد وجودها من القانون الطبيعي ذاته ولا يجوز المساس بها عن طريق أي تصرف ارادي سواء كان هذا التصرف قانوناً او عقداً (٩٨) .

وهكذا فان العقد الاجتماعي عند « هوبز » يستمد أسباب وجوده كما يستمد شروطه من القانون الطبيعي وليس من الارادة . فالعقد الاجتماعي عقد غير ارادي .

ومع ذلك فسنرى في المبحث الثالث من هذه الدراسة أن هوبز قد انحرف بنظرية القانون الطبيعي انحرافاً يبرر طغيان القانون الوضعي .

جون لوك : هو من فلاسفة القانون الطبيعي الصادقين ، وهو يحتج على اخطاء هوبز التي ادت الى الطغيان والتحكم . « فالقانون الطبيعي هو القاعدة الخالدة للناس جميعاً ، للمشرعين ، كما لغيرهم »(٩٩) . « والقانون الطبيعي هو قانون العقل »(١٠٠) . والعقل « هو قاعدة القياس

---

(٩٦) T Hobbes, Leviathan, J.—M , London, 1959, Ch. 14, p. 67

(٩٧) Ibid , Ch. , 14, p. 68.

(٩٨) Ibid , Ch. 15, p. 78.

(٩٩) De John Locke, Essai sur le pouvoir civil, trad par J —L Fyot, P U F , 1953, Ch 10, p. 151

(١٠٠) Ibid , Ch 3,p 72; Adde, p 64, 66,68, 73, 79, 81,127, 144, 154, 170, 171,177,

المشتركة التيأعطاها اللهللجنس الانساني » (١٠١)،والتي لا يستطيع احد أن يخرج عليها . فلا ارادة الأفراد ولا ارادة المشرع تستطيع مخالفة القانونالعقلي . فالارادة خاضعة دائماً للعقل .

وهكذا فان مذهب العقد الاجتماعي الـذيبمقتضاه « كل المجتمعات السياسية ولدت من اتحاد ارادى ومن ارادة مشتركة للناس (١٠٢) ، لايعنى أكثر منأن المجتمع السياسى لا يمكن أنيخلق بواسطة القوة والقهر . فلا يجبر اى شخص علىالخضوع للسلطـة السياسيـة « بغير ارادتـه الخاصة » (١٠٣) . ولكن أساس الدولة ليس هوالعقد ، ولكنه العقل الطبيعي ، وكذلك الله خالق هذا العقل . « فان الله ــ كمايقول لوك ــ قـدانشـأ السلطة السياسية ليقمع تحيـز الناس وعنفهم »(١٠٤) .

أما العقد الاجتماعى فهو وسيلة فنية ولازمةلتحقيق هذا الأمر الالهى ، وينبغى أن يكون موافقاً لهذا الامر أيضاً . « لأنه لا يمكن لأى عقد كان ،أن يضع نهاية لحالة الطبيعة بين الناس »(١٠٥) بل ينبغى أن يؤدى هذا العقد الى الغاية منه وهى« المحافظة المشتركة علىحياة كل الناس وحرياتهم وممتلكاتهم »(١٠٦) « واى عقد لا يمكن أن يمسهذهالأشياء » (١٠٧) ، لأن المجتمع هو قبل كل شيء « مجتمع مخلوقات عاقلة قامت بتكوين جماعةلصلحتها المشتركة »(١٠٨) .

وهكذا فان اى عقد لا يمكن أن يقيم « سلطةمطلقة تحكمية »(١٠٩) . واى عقد « لا يستطيع أن يلغى حق الشعب فى الثورة ضد القوانين الظالمة »(١١٠) . ومعنى ذلك أن العقد الاجتماعى لا يستمد قوته الملزمة من ارادة أطرافه ، ولكن من مطابقتهللقانون الطبيعى ، فهو عقد عقلى غـير ارادى . فالقانون الطبيعى هو الذى فرض ابرامهذا العقد،وهو الذى حدد شروطه ، وهو الذى أسبغ عليه قوته الملزمة

جان جاك روسو : وهو الذى اقترنت باسمهنظرية العقد الاجتماعى ، لأنه نشر كتاباً بهـذا الاسم . ومع هذا الكتاب اخذت هذه النظرية شكلها الأخير الذى لم تتطور بعده أدنى تطور .

ونظرية العقد الاجتماعى حسب جان جاكروسو (كما هى حسب من سبقه من الفلاسفة) تهدف أساساً الى الدفاع عن ارادة الانسان ضدالعنف والقهر ، وليس ضـد القانون الطبيعى ومبادىء العدل . فالارادة الانسانية لا تملك أنتصنع شيئاً ضد الأخلاق الطبيعية ، وبصفة

---

(١٠١) Ibid, Ch. 2, p. 68.
(١٠٢) Ibid, Ch. 8, p. 129.
(١٠٣) Ibid, Ch. 8, p. 123.
(١٠٤) Ibid, Ch. 2, p. 69.
(١٠٥) Ibid, Ch. 2, p. 70.
(١٠٦) Ibid, Ch. 9, p. 141.
(١٠٧) Ibid, Ch. 15, p. 177.
(١٠٨) Ibid, Ch. 14, p 170
(١٠٩) Ibid., Ch. 11, p. 152.
(١١٠) Ibid., Ch. 14, p. 173.

خاصة فان الارادة الانسانية « لا تملك أن توافق على شيء يتعارض مع الخير الخاص لصاحب هذه الارادة »(١١١) . فالقول اذن بأن « روسو » كان فيلسوفاً ارادياً يؤكد مالاحظه برجسون « من أن روسو هو الرجل الذى نتكلم عنه دون أن نفهمه »(١١٢) .

والواقع أن العقد الاجتماعى عند روسو هو العقد العادل ، أو العقد العقلى ، وليس العقد الارادى. فابرام هذا العقد كان مفروضاً بالضرورة على الأشخاص الذين ابرموه ، لأنه فى لحظة معينة تصبح « الحالة البدائية غير ممكنة الاستمرار ، والا لأدى استمرارها الى هلاك الجنس البشرى »(١١٣) .

ومن ناحية اخرى فان الناس غير احرار فى تحديد شروط هذا العقد ، لأن « شروط هذا العقد محددة بوساطة طبيعة العقد لدرجة أن أى تغير فيها يجعلها باطلة وعديمة الأثر » (١١٤) .

وروح العقد الاجتماعي هى المساواة ، « وهكذا فان الانسان يكسب من هذا العقد بقدر ما يفقد ، ويأخذ أيضاً القوة اللازمة للمحافظة على حقه » (١١٥) . أما اذا لم يتفق العقد الاجتماعي مع حكم العقل ومبادىء العدل التبادلى فانه يكون باطلا . فاذا « انشأ هذا العقد سلطة مطلقة من ناحية ، وخضوعاً بغير حد من ناحية اخرى ، فانه يكون عقداً متناقضاً لا قيمة له » (١١٦) .

ويقول « روسو » بغير غموض ان الارادة الانسانية ليست هي مصدر العدل « فالشىء الحسن والمطابق للنظام هو كذلك بحسب طبيعة الأشياء . وبصفة مستقلة عن الاتفاقات الانسانية ، فكل عدل يأتى من عند الله ، الذى هو وحده مصدره » (١١٧) .

ونظراً لأن ارادة الأفراد قد تنحرف فان « روسو » يؤكد ضرورة « الزام هؤلاء الأفراد على اخضاع ارادتهم لعقلهم » (١١٨) . والقانون هو الذى يقوم بذلك ، بشرط أن يكون القانون هو نفسه معبراً عن حكم العقل ، وهو ما يمكن ان يتحقق اذا كان واضعه شخصاً ممتازاً لدرجة غير عادية(١١٩) .

والواضح بعد كل هذه التأكيدات من روسو وغيره من فلاسفة العقد الاجتماعى ، ان المقصود بالعقد الاجتماعى هو العقد العقلى العادل ، وليس العقد الارادى ، وأن مصدر العقد الاجتماعى هو القانون الطبيعى وليس الانسان .

---

(١١١) Jean-Jacques Rousseau, Du contrat social, presenté par Henri GUILLEMIN, Union Générale d'éditions, 1963, Liv. 3, Ch. 1, p. 70.

(١١٢) Henri Guillemin, Presentation du contract social, op. cit., p. 5.

(١١٣) J.J. Rousseau, Du contrat social, op. cit., Liv. 1, Ch. 6, p. 60.

(١١٤) Ibid., Liv. 1, Ch. 6, p. 61.

(١١٥) Ibid., Liv. 1, Ch. 6, p. 62.

(١١٦) Ibid., Liv. 1, Ch. 4, p. 56.

(١١٧) Ibid., Liv. 2, Ch. 6, p. 81.

(١١٨) Ibid., Liv. 2, Ch. 6, p. 84

(١١٩) Ibid., Liv. 2, Ch. 6—7, p. 83 et s.

فنظرية العقد الاجتماعى لا تعدو أن تكون تعبيراً جديداً عن نظرية القانون الطبيعى . وهو تعبر اريد به تبسيط هذه النظرية ، وجعلهـا قريبة الى الذهن . ويترتب على ذلك أن نظرية العقد الاجتماعى لا تذهب الى اطلاق حرية الارادة . بل انها ــ على العكس من ذلك ــ تخضع الارادة لحكم العقل والعدل ومبادىء القانون الطبيعى .

(١٦) ــ نظرية سلطان الارادة (كانت) :

نتحدث الآن عن ((**كانت**)) صاحب نظرية ((**سلطان الارادة**)) ، ونظرية ((**الأمر المطلق**)) ، ونظرية ((**العقل الخالص**)) ، ونظرية ((**العقـل العملى**)) ، ونظرية ((**العقل الخالص العملى**)) .

وكما ذكرنا من قبل فان معنى سلطان الارادة عنده ، هو عكس المعنى الذى يطلقه رجال القانون على هذا الاصطلاح . فرجال القانون يقصدون اساساً بمبدأ سلطان الارادة ، الارادة التعاقدية . اما « كانت » فهو يعتقد أن الارادة التعاقدية وهى ارادة نفعيـة ، تتعارض بالضرورة مـع سلطان الارادة ، وهو مبدأ أخلاقى . وهكذا فان رجال القانون اخذوا من نظرية « كانت » اسمها فقط واستخدموه فى عكس ما قصده « كانت » نفسه .

والخلاصة ان نظرية العقد الاجتماعى وكذلك نظرية سلطان الارادة لا تؤدى أى منهما الى تحرير ارادة الفرد بصفة مطلقة ، بل تخضع ارادة الفرد لحكم العقل والقانون الطبيعى . وقد أعطت هاتان النظريتان بعض التعبيرات الجديدة عن القانـون الطبيعى دون أن تخرج أيهما عن جوهره .

* * *

ثالثاً : الانحراف فى نظرية القانـون الطبيعى أو الخلط بين القانون الوضعى والقانـون الطبيعى (هوبز وهيجل) :

(١٧) ــ ازدواج القانون الطبيعى والقانون الوضعى :

من أهم المواقف التى اتخذها أصحاب نظرية القانون الطبيعى وأبرزهم أرسطو (واضع النظرية) وكانت (أعظم فلاسفتها المتأخرين) التنبيه الى ضرورة التفرقة بـين القانون الطبيعى والقانون الوضعى .

هذا القول بازدواج القانونين الطبيعى والوضعى وعدم الخلط بينهما والاعتراف لكل منهما بمجالـه الخـاص ، يؤدى الى نتيجتين هامتين : اولاهمـا أن الايمان بأى مـن هـذين القانونين لا يتعارض مع الايمان بالآخر ، بل على العكس فان الايمان بالقانون الطبيعى يقتضى الايمان بضرورة القانون الوضعى . وبالفعل فان كل أنصار القانون الطبيعى يؤمنون بالقانون الوضعى ويعتبرون لهذا السبب فلاسفة وضعيين ، أى مؤمنين بضرورة الدولة وبانه لا يوجد قانون فى الدولة الا القانون الصادر عن ارادتها الصريحة أو الضمنية .

والنتيجة الثانية للازدواج ، اعتبار القانون الطبيعى بمثابة معيار للحكم على القانون الوضعى ، وانه أيضاً المثل الأعلى له ، وهو المثل الـذى ينبغى أن تخضع له ارادة المشرع فيما تصدره من تشريعات . وفى هذه النتيجة الثانية أعظم ضمان لعدم اسـتبداد المشرع فى أية دولة ، وفى خضـوع القانون الوضعى للقانون الطبيعى أى للعدل والفضيلة والأخلاق .

وجدير بالملاحظة انه يوجد اعتقاد سطحي لدى بعض رجال القانون مؤداه ان الوضعية القانونية ، والايمان بالقانون الطبيعي ، موقفان متعارضان ، وانه لا يمكن أن يكون رجل القانون وضعياً ومن انصار القانون الطبيعي في الوقت نفسه .

والواقع ان هذا الاعتقاد لا يتفق مع أول مبدأ من مبادىء القانون الطبيعي وهو مبدأ ضرورة وجود الدولة وضرورة احترام القوانين الصادرة عنها حتى ولو كانت سيئة ، في سبيل حفظ النظام الذي هو أهم من درجة الاتقان في القانون الوضعي أو درجة اقترابه من المثل الأعلى للعدل .

ويرجع هذا الاعتقاد السطحي فيما يبدو الى السببين الآتيين : **الأول** انه يوجد مفكرون يؤمنون بالقانون الوضعي وحده ولا يؤمنون بالقانون الطبيعي ، لأنه اذا كان الايمان بالقانون الطبيعي يقتضي حتماً الايمان بالقانون الوضعي ، فان العكس غير صحيح . وقد حاول هؤلاء المفكرون الايهام بأن كل من يؤمن بالقانون الوضعي مثلهم ، لا يستطيع أن يؤمن بالقانون الطبيعي . وبالتالي يجب على كل مفكر أو رجل قانون أن يحدد موقفه ، فاما أن يكون معهم أي من انصار القانون الوضعي وحده دون القانون الطبيعي ، أو يكون ضدهم أي من انصار القانون الطبيعي وبالتالي لا يعتبر في نظرهم من انصار المذهب الوضعي . وبالفعل فقد انساق بعض رجال القانون الى هذه الدعوة ، وبدأ هذا البعض يحدد لنفسه موقفاً يختار فيه بين الوضعية القانونية وبين الانتماء لمذهب القانون الطبيعي .

ونحن لا نظن بعد ما ذكرناه في شرح نظرية القانون الطبيعي عند أرسطو ، اننا في حاجة الى رفض الانسياق وراء هذه الدعوة . فان نظرية القانون الطبيعي هي ذاتها اهم تبرير لوجود القانون الوضعي ، واهم أساس تستند اليه القوة الملزمة للقانون المذكور . ولا شك أن أهم فلاسفة القانون الطبيعي (ارسطو وكانت) هم ايضاً أهم فلاسفة المذهب الوضعي في القانون ، حتى ولو وجد بعض انصار هذا المذهب الأخير ممن لاينتمون الى نظرية القانون الطبيعي . ودون حاجة الى التقليل من اهمية أصحاب الدعوة السابق الاشارة اليها .

أما **السبب الثاني** في هذا التعارض المصطنع بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي فيرجع الى أصحاب السلطة في النظم الاستبدادية . وهؤلاء يهمهم كثيراً في سبيل تحرير ارادتهم من الخضوع للقانون الطبيعي أن يعلنوا عدم اعترافهم بهذا القانون وبأنه لا يوجد قانون الا القانون الوضعي . أما انصار القانون الطبيعي فهم في نظرهم اعداء للدولة وانصار للفوضى . وفي شرح هذا السبب الثاني يقول الفيلسوف الفرنسي « لالاند » ان « المدافعين عن العروش والأموال وانصار المذاهب الشمولية والوطنية والعنصرية ، لم يكفوا ابداً عن تكوين جماعة متسلطة في مواجهة انصار العقل الخالص . ومنذ عهد سقراط فان الأولين يعاملون الآخرين على انهم انصار للفوضى وأعداء للدولة » (١٢٠) .

وهنا ايضاً يظهر بجلاء مدى الخطأ في اعتبار نظرية القانون الطبيعي من النظريات المعادية للدولة ، بينما هي أهم نظرية قيلت في تبرير وجود الدولة .

---

(١٢٠) A. LALANDE, La raison et les normes, Hachette, 1948, pp. 97, 98.

وباستعراض السببين السابق ذكرهما يتبين ان بعض انصار القانون الوضعي من غير انصار القانون الطبيعي ، وكذلك بعض أصحاب السلطة والنفوذ والاتجاهات العنصرية غير المتعلقة تعاونوا جميعاً بغير اتفاق بينهم على رسم صورة غير صحيحة عن التعارض أو التناقض بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي ، وهو تعارض لا تعرفه نظرية القانون الطبيعي ، بل يعرفه فقط أعداء هذه النظرية ممن سبق ذكرهم .

واذا كانت نظرية القانون الطبيعي لا تعرف التعارض أو التناقض بين القانونين الطبيعي والوضعي ، فانها تنكر ايضاً الخلط والاندماج بين هذين القانونين . وكما أن التعارض بين القانونين يطلق الحرية لأصحاب السلطة والاتجاهات العنصرية في عدم الخضوع لأحكام العقل ، فان الخلط بين القانونين يؤدى الى نفس النتيجة المؤسفة ذاتها .

ومن الواضح عند ارسطو أن القانون الطبيعي ليس هو القانون الوضعي . وأن القانون الطبيعي هو العدل في ذاته أما القانون الوضعي فهو العدل المصطنع . ومن الواضح لديه أيضاً أن القانون الوضعي صادر عن ارادة المشرع ، وان هذه الارادة يجب أن تخضع لحكم العقل أى لحكم الفضيلة والعدل والأخلاق . وكل هذه الاصطلاحات تعبر عن شيء واحد هو القانون الطبيعي . ومن الواضح أيضاً عند ارسطو انه ينظر الى الامور نظرة واقعية ، ولا يغيب عنه أن القانون الوضعي قد ينحرف عن مثله الأعلى وهو القانون الطبيعي ، وفى هذه الحالة فان القانون الوضعي لا يحتفظ بصفة العدل التى يضفيها عليه افتراض مشابهته للقانون الطبيعي . بل ان ارسطو يقر بوضوح نظرية القانون الوضعي الظالم ، وهو القانون الذى يعبر بصفة خاصة عن المصلحة الشخصية لأحد الحكام الطغاة أو مصلحة الطبقة المنتصرة في الصراع الطبقى الدائر في المجتمع .

وقد زادت التفرقة بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي وضوحاً على يد « كانت » . وهو اذا كان يؤمن بأن القانون الطبيعي يعطى لنا « المبادىء الخالدة التى يجب أن يؤسس عليها كل تشريع وضعى » (١٢١) . « وأن القانون الوضعي لا يستطيع أن يخالف القانون الطبيعي » الا أن الفارق بين القانونين ينبغى أن يظل دائماً محفوظاً . وأن يظل هذا الازدواج قائماً حتى فى الفرض الذى يمكن أن نتصور فيه جدلاً أن القانون الوضعي مطابق من حيث المضمون لأحكام القانون الطبيعي « اذ من الممكن أن نتصور ، كما يقول « كانت » تشريعاً خارجياً لا يتضمن الا قوانين طبيعية خالصة » . والتشريع الخارجى عند « كانت » هو التشريع الوضعي .

وحتى فى هذا الفرض الجدلى فان الفارق بين القانونين الطبيعي والوضعي يظل قائماً ، وهو فارق يرجع الى مصدر كل منهما . فبينما مصدر القانون الطبيعي هو العقل الخالص فان مصدر القانون الوضعي هو ارادة الانسان . وفى هذا الفرض الجدلى الذى يتطابق فيه القانونان من حيث المضمون فان ارادة المشرع تكون « صانعة الالتزام بالتصرف حسب القانون الطبيعي ، ولكنها ليست مصدر القانون الطبيعي ذاته » (١٢٢) .

والواقع انه فى الاحتفاظ بالفارق بين القانونين الطبيعي والوضعي فى جميع الأحوال

---

(١٢١) Kant, Doctrine du droit, trade par J. Barni, Paris, 1854, p. 82.

(١٢٢) Ibid., p. 38.

وحتى فى الفرض النادر الذى يتطابق فيه كل منهما من حيث المضمون ، أعظم حماية لحرية الأفراد وحقوقهم ، لأنه حتى فى هذا الفرض الجدلى النادر فان المشرع لا يستطيع أن يدعى أن القانون الوضعى هو العدل فى ذاته ، بل هو على أحسن الفروض عدل مصطنع .

وهكذا تصبح النظرة دائماً الى القانون الوضعى نظرة واقعية . فالقانون الوضعى فى جمع البلاد وفى جميع العصور من صنع البشر ومصدره دائماً ارادة المشرع أى ارادة الانسان . وارادة الانسان يجب أن تخضع لحكم العقل ومبادىء العدل . وبالتالى فان القانون الوضعى يجب أن يخضع للقانون الطبيعى ولا ينحرف عنه.

فالازدواج بين القانونين الوضعى والطبيعى يعبر عن نظرة واقعية سليمة ، ويؤدى فى الوقت نفسه الى الانسجام بين العدل فى ذاته والعدل المصطنع ، بما يكفل الحماية لارادة الفرد وحقوق الانسان .

والازدواج بين القانونين الطبيعى والوضعى لا يعنى أبداً التعارض بينهما كما أراد ذلك بعض المفكرين أو بعض أصحاب المصالح والاتجاهات العنصرية والنفوذ . على انه وان كان الازدواج بين القانونين الطبيعى والوضعى يعبر عن أهم المواقف التى اتخذها أصحاب نظرية القانون الطبيعى ، فان بعض أنصار هذه النظرية قد انحرف بها ونادى بالوحدة بين القانونين كما يلى :

(١٨) ــ نظرية عقل الكومنولث (لهوبز) :

فمن الشائع ان **هوبز** من فلاسفة النظم الاستبدادية والحكم المطلق ، وهى فكرة صحيحة تؤدى اليها كتاباته بالفعل . ولكن لا يكاد أحد يعتبره من فلاسفة القانون الطبيعى بالرغم من انه ينتمى الى نظرية القانون الطبيعى الذى هو فى نظره مصدر العقد الاجتماعى كما سبق أن رأينا .

والواقع أن « هوبز » ينتمى الى نظرية القانون الطبيعى ولكنه ينحرف بهذه النظرية انحرافاً مؤدياً الى تبرير النظم الاستبدادية ، رغم ان هذه النظرية فى أساسها تضع قيداً شديداً على ارادة المشرع وهو قيد العدل والعقل والأخلاق .

وقد تحقق هذا الانحراف عن طريق الخلط بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى ، أو الخلط بين العقل الخالص وهو مصدر القانون الطبيعى وبين عقل الدولة وهو مصدر القانون الوضعى . فالذى يصنع القانون الطبيعى فى نظر هوبز هو « عقل ذلك الرجل المصطنع وهو الكومنولث » أى الدولة . وهو يذكر أيضاً أن « القانون الطبيعى والقانون المدنى يتضمن كل منهما الآخر ويتساويان فى المضمون » .

وبينما فرق « كانت » بين القانونين الطبيعى والوضعى على أساس اختلاف مصدر كل منهما ، طابق « هوبز » بين القانونين على اساس وحدة مصدر كل منهما .

وهكذا لا يوجد فى نظر هوبز مبرر للبحث عن مصدر القانون الطبيعى ، فمصدره معروف وهو عقل الدولة أو بتعبير آخر عقل المشرع . فكل ما يراه المشرع عدلاً فهو عدل وكل ما يراه المشرع ظلماً فهو ظلم . وكل ما يراه المشرع حسناً فهو حسن وكل ما يراه المشرع قبيحاً فهو قبيح . وبالتالى فان عقل الدولة أصبح هو المصدر الوحيد للقانون الوضعى وهو أيضاً المصدر الوحيد للقانون الطبيعى ولمبادىء الأخلاق .

ويترتب على ذلك انه لا يوجد او لا يتصوروجود قانون ظالم ، لأن القانون دائماً عادل فهو مطابق للعدل فى ذاته او مطابق للقانون الطبيعى . ومعنى ذلك انه لا تجـوز الثورة او المقاومـة فى مواجهة نظام الدولة وقوانين الدولة ، لأن الثورةستكون فى هذا الفرض موجهـة ضـد القانـون الطبيعى والعدل والأخلاق . ومعنى ذلك ايضاً انهلا قيد على ارادة الحاكم ، لأن ارادته هى مصدر كل قيد والتزام . فارادة الأفراد تخضع لارادةالحاكم ، اما ارادة الحاكم فلا تخضع لشىء .

وغنى عن الذكر أن نظرية هوبـز عن عقلالدولة (أو عقل الكومنولث) هى نظرية منحرفة وغير صحيحة . وقد وصفها **ماكس شيلر** بأنها من قبيل « اللغو (absurde) » (١٢٣) .

والصحيح طبقاً لنظريـة القانون الطبيعى انارادة المشرع تخضع للقانـون الطبيعى ، وهى ليست مصدراً له .

والواقع أن « هوبز » يسـتحق الفكـرةالشائعة عنه وهى انه من فلاسفة الاسـتبداد ، ويستحق ايضاً عدم وجود فكرة شائعة عن انه منفلاسفة القانـون الطبيعى . فنظريتـه عن عقل الدولة ليست سوى انحراف وتعبير سيىء عننظرية القانون الطبيعى .

(١٩) ـ فلسفة الفكرة (هيجل) :

رغم أن « هيجل » ينكر دور الفلسـفة فىالتأثير على حركة التاريخ ، ويرى على حد قوله ، أن « الفلسـفة تأتى دائماً متأخرة للغاية ، فهى لاتظهر الأ عندما تكون الحقيقة قد اكتملت وتحققت خطوات تكوينهـا . وكل ما يسـتطيع التفكير انيعمله ، يستطيع التاريخ أن يشـير اليـه بنفس القـوة » . رغم ذلك فانه من المؤكد أن هيجلقد احدث بفلسـفته تأثيراً هائلاً على مجـرى الأحداث وعلى حياة القانون الوضعى فى الكثير منالدول . فهو كما يقول احد الفلاسفة المعاصرين : « فتح الطـريق امام الفاشـية والنازيـة وأمامالشيوعية ايضاً . فهو احـدى القـوى التى فى سبيلها الى تغيير العالم » (١٢٤) .

وهو بجانب تأثيره فى الاتجاهات السياسيةالمذكورة ، فقد وجد له انصـاراً ومشـايعين بين رجال القانـون ، ابرزهم « كوهلر » فى المانيـا ،وكذلك « هوريو » فى فرنسا (١٢٥) .

وتعرف فلسـفة هيجل باسم فلسفة الفكرة (La philosophie de l'Idee) ، وبحسـب مصطلحات هذه الفلسفة يقصد بالفكرة ، أو العقلالمطلق ، أو الارادة العالمية فى ذاتهـا ومن أجـل ذاتها ، أو روح العالم ، شىء واحـد ، فهذه كلهااصطلاحات مترادفة (١٢٦) .

---

(١٢٣) Max Scheller, Le formatisme en ethique et l'ehique materiale des valeurs, trad. par Gandillac, Paris, Gllimard, p. 336.

(١٢٤) Hegel, Principes de laphilosophie du droit, trad. par A. KAAN, Gallimard, Paris, 1940, p. 32.

(١٢٥) J.—M. Bochenski, La philosophie contemporaine en Europe, trad. par F.Vaudou, P.—B. Payot, Paris, 1962, p. 7.

(١٢٦) F. Geny, Science et technique, t. 2, p. 110, 111.

وهيجل يعلن أنه من أنصار القانون الطبيعي والقانون العقلي . وهو يأخذ على عاتقه الدفاع عن العقل الذي « اتهم واهين وادين دائماً وبغير حدود » (١٢٧) .

وهيجل ينادي بالوحدة بين ما هو واقــع وبين ما هو معقول ، « فكل ما هو عقلي هو حقيقي، وكل ما هو حقيقي هو عقلي » (١٢٨) . وبالتالي فان الدولة تعتبر شيئاً معقولاً في ذاتــه (١٢٩) . بل اكثر من هذا فان الدولة هي تجســيد للفكرة ، والارادة العالمية ، اي تجسيد للالوهية . فالدولة كما يقــول هيجــل « هي مجيء اللــه على الأرض ، ولذلك تجب عبادتها باعتبارها التجسيد الالهي على الأرض » (١٣٠) .

ولكن هيجل لا يتكلم عن كل دولة ، وانما يقصد فقط الدولة الســائدة في عصرها ، فهي وحدها التي تعتبر « تجسيداً للروح العالمي »(١٣١) . وتعتبر بالتالي « شيئاً معقولاً في ذاتها ومن أجل ذاتهــا » (١٣٢) . وفي مواجهــة هذه الدولة فان « الشعوب الاخرى لا يكون لها اي حق » (١٣٣) .

وهنا نلمح فارقاً جوهرياً بين هيجل وبين هوبز . فبينما يذهب هوبز الى المطابقة بين عقل الدولة (والمقصــود بذلك اي دولة) وبين العقل الخالص (وهو مصــدر القانون الطبيعي) فان هيجل يجعل المطابقة مقصورة فقط بين الفكرة او العقل المطلق وبين الدولة السائدة في عصرها وهي التي تعتبر تجســيداً الهياً جــديراً بالعبادة ، ويعتبر كل ما يصدر منهــا قانوناً طبيعياً جديراً بالتقديس .

اما الدول الاخرى فهي تخضع لهذه الدولة السائدة ، ولا تعتبر قوانين هذه الدول تعبيراً عن القانون الطبيعي ، بل قد تكون قوانين هذه الدول « ظالمة وغير معقولة في ذاتها ومن أجل ذاتها » ، ومثل هذه القوانين تعتبر وضعية في الحدود التي يكون لها فيها معنى وفائدة بحسب الظروف ، فلا تكون لها الا قيمة تاريخية ذات طبيعة وقتية(١٣٤) .

وهيجل يرفض نظرية العقد الاجتماعي في صورتها الارادية كأساس للدولــة « لان طبيعة الدولة في نظره لا تقوم على أساس علاقات عقدية، سواء كانت هذه العلاقات العقدية بين كل شخص وكل شخص آخر ، او كانت بين جميع الأشخاص من ناحية وبين الأمــير او الحكومــة من ناحيــة اخرى » (١٣٥) .

---

(١٢٧) Hegel, Principes de la philosophie, op. cit., pp. 30, 33, 50, 54 et 55.

(١٢٨) Ibid., p. 28 et 35.

(١٢٩) Ibid., p. 30.

(١٣٠) Ibid., p. 30.

(١٣١) Cite par G. Gurvith, Dialectique et sociologie, Paris, Flammarion, 1962, p. 90.

(١٣٢) Hegel, op. cit., p. 258.

(١٣٣) Ibid., p. 190.

(١٣٤) Ibid.. p. 258.

(١٣٥) Ibid., p. 38.

فالدولة اساسها الارادة العالمية ، أما العقود فهى التى تقوم على ارادة شخصية ليست عالمية فى ذاتها أو من أجل ذاتها (١٣٦) . والعقود لا تكون لها قيمة الا بقدر مطابقتها للفكرة ، اى للارادة العالمية فى ذاتها ومن أجل ذاتها . فالانسان لايستطيع ان يتصرف بارادته فى الحقوق التى « لا تقبل التصرف أو التقادم » ، وهى الحقوق التى تكوّن شخصيته الخاصة وتعبر عن الجوهر العالمى لضميره فى حد ذاته (١٣٧) .

والعقود لا تكون ملزمة الا اذا روعى فيها مبدأ التعادل بين الالتزامات المتقابلة . ففى كل تعاقد يوجد تناقض ديالكتيكى بين العقد والملكية . فالعقد هو سبب كسب الملكية . والملكية موجودة فى كل عقد . وحتى يمكن حل هذا التناقض لا بد ان يظل المتعاقد مالكاً بعدم ابرام العقد لنفس القيمة التى كان يملكها قبل التعاقد (١٣٨) ــ وهو مالا يتحقق الا عن طريق التعادل فى الالتزامات المتقابلة . (والواقع ان نظرية هيجل عن التناقض الديالكتيكى بين العقد والملكية لا تعدو أن تكون تعبيراً جديداً عن نظرية العدل التبادلى التى نادى بها أرسطو) .

ومن ناحية اخرى فان هيجل وهو يرفض العقد الاجتماعى فى صورته الارادية ، كأساس للدولة ، لا يقول شيئاً مختلفاً عما يقوله انصار نظرية العقد الاجتماعى الذين لم يقصدوا بهذا العقد كما سبق أن رأينا عقداً ارادياً مصنوعاً ، ولكن قصدوا به العقد العقلى الطبيعى الصادر عن القانون الطبيعى . وهم فى هذا يعبرون بطريقة مختلفة عن رأى هيجل فى أن أساس الدولة هو الارادة العالمية فى ذاتها ومن أجل ذاتها .

والواقع أن فلسفة الفكرة اذا كانت تحرر ارادة الدولة السائدة فى عصرها من اى قيد باعتبارها التجسيد الالهى على الأرض ، وباعتبار ان ما يصدر عن ارادتها من قوانين هو بذاته المقصود بالقانون الطبيعى ، فانها فى نفس الوقت ولنفس السبب ، لا تعطى اية حماية لارادة الأفراد داخل هذه الدولة ، ولا لارادة الدول والشعوب الاخرى فى مواجهة هذه الدولة .

فالدولة السائدة لها الحرية المطلقة من كل قيد ، والدول الاخرى وكذلك الأفراد داخل الدولة السائدة عليهم الخضوع المطلق بغير حد . والمطابقة بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى اذا كانت تؤدى عند « هوبز » الى استبداد الدولة بمواطنيها ، فان المطابقة بين القانون الطبيعى وبين القانون الوضعى عند «هيجل» تؤدى الى استبداد الدولة السائدة ليس فقط بمواطنيها ، بل وبجميع دول الأرض وشعوبها . ومن هنا يمكن ان نفهم الملاحظة التى ذكرناها منذ البداية وهى أن هيجل هو الذى فتح الطريق أمام الفاشية والنازية . أما انه فتح الطريق أمام الشيوعية فلأنه من أعظم الفلاسفة تأثيراً على ماركس .

وبعد استعراض فلسفة هوبز وفلسفة هيجل ، فاننا نستطيع القول ان المطابقة بين القانون الوضعى والقانون الطبيعى تعتبر انحرافاً خطيراً فى نظرية القانون الطبيعى وتؤدى الى الاستبداد . لأنها تطلق ارادة المشرع سواء فى كل دولة كما عند « هوبز » ، أو فى الدولة السائدة

---

(١٣٦) Ibid., p. 82.

(١٣٧) Ibid., p. 82; Adde, p. 191.

(١٣٨) Ibid., p. 76.

كما عند « هيجل » من كل قيـد على الاطلاق ،وتخضع فى الوقت نفسه سائر الارادات الانسانية لهذه الارادة المسيطرة خضوعاً ليس له حد . والصحيح فى نظرية القانـون الطبيعى أن ارادة الانسان تخضع لحكم العقل والعدل ، سواء كان هذا الانسان هـو المشرع نفسـه أو كان أحـد المواطنين العاديين .

والواقع ان الاستبداد بدعوى المطابقة بين القانون الطبيعى والقانون العقلى ، لاخطر بكثير من الاستبداد الذى ينكر أصلاً القانون الطبيعى والقيم الأخـلاقية ، لأن هذا الاسـتبداد الأخير تمكن مقاومته عن طـريق التمسـك بقوة العقل والعدل . اما الاستبداد باسم القانـون الطبيعى فتصعب مقاومته لأنه يعتبر القوة عدلاً ، ويعتبر القانون الوضعى ولو كان ظالماً ، تعبيراً عن العدل فى ذاته ومن أجل ذاته .

والآن وقد عرضنا نظرية القانون الطبيعى فى أصلها ووضعها الصحيح عند ارسطو وفيما طرأ عليها من تعبيرات جديـدة (فى نظـريتى العقد الاجتماعى وسلطان الارادة) ومن تعبيرات منحرفة (فى نظريتى عقل الدولة وفلسفة الفكرة) ننتقل الى النظرية الارادية الوحيدة فى تاريخ الفلسفة ، (وهى ارادة القوة لنيتشه) .

• • •

رابعاً : نظرية ارادة القوة (نيتشه)

(٢٠) ـ الفلسفة اللاعقلية أو العدمية :

الفلســفة اللاعقلية (irrationaliste) هى فلســفة عدمية بحســب ترجمة المجمع اللغوى لكلمة (nihiliste) ، وهى لا تؤمن بمبدأ السببية الذى يجعل لكل شىء سبباً ، وهـو المبدأ الذى تقوم عليه نظرية المعرفة (١٣٩) . ومن ابرز انصار هذه الفلسفة شوبنهور ونيتشه . ويعتبر نيتشه هو نبى الدعوة للفلسفة اللاعقلية حسـب تعبير بوشنسكى .

يرى نيتشه ان العـالم لا يعدو أن يكـون « حدثاً بغير خطة ، بغير عقل ، وبغير ضمير » فهو اسـوأ انـواع الضرورات ، بل هـو ضرورة حمقاء (١٤٠) .

واذا كانت نظرية نيتشه هى أول نظريـة ارادية خالصة فى تاريخ الفكر الانسانى ، الا انها لم تؤد الى حماية الارادة فعلاً بل على العكس فانها أدت الى اهدار الارادة وتحطيمها بدرجـة تفوق أكل تصور .

ان حماية الانسان والمحافظة على حريـة ارادته ، لا تكون عن طريق تحطيم الأخـلاق ، أو ازالة كل قيـد على الارادة مهما كان . بل على العكس فان جعل الأخلاق والقانون الطبيعى قيداً على الارادة ، فيه أكبر حماية لهذه الارادة ، اى لكل ارادة فى مواجهة الارادات الانسانية الاخرى .

---

(١٣٩) Ibid., p. 83, Adde, p. 81.

(١٤٠) NIETZSCHE, la volonte de puissance, trad. par G. Bianquis, 3 ed., t. 1, Gallimard 1948, p. 46.

اما اطلاق حرية الارادة بغير قيد فانه يؤدى الى استبداد ارادة القوى بارادة الضعيف . وهذا ما ذهب اليه « نيتشه » بالفعل ، فهو يطلق على فلسفته اسم « ارادة القوة » ويعتبر من أهم تعاليم هذه الفلسفة « عبادة الأبطال » (١٤١) .

واذا كان الانسان قد تحرر من الأخلاق ، فانه أصبح خاضعاً للأوامر الصادرة من الرئيس أو البطل ، الذى أصبح من حقه وحده أن « يقود ويأمر ويفرض نظام القيم الخاص به » . و « مصدر هذا الأمر ليس هو طبيعة الأشياء » (١٤٢) . فليست هناك طبيعة للأشياء وليست هناك حقيقة (١٤٣) ، وليست هناك أخلاق عقلية أو طبيعية (١٤٤) . فالقوة هى القانون والأخلاق (١٤٥) .

وكذلك ليست هناك حقوق للانسان ، بل يتوقف حق كل شخص على مدى قوة هذا الشخص . « فقيمة الشخص ، كما يقول نيتشه ، يجب أن تكون هى معيار الحقوق التى يستطيع أن يدعيها » (١٤٦) واذا تعارض ما يدعيه رجل قوى مع ما يدعيه رجل ضعيف « فيجب قتل الرجل الضعيف كما تقتل الحشرة الحقيرة » ، « ومعظم الناس لا حق لهم فى الوجود وهم فقط مصدر ازعاج للأشخاص المتميزين » (١٤٧) .

اما العقود وهى أهم التصرفات الارادية للانسان ، فليست لها قيمة فى ذاتها ، وانما تستمد قيمتها من الشخص الذى يرتبط بها . فالزواج مثلاً وهو يعتبر فى القانون عقداً ونظاماً قانونياً وتعبيراً عن حق من الحقوق اللصيقة بالانسان ، ليست له فى نظر نيتشه « أى قيمة فى ذاته » . « لا هو ولا أى نظام قانونى آخر » (١٤٨).

ونيتشه لا يؤمن بمبدأ حرية التعاقد أو حرية التجارة ، ويعتقد ان مبادىء الحرية الاقتصادية التى تلخصها عبارة « دعه يعمل دعه يمر » ، ليست سوى نوع من الخلاعة (libertinage) التى تتعارض مع مبدأ ارادة القوة (١٤٩) .

والواقع أننا اذا أردنا العثور على تطبيق عملى حى لنظرية ارادة القوة ، فلن نجد خيراً من الدكتاتور النازى هتلر ، الذى يصدق عليه لفظ البطل أو الرئيس الذى يفرض ويقرر نظام القيم الخاص به وهو النظام النازى بما يحمله من رمز الصليب المعقوف وبما يصدر عنه من ارادة القوة

---

(١٤١) NIETZCHE, la volonte, de puissance, op. cit., p. 21, 23, 30, 114, 216, 229, 235, 250, 261, 262,, 266, 277, 283, 304, 283, 304, 346.

(١٤٢) Ibid., p. 264.

(١٤٣) Ibid., p. 45, 47, 55, 107.

(١٤٤) Ibid., p. 17, 31, 49, 51, 91, 101, 104, 251, 260, 350.

(١٤٥) Ibid., p. 96.

(١٤٦) Ibid., 306.

(١٤٧) Ibid., p. 306.

(١٤٨) Ibid., p. 289.

(١٤٩) Ibid., p. 31., 80, 115.

التي تسحق كل ارادة اخرى تعترضها سواء فيمواجهة المواطنين او في مواجهة شعوب العالم الاخرى . وقد كان هتلر تلميذاً مخلصاً لنيتشهوهو يعبر عن رأيه في القوة الملزمة للعقود بقوله : « انني قادر وبكل حسن نية أن اوقع علىمعاهدات اليوم ، لأمزقها غداً بكل برود » (١٥٠) .

وغني عن الذكر أن فلسفة نيتشه عن ارادةالقوة لم تكن بعيدة عن التأثير في تفكير الزعيم النازي او في تفكير اعوانه من فلاسفة الحزبومخططيه .

واذا كانت القسوة التي تعبر عنها نظرية ارادةالقوة تفوق كل تصور ، الا ان هذه النظرية تبدو منطقية مع نفسها ، لأن ارادة الانسان اذا تحررتمن كل قيد عليها انطلقت بغير حد . وعندما تنطلق كل ارادة سيحدث تصادم حتى بين الاراداتالمختلفة ، وهو ما لا يمكن حسمه الا عن طريق القوة وارادة القوة .

فالحرية المطلقة للارادة تؤدي ضرورة ومنطقاالى ارادة القوة والى سحق كل ارادة ضعيفة تعترض ارادة اخرى أقوى منها .

والدرس الذي نستفيده من فلسفة نيتشه اومن التطبيقات العملية لها في النظم النازية او الفاشية أو ما شابههما ، هو ان حماية الارادةلا تكون عن طريق اطلاق الحرية لها ، بل على العكس فان الارادة المطلقة تؤدي الى تحطيم كامللحرية الارادة .

اما الحماية الحقيقية للارادة فتكون عن طريقاخضاعها للقانونالطبيعيومبادىء العدلوالأخلاق، وهو اخضاع يمتد الى كل ارادة انسانية بغيرتحديد ، ويشمل ذلك ارادة المواطن العادي وارادة المشرع وارادة القاضي . ويشمل ذلك أيضاارادة الدولة الصغيرة وارادة الدولة الكبيرة .

وفي خضوع كل ارادة للقانون الطبيعي تتحققحرية الارادة لكل فرد . وهي حرية يحكمها العدل . فالعدل أسمى من الحرية ، وهو الضمانالوحيد لوجود هذه الحرية بشرط أن تكون حرية عادلة وليست حرية مطلقة .

واذا كانت الفلسفات التي درسناها حتىالآن تتراوح بين اطلاق حرية الارادة أو تقييدها ، فان هناك فلسفات اخرى تذهب الى انكار وجودالارادة أصلاً او قيامها بأي دور على الاطلاق ، ونعني « فلسفة الشك » (لباسكال) ، والماديةالتاريخية (لماركس وانجلز) ، ولا يتسع المقام للتحدث عنهما ، ولذلك ننتقل الى « الفلسفاتالمعاصرة » .

• • •

---

(١٥٠) Cite par Louis LE FUR, La Force obligatoire des traitdes, in: Arch. de Phil. du Droit et de soc. jur. 1940, p. 94, note 1.

خامساً : الاتجاهات المعاصرة

(٢١) ـ المقصود بالفلسفات المعاصرة :

كل الفلسفات السابق بحثها هى فى الواقع فلسفات معاصرة . لأن الفلسفة لا تقدم ابداً ولا تبلى ابداً . وعلى سبيل المثال لا زال « ارسطو » فيلسوفاً عصرياً ، بل هو اعظم فلاسفة العصر الذى نعيش فيه . وليس غريباً أن نقرأ ما يقوله « هيدجر » من أن الفصل الأول من كتاب الطبيعة لأرسطو « يجعل حتى اليوم مكتبات بأكملها من المؤلفات الفلسفية ، شيئاً سطحياً » (١٥١) .

ولذلك فان ما نقصده بالفلسفات المعاصرة هى الفلسفات التي ظهرت فى هذا العصر واخذت مكانها الى جانب الفلسفات الاخرى المعروفة والتي سبقت دراستها . وتشمل الفلسفات المعاصرة فلسفة الحياة ، وفلسفة الجوهر ، وفلسفة الوجود (نعبر عنها : الوجودية الملحدة ـ بزعامة جان بول سارتر وهيدجر ـ والوجودية المؤمنة ـ التي يتزعمها كارل جاسير وجابرييل مارسيل ـ كما تشمل اتجاهات علم الاجتماع ، وكل ذلك يضيق المقام بالحديث عنه ، ولذلك نقصر الحديث على المصير الذى انتهت اليه نظرية القانون الطبيعى فى العصر الحديث .

(٢٢) ـ نظرية القانون الطبيعى فى القرن العشرين:

من الواضح بعد الاستعراض السابق للاتجاهات الفلسفية المتباينة ، أن نظرية القانون الطبيعى هى نقطة البداية لكل الفلسفات الأخلاقية بغير استثناء سواء فى ذلك الفلسفات المؤيدة أو المعادية لها .

وبعد ان وضع « أرسطو » هذه النظرية فى صورتها المتكاملة ، ساهم الفلاسفة من بعده فى ابرازها اما بالتعبير عنها تعبيراً جديداً او بالانحراف بها أو بالهجوم عليها .

وقد رأينا تعبيراً مبسطاً عن القانون الطبيعى فى نظرية العقد الاجتماعى التى نادى بها هوبز ولوك وجان جاك روسو ومن قبلهم افلاطون ، ورأينا كذلك تعبيراً جديداً وعميقاً عن هذه النظرية فى فلسفة « كانت » عن سلطان الارادة .

ثم رأينا بعد ذلك كيف انحرفت هذه النظرية على يد « هوبز » الذى نادى بعقل الدولة ، وعلى يد «هيجل» الذى نادى بتأليه الدولة السائدة . وكان انحراف كل من هذين الفيلسوفين يتمثل فى الخلط بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى بما يؤدى الى الاستبداد والطغيان تحت اسم العدل والمبادىء الخالدة .

ولكن الانحراف عن نظرية القانون الطبيعى لم يؤد الى الاضرار بها ، بل بالعكس فانه أفاد كثيراً فى القاء الضوء على جانب هام منها وهو ضرورة التفرقة بين العدل فى ذاته والعدل المصطنع ، بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى ، وذلك حماية لارادة الأفراد من ارادة المشرع وهى ارادة انسانية مثل ارادتهم .

---

(١٥١) Heidegger, Le principe de raison, op. cit., p. 153.

وقد بلغت القوة بنظرية القانون الطبيعي مايجعلها تلقى استقبالاً حسناً من الفلسفات الدينية . فالقديس توماس الاكويني يعتنقها ، والمعتزلة في الفلسفة الاسلامية يدخلون من اجلها حرباً فكرية ضد الأشاعرة .

اما الفلسفات التي انكرت القانون الطبيعي وهاجمته وهي اساساً فلسفة « نيتشه » الارادية ، فقد أسدت الى القانون الطبيعي خدمة لا تقدر لأنها اثبتت بوضوح كامل كيف ان انكار الأخلاق الطبيعية يؤدي الى اهدار الارادة وتدميرها ، باسم الارادة ذاتها .

وفي الاتجاهات المعاصرة نجد « فلسفة الحياة » مع عدم اعترافها بوجود اخلاق طبيعية عقلية الا انها تعترف على الأقل بأن القاعدة الاولى في الأخلاق هي قاعدة طبيعية وهي القاعدة التي تقتضي وجود نظام في المجتمع . ولا يعتبر ذلك انكاراً كاملاً للقانون الطبيعي حتى مع القول بأن القواعد الأخلاقية التي تأتي بعد ذلك هي قواعد بيولوجية متطورة ومتغيرة .

كذلك نجد في الاتجاهات المعاصرة الفلسفة المعروفة باسم « فلسفة الجوهر » ، وهي لا تتعارض تعارضاً كبيراً مع نظرية القانون الطبيعي لأنها تؤمن بوجود قيم اخلاقية خالدة ، حتى ولو كانت لا تعترف بأن الأخلاق انسانية او عالمية أو عقلية .

كما نجد « الفلسفة الوجودية » ، ونجد الاتجاه الملحد فيها يجمع في نظرية واحدة بين « نيتشه » و « كانت » ، وهو أمر مستحيل . اما الاتجاه المؤمن فيها فهو يعترف بالقيم الأخلاقية المطلقة على اساس الحب ، وان كان يرفض ماتقوله نظرية القانون الطبيعي من أن هذه القيم معطاة او محددة سلفاً ، ويرى على العكس ان الأخلاق دائماً مكتسبة ومصنوعة بوساطة كل انسان في الموقف الذي يوجد فيه . وهذه الوجودية المؤمنة لا تفعل أكثر من أن تستخدم عكس الاصطلاحات التي تستخدمها نظرية القانون الطبيعي لتصل بعد ذلك الى نفس النتيجة التي تصل اليها هذه النظرية وهي الاعتراف بالأخلاق المطلقة .

ومن الاتجاهات المعاصرة أخيراً علوم الاجتماع والانثروبولجيا والتاريخ وهي لا تبحث بحسب طبيعتها عن الأخلاق ، ولكنها تبحث فقط عن العادات الأخلاقية ، ومع ذلك فقد انتهى بعض علمائها الى وجود اخلاق خالدة اقرب ما تكون الى القانون الطبيعي .

اما المادية التاريخية (ماركس وانجلز) فانها تنكر العقل الخالص لتحل محله عقل كارل ماركس باعتباره القادر وحده على قيادة الانسانية . ولا يعدو أن يكون هذا تجميداً وتحديداً لفكرة القانون الطبيعي ، لم تقع فيه حتى الفلسفات الدينية فقد اعترفت ـ مع ايمانها الشديد بالله ـ ان الحسن هو ما يراه العقل حسناً وأن القبيح هو مايراه العقل قبيحاً .

اما الخلط بين العقل الخالص وبين عقل كارل ماركس فهو أشبه بالخلط بين العقل الخالص وعقل الدولة عند هوبز ، واشبه أيضاً بالخلط بين الدولة وبين الله عند هيجل . ويؤدي اي نوع من هذا الخلط الى الاستبداد وتحطيم حرية الفرد ، حيث تصبح تعاليم ماركس أو قوانين الدولة الوضعية تعبيراً مطلقاً عن العدل حتى ولو لم تكن كذلك فعلاً .

وحتى تظل نظرية القانون الطبيعي سالمة من كل انحراف ، فيجب تحاشي كل خلط بين العقل الخالص وبين اي عقل انساني معين بالذات ، سواء كان هو عقل المشرع في اي دولة أو في الدولة السائدة ، أو عقل احد الفلاسفة او عقل احد المفسرين للعقائد الدينية أو السياسية .

والقانون الطبيعى بهذا المعنى هـو العقل الخالص او العقل السليم . فالقانون الطبيعى هو القانون العقلى . واصطلاح القانـون الطبيعى مرادف لاصطلاح الأخلاق الطبيعية او الأخـلاق العقلية ، ومرادف كذلك لاصطلاح العدل .

والقانون الطبيعى بهذا المعنى هو الأساس الذى تقوم عليه السلطة السياسية فى كل دولة . بل هو الأساس « الذى يقتضى انشاء سلطة عامة ذات اختصاص عالمى » ، حسب تعبير **البابا يوحنا الثالث والعشرين** فى اعلانه المشهور (Pacem in terris) (١٥٢) .

والقانون الطبيعى بهذا المعنى هو الذى يجب ان تخضع له كل ارادة انسانية ، سـواء فى ذلك ارادة المشرع فيما يصـدره من قوانين او ارادة القاضى فيما يصدره من احكام او ارادة الفـرد العادى فيما يبرمه من عقود .

والقانـون الطبيعى بهذا المعنى ليسـت له قيمة فلسفية وحسـب ، بل ان قيمته الواقعية لا يجادل فيها أحد . ويكفى للتدليـل على ذلك الاشارة الى أن القضاء يسمى فى معظم بلاد العالم « مرفق العدالة » . واذا حدث فى فترة من فترات التاريـخ ان وقعت احـدى الدول تحـت وطأة الطغيان نتيجة للخلط بين القانون الطبيعى وعقل الدولة أو عقل أحد الفلاسفة أو عقل أحد الأحزاب السياسية أو المذاهب العقائدية ، فلن يرجى أمل فى تحرير هذه الدولة ورفع الظلم عن أفرادها الا على أساس القانون الطبيعى نفســه ، اى على اساس العقل الخالص والعدل فى ذاته .

وبالنسـبة لمصر فقـد أعلن المشرع المصرى اعتناقه لنظرية القانون الطبيعى فى المادة الاولى من القانون المدنى التى تنص على أن :

١ ــ تسرى النصوص التشريعية على جميع المسائل التى تتناولها هذه النصوص فى لفظها أو فى فحواها .

٢ ــ فـاذا لم يوجـد نص تشريعى يمكن تطبيقه ، حكم القاضى بمقتضى العرف ، فاذا لم يوجد ، فبمقتضى مبادىء الشريعة الاسـلامية ، فاذا لم توجد ، فبمقتضى مبادىء القانون الطبيعى وقواعد العدالة .

ومعنى هـذا النص أن المشرع المصرى قد استـوحى أحكام التشريع من مبـادىء القانـون الطبيعى والعدل ولذلك فهو يلزم القاضى بتطبيقها أولاً . فاذا لم يجد القاضى الحكم فى قواعد العدل المصنوع الذى وضـعه المشرع ، ولم يجد كذلك أحكاماً فى العرف أو مبادىء الشريعة الاسلامية ، فانه يرجع بمجهوده الشخصى الى نفس المصدر الذى استوحى منه المشرع أحكامه الوضعية وهو القانـون الطبيعى ومبادىء العدالة . وهذه هى بالضبط نظرية « أرسطو » عن العدل العام والعدل الخاص السـابق الاشـارة اليهـا . فالقانـون الطبيعى هو الأساس الذى اقيم عليه العدل العام فى المجتمع ، وهو أيضاً الأساس الذى يقام عليه العدل الخاص عندما لا توجد قاعدة قانونية تطبق على النزاع المعروض امام القاضى .

---

(١٥٢) Texte integral, Journal la Croix du 11—4—1963, p. 6, 7.

خاتمة :

اذا اردنا ان نضع خاتمة لدراستنا عن العلاقة بين القانون والارادة فاننا نسجل أولا ان القانون الذى يحكم سلوك الأفراد فى المجتمع هو عمل ارادى من صنع المشرع نفسه ، أو من صنع القضاة فى حالة وجود نقص فى التشريع . وحتى فى الحالات النادرة التى يطبق فيها القاضى العرف أو مبادىء الشريعة الاسلامية او مبادىء شريعة دينية اخرى ، فانه يفعل ذلك بمقتضى تفويض ارادى صريح من المشرع ، بحيث تظل السلطة الحاكمة فى الدولة هى المصدر الرسمى الوحيد لكل ما يوجد داخل هذه الدولة من أحكام قانونية ملزمة .

فلا يوجد قانون فى الدولة غير القانون الوضعى . وكل قانون وضعى هو عمل ارادى من صنع الانسان . وارادة المشرع فى كل دولة هى ارادة وضعية واقعية تتأثر بكل ما يجرى فى هذه الدولة من تيارات وما يوجد فيها من ظروف . وفى كل مجتمع توجد صراعات من كل نوع لعل ابرزها الصراع بين الفلسفات والصراع بين المصالح . وفى كل مجتمع توجد قوى كثيرة خلاقة يؤدى تفاعلها الى تكوين ارادة المشرع الوضعية . وهذه القوى تضع فى حسابها دائماً الحقائق الموجودة فى المجتمع سواء كانت حقائق طبيعية أو تاريخية او دينية او اقتصادية او اجتماعية .

والصراع من اجل القانون الوضعى ، أو الصراع فى سبيل تكوين ارادة المشرع الوضعية ، تقوم به عادة الأحزاب السياسية فى الدول التى تسمح بتعدد الاتجاهات ، ويحتكره الحزب الواحد او الحاكم الأوحد فى الدول التى لا تعرف الأحزاب . ولكن حتى فى هذه الدول الأخيرة فان اى فرد يستطيع أن يلعب دوراً فى الصراع من اجل القانون ولو لم يتخذ هذا الدور موقف السلبية الكاملة .

والصراع من اجل القانون قد يتم بطريقة ثورية سواء كانت هذه الثورة عنيفة ودموية ، او كانت ثورة سلمية كتلك التى قادها غاندى فى الهند ، وقد يتم أيضاً ، وهو الغالب ، بطريقة تدريجية اصلاحية . والصراع من اجل القانون قد يؤدى الى التقدم الاجتماعى او يؤدى الى التأخر الاجتماعى ، وقد يقود الى الديمقراطية او يؤدى الى الديكتاتورية .

والصراع من اجل القانون قد يؤدى الى تمزيق الدولة الى دولتين أو أكثر ، وقد يؤدى الى تجميع أكثر من دولة فى دولة واحدة ، أو قد يؤدى الى تكوين دولة واحدة عالمية . والصراع من أجل القانون قد يسفر عن اصدار قوانين عادلة وقد يسفر عن اصدار قوانين ظالمة . والصراع من اجل القانون ليست له نهاية فهو دائم أبداً ، وموجود فعلاً فى كل المجتمعات سواء تلك التى تسمع فيها أصوات كثيرة أو تلك التى لا يسمع فيها غير صوت واحد .

فالقانون الذى يحكم سلوك الأفراد فى كل المجتمعات هو دائماً عمل ارادى من صنع الانسان . وارادة المشرع التى تضع القانون انما تفرض ارادتها على ارادة الأفراد المخاطبين بهذا القانون . ولكن عندما يصدر القانون فانه ينفصل عن ارادة المشرع ويصبح قاعدة عامة مجردة تحكم سلوك جميع الأفراد فى المجتمع بما فى ذلك الشخص الذى وضع هذه القاعدة .

والقانون لا يقتصر على وضع القواعد التى تحكم سلوك الأفراد ، بل يضع ايضاً القواعد التى تحكم سلوك السلطات الموجودة فى الدولة . وخضوع هذه السلطات لحكم القانون انما يعنى فى الواقع ان القانون بعد أن كان عملاً اراديا اصبح اسمى من ارادة جميع الأشخاص بما فى ذلك ارادة السلطات التى وضعته وأصدرته . ويعبر عن هذا المبدأ باسم مبدأ سيادة القانون او سمو القانون .

ولكن نظراً لأن الظاهرة التى تحكمها القاعدة القانونية هى ارادة انسانية سواء كانت ارادة الأفراد العاديين أو ارادة السلطات الحاكمة ، وهى ظاهرة لا تمكن — بحسب طبيعتها — السيطرة عليها سيطرة كاملة ، لأن ارادة الانسان تملك الاختيار أى تملك القبول او الرفض ، الطاعة أو عدم الطاعة ، فيترتب على ذلك ان قواعد القانون لا تطبق بطريقة آلية . فهى اذا كانت تلزم الا أنها لا تحتم . فهى تلزم لأن الخروج عليها يترتب عليه توقيع جزاء على من خرج على القاعدة . اما انها لا تحتم ، فلأن الخروج عليها يظل ممكناً دائماً .

ومن السهل بطبيعة الحال توقيع جزاء على اخلال احد الأفراد العاديين بحكم القانون ، ولكن من الصعب توقيع هذا الجزاء عندما يقع الاخلال من احدى سلطات الدولة ، ولا يكون ذلك الا عن طريق مبدأ تعدد السلطات حيث تستطيع كل سلطة أن توقف الاخرى ، أو عن طريق الثورات السلمية التى تعتبر الانتخابات الحرة صورة عنها ، او عن طريق الثورات العنيفة .

ويترتب على ذلك انه لا توجد حرية مطلقة للارادة فى اى دولة من الدول لأى فرد من الأفراد سواء كان حاكماً أو محكوماً ، فالجميع يخضعون للقانون .

وضرورة خضوع الارادة للقانون هو مايفرضه القانون الطبيعى وما يقرره العقل . وبحسب العقل السليم أو العقل الخالص لا يتمتع الانسان بحرية مطلقة فى تصرفاته ، بل تخضع حريته لمقتضيات العدل والقانون الطبيعى . اما القول باطلاق حرية الارادة بغير حد ، وهو ما لم يقل به أحد سوى « نيتشه » ، فانه يؤدى حتماً الى ارادة القوة والى سحق كل ارادة انسانية بغير هوادة او رحمة .

فالحماية الحقيقية لحرية الارادة لا تكون الا عن طريق اخضاع كل ارادة لمبادىء العدل واحكام القانون الطبيعى . واذا كان القانون الطبيعى يقتضى انشاء سلطة سياسية حاكمة فى كل مجتمع ، ويقتضى خضوع الأفراد لما يصدر عن هذه السلطة من أحكام ، فانه يقتضى أيضاً وفى نفس الوقت خضوع هذه السلطة ذاتها لأحكام العدل والعقل ومبادىء الأخلاق الطبيعية .

وهكذا عندما تخضع كل ارادة انسانية لحكم العقل والعدل فى كل ما يصدر عنها من أعمال — سواء فى ذلك ما يصدر عن المشرع من تشريعات ، أو ما يصدر عن القاضى من أحكام أو ما يصدر عن الأفراد من عقود ومعاملات — ، فان حرية الارادة تكون قد تحققت بأكثر ما يرجى لها من تحقيق .

وهكذا يظل العقل الخالص هو النور الطبيعى الذى تهتدى به وتخضع لتوجيهه كل ارادة انسانية ، فتتحقق الحماية والحرية الحقيقية ، أى الحرية العادلة ، لكل ارادة انسانية .

واذا كان هناك تحذير أخير يتعلق بنظرية القانون الطبيعى ، فهو التحذير من الخلط بينه وبين القانون الوضعى ، أو الخلط بينه وبين اية نظرية فلسفية معينة بالذات ، أو الخلط بينه وبين أى اتجاه عقائدى معين بالذات .

لأنه اذا كانت الارادة المطلقة « لنيتشه » تؤدى الى تحطيم حرية الارادة ، فان نفس النتيجة السيئة يمكن الوصول اليها عن طريق الخلط بين القانون الطبيعى وعقل الدولة كما فعل « هوبز » أو عن طريق الخلط بين الله والدولة السائدة كما فعل « هيجل » ، أو عن طريق الخلط بين العقل الخالص وعقل « كارل ماركس » كما فعل هذا الأخير .

فليكن واضحاً باستمرار أن القانون المطبق فى أى دولة هو عمل ارادى من صنع ارادة السلطة الحاكمة فى هذه الدولة ، وهو يستند فى اساس وجوده الى فكرة العدل ، كما انه يستوحى او يجب أن يستوحى أحكامه من مبادىء العدل ، ولكنه يظل دائماً عدلاً مصنوعاً لا يرقى أبداً ولا يختلط أبداً بالعدل فى ذاته الذى يجب ان يظل هو وحده معيار الحكم على كل تصرف ارادى ، سواء كان تشريعاً أو حكماً او عقداً أو غير ذلك من التصرفات الارادية .

فلتخضع ارادة الانسان للعدل والعقل ، فهذا هو الطريق الوحيد الى حريتها الحقيقية .

* * *



الشك المنهجي عند الغزالي وديكارت
وأهميته في تأسيس فلسفتيهما

محمود حمدي زقزوق *

تمهيد :

توجد اشارات عامة قصيرة فى بعض المراجع التى تتحدث عن الغزالي تشير الى وجود شبه بين منهج الشك عند كل من الغزالى وديكارت . ولكن لم يحدث حتى الآن أن عقدت مقارنة اجمالية أو تفصيلية بين أفكار الفيلسوفين تبين مدى هذا الشبه واهميته . ونريد هنا أن نقوم بعقد مقارنة شاملة بين منهج الشك عند الغزالي وديكارت . وسيتضح للقارىء من خلال هذه الدراسة أن ما بين الغزالى وديكارت من وجه شبه لا يقتصر فقط على منهج الشك ، بل يتعداه الى نطاق أوسع وأعمق ، وهو أهمية هذا الشك المنهجى فى تأسيس فلسفتهيما . وهذا موضوع لم يلتفت اليه احد من الباحثين حتى الآن (١) .

وسيكون تركيزنا اساساً ــ فى هذه المقارنة ــ

* مدرس الفلسفة بجامعة الازهر . له كتابات فى الفلسفة الاسلامية اهمها كتاب « بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة الحديثة » .

(١) نود أن نشير الى ان اساس البحث الذى نقدمه اليوم الى القارىء قد تضمنه الباب الثانى من رسالة جامعية باللغة الألمانية قدمها كاتب هذا البحث الى جامعة ميونيخ بالمانيا الغربية عام ١٩٦٨ ، ونشرت هناك فى طبعة جامعية تحت عنوان :

Al-Ghazalis Grundlegung der Philosophie. Mit einer Erörterung seines philosophischen Grundansatzes im Vergleich mit Descartes.

على الناحية الفلسفية البحتـة ، بمعنى تفسير الاتفاق فى فكر الفيلسوفين من وجهة النظر الفلسفية الخالصة . ولن نتعرض هنا للناحية التاريخية ، اى بحث مسالة ما اذا كان هناك تاثير لأفكار الغزالى على ديكارت بطريق مباشر او غير مباشر ام لا (٢) .

ولكن قد يسال المرء : كيف يحق عقد مقارنة كهذه بين ديكارت ــ الذى يُعتبر ابا للفلسفة الحديثة ، والذى بدات الفلسفة به ومعه عصراً جديداً يختلف عن العصر الوسيط ــ والغزالى الذى يشاع عنه انه هدم الفلسفة فى العالم الاسلامى ؟ (٣) اليس هناك من البون الشاسع بينهما مثل ما بين الفكر فى العصر الوسيط والعصر الحديث ؟ او بتعبير آخر : اليس الغزالى وديكارت على طرفى نقيض ؟

ونظراً الى ما للاجابة عن هذه التساؤلات من اهمية قبل الدخول فى تفاصيل هذه الدراسة فاننا سنشير فيما يلي الى ما يُوجه الى الغزالي فى هذا الصدد من اتهامات ونقوم بالرد عليها اجمالاً :

ان هناك اتجاهاً شائعاً فى تاريخ الفلسفة لا يزال له انصار حتى اليوم يرى ان الغزالى لا يُعد فيلسوفاً ، وذلك لأنه قد هاجم الفلاسفة ــ وخاصة فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ــ هجوماً عنيفاً قاسياً ، كان من عواقبه ان الفلسفة فى الاسلام لم يعد يُسمع لها صوت منذ ذلك الحين .

واذا جاءت البحوث الحديثة لتكشف عن خطأ هذا الراى ، فاننا نجد ــ رغم ذلك ــ ان هذا الراى الخطأ يظهر مرة ثانية فى صورة اخرى . وذلك بادعاء انه صحيح ان الغزالى لم يلعن الفلسفة ، ولكن مع ذلك لا يمكن الحديث عن انه كان فيلسوفاً ، لأنه فقط اجاز الفلسفة (كما اجاز التصوف ايضاً) لكي ينتزعهما من معسكر المبتدعة ويضمهما للاسلام السنى (٤) .

وانصار هذه النظرية ــ التى تنسب للغزالى اتجاهاً غير فلسفى ــ يرون فى الغزالى ــ بوجه خاص ــ رجل الدين الاسلامى الكبير الذى كان همه الدفاع عن العقيدة الاسلامية (٥) . والخطأ الذى ينطوى عليه هذا الراى هو ان العقل والعقيدة لا يمكن ان يتلاقيا ، وهذا لا ينطبق اطلاقاً على تعاليم الغزالى ؛ أو هم يرون فى الغزالى متصوفاً ادار ظهره للعقل .

ولتأييد هذه النظرية قد يمكن اضافة الحقيقة التالية : وهى أن الغزالى لم يعتبر نفسه فيلسوفاً .

وللرد على ذلك نقول : ان هذه الاعتراضات الموجهة ضد فلسفة الغزالى تبدو مبنية على فهم خطأ للفلسفة كفلسفة . وهذه دعوى

---

(٢) يميل M. M. Sharif فى كتابه Muslim Thought الى القول بان « الالتقاء بين افكار ديكارت وافكار الغزالى لم يجىء عفوا ، وانما هو نتيجة طبيعية لتعرف الأول على افكار الثانى خلال الترجمات المتعددة وعن طريق الكتاب الغربيين الذين سبقوا ديكارت فى الاقتباس من الغزالى » . راجع ص ٩٩ وما بعدها من ترجمة د.احمد شلبى للكتاب المذكور تحت عنوان : الفكر الاسلامى . مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال : الاخلاق عند الغزالى للدكتور زكي مبارك (الطبعة الأولى) ص ٢٥٩ .

(٤) انظر فى ذلك مادة « فلسفة » التى كتبها R. Arnaldez فى :
The Encyclopaedia of Islam. Vol. 11 Leiden-London 1964

(٥) راجع على سبيل المثال :
A History of Muslim Philosophy, by M. M. Sharif, Wiesbaden 1963, Vol. I p. 556.

نذكرها هنا فى هذا التمهيد ، وتتكفل التفاصيل التى يتضمنها هذا المقال بالبرهنة عليها . وأما فيما يتعلق بمسألة فهم الغزالى نفسه لعمله فنود أن نشير الى أن من الممكن ان يكون هناك مفكر لا يدعى لنفسه صفة الفلسفة وهو فى الواقع يستطيع بحق ان يعتبر نفسه فيلسوفاً ، فى حين أن هناك كثيرين يزعمون أنهم فلاسفة وهم فى واقع الأمر غير جديرين بهذه التسمية (٦) .

ان مما لا شك فيه أن الغزالى كان شخصية دينية عظيمة ، ولكن لا يجوز — لهذا السبب — ان ينكر المرء أنه كان طيلة حياته باحثاً عن الحقيقة بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى ؛ وبالنظر الى ذلك يمكن مقارنته بالقديس اوغسطين (٧) الذى كان أيضاً شخصية دينية كبيرة وفى الوقت نفسه فيلسوفاً . أما فيما يتعلق بخطأ الرأى الذى يزعم أن الغزالى بكتابه « التهافت » قد أراد أن يقوض دعائم الفلسفة أو هو قد قوضها بالفعل فنقول رداً على ذلك : ان الغزالى نفسه قد أراد أن يفهم « التهافت » على أنه نقد وهدم للتعاليم المتناقضة للفلاسفة العرب الأرسطيين ، ولم يرد به التعبير عن انكار الفلسفة كفلسفة .

أما فيما يختص بالادعاء القائل : ان تأثير الغزالى — تاريخياً — قد وضع نهاية لفلسفة الاسلامية ، فنود ان نشير أولاً الى أنه — على بالفعل — لا يجوز وضع الفلسفة كفلسفة وضعاً فرض أن انحطاط الفلسفة الاسلامية قد وقع مساوياً لأفكار معينة اتيح لها الانتشار والقبول على الصعيدين التاريخي والاجتماعى ، فخصائص الفلسفة لا تتمثل فى شيء من ذلك وفضلاً عن هذا فانه يمكن أن يطرح سؤال عما اذا كان هذا الانحطاط له أسباب أخرى فعالة أدت اليه (٨) . وهذه مسألة ليس هنا الآن مجال حلها .

وبصرف النظر عن ذلك فانه لمن المشكوك فيه أن يكون هذا الانحطاط المزعوم للفلسفة الاسلامية — منذ القرن الثانى عشر — قد وقع بالفعل ؛ ان هناك من الباحثين من يرى أن هذا الادعاء ما هو الا مجرد اسطورة فى مجال العلم يجب ان تأخذ طريقها الى المتحف (٩) .

وعلى الجملة فان موقف الغزالى النقدى فى مسائل الفلسفة يجب أن ينظر اليه على أنه فى موضعه السليم ، ولا يجوز بأى حال من الأحوال الخلط بينه وبين انكار الفلسفة كفلسفة . وفوق ذلك كله نريد أن نشير الى ان الغزالى بجانب عمله كناقد كان أيضاً

---

(٦) انظر فى ذلك :

Reinhard Lauth : **Begriff, Begründung und Rechtfertigung der Philosophie.** München 1967, p. 15.

(٧) انظر الكتاب التالى الذى الفه H. Frick والذى عقد فيه مقارنة بين الغزالى فى كتابه « المنقذ » واوغسطين فى كتابه « الاعترافات » :

Ghazalis Selbstbiographie, ein Vergleich mit Augustins Konfessionen. Leipzig 1919.

(٨) راجع د. أبو العلا عفيفى فى مقدمته لكتاب مشكاة الأنوار للغزالى (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٣ ؛ وجولد تسيهر فى بحثه عن الفلسفة الاسلامية واليهودية المنشور فى :

Kultur der Gegenwart I, 5, p. 63, Berlin 1909.

وراجع أيضا :

A History of Muslim Philosophy, p. 622.

(٩) انظر فى ذلك ص ٢٣٣ وكذلك ص ١٧ ، ٢٣٠ من كتاب « فلسفة الاسلام » لماكس هورتن :

Max Horten : **Die Philosophie des Islam.** München, 1924.

صاحب عمل خلاق فى ميدان الفلسفة ، وكان مفكراً اصيلاً (١٠) .

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان الغزالى بمنهجه الفلسفى قد تقدم عصره بعدة قرون ولم يلحقه فى أفكاره الا ديكارت ابو الفلسفة الحديثة .

وفى القسم الأول من هذه الدراسة سنتحدث عن منهج الشك الذى اتخذاه طريقاً فلسفياً للبحث عن الحقيقة . وسيتضح فى هذا المقام بوجه خاص أن شكهما الفلسفى يجب ان يميز بعناية من كل « ارتيابية » ، كما سيتضح كذلك أن المسلمة الاولى لفلسفتهما هى الفكر المستقل ؛ وأن شكهما لا يجوز أن يفهم على انه نوع من الزندقة . وفى بداية الشك يعرض سؤالهما عن معرفة يقينية مطلقة ، وفى اثناء هذا الشك يتوصلان ــ بعد رفض كل علم أو معرفة حصلا عليها عن طريق التقليد ، وبعد الشك فى المعرفة الحسية ــ الى الشك فى كل معرفة عقلية والى الشك الميتافيزيقى المطلق الذى يجعل كل علم وكل امكانية للمعرفة على الاطلاق أمراً مشكوكاً فيه . **وفى القسم الثانى من هذه الدراسة نعرض لكيفية التغلب على هذا الشك الفلسفى عن طريق معرفة الحقيقة المطلقة** . وهنا نركز على مناقشة كيفية فهم ما عرضه الغزالى فى هذا الصدد ؛ ونقابل بين الشروح التى حدثت حتى الآن للحل الذى توصل اليه الغزالى وما توصلنا اليه من شرح فلسفى يضع فلسفة الغزالى لأول مرة فى ضوء جديد . ثم نعرض الحل الذى تغلب به ديكارت على الشك ، ونقارن بعد ذلك بين الحلين مبينين ــ فى نظرة عامة ــ الامور الأساسية المتفق عليها عند كل من الغزالى وديكارت وكذلك الاختلافات فى تأسيس فلسفتيهما .

اولاً ــ الشك الفلسفى :

١ ــ المنطلق التاريخي : عندما نقارن احوال العصرين اللذين عاش فيهما الغزالى وديكارت، فاننا نتبين الحقيقة التالية : لقد عاش كل منهما فى عصر كان يقدم من الناحية العقلية صورة غير مرضية ؛ ذلك لأن وحدة الفكر كانت قد انحلت الى مجموعة من الآراء المتناقضة التى تدعى كل منها لنفسها انها قد توصلت الى الحقيقة ، ولكن بدون أن تستطيع فى النهاية أن تبرهن على صحة هذا الادعاء . أما عن الفلسفة التى كان يجب ان تقدم المساعدة فى مثل هذه الأحوال فلم تكن لديها القدرة على ذلك ، لأن الفلاسفة لم يكونوا يملكون الاستقلال العقلى المطلوب بل كانوا مجرد مقلدين . **ولهذا وضع كل من الغزالى وديكارت امام عينيه مهمة تجديد الفكر ؛ وقد كان من الدوافع الهامة لذلك محاربة الالحاد الذى كان منتشراً فى عصريهما ، وتحطيم كل ما لدى الزنادقة والارتيابيين من اسلحة عقلية** .

وهكذا يمكننا أن نجد فى هذه الخطوط الرئيسية شبهاً بين كلا العصرين وان كانت هناك بعض فروق اساسية تجعل المهمة الفلسفية لكل منهما تتخذ طابعاً خاصاً يظهر بوضوح فى طريقة تفكيرهما .

فقد ازدحم عصر الغزالى بوجه خاص بمشكلات دينية ؛ وكانت هناك مدارس كثيرة وطوائف دينية متعددة تتمثل فى أربعة اتجاهات رئيسية هى اتجاهات المتكلمين والباطنية والفلاسفة والصوفية ، ومن بين هذه المدارس الاربع الرئيسية كانت هناك ثلاث من نوع دينى ، وهى مدارس المتكلمين والباطنية والصوفية ؛ وبالاضافة الى ذلك كانت هناك طوائف الفلاسفة . وكان موقف هذه الطوائف

---

(١٠) انظر فى ذلك ايضاً رينان فى كتابه عن ابن رشد ص ٩٦ :

E. Renan : Averroés, Paris 1852.

من امور العقيدة يتمثل فى ان هذه الامور اما ان تؤخذ مستقلة استقلالا تاماً عن العقل كما فى اتجاه الباطنية ، واما أن تكون — فى الظاهر فقط — مبنية على براهين مطابقة للعقل كما فى اتجاه المتكلمين ، فى حين ان تدين المتصوفة وكذلك أيضاً عقلانية الفلاسفة تحاول التحرر من تعاليم الدين . وقد كان الفكر عند كل هذه الطوائف بوجه عام قائماً على التقليد ، اى التسليم بنظرية الباطنية فى الامام المعصوم أو بتعاليم العقيدة السائدة ، أو بتعاليم الفلسفة اليونانية من جانب الفلاسفة .

وقد عرف الغزالى أن هذا الفكر القائم على التقليد يمثل المشكلة الكبرى لعصره ، ولهذا رأى من واجبه مكافحة كل أشكال التقليد . ولم يجد فى ذلك مساعدة من جانب الفلاسفة الذين اخذوا الفلسفة اليونانية — كما يقول الغزالى (١١) — بدون فحص ناقد ، وقلدوها ببساطة واقعين تحت تأثير أسماء لامعة مثل سقراط وابقراط وافلاطون وارسطو (١٢) ، واهملوا التقاليد الاسلامية . فاذا اعتقد الفلاسفة انهم بذلك يبرهنون على مبلغ تفوقهم العقلى على العامة التى تتلقى التعاليم الدينية عن طريق التقليد فان الغزالى يثبت لهم انهم بذلك يقعون فى ضلال اكبر مما يقع فيه العامة البسطاء . وذلك لأنهم — كما يقول متهكماً — قد بدلوا فقط تقليداً بتقليد « ... وغفلة منهج عن أن الانتقال الى تقليد عن تقليد خرق وخبال . فأية رتبة فى عالم الله اخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليداً ، بالتسارع الى قبول الباطل تصديقاً ، دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً » (١٣) .

اما عن عصر ديكارت فقد طبع بوجه خاص بالاكتشافات فى مجال العلوم الطبيعية وشروحها مما شكك فى الآراء والتصورات المسيحية بوجه عام (١٤) .

وفى حين أن مسعى الغزالى من بادىء الأمر كان ينحصر بوجه خاص فى الاجابة عن مسائل دينية ميتافيزيقية دفعه اليها العصر الذى عاش فيه ، فان اهتمام ديكارت — طبقاً للمشكلات العقلية لعصره — كان ابتداء من نوع علمى نظرى خالص ؛ انه يبحث عن علم عالى (١٥) يستطيع ايضاً فى النهاية أن يصل الى معارف دينية وقضايا عقيدية عن طريق الاستنباط deduction والحدس (١٦) intuition ...علم يريد أن يجد كل المعارف عن طريق العقل ، وتكون له

---

(١١) انظر تهافت الفلاسفة (بيروت ١٩٦٢) ص ٣٨ .

(١٢) يشير ديكارت الى مثل ذلك ايضا حين يقول عن افلاطون وارسطو : « ولقد أصاب هذان الرجلان من الالمعية والحكمة ... ما أضفى عليهما سلطانا كبيرا جعل من جاءوا بعدهما يقفون عند متابعة آرائهما اكثر مما يسعون الى شىء افضل » الترجمة العربية لمبادىء الفلسفة (القاهرة ١٩٦٠)ص ٥٤ — مؤلفات ديكارت :
Oeuvres de Descartes, publiées par Adam et Tannery. Paris 1897-1910. IX-2e, p. 6.

(ونحيل فيما يلى على هذه الطبعة الاخيرة تحت رمز : AT)

(١٣) التهافت ص ٣٨

(١٤) انظر فى ذلك :
Alquié, F. : **Descartes. L'homme et l'oeuvre.** Paris 1956, p. 17.

(١٥) AT X p. 360.

(١٦) المرجع السابق ص ٣٧٠ .

القدرة على الوصول الى حقيقة كل شيء (١٧). ولكن تفكير ديكارت صار فيما بعد أكثر عمقاً حيث توصل الى الفكر الميتافيزيقي . وهنا أيضا بقي تأسيس دعائم العلوم بالنسبة له مطلباً هاماً (١٨) استمر يؤثر في طريقة تفكيره بصورة حاسمة ؛ ثم توصل ديكارت ـ الذي كان يرى قبل ذلك ان العلم الذي يبحث عنه يجب عليه ايضاً أن يؤسس المعارف العقيدية عن طريق العقل ـ الى معرفة ان هذا العلم ـ على عكس ما كان يظن ـ يتأسس الآن في الله. يقول ديكارت : « واذن فقد وضح لي كل الوضوح أن يقين كل علم وحقيقته انما يعتمدان على معرفتنا للاله الحق » (١٩) .

وهكذا فانه اذا اختلفت ايضاً المشاكل التي كانت نقطة الانطلاق عند كل من الغزالي وديكارت في بحثهما عن الحقيقة ، فانهما يشتركان في الطريقة الفلسفية الحقيقية التي بوساطتها توصلا في النهاية الى حل . فالاجابة عن مسألة الحقيقة لا يمكن ان توجد الا على أساس تأمل فلسفي حقيقي .

واذا أكدنا هنا أن الغزالي قد عاش في عصر مختلف تماماً عن عصر ديكارت وفي ظل حضارة اخرى فاننا لا نريد بذلك ان نقول : ان الغزالي لهذا كان مجبراً في تفكيره ، ولكننا نريد أن نشير فقط بذلك الى انه لهذا قد تلقى مهمة اخرى . فالغزالي كان أبعد الناس عن أن يدع فكره يتحدد عن طريق عقلية عصره ، تلك العقلية التي اتخذها فقط نقطة انطلاق لتفلسفه ؛ ويستطيع المرء بحق ان يعتبر ان احد الأفكار الرئيسية لفلسفة الغزالي تتمثل في تأكيده المستمر لضرورة الاستقلال العقلي .

يقول الغزالي في كتابه « ميزان العمل » : « فجانب الالتفات الى المذاهب واطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن في صورة اعمى تقلد قائداً يرشدك الى طريق ، وحولك الف مثل قائدك ينادي عليك بانه أهلكك واضلك عن سواء السبيل . وستعلم في عاقبة امرك ظلم قائدك ، فلا خلاص الا في الاستقلال ... ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً » (٢٠) .

٢ ـ الشك الفلسفي والارتيابية : يرى الغزالي ان الشك في جميع المعارف التي يتلقاها الانسان عن طريق التقليد امر ضروري في اثناء التطور العقلي ، وذلك لأن الشك فقط هو الذي يجعل الوصول الى الحقيقة ممكناً . يقول الغزالي في ذلك : « اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال » (٢١) .

ويجب ان يكون واضحاً أن الشكوك التي يتحدث عنها الغزالي هنا تختلف عن الشك الارتيابي ، وذلك لأنها لا تنكر الحقيقة كما ينكرها الشك الارتيابي ، بل تحاول ان تجد أساساً للحقيقة ، انها شكوك تبحث عن الحقيقية المطلقة ، والاقرار بأن هناك حقيقة امر ضروري في تكوين العقل البشري على الاطلاق . ولذلك فان هذا الاعتراف بوجود الحقيقة لا يمكن انكاره الا في لحظة نسيان للذات ، أي في تفكير لا يسترشد بالعقل الخالص ، بل يصدر عن مقدمات خاطئه واحكام سابقة . فالشك الارتيابي الذي ينفي عموماً

(١٧) المرجع السابق ص ٣٧٤ .

(١٨) AT IX p. 13.

(١٩) الترجمة العربية « للتاملات » ص ٢٠٨ ؛ انظر : AT IX p. 56

(٢٠) ميزان العمل (القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٠٩ .

(٢١) المرجع السابق .

امكانية الحصول على معارف يقينية يفترض فى نفسه يقين هذا الادعاء ، ويناقض بذلك نفسه بنفسه ، أى أن موقفه ينبنى على هذا الذى ينكره . وهكذا كما ان كل عقل بما هو عقل يتعلق بالحقيقة فى كل أعماله — لأن كل دعوى تفترض وجود الحقيقة ولا تستطيع الا أن تفعل ذلك — فانه يحدث فى كل فلسفة حقة ذلك التوجه الواعى والواضح نحو الحقيقة المطلقة لذاتها .

والفيلسوف ليس هو ذلك الذى يبدأفقط بالتفلسف ، بل هو الذى يستمر فى مواصلة التفلسف حتى النهاية .

وفى بداية الطريق الفلسفى يوجد الشك الفلسفى ، اى الشك الذى يخدم كوسيلة للبحث عن الحقيقة ، وليس كالشك الارتيابى الذى لا يخرج عن دائرة نطاقة ، والذى ينكر ايضاً امكانية هذا الخروج ، وبهذا قد طرقنا الموضوع الذى شغل حياة الغزالى منذصباه ، وطبع تطوره العقلى بصورة حاسمة .

فالغزالى يحدثنا ان الشك قد بدا عنده منطلقاً من هذه الحقيقة وهى : انه توجد مجموعة كبيرة من التعاليم والنظريات فىعصره يدعى كل منها لنفسه الوصول الى الحقيقة ، وهذا أمر غير ممكن اطلاقاً ، لأنها تتناقض مع بعضها . فاما أن تكون كلها باطلة ، واما أن يكون أحدها فقط صحيحاً والباقى باطلاً .

ويشبه الغزالى هذه الكثرة الهائلة لهذه الآراء والنظريات التى واجهته ببحر عميق غرق فيه الأكثرون ، ولم ينج منه الا الأقلون (٢٣) . ويتساءل الغزالى : كيف تدعى هذه الطوائف الكثيرة لنفسها أنها نجت من هذا البحر العميق وتوصلت الى الحقيقة ؟

وفى حماس بالغ اتجه الغزالى لدراسة كل الاتجاهات الفكرية المختلفة فى عصره ، كمايقول هو عن نفسه : **« ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ أن راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجةهذا البحر العميق ،وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل »** (٢٢) .

وعند ديكارت نجد هذا التشبيه الذى استخدمه الغزالى . فهو أيضاً يتحدث — فى مناسبة الشك الفلسفى — عن ماء عميق ، ويقول : ان أكثر الباحثين قد لاقوا حتفهم فيه (٢٤) .

ان مشكلة الحقيقة اذا لم يمكن السيطرة عليها فان الارتيابية تنشأ بكل صورها ، هذه الارتيابية التى تستمد كل حججها من واقع الحقائق الكثيرة التى تبدو فى الظاهر مقنعة ، وهى فى الحقيقة مناقضة لبعضها . وكما أنكر السوفسطائيون — فى عصر سقراط — الحقيقة فى المجالين النظرى والعملى ، فقد كان هناك فى عصر ديكارت ارتيابيون — وبوجه خاص مونتانى Montaigne — ينكرون أية امكانية للوصول الى الحقيقة .

---

(٢٢) المنقذ من الضلال (دمشق ١٩٣٤) ص ٦٤ ومابعدها .

(٢٣) المنقذ ص ٦٥ وما بعدها .

(٢٤) AT X p. 512 ؛ انظر فى هذا الصدد ايضاً خطاب ديكارت الى بلزاك فى عام ١٦٣١ (راجع Alquié فى كتابه عن ديكارت ص ٧٢) وراجع ايضاً : AT IX p. 18 .

وكذلك كان هناك فى عصر الغزالى ممثلون للاتجاه الارتيابى . ومن بين هؤلاء نذكر بوجه خاص اثنين من المشهورين فى ذلك العصر هما : **أبو العلاء المعرى** الذى مات قبل مولد الغزالى بعام **وعمر الخيام** الذى كان معاصراً للغزالى . وكان الغزالى على علم بتناقض الارتيابيين الذى يتمثل فى انهم يعترفون بالمبادىء العقلية كوسيلة للاعتراض فى حين انهم فى الوقت نفسه ينكرون هذه المبادىء . يقول الغزالى : « ... والا فالسوفسطائى كيف يناظر ، ومناظرته فى نفسه اعتراف بطريق النظر ؟ » (٢٥) . كما يصور الغزالى حالة هؤلاء الذين « يحكمون على سائر النظريات بالبطلان لتطرق الخلاف فيها » (٢٦) بقوله : « هذا وامثاله سببه آفات تصيب العقل ، فيجرى مجرى الجنون ، ولكن لا يسمى جنوناً ، والجنون فنون (٢٧) .

٣ ـ الاستقلال العقلى : لقد كان الغزالى ابعد ما يكون عن أن يدع الشك يتغلب عليه ، لأن ارادة الحقيقة لديه قد قادت عقله الناقد : ومنحته القوة الضرورية والشجاعة ، للثبات فى وجه المخاطر والعقبات التى تعترض طريقه فى البحث عن الحقيقة والتغلب عليها . ويصف لنا الغزالى كيف كان مطلب الحقيقة مسيطراً عليه منذ صباه ، وكيف انه قد توصل فى وقت مبكر الى استقلال عقلى : « وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور دابى وديدنى من اول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا» (٢٨) .

فاذا حدثنا الغزالى هنا عن ان مطلب الحقيقة الذى سيطر عليه كان فطرة وضعها الله فى جبلته ، اتضح لنا كيف كان الغزالى نفسه يحس بقوة هذا الدافع نحو المعرفة ، وقد كان تحرره منذ صباه من قيود التقليد والعقائد الموروثة ذا اهمية بالغة بالنسبة لتطوره العقلى ، وبذلك حرر نفسه والى الأبد من كل روابط التقليد والتبعية العقلية والعبودية الفكرية ، وخطا خطوة لا يمكن له بعدها ان يلغى تاثيرها ، او يعود بها الى الوراء وذلك كما يقول : « ... اذ من شرط المقلد الا يعلم أنه مقلد . فاذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شعب لا يراب » (٢٩) .

ويكرر الغزالى فى مواضع كثيرة من كتبه تشبيه المقلد بالأعمى . فيقول مثلا : « ومن قلد اعمى ، فلا خير فى متابعة العميان . . » (٣٠) . ويقول فى موضع آخر : « فاعلم يا اخى انك متى كنت ذاهباً الى تعرف الحق بالرجال من غير أن تتكل على بصيرتك فقد ضل سعيك . فان العالم من الرجال انما هو كالشمس أو كالسراج يعطى الضوء . ثم انظر ببصرك ، فان كنت أعمى فما يغنى عنك السراج والشمس . فمن عول على التقليد هلك هلاكاً مطلقاً » (٣١) .

ويشبه ديكارت أيضاً الانسان الذى لا يتفلسف بانسان لا يستخدم عينيه عند المشى بل يغمض عينيه ويسترشد بشخص آخر (٣٢) ؛ كما يشير الى ان الفلسفة لا تجلب فقط السرور بالمعرفة ، بل هى ايضا ضرورية لهداية الانسان وارشاده فى الحياة .

---

(٢٥) ، (٢٦) ، (٢٧) معيار العلم (القاهرة ١٩٦١) ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

(٢٨) المنقذ ص ٦٧ وما بعدها .

(٢٩) المنقذ ص ٧٧ .

(٣٠) ميزان العمل ص ٢٢٨ .

(٣١) معراج السالكين ص ٢٩٨ وما بعدها (ضمن مجموعة : الرسائل الفرائد من تصانيف الامام الغزالى ـ مكتبة الجندى) ؛ انظر ميزان العمل ص ٣٣٩ ومعيار العلم ص ٣٢٨ .

(٣٢) انظر الترجمة العربية لمبادىء الفلسفة ص ٤٨/٤٩ ، وراجع : AT IX-2e p. 3

وكما راينا انأهم السمات التى تميز فلسفة الغزالى وتطوره العقلى تتمثل فى التحرر من كل تبعية عقلية ، فكذلك نجد الشيء نفسه عند ديكارت اذ يحدثنا عن توصلـه فى وقت مبكر الى رفض كل علم ومعرفة حصل عليهما عن طريق التبعية العقبية : « فاننى تعلمت الا اعتقد اعتقادا جازماً فى شيء ما بحكم التقليد او العادة ، وكذلك تخصلت شيئاً فشيئاً من كثير من الأوهام التى تستطيع ان تخمد فينا النـور الفطـرى وتنقص من قـدرتنا علـى التعقل » (٣٣) .

وكذلك تحرك مطلب الحقيقة فى نفسه فى وقت مبكر مثل الغزالى . يقول ديكارت فى ذلك : « وكانت رغبتي شديدة دائماً فى ان انعلم كيف اميز الحق من الباطل كى اكون على بصيرة فى أعمالى ولكى اسير على هدى فى حياتي » (٣٤) .

وطبقاً لذلك دعا ديكارت الـى « بحث الحقيقة عن طريق النور الفطرى (٣٥)بدون عون من جانب الدين او الفلسفة (التقليدية) » ، وكان دائماً يشير الى اهمية وضرورة تحرير المرء لنفسه من الميل الى التبعية العقية (٣٦) . **وهكذا نستطيع أن نقول : ان الاستقلال العقلى كان المسلمة الاولى لفلسفته ، تماماً كما كان ذلك بالنسبة للغزالى .**

٤ ــ العقيدة والشك الفلسفي : هنـــاك سؤال فى حاجة خاصة الى بحث وهو : الى اى مدى أثبت كل من الفيلسوفين أيضـــاً استقلالاً فيما يتعلق بامور العقيدة ؟

اما فيما يختص بالغزالى فقد سـبق أن أشرنا (٣٧) الى أن نفسـه قد امتـلأت بمطلب الحقيقة الخالصة نظراً لما وجده أمامه مـــن التعاليم الكثيرة المتناقضة للطوائف المختلفة فى عصره ، فنفض عن نفسه منذ الصبا كل تبعية عقلية ، وفى الوقت نفسه رفض أيضاً العقائد الموروثة . وقد ازدادت شكوكه عمقاً نظراً للحقيقة الواقعة من وجود أديان مختلفة ، وما هو متبع فى طريقة اعتناقها ؛ فقد رأى ان العقيدة تبدو وكأنها أمر تلقين تعاليم معينة للنشء فى فترة تربيته : « اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشـــوء لهم الا علـــى الاسلام » (٣٨) .

وهنا يجبان يسأل المرء نفسه : هل العقيدة شيء آخر غير التقليد والتلقين ؟ ان المرء غالباً ما يستنتج ــ فى مثل هذه الأحوال ــ عــــدم وجود شيء ما من مجرد احتمال الشك فى هذا الشيء ، وهذا خطأ منطقى ، يحـــدث فقط عندما لا يأخذ التفكير مداه الكافى ، وانما ينقطع متسرعاً دون أن يصل الى النهاية . ولكن هذا الاستنتاج الخاطىء لم يكن ليجد قبولاً عند الغزالى صاحب العقلية الناقدة . ومن ناحية اخرى لم يكن الغزالى أيضاً ليرضى لنفسه ان ينهزم أمام مشكلة صعبة كهذه التى

---

(٣٣) الترجمة العربية للمقال عن المنهج ص ١١٩ .انظر : AT VI p. 10

(٣٤) المرجع السابق .

(٣٥) « بحث الحقيقة عن طريق النور الفطرى » هوعنوان مؤلف صغير لديكارت ، يعتقد انه قد الفه بعد التاملات ومبادىء الفلسفة ، ولم يكمل ديكارت هذا المؤلف .ونشر لاول مرة كما هو فى عام ١٧٠١ مع كتاب (قواعد لهداية العقل) الذى لم ينشر أيضاً فى حياة ديكارت .

(٣٦) انظر فى ذلك على سبيل المثال : AT IX p. 13; V11, P. 361; X p. 516, 522f

(٣٧) انظر ما عرضناه فى الشك الفلسفي والارتيابيةوفى الاستقلال العقلي .

(٣٨) المنقذ ص ٦٨ .

يواجهها الآن ؛ وقد سبق أن أشرنا كيف انطلق الغزالى بحماس بالغ لدراسة المذاهب والطوائف التى كانت قائمة فى عصره ؛ وبعبارة اخرى **فان الموقف اللاأدرى لم يكن يتفق وعقلية الغزالى**. واذا كان هذا الموقف اللادرى يمثل الموقف الذى يتخذ عادة فى مسائل العقيدة على وجه الخصوص ، فان الحقيقة لم تكن ابداً بالنسبة للغزالى امراً تقرره غالبية الأصوات . كما لم تكن اطلاقاً امراً خاضعاً للرأى المتقلب ، ولهذا لم يبحث عنها الغزالى أيضاً بالطريقة التى يتخذ بها المرء لنفسه رأياً قابلاً للتغيير . ان هناك نداء منبعثاً من اعماقه يدفعه الى طلب الحقيقة الخالصة . وهكذا يقول الغزالى : « فتحرك باطنى الى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات » (٣٩) .

وفى هذه اللحظة من تأمله كان لا يزال يعتقد انه قد تخلص تماماً من كل الأحكام السابقة ومن كل الفروض غير الممحصة برجوعه عن كل التعاليم التى حصل عليها بوساطة الطرق التقليدية القائمة على التبعية العقلية ؛ ولكن اتضح له فيما بعد ـ كما سنبين ذلك بالفصيل ـ انه كلما ازداد تفكيره عمقاً كلما ازدادت دائرة شكوكه اتساعاً لتمتد الى كل المجالات التى تفصل بينه وبين « حقيقة الفطرة الأصلية » التى يسعى اليها .

والآن نريد الاجابة عن السؤال التالى :
ماذا كان موقف الغزالى ازاء العقيدة ؟

لقد وضع الغزالى العقيدة موضع التساؤل نظراً لاعتبارات خارجية تتمثل فى وجود أديان مختلفة ، وعقائد متعددة ، ولكنه لم ينفض يديه لذلك منها ، ولم ينفها صراحة ، اى انه لم يصبح بالمعنى الحقيقى زنديقاً . فقد حماه من ذلك دائماً هذا الدافع القوى للبحث عن الحقيقة . وقد توصل الغزالى فيما بعد الى تقبل تعاليم العقيدة عن اقتناع كامل ، ولكن هذا الاقتناع لم يكن مستنداً الى ادلة معينة ، وانما كان نتيجة لتجارب واسباب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها كما يقول : « وكان قد حصل معى ـ من العلوم التى مارستها والمسالك التى سلكتها ، فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ـ ايمان يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر . فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت فى نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها » (٤٠) .

فالشك بالنسبة للغزالى كانت له نفس الاهمية الفلسفية التى كانت له عند ديكارت .
وقد وصفه ديكارت بانه « وسيلة لحصول على معرفة الحقيقة معرفة اوضح » (٤١) .

ولكى نبين أن شك ديكارت لم يكن فى الواقع شك زندقة ، وانما كان طريقاً فلسفياً اختاره وسلكه وعلمه ، فان ذلك يمكن ان يؤدى بنا الى الاجابة عن المسالة المتنازع فيها بالنسبة لعقيدته من واقع ما يعرضه ديكارت نفسه . ان ما يهمه ـ كما يقول ـ هو معرفة الحقيقة معرفة أوضح ، أى الحصول على الحقيقة التى يدركها العقل بيقين قطعي مطلق . ومن هنا نستطيع ان نفهم ماذا يعنى عندما يؤكد باستمرار ان الشك يجب ان يضيق نطاقه على مجال بحث الحقيقة ، اى عدم مد الشك الى الحياة اليومية حيث يجب على المرء ـ فى

---

(٣٩) المنقذ ص ٦٨ .

(٤٠) المنقذ ص ١٢٥ .

(٤١) من خطاب ديكارت الى بويتنديك Buitendijck (عام ١٦٤٣) : AT IV p. 63

أغلب الأحيان — ان يـــرضى بالامـــور الاحتمالية (٤٢) . وكان ديكارت يسير على هذه القاعدة (٤٣) ، وذلك لأنه كان قبل ذلك ولا زال مقتنعاً بصحة العقيدة (وايضاً بصحة القواعد الخلقية) ، ولكنه فقط لم يكن يملك بعد معرفة حقيقة العقيدة وحقيقة القواعد الخلقية بالوضوح المطلوب . ان ما يهمه هو أن يصل عن طريق نور العقل الفطرى — أى عن طريق فلسفى خالص — الى معرفة الحقيقة طالما كانت هذه المعرفة ميسرة للعقل .

فاذا حاول الغزالى الحصول على معرفة حقة بالرجوع الى « حقيقة الفطرة الأصلية » فان مسعاه فى ذلكلا يختنف عن مسعىديكارت فى رجوعه الى « قوة العقل الفطرية » . وهذه القوة الفطرية يمكن أن يُساء استخدامهـــا وتوجه توجيهاً غير سليم يبلغ بها الى مرتبة العجز ، وذلك يكون فى العادة نتيجة للتربية الخاطئة وللعادات الخاطئة ايضاً ؛ وبوجه عام يكون نتيجة للتبعية فى الاعتقاد والفكـــر ، وخصوصاً فى مرحلة الطفولة ، تلك التبعية التى تسيطر فوق ذلك على غالبية الناس طول حياتهم . وفى هذه الحالة الأخيرة يظل الانسان مصراً فى النهاية على الجهل . والذى يرضى بذلك يتنازل عن انســـانيته كما يقـــول الغزالى (٤٤) .

٥ — شروط التفلسف : ان الفلسفة بالمعنى الذى نتحدث عنه هنا — وهو البحث عـــن الحقيقة بالمعنى الشـــامل للناحيتين النظـرية والعملية — تتطلب وجوب قيام المرء بنوع من الزهد العقلى — وذلك يتمثل فى ان يوجه المرء عنايتهالى تحرير عقله من كل الأحكام السابقة، اى من الأحكام القائمة على اسس غير كافية ؛ وهى أحكام قد حصل عليها المرء — كما يقول ديكارت — « من الحـــواس او بوساطـــــة الحواس » (٤٥) (وهى الامور التى تعلمها من والديه ومعلميه .. الخ ، بوساطة حاســـة السمع) (٤٦) .

ويؤكد الغزالى أيضاً باستمرار أن تعاليمه لا يستطيع أن يفهمها الا من تحرر من كل تبعية وتقليد (٤٧) . وديكارت يعنى الشيء نفسه حين يقول : « ... انى لا أنصح بقراءتـــه (يقصد كتاب التأملات) بتاتاً لأحد من الناس الا لمن يريدون ان يتأملوا معى تأملاً جدياً ، ويستطيعون ان يجردوا نفوسهم من مخالطة الحواس ، وأن يخلصوها تخليصاً تاماً مـــن جميع ضروب الظنون والأحكام السابقـــة ، وأنا أعلم علم اليقين أن هؤلاء نفر قليل جداً » (٤٨) .

ويذكر الغزالى ثلاثة أسباب رئيسية للفكر الخاطىء تتمثل فى أن يدع المرء نفسه تسيطر عليه الحواس ، أو أن يخضع للمظنونات ، او أن يكون اهتمامه منصرفاً فقط الى فرض رايه فى الجدال « ... وحقيقة الامور وراء الحواس والظنون ، ولكن الغالب على بعض الناس لذة المحسوسات ، وعلى بعضهم قوة

---

(٤٢) AT IX-2e p. 26

(٤٣) AT VI p. 28

(٤٤) المعارف العقلية (دمشق ١٩٦٣) ص ٩٦ .

(٤٥) انظر الترجمة العربية للتأملات ص ٧٠ . AT IX p. 14

(٤٦) AT V p. 146

(٤٧) انظر مثلاً القسطاس المستقيم ص ٧٩ (ضمنمجموعة القصور العوالى من رسائل الامام الغزالى — مكتبة الجندى) حيث يقول : ان من نبض عليه عرق من عروقالتقليد لا يصلح لصحبته .

(٤٨) الترجمة العربية للتأملات ص ٤٨/٤٩ AT VII p. 9 انظر ايضا : AT IX p. 125 f .

المظنونات ، وعلى بعضهم أغراض الجدل ، فأعرضوا عن بيان العقل وتصاموا عن استماع الكلام بالعقل » (٤٩) .

ويجب على من يريد أن يصل الى علم حقيقى أن يطهر نفسه من كل الصفات الخبيثة كما يقول الغزالى (٥٠) .

وقد توصل الغزالى عن طريق خبراته طوال حياته التى منحها للعلم والبحث عن الحقيقة ـ الى الاقتناع بأن الجهل يمثل فى الغالب ـ كما يقول ـ مرضاً مستعصياً ، وانه يوجد قسم كبير من بين هؤلاء المشتغلين بالعلوم قد منى بهذا المرض ، ولهذا فان الأفضل للمرء الا يدخل مع أمثالهم فى نقاش (٥١) .

ويرى الغزالى أن الأفكار الفلسفية لا يستطيع ادراكها الا « الذين لهم قوة القريحة وصفاء الذهن وزكاء النفس ونقاء الحدس » (٥٢) .

وكان ديكارت أيضاً يرى ان التفلسف يتطلب شروطاً عقلية وخلقية . ولهذا يشير الى انه قد كتب « تأملاته » فقط « لعقول قوية ثابتة solidioribus ingeniis » كما يتحدث أيضاً فى **« مقال عن المنهج »** عن أن طريقه الفلسفى لا يجوز ولا يمكن ان يسلكه كل الناس ؛ ويشير ديكارت الى طبقتين من العقول ليست لهما القدرة على ذلك : « هذان الصنفان هما : أولاً : الذين لاعتقادهم فى انفسهم من الحذق فوق ما لهم لا يستطيعون أن يمنعوا انفسهم من التهور فى احكامهم ، ولا يملكون من الصبر ما يستطيعون به سياسة افكارهم كلها بنظام ، ومن ثم فاهم اذا اتخذوا حرية الشك فى المبادىء التى تلقوها ، والابتعاد عن الطريق العام ، فانهم لن يقدروا على ملازمة الصراط الذى يجب سلوكه للسير الأقوم وسيظلون فى ضلال كل حياتهم . ثم آخرون اوتوا حظاً من العقل او من التواضع ، كى يحكموا بانهم اقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من اناس يصلحون ان يكونوا لهم معلمين، فهم اولى بأن يقنعوا باتباع آراء هؤلاء من أن يبحثوا بانفسهم عما هو احسن » (٥٣) .

وبجانب هذه الشروط العقلية والخلقية هناك شرط آخر للفكر المتفلسف ، وهو وجوب استعداد المرء مبدئياً لتحرير نفسه من كل الأحكام السابقة ، وان يكون مستعداً ايضاً لأن يتبع فى احكامه العقل وحده ، لأن العقل فقط هو القادر على معرفة الحقيقة ، كما يقول الغزالى : « فأما العقل اذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط ، بل راى الأشياء على ما هى عليه ، وفى تجريده عسر عظيم . وانما يكمل تجرده عن هذه النوازع بعد الموت » (٥٤) .

فالصعوبات التى تقف فى طريق النظر الخالص للعقل كبيرة جداً ـ كما يرى الغزالى ـ لدرجة ان هذا النظر الخالص لا يمكن ان يبلغ كماله الا بعد الموت .

---

(٤٩) المعارف العقلية ص ٩٨ .

(٥٠) ميزان العمل ص ٣٤١ وما بعدها ، واحياء علوم الدين (القاهرة ١٩٣٩) ٥٥/١ .

(٥١) انظر رسالة ايها الولد ص ١٣٨/١٣٧ (ضمن مجموعة القصور العوالى ...) .

(٥٢) معارج القدس (القاهرة ١٩٢٧) ص ٢١٠ .

(٥٣) مقال عن المنهج (الترجمة العربية) ص ١٢٥ ؛ AT VI p. 15

(٥٤) مشكاة الانوار ص ٤٧ .

٦ ــ الشك المنهجي :

(أ) الاعتراف بوجود الحقيقة : لقد التقى رأى كل من الغزالي وديكارت على أن في الامكان من حيث المبدأ الوصول الى مثل هذا التحرر ــ المشار اليه ــ من كل الأحكام السابقة ومن الخيالات ، والوصول الى معرفة يقينية ــ على الأقل في مجالات معينة ــ منبثقة من العقل وحده . وذلك كله عن طريق فلسفي خالص وبطريقة منهجية ؛ وكوسيلة لهذه المعرفة توصل كل منهما الى منهج فلسفي يتفقان في اسسه ، وان كانا يختلفان الى حد ما في عرضه . هذه الوسيلة هي الشك المنهجي والتحليل الفلسفي (٥٥).

لقد رأينا أن الشك الفلسفي عندهما قد أعلن عن نفسه في زمن شبابهما المبكر ، كما رأينا أنه قد دفعهما الى السعي الى استقلال عقلي ، وأن ميلهما هذا قد ازداد نتيجة للحالة العقلية غير المرضية لعصريهما بما تشتمل عليه من آراء وتعاليم متناقضة قوت لديهما الشك في حقيقة المناهج الموروثة ، ولهذا اتجها ــ معتمدين فقط على وعيهما بأنه يجب أن تكون هناك حقيقة واحدة مطلقة ــ الى مهمة البحث عن طريق المعرفة الحقة ، وبدءا عملية التفرقة بين الحق والباطل والصواب والخطأ في هذه الاتجاهات والمذاهب القائمة . وبهذا توفر لديهما الشرط الفاصل للتفلسف ، وهو أن يعترف المرء بأن هناك حقيقة واحدة على الاطلاق ، وأن يبدأ حقيقة في البحث عنها ــ بدون أن تضلله صعوبات هذه المهمة ــ مع الاقتناع الثابت بانه يستطيع ان يجدها ؛ كما يعبر فيشته Fichte عن ذلك بقوله : « ... أن يعترف المرء بكل جدية : انه توجد هناك حقيقة هي وحدها الصواب والحق ، وكل ما عداها فهو باطل اطلاقاً ؛ وهذه الحقيقة يمكن العثور عليها فعلاً ، وتتضح بنفسها مباشرة على أنها حق على الاطلاق » (٥٦).

وهذا الشرط يتضمن عدا ذلك الاعتراف بأن الحقيقة لا يتوصل اليها فقط عن طريق الوحي كما ذهب الى ذلك بسكال Pascal مثلاً (٥٧) ، بل يتوصل اليها أيضا عن طريق فلسفي خالص .

والخطوة التالية في طريق البحث عن الحقيقة هي المسألة التالية : ما الذى يمكن أن يخدم كمقياس عند الفحص الذى يريد أن يميز بين الحق والباطل في المناهج القائمة . ان المقياس الحقيقي لا يمكن ان يكون الا الحقيقة نفسها ، وذلك لأنها لا يمكن أن تعرف الا عن طريق نفسها ، والا لم تكن هي الحقيقة . ومن هذا يتضح أن الباحث عن الحقيقة يجب أن يكون لديه هذا الذى يبحث عنه . « ان الفلسفة يجب أن يكون لديها الموضوع الذى تريد أن تراه في نور واضح » كما يقول فيشته (٥٨).

ان الحقيقة التى يتجه اليها المرء دائماً في كل مكان وفي كل دعوى ، والتى هي دائماً حاضرة ، هي في الوقت نفسه أبعد واصعب موضوع للمعرفة اذا اراد المرء أن يدركها (٥٩) . وان الحقيقة التى يملكها المرء

---

(٥٥) انظر في ذلك : AT X p. 373, 576

(٥٦) J. G. Fichte, **Ausgewählte Werke in 6 Bänden.** (Darmstadt 1962) Vol. VI p. 168.

(٥٧) cf. R. Lauth, **Die Frage nach dem Sinn des Daseins,** München 1953, p. 224.

(٥٨) Fichte, op. cit. VI p. 115.

(٥٩) انظر أيضا الشذرات المأثورة عن هيراكليت ١ ، ٢ ، ٧٢ في :
H. Diels : **Die Fragmente der Vorsokratiker,** Hamburg 1964, p. 23, 28.

عادة فى حياته العملية ، والتى لم يحصل عليها عن طريق التفلسف ، هى فقط حقيقة ناقصة غير كاملة (بصرف النظر عن الايمان الكامل الذى يتضمن امتلاك الحقيقة الكاملة). وهذه الحقيقة التى يحصل عليها المرء فى حياته العملية ليست ملكاً حقيقياً ، وذلك لأنها لم تدرك بوضوح ويقين . انها تقع الى حد ما فى ضوء باهت مختلطة بخيالات وضلالات واوهام.

ولكن ليس معنى ذلك انها اخذت بدون تفكير ، فكل موجود عاقل يفكر . ولكن الطريقة التى يمارس بها المرء هذا التفكير فى حياته العملية ، وبوجه خاص الحد الذى يصل اليه هذا التفكير ، شيء مختلف عما هو الحال فى الفلسفة . فالفيلسوف لا يكتفى بدرجة التفكير التى يمارسها المرء فى حياته العملية ، ولكنه يفحص نتائج الفكر العادى فى محاولة للبلوغ الى وضوح تام ؛ فى حين أن الحقيقة فى التفكير العادى تكون أمراً تقريبياً معتقداً ، ولذلك تكون قابلة للشك .

ان مسألة الحقيقة لا يمكن أن تحل بصورة كافية عن طريق « الاستقراء Induktion » وذلك لأن العلم الذى يحصل المرء عليه عن هذا الطريق لا يستطيع أن يدعى لنفسه غير الاحتمال لا القطع . وكذلك لا يمكن أن تحل مسألة الحقيقة بمساعدة منهج « الاستنباط Deduktion » وذلك لأن العلم الذى يجب أن يستنبط منه المرء هنا هو الحقيقة نفسها التى يبحث المرء عنها . وهكذا فالتأسيس النهائى للحقيقة لا يمكن أن يحدث الا عن طريق « ارجاع Reduktion » كل شيء الى مبدأ أول يؤسس كل شيء .

(ب) ماهية العلم : لقد قادت مسألة العلم بحقائق الأشياء كلاً من الغزالى وديكارت الى السؤال عن ماهية العلم وتبريره وشرعيته ، وقادتهما فى النهاية الى المبدأ الأعلى . وهكذا يقول الغزالى : « انما مطلوبى العلم بحقائق الامور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى » (٦٠) . وبذلك أعطى فى جملة قصيرة تخطيطاً لسير فلسفته .

وقد قال ديكارت فى « القواعد » ـ اى قبل تأسيسه للميتافيزيقا فى « التأملات » ـ ان الأداة الحقيقية لكل علم وكذلك المنهج يتمثلان فى بحث ما يأتى : ما هى المعرفة وما هو المدى الذى تمتد اليه ؟ (٦١) . ويعتبر ديكارت منهجه وسيلة لزيادة علمه شيئاً فشيئاً باستمرار ، ووسيلة للوصول الى المعرفة الحقة لكل ما يقدر المرء على معرفته (٦٢).

وعندما بحث الغزالى وديكارت مسألة ماهية العلم اتفقت اجابتهما عن هذه المسألة . وهذه الاجابة تتمثل فى أن العلم الحقيقى يجب ان يقطع الطريق على الاطلاق امام كل شك . يقول الغزالى فى ذلك : « العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم » (٦٣).

وبناء على ذلك فان العلم اليقينى يمتاز بيقين لا يستبقى فقط اى شك ، بل فوق ذلك يقصى تماماً كل امكانية للخطأ او الضلال.

ويتحدث الغزالى فى كتابه « محك النظر » عن العلم اليقينى ، ويوضح اليقين بقوله : « اما اليقين فلا تعرفه الا بما اقوله وهو ان النفس اذا أذعنت للتصديق بقضية من القضايا

---

(٦٠) المنقذ ص ٦٨ وما بعدها .

(٦١) انظر : AT X p. 398

(٦٢) المرجع السابق ص ٣٧١ وما بعدها .

(٦٣) المنقذ ص ٦٩ .

وسكنت فلها ثلاثة احوال احدها : ان تتيقن وتقطع به ، وينضاف اليه قطع ثان ، وهو ان يقطع (المرء) بان قطعه به صحيح ، ويتيقن بان يقينه لا يمكن أن يكون فيه سهو ولا غلط ولا التباس ، ولا يجوز الغلط لا فى تيقنه بالقضية ولا فى تيقنه الثانى بصحة يقينه ، ويكون فيه آمناً مطمئناً قاطعاً بانه لا يتصور أن يتغير فيه رأيه ، ولا أن يطلع على دليل غاب عنه فيغير اعتقاده ... ومثال هذا العلم قولنا ان الثلاثة اقل من الستة ، وان شخصاً واحداً لا يكون فى مكانين ، وأن شخصين لا يجتمعان فى موضع ونظائر ذلك » (٦٤) .

ومطابقاً لهذا يرى ديكارت ان اليقين المطلق لا ينفك عن ماهية العلم الحقيقى . ولهذا فان ديكارت يرى انه يجب على المرء فى اثناء البحث عن الحقيقة أن يرفض كل علم لا يكون واضحا وضوحا مطلقا . يقول ديكارت فى ذلك : « ... ولكن ما دام العقل يقنعنى من قبل بانه لا ينبغى أن أكون أقل حرصاً على الامتناع عن تصديق الأشياء التى لم تبلغ مرتبة اليقين التام ، منى على الامتناع عن تصديق الأشياء التى تلوح لى بينة الفساد ، فيكفينى لرفضها جميعاً أن يتيسر لى أن اجد فى كل واحد منها سبباً للشك » (٦٥) .

وهذا لا يعنى أن كل علم يمكن أن يشك فيه يجب أن يعتبر من بادىء الأمر خطأ ، بل يعتبر فى هذه اللحظة من التأمل الفلسفى غير مؤسس تأسيساً كافياً .

وبعد أن توصل كل من الغزالى وديكارت الى معيار للعلم اليقينى بدءا فى فحص كل الآراء التى لديهما ، لكى يريا ما اذا كان بين هذه الآراء معارف حقيقية لا يمكن أن يشك فيها بأى حال من الأحوال ، اى معارف تمتاز بالعلامة المطلوبة لليقين المطلق . وهكذا يجب أن يترك جانباً كل ما هو مشكوك فيه مثل ما يفعل المهندس المعمارى ـ كما يقول ديكارت (٦٦) ـ اذ يزيل كل الرمال جانباً حتى يصطدم بأرض صلبة يستطيع ان يشيد فوقها أبنية راسخة .

(ج) حركة الشك : اذا ما تتبعنا اهمية الشك فى مؤلفات الغزالى فاننا نستطيع ان نتبين أنه قد دعا منذ البداية ـ كما سبق أن رأينا ـ الى الاستقلال العقلي ، وهذا يعني الشك فى كل الآراء التقليدية والموروثة ، مسايراً بذلك طبيعته العقلية الخاصة وتطوره الشخصى . ولكنه قد أعطى هذه الدعوة فى بادىء الأمر فى صورة اشارات وتنبيهات ، حيث لم يكن قد عرض بعد ممارسة الشك منهجياً . وهكذا يتحدث على سبيل المثال فى « الاقتصاد فى الاعتقاد » عن ضرورة فحص الحقيقة فحصاً مجرداً غير مسبوق بأحكام معينة . وذلك عند حديثه عن التقليد المزدوج من جانب من يسمون بالعلماء الذين لم يفارقوا العوام فى أصل التقليد بل اضافوا الى تقليد المذهب تقليد الدليل . ثم يقول : « ... وانما الحق ... هو الا يعتقد (المرء) شيئاً أصلاً ، وينظر الى الدليل ويسمى مقتضاه حقاً ، ونقيضه باطلاً » (٦٧) . أما العرض المنهجى

---

(٦٤) محك النظر ص ٥٥ ، انظر ايضاً المستصفى ص٤٣ وما بعدها .

(٦٥) الترجمة العربية للتاملات ص ٧٠ ؛ AT IX p. 14

(٦٦) انظر : AT VII p. 536 f

(٦٧) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٨٨ ؛ انظر ايضاً ميزان العمل ص ٤٠٩ .

الشك كما عاشه الغزالى بنفسه بكل نتائجه الى ان امكنه التغلب عليه بعد صراع عنيف ، اى تعاليمه فى الشك المنهجي ، فقد عرضها بعد زمن غير قصير من تجـــربته ، وذلك فى كتابه « المنقذ من الضلال » .

واما العرض الديكارتى لحـركة الشــك فنراه فى « التأملات » . وذلك لأن الشك الذى تحدث عنه ديكارت باختصار فى كتابه « المقال » يمكن ان يُعتبر الى حد ما مجرد اخبار اولى عن الشك ، وذلك قياساً على ملاحظة ديكارت نفسه على هذا الكتاب كله (٦٨) . ولم يعــد الحديث فى « التأملات » ببساطة عن الشك كما كان الحال فى « المقال » ، بل دعا ديكارت فى « التأملات » الى الشك ، وعرض لضرورة ممارســـته فى استقلال . وما رأيناه فى « المقال » عن الشك فى صورة خبر شخصى نراه فى « التأملات » يرتفع الى عرض نموذجي عام . فالشك هنــا يصبح ميتافيزيقياً ، ويحتاج الى زمن معين لممارسته ؛ ولهذا يقول ديكارت فى ردوده على « الاعتراضات » ان الشك يجب ان ينفذ من جانب القارىء فى استقلال (٦٩) .

وذلك لأن الشك الفلسفى الذى يمارسه المرء بنفسه هو فقط الذى يمكن ان يقود الى يقين حقيقي ، اى الى يقين ميتافيزيقي يتحدث من اعماق الشخص نفسه حيث لا يستطيـع مجرد الارتياب العشوائى أو مجرد الفحص العقلي ان يصــل اليها . ولهــذا اكــد كــلا الفيلسوفين الأهمية الحاسمة لليقين الذى لا يكون فقط يقيناً موضوعياً ، بل يكون أيضا فى الوقت نفسه يقينا ذاتيا ، اى يقينا يستولى على الشخص . ومن اجل ذلك دعا الغزالـى وديكارت الى اتخاذ المنهج الفلسفى الذى يتمثل فى الشك المنهجى والتحليل الفلسفي .

والمواقف التفصيلية لحركة الشك الديكارتية ـ كما عرضت فى « التأملات » ـ نجدها جميعها عند الغزالى مع اختلاف يسير ؛ واذا جاز لنا أن نرمز لشخص الانسان بدائرة فاننا يمكن أن نقول : ان حركة الشك تبدأ الى حد ما عند محيط الدائرة ، عند شهادة الحس لكي تندفع بعد ذلك فى النهاية الى مركز الشخص حيث يجد كل يقين لدى الانسان جذوره .

ويشترك الفيلسوفان ـ كما سبق ان بينا ـ فى ذات البداية المتمثلة فى ارادتهما المطلقة لمعرفة الحقيقة . وفى ثبات وعزم يسيران فى الطريق الذى يقودهما الى الشك المطلق حتى يصلا فى النهاية الى نقطة التغلب النهائى على هــذا الشـــك .

والبناء الاساسي لحركة الشك عند الغزالى وديكارت واحد ؛ فنحن نتبين عند كل منهمـا مراتب مختلفة للشك وهى : الشك فى المعارف الحسية ثم الشك فى المعارف العقلية الاولية ثم فى النهاية الشك فى الواقع كله على الاطلاق ، وما يتعلق بذلك من حجة المنام ، وتصــور شيطان مخادع او اله مضل . انه الشك المطلق فى كل شىء وفى معرفة كل شىء ، وفوق ذلك فى وجود كل شىء . انه الشك الذى لا يبقى فى اثناء الشك الا على الشاك نفسه فقط .

والصورة التى عرض بها كل من الغزالـى وديكارت الشك المنهجى ليست بالتأكيد من قبيل المصادفة ، بل انها لتسمح باستخلاص نتائج معينة . فقد عرضا شكهما فى صـورة اخبار عن تجربة شخصية ، وهذا يصور رأيهما فى الفلسفة على انها قبل كل شىء تفلسف ،

(٦٨) انظر خطاب ديكارت الى صديقه مرسين فى مارس ١٦٣٧ : At I p. 349

(٦٩) انظر فى ذلك : AT IX p. 103 f

وانها ممارسة عملية شخصية ، وانها لا تتمثل فى مجرد الحصول بطريقة نظرية على قضايا وبراهين (٧٠) .

وقد أعطى الطابع الشخصى فيما يروبانه لأفكارهما قوة اقناع لا تستطيع أن توصل اليها المناقشات المجردة الخالصة . وفوق ذلك فهما يقصدان فى المقام الأول حث القارىء على الاحتذاء بهما وتشجيعه على سلوك سبيل الشك حتى يمكن التغلب عليه نهائياً . ومن خلال تجربتهما يبينان امكانية التغلب على الشك . وهذا ما يقصده الغزالي حين يقول بعد عرضه لمنهج الشك : « والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل كمال الجد فى الطلب . حتى ينتهى الى طلب ما لا يطلب » (٧١) .

واذا ما وصل البحث الى هذه الحقيقة التى لا يمكن أن تطلب أو تفحص فانه يكون قد وصل الى نقطة تضع نهاية لكل شك حيث يجد الشك الانتصار النهائى عليه .

(د) المعرفة الحسية : لقد رأينا أن الغزالى وديكارت لم يستطيعا التوصل الى اجابة كافية عن سؤالهما عن حقائق الاشياء ، ولذا تحول هذا السؤال الى سؤال آخر عن ماهية العلم . والآن تتقدم المعارف الحسية فى المكان الأول على أنها علم مباشر . ولكن هذه المباشرة وسهولة الفهم لهذه المعارف ــ كما تبدو فى الظاهر ــ يتضح خداعها عند النظرة القريبة . وذلك لأن الخبرة تبين ان المعرفة الحسية خاضعة لأوهام وضلالات .

فالغزالي يتحدث فى « معيار العلم » أثناء مناقشته لمشكلة المعرفة عن خداع الحواس ، ويأتى بأمثلة لذلك من مثل أن الحواس تدرك الشمس على أنها صغيرة جداً ، وأن الكواكب تبدو لها وكأنها دنانير منثورة على بساط أزرق ، فى حين أن العقل ببراهينه يعرف ان قرص الشمس أكبر من الكرة الأرضية . وأن الكواكب أكبر مما تبدو لنا .. الخ (٧٢) .

فاذا قارنا ما عرضه الغزالى هنا فى « المعيار » بما عرضه بعد ذلك فى « المنقذ » فاننا نجد انه لا يقتصر فى « المنقذ » على ذكر أمثلة لخداع الحواس ، بل يزيد على ذلك مبيناً كيف أن خداع الحواس قد دفعه الى الشك فى المعرفة الانسانية على الاطلاق .

وهنا يروى الغزالى لنا فى « المنقذ » أن الحواس تخدعنا ويقرر ــ بناء على ذلك ــ أن المعارف الحسية جميعها غير يقينية ، ولذلك فلا تمثل علماً حقيقياً . يقول الغزالى فى ذلك : « من أين الثقة بالمحسوسات واقواها حاسة البصر،وهى تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعه بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف . وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم

---

(٧٠) انظر فى ذلك أيضاً فيشته (المرجع الذى سبقت الاشارة اليه جزء ٤ ص ١٦٨) لذى يؤكد بكل قوة ضرورة الممارسة الشخصية للفلسفة ؛ فيقول على سبيل المثال .« ... من يبغى امتلاك الحقيقة فانه يجب عليه ان ينتجها من نفسه هو . ان المحاضر يستطيع فقط ان يبين شروط المعرفة ؛وهذه الشروط يجب ان ينفذها كل فى نفسه بنفسه ، وان يكرس لهذا (العمل) حياته العقلية بكل نشاط ، وحينئذسوف تنتج المعرفة من نفسه بدون ان يحتاج الى عمل شىء آخر » .

(٧١) المنقذ ص ٧٥ .

(٧٢) معيار العلم ص ٦٢ .

العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل الى مدافعته . فقلت قدبطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً » (٧٣) .

وفي هذا الصدد يقول ديكارت أيضاً : « كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بانه اصدق الأشياء واوثقها قد اكتسبته من الحواس او بوساطة الحواس . غير انى جربت هذه الحواس فى بعض الأحيان فوجدتها خداعة ؛ ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الاطمئنان الى من خدعونا ولو مرة واحدة » (٧٤) . ثم يتحدث ديكارت بعد ذلك عن خداع الحواس احياناً فيما يتعلق بالأشياء الصغيرة جداً والبعيدة جداً عن متناولنا . ومثل هذا نجده عند الغزالى فى كتاب « المستصفى » (٧٥) حيث يشير الى أن خداع حاسة البصر ينشأ بسبب ان هناك عقبات تظهر فى حالة ما اذا كان الشيء بعيداً جداً او قريباً جداً عن متناولنا . كما اننا نجد مثال الشمس والكواكب عند ديكارت ايضاً حيث يقول ان لديه فكرتين متباينتين عن الشمس احداهما مصدرها الحواس والاخرى مستمدة من ادلة علم الفلك (٧٦) . كما يشير فى موضع آخر الى أن من الغريب أن لهيب شمعة صغيرة لا يحدث على عينية اثراً اقل مما يحدثه النجم (٧٧) .

(هـ) المعرفة العقلية : لقد رأى كل من الغزالى وديكارت ما تنطوى عليه المعارف الحسية من خداع وشكوك ، ولهذا قررا رفضها مبدئياً فى اثناء مواصلة السير للبحث عن الحقيقة . وذلك طبقاً للمبدأ الذى يتمثل فى أنه لا ينبغي أن يعترف بصفة العلم اليقينى الا للمعرفة المستمدة من مصدر مؤكد وغير قابل للشك اطلاقاً .

وهكذا يتحول الغزالى عن هذه المعارف الحسية لكى يفحص مدى يقين المجموعة الثانية من المعارف وهى المعارف العقلية الأولية . فبعد ان بين ان المعارف الحسية قابلة للشك اراد ان يختبر المبادىء العقلية فى مدى شرعيتها . ان أولية ويقين المبادىء العقلية يبدو فى بادىء الأمر غير قابل للشك اطلاقاً . وهذا ما يعنيه الغزالى حين يتساءل : من يستطيع جاداً ان يشك مثلاً فى الحقائق الرياضية والمنطقية مثل ان العشرة أكثر من الثلاثة وان الشىء لا يمكن ان يتصف بصفتين متضادتين فى وقت واحد .. الخ (٧٨) .

ولكن يتضح الآن ان الشك فى المعرفة الذى بدأ هجومه فى مجال المعارف الحسية ــ يجد نفسه قادراً على أن يتخطى هذا المجال ويهاجم مجالات اخرى حوله . ولا يستطيع مجال الحقائق العقلية ايضاً ان ينسحب من تيار هجومه . ويصور الغزالى ذلك قائلاً : « فقالت المحسوسات : بم تأمن ان تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بى ، فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ؟ » (٧٩) .

ان الشك الذى وجد فى ثنايا مجال المعارف الحسية نقاط هجوم كافية غير قادر على ان يتجه مباشرة الى مهاجمة المعارف العقلية الأولية ولكنه يستطيع هنا ان يعلن

(٧٣) المنقذ ص ٧١ .

(٧٤) الترجمة العربية للتاملات ص ٧١/٧٠ ، انظر : AT IX p. 14

(٧٥) ص ٤٥ ، انظر ايضا محك النظر ص ٥٩ .

(٧٦) الترجمة العربية للتاملات ص ١٣٣ ، انظر : AT IX p. 31

(٧٧) المرجع السابق ص ٢٤٢ ، انظر : AT IX p. 66

(٧٨) المنقذ ص ٧٢ .

(٧٩) المرجع السابق .

عن نفسه بطريقة غير مباشرة لكى يمارس النقد . وهذا يحدث فى أن الشك لا يضع مبادىء عقلية فردية موضع التشكك ، ولكنه يضع العقل كله موضع التشكك وذلك بمساعدة (تأملات خارجية) . ومثل هذه التأملات الخارجية تبدو ممكنة قياساً على هذه الحقيقة التى تتمثل فى أن المعارف الحسية التى كانت تعتبر قبل ذلك واضحة قد أمكن ان توضع موضع التشكك من جانب درجة للمعرفة اعلى منها ، وذلك عندما ظهر « حاكم العقل » ممثلاً لهذه الدرجة المشار اليها ـ كما سبق ان بينا ذلك ـ . ويعبر الغزالى عن ذلك بقوله : « فلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر اذا تجلى كذب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالته » (٨٠) .

ومن خلال هذه النظرة العميقة ينفتح عمق لاقرار له . اذ يبدو ان الشك قد اتسع نطاقه عن طريق هذه الأفكار الى مدى ليست له نهاية .

أما ما يتعلق بآراء ديكارت بالنسبة الى الشك فى المعارف العقلية فنشير الى ان هذا الشك فى المعارف العقلية يظهر عند ديكارت فى علاقة وثيقة مع الشك الميتافيزيقي ، ولهذا فلن نتحدث عنه الآن هنا ، بل سيأتى دور الحديث عنه عندما نعرض لمشكلة « الاله المضل deus mendax » عند ديكارت (٨١) .

(و) الرؤيا : اذا كانت وحدة العالم قد انحلت عن طريق التشكك المشار اليه فى المعارف الحسية والعقلية الى أجزاء متفرقة تتمثل فى خبرات خداعة وغير يقينية ، فان هذه الوحدة تبدو الآن فى تهدم تام وتنحل الى عدم عن طريق التأمل التالى ؛ وذلك لأنه حتى وجود الأشياء (تلك الأشياء التى كانت لا تزال حتى الآن تبدو بطريقة ما موجودة رغم التشكك فيها) لم يعد يستطيع أيضاً أن ينسحب من تيار الهجوم المدمر للشك .

هذا الشك الذى يحيط هنا بكل شىء كان يمثل حتى الآن الثروة المعرفية كلها . والحجة التى تضع كل الواقع موضع التشكك تتخذ من ظاهرة الرؤيا منطلقاً ، وتظهر عند الغزالى فيما يأتى : « وابدت (المحسوسات) اشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقد فى النوم اموراً وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك أصل وطائل ؟ » (٨٢) .

وبعد أن أورد الغزالى حجة المحسوسات هذه التى على أساسها يكون كل ما يراه المرء فى النوم له اعتباره فقط فى حالة المنام ـ يطبق هذه الحجة ذاتها على المعرفة الحسية والعقلية ويتساءل عما اذا كانت هذه المعارف أيضاً صادقة فقط بالنسبة الى حالة اليقظة . ثم يدع المحسوسات تستمر فى اعتراضها : « ... لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها . فاذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها » (٨٣) .

ان هذه الحقيقة التى تتمثل فى أن حالة اليقظة تتهم حالة النوم بالكذب قد دفعت الغزالى الى التساؤل عما اذا كانت هناك حالة أعلى ممكنة .. أى حالة يقظة جديدة تكشف بدورها حالة اليقظة الحالية على أنها خداع .

---

(٨٠) المرجع السابق .

(٨١) انظر فيما يلى فصل : الشك الميتافيزيقى .

(٨٢) المنقذ ص ٧٢ .

(٨٣) المرجع السابق ص ٧٢ وما بعدها .

وهذا يذكرنا بما سبق أن عرضناه من الشك فى المعارف العقلية ، هذا الشك الذى نشأ عن طريق واقع خداع الحواس . فقد كان الحديث هناك ايضاً عن احتمال وجود درجة أعلى للمعرفة فوق العقل اذا تجاست كذبت العقل فى حكمه . وهذه الفكرة يمكن ان تقود الى خطوات لانهاية لها . وذلك لأن حالة اليقظة الجديدة هذه لا تحمل معها التبرير الميتافيزيقى لها ، ولهذا يمكن التفكير ثانية فى حالة يقظة جديدة فوقها وحالة أعلى منها ، وهكذا الى غير نهاية .

اما فيما يتعلق بديكارت فان تطور الشك عنده يبين خصائص مختلفة ، وذلك بجانب ما اشير اليه هنا من ذات البناء الأساسى الذى يتمثل بوجه خاص فى النزوع الى الراديكالية. فالرؤيا وخداعها يدفعانه ـ مثل الغزالى ـ الى الشك فى الواقع على الاطلاق . ولكنه يتناول المسألة من جانب آخر ، اذ تدفعه هذه المشكلة الى التفكير فى كيفية التمييز بين اليقظة والمنام . ويجد ديكارت انه ليست هناك علامات مؤكدة للتمييز بينهما ، فيحاول ان يوضح ما اذا كانت توجد هناك معارف عقلية صادقة سواء كان الانسان نائماً أو مستيقظاً . ويصل الى رأى يتمثل فى انه لا يمكن ان يقال شىء يقينى عن وجود الأشياء وبذلك تكون علوم الطبيعة والفلك والطب علوماً معرضة للشك القوى فيها . ولكن الحقائق الرياضية التى هى مستقلة عن وجود الأشياء التى يتناولها بحث الرياضة تبدو لديكارت مشتملة على يقين لا سبيل الى الشك فيه (٨٤) . ومن خصوصيات فكر ديكارت ان حجة الرؤيا تدفعه الى الحديث عن مسألة العلوم الأولية ، وهى مسألة رئيسية فى تفلسفه . وذلك لأن العلم الذى يسعى اليه أصلاً ليس علماً جزئياً بالمعنى الحديث ولكنه علم كلى عالمى يشتمل على الجانب النظرى والعملى معاً . وقد ظل الهدف المتمثل فى خلق أساس ثابت صلب للعلوم مسيطراً على ديكارت حتى النهاية (٨٥) .

(ز) الشك الميتافيزيقى : ان الشك الميتافيزيقى الذى سنتحدث عنه هنا قد عرضه ديكارت فى صورة نموذجية . ولهذا سنبدأ بعرض ديكارت لهذا الموضوع ثم نعرض بعد ذلك راى الغزالى فيه . لقد راينا أن حجة المنام قد ابقت لديكارت على أولية ويقين القضايا الرياضية . ولكن يقين القضايا الرياضية يهتز ويتعرض للشك عندما يفكر فى ان الله ـ الذى يقول ديكارت ان لديه اعتقاداً راسخا فى ذهنه منذ زمن طويل بانه موجود ـ ربما قد جعل هذا العالم فى مجموعه غير موجود على الاطلاق وأن الانسان لذلك يخدع نفسه اذا لم يعرف ذلك . ويفكر ديكارت فى انه ـ مثلما هو مقتنع بأن هناك اناساً آخرين يضلون فى احيان كثيرة فيما يعتقدون معرفته معرفة كاملة يقينية ـ ربما يخدع نفسه ايضاً عندما يشتغل بالرياضة، مثلاً عندما يجمع اثنين وثلاثة او يحسب ما شاكل ذلك . ويقول ديكارت انه اذا كان يبدو أن هذا لا يتفق مع كرم الله ورحمته فانه لا يتفق مع كرم الله أيضاً أن يرى الانسان نفسه احياناً خاضعاً للخطأ والضلال كما يستطيع كل منا أن يجد ذلك فى نفسه . ويضاف الى ذلك أن هناك كثيرين لا يعتقدون اطلاقاً فى وجود الله . وهكذا يصبح واقع الضلال والخطأ بالنسبة لديكارت ـ كما هو ايضاً بالنسبة للغزالى ـ دافعاً الى الشك فى العقل ؛ غير أن ديكارت هنا لا يعتمد مثل الغزالى فقط على خداع الحواس بوجه خاص بل يعتمد بوجه عام على كل ما يقع فيه الانسان من ضلال وخداع . ومن خلال تأملات ديكارت فى الشك فى وجود الاشياء والشك فى الحقائق العقلية الأولية توصل أيضاً الى الشك المطلق فى كل شىء . انه الآن يرى ـ كما يقول ـ ان فى

---

(٨٤) راجع : AT IX p. 14 ff

(٨٥) انظر فى ذلك المرجع السابق ص ١٣ .

الامكان الشك فى كل ما كان يعتبره قبل ذلك صادقاً (٨٦) .

ويظل ديكارت فى اثناء تأملاته وبحثه عن الحقيقة حريصا على المبدأ المتمثل فى الامتناع النظرى عن قبول الحقائق التى لا تستطيع ان تبرهن على يقينها . وذلك لأن كل ما يهمه الآن — كما يقول — لا يتعلق بالعمل ولكن بالمعرفة (٨٧) ولهذا يرفض ديكارت كل ما حصل عليه حتى الآن من علم ، ويريد ان يقر الشك وحده ، هذا الشك الذى يقوده الى دعوى « الروح الخبيث genius malignus » او الشيطان المخادع . يقول فى ذلك : « واذن فسأفترض انه ليس الله — وهو أرحم الراحمين وهو المصدر الأعلى للحقيقة — الذى يضلنى ، بل شيطان خبيث ذو مكر وبأس شديدين قد استعمل كل ما اوتى من مهارة لاضلالى » (٨٨) . وهذا الشيطان الخبيث يستبدل فى اثناء مواصلة التأملات « بالاله المضل deus mendax » (وهو فى الواقع مساوله أيضاً) (٨٩) . هذا الاله المضل الذى يخدع الانسان ويصور له مجرد عالم خيالى على انه حقيقة واقعة .

ان ما يسمى هنا بالشك الميتافيزيقى (٩٠) نجده أيضا عند الغزالى ، غير انه فى بادىء الأمر لم يشر اليه صراحة فى خلال عرضه المنهجى للشك المطلق فى « المنقذ » .

فلقد أشار الغزالى فى « المنقذ » الى الشك الذى يمكن أن يحدث نتيجة لامكان الاخداع عن طريق السحر — وذلك عند تعريفه للعلم اليقينى حيث يقول : « الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وانكاراً . فانى اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر بدليل انى اقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم اشك بسببه فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه : فأما الشك فيما علمته فلا » (٩١) .

كذلك يتحدث الغزالى فى كتابه « محك النظر » (٩٢) عن اليقين الحقيقى الذى يجب ان يصمد أمام الشك الميتافيزيقى . ويذكر هنا انه يشترط فى العلم اليقينى عدم تأثره بأى شىء حتى أن المعجزة النبوية — اذا فرضنا أنها تريد أن تنقض يقين هذا العلم اليقينى — لا تستطيع أن تزلزله أو تنال منه . فلو حدث ذلك وفكر شخص فى أن الله ربما قد كشف لنبيه عن سر يناقض هذا العلم اليقينى ، فان هذا الشخص لا يكون لديه حينئذ فى هذه الحالة يقين حقيقى بالمعنى المطلوب — كما يقول الغزالى — . وفى « المنقذ » يتحدث صراحة عن فكرة الاله الذى يضل عباده ويأتى الحديث عن هذه الفكرة بمناسبة حوار بينه وبين أحد اتباع الباطنية حيث يشير باختصار الى سؤال الاضلال — من جانب الله لعباده — قائلا :

(٨٦) انظر فى ذلك : AT IX p. 17

(٨٧) المرجع السابق . ان ما ذكره ديكارت هنا لا يتعارض مع سعيه للحصول على علم كلى شامل للناحيتين النظرية والعملية . لانه لا زال يبحث عن الاساس الذى يبنى عليه هذا العلم ، وحين يجد هذا الأساس فسيكون اساساً للعلم الشامل للجانب النظرى والعملى معاً .

(٨٨) المرجع السابق ، راجع الترجمة العربية للتأملات ص ٧٨ .

(٨٩) انظر فى ذلك : AT IX p. 19,21, 22, 28 f

(٩٠) راجع : AT IX p. 28 ; VII p. 172, 460

(٩١) المنقذ ص ٦٩ .

(٩٢) محك النظر ص ٥٥ .

« وسؤال الاضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور » (٩٣) .

اما تفصيل هذه المسألة فيذكره الغزالى فى مؤلف آخر وهو « الاقتصاد فى الاعتقاد » ، ويحدث ذلك فى مناقشة النبوة والمعجزات النبوية . وعبارة الغزالى هنا هي : « ... فهب انهم رأوا الله تعالى بأعينهم وسمعوه بآذانهم وهو يقول : (هذا رسولى ليخبركم بطريق سعادتكم وشقاوتكم) فما الذى يؤمنكم انه اغوى الرسول والمرسل اليه ... فبم نعلم صدقه، فلعله يلبس علينا ليغوينا ويهلكنا» (٩٤) .

وحل هذه المسألة ـ التى صاغها الغزالى هنا صياغة قوية ـ يجده فى ان الله لا يكذب حيث يقول : « والجواب أن الكذب مأمون عليه » (٩٥) .

ان الشك المطلق عند الغزالى فى قدرات العقل الذى منح للانسان لم يحدث فقط عن طريق التأمل فى المعارف الحسية المشكوك فيها وعن طريق المنام ، بل انه قد حصل أيضاً على سند له عن طريق ما اشير اليه سابقاً من احتمال وجود درجة اعلى للمعرفة فوق العقل، اى حالة يقظة جديدة تبطل المعارف العقلية وتكذبها (بجانب الاشارة الى نوع من المعرفة اعلى بعد الموت) ـ وهذه الفكرة لا نجد لها شبيهاً عند ديكارت فى عرضه لهذا الموضوع . فهنا تعلن عن نفسها خصيصة جوهرية لفكر الغزالى ، تعتمد على اشتغاله بالتصوف . (وهنا يجب أن نلفت النظر الى ان الغزالى ـ المفكر الجاد ـ قد اشتغل أيضاً بالتصوف بمساعدة العقل) (٩٦) . وهكذا نجد فى تكملة ما سبق أن اقتبسناه عنه من حالة اليقظة الجديدة التى اذا وردت كشفت عن أن جميع ما توهمه المرء بعقله خيال لا حاصل له ـ نجده يقول : « ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية انها حالتهم : اذ يزعمون انهم يشاهدون فى احوالهم التى لهم اذا غاصوا فى انفسهم وغابوا عن حواسهم، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات. ولعل تلك الحالة هى الموت ، اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا . فلعل تلك الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة. فاذا مات (المرء) ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك : فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٩٧) .

ان الغزالى اذ يتحدث هنا أخيراً عن امكانية نوع من المعرفة أعلى بعد الموت ويروى فى هذا الصدد الحديث الشريف ويتحدث عن الصوفية ويقتبس من القرآن ، فانما يفعل ذلك استكمالاً لتأملاته . فالخبرات والمعارف الدينية ليست خارجة عن النطاق الذى يمارس فيه التحليل الفلسفى .

والآن وبعد أن عرضنا وناقشنا بالتفصيل كيف نفذ الغزالي وديكارت الشك الفلسفى المطلق بكل نتائجه ، نريد أن نبين فى القسم الثانى من هذه الدراسة كيف امكن لهما التغلب ـ بطريقة فلسفية ـ على هذا الشك الفلسفى الشامل ، وكيف حصلا بذلك على التأسيس المطلق للعقل .

★★★

---

(٩٣) المنقذ ص ١١٦ .

(٩٤) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٠٢ .

(٩٥) المرجع السابق .

(٩٦) cf. Zakzuk, op. cit. p. 12 f. 133 ff

(٩٧) المنقذ ص ٧٣ .

ثانياً : التأسيس المطلق للعقل :

تمهيـد :

قبل أن نناقش كيف عرض الغزالي وديكارت التغلب على الشك المنهجي الذى مارساه حتى النهاية ، ينبغي أن نشير الى ان الشك المطلق نفسه يتضمن بذور حل المشكلة ؛ اذ تحدث فيـــه الخطـــوة الترانزتسندنتاليـــة (transzendental) الحاسـمة وهى الصعود الى الأساس المطلق لكل مـا هـو مشروط ومحدود ، ومن أجل ذلك عرضة للشـــك . فالشك اذا نفذ بكل نتائجه يستطيع ان ينكر كل الواقع ، لأن الواقع نهائى ومحدود وغير ضرورى . هذا الشك يصـل بالضرورة فى النهاية الى ذلك الوجود الذى منه يتلقى كل موجود محدود ونهائي وجوده ، اى يصل الى وجود الله المطلق .

وقد قام كل من الغزالي وديكارت بهـذه الخطوة الترانزتسندنتالية والخلاف بينهمـا انما هو فقط فى الطرقة التى عرضا بها الحل الحاسم لمشكلة الحقيقة . وذلك لأنه فى حين أن ديكارت فى « تأملاته » قد ناقش الحـل بتوسع وتفصيل ، فان الغزالى قد عرض الحل فى « المنقذ » ـ الذىهو عبارة عن (اعترافات)ـ باختصار شديد ، وفى صورة تجعل تفسير الحل صعباً . ولهذا سنستعين بمؤلفات اخرى للغزالى بجانب « المنقذ » ، لكى ندعم تفسيرنا للحـل الذى توصل اليـه . وسيتضـح من خلال هذا البحث ما للحل ـ الذى وجده الغزالى لمشكلة الحقيقة ـ من اهمية حاسمة بالنسبة لفكره الفلسفى ، ولكن هذه الحقيقة قد اغفلت أو اسىء فهمها حتى الآن .

الحل الغزالى

(أ) عرض الغزالى للحل : لقد عرف الغزالى العلم اليقيني بأنه ذلك العلم الذى لا يترك فقط أى أثر للشك ، بل فوق ذلك يعزل أيضاً اية امكانية للشك على الاطلاق .

يقول الغزالى « ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع مـن اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى » (٩٨) ولكن الشك المطلق قد بين أن العقل لا يستطيع من ذاته أن يعطى لأحكامه هذا اليقين المطلق . ولهذا فانه يبدو أن علما حقيقيا بهذا المعنى المشار اليه غير ممكن . ولكن الغزالي يريد أن يتمسك بقاعدة الحقيقة التى وضعها ، والتى بناء عليها لا بد ان يكون العلم الحقيقي يقينياً علىالاطلاق، رغم أنه يعرف الآن انه لم يعد لديه ـ طبقاً لهذه القاعدة ـ علم له هذه الصفة .

ومع ذلك فالغزالى فى بحثه عن الحقيقة لا يستسلم ، ولا زال يعتقد أنه يستطيع ان يجد حلاً . ولكن هذا الحل يظل فى بادىء الأمر محجوباً عنه . ويُرجع الغزالى ذلك الى أن المعرفة العقلية الأولية التى يبحث عنها ، لا يمكن ادراكها الا بمساعدة معارف عقلية أولية وهى تلك التى يبحث عن يقينها ؛ وبعبـــارة اخرى فانه ـ بناء على هذا الشرط ـ لا يمكن للمرء أن يصل الى الهدف المطلوب الا بعد أن يكون قد حصل على هذا الهدف . ولكن هذا يمثل تناقضاً ويشكل مهمة غير ممكنة .

ويصف الغزالى نفسه فى أثناء هذه الفترة ـ عندما اصطدمت ارادة الحقيقة المطلقة لديه بالشك المطلق ، وعندما بدا له انه لا يمكـن الجمع بينهما ـ بأنه سوفسطائي ، بدون ان يكون فى الحقيقة سوفســـطائياً . وذلك لأن ارادة الحقيقة المطلقة لديه قد حالت بينه وبين السفسطة . ويقول فى ذلك : « فلما خطرت لي هـذه الخـواطر ، وانقدحت فى النفس ،

(٩٨) المنقذ ص ٦٩ .

حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، اذ لم يمكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية . فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل ، فأعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » (٩٩) .

ان الأمر الذى يجب أن يوضع فى الاعتبار ـ عند مناقشتنا التالية للتغلب على الشك ـ هو أن الغزالى قد ثبت على موقفه الذى يتمثل فى البحث عن حل لمشكلته عن طريق العقل ـ رغم الاستحالة الظاهرية ـ وليس عن أى طريق آخر . والحل الذى توصل اليه الغزالى أخيراً قد جاءه ـ كما سنبين ـ عن طريق العقل ، وان كان لم يصل اليه أيضاً عن طريق استدلال منطقى كما اعتقد أصلاً وجوب ذلك .

ان أزمة فكره التى بلغ فى أثنائها الى الشك المطلق ، والتى وصفها بأنها مرض ، قد دامت ـ كما يقول ـ « حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة » (١٠٠) .

ان الذى يلفت النظر ابتداء فى هذا النص هو حديث الغزالى هنا ـ فى ايجاز شديد ـ عن الله وعن النور . وهو حديث يبدو لأول وهلة بدون مبرر ، وذلك لأن الغزالى اراد الا يقبل فى طريق بحثه عن الحقيقة الا علماً يقينياً مطلقاً . وفضلاً عن ذلك يؤكد الغزالى هنا أن الحل لم يكن نتيجة أدلة نظرية ، وأنه ـ فوق ذلك ـ يمكن أن توجد أكثر الحقائق لا عن طريق أدلة منطقية . وانما فقط بوساطة هذا النور . فاذا حاول المرء تفسير الحل تفسيراً فلسفياً من خلال تلك الجمل القليلة فقط فانه يكون من الصعب تجنب التفسيرات الخاطئة . وذلك لأنه يمكن أن يتبادر الى الذهن تفسير النور تفسيراً حرفياً أو صوفياً . ويضاف الى ذلك أن الغزالى قد أكد أن الحل لم يكن « بنظم دليل وترتيب كلام » . وهذا كله يوحى بوصف الحل بأنه لا عقلى أو صوفى أو حالة شعورية غير محددة . وهذه هى التفسيرات التى قد حدثت فعلاً حتى الآن . ولهذا فاننا سنناقش فيما يلى التفسيرات الشائعة للحل مناقشة نقدية فى الفصل التالى (ب) ، وسيتضح للقارىء من خلال هذه المناقشة أنه لا يمكن تفسير الحل بهذه الطرق المشار اليها . ثم سنعرض بعد ذلك ما نعتبره فى نظرنا التفسير الوحيد الممكن مدعماً بالأدلة القوية التى تبرر ما توصلنا اليه وذلك فى الفصل (ج) .

(ب) نقد التفسيرات السائدة حتى الآن :

لقد حاول البعض (١٠١) بيان « الجانب الفلسفى » للحل مدعياً أن الغزالى قد توصل اليه بطريقة منطقية . فالغزالى قد عرف ـ كما يقول هذا البعض ـ أن المقياس المطلق يجب أن يوجد فى نقطة تختتم السير الى ما لا نهاية فى سلسلة السببية . وذلك يحدث بأن تكون النقطة وما قبلها وما بعدها مباشرة مما لا يمكن معرفته . ولكن هذه المحاولة لتفسير الحل تفسيراً منطقياً لم توضح هذه النقطة

(٩٩) المنقذ ص ٧٣ .

(١٠٠) المنقذ ص ٧٤ .

(١٠١) انظر فى ذلك بحث الدكتور عمر فروخ النشوقى : « أبو حامد الغزالى فى الذكرى المئوية التاسعة لميلاده » ص ٣٣٦ وما بعدها .

التى تعطى المقياس المطلق . وتفسير الحل الذى تقترحه هذه المحاولة غير كاف من وجهة النظر الفلسفية .

وبصرف النظر عن هذه المحاولة فان التفسيرات التى حدثت حتى الآن للحل الذى توصل اليه الغزالى يمكن تقسيمها الى مجموعتين :

المجموعة الاولى (١٠٢)تمثل الرأى الذى يذهب الى ان هذا الحل « عمل يائس لمرتاب لم يبق امامه طريق غير ان يرمى بنفسه فى احضان التصوف » (١٠٣) . وهنا لا يراعى المرء الفرق بين الشك الارتيابى والشك الفلسفى . ومما يوحى بالتفسير الصوفى للحل ان الغزالى قد تحول ــ كما هو معروف ــ الى التصوف ؛ ولكن الاشارة الى هاتين النقطتين لا تكفى ، النور ، وهوصورة تستخدم غالباًفى التصوف. ولكن الاشارة الى هاتين النقطتين لا تكفي . وذلك لأن هاتين النقطتين يمكن ، بل حتى يجب ــ كما سنبين ــ أن تفسرا تفسيراً آخر .

اما المجموعة الثانية (١٠٤) فانها تفسر الحل أيضاً على أنه لاعقلى ، ولكن بدون أن تبرز جانبا صوفيا خاصا .

● **التفسير الصوفى** (١٠٥) : فيما يلى نود أولاً أن نناقش رأى المجموعة الاولى نقاشا نقديا ، ونبين تناقضه وعدم قدرته على الثبات أمام النقد .

أما أن الحل لا يجوز أن يفهم فهماً صوفياً فذلك يمكن استنتاجه أيضاً من تحليل دقيق لما فى « المنقذ » نفسه . وهنا يجب أن نضع من بادىء الأمر امام أعيننا أن « المنقذ » يعطى لنا عرضاً حقيقياً أميناً لحياة الغزالى وتطوره العقلى (١٠٦) . فلا توجد اية أسباب يمكن أن تشكك بصورة جدية فى صدق ما عرضه الغزالى .

ان محاولة اتهام الغزالى بتعمد اعطاء بيان خاطىء عن الترتيب الزمنى لتطوره العقلى (١٠٧) ، وجعل « المنقذ » بهذا فى جملته عرضة للشك ــ محاولة لا يمكن تبريرها . والادعاء بان « المنقذ » قد كتب فقط على نمط

---

(١٠٢) من بين ممثليها كل من : Gosche, Macdonald, Frick

(١٠٣) Frick, op. cit. p. 73

(١٠٤) من بين ممثليها كل من : Azkoul, Abu Ridah, Watt

(١٠٥) انظر ايضا د . عثمان امين فى كتابه عن ديكارت(القاهرة ١٩٥٦ ــ ص ١٤١) حيث يرى أن الشك المطلق عند الغزالى قد أفضى الى حال من الاشراق الصوفى .

(١٠٦) يرى هذا الرأى ايضا كل من : د. زكى مبارك(الاخلاق عند الغزالى ص ٣٨ ، ٤٤) ؛
Macdonald, D. B. : **The Life of al-Ghazzali.**
(JAOS XX, New Haven, 1899) p. 73 ; Abu Ridah, M.A.A. : **Al-Ghazali und seine Widerlegung der griechischen Philosophie.** Madrid, 1952, p. 10 ; Asin Palacios, M. : **Algazel, Dogmatica, Moral, Ascética.** Zaragoza, 1901, p. 158.

(١٠٧) ان المحاولة التى تبناها Gosche فى هذا الاتجاه فى بحثه عن حياة الغزالى ومؤلفاته :
Uber Ghazzalis Leben und Werke, Berlin 1859, p. 295
قد رفضها Macdonald, op. cit. p. 98 واعتبرها منالناحية الموضوعية لا اساس لها .

منطقى وتخطيطى وليس على نظـام ترتيب زمنى (١٠٨) ، ادعاء لا يمكن دعمه اطلاقاً عـن طريق اقوال الغزالى ، ولا يمكن له أن يثبت أمام النقد . ان هذا الزعم يستند بوجه خاص على حكايات المؤرخين من ان الغزالى الـذى نشأ فى طفولته فى جو صوفى يلزم أن يكون قد ارتشف فى طفولته التعاليم الصوفية (١٠٩) . وهذا يعنى أن الغزالى قد أعطى لنا فى «المنقذ» بياناً خاطئاً اذا مـا روى أنه ابتـدأ عقب الحل (١١٠) ــ أى فى أثناء اشتغاله النقـدى المنظم بالاتجاهات الرئيسية الأربعة فى عصره ــ بالاشتغال بالتصوف بتعمق ، وأنه نتيجـة لهذه الدراسة قد قرر الاتجاه الى ممارسة التصوف . ولكننا نستطيع أن نرد على ذلك بما يأتي :

(١) أن روايات المؤرخين عندما تتحدث عن التجارب والدراسات الصوفية المبكـرة للغزالى ــ روايات ذات طابع مشكوك فيه ، فضـلاً عن أنهـا مختلطة الى حـد كبير بالأساطير (١١١) .

(٢) لو سلمنا أن الغزالى قد اشـتغل حقيقة بالتصوف أحياناً فى وقت مبكر ، مثلما اشتغل بكل النظريات والاتجاهات السائدة فى عصره (١١٢) ــ فان التصوف لم تكن له عند الغزالى فى ذلك الوقت المبكر اهمية كبيرة ، ولهذا لم يأخذه أيضاً فى ذلك الوقت على أنه اتجاه قد برهن ــ فى نظره ــ على شرعيته ، بل كان التصوف بالنسـبة له مثلـه مثل الاتجاهات والتعاليم الاخـرى التى كانت منتشرة فى عصره (١١٣) .

وبعد أن وجد الغزالى حلاً لأزمتـه التى استمرت شهرين ، واصبح بعد الحل معتمداً فقط على المبادىء العقلية التى عرف يقينها ــ اتجه لكشف الحقيقة فى تعاليم الاتجاهـات القائمة ودرس أيضاً التصوف ــ كما يقول ــ على انه الاتجاه الرئيسي الرابع والأخير دراسة عميقة مستفيضة . وقد قرر الغزالى نتيجة لهذه الدراسة ــ بعد أزمة نفسية عنيفـة ــ التحول الى التصوف وممارسته عملياً ، وذلك لأنه رأى انه يجب عليه ــ لأسباب دينية ــ ان يغير اتجاه حياته الحالى . **وهذه الأزمة الثانية التى استمرت ستة أشهـر** ــ والتى يجب تمييزها بعناية من الأزمة الأولى التى نشأت بسبب الشك الفلسفي ــ قد حـدثت قبل وقت قصير من مغادرته بغداد (١١٤) . فاذا ما رحنا نختبر بيان الغزالى فيما يتعلـق بكلا أزمتيه ونعرض ذلك على كتبه المؤكد تأليفها فى الزمن الواقع بين الأزمتين ، فانه يمكن أيضاً

---

(١٠٨) من بين ممثلى هذا الاتجاه Watt فى كتابه Muslim intellectual Edinburgh 1963, p. 50 f وايضا A History of Muslim Philosophy, p. 591 والى حد ما Frick, op.cit. p. 69

(١٠٩) انظر فى ذلك كارادى فو فى كتابه عن الغزالى طبعة باريس ١٩٠٢ ص ٤٥ وما بعدها ــ وايضاً تاريخ فلسفة المسلمين المشار اليه ص ٦١٧ .

(١١٠) تقريباً فى المدة ما بين عام ٤٧٨ وعام ٤٨٤ هـ ، انظر ايضا : Abu Ridah, op. cit. p. 6

(١١١) انظر فى ذلك ايضا : Macdonald, op. cit. p. 88

(١١٢) يتحدث الغزالى نفسه عن اشتغاله بكل هذه الاتجاهات منذ ان راهق البلوغ . راجع المنقذ ص ٦٦ .

(١١٣) انظر فى ذلك ايضا : Abu Ridah, op. cit. p. 10

(١١٤) بدأت الأزمة الثانية فى شهر رجب من عام ٤٨٨هـ . راجع المنقذ ص ١٢٧ .

البرهنة عن هذا الطريق على ان « المنقذ » لا يتضمن أية تناقضات (١١٥) .

ونكتفى الآن بما أوردناه لبيان أن « المنقذ » عرض صادق وأمين ، أى يقدم لنا كذلك ترتيباً زمنياً صحيحاً للتطور العقلى للغزالى . وبذلك يسوغ لنا أن نقوم بتفسير الحل أيضاً من « المنقذ » . وهكذا نرى أن الادعاء بأن الغزالى فى الحل قد عرض فى صورة مصطنعة قراراً بالاتجاه الى التصوف هو فى الواقع قرار قد اتخذه فى وقت مبكر من حياته – ادعاء يتداعى وينهار بما بيناه ، لأنه زعم لا يستند على أساس سليم وليس له ما يبرره .

والأدلة التى سنوردها الآن تبرر ما ندعيه من أن الحل الغزالى لا يجوز ان يفهم فهماً صوفياً ، بعد أن ثبت أن « المنقذ » يقدم لنا بيانات صحيحة . فلو افترضنا ان حل الغزالى ينبغي أن يفهم فهماً صوفياً فاننا يجب ان نستنتج من ذلك أيضاً أنه يناقض نفسه فى « المنقذ » باستمرار .

فالغزالى يكون حينئذ قد قبل هنا فى الحل شيئاً على أنه حق بدون بحث أو تبرير . وهذا مناقض لجهود الغزالى فى البحث عن الحقيقة بحثاً خالصاً غير مسبوق بأحكام معينة ، هذه الجهود التى يتحدث عنها فى «المنقذ» وفى غيره من كتبه الاخرى .

وفضلاً عن ذلك فلا يمكن ان يفهم لماذا يكون الاتجاه الى التصوف سبباً فى اعادة الثقة اليه فى العقل .

لقد ذكر الغزالى أن الضروريات العقلية قد عادت – عن طريق الحل – مقبولة موثوقاً بها . وقبل ذلك عرف العلم الحقيقى بأنه علم يقيني مطلق لا يمكن زلزلته . ولهذا فلا يمكن أن يستند الحل على مجرد احساسات صوفية أو ما عداها من احساسات لاعقلية ، أو يتمثل فى اعتقاد مأخوذ عن أى مصدر له حجية ما .

انه لن يكون مفهوماً أيضاً اذا ما قدم الغزالى هنا – من ناحية – حلاً صوفياً ، ومن ناحية اخرى يؤكد أنه قد توصل عن طريق الحل الى يقين حقيقة المعارف العقلية الأولية ، وليس الى يقين حقيقة التصوف . ان الغزالى – فى الوقت الذى حدث فيه الحل – لم يكن قد قرر بعد أن يتجه الى التصوف . فقد بدأ بعد الحل – وفى الغالب بعد اربع أو خمس سنوات من ذلك على الأقل – فى دراسة التصوف دراسة منظمة ، كان من نتيجتها أن اتجه الى التصوف ومارسه عملياً . ولكنه قبل هذه الدراسة لم يكن يعلم بعد أنه سيجد فى التصوف الطريق السليم الذى يبحث عنه ، والا لم يكن فى حاجة لأن يدرس قبل التصوف – كما يروى لنا – الاتجاهات الرئيسية الثلاثة الاخرى . ان الأزمتين اللتين عاناهما الغزالى يجب فصلهما زمنياً كما يجب التمييز بينهما نوعياً . **فالأزمة الاولى قد حدثت عن طريق شكه فى المعرفة وانتهت بالحل الذى أعطى له التأسيس المطلق المطلوب للحقائق العقلية . أما الأزمة الثانية فكان لها طابع دينى وانتهت بقراره ممارسة التصوف عملياً .**

---

(١١٥) لم يؤلف الغزالى حتى ذلك الوقت مؤلفات صوفية . والكتاب الصوفى الوحيد الذى يدعى البعض انه الفه فى ذلك الوقت وهو ميزان العمل – قد الفه الغزالى فى آخر حياته (انظر فى ذلك د. سليمان دنيا فى كتابه : الحقيقة فى نظر الغزالى . طبعة دار المعارف ١٩٦٥ ، ص ٦٤ ومابعدها) ويلاحظ ان الترتيب الزمنى لكتاب ميزان العمل عند الاستاذ عبد الكريم العثمان في كتابه سيرة الغزالى ص ٢٠٣ والذى استقاه من بويج – فيه تناقض . وذلك لانه يعطى لنشأة كتاب الميزان عام ٤٨٨/٤٨٧هـ ، مع ان الغزالى قد أعلن فى « معيار العلم » ص ٣٤٨ انه يريد ان يؤلف « ميزان العمل » . ومعيار العلم قد الفه الغزالى بعد « التهافت » ، و « التهافت » قد الف (طبقاً لبيان الاستاذ العثمان ايضاً) عام ٤٨٨ هـ . فكيف يكون الغزالى قد الف ميزان العمل فى التاريخ المشار اليه ، وهو لم يكن بعد قد الف « التهافت » فضلاً عن (المعيار) ؟

ولقد اصبح الغزالى صوفياً بعد ان غـادر بغداد . فهو يقول (١١٦) انه لم يستطع أن يدرك عن طريق اشتغاله النظرى بالتصوف خصوصية التصوف ادراكاً كافياً ، لأن التصوف فى جوهره لا يمكن ادراكه الا بوساطة الممارسة العملية . وهذا يتفق أيضاً مع ما سبق ان اشرنا اليه من أن الغزالى لم يؤلف قبل مغادرته بغداد مؤلفات مطبوعة بطابـع صوفى .

ان تفسير الحل على انه كشف صوفى يذهب جنباً الى جنب مع الرأى الذى يذهب الى أن الغزالى يجب أن ينظر اليه فى تفكيره على انه صوفى ، أى عدو للعقل . فقد قيل عنه (١١٧) انه قد دعا الى ان العقل ينبغى أن يستخدم فقط لهدم الثقة فى نفسه ، أى فى العقـل ذاته (١١٨) .

ولكننا نقول رداً على ذلك : ان الغزالى وان كان قد اتخذ طريقة الحياة الصوفية الا انه مع ذلك قد حارب فى التصوف نظريات الحلول والاتحاد والتعاليم الغريبة ونقضهـا (١١٩) ، ولم ينقلب أبداً عدواً للعقل ، وانما فهـم التصوف كفيلسوف ، ولهذا فانه لا يسوغ وصفه بأنه من الصوفيين المنكرين للعقل (١٢٠) .

● **التفسير اللاعقلى :** تشترك التفسيرات اللاعقلية مـع التفسيرات الصوفية (وهـذه تمثل صورة خاصة من التفسيرات اللاعقلية) فى انها جميعاً تذهب الى أن الحل الذى توصل اليه الغزالى كشف لا عقلي ، وبهذا الاعتبـار يسرى على التفسيرات اللاعقليـة نفس النقد ونفس الاعتراضات التى تتعلق بهذه النقطة والتى عرضناها فى نقدنا للتفسيرات الصوفية. ان الذين يتبنـون التفسير اللاعقلي يكتفـون بوضع النور الذى يتحدث عنه الغزالـى فى الحل وضعاً مساوياً للكشف ، ولكن بدون التأمل فيما وراء هذه الصورة التى استخدمها الغزالى من مضمون . والفرق بينهم وبين دعاة التفسير الصوفى انهم لا يسمون هذا الكشف كشفاً صوفياً ، بل هو : « كشف مباشر من عند الله محاط بالأسرار » (١٢١) أو يمثـل مساعدة لا يمكن توضيحها من جانب شيء فوق العقل (١٢٢) . أو يذهب البعض الـى وضع نظرية (١٢٣) ترى أن تعبير الغزالى حين يقـول ان الله بعث اليـه نوراً ـ لا ينبغي أن يفهم فهماً مباشراً . فهذا التعبير ـ كما يدعي هذا البعض ـ هو عبارة عن مثال لعادة شائعة فى الأدب الاسلامى تعتبر أن الله هو المسبب الأصلى لأية احداث تحدث بدون أن يعتقد المرء ذلك حقيقة فى كل حالة . كما أنه لن يكون

---

(١١٦) انظر فى ذلك : المنقذ ص ١٢٣ وما بعدها .

(١١٧) انظر فى ذلك : ماكدونالد فى دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الالمانية) فى مادة : الغزالى . مجلد ٢ ص ١٥٤ .

(١١٨) انظر أيضاً تاريخ فلسفة المسلمين ص ٥٨٩ هامش ٢١ حيث رفض هذا الرأى .

(١١٩) انظر فى ذلك أيضاً :
Obermann, J. : Der Philosophische und religiöse Subjektivismus Ghazalis. Wien 1921, P. 96,292

(١٢٠) انظر ايضاً تاريخ فلسفة المسلمين ص ٦١٧.

(١٢١) Abu Ridah, op. cit. p. 14

(١٢٢) انظر : Watt, op. cit. p. 56

(١٢٣) انظر فى ذلك :
Azkoul, K. : Al Ghazzali. Geltung und Grezen der Vernunft. Diss. München 1938, p. 43 f

مفهوماً أن يتحدث الغزالى الآن فجأة وبدون تمهيد عن الله – بعد ان كان قبل ذلك غير مؤمن – . ولهذا يجب ان يفهم المرء أن الغزالى هنا اراد أن يقول فقط ان هناك نوراً قد اتى بالحل . ولكن من أين جاء هذا النور ؟ هذه مسألة ليست ذات أهمية بالنسبة للغزالى مؤقتاً ، لأن الأهم من ذلك كان بالنسبة له – كما يزعم انصار هذه النظرية – انه قد كشف له الآن باطنياً عن يقين المبادىء العقليــة . وهكذا كان اساس العقل عند الغزالى أمراً لاعقلياً . **ورداً على هذه النظرية نقول :**

ان هذه النظرية تفترض – خطأ – ان الغزالى كان فى مرحلة شكه غير مؤمن . ولكن الغزالى لم يكن فى اى وقت من الأوقات – وحتى فى اثناء ازمته الاولى – غير مؤمن بالمعنى الحقيقى كما سبق أن بينا (١٢٤) وفضلاً عن ذلك فان هذه النظرية تمثل رأياً خاطئاً يذهب الى انه لو فرض أن الغزالى قد توصل هنا اولاً الى استعادة الايمان ، فانه كان يجب عليه حينئذ ان يبرهن على معرفة الله هنا بنوع من الأدلة المنطقية ، رغم ان الغزالى – كما سنبين – يرى أن معرفة الله هى فى المقام الأول عمل رؤية حدسية ، وان الأدلة المنطقية ازاء ذلك ليس لها الا أهمية ثانوية فقط (١٢٥) .

● **التفسير الفلسفى :** بعد أن بينا ما فى التفسيرات الصوفية واللاعقلية للحل من شكوك وتناقضات، يتحتم علينا الآن أن نناقش عرض الغزالى للحل مناقشة تستند الى أقوال الغزالى فى « المنقذ » . ومن خلال هذه المناقشة سيتبين لنا مدى أهمية ما عرضه الغزالى فى الحل ومضمون ذلك . والراى الذى نخرج به من ذلك سيزداد عمقاً عن طريق استنادنا الى مؤلفات الغزالى الاخرى . وحينئذ سيتضح ان الحل لا يمثل عملاً يائساً ، أو مجرد قبول تأسيس لاعقلي للحقيقــة ، بل يمثل المعرفــة الفلسفية الحاسمة ، حيث يدرك الفيلسوف هنا الحقيقة نظرياً وعملياً فى وضوح مطلق .

(١) نور العقل : توجد فى « المنقذ » اشارات متعددة لما يجب ان يفسر به النص الذى يعطى فيه الغزالى الحل فى صورة النور الذى قذفه الله فى صدره . ولقد ناقش الغزالى كيف يقودنا الشك الفلسفى الى أن المعارف الحسية والمبادىء العقلية لا يمكنها أن توصلنا الى اليقين المطلق الذى يسعى اليه الفيلسوف . وهنا يقف أمام ضرورة البحث عن معرفــة واضحة وضوحاً مطلقاً ، تكون قادرة بنفسها على البرهنة على شرعيتها ، وتكون خارجة عن نطاق المعارف الحسية ومجرد المعارف المنطقية . ولقد طب الغزالى تأسيس العلم تأسيساً أولياً غير قابل للنقض ، ورفض من أجل ذلك – فى اثناء بحثه عن الحقيقة – كل علم غير يقينى يقينا مطلقا . وقد حصل الغزالى فى الحل على هذا التأسيس الأولى أيضاً اذ يخبرنا كيف عادت اليه – عن طريق هذا الحل – الثقة فى الحقائق العقلية الأولية ، لأن فيها الآن اليقين والضمان . فالغزالى لم يتنازل عن التأسيس الأولى المطلوب للمبادىء العقلية ، ولم يتراجع أو يسحب تعريفه الأولى للعلم الحقيقى . كما لم يتراجع أيضاً عن ضرورة الشك الفلسفي ، وقد اكد – عقب عرضه للحل – اهمية منهجه حيث يقول ان قصده من هذه الحكايات هو : « أن يعمل كمال الجد فى الطلب ، حتى ينتهى الى طلب ما لا يطلب . فان الأوليات ليست

---

(١٢٤) انظر فى ذلك ما سبق ان وضحناه فى فصل : العقيدة والشك الفلسفى .

(١٢٥) يفترض المرء ايضاً – خطا – ان الغزالى كان ملحداً ، اذا ادعى ان المعرفة التى تتمثل فى ان الحل قد حدث عن طريق نور قذفه الله فى صدره – قد توصل اليها الغزالى فيما بعد ، اى بعد الحل بزمن طويل ، فى وقت كان الغزالى فيه مؤمناً حقيقة . ولكن بحث الغزالى عن الحقيقة لا يعزل الايمان ، بل كان محاولة لتوضيح فلسفة القديس انسلم : fides quaerens intellectum

مطلوبة فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب فقد واختفى » (١٢٦) .

ان الغزالي لا يقصد هنا بالنقطة التي يصل اليها الباحث في النهاية ـ والتي لا يمكن ان تبحث بعد ذلك او تطلب ـ المعارف الأولية بوجه عام ، بل يقصد بها معرفة أولية معينة فقط . وذلك يتضح من انه استطاع ان يفحص المعارف العقلية الأولية في مجالات المنطق والرياضة بمساعدة الشك الفلسفي . ويؤكد الغزالي ان الحل لم يحدث بوساطة ادلة منطقية مجردة ، ويصف النور الذي اتى بالحل ـ والذي لا يمكن تفسيره تفسيراً صوفياً أو لاعقلياً كما بينا ـ بأنه مفتاح أكثر المعارف .

وعلى الجملة فان الحل يتمثل في انه قد ادرك هنا في وضوح مطلق تأسيس الحقيقة او الحقيقة نفسها في نقطة لا يمكن ان تبحث، وعن طريق نور هو مفتاح أكثر المعارف . والغزالي يقول ان الحل لم يحدث نتيجة ادلة منطقية مجردة (ولكنه لا يقول ان الحل قد عزل العقل !) ؛ وهكذا يجب أن يكون الحل ـ بعد أن وضحنا أنه لا يوجد هنا كشف لاعقلي كما لا يوجد أيضاً رجوع الى التقليد ـ متمثلاً في معرفة تستند ـ على العكس من المعرفة المعتمدة على التدرج المنطقي ـ على رؤية عقلية مباشرة . فالأمر يدور هنا حول معرفة حدسية .

وسنرى أن تفسيرنا هذا يستطيع أيضاً أن يعتمد على أقوال الغزالي في كتبه الاخرى وفيما يلي نذكر ـ كمثال ـ ما يقوله الغزالي في معيار العلم :

« ومن مارس العلوم يحصل له ... عن طريق الحدس ... قضايا كثيرة ، لا يمكنه اقامة البرهان عليها ، ولا يمكنه ان يشك فيها ، ولا يمكنه أن يشرك فيها غيره بالتعليم ، الا أن يدل الطالب على الطريق الذي سلكه واستنهجه » (١٢٧) .

فاذا فحصنا هذا النص بالنظر الى تفسير الحل فاننا نستطيع ان نجد فيه ايضاحاً لبعض النقاط الهامة ، فالغزالي يشير هنا الى أن الذي يشتغل بالعلوم يتوصل عن طريق الحدس الى معارف كثيرة ، ولكنه لا يستطيع أن يبرهن عليها . وهكذا فان لدينا هنا الآن ايضاحاً يفسر لنا لماذا يؤكد الغزالي انه لم يصل الى الحل عن طريق ادلة نظرية . وبهذا فان رأينا بأن الحل يتمثل في معرفة حدسية قد وجد هنا ما يزكيه ويدعمه . وسيزداد دعماً ـ فضلاً عن ذلك ـ عن طريق نقاط اخرى .

ان هذه المعارف الحدسية يحصل عليها المرء ـ كما نرى في النص السابق ـ بعقل علمي دارس ؛ فهي ليست حاضرة حضوراً مباشراً لكل انسان . وهناك علامة اخرى لهذه المعارف الحدسية وهي أن الذي يحصل عليها لا يستطيع أن يشك فيها . فهذه المعارف اذن فيها اليقين المطلق الذي يطلبه الغزالي للعلم الحقيقي ، والذي اتجه الغزالي الى البحث عنه بمساعدة الشك الفلسفي ، والذي اهتدى اليه أخيراً في الحل . ومن العلامات الاخرى لهذه المعارف أن الذي يحصل عليها لا يستطيع أن ينقلها الى غيره بوساطة التعليم ؛ انه يستطيع فقط أن يبين للباحث الطريق الذي سلكه هو بنفسه لكي يصل الى معارفه . وهكذا فان لدينا هنا اشارة لتوضيح هذه الحقيقة التي تتمثل في أن الغزالي لم يذكر شيئاً عن مضمون الحل ، بل استخدم لهذا صورة فقط . وفضلاً عن ذلك فان لدينا الآن ايضاحاً يفسر لنا لماذا لم يؤسس الغزالي الحل نفسه

---

(١٢٦) المنقذ ص ٧٥ .

(١٢٧) معيار العلم ص ١٩٢ .

تأسيساً منطقياً ، ولكن وصف بالتفصيل المنهج الذى توصل عن طريقه الى معرفة الحل ؛ وبعد الحل ــ وهذا يجب ان يؤخذ فى الاعتبار ــ اكد اهمية هذا المنهج عندما ذكر أن المقصود من هذا العرض التفصيلى هو ان يحث الباحث عن الحقيقة على البحث بعزم وبدون كلل كما فعل هو نفسه .

وبعد أن اصبح واضحاً أن الحل يشتمل على معرفة حدسية ، نريد ان نناقش الآن مضمون هذه المعرفة .

لقد اتضح لنا من « المنقذ » ان هذه المعرفة تتعلق بتأسيس الحقيقة أو بالحقيقة نفسها ، وان الغزالى قد وجدها بعد ان وصل اخيراً فى بحثه عن الحقيقة ــ هذا البحث الذى قام به بمساعدة الشك الفلسفى لمعرفة الأساس الذى يقوم عليه كل علم ــ الى نقطة لا يمكن له ان يبحثها ، اى الى نقطة تمثل السبب الأول والمؤسس . وانه لمن الواضح أن سبباً أول مؤسساً لا يمكن ان يبحث ، وذلك لأن كل فحص وكل عمل عقلى يجب ان يجد فيه اساسه .

والتأسيس الأولى للعقل يعنى ارجاع المشروط ، اى العقل الذى لا يستطيع ان يؤسس نفسه (وهذا ما برهن عليه الشك الفلسفى المطلق) ــ الى سبب أول هو شرط العقل ؛ وهذا السبب نفسه مطلق ، يكشف عن نفسه مباشرة فى اطلاقه . ومثل هذا السبب لا يمكن أن يسبب ، لأنه السبب الأول . وكسبب أول فانه يؤسس نفسه وهو « سبب نفسه causa sui » . ان هذا السبب لا يمكن أن يدرك فى النهاية بوساطة تأسيس من نوع منطقى ، لأن كل تأسيس على الاطلاق يكون ممكنا ابتداء عن طريقه ، فهو شرط لامكانية اى تأسيس على الاطلاق .

ولكن الضرورة المنطقية لهذا « السبب » لا تكفى للحصول على اليقين بوجود هذا السبب . وذلك لأن هذه الضرورة المنطقية للسبب الأول تدرك بنفس الأداة (اى بالعقل) التى يجب أولاً أن تؤسس عن طريق هذا السبب الأول . وهكذا فان هنا « دوراً » . ولهذا اكد الغزالى أن الحل لم يحدث عن طريق ادلة نظرية ، فالأمر يدور هنا فى الحل ــ كما بينا ــ حول حدس وليس حول استنتاج .

وقد عرض الغزالى هذه المعرفة الحدسية للسبب الأول ــ الذى لم يعد قابلاً للبحث ــ على أنها نور قد قذفه الله فى صدره .

وهكذا يشاهد الباحث عن الحقيقة ــ فى هذا النور المرسل من الله ــ التأسيس المطلق للحقيقة ، ذلك التأسيس الذى يجوز لنا الآن ان نقول انه متمثل فى الله نفسه . وبذلك فهذه المعرفة الحدسية للسبب الأول (١٢٨) الذى يبرر نفسه بنفسه لا يتوصل اليها الا عن طريق هذا السبب نفسه ، ولا يصل اليها الا كل من يكرس نفسه كلية فى البحث عنه . فالحل يتمثل ــ اذا اردنا أن نقبل تسلسل هذه الأفكار ــ فى عمل واحد يعرف فيه العقل الله (الذى يبعث له النور) وفى الوقت نفسه يرى نفسه مؤسساً فى الله .

وبعبارة اخرى فان الغزالى اذا تحدث هنا فى الحل فجاة وبدون تمهيد عن الله ــ بعد أن رفض قبل ذلك فى خلال بحثه عن الحقيقة كل علم لا يكون واضحاً وضوحاً مطلقاً ــ وتحدث عن نور يبعثه الله ويكشف له بوساطته عن يقين الحقائق العقلية وحصولها على التأسيس المطلق المطلوب ، فاننا نستنتج من ذلك أن الغزالى يجد تأسيس الحقيقة فى الله . وهكذا يوجد هنا نوع من معرفة الله . أما انه يجب أن تكون هنا معرفة ، وأن الحل لا يمكن أن يكون قد حدث عن طريق كشف لاعقلى من اى نوع

(١٢٨) انظر ايضا : Obermann, op. cit. p. 182

كان ـ فهذا قد وضحناه . واما أن هذه المعرفة الآن تتمثل أيضاً حقيقة في معرفة الله ـ كما بينا ـ فاننا نجد لهذا اشارة في « الاحياء » حيث يتحدث الغزالي أيضاً عن نور مرسل من الله ، ويقول ان معرفة الله تحدث بوساطة هذا النور . وهذه المعرفة يميزها الغزالي هنا بقوة من الايمان البسيط الحادث عن طريق التقليد ومن معرفة المتكلمين . يقول الغزالي عن علم الآخرة الذي غايته النهائية معرفة الله : « ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة أو تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه من الخبائث ... » (١٢٩) .

وهذا النور المرسل من الله في الحل عبارة عن تصوير لعقل الانسان عندما يكون قد تطهر وصفا ، أي تحرر من كل تدخل عن طريق الحس والوهم . وهذا نستطيع أن نأخذه من أقوال الغزالي في مشكاة الأنوار (١٣٠) . وفيما يتعلق بمسألة تطهير النفس والعقل فقد سبق أن بينا الأهمية البالغة التي يعلقها الغزالي على الثبات الخلقي والثقافة العقلية في الفلسفة كما يفهمها . ان العقل ـ كما يقول الغزالي في المشكاة ـ : « **انموذج من نور الله تعالى** » (١٣١) ، ولكن العقل قد استعار النور من الله ، اذ يتلقى النور منه (فالله هو الذي يرسل النور) ، لأن الله فقط ـ كما يبين الغزالي (١٣٢) ـ هو الذي يسمى نوراً بالمعنى الحقيقي .

ان البحث عن يقين مطلق قد جعل الغزالي يتجرد من كل ما ليس له هذا الوضوح المطلق : أي من العالم الخارجي الذي منه أيضاً جسمه ، ومن الحقائق الضرورية العقلية ، حتى وجد نفسه في النهاية عاطلاً كلية من أي علم يقيني ، واصبح لا حول له ولا قوة . وقد حدث الحل عن طريق النور المرسل من الله ، وهذا يعني انه قد حدث عن طريق العقل المطهر الذي يدرك ـ في عمل واحد ـ نفسه في جوهرها الحقيقي كنور ، ويدرك ان هذا النور مؤسس في الله . والانسان حاصل على هذا النور لأنه مخلوق على صورة الله ، وهذا النور الذي لديه هو الذي يجعل معرفة الأصل ممكنة .

ان العقل عندما يكون قادراً على التجرد من كل مالا يمثل جوهره الحقيقي فانه يكون نوراً قد استعاره من الله الذي هو النور الحقيقي والوحيد الذي منه ينبعث كل نور (١٣٣) .

وهكذا ترتبط هنا معرفة الله ومعرفة الذات في علاقة متبادلة لا يمكن فصمهما ، ويشكلان النقطة الأساسية للحل عند الغزالي . ولهذا سنفصل القول فيهما فيما يلي :

٢ ـ معرفة الله : يرى الغزالي أن معرفة الله فطرية عند كل انسان ، تماماً مثل الحقائق الرياضية (١٣٤) **. وفوق ذلك فانها تأخذ مكاناً خاصاً مفضلاً بين المعارف الأولية ، لأنها أول كل المعارف وشرط لها : « فلو عرف**

---

(١٢٩) الاحياء ٥٨/١ .

(١٣٠) ص ٤٧ ؛ انظر ما سبق في نهاية حديثنا عن شروط التفلسف .

(١٣١) مشكاة الأنوار ص ٤٤ .

(١٣٢) نفس المرجع ص ٥٥ .

(١٣٣) مشكاة الأنوار ص ٥٤ وما بعدها .

(١٣٤) انظر في ذلك (كيمياء السعادة) للغزالي الذي ترجمه من الفارسية الى الالمانية هلموت ريتر H. Ritter تحت عنوان : Das Elixier der Glückseligkeit طبع دوسلدورف ص ٥٣ وما بعدها .

(الانسان) كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئا » (١٣٥) . **فالمعرفة الحقة للأشياء تبدأ بمعرفة الله** (١٣٦) ، **لأنه الموجود الحق : « فالموجود الحق هو الله تعالى ، كما أن النور الحق هو الله تعالى ... فان كل شيء سواه اذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، واذا اعتبر من الوجه الذى يسرى اليه الوجود من الأول الحق رؤى موجوداً لا فى ذاته ، لكن من الوجه الذى يلى موجده »**(١٣٧) .

وفى حين أن ماهية الانسان ووجوده يشكلان اثنينية فان ماهية الله ووجوده يشكلان وحدة واحدة (١٣٨) .

ويتلخص الفرق الرئيسى بين الله وكل الموجودات الاخرى فى أن الله وجوده من ذاته ، وكل الموجودات الاخرى وجودها منه هو : « والخاصية الالهية انه الموجود الواجب الوجود بذاته التى عنها يوجد كل ما فى الامكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال . وهذه الخاصية لا يتصور فيها مشاركته البتة » (١٣٩) .

ولهذا فانه لا يوجد على الحقيقة شيء غير الله وأفعاله (١٤٠) ، أى مخلوقاته .

ويتمثل واجب الانسان فى تحقيق ما فطر عليه من معرفة الله ، ولكنه من ناحية اخرى لا يستطيع ان يحقق هذه المهمة على وجه الكمال ، لأن ماهية الله لا يمكن ان يعرفها الا الله نفسه . (١٤١) وهكذا يجب ان يكون الانسان نفسه الهاً حتى يمكن له أن يعرف الله معرفة كاملة .

ان المرء يستطيع فقط ان يعرف الله تعالى معرفة غير كاملة ، وذلك عن طريق أفعاله ، يقول الغزالى : « والعالم هو السلم الى معرفة البارى سبحانه ، فهو الخط الالهى المكتوب المودع المعانى الالهية . والعقلاء على اختلاف طبقاتهم يقرأونه » (١٤٢) .

ولهذا يستطيع المرء أن يعرف صفات الهيه مثل قدرة الله وعلمه ولطفه ورحمته (١٤٣) .

ولكن المعرفة القصوى له التى يمكن للانسان ان يصل اليها هى معرفته بأن المرء لا يستطيع

---

(١٣٥) الاحياء ٦١/٣ .

(١٣٦) انظر فى ذلك كتاب : Obermann الذى سبقت الاشارة اليه ص ٢١٨ هامش ١ .

(١٣٧) مشكلة الأنوار ص ٥٥ وما بعدها .

(١٣٨) مفارج القدس ص ١٩١ وما بعدها حيث يقول الغزالى : « وواجب الوجود حقيقته وجوده ، ووجوده حقيقته » انظر ايضاً نفس المرجع ص ١٨٩ ومابعدها .

(١٣٩) المقصد الأسنى ص ٢٥ ؛ انظر ايضاً معارج القدس ص ٢٠٩ .

(١٤٠) المقصد ص ٣٢ ؛ المعارج ص ١٠٤ ؛ الجام العوام عن علم الكلام ص ٢٧٠ (فى مجموعة : القصور العوالى) ؛ المستصفى ص ٢٧ ؛ جواهر القرآن ص ١٢ .

(١٤١) المشكاة ص ٥٦ ، المقصد ص ٢٨ ، Elixier ص ٢٣ ، رسالة للغزالى فى بيان معرفة الله ص ١٠٣ (مخطوطة بمكتبة جامعة ليدن بهولاندة تحت رقم : Or. 177 (7) وتقع فى اربع ورقات من ص ١٠٣ الى ١٠٦) .

(١٤٢) معراج السالكين ص ٢٢٦ .

(١٤٣) Elixier p. 68 ، كيمياء السعادة (فى مجموعة مع المنقذ من الضلال ورسائل اخرى) ص ٩٤ .

أن يعرف الله معرفة كاملة ، وأن من المستحيل أن يحصل احد على هذه المعرفة غير الله نفسه (١٤٤) . وقد وضح الغزالى فى كتابه « **مشكاة الأنوار** » (١٤٥) مسألة معرفة الله ، وذلك بأن عقد مقارنة بين النور الالهى والنور « الظاهر البصرى » . فالنور الظاهر يتحد بطريقة قوية مع كل الألوان ، ولهذا فانه فى بادىء الأمر لا يرى،بل يظن أنه ليس مع الألوان غيرها ، رغم أنه أظهر الأشياء ، فاذا غربت الشمس واختفى الضوء عرف أن النور : « معنى وراء الألوان يدرك مع الألوان حتى كأنه لشدة انجلائه لا يدرك ولشدة ظهوره يخفى . وقد يكون الظهور سبب الخفاء والشىء اذا جاوز حده أنعكس على ضده » (١٤٦) وكما أن كل شىء يصبح للانسان منظوراً عن طريق النور فان الانسان يمكنه بعقله أن يفهم كل الأشياء فقط عن طريق الله ، لأن الله مع كل شىء فى كل لحظة ، وعن طريقه يظهر كل شىء . ولكن بذلك تنتهى المماثلة بين النور الالهى والنور المنظور ، لانه فى حين أن النور المنظور يختفى بغروب الشمس ، ولذلك يمكن أن يعرف وجوده عن طريق غيابه ، فانه لا يمكن للنور الالهى أن يختفى ــ انه مستمر دائماً مع كل شىء . ولو قدر أن يختفى فانه لا يبقى شىء اطلاقاً . ولهذا فان طريقة المعرفة المعتادة وهى طريقة « التفرقة » أو معرفة الأشياء بالأضداد لا يمكن تطبيقها فى حالة معرفة الله . فلو كان النور الالهى مماثلاً للنور الظاهر فى امكان اختفائه لتهدمت السموات والأرض ــ كما يقول الغزالى ــ « ولأدرك به من التفرقة ما يضطر معه الى المعرفة بما به ظهرت الأشياء . ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد فى الشهادة على وحدانية خالقها ارتفع التفريق وخفى الطريق . اذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد ، فما لا ضد له ولا تغير له تتشابه الأحوال فى الشهادة له . فلا يبعد أن يخفى ، ويكون خفاؤه لشدة جلائه » (١٤٧) .

ولكن لا يجوز للمرء أن يستنتج من أن الله مع كل شىء مثل النور الذى هو مع كل شىء ــ انه فى كل مكان وفى كل ناحية ، فالله يسمو فوق الزمان والمكان (١٤٨) . ويضيف الغزالى هنا قوله « بل لعل الأبعد عن اثارة هذا الخيال أن نقول : انه قبل كل شىء ، وانه فوق كل شىء وانه مظهر كل شىء والمظهر لا يفارق المظهر فى معرفة صاحب البصيرة . فهو الذى نعنى بقولنا : انه مع كل شىء ، ثم لا يخفى عليك أيضا أن المظهر قبل المظهر وفوقه مع انه معه بوجه : لكنه معه بوجه وقبله بوجه » (١٤٩) .

ويرى الغزالى أن تحقيق معرفة الله يكون عن طريق القلب الذى هو محل معرفة الله (١٥٠) . والله تعالى ليس له مثيل فى العالم ولذلك لا يمكن ادراكه بوساطة أية مقارنة (١٥١) . والقلب فقط الذى هو من عالم الله هو الذى يستطيع أن يجعل معرفة الله ممكنة .

---

(١٤٤) المقصد ص ٢٩ ، رسالة فى بيان معرفة الله ص ١٠٥ .

(١٤٥) ص ٦٢ وما بعدها . انظر فى ذلك أيضا :الاحياء ٣١٢/٤ ، الاربعين فى اصول الدين ص ٢٣٥ (مكتبة الجندى ١٣٨٣هـ) .

(١٤٦) مشكاة الأنوار ص ٦٢ .

(١٤٧) المشكاة ص ٦٣/٦٤ . انظر أيضا الأحياء٣١٢/٤ .

(١٤٨) انظر فى ذلك أيضا : المعارف العقلية ص٦٤ ، معارج القدس ص ٢٠٣ .

(١٤٩) المشكاة ص ٦٤ .

(١٥٠) انظر المنقذ ص ١٤٤ و : Elixier ص ٣٨ .

(١٥١) انظر أيضا : المضنون به على غير اهله ص٣١٢ (فى مجموعة : القصور العوالى) .

وهذه هى وظيفته الحقيقية : « وأعنى بالقلب حقيقةروحه التى هى محل معرفة الله» (١٥٢).

وقد ناقش الغزالى بالتفصيل ما يجب ان يفهم هنا من كلمة قلب فى كثير من كتبه . انه يفهم من كلمة قلب ـ كما يقول (١٥٣) ـ النور الالهى أو البصيرة الباطنة او العقل ، ويؤكد فى هذا الصدد بوجه خاص رأيه العام (١٥٤) من ان الالفاظ أو المصطلحات التى يختارها المرء ليس لها بجانب المعنى الا اهمية ثانوية . فاذا ما تمسك المرء بالالفاظ فان ذلك يجلب عليه الضلال ويوقعه فى الخطأ . يقول الغزالى : « فى القلب غريزة تسمى النور الالهى ... وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأسامى ، فان الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ ، وهو عكس الواجب . فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة كادراكه خلق العالم او افتقاره الى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات الهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلاً بشرط الا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا . ولهذا ذمه بعض الصوفية ، والا فالصفة التى فارق بها الانسان البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات ، فلا ينبغى أن تذم ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الامور كلها ، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم » (١٥٥) .

٣ ـ معرفة الذات : لقد بينّا أن الغزالى يرى أن ماهية الانسان الحقيقية تتمثل فى قدرته على تحقيق معرفته الفطرية لله . ولكن هناك عقبات تقف فى طريق تحقيق ذلك ترجع الى الطبيعة الحسية للانسان والى تسوية الانسان ـ خطأ ـ بينها وبين نفسه . ولكن خصوصية الانسان هي طبيعته العقلية . يقول الغزالى : « وانما خاصته التى لأجلها خلق قوة العقل ودرك حقائق الأشياء » (١٥٦) .

ان الانسان الذى يسلم نفسه كلية لحاجاته الحسية (١٥٧) ، ولهذا يسوى بين نفسه وجسمه ، وعلى استعداد فقط للايمان بالأشياء التى يستطيع أن يدركها عن طريق حواسه الجسمية ـ هذا الانسان ينكر فى نفسه هذا الحس الذى لا يملكه الا الانسان ؛ والذى يرتفع به فوق الحيوان . انه ذلك : « الحس السادس الذى يعبر عنه اما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو ما شئت من العبارات » (١٥٨) والذى يجعل معرفة الله ممكنة . ولهذا فان معرفة الذات شرط لمعرفة الله . يقول الغزالى : « فشرف الانسان ... باستعداده لمعرفة الله ... وانما استعد للمعرفة بقلبه ... وهو الذى اذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه فقد عرف ربه » (١٥٩) .

وتعتمد معرفة الذات على أن الانسان يعرف أنه بوجه خاص كائن عاقل ، وأن جسمه ما

---

(١٥٢) النقد ص ١٤٤ .
(١٥٣) الاحياء ٢٩٩/٤ .
(١٥٤) انظر : المشكاة ص ٤٣ ، ٦٥ وما بعدها ،والمستصفى ص ١٢ ، والاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣ .
(١٥٥) الاحياء ٢٩٩/٤ .
(١٥٦) ميزان العمل ص ٢١٠ .
(١٥٧) انظر فى ذلك على سبيل المثال : الاحياء ٣١٣/٤ ، الاربعين فى اصول الدين ص ٢٣٥ .
(١٥٨) الاحياء ٢٨٩/٤ .
(١٥٩) الاحياء ٢/٣ .

هو الا اداة أو آلة لنفســـــه (١٦٠) « اعلم أن جوهر الانسان بالحقيقة هو النفس الناطقة العاقلـة المدركة العاملـة » (١٦١) . والنفس ليست جسماً وليست أيضاً موجــودة فى الجسم أو فى جزء منه . وهذا يتضح ـ مثلاً ـ من أنه لو فقد جزء من الجسم فان النفس لا يعتريها بسبب ذلك أى نقصان (١٦٢) .

واما جسم الانسان فانه يتبع عالم المادة (أو عالم الخلق كما يسميه الغزالى) ، وهو مثل كل مادة : ممتد وقابل للانقســـام ، فى حين أن النفس تتبع عالم الالوهية (أو عالم الأمر كما يسميه الغزالى) من حيث انها غير ممتدة وغير قابلة للانقسام . ويقول الغزالى : « فكل شىء يجوز عليه المساحة والمقـــدار والكيفية فهو من عالم الخلق ، وليس للقلب مساحة ولا مقدار ، ولهذا لا يقبل القسمة ، ولو قبل القسمة لكان من عالم الخلق ، وكان من جانب الجهل جاهلاً ومن جانب العلم عالماً ، وكل شىء يكون فيه علم وجهل فهو محال » (١٦٣) .

وفضلاً عن ذلك فان النفس جوهر يمكن أن يُعرف مباشرة بدون وساطة : « ومـــا اظنك تفتقر فى ذلك (فى ادراك ذاتك) الـى وسط، فانه لو كان ثم وسط لما ادركت ذاتك، فانه لا وسط بين ذاتك وشعورك بذاتك ، فبقى أن تدرك بغير وسط ... فبقى انـك تدرك ذاتك بذاتك » (١٦٤) .

ان الذات هى هذا الشىء الفريد الذى فيه موضوع المعرفة والذات العارفة شىء واحد .
اما أن معرفة الذات هذه ليست دائماً متحققة فان ذلك يرجع الى أن الانسان عادة فى حياته اليومية لا يتأمل تأملاً فلسفياً فى ذاتـــــه الحقيقية، ولهذا لا يتوجه وعيه الى ذاته وانما يشتغل بدلاً من ذلك بصور الأشياء الحسية . وبهذا ينحرف عن حالته الطبيعية والحقيقية ويسوى نفسه ـ خطأ ـ بالجسم المادى ، ولا يتوصل الى معرفة حقة لذاته . ولكن المرء حين يكون فى حالة اتزان عقلى وسيادة لذاته ، وحين يكون غير منشغل عن طريق علل جسمية، فانه لا يغفل عن ذاته وحقيقته . يقول الغزالى فى هذا الصدد : « ففى هذه الحالـة انت لا تغفل عن آنيتك وحقيقتك ، بل وفى النـــوم ايضاً . فكل من له فطانة ولطف وكياسة يعلم أنه جوهر وانه مجرد عن المادة وعلائقها ، وانه لا تعزب ذاته عن ذاته ، لأن معنى التعقـــل حصول ماهية مجردة للعاقل ، وذاته مجردة لذاته . فلا يحتاج الى تجريد وتقشير . وليس ههنا ماهية ثم معقولية ، بل ماهيته معقوليته ومعقوليته ماهيته » (١٦٥) .

ان معرفة الذات من المعارف الأولية التى يدركها العقل فى حدس خالص مثلها فى ذلك مثل كل المعارف الأولية . يقول الغزالى عـن البديهيات : « وأعني بها العقليات المحضـة التى أفضى ذات العقل بمجرده اليها من غير استعانة بحس أو تخيل ، وجبل على التصديق

---

(١٦٠) ميزان العمل ص ٢١١ .

(١٦١) المعارف العقلية ص ٦٦ .

(١٦٢) انظر تفصيل ذلك فى معارج القدس ص ٣٣وما بعدها .

(١٦٣) كيمياء السعـادة ص ٧٧ ، والترجمة الالمانية ص ٣٧ ، انظر ايضاً : معارج القدس ص ٢٤ ومـا بعدها ، والمضنون الصغير ص ٣٥٥ (ضمـن مجموعـة :القصور العوالى) .

(١٦٤) معارج القدس ص ٢٣ .

(١٦٥) المرجع السابق ص ٢١ وما بعدها . انظرايضاً ص ٣٢ مـن نفس المرجـع حيث يقول الغزالى : « واما ذات النفس فانها تدرك دائماً وجودها » .

بها مثل علم الانسان بوجود نفسه وبأن الواحد لا يكون قديماً حادثاً وأن النقيضين اذا صدق احدهما كذب الآخر وأن الاثنين اكثر من الواحد » (١٦٦) .

والاستغراق التأملى يقود الى المعرفة المباشرة للذات على أنها ماهية مختلفة عن الجسم وعن كل المادة : « فاذا أغمض انسان عينيه ، ونسى السماء والأرض ، وكل ما يمكن ان تراه العين فانه يكون لديه بالضرورة معرفة بوجوده ووعى بذاته حتى ولو لم يكن لديه وعى بجسمه وبالسماء وبالأرض وبكل ما فيهما . فاذا تأمل انسان ذلك حقاً فسيعرف أنه لو سلب منه جسمه أيضاً فانه سيبقى ولن يصير أبداً الى عدم » (١٦٧) .

اما العلاقة المتبادلة بين معرفة الذات ومعرفة الله — اى الحقيقة المتمثلة فى ان من عرف نفسه فقد عرف ربه (١٦٨) ، وان معرفة الذات هي المفتاح الى معرفة الله (١٦٩) — فانها تستند الى ان الانسان مخلوق على صورة الله . وهذه الصورة تتعلق كما يقول الغزالى (١٧٠) — بالذات وبالصفات وبالأفعال ، فماهية الانسان هى نفسه أو روحه ، وهى قائمة بنفسها ، فليست عرضاً ولا جسماً ولا جوهراً متحيزاً . وليست مكانية ، وليست متصلة بالجسم ولا منفصلة عنه : « وهذا كله فى حقيقة ذات الله تعالى » (١٧١) وفضلاً عن ذلك فان صفات الله مثل صفات الانسان من حيث أنه حى عالم قادر مريد الخ .. وأفعال الانسان تشبه أفعال الله من حيث أنه يتصرف فى جسمه عن طريق ارادته مثلما يتصرف الله فى العالم (١٧٢) .

ان الانسان يستطيع أن يعرف الأشياء بوساطة الأمثلة ، ولو لم يكن الانسان عالماً صغيراً (١٧٣) لما استطاع أن يعرف الله والعالم . وصورةالانسان قد كتبت — كما يقولالغزالى — بخط الله ، وذلك جعل الانسان قادراً على معرفة الله : « ثم أنعم (الله) على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما فى العالم ..وصورة آدم .. مكتوبة بخط الله .. ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمى عن معرفة ربه، اذ لا يعرفربه الا من عرف نفسه »(١٧٤) .

ولكن كون معرفة الذات مفتاحاً الى معرفة الله لا يعنى أن الله له صفات انسانية . يقول الغزالى : « اعلم انا وان تدرجنا الى معرفة ذاته وصفاته من معرفة النفس فذلك على سبيل الاستدلال ، والا فالله منزه عن جميع صفات المخلوقات » (١٧٥) .

واذا كانت معرفة الذات — من ناحية — تجعل الانسان يدرك أنه على صورة الله ،

---

(١٦٦) المستصفى ص ٤٤ .

(١٦٧) هذا النص غير موجود فى النسخة العربيةلكيمياء السعادة التى سبقت الاشارة اليها فى الهامش ، ولكنه موجود فى النسخة الألمانية (ص ٣٦) المترجمة عنالفارسية والتى سبقت الاشارة اليها أيضاً .

(١٦٨) انظر مثلاً المعارج ص ٤ ؛ مشكاة الأنوارص ٧١ ؛ المضنون به على غير أهله ص ٣١٢ ، المضنون الصغير ص ٣٥٨ .

(١٦٩) كيمياء السعادة ص ٧٤ ، النسخة الألمانيةص ٢٣ .

(١٧٠) المضنون الصغير ص ٣٥٧ وما بعدها .

(١٧١) نفس المرجع ص ٣٥٧ .

(١٧٢) انظر أيضاً : معارج القدس ص ١٩٨ .

(١٧٣) انظر أيضاً : المعارف العقلية ص ٢٢ .

(١٧٤) مشكاة الأنوار ص ٧١ .

(١٧٥) معارج القدس ص ١٩٧ .

فانها من ناحية اخرى تقود كذلك الى معرفة عجز الانسان ونقصه ؛ وهذه المعرفة هى أيضا مفتاح الى معرفة الله (١٧٦) . والانسان الذى يصل الى معرفة حقيقية للذات يصل عن طريق ذلك الى معرفة الله على أنه خالقه وحافظه : « فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً انه لا وجود له من ذاته ، وانما وجود ذاته ودوام وجوده ، وكمال وجوده من الله والى الله وبالله » (١٧٧) .

فاذا قابلنا الآن بين رأى الغفزالى فيما يتعلق بمعرفة الله ومعرفة الذات ــ اللتين عرضهما فى كثير من مؤلفاته واللتين وضحناهما هنا فى اسسهما الرئيسية ــ وبين عرضنا وتفسيرنا الفلسفى للحل الغزالى ، فاننا نجد أن تفسيرنا الفلسفى للحل يحصل هنا على سند جديد ودعم قوى .

ان المعرفة الفلسفية اليقينية للحقيقة تبدأ بمعرفة الله . ومعرفة الله تصبح ممكنة عن طريق تحقيق الانسان لمعرفة ذاته معرفة حقة. وهذه المعرفة الحقة للذات يصل اليها الانسان بعد تحليل فلسفى لكل الواقع ، حتى يصل الى وجوده الحقيقى ككائن عاقل ، ويجد أنه من ناحية ضعيف وناقص وانه من ناحية اخرى صورة الله فى الأرض .

وبعد أن وضحنا حل الغزالى بالتفصيل ، وبعد أن وجد تفسيرنا الفلسفى لهذا الحل تأكيداً جديداً له عن طريق عرضنا لمعرفة الله ومعرفة الذات عند الغزالى ــ نريد أن نعرض الآن فيما يلى حل ديكارت وبعد ذلك نقابل بين كلا الحلين ونقارن بينهما .

★★★

الحل الديكارتى

بعد أن مارس ديكارت الشك بكل نتائجه حتى وصل به الأمر الى الشك المطلق ، توصل على الرغم من ذلك الى يقين معين يتمثل فى انه ليس هناك شك فى انه موجود ، حتى وان كان أيضاً يتعرض لضلال فى كل شىء . يقول ديكارت فى ذلك :

« ولكن هناك لا ادرى اى مضل شديد البأس شديد المكر يبذل كل ما اوتى من مهارة لاضلالى على الدوام . ليس من شك اذن فى انى موجود متى اضلنى . فليضلنى ما شاء ، فما هو بمستطيع ابداً أن يجعلنى لا شىء ، ما دام يقع فى حسبانى انى شىء : فينبغى على، وقد رويت الفكر ودققت النظر فى جميع الامور ، أن أنتهى الى نتيجة وان اخلص الى ان هذه القضية : (انا كائن وانا موجود) قضية صحيحة بالضرورة كلما نطقت بها وكلما تصورتها فى ذهنى » (١٧٨) .

ويواصل ديكارت التأمل الذاتى ويرى أن قضية (أنا كائن وانا موجود) صحيحة ما دام يفكر فيها . وفى ذلك يقول : « انا كائن وانا موجود : هذا أمر يقيني . ولكن الى متى ؟ ــ أنا موجود ما دمت أفكر ؛ فقد يحصل أنى متى انقطعت عن التفكير تماماً انقطعت عن الوجود بتاتاً . لا اسلم الآن بشىء مالم يكن بالضرورة صحيحاً : واذن فما أنا على التدقيق الا شىء مفكر ، أى روح أو ذهن أو عقل » (١٧٩) .

---

(١٧٦) Elixier p. 71

(١٧٧) الاحياء ٢٩٣/٤ . انظر ايضا الاحياء ١٨٦/٤حيث يقول الغزالى : « ان كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لانه محتاج الى دوام الوجود فى ثانى الحال .ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ... ».

(١٧٨) الترجمة العربية للتاملات ص ٩١ .

(١٧٩) المرجع السابق ص ٩٦ .

ان وجود الذات هو الفكر ، هو العقل أو الروح. والمعرفة التى تتمثل فى : « أنا أفكر اذن فأنا موجود Cogito ergo sum » يسميها ديكارت « بالمعرفة الاولى » (١٨٠) .

وعلامة ما يسمى بالمعرفة الاولى هى : الوضوح والتميز . ومن ذلك يعتقد ديكارت انه يستطيع أن يقرر قاعدة عامة تتمثل فى ان كل ما يراه واضحاً جداً ومتميزاً جداً فهو صادق (١٨١) .

واذ يضع ديكارت الآن هذه القاعدة عند هذه الدرجة من التأمل فانه يعتقد فقط صحة هذه القاعدة ، لأنها لم تجد بعد التبرير الميتافيزيقى . فالتأمل لم يصل الى نهايته ، ولهذا لم يصل بعد الى المبدأ الأول الذى يؤسس المعرفة ويمنحها اليقين . وذلك لأن الكوجيتو (أنا أفكر فأنا موجود) ليس هو هذا المبدأ الأول المؤسس فانه رغم أن وعى الذات يدرك ادراكاً يقينياً ويبرهن بذلك على استقلاله ، الا أن هذا الاستقلال محدود أيضاً بلحظة التفكير فقط . وذلك لأنه يمكن أن يحدث — كما يقول ديكارت — أنه لو توقف عن التفكير فانه أيضاً يتوقف عن الوجود(١٨٢). وهكذا لا يجد الكوجيتو تأسيسه فى نفسه . ولهذا يمكن أيضاً أن يحدث عند مقابلة المعرفة الاولى (وهى معرفة الكوجيتو) من جديد بمشكلة « الاله المضل » أن توضع فى نفس المستوى مع الحقائق الضرورية الاخرى ، لا من حيث أن معرفة الكوجيتو يمكن أن يشكك فيها مثل هذه الحقائق الضرورية التى لم تستطع أن تثبت أمام الشك الميتافيزيقى ، ولكن من حيث أن معرفة الكوجيتو لا تستطيع أن تعطى للعقل التأسيس المطلق المطلوب فى معارفه . ولهذا يظهر الشك الميتافيزيقى من جديد فى مركز التأمل ، ويستلزم العمل من جديد للتغلب عليه مرة اخرى . وهكذا يتجه ديكارت الى بحث مشكلة « الاله المضل » لكى يدفع الشك الميتافيزيقى نهائياً . يقول ديكارت فى هذا الصدد :

« ولكن يلزمنى ، لكى يتسنى لى ان ادراه (أى الشك الميتافيزيقى) درءاً تاماً ، ان انظر فى وجود اله ، عندما تسنح الفرصة لذلك ؛ فاذا وجدت أن هنالك الهاً فلا بد أيضاً من أن انظر هل من الممكن أن يكون مضلاً : فبدون معرفة هاتين الحقيقتين لا ارى سبيلاً الى اليقين من شىء أبداً » (١٨٣) .

وحين يقوم ديكارت بهذه المهمة فانه يستخدم فى هذا النظر قاعدة الحقيقة التى سبقت الاشارة اليها بالرغم من أن هذه القاعدة لم تحصل بعد على التبرير المطلوب . ولكن هذه القاعدة ليس لها الآن فى هذا النظر أو البحث الا وظيفة سلبية الى حد ما ، فهى لا تستطيع أن تنتج الحل من ذاتها ، وانما واجبها فقط هو عزل كل المعارف التى تكون غير واضحة وغير متميزة . والدليل الحقيقى على المبدأ الأول المطلق — كما سنبين — ليس دليلاً منطقياً . ولهذا فلديكارت الحق فى استخدام هذه القاعدة فى هذا النظر .

ونتيجة بحث ديكارت أو بتعبير ادق ختام بحثه يتمثل فى معرفة ليست نتيجة برهان منطقى ، كما لا يمكن أن يبرهن عليها منطقياً ، وانما هى معرفة مدركة ادراكاً مباشراً . وتلك هى معرفة وجود الله . وهذه المعرفة واضحة ومتميزة تماماً مثل معرفة الكوجيتو ومتضمنة

---

(١٨٠) نفس المرجع السابق ص ١٢٤ . AT IX p. 27

(١٨١) المرجع السابق .

(١٨٢) AT IX p. 21 (انظر الترجمة العربية للتأملات ص ٩٦) .

(١٨٣) المرجع السابق ص ٢٨ وما بعدها (الترجمة العربية للتأملات ص ١٢٧) .

فيها ــ وكلا المعرفتين (معرفة الكوجيتو ومعرفة وجود الله) تصور فطرى . ولكن معرفة الله هى أول هذه التصورات الفطرية فى تأسيس الحقيقة واهمها (١٨٤) ، لأن من يعرف ذاته يعرف الله كسبب سابق وخالق لذاته وكسبب أعلى للمعرفة .

وقد غرست فكرة الله فى الانسان عند خلقه هكذا مثلما يختم الفنان صنعته باسمه . يقول ديكارت : « والحق أنه لا ينبغى ان نعجب من ان الله حين خلقنى غرس فى هذه الفكرة لكى تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته . وليس من الضرورى كذلك أن تكون هذه العلامة شيئاً مختلفاً عن هذه الصنعة نفسها. ولكن مجرد اعتبار أن الله خلقنى يرجح عندى الاعتقاد بأنه قد جعلنى من بعض الوجوه على صورته أو على مثاله » (١٨٥) .

فاذا حقق الانسان معرفة الذات تماماً ، ورأى ان أخص خصائص الانسان يتمثل فى الدافع نحو الكمال ، فانه حينئذ يعرف حقيقتين فى وقت واحد : الحقيقة الاولى تتمثل فى أنه شىء ناقص ومعتمد على غيره والحقيقة الثانية أن هذا الموجود الذى يعتمد عليه يملك بالفعل والى غير نهاية كل كمال .

وهكذا فان معرفة الذات على هذا النحو تتضمن معرفة أن الله موجود . يقول ديكارت : « وانى اتصور هذه المشابهة المتضمنة لفكرة الله بعين الملكة التى اتصور بها نفسى ، اى انى حين أجعل نفسى موضوع تفكيرى ، لا اتبين فقط أنى شىء ناقص ، غير تام ، ومعتمد على غيرى ، ودائم النزوع والاشتياق الى شىء احسن واعظم منى ، بل اعرف أيضاً فى الوقت نفسه أن الذى اعتمد عليه يملك فى ذاته كل هذه الأشياء العظيمة التى اشتاق اليها والتى اجد فى نفسى أفكاراً عنها ، وانه يملكها لا على نحو غير معين أو بالقوة فحسب ، بل يتمتع بها فى الواقع وبالفعل والى غير نهاية ، ومن ثمة أعرف أنه هو الله » (١٨٦) .

وبهذا توصل ديكارت الى مصدر الحقيقة وهو الله . والآن تتضح شرعية الطريق الذى قاد الى مصدر الحقيقة ، وهذا يعنى ان قاعدة الحقيقة التى وضعها ديكارت تحصل الآن على شرعيتها وتحصل المعرفة العقلية على الضمان المطلوب . يقول ديكارت : « واذن فقد وضح لى كل الوضوح أن يقين كل علم وحقيقته انما يعتمدان على معرفتنا للاله الحق ، بحيث يصح لى أن اقول : انى قبل أن أعرف الله ما كان بوسعى أن أعرف شيئاً آخر معرفة كاملة » (١٨٧) .

ولقد اتهم ديكارت « بالدور » (١٨٨) حيث لم يستطع أن يبرر قاعدة الحقيقة ــ التى تتمثل فى أن كل ما يراه واضحا جدا ومتميزا جدا فهو حق ، والتى وصل بمساعدتها الى معرفة وجود الله ــ الا على أساس وجود الله . وقد دفع ديكارت هذا الاتهام عن نفسه (١٨٩) حين أشار الى أنه يجب على المرء ان يفرق بين العلم scientia المترتب على الاستنباط وبين معرفة المبادىء والاصول notitia . وأنه يشترط للنوع الأول فقط يقين وجود الله ، فى حين أن معرفة المبادىء

(١٨٤) المرجع السابق ص ٥٤ (الترجمة العربية للتاملات ص ٢٠٢) .

(١٨٥) المرجع السابق ص ٤١ (الترجمة العربية للتاملات ص ١٥٥) .

(١٨٦) المرجع السابق (الترجمة العربية ص ١٥٥/١٥٦) .

(١٨٧) نفس المرجع ص ٥٦ (الترجمة العربية ص٢٠٨) .

(١٨٨) انظر تفصيل ذلك أيضاً عند الدكتور عثمان أمين فى كتابه القيم : ديكارت (الطبعة الخامسة) ص ٢١٠ وما بعدها .

(١٨٩) AT VII p. 140

والاصول لا تستنتج من اى قياس (١٩٠) ، وانما هى نوع يقين يعرف بنظرة بسيطة وليس فيحاجة الى الضمان الالهى : « واذن فديكارت يرد على من اتهموه بالوقوع فى الدور بأن المعرفة الحدسية البديهية ليست بحاجة الى ان تكون مضمونة من الصدق الالهى ، وانما المعرفة الاستنباطية وحدها بحاجة الى ذلك الضمان » (١٩١) .

ومن ذلك يتبين أن من اتهموا ديكارت هنا بالدور لم يفهموا « التأملات » بالمعنى الذى قصده ديكارت ، وأنهم قد أساءوا بوجه خاص فهم طريقته . فقد طبق ديكارت فى « التأملات » طريقة التحليل فقط ، التى يقول عنها انها فقط هى التى تيسر الحصول على معرفة أولية « حتى اذا أراد القارىء أن يسير عليها ويتجه بانتباهه اليها فانه سيتبين الشيء هكذا بدقة تامة ، وسيجعل منه ملكاً له كما لو أنه هو الذى وجده بنفسه » (١٩٢) .

اما الأدلة على وجود الله التى وضعت بمساعدة الطريقة التركيبية (١٩٣) فليست لها الا أهمية ثانوية فقط فى مقابل معرفة الله التى يتوصل اليها بوساطة طريقة التحليل .
وذلك لأن هذه الأدلة لا يمكنها ـ كما يقول ـ أن تعلم كيفية العثور على الشيء ، ولهذا فقد قصد بها فقط القراء الذين ليست لديهم القدرة الكافية على التأمل ، والذين لا يستطيعون لذلك أن ينفذوا التحليل بأنفسهم (١٩٤) .

ان معرفة الله الحقة لا يستطيع ان يتوصل اليها الا فكر متحرر من الاحكام السابقة ومن الصور الحسية . يقول ديكارت : « أما فيما يتعلق بالله ، فلو لم يكنذهنى مشغولاً بأحكامه السابقة ، ولو لم يكن فكرى منصرفاً على الدوام الىصور الأشياء الحسية، لما كان هناك شيء أعرفه بأسرع ولا أيسر مما أعرف الله » (١٩٥) .

والشك المنهجى الذى ينفذ بكل نتائجه ـ هذا الشك فى كل علم ليس واضحاً وضوحاً مطلقاً والذى يجبأن يقف عند الخطوة الأخيرة أمام ذات المتأمل نفسه ، تلك الذات التى تدرك فى تناهيها وفى سعيها نحو الكمال ـ هو فقط الذى يبين أن فكرة وجود الله مطبوعة فى ذات المتأمل ، وهو فقط الذى يستطيع ان يقود الى مكان المعرفة الحقيقية التى تعلم أنها مؤسسة فى الله الحق الذى هو مصدر كل نور (١٩٦) .

★★★

مقارنة ختامية :

هذه المقارنة الختامية لكلا الحلين لا تقدم حصراً لكل وجوه الاتفاق والاختلاف التى يمكن اخذها من عرضنا ومناقشاتنا السابقة ، ولكنها تقتصر فقط على ابراز الخطوط الرئيسية :

ففيما يتعلق بالطريقة التى عرض بها كل من

---

(١٩٠) وهكذا يرى ديكارت ان الملحد يستطيع مثلاًان يعرف بوضوح حقائق رياضية مثل ان مجموع زوايا المثلث تساوى قائمتين، ولكن هذه المعرفة لا تسمى علماحقيقيا ، لأن اى معرفة لا تستطيع ان تثبت امام الشك الميتافيزيقى لا يجوز ان تسمى علماً حقيقياً : انظر فى ذلك : AT IX p. 111

(١٩١) ديكارت للدكتور عثمان امين ص ٢١٢/٢١٣ .

(١٩٢) AT IX p. 121

(١٩٣) المرجع السابق ص ١٢١ وما بعدها .

(١٩٤) المرجع السابق .

(١٩٥) الترجمة العربية للتاملات ٢٠٤ : AT IX p. 54 f

(١٩٦) انظر فى ذلك : AT IX-2e p. 37

الغزالى وديكارت الحل الذى توصلا اليه نريد ان نشير بوجه خاص الى ما يأتي :

(١) لقد عرض الغزالى فى حله كيف ارتفع الشك المطلق مباشرة عن طريق اليقين المطلق الذى اتت به معرفة الله المدركة ادراكاً حدسياً . وقد برز الطابع الحدسى لهذه المعرفة فى صورة نموذجية من خلال الطريقة التى عرض بها الغزالى هذه المعرفة ؛ ومن ناحية اخرى فان عرض الغزالى للحل المتمثل فى صورة النور الذى قذفه الله فى صدره قد اعطى دافعاً لسوء فهم هذا الحل فى صورة تفسيرات صوفية ولاعقلية . اما ديكارت فقد ميز فى عملية رفع الشك ـ على خلاف ما فعل الغزالى ـ درجات متعددة بطريقة تحليلية : انا كائن وانا موجود ، وانا افكر فانا موجود واخيراً الله موجود ، ولهذا فكل ما ادركه فى وضوح وتميز فهو حق (١٩٧) .

وقد كان فى سعى ديكارت التى تعميق فكره وتأملاته فى سبيل الحصول على الوضوح الفكرى الأكمل ما دفع البعض الى اساءة فهم أساس فلسفته بالادعاء بأنه يقوم على مجرد تفكير منطقى .

(٢) ومعرفة الله المدركة عن طريق الحدس توجد فى مركز كلا الحلين كما سبق أن عرضنا ووضحنا بالتفصيل . وعن طريق معرفة الله هذه تحصل المعرفة العقلية ـ التى اهتزت شرعيتها عن طريق الشك المطلق ـ على شرعيتها من الناحية الميتافيزيقية . وقد ميز الغزالى معرفة الله الحدسية هذه بطريقة لا تدع مجالاً لسوء الفهم من كل المعارف التى يحصل عليها المرء عن طريق براهين منطقية ، واكد انه يتوصل عن طريق الحدس لا الى هذه المعرفة فقط وانما يتوصل الى أكثر المعارف عن هذا الطريق . واما ديكارت ـ الذى يمثل الحدس بالنسبة له ايضاً أهم واوضح طريق للمعرفة (١٩٨) ـ فقد بين كما فعل الغزالى أن معرفة الله الحقة تكون عن طريق الحدس ، وانها تمثل بالنسبة للعقل أول وأوضح الحقائق كلها . وقد حصل تفسيرنا الفلسفى لحل الغزالى على تأكيد جديد وتدعيم له عن طريق عرضنا لآرائه الأساسية فيما يتعلق بمعرفة الله ومعرفة الذات .

(٣) واذا قارنا آراء الغزالى وديكارت فيما يتعلق بمعرفة الله ومعرفة الذات فاننا نتبين الاتفاق بينهما فى الامور الأساسية التالية :

● ان فكرة الله هى بالنسبة لكلا المفكرين اول الأفكار الفطرية كلها ، وتفوق فى وضوحها ويقينها ما عداها من كل التصورات الاخرى . وتمثل المعرفة الفلسفية للذات شرطاً لا غنى عنه لمعرفة الله . والمعرفة الفلسفية للذات هى أيضاً تصور فطرى ، وتتميز بالوضوح اذا تحققت عن طريق العقل وحده ، أى اذا تحرر العقل من كل الأحكام السابقة ومن تدخل صور الأشياء الحسية .

● ومعرفة الذات تسير جنباً الى جنب مع معرفة الله التى تكون ممكنة عن طريق كون الانسان على صورة الله . وهذه المشابهة يمكن أن تتحقق اذا ما اعترف الانسان لعقله بالمكان السائد المناسب ، وبهذا يعرف أن الله مصدر معرفته للحقيقة ومصدر كل نور .

● فاذا تحققت المعرفة الفلسفية لله وللذات يعرف المرء فى الوقت نفسه تلك الحقيقة التى تتمثل فى أن الانسان ـ كما يقول الغزالى ـ « لا وجود له من ذاته ، وانما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من

---

(١٩٧) انظر الترجمة العربية للتأملات ص ٢٠٦ . راجع فى ذلك ايضاً :

R. Lauth: Zur Idee der Transzendentalphilosophie, München 1965, p. 27.

(١٩٨) انظر فى ذلك : AT IX p. 368, 425

الله والى الله وباله » (١٩٩) . ويعبر ديكارت عن هذه الحقيقة بقوله ان المرء يعرف حينئذ انه موجود ناقص فى مقابل كمال الوجـــود الالهى ، وأن وجوده معتمد على وجود الله كل الاعتماد فى جميع لحظات حياته (٢٠٠) ؛ والله ليس فقط خالقاً وحافظاً للوجود الانسانى ، بل انه وحده هو الموجود الحق — كمـــا يقول الغزالى (٢٠١) — ووجوده وماهيته شـــىء واحد (٢٠٢) ؛ وكذلك يرى ديكارت ان الوجود صفة ضرورية لله وحده ، وأن الوجود يمثل جزءاً من ماهيته ، وذلك ليس لأحـــد الا الله (٢٠٣) .

● وبسبب هذا التفرد والكمال اللامتناهى لماهية الله فان الانسان لا يستطيع أن يعرف الله « على سبيل الاحاطة والكمال » كما يقول الغزالى (٢٠٤) ؛ فكمالاته — كما يوضح ديكارت ايضاً (٢٠٥) — لا يمكن ادراكها ، ولكن تلمس الىحد ما بالأفكار : « فان من شأن اللامتناهى ان يعجز المتناهى عن الاحاطة بـــه » (٢٠٦) . ولكن معرفة وجود الله تتجلى بأعلى قدر من الوضوح والبداهة لمن يكرس نفسه كلية للبحث عن الحقيقة المطلقة . ومعرفة الله عند الغزالى هى اولى المعارف وأسبقهـــا واسهلها (٢٠٧) ، وعند ديكارت هى أكثر وضوحاً وتميزاً مـــن اى معرفة اخرى (٢٠٨) .

(٤) وعلى الجملة نستطيع أن نقول فيما يتعلق بتأسيس فلسفتيهما ما يأتى :

● أن الاختـــلافات بينهمـــا فى التأسيس الفلسفى تتعلق بوجه خاص بصورة عرضهما ، ولا تتعلق — كما بينا — بالمعنى الأساسى ،اى انها خاصة بالشكل وليست متعلقةبالموضوع . وهكذا تظهر عند الغزالى مشكلة «الاله المضل» وكذلك الشيطان الماكر بطريقة تلميحيةفقط فى عرضه للشك المطلق ، ولكن هـــذا الشك المطلق يتضمن هذه المشكلـــة كمـــا سبق أن وضحنا ؛ وقد أشار الغزالى الى هذه المشكلة فى موضع آخر من المنقذ، كما ناقشهابالتفصيل فى مؤلف آخر . وقد تدرج الشك المطلق عند الغزالى بوجه خاص عن طريق فكرة (الحاكم الآخر) الذى اذا تجلى كذب العقل فى حكمه،وما يسمى بحالة اليقظة الجديدة ، وهذه الفكرة لا نجد لها نظيراً عند ديكارت .

● كما أن قضية (انا افكر فأنا موجود) التى تمثل عند ديكارت درجة اولى للحـــل لا تظهر فى تلك الصورة فى عرض الغزالى للحل ، فى حين انالمعرفة الفلسفيةللذات — التىتشمل معرفة الكوجيتو ، اى معرفة الذات ومعرفة اعتماد الذات اعتماداً مطلقاً على الله — توجد فى مركز الحل سواء عند الغزالى أو ديكارت . وقد ناقش الغزالى معرفة الكوجيتو فى مؤلفات اخرى غير المنقذ وبين أهميتها . وذلك علـــى سبيل المثال فى النص الذى سبق أن أوردناه والذى يقول فيه : « فاذا أغمض أنسان عينيه ونسى جسمه ونسى السماء والأرض وكل ما

---

(١٩٩) الاحياء ٢٩٣/٤ .
(٢٠٠) انظر فى ذلك . AT IX p. 42, 39 ; IX - 2e p. 34
(٢٠١) مشكاة الأنوار ص ٥٥ .
(٢٠٢) معارج القدس ص ١٩١ وما بعدها .
(٢٠٣) راجع فى ذلك : AT VII p. 383
(٢٠٤) معارج القدس ص ٢٠٩ .
(٢٠٥) انظر فى ذلك : AT IX p. 41
(٢٠٦) الترجمة العربية للتاملات ص ١٤٦ : AT IX p. 37
(٢٠٧) الاحياء ٣١٢/٤ وما بعدها .
(٢٠٨) راجع : AT IX P. 90, 37

يمكن أن تراه العين فانه يكون لديه بالضرورة معرفة بوجوده ووعى بذاته ، حتى ولو لم يكن لديه أيضاً وعى بجسمه وبالسماء وبالأرض وبكل ما فيهما . فاذا تأمل انسان ذلك حقاً فسيعرف أنه لو سلب منه جسمه أيضاً فانه سيبقى ولن يصير أبداً الى عدم » (٢٠٩) .

● ولكن فى حين ان معرفة الذات ومعرفة الله قد تحققتا بعمل واحد فى الحل عند الغزالى ، فان ديكارت قد ميز درجات مختلفة . والفرق الأساسى بين الحلين يتمثل فيما قام به ديكارت من الارتفاع بالكوجيتو الى معنى ترانزتسندنتالى ، فالكوجيتو مؤسس فى نفسه ، لأنه ليس فى حاجة الى موجود آخر لكى يعلم نفسه . ولكن هذا التأسيس الذاتى ليس كاملاً ، ذلك لأنه لو كان كاملاً للزم أن يخلق نفسه أيضاً . وما يشتمل عليه الكوجيتو من عنصرى الوجود والفكر يمثل مجرد وحدة نسبية تشير الى وحدة أعلى منها تجمع كلا العنصرين فى وحدة تامة . فالكوجيتو يدل على أوليته واطلاقه من ناحية ، ومن ناحية اخرى يشير باعتباره يمثل وحدة نسبية فقط من الفكر والوجود الى الوحدة المطلقة لهما والتى تتمثل فى الله .

● والمقارنة بين كلا الحلين عند الغزالى وديكارت تبين أنه توجد فيهما نفس المعرفة الأساسية الفلسفية : التأسيس الواضح للحقيقة فى وجود الله المطلق كمصدر وحافظ للوجود الانسانى المتناهى . وعلى هذا يعتمد تأسيس فلسفتيهما : « فى تناهينا نستطيع أن نلمس المطلق ، أى نلمس وجود الله اللامتناهى (بأفكارنا) ... وهذا العنصر هو الأساس الحقيقى لكل ميتافيزيقا » (٢١٠) .

والمنطلق هنا ليس متمثلاً فى افتراض وجود الله على اعتبار أن ذلك أمر مفروغ منه كما كان ذلك فى الفكر المدرسى وعند علماء الكلام ؛ بل نقطة الانطلاق تتمثل فقط فى المفكر نفسه الذى يصل ــ من خلال بحثه عن حقيقة يقينيه مطلقة بمساعدة طريقة الشك الفلسفى وبعد معرفة الذات معرفة فلسفية ــ الى معرفة الله معرفة حدسية .

وعلى العكس من الفلاسفة قبل الغزالى الذين نقلوا مفهوم الله « الى ما وراء حدود الحوادث (أى كل ما يحدث فى العالم)، عند النهاية الميتافيزيقية للعلاقة السببية الطبيعية والخلقية ، حيث لا يجد هذا المفهوم من هناك صلة او قنطرة تصله بالعالم وبالانسان » (٢١١) حيث يصلون فى فكرهم الى تناقضات لا يمكن رفعها ــ على العكس من هؤلاء الفلاسفة فان معرفة الله بالنسبة للغزالى توجد قبل كل المعارف ، انه لا يستطيع بدونها أن يخطو خطوة واحدة لا فى العلوم الطبيعية ولا فى مجال الأخلاق (٢١٢) ، ولا فى الفكر على الاطلاق . وكذلك بين ديكارت « على أى وجه يصح القول ان يقين البراهين الهندسية نفسه متوقف على معرفتنا بالله » (٢١٣) .

لقد عرف : « ان يقين كل علم وحقيقة انما يعتمد على معرفتنا للاله الحق ، بحيث يصح لى أن أقول انى قبل أن أعرف الله ما كان بوسعى ان اعرف شيئاً آخر معرفة كاملة » (٢١٤) .

---

(٢٠٩) Elixier p. 36 ؛ انظر أيضاً معارج القدس ص ٢١ وما بعدها . قارن فى ذلك أيضاً ديكارت: AT IX p. 27

(٢١٠) R. Lauth, Die Frage nach dem Sinn des Daseins, p. 241.

(٢١١) Obermann, op. cit. p. 218

(٢١٢) Ibid.

(٢١٣) الترجمة العربية للتأملات ص ٥٨ : AT IX p. 11

(٢١٤) المرجع السابق ص ٢٠٨ : AT IX p. 56.

المراجـع

ا ـ مراجع باللغة العربية :

أبو حامد الغزالى : فى الذكرى المئوية التاسعة لميلاده . القاهرة ١٩٦٢ .

ديكـارت : التاملات فى الفلسفة الاولى . ترجمة د. عثمان امين . مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة 1951 .

: مبادىء الفلسفة . ترجمة د. عثمان امين . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ .

: مقال عن المنهج . ترجمة محمود محمد الخضيرى . دار الكاتب العربى بالقاهرة ١٩٦٨ .

زكى مبارك (د.) : الاخلاق عند الغزالى . القاهرة ١٩٢٤ .

سليمان دنيا (د.) : الحقيقة فى نظر الغزالى . دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٥ .

عبد الكريم العثمان : سيرة الغزالى وأقوال المتقدمين فيه . دمشق ١٩٦١ .

عثمان امين (د.) : ديكارت . مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٥ .

الغزالـى : تهافت الفلاسفة . تحقيق الأب موريس بويج ، بيروت ١٩٦٢ .

: ميزان العمل . تحقيق د. سليمان دنيا . القاهرة ١٩٦٤ .

: المنقذ من الضلال . تحقيق د. كامل صليبا ود. كامل عياد . دمشق ١٩٣٤ .

: احياء علوم الدين . فى ٤ أجزاء طبع مصطفى البابى الحلبى . بالقاهرة ١٩٣٩ .

: معيار العلم . تحقيق د. سليمان دنيا . القاهرة ١٩٦١ .

: المعارف العقلية . تحقيق عبد الكريم العثمان . دمشق ١٩٦٣ .

: معارج القدس . القاهرة ١٩٢٧ .

: مشكاة الانوار . تحقيق د. ابو العلا عفيفى . القاهرة ١٩٦٤ .

: محك النظر . بيروت ١٩٦٦ .

: الاقتصاد فى الاعتقاد . القاهرة ١٩٦٢ .

: المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى . مكتبة القاهرة . (بدون تاريخ) .

: جواهر القرآن . القاهرة ١٣٢٩ هـ .

: المستصفى من علم الاصول . فى جزئين . القاهرة ٢٢ ـ ١٣٢٤ هـ .

: الأربعين فى اصول الدين . مكتبة الجندى بالقاهرة ١٣٨٣ هـ .

: معراج السالكين (ضمن مجموعة الرسائل الفرائد من تصانيف الامام الغزالى . مكتبـة الجندى بالقاهرة . بدون تاريخ) .

: رسالة فى بيان معرفة الله (مخطوطة بمكتبة جامعة ليدن بهولانده تحت رقم : («Or. 177«7

: القصور العوالى من رسائل الامام الغزالى (تشتمل على رسائل منها : القسطاس المستقيم ، ايها الولد ، الجام العوام عن علم الكلام ، المضنون به على غير اهله ، المضنون الصغير) . مكتبة الجندى بالقاهرة . بدون تاريخ .

: كيمياء السعادة (فى مجموع يضم المنقذ من الضلال ورسائل اخرى) . مكتبة الجندى . بدون تاريخ .

٢ ـ مراجع اجنبية :

Abu Ridah, M.A.A. : **Al-Ghazali und seine Widerlegung der griechischen Philosophie.** Madrid, 1952.

Alquié, F. : **Descartes. L'homme et l'oeuvre.** Paris, 1956.

Asin Palacios, M. : **Algazel, Dogmàtica, Moral, Ascética.** Zaragoza, 1901.

Azkoul, K. : **Al-Ghazzaii. Geltung und Grenzen der Vernunft.** Diss. Munchen, 1938.

Carra de Vaux : **Gazali.** Paris, 1902.

Descartes, R. : **Oeuvres de Descartes.** Adam & Tannery, Paris 1897-1910.

Diels, H. : **Die Fragmente der Vorsokratiker.** Hamburg 1964.

The Encyclopaedia of Islam. Leiden-London, 1960 ff.

Enzyklopadie des Islam. Leiden, 1913-34.

Fichte, J. G. : **Ausgewahlte Werke,** in 6 Bänden. Hrsg. v. F. Medicus. Darmstadt, 1962.

Frick, H. : **Ghazalis Selbstbiographie, ein Vergleich mit Augustins Konfessionen.** Leipzig, 1919.

Goldziher, I. : " Die islamische und die judische Philosophie." In : **Kultur der Gegenwart** 1, 5. Berlin, 1909.

Gosche, R. : " Uber Ghazzalis Leben und Werke." In : **Abhandlg.** d.Kgl. Akad. d. Wiss. Z. Berlin a.d. Jahre 1858, Berlin, 1859.

Horten, M. : **Die Philosophie des Islam** in ihren Beziehungen zu den philosophischen Wel. tanschauungen des westlichen Orients. Mùnchen, 1924.

Lauth, R. : (1) **Die Frage nach dem Sinn des Daseins.** Mûnchen, 1953

(2) Begriff, **Begrundung und Rechtfertigung der Philosophie.** Mûnchen, 1967

(3) **Zur Idee der Transzendentalphilosophie.** Munchen 1965

Macdonald, D. B. : **The Life of al-Ghazzali.** JAOS XX, New Haven, 1899.

Obermann, J. : **Der philosophische und religiose Subjektivismus Ghazalis.** Wien-Leipzig, 1921.

Renan, E. : **Averroés.** Paris, 1852.

Ritter, H. : **Al Ghasali.** Das Elixier der Gluckseligkeit. Dusseldorf-Köln 1959.

Sharif, M. M. : A **History of Muslim Philosophy.** 2 Bde., Wiesbaden, 1963-66.

Watt, W. M. : **Muslim intellectual. A study of Al-Ghazali.** Edinburgh, 1963.

Zakzuk, M. H. A. : **Al-Ghazalis Grundlegung der Philosophie.** Mit einer Erörterung seines philosophischen Grundansatzes im Vergleich mit Descartes. Diss. Mûnchen 1968.

أوجست رودان
حياته ، وفنه

بدر الدين أبو غازى *

فنان من العسير أن تحده باطار أو تضعه فى نطاق مدرسة ... عبقرية متفردة سيطرت على فن النحت فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأثرت فى فن التصوير ، بل ألهمت الأدب صوراً ورؤى جديدة .

أعماله تتخطى حدود الزمان والمكان ... هى من التراث الانسانى الذى يحمل هبات الخلود وسمة المعاصرة .. هى جسر ربط بين الماضى والحاضر وفتح الطريق الى المستقبل .

الى جانب دانتى وميكيل آنج ، وبتهوفن ورمبراندت يقف رودان عالى الهامة بتلك الروائع الفذة التى قدمها للانسانية ، والتى ستظل دائماً تعيش فى وجدانها مهما اختلفت أساليب الفن وتعددت رؤاه .. تعيش بما فيها من القيم الباقية على مر العصور .

فى حياته قبس من بروميثوس الذى اعطى الانسان الشرارة الاولى التى اضاءت طريق الفن والحضارة ، ولقى كل عذابات الحياة . هو أيضاً كان قدره مع الصراع ومع العذاب ...

---

* الاستاذ بدر الدين أبو غازى وزير الثقافة السابق فى مصر ويعتبر من أكبر نقاد الفن والمشتغلين بتاريخ الفن فى العالم العربى وله فى ذلك كتابات كثيرة .



اوجست رودان ١٨٤٠ ـ ١٩١٧

فى حياته ، رغم بريق الشهرة والمجد الذى واتته فى ختامها ضراوة المآسى الاغريقية ومرارتها .

فلنصحب خطى حياته ولنتامل طريق العبقرية والألم منذ بدايته فى سنة ١٨٤٠ حتى نهايته فى سنة ١٩١٧ .

• • •

١ ـ اجواء حياة :

حى شعبى من أحياء باريس على الضفة اليسرى لنهر السين ، ولكنه حى ما زال يخفق بانفاس عبقرية .

منذ القرن الخامس عشر شق شارع موفتار طريقه فى هذا المكان .. فى هذا الشارع كان رابليه ورونسار يقضيان الليالى فى حانة لابوم دى بن . وغير بعيد يقع المنزل الذى كان يسكنه الفيلسوف ديكارت فى القرن السابع عشر وما زال قائماً حتى الآن .

بعد خطوات يلوح المنزل الذى كتب فيه برناردن دى سان بيير روايته الشهيرة ـ بول وفرجينى ـ التى ما زالت ترقرق دموع العاشقين . وفى شارع لانفيل فى ذات الحى استلهم الكاتب هنرى ميرجر غراميات ميمى بنسون فى « **صور من الحياة البوهيمية** » .

وقريباً منه كان يسكن الفيلسوف والموسوعى ديدرو لمدة سبع سنوات . كأن العبقرية على موعد فى هذا المكان تطل من تلك البيوت العتيقة التى تظلها عراقة الماضى .

فى هذا الحى وفى شارع ارباليت سكن الشاب النورماندى جان باتست رودان الموظف بقسم البوليس مع زوجته الريفية القادمة من اللوران ، وانجب طفلين ، ماريا وفرانسوا اوجست رينيه الذى ولد فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وعرف فيما بعد باسم اوجست رودان .

كان طفلاً خجولاً منطوياً لا يغشى ملاعب أبناء الحى ويعكف على الرسم .. تابع دراسته الأولية فى مدرسة الفرير ثم ارسله أبوه لدى أحد أعمامه للدراسة ولكنه لم يكن موفقاً فى دراسته ... واضطر ابوه ازاء ما لمسه من هيامه بفن الرسم أن يلحقه بمدرسة للفنون والصنائع تحولت فيما بعد الى المدرسة العليا للفنون الزخرفية .

فى هذه السن تلقى الموهبة احياناً المعلم المستنير الذى يوجهها واحياناً يتعثر بها الحظ فتصدم عند تفتحها .

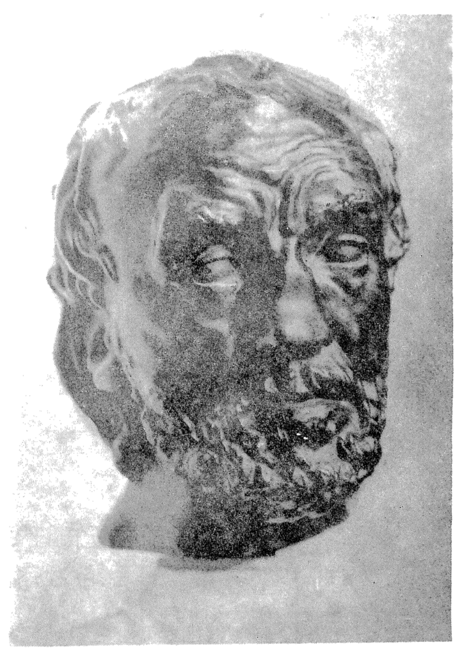
وقد لقى أوجست رودان المعلم المستنير فى شخص استاذه هوراس ليكوك الذى كان مشغولاً بتنمية قدرات تلاميذه وفى اطلاق سراح رؤاهم فى مجالات الحياة المحيطة بهم واذكاء احساسهم بها .

كان هوراس استاذاً للنحات دالو وللمصور العظيم فانتان لاتور وللمصور ليجرو معاصر رودان .

ولقد ظل رودان حافظاً لتقاليد استاذه وفى سنة ١٩١٣ كتب : « ان معظم ما علمنى اياه ما زال باقياً حتى الآن » .

وفى هذه المدرسة كان لقاؤه الأول بالصلصال لقاء عشق ، فقد وجد فى هذه المادة سحراً خلاباً كشف عن كنز موهبته .. واطلق طاقاته خارج حدود المدرسة الى متحف اللوفر لدراسة تراث النحت العريق ولقى فى حديقة النباتات نحات الحيوان العظيم « بارى » فتتلمذ عليه وتعلم منه الكثير .

وحاول الالتحاق بالمدرسة العليا للفنون الجميلة فاخفق ثلاث مرات وازاء رفض المدرسة عكف على تعليم نفسه من خلال ما تلقاه من أساتذته ومن خلال تجربته الذاتية .



الرجل ذو الانف المكسور ١٨٦٤ برونز متحف رودان ـ مجموعة خاصة من بوينس ايرس متحف الفن الاوربى طوكيو ، المتحف الوينى براج .

ودفعته ظروف اسرته المادية وقصور مواردها الى البحث عن عمل فاشتغل مزخرفاً لدى أحد مقاولى البناء وكان من زملائه فى هذا العمل النحات الكبير « دالو » ولكن صانع النهار كان فنان المساء يواصل بحثه فى عالم الفن ويسعى الى المعرفة فيتابع دروس الأدب والتاريخ فى الكوليج دى فرانس .

غير أن حدثاً دامياً هز كيانه فقد ماتت اخته ماريا فى الدير بعد التحاقها به فاعتزل عمله واعرض عن الحياة وهام على وجهه ثم دخل الدير وفاء لذكراها ولكن نداء الفن والحياة فى نفسه كان يشده خارج أسوار الدير فعاد مرة اخرى يواصل حياته .

وفى هذه الحقبة ، وحوالى سنة ١٨٦٤ مرت بحياة الفنان ثلاثة أحداث هامة أولها التقاؤه برفيقة حياته روز بيريه ، وثانيها اشتغاله مع النحات كاريبه بيلليز ، وثالثها محاولته الاولى لعرض تمثاله **« الرجل ذو الانف المكسور »** فى صالون الفنون .

أما روز بيريه فكانت عاملة بمحل للخياطة فيها نضارة الريف وسلامة فطرته ، وكانت شجاعة وفقيرة مثله فرافقته دون تقيد بالمواثيق الرسمية وانجبت منه ابنهما الوحيد اوجست بيريه الذى حمل الإسم الأول لأبيه ولقب امه ، وعاش كالغريب بالنسبة لرودان .

وظلت روز بيريه نموذجاً وملهماً لأعماله فهى تتمثل فى تماثيله **ـ الام الشابة ـ النبع ـ حنان الامومة ـ الفتاة ذات القبعة .. مينون ـ فلورا** وغيرها .

وأما كاريبه بيلليز فلم تكن علاقته به علاقة تلميذ باستاذه ، وانما كانت علاقة صاحب عمل بأحد مساعديه . الحق رودان بمراسمه لينفذ الأعمال العديدة لهذا المثال الذى كان كما يقول بعض معاصريه اشبه بآلة للنحت ، يخرج من مراسمه كل يوم عديد التماثيل والتحف ، والوحدات الزخرفية ... وعند بيلليز لقى رودان رفاقاً موهوبين مثل هالو ودالو وعمل معهم .

ويأتى الحدث الثالث حين قدم رودان تمثاله **« الرجل ذو الانف المكسور »** الى المعرض السنوى للفنانين الفرنسيين فرفضته لجنة التحكيم .. وكان هذا الحدث هو الصدام الأول للعبقرية مع مفاهيم العصر وتقاليده وسيظل هذا الصراع محوراً من المحاور الأساسية فى حياة اوجست رودان .

●●●

٢ ــ الحرب والسلام :

فى سنة ١٨٧٠ اعلنت فرنسا الحرب على بروسيا بسبب استثارة بسمارك لها وانضمت الولايات الألمانية الاخرى الى المعركة .. وقاد « مولتكه » حملة ادت الى اندحار الفرنسيين فى سيدان .. وظلت باريس تقاوم الحصار البروسى بالرغم من ويلات الحرب وانتشار المجاعة .

وكان اوجست رودان من جنود هذه المعركة .. استدعى الى الجبهة فانفصل عن كاريبه بيلليز وتباعدت الصلات بينه وبين الفن ، غير أنه لم يلبث أن سرح فعاد ليرى باريس مدينة حزينة يغشاها الظلام وتدهمها المجاعة .. وسكن ربوة مونمارتر ، ولكنه ظل يعانى ويلات هذه الأيام وبؤسها الى أن ترك باريس فى فبراير ١٨٧١ بدعوة من كاريبه بيلليز الذى كان قد سافر الى بلجيكا للقيام بمشروع كبير فى واجهة مبنى البورصة ، وبهذا نأى عن

جو الحرب وآثارها وعاش فترة من الرخاء والسلام فى بلجيكا .

لم يطل به المقام مع بيلليز ولكنه تعاقد مع مساعده البلجيكى « فان راسبورج » الذى احس بعجزه ازاء عبقرية رودان ، فعقد معه اتفاقاً لتنفيذ اعمال نحتية يقوم رودان بعملها ويوقعها راسبورج باسمه . **وبهذا حظيت بلجيكا خلال سنوات اقامة رودان بها من سنة ١٨٧١ الى ١٨٧٧ بمجموعة من اعماله ما زالت تحمل توقيع فان راسبورج .**

على أن هذه الأيام أتاحت له قدراً من الاستقرار والرخاء كما أتاحت له دراسة أعمال كبار الفنانين فتوغل فى أسرار **روبنز** واعماق فنه .. ويسرت له ظروفه المادية أسباب الرحلة الى ايطاليا حيث درس عمالقة عصر النهضة وعاش فى ظلال **ميكيل آنج** الذى يقول عنه فى خطاب الى صديقه ومساعده المثال **انطوان بورديل** « ان تحررى من الاكاديمية ــ جاء على يدى ميكيل آنج » .

نطالع فى رسائله الى **روز بيريه** ايضاً عن انطباعات رحلته الايطالية لقاءه بأعمال نحات درامى آخر . هو **بيجيه** ــ ثم وقوفه عند روائع ميكيل آنج .. ففى رسالة اليها نقرأ هذه السطور : **« أقول لك ما فعلت منذ الساعة الاولى لوصولى الى فلورنسا ... لن يدهشك اننى عكفت على دراسة ميكيل آنج .. ويخيل الى أن هذا الساحر العظيم قد افضى الى بالقليل من أسراره »** .

وما ان عاد من ايطاليا حتى بدأ تمثاله الذى قدمه الى معرض الفنون ببروكسل تحت عنوان « المهزوم » فاشار النقاد الى ما فيه من قيمة نادرة هى الحياة ، ولكن هذا الثناء ما لبث أن تحول الى هجوم وجه الى رودان حين اتهم بانه صب تمثاله على جسم حى .

واتجه رودان صوب باريس عله يجد عندها الانصاف وقدم تمثاله الى معرضها الكبير تحت اسم **« عصر القلق » فهو عنده يمثل أول يقظة للضمير الانسانى فى فجر العصور ... ولكن باريس لم تكن أكثر انصافاً له** .. وجاهد رودان لاثبات براءته أمام رجال الفنون الجميلة الرسميين .. وما كان فى حاجة لأدلة البراءة التى ساقها امامهم فان من يعلم أسرار فن النحت يدرك أن صب المصيص على الأجسام الحية لا يمكن ان يحقق ما بلغه التمثال من تسجيل لأدق الانتفاضات والنبضات الانسانية ... ولقد ظل تمثال **الانسان الأول أو عصر القلق** محوطاً بشك الاتهام الى عاد أن مرة اخرى الى صالون سنة ١٨٨٠ فكان نصيبه الجائزة الثالثة .

وأدرك رودان أن قصة الرجل ذى الأنف المكسور ستظل تتكرر فى حياته ، وأن قدره ارتبط بالصراع فكتب الى روز بيريه يعبر لها عن احزانه **« ها أنت ترين ان الحياة ستكون شاقة ... ان المستقبل مظلم ... وآفاقى يكتنفها البؤس »** .

وعاد رودان للاقامة بباريس وانهى تعاقده مع النحات فان راسبورج وزايلته أيام الرخاء التى عاشها . وبدأ فى بيته الصغير بشارع سان جاك على مقربة من البانتيون وتتابعت مشاركاته فى المسابقات الرسمية ... ولكن النكران كان دائماً نصيبه ، فتمثاله الرائع **« نداء السلاح »** الذى أعده لصرح الدفاع عن باريس لم ينل حتى مجرد الالتفات ... وهكذا كان نصيب مشاركاته الاخرى فى مسابقات تماثيل ــ **بيرون ــ ديدرو ــ جان جاك روسو** .



عصر القلز ١٨٧٦ برونز متحف رودان



نداء السلاح ١٨٧٨ برونز ـ متحف رودان ونسخ منه بمتاحف مونتريال ، وبوينس ايرس وكامبردج وكاليفورنيا وسان فرانسيسكو

واضطر لمواجهة اعباء الحياة الى تنفيذ أعمال زخرفية لقصر التروكاديرو ولمدينة نيس فضلاً عن عمله بمصانع سيفر ، فان لغته الرائعة التى صاغها من فكره ومشاعره وفلسفته لا تلقى حتى الآن استجابة .

وما زالت تماثيله الاخرى مثل **((يوحنا المعمدان))** **((وخلق الانسان))** وحتى تماثيله النصفية لشخصيات عصره : **فيكتور هيجو ـ انطونان بروست** ـ النحات **دالو** ـ المصور **جان بول لورنس** ... ما زالت هذه الأعمال بعيدة عن ذوق عصره الغارق فى بهرج الباروك المولع بالصقل الأكاديمى المأخوذ بحلاوة الأشياء أكثر من اهتمامه بجمالها التعبيرى .

حياته فى هذه الحقبة حرب وسلام .. حرب ضارية مع مفاهيم عصره وضد جمود الرسميين والأكاديميين .. وأيام من الصفود السلام تتخللها حين يلقى تقدير بعض معاصريه .

نحن الآن فى عام ١٨٨٠ ... وقد بلغ رودان سن الأربعين . هو الآن يشارف قمة نضوجه وتنفتح له آفاق اخرى غير مجالات الفن التى عرف فيها ، حين يلقى فى صالونات باريس الادبية التى اخذ يرتادها **جامبتا وانطونان بروست وجى دى موباسان وستيفان ملارميه وبول بورجيه** وغيرهم من ساسة عصره ومفكريه وادبائه .

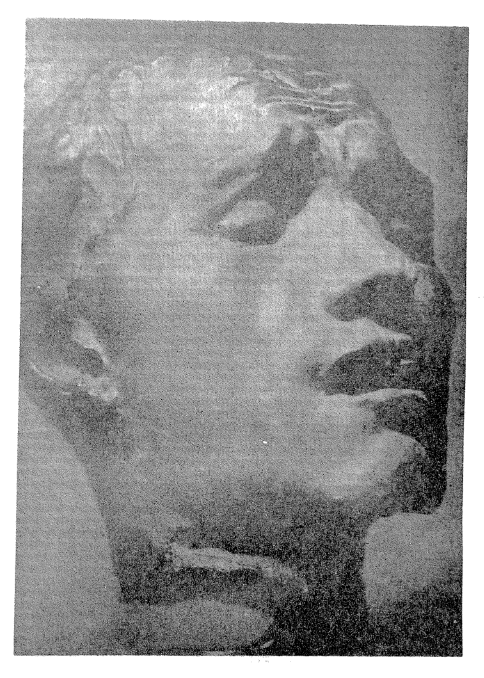
كثير من عباقرة الفن انصفتهم نظرة الاديب أكثر من رؤية الفنان ... فهى نظرة تسع اشياء كثيرة وتقبل المعانى والرؤى الجديدة التى قد تستغلق على الفنانين . ولقد اتاحت هذه اللقاءات لرودان مالم تتحه أوساط الفن الرسمية ، فضلاً عن أنها عمقت حبه للأدب الذى كان يجوب عالمه من خلال قراءاته بدءاً من دانتى حتى فيكتور هيجو وبودلير .

فى نفس هذا العام كلف رودان بعمل باب لمتحف الفنون الزخرفية وخصصت له الدولة متحفاً فى شارع الجامعة وسط غابة من الرخام .

ولكن رودان لم يكن فنان مناسبات وتعهدات وانما كان فناناً مبدعاً يستعصى على القيود والتوجيه، ولذا فلم يتقيد بموضوع الباب ولا بوظيفته ولا بالوقت الذى خصص لانجازه . واتجه الى ابداع عمل ضخم . **((بوابة الجحيم))** على غرار بوابة الفردوس التى صنعها النحات جيبرتى لمعمودية فلورنسا ... ابدعه من ذكريات لوحات ميكيل آنج عن يوم القيامة والحساب الأخير فى قبة كنيسة سكستين ومن وحى محفورات بايك وجوستان دوريه التى اعداها كتصاوير لكوميديا دانتى الالهية ... **غير ان رودان تخطى ذلك كله وابدع شيئاً آخر ليس فيه ماسوية ميكيل آنج لان الماساة تنبعث من الصراع بين الانسان والقدر ، اما تماثيل بوابة الجحيم فهى تمثل الانسان المنفرد العاكف على وحدته المستعذب للألم ... ومن هذه الرؤية تفجرت بلاغته فى التعبير عن الجحيم الحق ذلك الذى يكمن فى النفس الانسانية . فى تطلعها وتمردها وعصفها .**

ومن مجموعة تماثيله : **الأشباح ـ اورفيوس ـ الطفل المعجز ـ المفكر ـ القبلة ـ حواء ،** خرج عالم متكامل تشكلت خليقته الاولى على سطح هذه البوابة ثم عادت كل جزئية من هذا العالم فانفردت بكيانها .. فقد ولدت على بوابة الجحيم معظم أعمال رودان التى عادت واستقلت بذاتيتها من جديد فكان **المفكر** وكانت **حواء** وكانت **القبلة** .. كل منها عالم نحتى زاخر بالمشاعر والانفعالات التى بلغ رودان فى التعبير عنها ذروة الابداع .

وقد لفت البعض روح التشاؤم فى بعض اعمال **بوابة الجحيم** ولكن رودان يقول :



وجه بيير دى فيسانت « من اعيان كاليه » ١٨٨٩ برونز

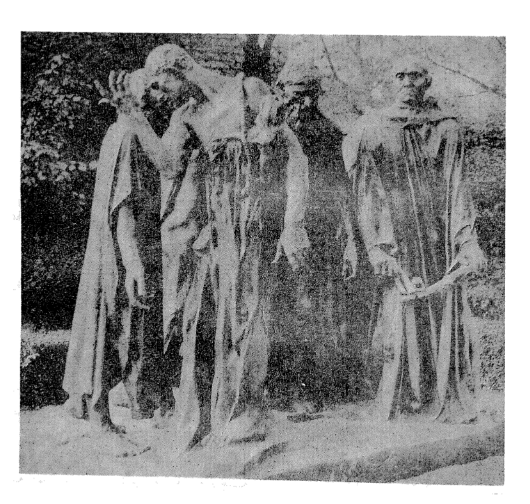
« الحياة ، هذا الشيء الساحر كيف يمكن أن تكون تشاؤمية » ويكفى أن نقارن بين تمثال **المفكر لرودان** وتمثال **المفكر لميكيل آنج . . .** عندئذ نلمس اختلاف المناخ النفسى للعبقريتين . **. مفكر ميكيل آنج صامت مستسلم حزين . أما مفكر رودان فيمثل القوة والحيوية وقدرة الفكر على السيطرة على الحياة .**

وتمثاله **القبلة** غنائية درامية للحب والحياة . . وهكذا كانت أعمال رودان انتصاراً للحياة وللقوة ولارادة الانسان ، وليكن الألم معبراً لهذا الانتصار .

أليس هو القائل **« ان النحت ليس فى حاجة الى الابتكار ولكنه فى مسيس الحاجة الى الحياة ؟ »**

• • •

فى سنة ١٨٨٤ ارادت مدينة كاليه أن تخلد ذكرى **اوستاش دى سان بيير** أحد أبطالها ، فطلبت الى رودان اقامة تمثال له ، وعكف الفنان على حوليات « فرواسار » ليعرف منها قصة اوستاش ورفاقه الخمسة الذين كانوا مثالاً **للبطولة** فى القرن السابع عشر حين قدموا حياتهم فداء مدينتهم المحاصرة فصانوها



اعيان كاليه ١٨٨٤ ـ ١٨٩٥ برونز

من النهب والدمار .. ورأى رودان ان أعيان كاليه الستة يمثلون مجموعة لا تنفصم عراها وان نبل موقفهم يقتضى أن يضمهم جميعاً موضع التمجيد .

وشغل رودان بتمثيل تعبيرات الفداء والتضحية والألم على وجوه أعيان **« كاليه »** الستة وفى حركات أقدامهم وأيديهم فمثل عزم الموت والاذعان للقدر والايمان بجلال التضحية .

فى البدء اقام مجموعته على قاعدة ولكنه عاد فرأى أن يقيمها على مستوى الأرض ، وفى قلب مدينة كاليه حتى يكون الأبطال على مقربة من اهلها يعايشونهم ويدور بينهم الحوار .

واحتج النقد التقليدى على ذلك فلم يكن من مألوف فن النحت ، ولا من اصول التكريم وفقاً لذوق العصر أن تترك التماثيل بلا قواعد، غير أن رودان اصر على المعنى الذى تمثله فكرته كما أنه خرج على مألوف الشكل الهرمى للمجموعات وكتب فى هذا يقول :

« ان الشكل الهرمى فى منحوتات التقليديين عفى عليه الزمن فى حين أن المكعب أكثر تعبيراً .. اما المخروط فهو المسند الرخيص الذى يلجأ اليه التلاميذ المتقدمون لمسابقة جائزة روما ، وانا الخصم اللدود لهذا الفن المسرحى » .

صاحب تلك الفكرة تكليف آخر من مدينة نانس لاقامة تمثال للمصور **كلود لوران** ... مثل رودان مصور النور على قاعدة يزينها نحت بارز يمثل ابولون على عجلته يجرها حصانان ... كان التمثال رمزاً غنائياً للشمس ووضاءة النور وتعبيراً عن معنى كلود لوران ولكنه كان صدمة للرؤى التقليدية التى رأت فيه عملاً مريضاً متأثراً بنزعات خارجية متمرداً على عاطفة الاحساس بالجمال .

ولكن هذا الصراع اصبح جزءاً من حياته . ومع النكران فان تقديره لدى العارفين كان يتزايد والأعمال تتوالى عليه فيتخذ له منحتاً فى حى النحاتين بشارع فوجيرار وهناك تعاونه مجموعة كبيرة من المنفذين منهم **جان اسكولا وجول ديبوا وكامى كلوديل تلميذته الاثيرة وصديقة حياته التى شكل حبه لها عنصراً من عناصر مأساته**، كما اخذ يعاونه أيضاً صفوة من الفنانين اصبحوا فيما بعد عمد النحت الفرنسى ــ **انطوان بورديل ومايول وديسبيو وبرانكوزى** وغيرهم .

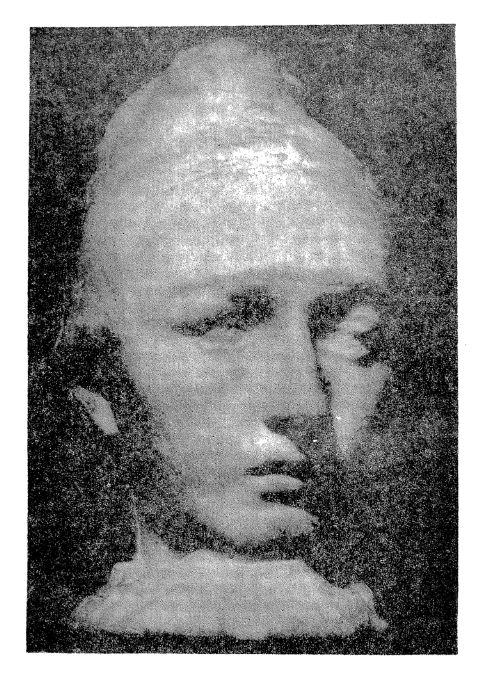
فى هذه الحقبة بدأ أيضاً فى تصميم تمثاله **لفيكتور هيجو** الكاتب الذى عرفه واحبه ، واختار من حياة هيجو أيام المنفى فصوره على صخرة منحنياً الى الأمام فى لحظة تأمل وحوله عرائس البحر .

كان التمثال معداً ليوضع فى مدخل البانتيون ولكن لجنة التحكيم رأت وضعه فى حدائق الباليه رويال ازاء انقسامها حول قيمة التمثال والنقد الذى وجه اليه .. واتجه رودان نحو بريطانيا فى زيارة لها بدعوة من صديقه المصور **ألفونس ليجرو** الذى قدمه الى الفنان **سارجنت** والشاعر **روبرت براونج** والروائى **روبرت لويس ستيفنسون** . كما اخذ يخرج بأعماله الى المعارض فنظم معرضاً لأعماله فى جاليرى جورج بتى مع المصور كلود مونيه كما شارك فى المعرض السنوى العام وفى معارض السويد وشيكاجو وبوسطن .

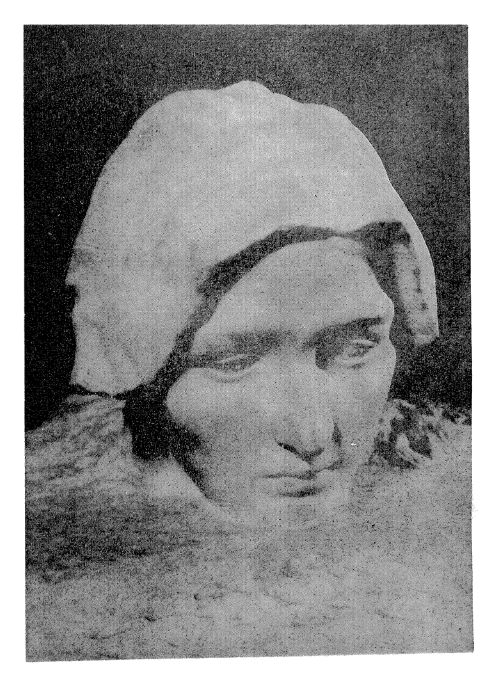
وعنى بابداع مجموعة تماثيل لشخصيات عصره هى وثيقة للحياة السياسية والفكرية والفنية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

ولكنه يخوض فى تلك الحقبة أيضاً أكبر معاركه الفنية من خلال قصة تمثال **بلزاك** .

●●●



كامي كلوديل ١٨٨٤ مصيص متحف رودان



التفكير من وحي كامي كلوديل ١٨٨٦ رخام متحف رودان

٣ ـ معارك حول بلزاك :

فى تاريخ الفن والأدب معارك ضـــارية كان لها شـــهداؤها وضحاياها ولكنها كانت طريقاً الى الحقيقـــة ومعبـــراً أكد ارادة التغييـــر . والمعركة حول بلزاك من هذه المعارك الكبرى فى تاريخ الفن .

ترجع فكرة اقامة تمثال بلزاك الى ســنة ١٨٥١ حين دعا اسـكندر دوماس الكبير الى اكتتاب عام لاقامة التمثال فى باريس فاعترضت ارملة بلزاك لسبب غير معلوم ، وأجاب دوماس بعبارته الساخرة ((**من شأن الاسرة أن تعنى بالقبور ، أما التماثيل فهى من شأن الأجيال القادمة . وكم هو محظوظ من يلقى بعد عام من وفاته مثل هذا التمجيد**)) .

غير أن حماس الفكرة ما لبث أن خمد ومات دوماس واقيـــم تمثاله قبل تمثال صـــاحب **الكوميديا الانسانية** .

وفى سنة ١٨٨٥ قررت جماعة الادباء اقامة تمثال لبلزاك وكان اسم رودان قد احاطتـــه الشهرة فاتجه اليه الاختيـــار ولكن الجماعة متأثرة بالضجة التى صحبت تمثاله لفيكتور هيجو ، فضلت عليه مثالاً تقليدياً هو **شابو** .

وانتخب **اميل زولا** بعد ذلك رئيساً لجماعة الادباء وكان شديد الحماســة لفن التأثريين ومن المعجبين بفن رودان فاستطاع أن يظفر من الجماعة بأغلبية وافقت على اسناد عمل تمثال بلزاك الى رودان .

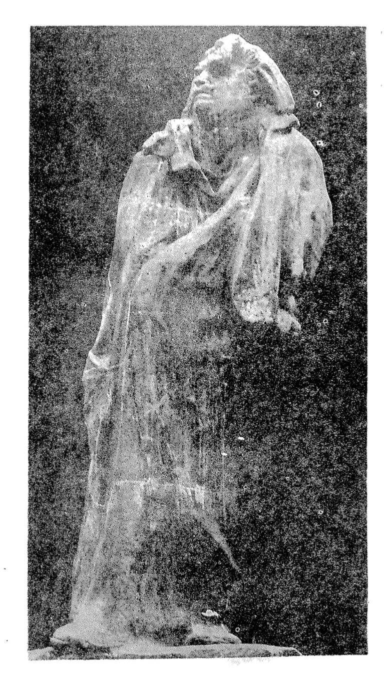
وانقضت المدة المحددة لانجاز التمثال دون أن يتمه رودان . لقد كان غارقاً فى دراساته لشخصيـــة بلـــزاك متردداً بين عـــدة اتجاهات للتعبير عنها ، فلما تعجلته الجماعة أجابها بأنهم اذا كانوا يريدون تمثالاً لبلزاك كما يتوقعون ببدلة لا ينقصها زر وبنطلون خارج من عنـــد الكواء لانجزه لهم فى أقـــل من الوقت الـــذى قدروه ، ولكنه يريد لتمثاله كما يتصوره وقتاً يتشكل فيه ويريد لفكرته مزيداً من التأمل ، بل والنسيان حتى يســـتطيع أن يعود اليهـــا أصدق حكماً وادراكاً .

لقد كان ســـعى روادن الدائب يتجه دائماً الى أعماق أشخاصه وتمثل تجربتهم الروحية العميقة قبـــل أن ينفخ فى الطين روح تلـــك التجربة .. ومن هنا بدأ فى التعرف بعمق على بلزاك .. قرأ كل كتاباته ولمس روحه الداخلية وعكف على الذكريات الأدبية للعصر وعايش كل مكان يمكن أن يلقى فيه أطياف الأديب العظيم واستجوب صوره وخالط معاصريه ، وعمد الى خياط ثياب بلزاك ليتعرف على مقاييس جسمه وخصائصـــه . وتأثر رودان بصـــورة لامارتين الوصفية الأدبية لبلزاك فتبلور تصوره للتمثال بعد دراسات تحضيرية عدة لجسمه ورأسه ودراسات اخرى لثيابه .

وبدأ رودان بمجموعة دراسات عارية ، فقد كانت طريقته أن يبدأ بالعارى ثم يكســـوه ، واختار له ذلك الزى الذى وصفه لامارتين .. رداء ليلى أشـــبه بزى الدومينيكان ، ووقفة وحركة تومىء الى انتصار ارادة هذا الأديب الفنان واتصاله بالارض مثل سنديانة سامقة ترمز الى قواه الخارقة العارمة ، كما سجل على ملامحه صـــورة القصـــاص الذى خلق عوالم انسانية تفيض بحياة ضخمة وأبقى لتمثاله نضـــارة الطين رمزاً لعالم الحياة والمخلوقات التى تنبض من خلال الكاتدرائية الأدبية التى اقامها بلزاك .

وحين عرض التمثال ســـنة ١٨٩٨ ثارت حوله معركة من أعنف معارك الفن .

أول ما صدم الجمهور فيه ذلك الاحساس بالعمل غير المنتهى فى عصر كان يعجب باللامع والمصقول من التماثيل .. عصر رفض من قبل تمثال ((**كاربو**)) الذى يمثل أركان العالم ، ولم



بازاك ـ برونز باريس

يغفر لكاربو سوى موته الذى كان جواز المرور عند مجلس بلدى باريس لاقامة التمثال ، ولكن بعد أن جرى عليه تلميع وصقل ازالا نضارة البرونز ونبضات الفنان المفعمة بالحياة .

كذلك رأى الجمهور فى التمثال خروجاً على المألوف من الأزياء والوقفات التقليدية لتماثيل الميادين فكتب النقد تهكماً « **انه بلزاك فى زى مرضى المستشفيات ... انه بلزاك وقد أيقظه دائنوه ... وهذا الوجه من الاسفنج ... ذلك الركام من المصيص تجمع عند الأقدام وعند قبضة اليدين ...** » .

على هذا الفرار جرى النقد واخذت الدمى تصنع على شكل التمثال تهكماً عليه واسرفت الصحافة فى استهجانه .. وانتقل الخلاف الى لجنة جماعة الادباء التى أصدرت بياناً تضمن احتجاجاً على العمل الذى قدمه رودان والذى ترفض اعتباره تمثالاً لبلزاك .

فى مواجهة هذا الاحتجاج اخذ أنصار رودان يصوغون نداء آخر عبروا فيه عن املهم فى أن يبقى لفنان عظيم مثل رودان احترامه ومهابته فى بلد نبيل متحضر مثل فرنسا وان يتوقف الاقذاع فى الهجوم عليه .

ووقع النداء **كلود مونيه وتولوزلوتريك وبول سنياك واوجين كاريير وهنرى كرو** من المصورين **وكلود دوبيسى وفنسان داندى** من الموسيقيين كما وقعه من الكتاب والشعراء والمسرحيين **اناتول فرانس ، اوكتاف ميربو ، جول ريناز كورتلين ، هنرى بك ، بيير لويس ، بول فور ، جان موراس** ومن المثالين **كونستانتين منييه وانطوان بورديل وارستيد مايول ...** وتصدر **كليمنصو** السياسيين فى التوقيع على البيان . واحتدم ضرام المعركة ... فتقدم لشراء التمثال **ادمون بيكار** باسم مقدرى فن رودان فى بلجيكا ، كما تقدم **اوجست بللرين** احد ملوك الصناعة ومن هواه جمع التحف ... غير ان دعوة للاكتتاب لشراء التمثال بدات فى باريس بعد أن رفضته جماعة الادباء وكان على راس القائمين على الدعوة **اميل زولا . ومن الظواهر المؤثرة فى هذا الاكتتاب تبرع المصور الشاب سيزلى بخمسة فرنكات وهو على فراش الاحتضار ، وتبرع أرملة المثال كاربو بتمثالين من اعمال زوجها مساهمة منها فى اقتناء التمثال .**

ونشطت حركة الاكتتاب غير أن رودان طلب ايقافها وقال انه يود أن يظل المالك الوحيد لتمثاله فنقله الى بيته الجديد فى ضاحية ميدون ، وفى سكينة الفسق كان يتأمله قائماً فى الحديقة وسط أشجارها السامقة ويقول انه انجاز لن يدركوا قيمته الا بعد وقت طويل لأنه جاء سابقاً لزمانه .

ولقد كان رودان مؤمناً بانه اذا كان قدراً على الحقيقة ان تموت فان تمثاله سيتحول انقاضاً على يد الأجيال القادمة ، اما اذا كانت الحقيقة خالدة تستعصى على الفناء فان تمثاله سيشق طريقه ويمضى .

ان المعركة حول بلزاك تمثل وجهين للصراع ... صراع المصالح .. وصراع الأفكار . اما صراع المصالح فقد وجهه بعض منافسى رودان لينالوا من مكانته واستطاعوا أن يعهدوا الى المثال **فالجيير** بعمل تمثال بلزاك فخرج عمله نحتاً دارجاً ... ولقد ادرك فالجيير قبل موته وبعد وقت طويل انه كان على خطأ وأن رودان كان حليف الصواب .

اما صراع الأفكار فلأن التمثال كان ثورة فى عالم النحت لم تنهيا لها الأذهان والذوق العام ... كان علامة طريق ونقطة ارتحال من فن يلتزم تقليد النموذج ومحاكاة الشبيه

الانسانى الخارجى الى فن يضحى بهذه الأشياء من أجل الحيوية التشكيلية ويسقط التفاصيل العارضة من أجل تعميق الحقيقة الباقية .

ولكن دور التطور التى مر بها الضمير الانسانى أعادت تمثال بلزاك الى مكانه من النحت المعاصر وخرجت به من ضاحية ميدون ليقام فى مفرق الطريق بين شارع رسباى وشارع مونبارناس وكان ذلك فى سنة ١٩٣٩ بعد موت رودان باثنين وعشرين عاماً ... فلم يقدر له أن يشهد انتصار الحقيقة على الزيف فى ذلك الاحتفال المهيب الذى شهده اثنان من مريديه ومن أعظم مثالى فرنسا الاحياء ـ **ارستيد مايول وشارل ديسبير** ـ اللذان ازاحا الستار عن التمثال وكشفا عن القيم الخالدة فيه .. وكان فى منحهما هذا التكريم اعتراف بفضل رودان واعتذار له عن جمود معاصريه .

●●●

٤ ـ اشعة وظلال :

الآن قد شارف سن الشيخوخة .. وبلغ فنه الذروة .. حياته التى اتسمت بالكفاح .. **كفاح الفقر الذى بدأ منه وعاش فيه حقبة طويلة .. وكفاح الابداع الفنى ... وكفاح مع مفاهيم عصره واحقاد معاصريه ... وكفاح من اجل التوازن والصفاء فى حياته .**

كل ذلك جعل من شيخوخته صراعاً بين الأشعة والظلال ... ووسط الضباب الذى يكتنفه يسرى اليه نور من الدفء ... دفء التقدير والصداقة وما يحيطه من محبة ، واحساسه بانه امتلك سر مواهبه وارتقى الى قمة قدراته ونعم بالرخاء .. ولكن الظلال التى تغشى حياته كثيرة .. انه اخذ يعرف معنى التمجيد ... أعماله تتخطى باريس وتتخطى بيته وسط غابات ميدون الى المتاحف الكبرى فى العالم .. والمؤلفات يتتابع صدورها عن عبقريته وحياته .

ومن كل مكان فى العالم يأتيه الكتّاب والفلاسفة والفنانون يحجون اليه بينما تتوالى معارض فنه فى السويد وهولندا وفى انجلترا وأمريكا .

وعندما زار بريطانيا للمرة الثانية منحته جامعة اكسفورد الدكتوراه الفخرية واستقبله الشعباستقبال الابطال ، واصر طلبة اكسفورد على أن يرفعوا عربته على أكتافهم ... وفى سنة ١٩٠٧ انتخب رئيساً للجمعية الدولية للمثالين والمصورين والحفارين .

بين صداقاته التى ظل يعتز بها صداقة الشاعر **ستيفان ملارميه واوكتاف ميربو** والمصور **كلود مونيه** والسياسى العظيم **كليمنصو .**

وبهرت به ايزادورا دونكان معجزة الباليه فى عصرها فكتبت فى مذكراتها تصف لقاءها به ورقصاتها الخاصة له فى معبد فنه .

ويهاجر الشاعر العظيم **جان ماريّا رلكه** الى باريس ليحج الى بيت رودان ويسعى الى أن يعيش فى صحبته محرراً لمذكراته ورسائله .

ويترك رودان فى نفس **رلكه** بل فى أدبه أيضاً أثراً عميقاً لمسه الكاتب الكبير **ستيفان زفايج** حين أشار الى أن وجود **رلكه** فى ظل غابة الرخام دفعه الى أن يسعى الى استلهام هذه الأشكال الانسانية وصياغتها صياغة قوية ومعبرةواعطاء عباراته عراقةالرخام وصلابته.

.. تحول من الغنائية فى عباراته الى بحث عن العلاقات الميتافيزيقية والى ابراز وحدة البشر واعطاء الشعر شكلاً نحتياً تفصح فيه الأشياء عن جوهرها بقوة وتأكيد .

ولكن سكينة النفس وهدأة المشاعر التى اشاعها جو التقدير والصداقة فى حياته كانت تنغصها اشباح كثيرة ... شبح تلميذته المفضلة **كامى كلوديل** التى كتب عنها يقول **« لقد علمتها أين يوجد الذهب ولكنها حينما وجدته كان ذهبها الخالص »** .

كانت « كامى » مثالة موهوبة لها من ذكاء الفكر والروح وجمال الملامح التى عبر عنها رودان فى تمثاليه **« الفجر » « والتفكير »** وغيرهما .. كان لها من ذلك كله ما يعطف قلبه اليها ، ولكن الحب العميق الذى اتصل بينهما وضعه موضع الاختيار بينها وبين « روز بيريه » التى عايشت أيام بؤسه فاضطر الى قطع علاقته بكامى وفاء لرفيقة حياته .. وكان ذلك ختاماً مأسوياً لبريق هذه الموهبة وذكائها .. تركها حطاماً يعيش فى مستشفى للأمراض العصبية .

وظل شبحها يؤرق رودان حتى انه كان يصرخ فى غيبوبة المرض سائلاً عنها بعد أن قعدت به الأسباب عن زيارتها فى مصحة الأمراض العقلية التى كانت تعيش فيها .

وبرغم كل هذه الأمجاد فان الحياة حرمته من هبات تضفى على نسيج الحياة اليومية رواء . **فرفيقة حياته روز بيريه** لم تكن على مستوى فكره ولم تستطع مسايرة المكانة الاجتماعية التى وصل اليها .. ولكنه ظل أسير وفائها لا يستطيع أن يتركها ولا يقوى على أن يقدمها للمجتمع .. وحين كان يرتاد بعض المجتمعات كانت تخرج معه وتظل بانتظاره فى أحد المنتزهات تقضم شطائرها وتقنع بها وتنتظر عودته من سهرته لتصحبه الى البيت .

أما ابنه اوجست بيريه فكان ادراكه العقلى وسيرة حياته من الحواجز التى جمدت عاطفته نحوه وحرمته شعور اعتزاز الأب بابنه .. أراد أن يعلمه الرسم فى شبابه ولكنه يئس من اصلاحه وهام الابن على وجهه يمارس فى باريس أعمالاً متواضعة مع زوجة شريدة .. وكان لا يأتى لزيارة أبيه الا بعد أن يكون قد باع ملابسه واحتسى بثمنها خمراً ليطلب منه قدراً من المال .

وعندما بدات الهواجس تنتاب رودان واشتد خوفه على أمواله ، طرد خدم بيته فى ميدون .. ودعا ابنه وزوجته ليقيما معه وليعمل الابن بستانياً فى الحديقة ... ولكنه كان يخفى عن الناس حقيقة امره .

وهكذا عاش هذا العبقرى العظيم الذى طبقت شهرته الآفاق محروماً من أسباب السعادة الانسانية التى تمنحها الحياة للناس ، متعطشاً الى سكينة النفس التى كانت تنغصها أشباح الألم فى حياته .

●●●

٥ ـ كآبة المساء :

تأبى الحياة أن تترك سنواته الأخيرة تمضى فى هدوء .. فى سنة ١٩٠٨ استأجر رودان الدور الأول فى قصر بيرون على مقربة من الانفاليد .. هذا القصر الذى بناه فى القرن الثامن عشر المهندسان الكبيران جاك جابرييل وجان اوبير والذى تحول فيما بعد الى بيت لاقامة « اخوات قلب يسوع » ثم اضطررن الى تركه فتحول الى قصر عام يسكن طوابقه فنانون وادباء أمثال **جان رلكه** وزوجته المثالة **كلارا ويثوف** ، والمصور **هنرى ماتيس** ، وراقصة البالية **ايزادورا دونكان** ،والكاتب **جان كوكتو** .

دل رودان على هذا القصر صديقه رلكه واغراه بسكناه فانتقل اليه واستأنف الشاعر والمثال صلاتهما بعد قطيعة دامت فترة بسبب ثورة عارمة من رودان تركت رلكه على ابواب بيت ضاحية ميدون .

هام المثال بالبيت ووجد فيه بغيته ولكن الدولة لم تلبث أن اشترته وطالبت سكانه باخلائه ومنهم اوجست رودان .

وعندئذ وجه الكاتب **جوستناف كوكيو وجوديث كلوديل** نداء في الصحف لتحويل قصر بيرون الى متحف لأعمال رودان ، ووجد النداء استجابة من الكثيرين وعرض رودان هبة أعماله ومجموعاته الخاصة من الآثار والأعمال الحديثة الى الدولة لقاء السماح له بالاقامة في هذا القصر حتى نهاية حياته وتحويله الى متحف لأعماله بعد موته .

ولكن خصوم رودان تصدوا له وألبوا الرأي العام ضد الفكرة وناصرهم مجلس النواب ومجلس الشيوخ وظلت اجراءات الهبة تتعثر حتى سنة ١٩١٦ . ووجه رودان انذاراً أخيراً الى الدولة بعدوله عن الهبة اذا لم تتم اجراءاتها حتى نهاية ذلك العام .

وخشي بعض المسئولين من ضياع هذه الثروة القومية ، فقد أحاط برودان فئة من الانتهازيين ارادوا أن ينهبوا ثروته واعماله ، وأحاطت به بعض الغانيات اللائي انتزعن منه هبات ووصايا مناقضة لهبته للدولة .

وكان رودان يقيم في أيامه الأخيرة ببيته في ضاحية ميدون فانتقل اليه وزير مالية فرنسا ووزير الفنون ليرقبا الحالة ولينقبا عن الوصايا والهبات التي شاعت عنها الشائعات، فان الأمر أصبح متعلقاً بمصلحة فرنسا .

واقتحم الوزيران غرفة لم يكن دخولها مسموحاً بهلأحد فيبيتميدون وكانتروز بيريه تسميها « مكتب ذي اللحية الزرقاء » .. هنالك وجدا حقائب عدة مكتوباً على كل منها عبارة « رسائل نسائية » كلها تذكارات حياة عارمة بالعواطف تثوي في هذا الركن ومعها أيضاً شيكات لم تقبض وفواتير لم تدفع وخطابات لم تفض ... وعديد من الوصايا تنتقل فيها ثروته بين روز بيريه وصديقته دوقة شوازيل وسيدات اخريات ، ووصية بهبة أعماله للحكومة البلجيكية ازاء تراخي الحكومة الفرنسية في قبول الهبة .

واعدت وصية جديدة تضع الامور في نصابها وتمت اجراءات توثيقها بمحضر من وزير المالية ووزير الفنون ..

.. في هذه الأيام كانالفنان تراوده هواجس الخوف من الفقر والقلق على أمواله وتتمثل له في أحلامه ايام بؤسه الاولى .

وصبيحة اليوم الذي قدم فيه لفرنسا هذه الثروة العظيمة باع أعظم المثالين مجموعة من الزجاجات الفارغة من كهف بيته في ميدون مقابل ٣٥ (خمسة وثلاثين) فرنكاً .

ولعل الحاح الخوف من الفقر والعوز هو الذي دعاه في اخريات ايامه ان يعقد زواجاً رسمياً على رفيقة حياته روز بيريه بعد ستين عاماً من زواج عرفي .. وتمت مراسم هذا الزواج في حفل صغير بحديقة ميدون على قدر ما سمحت به ظروف الحرب التي كانت فرنسا تمر باسوأ مراحلها .

واشتدت ضراوة البرد في ميدون .. وكان الفحم نادراً أثناء الحرب لا يمتد توزيعه خارج باريس ... **وفي ضرام الحروب تنسى القيم فلم يفكر أحد في أن يمد أعظم المثالين بما يحتاجه في شيخوخته من وقود .**

ومرضت روز بيريه بالتهاب رئوي اثر حفل الزواج الرسمي وماتت بعد ثمانية عشر يوماً من هذا الحفل .

ووقف رودان أمام فراش الموت يتأمل وجهها الحبيب الذي خلده في تماثيله ويهمس **« انها لرائعة الجمال .. هي قطعة من النحت في تمامه وكماله »** .

عاش اوجست رودان شهوراً بعد رحيل روز بيريه وشهد كل أعماله ومجموعاته الفنية العزيزة لديه ينقلها عمال الدولة تحت انظاره ليحفظوها من النهب والاغتصاب فأحس ان نهايته قد آذنت بمغيب .

وفى ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ انطفا وميض العينين اللتين التهمتا الحياة بعشق وهيام .

ولم تستطع فرنسا فى محنة الحرب ان تقدم لرودان الوداع الرسمى اللائق الذى الفت التقاليد الفرنسية ان تحيط به فنانيها وادباءها فجرت مراسم دفنه هادئة متواضعة فى بيته بميدون فوق تلك الربوة الشامخة حيث يقوم قبره وعليه تمثاله ((المفكر)) متاملاً فى عمق تلك الأبعاد اللانهائية المحيطة بموقعه الشامخ .

• • •

٦ ـ تحيات تمجيد :

على هذا البعد الزمنى ، وبعد ان هدا الصراع حول رودان اخذت تحيات التمجيد تتوالى وتقيم حول اسمه هرماً من الكلمات ... وبلغ عدد الكتب التى صدرت عنه حتى الآن مائة كتاب فضلاً عن آلاف المقالات .

هؤلاء الذين مضوا على نهجه ، واولئك الذين اتخذوا للفن وجهة غير وجهته ما زالوا يحيطون اسمه بهالات التقدير والتمجيد .

الم يعلن **كونستانتين برانكوزى** أحد عمد النحت الحديث الذى مضى به فى اتجاه معارض لاتجاه رودان ((ان النحت فى القرن التاسع عشر كان قد وصل الى حالة تدعو الى اليأس فجاء رودان وحول الاتجاه ، وبفضله أصبح الانسان هو مقياس ينتظم حوله التمثال ... وبفضله أيضاً عادت الى النحت انسانيته فى نسبه وفى دلالته ومضمونه)) .

وكتب **أندرى مالرو** فى متحفه الخيالى يقول : ((من ماض سحيق وجد رودان مثل نحاتى مصر المجهولين عبقريات يؤاخيها ... روح عظيم استطاع أن يقف الى جانب النحاتين العظام ... وان حواره مع القوطيين ومع ميكيل آنج ... ومع بوللايولو ومع أعمال دوناتللو بخاصة .. هذا الحوار اتصل فى وقت بدأ فيه ابداعه الفنى متخطياً نتاج ثلاثة قرون)) .

وكتب الناقد الفنى **رايمون كونيا :**

((اننا نلاحظ أكثر مما لاحظ معاصرو رودان انه لا ينتسب الى زمن أو اتجاه أو تقليد بذاته . انه فوق المدارس ، جمع فى نفسه كل القمم وواءم بين العبقريات العظيمة)) .

وكلمات أخرى من **بيير دسكارج :**

((ان رودان الذى حكم عليه معاصروه بالاساءة الم يكن نهاية تقاليد ؟ ... ورقة أخيرة من ذلك الفصن الذى رأيناه بعد ذلك يجف رويداً ... ان رودان قد شق طريقاً طويلاً لا نراه الآن من خلال واجهات الماضى او الحاضر التى تحول الأشياء ... انه قريب الينا مثل ميكيل آنج وسلوتر وليمبييه ريشبييه ، وكما سيصير خلال نصف قرن هؤلاء الذين يلوحون لنا الآن فى شكل جديد ومختلف)) .

وقال **فالديمار جورج** ((ان مبدع تمثال ((عصر القلز)) هو مع ميكيل آنج أعظم مثال لكل العصور وكل البلاد ... انه يمثل عالمية فرنسا وانسانية الروح الفرنسى ...)) .

وكتب **الناقد الكبير هربرت ريد** ((ان لرودان نواحى متعددة من العظمة ... انه عظيم بين النحاتين المحدثين ... انه لكذلك لانه الوحيد الذى أدرك أن النحت لا يستطيع ان ينفصم عن العمارة دون ان يفقد معناه الاصيل . فمنذ عصور ما قبل التاريخ كان كلا الفنين يرتبطان ارتباط الطفل بنهد امه ... وكان رودان هو أول نحات حديث جعل هذه

الرابطة حيوية .... وبهذا حفظ عمله سمات العظمة)) .

● ● ●

٧ ــ عالم رودان :

خلف رودان عالماً رائعاً من الفن يصدق عليه قوله ((**لا فنّ بلا سحر كما انه لا فنّ بلا شعر**)) ... وقد جمع فى فنه السحر والشعر معاً ..

وعى رودان أسرار الأقدمين وبهرته عظمة دوناتللو وحوار ميكيل آنج الرائع مع الصخر ومنحوتاته المعجزة .

ولكن الحياة كانت استاذه الأعظم ، أفضت له بأسرارها حين ادرك كيف يتأملها وكيف ينفذ بروحه الى جوهر الأشياء وكيف يرى بعينه وبصيرته ما لا نراه .

أليس هو القائل « ان النحت ليس فى حاجة الى ابتكار ولكنه فى حاجة الى الحياة » .

وهو الذى قال « ان الذكاء يرسم ولكن القلب يشكل » .

وقد خلف لنا بذكائه عدداً لا يحصى من الرسوم تتسم بالدقةوبراعةالخطوط وانسياب الحياة وببساطة معجزة فى الاداء ... وبهذه الرسوم أفسح الطريق للمجددين .

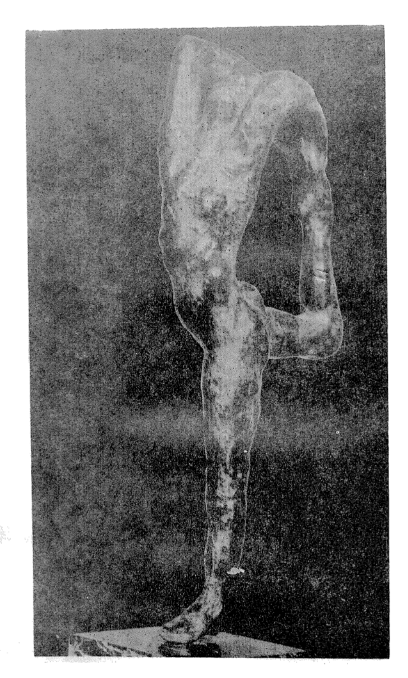
ولكن آثاره العظمى التى خلفها تتمثل فى منحوتاته العظيمة .

لقد كان رودان أعظم مثّال مجد الانسان وعبّر عن انفعالاته ومشاعره وسجل فى الرخام والبرونز الصراع الخالد للروح ضد المادة وجعل من الجسم الانسانى فى تماثيله الرمزية مسرحاً للعواطف .. جسّدها من خلال الشكل الذى ينبض بالحركة ... **وأراد أن يقيم توازناً بين الديمومة والصيرورة فى عمله .. بين ثبات المادة وبين الحركة وتذرع لذلك بوسائل ثلاث : بناء العمل الفنى ، واسلوب يتجنب الصقل والاكتمال ، وتشكيل الأشياء من عمق داخلى لامن السطح كما كان يفعل الأكاديميون** . ولقد التقى اسلوبه بمفهوم الفنانين التأثريين وذلك فى اهتمامه بتسجيل لحظات حاسمة من الحياة لحظة الحب ولحظة الحزن ولحظة الأمل ولحظاتالخوف والضراعة والتفكير مع احتفاظه بكل التوتر والقلق الذى يشع من الحركة ومن اللحظة النفسية .. وهو كذلك قريب منهم فى هيامه بالنور ..

وفن رودان ليس محاكاة للطبيعة ولكنه تفسير ذاتى لها،وقد امتلك أدواته بعد معايشة لفنون الأقدمين وفن العصور الوسطى الذى هام به ومن أجله طاف بكل كاتدرائيات فرنسا القديمة ووعى سر البناء فيها ومجدها فى كتابه الذى ألفه عنها .

وان الحيوية الدافقة فى أعماله والقدرة على التحوير فى تماثيله الكبرى للشخصيات جعلت فنه فن ثورة ... حرره من الكذب الأكاديمى وهو صدى للكذب الاجتماعى ، ومن القوانين المضللة التى يحاول التعليم المدرسى أن يصنع منها قوالب للطبيعة ... تخطى هذه التعاليم وادرك أن الفن عاطفة وعشق مطلق للحياة يجعل الفنان يصغى اليها بنشوة ويمتلكها بورع .. ولكنه أدرك أيضاً أن العاطفة وحدها لا تستطيع التعبير ما لم يساندها امتلاك لأسرار الأداء وعلم بفن الأشكال .. وادراك لقوانينها .. ان فنهحسى وعقلىمعاً جمع ما يبدو نقيضاً للآخر وصاغ شيئاً معجزاً .

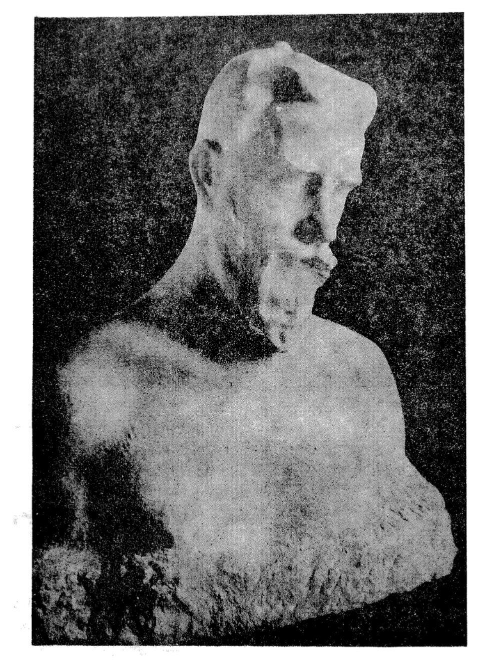
ولقد أدخل رودان الأيدى فى فن النحت كعنصر من عناصر البلاغة التعبيرية الى جانب ابداعه فى الملامح الانسانية الاخرى ... هو شاعر الفن الذى أنطق اليد بتعبيرات رائعة ... نحات اليد الموعكة واليد الخائفة واليد الحزينة واليد الحانية واليد السامقة الى



حركة رقص ـ برونز ـ متحف رودان



الكاتدرائية ١٩٠٨ ـ حجر ـ متحف رودان



برناردشو ١٩٠٦ ـ رخام ـ متحف رودان

السماء وتلك المتشبثة بالارض. أيدى البطولة وأيدى القداسة وأيدى الرذيلة كلها تلتقى فى اعماله ويستخلص منها اكثر طاقاتها التعبيرية على نحو لا يدانيه فيه نحات آخر ..

والى جانب التماثيل الرمزية .. والتماثيل الكبيرة للشخصيات التى يحفل بها عالم رودان فانه قدم لنا صورة شاملة وصادقة لمجتمع عصره من خلال **تماثيل الوجوه والشخصيات فى عمقها النفسى وحقيقتها الخالدة** ... تماثيل لرجال الفن والأدب والموسيقى والسياسة فى عصره ، واخرى تقدم لمحات من حقبة جميلة عاشها .

ولقد كان حريصاً فى هذه التماثيل على عنصر الصدق واكتمال الأداء . ويكفى أن نشير الى ما قاله **برناردشو** عن التمثال الذى صنعه له لنتبين اسلوب هذا النحات العظيم :

« عندما كان يعمل كان يحقق سلسلة من المعجزات ... ففى خلال خمس عشرة دقيقة شكل عجالة للوجه من خلال لمسات بسيطة ولكنه خرج منها بتمثال رائع بالغ الحياة .. كنت أود لو حملته وانصرفت لاوفر عليه جهوداً اخرى ... ولكن هذه المرحلة الاولى من العمل ما لبثت أن تلاشت كالسحاب ... وخلال شهر عبر تمثالى تحت ناظرى كل مراحل تطور الفن خلال العصور ... بعد الدقائق الخمس عشرة الاولى التزم رودان تصوير ملامحى بأمانة ومطابقة ... ثم لم يلبث هذا التجسيم الأمين ان تحول بصورة سحرية الى منابع الفن المسيحى .. وعندئذ تملكتنى الرغبة ان أصيح فيه : لتكف عن العمل بحق السماء واعطنى هذا التمثال .. لقد كان التمثال فى هذه المرحلة عملاً رائعاً من الفن البيزنطى .. وبعد ذلك بدا لى رويداً وكأن « برنينى » قد تداخل فى التنفيذ .. ثم اخذت الملامح تكتسب رقة واكتست للأسف سمات الجمال والأناقة فى نحت القرن الثامن عشر وكأن « هودون » قد عمل بلمساته فى رأس من نحت كانوفا أو من نحت ثور فالدن...ومرة اخرى مضى قرن آخر فى ليلة واحدة وتحول تمثالى هذه المرة الى عمل من انتاج رودان ولكنه صورةحيةوصادقة للرأس الذى يستقر فوق منكبى ... ان يد رودان لم تعمل كيد نحات ولكن كطاقة من الحياة » .

على هذا النحو كان يعمل رودان وبهذا الوعى بسر النحت عبر العصور وباقتدار خارق فى الأداء استطاع أن يصنع لنا عالمه الزاخر بالصدق والحياة .

لقد انقضى أكثر من نصف قرن على موت رودان مرت فيه الحياة ومضى فيه الفن عبر تطورات هائلة ومروعة.. ولكن أعمالهانتصرت على الزمن بصدقها الرائع وحيويتها الخارقة .. وكانت كالعاصفة التى جرفت الجمود واكتسحت أغصان الفن الذابلة ... وفتحت الطريق للفن الحديث .. وهى ما زالت حتى الآن تلهم نحت القرن العشرين سواء جاء امتداداً له أو مضى على نقيضه .. تلهمه أن الفن ليس محاكاة للطبيعة وأن الفنان الحق هو الذى يستطيع أن يعبر عن الحقيقة الداخلية للأشياء أياً كان اسلوب هذا التعبير .

ولئن كان العديد من اساتذة الفن الحديث من تلامذته كما أن امتدادات مباشرة لفنه بدت فى أعمال من جاء بعده من النحاتين فى العالم ، الا أن الكنوز الدفينة فى لغته التشكيلية والايماءات التى تختفى وراء سطوح تماثيله كاشارات للمستقبل كانت كشفاً أكبر للفن المعاصر .

ولعل اهم درس تركه هو ذلك الذى يتمثل فى مناخ الحرية الذى أشاعه فى عالم الفن باقتحامه المجهول ودعوته الى تجدد الابداع ..

وبعد ذلك نداؤه الدائم الى استمرار معركة الفنان من أجل حريته .. ذلك النداء الذى اطلقه عند الفسق ((ألا فلتستمر المعركة)) .

• • •

خاتمة : قبل رودان ... وبعده :

على البعد تلوح قيم الأشياء أكثر صدقاً وحقيقة ..

ونحن بعد أن طوفنا مع حياة رودان وعالمه المتاجج بالحياة نلقىمن البعد نظرة على خريطة العصور الفنية لنرى بجلاء موقع فنه منها ، وما جاء به من جديد بالقياس الى ما سبقه وكذلك أثر هذا الفن على العصر الذى تلاه .

ونبدأ عند حدود القرن الثامن عشر الذى سبق مولده حتى القرن العشرين الذى انتهت فى بداياته رحلة حياته .

كان القرن الثامن عشر هو عصر **الروكوكو** فى الفن ... وهو امتداد لفن **الباروك** الذى سيطر على القرن السابق ولكنه ينقصه عنفوان فن الباروك وحيويته ويشغل بالمقاييس الجمالية المتسمة بالأناقة والرقة والحلاوة ثم هو فن دنيوى غاب عنه ادراك المقدس وتعمق المعنى الدفين للأشياء واستغرق فى تعبيرات دنيوية مسرحية .

من هذا المناخ انبثقت حركة النحت الفرنسى فى القرن الثامن عشر واتسع مداها وظهر الى جانب الملوك عملاء جدد لفن النحت فانتشر فن الصالونونشطت الاتجاهات الاكاديمية والتقت فى هذا العصر التماثيل الدينية التى تزين مصلى فرساى ، وقبة الانفاليد وكنيسة سان سيولبيس ، وتماثيل المقابر ، والتماثيل المعبرة عن معان وطنية وسياسية ، وذلك كله الى جانب تماثيل الزينة التى قدمت للبرجوازية الجديدة اعمالاً تتفق ومطالبها هى خليط من انتاج مصانع سيفر وتماثيلالتيراكوتا الصغيرة والتحف الأنيقة التى كانت تخرج من بين أنامل كلوديون وغيره من مثالى العصر .

لعل أبرز ممثلىهذا العصر هم **چان باتيست بيجال واتين فالوكنيه ، وچان هودون** . أما بيجال فقد سيطر على فنه اسلوبان .. اسلوب جهير عالج به تماثيل الملوك والتماثيل الرمزية ، واسلوب يتسم بالرقة والرشاقة تمثل بصفة خاصة فى مجموعة الأعمال التى أعدها لتزيين قصر مدام بومبادور .

وكان الطابع الغالب لفن فالوكنيه هو طابع الرقة والأناقة التى عالج بها موضوعاته الاسطورية ... والتماثيل التى كان ينتجها لمصنع سيفر .

وشغل هودون بتماثيل الأشخاص وتسجيل حقائق المرئيات ، وكان شعاره أن ينقل بصدق كل ما يراه .

وهكذا كان فن هذه الحقبة مزاجاً من الأكاديمية التى جنحت الى الرقة والرشاقة ، وهياماً بمحاكاة الطرز الرومانية تحت تأثير حركة الكشف عن الأشكال القديمة فى روما لتشكيل طراز كلاسيكى جديد .

وتلقى القرن التاسع عشر هذا الميراث ... ولكننا ازاء عصر تحول حاسم : عصر ثورات هزت كيانالعالم وادت الى انتصار الرومانسية على الكلاسيكية ثممهدت لظهور حركاتمتوالية صوبت سهامها الى الأكاديمية والى الذوق العام الذى كان بذخ الباروك وحلاوة الروكوكو والنماذج الاغريقية الرومانية تقيد تقييمه وحكمه على الأشياء .

ومع بدايات الثورة على الأوضاع التى سادت الفن ظهر المثال **رود** واخذ يهز أعمدة الاكاديمية بنحته الجهير وبصرخة مدوية من قمة مجموعته الشهيرة ((**رحيل المتطوعين**)) أو ((**المارسيليز**)) كانت فى حقيقتها دعوة الى تحرير النحتمن قيود كبله بها جمود القواعد.

وجاء بعده **كاربو** فأعاد للنحت تعبيره عن خلجات النفس الانسانية وصراعها مع قدرها وأودع تماثيله غنائية وحيوية خارقة تمردت على جمود الكلاسية ... وتحولت الشرارة التى أضاءها **رود** بين يدى **كاربو** الى وهج أسلمه الى **رودان** فشق به الطريق الى فن العصر الحديث .

ومضى **رودان** نحو الذروة بالخط الذى بداه **كاربو ورود وبارى** نحات تماثيل الحيوانات العظيم ... ولكنه خرج عليه وارتقى قمة جعلته أعظم ممثل لعصره كما كان **فيدياس** أعظم ممثل للعصر الاغريقى ، وكان **ميكيل آنج** أروع ممثل لعصر النهضة .

كان فن رودان ثورة جمعت أطراف التطور الذى انطوى عليه القرن التاسع عشر : الروح الثورية التى تجلت فى الحركة الرومانسية وانعكست على فنه الزاخر بمشاعر الانسان وعواطفه وغرائزه ... والهيام بالنور الذى تدفق مع معطيات العصر العلمى وانعكس على الفن من خلال تيار الحركة التأثرية .. وعاشت وصية رودان فى ضمير عصره واستطاع بثورته أن يفتح للفن من بعده آفاقاً جمعت محاور فن القرن العشرين .

كان تلامذة رودان هم رواد هذا العصر ...

جاء **بورديل** بعد رودان فجعل من النحت تعبيراً بنائياً عن المشاعر الخالدة ، وادرك ان المنحوتات العظيمة كانت دائماً قرين العمارة فأحال الروح التى أشاعها رودان الى طراز بنائى تعبيرى حقق به لغة تشكيلية جديدة لامست نحت العصور الوسطى والنحاتين القوطيين العظام وشغفت بالرموز التى تعبر عن الارادة والنصر والحرية والقوة .

لقد كان عملاقاً آخر أعطى النحت الحديث الكثير ومهد له طريق التجديد .

وفى نفس الحقبة بدا **مايول** الذى تتلمذ حقبة من الزمن على رودان اتجاهاً آخر .. عاد بالنحت الى فطرة الفن الاغريقى العتيق .. الى اليونان قبل فيدياس ... وأقام تماثيله للمراة بنفس الاسلوب الذى يصنع به الخزاف اناءه ... كان شاغله الشكل بسطوحه الصافية ومقاطعه الصريحة التى كانت نداء للعودة الى النحت المباشر ، وخروجاً على التعبير الدرامى الذى تميز به رودان .

كان اتجاه مايول معارضاً لاتجاه استاذه رودان اذ جعل الصمت عنصر البلاغة فى النحت واستحالت العضلات المتوترة تحت طرقات أزميله الى **كتل ومسطحات لا تعكس شيئاً من** تفاصيل الجسم الانسانى ونبضاته وانفعالاته ، ولكن التوافق الرائع بين هذه الكتل والمسطحات تخلق منها وحدة تشكيلية تتمثل فيها كل قدرة النحت على التعبير .

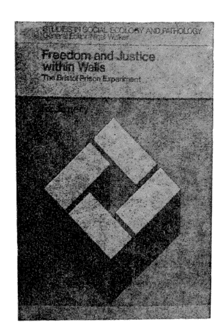
واستطاع مريد ثالث من مريدى رودان ... **كونستانتين برانكوزى** أن يخلص النحت الاوربى من الطحالب التى نبتت فيه كما قال **هنرى مور** ... من الزوائد التى شابت سطحه وكادت تطمس الشكل كلية ... هو الذى نمّى الوعى بلغة الشكل واستطاع أن يختزل الأشياء وأن يعيد اليها صفاءها .

وتدفقت التيارات بعد رودان ومريديه .. وجعلت هذه الحقبة من القرن العشرين تبدو وكأنها عصور مديدة ازاء ما جاء به العصر من تحولات .

وبرغم ما يبدو بين فن رودان وفنون عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية من هوة سحيقة أغرق فيها الفن فى الاغراب والتجديد الا ان وصية رودان ومعاصريه ما زالت تعيش فى قلب هذا الجيل .

ومهما يكن من أمر هذا العصر الغريب فان فن رودان سيظل دائماً نبرة لها هذا الشجى الجميل وذروة تحلق فيها روح الانسان كلما تطلعت الى النور !

عرض الكتب



الحرية والعدالة خلف الاسوار تجربة سجن بريستول

تأليف : ف.ى. إمرى

عرض وتحليل : الدكتور عدنان الدورى

تمهيد :

لا أحسب أن الحديث عن السجون ووصف حياة أصحابها يشكل متعة فكرية شيقة يسر لها القارىء فى كل مكان اللهم الا اذا قدمت اليه هذه المادة فى طبق روائى مثير يبرز مواقف المغامرة والبطولة أو يجسّد صور العنف والعدوان . وهذا ما يغلب قوله على الكثير من الكتب والروايات التى تناولت موضوع السجون وأصحابها . ومع ذلك فلم ينقطع سيل الكتابة عن السجن وأصحابه . لقد كتب عنه الروائى والصحفى والفيلسوف والشاعر ورجل الدين ورجل القانون وبعض اصحاب السجن انفسهم ممن عاشوا تجربة الحبس وعركوا الحياة وراء أسواره . وقلة قليلة تناولت مجتمع السجن بموضوعية علمية استطاعت كشف بعض أبعاد العلاقات الانسانية السائدة فيه .

فالسجن عالم صغير ولكنه غامض غريب لايكاد يعرف الناس عما يجرى وراء أسواره الا بالقدر الذى يحقق أهداف الكاتب أو يشبع فضول القارىء . انه لاشك عالم منعزل تحيطه الأسوار العالية من كل جانب . يتساوى فيه المجرم المسجون وموظف السجن اللذان يعيشان خلف اسواره سنين طويلة دون كبير حرية أو اختيار .

Emery, F.E., **Freedom and Justice Within Walls,** Studies in Social Ecology and Pathology, General Editor : Nigel Walker, Tavistock, London, 1970.

ومع هذا فكل من يعيش فى السجن انسان بل كائن اجتماعى يعيش فى جماعة يتفاعل مع افرادها من خلال خلفية ثقافية معينة وفى اطار أبعاد ومعطيات شخصية تكوينية مجددة .

لقد اخبرنا الكثيرون عن حياة السجن وخلفيات العيش فى مجتمعه . لقد وصفوا لنا حياة السجناء : كيف يعيشون وكيف يلهون وكيف يعملون وكيف يستجيبون للسلطة وكيف يحترمون أوامر السجن وقوانينه . وقد أفاض بعضهم فى تحليل بعض جوانب الحياة ووصف مشكلات السجن وعيوبه . وطلعوا علينا ببعض فرضيات تناولت مستقبل عمليات الاصلاح والتقويم والعلاج فى حقل معاملة المذنبين والجانحين .

والحقيقة أن معاملة المذنبين والجانحين كانت ولا زالت هدف علم الاجرام قديمه ومعاصره . انها الحجر الأساسى فى معالجة مشكلة الجريمة والمجرمين . لقد نادى الكثير من فلاسفة الاجتماع ورجال الاصلاح الدينى والاجتماعى منذ قرون طويلة بضرورة اصلاح السجن وتخفيف عنصر القسوة فى معاملة المجرمين وطالبوا دوماً بالغاء بعض الطرق اللاانسانية التى كانت سائدة فى عصورهم . وقد شهد تاريخ علم العقاب المعاصر بعض الحركات الانسانية الكبيرة التى نادى أصحابها بضرورة الغاء أو تعديل بعض نصوص القوانين العقابية وقوانين المحاكمات ووسائل تنفيذ العقوبة .

ويبدو أن العقوبة فى معناها التقليدى القديم قد اختفت اليوم وراء حملات رجال الفكر واطباء العقل والجسم وعلماء النفس والاجتماع . وظهرت السجون فى ثوب انسانى جديد . لقد اعادوا للسجين بعض كرامته التى فقد الجزء الأكبر منها بالحبس والادانة والتجريم . وعاملوا السجين كانسان فى مأكله وملبسه ومأواه . وهيأوا له بعض أسباب الراحة والتسلية وقتل الفراغ . وحاولوا بصدق تقويم ما اعوجّ من شخصيته . وعالجوا ما اعتلّ من عقله ومن جسمه أو نفسيته . وهيأوا له بعض أسباب التعلم . وحاولوا تعليمه اصول حرفة أو عمل شريف لكسب عيش شريف .

رغم كل هذا فقد ظلّ موضوع السجن بعيداً عن متناول البحث العلمى المجرد والتحليل الموضوعى الجاد . وظلت العلاقات الانسانية القائمة بين أصحاب السجن مادة صحفية دسمة تقدم للقارىء متعة عابرة وذلك كلما قام فى السجن اضراب عن الطعام أو حدث فيه تمرد مسلح أو عنف أو عصيان .

والواقع أن جميع عمليات الاصلاح والتقويم والعلاج التى تجرى فى غالبية سجون اليوم هى عمليات اجتماعية أو مجرد تفاعلات اجتماعية على درجة كبيرة من التعقيد . فهى تتم فى اطار متكامل من العلاقات الانسانية وفى محيط اجتماعى خاص وهو مجتمع السجن بكل مافيه من مواقف وظروف وخلفيات معقدة . وهذا جميعه يستلزم شيئاً من الحرية . والحبس فى طبيعته تقييد صارم لحرية الفرد أو مصادرة قاطعة لأسبابها . وهذا هو ما يطلبه المجتمع كجزء أساسى من متطلبات العدالة . ومن هنا تبدأ مشكلة السجن وهى مشكلة الصراع بين حق الفرد فى حريته وبين حق المجتمع فى تقييدها . وتلك أبرز مشكلات السجن الحديث . انها مشكلة الحرية فى السجن . ماهو نطاق الحرية التى يُسمح بها فى محيط السجن وفى اطار علاقات أصحابه ؟ وهنا تتعدد المسالك وتختلف الحلول . هناك من يتطرف فى المناداة باطلاق حرية السجين فى سجنه الى الحد الذى

يشعره بجو حر طليق يقربه من طبيعة الحياة فى المجتمع الخارجى الذى اعتاد العيش فيه . وهذا تطرف كبير لايجد اليوم مبرره كما لايجد انصاره فى غالبية سجون العالم .

وهنا من لا زال يؤمن برسالة السجن كمؤسسة عقابية هدفها الأول معاقبة المجرم وتحقيق متطلبات العدالة . وهؤلاء لايجدون للحرية اى معنى خلف أسوار السجن ولايستطيعون أن يفهموا مبرراتها . فالسجن لدى هؤلاء مكان يحبس فيه الشخص المجرم المذنب الذى ادانه مجتمعه عن جريمته . والحبس عقاب هو بعض ما يستحقه هذا المجرم من ايلام وتعذيب .

وبين هؤلاء وأولئك يقف بعض المعتدلين الذين يحاولون التوفيق بين مطلبين متناقضين عسيرين على الواقع والتطبيق وهما حرية المجرم فى سجنه وحق المجتمع فى حرمانه منها، ومن هنا يشيع التناقض بين النظرية والتطبيق .

موضوع هذا الكتاب :

وتدور فكرة الكتاب حول مفهوم الحرية فى السجن . وهو كتاب حديث (مطبوع فى سنة ١٩٧٠) يعالج موضوع تحرير نظام السجن دون اللجوء الى اجراء بعض التغييرات الجذرية فى كيان السجن وفى انظمته وقوانينه بحيث تشيع الفوضى بدل الضبط والنظام .

ومؤلف الكتاب الاستاذ ((**امرى**)) من علماء السلوك والنفس الجامعيين الذين عملوا فى أكثر من معهد وجامعة من جامعات استراليا وانجلترا لسنوات عديدة . والكتاب يتضمن خلاصة لبحث علمى أو تجربة علمية رائدة جرت فى سجن ((**بريستول**)) خلال الفترة (١٩٥٨ - ١٩٦٠) . وسجن « بريستول » سجن انجليزى محلي يعد نموذجاً اعتيادياً لغالبية السجون الانجليزية المحلية . ويحتوى الكتاب على أقسام خمسة . قدم المؤلف فى **القسم الأول** بعض الاطار النظرى لمفهوم السجن حيث عرض بعض الملامح النفسية - الاجتماعية لمجتمع السجن بوصفه مجتمعاً مغلقاً صغيراً يتميز بخصائص معينة. وخصص **القسم الثانى** لوصف ملامح سجن «بريستول» حيث تناول وصف كيانه المادى والبشرى والادارى وعرض الخلفية الثقافية التى تقف وراء الكثير من العلاقات الانسانية السائدة بين أصحابه . وفى الأقسام الباقية من الكتاب تناول الكاتب موضوع التجربة ذاتها . لقد تناول فى **القسم الثالث** ماهية وطبيعة التغييرات المطلوبة من هذه التجربة وكيفية القيام بهذه التغييرات المطلوبة . وخصص **القسم الرابع** لوصف أبعاد هذه التغييرات فوصف كيفية قياسها وفترات حدوثها والمعايير السلوكية التى استخدمت فى قياس ابعادها . **أما القسم الخامس والأخير** فقد خصص لوصف نتائج هذه التجربة وبيان بعض المشكلات اللاحقة المصاحبة للفترة الزمنية اللازمة لها .

خلفيات وفرضيات التجربة :

ويبدو أن اختيار سجن « بريستول » لم يكن وليد الصدفة وانما جاء نتيجة لدراسة علمية لطبيعة هذا السجن بوصفه نموذجاً كاملاً للسجون المحلية الانجليزية ذات الحجم المتوسط . وتجربة سجن « بريستول » هذه تعد أول تجربة علمية يسهم بها بعض علماء الاجتماع وذلك بالاشتراك مع العاملين فى ادارة السجون الانجليزية . وهدف هذه التجربة محاولة تغيير بعض اسس الحياة فى مجتمع السجن الصغير وذلك بتيسير أكبر قدر ممكن

مـن الحرية للأشخاص السجناء فى مجـال علاقاتهم الشخصية وفى مجال اختلاطهم ببعض خلال أوقات فراغهم ومن ثم قياس آثار هذه الحرية على الجو الاجتماعى العام للسـجن ذاته . ومع هذا فان الحرية المطلوب تيسيرها فى محيط السجن ينبغى أن لا تتعارض مـع متطلبات الأمن والحراسة أو تخالف انظمـة السجن وقوانينه .

وكان لا بد للمؤلف قبـل ان يصف ماهية تجربته هـذه أن يقـدم لهـا بعض الخلفية الأكاديمية لشرح طبيعة عملية الحبس ذاتهـا وذلك من خـلال اعطاء وصف دقيق لماهيـة الظـروف والمواقف الخاصـة التى يتميـز بها السجن بوجه عام وسجن « بريستول » بوجـه خاص . وبدأ المؤلف بالحديث عـن السـجون بوجه عـام وأبرز بعض سماتهـا وخصائصها ثم عرج على سجن « بريستول » بالذات فأوضـح بعض مميزاته وخصـائص العيش فيه . ويكاد المؤلف أن يكشف عن كبير تشاؤمه قبـل البدء بالحديث عـن مستقبل بعض العمليـات الاصلاحية والعلاجية التى تجرى فى سجون اليوم . فهو يرى بادىء ذى بدء أن غالبية الدراسات العلمية وشبه العلمية التى تناولت موضوع السجن والبحوث العلمية المقارنة التى قامت فى سجون مختلفة لم تجد نفعاً كبيراً فى تطور علم العقاب المعاصر . ذلك ان أكثر مجتمعاتنا المعاصرة لا زالت تستلزم حداً معيناً من مستويات الأمن والحراسـة اللازمة فى السجون وهذا بدوره يضعف مـن فرص نجاح معظـم العمليات التجريبية فى ميادين التقويم والعلاج. فالمجتمعات لا تتسـاهل اليوم فى موضـوع الأمـن والحراسـة التى يجب أن تظل فى مستويات معينة دون المخاطرة بتقليصها عند حدود قد تهيىء للسجين فرص الهروب من سجنه . ولذلك فقد أصبح الرأى السـائد بين أكثر العاملين فى سجون اليـوم هو الابقاء على مستوى معقول من مستويات الأمن والحراسة وعدم التوسع فى اعطاء المزيد من الحريات بحيث تشكل خطراً على الهيئة الاجتماعية . هـذا هو بعض ما يشـيع فى مؤسسـاتنا العقابية اليوم والذىهو من رواسب الفكر العقابى التقليدى القديم الذى بدأ بفكرة الحبس الانفرادى وانتهى بنظام الصمت المطبق الذى ساد فترة طويلة فى معظم سجون العالم حتى وقت قريب .

ولا شك ان هناك الكثير من انصار هـذه السياسة العقابية التقليدية السائدة فى بعض سجون اليوم . فالحراسة الشديدة فى راى البعض هى صمام الأمن الذى يستلزمه المجتمع كحد ادنى للايلام والعقاب . كما ان فكرة عزل السجناء عـن بعضهم لها ما يبررها أيضـاً وهى منـع انتشـار الخبرة الاجرامية بين السجناء وعدم افساح المجال لاختلاط السجناء الجدد بآخرين عائدين لهم خبرة اجراميـة طويلة . فالمجتمع الصغير يتيح لأفراده فرصة تبادل الخبرات الاجرامية بسهولة وذلك مـن خلال التواصل المباشر والاختلاط المتواصل .

ومن الفرضيات الخاطئة التى لا زالت تشيع بين بعض العاملين فى السجون ان العـلاقة بين السجين وموظف السجن ينبغى أن تظل فى اطار رسمي غير مباشر لا يتعدى اصدار الأوامر والتعليمات من جهة ومحاولة العمل على اطاعة هـذه التعليمات وتنفيذها حرفياً من الجهة الاخرى . ولهذا ساد الاعتقاد بأن اظهار بعض اللين والعطف فى معاملة السجناء من قبل موظف السجن أمر غير مرغوب فيـه من الناحية الادارية كما انه قـد يستوجب اللوم والمسئولية الادارية أحياناً . وهكذا ظلت العلاقة بين السجين وبين موظف السـجن

تعيش خلف جدار سميك من الحذر والخوف واللامبالاة . وعلى العكس من هذا فان زيادة الصلة بين الاثنين تشجع على الفساد والرشوة والتورط فى علاقات شخصية مريبة وهذا جميعه يتنافى وقواعد الضبط ومتطلبات الأمن والحراسة والنظام .

ورغم هذا الاعتقاد الشائع فى غالبية سجون اليوم فقد شهد تاريخ السجون الانجليزية اهتماماً كبيراً بكل ما هو جديد حديث فى ميدان الاصلاح والتقويم . وظهرت فى انلجترا مؤسسات جديدة حديثة قامت على بعض الاسس العلمية الانسانية . ومن هذا ظهور نظام « البورستال » بالنسبة للأحداث الجانحين وظهور نظام السجون المفتوحة والسجون التدريبية أو المدارس التدريبية وظهور عدد من المؤسسات الاصلاحية المتخصصة لايواء فئة معينة من المذنبين والعائدين والجانحين . ومع كل ذلك فلم ينصب الاهتمام على السجون القديمة التى ظلت كما هى تحتفظ بمؤسساتها التقليدية ، ولهذا فقد قامت سجون حديثة الى جانب سجون تقليدية قديمة .

ويبدو أن السجون المحلية الانجليزية ظلت كما هى دون تغيير كبير فى مؤسساتها أو تطوير كبير فى أجهزتها وعملياتها وادارتها ، وقد يكون لذلك ما يبرره . فالسجون المحلية الانجليزية تحتفظ بخليط غريب من السجناء بينهم السجين الموقوف والذى يحتفظ به السجن على ذمة المحاكمة الى حين الحكم عليه أو الافراج عنه ، وبينهم من ينتظر نقله الى مؤسسة اخرى او الى سجن آخر . وهؤلاء سجناء مؤقتون يعيشون فى هذه السجون فترة قصيرة لا تكفى لاتخاذ اى اجراء اصلاحى أو علاجى بحقهم ، هذا الى جانب عدد غير قليل من السجناء المحكوم عليهم بمحكوميات صغيرة وذلك عن جرائم غير خطيرة كجرائم السكر والتشرد والسلوك الجنسى الشاذ والايذاء البسيط والسرقات البسيطة . ولذلك فقد يظل هؤلاء السجناء غرباء فى سجنهم طيلة مدة اقامتهم فيه وذلك لعدم اتساع الوقت لقيام علاقات اجتماعية ذات أبعاد عميقة فيما بينهم فى محيط مجتمع السجن . انما هى علاقات سطحية وقتية عابرة لا تتيح المجال لتواصل فكرى بين الأفراد وبالتالى لا تترك بينهم آثاراً ذات أبعاد اجتماعية أو نفسية كبيرة . كما ان السجن ما يزال يطبق مبدأ العزل التقليدى الذى لا مفر منه وهو عزل السجناء بسبب بعض انواع الجرائم ، كعزل المحكوم عليهم عن دين ، عن بقية السجناء الآخرين ، وعزل المجرم العائد المحترف عن المجرم لأول مرة ، وعزل المجرم كبير السن عن المجرم صغير السن ، هذا الى جانب عزل واقعى من نوع آخر وهو ذلك العزل الذى يمارسه السجناء انفسهم داخل مجتمعهم الصغير . انه عزل عرفى يقوم على قيم ومتعارفات خاصة بالعالم الاجرامى السفلى ، كما أن اغلب هذه السجون التقليدية المحلية ظلت على حالها القديمة سيما وانها انشئت خلال القرن التاسع عشر وظلت كذلك حتى يومنا هذا .

ولا شك أن مثل هذه الاعتبارات هى التى تفسر لنا لماذا ظلت الحالة فى هذه السجون الانجليزية جامدة راكدة دون كبير تغيير فى نظم الأمن والحراسة واسلوب الادارة . ورغم ذلك فقد تعرضت بعض السجون الانجليزية منذ عام ١٩٥٦ الى أول تجربة علمية رائدة عرفت بتجربة ((نوروودج)) ، وهى تجربة علمية هدفت الى تحسين ظروف العيش فى

بعض السجون بشكل كبير رغم أن تلك التطورات المطلوبة لا تعنى الكثير اليوم عند مقارنتها بالتطورات الحديثة التى لحقت بأكثر سجون العالم خلال النصف القرن الماضى . لقد تناولت تلك التجربة مشكلة اطعام السجناء بصورة مختلطة بشكل يختلف عن الحالة التقليدية التى كان يجرى بها اطعام السجناء ، كما هدفت تلك التجربة الى زيادة ساعات العمل من ٢٦ ساعة الى ٣٢ ساعة فى الاسبوع وذلك لمحاربة البطالة والكسل الذى يشيع بين السجناء بوجه عام ، والى تحسين بعض العلاقات التقليدية التى كانت تقوم بين السجناء ورجال ادارة السجون وتشجيع بعض أنواع الاختلاط بينهم أثناء فترات الراحة والعمل .

وكانت تجربة « نوروويج » تجربة رائدة مشجعة صارت من بعد نموذجاً لتجارب مماثلة لاحقة جرت فى بعض السجون المحلية الانجليزية فى كل من منطقة « شروسبرى » و « سواتنسى » و « اكسفورد » ، وصارت تعرف اليوم فى اصطلاح السجون بنظام « نوروويج » الذى ما زال يطبق فى ستة سجون انجليزية فى الوقت الحاضر .

التجربة ونتائجها :

وتجربة سجن « بريستول » موضوع كتابنا هذا تكاد تكون رائدة فى ميدان العلاقات الانسانية القائمة فى السجون الانجليزية ، وقد ركزت هذه الدراسة على حرية السجين فى سجنه، وتضمنت أخذ عينة صغيرة من مجموع السجناء وعينة اخرى من ضباط السجن وذلك وفقاً لمعايير خاصة وبعناية فائقة لتكون عينة صادقة تمثل السجين الاعتيادى من جهة وتمثل نموذجاً لموظف السجن الاعتيادى من جهة اخرى ، وهذا يتطلب أن يكون كل من السجين وموظف السجن قد قضى فترة طويلة فى السجن .

وتتلخص ماهية التغييرات التى هدفت اليها هذه التجربة فى الامور التالية :

(١) السماح للسجناء بوقت أكبر يقضونه خارج زنزاناتهم والسماح لهم باختلاط أكبر بعضهم بالبعض الآخر .

(٢) زيادة مسئوليات ضابط السجن فى مجال العناية بالسجين بتخصيص ضابط واحد للعناية بستة عشر سجيناً وذلك لمساعدتهم شخصياً فى كل ما يتصل بمراسلاتهم وعلاقتهم بذويهم فى العالم الخارجى وكتابة تقارير دورية مفصلة لوصف حياتهم وتعيين مشكلاتهم وتقديم هذه التقارير الى ادارة السجن اسبوعياً ، كما ألزمت هذه المسئوليات الجديدة الضابط المسؤول بتقديم كل المساعدات الممكنة للسجين عند الطلب وفى كل المجالات الممكنة .

(٣) محاولة تخفيف الشعور المتبادل بالعداء التقليدى القائم بين السجين وبين السلطة فى السجن وهذا يتطلب تعديل أو تغيير أو تبديل بعض المواقف والاجراءات التى يحتمل أن تثير لدى السجين مثل هذا الشعور والاعتماد على اقامة علاقة شخصية سليمة لمعالجة المشكلات السلوكية والمخالفات التى تستوجب الضبط دون اللجوء الى استخدام المزيد من القسوة فى الضبط والتأديب التقليدى الذى كان يتخذ بحق السجين فى أحوال كهذه .

(٤) افساح المجال أمام السجناء لتكوين جماعات أولية وتكوين علاقات أولية حميمة فيما بينهم وذلك وفقاً لاختيار السجين للجماعة

الصغيرة التى يختار الانتماء اليها والمشاركة فى نشاطاتها دون التدخل من قبل ادارة السجن .

(٥) تشجيع الضباط على الاتصال بالسجناء وتشجيع الحديث المتبادل بينهم فى كل الفرص المناسبة وذلك أثناء فترات العمل والراحة والتسلية . كما تشجع الادارة اقامة ندوات ليلية خلال أيام العطلات الاسبوعية لمزاولة الحديث المتبادل والنشاطات المشتركة .

(٦) اطلاق حرية السجناء فى مطالعة الصحف والاستماع الى الراديو ومزاولة بعض العاب التسلية .

وقد كان من المؤمل أن زرع مثل هذه التغييرات فى حياة السجن قد يؤدى الى تخفيف حدة التوتر والقلق النفسى الذى يعانيه السجين فى سجنه وذلك بسبب عمليات العقاب والضبط الصارم التى كانت تمارسها السلطة بحق السجين . كما أن من المؤمل ايضاً أن تصبح العلاقة بين السجين وبين موظف السجن على درجة من الانسجام والسوية وهذا بدوره يخلق علاقات طيبة متبادلة بين الطرفين ويضفى على السجن جواً من الهدوء والاستقرار اللازمين لعمليات التقويم والعلاج .

وقد وضعت لهذه التجربة فترة انتقالية مدتها ثمانية أسابيع لزرع هذه التغييرات فى بيئة السجن . أما قياس نتائج هذه التغييرات فقد وضعت فترتان مدة كل منهما أربعة وستون اسبوعاً ، اولاهما تسبق مرحلة زرع التغييرات والاخرى تعقبها لمعرفة النتائج المتحصلة نتيجة القيام بهذه التجربة . كما جرى العمل بمقتضى بعض المعايير التى استخدمت أساساً لقياس آثار هذه التغييرات ومن أبرزها رصد المخالفات التى تصدر عن السجناء خلال كل من هاتين الفترتين ثم تجرى المقارنة بينهما وفقاً لنوعية وماهية وكمية هذه المخالفات ، هذا الى جانب مجموعة من الاختبارات النفسية لقياس بعض مستويات القلق والتوتر النفسى للسجناء الذين خضعوا للتجربة ومقارنتها بمجموعة ضابطة اخرى خارجة عن نطاق هذه التجربة وذلك خلال الفترتين المذكورتين . ويبدو أن النتائج كانت بوجه عام موجبة مشجعة ، فلقد أظهرت هذه التغييرات بعض فاعليتها فى تحقيق بعض أهداف التجربة وذلك فى مجال تخفيف حدة التوتر النفسى لدى السجناء بوجه عام وفى مجال علاقاتهم الشخصية بضباط السجن بوجه خاص .

وكان الاقبال على قبول هذه التغييرات كبيراً سيما تلك التى تناولت وسائل التسلية واللهو وقتل فراغ السجناء وما يتصل بحرية اختلاط السجناء ببعضهم بشكل كبير ، كما ظهر هناك بعض الاستقرار النسبى فى حياة السجناء وفى العلاقات بينهم وبين العاملين فى ادارة السجن . وكان هذا كله مشجعاً على قيام تجارب جديدة فى هذه الميادين المجهولة ، فهى بحق الحقل الأساسى لنجاح فرص القيام بعمليات التقويم والاصلاح والعلاج مما يساعد على تحقيق أهداف السلطة العامة فى معالجة مشكلة الجريمة والجنوح وفى تعديل تلك الطرق التقليدية البالية السائدة فى معاملة المذنبين والجانحين .

ومع هذا فلم يطرح المؤلف بكل تفاؤله نتائج هذه التجربة الفريدة الرائدة حيث لم ير بوادر مشجعة لقيام اصلاح قريب فى حالة السجون الانجليزية المعاصرة . فهو يرى أن السجون الراهنة لا زالت تعيش حالة عقلية عقابية تستوجب الابقاء على نظام الحراسة القصوى

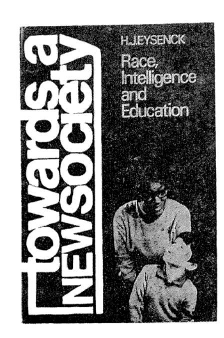
او الحراسة المتوسطة ، وهذا بالذات يضعف من فرص نجاح الكثير من التغييرات المنشودة فى المدى البعيد. ولذلك فان آثار هذه التجربة تظل صغيرة لا تتسع لانتشارها بوجه كبير فى اكثر السجون الحالية .

وعلى كل حال فان تجربة كهذه وما حققته من نتائج نسبية ملموسة هى تجربة علمية رائدة تجرى فى ميدان السلوك الانساني بوجه عام والسلوك الاجرامى بوجه خاص ، وهى فرصة طيبة لاظهار امكانية علوم السلوك فى تغيير سلوك الفرد وتغيير بعض مواقفه وقيمه واتجاهاته النفسية تجاه السلطة واصحابها .

وكانت فى الحقيقة تجربة شاقة لأنها تناولت مجتمعاً شاقاً فى تركيبه وفى افراده وعلاقاته . انه مجتمع السجن الصغير فى حجمه ، الكبير فى مشكلاته ، المعقد فى مواقفه وعلاقاته . ولعل هذه التجربة أول بادرة للقول بامكانية التجريب العلمى فى مجال السلوك الاجرامى وفى محيط اجتماعى خاص .

وهذه لا شك خطوة ايجابية على طريق قيام علم عقاب جديد ، علم عقاب يقوم على دراسة سلوك الانسان ومحاولة تعديل هذا السلوك وفقاً للمنهج العلمى الحديث .

* * *



السلالة والذكاء والتربية

عرض وتحليل : الدكتور عاطف وصفى *

« كتاب « الســـلالة والذكاء والتربية » للاســـتاذ ايســـينك (١) ، نشر بالتعاون مع مجموعة « نحو مجتمع جديد » التى تصـــدر تحت اشراف الاستاذ پول باركر . ولقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً واسعاً واثار الكثير من النقاش ، حتى انه طبع ثلاث طبعات فى سنة واحدة وهى سنة ١٩٧١ التى نشر فيها لأول مرة » .

ولد المؤلف فى برلين خـلال فترة الحـرب العالمية الاولى ، وعاش مرحلة الطفولة واوائل الشباب فى عصر تطاحنت فيه الفلسفات وشهد انتصار فلســـفة القوة وايديولوجية ســـمو السلالة الآرية . وبوصفه يهودياً ، تأثر بقوة بحملات الاضطهاد التى كان يشنها النازيون على أهله وأتباع ملته . ولذلك هاجر من وطنه الام ، وطلـب العلم فى جامعتى « ديجون » و « اكسيتر » ، ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن ، وهى نفس الجامعة التى يعمل فيها الآن فى وظيفة استاذ علم النفس ، وامضى معظم حياته ــ ولا يزال ــ فى قسم علم النفس بجامعة لندن ، وقد عمل فى أول الأمر ــ بعد الحرب العالمية الثانية بقليل ــ فى معهد الطب العقلى بمستشفى « مودسلى » بلندن . واتسع نشاطه العلمى خارج انجلترا اذ حاضر فى جامعتى « فيلادلفيا » و « بيركلى » بالولايات المتحدة الأمريكية .

---

* استاذ الانثروبولوجيا الاجتماعية المساعد بجامعة القاهرة ــ معار حالياً لجامعة بيروت العربية.

(١) H. J. Eysenk : Race, Intelligence and Education, Maurice Temple Smith Ltd., London, 1971.

الف ايسينك ما يقرب من عشرين كتاباً ، وما يزيد عن ثلاثمائة مقالة علمية . وهو يرى أن الحل الوحيد للمشاكل الملحة للجنس البشرى هو تقدم المعرفة العلمية الانسانية ، اى اكتشاف حقيقة الانسان ذاته .

يقع هذا الكتاب القيم فى مائة وتسع وخمسين صفحة من القطع المتوسط ، والكتاب ولا شك ، دقيق فى الطباعة وفاخر فى الاخراج، ويحتوى على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة ، يدرس في الفصل الأول ما عرف باسم « هرطقة چينسينيست » ؛ ويعرف السلالة فى الفصل الثانى والذكاء فى الفصل الثالث ، ويتحدث فى الفصل الرابع عن ذكاء الزنوج الأمريكيين ، أما الفصل الخامس فيتعرض لموضوع هام وهو الطبيعة الإنسانية المتغيرة .

يتفق هذا التقسيم للأفكار القيمة المعروضة فى هذا الكتاب مع طبيعته باعتباره كتاباً ، ولكن يختلف الوضع اختلافاً كبيراً فى حالة عرضه فى صورة مقال ، فالمقالة أصغر حجماً وبالتالى أكثر تركيزاً ، ويلعب التحليل والنقد دوراً أهم من دور العرض والاسهاب ، ولذلك رأيت تقديم هذه الحقائق والمعلومات الهامة فى تنظيم آخر يتفق مع متطلبات المقالات ، وهو : المشكلة ــ الآراء غير العلمية ــ النظريات شبه العلمية ــ النظريات العلمية ــ النتائج العامة ــ النقد .

أولا : المشكلة

تعد مشكلة السلالات البشرية من أهم المشكلات الكبرى التى تواجه الانسان ، واذا لم يستطع حلها أو السير فى الطريق الصحيح لحلها ، فمن المحتمل جداً أن تجرف الانسانية الى صراعات وحروب وثورات لم يشهد العالم مثل ضراوتها من قبل .

عندما ندرس مشكلة السلالات البشرية بالمنهج العلمي الهادىء القائم على أسس الواقعية ودقة المعلومات من ناحية وتوخى الموضوعية التامة من ناحية اخرى ، نجدها واحدة من أصعب المشاكل ، فما بالك عندما ندرسها بأعصاب متوترة وعواطف هائجة وتعصب أعمى ، عندئذ تصبح مشكلة مستحيلة الحل .

ويمكن تلخيص المشكلة الهامة التى يتركز حولها هذا الكتاب فى الأسئلة التالية :

١ ــ هل الزنوج (وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية) باعتبارهم سلالة ، يختلفون عقلياً (وخاصةفى مستوى الذكاء) عن البيض ؟

٢ ــ هل يرجع هذا الاختلاف (ان وجد فعلاً) الى عوامل وراثية بيولوجية أم الى عوامل بيئية اجتماعية مؤقتة أم الى الأمرين معا ؟

٣ ــ هل الطبيعة البشرية ثابتة أم متغيرة ؟ وكيف ؟

٤ ــ هل يترتب على وجود مثل هذا الاختلاف ، أن نسىء معاملة السلالة التى حرمتها الطبيعة البشرية المستوى العقلى الرفيع الذى حظيت به السلالة الاخرى ؟ ، أم لا ؟

٥ ــ هل تستخدم كل امكانياتنا العلمية فى العمل على رفع مستوى الذكاء المنخفض للسلالة الزنجية حتى تقترب وتتعادل فى النهاية مع مستوى ذكاء السلالة البيضاء ؟

٦ ــ هل استطاعت البرامج التعليمية التعويضية انترفعمستوىذكاء المجموعاتالتى تقاسى من انخفاضه ، وأن ترفع قدراتها التعليمية والتحصيلية أم فشلت فى ذلك المضمار ؟

هذه هى الأسئلة الرئيسية التى طرحها الاستاذ ايسينك فى كتابه ، وهى كما نرى

تدور حول مشكلة الخصائص العقلية الوراثية للسلالة الزنجية ، وخاصة الفرع الأمريكى منها ومقارنته بالأمريكيين البيض . ويحاول المؤلف ان يتبع فى دراسته المنهج العلمى الموضوعى المحايد ، وان يعرض كل نتائج البحوث الميدانية والتجريبية التى عالجت هذا الموضوع الهام . ولكن المؤلف نفسه يتساءل : هل يمكن تبنى الحياد العلمى فى مشكلة تزخر بالعواطف والذكريات والاتجاهات الفلسفية والسياسية ؟

اثبتت الأبحاث التجريبية أن علماء النفس المحافظين يميلون للأخذ بالرأى القائل بأن اختلاف مستوى الذكاء بين السلالات يرجع بصورة كاملة لعوامل وراثية بيولوجية ، بينما يميل علماء النفس الأحرار والاشتراكيون الى الدفاع عن الرأى القائل بعدم وجود مثل تلك الاختلافات الفطرية وبوجود مساواة تامة بين السلالات فى القدرات العقلية جميعها . ويؤكد الاستاذ ايسينك أن الاتجاهات العلمية والعقائد السياسية لا تزال متداخلة ، ولم نصل بعد الى درجة الموضوعية الكاملة . وبصراحة العالم المتفتح يعترف المؤلف بخضوعه — هو شخصياً — لعواطف وذكريات أليمة ، ويقر بأن اهتمامه الشخصى بدراسة مشكلة السلالات ، ومعارضته القوية لكل صور التفرقة العنصرية، وكراهيته للنازية التى اضطهدت بنى ملته من اليهود ، انما ترجع الى طفولته فى ألمانيا ، اذ نشأ فى وقت كانت فيه « الهتلرية » ايديولوجية راسخة فى القلوب والأعماق ومنتشرة فى كل مكان بألمانيا ، واستطاعت قتل ملايين اليهود الذين كانت جريمتهم هى الانتماء للديانة اليهودية .

ويقرر أن طفولته القاسية وخبرته وأبحاثه قادته جميعاً الى حقيقة هامة ، وهى أن المشاكل الانسانية ، مثل غيرها من المشاكل يجب أن تعالج على أسس واقعية ، اذ لا يمكن لنا التغلب على العاطفة والتعصب بعاطفة أخرى وبتعصب آخر ، وانما هناك طريق واحد لقهر التعصب ، انه طريق البحث العلمى الواقعى الموضوعى ويتلخص فى تتبع الدليل العلمى فى كل مكان وبذل كل نفيس وجهد فى سبيله .

أصاب الاستاذ ايسينك عندما أكد أهمية التفرقة بين الحقائق الواقعية والاتجاهات الاجتماعية المستنتجة من تلك الحقائق ، وخاصة ان العوامل التى تحدد هذه الاتجاهات الاجتماعية هى القيم والمعتقدات الدينية والأخلاقية والاجتماعية ، فمثلاً اذا اثبتت الأبحاث العلمية أن هناك حقائق واقعية تتمثل فى وجود عوامل وراثية وبيولوجية تؤدى جزئياً الى تخلف الزنوج الأمريكيين عن مستوى ذكاء الأمريكيين البيض ، فان هذه الحقائق لا يمكن — علمياً — أن تبرر التفرقة العنصرية أو النظام التعليمى المتدنى للزنوج الأمريكيين ، وذلك لأنه يمكننا فى الوقت نفسه ، ان نستنتج اتجاهاً اجتماعياً معارضاً ينادى بضرورة تزويد هؤلاء الزنوج بنظام تعليمى افضل ، لعلاج أوجه النقص التى كشف عنها البحث العلمى .

ولذلك يؤكد الاستاذ ايسينك أهمية التفرقة بين الحقائق الواقعية والاتجاهات ، فكلاهما مختلفان فى الطبيعة ، ان الحقائق العلمية لا تضع السياسات الاجتماعية ، وانما نحن الذين نضعها . وهنا يتساءل : لماذا يتضايق الكثيرون من الحقائق الواقعية ؟ ويجيب : لأنها كثيراً ما تهدد ما درجوا عليه من أفكار ومعتقدات راسخة فى نفوسهم ، ومن الطبيعى أن يخشى الانسان الصدمة التى تصاحب اكتشاف خطأ ما ، كان يؤمن بصحته طوال عشرات السنين .

ويرى ايسينك أن انكار هذه التفرقة بين الوقائع والاتجاهات ، هو فى الحقيقة انكار لامكانية القيام بدراسة علمية جادة للمشكلات الاجتماعية ، وذلك لاستحالة التوصل الى حلول مقنعة للمشكلات الاجتماعية فى حالة الاعتماد على مسلمات خاطئة ونبذ الحقائق الواقعية . ويشير الى موضوع خطير وهو

وقـوع الكثير ممن نطلق عليهـم اصـطلاح « خبراء » فى الخطأ ، فكثيراً ما يختلف الخبراء ويعلو جدلهم وصراعاتهم فى المؤتمرات العلمية ، مما يؤدى الى زعزعة ثقـة المواطنين العاديين فيما يقولونه . ولذلك ينادى الاستاذ ايسينك بضرورة التأكد من توافر الكفـاءة العلمية لمن يحمل هذا اللقب الخطير ، فمثلاً الخبير فى موضوع « مستوى ذكاء السلالات » يجب أن يكون متخصصاً فى ميادين السـلوك الوراثى والمقاييس النفسية واختبارات الذكاء ، ويجب ان يكون قد أسهم فعلاً فى هذه الميادين ، وأن يكون ملماً بجميع الأبحاث المتعلقة بموضـوع تخصصه . ومما يزيد الطين بلة انه حتى عندما يتفق الخبراء فى مؤتمراتهم حول نقطة معينة ، فانهم يعطـون الانطباع بأنهم غـير متفقـين ، وخاصـة لغير المتخصصين ، وهذا بسـبب مناقشـاتهم العميقة ليس فقط حـول أدق الأفكار ، وانما أيضاً حول دقة اللفظ المستخدم للدلالة عن الفكرة . ويؤدى هذا الموقـف الى اقتناع الرجال العاديين بأن « الخبـراء دائماً لا يتفقون » ، ثم يعود الى موضوع الكتاب ، فيؤكد أن الخبراء الحقيقيين ـ كما حددهم ـ يتفقون (على الأقـل) على الغالبية العظمى (٩٠٪) من الأفكار والأبحاث والنتائج التى أثبت المؤلف صحتها بالأدلة العلمية .

وهذه الثقة جديرة بأن تدفعنا الى التطلع لمعرفة هذه الأفكار والأبحاث .

ثانيا : الآراء غير العلمية

أقصـد بالآراء غير العلمية تلك الاتجاهات الشـعبية القائمـة على المعتقدات القديمـة والأساطير الشعبية ، أى تلك الأفكار التى لا تقـوم على أسـاس علمى ، والتى لم يحاول معتنقوها تمحيصها علمياً ، أو حتى التفكير بصورة محايدة فى مدى صحتها . وقد تتفق تلك الاتجاهات الفكرية الشعبية فى المضمون مع النظريات شبه العلمية والنظريات العلمية ، ولكنها تختلف اختلافاً كاملاً فى الشـكل وفى المنهج ، فهذا الاتفاق مرجعه محض الصدفة ، اذ ليس هناك ضرورة علمية لمثل هذا الاتفاق .

هناك اتجاهان شـعبيان متعارضـان فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين سلالة الزنوج وسلالة البيض فى الولايات المتحدة الأمريكيـة ، يرى الاتجاه الأول أن السـلالتين مختلفتان وراثياً وفطرياً فيما يتعلق بالخصـائص الجسميـة والقدرات العقلية ، ويعـرف هـؤلاء باسم « العنصريين » . ويعارض الاتجاه الثانى رأى العنصريين ويـرى أنه لا يوجد مثـل هـذه الاختلافات فى الواقـع ، وانمـا هى أوهـام مصدرها هو التعصب ، وينادى هذا الفريق بأن السـلالتين متساويتان تسـاوياً كاملاً فى القدرات العقلية ، ويعرف هؤلاء باسم « محبى الزنوج » .

كلا الفريقين مؤمن ـ بقوة ـ بصحة رأيه ، ولا يقتنع بأفكار معارضيه ، ولا يحاول حتى مناقشتها أو سـماع الأدلة المؤيدة لها ، انهم يقولون دائماً : « لا تربكنا بالحقائق والمناقشات ، لقد جبلت عقولنا على تلك المعتقدات » .

ينتمى البيض الأمريكيون الجنوبيـون الى فئة « العنصريين » بينما تدخل النخبة المثقفة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى زمرة « محبى الزنوج » ، فهم متأكدون من عدم وجود أى اختلافات وراثية بين السلالتين ، ولا يتحمسون للبحث فى الموضوع علمياً .

ويتفق رأى مؤلف هذا الكتـاب مـع باقى العلماء فى رفض هذين الاتجاهين الشـعبيين جملة وتفصيلاً ، فهى مجرد أفكار شـعبية لا تقوم على أدلة علمية ، ويؤكد أن الفريقين لن يقتنعا بالنتائج التى وصل اليها لأنها تخالف هذين الاتجاهين المتعارضين معاً ، كما يتضح ذلك فى الصفحات التالية .

ولن يقف تأثير نتائج هذا الكتاب على الخلاف فى الرأى ، بل سـيؤدى الى اثارة غضـب « العنصريين » على الخصـوص ، اذ تتلخص

احدى هذه النتائج فيما يأتى : « اذا سلمنا فرضاً بوجود عامل وراثى بيولوجى يقف وراء انخفاض مستوى الذكاء عند بعض السلالات بالنسبة للسلالات الاخرى ، فان هذه النتيجة لن تبرر مطلقاً التفرقة العنصرية فى جميع صورها » .

ويأمل المؤلف ان يُرضى هذا الكتاب عدداً كبيراً من البشر الأذكياء ، الذين يقاسون الخلط والتشويه بسبب تعارض الاتجاهات وصراع السلالات وجدل الخبراء ، ويرجو أن يهدىء هذا الكتاب من حدة اللهب المتصاعد من هذا الصراع ، لانه بمثابة باكورة شعاع خافت يتيح لنا قراءة التطورات المستقبلية لتلك المشكلة الخطيرة .

ثالثا ــ النظريات شبه العلمية

تشمل هذه النظريات محاولات العلماء والهيئات العلمية والدولية نحو ايجاد حل للمشكلات الخاصة بالسلالات البشرية ، ولقد اطلق عليها اصطلاح شبه العلمية ، بغرض تمييزها من الآراء والاتجاهات الشعبية من ناحية والنظريات العلمية من ناحية اخرى . ويمكن توضيح المقصود بهذه النظريات اذا حددنا صورها على النحو الآتى :

النظريات التى توصل اليها العلماء ولكنهم اخفقوا فى احترام قواعد المنهج العلمى احتراماً دقيقاً ، وكذلك النظريات التى تحتاج الى مزيد من الأدلة العلمية لأنها لم تمحص بعد التمحيص الميدانى الكافى ، واخيراً يدخل فى نطاق تلك المجموعة ، النظريات التى كانت تُعد علمية فى الماضى ، وعندما توافرت امكانيات للبحث الاجتماعى بدقة أكثر تبين عدم صحتها .

ولقد كونت هيئة اليونسكو لجنةمن الخبراء فى عام ١٩٥١ لبحث مشكلة اختلاف أو تشابه السلالات البشرية فى القدرات العقلية ، واصدرت تقريراً ينص على العبارة التالية :

« لا يوجد دليل علمى ــ وفق المعرفة العلمية المتوافرة حتى اليوم (١٩٥١) ــ يثبت أن الجماعات السلالية البشرية تختلف فى قدراتها العقلية الذاتية ، سواء فيما يختص بالذكاء أو المزاج » . ويعلق الاستاذ ايسينك على هذه العبارة ، بأنه كان من الأوفق اضافة العبارة التالية :

« وكذلك لا يوجد دليل على عدم وجود الفروق العقلية الذاتية بين السلالات البشرية » ، كما فعل الاستاذ ڤيرنون (٢) .

وفى عام ١٩٦٦ أعلن « المكتب الامريكى للتربية » العبارة التالية : « انها حقيقة واضحة أن « بركة الموهبة » فى سلالة ما تشبه شبهاً كاملاً « بركة الموهبة » فى أية سلالة بشرية اخرى » .

وفى عام ١٩٦٥ أعلن « القسم الأمريكى للعمل » أنه :

« تتوزع مستويات الذكاء بين الاطفال الزنوج بنفس النسبة التى تتوزع على أساسها مستويات الذكاء بين الصينيين أو الايسلنديين أو غيرهم من الجماعات البشرية » . ويعلن بوضوح فى نفس التقرير أنه : « لا يوجد على الاطلاق أى اختلاف بيولوجى أو وراثى بين السلالات البشرية » .

وقرر اليونسكو فى عام ١٩٦٤ الآتى :

« يملك البشر فى العالم اليوم امكانيات بيولوجية متساوية تمكنهم من الوصول الى أعلى مستويات المدنية . ويجب تفسير

(٢) P. E. Vernon : "Intelligence and Cultural Environment", Methuen, 1969, p. 19.

الاختلافات الموجودة بين مستويات انجازات الناس بالرجوع الى تاريخهم الثقافى » .

ويعلق الاستاذ ايسينك على تلك العبارات الحاسمة بأنها تمثل نظريات شبه علمية غير دقيقة ، ويعترض اعتراضاً قوياً على استخدام الفاظ « يجب » و « الحقيقة أن » ، لأنه ـ وفق رأيه ـ لا توجد حقيقة تامة فى هذه المشكلات الخطيرة ، ان اسطورة « المساواة العرقية » ينقصها الدليل العامى ، بل ان احتمال صحتها ضئيل للغاية .

رابعا : النظريات العلمية

يحذر المؤلف القراء بالا يتوقعوا منه الجواب الشافى الأكيد حول المشكلات قيد البحث ، اذ لم يصل العلم بعد الى حل جميع المشكلات المتعلقة بالسلالة ، ويشعر المؤلف نفسه بثقة غير كاملة فى تمام صحة الآراء التى توصل اليها ، فكل ما يقدمه فى هذا الكتاب هو مناقشة دقيقة للأدلة الموجودة التى قادته الى نتائج منطقية هامة ، وهكذا استطاع أن يسلط الأضواء على أحدث ما قدم العلماء من نظريات ، وأن يحذر من الاتجاهات التى تحمل المعلومات أكثر مما تتحمل . وفى حالة عدم اقتناع القارىء بما يقدمه المؤلف ، فان اللوم يقع قبل كل شيء على عدم توافر الأبحاث الكافية فى هذا الميدان .

وقد نهج الاستاذ ايسينك منهجاً علمياً دقيقاً عندما اهتم بتعريف محورى المشكلة وهما السلالة والذكاء . فالسلالات هى مجموعات سكانية تختلف وراثياً وبيولوجياً ، وقد تكون متمايزة من حيث المظهر الخارجى للجسم ، ويجب توضيح أن السلالات ليست اجناساً ، فهى تتناكح فيما بينها وكذلك تتناسل ، ويترتب على هذه الخاصية استمرار تناسلها وكثرة عددها . ويؤكد أن مفهوم « السلالات النقية » هو فى الواقع اسطورة ، ولكن ليس معنى هذا أنها ليست لديها « برك جينية » (٣) يمكن دراستها واستخدامها باعتبارها اسساً لتصنيف السلالات . ولقد تعرضت عملية تصنيفها لمشاكل عدة ، وتعددت لاختلاف الاسس المستخدمة . ويهتم علماء الوراثة المحدثون الآن بالجينات الدموية بوصفها أساساً لتصنيف السلالات ، ولم يترتب على هذا الاهتمام بفصائل الدم ، استبعاد الصفات الجسمية الخارجية .

ويشير الى العلامة « جوتمان » (٤) الذى قسم دراسة السلالات الى ثلاثة مستويات ، مستوى **السلالة الجغرافية** ومستوى **السلالة المحلية** ومستوى **السلالة الميكروبية** ، ويقرر « جوتمان » أن الاسم الذى يُطلق على سلالة ما قد يكون تعسفياً ، ولكن الاختلافات السلالية هى حقائق طبيعية يمكن دراستها ، ولا بد أن ندرسها لكى نفهم التطور المستمر للانسان .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى تعريف السلالة الزنجية الأمريكية ، وهو الموضوع الرئيسى فى الكتاب فيشير الى أن بعض الباحثين ينكر دراستها باعتبارها سلالة حقيقية لعدم نقاء معدنها ، اذ يتصل بعض أفرادها بأفراد من السلالة البيضاء الأمريكية اتصالاً جنسياً منذ مئات من السنين . ولا يأخذ الاستاذ ايسينك بهذا التفسير لأن مفهوم « سلالة » يتضمن فقط خلافات وراثية بين جماعات بشرية مختلفة فى « البرك الجينية » ، ولا يشير الى موضوع النقاء ، اذ لا توجد سلالات نقية ، وانما الموجود واقعياً هو السلالات غير النقية .

---

(٣) Gene - Pools.

(٤) I. I. Gothesman : " Social Class, Race and Psychological Development ", Holt, Rinehart & Winston, N. Y. 1965, pp. 37 — 40.

ثم يشير المؤلف الى حقيقة هامة وهى عدم تشابه الزنوج الأمريكيين فى نسب اختلاطهم بچينات البيض ، وأوضح هذه الظاهرة الاستاذ « پوليتزر » (٥) ، الذى اجرى ابحاثاً لقياس « المسافة البيولوجية » بين جماعات من زنوج غرب افريقيا وجماعات من الزنوج الأمريكيين القاطنين بالقرب من مدينة شارلستون (٦) وجماعات اخرى من الزنوج الأمريكيين المقيمين بعيداً عنها ، وكذلك جماعات من البيض الأمريكيين . واستخدم « پوليتزر » أساسين مختلفين للقياس والمقارنة، يتمثل الأساس الأول فى تسع خواص مورفولوجية ، أما الأساس الثانى فيتكون من خمس عشرة خاصية تشريحية ، واظهرت نتائج هذا البحث العلمي الهام ان التشابه الموجود بين زنوج شارلستون وأجدادهم زنوج غرب افريقيا هو اقوى من التشابه الموجود بين هؤلاء الأجداد والزنوج الأمريكيين الشماليين ، ويمكن تفسير تلك الظاهرة من زاوية أن الزنوج الأمريكيين الشماليين هم أكثر اتصالاً جنسياً بالبيض الأمريكيين من زنوج شارلستون البعيدين عن منطقة الشمال .

وفى الفصل الثالث الخاص بتعريف الذكاء يبدأ المؤلف بشرح « حاصل الذكاء » (٧) الذى يختصر بالانجليزية مستخدماً الحرف الأول من كل كلمة ، فيصبح الاختصار الـI.Q، وهو مقياس يمثل طريقة عملية لمقارنة نتائج فحوص تقيس الذكاء ، ويمثل الـI.Q حاصل قسمة سن الشخص العقلية (أو الانتاجية) على سنه الزمنية مضروباً فى مئة ، ويحدد الرقم الناتج من تلك العملية الحسابية البسيطة وضع الشخص على خط متدرج من الأدنى الى الأعلى ، مع وسط حدد على انه ١٠٠ ، ويبين المنحنى العادى لتوزيع درجات هذا المقياس ان اقل من ٥ر٠٪ لديهم درجات أقل من ٦٠ أو أعلى من ١٤٠ ، ويشير كذلك الى أن ٥٠٪ من افراد الجماعات العادية تقع درجاتهم بين ٩٠ و ١١٠ .

ويجب ملاحظة أن العمر العقلى لا يزيد عن ست عشرة سنة، وبالتالى لا يطبق الـI.Q على البالغين أى الذين تجاوزوا هذه السن ، وينتشر هذا المقياس حالياً انتشاراً واسعاً فى جميع انحاء الولايات المتحدة الأمريكية وفى عدد كبير من الدول الاوروبية .

ثم ينتقل المؤلف الى تعريف الذكاء ويعتمد على تعريف الاستاذ « سبيرمان » وهو : « القدرة على استنباط علاقات وترابطات » ، ومن قبله بقرون وُفق القديس اوغسطين عندما عرف الذكاء بأنه : « القدرة على الربط والفصل » ، وهذان التعريفان يؤكدان عمليتى التجريد والفهم .

ولقد كثرت ــ ولا تزال ــ المناقشات حول المضمون الثقافى لاختبارات الـ I.Q اذ يعتمد هذا المضمون على التعليم والتعلم ، وبالتالى ينتمى لثقافة معينة ويُعد غريباً عن ثقافة اخرى ، وبناء على ذلك يجب الا تحتوى اختبارات الـ I.Q على مثل هذه المضامين الثقافية ، لانها اختبارات تقيس مستوى الذكاء وليس محصلة التعليم أو التعلم أو الاكتساب .

ويؤكد بعض العلماء أن اختبارات الذكاء الخالية خلواً كاملاً من المضمون الثقافى تُعد أمراً مستحيلاً ، ويؤيد الاستاذ ايسينك هذا

---

(٥) W. S. Pollitzer : Biological Distance, American Journal of Physical Anthropology, No. 16, 1958.

(٦) مدينة شارلستون الامريكية هى المركز القديم الضخم لاستيراد الرقيق .

(٧) Intelligence Quotient.

الراى ، غير أنه يرى امكانيــة تحقيق ذلك فى المستقبل . وليس لنا حالياً الا أن تقلل قدر المستطاع من تأثير المضمون الثقافى فى اختبارات الـذكاء ، ويُعد الـ I.Q أصلح الاختبارات المتوافرة من هذه الزاوية ، ويناقش الاستاذ ايستيك الاعتراضات الموجهــة لهذا المقياس ويفند معظمها وينتهى الى أن الـ I.Q هو أفضل ما لدينا فى الوقت الحاضر ، ولذلك تأخذ به كل الهيئات العلمية فى أمريكا .

واهتم المؤلف بما عرف فى العامين السابقين بـ « هرطقة چينسن » (٨) ولا أدل على ذلك من تخصيصه فصلاً كاملاً حول هذا الموضوع ، واستطاع بفضل تحليلاته البارعة واستيعابه لكل الأبحاث التى اجريت ـ والتى تجرى ـ حول موضوع العلاقــة بين الســلالة والذكاء والتربية أن يثبت أنها ليست بهرطقة ، بل هى نظرية علمية تقوم على أدلة تجريبية صحيحة وان الهرطقة هى افتراءات المعارضين وتشويه المندفعين وخلط الكســالى الذين عارضــــوا النظرية قبل الاطلاع عليها .

ترجع هذه الهرطقــة ـ المزعومـــــة ـ الى الاستاذ چينسن ، استاذ علم النفس التربوى بجامعة كاليفورنيا ، وهو خبير فى أساليب رفع مستوى الذكاء وله شهرة علمية واسعة ، وقد نشر چينسن (٩) فى عام ١٩٦٩ بحثاً فى المجلة التربوية لجامعة هارڤارد عنــوانه « البيئــة والوراثة والذكاء (١٠) » ، وعندما عرضت مجلة « نيويورك تايمز » لهذا البحث وما جاء فيه من افكار اطلقت عليه اصطلاح : « الچينسينية » أو « مذهب چينسن » . ولعبت الصحــافة ووسائل الاعلام الاخرى دوراً هاماً فى تشويه افكار الاســتاذ « چينسن » ، وكثــر الجدل والنقاش حول الآراء المشوهة ، حتى ضاعت الحقيقة الى أن اظهرها الاستاذ « ايسينك » فى هذا الكتاب ، واعطى صاحبه حقه فى التحليل والدراسة والتقدير .

تتلخص « هرطقــة چينسن » فى القـــول بوجود عوامل وراثية بيولوجية هى المسئولة عن الفروق بين السلالات فى مستوى الذكاء ، وان هناك ادلة علمية تثبت أن الزنوج أدنى فى مستوى الذكاء ، من البيض ، ويترتب على ذلك ضرورة تقديم برامج تعليمية خاصــــة للزنوج ، وبالتالى فان التفرقة العنصرية (١١) هى الاسلوب المناسب لعلاج مشكلة السلالة فى التربية . وهكذا اعتبر عدد كبير من القراء ان « چينسن » يؤيد اتجاهات « العنصريين » فى أمريكا .

وتشير هذه الهرطقة كذلك الى أن الاستاذ چينسن يعتقد فى عدم توفر الارادة الحرة فى السلوك البشرى على أساس وجود تلك العوامل الوراثية .

وقد عالج الاستاذ « ايسينك » هذه القضية بعرض أهم الآراء والأبحاث التى نشرها الاستاذ « چينسن » ، وتعمد أن ينقل صفحات كاملة من بحثه الذى نشر فى المجلة التربوية بجامعة هارڤــارد ، وفيما يلــى مقتطفات من تلــك

(٨) The Jensenist Hersey

(٩) A. R. Jensen : "Environment, Heredity and Intelligence", Harvard Educational Review, Vol. 39, 1969.

(١٠) يستخدم اصطلاح البيئة فى هذا البحث وكذلك فى الكتاب باكمله بمعنى البيئة الاجتماعية والثقافية فقط .

(١١) يُقصد بها هنا التفرقة بين نظم التعليم المتاحة لكل من الســلالتين ، وتعنى كذلك التفرقــة العنصرية بجميع مظاهرها الاضطهادية .

الصفحات ، وهى تعبر عن حقيقة الأمر دون خلط أو تشويه :

« اننى أدرس دائماً الأشخاص على انهم افراد ، وأدرس كل فرد وفق مميزاته وخواصه ، وأعارض بصورة قاطعة دراسة الأشخاص ، فقط على أساس السلالة واللون والمواطنة الأصلية والخلفية الطبقية » ، تدل هذه الفقرة على أن الاستاذ « چينسن » لا يدخل فى زمرة « العنصريين » ولا يوافق مطلقاً على التفرقة العنصرية . ويعتقد الاستاذ «ايسينك» أن سبب التشويه والخلط فى آراء « چينسن » هو العبارة التى نصها : « ولكننى اعارض تجاهل أو رفض البحث عن اسباب الفروق الأساسية بين الجماعات السلالية عند تطبيق الوسائل والمناهج التعليمية وعند اجراء فحوص الذكاء وعلى الخصوص مقياس الـ I.Q » ، ومن الملاحظ أن هذه الفقرة توحى بأهمية وضع فروض متعلقة بالاختلافات الوراثية والبيولوجية عند بحث فروق نتائج الـ I.Q المطبقة على السلالات المختلفة ، وفى الوقت الذى يساء فيه فهم هذه العبارة فان « ايسينك » يعتبرها خطوة كبرى فى تقدم البحث الاجتماعى ، وذلك لاقتصار البحوث الاجتماعية فى الماضى على تقصى العوامل الجغرافية والبيئية عند تفسير الفروق بين مستويات ذكاء السلالات المختلفة . وهكذا بفضل نظرية الاستاذ « چينسن » فتح طريق البحث العلمى الدقيق فى مشكلة تعد من أخطر مشاكل الجنس البشرى .

ويعجب الاستاذ « ايسينك » من تجاهل الكثير من النقاد والخبراء للجزء الأكبر من بحث « چينسن » الممتاز ، وتركيز اهتمامهم حول العبارتين السابقتين ، وتشويه ما جاء فيهما ، بحيث تداولت وسائل الاعلام اسم « چينسن » على انه مؤسس الحاجز العنصرى فى مجال التربية ، وبالتالى من الداعين للتفرقة العنصرية فى هذا المجال ، ويؤكد الاستاذ « ايسينك » أن « چينسن » برىء من هذه التهم ، وأن ما عرف باسم « هرطقة چينسن » هو مجرد افتراء ، وتمثل آراء « چينسن » الحقيقية نظرية علمية أيدتها — ولا تزال تؤيدها — الأدلة العلمية الدقيقة . ولقد دفع الجدل القوى الذى اثير حول تلك الآراء أن نشر « چينسن » نفسه مقالاً فى عام ١٩٧٠ (١٢) أعاد فيه شرح نظريته التى اسىء فهمها حتى يبرىء نفسه من التهم التى التصقت باسمه .

ويشير « ايسينك » الى ملاحظة هامة وهى تركز اهتمام « چينسن » أولاً واخيراً حول الفروق الفردية واهميتها فى التربية والتعليم ، واستطاع أن يكشف النقاب عن حقائق هامة فى هذا المجال ، منها فشل التعليم التعويضى فى الولايات المتحدة الأمريكية، ويفسر هذا الفشل بأنه يعود —بصورة جزئية— الى اهمال اجراء البحوث العلمية فى ميدان تأثير العوامل البيولوجية فى مستويات ذكاء السلالات المختلفة ، وهو يشير الى حقيقة اخرى — تؤيدها الأدلة العلمية — وهى انخفاض متوسطات نتائج الـ I.Q المطبقة على اطفال الزنوج بحوالى ١٥ درجة عن متوسطات الأطفال البيض ، ويزخر بحث « چينسن » بالحقائق التعليمية الهامة الاخرى ، فقد أثبتت التجارب العلمية أن فحوص الـ I.Q يمكن الاعتماد عليها فى التنبؤ بمدى النجاح المدرسى الذى يمكن أن يحققه التلميذ فى المستقبل ، ويتم هذا التنبؤ بدرجة كبيرة من الدقة . ولا يهتم الاستاذ « چينسن » فقط بالتنبيه الى ضرورة اجراء البحوث عن تأثير العوامل الوراثية فى مستوى الذكاء للجماعات المختلفة ، وانما ينادى بالاهتمام أيضاً بالبحوث

---

(١٢) A. R. Jensen : " Environment, Heredity and Intelligence " Bulletin of the Atomic Scientist, Vol. 26, 1970.

العلمية التى تساعد على رفع مستوى الانجاز التعليمى عند الأطفال الفقراء والأطفال الذين يعانون مشاكل خاصة . وعندما يتحدث « چينسن » عن الأطفال الفقراء والأطفال المتخلفين تربوياً فانه يشير الى حقيقة هامة متضمنة فى الأبحاث العلمية الخاصة بهذا الموضوع ، وهى أن نسبة عالية من عينة هؤلاء الأطفال تنتمى للسلالة الزنجية الأمريكية ، هذه هى الحقائق العلمية التى دفعت «چينسن» الى القول بأهمية اجراء البحوث الدقيقة حول امكانية تأثير العوامل البيولوجية فى مستوى ذكاء السلالات البشرية .

ولكى يبعد عن نفسه ، امكانية اتهامه بالعنصرية ، يعلن « چينسن » الحقيقة التالية : « ان كل ما عندنا هو مجموعة أدلة علمية مختلفة ، لا يكفى الدليل الواحد منها لاثبات وجود التأثير البيولوجى فى مستوى ذكاء السلالات ، وكذلك لا تكفى جميعها لاثبات مثل ذلك الرأى ، ولكنها تسمح لنا ــ فى جملتها ــ بوضع فروض علمية حول تأثير العوامل الوراثية فى الفروق الملاحظة بين متوسطات ذكاء كل من الزنوج والبيض الأمريكين ، ولا يبعد هذا الفرض ، بالطبع ، تأثير البيئة (الاجتماعية والثقافية) أو تأثير تفاعل البيئة مع العوامل البيولوجية أو الچينية » .

ينتهى الاستاذ « ايسينك » من تحليله الرائع لآراء الاستاذ « چينسن » الى أننا أمام نظرية علمية بمعنى الكلمة وليست هرطقة كما صورتها أجهزة الاعلام ، وكما شوهها انصاف الخبراء . وتتلخص تلك النظرية فى توافر أدلة علمية تشجعنا على وضع فروض علمية متعددة حول العوامل التى تؤثر فى مستوى ذكاء السلالات ، يختص بعضها بالعوامل الوراثية ، والبعض الآخر بالعوامل البيئية ، وعلينا اجراء البحوث الدقيقة لفحص تلك الفروض . ولا يمكن اغفال اهمية نظرية « چينسن » فى تغيير اتجاه البحث العلمى المعاصر نحو ميدان جديد ، بعد أن ظل لسنوات عديدة متقوقعاً فى دراسة اثر العوامل البيئية على مستوى ذكاء السلالات ، دون الاشارة الى امكانية تأثير العوامل الوراثية ، ودون ضبط تأثيرها عند اجراء تجارب حول تأثير العوامل البيئية فى مستوى ذكاء الجماعات البشرية .

ولقد اظهرت لنا ادق الأبحاث الحالية مدى الصواب الذى كانت ــ ولا تزال ــ عليه نظرية « چينسن » ، واستطاع بعضها ــ يدعمه أدلة علمية ــ تقدير قوة تأثير العوامل الوراثية فى مستوى ذكاء السلالة الزنجية الأمريكية بأربعة أضعاف فاعلية تأثير العوامل البيئية فى هذا المجال ، فبينما يقدر حجم تأثير العوامل البيئية ب ٢٠٪ ، فان حجم العوامل الوراثية يصل الى ٨٠٪ ، ولكن هل هذه الأرقام ثابتة لأنها تعبر عن الطبيعة البشرية ؟ أم أن الطبيعة البشرية متغيرة ؟ . تتضمن الفقرات التالية أحدث ما وصلت اليه العلوم الاجتماعية فى الاجابة على هذا السؤال الهام .

خامسا : النتائج العامة

تتوافر أدلة علمية تزيد من احتمال صحة النظرية القائلة بأن متوسط مستوى ذكاء الزنوج الأمريكيين أقل من متوسط مستوى ذكاء البيض الأمريكيين . ويؤيد هذه النتيجة الاستاذ « شيوى »(١٣) فى كتاب له عن الذكاء الزنجى ، جمع فيه ما يقرب من ٤٠٠ بحث تجريبى ، كلها تؤيد هذه النتيجة ، وتم اختيار العينات بأساليب احصائية علمية ، وتمت عمليات ضبط تأثير العوامل الاجتماعية والثقافية لأقصى حد ممكن ، فاختيرت بعض عينات الزنوج والبيض من نفس المستوى

(١٣) A. M. Shuey : "The Testing of Negro Intelligence", Social Science Press, 1966.

الاجتماعى والثقافى ، ومن نفس المدرسة التى يذهب اليها أفراد هذه العينة ، واتبعت أقصى حالات الدقة المتمثلة فى التأكد من ان آباء أفراد العينـات (الجماعات الضابطـة والجماعات التجريبية) يعملون فى مهن متشابهة . وكانت بعض العينات من الشـمول والسعة بحيـث وصل عدد افراد احدى عينات الأطفال الزنوج الى ٨٠٫٠٠٠ طفل زنجى .

ويجب فى هذا المجال الاشـارة الى البحث الضخم الذى اشرف عليه الاستاذ «كولمان»(١٤)، فقد شمل هذا البحث ٦٤٥٫٠٠٠ تلميذ ينتمون الى اكثر من ٣٠٠٠ مدرسـة موزعة على كل اقاليم الولايات المتحدة الأمريكيـة ، وانتهى تقرير « كولمان » الى النتيجة التالية : « تؤثر المدارس تأثيراً ضعيفاً على قدرات وانجازات الطفل المستقلة عن بيئته وخلفيته الاجتماعية العامة » ، ويقصد بذلك ان البرامج الحالية للتعليم العام الأمريكى لا تؤثر فى القدرات العقلية مثل الذكاء ، ويهدف الاستاذ ايسينك من ذكر هذه النتيجة الى تأكيد ضعف تأثير العوامل غير الوراثية فى مستوى ذكاء السلالات ، وبالتالى الى ابراز قوة احتمال صحة نظرية العوامل الوراثية .

ويُعبر عن النتيجة السابقة بصورة كمية ، فيقرر ان معظم الأبحاث العلمية تبين انخفاض متوسط فحوص الـI.Q عند الزنوج الأمريكيين بفرق يصل الى ١٥ درجة أقل من المتوسط المتوافر للبيض الأمريكيين ، ويزيد الفرق عن ١٥ درجة فى حالة مقارنة الزنوج الأمريكيين الجنوبيين بالبيض الأمريكيين ، ومن جهة اخرى يقل الفرق عن ١٥ درجة من المتوسـط عند مقارنة الزنوج الأمريكيين الشماليين بالبيض الأمريكيين .

واذا انتقلنا الى النتيجة العامة الثانية التى توصل اليها الاستاذ ايسينك فى كتابه القيم ، نجدها تتعلق بالعوامـل التى تسـبب هذه الفروق فى مستوى ذكاء السلالتين السابقتين .

يبدأ بالاشارة الى تفسير أصحاب المدرسة البيئية (١٥) التى ترجع هذا الفرق الى عوامل بيئية خالصة ، منها فقر بيئة السود ، وعدم كفاءة برامج التعليم ونقص التغذية الخاصـة للطفل ولأبويه وعدم توافر الكتب المسـاعدة وعدم تشـجيع الآباء وتخلف بعض التقاليد والقيم الثقافية . ولا يشير هذا التفسير الى امكانية تأثير العوامل الوراثية ، ولذلك يفترض التشابه التام بين « البرك الچينية » للسلالات المختلفة وخاصة السلالتين قيد البحث . ولكن الأبحاث العلمية أثبتت ضعف احتمال صحة هذه النظرية .

ثم يشرح الاستاذ ايسينك نظرية « الوضع المتفاعل » (١٦) التى ينتمى اليها ، وتتلخص فى ان الادلة العلمية تزيد احتمال صـحة اعتبار الوراثة والبيئة السببين الرئيسـيين لتدنى مستوى ذكاء سلالة الزنوج الأمريكيين ، وتبين الأبحاث العلمية كذلك أن العوامل الوراثيـة اقوى تأثيراً من العوامل البيئية فى هذا المجال ، واذا استخدمنا الأرقام ، يمكن تحديد قـوة تأثير العوامل الوراثية بـ ٨٠٪ بينما تنخفض قوة تأثير العوامل البيئية الى ٢٠٪ فقط .

ومما يقوى النظريـة السـابقة انه عندما تتساوى عينات من البيض والزنوج الأمريكيين

(١٤) J. S. Coleman : " Equality of Educational Opportunity ", U.S. Department of Health Education and Welfare, 1950.

(١٥) Environmentalists.

(١٦) Interactionist Position.

فى التعليم والمراكز الاقتصادية والاجتماعية ومنطقة السكن ، تنخفض فروق متوسطات الذكاء بصورة ضعيفة جداً ، ويشير كذلك الى انه فى حالة مقارنة عينات من الزنوج المنتمين الى طبقات اعلى من الطبقات التى تنتمى اليها عينات البيض ، لا نجد أى تأثير على الفروق الموجودة بين متوسطات الذكاء للسلالتين .

وتتعلق النتيجة الثالثة بالسؤال الخطير حول مدى امكانية تغيير الطبيعة البشرية ، بحيث يمكن لنا الاستفادة العملية من البحوث العلمية فى هذا المجال ، عن طريق الكشف عن الأساليب الفنية لرفع مستوى الذكاء المتدنى عند بعض السلالات .

يعارض ايسينك القائلين بانه ما دامت الفروق العقلية بين الجماعات السلالية هى فطرية موروثة ، فبالتالى لن نستطيع عمل أى شىء بخصوصها ، وذلك لأننا اذا اخذنا بهذا الراى ، فان التحسينات فى مستوى الذكاء تصبح مستحيلة ، وبالتالى تصبح جميع الأبحاث فى هذه المجالات عديمة الجدوى .

ويقرر ايسينك أن الحقائق ونتائج الأبحاث العلمية قد أثبتت انه اذا حددنا بدقة علمية متناهية الاسلوب الذى تعمل وفقه العوامل الوراثية ، وكذلك التأثيرات التى تحدثها فى الكائن الحى ، فانه يصبح فى امكاننا تصميم عمليات من شأنها ان تتيح لنا استخدام قوى الطبيعة فى صالحنا بدلاً من التصدى لها ، وهنا نصل الى تصميم وضع بيئى ثقافى يؤثر فى الطبيعة الوراثية تأثيراً مفيداً بالنسبة لنا . ولا شك أن القارىء يشعر بحاجة قوية الى مثال لتوضيح تلك الاجراءات ، فلنأخذ مرض « الفينيلكيتونيريا » (١٧) وهو مرض معروف ، ولكنه نادر اذ يصاب به طفل واحد من كل أربعين الف طفل ، ويحدث هذا المرض تشويهاً عقلياً (١٨) ، ولوحظ انه فى كل مئة طفل مريض عقلياً فى المستشفيات الاوروبية يوجد أربعة معاقين عقلياً مصابين بهذا المرض . وقد اثبتت الدراسات الطبية أن هذا المرض هو خلل وراثى يرجع فى الحقيقة الى جينة مفردة متنحية ، ويمكن تمييز الأطفال المصابين به عن طريق فحص بولهم . وهكذا نجد أمامنا مثالاً واضحاً لخلل يرجع كلية الى عوامل وراثية ، ويمكن التحقق من وجود المرض باسلوب علمى دقيق ، فاذا اخذنا برأى القائلين بان الطبيعة البشرية غير متغيرة فان النتيجة المباشرة هى عدم التوصل الى اية فائدة من علاج هذا المرض ، ولكن الحقائق التى توصل اليها التقدم العلمى تثبت امكانية العلاج وبخاصة اذا توفرت شروط معينة ، فقد كشف البحث العلمى عن حقيقة هامة ، وهى أننا اذا أتحنا للأطفال المرضى غذاء خالياً من مادة « الفينيلالانين » (١٩) ــ وهى المادة التى تسمم الجهاز العصبى وبالتالى تحدث الخلل العقلى ــ منذ الشهور الاولى من حياة الطفل المصاب بهذا المرض ، يكون هناك احتمال مرتفع جداً لنشأة الطفل دون اصابته بهذا الخلل العقلى ، وهكذا عن طريق منع غذاء معين ، وهو عمل ثقافى ، جعلنا الأطفال المصابين بهذا المرض يعيشون ــ علمياً ــ فى بيئة جديدة مختلفة ، وهى البيئة التى لا تحتوى على مادة « الفينيلالانين » ، وبالتالى أبطلنا الخلل العقلى لعدم توافر تلك المادة المسببة له ، وهكذا لم يصبح هؤلاء الأطفال معوقين عقلياً وانما هم متساوون مع الأطفال العاديين الآخرين . وبعد هذا المثال نعود الى السؤال الهام : هل نستطيع ــ اذن ــ

---

(١٧) Phenylketonuria.

(١٨) ان الغالبية العظمى من الأطفال المصابين بهذا المرض ، يعادل مستوى تحصيلهم العقلى مستوى الأطفال الذين فى نصف عمرهم الزمنى .

(١٩) Phenylalanine.

أن نغير الطبيعة البشرية ؟ يرى الاستاذ ايسينك ان اجابة هذا السؤال تقتضى تحديد معانى الألفاظ المستخدمة بدقة متناهية ، فاذا كنا نقصد بهذا السؤال ، هل نستطيع تغيير « الطراز العرقى » أو « النية الوراثية » (٢٠) ، فان الاجابة المتاحة حتى اليوم هى غالباً بالنفى ، هذا على الرغم من توافر بواكير الثورة العلمية التى قد تتيح لنا الدخول فى ميدان « الهندسة الوراثية » (٢١) ولكن بالنسبة للوقت الحاضر يجب أن نقبل الطراز العرقى كما هو موجود . أما اذا كنا نقصد من السؤال امكانية تغيير « الطراز المظهرى »(٢٢) ، فان الاجابة يجب ان تكون ايجابية ، لذلك عندما نقرر ان قوة تأثير العوامل البيئية فى مستوى الذكاء تعادل ٢٠٪ ، فاننا نعنى أن « الطراز المظهرى » قد خضع فعلاً — ولو بصورة جزئية — للضبط البيئى . وعن طريق تقدم البحث العلمى والكشف الدقيق عن ميكانيزمات تأثير العوامل الوراثية وكذلك العوامل البيئية ، فاننا — ولا شك — سنصل الى تغيير الطراز المظهرى للطبيعة البشرية ، واذا دفعنا حب الاستطلاع الى التساؤل عن الحدود التى تقف عندها الامكانيات فى احداث مثل تلك التغيرات ، فاننا لا نعرف شيئاً عن هذه الحدود بعد لعدم توافر البحوث العلمية الكافية فى هذا الميدان .

ثم ينتقل العلامة ايسينك الى النتيجة الرابعة ، وهى تتمثل فيما يجب علينا الاقدام عليه الآن ، وفى حدود المواقف التى حللها ببراعة متناهية ، ان ما يمكننا عمله الآن هو الاستخدام الأمثل للقدرات المتاحة فعلاً للأطفال ، وهذا أفضل كثيراً من تجميد أبحاثنا حول فرض خاطىء يقرر ان جميع الأطفال يتساوون — وراثياً — فى قدراتهم العقلية . ولا يدل انخفاض مستوى قدرة عقلية معينة عند جماعة بشرية ما على ضرورة انخفاض جميع قدراتها العقلية الاخرى . ولذلك يجب أن تهتم البرامج التعليمية الحديثة بالفروق الفردية فى القدرات العقلية وكذلك بمتوسطات مستويات القدرات العقلية للجماعات البشرية المختلفة . وهو يعارض بشدة الاتجاه التعليمى القائم على أساس وجود طريقة تعليمية واحدة لجميع الأطفال — على أساس انها أفضل طريقة — بدون الاهتمام بشخصياتهم وقدراتهم وظروفهم البيئية ، ان الاعتراف بالفردية البشرية يبدو أمراً ضرورياً لتحقيق أى تحسين فى النظم التعليمية .

وأخيراً يحدد الاستاذ ايسينك المسئولية الاجتماعية للعلم فى خاتمة كتابه القيم ، ويشير فى تلك الخاتمة الى ما قاساه الانسان الأسود — لقرون عدة — من شتى ألوان الاضطهاد والاستغلال والاحتقار على أيدى السلالة البيضاء ، والغريب فى الأمر ، أنه لا يزال حتى اليوم يوجد الكثيرون الذين ينكرون حق الانسان الأسود فى المساواة والعدالة ، ولا شك أن هؤلاء يحملون وزراً ثقيلاً ، واذا كانت الأبحاث العلمية تبين دور العوامل الوراثية فى خفض مستوى ذكاء الزنوج الأمريكيين ، فانه من المحتمل جداً أن يرجع ذلك الى « الآثار البعدية » للجرائم التى اقترفها البيض فى حق آبائهم ، ويشبه هذا الموقف ما نلاحظه من تدنى مستوى فحوص الذكاء لدى الايرلنديين عند مقارنتهم بالانجليز ، فمن المحتمل جداً ان يرجع ذلك التدنى فى مستوى الذكاء الى الاضطهاد الذى عانى منه الايرلندى خلال قرون كثيرة على أيدى الانجليز .

وهكذا يتضح الهدف وهو رفع مستوى الذكاء عند الزنوج الأمريكيين ، وكذلك يحدد

---

(٢٠) Genotype.

(٢١) Genetic Engineering.

(٢٢) Phenotype.

ايسينك المنهج وهو المزيد من الأبحاث العلمية فى ميدان السلالات ، ذلك الميدان الذى اهمل كثيراً خوفاً مما قد يظهره من حقائق .

سادسا : النقد

استمتعت كثيراً بدراسة هذا الكتاب القيم ، الزاخر بالحقائق والموضوعات الشيقة، ويتميز المؤلف بقدرة فائقة على التحليل وعلى معالجة كمية ضخمة من الحقائق بمهارة فائقة ، ولا شك انه استطاع اماطة اللثام ــ فى حدود أحدث الحقائق العلمية ــ عن موضوع من أهم واخطر موضوعات النصف الثانى من القرن العشرين وهو العلاقة بين السلالة والذكاء والتربية ، ولا يعجب المرء اذا علم ان الكتاب قد اعيد طبعه ثلاث مرات فى نفس السنة التي نشر فيها .

ولكن لى بعض الملاحظات ، فقد لاحظت **تأثر المؤلف بعواطفه الشخصية ــ بصفته يهودياً نشأ فى المانيا النازية** ــ وقد اعترف بذلك صراحة ، وعبر عن آلامه لما تعرض له اليهود من مذابح على أيدى الألمان فى الأربعينات، وكم كنت أود أن يكون عادلاً أيضاً ، فيقرر فى السبعينات أن هؤلاء اليهود أنفسهم يعلقون المشانق ، ليس للألمان الذين خنقوا الملايين منهم ، وانما للعرب الذين أكرموا وفادتهم منذ مئات السنين . ويبدو لى أنه كان من الأفضل أن تضاف الى عنوان الكتاب العبارة التالية : « دراسة تطبيقية عن الولايات المتحدة الأمريكية » ليكون عنوان الكتاب معبراً حقاً عن الموضوعات التى بداخله .

وعلى الرغم من الاشارة الى أن ادق واحدث الآلات (٢٣) قد استخدمت فى طبعه ومراجعته ، الا انه يوجد خطأ (٢٤) مطبعى واحد يقع فى صفحة ١٣١ فى السطر الحادى عشر .

واخيراً اشير الى عرضه مبدأ المسئولية الجماعية عندما تحدث فى الخاتمة عن ضرورة اعتراف العنصريين البيض بالمساواة فى الحقوق والواجبات بين البيض والسود ، وصور هذا الاعتراف فى صورة تكفير عن الجرائم التى اقترفها آباؤهم البيض ، واعتقد انه كان من الأفضل ، ونحن فى القرن العشرين ، أن نستخدم مفاهيم اخرى غير المسئولية الجماعية التى تنكرها القوانين الجنائية الحديثة ، ومن امثلة ذلك الفلسفات الحديثة والايديولوجيات السياسية والقيم الدينية والأخلاقية .

* * *

---

(٢٣) IBM.

(٢٤) For should be four.

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

(1) Bowett D.W., **The Search fcr Peace,** Routledge & Kegan Paul, London 1972.

(2) Chasteen Edgar R., **Birth Control,** Prentice Hall Inc., N.J. 1972.

(3) Eisenberg, Abne M. & Joseph A. Ilardo, **Argument:** An Alternative to violence, Prentice Hall Inc., N.J. 1972.

(4) Giffen Lois Anita, **The Theory of Profane Love Among the Arabs :** The Development of the genre University of London Press, London 1972.

(5) Martin James, **Future Developments in Telecommunications** Prentice-Hall Inc., N.J. 1971.

* * *

مطبعة حكومة الكويت

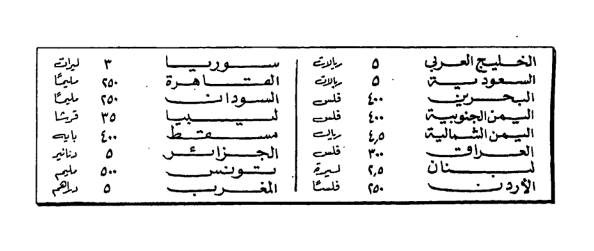
العدد التالى من المجلة

العدد الرابع المجلد الرابع

يناير فبراير مارس سنة ١٩٧٤

قسم خاص عن الرياضيات لغة العلم

بالاضافة الى الابواب الثابتة



البلد	السعر	العملة	البلد	السعر	العملة
الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

عالم الفكر

المجلد الرابع - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٤

الرياضيات لغة العلم

- استخدام الأساليب الرياضية والإحصائية فى العلوم الإنسانية
- التركيب الرياسى التصاعدى فى الأجهزة الحاسبة
- الرياضيات والنظرية الإجتماعية
- استعمال وسوء استعمال نظرية المباريات



رئيس التحرير : أحمد مشارى العدوانى
مستشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام فى الكويت ❋ يناير ـ فبراير ـ مارس ـ ١٩٧٤
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية ❋ وزارة الاعلام ـ الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

الرياضيات لغة العلم

تمهيد ..... بقلم التحرير ٣
استخدام الاساليب الرياضية والاحصائية فى العلوم الانسانية ..... دكتور نادر فرجانى ١١
التركيب الرياسى التصاعدى فى الاجهزة الحاسبة ..... دكتور حسام البيلاوى ٣٧
الرياضيات النظرية والاجتماعية ..... دكتورة ناهد صالح ٩٩
استعمال وسوء استعمال نظرية المباريات ..... ترجمة الاستاذ اسامة احمد مصطفى ١١٧

★ ★ ★

آفاق المعرفة

حرية الفنان ..... دكتور ثروت عكاشة ١٣١
الشعر الجاهلي ..... دكتور يوسف خليف ١٦١
القدرة العقلية للمرأة ومتطلبات العلم ..... ترجمة الدكتور ملاك جرجس ١٩٥

★ ★ ★

ادباء وفنانون

فردريش شيلر ـ عالم الجمال وفيلسوف الحضارة ..... دكتور زكريا ابراهيم ٢١٣

★ ★ ★

عرض الكتب

معجم اكسفورد ..... عرض وتحليل الدكتور داود حلمى احمد السيد ٢٣٥
دراسة فى معجم اللغة الانجليزية على اسس تاريخيه .....

الدراسات التى تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم .

الرياضيات لغة العلم



حين وضع **اوجيست كونت** Auguste Comte تصنيفه الشهير للعلوم فى كتابه « دروس فى الفلسفة الوضعية Cours de Philosophie Positive » اعتبر الرياضة بمثابة القاعدة الأساسية المتينة التى ترتكز عليها كل العلوم الاخرى وترتفع من فوقها وتبنى عليها كل تخصصاتها وتسترشد بمبادئها وقواعدها فى فهم وتحليل الظواهر والحقائق التى تهتم هذه العلوم المختلفة بدراستها . ولقد رتب **كونت** العلوم بعدذلك ترتيباً تصاعدياً من حيث البساطة والتعقيد ابتداء من الفلك حتى علم الاجتماع الذى اعتبره أكثر العلوم تعقيداً ، وذهب فى ذلك الى ان كل علم من العلوم التى تعرض لها فى تصنيفه يعتمد بالضرورة على العلوم التى سبقته فى ذلك الترتيب وعلى نتائجها ومناهجها ، كما أنه هو ذاته يعتبر فى الوقت نفسه بمثابة مدخل أو تمهيد للعلم الذى يليه .. ومن هنا كانت الرياضة عنده هى (أبسط) العلوم على الاطلاق لانها لا تعتمد على غيرها من العلوم ولا يحتاج المرء فى فهمها الى الاستعانة بأى علم آخر فى الوقت الذى تعتمد

عليها العلوم الاخرى جميعاً ويستعين بها المرء فى محاولته التعمق فى فهم تلك العلوم ، وقياساً على ذلك فان علم الاجتماع يعتبر عنده اكثر العلوم تعقداً نظراً لاعتماده على مناهج العلوم الاخرى الأكثر منه بساطة . بل ان عالم الاجتماع كثيراً ما يجد نفسه مضطراً الى الاستعانة بحقائق ونتائج تلك العلوم لفهم المجتمع الانسانى والظواهر الاجتماعية المعقدة المتشابكة فكأن البساطة والتعقد عند « كونت » يعنيان مدى احتياج أى علم من العلوم لغيره أو استغنائه عنه وليس مدى (سهولة) هذا العلم أو صعوبته ودقته على الأفهام . وعلى ذلك فان (بساطة) الرياضة لا تعنى سهولة فهمها أو عدم الحاجة الى بذل الجهد فى تعلمها أو أنها اقرب الى النفس من علم الاجتماع مثلاً ، وكل ما يعنيه ذلك هو بساطة المبادىء والقواعد التى ترتكز عليها بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .

وليس ثمة شك فى أن الطريق الى الرياضة ليس سهلاً ميسوراً ، وهذه حقيقة عبر عنها الرياضى اليونانى **اوقليد** فى عبارة شهيرة وذلك حين طلب اليه بطلميوس الأول ان يخبره بسرعة واختصار عن ماهية الهندسة فأجاب بأنه ليس هناك طريق ملكى (أى سهل ميسور) الى الهندسة . وهو قول يصدق على الرياضة عموماً ، فرغم بساطة رموزها وقواعدها فان هذه الرموز والقواعد ذاتها تمثل فى نظر الكثيرين اكبر عائق يمنع من تعلمها والاقبال عليها . ولكن طريق الرياضة طريق طويل بمعنى آخر ، وذلك اذا نحن أخذنا فى الاعتبار الفترة الزمنية الطويلة التى استغرقتها الرياضة فى نموها وتطورها حتى وصلت الى ما هى عليه الآن « ملكة العلوم » ، كما يحب الرياضيون أن يصفوها . وهو زعم يجد الكثير من التحدى والمعارضة والانكار ليس فقط من جانب المتخصصين فى العلوم الانسانية الذين يرى كل منهم ان العلم الذى تخصص فيه هو أصل العلوم أو « ملك العلوم » بل وايضاً من جانب المتخصصين فى العلوم الطبيعية أو العلوم « الدقيقة » .

والأغلب أن الانسان شغل منذ البدء بالرياضة أو على الأقل بالعد والحساب الذى يعتبر ابسط واسهل جانب فى الرياضة . فلقد كان الانسان المبكر أو انسان ما قبل التاريخ فى حاجة الى ان يعد ويحصى ما حوله ، ولكنه بالضرورة لم يستطع ان يرتفع بالعد والحساب الى أبعد من مستوى معين ، وذلك بحكم بساطة البيئة التى يعيش فيها وعدم تنوعها وقلة ممتلكاته واحتياجاته ومطالبه . ويرى الكثير من العلماء أن الانسان الأول لم يستطع أن يتجاوز فى العد ثلاثة ارقام أو على الأصح لم يكن لديه أسماء لأكثر من الرقم اثنين أو ثلاثة . وكثير من علماء الانثربولوجيا الذين عاشوا لفترات طويلة بين بعض الشعوب والقبائل (البدائية) المنزوية يرون أن هذه القبائل كانت حتى عهد قريب لا تستطيع أن تعد الى أكثر من الرقم خمسة ثم تعود بعد ذلك لتجمع بين هذه الأرقام ، فبدلاً من العدد ٦ أو ٧ أو ٨ كانت تعد خمسة وواحد وخمسة واثنين وخمسة وثلاثة وهكذا . ولقد كان من الطبيعى أن يستعين الانسان فى بداية الأمر فى العد والحساب ببعض أعضاء جسمه مثل أصابع اليدين ثم إصابع القدمين ، وهى طريقة لا يزال الأطفال يلجأون اليها حتى الآن فى بداية تعلمهم الحساب . ولعل أقصى ما أمكن للانسان المبكر أن يصل اليه فى العد هو الرقم ٢٠ ــ حسب ما يذهب اليه بعض العلماء ــ وهو رقم يعتقد أصحاب المدرسة التطورية أن له بعض البقايا والرواسب والمخلفات التى تظهر حتى الآن فى بعض اللغات الحديثة مثل

الفرنسية حيث يعبر عن الرقم ٨٠ بأنه « أربعة عشرينات quatre vight » وعن الرقم ٩٠ بأنه « أربعة عشرينات وعشرة quatre-vignt-dix » ويعتبرون ذلك دلالة على مرحلة سابقة من مراحل تطور العد والحساب .

والأغلب أيضاً أن الرياضة بالمعنى المفهوم لنا الآن لم تتضح وتتبلور الا منذ حوالى عشرة آلاف سنة وذلك حين بدأ المجتمع الانسانى يستقر فى مناطق معينة بالذات ويتحول من حياة البداوة والنجعة الى حياة الاستقرار وبالذات الى حياة الزراعة المستقرة فى وديان الأنهار .. وادى النيل وما بين النهرين ووادى السند ، وما يرتبط بحياة الزراعة والاستقرار من ضرورة معرفة حساب الأيام والشهور والفصول ومواسم البذر والحصاد وما تحتاجه الأرض من مقادير معينة من الماء والبذور ، ومقدار المحصول ، وما ارتبط بهذا كله من التطلع نحو المستقبل وضرورة تخزين الفائض من المحصول لوقت الحاجة اليه . وهذه كلها امور لم تكن واضحة فى ذهن الانسان الأول فى مرحلة التنقل والبداوة التى تعتمد على الجمع والالتقاط أو على الصيد والقنص ، وهى انماط من النشاط الاقتصادى تتميز باستهلاك ما تقدمه الطبيعة للانسان دون أى محاولة أو رغبة أو حاجة من جانبه الى التخزين أو الى تجديد تلك الموارد وتنميتها أو المحافظة عليها لاعتبارات المستقبل والغد .

والواقع أن الحقائق الرياضية التى تبدو الآن بسيطة لنا احتاجت الى مئات بل آلاف السنين من التطوير والتغيير والتحسين والتعديل والحذف أو الاضافة حتى أصبحت على ما هى عليه الآن . ويكفى لتبيين ما نقصده من ذلك ان نضرب مثلاً يحب مؤرخو الفكر الرياضى الاستشهاد به ، وهو الطريقة التى توصل بها الانسان فى آخر الأمر لترتيب الأرقام بعضها بالنسبة لبعض فى كتابة أى عدد ، وهى طريقة نتعلمها نحن الآن فى المدارس منذ الصغر بحيث أصبحنا نمارسها بشكل آلي وبحيث أصبحت تبدو لنا بسيطة للغاية ، مع أن ترتيب هذه الأرقام بعضها الى جانب بعض بحيث يكون لكل رقم قيمة عددية معينة ومحددة قد تطلب قروناً طويلة قبل الوصول الى فكرة وضع الأرقام ذات القيمة العددية الأكبر الى اليسار بترتيب تصاعدى ، والأرقام ذات القيمة العددية الأصغر الى اليمين بترتيب تنازلى ، وذلك بالنسبة الى رقم معين هو ما اصطلح على تسميته برقم الآحاد بحيث يوضع على يساره الرقم الدال على العشرات ثم الرقم الدال على المئات فالآلاف وما الى ذلك ، وبحيث تشير الأرقام التى توضع الى يمينه الى جزء معين أو الى نسبة معينة منه هو ذاته ، وبنفس الترتيب ولكن بطريقة تنازلية . فأول رقم يوضع الى يمين رقم الآحاد تكون له قيمة عددية تساوى ١/١٠ من رقم الآحاد ، والى يمينه بوضع الرقم الدال على ١/١٠٠ ثم ١/١٠٠٠ من القيمة العددية لذلك الرقم المركزى ، وهكذا . ويُعبر **برجامينى** Bergamini فى كتابه القصير الممتع عن « الرياضيات Mathematics » عن ذلك بقوله : ان العدد ٨٧٦٥ر٤٣٢١ يعنى فى حقيقة الأمر : ٨ × ١٠٠٠ + ٧ × ١٠٠ + ٦ × ١٠ + ٥ × ١ + ٤ × ١/١٠ + ٣ × ١/١٠٠ + ٢ × ١/١٠٠٠ + ١ × ١/١٠٠٠٠ . **فالعدد المشار اليه اذن هو** طريقة مختصرة للتعبير عن كل تلك العملية الحسابية الطويلة المعقدة . وقد استغرق الوصول الى هذه العملية ــ كما ذكرنا ــ قروناً طويلة من العمل والتفكير الذهنى الشاق المتواصل . بل ان العلامة الدالة على الصفر لم تظهر الا بعد أن تطورت فكرة الأرقام الاخرى بزمن طويل ، على الرغم مما يبدو

من بساطةذلك (الصفر) . والواقع أن (اختراع)علامة للصـفر يُعتبر فى كثـير من الكتابات اهم واخطر خطوة فى تاريخ الرياضة . والرأى السائدهو أن البابليين توصلوا الى ذلك الاختـراع بعد عام ١٠٠٠ قبل الميلاد وأن ذلك ادى الى حدوثانقلاب خطير فى نظام العد والحساب والى زيادة الدقة فى تلك العملية . فبدون الصفر يصعب علىالمرء مثلاً حين يرى أمامه رقمينموضوعينأحدهما الى جانب الآخر مثل رقم ٢ ، ٣ ودون أن يكونبينهما فاصل ، أن يعرف اذا كان هذان الرقمان يشيران الى العدد ٣٢ أو ٣٠٢ أو ٣٠٠٢ وهكذا .

• • •

ولقد سار تقدم الرياضيات ونموها خطوةبخطوة مع تقدم العلم ونموه . فمنذ عهد **جليليو ونيوتن** اخذ علماء الفيـزياء يفكرون فى الفـاظوحدود ومصـطلحات رياضـية كما أن علمـاء البيولوجيا المحدثين يميلون الآن الى قياس دقةأبحاثهم بمدى امكان التعبير عنها فى تلك الألفاظ والحدود والمصطلحات ذاتها ، بل ان علم النفسالذى كان حتى عهد غير بعيد يعتبر من الدراسات (غير الدقيقة) بدأ هو أيضاً يعتمد اعتماداً متزايداًعلى الرياضة وعلى الأساليب الرياضية وتبعته فى ذلك العلوم الانسانية والاجتماعية الاخـرى مثلعلم الاجتماع ، مع اختلاف بطبيعة الحال فى مدى ودرجة الميل الى اتباع تلك الأساليب وتطبيقها . وسوف يجد القارىء فى الدراستين المنشورتين فى هذا العدد واللتين كتبهما **الدكتور نـادر فرجانىوالدكتورة ناهد صالح** عرضـاً شـيقاً لكثير من المشكلات المنهجية التى تقابل الباحثين فى العلومالاجتماعية والانسـانية فى محاولتهم اسـتخدام الأساليب الرياضية والاحصائيةفىدراسة الظواهرالاجتماعية وتطويع موضـوعات تخصصـهم الى تلك الأساليب والمناهج .

وكثير من الكتاب يرون أن الدور الرئيسىالذى تلعبه الرياضـة فى مجال العلـوم المختلفة وبخاصة العلـوم الفيزيقية يتمثل فى انهـا تزودالعلماء والباحثين بلغة تصـلح اساسـاً أو اداة لمعالجة المشكلات الكمية فى تلك العلوم . وجانبكبير من هذه اللغة يأخذ شكل الرموز الرياضية التى تصلح للتعبير بشكل دقيق ومختصر وواضحعن الافكار المعقدة . وهذا نفسه هو الذى يدفع العلماء فى كثير من فروع التخصص الى استخدامالرموز الرياضية كلما امكنهم ذلك بحيث يصل الأمر ببعضهم الى المبالغة الشديدة فى الاعتماد علىتلك الرموز . وليس أدل على هـذه المبالغة من التجاء الكثيرين من علماء الانثربولوچيا المحدثينالى استخدام الرمـوز والعلامات الرياضـية فى المجتمعات البسـيطة المختلفة أو المجتمعـات(البدائية) كما يسميها البعض ، وذلك على الرغم من أن تلك الأنسـاق والنظم تتمتع بدرجـة منالتعقد يصعب معه وصفها بدقة باستخدام لغة الحديث العادية بينما يمكن عن طريق الاستعانةبالرموز الرياضية ضـغط تلك العلاقات بحيث يستطيع المرء ان يستوعبها أو يفهمها بسهولة ،ومن ناحية ثانية فان الرياضة تزوّد العلم بكثير من الصيغ العلمية التى شاع اسـتخدامها الآنولدرجة كادت معها أن تفقد جِدّتها وبحيث كاد الناس ينسون مدى اسهام الرياضة فى الوصولاليها وتزويد العلم بها ، وان كان هذا الشـيوع ذاته يمكن اعتباره دليلاً كافياً على مدى التسليمبدور الرياضةفىالعلم واهمية وحيوية هذا الدور ، وبالتالى على مـدى تغلغل الفكـر والأسـاليبالرياضـية الى مجالات العلـوم المختلفة ، ولكن

الأهم من ذلك هو أن الرياضة تهيىء للباحثين فى مجالات العلوم المختلفة أساليب منهجية جديدة ودقيقة على ما سبق أن ذكرنا ، كما أنها تساعد تلك العلوم ــ بما فى ذلك العلوم الاجتماعية وان يكن الى درجة أقل ــ على التنبؤ .

كل هذا قد يعنى فى آخر الأمر ان الرياضة ليست مجرد نوع من المعرفة بقدر ما هى نوع خاص من اللغة ، ان أمكن هذا القول . وهى لغة يزعم المتخصصون فيها انه يمكن لجميع الكائنات العاقلة الذكية أن تفهمها وتستوعبها نظراً لانها لغة مجردة وكاملة ، بصرف النظر عما قد تعنيه كلمة (كاملة) فى هذا المجال ، وبصرف النظر أيضاً عن مدى عمق الاختلافات بين تلك الكائنات العاقلة أو الذكية فى القدرة على الادراك . وهناك كثير من التجارب التى تثبت على اى حال قدرة بعض الحيوانات وبخاصة القردة على فهم بعض الرموز الرياضة البسيطة . انما المهم هنا هو أن ذيوع أو انتشار تلك اللغة يرجع الى أن قواعدها محكومة تماماً بقواعد منطقية دقيقة ، وان « مفرداتها اللغوية » عبارة عن رموز بسيطة يمكن استيعابها تماماً بشىء من الجهد وتطويعها بعد ذلك لحاجات الانسان ، سواء فى مجال الاستخدامات اليومية أو الحياة العملية أو التفكير العلمى الدقيق . فكأن بساطة لغة الرياضة ودقتها هما اللتان تساعدان على انتشارها واتخاذها أساساً للتعبير عن الحقائق العلمية مهما تعقدت ومهما بلغت من الصعوبة والعمق والتشابك . فهى لغة تستخدم أصلاً الأرقام بدلاً من الأعداد ، والحروف بدلاً من الأرقام غير المعروفة مع استعمال بعض العلامات الاخرى القليلة للاشارة الى وجود علاقات معينة بين الأرقام والتدليل على قيام تلك العلاقات وهكذا . ومع أن هذه الاستخدامات هى التى تضفى على الرياضة مسحة من الصعوبة لأول وهلة فانها اشبه شىء بالصعوبة التى يصادفها المرء حين يبدأ فى تعلم اى لغة اخرى جديدة وان كانت الرياضة كلغة تسمو على كل اللغات ــ فى نظر الرياضيين على الأقل ــ فى قدرتها الشديدة على اختصار التفكير كما ذكرنا .

وعلى أى حال فاننا لا نكاد نجد فى الوقت الحالى اى نشاط انسانى او اية عملية فكرية تخلو تماماً من اى اثر للرياضة والأساليب الرياضية ، أو لم يحاول الرياضيون ردها وارجاعها الى اسس رياضية . واذا كان بعض الكتاب يرون ان ثمة علاقة قوية بين تقدم العلم وتقدم الرياضة على ما رأينا ، فان الكثيرين يذهبون الى أن تقدم الرياضة هو فى ذاته مقياس ودليل على مدى تقدم الحضارة الانسانية ككل . وكما يقول **شابلى** Shapely فى ذلك : « لقد تعلم الانسان المبكر فى بداية الأمر كيف يعد ويحصى ، ثم تعلم بعد ذلك كيف يقيس ، وأخيراً جداً تعلم كيف يحسب » (١) . وفى هذا المعنى نفسه يذهب الفيلسوف البريطانى **برتراند رسل** Bertrand Russel فى كتابه : « The Study of Mathematics » الى القول بأنه اذا كان القرن

---

(١) Shapely, H.; Rapport, S. and Wright, H.; The New Treasury of Science, Collins 1965, p. 47.

التاسع عشر له الفضل فى اكتشاف قوة البخار واكتشاف التطور فانه يستطيع فى الوقت نفسه أن يفخر بأنه هو القرن الذى تم فيه اكتشاف الرياضة البحتة ، وان كانت الرياضة ــ بطبيعة الحال ــ قد تم تعميدها ــ حسب تعبيره ــ قبل مولدها بوقت طويل جداً كما هو شأن كثير من العلوم الاخرى . وهذا هو السبب فى أن الكثير من الكتاب كانوا يشيرون الى ما يسمونه بالرياضيات البحتة قبل القرن التاسع عشر بزمن طويل ، ولكن كل ما كانوا يعرفونه عن ذلك العلم حينئذ هو أنه يتكون من الحساب والجبر والهندسة ومااليها ذلك دون أن يعرفوا شيئاً عن العناصر المشتركة بين هذه العلوم جميعاً أو عما يميزها كلها من الرياضة التطبيقية . والمعروف على أى حال أن الرياضة البحتة تم اكتشافها على يدى **بول** Boole فى كتابه عن « قوانين الفكر » (١٨٥٤) ، وهو عنوان خاطىء بالنسبة لما يحتويه الكتاب الذى يهتم فى المحل الأول بالمنطق الصورى ، وهو أساس جوهرى بالنسبة للرياضة .

• • •

وكما سبق أن ذكرنا فان جانباً كبيراً من تفكير الانسان المعاصر وحياته ونشاطه اليومى يرتكز على الرياضة والأساليب والتصورات والمبادىء الرياضية ، وانه يستخدم تلك الأساليب والتصورات والمبادىء طيلة الوقت سواء أدرك ذلك أو لم يدركه ، فالرياضة ، كما يقول **بريان ثويتس** Bryan Thwaits فى مقدمة كتاب **برجامينى** الذى سبقت الاشارة اليه « هى التخصص الذهنى المركزى فى المجتمع المتحضر او المجتمع التكنولوجى الحديث » ، وانه كلما تقدم المجتمع الانسانى وارتقى كلما زاد اعتماده على الرياضة وتغلب الجانب الكمى فيه على الجوانب الكيفية بحيث يمكن القول ــ كما يذهب الى ذلك كثير من العلماء ــ ان الرياضة سوف تغزو فى المستقبل القريب كل نواحى النشاط فى المجتمع الانسانى . وثمة دلائل كثيرة واضحة تشير الى هذا الاتجاه ، منها أن فروع الرياضة التى كانت حتى عهد غير بعيد غير ذات أهمية وغير ذات جدوى فى نظر الكثيرين أصبحت تلعب الآن دوراً بالغ الأهمية فى مختلف التخصصات والمهن ، اذ يعتمد عليها رجال الصناعة والعسكريون والقادة فى الحروب والمشتغلون بالتخطيط وغير ذلك . ومن ذلك أيضاً زيادة الاقبال على استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية (الكمبيوتر) فى تسهيل حل المشكلات الرياضية المعقدة التى تحتاج من الانسان الى وقت طويل جداً لم يعد العصر الحديث بكل ما يتسم به من علائم السرعة يتحمله او يسمح به . وهذا لا يعنى بطبيعة الحال إن « الكمبيوتر » سوف يحل محل الانسان أو حتى أنه يستطيع أن يحل محل الانسان تماماً ، وكل ما يعنيه هو أن « الكمبيوتر » لا يحتاج الا لعدد قليل من الثوانى لكى يحل مشكلة شديدة التعقيد . بيد أن اعداد أو (برمجة) هذه المشكلة قبل تقديمها لتلك الآلة الحاسبة الالكترونية يحتاج الى مجهود عدد كبير من علماء الرياضة ولوقت طويل قد يستغرق عدة شهور . فالعنصر البشرى فى مثل هذه العمليات ضرورى ولا غنى عنه . والدراسة التى يقدمها لنا الدكتور ــ المهندس

حسام الببلاوى فيها كثير من المعلومات الدقيقةالتى تلقى كثيراً من الضوء على الدور الذى تلعبه تلك الآلات الحاسبة الالكترونية فى حياة الانسانالمعاصر . (انظر فى ذلك أيضاً ما يذكره **جاردنر Gardner** فى كتابه : More Mathematical Puzzels and Diversions, Pelican 1961, p. 9. عن العلاقة بين الكمبيوتر والانسان الحديث) .

هذا الكتاب نفسه الذى نشير اليه فى نهايةالفقرة السابقة دليل من الأدلة الواضحة على مدى انتشار التفكير الرياضى فى الوقت الحالىواتجاه الرجلالعادىالحديث نحو الأخذ بأساليب الرياضة والتصورات الرياضيةفى حياته اليومية . فالكتاب عرض لعدد كبير من الألغاز والمشكلات الرياضية التى تصلح لشغل أوقات الفراغ فىعمل ذهنى ناضج مفيد وهو تعبير عن اتجاه جديد يلقى الكثير من الاهتمام منالناس فى الخارجومن مختلف الأعمار ويتمثل ليس فقط فى الاقبال على الشطرنج وغيره من الألعاب التى تعتمد علىعمليات رياضية محسوبة ، بل وايضاً على الاقبال الشديد على الاطلاع على الكتب والمجلات التىتقدم مثل تلك الالغاز والأحاجى التى تقوم على مبادىء الرياضة . ولقد ظهر فى ذلك عدد كبير من الكتب لعل من أهمها كتاب Scientific American Book of Mathematical Puzzles & Diversions وقد تولت نشره مجلة Scientific American الشهيرة ، وهى من المجلات العلمية الرصينة التىتعمل على تقريب العلم للأذهان ولا تجد أى تعارض بين الرصانة والدقة من ناحية ومحاولةتقريب الحقائق والمشكلات العلمية العويصة لذهن القارىء غير المتخصص منالناحية الاخرى. وفى هذا العدد مقال مترجم عن تلك المجلة وهو مقال « استعمال وسوء استعمال نظريةالمباريات » الذى قام بترجمته المهندس **اسامة احمد مصطفى** ، وهو مقال يجمع بين العمقوعناصر التشويق . بل لقد ظهرت منذ سنوات مجلة للشباب بعنوان « Recreational Mathematics » تهتم كما هو واضح من اسمها بتقديم المشكلاتالرياضية كوسيلة للترفيه وشغلأوقات الفراغ فى عمل جدى مفيد ، وهو أمر من شأنه أن يساعد على صبغ التفكير بصبغة رياضيةواضحة . بل ان بعض الكتب الرياضية المبسطة التى ظهرت منذ زمن بعيد يعاد طبعها فى طبعاتشعبية رخيصة لتشجيع القارىء العادى على الاقبال عليها ، وهذا فى حد ذاته دليل واضح علىمدى الاهتمام بنشر التفكير الرياضى فى الوقت الحالى . ولعل أهم مثال لذلك هو الكتاب الذى كان **ادوارد لوكاس** **Edward Lucas** قد الفه فى فرنسا منذ عهد بعيد بعنوان : Récreations Mathématiques ، وهو كتاب ضخم فى أربعة اجزاء ولم يلبث أن اعيد نشره فىطبعة رخيصة منذ سنوات قليلة . ويبدو أن ذلك الاتجاه استحوذ فى العالم الخارجى على اذهانالناس لدرجة أن عدداً من كبار علماء الرياضة عكفوا على كتابة كثير من الكتب التىتهتم بتبسيطمبادئها واساليبها وخرجوا بذلك عن نطاق الكتابة للقارىء المتخصص الى رحاب القارىء العادىحتى يستطيع أن يفهم احدى حقائق العصر الذى يعيش فيه .

وهذا كله معناه أن الرياضة ليست مجرد لغة للعلم وانما هى فى حقيقة الأمر لغة العصر الحديث الذى يقوم على اية حال على العلم ، او الذى يُعتبر العلم احدى ركائزه على أقل تقدير . ورغم كل ما قد يقال عن صعوبة تلك اللغةوصعوبة الالمام بها فانها كما سبق أن ذكرنا صعوبة تماثل ما يلقاه المرء حين يقبل على تعلم اىلغة جديدة . والظاهر ان الأطفال أقدر من الكبار

على التغلب على تلك الصعوبات وعلى استيعاب تلك اللغة ومعرفة مفرداتها الرمزية وقواعدها ، وهذا هو الشان على اية حال بالنسبة لتعلم كل اللغات . والواقع أن ما يعرف باسم الرياضة الحديثة التى تدرس الآن فى المدارس هو محاولة للاستفادة من هذه القدرة على استيعاب مصطلحات وافكار المنطق الرمزى الذى يكمن وراء تلك الرياضة الحديثة . وقد يكون التحول التدريجى الذى نشاهده اليوم فى مدارسنا من الرياضة التقليدية الى الرياضة الحديثة بداية لخلق جيل جديد من المتعلمين يأخذون الحياة والعلم والتفكير العلمى الرصين بطريقة جدية لم تتوفر للأجيال السابقة والحالية ، ويعملون على بناء المجتمع الجديد على اسس علمية دقيقة وصحيحة .

« المحرر »

* * *

نادر فرجانى *

استخدام الأساليب الرياضية والإحصائية فى العلوم الإنسانية

« ... لانه بالنسبة للاقتصاد والسياسة وكل الفنون ،لا يوجد فرع واحد من فروع العلم يملك تأثيراً أعظم من من دراسة الأرقام : وميزتها الأساسية انها توقظ الرجل الخامل وغير اللماح بطبيعته ، وتجعله سريع التعلم ، حاضر البديهة ، متفوقاً على طاقاته الطبيعية » .

أفلاطون ـ القوانين

الرياضة mathematics هى اللغة الوحيدة التى يملكها البشر والتى لا تتأثر بأى تحيزات تنبع من المحتوى Context الذى تستعمل فيه. وكون الرياضة لا تعتمد على المحتوى (مساحة المربع يحكمها نفس القانون أياً كانت المادة المصنوعة منه) بالاضافة الى استقلالها عن الخبرات الخاصة (مساحة المربع أيضاً يحكمها نفس القانون بغض النظر عن الشخص الذى يقوم بحساب مساحته) (١) يجعلها اللغة العالمية الوحيدة للبشر .

---

* الدكتور نادر فرجانى مدرس الاحصاء بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، واستاذ مساعد باحث بمركز البحوث الاجتماعية التابع للجامعة الامريكية بالقاهرة .

(١) نلاحظ ان معرفة القانون او نتيجة العملية الحسابية قد تعتمد على الشخص ولكن هذا يدخل فى نطاق السلوك الانسانى لا الرياضة .

والرياضة هى علم دراسة البِنَى structures **بغض النظر عن المحتوى** ، ولهذا فإنه من الممكن باستخدام الرياضة ربط حقائق علمية ذات محتويات طبيعية مختلفة ولكن لها نفس البناء المنطقى ، **وبالتالى فان الرياضة مناسبة تماماً كافة للعلوم كما وصفها جاليليو . وزيادة على هذا ، فقد بدأ استعمال الرياضة كافة للفنون باعتبار الأعمال الموسيقية أو اللوحات الفنية ((بِنَى)) متناسقة من الدرجات الصوتية أو التركيبات اللونية المختلفة .** فقد أدت عمومية الرياضة وقدرتها على التجريد الى منفعتها المتزايدة وضرورتها للدراسة الدقيقة فى كل فروع العلم والفن .

ولكن يجب ملاحظة أن الحلول الرياضية توجد للمشاكل الرياضية فقط ، ولهذا فان أول ما يقوم به عالم الرياضة التطبيقية هو صياغة المشاكل الأساسية فى مجال التطبيق فى صورة رياضية واضحة ومحددة ، ثم بعد ذلك يمكن معالجة هذه المشاكل رياضياً . وفى بعض الأحيان لا يمكن تحديد المشاكل التطبيقية بدقة قبل الصياغة الرياضية لها ، وبعد ذلك يمكن أن نسأل أسئلة محددة متعلقة بهذه المشكلة .

●●●

أولاً ـ صعوبة التطبيقات الرياضية فى العلوم الانسانية

لا شك أن التطبيقات الرياضية فى العلوم الانسانية أصعب بكثير من التطبيقات الرياضية فى المجال التقليدى للرياضة التطبيقية وهو العلوم الطبيعية . وذلك يرجع الى الأسباب الآتية :

١ ـ اختلاف مفهوم النظرية فى العلوم الانسانية عن الرياضة والعلوم الطبيعية .

٢ ـ صعوبة تعريف وقياس المتغيرات الأساسية بدقة فى العلوم الانسانية عنها فى العلوم الطبيعية .

فبالنسبة لعالم الرياضة تتكون النظرية من مجموعة من العلاقات المتسقة والمؤكدة بين متغيرات كمية محددة بحيث اذا طبقت على العالم الطبيعى (الفيزيقى) Physical world تتحول الى تنبؤات قاطعة بما يحدث اذا سادت ظروف معينة . أما فى العلوم الانسانية فالنظرية غالباً ما تعنى نظاماً مرجعياً system of reference أو مجموعة من التعريفات والعلاقات بين مسميات مستخرجة من مشاهدات فعلية أو تأملية .

كذلك هناك فرق هام بين التجريدات النظرية للعلوم الطبيعية والتجريدات النظرية للعلوم الانسانية . فهناك ظواهر عديدة يمكن مشاهدتها بدقة وتُعتبر تحقيقات realizations للعلاقات الطبيعية خاصة فى نطاق الظواهر الفلكية والكهرومغناطيسية . مثل هذا الثراء فى التحقيقات التى يمكن مشاهدتها لا يغذى الدراسات التجريدية فى العلوم الانسانية ، وهذا بالطبع راجع الى حقيقة أساسية وهى أن السلوك الانسانى أكثر تعقداً من سلوك الأجسام الصماء inert bodies .

ومكونات السلوك الانسانى والتركيب الاجتماعى لا تخضع للتعريف المحدد والقياس الدقيق ولكن لا بد من تقطيرها أو تجريدها من عديد من « الأحداث » التى تدل على نمط سلوكى معين أو ظاهرة اجتماعية معينة . ولعل الطريقة الوحيدة التى يمكن بها التعبير عن الأحداث كمياً هى عدّها . ولكى تُعد الأحداث يجب التعرف عليها ، وغنى عن البيان أن التعرف على أحداث معينة وتصنيفها ليس سهلاً فى مجال العلوم الإنسانية ، وتزداد الصعوبة عند محاولة وضع معنى محدد لعدد مرات تكرار حدث معين . مثلاً ، قد يقرر أحد علماء الاجتماع ان يقيس قوة أ بالنسبة لـ ب بنسبة عدد المرات التى يقوم فيها ب بتنفيذ ما يطلبه منه أ . ولو أن مثل هذا التعريف يمكن تطبيقه عملياً ، الا أنه يمكن الاعتراض عليه بأنه لا يُعبر عن معنى القوة فى حالات كثيرة ، كأن يكون ب ينفذ كل ما يطلبه منه أ ولكن فقط لأن أ **يعلم تماماً** ما يمكن ان يقوم به ب ويقصر مطالبه على هذه الأشياء . فى هذه الحالة لا يمكن القول بأن المقياس المقترح لقوة أ بالنسبة لـ ب يُعد سليماً . وحتى اذا أمكن وضع تعريفات مرضية للمفاهيم الاجتماعية عن طريق عدّ أحداث معينة ، فان عملية تسجيل الأحداث المكونة للتعريفات قد تصبح عسيرة فى أى موقف محدد .

وعلى الرغم من صعوبة تطبيق العلوم الرياضية فى مجال العلوم الانسانية فان دور الرياضة لا يقتصر على اعادة صياغة نتائج العلوم الانسانية بصورة رياضية ، ولكن العلاقة هى علاقة تفاعل مثمر ومفيد لكلا المجالين . فاستخدام العلوم الرياضية فى العلوم الانسانية يمكن أن يؤدى الى تطوير العلوم الانسانية ذاتها ، كما أن التطبيقات الرياضية فى العلوم الانسانية تثير مشاكل رياضية بحتة تكون مجالاً خصباً للبحث فى العلوم الرياضية .

• • •

ثانياً : بناء النماذج الرياضية

من أعقد المشاكل التى تواجه المعالجة الرياضية فى العلوم الانسانية أن مجرد وضع تعريفات مرضية تماماً وجمع كل البيانات المطلوبة ووضوح كل الانتظامات العلاقية لا يكون بنياناً رياضياً أكثر مما تكون مجموعة من الأحجار مبنى متكاملاً ، اذ يجب أن تترابط هذه العلاقات مع بعضها بصورة متسقة ومتكاملة .

وعلى الرغم من صعوبة بناء مثل هذا العلم الرياضى فى مجال الدراسات الانسانية فى غياب نقطة انطلاق واضحة (مثل انتظام حركة الأجسام السماوية بالنسبة لعلم الفلك والرياضيات) فقد تمت محاولات كثيرة فى هذا الاتجاه وكان أسلوب هذه المحاولات هو النموذج الرياضى .

والغرض من أى نموذج رياضى — انطلاقاً من بعض فروض وبديهيات أساسية — هو اشتقاق علاقات بين متغيرات بحيث يمكن — على الأقل من حيث المبدأ — تحقيق هذه العلاقات . وهذه العلاقات يمكن استخدامها فى طاقة شرحية expalantory أو تنبؤية predictory . وأحياناً يمكن التوصل عن طريق النموذج الرياضى الى نتائج ما كان يمكن استنتاجها أو ملاحظاتها بدون النموذج ، وفى هذه الحالات تكون فائدة النموذج مضاعفة .

ويعتبر علم الاقتصاد من أسهل العلوم الانسانية طواعية للتريض mathematization ، **لأن كثيراً من المفاهيم الاقتصادية يمكن التعبير عنها كمياً .** فالأسعار ، والانتاج ، والاستهلاك ، ومعدلات الفائدة ، والاجور ، والأرباح وغيرها من المتغيرات الاقتصادية يمكن تمثيلها بأعداد . وبالرغم من وجود صعوبات عديدة مثل تعقيد السلوك الاقتصادى للبشر ، وندرة فرص التجارب المحكومة controlled experiments ، وعدم سهولة تقدير معالم النماذج من البيانات المتاحة ، فانه توجد نماذج رياضية كثيرة للسلوك الاقتصادى والظواهر الاقتصادية .

فعلى سبيل المثال ، يهتم التحليل الاقتصادى الديناميكى بالعمليات الاقتصادية التى يُعد مرور الزمن عنصراً هاماً فيها ، وقد استخدمت أساليب رياضية كثيرة ــ خاصة معادلات الفروق (٢) difference equations ــ فى تحليل التقلبات الاقتصادية فى نظام السوق الحر free market ــ كالعلاقة بين الانتاج والسعر كدالة فى الزمن . فالكمية المنزرعة من محصول معين فى السنة (ن) ، وبالتالى العرض المتوقع فى السنة (ن + ١) ــ ولنرمز له ب (ع ن + ١) ــ قد يعتمد أساساً على السعر الذى بيع به المحصول فى العام السابق ، (س ن) ، أى انه قد يكون لدينا علاقة مثل :

$$ع_{ن+١} = ٦٠ + س_{ن}$$

ومؤداها انه ، بالاضافة الى حد أدنى معين ، يزيد المعروض من السلعة فى السنة (ن + ١) كلما زاد السعر فى السنة (ن) بصورة خطية . ولكن سعر السنة (ن) يتحدد بقوانين العرض والطلب العادية حيث يقل السعر كلما زاد المحصول . علاقة الطلب هذه قد تأخذ الشكل التالى :

$$س_{ن} = ٤٠ - ٤ر٠ ع_{ن}$$

ومؤداها وجود علاقة خطية عكسية بين الكمية المعروضة والسعر . وبالتعويض عن (س ن) فى المعادلة الاولى من المعادلة الثانية نحصل على معادلة الفروق

$$ع_{ن+١} = ٦٠ + (٤٠ - ٤ر٠ ع_{ن})$$
$$= ١٠٠ - ٤ر٠ ع_{ن}$$

التى تربط بين سعر السلعة فى سنتين متتاليتين . وتطبيقاً لهذه العلاقة اذا كان $ع_{ن} = ١٠٠$ فاننا نجد أن

$$ع_{ن+١} = ٦٠$$
$$ع_{ن+٢} = ٧٦$$

(٢) معادلة الفروق تربط بين قيم دالة معينة عن نقط متتالية للدليل .

$$\frac{ع}{ن + ٣} = ٦٩٫٦$$

$$\frac{ع}{ن + ٤} = ٧٢٫١٦$$

.... وهكـــذا

ومن السهل ان نتصور ان مثل هذا النوع من المعادلات يمكن استعماله لدراسة الظواهر الاقتصادية المتذبذبة oscillatory عموماً .

ولقد أصـــبح التحليل الكمى quantitative analysis ، أو التطبيقـــات الرياضـــية فى الاقتصاد ، جزءاً أساسياً من النظرية الاقتصادية، فيرى تنبرجن و بوس Tinbergen and Bos مثـلاً أن عمليـة التخطيط للتنمية تتم فى أكفأصورها بالاستعانة بالنماذج الرياضـية ، حيث تكوّن مجموعة من النماذج الرياضـــية الهيكل الأساسى للخطة .

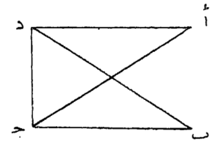
ويظن البعض أن اســتخدام الرياضـة فى العلوم الانسانية لا بد وأن ينطوى على استعمال الأرقام والمعادلات ، وهذا غير صحيح . وللتدليل على ذلك نورد المثـال الآتى لتطبيق احد الفروع الرياضية الحديثة نسبياً (ونعنى بذلك نظرية الأشكال graph theory) فى مجال نظريـة التنظيم Organization theory .

تبحث نظرية التنظيم فى الطرق التى تتكون بهـا مجموعات من البشر فى مجالات مختلفـة . ونقدم فيما يلى مشكلة مبسطة فى نظرية التنظيم ،ثم نذكر بعض المبادىء الأساسية لنظرية الأشكال ونطبقها على المشكلة محل الاعتبار .

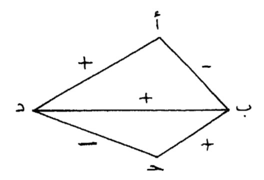
سنعتبر أن اى عضوين فى بنـاء اجتماعى معين تربطهما علاقة واحدة ، وان هذه العلاقة اما أن تكون مُرضية ، غير مُرضية، أو محايدة . العلاقة المُرضية قد تعنى أن العضوين يحبان بعضهما، أو يعتنقان آراء متماثلة أو يمكن أن يعملا معاً . عكس هذه الصفات يحدد العلاقة غير المُرضية . واذا كانت العلاقة لا توصف بانها مرضية أو غير مرضية ، سنسميها محايدة . والفرض هنا هو تحديد بعض المعايير التى يمكن اذا توفرت لبناء اجتماعى معين اعتباره متوازناً balanced **طبقاً** لمفهوم معين .

نظرية الأشكال تناسـب تماماً الصـياغة الدقيقة لمشاكل البنى الاجتماعية . والشـــكل graph هو مجموعة من الأشياء نسـميها نقطاً points ، ووصلات بين هذه النقط نسـميها خطوطاً lines . سنرمز للنقط بالحروف أ ،ب ، جـ ، .... وللخطوط بحرفين بين قوسين ، فمثلاً (أ ، ب) . ترمز للخـط الـذى يربـط النقطتين (أ) و (ب) ، وفى شكل عادى يتحدد الخط بنقطتين ، وعلى هذا فان (أ ، ب) هـو بالضبط (ب ، أ) . واذا كان الشكل يحتوى على خط (أ ، ب) ، نقول ان (أ) و (ب) نقط متجـاورة adjacent . والمسـار path بين النقطتين أ و ب هو متتالية من الخطوط « (أ ،جـ) ، (جـ ، د) ، .... (هـ ، و) ، (و ، ب) » حيـث النقط جـ ، د ، .... ، هـ ، و ، نقط متميزة distinct ومختلفة عن أ و ب .

واذا كانت أ = ب فالمسار يسمى دورة cycle . فمثلاً الشكل التالى يتكون من أربع نقط وخمسة خطوط .

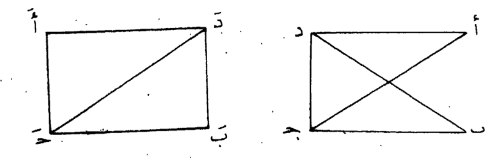


كذلك « (أ ، ب) ، (ب ، د) ، (د ، جـ) » تمثل مساراً من أ الى ب . وهناك نوع خاص من الأشكال وهو الشكل ذو الاشارات signed graph ، وهو شكل عادى الا أن الخطوط فيه قد تكون موجبة أو سالبة مثل الشكل التالى :



يُسمى المسار فى الشكل ذى الاشارات موجباً اذا كان عدد الاشارات السالبة على المسار زوجياً ، وسالباً اذا كان عدد الاشارات السالبة على المسار فردياً . فمثلاً المسار « (أ ، د) ، (د ، جـ) » سالب ، والمسار « (أ ، د) ، (د ، ب) ، (ب ، جـ) » موجب .

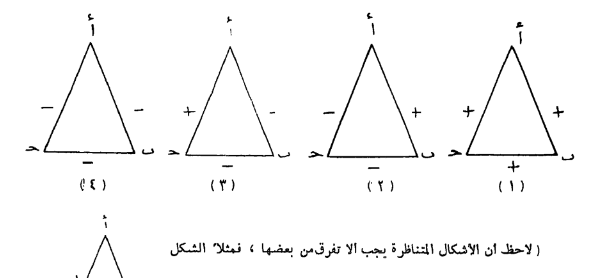
أخيراً ، يقال لشكلين ش ، شَ انهما متناظران isomorphic اذا كانت هناك علاقة تناظر وحيد one-to-one correspondence بين نقط ش و شَ بحيث تحفظ علاقات التجاور بين النقط . وبمعنى آخر ، يكون ش و شَ متناظرين اذا كان من الممكن تسمية نقط ش أ ، ب ، جـ ، ...... ، ونقط شَ أَ ، بَ ، جَ ، ...... ، و بحيث يوجد الخط (د ، ع) على ش اذا كان ، وفقط اذا كان ، الخط (دَ ، عَ) على شَ ، مثلاً الشكلان الآتيان متناظران .



ونظرية الأشكال تدرس خصائص الأشكال التى لا تتغير للأشكال المتناظرة ، بمعنى آخر خصائص الشكل ش التى تكون صحيحة لكل الأشكال شَ المتناظرة معه .

لا شك ان الأشكال ذات الاشارات تعدُ وسيلة ملائمة للصياغة الرياضية للعلاقات المرضية وغير المرضية فى أى بناء اجتماعى . فأعضاء البناء الاجتماعى يمكن تمثيلهم بنقط ، والعلاقة المرضية بخط باشارة موجبة ، والعلاقة غير المرضية بخط اشارة سالبة ، واذا لم يوجد خط بين النقطتين تُعتبر العلاقة محايدة .

فمثلاً فى حالة ما اذا كان لدينا ثلاثة افراد وليس احد منهم محايداً مع الآخر فانه يمكن تمثيل العلاقات الممكنة بينهم بالأشكال الأربعة الآتية :



(لاحظ ان الأشكال المتناظرة يجب الا تفرق من بعضها ، فمثلاً الشكل

يناظر الشكل الثالث وبالتالى لا يوجد داع لدراسته فى حد ذاته) .

فى الحالة (١) كل الأطراف تتمتع بعلاقات مرضية ويمكن أن نعتبر هذا الموقف متوازناً . فى الحالة (٢) ب و جـ يتمتعان بعلاقة مرضية مع أ ولكن علاقتهما معاً ذات طبيعة مختلفة ونعتبر هذا موقفاً غير متوازن . فى الحالة (٣) أ و جـ يتمتعان بعلاقة مرضية وكلاهما يكره ب ونعتبر هذا موقفاً متوازناً . وفى الحالة (٤) كل من أ و ب يكره جـ ولكنهما لا يستطيعان تكوين تحالف بينهما لانهما يكرهان احدهما الآخر ونعتبر هذه أيضاً موقفاً غير متوازن .

وهنا نلاحظ ان مجرد صياغة المشكلة باستعمال نظرية الأشكال مكننا من وضع تعريف دقيق لمعنى التوازن بسرعة . وبالاضافة الى هذا نلاحظ ان كل شكل يتكون من دورة واحدة ، وأن الدورة تكون موجبة فى الحالات التى وصفناها بالتوازن وسالبة فى الحالات التى وصفناها بعدم التوازن . وهذا أدى الى اقتراح التعريف التالى : « الشكل المتوازن تكون كل دورة فيه موجبة » .

والآن نقدم ــ بدون اثبات ــ نظرية اساسية فى دراسة الأشكال ، وهى نظرية البناء structure theory التى تعطينا معياراً لتحديد ما اذا كان شكل معين متوازناً . وتقوم النظرية على تعميم فكرة المسار ــ حيث افترضنا أن المسار لا يمر على اى نقطة عليه اكثر من مرة ــ الى متتالية الخطوط line-sequence ــ بين نقطتين أ و ب حيث يمكن أن تمر متتالية الخطوط بنقطة عليها اكثر من مرة . واذا كانت أ هى ب فان متتالية خطوط بينهما تسمى متتالية خطوط مقفلة closed ، وهى التعميم الطبيعى للدورة . وفيما يلى منطوق النظرية :

الشروط الأربعة الآتية متكافئة :

١ ــ الشكل متوازن (كل دورة موجبة) .

٢ ــ كل متتاليات الخطوط المقفلة موجبة .

٣ ــ اى متتاليتين لخطوط بين اى نقطتين لهما نفس الاشارة .

٤ ــ كل النقط فى الشكل يمكن تقسيمها الى مجموعتين منفصلتين A ، B بحيث أن كل خط موجب يربط نقطتين داخل احدى المجموعتين ، وكل خط سالب يربط نقطتين كل واحدة منهما فى احدى المجموعتين .

وبالاضافة الى أن نظرية البناء تمكننا من التوصل الى عدة معايير متكافئة للتوازن فى المجموعات فهى تجيب على سؤال ذى أهمية خاصة فى مجال العلوم السياسية ويتعلق بتوافق هيئة سياسية أو تشريعية معينة مع نظام الحزبين . فالشرط الرابع فى النظرية هو الصياغة الرياضية الطبيعية لهذه المسألة . فحوى هذا الشرط بالنسبة لهيئة تشريعية متوازنة ــ طبقاً للتعريف المقترح ــ أن اعضاءها يمكن تقسيمهم الى مجموعتين ــ يمكن التفكير فيهما على أنهما حزبان ــ بحيث يكون التعاون ممكناً بين اعضاء المجموعة الواحدة فقط ــ اى تسود بينهم علاقات مرضية ــ وتحدث المعارضة القوية ــ اى تسود علاقات غير مرضية ــ بين اعضاء المجموعتين . اى أن التعريف المقترح للتوازن ــ كل دورة موجبة ــ ونظرية البناء يؤديان الى أن هيئة تشريعية معينة تكون متوازنة اذا كانت ــ وفقط اذا كانت ــ متوافقة مع نظام الحزبين .

● ● ●

ثالثاً ــ نظرية المباريات Game theory

تعد نظرية المباريات من أكفأ الأساليب التى تقدمها العلوم الرياضية الحديثة لدراسة السلوك الانسانى آخذة فى الاعتبار الخصائص الرئيسية لمفهوم العقلانية فى التصرف rationality ، ويُرجى منها النفع الكثير فى مجال التطبيق فى العلوم الانسانية . وجوهر نظرية المباريات هو دراسة الخصائص الأساسية العملية التى يتبارى فيها أكثر من طرف فى ظروف تكون فيها نتيجة اى تصرف من قبل احد الأطراف غير مؤكدة بهدف تحقيق نتائج معينة بغض النظر عن الاطار الطبيعى الذى تحدث فيه هذه العملية . فمثلاً ، القواعد الاحتمالية التى تحكم نتيجة رمى قطعة عملة

ــ صورة أو كتابة ــ تحكم اى موقف آخر يمكنان تكون نتيجته احد وجهين متنافيين (مطر او لا مطر فى يوم من الأيام ، نجاح أو رسوب فى اختبارمعين ، وهكذا ...) .

ونظرية المباريات تقتصر على نوع معين من الالعاب (٣) ، ذلك الذى يكون التعارض conflict عنصراً أساسياً فيه . وهذا النوع من الألعابيختلف عن العاب الحظ ــ التى تناقشها نظرية الاحتمالات . ويمكن القول بأن نظـرية المبارياتتتعلق بتصرفات اثنين او أكثـر من الخصـــوم الأذكياء .

لضرب مثـال مبسـط نعتبر المباريات غيرالصفرية ، أو التى يختلف مجموعها عن الصفر non-zero-sum games . فى هـــذه المباريـــاتمكسب أحد الأطراف لا يساوى دائماً خســارة الآخرين ، ولهذا فان مكاسب كل منهم تدخل فىتركيب المصفوفة التى تعطى العلاقة بين مكاسب الأطراف والاستراتيجيات المختلفة التى يمكن انيتبعها كل منهم pay-off matrix . وزيادة فى التبسيط نعتبر مباراة بين طرفين فقط ، ولنرمزلهما بالحـرفين أ ، ب ، ونفترض ان لكل منهما الخيار بين استراتيجيتين فقط نرمز لهما بالرموزأ ، أ ، ب ، ب . تحتوى خلايا المصفوفة التالية على مكسب أ ثم مكسب ب على الترتيب فى كل اختيار ممكن للاســتراتيجيات ، حيـث يقاس المكســب بمقيـــاس معين للمنفعـة utility ،والمكسب السالب يعبر عن خسارة المنفعة .

أ / ب	أ ١	أ ٢
ب ١	(٩ر٩)	(— ١٠ر١٠)
ب ٢	(١٠ر — ١٠)	(— ٩ر — ٩)

فمثلاً اذا اختار كل من الطـرفين الاستراتيجيــة الاولى المتاحـة له كســب كل منهما ٩ وحدات ، واذا اختار أ الاســتراتيجية الثانية و ب الاستراتيجية الاولى خسر (أ) ١٠ وحدات وكسب (ب) ١٠ وحدات ، وهكذا ...

وهنا نلاحظ انه اذا اختار كل من اللاعبيناستراتيجية على اساس تقليل خسائره الى اقل حد ممكن مهما كانت استراتيجية الطرف الآخر ــ كما هو متبع فى المباريات الصــفرية أو التى يســاوى مجموعها الصـفر zero-sum games حيث مكسب كل طرف يُعد خسارة للآخرين ــ فسيؤدى الأمر بكل منهما الى خسارة ٩ وحدات، ، فى حين انه لو اختار كل منهما الاســتراتيجية الاولى المتاحة له لكسب كل منهما ٩ وحدات .

الاسم التقليدى لهذه المباراة هو ((معضلةالســجينين prisoners' Dilemma)) وصـــفاً للموقف الذى يستجوب فيه كل من سجينين ،شريكين فى جريمة ، على انفراد وهو يتساءل بينه وبين نفسه اذا كان الســجين الآخر قد اعترفعليــه . اذا وثق كل منهما بالآخـر ولم يعترف

---

(٣) الترجمة العربية ((نظرية الالعاب)) توحى بانالنظرية تنطبق اساساً فى مجالات الترفيه والترويح ، وهذا غير صحيح اذ توجد للنظرية تطبيقات فى غاية الجدية .

لا تثبت الجريمة على أيهما ، ولكن اذا اعترف كل منهما على الآخر أملاً في عقاب مخفف لنفسه انتهى الأمر بثبوت التهمة عليهما معاً .

ولكنه من الواضح أن هذه المباراة تصف مواقف اخرى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال سباق التسلح وتقييدات التعريفات الجمركية بين الدول ، فكل من الطرفين المعنيين يبدو وكأنه يتصرف لتحقيق مصلحته الخاصة بأن يكون أقوى من الطرف الآخر أو أن يحقق فائضاً في ميزان المدفوعات وتكون النتيجة أن يتكبد كل من الطرفين الكثير من التكاليف بدون أن ينتج عنها بالضرورة مزيد من الطمأنينة أو فائض في ميزان المدفوعات . فالمباراة غير الصفرية تعتبر نموذجاً مصغراً للدراما الانسانية للتعاون وتعارض المصالح وهى خير تعبير عن أن المصلحة الجماعية ليست فقط مجموع المصالح الفردية .

وجدير بالملاحظة أن نظرية المباريات لا ترمي الى وصف كيف يتصرف البشر في مواقف فعلية في حياتهم او حتى في ممارسة الألعاب ، ولكنها ترمى الى اكتشاف المنطق الكامن في عمليات معينة مشتركة بين المباريات والحياة الواقعية . فنظرية المباريات تناقش كيف يتصرف الأطراف المعنيون اذا توفرت الشروط الآتية :

١ ــ اذا كانت مصالحهم محددة بطريقة لا تقبل الشك ، بمعنى آخر يمكن لهم أن يقرروا دائماً في كل موقف يتضمن تصرفات بديلة ومخاطر متعلقة بكل تصرف أى تصرف يفضلونه .

٢ ــ اذا كان يمكن لهم أن يستخدموا كل المعلومات المتاحة لهم وحساب النتائج الحقيقية في المواقف المؤكدة (غير الاحتمالية) deterministic والنتائج المتوقعة في المواقف غير المؤكدة (الاحتمالية) stochastic .

٣ ــ اذا كانت القواعد التى تحكم تسلسل ومدى التصرفات المسموحة بها ثابتة ومحددة صراحة .

وفى الحياة العملية لا تتوفر الشروط الثلاثة السابقة على الاطلاق . فالناس لا يعرفون ما يريدون ، ذلك أن ردود الفعل المحتملة لتصرف معين يمكن أن تكون أكثر من أن تحصر ــ دع جانباً حساب نتائجها ــ كما أن القواعد التى تحكم التصرفات البشرية غامضة وتتغير من الزمن .

وهذا يجعلنا نتساءل ، ما هى اذن القيمة الفعلية او التطبيقية لنظرية المباريات ؟

والجواب على هذا التساؤل هو ان نظرية المباريات توفر لنا نقطة انطلاق أساسية للدراسات النظرية في مجال السلوك الانسانى العقلانى ببناء نماذج مجردة غاية في البساطة لنواح معينة من السلوك الانسانى . ولعلنا نتذكر كيف بدأت الدراسات الرياضية في العلوم الطبيعية ، فقد كانت كلها تتميز باشتراط ظروف مثالية لا تتوفر على الاطلاق في الطبيعة (سطوح ملساء تماماً ، فراغ مطلق ، أجسام صلبة ذات كثافة منتظمة تماماً ، الخ ...) ولكن بدون هذه البدايات ما كان يمكن للعلوم الطبيعية أن تزدهر . على انه يمكن أن نتوقع ان الرحلة للمعرفة المتعلقة بالانسان

ستكون أطول كثيراً من الرحلة للمعرفة المتعلقة بالمادة الصماء ، نظراً لتعقيد السلوك الانسـانى ، ولكن كان لا بد لهذه الرحلة من ان تبدأ .

والخلاصة هى أن نظرية المباريات ما زالت فى المهد وأن ما تتناوله بالبحث لا زال مباريات مبسطة جدا . وهذا ليس عيباً ما دامت المباريات التى تدرس تحتوى على المعالم الاساسية للمواقف التى نحاول تحديدها ، وهنا تبدو اهمية القدرة على التفرقة بين ما هو أساسى وما هو تافه فى موقف معين . كما انه من الممكن تطوير هـذه المباريات وزيادة طاقتها الوصـفية او التنبؤية باضافة متغيرات جديدة أو تعديل علاقات معينة او عن طريق استحداث الطرق والأساليب الرياضية والملائمة للترييض فى العلوم الانسانية . فالرياضة التحديدية deterministic التى احرزت نجاحاً باهراً فى الطبيعة ، ونظرية الاحتمالات التقليدية التى استعملت بكفاءة عالية فى دراسة المواقف التى تعتمد على الحظ فقط ، لا تكفيان لدراسة نواح كثيرة معقدة فى السلوك الانسانى .

• • •

رابعاً ـ علم الاحصاء statistics

تمثل الطريقة الاحصائية ، كأداة من أدوات البحث ، قمة الموضوعية objectivity والعمومية .
فعلى الرغم من ان الرؤية البدهية intuitive insight هى مصدر هام لاستحـداث الفـروض والنظريات العلمية ، الا انها ليست كافية للوصول الى قرارات موضوعية عن السلوك الانسانى . وهذا راجع طبعاً الى أن البديهة خاصية فردية وبالتالى تختلف من شخص الى آخر . وكثير من البحث فى العلوم الانسانية كان يبنى على هـذا الأساس الشخصى مما نتج عنه المدارس الفكرية المختلفة فى اى فرع من فروع العلوم الانسانية . ولو ان الطريقة التداولية deliberative فى البحث العلمى والتى تحدد الأفكار والمبادىء الأساسية فى أى فرع من العلوم الانسانية عن طريق اتفاق كبار علماء هذا الفرع تشكل قيداً على الرؤية البدهية الشخصية ، الا أنها لم تؤد دائماً الى مبادىء تتحقق صحتها بطريقة موضوعية وعامة .

والمفهوم التقليدى للاحصاء هو طريقة موضوعية لدراسـة المجتمعات populations أو مجموعات كلية من الأفـراد aggregates . وعلى هـذا يمكن اعتبار الاحصـاء طـريقة دراسـة التغـير variation ، لأن مجموعة من الأفـراد المتماثلين تماماً فى كل خصائصهم يمكن دراستها دراسة كاملة بدراسة اى فرد من افرادها . وقد جرى العرف على تقسيم الاحصاء الى فرعين :

١ ـ **الاحصاء الوصفى descriptive** وهو يتعلق بكيفية وصف مجتمع معين او ضغط البيانات reduction of data المتوافرة عـن هـذا المجتمع فى صورة أكثر وضوحاً واعلاماً عن خصائصه الأساسية .

٢ ـ **الاستنتاج الاحصائى Inference** ، وينطوى على استنتاج أو تعميم generalization لخصائص مجموعة او مجموعات كلية معينة بناء على المعلومات التى يحصـل عليها من مجموعة جزئية أو عينة sample عنهـا .

وقد استولى الاستنتاج الاحصائى علـىاهتمام الاحصائيين نظراً لأهميته ، ولهذا كثيراً ما يطلق على الاحصاء علم المعاينة sampling ، وعادة ينقسم الى قسمين أيضاً :

أ ــ التقدير الاحصائى estimation وفيه تقدر خصائص مجموعة ، أو مجموعات كلية معينة بمقدرات تحسب من عينة من المجموعات الكلية تحت الدراسة .

ب ــ اختبار الفــروض الاحصــائية testing of hypotheses ، ويقصد به اختبار فــروض معينة عن خصائص مجموعة ، أو مجموعات كلية معينة باستخدام معايير تحســب من عينة من المجموعات تحت الدراسة . والفكرة الأساسية هنا هى مضاهاة ما يشاهد فى العينة بما يتوقع أن يشاهد تحت الفرض المقترح للاختبار طبقاً لمعيار الاختبار . فاذا كانت درجة المضاهاة « قلية » يتم « رفض » الفرض المقترح و « يقبل » اذا كانت درجة المضاهاة « عالية » . وأحياناً يتخذ قرار ثالث بأنه لا توجد معلومات كافية للحكم على مدى معقولية الفرض وبالتالى يؤجل الحكم لحين توافر معلومات أكثر .

وهنا نؤكد أن « قبــول » أو « رفض » الفرض المقتــرح فى اختبار احصــائى يختلف اختلافاً كلياً عن مفهوم الاثبات والنفى فى الرياضة . فاثبات صحة فرض فى الرياضــة يقتضى كونه صحيحاً تحت كل الظروف والأحوال. ويكفى لاثبات عدم صحة فرض معين ضرب مثال واحد لا ينطبق فيه .

ولكن رفض فرض مقترح كنتيجة لاختبار احصائى معين لا يعنى القطع بعدم صحة هــذا الفرض ، ولكن فقط ان بيانات العينة تؤيد هذا الفرض بدرجة ثقة معينة . بمعنى آخر يمكن أن يكون الفرض صحيحاً ولكن العينة باعتبارها جزءاً فقط من مجموعة كلية ، لا تظهر هذا ، وبالتالى اذا تصرفنا وكأن الفرض غير صحيح فيجب أن نعلم أن هناك احتمالاً لأن يكون هذا التصرف مبنياً على أساس خاطىء . ونظرية الاحتمالات تمكننا فى كثير من الحالات من أن نحسب حدوداً لهذا الاحتمال ، والنظرية الاحصائية تقدم لنا من الوسائل ما يكفل أن يكون احتمال هذا الخطأ فى حدود معينة أو أقل ما يمكن . كذلك قبول فرض مقترح كنتيجة لاختبار احصائى لا يعنى القطــع بصحة هذا الفرض .

وعلى هذا فان اختبار الفروض الاحصائية لا يؤدى الى اثبات صحة أو خطأ فرض معين وانما الى « قبول » أو « رفض » الفرض مع معرفة أنه فى أى الحالتين يوجد احتمال خطأ معين ــ قبول فرض خاطىء أو رفض فرض سليم ــ ونظرية الاحصاء تمكننا من تصميم الاختبارات التى تقلل احتمال هذه الأخطاء الى أقل مدى ممكن أو تجعلها فى حدود معينة .

ومما تقدم تتضح لنا جلياً فائدة الاحصاء فى اثنين من مكونات الطريقة العلمية وهما الاستقراء induction والتحقيق verification .

ونضرب مثالاً على استخدام الاحصاء فى العلوم الانسانية بالمعالجة الاحصائية للمشــاكل اللغــوية وبالــذات ما يســمى بالمشــكلة الهــومرية homeric question وبالتحديد ما اذا كانــت الالياذة Iliad تمثل عمل شخص واحد (هومروس) أو هى عبارة عن مجموعة من أساطير الأبطال المتناقلة شفوياً . وقد ظلت هذه المشكلة مطروحة للبحث والجدل منذ العصر الهيلليني

وشارك فيها علماء اللغات القديمة وكثير من اعلام الادب والفكر ، وصدر عليها عديد من الكتابات التى تتراوح الآراء فيها ما بين النفى القاطع لكون الالياذة من عمل شخص واحد وبين التأكيد على انها فعلاً من انتاج شخص واحد .

واخيراً حلت هذه المشكلة بطريقة مقنعة بوساطة عالم لغة أمريكى باستعمال الطرق الحديثة فى احصاء اللغات حيث يفحص العمل الأدبى ليس لمحتواه او تكوينه الجمالى ولكن طبقاً لمجموعة من الخصائص التى يمكن تحديدها موضوعياً أو بالتالى رقمياً . مثل هذه الخصائص يمكن أن تكون التكرار النسبى للكلمات التى تتكون من مقطع واحد ، أو اثنين ، أو ثلاثة ، ... وعموماً (ن) مقطع ، أو التكرار النسبى لعدد المقاطع المنغمة accented فى جزء معين من العمل الأدبى ذى طول معين . وبتحديد مجموعة أساسية من مثل هذه الخصائص يمكن تمييز اسلوب الكاتب بالقيم العددية للدلائل التى تقيس هذه الخصائص . وعلى هذا الأساس يمكن معرفة ما اذا كان قصيدان شعريان بالالياذة من عمل مؤلف واحد بناء على ما اذا كان لهما نفس الخصائص العددية . **وباجراء هذه الاختبارات على الالياذة توصل العالم الأمريكى الى انها من عمل مؤلف واحد ، اذ كانت الخصائص الرقمية لاسلوب الكتابة متقاربة بما يكفى فى كل اجزائها . ومن المهم أن هذه النتيجة تتفق مع نتيجة كثير من الدراسات الفنية الحديثة للأدب الاغريقى .**

ومما لا شك فيه أن المحاولات التقليدية لحل المشكلة الهوميرية نتجت عنها تأملات عميقة فى عمل هوميروس والعصر الذى عاش فيه، وبالمقارنة فان الاسلوب الاحصائى قد يبدو وحشياً أو بربرياً من وجهة النظر الجمالية للعمل الأدبى . ولكن يجب أن نلاحظ أن الهدف من الاسلوب الاحصائى كان ايجاد حل فقط وانه فى حل المشكلة بالطرق التقليدية تمت دراسات هى فى حد ذاتها اهم من حل المشكلة من الناحية الأدبية .

والتصور الحديث للاحصاء ، تبعاً لابراهام والد Wald ، هو كيفية اتخاذ القرارات فى الظروف غير المؤكدة decision making under uncertainty ، وعلى هذا فان مدى تطبيقه يشمل كل العلوم الاستنتاجية ويمتد الى المواقف التى يواجهها البشر فى حياتهم اليومية .

وهناك تفرقة أساسية بين نوعين من المواقف غير المؤكدة بناء على طبيعة عدم التأكد التى ترجع الى عنصر العشوائية أو الاحتمالية randomness فى هذه المواقف . اذ نفرق بين المواقف التى تكون فيها القوانين التى تحكم العشوائية laws of randomness معروفة ، والمواقف ــ الأكثر تعقيداً ــ التى تكون فيها القوانين التى تحكم العشوائية غير معروفة . (فى المصطلحات الاحصائية تسمى القوانين التى تحكم العشوائية « حالة الطبيعة » state of nature) .

ولنأخذ مثالاً مبسطاً ونفترض ان شخصاً عرض عليه أن يرمى قطعة عملة بحيث يدفع له جنيه اذا ظهرت الصورة ويدفع هو جنيهاً اذا ظهرت الكتابة . والقرار الواجب اتخاذه هو هل يقبل الرهان أم لا ، وعنصر العشوائية هنا ناتج من أن نتيجة رمى قطعة العملة غير مؤكدة قبل رميها . ولكن يمكن ان نفرق بين حالتين ، فى الحالة الاولى يعلم الشخص ان قطعة العملة غير متحيزة ، وعلى هذا فان نتيجة الرمية اما صورة أو كتابة باحتمال متساو قدره ١/٢ ، ويمكن للشخص أن يقبل الرهان على أساس أنه عادل . وفى الحالة الثانية لا يعرف الشخص احتمال ظهور أحد الوجهين (اذا عرف احتمال ظهور احد الوجهين عرف احتمال ظهور الوجه الآخر

لأن مجموع الاحتمالين يساوى واحداً) ولا بد من أن يفترض أن احتمال ظهور الكتابة مختلف عن احتمال ظهور الصورة وبالتالى من غير المعقول أن يقبل الرهان قبل الحصول على معلومات أكثر . ولكن ما الذى عمله فى هذه الحالة ؟

اذا كانت حالة الطبيعة مجهولة يجرى الاحصائى ـ اذا أمكن ـ تجربة الهدف منها تقدير حالة الطبيعة أو القانون الذى يحكم العشوائية ـ احتمال ظهور احد الوجهين فى المثال . وقد تكون التجربة هنا هى رمى قطعة العملة عدداً معيناً من المرات . ولكن تواجهنا أسئلة اخرى مثل عدد المرات التى يجب اجراء هذه التجربة فيها حتى نحصل على تقدير جيد لاحتمال ظهور أحد الوجهين (مفترض هنا أن جودة التقدير ستزيد كلما زاد عدد اجراء التجربة) . ومن الواضح ان اجابة هذا السؤال تعتمد على تكلفة اجراء التجربة من ناحية وعلى تكلفة اتخاذ قرار سليم من ناحية اخرى . ومن المهم ان نتحقق من انه مهما زاد عدد مرات اجراء التجربة فانه ليس معنى هذا اننا سنعلم حالة الطبيعة بتأكد تام ولكن باستعمال نظرية الاحتمالات يمكننا وضع حدود لمدى عدم تأكدنا من حالة الطبيعة .

ونؤكد أن مثال الرهان على نتيجة رمى قطعة العملة ، وهو المثال التقليدى فى نظرية الاحتمالات ـ ليس الا تجريداً لمواقف عملية كثيرة يكون القرار فيها معتمداً على المفاضلة بين المكسب والخسارة التى تنتج من تصرف معين يكون نتيجته أحد موقفين من موقفين متنافيين (حرب أو لا حرب ، رفع سعر سلعة معينة أو عدم رفعه ... الخ) . **كذلك يمكن تصور مشاكل اتخاذ القرارات فى نطاق نظرية المباريات على أنها مباريات ضد الطبيعة Games against nature .**

ويرى **تشيرنوف** و **موسز** Chernoff & Moses أن الطبيعة الأساسية لاتخاذ القرارات فى مشكلة معينة هى أن هناك عدداً من الأفعال المتاحة available actions ولنرمز لها أ ١ ، أ ٢ ، أ ٣ ، ... ـ فالمشكلة توجد فقط عندما يكون هناك اختيار بين افعال بديلة ـ ونتيجة اى من هذه الأفعال يعتمد على حالة الطبيعة ، والصعوبة فى اختيار أحد هذه الأفعال ترجع الى اننا نجهل أياً من حالات الطبيعة ط ١ ، ط ٢ ، ... هو المتحقق .

وتعتمد كيفية تحديد القرار الأمثل لفرد معين فى مشكلة محددة على انه ، تحت فروض معينة ، يمكن أن تحدد قيمة رقمية معينة لأى تصرف مرتقب prospect لهذا الفرد ، وهذه القيمة نسميها المنفعة ، وأنه يتخذ القرارات التى تؤدى الى جعل منفعته أكبر ما يمكن .

والمنفعة لا تعدو كونها مقياساً للقيمة value ولكنها تشمل مكونات مادية معينة (كالشهرة ، والسرور ، والحزن ، الخ ...) وبهذا تمتاز عن النقود مثلاً كمقياس للقيمة . ولو أن مشكلة قياس المنفعة لا تعد محلولة نهائياً فى النظرية او التطبيق الاحصائى ، الا انه بتوفر بعض شروط معينة (مثل امكانية وضرورة ترتيب المنافع للمرتقبات المختلفة بمعنى أن مرتقباً معيناً تكون منفعته أكبر من مرتقب آخر فقط اذا كان الشخص يفضل المرتقب الاول عن الثانى) يمكن اثبات انه توجد دالة منفعة تصف الاشباع الذى يستمده شخص معين من المرتقبات البديلة المتاحة له وتمكنه من اتخاذ القرارات فى المشاكل التى تواجهه .

ولاتخاذ القرار الأمثل فى مشكلة معينة نكون جـدولاً للخسـائر loss tagle ـ بمعنى خسارة المنفعة ـ أو نتائج التصرفات الذى يتضمن تكلفةاتخاذ اى من الأفعال أ ١ ، أ ٢ ، ... اذا تحققت كل حالة من حالات الطبيعة ط ١ ، ط ٢ ، ..

وبمعرفة جدول الخسائر يكون من السهل تحديد أفضل الأفعال اذا كانت حالة الطبيعة معروفة ، ولكن اذا كانت حالة الطبيعة المتحققةغير معروفة أو كان القانون الذى يحكم العشوائية غير معروف ، فانه يمكن تقديرها عن طريق اجراءتجربة يمكن أن ينتج عنها اى من المشاهدات م١ ، م٢ ، ... المرتبطة بحالة الطبيعة من حيث أن احتمال كل من هذه المشاهدات يعتمد على حالة الطبيعة المتحققة .

والعنصر الأساسى الأخير اللازم لحل المشكلةفى حالة عدم معرفة حالة الطبيعة المتحققة هـو مجموعة الاستراتيجيات المتاحة س١ ، س٢،...وكل استراتيجية عبارة عن قاعدة تحدد الفعل الذى يتخذ عند ملاحظة أى مشاهدة معينة .وتكون نهاية المطاف جدول الخسارة المتوقعـة expected loss table الـذى يبـين نتائـج الاستراتيجيـات المختلفـة فى صـورة خسـارة المنفعة لكل حالة من حالات الطبيعة . وفى ضوءهذا الجدول تحدد ما هى الاستراتيجية المثلـى (وليس الفعل الأمثل) . ومن المرغوب فيه أن نختار الاستراتيجية التى تعطى خسارة متوسطة قليلة ، وهناك أكثر من معيار للاختبار ولعـل أشهرها معيار «تقليل الخسارة العظمى minimax criterion » وهى تعنى اختيار الاستراتيجيةالتى تحقق الحد الادنى للنهايات العظمى للخسائر المتوقعة عند كل حالة من حالات الطبيعة .

ولناخذ مشكلة مبسطة لتوضيح المفاهيم الأساسية لنظرية اتخاذ القرارات ولتكن فى مجال الاستثمار فى سوق الأوراق المالية . أى حائزلأوراق مالية يواجه باستمرار مشكلة الاحتفاظ بهذه الأوراق التى يمتلكها فى مؤسسة معينة أوالتخلص منها بالبيع ، وقراره يتوقف بالطبع على حالة الطبيعةـ اى الموقف الاقتصادى للمؤسسةـ بالاضافة الى بعض اعتبارات اخرى ، ولكننا هنا سنركز على حالة الطبيعة .

يمكن أن نتصور الجدول الآتى لمنفعة شخص معين من التصرفات المختلفة المتاحة له فيما يتعلق بما يملكه من أسهم شركة معينة .

الأفعال / حالة الطبيعة	أ ١ : بيع الأسهم :	أ ٢ : الاحتفاظ بالأسهم
ط ١ : الموقف الاقتصادى للشركة سيىء	صفر	ـ ١٠
ط ٢ : الموقف الاقتصادى للشركة جيد	ـ ٥	٥

اذا كان المستثمر متأكداً من ان حالة الطبيعة (ط ١) هى السائدة فانه بالطبع سيبيع ، واذا كان متأكداً من ان حـالة الطبيعة (ط ٢) هى السائدة فلن يبيع .

ولكن اذا لم يكن المستثمر متأكداً من اي حالة من حالات الطبيعة هي السائدة ، ولكن امكنه بناء على معلومات معينة أن يقدر أن احتمال أن يكون الموقف الاقتصادي سيئاً هو ٣ر٠ واحتمال أن يكون الموقف الاقتصادي جيداً هو ٧ر٠ ، تكون خسارته المتوقعة (٤) هي :

(صفر × ٣ر٠) + (ـ ٥ × ٧ر٠) = ـ ٥ر٣ في حالة التصرف أ ١

و(ـ ١٠ × ٣ر٠) + (٥ × ٧ر٠) = ٥ر٠ في حالة التصرف أ٢

واذا اعتمد المستثمر على معيار تقليل الخسارة المتوقعة فانه بلا شك يختار ان يبيع الأوراق المالية .

ولكن المشكلة تزداد تعقيداً اذا لم يكن لدى المستثمر من المعلومات ما يمكنه من تقدير التوزيع الاحتمالي لحالات الطبيعة . وعليه في هذه الحالة ـ اذا أراد اتخاذ قرار رشيد ـ ان يجري تجربة لمحاولة تقدير حالة الطبيعة . ولتكن التجربة التي يقرر أن يجريها هي سؤال اثنين من الخبراء في سوق الأوراق المالية عن رأيهما في الموقف الاقتصادي للشركة التي يملك أسهمها . نتيجة هذه التجربة يمكن تلخيصها في متغير بسيط وهو عدد الخبراء الذين يرون ان الموقف الاقتصادي للشركة جيد ، ولنرمز له بالحرف ص . وواضح أن التجربة يمكن أن تؤدي الى احدى المشاهدات التالية :

ص = صفر ، ص = ١ ، أو ص = ٢

بناء على المشاهدة التي تنتج من التجربة سيقرر المستثمر ما اذا كان سيبيع الأسهم أو يحتفظ بها طبقاً لقاعدة أو استراتيجية معينة . ويمكن أن نتصور الاستراتيجيات الآتية :

١ ـ س١ : تباع الأسهم اذا كانت ص = صفر ويحتفظ بها اذا كانت ص = ١ أو ٢ .

٢ ـ س٢ : تباع الأسهم اذا كانت ص = صفر أو ١ ويحتفظ بها فقط اذا كانت ص=٢ .

٣ ـ س٣ : تباع الأوراق .

واضح أن الاستراتيجية الثانية أكثر تحفظاً من الاولى ، وأن الاستراتيجية الثالثة ليست معقولة نظراً لانها تتجاهل المعلومات التي يحصل عليها من التجربة . وطبعاً ليست هذه كل الاستراتيجيات المتاحة .

يبقى لنا الآن ان نربط بين حالات الطبيعة المختلفة والمشاهدات التي يمكن أن تنتج عن التجربة . اذا افترضنا أن الخبيرين يصلان الى أحكامهما مستقلين عن بعضهما وأن كلاً منهما يكون

---

(٤) اذا كان متغير احتمالي معين يأخذ القيم ص ١ ، ص ٢ ، ... ، ص ن باحتمالات قدرها ح ١ ، ح ٢ ، ... ، ح ن حيث ح ١ + ح ٢ + ... + ح ن = ١ فان القيمة المتوقعة للمتغير ص هي (ص ١ ح ١ + ص ١ ح ن + ... + ص ن ح ن) .

حكمه صحيحاً فى ٨٠٪ من الحالات ، فانه يمكن ببساطة حساب التوزيع الاحتمالى للمشاهدات المختلفة التى يمكن أن تنتج عن التجربة عن حالات الطبيعة المختلفة (٥) كما يلى :

قيمة ص		صفر	١	٢	المجموع
احتمال	ط ١	٠ر٦٤	٠ر٣٢	٠ر٠٤	١ر٠٠
قيمة ص :	ط ٢	٠ر٠٤	٠ر٣٢	٠ر٦٤	١ر٠٠

والآن نلخص المنفعة المترتبة على الاستراتيجيات المختلفة واحتمال حدوثها فى الجدول الآتى :

حال الطبيعة	المشاهدة	الاحتمال	الاستراتيجية		
			س ١	س ٢	س ٣
ط ١	صفر	٠ر٦٤	صفر	صفر	صفر
	١	٠ر٣٢	ـــ١٠	صفر	صفر
	٢	٠ر٠٤	ـــ١٠	ـــ١٠	صفر
ط ٢	صفر	٠ر٠٤	ـــ٥	ـــ٥	ـــ٥
	١	٠ر٣٢	٥	ـــ٥	ـــ٥
	٢	٠ر٦٤	٥	٥	ـــ٥

اخيراً ، يمكن من المعلومات السابقة حساب جدول الخسائر المتوقعة لكل استراتيجية من الاستراتيجيات الثلاث المتاحة ولكل حالة من حالات الطبيعة وعلى اساسه يختار المستثمر الاستراتيجية التى تحقق له اكبر منفعة ممكنة .

جدول الخسارة المتوقعة

الاستراتيجية / حالة الطبيعة	س ١	س ٢	س ٣
ط ١	ـــ٣ر٦	ـــ٠ر٤	صفر
ط ٢	٤ر٦	٤ر١	ـــ٥ر٠

فمثلا اذا اخذ المستثمر بمعيار اختيار الاستراتيجية التى تقلل خسائره الى اقل حد ممكن فمن الواضح انه يجب أن يختار س ٢ (لاحظ أن اختيار س ٣ يؤدى الى خسارة قدرها ـــ٥ر٠ اذا ما كانت ط ٢ هى المتحققة) .

ويجب أن نؤكد ان المثال الذى عرضناه مبسط جداً وأن نتائجه تعتمد على القيم الرقمية التى استخدمت فى المثال .

●●●

(٥) باستخدام التوزيع الاحتمالى ذى الحدين أو القواعد الاساسية لنظرية الاحتمالات .

خامساً ــ تحليل (بحوث) العمليات Operations Analysis (Research)

منذ قديم الزمان وجدت الفكرة أن العالم يمكن وصفه والتصرف فيه عقلانياً ، ولكن حتى عهد قريب كان للتحليل العقلانى دور ضئيل فى تصريف الامور الهامة فى حياة المشروعات والدول. فرؤية insight منظم المشروع كانت المعول الأكبر لنجاحه ، والقدرة العسكرية للقائد هى التى تكسب المعارك ، وحنكة السياسى هى التى ترسى دعائم السلام فى الدولة ، وكان دور العلم مقتصراً على وصف العالم بدقة وكمال بقدر الامكان .

تحليل العمليات يدين وجهة النظر هذه ويقترح نطاقاً واسعاً جداً من الشئون الانسانية تخضع للتحليل والتحكم العقلانى ، ويهتم أساساً بالبحث عن طرق أفضل لتسيير العالم .

وتعتبر بحوث العمليات بصورتها الحديثة وليدة الظروف القومية الحرجة التى مرت بها البلاد الغربية خلال الحرب العالمية الثانية حيث جمعت الحكومتان البريطانية والأمريكية مجموعات من العلماء فى تخصصات مختلفة على شكل لجان لدراسة واقتراح حلول للمشاكل المتعلقة بالمجهودات الانسانية فى الحرب ــ مثل كفاءة التصويب على الأهداف فى الغارات ــ والصناعات الحربية بعد أن كان دور الطريقة العلمية مقصوراً على المشاكل الفنية والعلوم الطبيعية . وكان أحد الآثار الهامة للطريقة التى تكونت بها هذه المجموعات ظهور خاصية أساسية لبحوث العمليات فى كثير من الفروع العلمية الحديثة وهى ظاهرة البحث غير المقصور على فرع علمى واحد interdisciplinary ، ففى هذه المرحلة أخذ علماء الاحياء يفحصون مشاكل فى الالكترونيات ، وعلماء الطبيعة يدرسون حركة الجنود على ميدان المعركة بدلاً من حركة الجزيئات ، وعلماء الكيمياء يدرسون التوازن فى أنظمة غير كيميائية . ومن هذا النوع من العمل ظهرت حقيقة أن الأساليب التى تتبع فى دراسة الأنظمة والعمليات فى فرع علمى معين يمكن أن تستخدم بنجاح لحل مشاكل الأنظمة والعمليات خارج هذا الفرع . فالاتصالات داخل كتيبة عسكرية مثلاً لها نفس العوارض والمشاكل التى كانت تدرس فى الدوائر التليفونية . هذه الحقيقة أظهرت الحاجة الى فن تكنولوجى لدراسة الأنظمة والعمليات عامة يبنى على دراسات الأنظمة والعمليات فى كافة الفروع العلمية ، وهذه كانت أساس بحوث العمليات ونتجت عنها الطبيعة التى تتعدى فروع العلم الواحد لبحوث العمليات .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ استخدام وسائل بحوث العمليات فى الانتاج الصناعى المدنى بعد أن ثبتت فاعليتها خلال الحرب وزاد الوعى بها باضطراد .

ويعرف **تشرشمان** Churchman **وأكوف** Ackoff **وأرنوف** Arnoff بحوث العمليات بأنها « **تطبيق الطرق والأساليب والأدوات العلمية على المشاكل المتعلقة بتشغيل نظام** system **بهدف امداد الذين يحكمون هذا النظام بحلول مثلى لهذه المشاكل** » .

ولعل أساس الطريقة العلمية هو عنصر التجريب experimentation ، وقد واجهت بحوث العمليات ، خاصة فى بدء تطبيقاتها المدنية، المشكلة الآتية : هل يمكن اخضاع نظام قائم له

اهداف انتاجية معينة لعملية التجريب بهدف حل احدى مشاكل هذا النظام ؟ واضح ان التجريب على النظام يمكن أن يؤدى الى الاخلال بأهدافه الانتاجية !

وفى مواجهة هذه المشكلة يظهر احد المفاهيم الأساسية لبحوث العمليات وهو ان بحوث العمليات لا تجرب بالنظام نفسه ولكن بنموذج model للنظام ، والنموذج لايقصد به تمثيل طبيعى للنظام ولكن قد يكون نموذجاً رياضياً او تمثيلاً تجريدياً له بعض الخصائص الأساسية للنظام الذى يدرس .

وتعد البرمجة الخطية Linear programming من الفروع الهامة فى تحليل العمليات . والمشكلة القياسية التى تناقشها البرمجة الخطية هى ايجاد مجموعة من الأعداد س١ ، س٢ ، ....، سم التى تحقق النهاية العظمى (أو الصغرى) لدالة خطية linear function فى المتغيرات س ١ ، س ٢ ، س م تسمى دالة الهدف objective function مع الخضوع لمجموعة محدودة من القيود Constraints التى يتمثل كل منها فى كون دالة خطية در فى المتغيرات س١ ، س٢ ، .... ، سم اصغر من (أو اكبر من) مقدار ثابت ثر ، ر = ١، ٢، ..، ن.

وبعدد محدود من الخطوات يمكن معرفة ماذا كان للمشكلة حل ، واذا كان لها حل يمكن ايجاد كثير أضلاع يشمل كل النقط المسموح بها فى الفراغ الذى أبعاده س١ ، س٢ ، ... ، سم واحد رؤوس كثير الأضلاع هذا يعطى الحل المطلوب .

وكمثال على البرمجة الخطية نعتبر مشكلة النقل Transportation problem وهى عبارة عن تحقيق نهاية صغرى لنفقات شحن سلعة معينة تنتج فى كل من م مكان وتسوق فى ن سوق خضوعاً لقيود تتحدد بالانتاج السنوى فى كل مصدر والطلب السنوى فى كل سوق .

ولقد تطورت البرمجة الخطية فى اتجاهات مختلفة من أهمها البرمجة من الدرجة الثانية quadratic programming حيث تكون دالة الهدف التى يراد ايجاد نهاية عظمى أو صغرى لها من الدرجة الثانية ، والبرمجة الديناميكية dynamic programming ، حيث يدخل عنصر الزمن فى تركيب المشكلة ، والبرمجة الاحتمالية stochostic programming ، حيث يدخل عنصر احتمالى فى تحديد دالة الهدف أو القيود التى تخضع لها عملية ايجاد النهاية العظمى أو الصغرى الدالة الهدف ، وكل هذه التطورات تعالج مشاكل أكثر تعقيداً وأكثر مطابقة للواقع من البرمجة الخطية .

ونقدم فيما يلى عرضاً موجزاً لبعض الفروع العلمية التى تدخل فى نطاق تحليل العمليات بالمعنى الواسع وان كان بعضها يعتبر فى مكانة الفروع المستقلة حالياً .

تعتبر التطبيقات العملية **لنظرية الطوابير Queueing Theory** من أهم اضافات بحوث العمليات . وتقدم نظرية الطوابير نموذجاً للتنبؤ بسلوك نظام يقدم خدمات تبعاً لطلبات تنشأ عشوائياً أو احتمالياً . وكانت اولى المشاكل العملية التى طبقت عليها نظرية الطوابير هى

ازدحام خطوط المواصلات التليفونية ثم امتدت لتشمل شحن وتفريغ المراكب والطائرات ، وجدولة الأعمال المختلفة scheduling وخدمة الجمهور بمحلات البيع ، وكثيراً من المشاكل العملية الاخرى . ويمكننا تطبيق نظرية الطوابير من تقدير طول الطابور الذى يمكن أن ينتج والفترة التى يتوقع أن ينتظرها كل عميل قبل أن تقدم له الخدمة تحت ظروف معينة لطبيعة تكوين الطابور ومدة وطبيعة الخدمة المقدمة . وعلى هذا الأساس يمكن اتخاذ الاجراءات اللازمة لتقليل طول الطابور أو فترة الانتظار للحصول على الخدمة .

ولعل من أهم الدراسات الحديثة للأنظمة تلك المتعلقة بدراسة أنظمة التحكم control systems فى الأنظمة الانسانية والآلية والأنظمة المركبة من أنظمة انسانية وآلية وهى ما تسمى بالـ cybernetics وهناك مبدآن أساسيان فى هذه الدراسات وهما :

(١) المعلومات المردودة التى يستقبلها النظام كرد فعل للفعل معين له Information feed-back .

(٢) الاستقرار والتثبيت الذاتى Homeostasis باستعمال المعلومات المردودة لتعديل التمثيل الحيوى للنظام metabolism تبعاً للظروف البدئية المتغيرة بهدف تثبيت بعض المعالم الأساسية للنظام أو تحقيق اغراض اخرى له .

وبناء أو زيادة كفاءة نظام رد المعلومات والاستقرار الذاتى فى اى نظام يمكننا رفع مستوى التحكم فى هذا النظام ، ولهذا تطبيقات واضحة فى كافة مجالات النشاط الانسانى .

ودراسة التحكم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنظرية المعلومات Information theory أو الاتصالات communication اذ أن درجة التحكم فى نظام معين تتناسب طردياً مع كمية المعلومات المتوفرة عن هذا النظام (يفرق هنا بين البيانات والمعلومات من حيث أن المعلومات يمكن استخدامها مباشرة لاتخاذ قرارات متعلقة بالنظام فى حين أن البيانات تحتاج معالجة لتحويلها الى معلومات) . وهذا يؤكد اهمية نظرية المعلومات التى تدرس كيفية توصيل المعلومات عن نظام معين . ومن أبسط مبادىء نظرية المعلومات مبدأ « الزيادة redundancy » فى توصيل المعلومات. فأى رسالة تحمل قدراً معيناً من المعلومات يجب أن تتضمن كثيراً من المفردات الزائدة وغير الضرورية لجوهر الرسالة حتى تصل المعلومات الأساسية واضحة تماماً وخالية من الغموض . وهذا ناتج من انه من غير الممكن استيعاب كل المعلومات التى تتضمنها رسالة معينة ، وبالتالى فمن الضرورى اضافة بعض الحواشى لجوهر الرسالة حتى نضمن وصول هذا الجوهر .

وقد كان ابتكار تحليل الشبكات Network analysis أحد نتائج معرفة أن المعلومات ضرورية للتحكم فى أى نظام وأن هناك علاقة طردية بين كمية المعلومات ودرجة التحكم . وتحليل الشبكات هو أقوى الأساليب العلمية للتحكم فى عمليات التخطيط والجدولة المعقدة كبناء مصنع كبير او تخطيط تسويق سلعة أساسية ، ويهدف الى تخصيص الموارد المتاحة لاكمال مشروع محدد ذى طبيعة غير متكررة ، فى اقل وقت ممكن او باقل تكلفة ممكنة . ويقوم تحليل الشبكات على

تحليل كل المهام tasks اللازمة لاكمال مشروع معين أو تحقيق هدف معين والعلاقات التداخلية بين هذه المهام interconnections ومدى اعتمادها على بعضها البعض وتحديد المهام الحرجة التى يؤدى عدم اتمامها فى الوقت المناسب الى تكلفة كبيرة فى الوقت او المال ، وتسمى سلسلة المهام التى لها هذه الخاصية بالمسار الحرج critical path ، وبدهى أن المهام التى تقع على المسار الحرج هى التى يجب أن يوجه لها الاهتمام الأول القائمون على تنفيذ المشروع . ولعل أشهر الأمثلة على تطبيق تحليل الشبكات هو انتاج صواريخ بولاريس ، ويقال ان استعمال تحليل الشبكات انقص فترة الانتاج من سبع الى خمس سنوات .

●●●

سادساً – استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية Electronic computers

من المعروف ان حدوث تطور فى أحد مجالات المعرفة كثيراً ما يكون له تاثير واضح على بعض المجالات الاخرى ، ونحن نشهد حالياً ظاهرة هامة تتمثل فى تاثير التطورات المدهشة فى تصميم وتصنيع الآلات الحاسبة الالكترونية على البحث فى العلوم الطبيعية والانسانية وذلك ناتج من القدرة الحسابية المذهلة للحاسب الالكترونى ، من حيث السرعة والكفاءة ، بالاضافة الى امكانية تخزين كميات هائلة من المعلومات واستعادتها بسرعة فائقة ودقة متناهية باستعمال الحاسب الالكترونى .

فقد سمحت القدرة الحسابية للحاسب الالكترونى باجراء حسابات كانت تعتبر غير ممكنة قبل ذلك فى حدود الوقت والمجهود ، فالحاسب الالكترونى يمكنه القيام فى ثوان بعمليات حسابية كان يمكن أن تستغرق أسابيع من المجهود الحسابى المضنى – الذى يكثر فيه احتمال الأخطاء – من قبل ، كما ادت هذه القدرة الى استحداث طرق للتحليل ما كان يمكن التفكير فيها قبل وجود الحاسب الالكترونى نظراً لضخامة العبء الحسابى فى اجرائها .

كذلك أدت الطاقة التخزينية الضخمة للحاسب الالكترونى وسرعة استعادة المعلومات المخزونة الى تصميم أنظمة تخزين واستعادة المعلومات فى مجالات البحث العلمى ومجالات الادارة التى تعتمد على معالجة كمية كبيرة من البيانات باستمرار .

ولكن توليفة القدرة الحسابية الهائلة وطاقة التخزين واستعادة المعلومات الضخمة مع تنوع وسائل تقديم البيانات والمعلومات من الحاسب الالكترونى واليه هى التى تمثل القيمة الحقيقية للحاسب الالكترونى ونتج عنها امكانية معالجة مشاكل معقدة كثيرة التفاصيل ومتنوعة الجوانب ، ولعل أفضل استخدام لهذه التوليفة هو استعمال الحاسب الالكترونى فى تحليل السلوك الانسانى عن طريق اسلوب المحاكاة الذى سنتعرض له بشىء من التفصيل فى الجزء التالى .

ما سبق يتعرض لمساهمة عامة للحاسب الالكترونى فى مجال العلوم الانسانية ، ولكن طاقات الحاسب الالكترونى قد سخرت لاستخدامات متخصصة فى بعض العلوم

الانســانية . فمثلاً فى علم النفس يُســتخدم الحاسب الالكترونى فى التحكم فى تقديم المثيرات stimutus وتسجيل ومعالجة الاســتجابة لها ، وقد اثر هذا حتى فى تصميم المعامل النفسانية اذ يمكن اختبار أكثــر من شــخص subject فى نفس الوقت بتقديم نفس المثــير عن طــريق مجموعة من المحطات البعيدة remote stations التى يحكمها كلها حاسب الكترونى مركزى . بل كثيراً ما يستخدم الحاسب الالكترونى فى توليد المثيرات فى التجارب النفســانية ، فمثلاً تمت دراسة للاحساس بالعمق depth perception عن طريق عــرض أنمطة نقطيــة dot patterns مولدة بالحاسب الالكترونى على الأشخاص محل التجربة ـ ومن الممكن ايضاً أن يستعمل الحاسب الالكترونى لتقييم اســتجابة الأشــخاص محل التجربة النفسانية للمثيرات وتزويدهم بمعلومات عن هذا التقييم مما يتســبب عنه ادخال عامل ديناميكى تعليمى فى التجربة .

ولكن على الرغم من كــل الطاقات شــبه السحرية للحاسب الالكترونى ، يجب أن نتذكر دائماً أن الحاسب الالكترونى ليس الا آلة سريعة جداً تطيع التعليمات التى تُعطى لها حــرفياً ، وهذه التعليمات لها اهمية حرجة ، فالآلة تقوم بتنفيذ ما يصدر اليها من تعليمات فقط ، لا أكثر ولا أقل ، عن طريق البرامج المكتوبة بوســاطة الانسان الذى يستعمل الآلة .

●●●

سابعاً ـ اسلوب المحاكاة Simulation

المحاكاة هى دراسة الأنظمة عن طريق بناء وتشغيل نماذج لها واســتعمال هذه النماذج فى اجراء تجارب على هذه الأنظمة بمعالجة المتغيرات الداخلة فيها والعلاقة بينها . ويمكن عن طريق المحاكاة بناء نماذج صادقة للأنظمة اذ أن الاسلوب يمكننا من دراســة حســاســية النماذج للمعالم المختلفة الداخلة فى تركيبها وذلك بتنفيذ نموذج المحاكاة عدة مرات مع تغيير المعالم ودراسة تأثير هذه التغييرات على النموذج .

وهناك حالتان يتحتم فيهما استخدام اسلوب المحاكاة :

(١) الرغبة فى الدراسة الفعالة لظاهرة تحتوى على عدد كبير من المكــونات والمتغيرات والعلاقات بينها بحيث يصعب بناء نماذج رياضية تحليلية متعلقة بها .

(٢) الرغبة فى دراسة بعض الظواهر ذات الأهمية النظريــة الكبيرة والتى تحدث نادراً ، وبالتالى لا يمكن الاعتماد على مشــاهدة العالم الطبيعى لفحصــها حيــث يمكن أن تطغى عليها ظواهر تحدث بكثرة ولكنها ذات اهمية قليلة .

ويمكن التفرقــة بين نوعين أساســيين من المحاكاة :

(١) محاكاة على الآلات فقط Pure machine simulation .

(٢) محاكاة باستعمال آدميين مع أو بدون استخدام آلات Mon-Machine or all-man simulation .

فى النوع الأول يخلق النموذج كلية داخل حاسب الكترونى سواء باستخدام علاقات طبيعية على حاسب الكترونى قياسى analoge computer أو نماذج رياضية عددية على حاسب الكترونى عشرى cigital comp tcr ، وفى النوع الثانى يتخذ آدميون قرارات داخل النظام المحاكى باستعمال أو بدون استعمال حاسب الكترونى .

ويجب ملاحظة انه لكى يمكن بناء نموذج محاكاة لظاهرة معينة لا بد من توفر وصف دقيق ومفصل للظاهرة يمكن على اساسه ترجمتها الى خطوات تنفيذية يمكن اجراؤها على آلة حاسبة الكترونية أو فى نطاق التجربة العلمية للأشخاص الداخلين فى المحاكاة .

وهناك فائدتان أساسيتان لبناء نماذج المحاكاة من الناحية العملية :

(١) وجود نموذج محاكاة لنظام معين تترتب عليه امكانية اجراء التجارب على النظام وبالتالى تقدير نتائج سياسات مختلفة أو تغييرات معينة فى مكونات النظام ، وبهذا يكون النموذج اداة هامة لاتخاذ القرارات الرشيدة .

(٢) يمكن استخدام نموذج محاكاة لنظام معين لتعليم اشخاص تفاصيل هذا النظام وتدريبهم على اتخاذ قرارات فيه أو اختبار قدرتهم على هذا ، فمثلاً جمعية الادارة الأمريكية AMA لديها مباراة محاكاة لتدريب أفراد الادارة العليا Top Management Game وهو يتكون من محاكاة آلية ـ آدمية لمواقف فى مجال عمل الادارة لتدريب المديرين على اتخاذ القرارات الادارية الحكيمة .

وللمحاكاة فى مجال السياسة مثلاً تطبيقات فعلية ترجع الى ما قبل الحرب العالمية الثانية فى المانيا واليابان . ففى ١٩٢٩ اجريت مباريات عسكرية وسياسية فى المانيا تتعلق بالقوة العسكرية لبولندا ومخططاتها السياسية . وفى اليابان انشىء المعهد اليابانى لبحوث الحرب الشاملة فى ١٩٤٠ وكان يقوم بمباريات اعتدائية تضمنت قيام فرق من كبار المسئولين المتخصصين فى الحكومة اليابانية بلعب الأدوار العسكرية والسياسية للقوى المعنية فى منطقة الباسفيك .

فى هذه المباريات كانت اليابان تمثل بعدة فرق من الأشخاص يمثلون الجيش والبحرية والوزارة وكانت آراء هذه الفرق تنسق قبل ان تتخذ اليابان ككل موقفاً محدداً تتصرف على اساسه . وقد توقعت بعض ادوار هذه المباريات الاجراءات الفعلية التى اتخذتها الحكومة اليابانية خلال وبعد معركة بيرل هاربور . تلك امثلة للمحاكاة بدون استخدام للآلات الحاسبة الالكترونية .

وتعتبر الدراسات المماثلة المشار اليها فى الفقرة السابقة من الأعمال الروتينية للأجهزة ومراكز البحث المتعلقة بالسياسة الخارجية فى البلاد المتقدمة حالياً ، وعادة تستخدم فيها الآلات الحاسبة الالكترونية ، ولا تقتصر هذه الدراسات على السياسة الخارجية وانما يمتد نطاقها الى السياسة الداخلية ايضاً . فمثلاً فى **الحملات الانتخابية** فى الولايات المتحدة الأمريكية

يقوم نظام بحثى على معالجة بيانات الاستفتاءات المتعلقة بالانتخابات ومحاكاة السلوك الانتخابى المحتمل للناخبين على الحاسب الالكترونى بهدف تقدير الأثر المحتمل على عامة الشعب ، وعلى مجموعات ذات اهمية استراتيجية خاصة ، لقضايا مختلفة يمكن أن تثار أو تستعمل بوساطة المرشحين قبل وفى خلال الحملات الانتخابية ، وبدرجة نجاح ملحوظة فقد كان معدل الارتباط بين عدد الأصوات التى حصل عليها جون كيندى فى الولايات المتحدة فى انتخابات ١٩٦٠ وعدد الأصوات التى قدرت على اساس محاكاة ظروف العملية الانتخابية ٨٢ر.

ويمكن أن نضرب مثالاً لاستخدام اسلوب المحاكاة فى مجال علم الاجتماع بدراسة ميكانيكية الاستقرار فى المجموعات المكونة من ثلاثة افراد . فقد لاحظ عدة علماء ان المجموعات المكونة من ثلاثة افراد غالباً ما تكون غير مستقرة وتتحلل الى ثنائى duad pair ومنعزل isolate . ولدراسة كيف تحدث عملية الاستقرار ، يمكن البدء بموقف افتراضى تكون فيه مجموعة ثلاثية مستقرة ـ طبقاً لمفهوم او تعريف معين ـ ثم نحول ما نتصوره نظرياً عن كيفية حدوث عملية الاستقرار (او عدم الاستقرار) الى اجراءات تنفيذية على الحاسب الالكترونى بأن نلاحظ ما يحدث فى علاقات المجموعة بتتابع تصرفات معينة وحدوث ردود فعل لها طبقاً لما نتصوره عن طبيعة التفاعل فى المجموعة .

فمثلاً يمكن أن نتخذ التعميم التالى لسلوك الافراد فى الجماعات اساساً لطبيعة العلاقات فى المجموعة الثلاثية : « التفاعل بين الأشخاص يميل الى خلق عواطف ايجابية ، هذه العواطف الايجابية بدورها تولد تفاعلاً أكثر من ذلك الذى تفرضه الظروف الخارجة عن الجماعة » . اذا كانت هذه القاعدة تحكم تصرفات شخصين فى عزلة فانها تؤدى الى تفاعل متزايد حتى يصبحا لا يمكن التفرقة بينهما . ولكن اذا تصورنا ٣ أشخاص ا ، ب ، جـ فان رغبة ا فى التفاعل مع ب مقيدة برغبته فى التفاعل مع جـ ورغبة كل من ب ، جـ فى التفاعل كل منهما مع الآخر .

ويجب أن نؤكد أن الهدف هنا ليس محاكاة تصرف ثلاثة اشخاص حقيقيين ، ولكن محاكاة تصرف ثلاثة اشخاص افتراضيين يتصرفون على أساس المبدأ المقرر أعلاه ومؤداه أنهم يميلون الى التفاعل مع الأشخاص الذين يحبون ، ويحبون الأشخاص الذين يتفاعلون معهم . والسؤال هو ما اذا كان مثل هذا المبدأ السلوكى يؤدى فى النهاية الى تحلل المجموعة الى ثنائى ومنعزل .

احد طرق محاكاة هذا النظام على حاسب الكترونى هو تعريف مصفوفة من الأعداد تعبر عن العلاقة العاطفية بين كل ثنائى من الثنائيات الثلاثة الممكنة ـ (ا ، ب) ، (ا جـ) ، (ب ، جـ) ـ موجبة للعواطف الايجابية وسالبة للعواطف السالبة وصفر لعدم المبالاة ، وتحديد مجموعة من التصرفات وردود الفعل المحتملة لها فى صورة تغييرات كمية على درجة العلاقة العاطفية بين الأفراد المقيدين فى النظام . ويبدأ النظام فى حالة استقرار ثم تتم عملية اختيار عشوائية تتابعية لتصرفات بين اعضاء المجموعة وبعد كل تصرف تتم عملية تصحيح لمصفوفة الأعداد التى تمثل علاقات المجموعة العاطفية بردود الفعل للتصرف المختار وبعد ذلك يختار تصرف آخر وهكذا ، ويلاحظ تأثير التفاعل المستمر على مصفوفة العلاقات العاطفية بمرور الوقت .

نتائج عملية المحاكاة هذه تتوقف بالطبع على نقطة البداية للنظام من حيث وجود علاقات عاطفية محددة بين الأفراد الثلاثة ــ وعلى نوع التصرفات المعتبرة فى النظام وحده وردود الفعل الداخلة فى العملية . وعموماً يمكن التفرقة بين ثلاث حالات أساسية يمكن أن تنتج من توافقات مختلفة من هذه العوامل . فقد تميل المجموعة الى الاستقرار على الوضع الابتدائى بالرغم من امكانية حدوث تقلبات فى مصفوفة العلاقات العاطفية . وهناك الحد الأقصى الآخر حيث يحدث عدم توازن حاد اذا كانت هناك خبرة سابقة قليلة وردود فعل قوية للتصرفات المقيدة فى المحاكاة وغالباً ما يتكون ثنائى ومنعزل . وثمة نوع آخر من عدم التوازن حيث يتفاعل ا كثيراً مع كل من ب ، جـ ولكن ب ، جـ لا يتفاعل كل منهما مع الآخر .

● ● ●

من كل ما سبق يتضح لنا مدى ملاءمة الرياضة والاحصاء للقيام بدور اساسى فى مجال العلوم الانسانية واهمية التطبيقات الحالية للأساليب الرياضية والاحصائية فى العلوم الانسانية وما ينتج عن ذلك من اثراء للمعرفة البشرية وتحقيق مستوى أفضل للحياة الانسانية. هذه التطبيقات يتوقع لها ، بل لا بد أن تزدهر وتتنوع باطراد .

★ ★ ★

بعض المراجع

1. Chernoff H. and Moses L. ; **Elementary Decision Theory,** John Wiley & Sons, New York, 1960.

2. Duckworth W. ; **A Guide to Operational Research.** Meuthuen & Co., London, 1962

3. Fisher R. A. ; **Statistical Methods for Research Workers** ; 13th edition, Oliver and Boyd, Edinburgh, 1958.

4. Guetzkow H. ; Editor ; **Simultation in social sciences,** Reedings Prentice — Hall Inci, New Jersey, 1962.

5. Kemeny J. and Sneil J. ; **Mathematical Models in Social Science** ; Ginn & Co., Boston, 1962.

6. Messick D., Editor ; **Mathematical Thinking in Behavioural Sciences** ; W. H. Freeman & Co., San Francisco, 1968.

7. Saaty T. L. and Weyle F. J., Editors ; **The Spirit and the Uses of the Mathematical Sciences** ; McGraw Hill, New York, 1969.

8. Tinbergen J. and Bos ; **Mathematical Models of Economic Growth**; McGraw Hill, New York, 1962.



حسـام البيلاوى

التركيب الرياسى التصاعدى فى الأجهـزة الحاسـبة

تمهيـد

على الرغم من مرور أكثر من عشرين عاماً على ظهور الجيل الأول للجهاز الحاسـب ، فلا يزال هنـاك الكثـير من علامات عـدم الرضى بالتصميمات الحاليـة ، كما أن هنـاك نوعاً من الاحسـاس العام بأن الأجهـزة الحالية لا تقدم خدماتها الحسابية بدرجـة عالية من الكفاءة ، وأن هناك قدراً من الضياع فى القدرات الحسابية . ومن ثم بدأت تظهر الحاجة الى وضـع تعريف دقيق ومحدد لقياس كفاءة الجهاز الحاسب . غير أن الشكوى لم تقف عند هذا الحـد ، بل اتخذت اتجاهـات اخـرى متعلقة بتكنولوجيا هندسة الأجهزة الحاسبة ذاتها .

ومن أهم هذه النقاط ، أن هناك مجهوداً ضخماً يقع على عاتق المتخصصـين عند تصميم الأجهزة الحاسبة الجديدة ، وكذلك عند صيانة الأجهزة الحاسبة الحالية . فالاحساس العام بأن قدراً كبيراً من هذا المجهود يمكن اعتباره مجهوداً روتينياً بحتـاً وبالتالى يمكن تفويض الجهـاز الحاسب بالقيام به وبشكل تلقائى .

يبدو أن الاجابة على هذا النوع من القصور تأتى من اعادة النظر فى الفلسفة التى تكمن وراء تنظيم الأجهزة وتركيبها . ولكى تكون اعادة النظر هذه ، مسألة جدية فى دراسة الأجهزة الحاسبة ، **فلا بد من وقفة جديدة للتعمق فى تركيب الأجهزةالحاسبة وربطها بنظرية عامة تستمد وجودها من أنظمة خاصة اخرى تجد تطبيقات فى البيولوجيا والعلوم الاجتماعية وغيرها . وهكذا نشأ نمط جديد من التفكير يمكن أن نطلق عليه اسم نظرية النظم التركيبية .** وفى هذا النظر الجديد لا تعدو الأجهزة الحاسبة أن تكون تطبيقاً تكنولوجياً فى مجال محدد لبعض أفكار هذه النظريات العامة للنظم .

ومن المسائل الأساسية التى تثيرها نظريات النظم التركيبية علاقة الجزء بالكل وعلاقة الأجزاء ببعضها . وهنا تثور مشاكل متعلقة بدور كل جزء فى النظام بمجموعه وما اذا كان هذا الدور متماثلاً بالنسبة لجميع الأجزاء ، أم أن هناك اجزاء تتمتع بمركز خاص ودور متميز فى التأثير على سلوك النظام العام فى مجموعه . **وموضوع هذا المقال هو البحث بوجه خاص فى تلك النظم ذات التدرج الرياسى فى الأجهزة الحاسبة .**

● ● ●

تعاريف أولية : Preliminary definitions

١ ـ **النظام System** : هو تعبير جديد تجريدى توصف به علاقات الأشياء المختلفة ، وذلك عندما يكون الاهتمام منصباً على العلاقة السببية Cause-effect relationship بصرف النظر عن التفاصيل الدقيقة المكونة لطبيعة هذا النظام . والعلاقة السببية هى العلاقة التى تربط النتيجة والسبب معاً ، حيث يُعتبر السبب فعلاً معيناً يدخل النظام ، وتُعتبر النتيجة رد فعل يخرج من النظام . وفى هذا المقال تكثر الاشارة الى الجهاز الحاسب على أنه نظام ، وهنا تكون المشكلة الحسابية هى السبب (الكمية الحسابية الداخلة الى الجهاز الحاسب) ويكون الحل الحسابى هو النتيجة (الكمية الحسابية الاخرى الخارجة من الجهاز الحاسب) .

٢ ـ **المصادر الحسابية Computation resources** : تشير المصادر الحسابية ، بوجه عام ، الى وحدتين أساسيتين ، وحدة التخزين أو الذاكرة storage unit or memory ووحدة التشغيل المركزية Central Processor .

تقوم وحدة التخزين بدور المستودع العام لتخزين الأنواع المختلفة للمعلومات ، بيانات data غير مشغلة (كالمادة الخام) ، وتعليمات instructions تبين كيفية التشغيل ، والحل الحسابى (الناتج الأخير من التشغيل) .

هذا بينما تقوم وحدة التشغيل بدور شبيه بدور ورش المصنع التى تستقبل كلاً من المادة الخام والتعليمات الخاصة بتشغيلها . هنا تبدأ عملية التشغيل التى تستغرق بعض الوقت ، حتى تنتهى ويخرج الناتج فى شكل حل حسابى اخير وفى حاجة الى التخزين فى المستودع العام . هنا يصبح واضحاً أن هناك حركة مرور للمعلومات داخل المصادر الحسابية ، من وحدة التخزين الى وحدة التشغيل ذهاباً واياباً . تذهب المعلومات الى وحدة التشغيل فى شكل مشكلة حسابية ثم تخرج منها فى شكل حل حسابى .

وتوجد حركة مرور اخرى ، تسمى بحركة المرور الخارجية ، وهى من وحدة التخزين الى

اجهزة التلقين والاخراج Input/Output equipment ، حيث يتم الاتصال بالعالم الخارجى . تشرف على كل من حركتى المرور هذه وحـدةتسمى بوحدة التحكم Control Unit

٣ ــ المشكلة الحسابية Computation probmlem : هى المشكلة العلمية التى تحتاج الى حل حسابى باستخدام الجهاز الحاسب وتتكون من عمليات حسابية وبيانات حسابية ، ففى المثل البسـيط ٥ + ٦ تعتبر عمليـة الجمع بالعملية الحسابية ، والاعداد ٥ و ٦ بالبيانات الحسابية .

٤ ــ الحل الحسابى Computation solution : وهو ناتج تشغيل المشكلة الحسـابية وفى الحالة المتقدمة يكـون الحل الحسـابى هوالرقم ١١ . نلاحظ ان الحل الحسابى يكون فى شكل بيانات فقط .

٥ ــ نظرية القدرة على الحساب Computability theory : تختلف درجـة ونوعية الحـل الحسـابى باختـلاف نوعية المعادلات الرياضـية ، فبعض المعادلات يسـتحيل حلهـا والبعض الآخر يقبل درجـة معينة من الحل . وتبحث نظريـة القدرة على الحسـاب أولاً فى احتمالات الحل وثانياً فى اقصر الطرق للوصول الى هذا الحل .

٦ ــ الكمية المارة Throughput : هى الكمية التى تمر خلال نظام معين حيث تجرى عليها بعض عمليات التشغيل ، دون أن يتسرب اى جزء من هذه الكمية الى البيئة الخارجية وبذلك لا يضيع سدى . مثال ذلك كمية المياه العكرة التى تدخل محطة المياه (بقصد التطهر) ثم شبكة التوزيع حتى تخرج نقية الى المستفيدين منهـا (كمياه نقية) . فى هذه الحالة يقال ان المياه العكرة تم تشغيلها داخل النظام (محطة التطهير وشـبكة التوزيع) حتى خرجت نقية دون أن يتسرب منها جزء الى البيئة الخارجية .

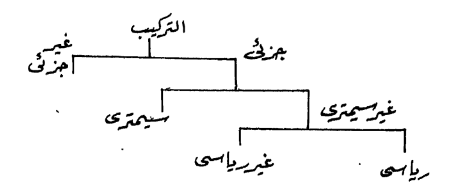
اما فى حالة آلات الطاقة ، من أجل تشغيل الطاقـة الميكانيكية الى طاقـة كهربيـة فى المولد الكهربى مثلاً ، فان جزءاً من الطاقة الميكانيكية يضيع سدى أثناء عملية التشغيل (داخل المولد) وبالتالى يصبح الناتج ، فى شكل طاقة كهربية ، كمية اقل من الكمية الداخلة (الطاقة الميكانيكية) . وبذلك لا يمكن تطبيق فكرة الكمية المارة فى حالة آلات الطاقة ، بينما يمكن تطبيقها فى حالة شبكة التوزيع للمياه .

٧ ــ المتغيرات الوهمية (الزائفة) Pseudo variables : وهى متغيرات لا تمثـل اى واقع حقيقى وفعلى فى النموذج الرياضى ، بل هى بدعة من صنع المتخصص الرياضى mathematician تدس على النموذج الرياضى بقصـد الفصـل بين المتغيرات الحقيقية بعضها عن بعض ، وبالتالى امكانية دراسة تأثير احد هذه المتغيرات الحقيقية دون تأثير باقى المتغيرات الاخرى (خاصية العزل بين المتغيرات isolation) . بذلك يمكن تفتيت النموذج الرياضى الى جملة اجزاء ، يمثل كل منها نموذجه الرياضى الخاص .

٨ ــ التركيب السيمترى Symmetrical structure : وهو تركيب ذو تناسق شكلى حول محور معين ، بحيـث يقسـم هذا المحور الشكل نصفين ، يمكن اعتبار كل منهما صـورة مرآة mirror image للنصف الآخـر . وقد يوجد أكثر من محور واحد وبذلك ينقسم الشكل

الى عدة اضواء متماثلة تماماً لا يمكن تفريق جزءعن آخر . اما التركيب « الغير سيمترى assymmetrical » فلا يحتوى على هذا المحور وبالتالى تكون اجزاؤه غير متشابهة ويمكن تمييزها .

٩ ــ التركيب الرياسى التصاعدى Hierarchical structure : وهو تركيب من جزئين ، جزء حاكم وآخر محكوم ، تجرى بينهما معلومات بشكل « غير سيمترى » بمعنى أن المعلومات التى تخرج من جزء الحاكم (أوامر) مختلفة فى نوعيتها عن المعلومات (اطاعة الأوامر) التى تخرج من جزء المحكوم (الى الحاكم) . يلاحظ ان شرط التركيب الغير سيمترى يعتبر شرطاً ضرورياً ، ولكنه غير كامن فى التركيب الرياسى ، بمعنى انه ليس كل تركيب غير سيمترى هو تركيب رياسى ولكن العكس صحيح .



١٠ ــ نظرية طوابير الانتظار (التذييل) Queue theory : تبحث فى حالة الاتزان المثالى بين طابورين مختلفين ، الطابور الأول يمثل عدة وحدات قادرة على تقديم خدمة service معينة والطابور الثانى يمثل عدة وحدات ، من نوع آخر ، تطلب نفس هذه الخدمة . وفى حالة عدم الاتزان ، فان احد الطابورين يقف (فى شكل طابور انتظار) دون أن يقدم (أو يحصل) الخدمة وبالتالى يكون هناك ضياع فى الوقت الذى يمثل بدوره خسارة اقتصادية .

وتبحث نظرية طوابير الانتظار فى حالات الاتزان تحت ظروف احتمالية (غير يقينية) بمعنى أن الوحدات الطالبة للخدمة تصل بشكل عشوائى random يمكن وصفها بنموذج رياضى احصائى statistical model .

١١ ــ نظرية التحكم الآلى Automatic control theory : تبحث فى الطرق المختلفة الخاصة باضطرار forcing نظام معين الى اتباع سياسة مرسومة وبشكل آلى طبقاً لرغبات التصميم العامة فى ظروف بيئية متغيرة . ويتم ذلك بمحاولة تذويب الفارق بين الوضع الراهن للنظام (الذى يعكس تأثير الظروف البيئية) والوضع المثالى المفروض اتباعه طبقاً للسياسة المرسومة . وتحقق هذه الخطة ثلاثة انواع من الأجهزة ، اجهزة قياس تقوم بتحديد الوضع الراهن للنظام ، واجهزة اخرى تشير بالوضع المرغوب فيه ونوع ثالث من الأجهزة يقوم بالضغط

على النظام لتغيير بعض خصائصه حتى يصبح وضعه الجديد وتحت الظروف البيئية الراهنة مطابقاً للوضع المثالى المطلوب ، وهكذا يتم تذويب الفارق بين الوضعين . والقدرة على التحكم controlability فى الأنظمة المختلفة مسألة نسبية وكذلك القدرة على ملاحظة observability الحالة الراهنة لهذه الأنظمة مسألة غير مطلقة . ونظرية التحكم الآلى تبحث فى الصياغة الرياضية بينما هندسة التحكم الآلى تبحث فى تصميم وبناء المعدات والأجهزة الكهربائية .

١٢ ــ نظرية الذاتية Automata theory : تبحث فى ذاتية النظام وجوهره الرياضى وكيفية تفتيته ــ ان امكن ــ الى اجزاء صغيرة . يتم ذلك بالبحث عن شروخ فى النموذج الرياضى mathematical cracks للنظام التى تمكن من الانهيار collapse الرياضى الى عدة أجزاء منفصلة ، يخضع كل جزء منها لنموذجه الرياضى الخاص . وكذلك تبحث النظرية الذاتية فى امكانية البناء الرياضى وذلك بتجميع عدة نماذج رياضية فى اطار واحد ، على أن يكون تماسك المتغيرات الرياضية (فى هذا الاطار العام الجديد) تماسكاً قوياً . والقدرة على الوصول reachability من احد المتغيرات variable الى متغير آخر ، داخل النموذج الرياضى ، تحدد امكانية (أو عدم امكانية) الهدم الرياضى ، بينما تبحث نظرية القدرة على البناء constructability theory فى امكانية البناء الرياضى .

١٣ ــ التحكم غير المركزى Decentrilized control : وهو نوع من التحكم فى الأنظمة ذات المستويات المتعددة multilevel systems حيث تتوقف درجة التحكم ونوعيتها على وضع المستوى (الذى تجرى فيه سياسة التحكم) فى النظام العام . ففى المستويات الدنيا تصبح متغيرات التحكم control variables كثيرة فى عددها من ناحية ومستقلة بعضها عن بعض من ناحية اخرى . غير ان الموقف يكون مختلفاً بعض الشىء فى المستويات العليا ، هنا يقل عدد متغيرات التحكم . كذلك يصبح من الممكن احداث جملة تغييرات فى المستويات الدنيا بفعل واحد ، اى نوع من القدرة على الربط بين متغيرات المستويات الدنيا ، بمتغير واحد يمكن تحريكه من السلطات العليا فقط .

● ● ●

مقدمة

يستخدم التعبيران ، التكوين الرياسى hierarchical stuucture **والرئاسة** hierarchy **فى شكل عام ، للاشارة الى وجود مستويات ذات ترتيب معين ، غير ان الدقة فى التعريف تقتضى تحديد علاقة الحاكم والمحكوم** governing-governed .

يسمى النظام بنظام معقد غير بسيط complex system ، اذا أمكن تحليل النظام الى اجزاء تقع داخل تركيب رياسى . والأنظمة التى لاتخضع لهذه الخاصية ، تسمى انظمة كبيرة large scale systems وليس من الضرورى انظمة معقدة .

الأنظمة المعقدة فى كل من الكائنات الحية living organisms والمواد العضوية وغير

العضوية organics & inorganics ، ومبتكرات واختراعات العقل الانسانى sophisticated artifacts دعت طلاب البحث العلمى فى البيولوجيا والكيمياء والطبيعة والهندسة ، الى دراسة فكرة التركيب الجزئى بوجه عام ، والتركيب الجزئى الرياسى التصاعدى بوجه خاص وبعبارة موجزة ، دراسة مشكلة الجزء والكل part & whole فى هذه الأنظمة المعقدة. وبعد مسألة اختبار وتحديد التعاريف بشكل دقيق ووصفها بمعادلات رياضية ، تبقى مسألة اساسية وهى :

هل النظرة الى الأنظمة المعقدة ، سواء فى البيولوجيا او الفيزياء أو مخترعات العقل الانسانى المعقدة ، هى نظرة موضوعية بمعنى انها تعكس واقعاً مستقلاً عن النظرة الشخصية للانسان القائم بالتحليل العلمى objective reality .

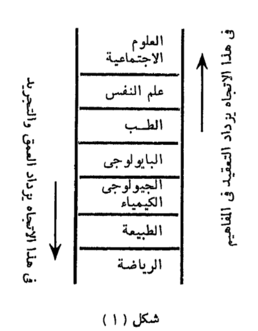
بمثل هذا النوع من الأسئلة الفلسفية ، يتجه مركز الثقل فى هذا المقال الى تفهم conceputalize وصياغة formalization بعض الاتجاهات الجديدة فى كل من تصميم الأجهزة الحاسبة والطرق الخاصة لحل المشاكل الحسابية . هنا تكون الدعوى الأساسية ، ان التركيب الجزئى ، بوجه عام ، والتركيب الرياسى ، بوجه خاص ، يمثلان واقعاً موضوعياً objective reality ومتكرراً فى عدة مجالات تمس الأجهزة الحاسبة فى تقييمها واستخدامها ، وهذه الدعوى محل جدل علمى فى الأدب التكنولوجى . والاحساس العام ، ان الفكرة فى حاجة الى قدر أكبر من التحديد والتجديد ، كما أن الصياغة الرياضية فى حاجة الى تفهم وتبسيط .

وقبل أن نبدأ الحديث عن هذه الدعوى الجديدة ونطبقها فى مجال الأجهزة الحاسبة ، نقف قليلاً لنحدد المقصود من معنى « التفهم conceptualization » ومعنى التجريد والصياغة الرياضية وذلك باعادة النظر فى بعض الامور المستقرة فى الفكر العلمى عامة .

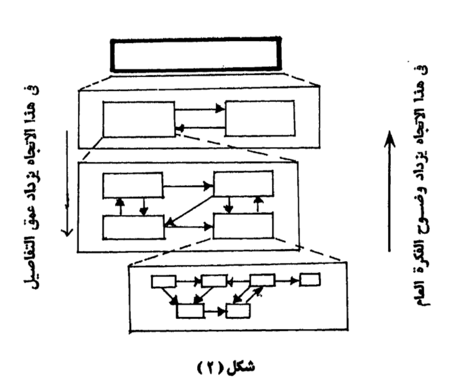
لاشك فى أنه من الصعوبة البالغة ، بل من المستحيل محاولة وضع اطار عام للفكر العلمى . غير أن مثل هذه المحاولة قد جذبت الكثير من الفلاسفة والمفكرين ، وقد ظهرت عدة دراسات مفيدة تشير الى تكرر ظهور مفهوم واحد فى أكثر من فرع من فروع العلم مع قدر معين من التطوير . هذا الاتجاه يجد الكثير من الحماس المصحوب بروح الحذر فى روح البحث العلمى الحديث وخاصة فيما يسمى بالدراسات المتقاربة interdisciplinary studies ، ولعل من اقدم وأكثر الدراسات تشوقاً فى هذا المجال دراسة الفيلسوف الرياضى **اوجست كونت** الفرنسى Auguste comte ، فقد تصور أن هناك بعدين two-dimension أساسيين فى الفكر العلمى ، **البعد الأول** وهو البعد التجريدى abstractness **والبعد الثانى** وهو التفهم conceptualization ، وبهذا التحديد ، على ما يحمل من الدقة والصواب أو عدمهما ، تصور الفيلسوف الفرنسى وضعاً نسبياً للحالة الراهنة للفكر العلمى فى الفروع المختلفة ، كالعلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية ... الخ ، حتى وصل الى العلوم الاجتماعية . وفى هذا الوضع النسبى spectrum (انظر شكل ـ ١) تقع العلوم الرياضية فى أقصى اليسار حيث تزداد

القدرة على التجريد ، بينما تقع العلوم الاجتماعيةفى اقصى اليمين حيث يزداد عمق الفكرة وتفهمها، ثم تتدرج الفروع الاخرى من اليسار الى اليمين وبذلك تقل القدرة على التجريد ويزداد عمق الفكرة والتعقيد فى فهمها . هذا الترتيب لموقع الفروع المختلفة للفكر العلمى ، لا يمثل واقعاً موضوعياً لهذه الفروع المختلفة ، بل يمثل الحالة الراهنة لها ، بمعنى انه ــ مثلاً ــ لايوجد على الاطلاق مانع من اعادة النظر فى العلوم الاجتماعيةعلى اساس تجريدى وبالتالى صياغتها صياغة رياضية ، وبنفس المنطق يمكن زيادة التراث فى العلوم الرياضية باضافة بعض المفاهيم الجديدة. ويمكن اعتبار العلوم الرياضية ، اساساً ، انهامبنية على مفهوم واحد one concept ، وهو مفهوم الجمع addition ، وتصبح بعد ذلك العلوم الرياضية تطويراً لهذه الفكرة ، بناء على قدرات مختلفة من التجريد . مثال ذلك فى الهندسة التحليلية ، فاذا بدانا بالنقطة point فاننا يمكننا تصور الخط المستقيم straight line على انه تجميع لعدة نقط ، والخط المنحنى curve تجميع فى شكل آخر لعدة نقط ، المساحة area تجميع لعدة خطوط ، وبالتالى تجميع غير مباشر لهذه النقط ، والحجم volume هو تجميع لعدة مساحات ، وبالتالى تجميع لعدة خطوط ، وبالتالى فى الصورة الأخيرة ، هو تجميع لعدة نقط . واذا امكننا تصور الخط بانه ذو بعد واحد one-dimension والمساحة ذات بعدين two-dimension والحجم ذو ثلاثة أبعاد three-dimension فانه بقدر معين من التجريد يمكنا تصور النقطة ذات صفر من الأبعاد zero-dimension وكذلك يمكنا بنفس القدر من التجريد أن نتصور نظاماً ذا اربعة أبعاد ... وهكذا حتى نصل الى نظام عدد لانهائى من الابعاد infinite-dimension . مثال آخر فى علم التفاضل والتكامل calculus of differentiation & integration فالطرح مثلاً يمكننا بقدرمعين من التجريد أن نتصوره على انه حالة عكسيه للجمع ، والضرب حالة متكررة من الجمع والقسمة حالة متكررة من الطرح وبالتالى حالة متكررة عكسية من الجمع . وعلم التكامل integration هو حالة جمع المساحات ، والتفاضل differentiation هو حالة متكررة من القسمة ، وهناك أيضاً عشرات من الأمثلة الاخرى فى العلوم الرياضية ، وذلك ببحث هذه الفكرة على أساس تجريدى ، ومن هنا يصبح لنا واضحاً ان الجهاز الحاسب الرقمى digital computer هو أساساً جهاز يقوم بتحقيق عملية الجمع فى صور مختلفة (مع بعض الاستثناءات الدقيقة) ، وهنا يبدو الاغراء قوياً فى التقاط فكرة ثم تناولها بالتجريد . وتحقيق ذلك فى مخطط الفيلسوف الفرنسى **كومته** (انظر شكل ١و٢) هو التقاط فكرة من أقصى اليمين ،حيث تكمن الكنوز فى المفاهيم ، ثم تحريكها شمالاً حيث يزداد تجريد الفكرة ، وبعبارة موجزة فانه يمكن اعتبار هذه المقالة هى الحركة من اليمين الى اليسار وبالعكس فى مخطط **كونت** .

كما أنه من الجدير بالذكر ان الدراسات التى تمت لبلورة علم السيبرناطيقا cybernatic كانت تمثل محاولة لتذويب بعض الفروق فى هذا الاستعراض spectrum حتى تختلط العلوم الرياضية وتستمر فى الحركة من اقصى الشمال حتى تصل الى البيولوجيا والطب (انظر شكل ــ ١ ــ) وبمزيد من الأمل تستمر فى الحركة درجة ابعد الى اليمين . والفكرة البسيطة التى ستكون محل البحث ، هى فكرة النظام الرياسى التصاعدى ،وهى فكرة معروفة فى العلوم الاجتماعية بنظام الحاكم والمحكوم أو مجتمع السادة ومجتمع العبيد ... الخ .


العلوم الاجتماعية
علم النفس
الطب
البايولوجى
الجيولوجى
الكيمياء
الطبيعة
الرياضة
فى هذا الاتجاه يزداد التعقيد فى المفاهيم
فى هذا الاتجاه يزداد العمق والتجريد

شكل (١)


فى هذا الاتجاه يزداد عمق التفاصيل
فى هذا الاتجاه يزداد وضوح الفكرة العام

شكل (٢)

تفصيل الموضوع

بعد أن تناولنا فى المقدمة تحديد التركيب الرياسى التصاعدى بالنسبة لنظريات النظم بصفة عامة .. نتعرض لموضوعنا بشكل من التفصيل على النحو الآتى :

سوف نعرض أولاً وبطريقة موجزة للمشكلة العلمية موضوع البحث على نحو أكثر دقة ، ثم نتناول بعد ذلك مفهوم النظام الرياسى التصاعدى فى الحسابات . وهذا القسم يمثل فى الواقع جوهر الدراسة ولبها ، وسوف نلحق بنهاية الدراسة تذييلاً رياضياً مبسطاً لهذا القسم الثانى ، وفى هذا التذييل نحاول ان نضع ، فى أبسط وأوجز الطرق ، نموذجاً للتصور الرياضى الشكلى للنظام الرياسى التصاعدى .

وبعد استكمال فهم النظام الرياسى التصاعدى قد يكون من المفيد أن نعطى نبذة تاريخية عن تطور الأفكار عن هذا الموضوع ، وهذا ما نخصص له الباب الثالث .

وفى النهاية نحاول تلخيص الأفكار الأساسية للنظام الرياسى التصاعدى فى الخاتمة .

●●●

أولاً ـ المشكلة العلمية الموضوعة تحت البحث Problem Statement

تبحث هذه المقالة ، بوجه عام ، فى تفهم وصياغة المشاكل العلمية المتعلقة بالتركيب الجزئى والتركيب الرياسى التصاعدى فى كل من الأجهزة الحاسبة والمشاكل الحسابية ، وهذا يقضى بتفهم المواضيع التالية :

١) التنظيم الوظيفى للمصادر الحسابية Functional organization of computation resources

٢) التركيب التنظيمى للمصادر الحسابية (بالمعنى العام الكبير) Structural organization of computation resources (Macro-sense) .

٣) التركيب التنظيمى للمشاكل الحسابية Structural organization of computation problems

٤) التركيب التنظيمى للمصادر الحسابية (بالمعنى الصغير) Structural organization of computation resources (Micro-sense) .

وستقتصر مشكلة الصياغة الرياضية على الموضوع الأخير وهو التركيب التنظيمى للمصادر الحسابية (بالمعنى الصغير) .

الباب الثانى

تفهم النظام الرياسى التصـاعدى فى الحسابات

Conceptualization of Hierarchy in Computation

يتناول هذا الباب ، النظـام التصـاعدى الرياسى فى الحسـابات ، بقصـد فهم الفكـرة وهضمها وبدون الحاجة الى وصـفها بمعادلات رياضية . ويتم ذلك من خلال اربع زوايا مختلفة هى :

١) التنظيم الوظيفى للمصادر الحسابية .

٢) التنظيم التركيبى للمصادر الحسابية (بالمعنى العام الكبير) Macro .

٣) التنظيم التركيبى للمشاكل الحسابية .

٤) التنظيم التركيبى للمصادر الحسابية (بالمعنى المحلى الصغير) Micro .

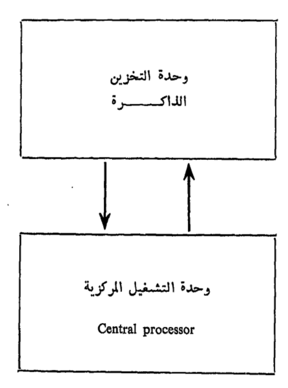
ونبدأ الآن بالحديث عن كل من المواضيع الأربعة السابقة .

١ ـ التنظيم الوظيفى للمصادر الحسابية : الوظيفة الأساسية للجهاز الحاسـب ، كوحدة كلية ، هى تشغيل المعلومات Information processing الداخلة الى الجهاز الحاسب فى شـكل مشكلة حسـابية computation problem حتى تخرج (هذه المعلومات) من الجهاز الحاسب ، فى شكل حل حسابى computation solution . وطبقـاً لهذا التعريـف العـام لوظيفة الجهـاز الحاسب ، يمكن تقسيم القطع الأساسية المكونة للجهاز الحاسـب ، وهى ما تسـمى بالمصـادر الحسابية ، الى مركبين أساسيين two components ، الاولى وحدة التخزين ، والثانية وحـدة التشغيل (انظر شكل ٣) .

١٠١ ـ وحـدة التخزين Storage Unit : وحدة التخـزين ، وتسـمى احيـاناً بالذاكرة Memory . تقسم وظيفياً الى وحدات تخزين صغيرة ، تسـمى بوحـدات تخـزين الكلمات Words ، وحدات تخزين الحروف characters ، .... وهكذا . وهذه التقسـيمات الداخلية لوحدة التخزين ، تصمم من قطع مغناطيسية ، كالطنبور المغناطيسى فى اغلب الأحيان . وان كان بعضـها يصمم من دوائر كهـربية ذات السرعة العالية High speed circuitry .

التنظيم التركيبى للجهاز الحاسب

Macro analysis



المصادر الحسابية للجهاز الحاسب

تتكون المصادر الحسابية للجهاز الحاسب من وحدتين أساسيتين ، وحدة التشغيل المركزية ووحدة التخزين (الذاكرة) .

تجرى بين هاتين الوحدتين الأنواع المختلفة من المعلومات وذلك فى مراحل تشغيل المشـكلة الحسابية الى حل حسابى أخير .

شكل (٣)

١٠٢ ــ وحدة التشغيل Processing Unit : تنقسم وحدة التشغيل الى عدة مركبات ، تقوم كل منها بوظيفة خاصة ، على النحو التالى :

أ ــ الوحـــدة المنطقية logical والوحدة الحاسبة Arithmetic Unit التى تضـم بدورها المجمع adder والمحصل accumulater ووحدة المقارنة comparator .

ب ـ وحدة التحكم control Unit وتحتوى بدورها على عدة مركبات اهمها ، من الناحية الوظيفية ، وحدة تفسير (فك الشفرة)التعليمات Instruction decorder . ان مهمة وحدة التحكم بوجه عام هى تنسيق حركة المرورالداخلية فى الجهاز الحاسب ، هذا بمعنى تحديد البيانات data التى ينبغى تشغيلها ، ونوع العمليات الحسابية التى تطبق على هذه البيانات، فمثلا العملية الحسابية البسيطة ٥ + ٦ تفسرهاوحدة التحكم على النحو التالى :

البيانات الداخلية : ٥ ، ٦

العملية الحسابية : الجمع (+)

من هنا تصدر الأوامر من وحدة التحكم الى وحدة الجمع بأن تقوم بدورها الوظيفى (الجمع) على البيانات الداخلية (٥ ، ٦) . وثمةشرح مبسط ، لحركة المرور للمعلومات داخل الجهاز الحاسب ، سيأتى فى آخر هذا الجزء .

تنظيم الجهاز الحاسب التقليدى

يعمل الجهاز الحاسب التقليدى ، على تشغيل المشاكل الحسابية بطريقة متوالية sequential الواحدة بعد الاخرى . فى هذاالنوع من الأجهزة الحاسبة ، تقوم وحدة التحكم بدور التنسيق بين وحدة التشغيل المركزية central processor ووحدة التخزين memory . ويكون ذلك التنسيق فى عملية نقل كل من التعليمات والبيانات (أى مكونات المشكلة الحسابية) من أمكنة تخزينها فى الذاكرة الى وحدة التشغيل حيث تجرى عليها العمليات الحسابية التى ينتج منها الحل الحسابى .

وتشرف وحدة التحكم على خروج الحل الحسابى من وحدة التشغيل المركزية ، وتخزينه فى مكان آخر مناسب فى الذاكرة . ومما هو جدير بالذكر ، ان أمكنه (عناوين) البيانات تكتب فى شكل شفرة code ، وتلحق هذه الشفرةبالتعليمات التى تشغل هذا النوع من البيانات . هنا يكون جزء من مسئولية وحدة التحكم ، هو فك هذه الشفرة .

أما تفصيل الخطوات التى تتم داخل الجهاز الحاسب التقليدى فهى كالآتى :

١ ـ تقوم وحدة التحكم بتحديد المكان الذى تخزن فيه التعليمات التى آن دورها فى التنفيذ execution طبقاً للبرنامج العام . ويُطلق على هذا المكان اسم العنوان address .

٢ ـ تستجيب وحدة التخزين للنداء وتخرج التعليمات المخزونة وترسلها الى وحدة التحكم .

٣ ـ تقوم وحدة التحكم باستجواب التعليمات عن مكان (عنوان) البيانات التى يقع على عاتق هذه التعليمات مسئولية تشغيلها ، ثم ترسل اشارات اخرى الى الذاكرة لاستدعاء البيانات .

٤ ـ تلبى الذاكرة الطلب وترسل البيانات الى وحدة التحكم التى تقوم بدورها بارسالها الى الأمكنة الخاصة بالتشغيل داخل وحدة التشغيل المركزية .

٥ ــ ترســـــل بعد ذلــك وحــدة التحكم التعليمات (التى كانت فى اقامة مؤقتة فى وحدة التحكم) ، الى وحدة التشغيل وهنا يبدأ العمل فى التشغيل (بيانات وتعليمات تحدد نوع عملية التشغيل) .

٦ ــ يخرج الحل الحسابى نتيجة التشغيل، من وحدة التشغيل المركزية الى وحــدة التحكم حيث يتسلم الأمــر بالموافقة على التخــزين من ناحية وعنوان خلية التخــزين ونوعية التخزين (تخزين دائم أو تخزين مؤقت) من ناحية اخرى .

تلعب الاعتبارات الاقتصادية دوراً كبيراً فى التصميم بوجه عام ، بمعنى أن مهندس التصميم لا يستطيع أن يحصر نطاق تفكــيره فى اعتبارات التصميم الهندسية والرياضية فقط ، فتتكلف وحدة التشغيل مصاريف زهيدة نسبياً بمقارنتها بمصاريف تصنيع وحدة التخزين . وهذا الاعتبار الاقتصادى وضع المواصــفات الخاصــة بوحدة التخزين فى الدرجــة الاولى من الأهميــة بينما المواصفات الخاصة بوحدة التشغيل فى الدرجة الثانية . وهذا التدرج فى الاعتبارات الاقتصادية ينعكس اثره على بعض تفاصيل التصميم الدقيقة .

وهناك تفرقة ، دقيقة بعض الشيء ، بين التنظيم الوظيفى والتنظيم التركيبى لنظام عام . ووجود هذه التفرقة محل جدل علمى كبير ، اذيميل بعض المؤلفين (وكاتب هذا المقال أيضــاً) الى أن مثل هذه التفرقة تفقد معناها الأساسى فى كثير من الأنظمة وتصبح نقطة فلسفية بدون سند واقعى وصلب . غير أنه ، رغبة فى الاتفاق والانسجام الفكرى مع التيار المتزايد فى كثير من المؤلفات (وخاصة حول « نظــرية الذاتيــة ») فسيحتفظ بهذا الفرق . وبهذا يصبح التنظيم الوظيفى هــو التنظيم المتعلق بأهداف ووظيفة النظــام ، بينما يتعلق التنظيم التركيبى بالقدرة على بناء النظام constructability * وتكوينــه من مركبات منفصلة . وحيث أن وظيفة الجهاز الحاسب هى تشــغيل المعلومات ، يصــبح من الواضح تحديد التنظيم الوظيفى من وجهة نظــر المعلومات وطريقة تشغيلها . أما تركيب الجهاز الحاسب وبالتالى دراســة التنظيم التركيبى ، فهى مسألة اخرى ، وهى بدورها تتوقف على وجهتين أساسيتين ، وجهة نظر مصمم الجهاز الحاسب ووجهة نظر المستخدم . والجزء التالى يتناول الحديث عن هذه النقط .

٢ ــ التنظيم التركيبى للمصادر الحسابية بالمعنى العام الكبير

تقع على عاتق مهندس تصــميم الأجهــزة الحاسبة عدة مشاكل هندسية وذلك فى المرحلة الاولى لوضع الخطوط العريضة للتصميم ، كما أن هناك عدة أهداف ينبغى على المصمم الناجح

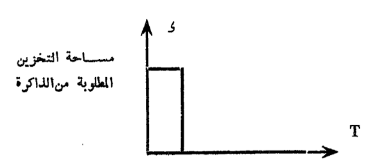
(*) تقاس خواص الذاكرة ببعدين ، الأول هو سعة التخزين (مساحة التخزين) والثانى هو سرعة التخزين ، غير ان سرعة التخزين ، تعتمد كذلك على خواص كل من وحدة التحكم ووحدة التشغيل المركزية . من هنا يكون من الممكن ان تلحق خاصية التخزين بخواص وحدة التشغيل المركزية ، وبذلــك يبقى بعد المســاحة خاصــاً بالذاكرة وبعد الزمن (ويضم بشكل غير مباشر خاصة سرعة التخزين) خاصاً بوحدة التشغيل المركزية . وهذا الاسلوب فى التحليل اثبت بالفعل فاعلية كبيرة فى التصميم .

ان يحققها . ووجهة النظر هذه ، قد تكون مختلفة بعض الشيء عند المستخدمين للجهاز الحاسب . فكل من وجهتى النظر هاتين ، وجهة نظر المصمم ووجهة نظر المستخدم ، تعكس نوعاً خاصاً من الملامح الرئيسية للتنظيم التركيبى للمصادر الحسابية ، وفيما يلى عرض لهما :

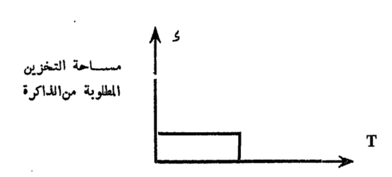
٢٠١ ـ وجهة نظر المصمم (المخطط Planner)

١ ـ ١ ـ ٢ الأهداف : يعتبر التخطيط العام ، فى مراحل التصميم الاولى ، للمصادر الحسابية تخطيطاً ذا كفاءة عالية ، اذا امكن استغلال وحدة التشغيل ووحدة التخزين الى اقصى حد . وذلك بتشغيل وحدة التشغيل المركزية اكبر فترة ممكنة من الوقت وبتشغيل اكبر مساحة ممكنة من التخزين فى الذاكرة ، وبعبارة اخرى عدم ترك وحدة التشغيل المركزية (ذات السرعة الفائقة فى العمل) دون عمل فى لحظة من اللحظات بقدر الامكان ، وكذلك عدم ترك مساحة شاغرة فى وحدة التخزين . من هنا يصبح التخطيط الكفؤ نوعاً من الادارة لبعدى الزمن والمسافة Time and Space ، الزمن اللازم لتشغيل المشكلة الحسابية داخل وحدة التشغيل المركزية والمساحة اللازمة لتخزين كل من المشكلة الحسابية (الداخلة الى وحدة التخزين) والحل الحسابى (الخارج من وحدة التشغيل) فى الذاكرة . غير ان هذا النوع من الادارة ليس بسيطاً وسلساً ، اذ أن المشاكل الحسابية تتفاوت تماماً فى نوع الخدمة الحسابية التى تطلبها من المصادر الحسابية . فبعض المشاكل الحسابية كثيرة الحركة بين وحدة التخزين ووحدة التشغيل مارة فى ذلك خلال قنوات الادخال والاخراج Input/Output Channel ذات الطابع الميكانيكى البطىء (بمقارنته بسرعة التشغيل الفائقة داخل وحدة التشغيل ذات الطابع الالكترونى) هذا ، بينما تستمر مشاكل حسابية (من نوع آخر) فترة طويلة من الزمن نسبياً ، داخل وحدة التشغيل أو داخل وحدة التخزين دون الحاجة المتكررة لحركة المرور البطيئة خلال قنوات الادخال والاخراج ، وبهذا يقل الزمن الكلى لتشغيل المشكلة الحسابية الى الحل الحسابى الأخير . كذلك تتفاوت الحاجة الى المساحة المطلوبة للتخزين من المصادر الحسابية (وحدة التخزين) من مشكلة حسابية الى مشكلة حسابية اخرى . فبعض المشاكل الحسابية تحتاج الى قدر كبير من التعليمات (لحل المشكلة الحسابية) التى تحتاج بدورها لسعة كبيرة من التخزين . وبعض المشاكل قد لاتحتاج الى هذا القدر الكبير من التعليمات ، ولكنها تحتوى على قدر كبير من البيانات التى تتطلب بدورها مساحة كبيرة من الذاكرة للتخزين . ولا شك فى ان الامور تزداد حرجاً فى حالة المشاكل الحسابية التى تحتاج الى تعليمات وبيانات طويلة للحل . و (شكل ٤ وشكل ٥) يمثلان مشكلتين حسابيتين كل منهما تحتاج الى نوع معين من الخدمة الحسابية التى تقدمها المصادر الحسابية .

هنا يصبح واضحاً أن زيادة كفاءة الجهاز الحاسب تتحقق عن طريق زيادة القدرة على الخدمة الحسابية servicability ، هذا يعنى الادارة الرشيدة للبعدين الرئيسيين ، بعد الزمن لوحدة التشغيل المركزية وبعد المساحة لوحدة التخزين ، فى وجه المطالب الحسابية (التي تتطلبها المشاكل حتى تحل) المختلفة فى نوعية الطلب .



الزمن اللازم لتشغيل المشكلة الحسابية (أ) داخل وحدة التشغيل المركزية . (شكل ٤)



الزمن اللازم لتشغيل المشكلة الحســـابية (ب)داخل وحدة التشغيل المركزيـــة . (شـــكل ٥)
تختلف طبيعة المشاكل الحسابية فى طلب نوع الخدمة الحســـابية

٢ ــ ١ ــ ٢ المعايير criteria : هنـــاك عـــدةمعايير تساعد مهندس التصميم فى تحديد الملامح الأساسية فى مرحلة التخطيط الاولى .

تقاس كفاءة التنظيم التركيبى للمصـــادر الحسابية بعدة معايير أهمها :

١ ــ الكميـــــة الحســـــــابية المـــــارة فىالجهاز الحاســـب Total System throughout .
هذه الفكرة لم تتبلور بشـــكل اخير ولا زالت فىمرحلـــة البحـــث العلمى فى عشرات من مراكـــز الأبحاث ، غير أنها تحمل الأمل الحقيقى فى وضعمعيار موضوعى لقياس كفاءة الجهاز الحاسب .

وطبقاً لهذه الفكرة فانه يمكن تصور المصادرالحسابية كمجموعة من المواسير تتجمع فى تنظيم تركيبى لتكون شبكة عامة للمواسير ، تماماً كماتتجمع المصادر الحسابية فى تنظيم تركيبى لتكون الجهاز الحاسب . ويمكن ايضاً تصور المشاكلالحسابية كالمياه العكره التى تدخـــل شـــبكة المواسير (التى تشمل محطة التطهير والتكرير)لتعالج وتطهر حتى تخرج نقية فى الطرف الآخر (طرف توزيع المياه النقية) لشـــبكة المواســـير ،تماماً كما تخـــرج الحلول الحســـابية من أجهزة الاخـــراج output equipment التابعة للجهـــازالحاسب .

الجهاز الحاسب	شبكة توزيع المياه
المصادر الحسابية : ١) الذاكرة لوحدة التخزين ٢) وحدة التشغيل المركزية	شبكة المواسير : ١) الخزانات ٢) محطات الطلمبات والمعالجة .
المشاكل الحسابية قبل دخولها الجهاز الحاسب	المياه العكرة قبل دخولها الشبكة
الحلول الحسابية الخارجة من الجهاز الحاسب	المياه النقية بعد خروجها
التكوين الرياضى لانظمة البرامج واللغات operating system, software system programming language	التكوين الكيميائى ، الخاص باضافة بعض المتطهرات .
التكوين المادى hardware	التكوين المادى (الحديد) لشبكة المواسير ، والطلمبات .... الخ .

أما فى حالة آلات الطاقة (كالمحرك والمولدالكهربى ... الخ) فتعرف كفاءة الآلة بالنسبة بين الطاقة الناتجة من التشغيل والطاقة الداخلة قبل التشغيل ، أى

$$\text{كفاءة الآلة} = \frac{\text{الطاقة الخارجة (الناتجة من التشغيل)}}{\text{الطاقة الداخلة (قبل التشغيل)}}$$

مثل هذا التعريف المطلق غير ممكن فى كل من حالة الجهاز الحاسب وحالة شبكة توزيع المياه ، بل لا بد من اللجؤ الى تعريف نسبى ، أى تحديد الزيادة (أو النقص) فى كفاءة النظام (الجهاز الحاسب او شبكة التوزيع) نتيجة لتغيير التنظيم التركيبى . فمثلاً اذا كان الناتج من شبكة التوزيع المياه هو عشرة امتار مكعبة فى الدقيقة الواحدة ، ثم اعيد التنظيم التركيبى لشبكة التوزيع (دون اضافة أو حذف بعض المركبات المكونة للشبكة) حتى زادت كمية المياه النقية الناتجة من المعالجة الى اثنى عشر متراً مكعباً فى الدقيقة ، فان كفاءة شبكة التوزيع تكون بذلك قد زادت ٢٠٪ نتيجة لاعادة التنظيم التركيبى للشبكة . من ناحية اخرى ، اذا أمكن تصور نوع معين من المواد الكيماوية ــ مثلاً ــ بحيث يمكن اضافته الى المياه العكرة قبل دخولها شبكة التوزيع ، يخف بذلك عبء المعالجة داخل الشبكة وتزداد سرعة انتاج المياه النقية الى خمسة عشر متراً مكعباً فى الدقيقة . هنا تكون كفاءة شبكة التوزيع قد زادت ٥٠٪ نتيجة للمعالجة الجزئية للمياه العكرة قبل دخولها . واذا أمكن الآن تصور صوت كل من التغييرين معاً ، فانه يكون من الواضح أن كمية المياه النقية الخارجة من الشبكة ستزداد حتى تصل الى ثمانية عشر متراً مكعباً فى الدقيقة (لاحظ أن ١٠ × ٢ر١ × ٥ر١ = ١٨) ، وهنا تكون الزيادة فى كفاءة الخدمة قد ارتفعت الى ٨٠٪ نتيجة للتغييرين .

من التحليل السابق ، يصبح واضحا انتشبيه الجهاز الحاسب بشبكة توزيع المياه أكثر تدقيقاً من تشبيهه بآلة الطاقة عند حساب كفاءةالخدمة ، وذلك لأنه فى حالة آلات الطاقة فان قدراً من الطاقة يتسرب الى الجو المحيطالخارجي وبالتالى يضيع سدى دون الاستفادة به ، وبذلك تقاس كفاءة آلة الطاقة بمدى قدرتهاعلى الاستفادة من الطاقة الداخلة للتشغيل دون ضياعها . ومثل هذا التسرب والضياع لا يوجدانفى الجهاز الحاسب ، بمعنى أن الكمية الحسابية (المشكلة فى الدخول والحل الحسابى فى الخروج)،تمر داخل الجهاز الحاسب دون احتمال ضياع .

بذلك يصبح واضحا أيضا معنى الكميةالحسابية المارة computations throughput وذلك عند تشبيهها بكمية المياه داخل شبكةالتوزيع .

وتلخيصاً لما سبق ، يمكن القول بأن تحديدكفاءة الجهاز الحاسب ، مسألة غير مستقرة ، وبذلك يكون اختبار المعيار الذى يقوم على اساس‌تصميم معين مسألة اختبارية لمهندس التصميم . وفى اغلب الأحيان ، فان التصميم يقوم على احدالمعايير الآتية :

١ ــ الكمية الحسابية المارة خلال المصادرالحسابية .

٢ ــ كفاءة وحدة التشغيل عند حساببعض المعادلات الرياضية المعقدة .

٣ ــ درجة تنوع versatility المقدرة علىأداء خدمات حسابية مختلفة .

٤ ــ نوعية الخدمة الحسابية المؤداةللمستخدم ، وبدورها تقاس بعدة معايير اخرى طبقاً لوجهة نظر المستخدم .

٣ ــ ١ ــ ٢ انواع التنظيم التركيبى :يوجد نوعان اساسيان :

١ ــ التنظيم التركيبى الواحد غير القابلللتجزئة non-modular structure (شكل ٦)

٢ التنظيم التركيبى المجزأ modular structure (شكل ٧)

وينقسم بدوره الى نوعين :

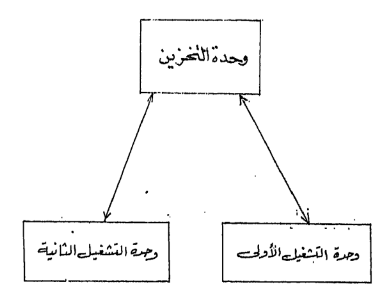
أ ــ التنظيم التركيبى ذى المستوى الواحد one-level .

ب ــ التنظيم التركيبى المتعدد المستويات multi-level وهو ما يسمى عادة بالتنظيم التركيبى التصاعدى hierarchical structure .

والتركيب الجزئى له عدة فوائد ، اذ انه‌يمنح النظام المزايا الآتية :

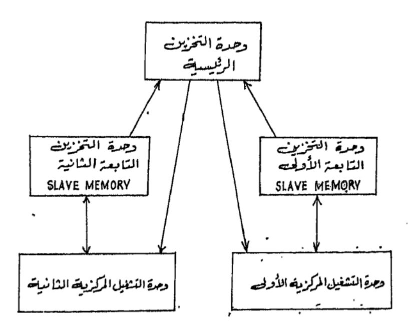
١ ــ القدرة على التوسع expandability فى المصادر الحسابية ، وذلك باضافة اجزاء modules اخرى كلما دعت الحاجة .

٢ ــ القدرة على الاعتماد reliability ،وذلك بازالة الأجزاء العاطلة faulty modules دون الحاجة الى تعطيل النظام (الجهاز الحاسب) كله .



التركيب الجزئي (ذو المستوى الواحد) لجهاز حاسب يتكون من وحدتين للتشغيل المركزي ووحدة التخزين

(شكل ٦)



التركيب الجزئي التصاعدي (المتعدد المستويات) لجهاز حاسب يتكون من وحدتين للتشغيل المركزي ملحق بكل منها وحدة خاصة للتخزين،هذا بجانب وحدة التخزين الرئيسية

شكل (٧)

٣ – السرعة وذلـك بامكان عمـل عـدة حسـابات على التـوازى وبالتالى تقليل الزمن المطلوب لتشغيل حمل load معين من المشكلات الحسابية .

٤ – امكانية تنظيم التركيب على شـكل تصاعدى وذلك باضافة العدد المطلوب من الأجزاء فى كل مستوى ، حسب الحاجة .

غير أن هذه المزايا ، لا تعطى بالمجان ، بمعنى أن هناك ثمناً يدفع وذلك فى تصميم نظام تشغيل خاص حتى ينسق حركة مـرور عدة مشـكلات حسابية خلال المصادر الحسابية مروراً متوازياً ، وهذا التنسيق يتطلب نوعاً من تنظيـم الطوابير المعقـد complex Qucueing mechanism لكل من المشكلات والمصادر الحسابية .

من التحليل السـابق ، يمكن استنتاج أن كفاءة الجهاز الحاسـب ذى التركيب الجزئى تعتمد على كفاءة كل جزء على حدة من ناحية ومن ناحية اخرى على كيفية التنظيم التركيبى لهذه الأجزاء .

وتتفاوت درجة الصعوبة فى المجهود الخاص بتصميم الأجهـزة الحاسـبة (ذات التركيب الجزئى) طبقاً لعدد المستويات . ويجرى كثير من الدراسـات المبنيـة على المحاولـة والخطـأ trial and error بقصـد الوصـول الـى الحل الأمثل للتصميم النهـائى وذلـك فى حالة المستويات المتعددة حيـث يكون الحل الرياضى (باستخدام النظريات الرياضية فقط) فى غاية من الصعوبة . وهنا تلعب عدة اعتبارات فى مثل هذا النوع من التصميم ، ملخصها :

ان الأجزاء ذات الكفاءة والقدرة الحاسبة العالية ، تلحق بالمسـتويات المعرضـة لكثـرة الاستعمال ، أما الأجزاء ذات الكفاءة والقـدرة الحاسـبة المحدودة فتلحق بالمستويات الخلفيـة حيث يقل تعرضها للطلب وبالتالى لأداء الخدمة الحسابية . وبهذا التركيب تقترب كفاءة النظام العام (الجهاز الحاسب) من كفاءة الأجزاء ذات السلوك الرفيع High index of performance بينما تصبح التكاليف الاقتصادية الكلية رخيصة نسبياً وقريبة مـن تكاليف الأجزاء ذات الكفاءة المحدودة .

التخزين التصاعدى Storage hierarchy

يسمى التنظيم المتعدد المسـتويات لقطع الذاكـرة Memory modules ، غالبـاً باسـم التخزين التصاعدى ، وهو يزيد من كفاءة النظام العـام دون الحاجة الى زيادة النفقات . وهنا تقسم المعلومات الى « بلوكات Blocks of informations » على أن يخـزن كل منهـا فى اجـزاء الذاكرة البطيئة slowspeed ، تخزيناً شـبه دائم حتى تستدعى للتشغيل (داخـل وحـدة التشغيل المركزية) وهنا تنقل هـذه البلوكـات (من المعلومات) الى قطع ذاكرة اخرى ، ذات كفاءة عالية ، وتظل هناك (فى هذه الفترة النشيطة من حركة المرور من الذاكرة الى وحدة التشغيل وبالعكس) بشـكل مؤقـت حتى تنتهى هـذه البلوكات من المعلومات من اداء الخدمة الحسابية ، وبذلك تعود مرة اخرى الى وحدة التخزين الاحتياطية ذات الكفاءة المحدودة . (انظر شـكل ٧)

وبذلك يكون ملخص العرض السابق عن التخزين التصاعدى ، هو كالآتى :

١ ــ المستويات العليا فى التخزين تصنع من دوائر كهربية ذات سرعة عالية وتتخصص لخدمة المعلومات ذات النشاط الحسابى العالى الكثير التردد frequency بين الذاكرة ووحدة التشغيل المركزية .

٢ ــ المستويات السفلى (الدنيا) تصنع من دوائر مغناطيسية ذات سرعة بطيئة نسبيا وتخصص لخدمة المعلومات الراكدة ، وكذلك تعمل كمستودع عام للتخزين الاحتياطى فى حالة تولد كميات هائلة من المعلومات فى مراحل الحساب الوسطى ، فجأة ودون تدبير سابق من جانب المستخدم .

تعريف : سرعة التخزين

تقاس بالزمن الذى يبدأ مع لحظة اصدار النداء من وحدة التحكم الى الذاكرة ويستمر حتى آخر لحظة من لحظات تنفيذ النداء من جانب الذاكرة . هذا النداء قد يكون بارسال معلومات مخزونة فى الذاكرة الى وحدة التشغيل وقد يكون بارسال المعلومات فى اتجاه عكسى وذلك من وحدة التشغيل الى الذاكرة .

التشغيل التصاعدى Processing hierarchy

وهنا يوجد عدة وحدات تشغيل مركزية ، تتدرج فى تحمل مسؤوليات حل المشاكل الحسابية ، وتختلف طبيعة التدرج فى نظام التشغيل التصاعدى كالآتى :

١ ــ فى النظام الأول تقوم وحدة تشغيل مركزية بدور الموزع للعمليات الحسابية على عدد آخر كبير من وحدات التشغيل المركزية التى تقوم بدورها بتشغيل هذه العمليات .

٢ ــ فى النظام الثانى تقوم وحدة تشغيل مركزية بعمل القطاع الكبير من العمليات الحسابية وتساعدها فى ذلك عدة وحدات تشغيل اخرى تقوم بعمل بعض العمليات الحسابية الفرعية وذلك فى اللحظات الضرورية فقط .

من العرض السابق يمكن تمثيل النظام الأول بالفرقة الموسيقية ، يعزف أعضاء الفرقة على الآلات المختلفة تحت توجيه القائد . وهذا على خلاف النظام الثانى ، الذى يشبه بمجتمع القبيلة حيث يستبد رئيس القبيلة بالأمر ويترك ، من آن الى آخر ، بعض الامور الثانوية لمعاونيه .

ولا زالت فكرة التشغيل التصاعدى فى المراحل الاولى من النمو وهذا بمقارنتها بالتخزين التصاعدى التى استقر بالفعل وظهرت بعض التصميمات الناجحة للأجهزة الحاسبة التى تعمل بهذه الفلسفة .

٢ ــ ٢ وجهة نظر المستخدم User's Point of View : يشير التنظيم التركيبى اهتمام المستخدم من ناحيتين :

١ ــ الطرق المختلفة لتنفيذ البرنامج .

٢ ـ الطرق المختلفة للتفاعل الحسابى .

١ ـ ٢ ـ ٢ طرق تنفيذ البرامج Modes of Execution : يعبر الأدب التكنولوجى عن ذلك الجزء المستقل من البرنامج بتعبير « العملية task » . وهذه العملية ، يمكن تنفيذها على الجهاز الحاسب بدون الحاجة الى معلومات عن عمليات اخرى ، اى بشكل مستقل .

أمثلة : مثال (١) (٥+٦) × ١٢+١١٨٥ .

مثال (٢) ٥+١٦أ

حيث أ = ١٥ × ١٢٥ب

مثال (١) يعتبر عملية ، بينما مثال (٢) لا يعتبر عملية اذ لازال هناك مجهول (وهو المجهول ب) ينبغى البحث عنه ، وبعبارة موجزة فان مثال (١) يمثل وحدة حسابية مستقلة وبالتالى يسمى بعملية وذلك على خلاف مثال (٢) الذى لايمكن من انجاز الحل الى آخر مراحله دون الحاجة الى عملية (أو عمليات) اخرى .

هنا يصبح من المفيد ، البحث فى امكانية تفتيت المشكلة الحسابية الى عدة عمليات حسابية (اى أجزاء يمكن حلها بشكل مستقل) على أن يتم حل هذه العمليات داخل الجهاز الحاسب . وهذا مايسمى بالحل على التوازى ، وذلك بتفرقته عن الطريقة التقليدية فى الحل على التوالى . والسؤال الآن :

« كيف يتم التفتيت ومن هو القائم بهذا التفتيت ؟ » . فى اجابة سريعة ، يمكن تلخيص الموقف كالتالى : قد يتم التفتيت خارج الجهاز الحاسب وقد يتم داخل الجهاز : يشار الى النوع الأول بانه نوع من التوازى الصريح ، أما النوع الثانى فهو تواز ضمنى . وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه النقطة ، ينبغى أن نشير الى باقى الطرق الخاصة بتنفيذ البرامج وملخصها كالآتى :

أ ـ تنفيذ البرامج على التوالى Sequential .

وهنا يكون ترتيب التنفيذ ترتيباً جامداً لايمكن تغييره ، بمعنى أن هناك جدولاً زمنياً ثابتاً فى تنفيذ العمليات الواحدة بعد الاخرى .

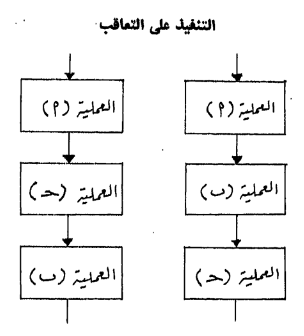
ب ـ تنفيذ البرامج على التوازى Parallel .

وهنا يكون ترتيب التنفيذ ترتيباً مرناً يمكن تغييره ، بمعنى أن جدول التنفيذ لايشترط تدرجاً معيناً . ومن ناحية اخرى يمكن تنفيذ عمليتين (أو اكثر) حسابيتين فى نفس الوقت ، اذا توفر العدد الكافى من المصادر الحسابية .

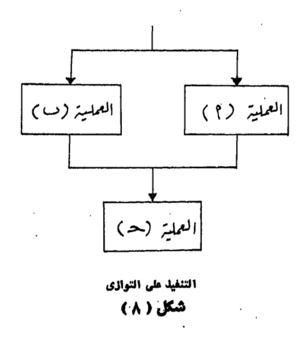
جـ ـ التنفيذ على التبادل Commutative .

وهى حالة تنفيذ اقرب الى سياسة منتصف الطريق بين حالة التنفيذ على التوازى والتنفيذ على التوالى . فهى من ناحية لاتتبع جدولاً زمنياً ثابتاً (تماماً كحالة التنفيذ على التوازى) ومن ناحية اخرى لا تقبل تنفيذ اكثر من عملية واحدة فى نفس الوقت (تماماً كحالة التنفيذ على التوالى) . (انظر شكل ١٠،٩،٨) .

التنفيذ على التعاقب

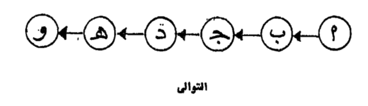


العمليات (أ) (ب) (جـ) لا تتبع جدولاً زمنياً ثابتاً اذ يمكن تبدل اولوية التنفيذ للعملية (ب) ، (جـ)

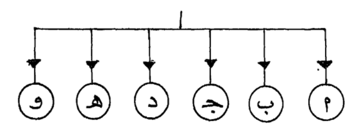


التنفيذ على التوازى

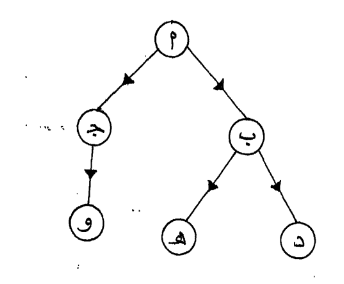
شكل (٨)



التوالى

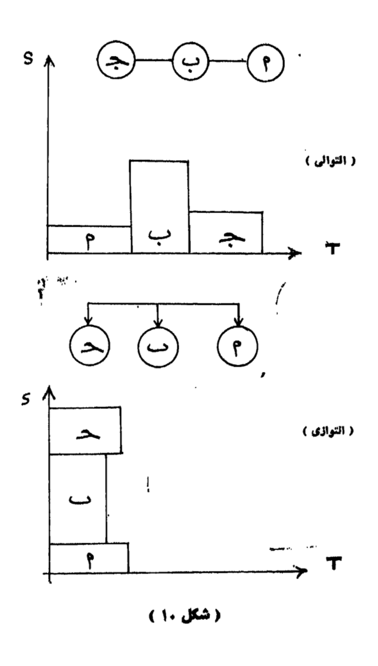


التوازى



التوازى والتوالى

شكل (٩)



(شكل ١٠)

نعود الآن ، مرة اخرى ، الى الحديث عن امكانية تفتيت المشكلة الحسابية حتى يمكن تشغيلها على التوازى . ونترك موضوع التفتيت الخارجى (التوازى الصريح) الى الجزء القادم ، ونعيد تلخيص بعض النقط ، التى سبق عرضها ، المتعلقة بالتفتيت الداخلى (التوازى الضمنى) . هنا تقوم مجموعة اللفات الرياضية لنظام التشغيل Operating system بدور الرقيب الرياضى الذى يحدد الخطوط الفاصلة بين عمليات المشكلة الحسابية . وهنا تستعمل عدة معايير رياضية وتطبق جملة هذه المعايير سويا على المشكلة الحسابية . حيث أن نجاح احد هذه المعايير ، يعتبر سببا كافيا لامكانية التفتيت . والواقع ان تنوع المشاكل الرياضية يقضى بوجود هذه المعايير العديدة وليس معيارا واحدا . وتفاصيل هذه اللفات الرياضية وكيفية استخدامها للمعايير ، ليست فى النطاق المباشر لهذا المقال ، غير ان القارىء ذا الاهتمام الخاص بهذا الموضوع يجد فى المراجع (٢١) ، (٤٧) ، (٤٨) و (٤) القدر الكافى من الدراسة .

٢ ـ ٢ ـ ٢ طرق التفاعل الحسابى Modes of Interactions : يقوم الانسان المستخدم للجهاز الحاسب بعرض المشكلة الحسابية على المصادر الحسابية ، وهنا قد يأتى الحل الحسابى الأخير فى مرحلة واحدة أو عدة مراحل مختلفة . فى هذه الحالة الأخيرة يتناول الانسان المستخدم ، الحل الناتج من الجهاز الحاسب فى مرحلة معينة ويستعمله كبيانات (فى شكل مباشر أو غير مباشر) تدخل الجهاز الحاسب مرة اخرى ، مع تعليمات جديدة وذلك فى مرحلة لاحقة بين الحسابات . بعبارة اخرى فانه بهذا التنظيم يصبح للانسان المستخدم للجهاز قدرة على كيفية توجيه مجرى الحسابات داخل الجهاز الحاسب وذلك فى المراحل الوسطى من الحسابات .

يُطلق على هذا النوع اسم التفاعل الحسابى واحيانا يسمى بحلقة الاتصال بين الانسان والآلة Man-Machine Communication وذلك لتفرقته عن النوع الاول حيث يظل الانسان المستخدم بعيدا تماما عن الجهاز الحاسب حتى يحصل على الحل الأخير . وتلخيصا لما سبق ، فان هناك نوعين من التفاعل الحسابى :

١ ـ التفاعل الحسابى النشيط . وهنا يجرى اتصال مستمر بين الانسان والآلة فى المراحل المتوالية للحسابات .

٢ ـ التفاعل الحسابى الخامل . وهنا يقف الانسان المستخدم للجهاز الحاسب فى عزلة حسابية عن الجهاز منذ لحظة ايداع المشكلة الحسابية حتى لحظة تسلم الحل الحسابى الأخير .

ويرى مستخدمو الأجهزة الحاسبة خاصية التفاعل الحسابى النشيط بعين الراحة والسرور ، حيث يسمح للمستخدم أن يبرز شخصيته الحاسبة جنبا الى جنب مع الجهاز الحاسب . وهذه المسألة تزداد اهميتها فى حالة الأجهزة الحاسبة ذات القدرات الحسابية الهائلة . هنا يصبح وجود الشخصية الحسابية للمستخدم مسألة ضرورية وذات اثر كبير فى كفاءة انجاز الحل الحسابى (وبالتالى تعكس اهمية اقتصادية) ومن هنا كانت تصميمات مجموعة الأجهزة الحاسبة التى تستخدم فى المرفق الحسابى computing utilities تصميمات تسمح بنظام التفاعل الحسابى النشيط الذى يتم من خلال عدد كبير من أجهزة التلقين والاخراج

(المصممة خصيصاً للتفاعل الحسابي النشيط). هنا يتم التفاعل الحسابي بين كل مستخدم والجهاز الحاسب ، عن طريق اجهزة الاخراج والتلقين التابعة لكل مستخدم ، كما لو كان الجهاز الحاسب كله فى حوزه المستخدم الواحد . وهذا ، على خلاف الواقع ، وهو ان الجهاز الحاسب يستطيع ان يخدم عدداً كبيراً من المستخدمين فى وقت واحد وذلك بتشغيل المشاكل الحسابية الداخلة اليه من عدة مستخدمين فى وقت واحد ، تشغيلاً متوازياً ، وهذا ببساطة تطبيق آخر لفكرة الحسابات المتوازية . والسؤال الآن :

« ماهى المعايير التى يقوم على اساسها ، كل مستخدم للجهاز ، كفاءة الخدمة الحسابية ؟ »
الاجابة هى كالآتى : (انظر شكل ١١)

أ ـ زمن الاجابة Response time وهو الوقت الذى يبدأ مع لحظة طلب المستخدم للتفاعل الحسابي ويستمر حتى يحصل المستخدم على رد من الجهاز الحاسب بالموافقة على بداية التفاعل (الحوار الحسابي) ، أى زمن الانتظار .

ب ـ زمن الخدمة Service time وهو الوقت الذى تستمر فيه الخدمة الحسابية فى مرحلة معينة من التفاعل الحسابي ويبدأ مع لحظة وصول الرد (من الجهاز الحاسب الى المستخدم) بالموافقة على بداية التفاعل ويستمر حتى لحظة ابلاغ المستخدم الجهاز بأنه قد فرغ بالفعل من المرحلة الاولى من التفاعل وبالتالى فهو فى غير حاجة (لحظية) الى الجهاز الحاسب .

جـ ـ زمن التفكير Think time وهنا يعكف المستخدم وحده على التفكير فى المشكلة الحسابية ، بناء على معلومات قد حصل عليها من الجهاز الحاسب فى مرحلة التفاعل السابقة . وتستمر هذه الفترة حتى لحظة بداية المرحلة الثانية من التفاعل وهنا يعود المستخدم مرة اخرى الى طلب فتح حوار مع الجهاز ، اى زمن التأمل .

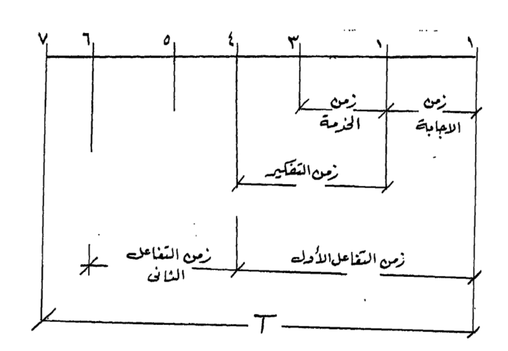
د ـ زمن التفاعل Interaction time وهو مجموع الأزمنة الثلاثة السابقة .

هـ ـ زمن Turn-around time وهو الزمن الكلى اللازم الذى يحتاجه المستخدم للانتهاء من حل مشكلته الحسابية فى مراحل التفاعل الحسابي المختلفة .

وتنعكس طبيعة التفاعل الحسابي هذه ، على وجهة نظر المستخدم ، فى الطرق المختلفة لتنظيم الجهاز الحاسب التركيبي ، فهو يرى نفسه ، فى صورة قريبة من نظام التغذية المرتدة Feed-back system .

هنا توجد عدة نماذج لتنظيمات تركيبية ، يختلف بعضها عن بعض فى قاعدة الانتظار (للمشاكل الحسابية) فى الذاكرة . وفيما يلى تلخيص للخطوط العريضة لبعض أنظمة التفاعل الحسابي (حيث يتصل الانسان مع الجهاز فى طور حسابي) التى تختلف فيها قواعد الانتظار فى الذاكرة وذلك قبل مرورها الى وحدة التشغيل المركزية .

١ ـ نظام الروند روبن Round-Robin (R.R) Model (انظر شكل ١٢) : هنا يتم استدعاء كل مشكلة حسابية من مكان انتظارها فى الذاكرة بناء على قاعدة اولوية الوصول ، بمعنى من يصل أولاً ، يحصل على الخدمة اولاً .



Turn-around jop

الزمن الكلى للمشكلة الحسابية الاولى

(شكل ١١)

وصول المشاكل الحسابية

١ ـ المشكلة الحسابية الاولى تبدأ فى طلب الخدمة الحسابية .

٢ ـ يبدأ الجهاز الحاسب فى الاجابة وبالتالي تبدأ الخدمةالحسابية .

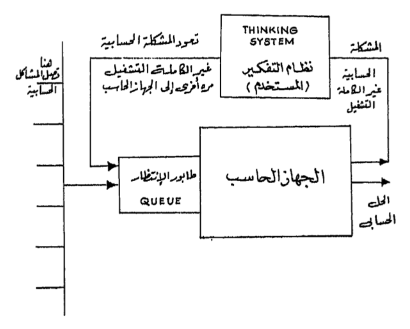
٣ ـ ينتهى الجهاز الحاسب من خدمة المشكلة الحسابية الاولى .

٤ ـ تعود المشكلة الحسابية مرة ثانية الى طلب الخدمة الحسابية من الجهاز الحاسب .

٥ ـ يبدأ الجهاز الحاسب فى الاجابة وبالتالى تبدأ الخدمةالحاسبة الثانية للمشكلة الحسابية الاولى .

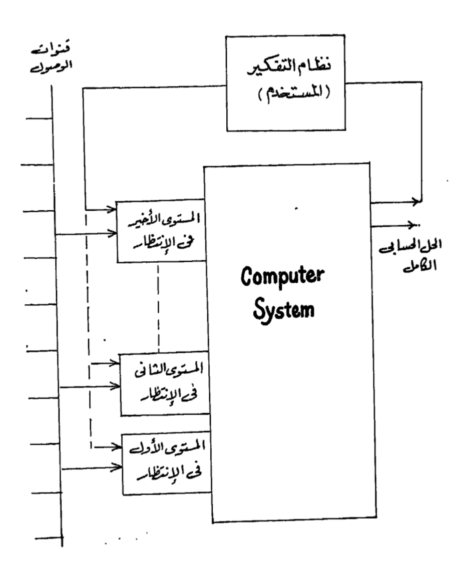
٦ ـ ينتهى الجهاز الحاسب كلية من المشكلة الاولى .

٧ ـ تبدأ المشكلة الثانية .



Round — Robin (R R) Model

(شكل ١٢)



نظام الوجهة الأمامية والوجهة الخلفية المتعددة المستويات

(شكل ١٣)

٢ ــ نظــام الوجهــة الأماميــة والوجهة الخلفية Foreground — Background (F.B) Model (انظر شكل ١٣) : وهنا يصبح جزء من الاهتمام لعمليات التشغيل متجهاً نحو السجل التاريخى للمشاكل الحسابية ، بمعنى أن تتم التفرقة بين المشاكل الحسابية الخام ، والمشاكل الحسابية المشغلة تشغيلاً غير كامل . وهنا يستقر كل من هذين النوعين فى مكان خاص به فى الذاكرة ، على أن تطبق قاعدة أولوية الوصول على كل نوع على حدة . وفى أغلب التصميمات ، توجد وحدتان للتشغيل المركزى ، تخصص كل منهما لاستقبال نوع واحد من المشاكل الحسابية ، ويطلق على المصادر الحسابية (الذاكرة ووحدة التشغيل) المخصصة للمشاكل الحسابية الخام اسم الوجهة الأمامية ، بينما يُطلق على المصادر الحسابية التى تتناول المشاكل الحسابية غير الكاملة التشغيل ، اسم الوجهة الخلفية .

٣ ــ نظام الوجهة الأمامية والوجهة الخلفية المتعــددة المستويــات (انظــر شــكل ١٣) Multi level Foreground — Background Model : فى هذا النظام تمنح كل مشكلة حســابية وقتا معينا وثابتا ، داخل وحدة التشغيل المركزية . وفى هــذا الوقت المحــدد ، تستــنفد المشــكلة الحسابية فرصها فى الحل ، فى هذه المرحلة مــن التفاعل الحسابى ، وبعد ذلك تكره المشكلة على الخروج وافساح الطريق أمام مشكلة حسابية اخرى ، وقد تحصــل المشكلة الحســابية على عشرات الفرص فى التشغيل قبل أن تصل الى الحل الحسابى الأخير ، وبعبارة اخرى فانه يمكن تصور التشغيل بمثابة عدة مراحل متوالية تنضج فيها المشكلة الحسابية الخــام بشــكل تدريجى ومطرد وتصل بذلك الى مستويات مختلفة مــن النضج النضج الحسابى . وفى هــذا النظام ، تقسم الذاكرة الى عدة أماكن storage slots ، يخصص كل منها لتخزين المشاكل الحسابية ذات المستوى الواحد من النضج الحسابى . ويقاس مستوى النضج الحسابى بعدد المرات (الدورات) التى دخلتها المشكلة الحسابية فى النظام مارة فى ذلك على المصادر الحسابية (الذاكرة ووحــدة التشغيل) والانسان المستخدم (المفكر) .

لعل من أكثر الأمثلة ، شبهاً بحالة الاتصال بين الانسان والمستخــدم والجهــاز (التفاعل أو الحوار الحسابى) هو مثل الطبيب والمريض . يزور المريض طبيبه مرة أو عدة مرات . المريض لديه مشكلة صحية . والطبيب يمثل له احتمالات الحل لهذه المشكلة . يتأمــل المريض ويفكــر فى نصائح الطبيب بعد انتهاء الزيارة ويراقب مدى تقدمه الصحى ، ثم يعود مرة اخرى الى زيارة الطبيب فى طلب المزيد من النصائح لحل مشكلته الصحية . نتصور الآن مثل المرفــق الصــحى (المستشفى) الذى يضم عشرات الأطباء والمعد لاســتقبال عشرات المرضى . هنــا يصبح مــن الضرورى وضع قاعدة لتنظيم دخول المرضى من غرفة الانتظار الى غرفة الطبيب المعالج ، وقد تكون القاعدة بسيطة وتعتمد فى ذلك على أولوية الوصول وقد تكون القاعدة اكثر عمقاً ، بمعنى أنها تفرق بين المريض القادم للمرة الاولى والمريض المتكرر الزيارة ، كذلك تختلف السياسة التى يتبعها الطبيب فى استثمار وقته مع المريض ، فقد يمضى الطبيب وقته مع المريض حتى ينتهى مــن العلاج وذلك بصرف النظر عن طول الوقت وقلق المرضى الآخرين فى غــرفة الانتظار ، وقد يقرر الطبيب تمضية عشر دقائق ، مثلاً ، مع كل مريض .

٤ ــ التنظيم التركيبى للمشاكل الحسابية

يستخدم المتخصصون فى التحليل الرياضى للانظمة system analyst فكرة التركيب الجزئى بوجه عام وذلك فى تحليل المشاكل الحسابية الضخمة والمعقدة . وتزداد قيمة هذا الاسلوب التحليلى (بل وتصبح ضرورية) فى حالة وجود جهاز حاسب ذى قدرة على العمل الحسابى المتوازى . هنا تفتت المشكلة الحسابية الام الى عدة مشكلات صغيرة ، تشغل بدورها على التوازى على أن يعاد تجميع الحلول الجزئية (الناتجة من تشغيل المشاكل الجزئية) ليكون الحل الأخير الكامل للمشكلة الام . وهذا المنهاج التحليلى يسمى باسم التوازى الصريح حيث انه يتم تحت رقابة الانسان وذلك لفصله عن التوازى الضمنى الذى يتم داخل الجهاز الحاسب (مجموعة لفات التشغيل) خفية عن الانسان . وللتوازى الصريح عدة فوائد أهمها الآتى :

أ ــ يزداد تبسيط المشكلة الحسابية من ناحية ويعمق فهم دور المتغيرات فيها من ناحية اخرى .

ب ــ تزداد بذلك سرعة حلها على الجهاز الحاسب .

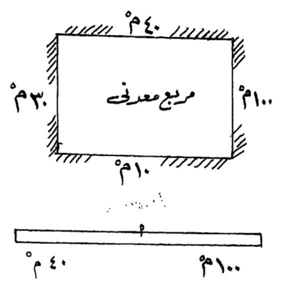
ج ــ يصبح من الممكن خلق نوع من الاندماج بين بعض المتغيرات وكذلك نوع من الانفصال بين متغيرات اخرى .

هذه المميزات لاتأتى بالمجان ، بل يدفع ثمنها فى المجهود الرياضى (خارج الجهاز الحاسب) الذى يقوم به المتخصص الرياضى ، ومن ناحية اخرى ، فانها تتطلب أجهزة حاسبة مصممة تصميماً ذا قنوات حسابية متوازية .

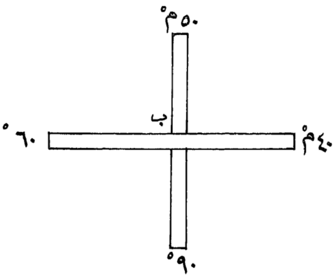
وقد تزداد الرغبة فى فهم المشكلة الحسابية على نحو أكثر عمقاً ، وهنا يكون الاهتمام بتحديد علاقة الأجزاء بعضها ببعض ومحاولة تنظيم المشكلة الحسابية فى تركيب تصاعدى وهذا التركيب يمثل متغيرات (control variables) المستوى الأعلى ، والقدرة على تحريك عدد قليل من المتغيرات ذات التأثير الفعال فى المستويات التى تليها (فى التركيب التصاعدى) بينما تمثل متغيرات المستويات الدنيا ، القدرة على الاستقلال وتنفيذ الأوامر الصادرة اليها من المستويات العليا . وبعبارة اخرى فانه يمكن اعتبار دور المستويات العليا على أنه نوع من التنسيق ، بينما دور المستويات السفلى هو تنفيذ الأوامر .

ومما هو جدير بالذكر ، انه لاتوجد علاقة مباشرة بين التركيب التصاعدى للمشاكل الحسابية والتركيب التصاعدى للمصادر الحسابية ، هذا بمعنى أن المستويات العليا فى المصادر الحسابية لاتتناول بالحل المستويات العليا فى المشاكل الحسابية ، وبالمثل المستويات السفلى فى المصادر الحسابية لاتتولى امور المستويات السفلى فى المشاكل الحسابية .

هذه النقطة ينبغى أن تبقى واضحة فى ذهن القارىء وهى أن تطبيق فكرة التركيب الجزئى (ذات المستوى الواحد فقط) فى كل من المشاكل الحسابية والمصادر الحسابية هى (فكرة التركيب الفكرى ذات المستوى الواحد) التى تمهد الطريق لفكرة التفاعل الحسابى ، بينما تطبيق فكرة التركيب التصاعدى (المتعدد المستويات) يُعتبر سياسة داخلية ومستقلة تنفرد بها المصادر الحسابية والمشاكل الحسابية كل على حدة ، دون أن ترتبط بشكل مباشر بفكرة التفاعل الحسابى .



درجة حرارة النقطة (أ) تساوى الوسط الحسابى = $\frac{١٠٠ + ٤٠}{٢}$ = ٧٠ م°



درجة حرارة النقطة (ب) تساوى الوسط الحسابى = $\frac{٤٠ + ٥ + ٦ + ٩٠}{٤}$ = ٦٠ م°

(شكل ١٤)

والصياغة الرياضيــية للحديث الســابق ،تعتبر دراسة شيقة للغاية ، غير انها تتطلب نوعاً معيناً من الاعداد الرياضى السابق ، الذى هوبعيد عن اهداف المقال . والقارىء ذو الاهتمام الرياضى الخاص ، يمكنه أن يعود الى المراجعوخاصة ميزاردڤيك (٣٤) ، اذ ان له دراســة عميقة وجدية للغاية . ونكتفى فى آخر هذا الجزء بضرب مثالين ، على نحو مختصر ، المثل الأول يبرز فكــرة التفتيت الجزئى (ذات المســتوىالواحد) والمثل الثانى عرض سريع لفكرة التفتيت ذات المستويات المتعددة ، أى التركيب التصاعدىللمشكلة الحسابية .

مثال (١) (انظر شكل ١٤)

الفرض :

١ ــ نفرض أن لدينا مربعاً معدنياً .

٢ ــ امكننــا ان نحتفظ بدرجــة حــرارةالحواف Boundary الأربع للمربع عند درجات حرارة ثابتة ، فمثلاً احدى الحواف تكون عنددرجة حرارة ١٠°م ، والثانية عند درجة حرارة ٣٠°م ، والثالثة عند درجة حرارة ٤٠°م والرابعةعند ١٠٠°م .

٣ ــ نترك المربع فترة مــن الزمــن حتىتزحف الحرارة من الحــواف الى وســط المربع وبذلك تستقر درجــة حرارة المربع كلــه ، اىالحواف الأربع والوسط .

المطلوب :

حساب درجة حرارة كل نقطة فى داخــل المربع .

الحــل :

هذه مسالة كلاسيكية فى العلوم الطبيعيةوحلها يتأتى عن طريق حل المعادلة التفاضلية .

حيث :

درجة الحرارة T

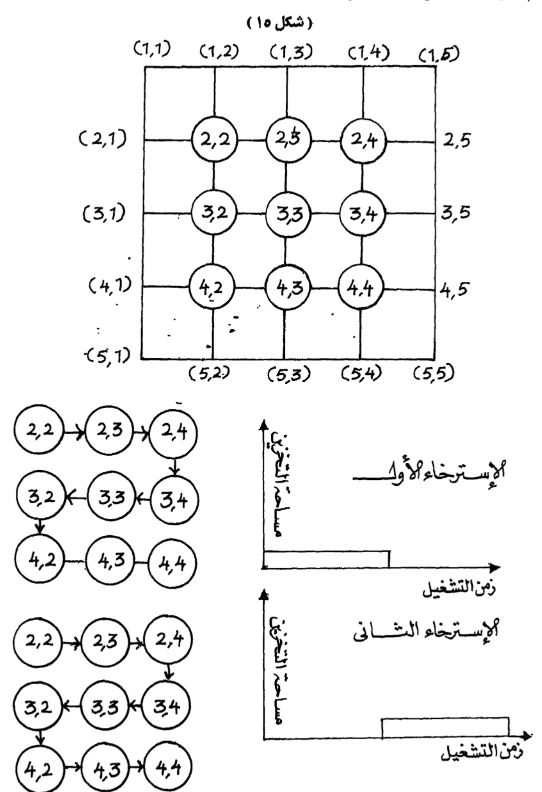
تمثل الأبعاد فى المحاور X,Y

غير انه يمكن حل هذه المسألة بالبداهة common sense ، دون الحاجة لمعرفــة المعادلات التفاضلية ، أو أى نوع آخــر من الرياضيات .والحل ببساطة يمكن تصوره كالآتى :

١ ــ نتصور أن لدينا قضيباً (انظر شكل١٤) معدنياً وأمكننا أن نحتفظ (ونتحكم) بدرجة حرارة كل من طرفى القضيب ، عند درجة حرارةثابتة ، فمثلاً الطرف الأيمن للقضــيب نحتفظ بدرجة حرارته عند درجة ١٠٠°م والطرف الايسرعند درجة ٤٠°م .

والسؤال الآن : ماهى درجة حرارة النقطةالتى تقع فى منتصف القضيب (نقطة ا فى شكل ١٤) .

(شكل ١٥)



الحل على التوالى فى استرخائيته

Sequential processing in two Relaxations

الاجابة : تمر فترة من الوقت قبل انتستقر درجات الحرارة فى النقط المختلفة للقضيب وتسمى هذه الفترة الزمنية ، بفترة التأثيرات الحرارية العابرة (transient) التى تسبق مرحلة التوزيع الحرارى الثابت .واهتمامنا الآن ، يبدأ بانتهاء فترة التأثيرات الحرارية العابرة وبداية مرحلة التوزيع الحرارىالثابت . هنا يمكن تطبيق فكرة التنسيق الشكلى الهندسى (السيمترى symmetrical) بصورة غير مباشرة ، بمعنى أن درجة حرارة نقطة منتصف القضيب (النقطة أ) تتأثر بطرفى القضيبالمختلفين (الأيمن والأيسر) طبقاً لمدى الفاعلية الحرارية لكل طرف فقط ، طالما أن تأثير عنصرالبعد المسافى يكون متعادلاً . ويقتضى هذا ، أن درجة حرارة (النقطة أ) تكون المتوسط الحسابىلدرجتى الحرارة فى كل من الطرفين الأيمن والأيسر .

اذن درجة حرارة النقطة أ = $\frac{١٠٠+٤٠}{٢}$ = $\frac{١٤٠}{٢}$ = ٧٠°م

نتصور الآن مثلاً آخر ، اكثر عمومية .نفرض أن لدينا قضيبين متعامدين « صليب cross » (انظر شكل ١٤) . وأمكننا أننحتفظ بدرجة حرارة كل طرف من الأطراف الأربعة بالدرجات الحرارية التالية .٤٠°م ، ٥٠°م ،٦٠°م ، ٩٠°م .

السؤال : ماهى درجة حرارة نقطة الوسط(النقطة ب) ، بعد زوال التأثيرات الحرارية العابرة ؟

الاجابة : استمراراً للمنطق السابق فىالتحليل ، فان درجة حرارة النقطة المتوسطة ، تكون الوسط الحسابى لدرجة حرارة النقطالأربع :

اذن درجة حرارة النقطة ب= $\frac{٤٠+٥٠+٦٠+٩٠}{٤}$ = $\frac{٢٤٠}{٤}$ = ٦٠°م .

وبمثل نفس هذا الاسلوب من التحليل ،يمكننا القول ، بأن درجة حرارة نقطة ما تقع داخل المربع المعدنى ، فى المثل الأول ، مثال (١)يمكن حسابها من متوسط درجة حرارة اربع نقط اخرى فقط ، بحيث تكون هذه النقط الأربعشكلاً سيمترياً ، بالنسبة للنقطة التى يجرى حساب درجة حرارتها ، وبعبارة اخرى فانالقاعدة تكون كالتالى :

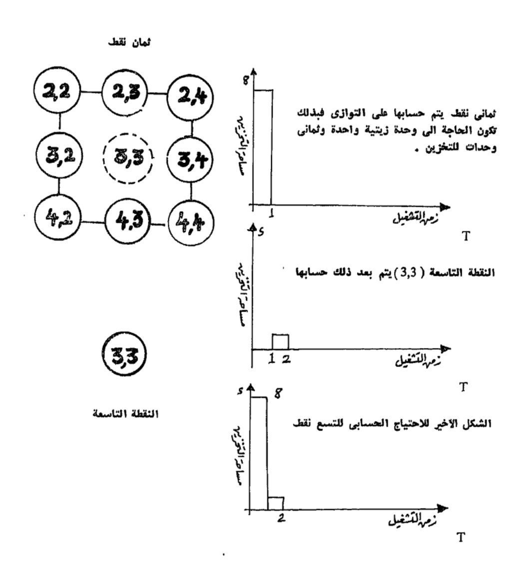
$$To = \frac{1}{4}(T_1 + T_2 + T_3 + T_4)$$

حيث : To هى درجة حرارة نقطة الوسطالتى يرجى حسابها : T_1, T_2, T_3, T_4 تمثل درجات حرارة النقط الأربع المحيطة بنقطة الوسط .

ترتيب الحل (انظر شكل ١٥)

نفرض أن المربع قد قسم الى ستة عشر (١٦) مربعاً صغيراً . هنا توجد تسعة فقط داخلية (٣×٣=٩) . والمطلوب حساب درجةالحرارة عند كل منها ، فمثلاً يمكن حساب درجة الحرارة عند نقطة (٢ر٢) من المتوسط الحسابىلدرجة حرارة النقط الأربع المحيطة

$$(T_{2,2} = \frac{1}{4}(T_{2,1} + T_{1,2} + T_{2,3} + T_{3,2}) .$$



هنا تشغل ثمانى نقط معا (على التوازى) ثم تشغل بعد ذلك النقطة التاسعة

شكل (١٦)

وكذلك يمكن حساب درجة الحرارة عنـدالنقطة (٣ر٢) من النقط الأربع (الجدد) المحيطة: $(T_{2,3} = \frac{1}{4}(T_{2,2} + T_{1,3} + T_{2,4} + T_{3,3})$ وهكـذا تسـمى هـذه الطريقـة فى الحـل ، باسـم اسـلوب الاسـترخاء Relaxation method فى حل المعادلات التفاضلية ، وهنا تحتوى النتيجة الاولى للحل على بعض الأخطـاء ، غير أن تكرارالحل (عند نقطة معينة) جملة مرات ، على ان تستعمل فى كل مرة نتائج المرات السابقة ، يساعدفى تلاشى الاخطاء قليلاً فقليلاً حتى تختفى كلية وهنا يقال ان الحل تخلص من الاخطاء ، أو بعبارة اخرى ، وصـل الى حالة الاسترخاء . (انظر المراجع (٤٥) لتفاصيل الاسترخاء) .

والسؤال الآن : ماهى طريقة تنظيم عـرض المشكلة الحسابية على الجهاز الحاسب ؟

الاجابة : هناك طريقتان ، الاولى وتفرض الحل على التوالى والثانية وتفرض الحـل على التوازى .

الحل على التوالى (انظر شكل ٢٦)

هنا تحسب درجة حرارة النقط الواحدة بعد الاخرى ، هذا بمعنى ان نبدأ بحساب درجة حرارة النقطة (٢ر٢) ثم درجة حرارة النقطـة (٣ر٢) ثم (٤ر٢) ، (٤ر٣) ، (٣ر٣) ، (٢ر٣) ، (٢ر٤) ، (٣ر٤) حتى (٤ر٤) . ويلاحظ ان نتيجة حساب النقطة الاولى تستخدم فى حـل النقطة الثانية ، اى نتائج حل العملية الواحـدة تكون جزءاً من بيانات المشكلة الحسابية للعملية التالية . من هنا يصبح واضحاً ، أن هناك جدولاً زمنياً ثابتاً فى تنفيذ العمليات الحسابية ، بمعنى انه لايمكن ، مثلاً ، تنفيذ العملية الثانية قبل العملية الاولى ، بل لابد من تنفيذ العملية الاولى على أن يستعمل الناتج فى تنفيذ العملية الثانية وهكذا تتسلسل العملية الثالثة والرابعة ... حتى التاسعة .

الحل على التوازى

تقسم المشكلة الحسابية الى جزئين ، الجزء الأول وهو خاص بحساب درجة الحرارة فى كل من النقط الثمانى (٢ر٢) ، (٣ر٢) ، (٤ر٢) ، (٤ر٣) ، (٤ر٤) ، (٣ر٤) ، (٢ر٤) ، (٢ر٣) سوياً . وهذا يحتاج بدوره الى تسعة مصـادر حسابية مستقلة فى عملها ، على أن يتناول كل من هذه المصادر الحسابية تشغيل عملية حسابية خاصة بنقطة واحدة . ويتعلق الجزء الثانى مـن المشكلة الحسابية بحساب درجة حرارة النقطة (٣ر٣) .

يلاحظ ان التنظيم فى جدول التنفيذ لكل من الجزء الأول والجزء الثانى (النقطة (٣ر٣)) يكون جدولاً مرناً ، بمعنى انه يمكن تنفيذ الجزء الثانى ثم الجزء الأول (ولكن لايمكن تنفيذهما معاً) ومن هنا فان تنفيذ جزئى المشكلة يعتبر تنفيذاً على التبادل commutative .

الاحتياج الحسابى Computation needs

اذا تصورنا أن تشغيل العملية الحسـابية ($T_0 = \frac{1}{4}(T_1 + T_2 + T_3 + T_4)$ يحتاج الى قدر معين من المساحة للتخزين فى الذاكرة ، وقدر معين من الزمن للتشغيل فى وحـدة التشـغيل المركزية . « فما هو الاحتياج الحسـابى الكلى الذى تطلبه المشكلة الحسابية الكلية » مثال (١)

من المصـــادر الحســابية عند التطبيق كل من التنظيمين المختلفين (التنظيم للحل على التوالى والتنظيم للحل على التوازى ؟)

الاجابة على هذا السؤال تصبح واضحـة (انظر شكل ١٧) فالحل على التوالى يحتاج الى تسع وحدات من وقت التشغيل ووحدة واحدة من مساحة التخزين ، بينما الحل على التوازى يحتاج الى ثمانى وحدات من التخزين ووحدتين زمنيتين (انظر شكل ١٨) .

ويمكن تكرير العمليات السـابقة بقصد الوصـول الى استرخـاء احسن (قدر اقل من الخطأ) . هنا يكون الاحتياج الحسابى ، كما هو واضح فى (شكل ١٨) . (انظـر المراجع ٤٥)

مثال (٢) (عرض سريع لفكرة التفتيت ذات المستويات المتعددة . التركيب التصاعدى) . المطلوب تحديد القيمة العددية لكل من المتغيرين ١×، ٢× حتى تصبح المعادلة التالية :
$F(X_1, X_2) = (X_1 - X_2) + X_1X_2 + (X_2 - X_1)$ أقل قيمة ممكنة .

والطريقة الكلاسيكية لحل هذه المســالة تتطلب القيـام بعمـل تفاضـــل differentiate للكمية $F(X_1, X_2)$ ، وذلك بالنسبة لكل من المتغيرين X_1, X_2 كل على حدة ، على أن يساوى ناتج التفاضل بالكمية صفر .

وحل نتيجة هاتين المعادلتين يعطى القيمة العددية لكل من X_1, X_2 . وتفصيل ذلك كالآتى :

وبالمثل :

$$\frac{dF(X_1, X_2)}{dX_1} = 2(X_1 - 2) + X_2$$

$$\frac{dF(X_1, X_2)}{dx_2} = X_1 + 2(X_2 - 1)$$

والآن نســاوى كلاً مــن هاتــين المعادلتين بالقيمة صفر (سيكتب الصفر باللغة الانجليزية ، وبالتالى لا يخلط بالرقم خمسة باللغة العربية) .

$$2(X_1 - 2) + X_2 = 0 \, , \; X_1 + 2(X_2 - 1) = 0$$

والقيمة العددية التى تحققها كل من هاتين المعادلتين هى :

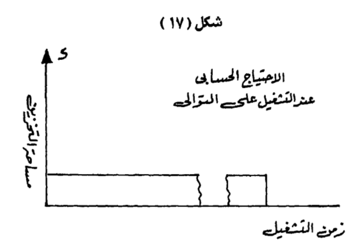
$$X_1 = 2 \, , \; X_2 = 0$$

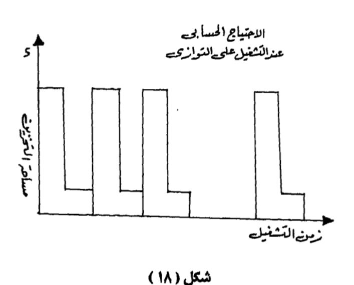
وهذا الحل لايعطينا القدرة على الفصل بين المتغيرات ، ومن ناحية اخرى لايعبر عــن فكرة تعدد المستويات .

منهاج آخر فى الحــل : (انظـر المراجـع للتفاصيل (٣٤) . (انظر شكل ١٩) ونريد الآن حلاً يحقق الآتى :

١ ــ أن نفصل بين المتغيرات X_1, X_2 بحيث يمكن التحكم فى كل من هذين المتغيرين ، (كــل على حدة) ودون تأثير المتغير الآخر (بشكل مباشر) و (يتم الفصل بين هذين المتغيرين فى المســتوى المعروف بالمستوى الاسفل) .

شكل (١٧)

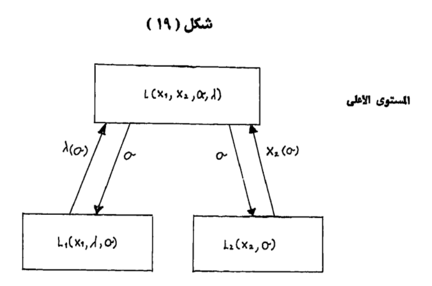




شكل (١٨)

تختلف الحاجة الحسابية لكل من زمن التشغيل ومســاحةالتخزين باختلاف تنظيم المشكلة الحسابية .

شكل (١٩)



المستوى الأعلى

المستويات الدنيا :

١ ـ اشارات الأمر (من اعلى الى أسفل) تكون عن طريق المتغير الوهمى س .

٢ ـ اشارات الطاعة بتنفيذ الأمر تكون عن طريق المتغيرات λ (a) L X_2 (a) .

٣ ـ فى المستويات الدنيا يتم الفصل بين المتغيرين X_1 L X_2 .

٤ ـ فى المستوى الأعلى يتم الجمع بين المتغيرين X_1 L X_2 .

٢ ــ ان نجمع بين المتغيرات X_1 & X_2 فى مستوى آخر (المستوى الأعلى) حيث يمكن التحكم من خلال هذا المستوى فى المتغيرات X_1 & X_2 (كل على حدة) فى المستوى الأسفل .

٣ ــ تجرى بين هذين المستويين ، معلومات تفيد عن اصدار الأمر (من المستوى الأعلى الى المستوى الأسفل) ومعلومات اخرى تفيد عن اطاعة بتنفيذ الأمر (من المستوى الأسفل الى المستوى الأعلى) . وتلعب المعلومات الوهمية( ) ، دوراً كبيراً فى تكوين هذه المعلومات .

طرق اخرى فى التفتيت

هناك عدة طرق اخرى فى حل (تفتيت)هذه المسالة الى عدة أجزاء اهمها طريقة دانزيخ وولف Dantzig & Wolf والطريقة التربيعية(الثنائية) والطريقة المختلطة Hybrid (انظر المراجع (٣٤)) .

وفى الجدول التالى تلخيص لمزايا وعيوب كل اسلوب فى الحل .

	Dantzig-Wolf دانزيخ وولف	Auadratic الطريقة التربيعية (الثنائية)	Hybrid الطريقة الهجينية	Multi-level المستويات المتعددة
الوقت اللازم لبناء النموذج الرياضى Formulation time	مجهود متوسط	مجهود متوسط	مجهود كبير	مجهود متوسط
المجهود اللازم لعمل البروجرام Programming effort	مجهود متوسط	مجهود بسيط	مجهود بسيط	مجهود بسيط
الوقت اللازم لتنفيذ البروجرام على الجهاز الحاسب Computer time	٤٩ ثانية	٥١ ثانية	٣٣ ثانية	٢٠ ثانية

٥ ــ التنظيم التركيبى للمصادر الحسابية بالمعنى المحلى الضيق Micro sense

كان الحديث فى الجزء الثانى من هذا الباب يتناول تحليل المصادر الحسابية بالمعنى العام الكبير macro sense . هناك عرفت المصادر الحسابية بأنها تتكون من وحدتين أساسيتين ، وحدة التشغيل المركزية ووحدة التخزين (الذاكرة) . وكان الحديث عن وظيفة وحدة التشغيل يفيد بأنها نظام عام يقوم بتشغيل المشكلة الحسابية على أن يستغرق ذلك وقتاً معيناً ، بينما الحديث عن وظيفة الذاكرة ، كان ملخصه يفيد بأنها مستودع عام لتخزين

الأنواع المختلفة مـن المعلومات ، وكذلك كانت الاشارة الى دور وحدة التحكم تفيد بأنها تقوم بدور الرقيب الذى يشرف على حركة مرور المعلومات بين وحدة التشغيل والذاكرة . وفى هذا الجزء نحصر اهتمامنا فى نطاق الخلايا الصفيرة (النواة) التى تتركب منها المصادر الحسابية ، وكذلك نحصر اهتمامنا بنوع آخر من المعلومات ، تلك المعلومات التى تمر بين الخلايا الصغيرة والتى تتجمع فى شكل يشبه الحركة داخل الشبكة . بعبارة اخرى ، فان الحديث الآن سيكون عن حركة مرور من نوع آخر ، ولنا أن نحدد ماهو المقصود بكل من الخلايا الصغيرة والنوع الجديد من المعلومات .

تعاريف Definitions

١ – الدوائر المنطقية : وهى دوائر كهربية تقوم بأداء وظيفة منطقية معينة وذلك طبقاً لقاعدة منطقية معينة . هذا بمعنى ان التيار الكهربى الناتج مـن الدائرة المنطقية يتوقف على العلاقة المنطقية بـين التيارات الداخلة لهذه الدائرة .

٢ – المعلومات : تمثل خطوط المواصلات التى تحمل التيار الكهربى من دائرة منطقية الى اخرى داخل الشبكة . وتستخدم نظرية الخطوط المتجهة directed graph theory فى تمثل حركة المعلومات بين الخلايا الصغيرة .

هنا تمثل العقد nodes دور الدوائر المنطقية والوظيفية ، بينما تمثل الخطوط المتجهة directed graph دور الاشارات الكهربية (signal) المارة بين الدوائر .

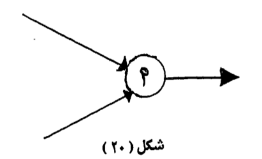
وقد أدى استعمال نظرية الخطوط المتجهة الى عـدة فوائد تحليلية ، فهى تظهر الشبه فى التحليل بين نظام الدوائر المنطقية وبين عـدة أنظمة اخـرى (سنضرب مثلاً مـن العلوم الاجتماعية) ، ومن ناحية اخرى فهى تساعد فى وضع أساس رياضى لما يسمى باسم التصميم التلقائى والصيانة التلقائية للأجهزة الحاسبة .

وقبل أن نبدأ الحديث عن التصميم التلقائى والصيانة التلقائية ، نقف قليلاً لكى نفهم تطبيق نظرية الخطوط المتجهة فى الدوائر المنطقية الكهربية وتطبيقات اخـرى مـن العلوم الاجتماعية (sociograms) . فمثلاً شكل (٢٠) يمثل عقدة واحدة (العقدة أ) يغذيها خطان متجهان ويخرج منها خط واحد متجه . وقـد تمثل (العقدة أ) دائرة منطقية يكون انتاجها (الخط الخارج) طبقاً لقاعدة منطقية تحكم العلاقة بين خطى التغذية (الاثنين الداخلين اليها) .

وفى تصوير آخر نستطيع تصور (العقدة أ) على أنها شخصية اجتماعية تستمد الأوامر من شخصيتين اخريين وتقوم بدورها باصدار الأمر الى شخصية اخرى .

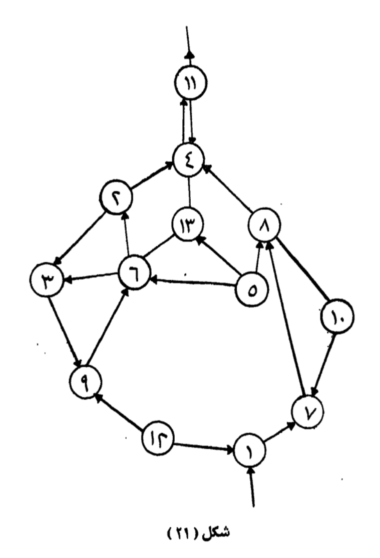
فى مثل آخر (انظر شكل ٢١) قـد يزداد عدد العقد ويزداد كذلك عدد الخطوط المتجهة . واذا أمكننا أن نتصور أن هذا الشكل يمثل بعض الدوائر المنطقية لجهاز حاسب معين * ، فانه

* – هذا الشكل يمثل بالفعل بعض اجزاء الحاسب H-200 لشركة هانويل Honeywell .



شكل (٢٠)

شكل بسيط يمثل عقدة واحدة يدخلها خطان للتغذية ويخرج منها خط واحد للتغذية



شكل (٢١)

من الصعب تحديد اكثر العقد فاعلية بمجرد النظر الى الشكل

يكون مفيداً لنا ان نحدد اكثر العقد تأثيراً فى النظام كله (للشكل) ، بمعنى ماهى العقدة التى اذا أصابها خلل فان النظام كله يصاب بالشلل ؟ . اذا اتجه تفكيرنا فى نحو آخر وتصورنا أن شكل (٢١) يمثل خلية اجتماعية ، حيث تمثل العقد شخصيات معينة والخطوط الخارجة من كل عقدة تمثل علاقة الأمر الصادر من هذه العقدة ، كما أن الخطوط الداخلة للعقدة تمثل الأمر الصادر الى هذه العقدة ، فان من الطبيعى ان نسأل أنفسنا السؤال التالى :

« من هى الشخصية صاحبة النفوذ الأول ؟ وما هو محيط نفوذها ؟ »

يمكن ايضاً أن نتخذ زاوية جديدة فى تحليل النظام ، فنبدأ بالتفكير فى أواصر الصلة الضعيفة (على عكس المنهاج السابق الخاص بالبحث عن مراكز القوى) ، بمعنى كيف يمكن تفتيت هذه الخلية الاجتماعية ؟ والسؤال العام الآن .

هل يمكن وضع معيار موضوعى للاجابة على هذه الأسئلة ؟

فى بعض الأمثلة الاستثنائية (انظر شكل ٢٢ ـ أ) يمكن تحديد مراكز القوى (فى العقد) أو الشروح (فى الخطوط) ، باستعمال العين المجردة . غير انه لا يمكن الاعتماد على العين المجردة فى حالات اخرى (شكل ٢٢ ـ ب) كما أن استعمال العين فى الاجابة على مثل هذا النوع من الأسئلة ، يعكس ، الى حدما ، بعض الانحياز الشخصى للانسان القائم بالتحليل . (انظر شكل ٢٣) .

والسؤال الآن :

كيف تحدد مراكز القوى أو نقط الضعف بشكل موضوعى ؟

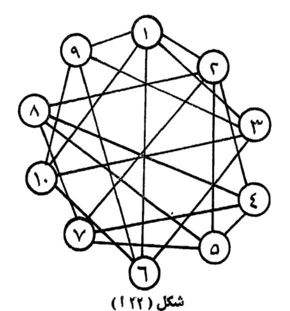
الاجابة : **أولاً** : ينبغى بناء النموذج الرياضى للنظام الذى تمثله مجموعة العقد والخطوط المتجهة فيها .

ثانياً : اختيار الاطار frame الرياضى الذى يبرز خواص النموذج الرياضى (من نقط القوة والضعف) .

من هنا سيكون الجزء الأكبر من الاهتمام هو تحويل transform النموذج الرياضى الى اطار آخر ثم اعادة النظر فى النموذج الرياضى فى كل اطار .

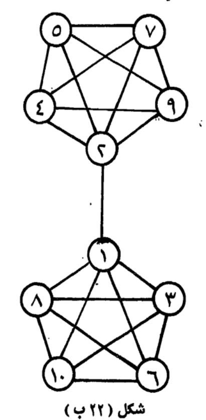
ونقف الآن قليلاً لنفهم المعنى الطبيعى لعملية وضع النموذج الرياضى فى عدة اطارات مختلفة ، وبعبارة اخرى تحويل النموذج الرياضى من اطار الى آخر . ونضرب هنا بعض الأمثلة التى تساعدنا فى فهم المعنى الطبيعى لعملية التحويل .

فى المثل الأول ، نتصور أن لدينا قطعة من القماش ونريد ان نكشف عما اذا كانت هناك عيوب فى النسيج (Textile) . لا شك فى أننا ننظر لقطعة القماش فى ضوء مصدر معين ونحاول أن نتعرف على مناطق النسيج الخفيفة (نقط الضعف) وذلك بتحديد المناطق التى ينفذ منها مقدار كبير من الأشعة ، وبذلك يبدو لنا المصدر الضوئى من خلالها . قد تبدو هذه الطريقة ساذجة وعرضة للخطأ للمتخصص الكيميائى وقد يقرر لنا أن هناك صبغة كيمائية stain (ذات مفعول



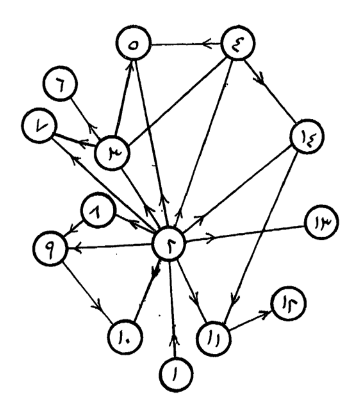
شكل (٢٢ أ)

هنا يمكن تحليل هذا الشكل الى جزئين غيرمتشابكين (انظر شكل ٢٢ ـ ب) . استعمال العين المجردة فى التحليل مسالة غير سهلة



شكل (٢٢ ب)

هذا الشكل هو تبسيط فى التحليل « انظر الشكل ٢٢ أ »



العقدة (٢) تمثل مركزاً نشيطاً لا صدارالأوامر غير أنها بدورها تمتثل للأمر الصادر اليها من العقدة (١) . بذلك تكون العقدة (١) هي صاحبة النفوذ الأول ، تليها بعد ذلك العقدة (٢) ثم العقدة (٣) . هنا يكون التحليل عن طريق العين المجردة ، مسالة سهلة نسبياً

شكل (٢٣)

مؤقت) يمكنها الكشف عن نقط الضعف ، بمعنى أننا اذا صبغنا قطعة القماش بهذه الصبغة ، فان نقط الضعف ستبدو لنا بلون معين ونقط القوة ستبدو بلون آخر .

هنا تكون مسئولية الكيميائى ، وضع التركيب الكيميائى لهذه الصبغة .

مثل آخر (شبيه بالمثل السابق) وهو مايجرى فى علم الأنسجة Hestology فى البحوث الطبيعية . هنا تصبغ الأنسجة tissues بصبغات كيميائية معينة ، على أن تتفاعل الطبقات المختلفة للأنسجة tissue layers مع الصبغة الكيميائية بشكل مختلف وتعطى كل منها لوناً خاصاً وبذلك يمكن تمييز كل طبقة من الاخرى .

المثل الثالث وهو خاص باستعمال النظائر المشعة Isotopes فى الكشف على السرطان . هنا تتم التفرقة بين الأنسجة المصابة بالسرطان والأنسجة السليمة على أساس تحديد كمية الاشعاعات التى تمتصها كل من هذه الأنسجة .

تلخيصاً لما سبق ، يمكن القول بأن المتخصص الكيميائى قد يلجأ الى اختيار بعض الصبغات لكى يكشف عن خواص الأنسجة التى لا تراها العين . ويلجأ الطبيب كذلك الى استعمال النظائر المشعة للكشف عن الأنسجة المصابة بالسرطان والتى لا تراها العين .

والسؤال الآن : فى ضوء الأمثلة السابقة لكل من الكيميائى والطبيب ، ما هى مهمة المهندس فى الكشف عن مراكز القوى أو أواصر الضعف فى النموذج الرياضى ؟

الاجابة : يتم ذلك بالبحث عن الاطار الرياضى المناسب ، تماماً كما كانت مهمة الكيميائى البحث عن المركبات الكيميائية للصبغة المناسبة ، وكما كانت مهمة الطبيب هى البحث عن التركيب الذرى nuclear structure المناسب للنظائر المشعة . وهذا تشبيه مع الفارق ، اذ أنه فى حالة كل من الكيميائى والطبيب ، يلجأ كل منهما الى العين المشعة (أو الميكروسكوب) بعد استعمال المادة المساعدة (الصبغة أو النظائر المشعة) . وبعبارة اخرى ، فان العين المجردة (أو الميكروسكوب) لا تستبعد استبعاداً كلياً . غير أن الموقف يختلف عندما نتناول النموذج الرياضى بالتحويل من اطار الى آخر ، فان استبعاد العين المجردة يكون نهائياً .

يتناول الباب الخامس المعاملة الرياضية لمسألة التحويل . وسنترك بعض النقط الأساسية للمراجع وذلك لصعوبة عرضها مع الاحتفاظ بأهداف المقال العامة .

وقبل أن نبدأ الباب الخامس ، نشير بايجاز سريع الى بعض التطبيقات المباشرة (للعرض السالف عن الخطوط المتجهة فى الدوائر المنطقية) المستعملة فى صيانة الأجهزة الحاسبة . أهم هذه التطبيقات هو ما يسمى بالتصميم التلقائى والصيانة التلقائية . ويعرف التصميم التلقائى design automation بالقدرة على استعمال اسلوب معين فى تصميم بعض الدوائر المنطقية logic circuit على أن يتم ذلك بشكل آلى ، يحول الجزء الروتينى فى التصميم من مسئولية المهندس الى مسئولية الجهاز الحاسب ، حتى يخف العبء عن عاتق المهندس ، وبالتالى يفسح له المجال للتفرغ الى نوع معين من التصميم الذى يتطلب مقدرة على الابتداع والابتكار . وقد ازداد الاهتمام فى عدة مراكز للأبحاث التى تقوم بتصميم الأجهزة الحاسبة بهذا النوع الجديد من

التصميم التلقائى ، وذلـك رغبة فى توفـير اليدالعاملة الغاليـة الثمن من ناحية ، ودفـع عجلة التصميم من ناحية اخرى ، وخاصة بعد ظهورواستعمال الدوائـر الكهربيـة الجديدة المعروفة باســم LSI (large scale intergration) . ويشمل التصميم التلقائى عدة مراحـل متتالية تبدأ بوضع منهاج عام للتفتيت decomposition algorithm وبعد ذلـك تمثيـل بعض الأنظمة لدوائر المنطق بنماذج رياضية . ويعتبر التصميم التلقـائى ناجحاً اذا أمكنـه التعـرف على نقط الضعف (الشروخ) بالتنظيم التركيبى للدوائـر LSI . وهنا يتم تفتيت النظـام خـلال هـذه الشروخ ، الى عدة انظمة مستقلة . وتستخدم نفس هذه الفلسفة فيما يسمى بالصيانة التلقائية للأجهزة الحاسبة ، وهنا يتم تشخيص الدوائر الكهربية العاطلة بناء على نموذج رياضى آخر . وتعتمد تلقائية الصـيانة على الاختيار الموفـق للنقط الاستراتيجية فى النظام العام التى تسمح بالكشف عن الخلل بسرعة وكفاءة . وهذه النقط ، تنقسـم بدورها الى نقط تلقين Input ونقـط اخراج OUTPUT .

تغذى نقط التلقين باشارات كهربية تسمى اشارات الاختبار Testsignal على أن تقاس هذه الاشارات مـرة اخـرى عند خروجهـا من نقط الاخـــراج . والاختيار الموفـق لنقـط التلقين والاخراج ، او بعبارة اخرى ، التعرف على النقط الاســتراتيجية يرجع أسـاساً الى المقـدرة على التعرف على نوع معين من التركيب التصـاعدى فى مجموعة الدوائر المنطقية ، هذا بمعنى تحديد مجموعة الدوائر التى تمثل أكثر المناطق حساسية وفاعلية ، بمعنى أن العطب فيها يؤدى الى شلل عام ، ثم تحديد المستوى التالى من الحسـاسـية . . . وهكذا حتى تصل الى تلك الدوائر التى لا تحدث تأثيراً فى دوائر اخرى .

●●●

الباب الثالث

١ ـ الأبحاث العلمية الماضية PREVIOUS RESEARCH

ظهـرت بعض المؤلفات (ولا زالـت توالى الظهور) التى تتناول موضوع التركيب الجزئى والتركيب الرياسى التصاعدى بالدراسة والتحليل . غير أن الغالبية العظمى لهذه الجهود العملية تتخذ زوايا وأهدافاً مختلفة بعض الشىء عن مثيلاتها فى هذا المقال .

درس **كاتـزان** (٢٥) Katzan التنظيـم الوظيفى للمصادر الحسابية بوجه عام والتنظيم الوظيفى للذاكرة memory بوجه خاص ، ودعا الى تنظيم قطـع الذاكـرة memory modules على نحو تصـاعدى مسـتخدماً فى ذلك فكـرة التركيـب الرياسى ، غير أنه فى دعـوته هذه ، لم يوفق فى الصياغة الرياضية التى تسند دعواه فى اثبات مزايا هذا النوع من التصميم design . وتـدارك **أورورا** Arora **وجـالو** Gallo (٢) النقص فى أبحاث كاتزان ، وقد قام كلاهما بالفعل بتصميم جهاز حاسب ذى تنظيم رياسى فى قطع الذاكرة ودعما هذه الدراسة بصياغتها فى شــكل رياضى . ولا شك فى أن مثل هذا الجهد يستحق التقدير ، غير أنه لم يسلم من بعض النقد وهــو عدم مرونة التصميم الـذى أدى الى المبالغة فى تصميم دوائر منطقية مساعدة تقوم بخدمة بعض مستويات الذاكرة memory levels .

مورنوف (٣٧) Morenoff وزمــلاؤه فى مركز الدراسات المتقدمة التابع للبحرية الأمريكية اتبعوا اســلوباً جديــداً وهــو يقضى بتجميع synthsis عدد من الأجهزة الحاسبة الصــغيرة Mini-computers حــول جهاز حاسب ضخم فى شكل تصاعدى . هنا تقــوم مجموعة الأجهــزة بــدون التابــع satellite couplers الذى يقــوم يقوم بعمل الحسابات الصغيرة بناء على أوامــر يتلقاها كل من هذه الأجهزة الحاسبة الصــغيرة (التابعة) من الجهاز الحاسب الضخم الذى يقوم بدور السيد Master فى توزيع الواجبات . وقد لقى هذا النــوع من التنظيم الوظيفى للمصــادر الحسابية قدراً كبيراً من النجاح فى حل نوع معين من المعادلات التفاضلية التى تســتخدم فى التنبؤ بالأرصــاد الجوية atmospheric primitive equation prediction model .

وقام عدد من الباحثين بدراســة التنظيم الوظيفى للمصادر الحسابية خاصــة عندما بدأ الاهتمام يتزايد بفكرة المرفق الحسابى computing utility . وهنــا تقف أبحاث **دينيس** (١٣) Dennis ، بمعهد ماساشوســيت للتكنولوجيــا .M.I.T ، بمثابة حجر الزاوية فى هذا المجال من الأبحاث . اقترح دينيس تصميم نوع جديد من المسجلات registar يستخدم فى تقسيم الذاكرة memory segmentation على نحو يسمح بقدر كبير من المــرونة فى اســتخدام اجزاء الذاكــرة memory segment وبعض المركبات components الاخرى من المصــادر الحســابية ، وهذا بالتالى أدى الى تنشيط حركة مرور traffic fiows المشاكل الحسابية داخل الجهاز الحاسب طبقاً لارادة المستخدم للجهاز الحاسب . ويعتبر عمل دينيس ، من ناحية اخرى ، بداية دخــول نظرية طابــور الانتظار qucue theory ، فى تصميم وتخطيط المصادر الحسابية لكى تقــوم بخدمة المشاكل الحسابية ، وهذه النقطة ستعرض للشرح فيما بعد .

وقد ظهــرت عدة أبحاث اخــرى لتتناول بالدراسة والتفصــيل ما بداه دينيس . ومعظم نتائج هذه الأبحاث لخصت فى مقال **ماكينى** (٣٢) MacKinny ، وهى تدور حول فكرة الموازنــة بين العــرض والطلب ، عرض القدرة الحســابية computing power التى تقــوم بها المصــادر الحسابية ، والطلب لخدمة service المشاكل الحسابية . ونتيجة لهــذا الاتجــاه الجديد فى تصميم المصادر الحسابية ، ظهرت الحاجة الى تقويم مدى فاعلية وكفاءة الخدمة الحسابية التى تؤديها المصادر الحسابية . وهنا يصبح الشــبه بين الجهاز الحاسب ، (كآلة للمعلومات) والصور الاخرى لآلات الطاقة ، شبهاً غير موفق . فمثلاً كفاءة آلة الطاقة تحســب النســبة بين الطاقة الناتجة من التشــغيل (والخارجــة من الآلة) والطاقة الداخلة للآلة بقصــد التشــغيل ، فاذا كانت هذه النسـبة تساوى ١٠٠٪ ، فهذا يعنى أنه لا يوجد ضياع فى الطاقة اثناء تشغيلها فى آلة الطاقة ، وهى حالة نظرية غير واقعية . واذا كانت النســبة ٨٠٪ مثــلاً ، فهذا يعنى أن ٢٠٪ من الطاقة قد ضاعت سدى اثناء تشغيل الطاقة . ومثــل هذا الموقــف لا يوجد فى آلــة المعلومات (الجهاز الحاسب) فلا يوجد ضــياع أو تسرب للمعلومات اثناء تشغيلها . ومن هنا يصح الشبه بين الجهاز الحاسب ومجموعة من المواسير أقرب للواقــع وذلك عند الحديث عن كفاءة المصــادر الحسابية . هنا ظهرت فكرة « خطوط المواســير Pipelining of computer » وفكــرة « الكمية المارة Throughput » من المشاكل الحسابية على المصادر الحسابية . وهذه الاتجاهات الجديدة ،

لا زالت فى دور التكوين ولم تصل بعد الى صورةمبلورة أخيرة وهى موضوع جدل علمى لكثير من الباحثين . غير انه فى رأى كاتب هذا المقال ، أن التقويم الموضوعى لعدة اتجاهات جديدةفى تصميم الأجهزة الحاسبة ، ومنها التركيب الجزئى والتركيب التصاعدى ، لن يتبلور بشكل قاطع حتى يتحدد المفهوم الجديد Throughput للمصادرالحسابية .

قام بيرنشتين (٥) Bernstein فى معامل شركة جنرال اليكتريك الأمريكية General Electric بعمل نماذج رياضية للتركيب التنظيمى لجهاز حاسب صمم على نظام تصاعدى ، مستخدماً فى ذلك كثيراً من أفكار « دينيس » الخاصة بتصميمات المرفق الحسابى. وكانت دعوى بيرنشتين أن التركيب التصاعدى فىتنظيم المصادر الحسابية ، يزيد من كفاءة الخدمة الحسابية ، اذا تم قياس الكمية المارة Throughput من الحسابات تحت ظروف معينة. وأبحاث بيرنتشين لها الكثير من الفضل فى الدفاع عن النظام الرياسى التصاعدى ، وان كان ينقصها القدر الكافى من التحديد لفكرة الكمية الحسابيةالمارة خلال المصادر الحسابية .

وقام كل من بير (٤) Bear ، وسكوير (٤٨) Squire وهليرمان (٢١) Hellerman بدراسات تكميلية لأبحاث برنشتين ، ويختلف هؤلاء الباحثون فى بعض التفاصيل الدقيقة والتى لا تمس الجوهر . وبدأت مجموعة اخرى من الباحثين فى معامل شركة أ . ب . م . I.B.M. فى دراسة تصميم نوع جديد من لغات البرامج Programming Languages يمكن بها تهيئة الجهاز الحاسب على نحو تصاعدى فى طريقةاستعماله (من وجهة نظر المستخدم) دون الحاجة الى اعادة تنظيم المصادر الحسابية على نحو ثابت . وهذا النوع من التهيئة يستخدم ما يسمى بالكيان الطرى Software (باستخدام اللغات الرياضية) وليس الكيان الجامد الحقيقى Hardware (باستخدام الدوائر الكهربية) . وعملاً بهذه الفلسفة فى تصميم الأجهزةالحاسبة ، فلقد ابتدع كل من تسلر Tesler واينيا (٤٩) Enea ، نظاماً جديداً فى مجمع اللغات compilre مستخدمين فى ذلك لغة ذات واجب واحد محدد Single assignment language .

وقد ظهرت الحاجة الى تنظيم المشاكل الحسابية ، تنظيماً تركيبياً بوجه عام ، عندما بدأت المشاكل الحسابية تزداد فى التضخم ،وبالتالى بطلب سعة كبيرة . ولعل من أكثر الأمثلة شيوعاً فى هذا الجانب هو المعادلات التفاضليةالجزئية Partial differential equations التى تتطلب جهازاً حاسباً ذا سعة تخزين كبيرة . وكانت الاتجاهات الاولى لحل مثل هذه المعادلات ، هو تصميم نوع من الأجهزة الحاسبةالهجينية Hyptid computer التى تضم وحدة حسابية رقمية Digital Unit ووحدة حسابيةتناظرية Analoge Unit غير أن هذا الاتجاه فى تصميم الأجهزة الحاسبة فقد الكثير من البريق والمزايا بعد ظهور الأجهزة الحاسبة الرقمية Digital computer ذات القدرات الحسابية المتوازية Parallel Processing capabilities وذلك نتيجة للتقدم السريع فى تصميم مجموعةاللغات Compilers والنظام العام الرياضى Software system ، من ناحية ورخص الدوائر الكهربية من ناحية اخرى .

هذا النوع من الأجهزة الحاسبة الرقميةيمكنه القيام بالحل لعدة مشاكل حسابية فى وقت

واحد . وهذه الخاصية دفعت المتخصصين فى حل المشاكل الحسابية الى التفكير فى امكانية تكسير المشكلة الواحدة الام الى عدة مشكلات صغيرة ، على أن تحل كل منها على حدة ، وعلى أن ينسق الحل الأخير من مجموعة الحلول الصغيرة . من هنا زاد الاهتمام فى وضع نظريات رياضية عامة عن كيفية تجزئة المشاكل الحسابية الى اجزاء صغيرة ، سواء كانت هذه المشاكل الحسابية فى شكل من المعادلات التفاضلية أومعادلات تفاضلية تكاملية أو فى شكل معادلات رياضية متقطعة Discrete mathematics بوجه عام .

وقد ظهر اتجاه آخر بين المتخصصين (فى حل المشاكل الحسابية) يدعو الى تحديد الجزء من المشكلة الرياضية الذى يمثل مركز الثقل الرياضى فى المشكلة . بعبارة اخرى،يكون السؤال الموضوع تحت البحث هو « كيف يمكن تجزئة المشكلة الحسابية الى أجزاء على أن ترتب بعد ذلك ترتيباً تصاعدياً ، طبقاً لمدى حساسية وفعالية كل جزء فى الكيان الرياضى للمشكلة الحسابية ؟ » .

ثم جاء **ميزاروفيك** (٣٤) Mesarovic بجامعة كيس وسترنريزوف Case Western Reserve Univ. ، ووضع نظرية عامة ومنهاجاً algorithm لتقسيم المشكلة الحسابية تقسيماً تصاعدياً . وعمل هذا الباحث يستحق الاعجاب بحق ، للدقة البالغة والتصور الرياضى الذكى للمشاكل العلمية وكيفية تقسيمها الى مستويات متعددة Multi Level . ولعل أقرب الجهود العلمية فى هذا الشأن هو جهد العالم الرياضى **جورج دانزنج** وزميله **وولف** (١١) Dantzig & Wolf فى وضع نظرية التحكم غير المركزى Decentralized control . ويرى كل من ميزاروفيك ودانزنج امكانية تقسيم المشكلة العلمية الى مستويين ، المستوى الأول وفيه تجزأ المشكلة وتفصل هذه الأجزاء subsystems are decoupled بحيث يستطيع المتخصص فى حل كل المشكلة system analyst أن يضع اسلوباً معيناً لحل كل جزء ، على أن يتم التنسيق بين هذه الأجزاء فى مستوى آخر يمثل مركز القيادة . وتستخدم فى هذه النظريات الرياضية بعض المتغيرات الوهمية pseudo variables التى بها يمكن تجزئة المشكلة فى المستوى الأول .

بدأ الاهتمام بالتركيب الوظيفى للمصادر الحسابية بالمعنى الصغير (الدوائر المنطقية والكهربية) فى أوساط صناعة الأجهزة الحاسبة ومراكز صيانتها قبل أن يظهر فى الأوساط الأكاديمية . فقد كان الاهتمام ، ولا يزال فى صناعة الأجهزة الحاسبة ، فى تصميم الدوائر المنطقية تصميماً آلياً مستخدماً فى ذلك الجهاز الحاسب نفسه ، وهذا ما يسمى بتلقائية التصميم design automation للجهاز الحاسب . وهذا بالطبع لا يعنى الاستغناء كلية عن العنصر الانسانى فى التصميم ، وانما يعنى احلال القدر الروتينى فى بعض مراحل التصميم الخاصة بدوائر المنطق من اليد العاملة الماهرة والغالية الثمن ، الى الجهاز الحاسب . وقد ظهر اهتمام آخر وهو تحويل صيانة الجهاز الحاسب الى عملية تلقائية يقوم بها الجهاز الحاسب نفسه ، أى بعبارة اخرى يقوم الجهاز الحاسب بتشخيص diagonostic الدوائر التى لا تؤدى عملها malfunction . فيه وبنفسه. وهذا أشبه بالرجل المريض الذى يقوم بدور الطبيب فى نفس الوقت. ويسمى هذا النوع بالتشخيص الآلى automatic diagnostic .

وتشــمل معظم الجهــود المبذولة فى هــذاالاتجــاه عدة مراحــل فى التحليل ، تبدأ بتجزئة التنظيم التركيبى structural organization الى عدة أجزاء منفصلة ، ثم تشتمل هذه الأجزاء على جهاز حاسب آخر بقصد عمل الحســابات التالية اللازمة . ولعل أبرز الجهود فى هذا المجال هو جهد المهندس الهندى الأصل **راماموريثى** (٤٠) Ramamoorthy بمعامل شركة هانويل Honeywell ، حيث وضع نماذج رياضية كاملة للتنظيم التركيبى لعدة أجهزة حاسبة ، كانت فى مرحلة التصميم (H2200) ، وقد قــام بتحليــل هذه النمــاذج الرياضية وتجزئتها الى عدة أجزاء منفصلة ، كل جزء يمثل بعض الدوائــر المنطقية . واســتعمل رماموريثى فى ذلك نظريــة الخطــوط المتجهــة directed graph وخواصها فى نماذجه الرياضية، وقد قام بتقسيم هذه النماذج تقســيماً متوازياً وتقسيماً متواليا series & parallel segmentation ، ولا شك فى أن جهد رماموريثى يستحق التقدير لعمق الدراسة من الناحية الرياضــية ،غير أن نتائجه لم تكن دائماً ســهلة التفســير فى المراحل الواقعية من التصميم .

٢ ــ التركيب التصــاعدى فى مجالات هندســية اخرى

ابتدع المهندس النمساوى الأصل **الكسندر** (١) Alexander اســلوباً جديداً فى التصــميم المعمارى وتخطيط المدن design methodology ، متبعــاً فى ذلــك فلســفة التركيب التصاعدى ، فقد اقترح لذلك نموذجاً رياضياً ، يسمى بنوع معين من الشبكات النصفية semi lattice لوصــف التنظيم التركيبى . واســتعمل **مانهيم** (٣٠) Manheim بمعهد ماساشوســـيت M.I.T. نظريــة بازيــن Bayesian decision theory ، كأســاس لنمــوذج رياضى فى التخطيــط التصاعدى الخاص بتصميم شـــبكة الطــرق High ways حيث يتدرج النموذج فى التفاصيل الخاصة بالتصميم . ونشر المؤلف الهندى الاصل **بنارچى** (٣) Banarji بحثاً عن امكانيــة حــل مشاكل الذكاء الصناعى artificial intelligence بطريقة أبسط وذلك عن طريق نماذج رياضــية مبنية على النظام التصــاعدى . وســيكون من الصعب تقــويم مجهــود بنارچى اذ لا زال هذا الجانب من البحث العلمى فى مرحلة التكوين ، وان كان ينمو بمعدل سريع .

واقتــرح **لوكى** (٢٧) Lucky ، بمعامــل شركة بل Bell نظام التسلســل concatenation فى صورة قريبة من النظام التصــاعدى وذلك فى شفرة تصليح الأخطاء error correcting code المتعلقة بنظرية المعلومات Information theory . وبناء على هذا ، فانه يكون من السهل نســبياً ، تصميم نظام خاص للشفرة Coding system تكون فيه نسبة احتمال الخطأ Probability of errors صــغيرة جــداً ، دون الحاجــة الى دفــع ثمن غال ، وذلك بتصميم خطوط نقل المعلومات ذات السعة الكبيرة Channel capacity .

وقد درس كل من **مايــر** (٣٥) Meyer **وتشير ترس** (٥٠) Jsichritsiz نوعاً خاصــاً من النظــام التصــاعدى يســمى sub recursive hierarchies ، ومدى علاقتــه بنظــرية القــدرة على الحساب theory of computability .

٣ ــ التركيب التصاعدى الرياسى فى الأنظمة العضوية Organic systems

فى الفترة ما بين ١٨٤٠ و ١٨٥٠ اثير حماس علمى بالغ فى اكاديمية العلوم الفرنسية وكلية الهندسة Ecole Normale ، لفهم العلاقة بين النشاط الضوئى * Optical activity وشكل البلورات ** Crystal form . اقتنع باستور Pasteur وكان فى ذلك الوقت طالب بحث ، بأن ظاهرة التفاوت والاختلاف فى الشكل الهندسى Geometrical asymmetry فى تركيب البلورات ، هى السبب الحقيقى ، أو التفسير المنطقى على حد تعبيره لظاهرة النشاط الضوئى . وانطلق باستور باحثاً فى التركيب البلورى للكائنات الحية Living organism (المولد Mold على وجه التحديد) ، حتى وصل الى نتيجة هامة ، وان كانت غير مباشرة ، وهى ان الكائنات الحية تميل الى التفاعل الكيماوى مع الجزيئات ذات التركيب المختلف وغير المتناسق Asymmetric modecules . وقد كتب باستور فى هذا النحو يقول « الكائنات الحية ، كما نراها ، هى دلالة قاطعة على أن النظام الكونى ذو طبيعية غير متناسقة *** » . ولم يذهب باستور **** بعيداً فى دعواه الضخمة ، فى هذا الاتجاه ، غير انه وضع حجر الأساس لجزء من الفلسفة العلمية ، وهى ظاهرة التركيب غير المتناسق asymmetric structure . وبدا هذا التأثير واضحاً فى كتابات كثير من المؤلفين ، فكتب **بونج** (٢٧) Bunge فى تعريف النظام الرياسى التصاعدى ، أنه نظام يتميز أساساً بعلاقة غير متناسقة Asymmetric relation ، بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة بمعنى أن المعلومات تتحرك فى اتجاه رأسى vertical direc tion ، (وليس فى اتجاه افقى horizontal direction) ، بحيث تحمل مضموناً معيناً فى حركتها من اعلى الى أسفل ومضموناً آخر عندما ينعكس اتجاه المعلومات (من اسفل الى أعلى) . وظهرت هذه الفلسفة فى التحليل ، لدى كثير من مفكرى علوم الحياة life sciences ، مثل بيولوجيا الخلاه cellular biology وبيولوجيا النظام العصبى المركزى central nervous system . وقادت هذه الصورة الجديدة ، لتفهم بعض العلوم البيولوجية بعض علماء الرياضة الى التفكير فى استعمال « نظرية الذاتية Automato theory » فى صياغة هذه الظواهر البايولوجية ، ويعتبر **روزين** (٢٧) Rosen من مؤسسى هذه المدرسة الجديدة .

ومما يجدر ذكره الآن ، أن ثلاثة من ابرز العلماء الرياضيين المعاصرين ، **كالمان** (٢٤) **وبلمان** Bellman **وميزاروفيك** Messarovic اتجهوا ، كل على حدة ، نحو نظرية الذاتية بقصد البحث فى تطبيقاتها فى كل من تصميم الأجهزة الحاسبة وصياغة بعض الأنظمة البيولوجية صياغة رياضية . ويبدو أن الربع الأخير من القرن العشرين سيشهد ثورة

---

* ظاهرة الاستقطاب الضوئى .

** علم البلورات .

*** بالرغم من ان باستور لم يحقق نجاحاً علمياً كبيراً فى بحثه الذى بداه ، الا انه انطلق بعد ذلك فى اتجاه آخر وهو اكتشاف تصرف الكائنات الصغيرة التى اصبحت بعد ذلك حجر الأساس فى فهمنا الحديث للطب الوقائى Preventive medicine

The living organism as manifested to us, is a function of the asymmetry of the Universe.****

العلوم البيولوجية . ويبدو ايضاً أن نوعاً جديداًمن التفاعل الفكرى ، بين المدرسة الجديدة فى تصميم الأجهزة الحاسبة والمدرسة الجديدةالرياضية فى العلوم البيولوجية ، فى الطريق الى الظهور . واذا صحت هذه النبوءة فان كثيراً منجوانب « نظرية الذاتية » سيخرج قليلاً من الاطار التجريدى abstract البحث الى الاطارالتطبيقى applied . هنا ستصبح الأجهزة الحاسبة الحالية ساذجة وبسيطة ، كما سيبدولنا فهمنا الحالى للعلوم البيولوجية فهماً سطحياً وغير محدد بالدرجة الكافية. وعملا بروح التفاؤلهذه ، ظهرت بعض التعبيرات (فى بعض المكاتبات) التى تفيد عن الخمس والعشرين سنة الماضيةمنذ ظهور الأجهزة الحاسبة ، بانها فترة **فون نيومان** Von Neumann وأجهزة فون نيومان الحاسبة ، والسؤال : كيف يمكن أن تنطلق مدرسة التصميم بعيداً عن مجال فون نيومان ؟ روحالتفاؤل هذه لها أبعادها الخاصة فى العلوم البيولوجية .

ومما هو جدير بالذكر ، أن هناك عدةاتجاهات مماثلة ظهرت فى مراحل التطور الفكرى لعلوم النفس psychology . ففى عام ١٨٧٩ دعاالعالم الفيسيولوجى الالمانى **وليم فوندت** W. Wundt الى دراسة علم النفس على أساسمعملى Laboratory bases وبذلك وضع حجر الأساس لعلم النفس المعملى . واشتهرت المدرسةالفكرية لفوندت باسم المدرسة التركيبية structuralists ، اذ أن الدعوى الأساسية لهذهالمدرسة هى أن كثيراً من الخبرات العقلية المعقدة complex mental experiences ، هى أصلاً مجموعة مركبة من عدة حالات عقلية بسيطة ، تماماً كما هو الحال فى المركبات الكيميائية Chemical compounds التى تتركب من عدة عناصر كيميائية . من هنا كانت هذه المدرسةترى أن دور المحلل النفسى هو تحديد هذه التركيبات ، غير أنه بعد حوالى عشرين عاماً منالبحث ، ظهر كثير من علامات عدم الرضى بين العاملين فى علمالنفس ، عن هذه الفلسفةالتركيبية، باعتبارها تهتم فقط بالبحث فى شكل التركيبات لهذه الحالات العقلية البسيطة ، دون تحديد دالةووظيفة كل حالة على حدة ، وسميت هذه المدرسة باسم المدرسة الوظيفية functionalists وقد جذبت الكثير من الباحثين فى علم النفس تحت القيادة الفكرية لكل من **وليم جيمس** William James **وجيمس انجل** James Angell ، حتى ظهرت مدرسة ڤيينا الشهيرةفى التحليل النفسى Psychoanalysis **لسيجموند فرويد** S. Freud . وظهر اتجاه آخر فى علمالنفس فى فترة الحرب العالمية الاولى يفسر كثيراً من الحالات العقلية طبقاً للملامح العامة الكلية Whole pattern وسميت هذه المدرسة باسم « Gestaltists » * أو مدرسة الجيزالت .

ومن أقطابها العالم الالمانى كوهلر W. Kohler الذى قام بهذه الدراسات وهو فى المنفى .

● ● ●

---

* كلمة Gestalt باللغة الألمانية تعنى الآثار والملامح العامة Pattern .

خاتمة :

كان بيت القصيد فى هذا المقال هو البحث فى الزوايا المختلفة لتركيب الجهاز الحاسب، فالمهندس القائم بتصميم الجهاز الحاسب يرى تركيب الجهاز (الحاسب) من وجهة نظر معينة ، فى حين أن لمستخدم الجهاز وجهة نظر اخرى . كذلك تختلف طريقة التحليل طبقاً لاتساع النظرة وضيقها ، فالنظرة العامة Macro-sense الى الخطوط العريضة لتركيب الجهاز الحاسب ترى جزئين رئيسيين فى تركيب الجهاز الحاسب (وحدة التشغيل ووحدة التخزين) بينما النظرة المحلية micro-sense الى القطع الصغيرة ترى الجهاز الحاسب فى شكل اشبه بالشبكة التى تحتوى على مئات الآلاف من العقد (Logical functional elements) وملايين الخطوط (signals transmission lines)

والحديث عن تركيب نظام عام يؤدى الى الحديث عن علاقة الجزء بالكل ، وبمعنى آخر ، كيف تتجمع الأجزاء فى الكيان الكلى للنظام ؟ وماهى علاقة الأجزاء بعضها ببعض؟ فى النظام البسيط قد يتكون النظام من جزء واحد وفى بعض الأنظمة الاخرى قد تزداد الصورة تعقيداً ويتكون النظام من عدة أجزاء حيث يلعب كل جزء دوراً متساوياً ثم قد تزداد درجة التعقيد مرة اخرى فى النظام بحيث يتكون من عدة أجزاء غير متساوية فى الدور . هنا قد تكون الأجزاء مستقلة بعضها عن بعض وقد ترتبط بعلاقة اشبه بعلاقة الحاكم بالمحكوم . وفى الحالة الأخيرة يقال ان النظام يمكن وصفه بأنه نظام تصاعدى رياسى .

وقد أدت اعادة النظر فى التصميات الحالية للأجهزة الحاسبة من خلال النظام التصاعدى الرياسى ، الى الكثير من النقد فى كفاءة الخدمة الحسابية للأجهزة الحالية . هنا بدأ الاهتمام يتجه نحو تصميم نوع جديد من الأجهزة الحاسبة ذات التركيب التصاعدى ، وهذا ادى بدوره الى زيادة الاهتمام بوضع معيار دقيق لقياس كفاءة الخدمة الحسابية ، وبذلك سقط التشبيه التقليدى للجهاز الحاسب (كآلة لتشغيل المعلومات) لآلات تشغيل الطاقة ، وبدات تظهر فكرة خطوط المواسير . وفى هذا التشبيه الجديد (Pipelining) تلعب المشاكل الحسابية الداخلة الى الجهاز الحاسب نفس الدور الذى تلعبه المياه العكرة التى تدخل شبكة المواسير ومحطات التطهير ، كذلك فان الحل الحسابى الناتج من الجهاز الحاسب يقابل المياه النقية التى تخرج من شبكة المواسير . من هذا التشبيه يصبح واضحاً لنا ان قياس كفاءة الخدمة الحسابية يصبح مسالة وثيقة الصلة بتركيب الجهاز الحاسب من ناحية ونوعية المشاكل الحسابية من ناحية اخرى ، بمعنى أن زيادة كفاءة الخدمة الحسابية يتطلب اعادة تنظيم كل من المصادر الحسابية للجهاز الحاسب والمشاكل الحسابية. هنا اتجه الاهتمام ، مرة ثانية ، نحو تركيب المشاكل الحسابية ، واحتمال تطبيق التركيب الجزئى بوجه عام والتركيب التصاعدى بوجه خاص ، وبذلك اصبحت الصورة الأخيرة تشبه التفاعل بين عدد من العمليات الحسابية مع عدد آخر من المصادر الحسابية ، بحيث يمكن تشغيل اكثر من عملية حسابية على مصادر حسابية معاً ، وهذا خلق ما يسمى بالحسابات المتوازية . ومن هنا امكن اعادة تصوير الموقف فى شكل يشبه حركة المرور .

وانتقل الحديث بعد ذلك الى النطاق المحلى الضيق للدوائر المنطقية والوظيفية حيث أمكن

تمثيل مجموعة الدوائر بشبكة كبيرة من العقد nodes تتصل بها عدة خطوط للمواصلات ، وعند تحليل الخواص التركيبية لهذه الشبكة ،بدأ التفكير يسير فى اتجاهين ، الاتجاه الأول وهو خاص بالبحث عن العقد التى تمثل مراكز القوى والفاعلية فى الشبكة ، والاتجاه الثانى وهو خاص بالبحث عن خطوط المواصلات الضعيفة التى يمكن اعتبارها نوعاً من الشروخ فى الكيان ، وهنا كانت المعاملة الرياضية سريعة وموجزة وتستند الى بعض القواعد المستمدة من نظرية الخطوط المتجهة ونظرية التحويل . ولو أن هذا المقال قدر له أن تعاد كتابته بقدر أكثر حزماً فى المعاملة الرياضية ، فان الاتجاه الطبيعى يكون فى هذه الحالة نحو نظرية الذاتية .

بقيت كلمة أخيرة عن مشكلة اللغة ، وهى ــ أساساً ــ مشكلة فى اللغة الانجيزية وثانياً فى الترجمة الى اللغة العربية ، اذ لم يستقر بعد كثير من المصطلحات العلمية المتعلقة بالفروع الجديدة للأجهزة الحاسبة فى اللغة الانجليزية ، فالاحساس عند كثير من الباحثين فى هذه الفروع ، أن هناك قدراً كبيراً من الخطأ الشائع وذلك على حساب الصواب المهجور ، ولذا فمن الأفضل ترك مشكلة اللغة والترجمة فترة من الزمن حتى تنال حقها الطبيعى فى التبلور .

●●●

تذييل رياضى للباب الثانى

تعاريف Definitions

١ ـ **مصفوفة الجوار** Adjacent Matrix (A) تستعمل لوصف علاقة الجوار بين المقد المختلفة nodes والخطوط المتجهة. ويمثل الخط المتجه من عقدة الى اخرى بالرقم واحد فى المكان المقابل له فى المصفوفة . وما عدا هذا توضع جميع خانات المصفوفة صفراً .

$$(A) = \begin{Bmatrix} a11 & a12 \ldots\ldots & a1n \\ a21 & a22 \ldots\ldots & a2n \\ \vdots & & \\ an1 & an2 \ldots\ldots & ann \end{Bmatrix}$$

٢ ـ **مصفوفة الوصول** Reachability Matrix (R(j) تمثل خانات هذه المصفوفة عدد الطرق المختلفة التى تصل بين عقدة واخرى ، حيث يكون طول كل طريق عدد معين من الخطوات ويساوى الرقم (j)

$$R = (j) = \begin{Bmatrix} r11\ (j) & r12\ (j) \ldots\ldots & r1n\ (j) \\ \vdots & & \\ rn1\ (j) & r22\ (j) \ldots\ldots & rnn\ (j) \end{Bmatrix}$$

٣ ـ **مصفوفة الوصول الكلى** Total Reachability Matrix (TRM (j) تمثل خانات هذه المصفوفة عدد الطرق المختلفة التى تصل بين عقدة واخرى وفى جميع الأطوال .

$$TRM\ (j) = \begin{Bmatrix} \sum_{m=0}^{j} r11(m) \ldots\ldots & \sum_{m=0}^{j} r1n\ (m) \\ \vdots & \\ \sum_{m=0}^{j} rn1(m) \ldots\ldots & \sum_{m=0}^{j} rnn\ (m) \end{Bmatrix}$$

نظـــرية :

مصفوفة الوصول R (j) مضروبة فى نفسها عدداً قدره من المرات (A) .

The reachability matrix of order j (R(j)) equals to the adjacent matrix raised j, i.e. (R (j = (A) j.

نظـــرية :

يمكن استعمال انواع مختلفة من السلاسل Power series وذلك لتمثيل خواص مصـــفوفة الوصول الكلى ، فى اطارات رياضـــية مختلفة ،وفيما يلى بعض علاقات التحويل الرياضى .

١ ـ Z Transform

يمكن تمثيل كل خانة من مصفوفة الوصول الكلى بالمعادلة الآتية :

$$\sum_{m=0}^{j} a_{mik} Z^{m}$$

٢ ـ Lagnerre Series

$$trmik\ (j) = \sum h\bar{n}\ l\bar{n}\ (\bar{p}j)$$

حيث

$$L\bar{n}\ (\bar{p}j) = \sqrt{2\bar{p}}\ (2\bar{p}^{-}j^{2} - 4\bar{p}j + 1)^{-(\bar{p}j}\ e$$

٣ ـ Newman Series

$$trmik\ (j) = \sum b\bar{n}\ l\bar{n}\ (\bar{p}j)$$

حيث

Jn (pj) is the nth order Bessel function

★ ★ ★

المراجع

1. Alexander, C. : " The City is not a Tree ", **Architectural Forum**, Part I, pp. 58-62 April 1965, and Part II, pp. 58-61, May 1965 ;
   Reprinted in **Design**, pp. 46-55, A8c, Feb. 1966.

2. Arora, S.R. : " Optical sizing in a multi-level memory hierarchy ", **SJCC**, pp. 337-340, 1971.

3. Banarji, A. : **Theory of Problem Solving, an approach to artificial intelligence,** Elsevier, 1969.

4. Bear, J. L. : **Compilation of arithmetic expressions for parallel computation,** McGraw-Hill.

5. Bernstein, A. J. : " Analysis of Programs for Parallel Prccessing ", **IEEE Trans. on EC**, Vol 15, No. 5, pp. 757-763, Oct. 1966.

6. Chandy, K. M. and Ramamoorthy, C. V. : " Optimization of Information Storage Systems ", **Information and Control,** Vol. 3, No. 2, pp. 78-101, 1966.

7. Chang, W. A. : " A Queuing Model for a Simple Case of Time-sharing ", **IBM System J.** 5, pp. 115-125, 1966.

8. Chen, T. C. : " Parallelism, Pipeline and Computer Efficiency ", **Computer Design,** Vol. 10, pp. 69-74, 1971.

9. Chcmsky, N : **Aspects of the Theory of Syntax,** MIT press, 1966.

10. Ccffman, E. G. : Stochastic **Model of Multiple and Time-shared Computer Operations,** No. 66-38, UCLA Eng Rep., UCLA, Calif., June 1966.

11. Dantzig, G. B. and Wolfe : **Proceedings of the IFIP Congress,** 1965.

12. David, C. F. and Kennedy, M. : " EPS Computer Program for the Evaluation of Problem Structure, **MIT Symp on Envir. Planning,** 1968.

13. Dennis, J. : " Segmentation and the Design of Multiprogrammed Computer System," **Programming Systems,** McGraw-Hill, 1967.

14. Dolansky, L. : **Notes on System Analysis,** Course 3.954, Northeastern University, 1970.

15. Gesei, J., Slutz, D. M. and Traiger, I.L. : " Evaluation Techniques for Storage Hierarchies ", **IBM System Journal,** Vol. 9, No. 2, 1970.

16. Graham, R. M. : " The Parallel, Pipeline and Conventional Computer ", **Datamation,** Vol. 16, pp. 68-71, April 1970.

17. Grason, J. : " A Dual Linear Graph Representation for Space-filling ", **MIT Symp on Envir. Planning,** 1968.

18. Groginsky, H. L. : " A Pipeline Fast Fourier Transform ", **IEEETC,** Vol. C-19, No. 11, pp. 1015-1019, Nov. 1970.

19. Haimes, Y. Y. : " Computational Results for Water Pollution Taxation Using Multilevel Approach ", **American Water Resources Conference,** Washington, D.C., Oct., 1971.

20. Harary, F. : **Structural Models,** John Wiley, 1965.

21. Hellerman, H. : " Parallel Processing of Algebric Expressions ", **IEEE Trans on EC,** Vol. 15, No. 1, Feb. 1966.

22. Howard, R. : **Dynamic Probabilitistic System,** John Wiley, Vol. 1, 1971.

23. Jensen, P. A. : **A Graph Decomposition Technique for Structuring Data,** Office of Naval Research, Washington, D.C., Rept 106-3.

24. Kalman, R. E. : **Mathematical System Theory,** McGraw-Hill, 1969.

25. Katzan, H. : " Storage Hierarchy Systems, **Spring Joint Computer Conference,** 1971

26. Knuth, D. : " Additional Commments on a Problem in Concurrent Programming Control ", **Comm., ACM,** Vol. 9, No. 5, pp. 321-322, May 1966.

27. Lancelot, L. W. (Editor) : **Hierarchical Structures Symposium,** Dauglas Advanced Research Lab., 1969.

28. Liptay, J. S. : " Structural Aspect of System/360 Model 35, the Cache ", **IBM Systems J,** Vol. 7, pp. 15-21, 1968.

29. Luconi, F. L. : **Information Structures,** MIT (Notes of MIT Course 6.232), May 1969.

30. Manheim, M. L. : **Hierarchical Structures,** MIT press, 1966.

31. Martin, D. F. : " Path Length Computations on Graph Model of Computations ", **IEEETC,** Vol. C-18, No. 6, pp. 530-536, June 1968.

32. McCarthy, J. : " Problems in the Theory of Computation ", **Proc of the IFIP Congress,** pp. 219-222, 1965.

33. McKinny, J. M. : " A Survey of Analytical Time-sharing Models ", **Computing Survey,** Vol. 1, No. 2, pp. 106-113, June 1969.

34. Mesarovic, M. D. : **Theory of Hierarchical Multi-level System,** Academic Press, 1970.

35. Meyer, A. R. and Ritchie, D. M. : **Computational Complexity and Program Structure,** IBM Report RC, 1971.

36. Milne, M. : " CLUSTER Computer Program for the Evaluation of Problem Structure ", **MIT Symp on Envir. Planning,** 1968.

37.. Morenoff, E. and Beckett, W. : " 4-Way Parallel Processor Partion of an Atmospheric Primitive Equation Prediction Model ", **Spring Joint Computer Conference,** 1971.

38. Nakamura, G. : " Feedback Queuing Model for an Interactive Computer System ", **Fall Joint Computer Conference,** pp. 57-64, 1971.

39. Oppenheim, A. : **Papers of Digital Signal Processing,** MIT Press, 1969.

40. Ramamoorthy, C. V. : " System Segmentation for the Parallel Diagnosis of Computers ", **IEEETC,** Vol. 20, pp. 261-271, March 1971.

41. Rodriguez, J. E. : **A Graph Model for Parallel Computations,** MAC-TR-64, MIT Project MAC, Sept. 1969.

42. Russell, E. C. and Estrin, G. : " Measurement-based Automatic Analysis of FORTRAN Programs ", **Proc. IFIPS Congress,** C1-C7, 9168.

43. Saaty, T. L. : **Elements of Queuing Theory,** McGraw-Hill, 1961.

44. Scherr, A. L. : **An Analysis of Time-shared Computer Systems,** Research Monograph, No. 36, MIT, 1969.

45. Schetzen, M. : Power-Series Equivalence of Some Functional Series with Application, **IEEE.,** Vol. CT-17, No. 8, Aug. 1970.

46. Slontnick, D. L. : " The Fastest Computer ", **Scientific American,** Feb. 1970.

47. Stone, H. S. : " One-Pass Compilation of Arithmetic Expressions for a Parallel Processor ", **FJCC,** pp. 949-955, 1968.

48. Squire, J. S. : " A Translation Algorithm for a Multiprocessor Computer ", **Proc. 18th ACM Natl. Conf.** 1963.

49. Tesler, L. G. and Enea, H. J. : " A Language Design for Concurrent Processes "], **SJCC,** pp. 403-408, 1968.

50. Tsichritzis, D. : A Note on Comparison of Subrecursive Hierarchics, **Information Processing,** pp. 42-44, March 1971.



ناهد صالح *

الرياضيات والنظرية الاجتماعية

منذ اكثر من نصف قرن مضى والنقاش قائم بين علماء الاجتماع ولا يزال محتدماً ، حول مكونات النظرية الاجتماعية ، والمناهج اللازمة لتحقيق عمليتها ، وبالتالى حول الرياضيات كلغة لها وكمنهج لبنائها وكاسلوب للتحقق من صحتها .

واذا كانت جميع المناقشات عن النظرية الاجتماعية وكل الاقتراحات بشأن بنائها تشير الى أن القوانين الاجتماعية ــ التي تشكل جوهر هذه النظرية ــ لم يتحقق وجودها حتى الآن بالمعنى الدقيق للقانون العلمي كما يتجسد فى مجال العلوم الطبيعية ، فان ذلك لا يعنى اتفاق علماء الاجتماع على تفسير تلك الحقيقة ، بل هو يخفى اختلافاً اساسياً فى مفهوم عالم الاجتماع للعلوم ، وبالتالى للنظرية العلمية ، واختلافاً فى تصوره لخصائص العالم الاجتماعي كما هو متميز من العالم الطبيعي .

فنجد فريقاً يفسر هذه الحقيقة من خلال اعتقاده بوحدة العلوم ووحدة مناهجها وبالتالى

---

* دكتورة ناهد صالح ، خبير بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة . لها اهتمامات واسعة بمشكلات المنهج فى العلوم الاجتماعية والانثربولوجية .

فهو يرى فى النظرية الطبيعية المثال الذى يجب ان يحتذيه العالم الاجتماعى عند بنائــه لنظرياتــه الاجتماعية ، وهو يرى أن مناهج العلم الطبيعى هى المناهج العلمية الوحيدة التى يتعين عليه ان يطبقها بحذافيرها ، اذ أن هذه المناهج هى التى اثمرت النتائج العلمية الباهرة ، وهى التى ادى اغفالها أو الفشل فى تطبيقها الى اعاقة نمو أنساق من النظريات التفسيرية فى مجال العلم الاجتماعى يمكن ان تقارن بمثيلتها فى مجال العلم الطبيعى (١).

وفى مقابل هذا الفريق يبنى فريق آخــر تفسيره على اساس التفرقة الحاسمة بين خصائص كل من الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية ، هذه التفرقة التى تستتبع بالضرورة اختلافاً فى مناهج بحثهما ، وفى لغة التعبير عنهما ، وتبرز استحالة الوصول الى قوانين اجتماعية أو تعميمات ، مــا دامت الأحداث الاجتماعية أحداثاً تاريخية فريدة (٢) على عالم الاجتماع تفهمها لا تفسيرها .

وقد ارجع هؤلاء جميع العيوب التى يعانى منها علم الاجتماع حتى اليوم الى تقليده الأعمى الذى يعمل على التقريب بين علم الاجتماع والعلم المعرفة بالعلم الطبيعى ، ويفتقد فيه عالم الطبيعة الذى يعمل على التقريب بين علم الاجتماع والعلم الطبيعى المعرفة بالعلم الاجتماعى ، بحيث اصبح الموقف على حد قولهم يرثى له وأصبحت النتيجة محزنة . وفى تشبث علماء الاجتماع باتباع منهج العلوم الطبيعية وفى التقليد المستعبد له نسوا أن أياً من العلوم الطبيعية لم يصل الى ما وصل اليه من نضج بمجرد تقليده لعلم آخر ، بل أن كل علم أقام ذاته ــ مفهوماته ومناهجه وأساليب بحثه ونظرياته ــ بالسير فى الطريق الذى يتفق وطبيعة الظواهر التى يدرسها . واذا كانت المفهــومات والقوانين والمناهج والأساليب الخاصة بعلم الطبيعة تختلف عن تلك الخاصة بعلم الكيمياء وعلم الاحياء فأن هذا الاختلاف يبدو أوضح بين هذه العلوم والعلوم الاجتماعية (٣) .

ودون الافاضة فى الحجج التى استند اليها كل فريق فى تدعيم موقفه وتبرير وجهة نظره هذه، فانه يمكننا القول بانه كان طبيعياً أن يزج هذا النقاش بالرياضيات فى خضمه باعتبارها لغــة العلم ، ولغة العلم الطبيعى بالذات . وكان طبيعياً أن يعلو النقاش ويصل الى حد القول بعلم رياضى Mathematical Sociology انثروبولوجيا رياضية Mathematical Anthropology أيضاً .

ولعل أهم نقطة يمكن تناولها فى تصــورنا لامكانيــات الرياضــيات وحدودها فى مجال علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية هو امكانياتها وحدودها فى بناء النظرية الاجتماعية وفى تحققها .

●●●

(١) Schutz, A., "Concept and Theory Formation in the Social Sciences", in Maurice Natson (ed) Philosophy of the Social Sciences, Random House, New York, 1963, p. 231.

(٢) Werkmeister, W. "Theory Construction and the Problem of Objectivity", In Llewellyn Gross (ed.), Symposium on Sociological Theory, Harper and Row, New York, 1959, p. 490.

(٣) هذا الخلاف يعد أساس الازمة التى يمر بها اليوم علم الاجتماع والانثروبولوجيا بخاصــة والعلــوم الاجتماعية والانسانية بصفــة عامة . انظــر ، ابو زيــد ، احمــد ، « ازمة العلوم الانسانية » ، عالم الفكر ، المجلد الأول ، العدد الأول ١٩٧٠ ، ص ١٩٥ ــ ٢٣٠ .

لعلنا اذا حددنا خصائص كل من النظرية ،والنظرية الاجتماعية بالذات ، وخصائص الرياضيات أمكننا أن نحدد اسهام الرياضيات في بناء النظرية الاجتماعية .

فالنظرية في جوهرها نسق من القضايا المجردة . كل قضية من هذه القضايا تصور الصيغة العامة للعلاقة بين الحدود التى تتضمنها القضية. وكل من هذه الحدود يشير الى نوع عام من المعطيات ، أى يشير الى العام كما هو متميز عن الخاص . ويتبع هذا ان جميع القضايا التى تتضمنها النظرية هى تعميمات فى حد ذاتها ، أى أنها تحدد بعض الصفات المشتركة وبعض الانتظامات فى الظاهرة التى تتناولها النظرية .

وتشارك الرياضيات النظرية فى بعض خصائصها ؛ فهى تتميز بالتجريد وبتحديد صيغ عامة للعلاقات بين الحدود المكونة للنسق الرياضى، كما أن هذه الحدود بطبيعتها عامة أكثر منها خاصة الا أن هناك سمة تنفرد بها الرياضيات وتزودها بخصائص تفتقدها النظرية ، وهى ان الحدود المكونة لعناصر النسق الرياضى عبارة عن متغيرات ، وبالتالى تعرف القضايا التى تتكون من هذه الحدود بأنها صيغ Formulas أو دوال افتراضية أو قضائية Propositional Functions وبالطبع هذه الصيغ أو الدوال ليس لهاسند امبيريقى على الاطلاق ولكن حالما نحل قيماً معينة محل المتغيرات المكونة للصيغة أو للدالة فان القضية تجسد بحيث يمكن اختبارها امبيريقياً . (٤) .

وقد اوجدت الطبيعة التجريدية لكل من الرياضيات والنظرية والتماسك المنطقى لعناصر كل منهما رابطة ضرورية بينهما بحيث اعتبرت الرياضيات أنسب لغة للنظرية سواء فى مجال العلم الطبيعى او العلم الاجتماعى .

وقد أبرز **ناجل** Nagel هذه الرابطة بتأكيده على انه اذا كان للنظرية فى العلوم الاجتماعية أن تتخطى الاختلافات الثقافية فانها يجب أن تكون على درجة عالية من التجريد وان تبتعد مفهوماتها ظاهريا عن السمات المألوفة الواضحة الموجودة فى أى مجتمع ما ، وان تتضمن نتائجها استخداماً لأساليب الحساب الرمزى (٥) Algorithmic **كذلك أكد ليفى شتروس Levi-Strauss أن العلماء الاجتماعيين على وعى تام بأن العلم لا يكون علماً حقاً الى أن يصوغ سلسلة دقيقة من القضايا، وأن الرياضيات هى أفضل وسائل التعبير التى تحقق ذلك (٦)** .

وبناء النظرية الاجتماعية يتم وفقاً لأحد اسلوبين ،الاسلوب الأول ويستند الى الاستقراء أساساً وبمقتضاه تعتبر المعطيات المشاهدة هى نقطة البدء فى تكوين النظرية والقاعدة التى ترتكز عليها فى بنائها . كذلك يقتضى صوغ النظرية ضرورة التحديد الاجرائى لكافة المفهومات التى تتضمنها

---

(٤) ولهذا كان هذا النوع من الدوال من أكثر أنواع القضايا التى يمكن صياغتها عن الظاهرة الاجتماعية اذ يجمع نسقها بين المرونة والدقة ، بحيث ربما لا يدانيه اى نسق نظرى آخر ، فبوساطته يمكن أن نعبر عن العلاقات المعقدة والدقيقة بين الوقائع والأفكار مع تجنب الرموز اللفظية تماماً .

(٥) Sorokin, P. Fads and Foibles in Modern Sociology, Henry Regnery Company, Chicago, 1965, pp. 174-175.

(٦) Firey W., " Mathematics and Social Theory ", Social Forces Vol. 29, No. 1, 1950, p. 20.

النظرية بل ويقتضى الأمر فى نظر بعض الاجرائيين Operationalists ضرورة ربط كل مفهومات النظرية ربطاً مباشراً بالشواهد الامبيريقية ، ويترتب على ذلك ضرورة منطقية اخرى وهى خضوع كل الافتراضات أو التعميمات التى يحويها بناء النظرية الى الاختبار الامبيريقى فى ضوء المعطيات المشاهدة .

وبهذا الترتيب المنطقى الذى يأخذ به انصار الاتجاه الاستقرائى تبدأ عملية صوغ النظرية بمشاهدة المعطيات عن الظاهرة التى تتناولها ، ثم تصنف هذه المعطيات بعد ذلك فى فئات مناسبة ، ثم تقاس الارتباطات بين هذه الفئات وهنا تعنى النظرية حكماً يشير الى اطراءات امبيريقية بين المتغيرات المشاهدة كما تتألف فى مضمونها من مجموعة من الحقائق الوصفية ومجموعة اخرى من التعميمات التى تربط هذه الحقائق الوصفية فى صورة منظمة .

اما الاسلوب الآخر فى بناء النظرية الاجتماعية فيستند اساساً الى الاستنباط حيث تصبح النظرية عبارة عن مجموعة من القوانين التى ترتبط فيما بينها ارتباطاً استنباطياً لتشكل نسقاً . ووحدة هذا النسق النظرى المفهومات العامة المتسقة منطقياً . وهنا يصبح النسق النظرى اطاراً تصورياً يحوى مجموعة من المفهومات المترابطة . فالنظرية هنا من خلق التصور واستخدامها استرشادى بمعنى انها تقدم للباحث اطاراً عاماً من المقولات التى تحدد مسلك المشاهدة فى البحث الامبيريقى والتى تضفى على نتائجها معنى (٧) .

ولكن ينبغى الا تقابل بين الاستنباط والاستقراء فى عملية بناء النظرية كما لو كانا نموذجين مختلفين تماماً من نماذج التفكير ، اذ أن كل استنباط يستدعى استقراء ، كما أن كل استقراء يحتاج الى استنباط حتى يكتمل بناء النظرية . بل يمكننا النظر الى النظرية الاجتماعية باعتبار أنها تتكون من مجموعة من المصادرات ومجموعة من الاستنباطات ، وبناء على تقدم المصادرات على الاستنباطات او تقدم الاستنباطات على المصادرات يمكن أن نميز بين نوعين من النظرية الاجتماعية هما : النظرية الاجتماعية التفسيرية Explanatory Theory والنظرية الاجتماعية التركيبية Synthetic Theory .

فى النوع الأول يتم صوغ النظرية بأن يبدأ الفرد بالظواهر المشاهدة ثم يبتكر نظرية اساسية مكونة من مصادرات يمكن بها تفسير هذه الظواهر . فالنظريات التفسيرية تتناول عدداً من الوقائع المعروفة عن العالم الواقعى ــ أى تعميمات امبيريقية أو قوانين ــ ثم تنمى اطاراً تفسيرياً يمكن منه استنباط هذه التعميمات . وكما تساعد هذه النظرية على الوصول الى تنبوءات جديدة واختبارها امبيريقياً فان النظرية نفسها يمكن اخضاعها للاختبار وذلك باعادة اختبار التعميمات السابقة فى اتساقها مع تنبوءات النظرية . وهذا النوع من النظرية هو الذى تنصرف اليه اذهاننا عادة عندما نفكر فى النظرية العلمية .

اما النظريات التركيبية فتاخذ عدداً من التعميمات الامبيريقية وبدلاً من ان تعمل على

---

(٧) Nagel, E., "Problems of Concept and Theory Formation in the Social Sciences", in Maurice Natson (ed)., op. cit. p. 209.

تفسيرها تنطلق منها باستخدامها كمصادرات للنظرية وتدرس الضمنيات المرتبطة بها . هذا النوع من النظريات ينظم خبرتنا المشاهدة المباشرة في انساق أوسع تتعدى مشاهداتنا المباشرة .

فالنظريات التركيبية اذن تستخدم التعميمات الامبيريقية كمصادرات منها تشتق ضمنياتها ، بينما النظريات التفسيرية تستخدم التعميمات كضمنيات للاستدلال منها على مجموعة من المصادرات (٨) .

واذا كانت هذه هي الخطوط المنهجية العريضة التي في ظلها تبنى النظرية الاجتماعية ، فان القسمة المصطنعة بين الفكرة والتجربة ، اوبين التنظير والبحث في مجال النظرية الاجتماعية، ادت الى تجريدها من خصائص النظرية العلمية ،بحيث أصبحت عملية صوغ النظرية اما تقف عند حد الاطر والتصورات النظرية والفلسفية والتي أسماها **رايت ميلز** Wright Mills بالنظرية الكبرى The Grand Theory ، واما تقف عند مستوى تراكمات نتائج البحوث الامبيريقية غير الموجهة عادة باطر نظرية أو قضايا نظرية .

وتتوزع مسئولية الوضع المؤسف الحالي للنظرية الاجتماعية بين كل من اصحاب النظريات المتشامخة الذين تعالوا عن الواقع الاجتماعي ،والاجرائيين أو الامبيريقيين الذين انغمسوا في هذا الواقع دون فكر نظري يوجههم أو يضفي معنى على النتائج المبعثرة لبحوثهم . وربما اختلف الوضع لو طبق كل هؤلاء ما سلم به اغلبهم من ان المعطيات الامبيريقية بلا نظرية تصبح عمياء ، وأن النظرية بلا معطيات تصبح جوفاء . أو لو أن حتى الذين تحمسوا وبالغوا في حماسهم لمزاوجة العلم الاجتماعي بالعلم الطبيعي ، عن طريق المنهج ووحدة لغة العلم ، اهتموا بدراسة تاريخ العلم الطبيعي والعمليات المنهجية لبناء نظرياته ، اذ لو حدث هذا لتعدوا التصور السطحي لعملية المزاوجة هذه والتي اصبحت بوضعها الراهن مسئولة عن ضحالة الكثير من البحوث الامبيريقية وعن قصورها في الاسهام في بناء النظرية الاجتماعية ، ولأدركوا كما ذهب الى ذلك **سوروكين** Sorokin من ان التنظير ـ الرياضي والمنطقي ـ بتكاتفه مع الحدس والتخيل ، المختبرين بالتجربة هو الذي قدم أكثر المفهومات والنظريات والفروض والانتظامات في العلوم الطبيعية (٩) . ولأدركوا بالتالي الأهمية المتوازنة لكل من الفكر والبحث في بناء النظرية الاجتماعية، ولاتضحت لهم أبعاد الرياضيات في المراحل المختلفة لبناء هذه النظرية وفي التحقق من صحتها وفي التعبير عنها .

وقد انعكس اختلاف ادراك علماء الاجتماع لضرورة النظرية الاجتماعية وللمقومات العلمية لكيانها ، على موقفهم من الرياضيات وعلى فهمهم وتحديدهم لدورها في بناء النظرية الاجتماعية . فنجد البعض اما يرفضها تماماً أو يقف منها موقفاً حذراً ، أو يتخذ منها موقف المعارضة ، بينما البعض الآخر يعتبرها ضرورة لازمة لبناء نظرية اجتماعية علمية ويصوغ نظريات اجتماعية توصف بأنها نظريات رياضية Mathematical Theories ، أو بقول يصوغ نماذج رياضية Mathematical Models .

---

(٨) Levi-Strause, Cl., " The Mathematics of Man " International Social Science Bulletin, Vol. 6, No. 4, 1954, p. 583.

(٩) Coleman, J., Introduction to Mathematical Sociology, Collier-Macmillan Limited, London, 1964, pp. 34-35.

ولعل أهم ما يلاحظ هو أن اغلب الذين هاجموا استخدام الرياضيات فى بناء النظرية الاجتماعية بنوا هجومهم أساساً من خلال تقويمهم للنظريات التى اعتمدت على الرياضيات او استعانت بها . وفى هذا تكمن مواطن القوة والضعف فى هذا الهجوم . فهو يستمد قوته من كونه يقوم دور الرياضيات فى بناء النظرية الاجتماعية استناداً الى نظريات استعانت بالرياضيات فعلاً واتضح على حد قولهم انها لم تثمر جديداً فى مجال النظرية الاجتماعية او فى تحقيق علميتها . وتكمن مواطن الضعف فى هذا الهجوم من أن هذه النظريات لم تستخدم الرياضيات الاستخدام الأمثل او على الأقل الاستخدام السليم . وهذا يرجع الى احد سببين أو كليهما ، فهو اما يرجع الى قصور فى تصور العملية المنهجية لبناء النظرية او التركيز على جانب منها دون الآخر مما نسب الى استخدام الرياضيات فى النظرية الاجتماعية أوجه نقص وقصور كان الأحرى أن تنسب الى المناهج او النظريات التي استخدمت فى اطارها ، واما يرجع الى أن النظريات الاجتماعية التي استعانت بالرياضيات طبقتها آلياً كما تطبق تماماً فى مجال العلوم الطبيعية ، **دون فطنة الى الحاجة الى تنمية رياضيات تتفق والعلم الاجتماعي ،** أو قامت بتشويهها مكتفية أحياناً باحلال رموز رياضية محل المفهومات اللفظية متصورة انها بهذا استعانت بالرياضيات وحققت الدقة فى لغة النظرية الاجتماعية .

هذا الوضع بمختلف جوانبه ادى الى الاساءة الى الرياضيات بدلاً من ابراز امكانياتها فى بناء النظرية الاجتماعية . اذ يكفى اى متحمس لادخال الرياضيات فى بناء النظرية الاجتماعية ان يستعرض النظريات التى استعانت بها ليصاب بخيبة أمل كبيرة ، فكل نظرية ، بلا استثناء ، عبارة عن نسق متفرد قائم بذاته ، لا تلقى اهتماماً الى التراكمات العلمية السابقة او الأعمال العلمية المعاصرة والمماثلة لها ، فضلاً عن انفصالها عن الواقع الاجتماعي أو عن البيانات الامبيريقية . وبالتالى فلم تثمر هذه النظريات نمواً تراكمياً ، ولم تسفر الا عن القليل من الاتفاق بينها ، فضلاً عن ضآلة قدر الواقعية فيها . ومن هنا اخذت هذه النظريات كدليل على عدم جدوى الرياضيات للنظرية الاجتماعية . ومع ذلك فان مجرد تكاثر هذا النوع من النظريات ـ خاصة منذ الخمسينيات ـ يعكس الحاجة التي يشعر بها بعض المنظرين الاجتماعيين الى لغة اكثر كفاءة للتعبير عن فروضهم ونظرياتهم (١٠) .

ولعل التعليق الذى ذكره ليفى شتروس على النقد الذى وجه الى علماء النفس والاقتصاد والسكان فى اوائل هذا القرن لاستعانتهم بالرياضيات ، يصح على علماء الاجتماع الذين حاولوا بناء نظريات اجتماعية رياضية ، وهو ان النقد يوجه لهم لا لأنهم اعطوا اهتماماً كبيراً للرياضيات ، ولكن لأنهم لم يعطوا الرياضيات الاهتمام الكافى (١١) .

●●●

وتتدرج صور استعانة علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بالرياضيات من مجرد الوصف الكمي للوحدات الاجتماعية المتنوعة الى خلق نماذج تنبؤيه رياضية .

---

(١٠) عارف محمد ، المنهج فى علم الاجتماع ، الجزء الأول ، دار الثقافة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ص (١٢٦ ـ ١٢٨) .

(١١) Mills, W., The Sociological Imagination, Grove Press, Inc., New York, 1961, p. 66.

وقد حاول البعض (١٢) تصنيف النظريات الاجتماعية التى استعانت بالرياضيات أو على حد قولهم النظريات الاجتماعية الرياضيةالى عـــدةمجموعات يمكن اجمالها فى الآتى :

أ ــ التصنيفات Classifications

ب ــ المعادلات الامبيريقية Emperical Equations

جـ ــ النماذج المنطقية الرمزية Logistic Models

د ــ النماذج التصادفية Stochastic Models

أ ــ **التصنيفـــات** Classifications : التصنيفات التي تستخـدم الرمـوز الرياضيـة عديدة ، ولعل اهمها دراسة **دود** Dodd المعروفة باسم S-System والتى يهدف منها الى اقامـة نظرية كمية منظمة للمجتمع ، وقد اتخذت شكلالتصنيف الشـامل لكل البيانـات الاجتماعيـة المسجلة والتى تتناول وقائـع وآراء وبيانـــات سكانية .. الخ . وتنتظم هذه البيانات المصنفة فى صيغة رئيسية هى : $S = \underset{s}{\overset{s}{(}}T; L; P; Ipp; Ir\underset{s}{\overset{s}{)}}$ وفى هذه الصيغة تقف S فىمقابلمجموعة البيانات المسجلة ، حيث T تشير الى الوقت ، و L الى المسافة ، وP الى عدد السـكان و Ipp الـى المؤشرات الخاصة بالعلاقات الاجتماعية المتبادلة ، و Ir الى المؤشرات الخاصة بكل بواقى الخصائص الاجتماعية .

هذه الصيغة الرئيسية لا تمكننا من معرفة« غير المعلوم » وبالتالى فان حدودهـا ليسـت بالمعنى الدقيق متغيرات مرتبطة بدالة ، ولكنهابمثابة تصنيفات وحسب .

وفى الوقت ذاته فان الشمول الذى تتسم به هذه الصيغة أدى الى أن تصبح فى حد ذاتها قضية لا معنى لها . ولكن مع ذلك فان كثيراً من القضايا التي اشتقت من هذه الصيغة ارتفعت من مستوى التصنيف الى مســـتوى المعـــادلات الامبيريقية (١٣) .

وقد تعرضت هذه النظرية لأوجـه نقـد قاسية اظهرت عدم كفاءتها سـواء ريـاضياً أو منطقياً أو امبيريقياً واعتبرت عرضاً من الأعراض البارزة لهوس التكميم فى العلوم الاجتماعية (١٤) .

ب ــ **المعادلات الامبريقية** Emperical Equations : النوع الثانى من النظريات الاجتماعية التى تستعين بالرياضيات هي تلك التى تأخـذشكل المعادلات الامبيريقيـــة وهى تتميز عـــن التصنيفات بامكانية البرهنة علـى صحتهـا اوخطئها .

ولعل المعادلة التى صاغها كل من **شو** Shaw **وماكيي** McKay من دراستهما للعود الى الاجرام

(١٢) Firey, W., op. cit. pp. 21-22.

(١٣) Levi-Strauss, cl. op. cit., p. 585.

(١٤) Firey, W., op. cit., pp. 22-25.

تعطى مثلا لهذا النوع من المعادلات . فقد تبين لهما من دراستهما هذه والتي اجرياها فى مدينة شيكاجو وجود علاقة امبيريقية بين معدل الجنوح فى الحى وبين نسبة الأحداث الجانحين به . وقد برهنا على صحة هذه العلاقة بحيث عبرا عنها بخط انحدار للمربعات الصغرى أخذ الصيغة التالية : س = ٩٢ر٢٢ + ٨٨٤ ر ص حيث (س) هى معدل الجنوح فى الحى ، و (ص) هى نسبة الجانحين العائدين (١٥) . الا ان التحقق من صحة هذا النوع من المعادلات على نطاق محدود حال دونها والوصول الى مستوى التعميمات اوالقوانين التي تكون جوهر النظرية الاجتماعية . ومع ذلك فان البعض يامل فى أن تكون هذه المعادلات هي البداية الموصلة الى القوانين العلمية الاجتماعية رغم أن امكانيات ذلك تبدو ، وحتى الآن ، محدودة للغاية (١٦) .

جـ ـ النماذج المنطقية Logistic Modcels : النموذج المنطقى هو الشكل الثالث الذى تاخذه بعض النظريات الاجتماعية الرياضية . ويبنى النموذج بالاستعانة بالتحليل الاستنباطي تماما . بحيث يصبح النموذج مغلقا منطقيا ومكونا من قضايا ، كل قضية تتصل بالقضايا الاخرى وفقا لقواعد محددة للاستدلال . ويبني أساس هذا النموذج من بعض الحدود البسيطة التى ترتبط كل منها بالاخرى بوساطة صيغ بسيطة أو بديهيات ، هذه البديهيات مستقلة كل منها عن الاخرى ، وغير متناقضة مع بعضها البعض ، وكافية لاستخراج النظريات الرياضية المكونة للنموذج . ويعد مؤلف **فون نويمان** Neumann **ومورجنسترن** Morgenstern نظرية المباريات والسلوك الاقتصادى Theory of Games and Economic Behavior نموذجا لهذا النوع من النماذج المنطقية . فقد أوضحا فيه كيف أمكنهما من عدد ضئيل من البديهات اقامة اطار استنباطي من النظريات الرياضية التى تتناول الفعل الاجتماعى .

ونظرا للاعتماد على نظرية المباريات Games Theory فان النموذج المنطقى يبدا من الموقف الذى يضم شخصين ، الى الموقف الذى يضم ثلاثة أشخاص وهكذا الى الموقف الذى يضم جماعة من « ن » من الأشخاص . ويترتب على الانتقال من موقف الى آخر تعقد الظواهر المتنوعة المرتبطة بالموضوع الذى يتناوله النموذج وفى الوقت ذاته تزداد صعوبة الاحاطة بها ، ويصبح من الواضح تماما عدم كفاءة الرموز اللفظية فى تمثيل هذه الظواهر . فضلا على ذلك فانه يندر أن تتم عملية الاستنباط التي بمقتضاها اشتقت النظريات البرهانية المكونة للنموذج عن طريق الاستدلال اللفظى ، ومن هنا كان لا بد من الالتجاء الى الرياضيات ورموزها لبناء النموذج المنطقى (١٧) .

وبالطبع فان من اهم عيوب النماذج المنطقية هى كونها « نماذج » أى ابتكارات تعسفية للعقل الانسانى وبالتالى فصحتها أساسا منطقية لا امبيريقية . ومن هنا فأن الاسهام الحقيقى لهذه النماذج فى فهم الظاهرة الاجتماعية يكون محددا للغاية . فهى بحكم طبيعتها المنطقية بنيت على أساس مصادرات وبديهيات معينة ، وفى الوقت ذاته ففى خلال عملية الاستدلال الرياضى يتم وضع افتراضات ذات طبيعة امبيريقية ولهذا السبب فان معادلات هذا النموذج تظل صادقة

---

(١٥) Firey, W., op. cit. p. 22.

(١٦) Sorokin, p. op. cit., p. 110.

(١٧) Firey,, W. op. cit. p. 23.

فقط فى حدود هذه المصادرات والافتراضات الامبيريقية ، فاذا لم تتفق هذه الافتراضات الامبيريقية مع الظواهر الامبيريقية فان النموذج يصبح غير ملائم للتطبيق على الواقع

فمثلاً بالنسبة للنموذج الذى وضعه كل من فون نويمان ومور جنسترن للسلوك الاقتصادى فان جميع الاستنتاجات والمعادلات تتطابق مع السلوك الاقتصادى الفعلى فى ظل الافتراضات التى يقوم عليها النموذج . فاذا تبين أن بعض هذه الافتراضات لا يصح بالنسبة للواقع ، فان معادلات هذا النموذج تصبح غير صالحة للتطبيق.

يضاف الى ذلك ان النموذج الجيد يمكن اقامته فقط من عدد محدود من المصادرات والافتراضات التى تمثل بالطبع نسبة ضئيلة من كل الظروف الامبيريقية المتصلة بالموضوع ، ولذلك فان تطابق النموذج الرياضى مع الواقع يكون محدوداً للغاية وكذلك أيضاً قدرته على الاستكشاف والتنبؤ بالنسبة للظواهر الامبيريقية (١٨) .

د ــ النماذج التصادفية Stochastic Models : يتميز هذا النوع من النظريات الاجتماعية الرياضية باتصال النظرية بالمشاهدة . فالمعادلات التصادفية التى تتكون منها ــ على عكس المعادلات الجبرية ــ تقوم على اساس ان الثوابت فى البيانات الاجتماعية ليس لها قيمة واحدة حتمية . فبينما فى المعادلات العادية يمكن من معرفة قيم المتغيرات المختلفة تحديد قيمة المتغير غير المعلوم بحيث تكون لهذا المتغير قيمة واحدة فقط ، فانه فى المعادلات التصادفية يمكن للحد غير المعلوم ان يأخذ اى قيمة من عدد من القيم لكل منها احتمال مختلف . فالمعادلات التصادفية تحدد القيمة الأكثر احتمالاً بالنسبة للمتغير غير المعلوم . ويتكون النموذج التصادفى من عدد من المعادلات التى تحتوى كل منها على متغير عشوائى . من الناحية المثالية فان هذا المتغير العشوائى يكون له توزيع معتدل متوسطه الصفر . وتوضع كل معادلة كنظرية رياضية تم استنباطها منطقياً من بديهيات محددة . هذا الاشتقاق من البديهيات هو الذى يميز النموذج التصادفى عن الانتظامات الاحصائية والتى تعد خطوة أولية نحو بناء نظرية نظامية Systematic Theory وان كانت هى فى حد ذاتها لا تكون نموذجاً نظرياً ، فى حين أن المعادلات التصادفية تعد نموذجاً بمعنى الكلمة ، فهى تملك كل دقة النموذج المنطقى وكل واقعية الانتظامات الاحصائية (١٩) . وبفضل هذا النوع من النماذج التصادفية او الاحتمالية ، Probabilistic Models على أساس أن العمليات والوقائع الاجتماعية هى بطبيعتها احتمالية ، فضلاً عن ذلك فان النماذج التصادفية تسمح بحكم تكوينها باختبارها على الواقع . **الا انه يعاب على بعضها انها لم تضف الى معلوماتنا اى جديد ، أو هى على حد قول البعض لم تقم باكثر من صياغة لجهلنا . ومن هنا جاء تفضيل النماذج التحديدية Deterministic Models التى رغم صعوبة اختبارها على الواقع الا**

---

(١٨) Coleman, J., op. cit., p. 29.

(١٩) Firey, W., op. cit., p. 24.

انها تتناول عمليات اجتماعية على درجة عالية من التعقيد تعجز النماذج الاحتمالية عن تناولها ، مستخدمة فى ذلك رياضيات بسيطة (٢٠) . وقد اتجه بعض علماء الاجتماع والانثروبولوجيا اليوم من المتحمسين لاستخدام الرياضيات الى الاستعانة أو الدعوة الى الاستعانة بالرياضيات الحديثة والتى تتحدى فى رأيهم اهم اعتراض اثير امام تطبيق الرياضيات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا وهو القائل بان الظاهرة الاجتماعية يصعب اخضاعها للتكميم .

فبظهور الرياضيات الكيفية Qualitative Mathematics **على حد تعبير ليفى شتروس ظهرت امكانية تطبيق الرياضيات فى العلوم الانسانية** . وقد ذكر ليفى شتروس مثلا انه عند وضع نظرية عن قواعد الزواج تعتمد على الرياضيات الكيفية فان كل ما اشترطه عالم الرياضيات هو امكانية اختزال حالات الزواج التى تمت ملاحظتها فى مجتمع ما الى عدد محدود من الفئات ، وضرورة وجود علاقات محددة بين الفئات المختلفة ، اى انه يجب أن تكون هناك نفس العلاقة بين الفئة الخاصة بزواج الأخ والفئة الخاصة بزواج الاخت ، أو بين الفئة الخاصة بزواج الآباء والفئة الخاصة بزواج الأبناء .

ومن هذه التصنيفات والعلاقات يمكن التعبير عن جميع قواعد الزواج فى مجتمع معين فى صورة معادلات تعالج بأساليب الاستدلال الموثوق بها ، علماً بان طبيعة الظاهرة موضوع الدراسة ـ وهى هنا الزواج ـ يمكن التغاضى عنها تماماً فى هذه المعالجة الرياضية . وذهب ليفى شتروس الى أن استخدام هذا النوع من الرياضيات يستلزم الاهتمام بالأعداد الصغيرة والمتغيرات الكبيرة الناجمة عن التحول من عدد الى آخر . فمثلاً الاهتمام بالنتائج النظرية المترتبة على زيادة السكان بنسبة ١٠٪ فى دولة يبلغ تعدادها مثلاً خمسين مليوناً يكون اقل من الاهتمام بالتغيرات التى تحدث فى البناء عندما تصبح الاسرة المكونة من شخصين مكونة من ثلاثة أشخاص (٢١) . كذلك نجد **كيمنى** Kemeny يتنبأ بأن يحرز هذا النوع من الرياضيات غير العددية والنماذج غير العددية نجاحاً فى مجال العلوم الاجتماعية خاصة وهى تتناول مسائل على درجة عالية من التعقيد (٢٢) .

وعموماً فان هذا الوضع فى جملته ، سواء اخذ شكل محاولات لصياغة نظريات اجتماعية رياضية ، أو المطالبة بالاستعانة بالرياضيات ، سواء الرياضيات التقليدية او الحديثة ، فانه يعكس الشعور بالحاجة بين علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الى لغة دقيقة للتعبير عن نظرياتهم الاجتماعية .

● ● ●

ولكن الدور المتوقع من الرياضيات بالنسبة للنظرية الاجتماعية هو فى الواقع اكبر من مجرد كونها لغة لها ، اذ ان اسهامها الفعلى يكون فى عملية بناء النظرية الاجتماعية .

---

(٢٠) Sorokin, p., op. cit., pp. 134-135.

(٢١) Firey, W., op. cit., p. 25.

(٢٢) Coleman, J., op. cit. pp. 526-527.

فسواء جنحت النظرية الاجتماعية الى مجال الفلسفة والتأملات ، او اتجهت الى مجال الواقع الاجتماعى فان الرياضيات تسهم فى عملية بنائها ، وان كان مدى الاسهام هذا يختلف فى كلتا الحالتين .

ففى الحالة الاولى يقتصر اسهام الرياضيات على تحقيق دقة ومنطقية البناء النظرى للنظرية ، بينما فى الحالة الأخيرة يتخطى هذا الى تحقيق واقعية هذا البناء أيضاً .

لعل أول اسهام للرياضيات فى بناء النظرية الاجتماعية هو تخليص مفهوماتها مما يكتنفها من غموض ولبس وابهام . فالاستعانة بالرياضيات فى عملية الاستدلال العقلى تستلزم أن توضع حدود النظرية بصورة تسمح بتناولها رياضياً ، وهذا يستلزم اولاً وقبل كل شىء وضوح المفهومات وتحديدها ، وهو أمر تكاد تفتقده تماما النظرية الاجتماعية . **ويكفى للتدليل على ذلك أن نحاول وضع أى نظرية اجتماعية فى حدود رياضية ، اذ سرعان ما نكتشف كيف تتسم عباراتها ومفهوماتها بالابهام والغموض** . هذا الغموض الذى اعتبره بعض علماء الاجتماع يعكس فقراً فى المنطق ، وغموضاً فى الأفكار ، وادعاء كاذباً بالاصالة يحاول صاحبه أن يخفيه ، ويخفى هذه العيوب جميعها بكساء من الألفاظ الرنانة (٢٣) .

وقد ساعد على ذلك الوضع التحويل الأعمى لمصطلحات وصيغ العلوم الطبيعية الى علم الاجتماع مما ادى الى تخريب للمعنى الدقيق للفظ فى العلم الطبيعى وافساد العلوم الاجتماعية بالفاظ أصبحت اما غامضة أو لا معنى لها ، بالاضافة الى ادخال الكثير من الالفاظ المبتكرة التى اعاقت التواصل الدقيق وفهم الأفكار بين العلماء . ونتيجة لكل هذا وعلى حد قول سوروكين أصبحت لغة علم الاجتماع نوعاً من الرطانة التى تفتقر الى الرشاقة والوضوح .

وما نود أن نؤكده ان غموض عبارات النظرية ومفهوماتها ينسحب على النظريات وليدة التأمل وايضاً على النظريات وليدة البحث ، فهى تكاد تكون ظاهرة عامة مرتبطة بلغة التعبير عن النظرية الاجتماعية ، وهى تعكس خواء فى العلم أكثر مما تعكس ثراء فيه .

ومن ثم فما دامت الرياضيات تستلزم تحديداً للمفهومات وتوضيحاً لها ، فان أول خطوة تسهم بها فى بناء النظرية الاجتماعية هى الكشف عن نواحى اللبس والغموض فى مفهوماتها (٢٤) . وبالتالى فهى تجبر المنظر على تحديد ما يعنيه وان يعبر عنه فى شكل واضح ومحدد ، وان يوضح مصادراته ، كما تساعده على اكتشاف اشتقاق مصادرات من اخرى ، أو حاجته الى اضافة مصادرات اخرى ، أو اكتشاف عدم الاتساق بين المصادرات ان وجد ، وبهذا فهى تساعد على أن يصبح نسق النظرية كاملاً والاستنباط دقيقاً ، كذلك فانه عندما تصبح النظرية على درجة عالية من التعقيد بحيث يصعب على المرء رؤية كل ضمنياتها فان استخدام الرياضيات يساعد فى هذه الحالة على اشتقاق الاستنباطات والضمنيات الدقيقة ، التى ربما ان امكن تخمين بعضها الا أن البعض الآخر ربما لم يكن من الممكن تخيل وجوده (٢٥) .

---

(٢٣) Levi-Strauss, Cl. op. cit., p. 585-567.

(٢٤) Kemeny J., and Snell, J., Mathematical Models in the Social Sciences, Blaisdell Publishing Company, London, 1962, pp. 6-7.

(٢٥) Sorokin, p., op. cit., p. 27.

واذا كانت الرياضيات تسهم فى تحقيق الحبكة المنطقية للنظرية فانها تسهم أيضاً فى تحقيق الصلة التي تربط النظرية بالبحث سواء فى المعاونة على اكتشاف عدم الاتساق بين المعطيات الامبيريقية والنظرية التي تستخدم لتفسيرها او فى استنباط المصادرات التى توجه البحوث الامبيريقية للتحقق من النظرية . فمما لا شك فيه أنه للانتقال بالنظرية الاجتماعية من مستوى الاطار النظرى الفلسفى الى مستوى النظرية العلمية ، لا يكفى تحقيق الحبكة المنطقية للنظرية أو البناء النظرى المتكامل لها ولكن لا بد من ارتباطها بالواقع الاجتماعي واختبارها على محكمه .

واذا كانت قوة الرياضيات فى العلوم الامبيريقية تكمن فى قدرتها كلغة للتعبير عن العلاقات بين المفهومات المجردة فى النظرية ، فان اهم مميزاتها كلغة للعلم هي قدرتها على الربط بين النظرية والبحث وبين الفكرة والتجربة . وهنا تقدم لنا الرياضيات أحد استخداماتها العامة وهو الاحصاء Statistics للمساهمة فى دقة الملاحظة وفى دقة الاستنتاج وفى التحقق * من مدى انطباق النظرية على الواقع الاجتماعى.

ولكن مجرد الحديث عن الاحصاء يستدعي امامنا جميع صور الهجوم وجميع أوجه النقد التي وجهت لهذا الاسلوب سواء من جانب علماء الاجتماع والانثروبولوجيا او من جانب الاحصائيين ** أيضاً ، وذلك منذ بدايات استخدامه فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا وان كانت وطأة هذا الجهوم وذلك النقد قد اشتدت منذ اعتمد الامبيريقيون والاجرائيون عليه تماماً فى دراستهم بحيث اعتبر الاحصاء مسئولاً عن ضحالة وسطحية وتفاهة وزيف وجدب اغلب النتائج التى توصل اليها هؤلاء . حيث كانوا حريصين فى منهجهم على ممارسة الطقوس الأحصائية The statistical rituals على حد قول رايت ميلز (٢٦) بحيث نجحوا فى تتفيه Trivializing البشر والمجتمع بل وعقولهم أيضاً (٢٧). ونجد سوروكين فى مهاجمته للاسلوب الاحصائى يذهب الى القول بأن اى شخص يمكنه ان يصبح باحثاً علمياً حيث لن يكلفه هذا سوى أن يأخذ عدداً من الأوراق ويملؤها بكل انواع الأسئلة، ثم يرسل الاستخبارات بالبريد ويتسلم الاجابات فيصنفها ويبوبها بوساطة آلة التبويب فى عدة جداول ، ثم تحسب آلياً النسب المئوية

---

* التحقق الامبيريقى يتناول سؤالين ، اولاً ما الذى نتحقق منه ؟ وثانيا كيف يتم ذلك ؟ بالنسبة لاصحاب النظرية الكبرى ، على حد قول رايت ميلز لا يمثل اى من السؤالين مشكلة لهم ، حيث يتم التحقق من النظرية استنباطيا اما بالنسبة للامبيريقية التجريدية Abstracted empiricism فان السؤال الاول لم يعط أهمية وانما اعطيت كل الاهمية للسؤال الثانى لدرجة تدخل متطلبات التحقق فى اختيار المشكلة وفى تحديد المفهومات والحد منها ايضاً . Mills, W., op. cit. p. 125 .

** مثال ذلك النقد الذى وجهه عالم الاحصاء الشهير جالتون Galton الى ادوارد تيلور Taylor عندما القى الأخير محاضرته الرائدة سنة ١٨٨٨ والتي دعا فيها الى استخدام الاحصاء فى الانثروبولوجيا .

(٢٦) Ibid, pp. 21-22.

(٢٧) Festinger, L.'' The Relevance of Mathematics to Controlled experimentation Sociology, International Social Science Bulletin, Vol. 6, No. 4, 1954, pp. 622, p. 626.

ومعاملات الارتباطات والانحرافات المعيارية والاخطاء الاحتمالية ، ثم يقوم بكتابة تقرير او كتاب يملؤه بهذه الأعداد الضخمة والمؤثرة من الجداول والصيغ والمؤشرات وما الى ذلك من الشواهد على أن البحث موضوعي وكامل ودقيق وكمي ، **ويصف سوروكين هذه العمليات بانها طقوس البحث الكمى المعاصر فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية (٢٨) .**

هذه الوصمة التى دمغت الاسلوب الاحصائى وحاولت التقليل من أهميته فى المعرفة الاجتماعية كان الاحرى أن تدمغ الاتجاه الامبيريقى غير الموجه بالنظرية او باطر نظرية . فالعيب لا يكمن فى الاسلوب الاحصائي فى حد ذاته وانما يكمن فى الفكر الموجه لهذا الاسلوب والذى اما يحمله أكثر من طاقته أو يفشل فى استغلال امكانياته أو يشوه استخداماته .

ومما يثير الدهشة أن البدايات الاولى لاستخدام الاسلوب الاحصائى كانت منبثقة عن نظرية او اطر نظرية يأخذ بها العالم الاجتماعي ويحاول بالاستعانة بهذا الاسلوب أن يدعمها . ولعل أول دراسة تصادفنا من هذا القبيل هي دراسة « تايلور » التي عرض لها فى محاضرته التي القاها فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨٨ بعنوان « عن منهج لبحث ترقى النظم ، مطبقاً على قوانين الزواج والنسب » والتي حاول فيها أن يبرهن على أن المجتمعات فى تطورها تمر من المجتمع الاموى Maternal الى المجتمع الابوى Maternal Paternal الى المجتمع الابوى Paternal معتمداً فى ذلك اعتماداً كلياً على الاسوب الاحصائى . ورغم ما أثارته هذه المحاضرة من نقاش وما تعرضت له الدراسة من الرياضيات على تحقيق دقة ومنطقية البناء نقد ، ورغم حرص « تايلور » على أن يؤكد أن التفسير التأملى يجب أن يبدأ فقط عندما تتضح من المعالجة الكمية العلاقات بين المجموعات المصنفة ، بحيث يكون مسترشداً فى مساره ومحدداً فى مداه بخطوط واضحة تماماً ومستمدة من الواقع الذى يجب أن يتفق هذا التفسير التأملي واياه (٢٩) فانه لا يسعنا رغم ذلك سوى أن ننوه بأن تايلور كان له السبق فى ادراك أهمية انطلاق الاسلوب الاحصائى من تصور نظري وادراك أهمية تدعيم هذا التصور بالوقائع واستناده اليها ، وهى وان لم تكن فى حد ذاتها وقائع كمية أو جمعت باسلوب كمى الا انها عولجت معالجة كمية كان من شأنها الكشف عن العلاقات بين الوقائع وارتباطها بالنظرية أو بالاطار النظرى . وينطبق هذا القول أيضاً على كثير من الدراسات المبكرة التى استخدمت الاسلوب الاحصائي فى اطار نظريات التطور أو الانتشار والتي اوضحت اسهام الاحصاء فى تحقيق الرابطة بين البحث والنظرية .

وعموماً فاننا اذا سلمنا مع كولمان Coleman بان التعميمات والقوانين هي بمثابة الطوب الذى تبنى به النظرية ، وان الاقيسة هي بمثابة الطوب الذى تبنى منه هذه التعميمات والقوانين

---

(٢٨) Mills, W., The Sociological Imagination, op. cit., p. 72.

(٢٩) Mills, W., "IBM Plus Reality Plus Reality Plus Humanism Sociology", in Irving Horwitz (ed.) Power Politics and People.

(٣٠) ، فانه يمكننا التعرف على دور الاحصاء في ربط النظرية بالواقع الاجتماعى سواء من حيث ادخال هذا الواقع فى بناء النظرية أواتخاذه محكاً للتحقق منها ، أو بقول آخر التعرف على دور الاحصاء فى المساهمة فى تحقيق علمية النظرية الاجتماعية .

●●●

ميزنا عند عرضنا لانواع النظريات الاجتماعية بين نوعين من النظريات : **النظريات التفسيرية، والنظريات التركيبية** ، وأوضحنا أن أساس التمييز بينهما هو وضع التعميمات الامبيريقية كمصادرات أو كضمينات . وما يعنينا هنا هو أن التعميمات الامبيريقية تدخل فى صلب النظرية الاجتماعية ، وهنا يمكن أن تتضح أهمية الاسلوب الاحصائى فى الوصول الى هذه التعميمات .

فكما هو معروف لا يمكن أن نصل الى التعميم من دراسة حالة مفردة أو عدد محدود من الحالات مهما كانت دراستنا هذه دراسة شاملة ومتعمقة . فنجد **رادكليف براون** Radcliffe-Brown مثلاً يذهب الى « ان الفرد لا يستطيع ان يصل الى تعميمات من مجتمع واحد فقط مهما كان يعرف هذا المجتمع جيداً ، ولا يستطيع الفرد أن يجرى تعميمات صحيحة من أى شيء فريد فى العالم من فئة بها عضو واحد فقط . اننا يجب أن يكون لدينا مجتمعان على الاقل ، وفى الواقع اننا نطلب عدداً اكثر من ذلك بكثير » . وقد اشار أيضاً الى انه بالنسبة للتعميمات ليس المهم هو زيادة عدد الحالات وانما المهم تنوعها . فالتعميم الذى نضعه يكون احتمال صحته اكبر اذا كنا حققناه من مجتمعين مختلفين مما لو اخذنا عشرين مجتمعاً متشابهاً (٣١) .

فاذا كانت دراسة الحالة المفردة لا تمكننا بالطبع من الوصول الى التعميمات الامبيريقية فان دراسة جميع الحالات تعد مستحيلة تماماً لا فى مجال العلم الاجتماعى وحسب ولكن فى مجال العلم الطبيعى أيضاً ، لذلك كان لا بد من **اختيار عدد محدود من الحالات أو الوحدات الممثلة للمجتمع** Population **(بالمعنى الاحصائى) الذى يضم كل هذه الوحدات** ـ سواء كانت الوحدة هى المجتمع الكلى أو المجتمع المحلى أو النسق الاجتماعى أو النظام الاجتماعى أو العلاقة الاجتماعية أو الظاهرة الاجتماعية أو الجماعة الاجتماعية الى آخر هذه الوحدات التى يزخر بها كل من علم الاجتماع والانثروبولوجيا . **وهنا تظهر اول ضرورة لاستخدام الاسلوب الاحصائى لاختيار العينة الممثلة لهذه الوحدات .**

بالطبع قد تثار هنا مسألة أن الظاهرة الاجتماعية ظاهرة تاريخية وبالتالى فهى ظاهرة فريدة ومن ثم لا يمكن اختيار عينة ممثلة من هذه الظواهر . هذا القول ينطوى فى الواقع على ما هو أعمق من مجرد رفض للاسلوب الاحصائى اذ هو أصلاً يرفض التسليم بوجود نوع من الانتظامات والاطرادات فى الظواهر الاجتماعية وبالتالى فهو ينطوى على رفض التسليم بعملية علم الاجتماع والانثروبولوجيا . ولكن قد تثار المسألة بشكل أقل حدة على أساس أن ثمة ظواهر

---

(٣٠) Sorokin, P., op. cit. pp. 172-173.

(٣١) Tylor, E., op. cit., p. 252, p. 269.

اجتماعيـــة فريدة ونادرة وبالتـــالى لا تخضـــع للاختيار الاحصائى او المعالجة الاحصائية بينما هناك ظواهـــر اجتماعية تتكرر فى الزمان والمكان وهذه يُعد الاســـلوب الاحصـــائى ملائماً لهـــا تماماً (٣٢) .

وعموماً فمتى ســـلمنا بوجـــود قدر من الاطـــرادات فى الظاهـــرة الاجتماعية وقـــدر من العمومية لا بد أن نســـلم بالتالى ــ ســـواء كنا متحيزين تماماً لفكـــرة التناول الكمى للظاهـــرة الاجتماعيـــة أو رافضـــين تماماً لهـــذه الفكـــرة ــ بضرورة الاسلوب الاحصائى لتحقيق الاختيار السليم للوحدات التى يمكن من دراستها ــ أيا كان الاسلوب المستخدم فى الدراسة ــ الوصول الى التعميمات الامبيريقية التى تدخل فى صلب بناء النظرية الاجتماعية .

وفى الوقت ذاته اذ سلمنا بأن المنهج المقارن Comparative Method هو المنهج الأمثـــل الذى يمكننا من اكتشـــــاف الانتظامات والاطـــرادات والوصول الى التعميمات الامبيريقية اتضحت لنا ضرورة أن تكون مادتنا قابلة للمقارنة . هنا يمكن للاسلوب الاحصائى الاسهام فى تحقيق ذلك الى حد مـــا . وقد أوضـــحت **اليزابيث كولســـون** Elizabeth Colson هذه النقطـــة بقولهـــا انهـــا تشك فى أن المنهـــج المقارن سيســـهم ولو بزيادة طفيفة فى فهمنا للتنظيم الاجتماعى ولمجال الظواهر الثقافيـــة بصـــفة عامـــة ، الا اذا تحولنـــا عن التصنيفات التى تصنف المجتمع ككل على أساس وجود الظاهـــرة أو عدم وجـــودها ، والشـــائع استخدامها حاليا ، الى منهج يبنى على مقارنة المعدلات التى بنيت بدورها على أساس معلومات كمية جمعت بطريقة منظمة (٣٣) .

والواقع أننا سواء اتبعنا **المنهج المقارن** على مدى محدود واتبعنا **المنهج المقارن عبر الثقافات** Cross-Cultural Comparative Method بهدف الوصـــــــول الى تعميمات امبيريقيـــة فـــان البيانـــات المقارنة يجـــب أن تكون بيانات هامـــة بالنسبة لفهم الظاهرة محل البحث ، وأن تتميز فى الوقت نفسه بدقتها ، وأن يعبر عنهـــا بحيث تصبح صالحة للمقارنة . هنا نود أن نؤكد أنه لا توجد علاقة ضرورية بين كون البيان بياناً كمياً أو معبراً عنه تعبيراً كمياً وبين كونه بياناً هاماً أو بياناً دقيقاً . ويزخر ميدان علم الاجتماع بالذات بالأمثلة المؤيدة لهذا . **فمما لا شـــك فيه ان دقة البيانات تتوقف الى حد كبير على اختيار اساليب البحث الملائمة للدراسة ، وعلى صلاحية أدوات البحث ودقتها بالنسبة للمشـــاهدة** . وبناء على هذا نجد ان الاسلوب الاحصـــائى هو أفضـــل اسلوب لدراسة الجـــوانب الكمية من الظاهـــرة الاجتماعية والجوانب التى يمكن تكميمها على أن تعالج البيانات الاحصائية بالنظر اليها فى سياقها التاريخى والاجتماعى لا على أنهـــا بيانات قائمة بذاتها . أما بالنسبة للجوانب الكيفية تماماً فان الاسلوب الاحصائى يعجز بمفرده عن الوصول الى بيانات دقيقة عنها وانما يمكنه الاسهام فى ذلك بتضامنه مع أساليب البحث الاخرى وخاصة فى المراحل النهائية من البحث حيث يمكنه الاسهام فى بلـــورة بعض النتائـــج الكيفيـــة والتحقق من صحتها .

---

(٣٢) Coleman, J., op. cit., p. 34.

(٣٣) Radcliffe-Brown, A. R., A Natural Science of Society, The Free Press, Illinois, 1957, pp. 38-40.

ولكن لا يكفى بالطبع فى دراسة الظاهرة الاجتماعية بهدف الوصول الى تعميمات امبيريقية تجميع بيانات كمية أو كيفية او تراكم هذه البيانات ، وانما لا بد من استخدامها فى الوصول الى الاستنتاجات كخطوة اولى نحو الوصول الى التعميمات . هنا نجد التحليل الاحصائى يساعد فى عملية الاستنتاج هذه وخاصة بالكشف عن العلاقات الموجودة بين الظواهر او بين المتغيرات . الا أن التحليل الاحصائى يعجز عن تحديد طبيعة هذه العلاقة هل هى مثلا علاقة وظيفية أم علاقة تاريخية .. الخ . ومن هنا ذهب البعض الى ان الوصول الى معرفة الانساق الاجتماعية والثقافية ـ من حيث طبيعتها وبنائها وانتظامها الاستاتيكية والديناميكية ـ لا يكون فقط من خلال الملاحظة الخارجية الحسية External- Sensory Observation لشخص خارج النسق ، ولا يكون ايضا فقط من خلال التحليل المنطقى والحسابات الرياضية (الاحصائية) من جانب الملاحظ ، ولكن بصفة خاصة من خلال التشارك الشعورى Cofeeling المباشر والتشارك المباشر فى الخبرة Coexperiencing بالأوحال النفسية الاجتماعية للنسق ، وبالحدس المباشر والمعايشة والتقمص الوجدانى وكل الخبرات الداخلية الغامضة والتى يصعب وصفها والتى تسمى بالفهم أو التفهم (٣٤) Understanding . ولكن رغم كل ما يُوجه الى هذا الاسلوب الذى يعتمد على انسانية الباحث فى فهم الظواهر الاجتماعية من نقد من حيث بعده عن الموضوعية والعمل على الانتقال بالعلم الاجتماعى من مجال العلم الى مجال الانسانيات ، الا انه نظرا لما قد يتيحه هذا الاسلوب من ثراء وعمق فى تفهم الظاهرة فانه يمكن البحث عن وسائل منهجية للحد من عدم الموضوعية هذه سواء عن طريق عدم ترك هذه العملية لشخص واحد وانما لفريق من الباحثين أو عن طريق مزجها بالأساليب الاحصائية للاستنتاج ... الخ . وعموما فانه حتى بعد ان تتم عملية فهم النسق الاجتماعى او الثقافى او الظاهرة الاجتماعية فانه لا بد من اخضاعها للاسلوب الاحصائى مثلها مثل اى بيانات كيفية لم تجمع بوساطة هذا الاسلوب وذلك حتى يمكن ان تصبح قابلة للمقارنة . فنجد « سوروكين » يذهب الى انه يمكن فقط بعد انجاز العملية الداخلية الغامضة الخاصة بالفهم بنجاح ، تصنيف نسق الأفكار أو نسق القيم فى الفئات المناسبة ، بحيث توضع كل مجموعة متشابهة من الأفكار أو من القيم فى فئة خاصة . وبعد هذا يمكن أن تتم عملية العد متى كانت تقبل العد واجراء العمليات الرياضية أو الاحصائية متى كان ذلك ممكنا (٣٥) .

وما أن تصبح المادة قابلة للمقارنة فانه يمكن بالاعتماد على التحليل الاحصائى وفى اطار المنهج المقارن الوصول الى التعميمات الامبيريقية التى تدخل فى بناء النظرية الاجتماعية . وأيا كان نوع النظرية الاجتماعية ، نظرية تفسيرية أو نظرية تركيبية ، فهى فى النهاية نظرية تمكننا من اشتقاق عدد من الفروض العلمية يؤدى اختبارها الى التحقق منها ، وبالتالى دعم النظرية او تعديلها أو رفضها . هنا يمكننا الاستفادة من الاسلوب الاحصائى فى التحقق من النظرية ، أو بقول ادق فى التحقق من الفروض المستمدة من النظرية .

---

(٣٤) Sorokin, P., op. cit. p. 132.

(٣٥) Colson, E. "The Intensive Study of Small Sample Communities", in Epstein (ed.) The Craft of Social Anthropology, Tavistock Publications, London, 1967, p. 4.

ولا يختلف دور الاحصاء فى هذه الحالة عن دوره بالنسبة للوصول الى التعميمات الامبيريقية سواء بالنسبة لاختيار الوحدات او جمع البيانات او تصنيفها او تحليلها. فهو يساعد على التصميم التجريبى السليم باختيار الوحدات المناسبة لاختبار الفروض وتحقيق الموقف التجريبى أو شبه التجريبى . والاحصاء كاسلوب للبحث يسهم فى جمع البيانات الصالحة للمقارنة ، وهو كاسلوب للتصنيف يمكننا من تصنيف البيانات سواء الكمية أو الكيفية بحيث يمكن معالجتها احصائياً ، وهو كاسلوب للتحليل يمكننا من استنتاج صحة الفرض أو خطئه مع تحديد درجة الدقة فى هذا الاستنتاج . كذلك يتيح لنا التحقق من مدى صحة الفرض على نطاق اكبر من المجتمعات ، بحيث يمكن فى النهاية متى تحققت صحته ، وضعه فى صيغة معادلة رياضية تدخل فى صلب القوانين الاجتماعية المكونة للنظرية الاجتماعية .

من هذا يتضح لنا أن الاحصاء كاحد الاستخدامات العامة للرياضيات يمكن أن يسهم فى بناء النظرية الاجتماعية وفى التحقق منها . وفى الوقت نفسه فان وجود نظرية تشتق من مصادرتها الانتظامات الاحصائية يرتفع بهذه الانتظامات من مجرد الوصف الى مستوى التفسير ويحقق للعلم الاجتماعى نضجه العلمى (٣٦) .

ورغم الاسهامات التى يمكن ان تقدمها الرياضيات حالياً للنظرية الاجتماعية الا ان اسهامها يمكن ان يتضاعف متى نمينا رياضيات تتلاءم وعلم الاجتماع . فاغلب الرياضيات الموجودة حالياً نمت تحت دفع المشكلات التي واجهت العلوم الطبيعية . وبالتالى يمكننا ان نستنتج انها قد لا تكون هى الرياضيات الصالحة للتطبيق فى مجال علم الاجتماع ، ومن ثم فلا بد من الوصول الى رياضيات تصلح لهذا العلم ، ورغم معقولية هذا التصور الا ان الوضع ليس بهذه البساطة أو السهولة . اذ ما دام الموقف غير مهيأ لتطبيق الرياضيات عموماً ، فانه لا يمكن بالتالى التنبؤ بنوع الرياضيات التى يراد تنميتها فى المجال الجديد . فما دامت النظريات الاجتماعية رغم ندرتها محاطة من كل جانب بالغموض واللبس فان أى محاولة لاستخدام الرياضيات فيها اما تنتهى الى عبارات رياضية لا تمس الا قدراً يسيراً من المشكلات الحقيقية التي كان عليها أن تعالجها ، واما تتمخض عن صيغ تافهة بمعنى انها لم تؤد أكثر مما كان يمكن ان تؤديه العبارات اللفظية (٣٧) . ولكن متى أصبحت النظرية على قدر كبير من الوضوح فى مفهوماتها ومتى وصلت فى الوقت نفسه الى حالة من التعقيد تستلزم الاستعانة بالرياضيات فان الوضع هنا يصبح ملائماً تماماً للبدء فى تنمية نوع الرياضيات الملائم تماماً لهذا العلم . والتى رهن البعض علمية العلوم الاجتماعية وبقاءها بالوصول الى هذا النوع من الرياضيات (٣٨) .

ولكن مهما بلغت أهمية الرياضيات للنظرية الاجتماعية فانه يجب الا نفقد نظرتنا اليها باعتبارها لغة للعلم واداة له وحسب ، حتى لا تفنى النظرية الاجتماعية فى الرياضيات بدلاً من ان تجد وجودها فيها .

---

(٣٦) Sorokin, p. op. cit., pp. 159-160.

(٣٧) Ibid, p. 161.

(٣٨) Werkmeister, W. op. cit., p. 493.

اهم المراجع

ـ ابو زيد ، احمد ، « ازمة العلوم الانسانية » ، عالم الفكر ، المجلد الاول ، العدد الاول سنة ١٩٧٠ .

ـ عارف ، محمد ، المنهج فى علم الاجتماع ، الجزء الاول ، دار الثقافة والنشر ، القاهرة ١٩٧٢ .

— Coleman, J., **Introduction to Mathematical Sociology**, Collier-Macmillan Limited, London, 1964.

— Firey, W., **Mathematics and Social Theory, Social Forces**, Vol. 29, No. 1, 1950.

— Levi-Strauss, Cl., **The Mathematics of Man, International Social Sciences Bulletin**, Vol. 6, No. 4, 1954.

— Mills, W., **The Sociological Imagination**, Grove Press Inc., New York, 1961.

— Nagel, E., **Problems of Concept and Theory Formation in the Social Sciences** ; in

Maurice Natson (ed) **Philosophy of the Social Sciences**, Random House, New York 1963.

— Schutz. A. ; **Concept and Theory Formation in the Social Sciences**, in Maurice Natson (ed) **Philosophy of the Social Sciences**, Random House, New York, 1963.

— Sorokin, **P. Fads and Foibles in Modern Sociology**, Henry Regnery Company, Chicago 1965.

— Werkmeister, W., **Theory Construction and the Problem of Objectivity**, in Llewellyn gross (ed) **Symposium on sociological theory**, Harper and Row, New York, 1959.

★ ★ ★

بقلم : أناتول رابوبورت
ترجمة : أسامة أحمد مصطفى

استعمال وسوء استعمال نظرية المباريات

اننا نعيش الآن فى عصر من عصور الايمان .. الايمان بقدرة العلم على انجاز كل شيء . ويعضد من هذا الايمان أن المشكلات التى يستدعى العلماء لحلها انما يقوم هؤلاء العلماء أنفسهم فى الأغلب باختيارها . مثال ذلك أن وزارة الدفاع الأمريكية لم تقرر يوماً ما أنها فى حاجة الى قنبلة ذرية فأمرت العلماء بناء على ذلك بصنع تلك القنبلة ، ولكن على العكس من ذلك ، كان **البرت اينشتين** (عالم) هو الذى أبلغ **فرانكلين د. روزفلت** (صانع قرار) بأن فى الامكان صنع مثل هذه القنبلة . والواقع أن العلماء يوجدون الآن وبدرجة لم تكن معهودة من قبل بالقرب من صانعى القرارات ويوجهون صياغة المشكلات بطريقة تساعد على ايجاد حلول علمية لتلك المشكلات . أما المشكلات التى لا تبشر بامكان الوصول الى حلول علمية لها فانها تترك فى العادة بغير صياغة ، ومن ثم كان ذلك الايمان بقدرة العلم على انجاز كل شيء .

والواقع ان السمعة الطيبة التى كونها العلم لنفسه قد ازدادت وارتفعت عند صانعى القرارات فى الفترة الحالية نتيجة لاتساع نطاق ما يقدمه العلم من عون ومساعدة فى عملية اتخاذ القرارات ذاتها . وهذه هى نظرية المباريات وهى عبارة عن اسلوب رياضى لتحليل الصراع او النزاع طرحه فى الأصل **جون فون نويمان** John Von Neumann عام ١٩٢٧ ثم اذاعه بين الناس فون نويمان نفسه **واسكار مورجنسترن** Oskar Morgenstern عام ١٩٤٤ فى كتاب بعنوان « نظرية المباريات والسلوك الاقتصادى Theory of Games and Economic Behavior » ولقد أصبحت نظرية المباريات فى الوقت الحالى عملاً ذهنياً بالغ الأصالة كما فتحت مجالات واسعة وجديدة للبحث . ولكن لسوء الحظ لم ينظر لهذه النظرية بتلك النظرة السامية فى بعض الميادين التى تؤخذ فيها عبارة **فرانسيس بيكون** المشهورة « المعرفة قوة » بمعناها البدائى الفج . فصانعو القرارات فى مجتمعنا الآن تسيطر عليهم شهوة الصراع على السلطة سواء أكان ذلك فى العمل أو فى السياسة أو الحرب ، واصبحت نظرية المباريات عبارة عن « علم النزاع » وعلى ذلك لم يكن أمام هذا العلم الجديد الا أن يصبح مجرد مستودع للقوة بالنسبة للذين يريدون الحصول على اكبر مما يستطيعون بأسرع ما يمكن .

والفهم التام لنظرية المباريات ينبغى أن يقلل من تلك الآمال الطموحة ، فمعرفة تلك النظرية لن تزيد من كفاءة لاعب الورق أو رجل الأعمال او المشتغل بالاستراتيجية العسكرية ، وذلك لأنه ليس من وظيفتها فى الأصل الكشف عن افضل استراتيجية ممكنة لأى صراع معين بالذات . انما هى تهتم بمنطق الصراع أو النزاع ، اى بنظرية الاستراتيجية فى ذاتها . وفى هذا تكمن قوة التكنيك وقصوره ؛ فهو يستمد قوته من الأداة الرياضية القديرة والمعقدة التى يستطيع الاستعانة بها فى التحليل الاستراتيجى لبعض مواقف الصراع . اما مظاهر القصور فانها تظهر فى تنوع أشكال النزاع والتعارض التى يمكن تطبيق هذا التحليل عليها بنجاح .

وليس ثمة شك فى أن منطق الاستراتيجية لا ينطبق على انواع معينة من النزاع والتعارض ، فليس ثمة اية اعتبارات استراتيجية فى العراك الذى قد ينشب بين كلبين مثلاً ، اذ من الافضل أن ننظر الى هذا النزاع على أنه مجرد تتابع لبعض الأحداث بحيث يؤدى كل حدث منها الى الحدث التالى ، فزمجرة أحد الكلبين تثير زمجرة الكلب الآخر وهذه بدورها تدعو الكلب الأول الى التكشير عن أنيابه ويعقب ذلك هجوم مفاجىء وهكذا . فالانذارات تحرك الأوضاع والأوضاع تحرك القتال . كذلك فان النزاع الذى قد ينشب بين الأفراد والذى يلحق فيه المتخاصمون احدهم بالآخر اضراراً رمزية أو معنوية أكثر من الأضرار المادية هو فى الأغلب من هذا النوع ، ومثل هذه النزاعات تسمى معارك .

والدافع الأساسى فى العراك هو العداوة ، والهدف منه هو ازالة الخصم الذى يظهر على شكل ضار وليس على انه مجرد شخص آخر يجب ان تؤخذ اهدافه واستراتيجيته مهما كانت عدائية فى الاعتبار . فالذكاء ، بمعنى تقدير قوة الخصم ، والتنبؤ بمختلف المتغايرات الممكنة للعمل والمقارنة بينها ، لا يلعب فى العادة دوراً فى هذا العراك .

اما نظرية المباريات فانها تستخدم نوعاً مختلفاً تماماً من النزاع يعرف الآن فنياً باسم « مباراة » فالألعاب المشهورة مثل البوكر والشطرنج والتيك تاك تو Tictactoe وما اليها هى مباريات بكل معانى الكلمة . ولكن الذى يجعل « العاب القاعة » مباريات ليس هو قدرتها على التسلية أو على ابعاد الانسان عن الحياة الواقعيـة ، وانما هى مباريات لأنها تقوم على النزاع المنظم الذى يقوم على قواعد مرسومة . ففيها يظهر تعارض وتنازع المصالح بين طرفين أو أكثر أمام كل منهم مجال معين من الاختيارات لما يمكن أن يفعله حسب قواعد معينة وفى أوقـات معينة بالذات ، وبحيث تمثل النتيجة المجموع الكلى لاختيارات الأطراف المختلفة المشتركة فى المباريات ، وبحيث تحدد نوع ومقدار المكافأة التى تحصل عليها كل جماعة فى كل حالة من الحالات التى يتعين فيها على كل طرف ان يأخذ فى اعتباره اختيارات الطرف الآخر أو الامكانيات المتاحة أمامه للاختيار . وبناء على ذلك يمكن القول ان أى نزاع يسير على هذا النمط يمكن ادخاله ضمن فئة المباريات بحسب المفهوم السائد فى النظرية لكلمة (مباريات) . ولا يهم اذا كانت القواعد هى نتيجة اتفاق عام — كما هـو الحال فى العاب القاعة — أو مجرد قيود يفرضها الموقف . وحتى اذا لم يكن هناك اتفاق على قواعد الحرب والقتال فان الموقف الحربى يمكن النظر اليـه على انه مبـاراة اذا كان من الممكن تحديد مجال الاختيارات المتاحة أمام كل خصـم فى أى مرحلة معينة تحديداً دقيقاً .

ولنحاول الآن أن نتبين الى أى حد تتوفر هذه المتطلبات فى الشـطرنج والبـوكر .. ففى الشطرنج يتمثل تعارض المصالح — بالطبع — فى رغبة كل لاعب فى الفوز . ويتألف مجال الاختيارات بالنسـبة لكل لاعب من كل التحركات المشروعة التى تتـاح لـه عندما يجىء دوره فى اللعـب (التحريـك) . وتتحدد النتيجـة تبعـاً لكـل اختيارات اللاعبين ، أما المكافآت فانهـا تتخذ فى العادة شكل الرضى أو عدم الرضى السيكولوجى . والموقف فى البوكر يشبه ذلك الى حد كبير وأن لم يماثله تماماً ، لأن الاختيارات تنحصر فيما اذا كان على اللاعب — فى اوقات معينة — أن يسـتمر فى اللعب أو يتوقف ، وفى أى الأوراق يرميها اذا كان سيرمى أوراقاً على الاطـلاق ، واذا كان سـيرفع قيمـة اللعب أم لا ، ومقدار ذلك ، وهكـذا . وتكون نتيجة كل دور هى تعيين أحـد اللاعبين كفائز ، كما أن المكافآت تكون فى العادة فى شـكل نقـود .

ويختلف البوكر عن الشطرنج فى مظهر هام ، وهو انه فى مباراة البوكر يوجـد لاعب اضـافى (غير مرئى) يقوم بعمل اختيار واحد فقط فى بداية كل دور أو جولة ، ولكن هذا الاختيار له اهميته فى تحديد النتيجة وان كان هـذا اللاعب الذى يصنع ذلك الاختيار ليس له مصلحة فى المباراة ولا يحصل على أى مكافأة .. اسم هذا اللاعب هو الحظ أو الصدفة ويقع اختياره على واحد فقط من بين مائـة مليـون تريليـون تريليـون تريليون تريليون تريليون (٦٨١٠) من امكانيات ترتيب الورق تقريباً فى بدايـة كل دور . ولكن المصادفة لا تقـوم بأى اختيارات اخـرى أثنـاء الدور ، وانما يتوقـف كل شىء بعد ذلـك على اللاعبين انفسهم .. وقد يمكن للمرء ان يجادل فى ان الحظ يستمر فى التدخل فى المباراة كأن يتسبب مثلاً فى النسيان أو فى حسن توجيه اهتمام اللاعبين أو تشـتيت ذلك الانتباه وما الى ذلـك . ولكن نظرية المباريات تهتم فقـط بما ينبغى أن يفعله اللاعب البارع .

ومع ان الصــدفة يمكن ان تلعب بذلــك جزءاً ، فان اللعبة حسب مفهوم نظرية المباريات تتميز بوضوح عن المقامرة التى تقوم على اساس رياضيات المقامرة المعروفة منــذ أمد طــويل . والواقع ان لرياضيات المقامرة اهميــة تاريخية بالغة نظراً لأن نظرية الاحتمالات الرياضية نشأت أصلاً فى نطاق نظرية المقامرة منذ حوالى ثلاثمائة سنة . ومنذ ذلك التاريخ وجدت تلك النظريــة طريقها الى كل فروع العلم التى يجب ان تؤخذ قوانين الصدفة فيها بالاعتبار ، كما هــو الحال فى فيزياء الجسيمات والوراثة والمحاسبة والاقتصاد وعلم النفس التجــريبى وســيكولوجيا سلوك الجماهير .

وبالنسبة للمقامر فان النظرية الرياضــية للاحتمالات تجعل من الممكن حساب فرص الفوز أو الخسارة بدقة ، وهذا يتطلب فى الغالب درجة عالية من الدقــة الرياضــية ، الا انها مع ذلك لا تتناسب تماماً مع لعب القمار ولكنها مناســبة فى تقرير هل يلعب المرء أو لا يلعب . وتحل مشكلة المقامرة بمجرد ان تحسب توقعات النتائج . فاذا كانت هنــاك عدة نتائج ممكنة فان المكاســب او الخسائر المتعلقة بكل نتيجة فيهــا تضرب فى عدد الاحتمالات المناظرة لها ثم تجمع حواصل الضرب (مع استخدام الاشــارات الصحيحة) ويمثــل الرقم الناتج الربح المتوقع ــ اى ــ ما يمكــن توقعه من سلسلة طويلة من المراهنات عندمــا توضع تلك المراهنات فى ضوء المكاسب أو الخسائر المفروضة . والمقامر المتعقل الرشيد هو الشخص الذى يقدم على المقامرة بطريقة تحقق له زيادة ارباحه المتوقعة الى اقصى حد . وكــل بيــوت المقامرة تمارس العملية بذلك الاسلوب العقلانى الرشيد ، وهذا هو الســبب فى استمرارها فى العمل .

●●●

ويظهر قصور نظرية المقامرة عن أن تكون دليلاً وموجهاً فى اى مباراة صحيحة فيما يتعرض له المقامر المتعقل من احتمالات الخســائر الفادحة حين يلعب البوكر . وهذه حقيقة معروفة للجميع . فالمقامر المتعقــل يتخــذ قراراته بدقــة وفقاً لاحتمالات الكسب والخسارة دون أن يلجأ أبداً للغش والخداع ، وانما هو يراهن دائماً تبعاً لقوة مركزه ، وتكون النتيجة انه يفضح نفســه أمام خصومه الذين يستفيدون مــن ذلــك لالحاق الضرر به .

ونظرية المقامرة لها فوائد أقــل بالنسبة للاعب التيك تاك تو . ذلك ان هذه اللعبة تقوم على أساس وجود حركة واحدة تعتبر هى أفضل الحركات فى كل موقف معين . ومن المؤكد ان الصدفة لها دخل فى كل العاب الورق ولكن هناك شيئاً آخر يتدخل كما هو الحال فى لعب البوكر ، ونعنى بذلك الشىء المهارة الاستراتيجية التى لا تعتبر جزءاً من نظرية المقامرة على الاطلاق .

وكلما كان اللاعب قوياً كلما طالــت سلسلة الاستدلالات المحتملة . ولكن مهما طالت هــذه السلسلة فلابد من أن تتوقف عند حد معين نظراً لأن ما يمكن أن نأخذه فى اذهاننا فى اى وقت معين محدود بالضرورة . وبالنسبة للاعب الشطرنج تتوقف تلك الاستدلالات الممكنة بعد عدد محدود من التحركات (النقلات) عن الموقف الحالى ، اذ يصل عندئذ الى عدد من المواقع الجديدة الممكنة

التى يتعين عليه أن يختار واحداً فقط من بينها . ويتوقف ذلك الموقع الذى سينتج بالفعل على اختياراته الخاصة من ناحية وعلى الاختيارات المتاحة للخصم (والذى لا يستطيع اللاعب الأول ان يسيطر عليها) من ناحية اخرى . فكأن اختيار الفعل يتضمن نوعين من القرارات : الأول يتعلق بأى المواقف سوف ينشأ بالفعل ، بينما يتعلق الثانى بالموقع الذى سيفضله من بين كل تلك المواقع .

والواقع انه يمكن الاجابة على كل هذه الامور بغير لبس أو غموض اذا نحن نظرنا الى المباراة حتى نهايتها . وعلى أى حال فليس فى الامكان ان نتنبأ فى لعبة مثل الشطرنج بجميع الاختيارات حتى النهاية (الا فى الحالات التى يكون اللاعب مضطراً للتحريك نتيجة لتهديد الخصم ، أو الحالات التى يكون فيها الفوز واضحاً) ولذا فان لاعب الشطرنج القدير يفعل الشىء الذى يلى ذلك من حيث الأفضلية : اذ يحسب القيم النسبية للمراكز المختلفة الممكنة مستقبلاً تبعاً لخبرته السابقة فى تقدير مثل هذه المراكز . ولكن كيف يستطيع ان يحدد المركز الذى سوف يصل اليه بالفعل اذا كان كل ما يستطيع التحكم فيه هو تحركاته فقط وليس تحركات خصمه ؟ الواقع ان لاعب الشطرنج يسلم بفلسفتين شطرنجيتين :احداهما هى اللعب حسب الأوضاع على رقعة الشطرنج ، والثانية هى أن يضع نفسه موضع الخصم .

والطريقة الثانية تجعل الشطرنج أشبه بالحرب النفسية . ويقص استاذ الشطرنج العظيم **خوزيه كاپابلانكا** José Capablanca فى مذكراته عن واقعة تعطينا فكرة عن الدراما التى تتضمنها هذه النزاعات . ففى احدى مباريات التحدى التى اقيمت عام ١٩١٨ كان يلعب أمام **فرانك ج.مارشال** Frank J, Marahll بطل الولايات المتحدة ، وقد رد مارشال على هجوم كاپابلانكا الافتتاحى المعتاد باستجابة غير متوقعة وبذلك سار اللعب فى طريق مختلف تماماً عن الاحتمالات والتنوعات المألوفة التى ترتبط بتلك الافتتاحية . واعتقد كاپابلانكا أن مارشال اكتشف وسيلة جديدة للهجوم وانه احتفظ بها لنفسه كسلاح سرى ليستخدمه فقط فى المناسبات الخاصة جداً مثل مباريات التحدى الدولية التى تتركز فيها عيون المهتمين بالشطرنج فى كل أنحاء العالم عليه وهو يلعب ضد خصم مخيف حقاً ،وأنه قد اختار كاپابلانكا ليكون ضحية هذه الاستراتيجية الجديدة .

ويستمر **كاپابلانكا** قائلاً : « وتيقظت نزوة القتال فى كل أنحائى ، وشعرت أن قدرتى على الحكم ومهارتى يتحداهما لاعب لديه كل أسباب الخوف والخشية من هذه القدرات (كما هو واضح من نتائج لقاءاتنا السابقة) ، ولكنه اراد ان يستغل عنصر المفاجأة وعدم خبرتى بشىء كرس له هو ليالى كثيرة من العناء ... وتأملت الموقف حينئذ وقررت قبول التحدى ... انه أمر يتعلق بالدفاع عن شرفى » .

وقد قبل كاپابلانكا التحدى وكسب المباراة . وقد أخذ فى اعتباره وهو يتخذ ذلك القرار أنماط تفكير خصمه . ليس فقط تلك الأنماط والعمليات التى تختص باللعبة بل أيضاً تطلعات مارشال ، ورأيه فى جراءة كاپابلانكا ، وكذلك سيْر تفكيره دائماً فى خط واحد لا يتغير وما الى ذلك . وبهذا كان كاپابلانكا « يلعب الخصم » اى أنه وضع نفسه موضع الخصم فى اللعب .

●●●

ومع ان دراما العــاب الاستراتيجيــة ترتبط ارتباطاً قوياً بالمظاهر النفسية للنزاع ، فان نظرية المباريات لا تهتم بتلك المظاهر . انما تهتم نظرية المباريات فى المحل الأول بالأوضــاع على رقعــة اللعب ــ كما يقال ، بمعنى أنهــا تشير باتبــاع خطوات معينة ســواء ضــد اللاعب المتمرس أو الشخص المبتدىء . وعندما نحلل احدى الألعاب الاستراتيجية تحليلاً دقيقاً حسب اسلوب نظرية المباريات فلن يتبقى منهــا شىء على الاطلاق .و « التيك تاك تو » مثال جيد لذلك ، فهذه اللعبة لا يلعبها البالغون لأنها حللت تماماً ، وقــد بين التحليل ان كل مباراة من مباريات «التيك تاك تو» يجب أن تنتهى بالتعادل . وهذا نفسه ينطبق على لعبة « الدامة » رغم أن اللاعبين المتمرسين فقط هم وحدهم الذين يعرفون جميع الاستراتيجيات المناسبة .

ومنذ جيل مضى كان المعتقد أن الشطرنج يقترب هو ايضاً من حالة « الموت المتعادل » ولكن الاكتشافات الجديدة وبخاصــة ادخــال عنصر الحرب النفســية الى الشــطرنج ــ على أيدى الأساتذة الروس بالذات ــ انقذ اللعبة . ومــع ذلك فان **هـ.ا.سيمون** H.A. Simon **وآلن نيول** Allen NeWell من معهد كارينجي التكنولوجى تنبأ بجدية أنه خلال عشر سنوات سيكون بطــل العالم للشــطرنج هــو الحاســب الالكتــرونى (الكمبيوتر) . وقد صدر هذا التنبؤ منذ ثــلاث سنوات مضت ، وما زالت هناك فرصة طيبة فى أن تتحقق تلك النبوءة .

ولكن هل يعنى هذا أن هدف نظرية المباريات هو الكشف عن منطق كل لعبة ذات قواعد ثابتة حتى يمكن معرفة أفضل استراتيجية لكل لاعب وبذلك نقتل اللعبة ككل ما دامت نتيجتها فى كل حالة ستكون معروفة مقدماً ؟ ليس الأمر كذلك بحال ، لأن فئة الألعاب التى يمكن اجراء مثل هذا التحليل لها حتى من حيث المبدأ ــ وبصرف النظر عن الصعوبات الهائلة التى تعترض ذلك من الناحية العملية ــ فئة محدودة للغاية .

والألعاب التى من هذا النوع تسمى « العاب ذات معلومات كاملة » . فهى العاب يستحيل أن يملك اللاعب عنها أسراراً حربية . والشطرنج من تلك الألعاب . وأياً ما كانت المفاجأة التى اعتقد « مارشال » أنه اعدها « لكابابلانكا » فانه لم يكن يخفى شــيئاً لا يمكــن لأى لاعب شــطرنج أن يكتشفه ،ولكنه كان فقط يتمنى أن يغفل كابابلانكا عن ادراكه بفضل قدرات الانسان المحدودة .

وليست كل الألعاب العاباً كاملة المعلومات .والمؤكد أن البوكر ليس من هذه الألعاب . فجوهر البوكر ينحصر فى أن أى لاعب لا يدرك الموقف كله تماماً ولذلك يجب أن يستعين بالتخمينات حول الموقف وعما ســيفعل الآخرون . والواقع أن الشطرنج والبوكر هما من « الألعاب ذات القيمة الصــفرية » بمعنى أن ما يكســبه لاعب يخسره الآخر او الآخرون بالضرورة . وليســت جميع الألعاب من هذا النوع أيضاً .

ولفهم الفروق بين هذه الأنواع أو الفئات العديدة من الألعاب يحسن أن نعطى بعض الأمثلة من كل نوع . والفكرة الأســاســية التى نريد أن نبينها هنا هى أن كل نوع من المواقف يتطلب نوعاً مختلفاً من الاستدلال . ولكى نوضح نوع الألعاب ذات المعلومات الكاملة نضرب مثلاً هو عبارة عن الموقف البسيط الذى لا يحتمل وقوعه فى المنافسة التجارية ، وهو موقف يمثل فى الحالات الاخرى

« المباراة ذات القيمة الصفرية » التى قد تقوم بين شخصين . فشركة كاستور Castor وهى شركة قديمة لها مركز متين ، لقيت كثيراً من المزاحمة العدوانية من شركة پولوكس Pollux المتحدة التى ظهرت حديثاً فى السوق . وكانت شركة كاستور توجه سياستها تبعاً لكشف حساباتها الذى تضعه لمدة سنة مقدماً . كذلك كان المشرفون على شركة پولوكس يوجهون سياساتهم تبعاً لكشف حسابات أيضاً — ولكنه لم يكن كشف حسابات خاصاً بهم هم وانما كشف الحساب الخاص بشركة كاستور ذاتها . وكان هدفهم من ذلك هو طرد شركة كاستور من السوق ولذا كانوا يعتبرون خسائر شركة كاستور مكاسب لشركتهم والعكس صحيح ، بصرف النظر عما تبينه حساباتهم الخاصة . وكان على كل منهما ان يقرر اذا ما كان يقوم بحملة دعائية واسعة أم لا . وكانت النتيجة تعتمد بالطبع على ما تفعله كلتا الشركتين معاً ، لأن كلاً منهما كانت تسيطر على القرار الخاص بها فقط . ولكن لنفترض أن كلاً من الشركتين كانت لديها معلومات كافية عما ستكون عليه النتائج اذا توفرت لديها المعلومات عن القرار الذى ستتخذه الشركة الاخرى أيضاً . فمن وجهة نظر شركة كاستور فان النتيجة قد تكون حسنة أو سيئة ليس فقط تبعاً للقرار الذى تتخذه هى بل وأيضاً تبعاً لما تفعله شركة پولوكس . ومن النتيجتين السيئتين اللتين سوف تنجمان عن القرارين اللذين يحتمل أن تتخذهما شركة كاستور واللذين كانا سيؤديان الى خسارة ثلاثة ملايين أو مليون دولار (وذلك فى حالة أن تقوم شركة پولوكس بالاعلان) ، فان شركة كاستور كانت تفضل الحالة الثانية طبعاً . ولكن مدير شركة كاستور وضع نفسه محل مدير شركة پولوكس وتساءل عما كانت پولوكس ستفعله اذا اختارت كاستور أهون الضررين . وكان واضحاً أمامه أن پولوكس ستختار الاعلان لتمنع النتيجة التى ستكون أفضل لكاستور (خسارة مليون دولار واحد) ثم وضع مدير شركة كاستور نفسه مرة اخرى فى موضعه الطبيعى وسأل نفسه عما ينبغى عليه أن يفعل بعد أن عرف أن من المحتمل ان يكون هذا هو قرار پولوكس . وكان الجواب مرة ثانية هو ضرورة الاعلان . ومثل هذا التفكير الاستدلالى بالضبط هو الذى دفع مدير پولوكس أيضاً الى ان يتخذ قراراً بضرورة الاعلان . وبهذه الطريقة أمكن لكل منهما أن يختار لنفسه البديل الأقل سوءاً من بين بديلين سيئين . ويُعرف ذلك فى لغة نظرية المباريات باسم « القيمة العظمى للنهايات الصغرى » ، وهذا الحل هو الذى يتبع دائماً بصرف النظر عن عدد البديلات الممكنة بشرط أن تكون مكاسب احد الطرفين هى خسائر الآخر ، وبشرط أن يكون أهون الأضرار لطرف هو أيضاً أخف الخسائر للآخر . وفى هذه الحالة فان اللعبة يكون لديها ما يعرف باسم « نقطة السرج Saddle Point » (وهى تسمية مستمدة من ذلك الموقع على السرج الذى يكون أكثر المناطق انخفاضاً بالنسبة للمقدمة والمؤخرة وأعلى ما يمكن بالنسبة لليمين واليسار) . وتبين نظرية المباريات أنه كلما وجدت « نقطة سرج » فلن يستطيع أى الطرفين أن يحسن النتيجة بالنسبة لنفسه (ولا أن يسيئها بالنسبة للطرف الآخر) والنتيجة تكون مفروضة كما هى فى التيك تاك تو .

•••

والموقف التالى مختلف عن ذلك تماماً . وهو عبارة عن مباراة ذات قيمة صفرية بين شخصين ولكنها تتضمن هى أيضاً اختيار استراتيجيتين على كل جانب — وعلى أى حال

ففى هذه الحالة فان الاختيارات يجب أن تتم دون أن تكون هناك معلومات توجه قرار الخصم . وافضل مثال لذلك هو الموقف الحربى الذى يخيم عليه ضباب المعركة .

فقائد الفصيلة يتعين عليه ان يقرر اى القطاعين يجب أن يهاجم . ان اختراق احد القطاعين سيكون له قيمة أكبر من اختراق القطاع الآخر ، ولكن الأرجح ان يكون الدفاع عن ذلك القطاع ذى القيمة الأكبر دفاعاً اقوى واعنف .كذلك فان القائد المدافع يواجه بدوره مشكلة تتمثل فى اى القطاعين يجب عليه تقويته وتحصينه . وقد يبدو من الواضح أن القطاع الأكثر تعرضاً للخطر هو الذى يجب تقويته وتحصينه على حساب القطاع الثانوى . ولكن من الواضح أن المشكلة بالنسبة للقائد المدافع اكثر من ذلك تعقيداً ، فالسرية هى الجوهر . فاذا فعل بالضبط ما يتوقع العدو منه ان يفعله ــ وهو تقوية القطاع المعرض للخطر ــ ألن يكون هذا صالح العدو ؟ ألن يقوم المهاجم ــ وهو يعلم بأن القطاع الهام يتوفر له دفاع قوى ــ بمهاجمة القطاع الأضعف حيث الاختراق يكون مؤكداً ــ حتى ولو كان أقل قيمة ؟ وعلى ذلك الا ينبغى للقائد المدافع أن يفعل عكس ما يتوقعه العدو ويقوى القطاع الثانوى باعتباره المكان الذى يحتمل أن يهاجمه العدو ــ راغباً فى أن يتجنب القطاع الأقوى ؟ ولكن هنا أيضاً الا يحتمل ان يكون العدو على درجة كافية من الذكاء تجعله يتصور امكان حدوث ذلك وبناء عليه فانه يهاجم المركز الرئيسى ويحقق الاختراق فى المكان المهم ؟ وبالمثل فان القائد المهاجم يمر بنفس هذه الحسابات المضنية . هل ينبغى عليه أن يهاجم القطاع الثانوى لأن المحتمل أن يكون الدفاع عن القطاع الرئيسى قوياً أو ان يهاجم القطاع الرئيسى لأن العدو يتوقع منه أن يتجنبه ؟

ويستبد اليأس بالقائد المهاجم فيلجأ الى احد المتخصصين فى نظرية المباريات لكى يستشيره فاذا قبل ذلك المتخصص ان يساعده فسوف يتعين على قائد الجيش ان يعطى قيماً عددية لكل نتيجة من النتائج الأربع ، اى انه يجب عليه أن يقدر (بوحدات نسبية) كم « تساوى » كل نتيجة بالنسبة له . وباستخدام هذه الأرقام فان هذا الباحث فى نظرية المباريات سوف ينصح القائد بأن يلقى « بالزهر » فاذا ظهر الرقم ١ أو ٦ كان عليه أن يهاجم القطاع الأول أما فيما عدا ذلك فان عليه أن يهاجم القطاع الثانى . أما اذا اعطى القائد المدافع نفس القيم (ولكن بعلامات عكسية على اعتبار نه هو العدو) للنتائج الأربع فان باحث المباريات الذى يستعين به سوف ينصحه بأن يلقى بقطعتين من النقود فاذا استقرت الاثنتان على الصورة فان عليه أن يقوى القطاع الأول والا كان عليه أن يقوى القطاع الثانى .

وتبدو هذه الحلول غريبة لأننا نلجأ الى رمى العملات للوصول الى قرارات تتعلق بالمسائل غير الهامة فقط . والواقع أن القرار الذى نصل اليه عن طريق رمى العملة يستخدم احياناً لانهاء المناقشة والجدل ، ولكننا لا نؤمن أن مثل هذه القرارات قرارات رشيدة كما اننا لا نستأجر الخبراء لكى ينفذوها . ومع ذلك فان قرارات المتخصصين فى نظرية المباريات لا تقدم على أنها قرارات رشيدة وحسب بل وأيضاً على أنها أفضل القرارات الممكنة تحت هذه الظروف .

ولكى نفهم سبب ذلك يمكننا أن نتصور مايحدث فى « لعبة الزرار » . ففى هذه اللعبة يُخفى الشخص « زراً » فى احدى يديه ويحاول الخصم تخمين اليد التى تخفى الزر ، بحيث يكسب قطعة

معينة من النقود اذا صدق تخمينه ويخسر قطعةمماثلة اذا فشل التخمين . فما هو افضل نمط اختيارات لطريقة اخفاء الزر فى سلسلة من الادوارالمتعاقبة ؟ من المؤكد أن الشخص لن يختار نفس اليد فى كل مرة ، والا فان الخصم سوف يكتشف ذلك بسرعة . كما أنه لن يتناوب اليدين واحدة بعد الاخرى والا فانه سيكتشف ذلك أيضاً . فمن المعقول أن يقرر (وهذا يمكن اثباته رياضياً) أن افضل نمط هو عدم وجود نمط على الاطلاق . وافضل طريق لتحقيق ذلك هو أن يتخلى عن دوره كصانع قرار ويدع الصدفة تقرر نيابة عنه . فرمى العملة كوسيلة للوصول الى استراتيجية لا يُعتبر فى هذه الحالة من اعمال اليأس ولكنه سياسة معقولة .

وفى لعبة الزرار تكون المكافآت متماثلة تماماً . وهذا هو السبب فى أن القرارات يجب أن تتخذ عن طريق رمى قطعة من النقود ، فاذا لم تكن المكافآت متماثلة ، كأن يكون هناك مثلاً ميزة اكثر من التخمين حين تكون العملة فى اليد اليمنى ـ فانه يمكن اخذ هذا الانحراف فى الاعتبار . وسوف ينعكس ذلك فى جعل بعض أساليب المصادفة المنحرفة تصنع القرار . وتقوم نظرية المباريات بتوفير طريقة حساب الانحراف الذى يؤدى الى مضاعفة المكسب المتوقع على المدى البعيد .

وهنا نجد ان المتخصص فى نظرية المباريات والذى كان يساعد القائد المهاجم تصور أن المهاجم ستكون امامه افضل فرصة لو انه ترك للمصادفة ان تقرر له ، وذلك باستخدام ترجيح ٢ الى ١ لصالح القطاع الثانى . وهذا هو معنى رمى الزهر والسماح لأربعة جوانب من ستة أن تحدد القطاع الثانى . ونظرية المباريات لا تحدد هنا أفضل ضد أفضل ما يمكن أن يفعله المدافع .

وافضل شىء للمدافع هو أن يدع المصادفة تقرر باستخدام ترجيح ٣ الى ١ لصالح القطاع الثانى . ونرظية المباريات لا تحدد هنا أفضل استراتيجية لذلك الموقف المعين بالذات ولكنها تحدد أفضل مزيج من الاستراتيجيات بالنسبة لهذا النوع من المواقف والمناسبات . فاذا وجد القائدان نفسيهما أمام نفس الموقف عدة مرات فان هذه القرارات سوف تعطى كلاً منهما أقصى فائدة يمكن أن يحصلا عليها تحت تلك الظروف اذا لعب كلاهما بشىء من التروى .

وعند هذه النقطة قد يعترض شخص ما على أساس ان من الصعب ـ ان لم يكن من المستحيل ـ ان نعطى قيماً عددية لنتيجة مواقف حقيقية . وزيادة على ذلك فان المواقف المتماثلة لا تتكرر وعلى ذلك فان الربح المتوقع على المدى البعيد ليس له معنى . وتتمتع هذه الاعتراضات بكثير من الوجاهة . وكل ما يمكننا أن نقوله هو أن نظرية المباريات قد ذهبت بعيداً جداً فى حمل مبادىء واصول النزاع الاستراتيجى ، ومع ذلك فان ما أغفلت عمله فى ذلك الصدد يجب الا يؤخذ ضدها . وسوف نرى فيما بعد بعض جوانب القصور الاخرى فى نظرية المباريات . ومن الغريب انه فى هذه الجوانب من القصور بالذات تكمن معظم قيمة النظرية . فالعيوب والنقائص توضح بجلاء الى أى مدى يمكن أن يذهب الاستدلال الاستراتيجى .

●●●

وفى الفئة التالية من المباريات التى سوف نضرب لها احد الأمثلة نجد أن الاختيارات ستكون متاحة للطرفين ولكن بحيث أن ربح أحدهما لا يستلزم خسارة الطرف الآخر والعكس صحيح . والمباراة « ذات القيمة اللاصفرية » هنا عبارة عن قصة الرغبة والخيانة .

ففى اوبرا توسكا Tosca **لبوتشينى** نجد أن « سكاربيا » رئيس البوليس حكم على

« كافارادوسى » حبيب توسكا بالموت ولكنه عرض أن ينقذ حياته مقابل أن يحظى بتوسكا نفسها وقبلت توسكا العرض وتم الاتفاق على أن ينفذ اعدام وهمى على كافارادوسى . الا أننا نجد ان كلاً من سكاربيا وتوسكا خان أحدهما الآخر ، اذ أنها طعنته عندما همّ باحتضانها كما أنه لم يكن أعطى الأمر الى فرقة اطلاق النار باستخدام خراطيش غير محشوة .

والمشكلة تنحصر الآن فيما اذا كانت أفضل منفعة لكل طرف تتحقق عن طريق الخيانة المتبادلة . وهنا أيضاً نجد أنه لا بد من تحديد قيم عددية للنتيجة آخذين فى الاعتبار ان كل نتيجة لها قيمة معينة بالنسبة لكل من توسكا وسكاربيا .

ومع أن هذه القيم تعسفية فانها تعطى صورة معقولة عن الموقف . فاذا كان الطرفان قد حافظا على شروط المساومة فان اغتباط توسكا باستعادة حبيبها سوف يقلل منه استسلامها لرئيس البوليس . كما أن اغتباط سكاربيا بالحصول على توسكا سوف يقلل منه اضطراره لاطلاق سراح منافس كريه . أما اذا خانت توسكا سكاربيا وأفلحت فى خطتها فانها سوف تحقق اكبر مكسب (+ ١٠) بينما سوف يحقق هو أكبر خسارة (ــ ١٠) والعكس صحيح . وعندما يخون كل منهما الآخر فان الاثنين يخسران ، ولكن ليس بنفس القدر الذى كان سيخسره كل منهما لو لم يقدم على الخيانة من جانبه . فالمفروض ان سكاربيا أثناء احتضاره يشعر بشىء من الرضى والغبطة حين يفكر فيما سوف يحدث قبل نزول الستار الأخير مباشرة عندما تندفع توسكا الى حبيبها الملقى على الأرض فتجد جسده وقد مزقه الرصاص كل ممزق .

ولنحاول الآن أن ننظر الى القرار الذى اتخذته توسكا من وجهة نظرها وهو : هل تحافظ على شرط المساومة أم تقتل سكاربيا ؟ لم يكن لدى توسكا أية أوهام أو تخيلات عن عدم نزاهة سكاربيا ، ولكنها لم تكن متأكدة تماماً مما سيفعله . ولهذا فانها أخذت فى الاعتبار كلاً من الاحتمالين : اذا حافظ هو على شروط الاتفاق فمن الأفضل لها هى أن تقدم على خيانته لأنها بذلك تكون قد حصلت على كافارادوسى وتخلصت من سكاربيا ، أما اذا لم تخنه فسوف تحصل على كافارادوسى وسكاربيا معاً . ولكن اذا أقدم سكاربيا على خيانتها فسوف تتفوق عليه اذا أقدمت هى أيضاً على خيانته وعلى ذلك فالأقرب الى العقل هو ان تقدم على قتله بصرف النظر عما سوف يفعله .

وقد كان تسلسل تفكير سكاربيا مماثلاً لذلك تماماً : فاذا حافظت هى على شروط المساومة فمن الأفضل له هو ان يخونها لانه سوف يتخلص بذلك من كافارادوسى ، أما اذا لم يخنها فسوف يضطر الى مسايرته والرضا بوجوده معه . أما اذا خانت توسكا الوعد فيجب أن يكون على ثقة من انه انتقم لنفسه وبذلك فلا بد من تنفيذ حكم الاعدام .

وكانت النتيجة هى النهاية التى نعرفها . وفيها حصل كل من توسكا وسكاربيا على (ــ ٥) أما اذا كانا قد وثقا أحدهما فى الآخر وحافظا على العهد فان كلاً منهما كان سيحصل على (+ ٥) .

● ● ●

ويظهر قصور الاستدلال الاستراتيجى جلياً فى هذا المثال . فمن الواضح ان الوصول الى افضل القرارات فى مواقف النزاع يتطلب شيئاً اكبر من مجرد حساب مكاسب الشخص . وكان فى استطاعة نظرية المباريات ان تعالج الحالة السابقة بطريقة افضل بالالتجاء الى فكرة التحالف . فلو كان توسكا وسكاربيا أدركا معاً أن مصالح كل منهما سوف تتحقق اذا حافظا على شروط المساومة لما أدى ذلك الى خسارتهما معاً . ومع ذلك فان التحالفات تجلب الصداع لأصحابها كما سنرى من المثال التالى .

لنفرض أن « آبى وبوب وتشارلى » يريدون اقتسام دولار واحد فيما بينهم وأن طريقة الاقتسام ستكون بأغلبية الأصوات . وهنا نجد أن « آبى وبوب » يتحالفان معاً ويتفقان على اقتسام الدولار مناصفة فيما بينهما وبذلك يحرمان تشارلى . ولكن قواعد اللعبة تسمح بالمساومة . وبذلك نجد شارلى يفاوض بوب بأن يترك له ٦٠ سنتاً من الدولار اذا غير صوته بحيث يحرم آبى . ولكن آبى لا يرضى عن هذا الاتفاق ولذا يعرض على بوب ٧٠ سنتاً ليغير صوته ثانية ويحرم تشارلى . وكان بوب على وشك أن يبتهج بحظه السعيد الذى نسبه الى قدرته على المساومة عندما لاحظ أن آبى وتشارلى قد انتحيا جانباً وكان بوب ذكياً بما يكفى لأن يخمن موضوع الحديث ، وقد كان على صواب اذ انهما كانا يبحثان حمق الحصول على ٣٠ سنتاً أو لا شىء بينما كانت لديهما القدرة على حرمان بوب واقتسام الدولار مناصفة بينهما . وهو ما فعلاه فى حقيقة الأمر . وهنا نجد أن بوب يقترب من آبى فى خضوع ويعرض عليه ٦٠ سنتاً اذا عاد اليه ثانية . والسؤال هنا هو : هل يجب ان يقبل آبى العرض ؟

والحلول التى تقدمها نظرية المباريات لمثل هذا النوع من المشكلات حلول معقدة للغاية وليس ثمة ما يدعو الى تتبعها هنا . وبدلاً من ذلك فالأفضل هو أن نحاول أن نلخص بشكل عام قيمة وقصور دراسة النزاع الانسانى فى ضوء نظرية المباريات .

ولا تنحصر قيمة نظرية المباريات فى الحلول المحددة التى تقدمها لتلك المواقف المثالية والمبسطة للغاية التى يمكن أن تحدث فى الألعاب المقننة ولكن يصعب حدوثها فى الحياة الواقعية ؛ بل ان القيمة الاولى للنظرية هى انها تكتشف عن انواع الاستدلالات المختلفة التى تستعمل فى مختلف صور النزاع .

ويمكن أن نعود فى ذلك الى الأمثلة السابقة ونقارن بينها . فالقرارات التى اتخذتها شركتا كاستور وپولوكس كانت قرارات فاصلة واضحة كما انها كانت أفضل ما يمكن اتخاذه من قرارات فى ضوء المعلومات المتاحة . وكما رأينا فان كلتا الشركتين كانتا تسترشدان بمبدأ « القيمة العظمى للنهايات الصغرى » ، اى اختيار افضل النتائج السيئة ، وعندما تختاران هما الاثنتان القيمة العظمى للنهايات الصغرى فان أياً منهما لاتستطيع أن تحسن مركزها .

ولكن اذا كان احد القائدين لجأ الى مثل هذا القرار فان خسارته ستكون واضحة . فالسرية الحربية تعمد الى عنصر العشوائية لارباك العدو وتلجأ الى نوع مختلف من التفكير والاستدلال . وهو استدلال لا يجدى فى مثال كاستور وپولوكس لأنه فى تلك الحالة كانت كل من الشركتين تعرف ماذا يجب أن يكون عليه افضل قرار يمكن ان يتخذه الطرف الآخر ، وهى معرفة لم تكن لتغير

الأوضاع بالنسبة لأى منهما. والفرق بين الموقفين يظهر بوضوح على الفور للمتخصصين فى نظرية المباريات ، ففى الحالة الاولى فان اختيار احد اللاعبين القيمة العظمى للنهايات الصغرى هو نفس اختيار اللاعب الآخر بينما الأمر ليس كذلك فى الحالة الثانية . أما اذا نظرنا الى لعبة توسكا ـ سكاربيا فسوف نجد أن كلا الطرفين يختاران مبدأ القيمة العظمى للنهايات الصغرى . وكانت النتيجة سيئة بالنسبة لهما معاً . ولكن ما سبب ذلك ؟ ان الجواب هنا أيضاً واضح تماماً بالنسبة لدارس نظرية المباريات . ذلك أن كلاً من توسكا وسكاربيا كان يلعب اللعبة كما لو كانت لها قيمة صفرية ـ وهى لعبة يكون مكسب احد الأطراف فيها هو بالضرورة خسارة للطرف الآخر . فاذا فحصنا المكافآت فسوف نجد ان الأمر ليس كذلك لأن كلاً من الطرفين كان يمكنه أن يحسن مكافآته عن طريق الانتقال من حل القيمة العظمى للنهايات الصغرى الى حل التحالف (حفظ المساومة وحصول كل منهما على + ٥) . فالحياة كانت تصبح بسيطة لو كان فى الامكان الحصول دائماً على المنفعة فى النزاعات عن طريق تكوين التحالفات المناسبة والمحافظة عليها . ولكن المعضلة التى أزعجت آبى وبوب وتشارلى تجعلنا نفقد ذلك الأمل أيضاً . وعلاوة على ذلك فان كلاً من لعبة توسكا ـ سكاربيا ولعبة تقسيم الدولار تبين لنا أن القرارات التى تبنى على الفائدة الشخصية المحسوبة يمكن ان تؤدى الى كارثة .

●●●

وسواء كانت نظرية المباريات تؤدى الى حلول قاطعة صريحة أو الى حلول غامضة أو الى طرق مسدودة فانها تنجز شيئاً واحداً . ففى الالتجاء الى اساليب التحليل الرياضى والمنطقى لفهم المشاكل التى تنشأ عن تنازع المصالح ، فان نظرية المباريات تهيىء للناس فرصة للارتفاع بنزاعاتهم من مستوى المعارك ـ حيث تفشى العواطف على الأقل ـ الى مستوى المباريات حيث يكون لدى العقل فرصة للعمل والتفكير . وهذا فى حد ذاته ليس انجازاً ضئيلاً ، ولكنه ليس اهم انجاز . فأهم انجاز لنظرية المباريات ـ فى رأيى ـ هو أن تحليل نظرية المباريات يكشف عن قصورها . ولما كان من الأسهل علينا ان نفهم الجانب السلبى أكثر من الجانب الايجابى فقد يكون من المفيد أن نتعمق بعض الشىء فى الموضوع . ويمكن أن نفهم اهمية نظرية نظرية المباريات فى صنع القرار وفى العلوم الاجتماعية على ضوء تاريخ العلم . ولقد استطاع العلماء أن يوفروا كثيراً من جهودهم لأن اسس العلم ذاتها تستند على أحكام قاطعة نهائية عما لا يمكن عمله . مثال ذلك أن الديناميكا الحرارية تبين استحالة وجود آلات دائمة الحركة ، كما ان مبادىء علم الأحياء تؤكد استحالة التولد الذاتى للحياة واستحالة انتقال المميزات المكتسبة ، كذلك فان مبدأ عدم اليقين يضع قيوداً مطلقة على دقة بعض القياسات التى تجرى فى وقت واحد ، واخيراً فان الاكتشافات الرياضية العظيمة كشفت عن استحالة حل مسائل معينة . ومهما يقل من أن هذه استحالات مطلقة ، فانها ليست مطلقة تماماً وانما هى مطلقة فى بعض السياقات المعنية . فتقدم العلم هو عبارة عن تعميم تلك الظروف والسياقات . وعلى هذا فان بقاء الطاقة الميكانيكية يمكن التغلب عليه بتحويل أشكال الطاقة الاخرى الى طاقة ميكانيكية . فهنا نجد ان القانون الأبسط عن بقاء الطاقة الميكانيكية قد أمكن خرقه والخروج عليه ولكن اعيد بناؤه والبرهنة عليه فى ظروف ديناميكية

حرارية أعم . وحتى فى هذه الصورة قد يمكن الخروج عليه ثانية ولكن يمكن أيضاً اعادة بنائه والبرهنة عليه فى سياق آخر أكثر اتساعاً وهو : الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء . كذلك يمكن تثليث الزوايا (تقسيمها ثلاثة أجزاء متساوية) ميكانيكياً بوساطة أجهزة اكثر تعقيداً من القدّة والفرجار . ومن المحتمل انه يمكن تركيب الحياة ولكن ليس فى صورة ديدان تنشأ من لحم فاسد ، كما أن الميزات المكتسبة قد يمكن نقلها عن طريق الوراثة ولكن ليس عن طريق التدريب .

• • •

والقرائن السلبية للعلم غالباً ما تكون مصحوبة باضافات ايجابية . وعلى ذلك فان القوة التى يمنحها العلم تكمن فى معرفة ما لا يمكن عمله وبالتالى مما يمكن عمله وما يتطلبه الأمر لعمل ذلك .

والمعرفة التى نستخلصها من نظرية المباريات من هذا النوع نفسه . فاذا بدانا من أبسط نوع من الألعاب — على سبيل المثال الألعاب ذات القيمة الصفرية بين شخصين والتى تتوفر فيهما نقطة السرج — فسوف نعرف من تحليل نظرية المباريات أن نتيجة مثل هذه المباريات مقدرة مسبقاً . وهذا يؤدى الى الحكم بالاستحالة :بمعنى ان أياً من اللاعبين لن يستطيع ان يفعل اكثر من كل ما فى وسعه . وبمجرد اكتشاف أقصى ما فى الوسع فانه يصبح من غير المجدى ممارسة تلك اللعبة . فاذا كانت الحرب مباراة ذات قيمة صفرية لشخصين وذات « نقطة سرج » فان نتيجته كل حرب سوف يمكن حسابها مقدماً وبذلك فلن تكون ثمة حاجة لخوضها (ولم يقم للآن دليل على ضرورة خوض غمار الحرب لأن الحرب ليست مباريات صفرية بين شخصين لأنها ذات نقطة سرج) .

ولو نظرنا الى المباراة الصفرية بين شخصين والتى لا تتوفر لها نقطة السرج فسوف نصل الى حكم آخر عن الاستحالة ، الا وهو أنه من المستحيل ان نصل الى أفضل استراتيجية ممكنة فى مثل هذه المباراة . ومع ذلك فثمة امكانية للايعاز بأفضل مزيج من الاستراتيجيات ويمكن فهم معنى « مزيج استراتيجى » وفائدة استعماله فى سياق معين فقط ، وهو سياق الكسب المتوقع . وهذا بدوره يتطلب أن نحدد فكرتنا عن الأفضلية بدرجة معينة من الدقة . فلكى نختار أفضل استراتيجية فى لعبة ذات نقطة سرج سوف يكون من الضرورى فقط أن نرتب تفضيلاتنا للنتائج الممكنة حسب أولوية معينة . ولكى نختار أفضل مزيج استراتيجى يجب أن نحدد لذلك مقياساً مدرجاً (مثل مقياس درجة الحرارة) ونطبقه على تلك التفضيلات . وبدون هذا التحديد الكمى الدقيق للتفضيلات فلن يمكن اتخاذ القرارات الرشيدة بالنسبة للعبة بدون نقطة سرج . وكثيراً ما كنت اسائل نفسى الى أى حد كان صانعو القرارات الذين روجوا لنظرة المباريات يفهمون هذا الرأى الأخير عن الاستحالة ، وهو راى لا يقل تعسفاً عن الرأى القائل بامكان مسح الدائرة تربيعاً (أى بقياس المربعات) عن طريق الاستعانة بالأدوات التقليدية ... لقد رايت الكثير من مشروعات الأبحاث واستمعت الى كثير من المناقشات الطويلة عن كيف يمكن أن « نمارس » الحروب الباردة والحروب الساخنة . ولو سلمنا جدلاً بأن الحرب الباردة والساخنة هى مباريات صفرية (وهى ليست كذلك فى حقيقة الأمر) فان تحديد « فوائد » للنتائج يجب أن يتم على مقياس مدرج . وهنا تكمن المشكلة ، صحيح انه يمكن التغاضى عن هذه المشكلة وانه يمكن تبيين الفوائد بطريقة أو باخرى حتى نستطيع ان نستمر فى اللعبة وهو ما يحقق اكبر قدر من اللذة والسرور ولكن ما هى القيمة العملية للنتائج المبنية على افتراضات تعسفية ؟

وليس هذا هو كل شيء .. فالواقع أن أهم النزاعات التى تقلق الجنس البشرى لا تنتمى الى فئة الألعاب ذات القيمة الصفرية لشخصين . **فلعبة توسكا ــ سكاربيا ولعبة آبى وبوب وتشارلى** نموذجان أكثر واقعية للنزاع البشرى ، ونعنى بذلك الدراما التى يبذل فيها الناس كل ما يستطيعون لتحقيق مصالحهم ، ولكنهم ينتهون فى آخر الأمر الى الأسى . ففى المباريات لا توجد استراتيجيات خالصة ولا مختلطة يمكن القول بأنها تضمن تحقيق أكبر جزاء تحت قيود اللعبة . وليس هناك اى حجة كانت تكفى لاقناع توسكا أوسكاربيا ، كل على حدة ، بأنه من الأفضل لهما أن يحفظا المساومة بدلاً من أن يخون كل منهما الآخر . والوسيلة الوحيدة لاقناعهما كانت عن طريق توجيه تلك الحجة اليهما معاً . فالتعقل المشترك كان هو الشيء الوحيد الكفيل بمساعدتهما على تجنب الوقوع فى مصيدة الخيانة المزدوجة .

وبالمثل فلم يكن فى الامكان ان نقول شيئاً لآبى او بوب أو تشارلى عن الطريقة التى يتصرفون بها ليحصلوا على أفضل فائدة . وكل ما يمكن قوله لهم مجتمعين هو أن يحسموا الأمر وفق أحد المعايير الاجتماعية الراسخة (كأن يأخذ كل منهم ٣٣ سنتاً ويهبوا السنت الباقى للاحسان) . وهذا حل يقوم على قاعدة أخلاقية وليس على اعتبارات استراتيجية .

ولم يهمل فون نويمان ومورجنسترن دور المعايير الاجتماعية فى المباريات التى يشترك فيها أكثر من لاعبين اثنين . ولقد بين الحكماء منذ فجر التاريخ اهمية الأمانة والمسئولية الاجتماعية والفضائل الاخرى المماثلة . ومع ذلك فان نظرية المباريات تعطينا منظوراً آخر لهذه الامور . انها تبين كيف أن التحليل الدقيق للنزاعات (التى تبدأ بها نظرية المباريات) يصل الى طريق مسدود ، وكيف أنه لا يمكن تفادى القرارات المتناقضة ما لم نعد صياغة الموقف فى سياق آخر وما لم نستعن بأفكار وتصورات اضافية لنظرية المباريات . وعلى ذلك فان معرفة هذه الجوانب العميقة لنظرية المباريات تبين أن لعبة البوكر ليست هى النموذج الأكثر شمولاً أو الأكثر سمواً وتهذيباً لنظرية المباريات ، ولا هى الأكثر ملاءمة للتطبيق ، كما يفترض ذلك ضمناً الاستراتيجيون المحترفون فى كثير من الأحيان . وعندما نتتبع نظرية المباريات فى صياغتها الأولية الخالية من التناقض فسوف نعرف ماذا يجب أن نكون قادرين على عمله حتى نهيىء العقل لتقبل علم النزاع الانسانى ، فلكى نحلل النزاع تحليلاً علمياً يجب أن نكون قادرين على الاتفاق على قيم نسبية (تحديد الفوائد) ويجب أن نتعلم كيف نستطيع تقدير وادراك ما يعتبره الآخرون بمثابة فوائد أو مكاسب . وفوق هذا كله فانه لكى ندخل فى نزاع صيغ بهذه الطريقة يجب أن نكون قادرين على الاتصال بالآخرين وفهمهم وأن نتعلم أحياناً معنى الثقة ، والا فسوف نخسر ــ نحن وخصومنا ــ دائماً فى كل الألعاب التى من نوع لعبة توسكا ــ سكاربيا . وأحياناً يجب أن نكون قادرين على أن نقنع الطرف الآخر بضرورة اللعب حسب قواعد معينة أو حتى أن يلعب لعبة مختلفة تماماً . ولكى نقنع ذلك الطرف الآخر فلا بد من أن نقنعه بأن يستمع الينا ، وهذا لا يمكن ان يتم فى العادة اذا كنا نحن أنفسنا لا نستمع اليه . وعلى ذلك فيجب أن نتعلم كيف (نستمع) بأوسع معانى كلمة (الاستماع) وأن نتقبل ــ ولو الى حين ــ وجهة نظر الطرف الآخر لأننا بهذه الطريقة وحدها سوف نستطيع فهم ما يقول .

وكل هذه المهارات لا ترد الى المعرفة بقدر ما ترد الى الحكمة . وقد يحدث أننا حين نمتلك الحكمة اللازمة نستطيع أن نجد حلولاً جديدة لكثير من أنواع النزاع التى يصر خبراء الاستراتيجية فى حماسهم المهنى على صياغتها واظهارها على أنها صراع بين العقول (أو الأسوأ من ذلك صراع بين الارادات) والأهم من ذلك هو أن هذه الحلول الجديدة كثيراً ما تتم باتفاق الأطراف المعنية ورضاها .



حريـة الفـنـان

ثروت عكاشة

ما يلبث الفن حين يستأثر بوجدان امرىء ، ويشد خطاه الى منابعه العديدة فى المتاحف والمعارض والمكتبات ودور السينما وعروض الموسيقى والاوبرا والمسرح أن يُفجِّر شحنات حبيسة فى صدره ، ويحمله الى دنيا زاخرة بالرؤى والخيالات والأفكار والأحداث ، حتى يدفعه الى التساؤل عن طبيعة الفن وسر الفنان ، متخطياً به حدود الترف والمتعة ، حدود الاسترواح والاسترخاء ، الى عالم التأمل والبحث . ومع مرور الأيام لا تخفت التساؤلات فى أعماق المولع بالفنون بل تزداد الحاحاً ، ولا تنكمش فى زوايا النفس بل تقفز الى سطح الوجدان ، تدفعه الى الانغماس فى الدراسات النظرية والتاريخية الى جانب دراسات التذوق الفنى ، فتضيف عذاب البحث والتأمل الى فرحة المتعة لديه .

عالم الفن

فعالم الفن هو عالم النفس : عالم الرؤى والأطياف والأوهام ، عالم الوجدان الباطن وخبايا الروح ودفين الذكريات ، عالم التيه الذى يراه المرء حين يغمض عينيه ، عالم النور الفائر فى الأعماق . ومع هذا ــ او الى جانب هذا ــ هو عالم نلتقى فيه بالطبيعة فى صياغة جديدة تكشف لنا عن زوايا من جمالها تخفيها عن أعيننا الظاهرية حين يشرق نور النهار. هو عالم نلتقى فيه بالواقع بعد اعادة بنائه حسب معايير انسانية أكثر منطقية تبرز لنا من الحكمة

والسخرية ، من الرقة والقسوة ، من الاتساق والتناقض ما لا نلتقطه على عجل حين نعايش أحداث الواقع اليومى الفج .

والفنان هو ذلك الساحر الذى تداعب أنامله دفائن قلوبنا فيخرج منها ذكرى خبأناها يوماً فى الأعماق ثم سهونا عنها . انه ذلك الخالق الذى يعيد صياغة تجربة عشناها واذا بنا نشاهدها فى لهفة واستمتاع ناسين أنا كنا يوماً ممثلى هذه الأحداث لا مشاهديها. وليس فىوصف الفنان بالخالق اية مبالغة لأنه ليس ناقلاً للطبيعة بل نداً لها . فهو يملك سيطرة رائعة على نفوسنا حين يأخذ تجاربنا ليعرضها مرة ثانية أمام أعيننا الذاهلة ، فيحررنا من روابط الحياة العادية ويأسرنا بطريقة مغايرة لما يحدث فى الواقع . انه يشكل فنه تشكيلاً موضوعياً يسيطر فيه على اداته سيطرة الخالق الحقيقى على ما يخلقه . حقاً انه يبدأ عمله بداية انفعاليةأمام التجربةالواقعية لكنه لا يلبث أن يُجسّد انفعاله بوسائل ذهنية واعية عملاً فنياً قادراً على نقل انفعاله هو الى نفس مُتلقىّ الفن المتأمل فيحس متعة عاطفية وذهنية معاً .

العمل الفنى فى حقيقته عمل ابداعى يمارس فيه الانسان قدرته على الخلق ، لا على طريقة المثاليين الذاتيين والرومانتيكيين من أمثال **نوفاليس** الذى يرى أن العمل الفنى اسقاط للذات وحدها وخلق سحرى خالص للفرد ، ولا على طريقة الماديين الآليين الذين يُرجعون العمل الفنى الى مجرد انعكاس لظواهر الطبيعة داخل الانسان ، فالفن وليد ذلك التأثير المتبادل بين الانسان والطبيعة ونتاج عمل من أجل تغييرها وتكييفها تحقيقاً لذاتهوارضاءً لحاجاته الوجدانية والمعنوية .

لقد نبعت لدى الانسان من خلال تحقيق احتياجاته المادية فى ظروف الغموض والخوف التى كانت تحيط حياته فى بدايتها ، حاجة معنوية ووجدانية ، نشأت من شعوره بأن ذاته ضائعة وسط هذا الكون الشاسع العريض بكل ما فيه من جمال ووحشية وغموض ، ومن ثم أحس الانسان بأن ارضاء متطلباته الحسية وحدها لم يعد كل مبتغاه ، وانه أصبح بحاجة الى تحقيق هذه الذات وتأكيد وجودها . واكتشف بداية السبيل الى ذلك بمحاكاة الطبيعة الغامضة التى يحيا وسطها ويحس بضآلته وضياعه وسط اسرارها المغلقة ، فحاول أن يخلق صنواً لها باسلوبه الخاص ، تأكيداً لقدرته الذاتية على الخلق ، فنقش على الأرض وعلى الحجر بيد مرتعشة غير مستقرة فى البداية صوراً لماديات الكون حوله من طبيعة وكائنات ، ومن هنا نشأ التصوير ، وقلد أصوات الطبيعة وكائناتها من حوله بأصوات يُصدرها من حنجرته ، ثم بأشياء ينفخ فيها أو يعابثها بكفه أو انامله،ومن هنا نشأت الموسيقى . وبدأ بعد محاولته تجسيد الطبيعة على هذه الصورة يحس بالجمال الكامن فى العمل الذى يقوم به مما حرك وجدانه وشعوره بالجمال ، ودفعه ذلك الى زخرفة الأدوات التى يستعملها فى حياته اليومية ليظل الجمال ماثلاً أمامه دواماً ، ولا شك فى أنه اخذ يستشعر الفخر والسعادة بالأشياء التى يصوغها ويشكّلها فى قوالب جميلة .

ولا شك كذلك فى أن نمو الاحساس بالجمال لدى الانسان على مدار الزمن قد اكسب حواس الانسان قدرات جديدة لم تكن لها فى الأصل ، حتى أنها لم تعد تقتصر على ارضاء متطلباته الحسية ، وانما اضافت الى ذلك حاجته الملحة المستمرة الى ارضاء متطلباته الوجدانية ، وهو ما يعنى أن حواسه تحولت شيئاً فشيئاً الى حواس انسانية راقية .

تم هذا التحول بفضل تزايد ثقافة الانسان واكتمال معارفه واتساع علمه ، فقد اختزنت الحواس الانسانية كل المعارف والقدرات التى جمعتها البشرية خلال تاريخها الطويل ـ فيما يدعوه **يونج** الذاكرة الجماعية للبشر ـ واخذت تلخص فى كل رد فعل مباشر لها جميع

الحضارات التى عاشها الانسان حتى أصبحت اذنه قادرة على اكتشاف ابسط اخطاء عازفى الموسيقى بالبساطة التى تميز بها أزيز محركات الطائرات النفاثة من الطائرات الاخرى ، كما اصبحت اصابعه قادرة على التمييز بين نعومة المخمل والحرير قدرتها على اطلاق الأنغام المختلفة من الأوتار ، وتزايدت قدرة عينيه على الاستمتاع بالمشاهد والألوان . واخذ الانسان يحقق ذاته فى الابداع الفنى الذى يصوغه فى لغة الشعر ، وفى لغة الاسطورة التى تعبر لا عن حقيقة قائمة بل عن الأمانى التى طالما داعبت خاطره وتمنى لو يراها واقعاً حياً .

واذا كانت الأعمال الأدبية الاولى للانسان هى الأساطير والخرافات التى تمثلت فيها طفولة البشرية ، فان الأعمال الفنية مازال حتى اليوم فى حقيقتها مجموعة من الأساطير تتمثل فيها قدرة الانسان على الخلق وعزمه على تغيير العالم وقدرته على احداث هذا التغير . فلحظة الابداع الفنى هى لحظة الخلق التى يدرك المرء فيها أنه ليس جزءاً من هذا العالم خاضعاً لقوانينه ، بل انه قادر على اجتيازه وعلى التدخل فى امره .

وتقدم لنا أعظم الأعمال الفنية هذا المعنى ، وقد جسدته الروايات والمسرحيات العظيمة فى أشخاص أبطال واعين بالمشاكل التى واجهوها قادرين على تخطيها واجتيازها ، كما أن هؤلاء الأبطال انفسهم بما يحققونه من انتصار أو بما يصيبهم من فشل يوقظون فينا الاحساس بمسئولياتنا تجاه قضايا عصرنا ويحركون فى أعماقنا المعنى الانسانى وهو اجتياز المواقف والتغلب على الصعاب ، وذلك هو الدرس الذى نتعلمه من **پرسيوس واوديسيوس وهرقل ودون كيشوت وفاوست وعطيل** ، وما أروع الكلمات التى علق بها **بودلير** على لوحات « ديلاكروا » حين قال انها « تُنمّى فينا العظمة » .

وفى العمل الفنى نحس الفارق بين السلوك الانسانى والسلوك الحيوانى ، فالسلوك الحيوانى مجرد امتداد واستجابة للحاجات الجسدية ، بينما السلوك الانسانى هو خلق نماذج تصبح قوانين عمل وتغيير . والفارق بين أقل المعماريين خبرة وبين النحل الدؤوب هو أن المعمارى يُخطط لتشييد الخلية فى ذهنه قبل أن يصبها من الشمع .

ومن هنا نحس أيضاً الفارق بين الحلم والابداع ، فالحلم ترجمة للرغبة التى ليست الا امتداداً للطبيعة ، بينما الابداع عمل يعلو على الطبيعة ويخرج عن اسارها . الحلم ترجمة لحقيقة قائمة والابداع خلق لحقيقة جديدة . وهكذا يُعد كل ابداع خلقاً للانسان بوساطة الانسان ، ويؤكد وجود الانسان وفعاليته فى عالم متصل التجدد .

والفنانون الذين يقدمون لنا فى اعمالهم صورة مختلفة للطبيعة لايشوهون الواقع ، بل يقدمون له صورة اسطورية تذكرنا بقدرة الانسان على الابداع . كما أن الادباء الذين قدموا لنا انتاجهم العظيم لم يهدفوا الى التعبير عن الواقع الانسانى بقدر ما كانت كتاباتهم بحثاً وراء المعنى الذى يمكن للانسان أن يعطيه لحياته ، وتساؤلاً عما يستطيع اداءه ، وسعياً وراء تفسير حقائق الأشياء .

لقد أثرى هؤلاء الفنانون مفهوم الواقع الذى فاق كونه مجرد طبيعة قائمة الى كونه طبيعة ثانية يخلقها الانسان بفنونه ومناهجه ووسائله التكنيكية وامكانياته المتزايدة . واننا لنحس بالعمل الفنى وهو يهمس لنا بالأشياء التى تنقصنا ويحرك فينا ارادة تحقيقها .

ان العمل الفنى يتطلب من الانسان الا ينتقل من موضوع التجربة الحسية الى التصور وحسب،بل أن يقصد عالم الرمز تاركاً بذلك عالم الواقع ، متجهاً نحو ما ينبغى عمله حيث يخلق المستقبل بيديه ، فالخلق الفنى اكتشاف لغايات جديدة وليس مجرد انتاج فكرى بل

هو تحقيق للانسان بكامله . ويقول **جوته** : « على الفنان أن ينشىء مملكتــه الخاصــة فى الطبيعة ،وان يخلق من الطبيعة طبيعة ثانية». وفى هذه الكلمات يتحدد المفهوم الحقيقى للعمل الفنى من انه ليس محاكاة بل ابداعاً . وما دام الفنان يخلق فى أعماله الابداعية طبيعة ثانيــة فليس من المعقول ان يقاس جمال العمل الفنى باحالته الى حقيقة موجودة خارجة عن ذاته ، ومن ثم فليس من المقبول أن نرى فى اللوحات الفنيــة مرآة ينعكس عليها العالــم الخارجى الساكن ، أو شاشة عرض سينمائى يعرض عليها العالم « الجوّانى » الخالد ، وانما على أنهــا نموذج تشكيلى للروابط بين الانســان والعالم ، وذلك هو سر اختلاف الأعمال الفنية مع اختلاف العصــور التاريخيــة واختلاف الامكانيات البشرية فى مواجهة الطبيعة .

ان للعمل الفنى منطقه التشكيلى الخاص فهو لايخضع لقوانين الطبيعة أو عالم الموجودات الحسية ، ولهــذا فنحــن لانقيس اللوحــة المصورة بالعالم الذى تعمــد الى تمثيله بــل نقيمها فى ذاتها على أنها نموذج يعبر عن قدرتنا على الخلق والتغيير . وقد تألق عمالقة التصوير فى العصر الكلاسيكى القديم بفضل الأعمــال التشــكيلية التى لم يخضــعوا فيها لمبــادىء الهندسة والطبيعة وقوانين المنظور التى سادت الحضارة الغربية منذ عصر النهضة ، كمــا جنح المصورون المعاصرون الى احتــذاء نهج فنانى الحضارات الاخرى الذين يبدأون مــن التجربة الحسية للقوى غير المرئية ثم يخلقون معادلاتها التشكيلية القادرة على التعبير عنها ، وهو النهج الذى ســماه المصــور **پول كليه** « تحويل مالا يُرى الى مرئيات » .

وعندما حاول ((**جان پول ڤيبير**)) أن يسبر غور الجانب الغامض فى عملية الخلــق الفنى التى تسمى « بالايحاء » اعتمد على كتــابات بعض كبار الفنانين والادبــاء الذين يعترفون صراحة بوقوعهم فى « غيبوبة » تفقدهم ذاتيتهم يستمعون خلالها الى « صوت » يُملى عليهم ارادته ويوجه أيديهم حسبما يريد ، واذا بهم ينفذون الى واقع فــوق الواقع المحسوس ، ويدركون انهم ليسوا الا مراكز استماع لصوت الهى « لانهائى » ، ويصبح الفن ساعتها محاكاة مباشرة لقدرة الاله ، وبهــذا ينتقل الى عالم قدسى . وذكر على راس هؤلاء **پول ڤالبرى** ، الذى كتب الى صديق له يهدى اليه ديوانه « ربة القدر الفتية » هذه العبارات : « لم يكن بوسعى بينا كنت اكتب هذه القصيدة ان اتنبأ بنتائجها بالنسبة لى ، غير انى كنت احس احساساً غائماً انها تقودنى خلال أبياتها الى حيث لا اريــد ، وذلــك ما جعلنى أواصــل الكتابة » . وهكذا عبر « ڤاليرى » عن حالــة شبيهة بحالة « السائرين نياماً » التى أطلق عليها ڤيبير :« تسخير العمل الفنى للانسان ». واذا كان **سوريو** قد قال حديثاً « ان العمــل الفنى الذى لم يخرج الى الوجود انما يفرض نفسه على فكر الفنان وكأنه ضرورة وجودية عاجلة » ، فان هذا الراى لايخرج عــن رأى **افلاطون** القائل : « لايستطيع الشاعر ان ينطق قبل أن يلهمه « اله » خارج عن ذاته ، وقبل ان يفقد عقله ، فطالما احتفظ الانسان بعقله فهو عاجز عن خلق عمل شعرى ، أو ترديد صوت الوحى » .

ويصــف **شكسپير** الالهــام بأنه « هذيان جميل » ، ويدعى **ألفرد ديڤينى** ــ وهو المبالغ فى التحفظ ــ أن نشوة الالهام هى هذيان يفوق كثيراً الهذيان الجسدى المماثل الذى يسكرنا ونحن بين ذراعى انثى ، وأن متعة النفس أكثر بقاء ، كما أن ذهول الفرحة الروحية أكبر بكثير من لــذة الجســد . ويذكر « دلاكروا » أن **چورج اليوت** ــ واسمها الحقيقى مارى آن ايڤانز ــ تذهب الى ان « شخصيتها الأصيلة ليست الا مجرد آلة تعمل الروح من خلالها » .

ويقول **نيتشه** فى كتابه ((**هاهو ذا الرجل**)): « مهما تضاءل القدر الذى احتفظنا به مــن التطيُّر فلن نستطيع أن نتحرر من الاحساس

بأننا لسنا الا تجسيداً للقوى العليا ، لسنا الا ناطقين باسمها ومجالاً لتأثيرها » . ونجد صدى هذا الرأى عند **فاجنر** نفسه فى كتابه **« حياتى »** حيث يقول : « استسلمت لغفوة خُيّل الىّ خلالها باننى غصت فجاة فى تيار ماء جارف . وسرعان ما اتخذ خرير المياه طابعه الموسيقى ، فكان المركّب الهارمونى — من مقام مى بيمول كبير — يطفو برنينه فى صورة مركّبات الاربيچيو المتواصلة،ثم مالبثت هذه المركّبات المتعاقبة ان اخذت أشكالاً ميلودية فى سرعة متواصلة لحركتها . ومع ذلك لم يتغير أساسها — وهو مركّب مى بيمول كبير — وبهذا يبدو من اصراره ورسوخه أن وراءه معنى عميقاً ، فهو يرمز الى تيار الماء الذى غصت فيه . واحسست فجأة وكأن الأمواج انبثقت من ذلك التيار الجارف واحتوتنى حتى ضقت بها فانتبهت من غفوتى قسراً ، وتعرفت مباشرة لدى يقظتى على اللحن الأساسى فى تصدير مسرحية « ذهب الراين » الموسيقية ، وقد تكشّف لى كما ورد على خاطرى قبل ان اضفى عليه صورته النهائية » .

ويقول دلاكروا : « ما اكاد اقترب من الزجاج المعتم حتى ارى التشكيل الذى لم أكن قد تخيلته من قبل وقد انبثق امامى دفعة واحدة مكتملاً نابضاً بالحياة فى شكله وألوانه، وحينئذ اسرع الى قلم الفحم ارسم به كل شىء على الورق المقوى رغم الظلمة الغامرة » .

ومع هذا لايستخدم ڤيبير هذه الشواهد الا معبراً لشىء آخر ، فقد ابتكر شكلاً جديداً للتحليل النفسى فى كتابه الهام « نشأة العمل الشعرى » لايعنى فيه المرء بالمؤلف وانما بالعمل الفنى وحده ، وهو ما يسميه بتحليل الموضوعات الدالة . فالعمل الفنى فى رأيه لايعكس الا موضوعاً واحداً ينبع من طفولة الفنان ، فكلنا يحمل فى أعماقه احد الأشكال المختلفة من « الخطيئة الأصلية » خطيئة آدم وحواء وحرمانهما من النعيم الذى هو الكمال ، وانتقالهما الى الحياة الدنيا العاجزة عن بلوغ الكمال مهما ارتفعت ، غير أن الفنانين والادباء يستطيعون أن يتحرروا من هذه الخطيئة فى أعمالهم الفنية .

وحين كان « الفرد ديڤينى » فى الثامنة من عمره رأى ساعة حائط ذات بندول أسود تنتقل الى منزله الجديد . ومن يومها أصبحت الساعة باهتزازاتها المنتظمة ، وموسيقى دقاتها ، وعبارات الأب الآسرة وحنان النصائح التى توجهها الام تتبلور كلها فى حركات الساعة ، وغدت الساعة عند « ديڤينى » هى الشعر نفسه ، وهى وهج اللفظ والأرقام والموسيقى والغموض والعاطفة والحنين الى الذكريات . ومن هنا كان حنينه الدائم الى ذكر « ساعة الشعر » و « ساعة الواجب » وانتظام أشعاره وكأنها ايقاع الزمن .

هكذا ايضاً خضع **هوجو** لموضوع السماء المحترقة ، **وبودلير** لموضوع الركب الجنائزى ، **ومالارميه** لموضوع العصفور ، **وڤاليرى** لموضوع البجعة ، **وماتيس** لموضوع ورقة الشجر . غير أنه الى جانب هذا السر الشعرى الذى يمكن للمرء أن يكشف عنه لا أن يمحوه فان علينا أن نشير الى التعالى والتسامى ، فثمة بُعدٌ صوفى الى جانب البُعد الاسطورى فى الشعر أو فى بعض آفاق الشعر متحدٌ معه فى جوهره . ويصبح الخطاب الشعرى اثباتاً لوجود الاله ، فهل المتحدث هو صوت الاله أم أن الشاعر احد الأنبياء ؟ والى من يتحدث ؟ الى نفسه أم الى القراء ؟ أليس لهذا التداخل بين الخيال والواقع واختفاء الحدود الفاصلة بين ذات الشاعر وذوات الآخرين طابع سحرى أو قدسى ؟ أوليست الفكرة التى يتركز فيها كل عمل فنى وراء تشكيله التلقائى غير الواعى هى المسيطرة على الحياة والطريق الى المستقبل وعلامة المصير الكبرى ؟ عندئذ يتحول الكائن الى طاقة سحرية لتحقيق فكرة نبعت

منه وان كان يجهل كل شيء عنها . هذه الفكرة هي التي يجب على الفيلسوف أو رجل الدين أن يكشف عن مصدرها . أوليست الطفولة سوى جدول الماء يروي سهول الشباب التي تنضج فيها ملذاتنا ؟ ومع ذلك فقد تكون تلك التجربة الرحبة التي تمخضت عن عمل فني علينا أن نكشف اليوم عن تشكيله وعن أغراضه وعن مؤلفه .

• • •

وظيفة الفن

ولكن لماذا يُحدث العمل الفني هذا الأثر في النفس ؟

كشف **نيتشه** في كتابه « ميلاد المأساة من روح الموسيقى » عن وجود وظيفتين للفن سمى اولاهما الوظيفة الديونيسية ، وهي تحريك ميل الانسان الى التجرد عن ذاتيته وتقمص شخصية اخرى أو وضع آخر غير وضعه النفسي ، وسمى الثانية الوظيفة الابولونية ، وهي تحرير النفس من الخضوع لقيود الحياة اليومية حتى تتأمل الواقع عن بعد ، وهي وظيفة تهدف الى اشباع العقل وعدم الاسترسال مع تيار العاطفة والانفعال . وكان « أبولو » اله العقل يمثل عند « نيتشه » العنصر الواعي في الفنون التشكيلية ، في حين كان « ديونيسوس » اله الغرائز والعواطف يمثل عنده العنصر الوجداني الموسيقي ، وكان يرى أنهما يتحدان معاً في المأساة اليونانية .

وقد ذهب فيلسوف عالم الجمال الماركسي النمساوي **ارنست فيشر** في كتابه « ضرورة الفن » الى أن الفن يلعب دوراً هاماً في تحقيق التوازن بين الانسان وبين العالم الذي يحيا فيه ، ومن أجل ذلك فقد رأى الفن ضرورياً في حياة الانسان لأنه وسيلة لربطه ببيئته وبالطبيعة التي يعيش فيها ، ومصدراً من مصادر المتعة والراحة النفسية التي يستشعرها المرء حين تتجاوب عواطفه مع أبطال قصة ادبية ، أو تنفعل نفسه لرؤية لوحة فنية أو لسماع لحن موسيقي . وأرجع سر ذلك الى رفض الانسان العزلة ،واحساسه بالنقص في وحدته ، ونشدانه الطبيعي للكمال ، وحفز الحياة له على البحث الدائم عن المشاركة الوجدانية مع هذا العالم الذي يتسع له ولغيره من الناس ما دام عالماً مفهوماً يتسم بالمنطق والعدالة . ولهذا يحرص الفرد على الافلات من اسار حياته الخاصة والخروج من اطار ذاته الى اطار أوسع تندمج فيه شخصيته بالعالم الذي يريد أن يزداد ادراكاً له ، وعلى اذابة فرديته في حياة مشتركة تحيل فرديته المحدودة الى فردية اجتماعية بالمعنى الحديث .

لقد ولد الفن مع الانسان ورافقه في تطوراته المختلفة فكان المرآة الصادقة التي تعكس صورة حقيقية للانسان عبر التاريخ . واذا كانت أعمال فنية قد بقيت خالدة حية حتى اليوم مثل ملاحم **هوميروس** ومآسي **ايسخولوس وسوفوكليس** فذلك لارتقائها عن مجرد تسجيل مجتمعها الى التعبير الفني عن عظمة الانسان من خلال أحاسيسه ومعاركه ، ولانطوائها على كثير من العناصر الانسانية التي لا ترتبط بالزمان أو المكان ، حتى اننا نحس ونحن نشهدها وكأننا نشهد نماذج حديثة تحيا بيننا ، ونعاني من التجارب في حياتنا اليومية مثل ما تعانيه .

ومع تطور الحياة اكتسب الفن وظيفة جديدة هي القاء الضوء على العلاقات الاجتماعية ومعاونة الانسان على رؤية الواقع الاجتماعي المتغير . ومع ظهور هذه الوظيفة الجديدة أصبح من الضروري ظهور أشكال تعبيرية أكثر تطوراً من الاسطورة والخرافة اللتين عبرتا عن مجتمعات الماضي ، وذلك حتى تستطيع اعادة تشكيل المجتمعات الحديثة المعقدة ذات التناقضات والعلاقات المتشابكة

فى صورة فنية ملائمة ، وهكذا ظهرت القصة القصيرة والرواية الطويلة .

ومع ذلك فقد بقى الفن بعنصريه الوجدانى والعقلى ممتعاً ومنبهاً مؤدياً وظيفته الأساسية الدائمة ، وهى اثارة العواطف البشرية المختلفة ومنح « الذات » قدرة الاندماج فيما حولها . بل ان **برخت** نفسه ـ ذلك الفنان الألمانى الكبير الذى أراد للفن ان يكون معلماً وحسب وأن يرتكز على تقديم الحجج المنطقية ـ لم يهمل دور الاثارة العاطفية مؤمناً بقدرتها على اجتذاب مشاهدى مسرحه الى الغوص فى أعماق عمله الفنى .

وقد رفض **رينيه ويج** فيلسوف علم الجمال الفرنسى أن يكون الفن احد كماليات الحياة التى تجملها أو اللعب التى يتسلى بها المرء ، بل أعطى الفن مركز الصدارة بين منابع الثقافة الأصيلة ، ورأى فيه دواء لأمراض النفس ومصدراً للتوازن النفسى الذى يُمكّن الانسان من مواصلة الحياة فالتقى فى ذلك بعالم الجمال الماركسى « ارنست فيشر » .

ولا شك أن دور الفن فى خلق التوازن النفسى قد أضحى اليوم اكثر اهمية من أى وقت مضى ، فقد انقضى الزمن الذى كان يحيا فيه الفنان ملتصقاً بالطبيعة كثير الخلو الى نفسه ينمى فكره بالقراءة والتأمل واستيحاء الطبيعة ، واصبح اليوم أسير « الصور » التى تحاصر عينيه أينما ذهب ، صور الاعلانات ولافتات الدعاية التى تصدم حسه وتثير انفعاله . لقد ولّى عصر حضارة « الكتاب » وحلّت محله حضارة « الصورة » فانتقصت من الوقت الذى كان يخصصه المرء للقراءة الجادة المستغرقة المتأنية العميقة ، بل لقد صرنا نختصر الجمل الكبرى فى كلمات ، ونحيل الأفكار الى صور مرحة نجتذب بها الأعين فى صفحات كاملة من الفكاهات ، فقد علمنا عصر الآلة ، السرعة بعد أن حشد العالم بالأفكار والمبتكرات التى يحتاج المرء لاستيعابها عمراً أطول من عمره ، ونبذ وسائل المواصلات التى كان الحصان أسرعها الى الطائرات التى تفوق سرعتها سرعة الصوت ثم الى الصواريخ التى تطوى ماحول العالم كله فى دقائق ، حتى أصبح من الضرورى تلخيص الحياة فى عدة صور ولقطات . غير ان السرعة قد اصبحت للأسف تفرض نوعاً من الصور المختزلة المزيفة التى تبعد عن المعرفة المباشرة المتعمقة للحياة وتحرم الانسان من اعمال فكره . لقد خلقت الصورة المتسرعة التى يشاهدها المرء فى برامج التليفزيون على سبيل المثال نوعاً من السلبية والجنوح الى حب التسلية وقتل الوقت ، وهو شىء خطير حين يتسلل الى نفوس النشء الذين لم يظفروا بعد بنصيب قيم من الثقافة التى تعينهم على الاستمتاع الحقيقى بالحياة عن طريق اثرائها بمشاركتهم فى الخلق والابداع .

ومن هنا ندرك أهمية الفن فى عالم اليوم لأنه يستطيع باحالة الصورة الى عمل فنى وباستغلال الصورة الفنية ، أن يجتذب الجماهير الى الثقافة الأصيلة ، وأن يجتذبهم من عالم السرعة والقلق والصدام الحسى الى عالم الهدوء والتأمل والسكينة . ومن هنا نفهم سر تدافع الجماهير العادية الى المعارض الفنية لمشاهدة ما تضمه من تحف ولوحات وتماثيل ، فليس سوى الثقافة وخاصة الفن ، وسيلة لشفاء النفس من أمراض العصر وحمايتها مما يتهددها من أخطار .

الفنان لا ينسخ الطبيعة ولا يصورها كما هى ، بل هو يعيد خلقها باخضاعها لقوانين عقلية ، والفن بهذا يصل العالم بالانسان برباط فكرى وعاطفى ، ويتيح للفنان التعبير عن حياته « الجوّانية » الدفينة المستخفية فى أعماقه والتى تتسق مع العالم الخارجى فى تكوين شخصيته الذاتية ، أى انه يحقق ذلك التوازن المفتقد فى هذا العصر المزدحم بالأشياء

المتماثلة المتشابهة . ان الفن يفصح عن خبايا اللاشعور وينقل ما تحته الى صفحات لوحاتنا وصورنا وأعمالنا الابداعية وكأنه طبيب نفسى نفضى بين يديه بذكرياتنا دون اتساق أو ارتباط منطقى ، ومع هذا يستبين منها خفايا نفوسنا . فاللاشعور ـ كما يرجع العالم النفسى ((يونج)) يتضمن كل ما يدركه العقل سواء كان دون قدراته أو فوقها وكل ما لا نستطيع أن نصل اليه عن طريق فكرنا وتأملاتنا ، وهو يستطيع أن يُسقطها اسقاطاً رائعاً فى العمل الفنى الذى يخرج من اعماق الفنان وهجاً يبعث الدفء فى أعماق الآخرين أو نوراً يجعلنا نلج الى أعماق الروحانية .

تلك هى قدرات الفن الحقيقية : أن يكشف عن الثروات الخبيئة فى وجداننا والتى تخنقها حياتنا الحديثة ، ان يكشف عن ثرواتنا العقلية والحسية وأن يطلق أعمق ما يملكه الانسان داخل نفسه من امكانيات الخلق والابداع التى تمكنه من أن يضيف الى العالم شيئاً جديداً غير الأشياء المادية ، لأنه يفجر الطاقات الروحية الكامنة فى طيات النفس البشرية .

وحين نسترجع تاريخ الفنون نرى الفنان منذ أقدم العصور البدائية يقوم بتمثيل مجتمعه ويتحدث بلسانه ، ونشهد فى الأعمال الفنية الباقية من العصور الاولى تناول الفنان لتجارب الشعب العامة وأحداث عصره وتاريخ قومه ، ونجد أن الفنانين القدماء الذين ظفروا بأكبر تقدير من شعوبهم هم أولئك الذين نجحوا فى تلقى الخبرات المشتركة وعرض انطباعاتهم بها . وكان شاعر الجزيرة العربية هو المتحدث باسم القبيلة وقائدها الروحى وصانع وحدتها وحاميها . ولم تكن الأغانى العاطفية المصرية فى العصر الفرعونى التى تعبر عن عواطف شخصية خالصة وليدة تجارب فردية بل كانت وليدة تجارب وأحاسيس جماعات من الناس ، فكان شعراء مصر يتحدثون الى ذاتية أجدادنا المصريين حين يتحدثون عن تجاربهم الذاتية فى قالبها الشعرى المحدد .

بل ينبغى ان نعترف صراحة ان العصر والظروف الاجتماعية هى التى تقدم للفنان تجاربه التى يتلقاها بما يتميز به عن معاصريه من وعى ودقة يعينانه على ادراك الواقع واحتمال قسوته ، ويشحذان رغبته فى جعل الواقع اكثر ملاءمة لاحتياجاته الانسانية .

واذا عرفنا أن الفنان لا يعمل فى فراغ ، كما أنه ليس مجرد آلة لتسجيل الواقع والطبيعة ، وانما هو انسان ينتمى الى بيئة خاصة فى امة خاصة وعصر معين ، وأن مشاعره وانفعالاته وميوله تلعب دوراً هاماً فى تكييف العمل الفنى الذى يبدعه ، عرفنا سر تنوع الأساليب والمدارس الفنية عبر التاريخ.

• • •

الفنان بين الالتزام والحرية

انطلق نقاد الفن فى مساجلات تحليلية حول الفنون وانماطها واتجاهاتها ، وكان من بين ماتواضعوا عليه من مسميات ((الفن البرجوازى)) و ((الفن الاشتراكى)) .

ولو أننى لا أميل الى مثل هذا التحديد القاطع فى تعريف أساليب الفنون المتباينة واتجاهات الفنانين فى انحاء العالم المختلفة ، وأرى أن الفن لا يخضع للايديولوجيات السياسية الحادة خضوعاً أعمى والا خرج عن نطاق طبيعته ومضمونه الانسانى الى مفاهيم اخرى شكلية تفسد معناه الحقيقى ، الا أننى لا أرى بأساً من أن اورد طرفاً من مضمون تلك المناقشات .

يقول البعض عما اطلقوا عليه اسم الفن البرجوازى ، اننا لو تأملنا الفن فى مرحلة

التطور الرأسمالى باوروبا لرأينا الى جانب الفن الرسمى الذى يمجد البرجوازية عدداً من المدارس تعكس كلها بطرق مختلفة ذلك الانقسام الطبقى الرهيب الذى اتسم به ذلك المجتمع ، والاحساس بالعزلة التى بدات تسود عالم الرأسمالية . وكانت الرومانتيكية أول تعبير عن ذلك الاحساس الذى تتفتت فيه الحياة نتيجة تقسيم العمل والتخصص ، واصبح الناس فيه غرباء يعيش كل منهم منسلخاً ، مما يزيد من ذاتيته وتعاليه وحيرته ووحشته . وقد دفعت هذه العزلة الفنان الى تحدى هذا العالم المفكك والهبت فى خياله حلماً بتحقيق الوحدة فيه . ووجد الرومانتيكيون فى عالم الخيال والتراث الاسطورى ــ الذى ابدعته عصور قديمة كانت تنعم بالوحدةالتىحرمها هؤلاء الرومانتيكيون ــ مهرباً من احساسهم بالتمزق والضياع .

واذا كانت الرومانتيكية قد قامت فى وجه العالم الرأسمالى لتحتج على جفاف حياة البسطاء والرفاهية الخرافية التى يعيش فيها أصحاب الأعمال ، وثارت على القواعد والمعايير الفنية الارستقراطية التى تستبعد الموضوعات الشعبية،فقد امتلأ الفن الرومانتيكى بالغموض والحيرة التى كان يعيش فيها الرومانتيكيون الضائقون بالحياة الرأسمالية مع رغبتهم فى الثراء الذى يتهددهم بدونه الضياع .

وشاركت مدرسة « الفن للفن » المدرسة الرومانتيكية فى الاحتجاج ، فقد كانت صرخة ضد العالم الذى تتحول فيه الأشياء كلها الى سلع تباع وتشترى . وكان **بودلير** الشاعر الفرنسى صاحب الدور الأكبر فى تحديد معالم هذه المدرسة والتعبير فى اعماله الفنية عن الاحتجاج على الرأسمالية والتبرم بمتواضعاتها ،مطالباً بكرامة الشاعر فى مجتمع نضبت منه الكرامة . ونادى **مالارميه** بتطبيق قواعد الفن للفن فى شعر بلا نغم يحتشد بالفاظ جذلة طنانة غير انها مفككة خالية من المعنى ، وان احتوت بضع أبيات مفهومة ، ويقول : « فليكن شعرى فى نظر الناس بمثابة السحب وقت الشفق ، وما اشبهه بالنجوم عديمة الجدوى. فلتمحوا الواقع من اناشيدكم لأنه شىء عادى . ان ما ينبغى على الشاعر أن يضعه نصب عينيه خلال ابداعه هو أن يعمل فى غموض وعيناه تتجهان نحو ما ليس فى الامكان » .

وكانت المدرسة الانطباعية « التأثرية » مدرسة الاتجاه الطبيعى وتأمل الجمال وتصوير الأشياء المعبرة عن الصدق والاخلاص، وتسجيل الفنان لانفعالاته التى تعد وحدها شكلاً من أشكال السخط والاحتجاج على فن البرجوازية الرسمى الممجّد لها والمزيف للواقع . غير أن هذا السخط يعادله عنصر سلبى هو فردية الفنان الذى لا يكترث بغير انطباعاته الذاتية ولا تعنى بقعة الدم امامه شيئاً غير أنها بقعة لون .

وعلى عكس المدرسة الانطباعية قامت المدرسة الطبيعية التى تحيل العمل الفنى الى عمل علمى موضوعى خالص لا يحق للفنان أن يُضفى عليه رأيه الشخصى ، بل عليه أن يصور الأوضاع تاركاً مهمة التفكير فى تقويمها لرجل السياسة . غير أن المدرسة الطبيعية لم تنفذ الى أغوار الأوضاع الاجتماعية التى تناولتها بالوصف ولم تكتشف عناصر الصراع الحقيقية ، فبدا وصفها للحاضر وكأنه واقع ثابت جامد لا يتغير ولا يوحى بأمل فى التغيير .

واتخذت أغلب هذه المدارس موقفاً سلبياً غير مكترثة بتقديم مضمون انسانى صادق ، حتى ظهرت مدرسة الواقعية النقدية التى حملت تعبيراً ثورياً على الأوضاع القائمة ، على غرار ما نرى فى قصة « لوسيان لوڤين » التى كتبها ولم يكملها اديب فرنسا الكبير **ستاندال** . ففى ظل ملكيه يوليو كان لوڤين الواسع الثراء أباً متسامحاً فاتجه ابنه لوسيان الى التطرف فى عقيدته السياسية والايمان

بالمثل الجمهورية ، وكان ذلك سبباً فى طرده من مدرسة « البولتكنيك » . ويكشف لنا « ستاندال » فى القسم الثانى من روايته «الأحمر والأسود» خبايا الدوائر البيروقراطية حيث يمضى بنا فى رحلة نتعرف فيها على الحياة فى أحد الأقاليم خلال حملة انتخابية حتى نصل الى نهاية هذه القصة التى تعد احدى قمم الواقعية .

وما أصحاب المدرسة الواقعية النقدية الا فنانين ذوى موقف من مجتمعهم ، فهم لا يكتفون بالاحتجاج بل يؤمنون بوجوب تغييره بالثورة عليه واحلال مجتمع زاخر بالقيم الانسانية قائم على احترام الانسان .

وليست الواقعية فى الفن هى مجرد تمثيل للمادة القائمة فى العالم الخارجى المستقل عن وعينا الانسانى ، بل هى تشمل جميع التفاعلات التى يتأثر بها الانسان عن طريق تجاربه وفكره وانفعالاته وميوله ، والقواعد العلمية والقوانين الاجتماعية السائدة فى بيئته وعصره . انها نظرة جادة ونافذة الى اغوار المشاكل تكشف العناصر المتصارعة فى المجتمع وتميز بين القوى الصاعدة والقوى التى سينتهى بها المصير الى الاندحار .

واذا كان القادة الحقيقيون للعالم الرأسمالى فى مرحلته الأخيرة قد خربوا كثيراً من القيم الانسانية واغرقوا البشر فى حروب وحشية وامتصوا ثروات شعوب حيل بينها وبين الحضارة ، فقد ولد هذا الوضع احساساً بعدم معقولية الحياة ، وظهرت مدرسة اللامعقول تعبيراً عن هذا الدمار للقيم السامية والمعايير الانسانية ، ثم ظهرت مدرسة القصة الجديدة أو نقيض القصة ــ كما يسمونها ــ لتنظر الى العالم نظرة موضوعية خالصة ، وترى العالم ــ على حد تعبير **« آلان روب جرييه »** ــ على انه مجرد شيء موجود لا يمكن أن يقال عنه انه ذو معنى ولا انه لا معنى له .

ومن هنا لم يكن لهذه المدرسة اتجاه ، يكتفى انصارها بوصف الظواهر وصفاً دقيقاً ، لا يقحمون فيه التحليل النفسى ولا انفعالات الكاتب أو انفعالات شخصيات قصصه ، وانما يجمعون كل ما يلاحظونه ويصوغونه فى ترتيب، على غرار العقل الآلى الذى يتناول المعطيات التى يغذى بها تناولاً آلياً دقيقاً ثم يخرجها فى صورة نتائج معينة .

ومع ذلك فقد انعكس تزايد القوى الآلية وتزايد طغيانها فى العالم الرأسمالى عند مجموعة من الفنانين فى تسخيرهم الفن لتأكيد بقاء حرية الاختيار امام الانسان وبقاء قدرته على تشكيل مجتمعه على النسق الذى تتحقق فيه كرامته . وهكذا ظهرت صرخة الاحتجاج على الحرب فى لوحة « جرنيكا » الخالدة التى رسمها **بيكاسو** لتسجيل وحشية الهجوم الجوى على احدى القرى خلال الحرب الاسبانية ، كما ظهر الاحتجاج على طغيان الآلة فى اعمال المخرجين السينمائيين الكبيرين **شارلى شابلن وايزنشتاين** .

ويستطرد البعض فيما اسموه «بالفن الموجه» وعن التجربة السوفيتية بالذات فيقول : « ظهر فى الاتحاد السوفيتى فن اشتراكى يتميز عن الفن البرجوازى بقدرته على رؤية المستقبل والايمان به ، وأصبح الفن الاشتراكى فن الأمل على حين قبع الفن الرأسمالى فى حنايا اليأس والقلق وانتظار الكارثة التى لا مهرب منها » . وقد اطلق اسم « الواقعية الاشتراكية » على المدرسة السوفيتية التى ولدت بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ واصبح لها من القداسة ما للعقيدة الدينية حتى ثار عليها فى السنوات الأخيرة ابر ابنائها من امثال **ايليا اهرينبورج** . ولا بأس من التمهل قليلاً والقاء نظرة فاحصة على الأدب السوفيتى خلال تطوره فى ظل الثورة بوصفه أهم مجال برزت فيه الواقعية الاشتراكية حتى نستبين جذورها ونتبين معالمها لنحسن فى النهاية تقييمها بوصفها تجربة الدولة الاشتراكية الكبرى .

نعلم أن الثورة الروسية قد قامت فى ظل تراث هائل من الأدب الذى خلفه عباقرة القصة الروس من أمثال **تولستوى ودستوفسكى وتشيكوف** ، وان قسوة الحرب الأهلية التى صاحبت بداية الحكم السوفيتى قد جعلت كثيرين من الادباء يهجرون المدن الى الريف بحثاً عن وسيلة كسب اخرى غير الأدب ، كما دفعت بغيرهم الى الفرار خارج روسيا طوال فترة القلق والاضطراب .

ومع عودة الهدوء والاستقرار ، ظهرت مدرسة رمزية يقف على راسها الشعراء **الكسندر بلوك وأندريه بيلى وفولوشين وأنّا اخماتوفا** ، وان حملت هذه المدرسة آثار النزعة التى ظهرت فى صالونات موسكو وبتروجراد الأدبية قبل اشتعال الثورة ، حتى ظهر الشاعران العملاقان **يسينين وماياكوفسكى** اللذان طورا هذه المدرسة بجعلها مدرسة ثورية تحلم بانتصار الاشتراكية فى العالم كله .

ويعد « **يسينين** » مؤسس المدرسة التصويرية التى ترى أن الشعر لا يقوم على معان وايقاعات وانما يتشكل من سلسلة من الصور الغريبة التى يولدها الخيال الخصيب . وكان « يسينين » ريفياً انتقل الى المدينة بكل حنينه ولهفته الى جمال الطبيعة وهدوئها وطهارتها فأحس التمزق بين حياة القرية الوادعة وحياة المدينة خلال التطورات السياسية الدامية فى فترة يتغير فيها المجتمع تغيراً جذرياً وعنيفاً . وكان شاعراً محبوباً رغم اباحيته وفوضويته الى حد أن ديوانه الأول الذى طبعته الدولة فى أربعة اجزاء قد وزع منه عشرة آلاف نسخة يوم صدوره . .

ولم يكن « **ماياكوفسكى** » أقل انسياقاً الى النزوات وحياة اللهو من « يسينين » ، غير أنه كان أكثر ارتباطاً بالثورة ومبادئها ، وكان أحد زعماء « مدرسة المستقبليين » المتنكرين لكل القيود التى تعوق انطلاق الأدب ، ولم يلبث أن شكل معهم « جبهة يسارية » تضم أهم الشعراء الشبان من امثال **باسترناك** وأساتذة الجامعة وعلماء اللغة ، نادوا بالتزام الصدق فى التعبير عن الوقائع المعاصرة وتبسيط لغة الأدب ، وحملوا مهمة تبليغ رسالة النظام الجديد الذى آمنوا به دون أن ينضموا تحت رايته البيروقراطية ، واعلنوا عن تأييدهم له بعبارتهم الرمزية الشهيرة « ان القلب يقع دائماً الى اليسار » ، غير أن أزمة نفسية طاحنة دفعت « ماياكوفسكى » الى الانتحار عام ١٩٣٠ كما انتحر قبله بخمس سنوات « يسينين » . ثم سعى « لوناشارسكى » وزير التربية فى أول حكومة سوفيتية الى تشكيل جماعة ادبية ابتغى أن تكون أعمق أثراً فى تربية جيل مخلص للماركسية ، فكوّن « البروليتكولت » أو « منظمة الثقافة البروليتارية » التى تبنت المبدأ الماركسى القائل بأن « كل ثقافة تعبر عن نظام الحكم القائم فى مجتمع وتتحدث بلسان طبقته الحاكمة » ، وهكذا كان على الأدب السوفيتى الجديد أن يعبر عن واقع المجتمع العمالى . وقد عملت هذه الجماعة على خلق فروع يشترك فيها العمال والفلاحون لمناقشة الأعمال الجديدة فى المصانع والحقول سواء كانت شعراً أو نثراً أو مسرحاً ، وان لم تقدم هذه الجماعة شاعراً أو اديباً مرموقاً .

وفى ظل السياسة الاقتصادية الجديدة « النيب » اتيح قسط أكبر من الحرية لتنشيط المجهود الفردى ، وانعكس ذلك فى المحيط الثقافى بتكوين هيئة للرقابة تشرف على كل ما ينشر ، بحيث لا تظهر اية مطبوعات دون موافقتها ، وبانشاء مؤسسة للطبع والنشر تتولى أربعة أخماس ما ينشر فى البلاد ، وتشرف على لجان الادباء وجهود المؤلفين مطلقة حرية الجدل والنقاش متقبلة بصدر رحب المقترحات والتوجيهات والنقد بغض النظر عن صلة هذه الندوات بالحزب أو عدم صلتها به ، وانشات

الدولة عام ١٩٢١ اول مجلة ادبية هى « كرازنايانوف » أو « الأرض الحمراء البكر » ولم تقصر النشر فيها على أعضاء الحزب وحدهم ، وكلفت الدولة **جوركى** بانشاء مجلة « الأدب الدولى » الشهرية التى لا تزال تصدر حتى اليوم وان تطور منهجها مع الزمن .

ومع أن افضل ادباء هذه المرحلة كانوا من غير المنتمين للحزب ، فان اللجنة المركزية للحزب لم تغير من نهجها فى التسامح ، وظلت تشجع التنافس الحر بين الجماعات المتنوعة ذات النزعات المتباينة ، وترفض تمييز جماعة على اخرى حتى وان كانت هذه الجماعة هى الجماعة الحزبية ، واتاحت لبعض الادباء السوفييت زيارة اوروبا الغربية حيث تأثروا بالتيارات الأدبية الجديدة بها وحملوها فى عودتهم الى بلادهم . وقد أثمر هذا الالتقاء بأدب الغرب ، فظهر كتّاب قصة كبار مثل **بلنياك واهرنبورج وفيدين وليوفوف وبابل** ، وقامت نهضة مسرحية جديدة على ايدى مخرجين جدد ممن تأثروا بالأساليب الاوربية من امثال **سيرهولد وتيروف** .

وفى عام ١٩٢١ انشأ **جوركى وزمياتن** رابطة ادبية فى بتروجراد (ليننجراد فيما بعد) واختار لها الشباب اسم (اخوان سيرابيون) اعجاباً بالكاتب الألمانى الرومانتيكى **هوفمان** (١٧٧٦ ــ ١٨٢٢) الذى الف قصصاً تدور حول شخصية رجل ارستقراطى تخلى عن وظيفته فى السلك الدبلوماسى والتزم الزهد وجنح الى الخيال ليحرره من قيود الزمان والمكان وتسمى باسم الزاهد المصرى **سيرابيون** الذى عاش فى عصر الامبراطورية الرومانية . وكان « اخوان سيرابيون » شباناً بين العشرين والثلاثين يكتبون النثر عدا شاعرين هما **تيخونوف** والسيدة **بولونسكايا** . ومنهم **ايفانوف ونيكيتين وسلوينسكى وزوشتشنكو** وكانوا رومانتيكى الروح رغم ايمانهم بالثورة ، مأخوذين بحرية التعبير ضائقين بالنصائح والتوجيهات التى ترسم لهم طريقاً يسلكونه فى اختيار موضوعاتهم وأساليب ابداعهم ، وكانوا يرفضون أن يكون لجميع الكتاب والادباء اسلوب واحد ، ويرون أن صدق العمل الفنى مرتبط بتحرره من سيطرة الدولة واشتراطهامضموناً اجتماعياً معيناً له ، فليس الأديب آلة تسجل الاهتزازات الاجتماعية . ومع ذلك برز موضوع الحرب الأهلية والثورة فى مقدمة الموضوعات التي تناولوها فى أعمالهم الأدبية وسار فى اثرهم الكثيرون . وقد حرصوا على ان يكون الأدب الجديد امتداداً للتقاليد الموروثة من القرن التاسع عشر ، حتى اذا قويت قبضة ستالين فى الحكم صُفّيت جميع المنظمات والجمعيات الأدبية عام ١٩٣٢ وتأسس « اتحاد الكتاب السوفييت » الذى اخذ يتلقى تعليماته من الحزب ويخضع لتوجيهاته ، ويشرف على انتاج الادباء ، متخذاً من الواقعية الاشتراكية نظرته التى يُقيِّم على أساسها كل ابداع فنى .

وبدات القصة الروسية تعكس تمزق الفرد فى الحوار الدائم القائم بينه وبين مجتمعه بعد أن ثار على قيود النظريات الجامدة ، وأخذت مأساة الانسان الذى يحس العزلة أمام ضغط الظروف الجديدة التى خلفتها الثورة تصبح مادة القصة الروسية الطويلة التى عادت الى أساليبالقرن التاسع عشر بعد أن أضافت اليها هذا المضمون الثورى الجديد .

وكان **قسطنطين فيدين** أول من عاد الى القصة الطويلة التقليدية التى تعرض حياة بطل يشهد اطواراً مختلفة من التاريخ ، وذلك فى قصته « المدن والسنوات » التى صور فيها شخصية مثقف تهز الثورة الروسية كيانه الداخلى وتملؤه حيرة وقلقاً حتى ينتهى بالسير معها ، لكنه يعود فيخونها ويمضى فى ثورته عليها حتى يخمد الموت انفاسه ، فكانت أول قصة طويلة ذات حبكة تقليدية بعد فترة التجارب والبحث عن اسلوب أدبى جديد .

وقد عالج **الكسى تولستوى** حياة المثقفين الروس وعرض تطور فكرهم البرجوازى قبل الثورة الى عداء صريح للثورة ثم الى التحمس النهائى لها فى ثلاثية تعد احدى روائع الأدب السوفيتى هى « الطريق الى جبل الجماجم » . وكان « تولستوى » نفسه معادياً للشيوعية محارباً ضدها فى صفوف الجيش الأبيض هارباً منها الى الغرب ، ثم مؤمناً بها وعميداً للادب السوفيتى بعد وفاة جوركى عام ١٩٣٦ . وقد كتب تأريخاً لحياة القيصر بطرس الأول فى اسلوب روائى مجد انشاءاته وتغاضى عن قسوته واستبداده تقديراً لدوره فى ارساء دعائم مجد روسيا القديم .

وامسكت قبضة ستالين بزمام الابداع الأدبى وجندته لخدمة حركة التخطيط الاقتصادى ولتعبئة الجماهير لخدمة اهداف الدولة ، وكلف الادباء بالقيام برحلات الى الأماكن التى اقيمت بها المنشآت الجديدة ، وتسجيل نبضات الحياة هناك فى قصص وقصائد حماسية ، وكانهم عمال تحدد لهم المواصفات التى يعملون على ضوئها ، فكان ذلك بداية لظهور أدب دعائى تكتب فيه القصة باسلوب المقال الاخبارى ، مع الحرص على تقديم بطل ايجابى يحمل ملامح التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الجبارة التى شكلت وجه الحياة فى روسيا ، ويجسد المثل العليا للمجتمع الجديد ليكون النموذج المثالى للانسان الشيوعى . ولم يتميز وسط هذا الركام الهائل من الأدب الدعائى الساذج الا عدد محدد من كتابات روائيين عرفوا كيف يرتبطون بالصدق ويكتمون فى الوقت نفسه احتجاجهم على خنق حرية الأديب وتوجيهه وتقييده مثل **فادييف وشارخوف واهرنبورج .**

كتب **((شولوخوف))** قصة « نهر الدون الهادىء » التى تحكى مغامرات فلاح قوزاقى ينضم الى الجيش الأبيض خلال الحرب الأهلية حتى يستقر النظام الجديد فى القرى التى خرج منها هذا الفلاح ، فيجد نفسه مضطراً شيئاً فشيئاً الى الاعتراف بسيادة هذا النظام فيخضع له ويندمج فيه . كل ذلك عبر تحليل دقيق لنفسية الفلاح عامة والقوزاقى خاصة ، وتردده المعذب بين قبول هذه الموجة الزاحفة وبين الرغبة فى مقاومتها مع نفوره من العنف بعد مآسى الحرب الأهلية التى صورها « شولوخوف » فى صورة مؤثرة ، ولكنه لم يخنق الأمل فى نفس البطل الذى عاد الى قريته فاذا بها مخربة واذا زوجته وعشيقته ووالداه قد قتلوا جميعاً ، غير أنه يجد طفلاً صغيراً من ابنائه قد أفلت من قبضة الموت ليكون رمزاً للأمل فى المستقبل المشرق الذى يمسح أحزان الماضى .

واحتل **ايليا اهرنبورج** ــ الذى توفى منذ سنوات ــ شهرة كبيرة فى الغرب ، وكان قد عاش طويلاً فى باريس مراسلاً صحفياً وتأثر بالتيارات الفكرية والفنية السائدة أيامها فى باريس ، وتميز بموهبة رائعة فى الجدل الفكرى وتسجيل الاتجاهات السياسية والفكرية التى يموج بها العصر . ونال جائزة ستالين فى الأربعينيات على قصته الطويلة «سقوط باريس» التى رسم فها صورة عامة للمجتمع الفرنسى قبل هزيمة فرنسا على يد الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الثانية . وقد ركز « اهرنبورج » كتاباته على تصوير الحياة الغربية فى شكلها الشائه ، ملتزماً الصمت على الأوضاع الداخلية التى كان ضائقاً بها فى بلاده خلال حكم ستالين والتى كشف عنها بمجرد وفاته فى قصتيه « ذوبان الجليد » و « الربيع » اللتين وصف فيهما الرعب والقلق والشك والكتمان التى كانت تثقل الشعب الروسى خلال عهد ستالين .

وثمة أديب كبير لزم الصمت خلال عهد ستالين وعاش على الكفاف من ترجمة الآثار الأدبية لشكسبير وجوته هو الشاعر **بوريس باسترناك** الذى لم ينضم الى الحزب مثل

« اهرنبورج » وبقى بعيداً مستغرقاً فى ترجماته التى ضمنت له تقدير الدولة والشعب ، حتى مات ستالين فكتب قصته الشهيرة فى العالم كله « دكتور چيفاجو » والتى لم يتحمس لنشرها احد فى الاتحاد السوفيتى فأرسلها الى الخارج حيث نشرت فى لغات عديدة .

وچيفاجو طبيب يحمل ملامح پاسترناك فى نزعته الاستقلالية ورفضه أن ينصت لغير فكره الذاتى . ويبدأ حياته معجباً بالثورة متحمساً لها واهدافها حتى يحس الضغط الفكرى للحكام الجدد فتثور رغبته الاستقلالية ، ويغادر موسكو الى قريته الاولى النائية القائمة وراء جبال الاورال ويشهد فى رحلته الطويلة بالقطار آثار الدمار المروع الذى لحق بالحقول والدور والتخريب الذى خلفته الحروب الأهلية فى الأعماق . ويعرف الهدوء فى هذا الريف البعيد ويلتقى **بلارا** الفاتنة التى تعيش وحيدة فى مدينة قريبة ويعرف فى بيتها سعادة غامرة لا يلبث ان ينتزعه منها الجيش الأحمر الذى يرغمه على العمل طبيباً ملحقاً به ، حتى اذا اتيح له الهرب عاد الى عشيقته لكنها تضطر الى الرحيل ويذهب الى بيت اسرته فلا يجد أحداً ، ويعود الى موسكو وحيداً كسير النفس فتفجأه ازمة قلبية فى أحد شوارع موسكو وهو يحاول اللحاق بعشيقته التى لم تلمحه .

وقد خالف پاسترناك فى هذه القصة جميع الكتاب السوفييت لأنه قدم شخصية لا تؤثر السياسة فى تطورها النفسى ، الذى كشف عن مراحله فى أربع وعشرين قصيدة ختم پاسترناك بها قصته ونسبها الى چيفاجو .

ويمثل پاسترناك نموذجاً للأديب الذى رفض القيود وظل يكتب شعراً ذا ايقاع موسيقى دافق وتصوير سيريالى تتتابع فيه أحلام اليقظة ، وتكثر فيه التشبيهات المركبة ، ويدور حول موضوع وحدة الوجود وصلة الانسان بالكون والحوار القائم بين الطبيعة والانسان ، مؤكداً قدرة روح الشاعر الخلاقة وأصالة أحاسيسها . واذ حصر پاسترناك شعره فى عالم فردى بحت كان هذا منه بمثابة عصيان واعتزال للسياسة التى تصبغ الحياة كلها فى بلاده . غير ان أمثال پاسترناك كانوا قلة ، وقد لقى معظمهم مصيراً تعيساً خلال فترة من الارهاب الغريب الذى أدانه بعد ذلك المفكرون الاشتراكيون أنفسهم .

ولو انا استبعدنا فترة الحرب العالمية الثانية من حكم ستالين لراينا فترة خصبة فى مجال الأدب رغم ان أكثر من مائتين وسبعين اديباً قد قتلوا خلال المعارك فى ميادين القتال . لقد كان الاحساس الوطنى جارفاً حرك طاقات العمل الثورى فى أعماق الناس جميعاً فتحرروا مما كانوا يعانونه من كبت قبل الحرب ، وانبعثت الحماسة الصادقة مولدة عاطفة اخذت تنبض بحرارة دافقة فى الأدب السوفيتى وخاصة فى قصص **جودباتوف وسيمونوف واكلانوف** . وكانت النزعة الوطنية التى سادت ادب هذه الفترة نزعة انسانية واسعة عبر عنها « الكسى تولستوى » قائلاً : « ان الانسان هو هدف أعمالنا بينما لا تعنى الفاشية الا اضمحلال الانسان » .

وازدهر الشعر فى هذه الفترة بقدر ما ازدهرت القصة فكان شعراً ملحمياً نابضاً بروح البطولة . وقد ردد الشعب كله قصيدة **سيمونوف** « انتظرينى » وهى القصيدة التى تحولت الى اغنية شعبية قام بتلحينها أحد عشر موسيقياً وضع كل منهم لحناً مختلفاً عن لحن الآخرين .

●●●

مرحلة ذوبان الجليد

فاذا تركنا فترة الحرب العالمية الثانية نجد أن عصر ستالين كان عصر الأدب الموجه الذى يعمل فى خدمة أهداف الدولة ويخضع لسيطرة

الحزب الذى حدد نظرته الى الأدب فى القرار الذى كتبه **جدانوف** : « يجب ان يتناول الأدب بكل اساليبه وطرقه بعد تجارب الحرب مرحلة البناء الاشتراكى الجديد ، ويجب ان يكون ذا اثر فعال فى خلق جو شعبى وتنشئة جيل متحمس للقيام بواجبات البناء وتحمل أعبائه والبعد عن النقد والسخرية وتجنب كل عمل او قول يثبط الهمم فى اقامة المجتمع الجديد» .

وفى اثر هذا القرار ساد جو غريب عانى منه الكتاب الذى لم يعيروه التفاتاً ولم يسهموا فى تحويله من شعار الى عمل من أمثال الشاعرة **انا اخماتوفا** والكاتب الساخر **ميخائيل زوشتشنكو** اللذين قرر اتحاد الكتاب السوفييت فصلهما من عضويته . وغلب التكلف على الكتابات الأدبية وامتد النفاق الى القصص التى اخذت تمجد ستالين بوصفه القائم وحده بدور الرئيس فى قضية الاشتراكية .

وامتدت سنوات الجدب الثقافي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى موت ستالين فى ٥ مارس ١٩٥٣ حين اخذ بعض الادباء يحسون بداية عهد جديد ، عهد « ذوبان الجليد » الذى اخذ اسمه من اسم قصة « اهرنبورج » التى سجل فيها مأساة الخوف الذى عاناه الشعب خلال حكم ستالين .

ولم تكن هذه القصة بداية لعهد من الحرية الفسيحة للكتاب والمفكرين بقدر ما كانت بداية عهد من الصراع بين تيارين قويين : تيار يؤمن بالحرية الكاملة للادباء والفنانين ويتمثل فى اهرنبورج وفيرا بانوفا وميخائيل زوشتشنكو ، وتيار المحافظين المتمسكين بالقواعد الجدانوفية . وقد تردد راى المتحررين قوياً فى مؤتمر كتاب الاتحاد السوفيتى الذى عقد فى ديسمبر عام ١٩٥٤ على لسان الشاعر **لوجونسكى** حين قال :

« على الأدب ان يعود الى معالجة المشاكل الانسانية الحقيقية الكبرى ، واقصد بها المشاكل العامة الدائمة التى تشترك فيها البشرية كلها كمآسى الغيرة والخيانة وخيبة الأمل فى الحب أو الصداقة والحزن على فراق الأصدقاء والأحباب . ومع انا نحيا وسط هذه المآسى التى تثقل العالم كله فانى لا ألمح لها وجوداً فى أدبنا ، ولست أرى فى قصصنا الا ظلال شخصيات جامدة والا افكاراً معادة ممجوجة ، والا عبارات جوفاء لا معنى لها ولا جدوى فيها » .

وقد ادان **شولوخوف** الانتاج الأدبى لهذه الفترة حين قال :

« شهدنا أكواماً من القاذورات التى لا لون لها ، ولم نجد مقابلها الا عدداً محدوداً من الكتب الواعية . وكما أن الموسيقى ليست طرقات طبول ودفوف تدوى ولا تطرب ، فليس الأدب كذلك عبارات رنانة لا معنى لها ولا مضمون » .

وكان من ثمار هذه الدعوة الى الحرية رد اعتبار بعض الكتاب الذين ابعدوا فى عصر ستالين ، وعادت كتبهم الى الظهور من جديد ، ونشطت حركة الترجمة من الآداب الغربية نشاطاً لم يسبق له مثيل ، وظهرت قصص متحررة تهاجم البيروقراطية والطبقة الجديدة مثل قصة « الأحياء والموتى » **لسيمونوف** و « الكتمان » **لبونداربيف** وقصة « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » **لفلاديمير دودنسيف** ، ثم ازدهر الشعر الغنائى وظهر اهتمام بالقصة القصيرة التى تكشف عن الخبايا الذاتية .

وظهرت قمة الدعوة التحررية فى شعر **ايفتوشينكو وفوزنيسينكى وفينوكوروف** والشاعرة **اخمد ولينا** وفى قصة **اسكندر سولجينستين** « يوم فى حياة ايفان دينوفيتش » التى تحكى فى بساطة وبلا تكلف أو مبالغة

حياة واحد من الآلاف الذين ازدحمت بهم معتقلات العمل فى المنطقة القطبية الشمالية .

على ان هؤلاء الادباء ليسوا من أعداء نظام الحكم ولا من الناقمين على الشيوعية ، بل ان كثرتهم اعضاء فى الحزب ، غير انهم يمثلون تياراً يؤمن بأن حرية الفنان هي شرط تفتحه وتطور مواهبه ، ويعطون الفنان الحق فى تصوير الثغرة القائمة بين القيم النظرية وبين واقع الحياة اليومية ، ويقفون ضد النظرية القائلة بأن الأدب يجب أن يصور الجانب المضيء وحده من الحياة .

ولم يكد ستالين يوارى التراب حتى اهتزت أعمدة نظرية « الواقعية الاشتراكية » التى كانت منهج الأدب والنقد الذى اكتسب قداسة العقيدة الدينية خلال عصره ، والذى كان يفرض على الفنان التمثيل الصادق للواقع خلال تطوره وتجسيده تجسيداً تاريخياً مرتبطاً بواجب التوعية العقائدية للعمال وتثقيفهم ثقافة اشتراكية ، وذلك حسبما جاء فى قرار مؤتمر الكتاب السوفييت الأول الذى عقد عام ١٩٣٤ ، وهو المنهج الذى حول الأدب السوفيتى الى أدب تعليمى اختفت منه حرارة المشاعر الانسانية فى مآسيها الخاصة .

●●●

الواقعية الاشتراكية

على انه من العسير أن نتبين الاسس النظرية لمدرسة « الواقعية الاشتراكية » فى كتابات النقاد الماركسيين أكثر من أنهم حددوا للأديب هدفاً رئيسياً هو توعية الجماهير سياسياً ، والزموا الشعراء والقصاصين والفنانين بالمشاركة فى تشييد المجتمع الشيوعى .

لقد رأوا الفن الصادق انعكاساً للواقع ، وحرصوا على تسجيله تسجيلاً مباشراً يخدم أغراضهم السياسية دون الاهتمام بالاسلوب والمنهج اللذين يتبعهما الفنان فى تسجيل هذا الواقع ، والتنسيق بين اسلوبه وذاتيته ونظرته للحياة ووسيلة تعبيره ، وذلك هو السر فى ان الواقعية الاشتراكية تجمع خليطاً من الأعمال المختلفة الاسلوب والتى لا يربط بينها غير وحدة الهدف السياسى ، وهو الأمر الذى بلبل النقاد من غير الماركسيين فى محاولاتهم لفهم خصائص مدرسة الواقعية الاشتراكية .

لقد فرق « جوركى » بين الواقعية الاشتراكية وواقعية القرن التاسع عشر ، بقيام الثانية على تحليل الأوضاع الاجتماعية السيئة والتنديد بها ، بينما تقوم الواقعية الاشتراكية على ابراز الجوانب الايجابية فى المجتمع السوفيتى ، وتمجيد الانسان خلال كفاحه من أجل تشكيل الحياة الجديدة ، وهو ما يعطى الواقعية مضموناً اشتراكياً .

ومن هنا نبع التزام الادباء السوفييت بتأييد الدولة والدفاع عن النظام ، خارجين بذلك على التقليد الثورى الطويل الذى تميز به أدبهم فى عهد القيصرية ، مهملين عناصر الصراع ، مبرزين الأمل والايمان والمستقبل ، متجاهلين كذلك عناصر المأساة التى يقهر فيها القدر الانسان ، مؤكدين قدرة البشر على قهر الهزيمة ، غير معترفين بعجز الانسان وانكماش طاقاته ، طارحين جانباً مشكلة الفناء .

ولقد أحس « جوركى » بوجود مخاطر خفية لهذه النزعة فحاول أن يتجنبها بالتوفيق بين الواقعية الاشتراكية وبين اتجاه رومانتيكى ثورى ، فنصح الكتاب الناشئين باختيار موضوعات تتضمن صراعاً قد ينتهى بالفشل أو بموت البطل مع تمجيدهم الدائم للحماسة وروح التضحية والبطولة ، غير ان هذه المحاولة قد أضافت لبساً جديداً بين الواقعية والرومانتيكية .

ومع مرور السنين تدعم التيار الذى ينادى بحرية الفنان وتزايد عدد الادباء الذين وقفوا

ضد « الواقعية الاشتراكية » بوصفها قيداً يغل الادباء عن تصوير الحياة كما هى فى واقعها اليومى ، وكان فضح خروشوف لانحرافات ستالين تدعيماً لموقف الادباء المنادين بحرية التعبير والمناقشة والجدل الصريح ، وكتب **سيمون كيرسانوف** يقول فى صراحة : « نريد الجرأة فى التعبير بالكلمة والنغمة واللون ، وليفتح باب المناقشة على مصراعيه فى كل مكان بدلا من اللجوء الى الهمس ، فقد يكون ثمة أمر هام مقدر له أن يحدث » .

ودافع « اهرنبورج » عن الدعوة الى التمسك بالصدق فى الأعمال الفنية معيداً الى الأذهان قول **تشيكوف** « من اليسير أن يكذب المرء فى الحب والسياسة والطب ، بل قد يكذب المرء على الله والناس ، غير أنه لا يمكن أن يكذب فى الفن » . وقارن بين محاولة اخفاء الحقائق فى الاتحاد السوفيتى وحرية التعبير الواسعة فى فرنسا قائلا : « ليس فى الاتجاه الفرنسى حماس اجبارى ولا همس خفى » .

وتردد على ألسنة الادباء سؤال : « من هو الذى يملك الحق فى توجيه الكاتب الى ما ينبغى عليه أن يراه وما لا ينبغى له أن يراه أو يسمعه ؟ » .

ولم تلبث القصص السوفيتية أن خرجت على المنهج القديم فى تصوير الشخصيات القيادية فى المجتمع وحسب وبدأت تصور بسطاء الناس الذين يحيون حياة متواضعة ولا يشغلون انفسهم بالأفكار الفلسفية ، كما أخذت تكشف عن التناقضات القائمة بين فئات المجتمع المختلفة وعن نظرة البعض المتعالية الى العمال، وكبرياء طبقة المديرين وذلة المرؤوسين وخوفهم امام رؤسائهم وبؤس العمال الذين يندسون ويتمايلون وسط السيارات العامة المزدحمة ، والطلبة الذين يلجأون الى عمل الحمالين فى محطات السكك الحديدية والنساء الواقفات فى طابور طويل لشراء الأطعمة .

وكثرت مظاهر التجديد فى مجال المسرح والسينما والفنون التشكيلية منبئة عن التحول الكامل عن الأشكال الفنية التى ظلت سجينة الواقعية الاشتراكية. بل لقد أصبحت هذه الواقعية الاشتراكية رمزاً للجمود الأيديولوجى الذى ينبذه الجيل الجديد المتحرر حتى قال **ايفتوشينكو** : « لقد أصبح الفن المعبر عن الواقعية الاشتراكية أشبه بعربة من عربات الجر مقضى عليها فى عصر الصواريخ » ، كما شبه الشاعر **فوزنيسنسكى** انصارها « باولئك الجدات اللائى تساقطت أسنانهن » .

واجاب **چورج سامپران** خلال ندوة نظمتها مجلة « كلارتيه » على التساؤلات عن الموقف الماركسى الصحيح تجاه ماضى الحركة المسماة بالستالينية فقال : « ان ثمة سبباً رئيساً تجاه الموقف هو ادراكنا لمسئوليتنا أو لمسئوليتنا المشتركة اذا شئنا تعبيراً أفضل ، ذلك أن الجهل الفعلى أو التجاهل المتعمد لا يغيران شيئاً ولا يبرران شيئاً ، فهناك دائماً وسيلة للمعرفة أو على الأقل للتساؤل . اننا مسئولون مسئولية مشتركة ـ حتى مع جهلنا الفعلى بالأوضاع ـ لأن هذا الماضى هو ماضينا نحن ، ولا يمكن لأحد أن يغيره . اننا لا نستطيع انكار هذا الماضى ولكننا نستطيع استنكاره ، بمعنى ان علينا ان نتعمق جذوره حتى نقضى على بقاياه ، وحتى نبنى مستقبلا يختلف عنه اختلافا جذرياً » .

« نحن فى حاجة الى أن يكون ادراكنا لمسئوليتنا ادراكا فعالا، وليس ادراكا عقيماً . اننا مسئولون عن هذا الماضى لأننا نقبل مسئولية المستقبل ومسئولية الثورة الاشتراكية على النطاق العالمى . وان قراءة « يوم فى حياة ايفان دينيسوفيتش » مثلا لتحرك فينا احاسيس مماثلة . ذلك أن «سولجينيتسين» يبدأ بتحطيم هذه السذاجة التى كنا نستمتع بها . لقد عدنا من المعسكرات النازية وكنا خيرين ، فى حين نال الأشرار

عقابهم ، وهكذا كان المنطق والعدالة يرافقان خطانا ، ومع ذلك فقد رحل في نفس اللحظة بعض رفاقنا (ولعلنا كنا نعرفهم ولعلنا كنا نقاسمهم تلك الخمسة عشر جراماً من الخبز الأسود) رحلوا لينضموا الى « ايفان دينيسوفيتش » كي يشيدوا في مكان ما في اقصى الشمال مدينة اشتراكية وسط الجليد غير مأهولة الا بأشباح هياكل الاسمنت المسلح . وتلك قصة تبدد كل أنواع البراءة والسذاجة في نظر كل من يحاول ان يحيا حقاً في اطار نظرة ماركسية للعالم . ويبقى بعد ذلك ادراك حاد وكامل للمسئولية التي لا تقتصر على الماضي ، بل تشمل الحاضر والمستقبل أيضاً . واذا كنت قد ضربت مثلاً بحديث « سولجينيتسين » فهذا لا يعني انه الصوت الوحيد ، ذلك أن أصواتاً كثيرة تشاركه بل قد تكون بعيدة الصدى . ان صوت « سولجينيتسين » ليذكرنا بأن الحقيقة ثورية دائماً ، واننا مسئولون عنها أبداً ، وانه لحتم علينا الا يثني هذا الصوت عن التردد ، وعلينا نحن أن نصيح ان سكت هذا الصوت قسراً . وهنا أعود الى « الواقعية الاشتراكية » لا واقعية « سولجينيتسين » ، بل واقعية « چدانوف » الاشتراكية . يجب أن نعيد قراءته حتى نقيس هذا البعد الذي يفصل بيننا وبين انفسنا ، والذي يفصل الماركسية عن الماركسية، يفصل حقيقتها الثورية النقدية عن تجسيدها البيروقراطي . لقد ساد نوع من العلاقات بين السلطة الحاكمة والأدب السوفيتي خلال العشرين عاماً التي بدأت بمؤتمر السوفييت الأول في اغسطس ١٩٣٤ والذي أنهى فترة البحث والجدل الثقافي في الاتحاد السوفيتي ، واستن منهجاً في التوجيه الاداري للثقافة عن طريق القرارات والقوانين، اذ تقرر ـ على حد تعبير چدانوف عام ١٩٤٦ ـ « وضع الجبهة الأيديولوجية في صف واحد مع جميع قطاعات عملنا الاخرى » . وبالتالي كانت ثمة مصادرة لكل جدل ثقافي ، ولكل احتمال للمعارضة،ولكل صراعايديولوجي » .

ويستطرد سامپران قائلاً : « ليس من المتصور أن يكون الفضل في نشر كتاب مثل « يوم في حياة ايفان دينيسوفيتش » راجعاً الى موقف حميد اتخذه احد القادة السوفييت فلا شك في أن نشره جاء نتيجة تلقائية لتطور الحياة الثقافية السوفيتية كلها . وقد اصبح من المستحيل ان ترضى نفوسنا بمجرد تصحيح الأوضاع الجائرة التي سادت في الماضي ، او نتقبل الاستبداد الواعي ـ سواء زاد هذا الوعي او قل تبعاً لاتجاه الزعماء الحاكمين ـ فان المجتمع الاشتراكي الذي تتزايد رقعته في حاجة الى غير ذلك كله » .

ولقد عارض **جرامشي** (١) في احد مقالاته التي كتبها في السجن الفكرة التي تعد الفن عنصراً من عناصر البناء الأيديولوجي واداة من ادوات النفعية بقوله : « ان رجل السياسة يمارس عادة ضغطاً شديداً من أجل أن يعبر في عصره عن عالم ثقافي بعينه ويدخل هذا النوع من النشاط ضمن اطار النشاط السياسي لا النقد الفني ، فلو كان العالم الثقافي الذي نكافح في سبيله ، حقيقة حية وضرورية ، لازدادت رقعته دون ضغط ، ولعثر على فنانيه الذين يعبرون عنه . اما اذا حدث العكس فمعنى هذا أن كتاباً وفنانين تافهين سيخطون على الورق وينقشون على اللوحات صورة عالم ثقافي زائف مختلف . . . » (٢) .

●●●

---

(١) جرامشي مفكر شيوعي ايطالي وكان سكرتيراً عاماًللحزب الشيوعي الايطالي قبل تولياتي .

(٢) القى جورج سامپران هذا الحديث خلال الندوةالتي نظمتها مجلة « كلارتيه » لمناقشة موضوع « فيم يستخدم الأدب ؟ » .

واقعية بلا قيود

كذلك وقف كثير من الماركسيين الاوروبيين وراء هذا الاتجاه المتحرر المعادى للواقعية الاشتراكية وكان **لوى اراجون** الشاعر الفرنسى احد هؤلاء الادباء الذين أعلنوا فى شجاعة تحملهم للمسئولية ، فدافع عن قيام وجهات نظر مختلفة داخل اطار مفهوم فكرى عام سائد فى دولة ما خلال عصر معين، وأعلن انتهاء التطبيق العقائدى الجامد فى مجالات العلم والتاريخ والنقد الأدبى ، وانتهاء عصر تقديس النصوص التى كانت تستخدم فى تكميم الأفواه ، مثل راى **انجلز** فى **بلزاك** الذى كان يستغل فى تحطيم غيره من الادباء .

وقد تمسك **اراجون** بواقعية فى الفن لاتعرف الحدود ولا القيود فقال : « ما اكثر ما تؤدى كلمة « الواقعية » الى خلط بين المعانى ، بل ان بعض كبار الفنانين يبغضونها رغم أن اعمالهم الواقعية هى التى خلدتهم . وكان هنرى ماتيس — المصور الانطباعى الفرنسى — يقول انه ينطلق من الواقع الذى لايمكنه الاستغناء عنه ، ومع هذا فقد كان يكره التفوه بكلمة الواقعية . وقد يعد البعض كلمة « الواقعية » وصمة عار ، ولكنها بالنسبة لى موقف من الحياة والفن ، بل هى مغزى حياتى وفنى ، ولست انظر اليها على انها ذوق سائد ، كما انى لا أخجل من واقعيتى لأن اعداءها يتهمون ادعياءها بتفاهة انتاجهم . وانا لم أولد واقعياً ، ولم يهبط على وحى بالواقعية ، بل ان خبرة حياتى هى التى جعلت فكرى يتخذ هذا الموقف الذى قد يعرف الناس يوماً كم بذلت فى سبيله .

على أن الزمن قد ساهم فى تصحيح نظرتنا الى بعض الأشياء ، نظرتنا الى العالم الذى كان يصوره **كافكا** والذى كنا نعده انتاج خيال سقيم ، فقد أصبح هذا العالم بمرور الأيام شبيهاً بالعالم الواقعى ، كما أصبحت شخصية البيروقراطى البغيضة فى « مسرحية الحمامات » **لماياكوفسكى** اكثر واقعية وبروزاً اليوم من أيام كتابتها عام ١٩٢٨ ، حتى اصبحت اليوم تستثير البيروقراطيين لأنهم يتعرفون فيها على انفسهم ، وباتوا يهاجمون العمل منكرين واقعيته مطالبين بتحويره وجعله أكثر شاعرية .

ان الرفض الحاسم لكل ماليس واقعياً جمود يضعف الواقعية ويلقى بظلال من الغموض على قضايا مستقبل الفن الأساسية اى قضايا التراث الثقافى ، فكيف نرفض اليوم ما يمكن أن يكون غداً تعبيراً عن الواقع التاريخى بدعوى الحرص على تراث ثقافى متميز للأجيال القادمة . ان تغير نظرة العالم الاشتراكى القديمة « لكافكا » ، يدل على أنه لايمكن الدفاع طويلاً عن موقف ساذج ، كما انه يملؤنا ثقة فى مستقبل الفكر الانسانى » .

ويضع لنا **اراجون** قانوناً جديراً بالتقدير حين يقول :

« يجب أن تناقش قيم الفن بغير اسلوب الحروب الأهلية أو العالمية . حقاً ان نمو الفكر الانسانى والثقافات الوطنية رهن بالمناقشات العنيفة ، غير أن عنف الدولة تجاه الفرد عنف مختلف . سوف يظل الفنانون — واقعيين وغير واقعيين — يتعارضون وينكر بعضهم بعضاً ، فما يمكن أن يقوم التعايش السلمى بين الايديولوجيات ، كما أن التعايش السلمى فى الفن هراء شبيه بمحاولة توحيد الفكرة بالقوة واخضاع الابداع لقوانين جائرة » (٢) .

لقد نشأت القصة الواقعية عن القصة الخيالية بعد تعديلها وحذف كل ما يعوق سرد

---

(٢) مقدمة لوى اراجون لكتاب « واقعية بلا شطآن »لروجيه جارودى .

الأحداث ، ومع ذلك فما زلنا نعد القصة جزءاً من الخيال ، فنحن لا نعاقب المؤلفين على قتل أبطال قصصهم ، لأنها شخصيات لم تتجسد الا فى الخيال . لقد برز الخيال على أنه بطل محرر للقصة من الاطارات الجامدة التى تعوقها باسم الواقع والاشتراكية ، وأصبحت القصة عالماً مختلفاً عن عالم الواقع لا نطبق عليه قوانين الواقع ولا نطالب بأن يكون تسجيلاً له . انه تسجيل لجزء من حلم البشرية الكبير .

وقد قدم « أراجون » مثلاً رائعاً لخروج الكاتب الاشتراكى من اطار الواقعية الاشتراكية ، بل لقد ناقش مسألة الواقعية نفسها فى قصته الأخاذة « أنها الحياة » (٤) فليست الحياة فى نظر « أراجون » واقعية خالصة ، فالخيال يشكل جانباً كبيراً من حياتنا . وليست قصته هذه الا قصة رجل يحيا فى الواقع بقدر ما يحيا فى الخيال ، وما تكاد زوجته المغنية تبدأ فى الغناء حتى يطوف العالم كله وهو فى مكانه ، بل ان زوجته نفسها لاتعامله على أنه ذلك الانسان الذى يحيا أمامها بل تعامل فيه تلك الصورة التى كونتها فى خيالها عنه ، والصورة التى أحبتها منه أو التى أحبت أن تراه فيها . وتظل القصة تنتقل بين الواقع والخيال ، بين الانسان المرئى وبين صورته التى تسكن القلب. والحياة حلم، فساعات اليقظة قصيرة يحيط بها النوم . والانسان كائن مصنوع من نفس النسيج الذى صنعت منه الأحلام ، وكما نصنع نفس أحلامنا فاننا من صنع هذه الأحلام . وكما أن الحلم ضرورى فالكذب ضرورى أيضاً . انه شيمة الانسان ، وليست القصة الا أرقى أشكال الكذب لأن الانسان يستطيع بفضل القصة بلوغ الحقيقة . وما أكثر ما يصنع الكتاب من خيالاتهم واقعاً حين يحاولون خلق اطار للشخصيات التاريخية مثل هاملت أو عطيل ، فيسيطر الخيال على الواقع بدلاً من سيطرة الواقع على الخيال .

ذلك ما فعله « أراجون » فى قصته « انها الحياة » التى اتخذت مادتها من الخيال ، ولم تصبح الأشياء الواقعية والمرئيات بل وحياته هو الا انعكاسات للخيال الذى فقد جانبه المعنوى . ومن اجل هذا سمى « أراجون » القصص بالأحلام المشتركة للبشر ، فما تكاد القصة تنتهى حتى تتلاشى كالحلم وتصبح جزءاً من عالم خيالى لايموت فيه الأبطال من أمثال اوديب وهملت وتريستان ، بل يعودون ثانية فى اطار جديد وتحت أضواء جديدة ويعيشون دائماً فى ذاكرة البشر .

وهكذا يتضح بجلاء ان النظرة التى تقسم الفن الى نوعين (البورجوازى والاشتراكى) تقسيماً حاداً معتسفاً قد عدل عنها فى جميع انحاء العالم تقريباً بما فى ذلك النقاد الماركسيين انفسهم .

● ● ●

مفهومان للفن

وقد كشف الفيلسوف الفرنسى « **روجيه جارودى** » عن وجود مفهومين محددين ومختلفين عند النقاد الماركسين ، أولهما هو المفهوم الجدانوفى الذى ساد فى عصر ستالين وثانيهما هو المفهوم المتحرر الذى ظهر منذ عصر ذوبان الجليد . وقد تبنى المفهوم الأول وعرض دقائقه المفكر المجرى **جورج لوكاتشى** فى كتابيه « نظرية الرواية » و « علم الجمال »، بينما تبنى الآخر وشرح افكاره الأساسية الكاتب النمساوى **ارنست فيشر** فى كتابه « ضرورة الفن » وهما مفهومان مختلفان لطبيعة الفن والنقد ووظيفتهما ولمعايير القيمة النقدية ولعلاقة الفنان بالجماهير .

---

(٤) La Mise à mort.

فيعتبر جدانوف ولوكاتشى الفن مجرد شكل من أشكال المعرفة ، فهو عندهما انعكاس لحقيقة موضوعية معينة من الممكن التعبير عنها بلغة الفكر المجرد ، وهو مفهوم يقلل من شأن الجانب الايجابى للمعرفة ، ويؤدى الى تعريف الواقعية تعريفاً ضيقاً دون ابراز الفكرة الأساسية فى نظرية المعرفة عند « ماركس » وذلك بجعل التجربة مصدراً ومقياساً للمعرفة . **بينما يعد ارنست فيشر الفن أولاً شكلاً من أشكال العمل ،** وهو ما يستدعى وجود معرفة سابقة وما يعنى ابراز مضمون الفن على انه عملية خلق ابداعى لا عملية محاكاة للطبيعة ، وما يجعل مهمة الفنان مهمة انسان يبحث ، لا مربياً يعلم ، مؤكداً أن المادية الجدلية تعطى الأولوية للتجربة على الانعكاس، وتضع المبادرة الخلاقة للانسانفى المكان الأول.

فالعمل الفنى ليس مجرد نسخة من الحقيقة الموضوعية ولا مجرد اسقاط للذات الداخلية ، بل هو تعبير عن علاقة عميقة بين الانسان والعالم ، عن علاقة ايجابية لايفقد فيها الفنان ذاته . والفن اذن بناء وإعادة بناء للواقع الاجتماعى على مستوى انسانى ، وكل عمل فنى هو « نموذج » لهذه العلاقة وتصوير للواقع يعبر عن اسس العلاقات الايجابية بين الانسان والعالم فى لحظة من لحظات التاريخ . ومن هنا أكد « فيشر » الدور الأساسى الذى تلعبه العلاقات الطبقية فى تكوين هذه النماذج لعلاقة الانسان بالعالم ، ونظر الى مدارس الفن المختلفة التى سادت الغرب على أنها ردود فعل مختلفة من الفنانين حيال العالم الراسمالى الذى تجرد من المضمون الانسانى، كما أنها تعبير عن افتقاد هذا المغزى الانسانى واحتجاج عليه بدرجات متفاوتة .

على ان اختلاف المفهومين لطبيعة الفن يؤدى الى اختلاف فى تقدير وظيفته أيضاً ، فالمفهوم الذى يجعل من الفن مجرد شكل من اشكال المعرفة يقيس قيمة الفن بالمعايير نفسها التى تستخدم فى تقويم المعرفة **وأولها : « الشمول » ،** فالعمل الفنى الأهم هو الذى يعبر عن الحقيقة فى شكلها الشامل ، ومن هنا كانت اعمال **بلزاك** نموذجاً للواقعية لأنها ترسم لوحة متكاملة للمجتمع الذى عاش فيه ، بينما طرد **كافكا** من حرم الواقعية لأنه عبر فى رواياته « كالقلعة » و « المحاكمة » عن جانب جزئى من الحقيقة رغم أنه كان جانباً أساسياً وهاماً، وهو السر الذى جعل **لوكاتشى** يأخذ من «كافكا» موقفاً سلبيا حين قارنه بتوماس مان فى كتابه « مغزى الواقعية النقدية » .

اما اصحاب المفهوم الآخر الذى يعد الفن شكلاً من أشكال العمل ، فلا يتخذون من الشمول مقياساً ، فراى ارنست فيشر أن كافكا وبرخت يصوران عالماً ذا مغزى ، وأن كل مابينهما من فارق هو أن برخت يرى ملامح المستقبل بينما لايتعدى كافكا حدود الانسلاخ عن المجتمع القائم والاحتجاج عليه .

ويتمثل مفهوم « فيشر » عن الفن على انه شكل من أشكال العمل يصل الى تحديد موقف جديد من علاقة الفنان بالجماهير دون عبادة العفوية الغريبة عن الفكر الاشتراكى بدعوى ضرورة اضفاء الطابع الشعبى على الفن ، مستأنساً برأى **برخت** الذى يقول « ان المقياس الحقيقى لاحترامنا للمشاهدين هو عدم الاقلال من شأن ذكائهم ، فليس احترام الجمهور فى ارضاء مشاعره البدائية » .

غير ان اعتبار الفن مجرد شكل من أشكال المعرفة يقصر وظيفته التربوية على مجرد التعليم المباشر ، لهو مما يقيد انطلاقة الابداع والخلق ، ويؤكد مفهوماً للنقد يتخذ من ارتباط العمل الفنى بالأهداف العاجلة للقوى التقدمية معياراً لقيمته ، حتى بات النقاد يتهمون كل فنان لا يرتبط بهذه الأهداف بالانحطاط .

وقد أوضحنا ضيق النظرة التى تتمسك

« بالبطل الايجابى » الذى يجرى مؤلف القصة على لسانه آراءه المعبرة عن المامه بقوانين تطور المرحلة التى يعيش فيها ، ورأينا مدى ما أحدثته من تخريب فى الأدب السوفيتى . وقد أوضح « برخت » فى جراة أن «البطل السلبى» قد يلفت نظرنا فى القصة أكثر مما يلفته البطل الايجابى ، لأنه يملك النظرة الناقدة . وليس فى هذا انكار لدور الفن التربوى بل هو اعتراف بمستوى خاص يؤدى فيه الفن وظيفته التربوية ، وذلك باستبعاد خلق علاقة مباشرة بين الضرورات السياسية وبين الابداع الفنى ، واعطاء السياسة مضموناً واسعاً هو الاسهام مع قوى التقدم فى بناء انسان الغد . وهذا يحمى الأدب من ضرورة تصوير شعارات المعركة اليومية وابرازها ، ويحوله الى عمل يزيد من وعى الانسان بذاته وبقدرته على تغيير المجتمع وتغيير نفسه ، وهكذا يتحدد دور العمل الفنى لا فى اضفاء المثالية على الحاضر أو المستقبل بل فى تنمية الاحساس لدى الانسان بضرورة تفوقه على نفسه ، ويصبح معيار عظمة العمل الفنى قدرته على التعبير عن العالم الجديد المتفتح ،والذى نحس فيه بوجود الانسان المتفوق على نفسه أياً كانت المرحلة التاريخية ، حتى لو كانت موغلة فى القدم ومختلفة تماماً عن المرحلة التى نعيش فيها ، وهذا هو السر فى أن شخصيتى **بروميثيوس** بكبريائه **وانتيجونا** القائلة : « ولدت ليعمر قلبى بالحب لا بالكراهية » ، تهزان مشاعرنا حتى الآن لأنهما يكشفان داخل المجتمع العبودى القديم الذى يعكسان ظروفه عن عظمة الانسان ونبله وقدرته على التفوق على نفسه ، ويحركان فينا روح التطلع الى مصير أفضل .

ولا شك فى أن هذا المنطق يرفض وضع معيار حاسم يضع الشر فى جانب والخير فى جانب آخر ، ويفصل بين الانحطاط والتقدمية، بين الواقعية والرومانتيكية ، أو بين الواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية . فى حين أن الواقعية الاشتراكية لايمكن لها أن تستغنى عن كونها واقعية نقدية فى الوقت نفسه ، فالانتماء الأصلى الى المفهوم الاشتراكى والى الحركة التاريخية المتجهة نحو الاشتراكية لا يمثل مبرراً لطمس الوظيفة الأساسية للفن التى هى ليست مجرد اشاعة الاطمئنان بقدر ما هى اثارة القلق وايقاظ روح المسئولية تجاهالعالم . يقول برخت : « لا يمكننا أن نصور عالم اليوم لانسان اليوم الا اذا صورناه له على انه قابل للتغيير » .

ويشترك اسلوب « برخت » فى تقديم الصراعات الاجتماعية بشكل مبسط فى قالب أمثلة ، مع اسلوب « كافكا » فى كثير من السمات ، غير ان موقف الكاتبين العظيمين من الحياة يختلف كل الاختلاف ، فموقف « كافكا » هو موقف تردد وحيرة ، فهو يأخذ جانبمن أهين أو أصيب بضر،ضد من يمسكون بأيديهم زمام السلطة ، وهو يناصر الشعب الا انه لا يؤمن بقدرته على تغيير العالم ، فوراء كل أمل جديد يبزغ فى ذهنه يظهر هاجس من الخوف ، ووراء كل اجابة على سؤال يولد تساؤل جديد . على حين أن « برخت » لديه الشجاعة على أن يجيب عن كل التساؤلات ، فمسرحياته الرمزية التى تعكس حالات أو أمثلة معينة هى مؤلفات تعليمية ارشادية ، وهو يؤمن بامكان تغيير العالم لكى يصبح أفضل مما هو عليه واقرب الى المنطق . ولقد أدرك بدوره أن كل اجابة تقودنا الى سؤال جديد ، وأن ليس ثمة شىء فى هذه الدنيا يمكن اعتباره آخر المطاف ، غير انه على خلاف « كافكا » لم يجد فى هذا ما يشل الارادة بل وجد فيه حافزاً على الاستمرار .

وبينا آمن « كافكا » فى وحدته البائسة بأن ليس ثمة بارقة أملفى تطور الانسانية وانطلاقها الى ما هو افضل ، وان هى الا أشياء تتكرر على نفس النسق أبد الآبدين ، آمن « برخت »

بالجديد الذى لابد وأن ينشأ ، وآمن بالتصدى لكافة التحديات (٥) .

وفى رأيى الشخصى أن **پيتر ڤايس** مبدع المسرح التسجيلى نموذج لكاتب يؤمن بقضية الانسان دون ارتباط بمذهب سياسى معين ، فهو يرى أن على الكاتب أن يتخذ موقفاً وان يحس بمسئوليته فى رد العالم الى حالة الاتزان العقلى حين يطغى عليه الجنون ، لأن الفن يمتلك قدرة على تغيير الحياة التى يفقد بدونها هدفه ، ولأن الفنان يستطيع بفضل وعيه المتميز أن يكشف مواطن الضعف فى الواقع لاثارة رغبة التغيير فى نفس المتلقى .

على أن هذا الالتزام من جانب ڤايس ليس الا التزاماً حراً ، فهو لا يثق فى أى نظام من النظم الاجتماعية ، ولا يطلب من الكاتب تقديم حل واضح او اقتراح نظام اجتماعى بديل ، ويبرر ذلك بعدم وضوح المعالم ، ولكنه يؤمن بأن ممارسة الكتابة تمكن الكاتب من أن يكتشف موقفه ويحدد اختياره . وقد انتزع ڤايس من التاريخ والواقع شرائح طبيعية يعيد عرضها على خشبة المسرح فى محاولة لاكتشاف ابعاد أعمق للحاضر الذى نعيشه اليوم، واختار فى وضع حواره لمسرحيته « التحقيق » الاسلوب الشعرى حتى يعلو بالأحداث الواقعية الى مستوى القضايا العامة ، وحتى ينجح الماضى فى القاء الضوء على المستقبل دون ما تحديد غير انارة الطريق . كذلك حققت مسرحية « مارا ــ ساد » نجاحاً عالمياً لأنها نفذت الى أعماق الانسان وناقشت قضية الحرية فى شكليها الفردى والاجتماعى فى حياد يتميز باخلاص ومحاولة النفاذ الى النفوس البشرية . وقد مثلت مسرحيات پيتر ڤايس الألمانى فى شطرى ألمانيا الشرقية والغربية بنفس الحماسة والنجاح .

● ● ●

التقاء التجارب الانسانية

أعترف أننى أطلت الحديث عن التجربة السوڤيتية وقد فعلت ذلك ادراكاً منى لأهميتها، فهى أهم تجربة تنتمى الى العالم الاشتراكى . ولقد اضمحلت الأفكار التى كان أصحابها يربطون الفنون ربطاً أعمى بالأنظمة الاجتماعية والفترات التاريخية ويستبعدون كل استقلال نسبى للفنون والأفكار عن النظم الاجتماعية ، ويعدون هذه مجرد انعكاسات لتلك حتى قالوا بأن الأنظمة المتدهورة لا تسفر الا عن فنون متدهورة . وقد أثبت الاستقراء خطأ هذه الفكرة ، فقد رأينا أعمالاً فنية وفلسفية عظيمة تولد فى أكثر فترات التدهور مثلما تألق فن اشوربانيبال فى فترة اضمحلال ونهاية الامبراطورية الاشورية ، ومثلما ظهرت الانطباعية والتكعيبية والوحشية ولوحات سيزان وڤان جوخ وكتابات كافكا وپول كلوديل فى فترة تدهور الراسمالية وتفكك النظام الاستعمارى فى اوروبا . فالواقع أن تاريخ الفن ليس فى حقيقته تاريخاً للوعى الذاتى بقدر ما هو تاريخ للخلق والابداع الذاتى .

وأنا لا اسلم بوجود حدود فاصلة تقسم الفكر العالمى الى شطرين احدهما رأسمالى والآخر اشتراكى . ذلك أن الفكر والثقافة لا يعرفان الفواصل والحدود ، وليس النظام الاشتراكى السائد اليوم فى شرق اوروبا الا نتاج النظرية المادية الجدلية القائمة على الوعى بالاقتصاد وقوانين تطور التاريخ التى أبدعها مفكر من ابناء البرجوازية الغربية هو كارل ماركس ، الذى عرف بعبقريته كيف يستخلص من الظروف التاريخية التى كانت تعيش فيها برجوازية انانية عقيمة مذهباً يتيح الخلاص من التسلط والعقم ويصل الى شكل آخر أكثر تحرراً وتطوراً . ومعنى هذا أن الماركسية

---

(٥) ارنست فيشر : ضرورة الفن .

ليست فى حقيقتها الا نتاجاً للعالم الذى خلقه الفكر البرجوازى خلال القرن التاسع عشر والا تعبيراً جديداً عن الحضارة الغربية .

وعلى حين لا أعترف بوجود عالمين متعارضين ، الا أننى فى الوقت نفسه لا اسلم بوجود وحدة فكرية ونظرة متشابهة للحياة واتفاق على المسائل الرئيسية بين مفكرى الرأسمالية والاشتراكية ، وانما ارى ان هناك شطرين متقابلين يتكاملان فى « تركيب موحد » على وفق منطق **هيجل** استاذ ماركس . ويحسن أن نقول ان هناك اتجاهين لا عالمين ، فنحن نجد الاتجاه الماركسى والاتجاه البرجوازى فى كل من الشرق والغرب ، ولم يعد ممكناً أن نرى انساناً ذا نظرة برجوازية خالصة ، لأن الماركسية تركت اثرها فى الفكر البرجوازى ، حتى أننا نجد فى الغرب شخصيات كبرى تعيش لأهداف تقدمية خالصة . واذا كانت قد بقيت فى الغرب شخصيات تقليدية فى فنها وفكرها فقد بقى مثيلها فى كل بلاد العالم .

وليس الهدف من وراء اية دراسة للعمل الفنى ــ كما يقول روجيه جارودى فى كتابه « ماركسية القرن العشرين » ــ الزام الفنان بالتعبير فى أعماله عن حقائق ثابتة واخلاقيات مقدسة ، بل دعوة الفنان الى المشاركة فى بناء مستقبل الانسان ابتداء من الوعى الذكى بقوانين التطور التاريخى فى عصرنا ، ومن الوعى الحاد بمسئوليته الشخصية حيال ذلك التطور . وليست توعية الفنان بذلك الا معاونة له على أداء دوره الذى يتلخص فى ايقاظ وعى الناس سواء كانوا من الناس العاديين أو من الفنانين الخلاقين المبدعين .

ان ادراك الانسان لقدرته على الخلق ، يعطى للزمن عنده دلالة وايقاعاً جديدين ، ويصبح للطبيعة زمنها الذى يقاس بالتغيرات التى تجرى فى المادة ، على حين يصبح للانسان زمنه الذى يقاس بابداعاته بوصفه كائناً يغير الطبيعة ويغير نفسه بتغييره للطبيعة ، وبذلك يغدو كائناً مختلفاً عن الحيوانات الاخرى التى يقف عملها عند حد التأقلم مع الطبيعة والتكيف بقوانينها .

يقيناً ان الانسان لا يتخذ قراراته ولا ينشىء ابداعاته بشكل تعسفى طليق خاضع تماماً لهواه ، فأعمال الانسان وابداعاته مرهونة بالتراث الانسانى السابق كله ، وهو ما لا يعنى كذلك أن الانسان ليس الا حلقة بين الماضى والحاضر وحسب ، بل انه يأخذ من الماضى زاده ويصدر فى الحاضر حكمه متحملاً مسئوليته امام الأحداث مؤمناً بأن قراراته ليست ثماراً لنبت الماضى وحسب ، بل مؤمناً بقدرته على خلق مستقبل جديد بكل ما يحققه من امكانيات جديدة ، وبفضل تميزه عن المواد الخامدة الخاضعة لقواعد علوم الأحياء والطبيعة والفلك ، ذلك أن حياة الانسان ليست حياة بيولوجية وحسب ، بل انها تتحول الى حدث تاريخى حينما يصنعها الانسان من القرارات الحرة والابداعات الخلاقة . والعمل الانسانى ــ على نقيض ما يجرى فى الأشياء المادية ــ هو عمل يسبقه وعى بالهدف وتنسيق لمشروع يضع الانسان بنفسه قوانينه ، واعظم عمل تتجلى فيه انسانية الانسان هو العمل الفنى ، لأن الانسان لا يقدم عليه الا اذا اتخذ قراراً مؤكداً به ذاته كخالق مبدع .

ان حرية الانسان الوحيدة الباقية هى حرية الابداع ، وهى الحرية التى يملكها الفنان والأديب والشاعر . ومن هنا كانت هذه الحرية دعامة المستقبل الجديرة بالمحافظة عليها . فلو لم يبق الا الرجال الذين يخضعون فى سلوكهم لمتطلبات التطور الآلى لرجعنا الى الوراء وهبطنا من مرحلة الحرية والمسئولية الانسانية الى عقم الآلة وعدم مسئوليتها ، وانه لهبوط يعوق تطور الحياة . غير أن الفنانين والادباء يقومون بمهمتهم فى دفع حركة التطور ، وان كانوا يدفعونها بطريقة متطرفة فى بعض

الأحيان . ولعل تطرف الفن الحديث اليوم هو تعبير عن ضراوة الصراع ضد التخلف الذى يفرضه العصر الآلى فى مجال الحرية الانسانية . والحقيقة التى ينبغى ان يؤمن بها الجميع هى ان حرية الابداع ليست حق الكتاب والمفكرين والفنانين فقط بل هى واجبهم ايضاً ، لأنها وظيفتهم فى المجتمع . ولهذا لا يجوز أن نضحى بالفنان لأن رسالته هى الابقاء على شعلة الحرية فى مواجهة متطلبات التقدم .

فالحرية فى واقع الأمر هى هدف الحياة الانسانية وذروة انتصار الانسان ، وان تتبع ظهور الحياة على الأرض وخطوات تطورها ليكشف عن انها ليست الا نزوعاً متصلاً نحو الحرية . فالجماد لا يتشكل ولا يتحرك ولا يتغذى ، ومن ثم فلا معنى للحديث عن الحرية حين يعرض ذكره . أما النبات فهو فى حركة ميكانيكية ذاتية لا ينتقل من مكان الى آخر ، ولا ينطوى على غرائز أو مركز عصبى ، بخلاف الحيوان الذى يضم تكوينه كل هذه التعقيدات الخلقية ، ويملك قدراً ضئيلاً من الحريةتتمثل فى قدرته على الحركة ، والانتقال من مكان الى آخر غير مقيد بالأرض ، والاستجابة لغرائزه بحيث يمكنه ان يظفر بمكان تقل فيه الأخطار أو تزداد فيه فرص الاستقرار ، أو بأليف يأنس اليه ويختاران مكاناً صالحاً لانجاب النسل ورعايته حتى يشتد عوده وينطلق فى الحياة . ولن نعرض هنا لمدارج التطور بالنسبة للنبات أو الحيوان ، فليس هذا هو مجال بحثنا ، وانما نتكلم عن الحرية ومدى تمتع الكائنات بقدر منها ، فالانسان وهو أرقى أشكال الحياة على الأرض هو الكائن الوحيد الذى ازداد رقيهخلالالسنين فيزيائياً ونفسياً وعقلياً ، حتى بلغ مرحلة حرية الاختيار ، حرية اختيار القيم والعقائد والسلوك ، التى تجلت أحسن ما تكون فى ابداعه للأعمال الفنية التى لم يقصد من ورائها — حين اكتشف ميله اليها أول الأمر — نقصاً ذاتياً وانما تأكيداً لحريته . لقد حركت الحرية ميل الانسان الى الخلق والابداع ، فأثرى عالمه بما أبدعته يداه مستخدماً فى خلقه فكره ويديه والخامات المتاحة له على الأرض . ان ما أبدعه الانسان من فنون على مر التاريخ كان عنصراً هاماً ، وركيزة أساسية فى ارتقاء البشرية . ولا نشك لحظة فى انه لولا وجود الانسان على الأرض ، لبقى كل شىء فى هذا الوجود خاملاً هامداً على صورته الاولى .

ونحن اذا تتبعنا تطور الفنون على مر العصور ، لكشف لنا ذلك عن اتجاه الانسان نحو تحقيق مزيد من الحرية ، وان كبار الفنانين كانوا أكثر حرية من غيرهم . وقد اكدت الحياة عظمة هؤلاء الفنانين بتخليد اعمالهم فى ذاكرة البشرية ، وتميزت اعمالهم التى سميناها بالروائع وأصبحت الأعمال الاخرى بمثابة التربة التى نمت عليها هذه الروائع .

وليس الفنان فى الواقع الا تجسيداً للحرية والابداع اللذين جعلاه يظفر دائماً باحترام المجتمع على أنه يمثل الطليعة الخلاقة ، وليست مهمته الاولى الا تأكيد حق الانسان فى الحرية .

●●●

حرية الفنان وتأثير العصر

ولكن هل يمكن أن يكون الفنان حراً وهو فى الوقت نفسه ابن عصره ؟ يقول **رينيه ويج** فيلسوف علم الجمال فى تحليله للفن الحديث « هناك قوانين تلقى الضوء على عصرنا نلحظها وراء أعمال الفن التجريدىوالسيريالى ، ووراء ذلك الصراع الذى يقوم به الفنان أحياناً ضد هذه القوانين دون أن يعى سر صراعه ولا شكله . والحقيقة أن عالم الشعر والفن يختلف عن عالمى السياسة والعلم . والأمر الذى يميز بين هذين العالمين هو أن الفنانين والشعراء والكتاب يملكون القدرة على الابداع

وتأكيد التقدم الانسانى عن طريق خلق أشياء جديدة ، وليس بوسع الانسان خلق أشياء جميلةوجديدة الا اذا كانصاحب عقل وذوق.

واذا كان رجل العلم يشرح الأشياء الموجودة ويعمل على تطوير قدراتنا المادية ، فان رجل السياسة يخطو خطوة اكثر رقياً لأنه يقوم ـ بجانب دراسته للأشياء الموجودة ـ بدراسة الأشياء التى يجب ان توجد ، وبمحاولة تعديل البناء الاجتماعى لضمان تطور المجتمع وتقدم الانسانية ، فى حين أن الشاعر لا يفكر بطريقة السياسى بل ينصت الى صوت الغرائز الدفينة فى أعماق الانسان والتى تنزع الى الحرية ، وهو ما يفرض عليه أن يتجاهل المذاهب القائمة كلها لأنها تربطه بالحاضر مع انه رجل المستقبل . والفنان كالشاعر متنبىء يرى الغد وان لم يعرف ما يرى ، مشغول بغرائز الحياة البيولوجية والعقلية يكشفها للآخرين دون أن يفهمها احياناً . ولهذا فان علينا ان نترك رجل العلم يدرس العالم المادى والبيولوجى ، وأن نكل الى رجل السياسة تنظيم المجتمع بكل ما يملك من صفاء ومرونة ، وازاحة ما يعترض تقدم الانسان من عقبات الانانية والاستغلال . وان نترك الفنان يتنبأ كالعرّاف ، وينهض برسالة يصعب أحياناً فهمها وان حققها المستقبل الذى يولد مع انفعالات الفنان وافكاره. فلو انا خنقناانفعالات الفنان العظيمة داخل اطار الأفكار الشائعة فى عصره لضحينا بالمستقبل من أجل الحاضر ، فالمستقبل لا يطل الا عبر الأبواب المفتوحة .

يعمل السياسى والعالم فى حقل الحاضر ويعدان للمستقبل ، على حين يغمض الشاعر عينيه عما حوله لينصت الى صوت الحياة المتدفقة فى اعماق الانسان . فلندع له الحرية كاملة فى الانصات والابداع، ولنحاول أننصغى بدورنا لهمساته وأن نفهم ما يقول » .

ومن هنا نرى أن الفنان الحقيقى هو الفنان الحر ، فاذا سخرت الدولة الفنان لأهداف عاجلة فانها تكون بذلك قد قدمتثروتهاكلها للحاضر معرضةمستقبلها للخطر الداهم . اما اذا ترك الشعراء والفنانون احراراً يتحدثون بلغتهم الخاصة على هواهم فانهم يعينون المجتمع على رؤية آفاق أبعد ويقدمون مساهمة كبرى ، وهى المساهمة التى ينبغى أن تنبع من نفوسهم دون ضغط أو توجيه . والدولة الحكيمة هى التى تتيح للفنان فرصة التفاعل مع مشاكل مجتمعه مطلقة له حرية الابداع والتعبير .

وقد كتب **بوسيه** يقول « يُنتزع المختار من بين كتل الجماهير كى يقودها ، كما تنبثق الأشجار راسية من الأرض الافقية ، ويموت الفنان الذى لا تنغرس جذوره وسط الجماهير كما تموت الشجرة التى لا تنغرس جذورها فى اعماق الأرض . فالفنان الحق لا يحيا الا بوساطة الجماهير ، والفنان الذى لا يعبر عن مواطنيه فنان زائف . ثم ان دور الفنان الأساسى هو الارتقاء بالناس » .

ان طريقة رؤية الفنان مختلفة عن رؤية غيره ، فهو لا يتعامل مع الفكر الواضح كما يتعامل السياسى والعالم ، وانما يتعامل مع مشاعر وأحاسيس غامضة ، ومن هنا كانت رؤيته أكثر غموضاً واقل خضوعاً لميكانيكية الحياة العملية ، غير انه يستطيع مع ذلك ان يرى أشياء لم تتحدد بعد تماماً لأنه يستشعر كثيراً من الأشياء بحسه قبل عقله .

ويؤكد تطور الفن التصاق الفنان الدائم بالحياة المعاصرة وتعبيره عن عصره ، حتى حينما يأخذ موقفاً معارضاً له ، غير أن الفنان العادى هو الذى يلتحم بعصره بطريقة مباشرة، فى حين أن الفنان العظيم هو الذى يسبق عصره ، فان رهافة حس الفنان تجعله يفهم مغاليق عصره من مجرد لمحة تومض لناظريه .

ولقد كان ايمانى بحرية الفنان المطبوع واثرها على تنمية مواهبه هو الركيزة التى

اقمت عليها نظام « تفرغ الفنانين والادباء » وطبقته فى وزارة الثقافة المصرية منذ عام ١٩٥٩ * وهو نظام يحرر الفنان من ربقة الحاجة والسعى وراء مطالب الحياة اليومية ليتفرغ الى ابداعه وخلقه . وتتلخص اهدافه فى مساعدة ذوى المواهب الناشئة فى الفن والأدب على استكمال تكوينهم الفنى والأدبى ، وتمكين المتازين من الفنانين والادباء من الانتاج والابداع ، بعيداً عن العوائق المادية والاجتماعية التى قد تعترض طريقهم وتحد من انتاجهم ، ورعاية رواد الفكر والثقافة على المضى فى طريق الخلق والابداع والابتكار وذلك دون تدخل من جانب الدولة أو فرض . ولقد اسفرت تلك التجربة الرائدة خلال سنوات قليلة عن تفرغ ثلاثة وثمانين فناناً تشكيلياً واربعة موسيقيين واربعين كاتباً ، واثنين من العاملين فى السينما ، أبدع بعضهم أعمالاً تستحق الاهتمام محلياً وعالمياً ، دون أن يكلفوا الدولة الا ميزانية ضئيلة لا تتناسب مع ما عاد على الفنانين انفسهم وعلى مصر من كسب فنى جدير بالتقدير .

ولقد اكدت تلك التجربة ان الفنان الحق ليس فى حاجة الى أن نوجه فكره أو أن نلقنه احدى العقائد ، فهو ينتمى الى عصره ويعيش فيه بحسه المرهف وبصيرته النافذة وكلما غاص فى أعماق الناس أحس بالجماعية الانسانية وانتقلت الى قلبه نبضات الآخرين .

●●●

الفنان والتراث

وينبعث القلق الذى يعانيه الفن اليوم من عجز عصرنا عن مده بروحانية واسلوب ، على غرار ما فعلت العصور السابقة كالعصر الفرعونى ، فما يقدم عصرنا للفنان سوى الكثير من التقدم الآلى ، والكثير من وعود الرفاهية والرخاء المادى ، ولو خرج عصرنا عن شواغله المادية والاقتصادية وعن العلم الفيزيائى الى حياة الانسان الداخلية وغرائزه الدفينة التى تنشد الحرية ، وقدم للفنان معانى روحية لأصبح من حقه توجيه الفنان ومطالبته باخذ موقف أكثر وضوحاً وانتظاماً ، أما استخدام الفنان لغير أهداف الفن الخالصة ، فهو تشويه لعمل الفنان . ان عصرنا لا يملك ما يعلمه للفنان فى حين ما يزال الفنان يملك كثيراً مما يعلمه للعصر .

ان عيب عصرنا هو واقعيته وكبرياؤه . لقد دفعه نجاحه المادى الى أن يتوهم أن الماضى قد انتهى وفقد قيمته ، وانه يستطيع الانفصال عنه ، فى حين أن الماضى هو المنبع الأصيل للفن التشكيلى ، كما تشهد بذلك ابتكاراته المعمارية التى بقيت نماذج راسخة حتى اليوم ، كما أنه منبت التراث الثقافى بأديانه وفلسفاته التى اندثرت وما يزال العالم يشع رغم اندثارها برسالة روحانية ، وهو ما يكشف عن أهمية التزود بعظمة الماضى الباقية فى روائعه الفنية والفكرية التى تعيننا على ادراك معانى الأشكال والروحانيات حين نرى كيف عاش البشر دائماً بالروحانيات والماديات معاً . فالتزود بالماضى شرط لا بد منه لخلق الجديد الذى ترتبط به الجماعة . انه عنصر الاستمرار الضرورى ، وليست العودة اليه الا ضماناً لتحريك وعى الانسان فى العصر الحديث نحو الاحساس بالقيمة الشكلية وبالقيمة الروحية ، ولتعويض النقص الروحى الذى يعانيه عصرنا الغارق فى الانجازات المادية بالكشف عما قدمه العصر الماضى للفنانين .

ان مصر التى تكد اليوم للحاق بركب الحضارة فى انجازاته المادية والعلمية كانت فى سالف زمانها منبعاً للثقافة العالمية ، وهى التى

* انظر كتاب « نحو انطلاق ثقافى » ، دار الكاتب العربى ٦٨/٦٧ ، وكتاب « السياسة الثقافية » ، دار الكتب ١٩٦٩ .

ابتكرت الفن المصرى الـذى انبثق منـه الفن الاغريقى فانجب بدوره الفن الرومانى باعث الفن الاوربى الحديث . ولولا ظهـور الروائع الفنية فى الاسرة الثالثة والرابعة المصريـة من عمـارة ونحت ونقش والمعادلـة لروائع الفن الافريقى ما ظهر الفن الاغريقى نفسه على هذا النحو من الجمال والابداع . وهكذا يمكن ان نقول ان بعض فنون الغرب ولدت على أرض مصر قبل أن تولد فى اليونان بألفين وخمسمائة عام . لقد سبقت مصر العالم فى خلق الجمال الفنى والروحى والذى ما يزال باقياً فى هذا التراث الهائل الذى يعود الى خمسـة آلاف عـام .

ان علاقة الفنان بتراث الماضى العظيم ينبغى أن تأخذ نفس الشكل الـذى تأخذه عـلاقته بالحاضر ، بمعنى أن يتاح له العيش فى الماضى وفى الحاضر دون أن يفرض عليه هذا ولا ذاك . فالفنان فى غير حاجـة الى محاكاة المأثـورات الشعبية « الفولكلورية » ، كما انـه ليس فى حاجة الى اخـذ دروس فى العقيدة المعاصرة ، وحسب الفنان أن يحمل أنفاس العصر وروح الماضى فى أعمـاق وجـدانه وفى حيـاته وفى حساسيته .

على أننا يجب أن نميز بين ابداع الفنـان وانتاج الحرفى ، فالحرفى هو الذى يعمل على الابقاء على الآثار الفنية الشـعبية القديمـة باخراج نماذج دقيقة التقليد لها ، وذلك انتاج حرفى لا خلق فنى ، وهو عمل يجب المحافظة عليه بالابقاء على الحرفى بنفس صورته القائمة دون تحويله الى فنان مبدع ذى أهداف جمالية أو الى صانع آلى يستخدم المصـانع الكبرى فى انتـاج النماذج المتماثلة بأعداد كبرى خدمة للسائحين ، ففى كلا الحالين لا يصبح الحرفى فناناً ، فى حين أن الفنان ينظر الى الآثار الفنية الشعبية القديمة والمعاصرة على أنها جزء من ثقافته التى تتضمن عديداً من العناصر الشعبية والرفيعة ، ومن ثم تبرز الثقافة الفرعونيـة والقبطية والاسلامية فى مصر على سبيل المثال مصدراً هاماً يعين على تجدد الفن الحديث . واذا كانت منابع الفن الفرعـونى الروحيـة والدينية والاجتماعية قد اندثرت بينما بقيت الطبيعة المحيطة ثابتة نشهدها اليوم كما كان اسلافنا يشـهدونها بالأمس ، فان الطبيعة لا يمكن أن تكون شيئاً سـوى مصـدر الهام ، شأنها شأن آثار الماضى ومشـاكل الحاضر يستوحيها الفنان مع احتفاظه بحريته الكاملة فى الابداع والتأمل ، فلا ينقل الطبيعة وكأنهـا وثيقة واقعية بل يختار من الطبيعة ما يحسه ويؤثر فيـه ويهمـه . ومعنى هذا أن تزداد واقعيته أو تقل حسب احتياجاته الداخلية ، وهو قدر تحدده له حريته المطلقة .

ان الحريـة الحقيقية هى حـرية الابداع والخلق ، فلا يمكن أن يكون هناك أدب صادق ولا فن حقيقى الا فى ظل الحـرية بكل أبعادها الانسانية الحقيقية . اننا كما نحارب من أجل خلق المجتمع الجديد فانما نحارب بنفس القدر من أجل خلق الانسـان العـربى الحضـارى الجديد . فالبحـث عن الحقيقة هـو بحـث جماعى لا يتم الا خـلال العمـل والمقارنات والمحاولات والأخطاء كذلك . وانفعالات الفنانين والادباء التى تمثل حـوافز الادبـاء هى التى تنبثق فى المشاركة الجماعية من خـلال العمل المتصل والمناقشات الجادة والتجارب والنقد الذاتى . وفى المعارك الثقافية تسـنح للفنان لحظة يواجه فيها نفسه ، ويوجه اليها بعض الأسئلة ، ويحاول الاجابة عليها جهد طاقته ، وهى لحظة تضع الفنان الصادق أمام مشـكلة الانسانية وتجعله يحس بمسئوليته كانسـان قبل كل شيء .

واذا كان من واجبنا ان نفسـح الحريـة الكاملةفى اطار النفع الذى يعود على الانسانية، فان علينا أن نميز بين الأشكال المختلفة للتعبير عن الفكر التقدمى وبين الأشكال المعادية لتقدم الانسان وكبريائه وكرامته . وهذا يعنى أننا

نحمل مسئولية جادة وصعبة فى مراقبة سلوك الصراع الثقافى وتطوره ، واننا لا نقبل كل شيء ، بل نناقش ونتيح حرية النقاش،متخذين من الفكر سلاحاً يكشف جميع جوانب المعركة دون فزع من كل خروج علىالأفكار التقليدية . فاننا نؤمن أن قارب الحرية والتقدم هو وسيلة الانقاذ الوحيدة وسط هذا الصراع الدائر حول الفن الانسانى والذى يستطيع أن يمضى بنا الى الشواطىء الخصبة التى ينمو فيها فن جديد مرتبط أوثق ارتباط بالانسان الحديث ومشاكل حياته ، فهدفنا الأول والأخير هو الدفاع عن الانسان .

ولا أجد ما أختم به هذا المقال ، خيراً مما تحدثت به فى مؤتمر وزراء الثقافة بمدينة البندقية عام ١٩٧٠ حين قلت « انى أؤمن بأهمية دور الفنانين والمبدعين ، وقيمة مشاركتهم فى التخطيط الاجتماعى فى بلادهم بوصفهم اقدر الناس على اشاعة الجمال فى الحياة ، وانهم الطلائع بالنسبة للعلماء يسبقونهم دائماً باستشراف احلام المستقبل فى أعمالهم الفنية والأدبية ، كما حدث حتى فى مغامرة غزو الفضاء التى بدأها الفنانون تخيلاً وتصويراً وحققها العلماء انجازاً وتسجيلاً » . وقد خرجت من المؤتمر ينبض فى قلبى أمل فى مستقبل أكثر اشراقاً للانسان وترن فى إذنى كلمات مدير عام اليونسكو السيد **رينيه ماهو** التى اختتم بها أعمال المؤتمر حين قال « ان واجب الانسان هو أن يقيم بستاناً فى حقل الطبيعة الرحب » .

★ ★ ★

المراجع

LISTE DES REFERENCES

ARAGON, L. : " **La Mise à Mort** ". N.R.F., Gallimard, Paris 1965.

ARAGON, L. : " **L'Homme Communiste** ". Gallimard. Paris 1950.

ARAGON, L. : " **La Culture et Les Hommes** ", Editions Sociales, Paris 1947.

CANADY, J. : " **Art in The Soviet** ", Review of a Paradox. **New York Times** 20/9/63.

CONQUEST, R. : " **The Pasternak Affair : Courage of Genius** ". Lippincott. New York, 1962.

DU BOURGUET, P. : " **L'Egypte** ". Etude tirée du Dictionaire de Spiritulalité, Cols 504, 511, 515.

FISHER, E. : " **The Necessity of Art** ". A Pelican original, London, 196‹

GARAUDY, R. : " **Marxisme du 20e Siécle.** „ La Palatine, Paris-Genève.

GARAUDY, R. : " **Un Réalisme Sans Rivages** ". Plan, Paris 1963.

HUXLEY, A. : " **On Art and Artists** ". Harper and brothers. New York 1960.

HUYGHE, R. : " **Dialogue avec Le Visible** ". Flammarion, Paris 1966.

HUGHE, R. : " **Colloque Improvisé** ", **Association France-Egypte** (**inédit**) 1967.

KYWIN, M. : " **Problems of Communism** " Vol. XIII. **The Literary Arena 1964.**

PASTERNAK, B. : " **I Remember** ", **Sketch for an Autobiography.** Pantheon 1959.

PIPES, R. : " **The Russian Intelligentsia** " Columbia University Press. New York, 1961.

SIMMONS, E. : " **Through the glass of Soviet Literature** ". Columbia Paperback. New York and London 1961.

SLONIM, Marc : " **Soviet Russian Literature** ". Oxford University Press, New York 1967.

TRETZ, A. : " **On Socialist Realism** ". 1966.

★ ★ ★

الشعر الجاهلى
نشأته وتطوره

الدكتور يوسف خُليف *

(١)

ليس من اليسير أن نحدد بداية العصر الجاهلى الأدبى بصورة يقينية ، وذلك لأن الحديث عن الأوليات فى المجالات الأدبية والفنية لا يمكن أن يصل الى درجة اليقين ، وانما كل ما نستطيع أن نطمئن اليه هو ذلك التحديد التقريبى الذى ذهب اليه **الجاحظ** حين قال : « أما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة .. فاذا استظهرنا الشعر وجدنا له الى أن جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام ، واذا

---

* الدكتور يوسف خليف استاذ الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة القاهرة حاليا وبجامعة الكويت من سنة ١٩٦٨ الى ١٩٧١ ، يتجه اهتمامه الأساسى الى دراسة الأدب العربى القديم ، وله فيه طائفة من الدراسات أشهرها « الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى » و « ذو الرمة شاعر الحب والصحراء » و « حياة الشعر فى الكوفة الى نهاية القرن الثانى للهجرة » . وله ديوان شعر مطبوع بعنوان « نداء القمم » .

استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام (١) » . أما ما قبل هذا التاريخ فليس بين أيدينا عنه وثائق يقينية تثبت شيئاً عن الحياة الأدبية فى الجزيرة العربية ، وانما هى مجموعة من الأساطير أو من الأخبار والنصوص التى يحيط بها الشك والاتهام ، ولا شيء أكثر من ذلك (٢) . أما ما يحاوله بعض الباحثين المحدثين (٣) من اثبات أن ميلاد الشعر العربى سبق انفجار سيل العرم قبل الميلاد بنحو قرن ، وأن هذا يرجع بميلاد هذا الشعر الى أكثر من سبعة قرون قبل الاسلام ، فضرب من الوهم يعوزه الدليل الصحيح ، ولا تؤيده النصوص المتهمة التى يعتمد عليها .

ومعنى هذا أن العصر الجاهلى الأدبى يبدأ ـ كما لاحظ الجاحظ بحق ـ قبل الاسلام بقرن ونصف قرن ، أو ـ على أبعد تقدير ـ بقرنين من الزمان . وهو تاريخ يعود بنا الى حدث ضخم شهدته الجزيرة العربية فى هذه الفترة من تاريخها ، وكان له أثر بعيد المدى فى حياتها الاجتماعية وحياتها الأدبية جميعاً ، وهو حرب البسوس التى دارت رحاها فى أواخر القرن الخامس الميلادى وأوائل السادس بين قبيلتى بكر وتغلب ، والتى استمرت ـ فيما يقال ـ أربعين سنة (٤) . وفى أغلب الظن أن هذه الحرب هى التى شهدت الأولية الناضجة للشعر الجاهلى ، فقد أظهرت جماعة من الشعراء نهضوا بفن الشعر نهضة قوية اخرجته من الدوائر الشعبية التى كان يدور فيها الى الدائرة الرسمية حيث نرى القصيدة العربية فى صورتها الناضجة تسيطر عليها مجموعة من التقاليد الفنية الثابتة ، وتتحكم فيها طائفة من القوانين المحكمة الدقيقة ، حققها لها شعراء هذه المرحلة من تاريخ الجزيرة العربية . ومعروف أن **المهلهل بن ربيعة** بطل هذه الحرب الذى شهدها من بدايتها حتى نهايتها هو الرائد الأول الذى أعطى القصيدة العربية صورتها المعروفة وشكلها التقليدى ، واخرجها من نطاق المقطوعة أو الأبيات المحدودة العدد الى نطاق القصيدة الطويلة ، وهى زيادة اضفت عليه لقبه الذى عرف به (٥) .

وحقاً كانت القصيدة العربية التى ظهرت أيام حرب البسوس قصيدة مكتملة التقاليد ، ناضجة من الناحية الفنية نضجاً يلفت النظر الى أنه ليس من اليسير أن نتصور أن هذه البداية المكتملة الناضجة هى البداية الاولى للشعر الجاهلى ، وانما لا بد أن تكون قد سبقتها محاولات كثيرة وتجارب متعددة قام بها الرواد الأوائل والطلائع المبكرة من الشعراء القدماء . فالقصيدة العربية كما أظهرتها حرب البسوس لا تمثل الأولية الاولى للشعر الجاهلى ،

---

(١) الحيوان ٧٤/١ (الحلبى بالقاهرة) .

(٢) من مثل قولهم ان اقدم ما وصل الينا من قصائد الشعر الجاهلى الطوال قصيدة لقيط بن يعمر الايادى التى كتبها الى قومه يحذرهم من سابور ذى الاكتاف (المسعودى : مروج الذهب ١٥٨/١ ـ القاهرة ١٣٤٦) ، فهو خبر يرجع بنا الى اكثر من ثلاثة قرون قبل الاسلام ، ويكفى لرفضه أن يكون من رواية ابن الكلبى الراوية المتهم . ومن ذلك ايضاً مايرويه السجستانى فى كتاب المعمرين من مقطوعات ينسبها الى اكثر من مائة معمر من العدنانيين والقحطانيين ، وبعضها ينسب الى من عاشوا قبل الاسلام بقرون طويلة تصل الى سبعة قرون .

(٣) عبد العزيز مزروع الأزهرى : الاسس المبتكرة لدراسة الادب الجاهلى /١١٦ ومابعدها (القاهرة ١٩٥٠) .

(٤) المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة هو الذى وضع نهاية لهذه الحرب ، وقد حكم فيما بين سنتى ٥١٤ ، ٥٥٤ للميلاد.

(٥) قالوا انه لقب مهلهلاً لانه اول من هلهل الشعر اى اطاله وارقه (انظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء/١٦٤ ـ ليدن ، والبغدادى : خزانة الادب ٣٠٠/١ ـ باريس) ،وقالوا انه اول من قصد القصائد (ابن سلام : طبقات الشعراء/١٣ ـ ليدن ، والأغانى ٥٧/٥ ـ دار الكتب ، والشعروالشعراء /٩٩ ـ ليدن ، وابن دريد : الاشتقاق /٢٠٤ ـ دار المعارف) وقديماً قال الفرزدق « ومهلهل الشعراء ذاك الاول » (انظر : الشعر والشعراء /١٦٤) .

وانما تمثل الأولية الناضجة المكتملة التى لم يصل اليها الشعراء الا بعد أن مروا بتجارب طويلة متعددة مارسوا فيها قول الشعر ، وحاولوا الوصول بالعمل الفنى الى صورة ثابتة محددة التقاليد والقوانين (٦) .

والباحثون مختلفون حول طبيعة هذه التجارب التى بدأ بها الشعر العربى قبل حرب البسوس . وبين أيدينا نظريتان أساسيتان : **نظرية قديمة** ذهب اليها العلماء العرب منذ عصر التدوين ، **ونظرية حديثة** يذهب اليها بعض المستشرقين ، ويتابعهم فيها بعض الباحثين المحدثين :

اما النظرية العربية فتذهب الى ان الشعر العربى بدأ فى صورة مقطوعات قصيرة ، أو أبيات قليلة العدد ، يرتجلها الشاعر فى مناسبات طارئة ليعبر بها عن انطباعات سريعة مؤقتة ، ثم أخذ الشعراء يطيلون فى مقطوعاتهم ، ويزيدون من عدد أبياتها ، خاضعين فى ذلك لسنة التطور الحتمية وقانون النشوء والارتقاء الطبيعى ، حتى تكاملت لهم القصيدة العربية الطويلة فى صورتها المعروفة على يد المهلهل أيام حرب البسوس . وهى نظرية سجلها **ابن سلام** فى مقدمته حيث يقول : « ولم يكن لأوائل العرب من الشعر الا الأبيات يقولها الرجل فى حادثة ، وانما قُصِّدت القصائد وطُوِّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف (٧) » . ثم جاء **ابن قتيبة** فتابعه فيها ، وقال فى مقدمته وكأنه ينقل عنه : « لم يكن لأوائل الشعراء الا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة (٨) » . وفى المصادر العربية القديمة اشارات أخرى الى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الشعر العربى ، والى هذه التجارب الاولى التى مهدت لظهور القصيدة العربية ، حين يتحدثون عن « قديم الشعر الصحيح (٩) » ، أو عن « أوائل الشعراء (١٠) » . وهى اشارات تعود بنا الى عصور سحيقة بعضها يرتفع الى سبعة قرون أو تسعة قبل الاسلام ، وتتردد فيها أسماء موغلة فى القدم يرجع بعضها الى المراحل الاولى من تكوين التجمعات القبلية فى الجزيرة العربية (١١) . وفى **كتاب السجستانى** ــ كما أشرنا منذ قليل ــ نماذج كثيرة من هذا الشعر الذى يرويه الرواة لشعراء موغلين فى القدم ممن عمروا ــ فى زعمهم ــ قروناً متطاولة يمتد بعضها الى خمسة قرون (١٢) . وهذا كله من باب الأساطير التى لا يؤيدها دليل تاريخى صحيح .

---

(٦) انظر راى Lyall فى مقدمته للمفضليات ، وراى Tritton فى دائرة المعارف الاسلامية ، مادة (شعر) .

(٧) طبقات الشعراء /١١ ــ ١٢ (ليدن) .

(٨) الشعر والشعراء /٣٦ (ليدن) .

(٩) ابن سلام : طبقات الشعراء /١٢ .

(١٠) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٣٦ .

(١١) انظر على سبيل المثال ماينسب الى اعصر بن سعد بن قيس عيلان وهو ابو غنى وباهلة والطفاوة (ابن قتيبة /٣٦) ، والعنبر بن عمرو بن تميم الذى تنسب اليه قبيلة بلعنبر (ابن سلام /١٢) ، وطى بن ادد الذى سموا به جبلى طى ، وهو ــ الى جانب انه يمنى من القحطانية ــ معاصر لعدنان (السجستانى/٧٢) ، وسعد بن زيد مناة بن تميم (الميدانى: مجمع الامثال « انصر اخاك ظالما او مظلوما ») .

(١٢) طى بن ادد عمر ــ عنده ــ خمسمائة سنة ، ويذكران أشياخا من طى يذكرون ذلك ، ويتناقلونه جيلا بعد جيل (ص ٧٢) ، ودريد ابن زيد القضاعى عمر ــ عنده ــ اربعمائة وستا وخمسين سنة ، (ص ٢٠) ، ويتواضع البكرى قليلا فيجعلها اربعمائة سنة . (معجم ما استعجم ٣٤/١) .

وأما النظرية الحديثة فتذهب الى أن الرجز كان الصورة الاولى التى بدأ بها الشعر العربى، لأنه الوزن الشعرى الذى كان العرب ـ حتى بعد ظهور القصيدة واستقرار تقاليدها الفنية، بل حتى بعد ظهور الاسلام ، واستقرار الحياة الجديدة ـ يستخدمونه حين تضطرهم ظروف الحياة اليومية الى ارتجال الشعر ، أو ـ بعبارة اخرى ـ هو الصورة العروضية التى كانت تتيح لهم فرصة ارتجال الشعر حين تدفعهم حاجات الحياة الى ذلك ، ومن الرجز نشأت البحور العروضية الاخرى . وهى نظرية يطمئن اليها **بروكلمان** اطمئناناً شديداً ، ولكنه يرى أن ما يحاوله بعض الباحثين من الربط بين نشأة الرجز وسير الابل محاولات لم تسفر عن نتيجة ، وانما نشأ الرجز ـ فى رأيه ـ متطوراً من السجع الذى يؤكد أنه أقدم القوالب الفنية العربية ، وأنه القالب الذى كان العرافون والكهنة يصوغون كلامهم وأقوالهم فيه (١٣) .

والواقع أن النظرية العربية ليست حلاً للمشكلة ولا محاولة لحلها ، ولكنها ـ فى وضعها الصحيح ـ محاولة لتفسير واقع هو ـ فى أغلب الظن ـ واقع زائف لا أصل له ، فمجموعة النصوص التى يحاول القدماء أن يتخذوا منها صورة لأولية الشعر الجاهلى المبكرة مجموعة يحيط بها الشك والاتهام ، وأكثرها منتحل موضوع صنعه الرواة من أجل تفسير بعض المرويات الشعبية التى تتصل بحياة القبائل فى مراحل غامضة مجهولة من تاريخها ، أو من أجل تفسير أسماء بعض الأشخاص وما جرى على ألسنتهم من أمثال وحكم ، وما تناثر حول شخصياتهم من قصص اريد به ـ قبل كل شىء ـ الى التسلية والسمر ، والقليل منها الذى يثبت أمام الشك والاتهام لا يصور هذه الأولية المبكرة ، وانما يصور ـ فى الحقيقة ـ مرحلة من مراحل الشعر الجاهلى ، وهى تلك المرحلة التى لم يكن لأوائل الشعراء فيها الا الأبيات القليلة « يقولها الرجل فى حادثة أو عند حدوث حاجة » ـ على حد قول ابن سلام وابن قتيبة. وهى مرحلة تظل معها المشكلة قائمة ، ويظل السؤال وارداً : كيف كانت البداية التى مهدت لهذه المرحلة وحققت لشعرائها هذا المستوى الفنى ؟ وكيف استقامت لهم هذه الصورة الدقيقة من اصطناع الوزن والقافية ؟ أو ـ بعبارة اخرى ـ كيف توصلوا الى فكرة البيت ؟

وأما النظرية الحديثة فمع أن بعض الباحثين لا يطمئنون اليها ، ويرون أنها مجرد فرض ، وأن شيوع الرجز فى الجاهلية لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الاخرى (١٤) ، فاننا نستطيع أن نرى فيها أساساً صالحاً لحل المشكلة ، ونتخذ منها قاعدة سليمة لتصور الموقف ، وتتبع الطريق الذى سلكه الشعر العربى منذ البداية ، أو ـ على أقل تقدير ـ للاقتراب من الحقيقة الضائعة المجهولة التى طوتها أستار الزمن البعيد . ففى ظنى أن الشعر بدأ غناءً ، وأن هذا الغناء بدأ رجزاً ، وأن هذه البداية كانت بداية طبيعية مرتبطة بحياة البادية التى ظهر فيها هذا الشعر أول ما ظهر ، وأن هذا الارتباط كان تلبية لحاجات البيئة البدوية التى كانت حياة البدو تقوم عليها . ومعروف أن هذه الحياة تقوم على الحركة الدائبة ، والتنقل المستمر ، والضرب الذى لا يعرف الاستقرار فى أرجاء الصحراء تتبعاً لمواقع الغيث ومنابت الكلأ ، أو ـ بعبارة اخرى ـ بحثاً عن فرص العيش ومجالات الحياة ، وأن وسيلة هذه الحركة الأساسية هى الابل التى أعدها الله اعداداً خاصاً لتكون حيوان الصحراء الأساسى المهيأ لها ، القادر على

---

(١٣) تاريخ الأدب العربى ١/٥١ ـ ٥٢ (دار المعارف بمصر).

(١٤) شوقى ضيف : العصر الجاهلى /١٨٦ (دار المعارف بمصر ١٩٦٠) .

تحمل مشقاتها ، ولتكون أيضاً رفيقة البدوى فى حياته ، ووسيلته للتغلب على بعض مشكلات بيئته . ومن هنا جعلها الله سبحانه من آيات قدرته ، ومعجزات خلقه ، ودلائل وحدانيته ، وقرن بها رفع السماء ونصب الجبال وبسط الأرض ، فقال عزّ من قائل : « أفلا يَنظرون الى الابلِ كيف خُلِقت . والى السماءِ كيف رُفِعت . والى الجبالِ كيف نُصِبت . والى الأرض كيف سُطِحت . فذكّر انما أنت مذكّر (١٥) » . ومن هنا أيضاً كانت فتنة البدوى بناقته تلك الفتنة التى عبر عنها الشعر العربى أروع تعبير ، حتى لتبدو الناقة مصدراً من مصادر الالهام عند الشاعر العربى القديم ، أو كما يقول بروكلمان (١٦) : « ان البعير كان يلهب رغبة العربى فى الصياغة والتصوير الفنى كما ألهب البقر شعراء الهند فى عصر الفيدا حتى أمكن أن يقال ان شعرهم هو شعر الرجفيدا بعد استيحائه روح الثور » . ومعروف أن الابل تطرب للغناء ، وأنه يستحثها على السير ، ويدفعها الى الاندفاع فيه ، وأنه ينسيها ما تشعر به من عناء وجهد ، ويخفف عنها ما تلقاه من تعب الرحلة ومشقة الطريق . وفى الشعر العربى أحاديث طويلة عن هذا الغناء المتواصل الذى كان العربى يتغنى به لناقته ، ويسكبه رقيقاً فى أذنيها ، ليرفع من سيرها ، ويجدّد نشاطها ، ويمسح النوم عن جفونها ، حين تطول الرحلة وتمتد الأيام والليالى بالقوافل الضاربة فى شعاب الصحراء . ومن هنا أطلقوا على هذا اللون من الغناء « الحُدَاء » لمحاً للأصل اللغوى لهذه المادة الذى يدل على الزجر والسَّوْق (١٧) . وفى مصادر الأدب العربى نصوص لا حصر لها من هذا الحداء الذى كانت تردده لهوات المسافرين مع كل رحلة تخترقها القوافل عبر الصحراء ، وهى نصوص تؤلف معزوفة بدوية ضخمة تجاوبت بأصدائها آفاق الصحراء منذ أقدم عصور الشعر العربى . والظاهرة التى تلفت النظر فى هذه المعزوفة الضخمة أنها كلها عزفت على قيثارة الرجز التى تتوالى نغماتها فى رتابة مطردة متسقة مع حركة سير الابل ووقع اخفافها على الرمال . فالرجز — فى طبيعته الموسيقية — محاكاة لهذه الحركة الرتيبة المطردة ، وهذا يدفعنا الى القول بأن العرب عرفوا الرجز منذ أن عرفوا الحداء . وهى قضية تنتهى بنا الى نتيجة حتمية لا مفر منها ، وهى أن الرجز العربى قديم موغل فى القدم . ولولا قضية اللغة وما يتصل بها من ظهور الفصحى فى مرحلة متأخرة من تاريخ الجزيرة العربية ، لاستبحنا لأنفسنا أن نقول ان الرجز ظهر منذ ان ظهرت الحياة فى جزيرة العرب . وهى نتيجة يؤكدها ما يقرره الباحثون من المستشرقين من أن هذا الوزن الشعرى كان معروفاً عند الشعوب السامية الاخرى التى عاصرت العرب ، والتى ترجع جميعاً الى أصل واحد (١٨) .

هكذا كانت البداية ، وبعدها اتسعت مجالات الرجز فى المجتمع الجاهلى القديم اتساعاً ساعدت عليه سهولة هذا البحر ، وقرب متناوله من الشعراء ، وطواعيته للتشكيل ، وتقبل تفعيلاته لكثير من صور

---

(١٥) الغاشية : ١٧ — ٢١ .

(١٦) تاريخ الأدب العربى ٥٦/١ .

(١٧) انظر ابن فارس : مقاييس اللغة ، مادة (حدا) .

(١٨) انظر مقالات الدكتور باول كراوس فى مجلة « الثقافة » فى أعداد متفرقة من سنة ١٩٤٣ (لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

الزحاف والعلة (١٩) . وأصبح الرجز فناً شعبياً مرتبطاً بالحياة اليومية التى يمارسها الشعب فى شتى مجالاته العلمية ، فبعد ان كان فنّ الحداء أصبح ايضاً فن القتال يتغنى به المحاربون فى التحامهم واشتباكهم ، يحمّسون به انفسهم ، ويرفعون من روحهم المعنوية ، ويهيجون به ما يكمن فى اعماقهم من حقد وموجدة على اعدائهم ، كما أصبح فنّ المفاخرة والمخاصمة يفزع اليه المتنافسون فى مقامات المنافرة ، فيتغنون فيه بأمجادهم ومفاخرهم ، وما يمتازون به من كريم الشمائل ومحمود الشيم ، واصبح ـ مع هذا كله ـ فن الحياة اليومية يتغنى به أفراد الشعب فيما يمارسونه من أعمال ، فالام تغنى به لصغارها وترقصهم عليه ، والسقاة يتغنون به وهم يمتحون الماء من الآبار ، والقائمون على حفر الآبار وحفر الخنادق حول الخيام والقائمون على أعمال البناء ونحوها يتغنون به وهم يمارسون عملهم ، وكأنما أصبح الرجز اللحن الشعبى المحبّب الى كل طوائف الشعب العربى فى شتى مجالات نشاطه اليومى . وقد لاحظ الجاحظ شعبية هذا البحر ، وارتباطه بحياة الشعب العربى اليومية ، وسجّل سهولة النظم فيه ، وقرب متناوله من الشعراء ، واستطاع أن يحدّد المجالات الأساسية التى كان يدور فيها فى الحياة الشعبية الجاهلية ، وذلك حيث يقول : « كل شىء للعربى انما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، فليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام ، والى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المنازعة والمناقلة ، أو عند صراخ ، أو فى حرب ، فما هو الا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذى اليه يقصد ، فتأتيه المعانى ارسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا (٢٠) » .

ومعنى هذا أن الرجز قديم فى المجتمع الجاهلى ، وانه نشأ نشأة طبيعية مرتبطاً بحياة العرب الاجتماعية ، وانه ـ فى أغلب الظن ـ تردد أول ما تردد على شفاه الحداة مع قوافل الابل المنطلقة فى أرجاء الصحراء فى رحلاتها الدائبة المتصلة التى لا تكاد تنتهى حتى تبدأ من جديد ، ثم ساعدت طبيعته الموسيقية على ذيوعه وانتشاره حتى أصبح الفن الشعبى الذى يتغنى به أفراد الشعب العربى فى حياتهم اليومية ، وانه لهذا كله ـ بالاضافة الى ظهوره فى الآداب السامية الاخرى ـ يحتمل أن يكون هو الشكل الأدبى الذى سبق ظهور القصيدة العربية ، والذى يمثل أولية الشعر العربى المبكرة . أما المقطوعات القصيرة والأبيات المحدودة العدد التى تروى لمن اطلقوا عليهم « أوائل الشعراء » فان الصحيح منها الذى يثبت أمام اتهامات الشك والانتحال لا صلة له بهذه الأولية المبكرة ، وانما هو ـ فى وضعه التاريخى الصحيح ـ نتاج مرحلة متوسطة بين مرحلة الرجز ومرحلة القصيدة المتكاملة . ومن الممكن أن نتصور أن الشعر بدأ رجزاً ، ثم تولدت من الرجز أوزان اخرى هى ـ فى أغلب الظن ـ أوزان البحور ذوات التفعيلة الواحدة ، وعلى هذه الأوزان أجرى الشعراء تجاربهم الاولى التى انتهت بظهور فكرة « البيت » وظهور « المقطوعة » وأوزان اخرى جديدة ، ثم ظهرت بعد ذلك ـ نتيجة لسنة التطور الطبيعية ـ القصيدة الطويلة عند

---

(١٩) لهذا البحر اربع أعاريض وخمسة أضرب ، وهو يأتى صحيحاً ومجزوءاً ومشطوراً ومنهوكاً ، اى على ست تفعيلات او اربع او ثلاث او اثنتين ، ويجوز فى تفعيلته (مستفعلن)الخبن والطى والخبل والقطع والخبن مع القطع ، فتصير على التوالى ، مفاعلن ومفتعلن وفعلتن ومفعولن وفعولن (انظرالتبريزى : الوافى فى العروض والقوافى ١١٣ ـ ١٢٠ طبعة حلب ١٩٧٠) .

(٢٠) البيان والتبيين ٢٨/٣ (طبعة الحلبى بالقاهرة) .

المهلهل ومن عاصروه من شعراء حرب البسوس .

ولكننا ــ مع ذلك ــ لا نملك ان نقول : هذه هى الحقيقة التاريخية التى لا شك فيها ، فكل ما نملكه هو أن نقول : لعلها الحقيقة ، وذلك لأن الحقيقة التاريخية لا تثبتها الا نصوص يقينية أو وثائق ثابتة ، أما الفروض والاحتمالات ، فلا تكفى ــ بل لا تصلح ــ لاثباتها . **وقديماً قال عمر بن شبة** تلميذ محمد بن سلام : « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه (٢١) » **وحديثاً قال بروكلمان :** « لا تستطيع رواية مأثورة أن تقدم لنا خبراً صحيحاً عن أولية الشعر(٢٢) » . ومع ذلك فهناك جانب من القضية يبدو على قدر غير قليل من الواقع التاريخى ، وهو أن الشعر العربى قبل أن يصل الى مرحلة القصيدة فى عصر حرب البسوس مرّ بمرحلة المقطوعة والأبيات المحدودة العدد فى عصر « أوائل الشعراء » ، وهى مرحلة تؤكدها النصوص التى نستطيع تصحيحها مما رواه الرواة لهؤلاء الأوائل ، كما يؤكدها ما يذكرونه فى تفسير لقب المهلهل ، وأيضاً ما نجده عند شعراء مرحلة القصيدة من اشارات الى شعراء سابقين ، على نحو ما نرى فى بيت **امرىء القيس** المشهور :

عوجا على الطَّلل المحيلِ لأننا
نبكى الديارَ كما بكى ابنُ خِذامِ (٢٣)

على أساس هذا التصور للطريق الذى سلكه الشعر العربى من نقطة البداية الغامضة الى مرحلة القصيدة التى تأخذ عندها معالم الطريق فى الوضوح ، وعلى أساس هذا الاقتراب من الحقيقة التاريخية التائهة بين أستار الزمن المتكاثفة والتى تأخذ فى التكشف ونحن نقترب من عصر البسوس ، نستطيع أن نسجل أن الشعر العربى فى بداية رحلته التاريخية الطويلة مر بمرحلتين : **مرحلة مبكرة سبقت عصر البسوس لعلها بدأت رجزاً مرتبطاً بحياة الشعب العربى اليومية** ، وشهدت فى نهايتها ظهور تشكيلات موسيقية جديدة آذنت بظهور فكرة « البيت » التى كانت بدورها ايذاناً بظهور « المقطوعة » ، وهى مرحلة نستطيع أن نطلق عليها « عصر ما قبل التاريخى الأدبى » . أما **المرحلة الاخرى** ــ مرحلة التاريخ الأدبى الصحيح ــ **فتبدأ مع عصر البسوس ، مع تلك الطليعة المبدعة من الشعراء المعاصرين لهذه الحرب الذين تطورت المقطوعة على أيديهم الى قصيدة طويلة ، من أمثال المهلهل والحارث بن عبَّاد والفِنْد الزِّمَّانى وجليلة البكرية وغيرهم من الرواد الأوائل** الذين يتردد ذكرهم فى مصادر الأدب العربى المختلفة ، والذين تلقّى عنهم شعراء الجيل التالى لهم ، امرؤ القيس وعبيد وطرفة وأمثالهم ، النماذج الفنية التى خلفوها لهم ، فراحوا يطورونها وينهضون بها حتى استوت لهم القصيدة العربية فى صورتها الناضجة المكتملة التقاليد التى نراها فى القرن الأخير الذى سبق ظهور الاسلام .

● ● ●

(٢)

حين نعود الى النصوص الشعرية التى وصلت الينا من هذه الفترة من تاريخ العصر الجاهلى التى شهدت ميلاد القصيدة العربية ، وهى نصوص لشعراء من قبائل عربية مختلفة كانت تنزل فى مناطق متباعدة من الجزيرة المترامية الأطراف ، نلاحظ أنها كلها قد نظمت

---

(٢١) السيوطى : المزهر ٢٩٦/١ (القاهرة ١٣٢٥) .

(٢٢) تاريخ الأدب العربى ٤٤/١ (دار المعارف) .

(٢٣) ديوان امرىء القيس ١١٤ (دار المعارف) ــ ولأننا لغة فى لعلنا .

فى لغة واحدة لا يظهر فيهــا اختلاف لهجات القبائل ، ولا ما تتميز به كل لهجة من خصائص لغويةمما يتحدث به اللغويون أو يشيرون اليه . وهى ظاهــرة وقــف عندها بعض الباحثين المحدثين ممن شغلوا بقضية الانتحال فى الشعر الجاهلى ، ورأوا فيها سبباً قوياً من أسباب الشك فى صحة هذا الشعر (٢٤) .

والواقع اننا لا نستطيع ان نمر بهذهالظاهرة دون أن نتساءل عن سبب ظهورها : أكان ذلك من صــنع الرواة الذين حملوا الينا الشــعر الجاهلى بعد الاسلام ، فأخضــعوه للصــورة اللغوية التى استقرت عليها العربية بعد نزول القرآن الكريم بها ، أم أن هناك أسباباً اخرى ترجع الى العصر الجاهلى نفســه ، وتتصل تاريخيـاً بطبيعة تلك الفترة من تاريــخ هذا العصر التى سبقت ظهور الاسلام بقرن ونصف قرن ، أو ــ على أبعد تقــدير ــ بقرنين حين ظهرت القصيدة العربية بصورتها المعروفة ؟

يبدو ــ من الناحية المنهجية ــ أن الفصل فى هذه القضــيــة يقتضى أن نحاول ــ أولاً ــ تحديد متى ظهرت هذه العربية الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم ؟ أظهرت قبل ظهــور الاسلام أم أن ظهــورها كان مع نزول القرآن الكريم ؟

الأمر الذى لا شك فيه أنه ليس من اليسير أن نحدد بصورة يقينية تاريخ نشوء الفصحى ، واتخاذها لغة للقبائل العربية الشمالية ، وذلك لأن تاريخ الشــماليين نفســه ــ الا مــا كان فى أواخر العصر الجاهلى قبيل ظهور الاسلام ــ غامض مجهول ، وليست بين أيدينا وثائــق أو معلومات ثابتة عن الحضارة العربية القديمة فى الشمال الا قليلاً مما يذكــره المؤرخــون عن مملكة الأنبــاط ومملكة تدمــر (٢٥) ، بل ان الامارات العربية الشمالية التى ظهــرت بعد ذلك بفترة طويلة : الغساســنة فى الشــام ، والمناذرة فى الحيرة ، وكندة فى شمالى نجد ، لا يسعفنا التاريخ بأخبارها الصحيحة الا منذ اواخر القرن الخامس الميلادى عندما اخذت صورة الجزيرة العربية كلها فى الوضوح . أما ما قبل ذلك فيكتنفه غموض شــديد (٢٦) . فتاريخ نشوء الفصحى ــ كسائر تاريخالجزيرة القديم ــ غامض الى حد بعيد ، طــوته رمال الزمن السحيق ، ولا سبيل الى معرفته الا بعد ان تكشف هذه الرمال عن اسرارها .

ومع ذلك فان النقوش القليلة التى عثر عليها فى قرية ام الجمال غربى حوران ، وفى النمّارة شرقى جبل الدروز ، وفى مدينة زَبَد بمنطقة حلب ، وفى حَرّان الى الشمال الغــربى من جبل الدروز ، تتيح لنا فرصــة نادرة لتتبع نشأة الكتابة العربية وتطورها،وأيضاً الاقتراب من حل قضية الفصــحى ، وكشــف بعض الغموض عنها . وقد وقف كثير من الباحثين عند هذه النقوش ، وحاولوا النفاذ من خلالها الى حل لبعض المشكلات اللغوية التى تتصل بهاتين القضيتين .

وفى راى **بلاشير** (٢٧) أن هذه النقوش تعطينا صورة لتطور الكتابة العربية من أواخر القرن الثالث الميلادى الى أواخر القرن السادس ،

---

(٢٤) انظر مقالة مرجليوث (Margoliouth) :
The OriginS of Arabic Poetry ; JRAS, July, 1925.
وكتاب الدكتور طه حسين : فى الشعر الجاهلى ، الكتابالثانى .

(٢٥) انظر جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الثالث ، الفصلين ٣٢ ، ٣٥ (بيروت ١٩٦٩) .

(٢٦) انظر جواد على : الفصول ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٢٧) انظر الفصل الثانى من الكتاب الأول مــن كتابه :« تاريخ الأدب العربى : العصر الجاهلى » .

وهو تطور نرى مقدمات بسيطة له فى نقش ام الجمال الذى يرجع تاريخه الى سنة ٢٧٠ للميلاد ، حيث تظهور روابط عديدة بين الحروف النبطية ، ثم يأخذ هذا التطور شكلاً اكثر وضوحاً فى نقش النمّارة الذى يرجع تاريخه الى سنة ٣٢٨ للميلاد حيث تبدأ طلائع الخط الكوفى فى الظهور ، حتى اذا ما وصلنا الى أوائل القرن السادس أخذت الصورة العربية لهذا الخط تتضح على نحو ما يمثله نقش زَبَد الذى يرجع تاريخه الى سنة ٥١٢ الميلاد . وهى صورة لم تلبث أن تكاملت تكاملاً سريعاً نستطيع أن نتبينه بوضوح فى نقش حَرّان الذى يرجع تاريخه الى سنة ٥٦٨ للميلاد ، والذى يُعَدّ ـ كما يقول بلاشير ـ أول نقش عربى كامل فى جميع كلماته وعباراته ، كما نستطيع أن نتبينه فى نقش ام الجمال الثانى الذى يرجع تاريخه الى اواخر القرن السادس، وهو أحدث نص عربى قبل الاسلام (٢٨) .

ومعنى هذا أن الكتابة العربية بدات فى الظهور فى الجزيرة العربية الشمالية متطورةً من الخط النبطى منذ أوائل القرن الرابع الميلادى ، ثم أخذت تتكامل لها خصائصها وصفاتها المميزة لها ، خاضعةً فى ذلك لسنة التطور الحتمية ، حتى بلغت درجة الكمال فى القرن السادس .

ومن الطبيعى أن تساير اللغة هذا التطور ، بحيث نستطيع القول ان العربية الشمالية بدأت فى الظهور منذ القرن الرابع ، وانها ظلت تتطور وتتكامل حتى بلغت درجة الكمال فى القرن السادس . وهى نتيجة نظرية يؤكدها عملياً واقع النصوص التى تحتفظ بها النقوش السابقة ، حيث نلاحظ أن كلماتها ـ الا قليلاً منها ـ عربية خالصة ، كما نلاحظ ذلك على صياغة العبارة أيضاً . ومن هنا كنا نميل الى القول ـ مع الدكتور **شوقى ضيف** (٢٩) ـ بأن نقش النمارة الذى يرجع ـ كما رأينا ـ الى القرن الرابع يمكن أن يتخذ بدءاً لتكون الفصحى . أما نقوش القرن السادس ، فمع أنها تمثل ـ بدون شك ـ صورة متكاملة للعربية الشمالية حققتها من خلال تطورها الطبيعى طوال القرنين الرابع والخامس ، فانها لا تمثل الصورة الكاملة لها بكل خصائصها اللغوية . وذلك لأنها نقوش محدودة المجال تدور حول مسائل شخصية لا تكفى للدلالة على ما بلغته العربية فى هذه المرحلة من تاريخها من ذلك التكامل الذى تمثله نصوص الشعر الجاهلى . ومن هنا حق لبلاشير أن يقف من المسألة موقفاً متردداً لا يملك معه اثباتها ولا انكارها (٣٠) . وهو أيضاً نفس الموقف الذى يتخذه الدكتور شوقى ضيف حيث يقرر أن تحديد الزمن الذى اتخذت فيه لغتنا العربية شكلها النهائى الذى تصوره الفصحى الجاهلية ليس سهلاً ولا يسيراً (٣١) .

وعلى كل حال فان تحديد هذا الزمن تحديداً دقيقاً ، أو الفصل فى هذه القضية بصورة يقينية ، لا يعنينا كثيراً ، وانما الذى يعنينا حقاً ـ وهو ما تؤكده هذه النقوش ـ هو أن المرحلة التى تم فيها لهذا الشعر نضجه وتكامله لا يمكن أن تبعد كثيراً عن القرن السادس ، لأن العربية كانت قبل ذلك لا تزال فى تطورها الطبيعى مع تطور الخط العربى . وهذا الذى تؤكده النقوش يؤكد بدوره ملاحظة الجاحظ الدقيقة التى صدرنا بها هذا البحث .

●●●

---

(٢٨) انظر صور هذه النقوش فى اللوحات المرفقة بهذا البحث نقلاً عن كتاب بلاشير ، بين صفحتى ٧٢ ، ٧٣ .

(٢٩) العصر الجاهلى /١١٨ (دار المعارف سنة ١٩٦٠) .

(٣٠) تاريخ الادب العربى : العصر الجاهلى /٧٣ .

(٣١) العصر الجاهلى /١١٧ .

في هذه المرحلة التي شهدت الأولية الناضجة للشعر الجاهلي كانت هنـاك عوامل متعددة هيأت لظهوره في هذه الصـورة الناضجة حين أتاحت الفرصة لظهـور لغة أدبيـة موحّدة توحدت فيها لغات القبائل ، وذابت لهجاتها ، واختفت منها الفروق اللغويـة التي تعددت بسببها هذه اللهجات ، فكانت بهذا صالحة ليتخذها الشعراء من شتى القبائل وفي مختلف أرجاء الجزيرة العربية لغة لشعرهم ، متسامين بها على لهجاتهم المحلية . وكأنما عرفت الجزيرة العربية في هذه المرحلة من تاريخها ظاهرة ازدواج لغوي ، فالشعراء يتكلمون في حياتهـم العامة بلهجات قبائلهم ، ولكنهم يصطنعون في حياتهم الفنية لغة أخـرى ، هي هذه اللغـة الأدبية الموحّدة .

وقد اختلف المستشرقون حول هذه اللغة الموحدة ، وتباينت آراؤهم فيهـا ، فذهب **نولدكه** الى انها لهجة مركبة من لهجات القبائل التي كانت منتشرة في الحجاز ونجد واقليـم الفرات وغيرها من المناطق الأساسية في الجزيرة العربية ، وهي لهجات كانت وجوه الاختلاف بينها قليلة مما ساعد على تركيب هذه اللهجة منها . وذهب **جويدي** مذهباً قريباً منه ، فقال انها ليست لهجة قبيلة بعينها ، ولكنها مزيج من لهجات قبائل نجد ومن جاورهم . وذهب **نالينو** الى انهـا تولدت من احدى اللهجـات النجدية ، وتم تهذيبهـا أيام حكـم كندة في منتصف القـرن الخامس . وذهب **هارتمان وفولرز** الى انها لهجة أعـراب نجد واليمامة بعد أن أدخـل الشـعراء عليهـا تغيـيرات كثيرة (٣٢) . وذهب **بروكلمان** الى انها لغة فنية قائمة فـوق اللهجات وان غذّتهـا جميعُ اللهجات ، وقال انها استوعبت كل خصائص الأصل اللغوي السامي أكمل استيعاب ، وان لم تحتفظ في جميع نواحيهـا بأقدم الصـيغ والقوالب (٣٣) . ووقف **بلاشير** طويلاً امام هذه المسألة ، وأفرد لها فصلاً كاملاً في كتابه (٣٤) ، انتهى فيه الى انها لغة وسطى لها خصـائص اللهجات في وسط الجزيـرة وشرقيها ، وهي لهجات القبـائل التي كانت تنزل في منطقـة محصورة بين خطين يمتد أحدهما من جنوبي مكـة بعدة كيلومترات حتى يصـل الى خليج البحرين ، ويمتد الآخر من ضـواحي المدينة حتى يصل الى شمالي الحيرة ، وهي قبائل قيس وتميم واسد وهذيل وبعض كنانة وبعض طـي وايضاً قريش ، وقال ان الفرق بين هذه اللهجة الشعرية وبين لهجات هذه القبائل فرق ضئيل مما ساعد على سـهولة الانتقال من اللهجات المحلية اليها ، ولكنه عاد في النهاية فقرر انها « في شكلها القديم الحي ذي الشـيات » لم تصل الينا ، وأن نصوص الشـعر الجاهلي لا تمثلها تماماً ، وذلـك لأن اللغويين في عصر التدوين كانوا مدفوعين بعقلية تنهيـج اللغة وتنقيتها تخلصاً من اللهجات التي تبعد بشكل واضح عن لغة القـرآن والشـعر الجاهلي ، فجاءت هذه اللهجة الشـعرية « لغة مجردة على قدر الامكان من البقايا اللَّهَجية » .

والواقع أن المسألة ليست في حاجة الى كل هذا التطواف خلف القبائل العربية من أقصى الجزيرة الى اقصاها ، فهو تطواف يرمي بنا في تيه سحيق تتشـابه فيه معالم الطـريق فتجعل الاهتداء الى الحقيقة أمراً عسيراً . وفي ظني أن النظرية الاسـلامية ــ كما يسـميها

---

(٣٢) انظر مقالة « لهجات العرب قبل الاسلام » في كتاب « الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة » للدكتور جواد علي (مكتبة النهضة بالقاهرة) .

(٣٣) تاريخ الأدب العربي ٤٢/١ .

(٣٤) الفصل الثالث من الكتاب الاول /٧٧ ــ ٩١ .

بلاشير (٣٥) — هى أدق نظرية حاولت حل هذه المسألة ، وانها وحدها تكفى للوصول الى الحقيقة التاريخية التى ضل المستشرقون الطريق اليها . فمن قبل المستشرقين بقرون طويلة اتفق اللغويون العرب على أن هذه اللهجة هى لهجة قريش التى نزل بها القرآن الكريم ،لأنها أفصح اللهجات العربية وأصفاها، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها ابانة عما فى النفس (٣٦) . وقد اخذ **ابن خلدون** بهذا الرأى ، وحاول التعليل له فقال : « كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبُعْدها عن بلاد العجم من جميع جهاتها » ، واستدل على ذلك بأن « سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية » (٣٧) . ومع ذلك فالمسألة ليست فى حاجة الى تعليل أو تدليل ، وانما يكفى تعليلاً وتدليلاً أن تكون هى اللغة التى نزل بها القرآن الكريم ، كتاب العربية المعجز الخالد . ونزول القرآن الكريم بهذه اللغة ليس استنتاجاً منطقياً ، أو — كما يقول بلاشير — « محاكمة قياسية » (٣٨) ، ولكنها حقيقة تاريخية يجمع عليها الباحثون فى تاريخ نزول القرآن الكريم ، ويستدلون عليها بما يرويه **البخارى** فى صحيحه عن **أنس بن مالك** من أن **عثمان** لما أمر بجمع القرآن فى خلافته ، وعهد بذلك الى اللجنة الرباعية المؤلفة من **زيد بن ثابت** من المدينة ومن **عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام** وكلهم من قريش ، قال للرهط القرشيين الثلاثة : « اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما نزل بلسانهم » (٣٩) . ويؤكد **ابن كثير** « أن هؤلاء النفر الأربعة جلسوا يكتبون نسخاً من القرآن ، فاختلفوا فى التابوت أيكتبونه بالتاء أم بالهاء ، فقال زيد بن ثابت : انما هو التابوه ، وقال القرشيون الثلاثة : انما هو التابوت ، فتراجعوا الى عثمان ، فقال : اكتبوه بلغة قريش فان القرآن نزل بلغتهم » (٤٠) .

هذه الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم والتى هى لغة قريش ، هى نفسها اللغة التى نظم فيها الشعراء قصائدهم فى أواخر العصر الجاهلى ، أو فى تلك المرحلة التى أطلقنا عليها « العصر الجاهلى الأدبى » ، والتى سبقت ظهور الاسلام بحوالى قرن ونصف قرن أو قرنين من الزمان .

• • •

---

(٣٥) تاريخ الأدب العربى : **العصر الجاهلى /٨٥** .

(٣٦) **انظر السيوطى : المزهر ١٢٦/١ — ١٢٨ (القاهرة١٣٢٥) ، وابن فارس : الصاحبى فى فقه اللغة/٢٣ (القاهرة ١٩١٠)** .

(٣٧) **المقدمة : الفصل ٣٢ من القسم السادس** .

(٣٨) **« ان القرآن يمثل العمود اللغوى ، وبما أن القرآنقد اوحى الى محمد (صلى الله عليه وسلم) سليل قبيلة قريش المكية ، فالقرآن اذن انزل بلغة قريش ، ولذا كانالعمود اللغوى الذى يجب أن يحاذى فى لهجة القبيلة المذكورة » (ص ٨٤)** .

(٣٩) **السيوطى : الاتقان ٥٩/١ (القاهرة ١٩٣٥) وانظرصحيح البخارى** : كتاب فضائل القرآن ، **الباب الثانى والباب الثالث** .

(٤٠) فضائل القرآن /٣٥ (**المنار بالقاهرة ١٣٢٧**) .

(٣)

فى هذه المرحلة من تاريخ الجزيرة العربية ، وعلى وجه التحديد فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى ، نزل **قُصَىّ** مكة ومعه قبيلة قريش بعد أن أجلى خزاعة عنها (٤١) . وبدأت مكة عصرها الذهبى ، وراحت تقوم بدورها الكبير — دور البطولة — على مسرح الجزيرة العربية . واجتمعت أسباب متعددة لتهيىء لمكة فرصة القيام بهذا الدور البطولى فى تاريخ الجزيرة العربية ، وهو دور أتاح للهجتها أن تصبح هى هذه اللغة الأدبية الموحدة التى مضت تفرض نفسها على المجتمع الأدبى فى الجزيرة كلها بين القبائل الشمالية والجنوبية جميعا .

وما من شك فى ان اهم هذه الأسباب وجود الكعبة بها، فالكعبة هى سر الحياةفى مكة ، ومنذ أن رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل أصبحت مكة مهوى أفئدة العرب من شتى أرجاء الجزيرة ، حتى اذا ما نزلت بها خزاعة بعد جُرْهُم ، وحمل اليها عمر بن لُحَىّ الأصنام لينصبها فى الكعبة ومن حولها ، أخذت الوثنية تنتشر فى سائر أرجاء الجزيرة ، وتمتد الى كل القبائل العربية بها ، واصبحت مكة المركز الدينى الأول لهذه الوثنية فى الجزيرة العربية كلها ، تهفو اليها قلوب أبنائها ، وتتعلق بها أبصارهم ، وتتجه نحوها قوافلهم فى مواسم الحج .

وزاد من تعلق العرب بمكة وارتباطهم الروحى بها ماكانوا يرونه من تغلغل المسيحية واليهودية فى بعض المناطق من جزيرتهم ، وهو تغلغل كانت القبائل العربية تنظر اليه فى شىء من الريبة ، لأنه يأتى من قِبَل عناصر أجنبية غريبة عليهم ، فارتبطت هاتان الديانتان فى اذهانهم بأفكار سياسية ، وكأنهم استشعروا وراءهما محاولات للتغلغل السياسى ، ومدّ النفوذ الأجنبى الذى كان يحيط بهم من الشرق حيث النفوذ الفارسى فى الحيرة ، ومن الشمال حيث النفوذ البيزنطى فى الشام ، ومن الجنوب، حيث النفوذ الحبشى فى اليمن . ومن هنا كان فزعهم الى المنطقة الغربية التى ظلت بمنأى عن هذا النفوذ الأجنبى حيث مكة حامية الوثنية التى كانوا ينظرون اليها على أنها ديانتهم المحلية التى تفتحت عيونهم عليها كما تفتحت عليها من قبل عيون آبائهم واجدادهم الأولين .

وزاد من حساسية الموقف ماكانوا يرونه من تغلغل هاتين الديانتين فى الجنوب حيث « العربية السعيدة » بحضارتها العريقة ، وثرواتها الضخمة ، وتجاراتها العريضة ، وما استتبع ذلك من صراع بينهما تدخلت فيه القوى الخارجية المحيطة بالجزيرة ، المتربصة باستقلالها ، الطامعة فى الاستيلاء عليها واخضاع قبائلها لنفوذها السياسى والدينى. فمنذ القرن الأول الميلادى فى أعقاب اضطهاد أباطرة الرومان لليهود أخذت جماعات منهم تفر الى شمالى الجزيرة ، ثم لم تلبث اليهودية أن امتد نفوذها الى اليمن فى الجنوب ، حتى اذا ماوصلنا الى القرن السادس بلغ هذا النفوذ أقصاه حين اعتنق آخر تبابعة اليمن **ذو نواس** اليهودية (٤٢) .

فى هذه الأثناء التى كان النفوذ اليهودى يمتد وينتشر فى جنوبىالجزيرة كانت المسيحية

---

(٤١) انظر جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام٤/٥٦ (بيروت ١٩٧٠) .

(٤٢) انظر فى اليهودية فى بلاد العرب كتاب الدكتور جوادعلى : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء السادس، الفصل ٧٦ (بيروت ١٩٧٠) .

تحاول مدّ نفوذها الى هذه المنطقة أيضاً (٤٣). فمنذ القرن الرابع انطلقت بعثات من المبشرين المسيحيين نحو اليمن ، ولم يكد يمضى قرن من الزمان حتى كانت المسيحية قد انتشرت بها انتشاراً واسعاً ، وبخاصة فى نجران التى اصبحت منذ القرن الخامس اهم مركز لها . وكأنما خشى تبابعة اليمن من أن يؤدى هذا التغلغل الدينى الى تفلفل سياسى من جانب اباطرة بيزنطة حامية المسيحية فى ذلك الوقت الذين كانوا يشجعون هذه البعثات التبشيرية، فحاول ذو نواس ــ ربما بايعاز من اليهود الذين كانوا قد اجتذبوه الى دينهم ــ أن يقضى على المسيحية فى أهم مراكزها ــ فى نجران ــ فأخذ فى التنكيل بأتباعها هناك ، وحفر لهم الأخاديد ، وأوقد بها النيران ، ومضى يحرقهم فيها ، على نحو ما تحدثنا به الآيات الاولى من سورة البروج حيث يقول تعالى : « قُتِلَ أصحابُ الاخدود . النارِ ذاتِ الوقود . اذ هم عليها قُعُود . وهم على مايَفْعَلون بالمؤمنين شهود » (٤٤) وكان طبيعياً ان تتحرك بيزنطة ، فأوعزت الى نجاشى الحبشة أن يثأر لاخوانه فى الدين ممن نكلوا بهم ، واندفع الجيش الحبشى يعبر البحر فى سنة ٥٢٥ ، وتم له اخضاع اليمن والقضاء على مملكة حِمْيَر ، وأيضاً القضاء على النفوذ اليهودى ، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ النفوذ المسيحى باليمن . وفزعت الوثنية العربية الى الشمال فراراً بعقيدتها من وطأة الحكم الحبشى المسيحى ، ولم تجد امامها الا مكة تأوى اليها وتلوذ بها ، وارتفعت مكانة مكة فى نفوس العرب الشماليين والجنوبيين على السواء .

وزاد من ارتفاع هذه المكانة ماكان من عجز أبرهة قائد الجيش الحبشى عن دخولها فى عام الفيل فيما بين سنتى ٥٧٠ ، ٥٧١ فى أيام **عبد المطلب** جد النبى صلى الله عليه وسلم ، وارتداده دونها مع فلول جيشه بعد أن تعرضت حملته لظروف قاسية بدّدت جيشه وجعلته ــ كما يقول القرآن الكريم ــ « كعَصْفٍ مأكول » . فمنذ أن كتب الله النجاة لمكة من هذه الغزوة التى كان أبرهة يهدف من ورائها الى هدم البيت الحرام ، وتحويل العرب الى كنيسة القَلِيس التى بناها فى نجران ، ارتفع شأن مكة ، وزادت قداستها فى نفوس العرب ، واصبحت مطمح انظارهم ، ومعقد آمالهم ، والمدينة الاولى فى جزيرتهم التى تتركز فى أيديها مقاليد الدين والسياسة ، بل أصبحت الرمز الخالد لحرية الجزيرة واستقلالها ، والأمل الحى المتجدد فى قدرتها على الوقوف فى وجه أعدائها المتربصين بها من كل جانب . ومن هنا لم يكن غريباً أن يسجل العرب فى جولة قريبة انتصاراً على الفرس فى يوم ذى قار، وأن تشرق الشمس من بين جبال مكة على يد النبى القرشى ايذاناً بوحدة الجزيرة كلها وحدةً دينية وسياسية ولغوية ، وانتصارها بعد ذلك على الفرس والروم جميعاً .

ومعنى هذا أنه توافرت لمكة منذ العصر الجاهلى ظروف دينية وسياسية متميزة أتاحت لها الفرصة لتقوم بدورها البطولى فى تاريخ الجزيرة العربية مما هيأ للغتها أن تصبح اللغة الأدبية الموحدة التى نتحدث عنها.

ولكن هذا لم يكن كل شىء ، فقد كانت هناك ظروف اخرى ساعدت على اتاحة هذه الفرصة لمكة ولغتها ، وهى ظروف اقتصادية ترجع الى طبيعة الوضع الاقتصادى لمكة فى هذه المرحلة من تاريخها الجاهلى .

ومعروف أن الجزيرة العربية كانت منذ أقدم عصورها التاريخية مسرحاً لحركة

---

(٤٣) انظر فى النصرانية فى بلاد العرب المرجع السابق ،الفصل ٧٩ .

(٤٤) الآيات ٤ ــ ٧ .

تجارية نشـطة أشـار اليها « **سترابو** » فى جغرافيته القديمـة (٤٥) ، كما أشـار اليها « **شبرنجر** » أيضاً (٤٦) ، وفى التوراة حديث عن تجارة العرب القدماء وأنهم كانوا أول تجار فى تاريخ الشعوب السامية (٤٧) ، وقد جعلهم بعض المؤرخين الغربيين « حَمَلَة العالم بين الشرق والغرب » (٤٨) . وكانت التجـارة فى أول الأمر فى أيدى اليمنيين أصحاب الحضارة العريقة الموغلة فى القدم ، فمنذ عصور سحيقة « والقوافل التجارية النشطة تعمل بين مناطق الانتاج فى بلاد العرب السعيدة ومدن العراق والشام ومصر » (٤٩) . ولكننا لانكاد نصل الى القرن الخامس ، ويبدأ الضعف يدب فى مملكة حِمْيَر ، حتى نرى ازمّة التجارة تتحـول تدريجياً الى أيدى الشماليين من اهل مكـة التى أتاح لها أن تقوم بهذا الدور الاقتصادى الكبير فى حياة الجزيرة العربية موقعُها الجغرافى فى منتصف الطريق بين اليمن والشام،ووجودُ الكعبة بها وما يترتب عليه من تجمع العرب من شتى أرجـاء الجزيرة فى مواسم الحج ، وأيضاً توافر الماء العذب الصالح للشرب بها الذى تكفلت به بئر زمزم الثرية الدفاقة بالماء. وساعد على ذلك ماكان بين الدولتين الفارسية والبيزنطية من صراع مستمر فى تلك السلسلة الطويلة من الحروب التى عرفت فى التاريخ باسم الحروب الهيلينية ، مما أدى الى اغلاق طريق التجارة الشمالى الذى كان يصل بين الشرق والغرب ، فتحولت قوافل التجار الى طريق الجزيرة العربية التى تدور حولها على امتداد سواحلها ، أو التى تخترقها عن طريق وادى الرمة من الحيرة الى الحجاز ، أو عن طريق القطيف واليمامة .

ومن الطبيعى أن تقوم مع هـذه الحركـة التجارية النشطة التى شهدتها مكة فى هـذه الحقبة من تاريخها مجموعة من الأسواق فى المنطقة المحيطة بها تلتقى عندهـا القوافـل التجارية ، ويتجمع فيها تجار الجزيرة مـن شتى القبائل . وفعلاً شهدت هذه المنطقـة — كما هو معروف — ذلك الثالوث المشهور الذى يتألف من عكاظ ومَجَنَّة وذى المجاز . ومن بين هذا الثالـوث التجارى يلمع اسـم عكاظ التى لم تكن سوقاً تجارية وحسب ، وانما كانت أيضاً سـوقاً اجتماعية وسـوقاً أدبية ، حتى لتتراءى فى تاريخ العصر الجاهلى كأنها مهرجان من مهرجانات الاغريق التى كانوا يحتفلون بها فى أعياد آلهتهم . وبحق كانـت عكاظ مهرجاناً أدبياً ضخماً يقام كل عام فى موسم الحج ، وتشهده وفود العرب القادمين الى مكة من مختلف أرجاء الجزيرة من أجل الحج والتجارة ، ويتبارى فيه شعراء القبائل وخطباؤها أمام الجماهير المحتشدة للاستماع اليهم ، وبين أيدى الحكام الذين كانت تضرب لهم قباب مميزةيقصد اليها المتبارون ليعرضوا نتاجهم الأدبى عليهم . ومعروف أن **قُسّ بن ساعدة الايادى** القى بها خطبته المشهورة التى استمع اليها النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة (٥٠) ، وأن **النابغة الذبيانى** كان حكماً بين الشعراء فيها ، وكانت تضرب له فيها قبة من أدم — كما يقول القدماء — يفد عليه فيها

---

(٤٥) Lammens; La Mecque à la Veille de L'Hégire, P. 27=123 (Beyrouth, 1927).

(٤٦) Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, P. 159. (U.S.A., 1912).

(٤٧) انظر سفر حزقيال : الاصحاح ٢٧ .

(٤٨) Muir; The Life of Mohammad, PP. lxxxix, xc.

(٤٩) Semple; Influences of Geographic Environment, P. 50 (London, 1937).

(٥٠) انظرها فى جمهرة خطب العرب فى عصور العربيـةالزاهرة للاستاذ احمد زكى صفوت ٣٥/١ — ٣٦ (الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٣٣) .

الشعراء فيحكم بينهم ، وخبر حكومته بين **الأعشى وحسان والخنساء** مشهور فى تاريخ العصر الجاهلى (٥١) . والواقع أن هذه السوق كان لها أثر كبير فى الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى ، وأيضاً — وهذا هو الذى يعنينا هنا — فى التقريب بين لهجات القبائل واتاحة الفرصة لسيادة لهجة قريش ، وظهور اللغة الأدبية الموحدة التى نتحدث عنها .

ومعنى هذا انه قد اتيح لمكة منذ أواخر القرن الخامس اسباب متعددة تتصل بالدين والسياسة والاقتصاد هيأت لها أن تحتل مكان الصدارة فى المجتمع الجاهلى ، كما هيأت للغتها أن تصبح اللغة الأدبية الموحدة التى يتخذها الشعراء من شتى القبائل لغة ينظمون فيها شعرهم . وهى لغة استطاعت — بسبب هذه الظروف وماكانت تفرضه من التفاف العرب حول مكة ، وطموح انظارهم اليها ، واجتماع وفودهم عندها فى مواسم الحج ، ومرور قوافلهم التجارية بها أو نزولهم بأسواقها ، وشهودهم مهرجاناتها الأدبية التى تعقد فيها — أن تقوم بعملية تنقية لغوية ضخمة ذابت فيها الفروق اللهجية الموجودة فى لهجات القبائل ، واختفت منها مظاهر الشذوذ فيها ، وخضعت جميعها لمقاييس الفصاحة القرشية ، فكانت هذه اللغة الفصحى التى سيطرت على المجتمع الأدبى فى شمالى الجزيرة العربية كلها ، فى الحجاز ونجد واليمامة والبحرين ، وامتد نفوذها الى المناطق الجنوبية فى اليمن وماجاورها ، والتى كان ظهورها وانتشارها على هذه الصورة ارهاصاً قوياً لنزول القرآن الكريم بها ، ولولا ذلك لوجدت بعض القبائل العربية شيئاً من العسر فى فهم ألفاظه ومعانيه .

ولعلنا نجد فى ذلك تفسيراً لمسألة الأحرف السبعة التى انزل بها القرآن الكريم ،والتوفيق بينها وبين ماهو ثابت من نزول القرآن بلهجة قريش . فقد نزل القرآن بلهجة قريش ، ولكنها لهجة قريش كما عرفها المجتمع الأدبى فى أواخر العصر الجاهلى بعد عملية التنقية اللغوية الضخمة التى تمت فى هذه المرحلة من تاريخه . وقد نجد تأييداً لذلك فيما ذهب اليه **الطبرى** من أن لغة قريش التى نزل بها القرآن كانت تستوعب الأحرف السبعة التى اشار اليها الحديث النبوى الشريف (٥٢) . وليس الطبرى وحده هو الذى ذهب هذا المذهب ، وانما نجد فى أقوال العلماء الذين وقفوا عند مسألة الأحرف السبعة آراء كثيرة مماثلة (٥٣) . وقد أفرد **السيوطى** فصلاً فى كتابه « الاتقان » لما وقع فى القرآن بغير لغة الحجاز (٥٤) ، أورد فيه أمثلة كثيرة لما ورد فى الكتاب الكريم من لغات القبائل المختلفة ، ونقل فيه عن بعض مصادره (٥٥) أن فى القرآن خمسين لغة من لغات القبائل العربية (٥٦) .

ومعنى هذا أن هذه الفصحى ، أو هذه اللغة الأدبية الموحدة التى اصطلح عليها المجتمع الأدبى فى أواخر العصر الجاهلى ، ليست لهجة من لهجات القبائل التى وقف عندها

---

(٥١) انظر الاغانى ٦/١١ (دار الكتب) ، والمرزبانى : الموشح /٦٠ (السلفية بالقاهرة ١٣٤٣) .

(٥٢) انظر تفسيره ١٠/١ (القاهرة ١٩٠٣) .

(٥٣) انظر السيوطى : الاتقان ٤٥/١ — ٥٠ (القاهرة ١٩٣٥)وبخاصة القول العاشر ٤٧ والقول السادس عشر ٤٨ — ٤٩ .

(٥٤) انظر النوع السابع والثلاثين ١٣٣/١ — ١٣٥ .

(٥٥) هو أبو بكر الواسطى فى كتابه « الارشاد فى القراءات العشر » .

(٥٦) ١٣٥/١ . وينقل أيضاً عن ابن عبد البر انه قال :« قول من قال نزل بلغة قريش معناه عندى الأغلب ، لأن غير لغة قريش موجودة فى جميع القراءات » (الموضع نفسه) .

المستشرقون ، ولا هى لهجة قريش خالصة من اى تأثير لهَجِىّ ، وانما هى لهجة قريش بعد أن تمت عملية التنقية اللغوية التى تحدثنا عنها . وربما كان رأى بروكلمان أقرب الآراء الى ما نذهب اليه حيث يقرر ـ كما رأينا من قبل ـ أن لغة الشعر القديم كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وانْ غذّتها جميع اللهجات . ومعنى هذا ـ بعد ذلك ـ أن نصوص الشعر الجاهلى التى وصلت الينا فى هذه اللغة ليست من صنع الرواة بعد الاسلام، كما يذهب الى ذلك المتطرفون من القائلين بقضية الانتحال فى الشعر الجاهلى اعتماداً على عدم تمثيل هذا الشعر للهجات القبائل (٥٧) .

●●●

(٤)

اكتملت القصيدة العربية ـ كما رأينا ـ فى أواخر القرن الخامس الميلادى بعد ان توافرت لها العوامل السياسية والاقتصادية والدينية التى أظهرت لغة قريش لغةً أدبية موحدة تفرض نفسها على المجتمع الأدبى الجاهلى حيث اصطلح الشعراء فى الشمال والجنوب على اتخاذها لغة لشعرهم .

وراحت القصيدة الجاهلية تأخذ طريقها بعد ذلك نحو تطور طبيعى لم يكن منه بد . ونستطيع أن نلاحظ أن هذه القصيدة مرت بمرحلتين فنيتين متميزتين : **مرحلة النضج الطبيعى التى يمثلها أقوى تمثيل امرؤ القيس وطرفة والمرقشان وعبيد بن الأبرص وعلقمة، ومرحلة النضج الصناعى التى بدأت مع الطفيل الغنوىّ وأوس بن حَجَر ، وبلغت ذروتها عند زهير بن أبى سلمى ، والتى يمثلها مع زهير النابغة الذبيانى ولبيد وعنترة .**

فى **المرحلة الاولى** نرى الشاعر يمارس عمله الفنى فى غير تكلف أو تصنع وفى غير عناء أو جهد ، فهو يعبر عن نفسه تعبيراً مباشراً ينقل فيه احساسه كما يحس به ، ويصور مشاعره كما يشعر بها ، ويرسل العبارات كما تخطر على ذهنه دون أن يتكلف فى سبيل ذلك جهداً أو مشقة . ومن هنا كان الشعر فى هذه المرحلة طبيعياً قريب المتناول لانرى فيه أثراً للتصنع أو المعاناة ، يمدُّ الشاعر خياله الى ماحوله من مظاهر الطبيعة فيستمد صوره واخيلته منها ، ثم يصوغها فى شعره صياغة سهلة قريبة لايتكلف فيها ولا يتصنع ، ويمد فكره الى مايريده من معان فيعبر عنها تعبيراً مباشراً تسيطر عليه الواقعية والحسية ، وتقل فيه الصور الخيالية التى تحتاج الى شىء من بذل الجهد واعمال الفكر ونضح الجبين .

ومن هنا كان التشبيه اللون الفنى السائد فى شعر هذه المرحلة ، لأن التشبيه ـ كما يقرر علماء البلاغة (٥٨) ـ هو المرحلة الاولى من مراحل التصوير الفنى ، أو هو الخطوة الاولى فى صناعة الصورة الفنية. وفعلاً اعتمد شعراء هذه المرحلة على التشبيه اعتماداً شديداً واتخذوا منه لوناً أساسياً ينشرونه على نطاق واسع فى لوحاتهم الفنية .

ويُعد امرؤ القيس أشهر شعراء هذه المرحلة ، بل أشهر الشعراء الجاهليين الذين اعتمدوا على التشبيه فى رسم صورهم الفنية . وفى القصائد المختلفة التى وصلت الينا من شعره نرى التشبيه عنصراً بارزاً من عناصر العمل الفنى عنده ، ومقوّماً أساسياً من

(٥٧) انظر على سبيل المثال « فى الأدب الجاهلى » للدكتور طه حسين .

(٥٨) انظر شروح التلخيص عند قول القزوينى فى مقدمة علم البيان « ثم منه مايبنى على التشبيه فتعين التعرض له » ٢٨٩/٣ وما بعدها (القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

مقوماته . وهو ـ لذلك ـ ينتشر فى شعره انتشاراً واسعاً حتى لتبدو قطع كثيرة منه صفوفاً متلاحقة من التشبيهات التى كان ينشرها على مساحات واسعة من لوحاته الفنية لتوضيح أفكاره وتقريبها الى الأذهان تارة ، ولاشاعة شىء من الجمال الفنى فيها تارة اخرى . وبحق جعله النقاد والرواة القدماء احسن الشعراء تشبيهاً فى العصر الجاهلى (٥٩) .

ومادة التشبيه عنده ـ كما هى عند سائر شعراء هذه المرحلة ـ هى الطبيعة ومظاهرها المتعددة ، فهى ـ فى مجموعها ـ مادة حسية مشتقة من الصحراء وما يتراءى فيها من مناظر الطبيعة ومظاهر الحياة ، وقلما نجد تشبيهاً عقلياً يحتاج الى شىء من اعمال الذهن ، أو معاناة الفكرة ، فالتشبيهات عنده وعندهم قريبة يسيرة يستمدونها مما يرونه او يسمعونه او يسمعون به فى البيئة التى يعيشون فيها ويتحركون فوقها حركتهم الدائبة المستمرة التى كشفت لهم عن كل شىء فيها ، ووصلتهم به اتصالاً مباشراً دون حجاب .

ونستطيع ان نستعرض معلقته المشهورة فنلاحظ أن التشبيه هو اللون الفنى المسيطر عليها ، كما نلاحظ ماقلناه من ان التشبيه عنده مستمد من البيئة الطبيعية التى يراها او يسمعها أو يسمع بها من حوله . ونستطيع أن نتتبع أبياته فى وصف صاحباته أو فى وصف جواده أو فى وصف السيل الذى اجتاح الصحراء فنرى هذه الظاهرة الفنية قوية واضحة : حشوداً من التشبيهات تتلاحق متتابعة بحيث لايكاد يخلو بيت من تشبيه أو أكثر ، وهى كلها تشبيهات مستمدة من البيئة التى يعيش فيها ، فجيد صاحبته كجيد الظبية ، وعيناها كعينى بقرة وحشية ترنو الى صغارها فى حنان ووداعة ، وشعرها الطويل الفزير كعناقيد النخلة المتداخلة ، وانامله الناعمة كديدان الرمال اللينة التى يعرفها فى صحرائه ، أو كأغصان الاسحل الناعمة التى يراها فى باديته ، وخصرها الرقيق كأنه حزام من جلد مجدول ، وسيقانها الريا كسيقان نبات مائى يسرى الماء فيها فهى دائما غضة ناضرة (٦٠) . وجواده الذى خرج عليه للصيد عنيف كصخرة ضخمة القى بها السيل من مكان مرتفع ، سريع كخذروف الوليد ، جياش كأنه مرجل ، خاصرتاه كظبى ، وساقاه كنعامة ، وهو فى عدوه كالذئب او كالثعلب ، وظهره الأملس كمداك العروس أو صلاية الحنظل (٦١) ، والجبل فى اعقاب المطر كشيخ كبير ملتف فى بجاده المخطط ، والسيل يدور حول قمم الجبال كأنه فلكة مغزل ، وآثاره المنتشرة فوق الصحراء كأنها بضاعة نشرها تاجر يمنى ليعرضها على الناس ، والطير تنطلق فى الصباح مبتهجة بصفاء الجو تتغنى كأنها سكارى ، وسباع الصحراء التى صرعها السيل تتراءى من بعيد كأنها « أنابيش عنصل » (٦٢) .

على هذه الصورة تنتشر التشبيهات فى شعر امرىء القيس هذا الانتشار الواسع الذى يُعد الظاهرة الفنية المميزة للشعر

---

(٥٩) « احسن الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس » (حماد الراوية فى الاغانى ١٠٩/١٦ ساسى) ـ « كان علماؤنا يقولون: احسن الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس » (ابن سلام فى المصدرالسابق : الموضع نفسه) ـ « الشعراء ثلاثة : جاهلى واسلامى ومولد ، فالجاهلى امرؤ القيس ، والاسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز . وهذا قول من يفضل البديع وخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر » (السيوطى : المزهر ٣٠١/٢ ـ القاهرة ١٣٢٥) .

(٦٠) التبريزى : شرح القصائد العشر ٢٩ ـ ٣٢ (القاهرة ١٣٥٢ هـ) .

(٦١) المصدر السابق ٣٩ ـ ٤٣ .

(٦٢) المصدر نفسه ٥٢ ـ ٥٤ .

الجاهلي في هذه المرحلة من تطوره الفني ، وهي ظاهرة كما نراها عند امرىء القيس نراها عند غيره من شعراء هذه المرحلة ، بحيث نستطيع القول ان التشبيه هو اللون الأساسي عند شعراء هذه المرحلة من تاريخ الشعر الجاهلي، وهو لون لاتعقيد فيه ولا تركيب ، وانما فيه بساطة البيئة التي يستمدونه منها ، وبساطة الصحراء التي يعيشون فيها ويتصلون بمظاهر الحياة فوقها .

في شعر هذه المرحلة نرى كثيراً من آثار السرعة والارتجال والنظم على الفطرة دون عناية بتركيب الجملة او احكام لصياغة العبارة ، على نحو مانرى في هذين البيتين من معلقة امرىء القيس في مستهل وصفه للمطر والسيل :

أصاح ترى برقاً اريك وميضه
كلمع اليدين في حَبِيٍّ مكلّل
يضيء سناه أو مصابيح راهب
أهان السليطَ بالذُّبال المفتّل(٦٣)

فصياغة البيتين مضطربة غير محكمة ، وتركيبهما مفكك غير مترابط ، وخطوات الشاعر فيهما متعثرة غير منتظمة ، وبخاصة في الشطور الثلاثة الاولى التي يبدو فيها الشاعر كأنما افلت منه زمام التعبير ، أو فقد السيطرة على المعاني التي يريد التعبير عنها ، فهو يريد ان يقول : اصاح ترى برقاً يضيء سناه في حبيٍّ مكلل اريك وميضه كلمع اليدين أو كمصابيح الراهب ، ولكنه لم يحسن ترتيب عباراته ، ولاتوجيه حركته ، فاضطربت خطاه وتعثرت . وهي مظاهر للسرعة والارتجال وعدم الروية والأناة أفقدت الشاعر القدرة على احكام عباراته وترابطها . وهي كلها ترجع الى مالاحظناه من أن الشاعر في هذه المرحلة من تاريخ الشعر العربي كان يعبر عن نفسه تعبيراً مباشراً ينقل فيه احاسيسه كما يحس بها في غير تكلف ، ويعبر عن مشاعره كما يشعر بها في غير تصنع ، ويرسل العبارات كما تخطر على ذهنه دون أن يبذل في سبيل ذلك جهداً أو مشقة .

وكما نرى في شعر هذه المرحلة هذه المظاهر للسرعة والارتجال ، نرى أيضاً رواسب من المرحلة السابقة ، مرحلة الأولية المبكرة التي مر بها الشعر الجاهلي قبل أن يتم نضجه وتكتمل صورته التي نعرفها له في أواخر القرن الخامس الميلادي . فعلى الرغم من أن القصيدة العربية اكتمل لها شكلها التقليدي ومقوماتها الفنية الثابتة ، وعلى الرغم من ظهور شعراء في هذه الفترة نهضوا بفن الشعر نهضة قوية ، فان شعر هذه المرحلة ظل يحمل آثاراً ورواسب لمرحلة البداية المبكرة . ومن الممكن أن نتلمس آثار هذه المرحلة المبكرة ورواسبها فيما نراه من انتشار الزحافات في قصائد هذه المرحلة . ففي قصائد الشعراء الذين يرجع تاريخهم اليها نرى الزحافات منتشرة بشكل يلفت النظر ، على نحو مانرى في معلقة امرىء القيس ، وبالذات في القسم الأخير منها الذي يصف فيه البرق (٦٤) والمطر ، حيث تنتشر الزحافات بصورة واسعة ، فلايكاد يخلو بيت من زحاف أو أكثر ، حتى ليبدو بعضها كأنه خارج على الوزن العروضي لكثرة ما انحرفت به هذه الزحافات عن النغم الموسيقي الذي يسود القصيدة كلها .

وكما ظهرت الزحافات في شعر هذه المرحلة

---

(٦٣) المصدر نفسه ٤٨ ـ ٤٩

(٦٤) المصدر نفسه ٤٨ ـ ٥٤ .

ظهر الاقواء فى القوافى ، وقد لاحظ الباحثون كثرة الاقواء فى شعر امرىء القيس (٦٥) ، على نحو مانرى فى هذا البيت من القطعة نفسها :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله
كبير اناس فى بجاد مزمّلِ

فكلمة «مزمل» ليست صفة لكلمة « بجاد » حتى تأتى مجرورة فتتسق حركتها مع حركة الروىّ فى سائر أبيات القصيدة ، ولكنها صفة لكلمة « ثبير » ، فهى لذلك مرفوعة خلافاً لحركة الروىّ فى أبيات القصيدة كلها .

والزحاف والاقواء هما بعض الرواسب التى تخلفت فى شعر هذه المرحلة من المرحلة السابقة التى لم يكن العمل الفنى فيها قد استقام تماماً بين أيدى شعرائها ، ولا اكتملت للقصيدة العربية كل مقوماتها الفنية ، أو هما بعض الآثار التى ورثها شعراء هذه المرحلة من أسلافهم القدماء الذين كانوا لايزالون يجرون تجاربهم الفنية على القصيدة العربية ليصلوا بها الى مستوى فنى ناضج ، وليحققوا لها تكاملها الفنى الدقيق فى الصوت والصورة واللغة جميعاً ، وليوفروا لها كل مايقوم عليه بناؤها الصوتى من قيم موسيقية متناسقة دقيقة .

ومع ذلك فربما كان الزحاف والاقواء أقل هذه الظواهر الموسيقية خطراً ، ففى طائفة من قصائد هذه المرحلة نرى خروجاً على الوزن العروضى ، وتداخلاً بين الأوزان المختلفة . وهما خروج وتداخل يرجعان — أساسياً — الى أن البناء الموسيقى للقصيدة العربية لم يكن قد استقام تماماً بين أيدى الشعراء ، والقيم الصوتية لها لم تكن قد اتضحت تماماً فى نفوسهم . ونستطيع أن نرى أمثلة أخرى عند شعراء ، هذه المرحلة من امثال **المرقّش الأكبر وعمرو بن قميئة وسُلمىّ بن ربيعة** . وهى أمثلة وقف الدكتور شوقى ضيف فى كتابه «العصر الجاهلى» عند طائفة منها (٦٦) .

وربما كانت قصيدة **عبيد بن الأبرص** التى تعد عند بعض الرواة من المعلقات أهم قصيدة من نتاج هذه المرحلة ظهرت فيها هذه الانحرافات العروضية ، وهى قصيدته التى مطلعها :

اقفر من اهله ملحوبُ
فالقُطَبيّات فالذّنوب (٦٧)

فهى من مخلّع البسيط ، ولكن فى صورته البدائية المبكرة قبل أن تستقيم موسيقاه ، وتضبط قيمه الصوتية ، فلا يكاد بيت منها يخلو من صورة من صور هذه الانحرافات التى أخلت بوزنها اخلالاً شديداً . وهى ظاهرة لاحظها القدماء وأشاروا اليها وسجلوها (٦٨) عليها . وحقاً تتراءى هذه القصيدة كأنما فقد الشاعر فيها قدرته على احكام موسيقاها ، وضبط وزنها ، أو كأنما فقد الاحساس بايقاعها الصوتى الدقيق ، فاضطرب النغم فى بعض أبياتها اضطراباً شديداً تشكلت معه وحداتها الموسيقية ، أو — كما يسميها العروضيون — « التفعيلات » ، أشكالاً غريبة بدت معها الأبيات كأنما فقدت كل قيمها الموسيقية ، وكل ضوابطها الصوتية .

---

(٦٥) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٩٩/١ (دار المعارف بمصر) .

(٦٦) انظر صفحة : ١٨٤ (دار المعارف بمصر ١٩٦٠) .

(٦٧) التبريزى : شرح القصائد العشر ٣٢٢ — ٣٣٤ .

(٦٨) وقد يخطئ الراى امرؤ وهو حازم — كما اختل فى وزن القريض عبيد (أبو العلاء المعرى) ، وانظر لسان العرب مادة (قطب) .

والواقع أن هذه القصيدة تمثل بصورة قوية ماورثه شعر هذه المرحلة من رواسب البداية المبكرة المجهولة ، أو كما يقول بروكلمان (٦٩) : « ان هذه الظواهر آثار قليلة لمرحلة من النمو لم نقف على كنهها بعد » . والحق ان احتفاظ الرواة بهذه القصيدة النادرة فى صورتها الموسيقية المضطربة يعد عملا علميا رائعا يستحق الاشادة به . وفى ظنى ان هذه القصيدة من أهم ماحمله الرواة الينا من نصوص الشعر الجاهلى المبكرة ، لأنها ـ فى وضعها الدقيق ـ وثيقة تاريخية بالغة الأهمية تسجل ماكان عليه الشعر العربى فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخه الطويل ، أو هى ـ فى عبارة اخرى ـ قطعة أثرية نادرة وصلت الينا من أعماق التاريخ محتفظة بغبار الزمن الذى تطاول عليها منذ أن اخذ الشعر العربى يتحرك ببطء متجاوزا مرحلة البداية الغامضة المجهولة الى مرحلة التاريخ الثابت الصحيح .

ومع ذلك فقد استطاع شعراء هذه المرحلة أن ينهضوا بالقصيدة العربية نهضة قوية ، وان يؤصلوا لها تقاليدها الفنية التى ظلت مسيطرة عليها فترة طويلة من تاريخها . فعلى أيدى شعراء هذه المرحلة أخذت القصيدة العربية شكلها التقليدى الثابت ، واكتملت لها مقوماتها وعناصرها الفنية ، فهؤلاء الشعراء هم الذين أصّلوا تقاليد المقدمة الطللية ، بل تقاليد العمل الفنى كله . وانا لننظر فيما وصل الينا من شعر هذه المرحلة ، فنلاحظ أن القصيدة العربية أخذت شكلها النهائى ، فأصبحت تبدأ بمقدمة تدور عادة حول الأطلال وصاحبة الأطلال ، يقف فيها الشاعر فى ديار صاحبته التى أقفرت بعد رحيلها عنها، فيصف وحشتها واقفارها وأسراب الوحش السارحة فيها بعد أن كانت آهلة بأصحابها زاخرة بالحياة النابضة ، ويتذكر أيامه الماضية فيها ، ويستعيد ذكريات حبه الضائعة فوق رمالها ، ويصف صاحبة هذه الأطلال وجمالها . ثم ينتقل من هذه المقدمة الى وصف رحلته فى الصحراء التى يخرج اليها ليسرى عن نفسه أحزانها ، وينفض عنها همومها ، مستغلا فى هذا الانتقال ناقته التى يتخذ من الحديث عنها جسرا تقليديا يعبر عليه من شاطىء الحب الى شاطىء الصحراء ، ثم ينطلق بكل نشاطه وحيويته فوق رمال الصحراء الفسيحة الممتدة الى ما لا نهاية ، فيصف مظاهرها الطبيعية ، وحيوانها الشارد فى آفاقها البعيدة ، ويقف عند مناظر الصيد فيصفها فى معرض تشبيهه لناقته بحيوان الصحراء الوحشى الذى كان الصيادون يخرجون عادة فى طلبه . حتى اذا ما استوفى حقوق الصحراء عليه خرج الى موضوع قصيدته الأساسى فتحدث عنه ، وبه تنتهى القصيدة ان لم تختم ببعض الحكم التى يسجل فيها آراءه فى الحياة ، ويركز من خلالها تجاربه التى مر بها فى رحلة السنين التى عبرها .

هذه هى الصورة العامة التى استقرت عليها القصيدة الجاهلية فى مرحلة النضج الطبيعى ، وهى صورة ظلت تفرض سلطانها على القصيدة العربية فترة طويلة من تاريخها . ولسنا ندعى ان هذه الصورة كانت منهجا ثابتا موحدا لكل الشعراء القدماء ، فقد اختلفت مذاهبهم ومناهجهم باختلاف شخصياتهم واختلاف موضوعاتهم ، ولكن هذه الصورة كانت هى الصورة العامة التى ظهرت فى أكثر ماوصل الينا من قصائد الشعر الجاهلى .

• • •

---

(٦٩) تاريخ الادب العربى ٥٤/١ (دار المعارف بمصر) .

(٥)

فى أثناء هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الشعر الجاهلى ظهر شعراء استطاعوا أن يطوروا القصيدة العربية من صورتها البسيطة التى كانت عليها الى صورة أشد تعقيداً من حيث طبيعة العمل الفنى ، ومقوماته الأساسية التى يقوم عليها ، والعناصر الفنية التى تشيع فيه، ايذاناً بظهور مدرسة فنية جديدة فى الشعر الجاهلى ، وهى المدرسة التى اصطلحنا على تسميتها ((**مدرسة الصنعة**)) .

لقد استطاع شعراء هذه المدرسة الجديدة أن يحولوا المجرى الذى كان يتدفق فيه الشعر الجاهلى الى مجرى جديد ، يقف فيه الشاعر أمام عمله الفنى كما يقف الصانع أمام صنعته يجوّدها ويهذبها ، ويعيد النظر فيها مرة بعد مرة ، حتى تستقيم له على الصورة التى يريدها لها ، أو ــ بعبارة اخرى ــ كما يقف المثّال أمام تمثال له يصنعه ، فهو يعكف عليه، ويفرغ له ، ويظل يصقله وينفى فضوله ، حتى يستوى له على الصورة الفنية التى رسمها فى خياله . فالعمل الفنى عندهم ليس ارتجالاً ولا تعبيراً مباشراً عن النفس ، ولكنه صناعة يفرغ لها صاحبها ، ويعنى بها ، ويطيل فيها النظر والتفتيش ، حتى يحقق لها كل مقومات الصناعة التى تقوم عليها .

والرأى الشائع بين الباحثين أن هذه المدرسة الفنية بدأت **باوس بن حَجَر شاعر تميم الكبير الذى كان معاصراً للنابغة الذبيانى ، فكلاهما من شعراء البلاط الحيرىّ أيام النعمان بن المنذر** (٧٠) ، ولكن الحقيقة التى تؤكدها الروايات العربية القديمة هى **ان هذه المدرسة بدأت من قبل ذلك مع الطفيل الغَنَوِىّ شاعر قيس الكبير ، وهو شاعر قديم يصفه أبو الفرج** بأنه « من أقدم شعراء قيس » ، و « ليس فى قيس فحل أقدم منه » ، ويقول عنه انه كان أكبر من النابغة (٧١) ، ومعنى هذا أنه كان اكبر من أوس وأقدم منه . وكان الطفيل استاذاً لأوس (٧٢) ، وكانوا يلقبونه « المحبِّر » (٧٣) لما لاحظوه على شعره من ضروب التنميق والتجويد والصناعة . وكان أوس ــ من بعده ــ رائداً من رواد المدرسة كشف عن كثير من مسالكها التى سار فيها شعراؤها من بعده ، وارسى كثيراً من تقاليدها الفنية المميزة لها . وكان الطفيل وأوس كلاهما استاذين للشاعر الكبير **زهير بن أبى سلمى** (٧٤) الذى يمثل ــ بحق ــ الذروة الفنية التى وصل اليها فن هذه المدرسة فى هذا العصر . **وكما شهد عصر البسوس ظهور مدرسة الطبع شهد عصر داحس والغبراء ازدهار مدرسة الصنعة ، حتى لنستطيع القول ان هاتين الحربين تمثلان نقطتى تحول فى تاريخ القصيدة الجاهلية .**

واهم مايلفت النظر فى العمل الفنى عند شعراء هذه المدرسة أنه عمل تظهر فيه آثار العناية والجهد والتعب ونضح الجبين التى يبذلها الشاعر فى سبيله . فالشاعر من هذه المدرسة ينظم قصيدته ثم يعيد النظر فيها ليهذبها ويجودها ويحذف ما لايرضى ذوقه ، وما لا يستقيم مع مذهبه الفنى . وهو ــ من أجل ذلك ــ لايتسرع ولايتعجل ، وانما يلتزم الأناة الشديدة التى تحقق له كل مقومات مذهبه الفنى وعناصره . وقديماً قالوا ان

---

(٧٠) انظر شوقى ضيف : العصر الجاهلى ٤٦ وكذا ٣٦٩ (دار المعارف ١٩٦٠) .

(٧١) الاغانى : ٣٤٩/١٥ ، ٣٥٠ (دار الكتب) .

(٧٢) انظر : بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ٩٥/١ (دارالمعارف) .

(٧٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٢٧٥ (ليدن) .

(٧٤) المصدر السابق /٥٧ .

زهيراً كان يفرغ لقصيدته حولاً كاملاً يظل مشغولاً بها طواله ، وانه لذلك كان يسمى كبار قصائده « الحوليات » (٧٥) . ولكن المسألة ـ في الحقيقة ـ ليست مسألة فترة زمنية محددة ، ولكنها مسألة تفرغ للعمل الفنى ، وشغل بتنقيحه وتهذيبه وتجويده ، ومعاودة للنظر فيه زمناً طويلاً . وقد وصف الجاحظ هذه المدرسة ـ كما وصف من قبل مدرسة الطبع ـ فقال : « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً ، وزمنا طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، اشفاقاً على أدبه ، واحرازاً لما خوله الله من نعمته . وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً » (٧٦) . وأشار ابن قتيبة الى هذه المدرسة أيضاً حين قسم الشعراء الى متكلف ومطبوع ، وقال ان المتكلف يعيد النظر **كزهير والحطيئة** (٧٧) . ومن بعدهما قال **ابن جنى** : « ليس جميع الشعر القديم مرتجلاً ، بل قد كان يعرض لهم فيه من الصبر عليه ، والملاطفة له ، والتلوم على رياضته واحكام صنعته ، نحو مما يعرض لكثير من المولدين . الا ترى الى مايروى عن زهير من أنه عمل سبع قصائد في سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات زهير لأنه كان يحوك القصيدة في سنة » (٧٨) . وكان **الأصمعى** يسمى شعراء هذه المدرسة « عبيد الشعر » (٧٩) كأنما رأى في تفرغهم لعملهم الفنى ، وعكوفهم عليه ، وشقائهم به ، شبهاً من تفرغ العبيد لأعمالهم التى يكلفون بها وشقائهم بها . وفي هذا يقول الجاحظ : « وكان الأصمعى يقول : زهير بن أبى سلمى والحطيئة واشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جود في شعره ، ووقف عند كل بيت قاله ، واعاد فيه النظر ، حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة . وكان يقال : لولا أن الشعر قد كان استعبدهم ، واستفرغ مجهودهم ، حتى ادخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعانى سهواً ورهواً ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً » (٨٠) .

على هذه الصورة راح شعراء مدرسة الصنعة ، أو مدرسة عبيد الشعر ، يغيرون من طبيعة العمل الفنى السهلة اليسيرة التى لاتكلف فيها ، ولا قهر للكلام ولا اغتصاب للألفاظ ـ على حد عبارة الجاحظ القوية المعبرة، ويتحولون به الى عمل صناعى يتمهلون في صناعته ويتأنون ، ويبذلون في سبيله كثيراً من الجهد والعناء والمشقة ، حتى يخرج لهم على الصورة التى تتحقق فيها مقومات مذهبهم ، وعناصر العمل الفنى التى اخذوا أنفسهم بها .

ومن أهم هذه العناصر والمقومات الألوان البلاغية العميقة التى يبذل الشاعر في صناعتها جهداً فنياً كبيراً وبخاصة الاستعارة والتشبيه التمثيلى . والاستعارة عند البلاغيين القدماء تأتى في مرحلة بعد التشبيه ، وتحتاج الى جهد فنى في صياغتها أكثر مما يحتاج اليه التشبيه، لأنها عندهم المرحلة النهائية من مراحل

---

(٧٥) **الجاحظ** : البيان والتبيين ١٣/٢ (**الحلبى**) ، **وابن قتيبة : المصدر السابق ١٧ ، ٦١** .
(٧٦) **البيان والتبيين ٩/٢** .
(٧٧) **الشعر والشعراء ١٧** .
(٧٨) **الخصائص ٣٣٠/١ (القاهرة ١٩١٣)** .
(٧٩) **البيان والتبيين ١٣/٢ ، الشعر والشعراء/١٧** .
(٨٠) **البيان والتبيين ١٣/٢** .

التشبيه عندما تحذف كل عناصره ولا يبقى منها الا أحد الطرفين : المشبه أو المشبه به ، وهنا لابد من ذكر مايدل على العنصر المحذوف من التشبيه . فعملية الاستعارة عملية معقدة لأنها تتم على مرحلتين : مرحلة التشبيه ثم مرحلة تحويل التشبيه الى استعارة . وبقدر ما انتشر التشبيه عند شعراء مدرسة الطبع انتشرت الاستعارة عند شعراء مدرسة الصنعة ، فهى اللون البارز فى لوحاتهم الفنية، بل هى ـ فى الحقيقة ـ اهم صبغ فى صناديق أصباغهم ، أو هى ـ ببساطة ـ السمة المميزة لصناعتهم وما يبذلونه فى سبيلها من جهد وأناة .

ونستطيع ان نرى مثلاً على انتشار الاستعارة عند شعراء هذه المدرسة فى **معلقة زهير** ، فى موضعين منها تزدحم فيهما الاستعارات ازدحاماً شديداً ، وهما الموضعان اللذان يتحدث فيهما عن الحرب .

يقول فى الموضع الأول :

وما الحرب الاّ ماعلمتم وذقتمُ
وماهو عنها بالحديث المُرَجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتَضْرَ اذا ضَرَّيتموها فتَضْرَمِ
فتعرُكْكُم عرك الرحى بِثِفَالها
وتَلْقَحْ كِشَافا ثم تُنتَجْ فتُتْئِمِ
فتُنْتَجْ لكم غلمانَ أشأمَ كلهم
كأحمرِ عادٍ ثم ترضع فتفطم
فتُغْلِلْ لكم مالا تُغِلُّ لأهلها
قرى بالعراق من قَفيز ودرهم (٨١)

ويقول فى الموضع الآخر :

رَعَوا مارعوا من ظِمْئهم ثم أوردوا
غمارا تَفَرَّى بالسلاح وبالدم
فقضَّوا منايا بينهم ثم أصدروا
الى كلأ مستوبل متوخّمِ (٨٢)

فى هذه الأبيات نرى مثلاً لصناعة زهير ، وهى صناعة كان شعراء مدرسة الصنعة جميعاً يتخذون منها مذهباً فنياً لهم . وهى أبيات تزدحم فيها الصور البيانية ازدحاماً شديداً ، وتحتشد فيها الاستعارات احتشاداً يدل على أن زهيراً انما كان يقصد الى هذا الازدحام وهذا الاحتشاد قصداً ، ويتعمدهما تعمداً،لأنه يريد أن يصنع شعره وفقاً للتقاليد الفنية التى رسمها شعراءهذه المدرسة لفنهم . ففى القطعة الاولى رسم زهير للحرب ست صور مختلفة فصورها أولاً فى صورة الوحش الضارى الذى يتجرأ على الناس كلما استثاروه وهيجوه ، ثم صورها فى صورة النار المشتعلة المتأججة التى لاتهدأ ولا تخبو ، ثم صورها فى صورة الرحى الدائرة التى لاتفتأ تطحن الحب وتعركه ،ثم صورها فى صورة الناقة الكَشُوف التى يُحْمَل عليها كل عام حتى اذا وضعت وضعت توائم ولم تضع أفراداً ، ثم صورها بعد ذلك فى صورة المرأة التى تلد غلماناً مشئومين ، ولكنها مع ذلك لاتتخلى عنهم ، بل تظل ترعاهم وتتعهدهم حتى يتم فطامهم ، ثم صورها أخيراً فى صورة الأرض الخبيثة التى لايخرج نباتها الا نكداً ، ولا تغل لأهلها الا الخراب والدمار والفناء والهلاك .

وفى القطعة الثانية يصور زهير هدوء الحرب ثم اشتعالها ثم هدوءها مرة أخرى فى تلك الصورة البدوية التى تعرفها البادية فى حيانها

---

(٨١) **التبريزى** : شرح القصائد العشر /١١٦ ـ ١١٨ .

(٨٢) **المصدر السابق** /١١٩ .

الرعوية ، صورة الورْد والصَّدَر ، فالحرب تهدأ ويمتنع أهلها عن خوض غمارها كما تحبس الابل فى المرعى بعيداً عن الماء ، ثم تعود فتشتعل كأنها تلك الابل حين ترد الماء بعد حبسها ، ولكنه ماء من نوع غريب لم تألفه البادية فى حياتها العادية فى أيام سلمها ، انه ماء مصبوغ بلون الدم الذى يسيل على الأرض الظامئة لدماء المحاربين ، أرض المعركة ، حتى اذا ماقضى المتحاربون ثاراتهم والديون التى لهم على أعدائهم عادوا مرة اخرى الى مراعيهم الوبيلة الوخيمة التى لا تغل لهم خيراً ، بل شرا كثيراً .

وهكذا نستطيع أن نلاحظ أن العمل الفنى عند شعراء مدرسة الصنعة الجاهلية لم يكن عملاً يسيراً بسيطاً يعبر فيه الشاعر عن نفسه تعبيراً مباشراً ، ولكنه عمل معقد يستنفد من الشاعر كثيراً من طاقاته وقدراته الفنية حتى يستقيم له على المثال الذى رسمه له وفقا لتقاليد الصناعة واصولها التى ارساها اساتذة هذه المدرسة وروادها الأوائل .

فالظاهرة الأساسية عند شعراء مدرسة الصنعة الجاهلية هى العناية بصناعة شعرهم ، والحرص على تجويدها وتهذيبها وصقلها . وهى عناية دفعتهم الى أن يتخذوا من التصوير أداة فنية يعتمدون عليها فى صناعة شعرهم ، كما دفعتهم الى شىء آخر نراه بوضوح فى شعرهم وهو الحرص على التفاصيل ، والعناية بالجزئيات ، والالحاح على أن تكتمل لصورهم خطوطها المعبرة وألوانها المميزة . ونستطيع أن نرى مثلاً لذلك فى المقدمة الطللية الرائعة لمعلقة زهير (٨٣) حيث نراه حريصاً أشد الحرص على استكمال جزئيات صوره وتفاصيلها ، ووضع اللمسات الأخيرة عليها . فهو يشبه الأطلال بآثار الوشم فى اليد ، ولكنه لايكتفى بذلك ، وانما يجعل الوشم مُرَجّعاً مكرراً مرة بعد اخرى ، بل يجعله مرجعاً مكررا فى نواشر المعصم ليكون أشد ثباتاً وأكثر وضوحاً واقدر على مقاومة الزمن :

دِيارٌ لها بالرقمتين كأنها
مَرَاجيعُ وَشْمٍ فى نواشرِ معصم

ويصف العين والآرام التى اخذت ترتع فى ساحات الديار الخالية بعد رحيل أهلها عنها ، ولكنه يحرص على أن يسجل الحركة ، فاذا هذه الوحش ترتع متخالفة ، فهذه تذهب وتلك تجىء ، واذا صغارها تحاول النهوض من مجاثمها كلما رات امهاتها مقبلات عليها . وهكذا استطاع زهير عن طريق هذه اللمسة الفنية الدقيقة البارعة ان يشيع الحياة فى لوحته الجميلة البديعة :

بها العِينُ والآرام يمشين خلفة
وأطلاؤها ينهضن من كل مَجْثَم

ومن أروع القطع التى تتجلى فيها هذه الظاهرة القسم الثانى من هذه المقدمة الطللية (٨٤) ، وهو القسم الذى يصف فيه رحلة صاحبته ، اذ نراه يتتبع الظعائن المسافرات رحلتهن الطويلة عبر الصحراء ، يسير معهن اذا سرن ، وينزل معهن اذا نزلن ، ويعدّد المواضع التى تخترقها القافلة،والمواضع التى تنزل بها ، ويحرص على أن تستكمل صوره كل الوانها وخطوطها ، وكل هذه اللمسات الفنية الأخيرة ، فهو يتحدث عن منطقة جبل القَنَان التى اخترقتها القافلة ، فلا ينسى أن يسجل الخطر المحيط بها ، فهى منطقة خطرة كم بها « من مُحِلٍّ ومُحْرِم » . ويصف الهوادج فلا ينسى تلك الأنماط والكلل التى وضعت عليها ، بل لاينسى لونها الأحمر ، ويظل يتتبع القافلة فى رحلتها مسجلاً كل

(٨٣) التبريزى /١٠٢ ـ ١٠٥ .

(٨٤) المصدر نفسه /١٠٦ ـ ١١٠ .

تفاصيلها وجزئياتها ، حتى ينتهى معها الى حيث استقرت عند ذلك الماء الأزرق الفزير الذى أخذت العذارى الجميلات ينتشرن من حوله بعد هذه الرحلة الشاقة المضنية وهن ينشرن حولهن منظراً أنيقاً يسر أعين الشباب المتطلعين اليهن فى اعجاب والحاح .

فزهير – كسائر شعراء مدرسته – حريص على أن يوفى عمله الفنى حقه من العناية ، وان يوفر له كل مقومات مذهبه الفنى ، من اعتماد على التصوير وحرص على التفاصيل ،واهتمام بالجزئيات ، وتسجيل للحركة واللون .

وأما التشبيه الذى رأيناه اللون الأساسى عند شعراء مدرسة الطبع يستخدمونه فى بساطة ويسر مستمدين عناصره الأولية من البيئة الصحراوية التى يعيشون فيها ، ويتصلون بها اتصالاً مباشراً فقد تحول عند شعراء المدرسة الجديدة الى لون مركب تدخل فى تركيبه عناصر كثيرة معقدة أتاحت لهم النفاذ الى صور رائعة على حظ كبير من الطرافة والابداع ، وأيضاً من العمق والدقة . وهى صور تدل على خبرة واسعة بعملية مزج الألوان وتركيبها ، ومعرفة دقيقة بخصائصها وأسرارها ، وقدرة فائقة على استخدامها والتعبير بها ، وسيطرة تامة على أدواتها ووسائلها . ومن هنا انتشر فى شعرهم « التشبيه التصويرى » ، أو – كما يسميه البلاغيون – « التشبيه التمثيلى » الذى أتاح لهم – كما أتاحت الاستعارة ، بل ربما أكثر مما أتاحت – فرصة ذهبية لتحقيق مقومات مذهبهم الفنى فى قصائدهم ، وبخاصة الحرص على التفاصيل ، والاهتمام بالجزئيات ، والعناية بوضع اللمسات الأخيرة ، حتى لتبدو قطع كثيرة من شعرهم لوحات فنية متكاملة الألوان والخطوط ، على نحو مانرى فى هذه اللوحة الرائعة التى يرسمها **النابغة الذبيانى لفيضان** **الفرات من خلال مدحه للنعمان وتشبيه كرمه به :**

فما الفرات اذا جاشت غواربُه
ترمى أواذِيُه العِبْرَين بالزَّبَدِ
يَمُدُّه كل واد مترع لَجِبٍ
فيه حطام من اليَنْبُوت والخَضَدِ
يظل من خوفه الملاح معتصماً
بالخَيْزُرانة بعد الأيْنِ والنَّجَدِ
يوماً بأجودَ منه سَيْبَ نافلةٍ
ولا يحول عطاء اليوم دون غد (٨٥)

لقد استطاع النابغة ان ينفذ من وراء هذا التشبيه الى رسم هذه اللوحة الفنية الرائعة بكل تفاصيلها وجزئياتها ولمساتها الأخيرة ، سجل فيها حركة النهر الصاخبة وقد جاشت أمواجه وعلت ، وأخذت ترمى شاطئيه بالزبد الذى يرغو فوق ظهورها ، والوديان المترعة المزبدة تلقى بمائها فيه فيتدفق عنيفاً قوياً فى لجب شديد ، جارفاً معه ما اقتلعته فى انحدارها فوق سفوح الجبال من حطام النبات والشجر . لقد تكاملت للوحة خطوطها وألوانها، وبدا النهر فى عنفه وجبروته على صفحتها بما سجله الشاعر الفنان عليها من تفاصيل وجزئيات . ولكنه لم يكتف بهذا وانما راح يضع على لوحته اللمسة الأخيرة التى تعطيها شكلها النهائى ، فسجل منظر الملاح الخائف المذعور الذى يعتصم طلباً للنجاة بسكان سفينته ومجاديفها ، باذلاً – من أجل ذلك – كل ما يملك من طاقة وجهد . لقد شغل النابغة بلوحته شغلاً شديداً ، وعنى بها عناية بالغة ، فلم يضع ريشته من بين أنامله حتى تكامل لها كل ما يريده من خطوط وألوان ولمسات فنية .

---

(٨٥) المصدر نفسه /٣٢٠ ، ٣٢١ . الغوارب : الظهور .والأواذى : الامواج . والعبران : الشاطئان . والينبوت : شجر . والخضد : ماكسر وثنى من النبات . والخيزرانة :المجداف ، وفى رواية لأبى عبيدة « الخيسفوجة » وهى السكان . والاين : التعب والاعياء . والنجد : العرق من الكرب والشدة . وفى رواية ابى عبيدة « من جهد ومن رعد ».

وفى **معلقة عنترة** لوحة اخرى رائعة رسمها لصاحبته الجميلة وما تحمله أنفاسها اليه من عطر وطيب :

اذ تستبيكَ بذى غُرُوبٍ واضح
عذبٍ مُقَبَّلُه لذيذِ المطعم
وكأنَّ فأرة تاجر بقسيمة
سبقت عوارضُها اليك من الفم
أو روضةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نبتَهَا
غيثٌ قليل الدِّمْن ليس بمَعْلَم
جادت عليه كل بِكرٍ حُرَّةٍ
فتركن كل قَرَارة كالدرهم
سَحّاً وتسكاباً فكل عشية
يجرى عليها الماء لم يتصرَّم
وخلا الذباب بها فليس ببارح
غَرِداً كفعل الشارب المترنِّم
هَزِجاً يحك ذراعه بذراعه
قَدْحَ المُكِبِّ على الزناد الأجذم (٨٦)

لقد استطاع عنترة ــ عن طريق التشبيه التصويرى ــ أن يقدم لنا هذه اللوحة البديعة التى استغل فى رسمها كل خبرته بخصائص الألوان وأسرارها ، وعمليات مزجها وتركيبها . انه يشبه أنفاس صاحبته بنافجة مسك تخيره تاجر عطور من أطيب أنواعه وأذكاها رائحة ، ومضى به الى السوق ليعرضه على الراغبين فيه الباحثين عنه . ثم يعود فيشبهها بروضة نمت فى أرض طيبة عذراء لم تطأها قدم ، يجودها مطر حملته اليها فى أوائل الربيع سحب لم تمطر من قبل فما يزال ماؤها غزيراً ، وراحت تسكبه فوقها كل مساء ، حتى ازهرت واينعت وخرج نباتها طيباً ، وأخذت اسراب النحل تحوم حولها ولا تكاد تفارقها ، ودويُّها يملأ الأسماع كأنه غناء تُرَجِّعه لَهَوَات سكارى لعبت الخمر برؤوسهم ، وهى فى حركتها الدائبة النشطة تحك أيديها كما يفعل المكب الأجذم حين يكب على زناد يقدحه.
لقد وجد عنترة فى هذه الصورة من صور التشبيه فرصته ، فرسم هذه اللوحة النادرة التى تزخر بالحركة والحياة ، والتى تتشابك فيها الصور وتتداخل ، فاذا الصورة الأصلية تتشابك معها صور جانبية ، واذا المحور الأساسى الذى يدور عليه العمل الفنى تتداخل فيه محاور فرعية ، واذا اللوحة كلها تتراءى موّاجة بالحركة الدائبة ، نابضة بالحياة الدافقة ، وكأنما تحولت عملية التشبيه عنده الى مجال لعرض مهاراته وقدراته الفنية ؛ فالروضة التى يشبه بها انفاس صاحبته ــ وهى الصورة الأصلية فى لوحته ، والمحور الأساسى الذى يدور عليه العمل الفنى فيها ــ أسقطت السحب عليها مطرها « فتركن كل قرارة كالدرهم » ، والنحل يحوم حول أزهارها الملونة فى نشوة غامرة « غرداً كفعل الشارب المترنم » ، وهو لا يزال فى سعيه المتواصل النشيط يتنقل من زهرة الى زهرة ليمتص رحيقها الشهى وهو « يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم » .

وحق للجاحظ أن يعجب بهذه الصورة اعجاباً شديداً (٨٧) .

وامثال هاتين الصورتين الرائعتين كثيرة فى شعر هذه المدرسة ، نراها عند الطفيل وعند أوس وعند زهير وعند غيرهم من شعرائها كما

---

(٨٦) المصدر نفسه /١٨٣ ــ ١٨٧ . الفارة : نافجة المسك . والقسيمة : سوق المسك . والروضة الانف : التى لم يرعها احد . وقليل الدمن : اى قليل اللبث لم يدمن عليها ، والمعنى ان مطرا خفيفا اصابها وهو احسن لها واطيب لرائحتها . وليس بمعلم يريد انها فى موضع غير معروف . ويريد بالبكر الحرة السحابة فى اول الربيع . والقرارة : الموضع المطمئن من الارض يجتمع فيه ماء المطر . والاجذم : المقطوع اليد ، صفة للمكب .

(٨٧) الحيوان ٣١٢/٣ (الحلبى) .

رأيناها عند النابغة وعنترة . وإننا لنستعرض شعر هؤلاء الشعراء فلا نكاد نجد تشبيهاً بسيطاً ساذجاً كالذى كنا نراه عند شعراء المدرسة القديمة ، وانما نجد هذه اللوحات الرائعة التى فرغ أصحابها لها يجودونها فى أناة ، ويحكمون صناعتها فى روية ، ويعطونها كل ما أعطتهم مدرستهم من مقومات وتقاليد ، ويبذلون فى سبيل ذلك طاقات ضخمة من الجهد والعناء ونضح الجبين ، ويتحولون بها من عمل فنى يرتجل ارتجالاً ، وتنثال ألفاظه انثيالاً — كما يقول الجاحظ — الى عمل فنى يصنع صناعة دقيقة ، ويقوم بالثقاف — كما يقول ابن قتيبة — ، ويتحول على أيديهم الى مجالات فسيحة لعرض مهاراتهم وقدراتهم الفنية ، على نحو ما نرى فى هذه اللوحة النادرة التى رسمتها ريشة زهير البارعة لمنظر السانية التى كان الجاهليون يستخدمونها على آبار المياه لرى ما يصلح من أرضهم للزراعة ، من خلال تشبيهه لدموعه بها :

كأن عينىَّ فى غَرْبَىْ مُقَتَّلَةٍ
من النواضح تسقى جَنَّةً سُحُقَا

تمطو الرِّشاء فتجرى فى ثِنَايتها
من المَحَالة ثَقْباً رائداً قلقا

لها متاع وأعوان غدون به
قِتْبٌ وغَرْبٌ اذا ما أُفرغ انسحقا

وخلفها سائق يحدو اذا خشيت
منه اللَّحَاق تمد الصُّلب والعَنَقا

وقابِلٌ يتغنّى كلما قَبَضَتْ
على العَرَاقِى يداه قائماً دَفَقَا

يُحِيلُ فى جدول تحبو ضفادعه
حَبْوَ الجوارى ترى فى مائه نُطُقا

يخرجن من شَرَبَات ماؤها طَحِل
على الجذوع يخفن الغَمَّ والغرقا (٨٨)

لقد استطاع زهير فى هذه الأبيات أن يرسم لوحة نادرة حقاً فى الشعر الجاهلى لهذا المنظر الذى لا تعرفه البادية الا فى مناطق محدودة منها ، هى تلك الواحات الخصبة نسبياً التى تصلح أرضها لبعض أنواع من الزروع ، وبخاصة النخيل . وهى لوحة وفر لها من التفاصيل والجزئيات واللمسات الأخيرة ما جعلها لوحة واقعية نابضة بالحياة ، تظهر عليها تلك الناقة المذللة المدربة ، وهى تجر الرشاء الذى يصل بين قنيها وبين طرفى الدلوين ، فتتحرك البكرة التى يجرى عليها ، وتمتلئ الدلاء بالماء ، حتى اذا ما أفرغت على الأرض المتعطشة عادت الناقة من جديد الى حيث بدأت ، وامتلأت الدلاء من جديد ، ثم أفرغت ماءها ، وهكذا تدور السانية عوداً على بدء . ومع الناقة يظهر اولئك القائمون على أمرها ، فهناك جماعة غدوا مبكرين ومعهم متاعها من قتب وغرب ليعدوها للعمل ، وخلفها سائق يحدوها ويحثها على الاسراع كلما ابطأت ، وكلما أحست به وخشيت أن يدركها مدت ظهرها وعنقها وجَدَّتْ فى الحركة ، وعلى حافة البئر يقف آخر يتغنى وهو يتلقى الدلاء الخارجة من الماء ليصبها فى الجدول الذى حفروه وحل اصول النخل الظامئة . لقد وفر زهير للوحته تفاصيل المنظر وجزئياته ، ولكنه — مع ذلك — لم يرفع ريشته عنها حتى يضع عليها اللمسة الفنية الأخيرة التى تخير

(٨٨) ديوان زهير /٣٧ — ٤١ (القومية بالقاهرة ١٩٦٤) . السانية هى الناقة تستخدم فى رى الأرض عن طريق جذب حبل يدور حول بكرة ركبت على بئر وشدت فى نهايته دلو ضخمة ترفع الماء من البئر . والغربان : الدلوان الضخمان . والمقتلة : الناقة المذللة . والنواضح : جمع ناضحة وهى الناقة يستقى عليها . والثناية : الحبل الذى اوثق طرفه بقتب الناقة والطرف الآخر بالغرب . والقابل : الذى يتلقى الدلو . والعراقى : خشبتان كالصليب على الدلو . ونطق الماء : طرائقه . والشربات : حياض تحفر فى اصول النخل من شق واحد فتملأ ماء . والماء الطحل : الذى اخضر لطول مكثه .

لها منظر الضفادع وقد افزعها تدفق الماء فى الجدول الذى كانت تختبىء فى شقوقه ، فأخذت تحبو خارجة منه لتتعلق بجذوع النخل . وهى لمسة أضفت على اللوحة حيوية صاخبة ارتفعت بها الى أسمى درجات الفن والابداع .

على هذه الصورة استطاع زهير أن يتخذ من التشبيه التصويرى مجالاً يمارس فيه صناعته الفنية الدقيقة ، ويحقق به مقومات مدرسته وتقاليدها التى أرساها أساتذته المبدعون ، ويضيف اليها من طاقاته الخلاقة ما جعله بحق أهم شاعر خرجته هذه المدرسة ، بل القمة الفنية المعجزة التى وصلت اليها صناعة الشعر فى العصر الجاهلى . وهى قمة لم يصل اليها الا بما بذله فى سبيلها من جهد وعناء ومشقة ، وما قدمه لها من دمه وأعصابه تَضحُّ جبين وسهر ليال وكدح فكر ، قرابين ضحى بها هو وأصحابه من شعراء هذه المدرسة على مذبح الفن .

• • •

على هذه الصورة تحول التشبيه عند شعراء هذه المدرسة من صورته البسيطة الى هذه الصورة المركبة التى اتاحت لهم فرصة النفاذ الى مثل هذه اللوحات الرائعة الغنية بالتفاصيل والجزئيات ، الزاخرة بالخطوط والألوان ، عن طريق اصطناع التشبيه التمثيلى وسيلة للتصوير الفنى ، واتخاذه مجالاً رحباً لاظهار المهارات والقدرات الفنية . وهى ظاهرة نستطيع أن نفسر فى ضوئها ظاهرة فنية اخرى ، وهى الالحاح على وصف مناظر الصيد ، والتأمل الطويل فى حياة حيوان الصحراء الوحشى ، من خلال تشبيه الناقة به . وهى ظاهرة نراها منتشرة انتشاراً واسعاً عند شعراء هذه المدرسة ، نراها عند أوس وعند زهير وعند النابغة ، وعند غيرهم من شعرائها ، كما نراها عند **لبيد** الذى يمثل بحق قمة التقليد الفنى فى الشعر الجاهلى ، ففى شعره استقرت تقاليد القصيدة العربية التى اصّلها المبدعون من شعراء مدرسة الصنعة ومدرسة الطبع على السواء ، وفى قصائده الجاهلية تصل القدرة على التقليد والمحاكاة الى اعلى درجاتها ، وكأنما استوعب كل ما فى النماذج القديمة من مقومات الفن والصناعة .

والواقع أن ظهور **لبيد** فى أواخر العصر الجاهلى (٨٩) ، وامتداد حياته حتى عَمر عُمراً طويلاً (٩٠) ، وايضاً معرفته بالكتابة (٩١) التى ربما أتاحت له فرصة نادرة لتدوين شعره وشعر غيره ممن كان يروى لهم ، كانت بعض العوامل التى هيأت له اجادة التقليد والمحاكاة، والارتفاع بهما الى هذا المستوى الذى ربما لم يصل اليه شاعر جاهلى آخر . فقد هيأت له هذه العوامل أن يكون على اتصال وثيق بنماذج الشعر القديم ، وأن يستوعبها فى أعماقه استيعاباً دقيقاً،وان يتخذ منها رصيداً ضخماً ينفق منه متى يشاء ، ويتصرف فيه كيف يشاء .

ونستطيع ان ننظر فى معلقته الفخمة لنرى كيف يستغل فرصة التشبيه التمثيلى هذه ليرسم صوراً مفصلة لحياة الحيوان الوحشى فى الصحراء وما يدور بينه وبين الصيادين المتربصين به من صراع من أجل الحياة . وهى صور نرى امثالها عند الشعراء السابقين الذين اتصل بشعرهم عن طريق الرواية أو طريق التدوين ، واتخذ منه نماذج ومُثُلاً يحتذيها ويقلدها ويحاكيها معتمداً على حس لغوى دقيق ، وقدرة فائقة على الصياغة ، وسيطرة كاملة على أدوات الفن ووسائل الصناعة ،

---

(٨٩) يرجح بروكلمان انه ولد حوالى سنة ٥٦٠ للميلاد(تاريخ الادب العربى ١٤٥/١) .

(٩٠) توفى لبيد فى سنة ٤٠ للهجرة التى توافق سنة ٦٦٠للميلاد . (المصدر السابق/الموضع نفسه) .

(٩١) انظر البغدادى : خزانة الادب ٢١٥/٢ (بولاق) وابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٤٩/ ــ ١٥٠ (ليدن) .

وايضاً على خبرة واسعة بحياة البادية التى عاش فيها ، وفتن بها ، وشغل بتصويرها فى شعره شغلاً شديداً رشحه ــ عن جدارة ــ ليكون استاذاً لشاعر الصحراء الأكبر فى الأدب العربى ، **ذى الرمة** ، الذى كان يراه « اشعر الناس (٩٢) » . وهو حكم يعبر عما كان يجمع بين الشاعرين من حب للصحراء ، وفتنة بها ، وشغف بوصفها .

لقد اتخذ لبيد من ناقته ــ كما اتخذها الشعراء من قبله ــ جسراً يعبر عليه من شاطىء الحب الى شاطىء الصحراء ، ثم مضى يشبهها ــ كما شبهوها ــ بحيوانها الوحشى ، مستغلاً التشبيه التصويرى ــ كما استغلوه ــ فى وصف هذا الحيوان وما يتعرض له من مطاردات الصيادين الخارجين خلفه بسهامهم وكلابهم ، فهى تارة كأتان (٩٣) وحشية استبان حملها يطاردها فحل عنيف « لاحه طَرْدُ الفحول وضربُها وكِدامها » وهى متأبية عليه ، ولكنه يسوقها امامه ، ويعلو بها المرتفعات خشية أن تفر منه . حتى اذا انقضى الشتاء واخصبت الأرض بدات فترة صيامهما عن الماء واكتفائهما بالرطب من النبات . وتدور الأيام دورتها ، ويقبل الصيف ، وتجف الأرض ، وتأخذ الرياح الحارة فى الهبوب ، ويشتد بهما العطش ، فيندفعان فى عدو سريع بحثاً عن الماء ، وهما يثيران بحوافرهما غباراً يمتد خلفهما كأنه دخان نار متأججة اصابتها ريح الشمال فاشتد تأججها وارتفع دخانها . وبدا لهما جدول غزير الماء تظلله غابة من قصب ، فاندفعا فيه يشقان الأعواد الملتفة من حوله ، وراحا يعبان الماء البارد عباً .

ويفرغ **لبيد** من رسم هذه اللوحة التى تفيض بالحركة والحياة ، ويعود الى ناقته ليشبهها ببقرة وحشية (٩٤) أكل السبع ولدها ، فاقامت على موضعه تبحث عنه ، وسبقها القطيع الذى لا يحس مأساتها ، وخلّفها وحيدة تبكى صغيرها الذى ضيعته :

خنساءُ ضيَّعت الفَرِيرَ فلم يَرِمْ
عُرْضَ الشقائق طَوْفُها وبُغامُها

لمعفَّر قَهْدٍ تَنَازع شِلْوَه
غُبْسٌ كواسبُ ما يُمَنّ طعامها

صادفن منها غِرة فاصبنها
ان المنايا لا تطيش سهامها (٩٥)

ويقبل المساء ، ويهطل المطر ، وتنتحى البقرة المحزونة بعيداً عن الشجر والطريق ، وتأوى الى كثيب من الرمل الناعم تختبىء فيه خوفاً على حياتها ، وانتظاراً لصغيرها الذى لا تعرف مصيره . وتغطى الغيوم نجوم السماء ، ويشتد ظلام الليل ، ويختفى كل شىء تحت استاره الكثيفة ، الا بياضها الذى يبدو فى الظلام وهى تتحرك فى قلق وخوف كأنها درة بحرية انفرط عقدها وتناثرت حباته على الرمال :

وتضىء فى وجه الظلام منيرةً
كجُمَانةِ البحرىّ سُلَّ نظامها

وينحسر الظلام ، ويسفر الصباح ، وتستأنف البقرة الثكلى بحثها عن صغيرها الضائع سبعة أيام كاملة بلياليها ، ثم يدركها

---

(٩٢) انظر السيوطى : المزهر ٢/٢٩٩ (القاهرة ١٣٢٥) .

(٩٣) التبريزى : شرح القصائد العشر /١٤٣ ــ ١٥٠ .

(٩٤) المصدر السابق /١٥٠ ــ ١٥٨ .

(٩٥) خنساء صفة للبقرة الوحشية . والفرير : ولدها .والشقائق : جمع شقيقة وهى ارض غليظة بين رملتين . والقهد : الأبيض . والغبس : الذئاب .

اليأس ، ويجف اللبن فى ضروعها ، وتعود الى حياتها الطبيعية من جديد ، ولكن القدر كان يخبىء لها نذيراً من نذر الشر . ان جماعة من الصيادين يتربصون بها ومعهم سهامهم وكلابهم ، وقد ترامت الى سمعها أصواتهم الخفية البعيدة فأفزعتها ، واطلقت فى فزع وذعر سيقانها للريح . ويشعر الصيادون أن فرصة اصابتها بسهامهم قد أفلتت فيطلقون خلفها كلابهم المدربة ، ويدور صراع دام بين الفريقين تقف فيه مدافعة عن حياتها ، وينجلي الصراع عن نجاتها وسقوط بعض الكلاب مضرجة بدمائها :

فلَحِقن واعتكرت بها مَدَريَّة
كالسمهرية حَدُّها وتمامها

لتذودهن وأيقنت ان لم تذد
ان قد أُحِمَّ على الحتوف حمامها

فتقصَّدَتْ منها كَسَابِ فضُرِّجَتْ
بدمٍ وغودر فى المكَرِّ سُخَامُها (٩٦)

لقد استطاع لبيد أن يستغل فرصة التشبيه التمثيلى ليرسم هاتين اللوحتين الرائعتين حقاً اللتين أعطاهما كل طاقاته الفنية ، وكل خبراته بصناعة الشعر التى اكتسبها من اتصاله الوثيق بنماذج المدرسة الجديدة ، واللتين وفر لهما كل مقومات هذه المدرسة وتقاليدها ، وما ورثه عن أساتذتها الكبار من رصيد ضخم راح ينفق منه فى سخاء عليهما وعلى أمثالهما مما كان يرسمه فى شعره من لوحات .

● ● ●

على هذا النحو استطاعت **مدرسة الصنعة الجاهلية** أن تنهض بالقصيدة العربية تلك النهضة الرائعة التى حققت لها كثيراً من تقاليدها الفنية ، وأن تغير من مجرى الشعر الطبيعى الذى كان يتدفق فيه فى بساطة ويسر الى مجرى صناعى جديد شقته أيدى روادها الأوائل فى كثير من الأناة والروية ، وايضاً فى كثير من الجهد والتعب والعناء ونضح الجبين . وهو مجرى ظل اتباع المدرسة من بعدهم مشغولين به ، يعمقونه تارة ، ويهذبونه تارة اخرى ، حتى لنسمع واحداً منهم فى صدر الاسلام (٩٧) يقول مصوراً طبيعة عمله الفنى ، بل عمل مدرسته كلها :

أبيتُ بأبواب القوافى كأنما
أُصادِى بها سرباً من الوحش نُزَّعا

أكالئها حتى أعرِّسَ بعدما
يكون سُحَيْراً أو بُعَيْد فأهجعا

اذا خفتُ أن تُرْوَى علىَّ رددتها
وراء التراقى خشيةً أن تَطَلَّعا

وَجَشَّمنى خوفُ ابن عفانَ ردَّها
فثقَّفتها حولاً حَرِيداً ومربعا

ثم نسمع فى العصر الاموى شاعراً (٩٨) آخر يفتخر بانتسابه اليها ، وبأنه يصنع شعره وفق مقاييسها الفنية الدقيقة :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينها
حتى أقوِّم مَيْلَها وسِنَادَها

نَظَرَ المثقِّف فى كعوب قناته
حتى يقيم ثِقَافُه مُنْآدَها

---

(٩٦) اعتكرت اى رجعت . والمدرية هنا القرون الحادة ،يريد ان الكلاب لحقت البقرة فرجعت البقرة عليها تطعنها بقرونها الحادة التى تشبه الرماح . وتقصدت : قتلت .وكساب : اسم كلبة من كلاب الصيد . وسخام : اسم كلب منها .

(٩٧) سويد بن كراع فى الشعر والشعراء /١٧ .

(٩٨) عدى بن الرقاع فى المصدر السابق ، الموضع نفسه .

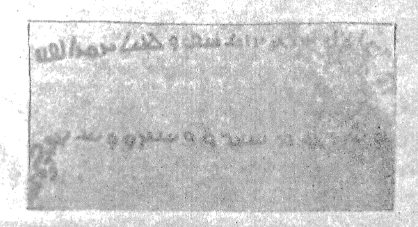
نقوش آرامية عثر عليها في ام الجمال

نقوش عربية عثر عليها في النمارة يعود تاريخها الى ٣٢٨ قم

نقوش عربية عثر عليها في زبد يعود تاريخها الى ماقبل ٥١٢ الميلاد

نقوش عربية عثر عليها في حران يعود تاريخها الى ٥٦٨

نقش زبد وقد عــثر عليه في زبد وهي خربة بين قنسرين ونهر الفرات. كتب بثلاث لغات وهي اليونانية والسريانية والعربية وتاريخه يعود الى ٥١٢ بعد الميلاد كتبت عليه اسماء الاشخاص الذين شيدوا الكنيسة. لاحظ التصوير رقم (٣).

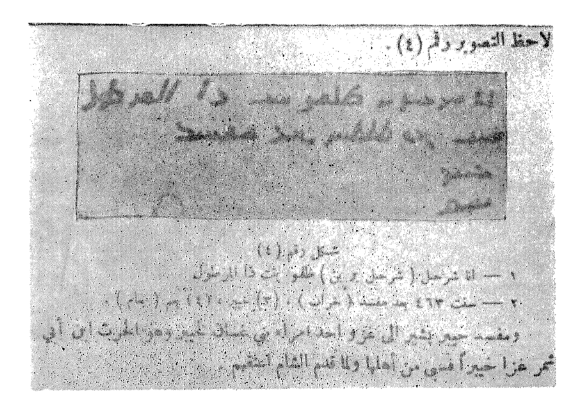


الشكل رقم (٣)

١ – بنصر الاله (بر) سرجو بر (بن) امت منفو وهانيا بر (بن) مر القيس .

٢ – وشرحو بر (بن) سعد وستو وشريحو تمي (كتبت الكلمة الاخيرة بالسريانية) .

د – نقش حران : عثر عليه في حران في المنطقة الشمالية من جبل الدروز ونقش باليونانية والعربية ووضع الحجر في جبهة باب كنيسة وتاريخه يعود لسنة ٥٦٨ بعد الميلاد ويعتبر هذا النقش اول نقش عربي كامل في جميع كلماته وتعابيره.



لاحظ التصوير رقم (٤) .

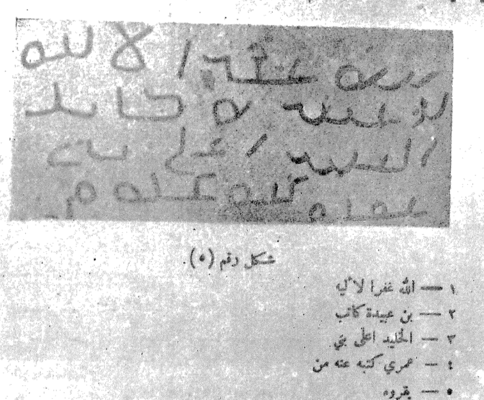
شكل رقم (٤)

١ — انا شرحبيل (شرحيل بن بن) ظلمو بنت ذا المرطول

٢ — سنت ٤٦٣ بعد مفسد (خراب) ، (٣) خيبر ، (٤) بعم (بعام) .

ومفسد خيبر يشير الى غزو احد امراء بني غسان لخيبر وهو الحرث ابن أبي شمر غزا خيبراً فسبى من أهلها ولما قدم الشام اعتقهم .

هـ ـ نقش ام الجمال الثاني : وقد عثر عليه في ام الجمال المذكورة نقش على حجر وهو أحدث نص عربي قبل الاسلام يعود تاريخه لاواخر القرن السادس الميلادي . لاحظ التصوير رقم (٥) .



شكل رقم (٥).

١ ــ الله غفرا لاليه
٢ ــ بن عبيدة كاتب
٣ ــ الخليد اعلى بني
٤ ــ عمري كتبه عنه من
٥ ــ يقروه

القدرة العقلية للمرأة (١) ومتطلبات العالم

بقلم : اليانور . أ . ماكونى

ترجمة : الدكتور ملاك جرجس

« من المحتمل ان يكون انخفاض مستوى الانتاج العقلى لدى النساء فى العلوم وفى غيرها من المجالات ، بالقياس الى مستوى الرجال ، راجعاً الى انهن يفكرن بطريقة مختلفة عن الرجال ، فنظرتهن الى الامور أقل تحليلاً ، ومن ثم أقل أصالة ، كما انهن أقل كفاءة فى مجال الرياضيات .

ان نمو القدرة على التفكير التحليلى يرتبط بنمو صفات الاستقلال والمبادءة والاعتداد بالنفس ، وهى صفات يعتقد أنها غير نسائية . ورغم أن النساء قد يكن بفطرتهن أقل ميلاً الى الاندفاع ، وأقل نزعة الى الاستقلال عن الرجال فان المجتمع نفسه لا يشجع ظهور مثل هذه الصفات فى البنات اللائى يظهرن استعداداً فطرياً للانتاج العقلى ، وهكذا نضحى بقدراتهن العقلية بسبب مفاهيمنا الجامدة غير المتطورة نحو الانوثة » .

●●●

من المعروف فى كل أنحاء العالم أن المنجزات العقلية للنساء على مدى العصور تقل كثيراً ، كماً وكيفاً ، عن منجزات الرجال ــ وأحد التفسيرات لهذا الاختلاف يتلخص فى انه الى عهد قريب ، كانت الفرص المتاحة لتعليم

---

(١) استمدت الكاتبة بيانات هذا المقال مما سبق ان نشر لها فى كتاب « امكانيات المرأة » الذى اشرف على جمعه وتنسيقه واخراجه كل من س . م . فاربر ، ر . ل . ولسن ، وصدر فى نيويورك عام ١٩٦٣ .

النساء اقل بكثير من الفرص المتاحة للرجال ، وحتى الآن ورغم مضى أكثر من اربعين عاماً منذ أن اتيحت فرص التعليم العالى لعدد كبير من النساء ، فان الفروق بين قدرات كل من الرجال والنساء قائمة وواضحة . بل انه حتى فى مجال الانتاج الأدبى حيث يفترض أن للنساء ملكات خاصة فى هذا المضمار فان انتاج الادباء من الرجال ، بل وعدد الكتاب المبدعين منهم ، يفوق كثيراً عدد النساء فى هذا الميدان ، ويظهر ذلك الفرق بوضوح اكبر اذا قارنا بين انتاج الرجال والنساء فى مجال العلوم ، اذ ان مثيلات ((**مدام كورى**)) بين النساء من الندرة لدرجة كبيرة ، كما ان الكليات والجامعات تُخرج عدداً محدداً جداً من النساء اللاتى يولعن بالبحث العلمى فى مشكلة ما أو يُعنين بجمع البيانات والحقائق التى توصل فى النهاية الى فرض أو نظرية علمية جديدة .

من المتفق عليه أن النشر فى المجلات العلمية هو احد مقاييس الانتاج العقلى ــ ولو أن هذا المقياس له بعض العيوب ، الا أنه من الصعب التوصل الى مقياس أفضل منه ــ وفى عام ١٩٥٦ اجريت فى كلية رادكليف الأمريكية Radcliffe College دراسة (٢) للانتاج العلمى المنشور لأربعمائة من النساء ، ممن سبق لهن الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة فى مجالات العلوم المختلفة بكلية « رادكليف » ، فتبين ان ما قمن بنشره من انتاج علمى يقل بشكل ملحوظ للغاية عما قامت بنشره مجموعة مماثلة من الرجال الحاصلين على نفس الدرجة العلمية ، الذين يشغلون وظائف مماثلة للنساء موضوع الدراسة ، كما تبين أيضاً أن نصف هؤلاء النساء لم ينشر من البحوث العلمية الا القليل ، أو لم ينشر شيئاً على الاطلاق منذ حصولهن على درجاتهن العلمية العليا . ومن هذا يتبين أن تيسير التحاق النساء بالدراسات العليا لم يقض على الفروق بينهن وبين الرجال فى القدرة على الانتاج العقلى .

ولعله من المناسب أن نسأل ما هى اذن أسباب الضعف النسبى لمستوى الانتاج العقلى للنساء ؟ ــ انه من المعقول ــ كما سبق أن فسر البعض ــ أن الدور الاجتماعى للمرأة لا يتناسب مع الحياة العلمية اذا ما قورن بدور الرجل ، فانه من الصعب على المرأة أن تتفرغ ذهنياً لمتابعة بحث أو فكر علمى فى مجال من المجالات، وأن تقوم فى الوقت نفسه بدورها كزوجة وام على الوجه الأكمل . ان ذلك فى الواقع اصعب بكثير من ان يقوم الرجل بنشاط علمى وذهنى ، وفى نفس الوقت يقوم بدوره كزوج واب على الوجه الأكمل ــ ولكن رغم ذلك فان من الواجب علينا ان نسأل هل يرجع سر اختلاف الرجل عن المرأة فى مجال الانتاج العقلى الى اختلاف دور كل منهما ومسئولياته واهتماماته فى الحياة الزوجية وحسب ؟

فى الواقع انى أميل الى الظن بأن هذا الاختلاف لا يكفى لتفسير الفروق الذهنية بين الجنسين ، وتؤيدنى فى ذلك ــ ولو جزئياً ــ نتائج دراسة الانتاج العلمى للحاصلات على درجة الدكتوراه من طلبة كلية « رادكليف » الأمريكية السابق الاشارة اليها ، اذ تبين منها أن الانتاج العلمى للمتزوجات منهن ، كان من حيث الكم والجودة لا يقل عن انتاج غير المتزوجات ، ويتبين من ذلك انه حتى غير المتزوجات من النساء اللائي يعملن فى مجالات التخصص المختلفة ، واللاتى من المفروض انهن يماثلن الرجال من حيث عدم الانشغال بمسئوليات غير مهنية ، يضيع عليهن بعض الوقت ، فانهن اما كن يعانين من مشاعر خاصة مقيدة لقدراتهن على الانتاج العقلى ، أو انه كان يعوزهن لدرجة ما الدافع الايجابى الذى

---

(٢) عنوان هذه الدراسة « الدراسات العليا للنساء » ــ بحث علمى قامت به لجنة الدراسات العليا للنساء بكلية رادكليف الأمريكية Radcliffe College كامبردج ــ ماساشوستس ــ جامعة هارفارد ــ ١٩٥٦ .

يدفع الى الانتاج الأمثل ، الأمر الذى اثر تأثيراً كبيراً على نشاطهن وبالتالى على انتاجهن العقلى .

كما انه لو درسنا الانتاج العقلى المرأة على مدى مراحل عمرها لوجدنا ان هناك اسباباً اخرى تجعلنا نشك فى ان مسئوليات الزواج والأطفال وما تتطلبه من وقت هى السبب الذى يؤدى الى قصور انتاجها العقلى ، فان قصور قدراتها العقلية يبدو بوضوح ملموس ويظهر تلقائياً قبل الزواج بوقت كاف ، ويستمر هذا القصور حتى فى السنوات بين ٣٥ و ٦٥ من العمر ، تلك الفترة التى تكون فيها المسئوليات الملحة الخاصة بتربية الأطفال فى العادة قد انتهت ، فى حين أننا نجد ان الرجال يبلغون فى نفس الفترة من العمر اقصى درجات الانتاج العقلى فى مجالات تخصصهم .

ويبدو انه من الممكن ان تكون هذه العوامل المعطلة للانتاج العقلى عند المراة ، هى بعض السمات المميزة التى تكون شخصيتها منذ بداية عمرها ، أو أنها صفات عقلية خاصة بها وتميزها منذ طفولتها ، ومن ثم تؤثر على ادائها الذهنى ، وفى نفس الوقت هناك أيضاً احتمال أن تكون للمراة صفات فطرية عقلية وسلوكية موروثة تؤثر على انتاجها العقلى، وفى هذا المقال ساحاول ان أكشف عن هذه الصفات او العوامل .

الفروق بين الجنسين فى القدرات العقلية

لنستعرض أولاً المعروف عن الفروق بين الجنسين فى القدرات العقلية والمعروف أيضاً عن كيفية نمو هذه القدرات ، خصوصاً عند البنات . ولكن لكى نحاول ان نحدد الصفات العقلية المميزة للنساء ــ لو كان هناك بالتأكيد مثل هذه الصفات ــ فانه من الضرورى ان نهتم بالذات بأساليب أداء البنات كمجموعة بالمقارنة مع اساليب اداء الأولاد كمجموعة اخرى . ولكن يجب ان نؤكد منذ البداية أن البنات والأولاد متماثلون عقلياً فى نواح كثيرة ، كما أن هناك فروقاً فردية فى كل مجموعة من الجنسين .

والآن وبعد أن أوضحنا هذه الحقائق ، فلنرسم صورة سريعة لبعض الفروق العامة التى ثبت وجودها فى الوظائف العقلية للجنسين .

الذكاء العام :

أظهر اختبار « ستانفورد ــ بينيه » لقياس الذكاء ــ وهو الاختبار الذى ظل لسنوات كثيرة أوسع مقاييس الذكاء الفردى استعمالاً ــ اظهر وجود عدد قليل من الفروق بين الأولاد والبنات من حيث مستوى الذكاء العام . ولم تكن هذه الفروق معروفة أو مفهومة على نطاق كبير عند عملية وضع واختيار مكونات هذا الاختبار ، أى عندما كانت بنود كثيرة محل اختبار بهدف اختيارها كأجزاء منه ، بل ان ما حدث عند تصميم الاختبار هو أن البنود التى اظهرت فروقاً مؤكدة بين الجنسين كانت تستبعد كلما كان ذلك ممكناً ــ وبناء على ذلك فانه من الواضح انه لا يمكن الاعتماد على نتائج اختبار قنن بهذا الاسلوب ، لنتعرف على مدى الفروق الفردية بين الجنسين فى القدرات العقلية .

هذا وتنطبق نفس الملاحظات على غيره من اختبارات الذكاء الشائعة الاستعمال ، فأى اختبار قد يظهر الفروق فى الذكاء بين الجنسين او لا يظهرها اعتماداً على الأجزاء التى يتكون منها ، وعلى ما اذا كانت بعض هذه الأجزاء يتفوق فيها أصلاً احد الجنسين على الآخر .

وعلى العموم فان هناك اتجاهاً عاماً لان تتفوق البنات على الأولاد فى مستوى الذكاء العام وهن فى السنوات التى تسبق الالتحاق بالمدارس ، بينما يتفوق الأولاد على البنات فى مرحلة الدراسة الثانوية . ولكن هناك احتمالاً أن يكون سبب ذلك راجعاً جزئياً الى ان نسبة الأولاد الذين يتخلفون منذ البداية عن مواصلة الدراسة ويتركون المدرسة أكبر من نسبة البنات ، الأمر الذى يؤدى الى أن يصبح

الأولاد في المرحلة الثانوية مجموعة أكثر انتقاء، الا ان بعض الدراسات طويلة المدى ـ وليست كلها ـ والتي اختبر فيها بعض الأطفال عدة مرات خلال مراحل نموهم المختلفة ، اظهرت تفوق الأولاد على البنات ، كما أن التغييرات في مستوى الذكاء في نهاية سن المراهقة ، وفي سن الرشد كانت تميل الى الزيادة في معدلات ذكاء الذكور عن معدلات الاناث ، وبمعنى آخر أن معدل ذكاء الاناث في تلك المراحل كان اقل من معدل ذكاء الذكور ، أي أن نمو الذكاء عند الاناث زاد بدرجة أقل من درجة زيادته عند الذكور ،هذا اذا أخذنا في الاعتبار طبيعةاختبار الذكاء الذي استعمل للقياس في هذه الدراسات .

القدرة اللفظية :

تتفوق البنات على الأولاد في سنوات ما قبل الدراسة وفي سني الدراسة الاولى ، في اغلب نواحي الأداء اللفظي ، كما أنهن ينطقن الالفاظ الاولى ، وينطقنها بوضوح قبل الأولاد في السن المبكرة ، كما انهن يستعملن جملاً أطول ويتحدثن بطلاقة أكثر . ولكن عندما تبدأ الدراسة في المدرسة ، تختفي الفروق بين الجنسين في مجموع مفردات اللغة التي يستعملونها (ولتفسير هذه الحقائق الخاصة بالنضج المبكر يجدر بنا أن نتذكر أن استجابة صغار الأطفال للاختبارات المختلفة التي قنناها لدراستهم ، لا يمكن أن تدل بدرجة كبيرة من الثقة ، على المستوى العقلي الذي قد يصل اليه الطفل مستقبلاً ، هذا بالاضافة الى اننا يجب أن نتذكر أن البنات ينمين جسمياً أسرع من الصبيان ، وهذا الاختلاف في درجة النضج المبكر ربما ينطبق على درجة النضج في القدرات الحركية والادراكية التي يعتمد عليها الأداء العقلي ، ولكن معدل درجة النضج لا يعني بالضرورة أنه يتضمن أي شيء بالنسبة للوصول الى مستوى عقلي عال) .

ان البنات عند التحاقهن بالمدارس يتعلمن القراءة بسهولة أكبر من الأولاد ، وفي نفس الوقت يعاني عدد أكبر من الأولاد من مشاكل صعبة في القدرة على القراءة يحتم اعداد برامج علاجية خاصة لهم . ولكن هذه الفروق بين الجنسين في القدرات اللفظية سرعان ما تختفي كما انه في خلال سنوات الدراسة لا نجد فروقاً ثابتة في تحصيل أي من الجنسين من مفردات اللغة . وقد أثبتت معظم الدراسات ان الأولاد عندما يصلون الى الصف الخامس أو السادس في المدرسة يتساوون مع البنات في القدرة على القراءة وعلى الاستيعاب ، ولكن يستمر البنات في التفوق في المهارات اللغوية كهجاء الكلمات ، واستعمال النقط والفواصل لتوضيح المعنى وتكوين الجمل ، كما انهن يتفوقن في طلاقة التعبير ، اذ يكتبن مقالات أو مواضيع انشائية أطول ، وتتوارد على خواطرهن كلمات لها معان خاصة بسرعة أكبر ، ثم انهن قادرات على الاستجابة لما يعرض عليهن من صور بتعليقات مستفيضة .

المهارات الرياضية :

أما من حيث المهارات الرياضية ، فان المتعارف عليه والمفروض هو أن الرجال يتفوقون على النساء في هذا المضمار ، ولكن قد يدهشك كما ادهشني أن نتائج الاختبارات التي اجريت في هذا المجال بينت انه لا توجد فروق حيوية بين الجنسين في المهارات الرياضية في سني الدراسة الاولى والمتوسطة ، ولكن في الواقع انه من الخطأ الادعاء بأننا نتعامل في معظم هذه الفترة من العمر مع قدرات « رياضية » فعلاً ، والأصح القول بأن ما يقاس من مهارات في السنوات بين السابعة والحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر هو أساساً المهارة في اداء العمليات الحسابية ، ولو أن الأطفال يعطون في هذه السن بعض المسائل الحسابية التي يقال انها تحتاج الى قدرات ذهنية ، مثل كم من الوقت يحتاجه ثلاثة من الرجال لحفر بدروم منزل اذا كان سبعة رجال يحفرونه في يومين ونصف ، أو كم من الوقت تحتاج رصاصة منطلقة من قطار الى آخر اذا كانت سرعتا القطارين وموعدا تحركهما

معلومين ، وقد اتضح ان البنات يمكنهن حل مثل هذه المسائل بنفس درجة كفاءة الأولاد تقريباً .

ويستمر الوضع المتقارب بين البنات والأولاد الى ان يبدأوا الدراسة فى المدرسة الثانوية . فنلاحظ عندئذ الفروق الحيوية بين الجنسين، فالأولاد يتقدمون عن البنات ويتفوقون فى الهندسة التحليلية وفى حساب المثلثات والجبر ، كما يتفوقون بشكل ملحوظ فى الاختبارات التى تتضمن تحليلاً كمياً . ثم عندما يحين وقت الالتحاق بالكليات والجامعات ويتقدم الأولاد والبنات لاختبارات القدرات التى تجريها الجامعة أو الكلية نجد ان الأولاد يتفوقون على البنات فى الأجزاء الرياضية من هذه الاختبارات بقدر يصل الى خمسين درجة ، بينما لا يتفوق البنات فى الأجزاء اللفظية من هذه الاختبارات والتى تحتاج الى حصيلة من الألفاظ بأكثر من ثمان الى عشر درجات فقط .

ومن المسلم به أن البنات لا يقدمن كثيراً على اختيار القسم العلمى بالمدرسة الثانوية حيث تدرس الرياضيات المتقدمة ، ولكن من الصعب معرفة ما اذا كان ذلك يرجع الى انه تعوزهن القدرة على التعامل مع هذه المواد الرياضية ، او يرجع الى ان ميولهن تتجه وجهة اخرى غير الرياضيات ـ كما ان الدراسات التى تحتاج الى تدريب فى الرياضيات هى المهن الهندسية ومهن العلوم الطبيعية ، وكلها اساساً مجالات عمل للرجال ، وعلى هذا فان النساء قد يحجمن عن دراسة الرياضيات لأنهن يهدفن الى اعداد أنفسهن لمهن تليق بالمراة .

وثمة تفسير آخر من الجائز انه قد يرجع اليه سر قصور البنات عن الأولاد ، وهو أن البنات قد تنقصهن فى الواقع القدرة العقلية على التفكير المجرد والتحليل، وهى القدرة التى يستعملها الفرد فى تعلم الجذر التربيعى ، والطريقة العشرية وغيرها من القواعد ، فى سنوات الدراسة الثانوية الاولى ، وهذا القصور لا تشعر به البنات حتى يصلن الى مرحلة دراسة الرياضيات التى تحتاج الى التفكير الاستنتاجى المجرد ، كما هو الحال فى مواد الهندسة والجبر ـ ولكننا فى الوقت الحاضر لا نملك الدليل القاطع الذى يجعلنا نختار من بين هذه الآراء المختلفة ما يفسر سر هذا القصور .

ان الصعاب التى تتصف البنات بمواجهتها فى دراسة الهندسة ، من المحتمل أن يكون مرجعها صفة كامنة تتصف بها الاناث ، ويمكن اكتشافها بهن فى سن مبكرة ، فعلى مدى سنوات الدراسة الابتدائية يتفوق الأولاد على البنات فى اختبارات تقدير الأحجام فى الفراغات، وتتطلب هذه الاختبارات من الفرد أن يتخيل مثلاً عدد الأسطح غير المرئية فى الجانب الآخر من كومة من المكعبات ـ اى فى الجانب الذى لا يراه الناظر اليها ـ أو أن ينتخب من مجموعة رسوم متشابكة ، الرسوم التى تصلح لتكون معاً شكلاً معيناً ، وثمة عنصر آخر فى القدرة على تصور الأشياء فى الفراغات ، هو قدرة الفرد على اكتشاف رسم أو شكل بسيط غير معقد كجزء من شكل أكثر تعقيداً . ان الجرائد تنشر أحياناً رسوماً لمناظر طبيعية يمكن للناظر اليها بامعان أن يجد فيها أشكالاً لحيوانات أو وجوهاً آدمية ، ولو أن خطوطها تبدو لأول وهلة وكأنها غيوم ، أو أوراق شجر ، أو جذوع اشجار ، والبراعة اللازمة للعثور على هذه الصور المختفية هى فى القدرة على عدم التأثر بالشكل الكلى للمنظر الطبيعى ، وامكان الاستجابة فقط لبعض أجزاء محددة منه ، دون التأثر الوقتى بباقى أجزاء الرسم التى ليست لها صلة بالصورة أو الصور المقصود اكتشافها .

وهناك اختبارات مقننة لقياس القدرة على ادراك وتحليل أجزاء محددة من مجال بصرى ، وتدل نتائج هذه الاختبارات بصفة ثابتة على

ان الأولاد اكثر قدرة من البنات على اكتشاف وادراك وتحليل هذه الأجزاء المحددة ، وان البنات أكثر شمولاً فى ادراكهن للمجال البصرى موضوع الاختبار واكثر تأثراً بعناصر شكله العام مجتمعة ـ واحد هذه الاختبارات هو المسمى باختبار « الاطار والقضيب Rod and Frame Test » وقد استخدمه « ويتكن Witkin » على نطاق واسع فى دراساته للفروق الفردية التى تكمن وراء اختلاف اساليب الادراك عند الأفراد (٢) ، وهذا الاختبار عبارة عن اطار مضىء يشبه اطار الصورة ، وبداخله قضيب مضيء أيضاً يتحرك على درجات ميل مختلفة ليتخذ وضعاً عمودياً ، ويطلب الى الفرد المختبر أن يحرك العمود بحيث يجعله فى وضع عمودى ومعتدل ـ وقد ثبت بصفة متكررة أن البنات ، فى هذا الاختبار يعتقدن أن القضيب يصبح فى وضعه العمودى الصحيح اذا حرك ليميل بنفس درجة ميل الاطار ، سواء كان فعلاً فى وضع معتدل ام لا . أما الأولاد فانهم على العكس تماماً ، اذ يتجاهلونه ويكيفون القضيب ليصبح فى الوضع العمودى المعتدل .

وعلى اساس مثل هذه الاختبارات ، واختبارات الأشكال المتداخلة دمغ « وتكن » وغيره من الباحثين ، البنات على أنهن ينظرن الى الأشياء نظرة عامة شاملة غير تحليلية . ومن الطريف ان البحوث العلمية المماثلة التى اجريت فى ثقافات مختلفة تمتد من اوروبا الغربية حتى هونج كونج ، أثبتت ميل النساء والبنات الى الاعتماد على النظرة الشاملة العامة للمواقف اكثر من ميلهن الى النظرة التحليلية .

لذلك يبدو أنه من الجائز لنا ان نفترض أن بعض الصعوبات التى تعترض كثيراً من البنات فى العمليات التحليلية التى تحتاجها دراسة الرياضيات فى المدرسة الثانوية ، يمكن ان يرجع سببها لهذا الاختلاف الذى يتصفن به منذ طفولتهن فى الاستجابة الى مجال الاستثارة الفكرية .

ويرتبط اهتمام النساء عادة بالشكل العام ، بعدم قدرتهن العقلية على الخروج عن نظام أو قاعدة ما ـ وسأحاول هنا توضيح ما أعنيه بالمقصود بنظام ما او قاعدة ما . لنفترض أنه طلب منك أن تكمل أرقام مسلسلة عددية ، ولنبدأ بمسلسلة عددية سهلة مثل المسلسلة المكونة من أرقام ٢ و ٤ و ٦ و ٨ مثلاً ، فانه من السهل عليك أن تقول ان الرقم التالى لرقم ٨ هو رقم ١٠ ، واذا اخذنا المسلسلة العددية المكونة من ارقام ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ و ٣٢ ، فانك ستقول ان الرقم التالى لذلك هو ٦٤ ـ ولكن حاول الآن أن تتعرف على مجموعة الأرقام ١٤ و ٢٣ و ٢٤ و ٤٢ و ٥٠ و ٥٩ و ٧٢ و ٨١ . . . لا شك انك حتى لو كنت ممن يعرفون مدينة نيويورك معرفة جيدة ، فستجد صعوبة لكى تدرك بأن هذه هى أرقام محطات وقوف « مترو » الأنفاق فى الشارع الثامن ، ويرجع ذلك الى انك كنت مهيئاً ذهنياً لنوع آخر من التسلسل العددى ، ولكنك لو لم تعط المسلسلتان العدديتان اللتان عرضتا عليك أولاً ، فربما كان من المحتمل أن تتعرف على هذه المسلسلة الأخيرة من الأرقام فى الحال ، بل ولربما أمكنك ان تذكر بقيتها .

ان هناك نوعاً خاصاً من الاختبارات به مسائل قننت لاختبار قدرة الفرد على الانتقال الذهنى من قاعدة فكرية مستعملة فى الحل ، الى قاعدة اخرى يستنبطها الفرد ويستدعى الموقف تشكيلها لمحاولة حل المشكلة باسلوب

---

(٢) H. A. Witkin et al., Personality Through Perception, New York, Harper and Row, 1954.

جديد ، وقد ثبت أن قدرات الرجال على أساس مثل هذه الاختبارات تفوق قدرات النساء (٤) .

وقد استنبط « كاجان » (٥) وزملاء له فى بحث علمى اسلوباً آخر من الأداء الذى يتعلق بالقدرة التحليلية ويوضح الفرق بين الجنسين فى طريقة معالجتهما للمشاكل .

ويتلخص هذا الاسلوب فى اعطاء الأفراد سلسلة من الصور والرسوم لأشياء مختلفة وأشخاص فى أوضاع وأزياء مختلفة وأوجه نشاط مختلفة ، ثم يطلب الى كل منهم أن يجمع معاً الصور أو الرسوم التى يبدو أنها مرتبطة ببعضها . وقد دل هذا الاختبار على أن البنات يملن الى تكوين ما يسميه « كاجان » بالمجموعات « الوظيفية » ، كأن يجمعن معاً مثلاً صوراً لطبيب وممرضة ومقعد ذى عجلات لأنها كلها ترتبط بالعناية بالمرضى ، فى حين أن الأولاد يكونون مجموعات تجمع فيما بينها بعض التفاصيل المشتركة ، فمثلاً يكونون صوراً لأشخاص أيديهم اليمنى مرفوعة الى أعلى ، ويسمى « كاجان » هذا النوع من التجميع « بالتجميع التحليلى » ، وتدل حقيقة اتجاه الأولاد الى هذا النوع من التجميع التحليلى على أنها دليل آخر على أنهم أكثر ميلاً لادراك تفاصيل المواقف أكثر من ميلهم للتعامل ككل .

القدرة على الابداع :

هناك دراسات محددة نسبياً للمقارنة بين الجنسين من حيث قدرة كل منهما على الابداع ، كما أن نتائج هذه الدراسات القليلة تعتمد على تعريف كل منها « للابداع » ، ففى الدراسات التى ركزت على القدرة على التحليل واعادة تشكيل الموقف فى مشكلة ما ، تبين أن الأولاد والرجال يتفوقون بشكل ملحوظ وبخاصة اذا كانت المشكلة تتضمن تصور مجال واسع ومركب .

ان مقدرة الفرد على عدم التقيد باسلوب فكرى محدد تدخل ضمن وسائل قياس « القدرة التحليلية » والقدرة على تصور الأجسام فى الفراغ ، السابق الاشارة اليهما .

اما اذا تصورنا أن الابداع يتميز بالقدرة على التفكير المتعدد أو القدرة على التفكير باساليب مختلفة لحل المشكلة موضوع البحث ، وبالمقارنة بالتفكير المحدد الذى يحل المشكلة بطريقة ليس لها غير حل صحيح واحد ، فان القرائن تميل الى ترجيح كفة البنات بعض الشىء ، ولو أن هذه النتائج ليست ثابتة — فعندما طلب الى الأطفال من الجنسين التفكير فى طرق لتحسين اللعب التى يلعبون بها ، اظهر اطفال السنتين الاولى والثانية الابتدائية من الجنسين تفوقاً ملحوظاً فى التفكير بالنسبة للعب التى تخص جنسهم ، أما أطفال السنة الثالثة الابتدائية فقد اظهروا تفوقاً ملحوظاً فى التفكير بالنسبة للعب التى تخص البنات والأولاد على السواء . ومن ناحية اخرى ، تبين ان البنات والنساء يتفوقن بدرجة أكبر فى مجموعة الاختبارات التى تقيس القدرة على التفكير باساليب مختلفة لحل المشاكل شفوياً .

---

(٤) H. Guetzkow, An analysis of the operation of set in problem solving behaviour, Journal of Genetic Psychology, No. 45, P 219-44, 1951, E. J. Sweeney, Sex differences in problem solving, dissertation submitted to Stanford University, 1953.

(٥) Jermo Kagan, Howard A. Moso and Irving E. Siegel "The Psychological significance of styles of conceptualization " in ,, J. C. Wright and Kagan (eds) Basic cognitive processes in child (Monographs of the Society for Research in Child Development. Vol. 23, No. 86, 1963.

القدرة على التحصيل :

تحصل البنات على درجات احسن من الأولاد خلال سنوات الدراسة حتى فى المواد التى يحصل فيها الأولاد على تقديرات اعلى فى اختبارات التحصيل المقننة ، أما فى سن الرشد بعد التخرج من المدرسة فان الرجال يحرزون نجاحاً يفوق نجاح النساء فى أى مجال من مجالات النشاط العقلى تقريباً ، خصوصاً الذى يمكن التحصيل فيه ، كتأليف الكتب وكتابة المقالات والانتاج الفنى والانجازات العلمية .

وقد اظهرت احدى الدراسات طويلة المدى التى تتبعت بعض الأطفال الموهوبين أن هؤلاء الأولاد الموهوبين ينزعون فى الكبر الى تحقيق امكانياتهم وطاقاتهم الكامنة فى مهنهم وفى الانتاج المبدع ، فى حين أن البنات الموهوبات لم ينزعن فى الكبر الى ذلك ، ولم يقمن بالمثل . ولا ريب فى أن هذه حقيقة بالغة الدلالة وسنتناول اسبابها المحتملة فيما بعد ، فى هذا المقال .

ولكن ما مدى الفروق الجماعية التى تعرضنا لها بين الجنسين ؟ فى الواقع أن هذا السؤال من الصعب الاجابة عليه اجابة مرضية ، وذلك لاختلاف الأساليب الرياضية التى استخدمت فى الدراسات المختلفة التى أشرنا اليها . ومع ذلك فان المعلومات أو الحقائق المعروفة توحى بأن الفروق بين الجنسين فى القدرة على تصور الأجسام فى الفراغ ، وفى بعض مظاهر القدرة التحليلية تكون واضحة منذ سنى الدراسة الاولى وعلى طول مداها ، وان الفروق بين الجنسين فى سنى الدراسة الثانوية تظهر بشكل ملحوظ فى القدرة على التفكير والاستنتاج الرياضى ، بينما تكون الفروق فى القدرة اللفظية أقل وضوحاً (٦) .

التفكير التحليلى والمبادرة :

على اساس الحقائق التى سبق ذكرها أميل الى افتراض أن الصعوبة التى تعترض البنات فى دراسة الرياضيات والعلوم على مستوى عال ، هى فى الواقع نتيجة جزئية لكون هذه المواد لازمة للتخصص فى الأعمال الهندسية وغيرها من الوظائف التى هى اساساً من وظائف الرجال ، وافترض ايضاً أن البنات ينهجن فى العادة اسلوباً يختلف بعض الشىء فى طريقتهن لتلقى المعلومات ، فهن اقل تحليلاً واكثر شمولاً وحفظاً للمعلومات ، وان هذا النوع من التفكير قد يؤهلهن لأداء الكثير من الأعمال بطريقة مرضية ، ولكنه ليس نوع التفكير الذى يؤدى الى المستوى الرفيع من الانتاج العقلى ، خصوصاً فى العلوم . (لنحرص على عدم المبالغة فى مدى هذه الفروق بين الجنسين ، فبالرغم من انه توجد فعلاً فروق اساسية ثابتة بين متوسطات كل من الجنسين، فهناك كثير من النساء عندهن القدرة على التفكير التحليلى كما يوجد رجال كثيرون عاجزون عنه) .

ولكن لماذا يتميز بعض الأفراد بالقدرة على انتهاج أساليب التفكير التحليلى اكثر من غيرهم) فى الواقع أننا حتى الآن لا زلنا فى بداية بحث هذه المسألة ، الا أن ما تم من دراسات يوحى بأن هناك بعض الاتجاهات الثابتة لتفسير ذلك ، ويبدو أن المدخل السليم لنمو القدرة على التفكير التحليلى يكمن فيما اذا كنا نشجع أو لا نشجع الطفل على المبادأة والاعتماد على ذاته ، وتدريبه على حل مشاكله بنفسه ، بدلاً من الاعتماد على الغير لتوجيه نشاطاته ، كما يكمن فى مدى تبكيرنا فى تدريبنا له على ذلك .

وقد اظهرت دراسة من الدراسات الأولى التى اجريت فى هذا المجال ـ وقام بها « دافيد

(٦) H. J. Klavsmier and W. Wiesma, Relationship of sex, Grade Level, and Locale to performance of high I.Q. students and Divergent thinking tests, J. of Educational psychology No. 55, P. 114-19.

ليفى » اهمية التـربية الاستقلالية فى تنمية بعض الوظائـف العقلية ، اذ قام بدراسـة مجموعة من الأولاد الذين وصفهم بأنهم أكثر احتضاناً من غيرهم ، نظراً للمبالغة فى تدليل الامهات لهم ومعاملتهم كأطفال حتى سن متأخرة ، فمثلاً ظلت امهاتهم يلبسـنهم ملابسـهم كل صباح ، حتى سن العاشرة او الحادية عشرة من العمر ، كما كن يقمن بتوصيلهم الى المدرسة وهن ممسكات بأيديهم . وقد وجد «ليفى» (٧) أن هؤلاء الأولاد المحتضنين أكثـر من غيرهم تقدماً فى المدرسة فى اللغة ، اذ كانوا يجيدون القراءة ، ولكنهم كانوا ضعافاً فى الرياضيات .

وقد قمت مع الدكتورة « **لوسى رو** » بدراسة فى جامعـة « سـتانفورد » على مجموعة من الأطفـال الذين يجيدون الأداء الشـفوى فى الفصل ، وفى نفس الوقت كانـوا ضـعافاً فى الرياضيات أو حل المسائل التى تتطلب تصور الأحجام فى الفراغ ، وقارناهم بمجموعة اخرى من الأطفال الذين يجيدون الرياضيات وتصور الأحجام فى الفراغ ، وفى نفس الوقت كانـوا ضعافاً نسـبياً فى الواجبات المدرسـية التى تتطلب الأداء الشفوى ، واشـتركت الدكتورة « اليزابيث بنج » فى البحث بمراقبة البنات من هؤلاء الأطفال فى علاقاتهن مـع امهاتهن ، كما طلبت الى الامهات أن يكلفوا الأطفال بحل بعض المسـائل ، ثم تابعت مدى تدخل الأم بينما كان الطفل يقوم بالحل ، فوجدت الدكتورة « بنج » أن امهات البنات اللاتى كن على درجـة كبيرة من التفوق فى الأداء اللغـوى ، كن كثـيرات التدخل فى نشاطهن أثناء الحل ، اذ والينهن بالمقترحات للاجابة على الأسئلة وبالتشـجيع على الاجابة الصـحيحة ، ونقدهن عندما كن يجبن اجابات اقل مما هو مطلوب . أما امهات البنـات المتفوقات فى الرياضيات والمسـائل الفراغية ، فقد دلت الملاحظة على أن امهاتهن كن على العكـس تمامـاً ، اذ تركن بناتهن فى اغلب الوقت ليقمن بحل المسـائل بأنفسهن ودون اية مساعدة (٨) .

وثمة دليل آخر على صحة ذلك نجده فى الدراسات الاسـتطلاعية التى أجراها كل من « **ويتكن** » و « **دايـك** » و « **فاترسـون** » و « **جوداناف** » و « **كارب** » ، الذين أرادوا أن يكتشفوا عن طـريق اختبارات القضـيب والاطار والأشكال الصغيرة المختفية فى الرسم الكبير (٩) ، ظروف الحياة التى تخلق فى الطفل الميـل الى الاعتماد على البيئة ، أو الميل الى الاستقلال عنها والاعتماد على ذاته ــ لقد تبين من دراسات « ويتكن » عن طريق مقابلاته مع امهات الأطفال ، أن الامهـات اللاتى يتمتعن بالنظرة التحليلية للمواقف ، أعطين لأطفالهن قدراً كبيراً من الحرية فى سن مبكرة لاستكشاف ما يحيط بهم فى البيئة ، كما حاولن تشجيعهم على أن يقومـوا بكثـير من الأعمال من تلقـاء انفسهم ، وعلى العكس من ذلك فان امهـات الأطفال الذين يميلون الى الاتكال على غيرهم فى البيئة ، كن يلتصقن باطفالهن ويملن الى تشجيع ارتباط الأطفال بهن ، كما كن يقمـن بتحذيرهم بصفة دائمة من المخاطر التى تحيط بهم فى البيئة ، وبوجه عـام كن لايطقن نزوع اطفالهن الى الاستقلال عنهن .

وقد تبين أن هناك أيضاً صفات اخـرى كثيرة تتميز بها هاتان المجموعتان من الامهات ،

---

(٧) D. M. Levey " Maternal Development " New York, Columbia University Press, 1943.

(٨) Elizabeth Bing, ,, The Effect of Child Rearing Practices and Development of differential cognitive abilities ", Child Development No. 43, P. 631-48, 1963.

(٩) H. A. Witkin et al, " Psychological Differentiation, New York, Wilay, 1962.

ولذلك فانه من الصعوبة بمكان تحديد العوامل الأكثر فاعلية في الحياة المنزلية التي تؤدي بصفة حاسمة الى اختلاف الأطفال من حيث أساليب الادراك المختلفة ـ وعلى كل حال فان الارتباطات التي اخترت أن أورد ذكرها هنا ، تتفق أساساً مع نتائج بحوثنا وبحوث «ليفي»، وهي تتلخص في أن سلوك الآباء الذي ينمي الروح الاستقلالية في الأطفال ويشجعهم على المبادأة والتصرف ، يكون مرتبطاً في العادة مع القدرة على التفكير التحليلي ومع التفوق في مجال علوم الرياضيات ، في حين أن الرقابة الشديدة التي تتخذ صفة الاستمرار وتقييد الطفل ، ترتبط عادة بنزوع الطفل في أغلب الأوقات الى الاعتماد على الغير ، وبالنظرة العامة الشاملة من حيث التفكير ، وبالضعف في الرياضيات .

ولو افترضنا أن هذه الارتباطات صحيحة لكان علينا أن نسأل انفسنا عما اذا كان القدر من الحرية الذي يسمح به للبنات في طفولتهن المبكرة لتنمية استقلالهن وتأكيد ذواتهن ، يقل عما يسمح به للأولاد . وللاجابة على هذا السؤال يجب أن نعترف بأن مالدينا من أدلة على ذلك محدود للغاية ، وعليه فاننا حالياً سنعتبر أن هذا السؤال لم يجب عليه حتى الآن ، واننا لانعرف بالتأكيد هل يلجأ الآباء الى تدريب أولادهم لتنمية الروح الاستقلالية فيهم باسلوب وبقدر يختلفان عن تدريبهم لبناتهم لنفس الغرض ، وهل هذا الاختلاف في التدريب ـ ان وجد ـ هو حقاً السبب في الاختلاف بين الجنسين في أساليب الادراك ، وفي الفروق بينهم في المهارات ، كما هو الحال في الرياضيات التي يبدو أن النجاح فيها يحتاج بوجه خاص الى درجة كبيرة من التفكير التحليلي ؟

الرجولة والانوثة والقدرة على التفكير التحليلي:

مما سبق ذكره حتى الآن بدأنا ندرك أنه ليس من المستطاع فهم الأداء العقلي للنساء والبنات من مجرد دراسة هذا الاداء وحسب ، ذلك لأن نمو قدراتهن العقلية لايتم كعملية منفصلة تخضع لقوانين باطنية ذاتية ، بل على العكس فانه لدرجة ما استجابة لطبيعة العلاقات وأساليب الأخذ والعطاء التي يجد الطفل نفسه محاطاً بها ، بل ان بعض أساليب التفكير قد يتوقف ظهورها على نمو جوانب معينة في الفرد ذاته ، وهذه هي التي كنا فيما مضى نظنها من صفات « الشخصية » بدلاً من اعتبارنا اياها خواص أو صفات عقلية .

ولكي اوضح هذه النقطة من جانب آخر اقول : لعله من المعروف لنا أن ذكاء الطفل كما تقيسه اختبارات الذكاء المقننة ، لا يظل ثابتاً على ممر السنين منذ الطفولة حتى سن الرشد ، فبعض الأطفال يظهر ازدياداً متدرجاً في معدل الذكاء ، في حين أن البعض الآخر يظهر انخفاضاً تدريجياً ولكن لاتوجد في الولايات المتحدة الأمريكية الا مراكز محدودة لأبحاث نمو الطفولة ، قامت بدراسات طويلة المدى للأطفال ، بمعنى أنها تتبعت نمو نفس الأطفال من الطفولة المبكرة حتى سن الرشد ، بحيث يمكن في ضوئها أن نحدد العوامل المرتبطة بالتغييرات التي تحدث في معدلات ذكاء الأطفال .

ففي مركز « فلز » للبحوث انتقى « سونتاج » (١٠) وزملاؤه من بين ملفاتهم بالمركز مجموعة من حالات الأطفال الذين اظهرت اختبارات الذكاء المتكررة ، أنهم يتحسنون تدريجياً ومع الوقت منذ السنوات السابقة للالتحاق بالمدرسة حتى سن العاشرة، وقارنوها بمجموعة اخرى من حالات الأطفال الذين انخفضت معدلات ذكائهم خلال نفس

---

(١٠) Ibid, P. 59.

الفترة من العمر ، ومــن بين الأسئلة الكثيرة التى اثاروها للمقارنة ، تساءلوا عما اذا كان من الممكن التنبؤ على اساس صفات شخصية الطفل ، بمن من الأطفال سيرتفع أو سينخفض معدل ذكائه على ممر السنين ، وقد وجدوا ان فى الامكان الاجابة الواضحة على هذا التساؤل بالايجاب .

وتبين أن الطفل الذى سيزداد معدل ذكائه، سواء كان ولداً أو بنتاً ، خلال الفتــرة من سن السادسة الى العاشرة ، يتميز بأنه مثال للطفل التنافسي ، المعتز بذاته ، المستقل ، والمسيطر فى علاقاته مع الأطفال الآخرين ، أما الطفل الذى سيتراجع معدل ذكائه على مدى الأربع سنوات سالفة الذكر ، فانه مثال للطفل السلبى ، الخجول والاعتمادى .

وواضح لدرجة كبيرة أن الخصائص التى تقترن بارتفاع معدل الذكاء ليست صــفات انثوية لدرجة كبيرة. وقد سئل أحد المشتركين فى الدراسة التى اجريت فى معهد « فلز » عن تاريخ وصــفات النمو الواجب توافرها لكى تصبح طفلة ما شخصاً يتمتع بالقدرات العقلية، فأجاب بأن اسهل رد يمكن الاجابة به على هذا السؤال ، هو أن تكون الفتــاة قـــد اتصفت بصفات الأولاد فى فترة من فترات حياتها .

ولكن الا يبدو ذلك غريباً أو شاذاً) الواقع انه يجب علينا أن نبحث أولاً عن ادلة اخرى غير نتائج دراسة معهد « فلز » قبل أن نفكر ملياً فيما يجب أن تتضمنه اساليب تربيــة البنات ، وذلك للتأكد مــن أن انواع التفكير التحليلى التــى ســبقت مناقشــتها ترتبط باتصاف البنات ببعض السمات غير الانثوية .

ولو اعتبرنا أن المهارة البالغة فى الحساب والرياضيات دليل على القدرة التحليلية (من المعروف على سبيل المثال أن المهارة فى الحساب ترتبط بالقدرة على كشف الأشكال المتداخلة ، فى حين أن المهارة اللغوية لا تتطلب ذلك) ، فانه يجب علينا أن نشير الى دراســة قــام بهــا « بلانك » (١١) عن قصص حياة بعض شهيرات النساء فى العلوم الرياضــيــة واللاتى كتبنها بأنفسهن « Autobiographies » .

لقــد اظهــرت هــذه الدراســة ان هؤلاء السيدات المتخصصات فى الرياضيات يشتركن فى ظاهرة هامة ، فكل منهن اشارت فيما كتبت عن نفسها الى ــ صلة تعلق ــ قوية لدرجــة غير عادية بأبيها فى مرحلة الطفولة اكبر بكثير من تعلقها بامها ، كما اشرن الى أنهن حاولن تشكيل انفسهن على شاكلة الآباء لا الامهات .

ويرتبط بنتائج هذه الدراسة ، ما انتهى اليه « بيرى » وزملاؤه الذين صمموا مقاييس لقياس درجة تقمص أو اقتداء من خريجات الجامعة بشخصية كل من الوالدين (١٢) ، اذ تبينوا أن النساء البارعات فى اختبار اكتشاف الأشكال المتداخلة كن يتقمصن شخصيات الأب بدرجة اكبر بكثير من تقمصهن لشخصية الام، فى حين أن العكس كان بالنسبة للنساء اللاتى كانت نتائجهن لحل مشاكل هذا الاختبار غير مرضية .

وقد أعطى للسيدات موضوع هذه الدراسة اختبار آخر يهدف الى قياس درجة تقبلهن

(١١) Emana H. Lank and Plank, emotional components, in Arithmetic learning as seen through antobiographies, The Psychoanalytic study of the child, Vol. IX, N.Y., International Universities Press, 1954.

(١٢) J. Bieri, Parental Identificat on, and within sex differences in Cognitive Behavior, J. Abnormal Psych. p. 76/9, 1962.

وخضوعهن للسلطة ، فتبين أن من كن منهن بارعات فى حل اختبار الأشكال المتداخلة ، كن يملن بشكل ملحوظ الى تقبل السلطة بدرجة أقل ، وهذا دليل على اهمية النزعة الاستقلالية الذاتية لنمو هذا النوع من التفكير التحليلى .

وفى دراسة اخرى ، أعطى مجموعة من طلبة الجامعة من الجنسين مسائل يستلزم حل اكثرها التمتع بقدرة الفرد على الانتقال الذهنى من قاعدة فكرية محددة ومحاولة اعادة تشكيل الموقف للوصول الى الحل (١٣) ، فتبين أن الطلبة الأكثر مهارة فى حل هذه المسائل كانوا هم أيضاً الذين حصلوا على أعلى تقديرات من التمتع بصفات الرجولة من حيث الشخصية ، وذلك عندما أعطوا اختبارات تقيس سمات الرجولة والانوثة فى شخصية الفرد . واخيراً فان الدراسة التى قمنا بها فى جامعة « ستانفورد » على مجموعة بنات الصف الخامس المتازات فى الحساب والهندسة الفراغية ، كانت نتائجها كالآتى :

(أ) ان أقدر البنات على حل مسائل الهندسة الفراغية أكثر من حل غيرها من المسائل الرياضية كن ، الى حد ما ، اميل فى سلوكهن الى الرجولة والى العدوان من غيرهن من البنات اللاتى يتساوين معهن فى معدل الذكاء ، ولكن يملن الى الانزواء وعدم الاختلاط اجتماعياً بزميلاتهن .

(ب) أما البنات اللاتى كن يتميزن بالبراءة فى الأعمال الحسابية ، فكن أكثر شعبية بين زميلاتهن فى الفصل ، وفى الغالب كان ينظر اليهن على انهن على درجة كبيرة من القدرة على التخطيط والتنظيم .

وقد تبين على أساس ما قررته البنات ــ موضوع الدراسة ــ أن البارعات منهن فى الحساب بالمقارنة بغيرهن ممن كن فى نفس مستوى الذكاء ، كن اقل طلباً لمساعدة الأبوين لحل أية مشكلة تصادفهن ، كما أنه عندما وضعت علاقة البنات موضوع الدراسة بامهاتهن تحت الملاحظة ، تبين أن البنات المتقدمات فى الأداء اللفظى ، اكثرهن طلباً لمساعدة الام ، وأن البنات المتازات فى الحساب أو الهندسة الفراغية يملن للاعتماد على الذات .

وهكذا نرى ان اولئك البنات لا يتميزن فقط بقدر اكبر من الاستقلال والاعتماد على الذات فى الأداء ومواجهة المشاكل ، بل انهن يتسمن ببعض السمات التى يتميز بها الأولاد ، كالميل الى الاعتداء والمهاجمة لدى البنات المتقدمات فى حل المسائل الفراغية ، والنزوع للسيطرة لدى البنات المتقدمات فى الأعمال التى تتطلب قدرة عددية .

وعلى الرغم من أن هذا المقال يُعنى أساساً بالقدرة العقلية للانثى ، فان هناك بعض الدراسات التى وجدت ارتباطات بين القدرة العقلية المتازة عند الأولاد ، والاتصاف ببعض الصفات المتفق على انها صفات انثوية .

لقد سبق أن قيست صفات الرجولة وصفات الانوثة بطرق عديدة ، فبعض المقاييس المعيارية تتكون من مقياس واحد تتدرج فيه الصفات من الرجولة الى الانوثة ، فى حين أن بعض المقاييس الاخرى تقيس على حدة كلاً من صفات الرجولة وصفات الانوثة ، ومن ثم فانه من الممكن أن يحصل شخص ما فى نفس

(١٣) G. A. Milton the Effects of Sex — Role Identification upon Problem — solving skills ; J. Abnormal Psych.

الوقت على درجات عالية فى كل من المقياسين لاتصافه بكل من صفات الرجولة والانوثة ، ذلك ان كان يتمتع بالصفات التى يتميز بها كل من الجنسين. وقد وجدت ((**روبرتا اوتزل** Roberta Oetzel)) فى دراسة قاست فيها القدرات العقلية الاولية Primary Mental Abilities (١٤) لمجموعة من أولاد الصف الخامس الابتدائى ، أن معدلات الذكاء العالية مرتبطة ارتباطاً ايجابياً بصفات الانوثة ، وسلبياً الى درجة بسيطة بصفات الرجولة — وبمعنى آخر وجدت الباحثة أن الأولاد الأكثر ذكاء كانوا اكثر انوثة واقل رجولة من اقرانهم الأقل ذكاء منهم . وباستخدام نفس الاختبارات على مجموعة من البنات تبين أن معدل الذكاء المرتفع مرتبط ارتباطاً ايجابياً مع كل من صفات الانوثة والرجولة ، ومعنى ذلك أن البنت الذكية ذكاء عالياً اميل لأن تكون نزاعة للسيطرة والنضال (وهى صفات يتميز بها الذكور) ، كما أنها تتصرف كذلك تصرف الراشدات اذ ترحب بأداء الخدمات للغير اكثر من اقرانها الأقل منها ذكاء (وهذا سلوك متفق على أنه سلوك انثوى) (١٥) .

وقد اهتمت ((**اوتزل**)) فى بحثها بتحديد بعض الانماط فى كل من الجنسين فقامت بدراسة مجموعات من الاطفال سن كل منهم احد عشر عاماً وهم متفاوتون من حيث القدرات ، فوجدت أن الأطفال الذين يتفوقون فى القدرة على اداء الأعمال المتعلقة بالفراغ أو الفضاء أكثر من تفوقهم فى القدرة اللفظية ، يميلون الى التمييز بأنهم أقل من أقرانهم من حيث صفات الرجولة اذا كانوا بنيناً — وقد تأكد هذا الاتجاه فى دراسة طويلة (١٦) المدى اجريت فى معهد ((فلز)) ، فقد لوحظ بشكل خاص انخفاض نسبة صفات الرجولة بين الأولاد الذين ثبت تفوقهم بشكل كبير فى القدرة على تصور الأجسام فى الفراغ أو الفضاء ، وذلك رغم الحقيقة الثابتة من أن الأولاد عادة يتفوقون ويتميزون عن البنات من حيث هذه القدرة .

وقد وجد كل من ((**بارون**)) و ((**ماك كينون**)) أن الرجال البارزين فى الأصالة والابداع يحصلون على درجات أعلى من حيث صفات الانوثة ، بالمقارنة بأقرانهم الأقل منهم أصالة وابداعاً ، وذلك فى اختبار يقيس صفات الرجولة والانوثة معاً (١٧) .

ويعتقد هذان الباحثان أن هذه الفروق تجعل الرجال الخلاقين المبدعين أكثر من غيرهم من حيث الميول ، فلهم مثلاً ميول جمالية وفنية وهذه تعتبر فى اختبار قياس صفات الرجولة والانوثة ميولاً انثوية ، ذلك لأن النساء يتميزن عادة بأنهن أقوى ميلاً من الرجال للجماليات والفنون .

وتدل الدراسات التى أوردناها حتى الآن فى هذا المقال ، على أن القدرة على التفكير التحليلى ، والقدرة على الابداع ، وارتفاع معدل الذكاء ، كلها صفات ترتبط مع الصفات المضادة للجنس الآخر للفرد ، بمعنى أن الرجال والأولاد المتازين يكونون أكثر أنوثة من أقرانهم الأقل امتيازاً ، وأن البنات والنساء الممتازات يكن أكثر رجولة أو ذكورة من قريناتهن الأقل امتيازاً ، وهذه الحقيقة يؤيدها كثير من الدراسات ولو أن بعض البحوث أوردت بعض الاستثناءات لهذه القاعدة :

---

(١٤) No. 55, p 208-12, 1957.

(١٥) Ibid, P. 280.

(١٦) Ibid, P. 208-12.

(١٧) Ibid, P. 211.

ولعله من المهم أن ندرك أن كون الفرد يتميز ببعض الصفات التى يتميز بها الجنس الآخر لايعنى ضمناً ، أن الفرد الذى يتمتع بقدرات عقلية ممتازة لايهتم بالجنس الآخر ، أو انه غير جذاب للجنس الآخر ، انما يعنى أن مثل هؤلاء الأفراد يشتركون مع الجنس الآخر فى ميوله ونشاطه بدرجة اكبر من أقرانهم من ذات الجنس .

التكوين الاجتماعى لعقلية المراة :

يبدو لنا ــ فى ضوء ما تقدم ــ أن الأدلة التى أوردناها ، تتلخص فى أن البنات اللاتى يتمتعن بقدرات كبيرة فى مختلف أنواع التفكير التحليلى السابق مناقشتها ، لا يتمتعن بقدر كبير من الانوثة ، على الأقل وفقاً لمفهوم مجتمعنا الحالى لما يجب أن يكون عليه سلوك الانثى .

لقد ثبت مراراً من الدراسات التى اجريت على البنات ، انهن يملن للاهتمام بالغير ، وبما يظنه الغير فيهن فى سن مبكرة ، اكثر من الأولاد ، كما انهن اكثر ميلاً للتأثر برأى الغير ، وانهن يسلكن فى المواقف المختلفة بطريقة اكثر توافقاً لما يتخيلن أن المجتمع يتطلبه كعرف ــ ومن المرجح أن هذه الميول للسلوك وفقاً للعرف ، تساعدهن على التفوق فى تهجئة الكلمات واستعمال النقط والفواصل وغيرها مما تتطلبه الكتابة الصحيحة ، وبمعنى آخر انواع الأداء التى لا يوجد لها اجتماعياً الا وجه صحيح واحد . أما مستويات الأداء الذهنى الأعلى ، فأداؤها يتطلب العقلية الاستقلالية ، والقدرة على الاعتماد على الذات والبعد عن الغير للفترة التى يكون فيها الفرد منشغلاً بحل أو دراسة مشكلة ما ، الأمر الذى يبدو ان البنات منذ سن مبكرة ، يجدنه صعب التحقيق .

ولكن الأمر ليس كذلك بالطبع بالنسبة لجميع البنات ، ولنتصور مثلاً بنتاً صغيرة فى سن قبل دخول المدرسة ، ولها من القدرات ما يؤهلها لأن يصبح تفكيرها فى المستقبل تفكيراً تحليلياً ، فهى فى طفولتها على درجة كبيرة من حب الاستطلاع والتشوق للمعرفة ، وتحب ان تستكشف حقائق الأشياء التى حولها ، ونزاعة الى الاستقلال والاعتماد على الذات ، وفى الغالب ميالة للعب مع الأولاد والى لبس مايلبسون من سراويل طويلة زرقاء ، وليست شغوفة باللعب بالعرائس كباقى البنات الصغار ، فلو فرضنا ان والديها كانا متسامحين وتكيفا مع مزاجها وسلوكها ، فما الذى يحدث لها عند دخولها المدرسة ؟

ان اول صدمة تقابلها هى ان الأولاد لن يلعبوا معها بعد ذلك ، لانهم يكونون جماعاتهم المغلقة للعب ، ومن ثم تضطر للعودة الى مصاحبة البنات ، وعن طريقهن سوف تكتشف بأساليب مختلفة ، انها لا تسلك كما ينتظر من البنات أن يسلكن ، ومن ثم تشعر بعدم القبول منهن ، الأمر الذى يولد لديها قدراً من القلق .

وقد يبدو هذا مجرد تخمين محض ، ولكن هناك بعض الأدلة على ان هذا هو ما ينتظر البنات اللواتى يبدأن حياتهن ميالات للعب مع الصبيان . وقد تعقب « سيرز » (١٨) نمو مشاعر الميل الى العدوان الذى لايسبقه استفزاز يبرره ومشاعر القلق من العدوان بين الأطفال فيما بين سن الخامسة والثانية عشرة ، فوجد أن الأولاد الذين يخشون لدرجة كبيرة الاعتداء عليهم وهم فى سن الثانية عشرة كان آباؤهم يحرمون عليهم التشاجر عندما كانوا صغاراً ، فلما بلغوا سن الخامسة من العمر

(١٨) R. R. Sears, " Relation of Early socialization, Experience to Aggression in Middle Childhood, Journal of Abnormal and Soc. Psych., No. 63, p. 466-92, 1961.

كانوا قد أصبحوا الى حـد ما لا يميلون الى العدوان ، أما البنات اللاتى أظهـرن فى سن الثانية عشرة قلقاً كبيراً وخوفاً من العدوان فهن اللاتى كن أكثر ميلاً الى العدوان وهن فى سن روضة الأطفال . ولعل ما يهمنا من نتائج هذا البحث الآن ، لمناقشة موضوعنا الحالى ، هو ما أثبته من أن الأطفال الذين أظهروا أكبر قدر من القلق والخوف من العدوان وهم فى سنى طفولتهم الوسـطى (٥ — ١٢ سـنة) كانوا قد نشئوا بطرق لا تتفق ونوعهم من حيث الجنس — ذكراً أو انثى — فى سنى طفولتهم الاولى أى قبل دخولهم المدرسة .

ان الامهـات فى معظم البيـوت الأمريكيـة يمارسن دوراً كبيراً فى تنشئة ورعاية بناتهن ، فى حين يقوم الآباء برعاية الأبناء ، ومع ذلك فقد بينت الدراسـة أن البنات اللاتى يعانين لدرجة كبيرة من القلق والخوف من العدوان فى سنى طفولتهن الوسطى ، كن البنات اللاتى نلن أكبر قدر من الرعاية والتوجيه من آبائهن ، وفوق ذلك تبين انهن لقين التشجيع على رد الاعتداء اذا ما تعرضن له من ابناء الجيران ، وهذا النوع من التشـجيع يحظى به غالبـاً الأولاد فى البيئة الأمريكية ، ومن هذا نرى أن أولئك البنات قد دفعن لأن يسـلكن سـلوك الأولاد وهى سن مبكرة ، ولذلك ليس أمامنا الا أن نفترض جـزئياً ان استهجان المجتمع لسلوكهن غير الانثوى هو الذى سبب ظهور أعراض القلق عليهن فيما بعد .

ان استهجان المجتمع يمكن أن تكون له آثار مباشرة أكبر على تعبيـر الانثى عن قدراتهـا العقلية ، وذلك بالتأثير على ارادتها ورغبتها فى أن تحاول ذلك .

ورغم أنه ليس هناك دليل واضح على أن البنات أو الأولاد هم الذين يتميزون بالارتباط بين قدراتهم (كما تقيسها اختبارات الذكاء) وأدائهم ، فان هناك بعض الدلائل على ان الأولاد يفوقون البنات فى هذه الناحيـة . وقد بينت احدى الدراسات التى اجريت فى عام ١٩٦٠ على تلاميذ الصـف السـابع أن الارتباط بين القدرة والتحصيل أعلى لدى الأولاد منه عند البنات ، كما قرر « كولمان » فى سنة ١٩٦٠ أنه بدراسة من يسمون بالمتفوقين من طلبة المدارس الثانوية ، تبين أن معدل ذكاء الأولاد يفـوق معدل ذكـاء البنـات وذلك رغـم حقيقة كون متوسط ذكاء البنات أعلى من متوسط ذكاء الأولاد ، وفقـاً لما بينته دراسـة لعينة من السكان (١٩) . ويعتقد « كولمان » أن البنات فى المدرسة الثانوية يجدن انفسـهن مقيدات بقيدين متعارضين ، فبينما يتمنين السلوك وفقاً لما يتوقعه منهن الآباء والمدرسـون من تفوق ، فانهن فى الوقت نفسه يخشين ان يؤدى هذا التفوق الى « عدم الشعبية » بين الأولاد ، وكنتيجة لهذين الضغطين المتضـاربين ، يرى « كولمان » أن ألمع البنات لا يبذلن فى المدرسة كل ما هو فى مقدورهن من جهد ، وعلى عكس ذلك فان ألمع الأولاد يجدون أنفسهم أحـراراً لأن يبـرزوا ويتفوقوا فى العلم ، فيتفوقـون فعلاً .

وقد توصلت « ماتينا هورنر » (٢٠) فى بحث لها الى نتائج مماثلة ، اذ قامت بدراسة مجموعة من الرجال والنساء الأذكياء ممن كانت أعمارهم فى سن التعليم الجامعى ، وتتلخص الدراسة فى انها طلبت الى كل فـرد من أفراد البحث أن

(١٩) J. S. Coleman, The Adolescent SocietyGlencoe, III, The Free Press, 1961.

(٢٠) Matina A. Horner, Fail : Bright Women, Psychology Today, November, 1969, P. 36.

يؤلف قصة تدور حول عبارة تعتبر مفتاحاً للغز القصة ، فالشابات طلب اليهن أن ينسجن قصصاً يدور محورها حول عبارة مؤداها « وجدت آن نفسها بعد نهاية امتحانات الفترة الاولى ، اولى فصلها فى كلية الطب » والشبان أعطوا نفس العبارة ليؤلفوا حولها قصصاً ، بعد أن استبدل اسم « آن » باسم « جون » . وبتحليل هذه القصص تبين أن هناك علامات محدودة فى قصص الشبان يظهر فيها الصراع او القلق على الدافع للنجاح ، فى حين ظهر بشكل متكرر وواضح فى قصص الشابات ما أسمته هورنر : « بدافع لتفادى النجاح » ، مثال ذلك أن ما كتبته من أن الآنسة « آن » كانت غير محبوبة ، أو أنها غير جذابة ولذلك فانها لا يناط لها الا الانكباب على الكتب بشكل مبالغ فيه ، أو أنها سوف تقلل من مجهودها حتى لا تتفوق فى الامتحان القادم لتعطى فرصة لصديقها لكى يتفوق عليها .

وقد وجدت « **هورنر** » أيضاً ، على أساس اختبارات الانجاز المعيارية Standard Achievement Tests ، أن النساء يكون اداؤهن احسن ما يكون عندما تعمل المرأة بمفردها ، واسوأ ما يكون عندما تعمل فى منافسة الرجال ، فى حين ان الرجال يبلون بلاءً حسناً فى الانجاز سواء كان تنافسهم مع الرجال أو مع النساء ، وبدرجة أكبر مما لو عمل الرجل وحده . وبعبارة اخرى ، ان الكثيرات من البنات يمنعهن الخوف من الاتهام بانهن ناقصات الانوثة ، من بذل قصارى جهدهن فى الأداء وبخاصة فى المواقف التنافسية .

وفى دراسة اخرى استهدفت تتبع مجموعة من الأطفال الموهوبين لتحديد ما سيكون من أمرهم عندما يبلغون سن الرشد ، تبين أنه لا يوجد ارتباط بين معدلات ذكاء البنات التى حصلوا عليها أثناء سنى الدراسة ، وبين مستوى ادائهن فى الوظائف التى شغلنها بعد ذلك فى الكبر ، أما بالنسبة للأولاد فتبين أن هناك ارتباطاً واضحاً وقوياً .

وهناك دليل آخر على ان البنات اللاتى يقل اداؤهن عن المستوى المطلوب فى المدرسة الثانوية ، يظهر فيهن هذا النقص منذ بداية سن البلوغ ، وهذه الحقيقة توحى بأن النقص فى القدرة على الأداء عند البنت يظهر عندما تصل الى سن النضج ، ويرتبط بدورها كانثى بالغة ، وينحصر هدفها فى الحصول على رجل ثم الزواج .

وسنحاول الآن أن نربط بين كل هذه النتائج وبين موضوع بحثنا فى القدرة العقلية للمرأة . لنفترض أن بنتاً ما قد نجحت خلال سنى طفولتها فى أن تحتفظ بصفات النزوع الى السيطرة والاستقلال والكفاح بجد ، وكلها صفات أساسية للتفكير التحليلى الجيد ، مما لا شك فيه أن هذا سيكون تحدياً منها للعرف السائد لما يجب أن يكون عليه سلوك بنات جنسها وبالرغم من أن مثل هذه الفتاة قد تنجح فى ذلك بطرق عديدة فانى أميل الى الاعتقاد بانه ما من امرأة مفكرة لها قدرات عقلية ممتازة ، الا ودفعت ثمن ذلك فى المعاناة من القلق النفسى ، والقلق له أضرار اهمها تأثيره على حياتها العاطفية وعلى شخصيتها ، كما يمكن أن تكون له آثار ضارة بنشاطها العقلى أو الفكرى .

لقد بدأنا ندرك الكثير عن آثار القلق على القدرة على التفكير فهو على الأخص مدمر للتفكير الخلاق ، اذ انه يضيق نطاق مجهودات الفرد للتوصل الى حلول للمشاكل ، ويحد من قدرته على الخروج من نطاق التفكير المحدد

الى التفكير الخلاق ، كما يمنعه من النظر الى الموقف نظرة شاملة لجميع عناصره ولكن قد يدفع القلق الانسان أحياناً الى الانتاج، فيؤدى فقط الأعمال التى سبق أن تعلم أداها جيداً ، ذلك لأن القلق عامل مضاد للتفكير الخلاق .

• • •

هل القدرة العقلية ثمنها الانوثة ؟

ان ما سبق بيانه يبدو مروعاً لمن يريد للنساء أن يصبحن مفكرات لهن قدرات عقلية خلاقة ، بل يبدو ايضاً أنه حتى لو كانت امراة ما موهوبة ذهنياً ونجحت فى تنمية المزاج المناسب والعادات الفكرية التى تجعلها تستفيد من هذه الموهبة ، فانه يجب أن تكون جريئة شجاعة القلب ، ليمكنها أن تقاوم ضغوط المجتمع من غير أن تتحطم ، وليمكنها بالتالى أن تمارس نشاطها الفكرى وهى سعيدة .

ان المتطلبات الأساسية لتنمية القدرات العقلية عند البنات تبدو للآباء والمعلمين المسئولين عن تنشئتهن أشبه بمعضلة . فهل تلجأ الامهات الى تشجيع نزعات التشبه بالأولاد والسلوك مثلهم فى بناتهن ؟ وهل يحاول المدرسون تحرير البنات من مشاعرهن العاطفية التى يرتبطن بها مع الآخرين ، والتى تساعدهن على الاقبال على التعلم داخل الفصل ؟

لا أعنى بذلك اننى اقصد أن تؤدى مجهودات الآباء والمدرسين معاً الى أن تصبح القدرات العقلية للبنات مثل قدرات الأولاد ، ففى ظنى انه من المحتمل جداً وجود عوامل وراثية تسبب اختلاف كل من الجنسين عن الآخر ، ولها اثر على الأداء العقلى لكل منهما ، وهى ليست عوامل الذكاء الفطرية . فمثلاً هناك أسباب معقولة تجعلنا نعتقد أن الأولاد يميلون فطرياً الى العدوان اكثر من البنات ، وأن عدواهم بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة لا يعنى مجرد التشاجر ، انما يعنى ايضاً الميل الى السيطرة والمبادأة . فلو كانت هذه الخاصية بالفعل هى التى تكمن وراء النمو مستقبلاً للقدرة على التفكير التحليلى ، فان الأولاد قطعاً يتميزون عن البنات اللاتى خلقن أصلاً بخصائص اكثر سلبية ويصعب عليهن التغلب عليها .

ومع ذلك يبدو أنه من المحتمل أن يكون اسلوب معاملة الكبار المسئولين عن العناية بالأطفال ، والدور الاجتماعى الذى تعلم البنات أنهن يُهيئن انفسهن له ، ذا أثر بالغ فيما اذا كانت البنات ستتكون عندهن الخصائص الدافعة لنمو المهارات العقلية على مستوى عال . وبقدر ما هو متفق عليه من أن تربية الطفل لها أكبر الأثر على مستقبله ، فان الآباء بما لهم من بعض الأحكام والقيم الذاتية يسألون : اى نوع من النساء مطلوب منا أن نمد المجتمع به ؟ وهل المطلوب هو تشجيع النمو العقلى للنساء ولو كان الطريق الوحيد الى ذلك ثمنه التضحية بالانوثة ؟

يبدو أننا قد وصلنا الى طريق مسدود ، لكن هل لا مفر من ذلك ، والا يصح أنه يوجد بديل آخر ؟ الا يمكن لتعاريفنا للبنت أو المراة التى تتصف بالانوثة ، أن تعدل وتصاغ بشكل آخر دون الاضرار بالوظائف الأساسية للمراة ؟ وهل من المحتم حقاً أن تكون للمراة سلبية واعتمادية حتى تصبح جذابة جنسياً للرجل ، أو لكى تصبح اماً مثالية ؟ الا نستطيع أن نقبل وأن نشجع فى المراة صفات الايجابية والنزوع للسيطرة والاستقلال التى تتميز بها البنت التى تتمتع بقدرات عقلية ممتازة ، من

غير ان ندمغها بوصمة الاسترجال ، ونشـــجع فيها فى الوقت نفسه سمات الانوثة الاخـــرى التى لا تعوق نمو القدرة التحليلية ؟

انى لأدرك باننى اثير بتساؤلاتى هذه قضايا متضاربة ومتشابكة، ذلك لأنالدور الاجتماعى والاقتصادى للمراة بحكم الضرورة ، دور غير استقلالى خـلال ســنوات الحمل والولادة ، ولكن هذه السنوات قد أصبحت جزءا صغيرا من عمر المراة اذا ما قورن الأمر بما كان عليه من قبل ، ولذلك فانى أتساءل مرة اخـــرى : هل ينبغى ان يظل كلّ تعريفنا للانوثة مقصوراً على مجرد اعداد المراة لهذه الفترة القصيرة من عمرها ؟؟

★ ★ ★

فـــردريش شـــــيلر

عالم الجمال وفيلسوف الحضارة

دكتور زكريا ابراهيم *

لم يكن **جوهان كريستوف فريدريش فون شيلر** J. C. Friedrich Von Schiller (١) (١٧٥٩ — ١٨٠٥) مجرد شاعر ، أو مؤلف درامى ، أو ناقد ادبى ، وانما كان ايضاً عالم جمال ، وفيلسوف حضارة ، وصاحب مذهب أخلاقي . وعلى الرغم مـن أن المفكـر الألمانى الكبير قد تلقى فى صباه دراســات علميــة ، أهلته لأن يصــبح طبيباً ، الا أنه قد أظهــر — منذ نعومة أظفاره — موهبة أدبية ممتازة ، حتى لقد استطاع أن ينشر الكثير من قصائده وأعماله الأدبية ، على صفحات أشهر المجلات الثقافية الألمانية ، ولما يبلغ العشرين من عمره.

*** الدكتور زكريا ابراهيم استاذ الفاسفة وعلم الجمال بكلية الاداب/جامعة القاهرة ، له مؤلفات كثيرة فى تاريخ الفلسفة وعلم الأخلاق وفلسفة الفن ، من أشهرها « كانت » أو الفلسفة النقدية » ، و « هيجل أو المثالية المطلقة » ، و « دراسات فى الفلسفة المعاصرة » ، و « برجسون » ، ومجموعة « مشكلات فلسفية » ، و « فلسفة الفن فى الفكر المعاصر » ... الخ .**

(١) فريديش شيلر — بطبيعة الحال — هو غير فرديناند كننج سكوت شيلر F. C. S. Schiller (١٨٦٤ — ١٩٣٧) الفيلسوف الانجليزى البرجمانى صاحب النزعة الانسانية ، كما انه غير ماكس شيلر Max Scheler (١٨٧٤ — ١٩٢٨) الفيلسـوف الالمـانى الفنومنولوجى الذى تتلمـذ على يـدهوسرل ، وطبق منهجه الوصفى على الدين ، والأخلاق ، والقيم .

وليس ادل على النجاح الفنى الذى احرزه شيلر الشاب ، من ان احدى رواياته المسرحية قد عرضت على خشبة أحد المسارح الكبرى بمانهايم Mannheim ، عام ١٧٨٢ ، ولم يكن شيلر فىذلك الوقتقد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره . والظاهر أن أعمال شيلر الأدبية قد اتسمت ــ بادىء ذىبدء ــ بطابع التشاؤم ، ولو انها لم تكن تخلو ــ فى الآن نفسه ــ من صبغة مثالية . ولم يلبث الاهتمام الأدبى أن قاد شيلر الى اعتاب علم الجمال وفلسفة الفن ، فكان من ذلك أن تحول شيلر الى الكتابة فى بعض المشكلات الجمالية ، خصوصاً تحت تأثير دراسته **لكانت** Kant . وقد تعرف شيلر على الشاعر الألمانى الكبير **جوته** Goethe (١٧٤٩ ــ ١٨٣٢) فى تلك الآونة ، فنشأت بينهما صداقة وطيدة وسرعان ما ادرك الاثنان ــ على الرغم من اختلاف مزاجيهما ــ انهما قد خلقا للعمل سوياً . ويقال انشيلر قد استطاع ان يظفر بمنصب « استاذ علم الجمال » بجامعة ينا Jena سنة ١٧٨٩ ، بفضل تعضيد صديقه جوته ، ولكن من المؤكد ان أعماله الجمالية القيمة هى التى رشحته للظفر بمثل هذا المركز الأكاديمى الكبير . ثم كان أنقضى شيلر الفترة من سنة ١٧٩١ الى سنة ١٧٩٦ فى دراسة كتاب « نقد ملكة الحكم » لكانت ، مع الاهتمام بتحديد موقفه الجمالى من النظرية الكانتية فى فلسفة الفن . وقد ظهر كتابه المشهور « رسائل فى التربية الجمالية للانسان » خلال هذه الفترة (سنة ١٧٩٥) ، ثم لم يلبث ان اتبعه ببحث قيم فى « الشعر الساذج ، والشعر العاطفى » عام ١٧٩٦ . واما الفترة الأخيرة من حياته فقد كرسها بأكملها (تقريباً) للأعمال الشعرية والروائية ، فكتب « **ڤالنشتاين** Wallenstein » (فى ثلاثة أجزاء) عام ١٨٠٠ ، واشترك مع جوته فى كتابة « اكزينيا Xenia » (سنة ١٧٩٦)، ونشر قبل وفاته (عام ١٨٠٥) خمسة مجلدات ضخمة تضم بعضاً من أعماله المسرحية . وكان شيلر ــ فى كل أعماله الأدبية والفلسفية ــ مفكراً عبقرياً جمع بين الحساسية الجمالية المرهفة ، والحماسة الدينية المشبوبة ، كما كان ــ فى حياته العملية والسياسية ــ جندياً ثائراً ، ومجاهداً مخلصاً ، حتى لقد منحه رجال الثورة الفرنسية لقب « مواطن شرف » .

مؤلفات الشباب :

ليس من شك فى أن شيلر يحتل مكانة كبرى فى تاريخ الدراسات الجمالية ، لأنه استطاع أن يمزج نظرة جوته الشعرية الى الكون بفلسفة **كانت** النقدية فى الجمال ، فخرج من ذلك بوجهة نظر جديدة تعد نقطة تحول هامة فى تاريخ علم الجمال من ناحية ، والفلسفة الألمانية عموماً من ناحية اخرى . ولكن شيلر قد عرف أيضاً كتابات **روسو** فى الحضارة ، وابحاث كانت فى فلسفة التاريخ ، فكان من ذلك أن وجّه جانباً غير قليل من اهتمامه الى مشكلة الحضارة ، خصوصاً وأنه كان على معرفة واسعة بتاريخ الحضارات البشرية ، كما كان على صلة وثيقة بقضايا عصره السياسية . ومن هنا فقد اقترنت المشكلة الجمالية ــ فى ذهن شيلر ــ بالمشكلة الحضارية ، كما كانت القضايا الأخلاقية فى نظره ــ وثيقة الصلة بالقضايا السياسية . ولكن المهم ان شخصية شيلر قد اتسمت ــ ــ منذ البداية ــ بطابع تكاملى : فكانت حياته وفكره بمثابة « مؤلف » جمع بين النزعة الحسية (أو الجمالية) ، والنزعة الحيوية (أو البيولوچية) ، والنزعة الأخلاقية « أو القيمية » . وكانت الشخصيات الثلاث التى وقع شيلر تحت تأثيرها ــ فى مرحلة التلمذة ــ هى شخصية الطبيب **آبل** Abel ، وشخصية **روسو** ، وشخصية **كانت** .

وقد اعتاد بعض مؤرخي حياة شيلر

تقسيم انتاجه الجمالي الى مرحلتين : **مرحلة أولية مبكرة** لم يكن فيها قد اهتم بعد بالمشكلات الفلسفية ، وتلك هي المرحلة الأدبية التي كتب فيها بعض المقالات القصيرة والدراسات الأخلاقية الموجزة ، الى أن قدر له الاطلاع على الفلسفة الكانتية ، ثم **مرحلة جمالية متأخرة** كانت له فيها دراسات فلسفية دقيقة في الفن والجمال والحضارة ، وهي المرحلة التي تبدأ برسائل كالياس Kallias ، وتنتهي بدراسته المعروفة في « الشعر الساذج والشعر العاطفي » .

بيد أن هذا التقسيم — في الحقيقة — لا يزيد عن كونه مجرد تقسيم شكلي صرف : لأن فكر شيلر قد ظل — في جوهره — محتفظاً بسماته الأصلية ، وان يكن قد تعرّض — من حيث الشكل — للكثير من التغيرات الجذرية . ونحن نلاحظ أن شيلر حين يدرس المشكلات الفلسفية ، فانه لم يلبث ان اتخذ لنفسه موقفاً خاصاً ، دون أن يمنعه موقفه الفلسفي الخاص من الوقوع تحت تأثير بعض الفلاسفة الاسكتلنديين . ولعل هذا ما حدا بأحد الباحثين الى القول « بأن هناك مذهباً فلسفياً شيلرياً ، ونظرية جمالية شيلرية ، وهما مختلفان عن الفلسفة الكانتية ، فما كان في وسع استاذ عظيم مثل شيلر أن يبقى مجرد تلميذ لكانت ! » والواقع أننا حتى لو سلّمنا مع بعض النقاد — بأن نقطة البدء في فلسفة شيلر الجمالية قد كانت هي مؤلف كانت المشهور في « نقد ملكة الحكم » ، وأن شيلر قد حاول بالفعل ان يقتفي خُطى استاذه كانت ، فلا بد لنا من الاعتراف — مع ذلك — بأن شيلر قد استطاع لأول مرة في تاريخ الفكر الجمالي — كما شهد له **هيجل** نفسه — أن يعلو على فلسفة كانت الجمالية .

ولو أننا نظرنا الآن الى مؤلفات الشباب التي خلفها لنا شيلر ، لوجدنا أنها — في معظمها — مقالات أخلاقية قصيرة وقع فيها شيلر تحت تأثير الفلاسفة الاسكتلنديين : فنحن هنا بازاء « فلسفة في السعادة » حاول فيها شيلر استخلاص السمات المشتركة التي تتوافر في كل أشكال السعادة (مهما يكن من تنوعها) ، وكأن لسان حاله يقول : « ان السعادة هي الشريعة النهائية للطبيعة البشرية » . وقد لاحظ فيلسوفنا — في هذا الصدد — ان الطريقين الوحيدين الموصلين الى السعادة انما هما : **طريق الحكمة** من جهة ، **وطريق الحب** (أو المحبة) من جهة اخرى . أما عن « الحكمة » فانها هي التي تكشف لنا عن أدوم اللذات وأنقاها ، فضلاً عن أنها هي التي تعيننا على تحقيق عملية « الاختيار » . وأما « المحبة » ، فانها تمثل صميم المذهب الأخلاقي الذي كان يقول به الفلاسفة الاسكتلنديون ، وهي في الوقت نفسه الفكرة الأساسية التي دارت حولها معظم قصائد شيلر في مرحلة الشباب . والواقع اننا في مسيس الحاجة الى الآخرين — فيما يقول الفلاسفة الاسكتلنديون ، وعلى رأسهم **آدم سميث** — نظراً لأنهم يمثلون — بالنسبة الينا — ضرورة حيوية لا غناء لنا عنها ، ومن ثم فانه لا بد لنا من أن نحبهم ، ونتعلق بهم ، ونتعاطف معهم . وقد ترددت أصداء هذه النظرية عند آبل Abel (استاذ شيلر) ، خصوصاً وأن آبل كان يرى أن من شأن الفلسفة أن تعمل على زيادة حظنا من السعادة . ثم جاء شيلر فحاول — بادىء ذي بدء — التوسع في شرح هذه النظرية ، ثم لم يلبث ان أخذ عن **شافتسبرى** Shaftesbury فكرة أخلاقية اخرى ، مؤداها أن من شأن كل موجود أن يهدف الى تحقيق غايته . وحين يحقق الوجود البشري غاية « النوع » (أو « الجنس ») الذي ينتسب اليه ، فهنالك يصبح الانسان « فاضلاً » و « سعيداً » على السواء . وقد كان شيلر — في القرن الثامن عشر — أول من تحدث عن « الفن » بمثل هذا الاعجاب والتحمس (منذ عصر النهضة) : اذ نراه يعلن أن الانسان

ـ بطبيعته ـ منجذب نحو « الجمال » ، شديد النفور من « القبح » . بل ان شيلر ليمضى الى حد أبعد من ذلك فيقول : « اننا حين ننمّي ملكاتنا الجمالية ، فاننا ننمى فى الوقت نفسه ملكاتنا الخلقية ، لدرجة أن الاهتمام بالتربية الجمالية قد يعفينا من الاهتمام بالتربية الخلقية » . وهذه الفكرة الأساسية التي برزت فى كتابات شيلر منذ عهد الشباب سوف تصبح من بعد محور نظريته الجمالية : لأنه سيرى فى كل من « الفن » و « الأخلاق » نشاطاً حراً منزهاً عن كل غرض . ومعنى هذا ان غاية الانسان ـ فى نظر شيلر ـ هى أن يصل الى تحقيق « الانسجام » و « السعادة » فى آن واحد ، مع العلم بأن « الجمال » سبيل من السبل الأكيدة التى توصلنا الى كل من « الفضيلة » و « السعادة » على السواء .

ولو أننا القينا نظرة على الشذرات التى بقيت لنا من مؤلفات شيلر فى عهد الشباب ، لوجدنا انها تشتمل على اقسام ثلاثة : فهناك ـ ـ **أولاً** ـ بعض المقالات الأخلاقية ، ثم هناك ـ **ثانياً** ـ طائفة من الدراسات العلمية ، وهناك ـ **أخيراً** ـ مقدمات لبعض الأعمال الدرامية ، ومراجعات لبعض الكتب . وقد بقيت لنا من القسم الاول ثلاثة مقالات أخلاقية كتبها شيلر فيما بين الثامنة عشرة والعشرين من عمره ، وقد لا تكون لهذه المقالات أصالة حقيقية أو قيمة كبرى ، ولكنها تشتمل ـ مع ذلك ـ على بعض الأفكار الأساسية التى سيأخذ بها شيلر طوال حياته . فهو هنا (مثلاً) يؤكد أن « الفضيلة » هي « اللذة » التى توحى بها الينا « محبة » الآخرين . وهو يهتم بابراز دور « الصداقة » ، من حيث هى الفرع الثانى للحب أو « المحبة « . وهو يقرر أن النفوس النبيلة الفاضلة هي ـ وحدها ـ التى تستطيع أن تستشعر عاطفة « الصداقة » ما دامت « الفضيلة » منحصرة بتمامها فى « المحبة » . واذن فان فى الامكان التوحيد بين « الفضيلة » و « الصداقة » ، خصوصاً وأن كل نشاطنا ، ان لم نقل كل لذاتنا ، انما تنبع من روحنا الاجتماعية .. الخ .

واما اذا انتقلنا من مقالات شيلر الأخلاقية الى دراساته العلمية ، فسنجد انفسنا بازاء **رسالتين فى الطب : الاولى** منهما تعالج « سيكولوچية الفسيولوچيا » (عام ١٧٧٩) ، **والثانية** عبارة عن « رسالة فى العلاقة بين الطبيعة الحيوانية للانسان وطبيعته الروحية» (سنة ١٧٨٠) . وقد شرح شيلر ـ فى هاتين الرسالتين ـ آراءه السيكو ـ فسيولوچية ، كما اهتم بدراسة احدى المشكلات الأثيرة لديه ، الا وهى مشكلة تأثير « المادة » على « الروح » . وقد تصور شيلر وجود « قوة متوسطة Mittelkraft » يتم عن طريقها انتقال الروح الى المادة ، الا وهى « الروح العصبية : Nervengeist » وقال ان هذه الروح هى بمثابة « ملكة » أو « قوة شيطانية » تملك القدرة على اعادة تكوين الانسان ، بحيث تحقق له الوحدة والانسجام . وقد ذهب شيلر أيضاً (فى هذه الدراسة) الى أن « الجمال » يمثل « قوة متوسطة » بين الحياة والأخلاق ، أو بين الطبيعة والصورة . والظاهر أن المشكلة التى أثارت اهتمامه (فى تلك الفترة) لم تكن سوى مشكلة مدى اسهام الجسم فى نشاط الفكر . ومن هنا فقد راح شيلر يثبت لنا أن دلالة اللذة والألم المرتبطين بالوظائف العضوية لا تقف عند عملية المحافظة على بقاء الذات ، بل هى تمتد أيضاً الى عملية استثارة الوظائف العقلية واشاعة التوتر فيها ، أو اعاقتها والعمل اشاعة التراخى فيها . والعكس صحيح أيضاً : فان من شأن اللذة والألم العقليين أن يُحدثا ردّ فعل ضدّ الحالة العضوية . ولم يكن قصد شيلر من وراء التشديد على العلاقة المتبادلة بين الجسم والفكر ، أو بين « الطبيعة الحيوانية » و « الطبيعة الروحية » سوى ابراز أهمية « الوحدة » أو التكامل « فى الحياة البشرية » .

وهذا الحنين الى « التوافق » أو « الانسجام » هـو الذى أملى على شـيلر الاهتمـام بجدل (أو ديالكتيك) « الأنواع الأدبية » ، وان تكن بعض اعماله الدرامية (فى تلك الفترة) قـد جاءت حافلة بالتأكيدات المادية التـى جعلت نزعته الحيوية (أو البيولوجية) تبدو واضحة من وراء اتجاهه الروحي الظاهرى (٢) .

واما فى مقالات النقد الدرامى التى كتبها شيلر ابان تلك الفتـرة ، فنحن نجـد نزعـة حسية بيولوجية من جهة ، ونظرية اخلاقية فى التعاطف وفى طبيعة الجمال من جهة اخرى . ولكن الأمر الذى يستوقف الانتباه فى هـذه المقالات هو اهتمام شيلر بدراسة « المسرح بوصفه نظاماً اخـلاقياً » (أو « مؤسسـة اخلاقية ») . وهنا يظهر الطابع الاصلاحى لفكر شيلر ، لا باعتباره رجل أخلاق وتربية وحسـب ، بل باعتباره أيضاً رجل اجتماع وصاحب دعوة اصـلاحية . وشـيلر يواجه « مشكلة الممثل » التى كان ديدرو Didérot قد تعرض لها ، فيتساءل هل ينبغى للممثل ان يتطابق مع الشخصية التى يمثلها ، أم ينبغى له أن يظل مالكاً لزمام ذاته ، دون أن يذوب تماماً فى الدور الذى يؤديه . وهو يجيب على هذا التساؤل بقـوله انه لا بد للممثل من أن يحتفظ لنفسه بشخصية مزدوجة ، بحيث يكون لديـه من الـوعى الكافى ما يسـمح له بالتكيف مع ذوق الجمهور ، دون أن يتناسى ضرورة العمـل على صـبغ الطبيعـة بطابع الاعتدال . وشيلر يحاول أيضـاً ــ فى هذه الدراسات النقديـة ــ أن يكشـف عن دور « المسرح » فى الحيـاة الاجتماعيـة باعتباره « مؤسسـة اخلاقية » ، فنراه يؤكد انه ليس ثمة قـوة اخـلاقية يمكن أن تؤثـر على روح الجماهير قدر ما يؤثـر « المسرح » . وهـو يتحدث فى مطلع دراسـته عن « الجمال » أو « الاحساس الجمالى » فيقول ان من شأنه أن يحقق « الوحـدة » أو « الانسـجام » بين « الطبيعة الحيوانية » من جهة ، و « الطبيعة الروحية » (أو العقلية) من جهة اخـرى . وهو حين يجعل من « الجمال » أو « الاحساس الجمالى » همزة الوصـل بين « الجسـم » و « الفكر » ، فانه يرتد بذلك الى آرائه الطبية (أو الفسيولوجية) السابقة . ولكن الجدير هنا أن شـيلر ينسـب الى المسرح « تأثـيراً اخلاقياً » على الجماهير لا يقل شأناً عن تأثير « الدين » عليهم ، وان كان تأثـير « المسرح » عليهم يتم عن طريق « الصور » التى تستثير « حساسيتهم » حين يكونون فى حالة «تجمع» . والواقع أن « التأثـير الخلقى » للمسرح انما يبدأ حيث ينتهى مجال القوانين الزمنية : لأنه ليس من شأن القوانين الوضعية (أو الزمنية) أن تستهجن الا ما ينطوى على مخالفة صريحة للقانون الجنائى . وأما مجال الأهواء الشخصية والانفعالات الفردية ، فانه يفلت ــ بطبيعته ــ من طائلة القانون ، ان لم نقل بأنه قد ينِدُّ عن أحكام رجالات الأخـلاق . وهنا يجىء المسرح فيكون بمثابة السلطة القضائية الوحيدة التى تملك حق النظر فى تلك القضايا ، واصدار ما تشاء من الأحكام عليها ! وليس من شأن المسرح ان يدين الجرائم الشخصية وحسب ، بل أن من شأنه أيضاً أن يسخر من رذائل الأفراد المعيبة ، وأن يهزأ بتصرفاتهم السيئة الضارة ، خصوصاً فيما يتعلق بمسائل الهوى والعشق والغرام ! وليس ثمة قانون يدين البخل ، أو يعاقب على الادعـاء (أو التكلـف) ولكن فى استطاعة كاتب المسرحية الهزلية (الكوميديا) أن يدين أمثال هذه الرذائل باسلوبه الساخر الذى لا يخلو من عقـاب ! واذن فان المسرح « مدرسة حكمة عملية » ، تقوم بدور الهداية فى صميم الحياة المدنية ، وتقدم لنا « المفتاح اللازم لفتح كل الأبـواب المغلقة والسراديب المجهولة فى طوايا النفس البشرية » .

---

(٢) كما هو الحال مثلا فى روايته المسماة باسم « اللصوص »: (Die Rauber سنة ١٧٨١) .

نظرية شيلر الأخلاقية :

رأينا أن أفكار شيلر الأخلاقية ــ في المرحلة الاولى من مراحل تطوره الفكري ــ كانت تعكس تأثره بكل من روسو من جهة، والفلاسفة الأخلاقيين الانجليز (في نهاية القرن الثامن عشر) من جهة اخرى . ولم يلبث شيلر ان عكف على دراسة الشعراء اليونانيين القدامى ، فكان من ذلك ان أصبحت « النزعة الانسانية اليونانية » في الفن والأخلاق والحياة هي مثله الأعلى . وقد لاحظ شيلر أن هذا المثل الأعلى العظيم قد ظل سائداً خلال فترة تاريخية طويلة كانت من أسعد الفترات في تاريخ حياة الانسانية ، الى ان جاء عصر الانحلال فأهمل هذا المثل الأعلى في فترة لاحقة من فترات تطور الحضارة البشرية . والظاهر أن تحمس شيلر لهذا المثل الأعلى اليوناني قد اقترن بنقد عنيف لحالة « المدنية » استوحاه فيلسوفنا من قراءته لروسو . وسرعان ما استبدل شيلر بفكرة « الحياة الطبيعية الحرة » التي كان يقول بها الفيلسوف الفرنسي الكبير ، فكرته هو عن امكان تحقق « تفتح » تام ، قوامه الانسجام للحياة بأسرها ، في ظل « تحديد حر » ينبع من « الباطن » . ولم يلبث شيلر أن رأى في «الفن» قوة حيوية تتسامى بالحياة البشرية ــ دون أدنى قهر أو عنف أو اعتساف ــ فوق مستوى الحياة الحيوانية ، بفعل ضرب من الانسجام اللاارادي للغرائز والملكات . ومن هنا فقد ذهب شيلر الى أن في وسع « الفن » أن يُعيننا على ادراك الحقيقة من خلال رموزها ، حتى قبل أن يهتدي اليها المفكر التجريدي . وعلى حين كان الفلاسفة ــ في عصره ــ يحاولون الوصول الى الحقيقة عبر التصورات العقلية المجردة ، ظل شيلر يرفض اقامة مثله الأعلى فيما وراء الغرائز الطبيعية المباشرة ، ايماناً منه بأن الوصول الى الحقيقة يستلزم «التفتح» التام للطبيعة البشرية ، في جو ملؤه التوافق والانسجام . وعلى الرغم من أن شيلر قد نظر الى المشكلة من وجهة نظر جمالية صرفة ، الا اننا نراه يصل الى نفس النتيجة التي وصل اليها معاصره **هامان** Hamann (ولكن من وجهة نظر دينية) حين قال : « انه ليس من حقنا أن نفصل ما وحدت بينه الطبيعة » .

وقد كتب شيلر ــ في تلك الآونة ــ رسالة اخلاقية قال فيها « انه ليس من واجب الانسان ــ حتى حين يكون بصدد انقى مظاهر الجانب الروحي من طبيعته ــ أن يُسقط من حسابه الجانب الحسي ، أو أن يقيم صرح الواحد منهما على انقاض الآخر . والواقع انه هيهات ــ للأخلاق البشرية ــ أن تتوطد وتتأكد ، اللهم الا اذا انبثقت من اعمق اعماق طبيعتنا الانسانية ، بحيث تكون ثمرة لاتحاد هذين المبدأين ، وتصبح ــ بالتالي ــ بمثابة طبيعة ثانية للانسان » . ولهذا يتطلب شيلر من الفعل الأخلاقي أن يكون متسماً بالجمال والتوافق والانسجام . وحينما يتحدث شيلر هنا عن « الجمال الخلقي » فانه يعني به انسجام « الحركات اللاارادية » التي تصاحب الفعل المراد بحرية ، والتي تكشف عن وجود « استعداد خلقي » (أو « ميل اخلاقي ») لدى « النفس » بصفة عامة . ومعنى هذا أن كمال « الفعل » رهن بخلوه من كل أثر من آثار التكلف ، أو التعسف ، أو التصنع ، أو الافتعال ، أو العسر ، أو الفظاظة ، أو الابتذال ... الخ . وشيلر يفطن هنا الى وجه الخلاف بين نظرته الأخلاقية الخاصة من جهة، وفلسفة **كانت** الأخلاقية في « الواجب » من جهة اخرى ، فنراه يقرر ان المفكر الألماني الكبير كان « **دراكون** Dracon » عصره (٣) ، نظراً لأنه لم يكن في وسع ذلك العصر أن يكون

---

(٣) دراكون : مشرع اثيني (في نهاية القرن السابع قبل الميلاد) اشتهر بقوانينه القاسية ، حتى لقد قيل عنها انها « قوانين قد كتبت بالدماء ! » .

له « صولون Solon » الخاص به (٤). والظاهر أن **كانت** — فيما يقول شيلر — قد نسى أو تناسى أن « أبناء البيت لم يكونوا يستحقون — من جانبه — مثل هذا الاهمال ، فراح يوجه كل اهتمامه الى خدم البيت وحدهم ! » والا ، فهل يحق لنا أن نتشكك ونرتاب فى انقى وانزه عواطف القلب السخى ، لمجرد أن ثمة ميولاً خبيثة (أو غير نقية) قد تجىء أحياناً فتدعى لنفسها صفة الفضيلة ؟ السنا نلاحظ ان الانسانية المكتملة انما هى تلك التى تتحقق فى « النفس الجميلة » : أعنى لدى النفس التى تسير على هدى العاطفة المباشرة ، فتمارس اشق الواجبات ، وتحقق أكثر التضحيات بطولة ، فى سهولة الغريزة ، وتلقائية النزوع الطبيعى ؟ ... الواقع أننا حين نكون بازاء « نفس جميلة » ، فاننا لا نجد امامنا طائفة من الأفعال الخلقية المنفصلة ، بل نحن نجد انفسنا بازاء طابع أخلاقى شامل ، أو شخصية خلقية متكاملة . فليست الجدارة الخلقية للنفس الجميلة مجرد جدارة « أفعال » بل هى جدارة « وجود » . وآية ذلك أن « الجمال الخلقى » تعبير عن تحقق « الانسجام » بين الحساسية والعقل ، أو بين الميل والواجب ، أو بين الطبيعة والصورة .

... لقد كان « كانت » يقول ان الانسان موجود أخلاقى ، ولكنه **مواطن لعالمين** : عالم الطبيعة من جهة ، وعالم الواجب من جهة اخرى . ولم يكن فى وسع شيلر — وهو الشاعر الذى يتجه ببصره أولاً وبالذات نحو الظواهر — أن يقتصر على النظر الى معانى الواجب والأخلاق والحرية ، وكأن ليس فى الانسان سوى « مملكة العقل » ، أو كأن ليس فى الموجود البشرى سوى ذلك العنصر الاولى الصورى المحض . وكان « كانت » يرى أن احترام القانون الخلقى انما يكون بالانصات لصوت الواجب ، والانفصال التام عن الأهواء والانفعالات والعواطف . ولم يكن فى استطاعة شيلر — وهو الشاعر الذى يؤمن بالجمال والانسجام — أن يتقبل مثل هذا الانفصال أو الانقسام ، لأنه كان على وعى تام بوحدة الطبيعة البشرية . صحيح أن شيلر الشاعر لم يكن يجهل أن الانسان قد يقع صريعاً لضرب من التمزق ، أو الازدواج أو الانقسام ، ولكنه لم يكن يرى فى تلك الوحدة الممزقة ، المفككة ، الثائرة على نفسها ، سوى مجرد « كثرة » لا تملك سوى أن تبقى — فى صميمها — « هوية » أو « وحدة » . وصحيح أيضاً أن شيلر الشاعر كان على وعى تام بأن عالم الانسان قد يكون أحياناً مهدداً بالانحلال ، والتفكك ، وشتى ضروب التوتر الباطنى ، ولكنه كان على ثقة فى الوقت نفسه بأنه لا بد لهذا العالم من أن يظل عالماً واحداً . ولئن يكن شيلر — فيلسوف الأخلاق — قد وجد شيئاً من الجاذبية فى مذهب « كانت » الثنائى ، الا أن شيلر — الشاعر — قد وجد نفسه مضطراً الى التمسك بوحدة الطبيعة البشرية ، والايمان بوحدة العالم البشرى . ولم يكن فى استطاعة شيلر أن يقذف بالكانتية جانباً ، أو أن يتحرر من الفلسفة جملة ، وانما كان عليه أن يثبت دعائم الشعر بالاستناد الى الفلسفة نفسها ، وكانما هو قد وجد نفسه مضطراً الى تجاوز «كانت» (أو العلو عليه) ، مستخدماً فى ذلك أدوات « كانت » نفسه ! ولم تكن المشكلة هنا — بطبيعة الحال — مجرد مشكلة جمالية ، بل لقد كانت — فى نظر شيلر — مشكلة أخلاقية وميتافيزيقية معاً . وقد استعرض شيلر ثنائية « كانت » الحادة فى تصوره للانسان ، فوجد انه لا بد من البحث عن سبيل لاعادة « الوحدة » الى الطبيعة البشرية ، خصوصاً وقد تعرضت تلك « الوحدة » لخطر جسيم من جانب ذلك التعارض الأصلى الجوهرى الذى أقامه «كانت» بين الطبيعة والحرية ؛ بين الحس والعقل ؛ بين المادة والواجب .

---

(٤) صولون : مشرع اليني اعتبر واحداً من حكماء اثينا السبعة ، وقد اشتهر بالاعتدال والتسامح .

والظاهر أن شيلر قد وجد هذه « الوحدة » متجسمة حية فى شخص « جوته » من جهة ، وفى ظاهرة تاريخية عظيمة هى الشعب اليونانى من جهة اخرى . ولم يكن « جوته » ــ فى نظر شيلر ــ سوى ذلك الرجل العبقرى الفذ الذى استطاع ان يظهرنا بعقله الجبار وخياله الواسع على أن العالم واحد ، وأن الطبيعة البشرية تمثل وحدة أصلية . وهكذا كانت « الثنائية الكانتية » هى نقطة البدء فى تفكير شيلر ، بينما كانت « الواحدية الجوتية » هى غايته وهدفه النهائى . ولكن شيلر لم يكن مجرد تلميذ لجوته ، وانما كانت العلاقة بين الرجلين علاقة الند بالند ، وصداقة الشاعر للشاعر ... وقد جاء نزوع شيلر نحو « الوحدة » بوصفها « المثل الأعلى » ، فترددت أصداؤه فى فكرته عن « النفس الجميلة Schöne Seele » . والشخص الذى تستحق نفسه ــ فيما يقول شيلر ــ ان توصف بهذه الصفة ، انما هو الشخص الذى يعمل لديه « حب الواجب » ــ جنباً الى جنب ــ مع « الغريزة الطبيعية » ، فى انسجام مطلق، وتوافق تام. وقد تمثل هذا « الانسجام الخلقى » ، أو بالأحرى هذا «الكمال الجمالى»، لدى قدماء اليونان بصفة خاصة : اذ كانوا يتمتعون بضرب من التوافق بين « العقل » و «المخيلة» ولما كان جوته معاصراً لشيلر ، فقد اتخذت شخصيته (وانتاجه) أهمية كبرى فى نظر شيلر : اذ وجد فيلسوفنا فى حياة جوته أكبر دليل على انه ليس من المستحيل على المواطن ــ فى العالم الحاضر ــ ان يعمل على بلوغ حالة « الانسجام » ، وأن يتخذ من « الوحدة » مثلاً أعلى له .

وقد اهتم **هيجل** ــ فى كتابه « فنومنولوچيا الروح » بالحديث عن نظرية شيلر فى « النفس الجميلة » ، فقال اننا هنا بازاء « نفس سعيدة » قد استطاعت أن تجد فى جمال مشاعرها أداة للتوفيق بين المفهوم الصارم القائل بالواجب من جهة ، والميل التلقائى الماثل فى الطبيعة من جهة اخرى . وهيجل يشرح لنا نظرية شيلر ــ فى هذا المقام ــ فيقول اننا هنا بازاء نفس قد أصبحت اشق الواجبات لديها ، واكثر التضحيات بطولة من جانبها ، مجرد ظواهر تلقائية تحمل طابع « الغريزة » ، وكأن « الأخلاق » بأسرها قد استحالت عندها الى مجرد « طبيعة » (٥) . وسنرى فيما بعد كيف حاول شيلر ــ عن طريق « التربية الجمالية » ــ تحقيق التصالح بين هذين الحدين المتعارضين اللذين كان « كانت » قد اقام بينهما تناقضاً جذرياً حاسماً ، الا وهما « الحرية » و « الطبيعة » . وبيت القصيد هنا ــ فيما يقول هيجل ــ ان شيلر قد حاول ــ من وراء هذه المصالحة ــ اعادة « الوحدة » الى الطبيعة البشرية ، خصوصاً بعد ان عمل الكثير من الفلاسفة على تحطيمها ، آملاً من وراء ذلك أن تكتسب (الفضيلة) ــ فى سلوك النفس البشرية ــ رشاقة الحركات الطبيعية ، وأن تتسم « الطبيعة » بالدلالة الروحية المميزة للحياة الأخلاقية . ومعنى هذا أن شيلر ــ فيما لاحظ هيجل ــ قد اراد ان يتجاوز النزعة الأخلاقية الكانتية ، بفكرتها المجردة عن المبدأ الكلى أو القانون العام ، فكان أن اقام بدلاً منها نظرة جمالية الى الانسان (٦) . ولكن المهم ان هيجل نفسه ــ على الأقل فى مؤلفات الشباب ــ قد وقع تحت تأثير شيلر ، فحاول التوفيق بين « الواجب » و « الطبيعة » ، وثار ــ بدوره ــ على الثنائية الكانتية . وليس ادل على ذلك من أن هيجل قد جعل من « الوعى الخيّر » (أو الروح المتيقن من ذاته) ضميراً تلقائياً يعمل على نحو مباشر ، فتصور هذا الوعى على

---

(٥) Cf. F. Schiller : "Von Anmut und Wurde." 1793, pp. 70-2.

(٦) زكريا ابراهيم : « هيجل او المثالية المطلقة » الجزء الاول ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٣٩١ ــ ٣٩٢ .

أنه شعور أخلاقى يحقق فى ذاته ضرباً من التصالح بين الطبيعة والواجب (٧) .

نظرية شيلر الجمالية :

قلنا ان شيلر قد اتخذ نقطة انطلاقه فى علم الجمال من الفلسفة الكانتية ، فاراد ان يصوغ « المشكلة الجمالية » وفقاً للمنهج الكانتى النقدى . ثم فقد راح شيلر يؤكد ان المشكلة هنا تنحصر أولاً وبالذات فى صياغة « مفهوم الجمال » على نحو موضوعى ، مع ضرورة الاهتمام ببيان شرعية هذا المفهوم بطريقة أولية (قبلية) apriori خالصة ؛ أعنى بالالتجاء الى استنباط هذا التصور من طبيعة العقل نفسه . صحيح أن التجربة ـ وحدها ـ كافية للتثبت من صحة هذا التصور ، ولكن « مفهوم الجمال » ليس فى حاجة الى مثل هذه الشهادة كأساس يستند اليه من أجل تبرير صحته أو اثبات مشروعيته . وقد يبدو غريباً أن يعتنق شاعر عظيم ـ مثل شيلر ـ فلسفة «كانت» العقلية الخالصة، أوان يحاول ـ انطلاقاً من هذه الفلسفة ـ وضع نظرية أصيلة فى علم الجمال ، ولكن الحقيقة أن شيلر قد وجد فى الفلسفية الكانتية الكثير من الآراء الخصبة ، خصوصاً فى جانبها الأخلاقى الذى هو الأصل فى تصور « كانت » الثنائى للعالم . صحيح أن شيلر قد ثار على « الثنائية الكانتية » (كما رأينا فى نقده لفكرة كانت فى فصل الأخلاق عن الطبيعة) ، ولكنه قد عبّر هو نفسه ـ فى بعض قصائده وأعماله الدرامية ـ عن هذا الاصطدام العنيف الذى طالما حفلت به الحياة البشرية ، خصوصاً بين « الفكرة الأخلاقية » من جهة ، وقوى « الجوع والشهوة » المتحكمة فى عالمنا الحاضر من جهة اخرى . وقد امتزج هذا « التوتر » ـ لدى شيلر ـ بكراهية شديدة للتجريد ، وميل واضح الى التخيل ، فأصبح شيلر « فيلسوفاً ـ شاعراً » يظهر تميزه عن « كانت » فى نقده لأخلاق الواجب الصورية الخالصة، وحرصه على استبقاء «الحساسية» جنباً الى جنب مع « العقل » ، وميله الى الاستعانة بالخيال ، واللجوء الى الصور الشعرية ... الخ . ولكن شيلر لم يصل الى الشعر الا من خلال الفكر الفلسفى (بخلاف صديقه جوته) ، أو ربما كان الأدنى الى الصواب أن نقول انه استعان بالفلسفة من أجل التحرر من الفلسفة !! ولعل هذا التحرر أوضح ما يكون فى نقد شيلر لمذهب « كانت » الجمالى : فانه وان يكن قد أخذ بالمنهج الكانتى، الا أنه قد رفض ـ فى الوقت نفسه ـ تعريف **كانت** للجمال . ومن هنا فقد استبعد شيلر كل تعارض بين « الحرية » و « الطبيعة » ، معلناً ان « الجمال » هو عبارة عن قيام « الحرية » فى عالم «الظاهر» . وهذا التعريف الذى نلتقى به ـ لأول مرة ـ فى مؤلفه المسمى باسم « رسائل كالياس Kallias » ، سنلتقى به من بعد ـ بصورة اخرى ـ فى كتابه الرئيسى المسمى باسم « رسائل فى التربية الجمالية للانسان » . والملاحظ ـ فى هذا التعريف ـ انه يظهرنا على نزوع شيلر نحو الموضوعية ، واعتقاده بأن الوجود الحقيقى لا يمكن أن يكون كامناً أو متخفياً وراء الظواهر ، بل هو لا بد من أن يكشف عن ذاته من خلال الظواهر ، بمعنى أنه لا بد من ان يتجلى ـ فى أصالة ووضوح ـ عبر « الطبيعة » . وربما كانت هذه « النظرة الشعرية الى الكون » هى الأصل فى انفصال شيلر (من بعد) عن الفلسفة الكانتية (بطابعها العقلى الخالص) من أجل الانصراف الى الابداع الشعرى والتفكير الجمالى .

ان « المجال الجمالى » ـ فيما يقول شيلر ـ هو نقطة تلاقى كل من الروح والمادة ، أو العقل والحس ، أو الحرية والطبيعة ، أو الصورة

(٧) Jean Hyppolite : " Genese et Structure de la Phenomenologie de Hegel ". Paris, Aubier, Vol. II, 1946, p. 496.

والمادة . ولهذا يؤكد فيلسوفنا أن « الجمال » ـ بمعنى ما من المعانى ـ هو «الحياة» نفسها ، أو هو ـ على الأصح ـ « الصورة الحية Lebende Gestalt » . وكان « كانت » قد ذهب الى أن « الطبيعة لا تكون جميلة الا حين تشبه الفن ، كما أن الفن لا يكون جميلاً الا حين يشبه الطبيعة » ، فجاء كل من جوته وشيلر ليرحب بهذه العبارة ، نظراً لانها تحقق التصالح ـ فى مضمار الجمال ـ بين «الطبيعة» و « الفن » . ثم كان تعريف شيلر للجمال بأنه « الحرية فى مجال الظاهر » (٨) ، فكان هذا التعريف بمثابة تكملة للنظرية الكانتية ، واستخلاص للنتائج الضرورية التى كان لا بد لشيلر من أن ينتزعها من كتاب استاذه « نقد ملكة الحكم » . ولكن شيلر لم يوافق « كانت » على القول بأن كل عملية الجمال ترتد ـ فى خاتمة المطاف ـ الى « الحكم » ، بل هو قد لاحظ أن للحكم نفسه أسباباً عقلية تكمن خارجاً عنا ، اعنى فى صميم الأشياء . والخطأ الذى وقع فيه كانت أنه ردّ « الجمال » الى « الحكم » ، فأدخله بذلك فى مضمار « العقل النظرى » ، فى حين أن شيلر ـ على العكس من كانت ـ يرد « الجمال » الى « العقل العملى » ، وبذلك يلحقه بدائرة الأفعال الحرة. وحينما تبدو أفعال الطبيعة وكأنما هى أفعال حرة ، أو كأنما هى قد اكتسبت طابع العقل العملى ، فهنالك يظهر « الجمال » ، وكأنما هو « محاكاة للحرية » . ومعنى هذا أن «الجمال» ـ بوجه ما من الوجوه ـ هو « الطبيعة » نفسها حين تحقق التوافق بينها وبين «الفن» .

صحيح أن أى موضوع من موضوعات الطبيعة ـ بحكم تعريفه ـ موضوع « **محدَّد** » ولكن من شأن هذا الموضوع أن يحاكى « **الحرية** » حين يعمل بمقتضى الطبيعة الخالصة ، اعنى حين ينجح فى استبعاد « التحديدات الخارجية » محاكياً العقل العملى فى صميم استقلاله الذاتى . ويضرب لنا شيلر مثلاً فيقول ان « الثقل » يمثل احدى القوى الطبيعية التى لا مفر لأى موضوع طبيعى من الخضوع لها . ونحن حين نجد انفسنا بازاء اى موضوع تسيطر عليه مثل هذه القوة الطبيعية ، فاننا لا نستشعر اى اثر للحرية ، وبالتالى اى أثر للجمال . واما حين نجد أنفسنا بازاء موضوعات قد استطاعت أن تخرج على قانون « الثقل » (أو الوزن) ، فهنالك يتولد فىنفوسنا الشعور بالحرية ، وبالتالىالشعور بالجمال (٩) . ومعنى هذا أن الشعور بالجمال رهن بجهد العقل العملى حين ينسب « الحرية » الى « الطبيعة » فى عالم الظاهر . ولكننا حين نكون بازاء موضوع غائى مكتمل (أو كامل) ، فان « الغائية » و « الكمال » لا بد من أن تتمثلا لنا كما لو كانتا ظاهرتين صادرتين عن العالم الخارجى . وهذا هو السبب فى أن للجمال استقلاله الذاتى : بمعنى أن للموضوع الجميل ـ بطريقة ظاهرية ـ صنعة (أو تكنيك) لا نملك الحكم عليها بأنها جبرية أو محددة . وهكذا يعود شيلر فيؤكد أن علة الجمال هى قيام الحرية فى عالم الظاهر ، فى حين أن الشرط اللازملتوافر تمثلنا للحرية هو اتصاف

---

(٨) Schiller : " Cours d'Esthetique ", Publie a Leipzig en 1806, et en sa correspondance avec Korner (cite par R. Bayer : Traite d'Esthetique ", Paris, Armand Colin, 1956, p. 278.

(٩) ترددت هذه النظرية من بعد عند كاتبنا العربى المشهورالمرحوم عباس محمود العقاد ، فقال فى كتابه « مطالعات فى الادب والحياة » ان الشىء لايكون جميلاً الا بمقدار ماهو حر : فالماء الجارى اجمل من الماء الآسن ، والوردة الطبيعية اجمل من الوردة الصناعية ، وهلم جرا . وهكذا ربط العقادالجمال بالحرية ، وذهب الى أن الحرية هى الانطلاق من القيود التى تعطل مجرى الحياة ، وتعوق عن الحركة . (انظر كتابنا : « فلسفة الفن فى الفكر المعاصر » ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦٧ ، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣) .

الموضوع (الطبيعى) بضرب من « الصنعة » (أو « التكنيك ») . وقصارى القول ــ هنا ــ أن **« الطبيعة »** لا تكون « جميلة » الا حين تعمل **كما لو** كانت « حرة » ، أعنى حين تحاول أن تحقق التوافق بينها وبين **« الفن »** .

ثم ينتقل شيلر بعد ذلك الى الحديث عن « الانسان » فيقول ان فى الامكان التمييز ــ داخل الموجود البشرى بصفة عامة ــ بين « الشخص » من جهة ، و « الحالات » من جهة اخرى . وليس فى الامكان استنباط « الشخص » من « الحالات » ، كما أنه ليس فى الامكان أيضاً استنباط « الحالات » من « الشخص » . والواقع أن « الانسان » فى آن واحد : « شخص » يتمتع بضرب من « الوحدة » أو « الهوية » و « حالات » تتسم بطابع « التعدد » أو « الكثرة » . وهذه التفرقة بين « الشخص » و « الحالات » تقابل التفرقة الكانتية بين « الانسان المتعالى » و « الانسان التجريبى » ، أو بين « الظاهرة » (الفنومين) و « الشىء فى ذاته » (النومين) . ومن هنا فان للانسان ــ فى نظر شيلر ــ مهمة مزدوجة : لأن عليه من جهة أن يحقق « شخصه » كما أن عليه من جهة اخرى أن يخلع صورة (أو شكلاً) على ما لديه من « حالات » . وهنا يفترق شيلر عن كانت ، فنراه يقرر أنه لا سبيل أمام الانسان لتحقيق هذه المهمة المزدوجة ، اللهم الا عن طريق الاستعانة بغريزتيه الأساسيتين الا وهما : الفريزة الحسية ، والفريزة الصورية . وعلى حين أن الغريزة الاولى منهما غريزة سلبية ، انفعالية ، نجد أن الغريزة الثانية منهما غريزة ايجابية ، فاعلة . والظاهر أن هاتين الغريزتين فى صراع مستمر : فان الواحدة منهما (الا وهى الفريزة الحسية) تتطلب من الانسان أن يوسع من رقعة انتشاره ، وان يحقق لنفسه اكبر قدر ممكن من الخبرات أو التجارب ، فى حين أن الاخرى (الا وهى الفريزة الصورية) تتطلب من الشخص ان يظل محتفظاً بكامل حريته فى وجه العالم الحسى . ولكن لما كان الانسان فى آن واحد **« شخصاً »** يملك « هوية » ، ويجتاز بعض **« الحالات »** ، فانه لا بد للانسان « الشامل » من أن يصل الى أعظم قدر ممكن من « الامتلاء » ، مع احتفاظه فى الوقت نفسه بحريته واستقلاله بأعلى صورة ممكنة . وهنا لا تكون الفريزتان الأساسيتان للانسان غريزتين متعارضتين ؛ بل تصبحان غريزتين متكاملتين (وكأن كلاً منهما مشروطة بالاخرى) . وآية ذلك أن « الشخص » ــ بدون التغيرات الزمنية ــ يصبح مجرد « قوة محضة » أو « امكانية خالصة » ، كما أنه لولا عنصر « الثبات » أو « الاستمرار » ، لما كانت هناك أية « تغيرات » ممكنة . واذن فانه لا سبيل الى تصور « الفريزةالحسية » بدون «الفريزةالصورية»، والعكس بالعكس ، ما دمنا هنا بازاء عنصرين متبادلين . ولكن ثمة خطراً يتهددنا دائماً أبداً : لأن كلاً من الفريزتين تميل الى الجور على الاخرى . فالفريزة الحسية (مثلاً) قد تعمد الى الاعتداء على القانون ، بينما نلاحظ من جهة اخرى أن الفريزة الصورية قد تقحم نفسها على ما ليس بصورى ، كما قد يحدث مثلاً حين ينزع الانسان نحو احلال « الفائية » محل « العلية » . واذن فلا بد للفريزتين المتصارعتين من « تحديد متبادل » (بمعنى أن تحد الواحدة منهما الاخرى) ، وبذلك يكون « ثراء الحياة الحسية » **حداً** يقف فى وجه « الصورة الموحدة للعقل » . وهذا « التحديد المتبادل » للفريزتين الأساسيتين للانسان هو ــ فى نظر شيلر ــ بمثابة المثل الأعلى للانسانية قاطبة : لأنه سيضمن لها من جهة وعياً بتحددها ، ومن جهة اخرى وعياً بحريتها اللامحدودة .

واذا كان لمثل هذا الكمال (أو المثل الاعلى) ان يتحقق ، فلابد من أن تنبثق ــ لدى الانسان ــ غريزة ثالثة تحقق له التوافق بين الفريزتين السابقتين . وليست هذه الفريزة

الثالثة سوى « غريزة اللعب » ، التى تحقق التصالح بين التغير والثبات ، أو بين سلبية الحواس والقوة الابداعية للعقل . والحق أننا لو استسلمنا للحواس ، لوجدنا انفسنا خاضعين تماماً لقانون الطبيعة ، فى حين أننا لو استسلمنا تماماً للعقل ، لأفلتت منا الطبيعة . وهنا تجىء « غريزة اللعب » فتكون بمثابة همزة الوصل بين « الطبيعة » و « العقل » : لأن من شأنها ان تريد – بطريقة تلقائية – ما تتطلبه الحواس من جهة ، وما يأمر به العقل من جهة اخرى . وعلى حين أن الغريزة الحسية تمثل العالم والحياة ، بينما تمثل الغريزة الصورية القانون والشكل ، نجد أن غريزة اللعب تمثل الصورة الحية أو الجمال ، نظراً لأنها تحقق الانسجام بين « الخيال » و « الذهن » . فليس من شأن « غريزة اللعب» أن تقلل من نسبة « الجمال » ، بل ان من شأن اللعب – على العكس من ذلك – أن يكون رمزاً من أهم رموز الحضارة لدى كل شعب من الشعوب . والحق ان اللعب عند شيلر هو أصل الفن : فان الانسان لا يلعب بالحساسية أو بالصورة ، بل هو يلعب (أو يتلاعب) بالجمال . وقد يكون فى وسعنا أن نقول ان الطبيعة نفسها تلهو وتلعب : فان الشجرة تنتج ما لا حصر له من البذور ، ولكنها تضيع الكثير منها هباء،دون أن تتمكن من استخدامها جميعاً فى انتاج شىء مثمر ، بل ان الحيوانات نفسها – بمجرد ما يتحقق لها الشبع – فانها سرعان ما تبدى نشاطاً زائداً تمارسه دون أدنى هدف . وأما لدى الانسان ، فان اللعب يتخذ طابع النشاط الحر المنزه عن كل غرض، وكأن الانسان – حين يلعب – يطلق كل قواه من عقالها ، دون أن يستهدف أية غاية نفعية . فليس اللعب نشاطاً وضيعاً من انشطة الموجود البشرى ، بل هو (على العكس من ذلك) أسمى نشاط من انشطة البشر ، لأنه « تحقيق رفيع لانسانيتنا » . ولهذا يقرر شيلر أن الانسان لا يلعب الا حين يكون انساناً بحق ، كما أنه لايكون انساناً بحق الا حين يلعب . . !

بيد أن شيلر لايقتصر على ربط الفن باللعب، بل هو يؤكد أيضاً أن الجمال حليف التوازن الكامل بين الغريزتين الأساسيتين للانسان . وقد لايكون من السهل بلوغ هذه الحالة المثالية من التوازن الكامل : فان هناك باستمرار غلبة لاحدى الغريزتين على الاخرى . واذن فان الجمال لايمثل شيئاً فريداً ، أو هو على الأصح لا يتخذ شكلاً واحداً ، بل ان من شأنه ان يتجلى على نحوين مختلفين : فهناك **أولاً** الجمال الهادىء (أو المسكّن) الذى يولد لدى الانسان الراحة (أو الاسترخاء) ، ثم هناك **ثانياً** الجمال الصاخب (أو المثير) الذى يولد لدى الانسان الحركة (أو التوتر) . والمثل الأعلى للجمال – فى رأى شيلر – هو ذلك المؤلف الانسجامى الذى يجمع بين النوعين السالفين . وتبعاً لذلك ، فان من شأن الجمال ان يقود رجل الحس الى الفكر والشكل (أو الصورة) ، وأن يقود رجل الفكر الى المادة والعالم الحسى . وهكذا يعود شيلر فيؤكد أن الجمال هو « حالة متوسطة » تقع بين المادة من جهة ، والصورة من جهة اخرى (١٠) .

. . لقد سبق «لكانت» أن أقام هوة غير معبورة بين « المادة » و « الصورة » ، فكان على شيلر أن يبحث عن جسر يتمكن عن طريقه من العبور (بكل ثبات ويقين) من « الاحساس » الى « الصورة » . وقد وجد شيلر فى « الحالة الجمالية » تلك اللحظة الفريدة التى لايكون فيها الانسان تحت سطوة الحساسية ، ولا تحت سيطرة العقل ، نظراً لأن عقله – فى تلك اللحظة – يكون فى حالة تحرر تام من كل « تحديد » أو « جبر » . وعلى حين أن المرء حين ينخرط فى عالم الحساسية ، أو فى عالم

(١٠) R. Bayer : " Histoire de l'Esthetique ", Paris, A. Collin, 1961, p. 254.

الفعل الخلقى ، لابد من أن يجد نفسه مضطراً الى التقدم ، فانه لايكون ملزماً (أو مجبراً) ، لا مادياً ، ولا عقلياً ، حين يكون مستغرقاً فى « الحالة الجمالية » . والسبب فى ذلك انه يكون عندئذ حراً ، بل مطلق الحرية : اذ « الحالة الجمالية » — والحالة الجمالية وحدها — هى المظهر الأكبر للقدرة البشرية الشاملة . ونحن حين نكون بازاء « حالة جمالية » فاننا نجد أنفسنا بازاء لحظة خصبة فريدة فى نوعها ، لأننا عندئذ نتخلى عن كل وظيفة محددة ، لكى نستغرق فى جهد كلى شامل ، نعمل بمقتضاه على تحقيق ذواتنا بتمامها . وعلى حين أن من شأن أى نشاط بشرى آخر أن يزود النفس الانسانية بميل محدد ، أو نزوع خاص ، نجد أن من شأن النشاط الجمالى (نظراً لما له من رحابة واتساع) أن يستوعب سائر ميول النفس ، وأن يضم كافة نواحى نشاطها ، وبالتالى فانه هو وحده الذى يقودها الى « اللامحدود » . وهكذا يصبح « النشاط الجمالى » — فى رأى شيلر — مظهراً لاتحاد الفن والأخلاق ، وتلاقى الحس والعقل ، وتصالح المادة والصورة ، وتوافق الحرية والأخلاقية ... الخ .

فلسفة الحضارة عند شيلر :

اذا كان شيلر قد اقتصر على النظر الى « المشكلة الجمالية » فى محاضراته « فى علم الجمال » باعتبارها مجرد « مشكلة جمالية » **محضة** ، فاننا نجده فى كتابه « رسائل فى التربية الجمالية للانسان » — المنشور سنة ١٧٩٥ — يوسع من نطاق هذه المشكلة ، بحيث يحيلها الى « مشكلة اجتماعية » ، ان لم نقل « مشكلة سياسية » . واذا كان بعض النقاد قد وجدوا فى « رسائل » شيلر نظرية جمالية فى الحرية ، والغريزة ، واللعب ، أراد لها صاحبها أن تكون فى خدمة السياسة والأخلاق الجديدة ، فربما كان فى وسعنا نحن أن نقول ان هذه النظرية تمثل أولاً وقبل كل شىء دراسة عميقة فى « فلسفة الحضارة » . ولعل هذا ما فطن اليه أيضاً الفيلسوف المعاصر **هربرت ماركيوز** حين كتب يقول : « ان رسائل شيلر فى التربية الجمالية للانسان ... محاولة لاعادة بناء الحضارة ؛ عن طريق الاستعانة بالقوة المحرِّرة للوظيفة الجمالية » (١١) . والواقع انه اذا كان فى استطاعة الوظيفة الجمالية أن تضطلع بمثل هذه المهمة الكبرى فى عملية « اعادة بناء الحضارة » فما ذلك الا لأن « المخيلة » ملكة أساسية من ملكات العقل البشرى ، فضلاً عن أن « الجمال » نفسه مطلب أساسى للانسان ، بل شرط ضرورى لقيام البشرية .

ولو أننا أنعمنا النظر الى رسائل شيلر فى التربية الجمالية ، لوجدنا فيها ثلاثة وجوه مختلفة لشيلر : فهناك **أولاً** الوجه الكانتى الذى ينطلق من التعارض القائم بين « مرتبة الحساسية » و « مرتبة العقل » ، ثم هناك **ثانياً** الوجه اللاكانتى الذى يحرص على الارتفاع فوق كل الانقسامات والثنائيات من أجل الوصول الى « وحدة » يكون من شأنها القضاء على كل « تناقض » أو « صراع » ميتافيزيقى، ثم هناك **أخيراً** الوجه الرومانتيكى الذى يبدو فيه تأثر فكر شيلر بنظرة جوته الى الوجود . والظاهر أن نقطة البدء فى رسائل شيلر لم تكن مجرد مشكلة نظرية خالصة ، بل هى قد كانت ضرورة أخلاقية ملحة ، شعر بها شيلر نتيجة لفهمه العميق لأحداث عصره . ولعل هذا هو السبب فى انطلاقه من تصوير درامى للحالة الأخلاقية للانسان المعاصر ، متأثراً فى ذلك بالمشاعر التى تركتها فى نفسه الثورة الفرنسية . وهنا يقرر شيلر انه لم يعد فى وسع البشرية — اليوم — أن تتقبل ذلك الجهاز السياسى القديم الذى كان يقوم على

---

(١١) Herbert Marcuse : " Eros et Civilisation, Paris, Editions de Minuit, 1963, p. 168.

القوة والعنف ، والذى لم يكن يهدف الا الى المحافظة على بقاء النوع ، بل لقد اصبحت البشرية ـ الآن ـ تتطلع الى نظام سياسى جديد يقوم على الحرية الانسانية ، ويكون من شأنه القضاء على الواقع « اللا" ـ انسانى » القائم على منطق الحاجة والبؤس والتمزق .

وان شيلر ليتتبع مسار الحضارة البشرية، ليبين لنا كيف أن هذا المسار قد أفضى الى انحلال « الانسجام » اليونانى القديم الذى كان قائماً بين الروح والطبيعة ؛ بين العقل والخيال ؛ بين الكلية والفردية . وهو يقول فى هذا بصريح العبارة : « لقد حدث انفصال بين المتعة والعمل ؛ بين الوسيلة والغاية ؛ بين الجهد والمكافأة . ولما لم يعد المرء مرتبطاً ـ فى نشاطه المهنى ـ الا بجزء صغير من أجزاء « الكل » ، قد تم عزله عن باقى الأجزاء ، فليس بدعاً أن نجده لايحرص على تزويد نفسه الا بتكوين جزئى . ولما أصبح الانسان لا يسمع دائماً اى رنين آخر يتردد فى اذنيه سوى رنين الأصوات الرتيبة المنبعثة من الترس الذى يقوم بتحريكه ، فانه لم يعد يقوى على تنمية الانسجام فى باطن وجوده ، وبالتالى فانه بدلا" من أن يهتم بصبغ طبيعته بصبغة الانسانية ، أصبح مجرد انعكاس لمهنته ، او مجرد صدى لعلمه » (١٢) . ومعنى هذا أن « تقسيم العمل » ـ فى رأى شيلر ـ مصدر من مصادر « الأزمة » التى وقع الانسان الأوروبى الحديث ضحية لها . صحيح أن من شأن صراع الملكات (أو تعارض القوى) أن يؤدى الى تقدم الحضارة وأن يكون بمثابة كسب يجتنيه النوع ، ولكنه فى الوقت نفسه يفصل الأفراد ويعزلهم ، فيخلق منهم كائنات ناقصة مشوهة . وحين حدثت القطيعة بين الدولة والكنيسة ؛ بين القوانين الوضعية والعادات الأخلاقية ؛ بين العمل والمتعة ، فان « الفرد » لم يلبث أن وجد نفسه مجرد « قطعة » أو « شذرة » من « انسان ! » . والسبيل الأوحد الى علاج مثل هذه الحالة من « الانقسام » أو « التمزق » انما هو العمل على تثبيت دعائم حضارة انسانية متكاملة . وتبعاً لذلك ، فانه لا يكفى لمواجهة هذه الحالة أن نعمد الى تلقيح الحضارة بمصل « العقل الخالص » ، بل لا بد لنا دائماً من ان نتذكر ان « الميول » لاتقاوم الا بـ « ميول » اخرى . وقد قاسى الانسان الشيء الكثير من جراء « الاستبداد القمعى » للعقل ضد « الحساسية » . وقد يكون من مظاهر نقص الحضارة الاوروبية وقصورها ، انه لم يعد فى امكاننا اليوم المحافظة على الطابع الخلقى للانسان ، اللهم الا عن طريق التضحية بطابعه الحسى . صحيح أن هناك دعوات كثيرة قد ارتفعت صيحاتها معلنة ضرورة الاهتمام « الوحدة » و « الانسجام » ، ولكن أصحاب هذه الدعوات كثيراً ما يضحون بـ « الكثرة » و « الامتلاء » ، دون أن يفطنوا الى انه لابد من التوفيق بين قوانين « العقل » واهتمامات « الحس » ، بحيث نخلع على « العقل » طابعاً حسياً ، ونخلع على « الحس » طابعاً عقلياً . وقد سبق لنا أن قلنا ان شيلر قد شخص مرض الحضارة الاوروبية الحديثة على انه صراع بين غريزتين أساسيتين من غرائز الانسان : الا وهما « الغريزة الحسية » و « الغريزة الصورية » . وعلى حين أن الكثيرين قد حاولوا حل هذا الصراع باعطاء الصدارة للعقل على الحس ، نجد أن شيلر قد رفض دكتاتورية العقل ، لانه اراد أن يقيم « الأخلاق » على اسس جمالية تعطى للحساسية حق المواطن فى دنيا الحضارة البشرية ، وتفهم أن « الجمال » نفسه هو « الباب » الذى ندخل منه الى « الحق » و « الخير » . ومن هنا كانت قيمة « التربية

---

(١٢) F. Schiller : " Lettres sur l'Education Esthetique de l'Homme ", Paris, Aubier, 1944 pp. 107-109.

الجمالية » فى عالم الحضارة الانسانية : فان من شأن « غريزة اللعب » أن تحرر الانسان من الظروف اللا ـ انسانية التى يرزح تحتها وجوده ، وأن تقوده ـ عبر « الجمال » نفسه ـ الى عالم « الحرية » . وبعبارة اخرى ، يؤكد شيلر أن حل « المشكلة السياسية » للانسان الاوروبى الحديث ، رهن بتلك « التربية الجمالية » التى تضمن له التحرر من اسر الحاجة ، والقسر الخارجى . وليس يكفى أن نقول ان غريزة اللعب هى الوسيلة الوحيدة لتحرر الانسان ، بل يجب ان نضيف الى ذلك أيضاً أن « الفن » هو التعبير الأسمى عن الحياة الحرة المنطلقة التى قد استطاعت أن تتخلص تماماً من كل اثر من آثار « الخوف » أو « القلق » . والحق أن الانسان لايكون حراً بحق ، اللهم الا حين يكون قد نجح فى التحرر من كل قسر ، خارجياً كان أم باطنياً ، جسمياً كان أم نفسياً ، بحيث لايعود يرزح تحت نير القانون ، ولا تحت نير الحاجة (١٣) .

ولكن ، لماذا علق شيلر كل هذه الأهمية على « التربية الجمالية » ، بوصفها علاجاً أساسياً لمرض الحضارة الاوروبية ؟ هذا مايرد عليه شيلر بقوله اننا لو نظرنا الى الناس فى أوقات فراغهم ، أو فى لحظات تسليتهم ، لوجدنا أنهم قادرون عندئذ على الجمع بين أرفع صور النشاط العقلى ، وأسمى ضروب الفاعلية الأخلاقية ، وكأنهم يؤلفون بين « أشكال الحق» و « رموز الخير » ، أو كأن « الفن » عندهم قد انتصر عندئذ على « الطبيعة » ، والحق أن « اللعب » هو المناسبة السعيدة التى تتلاقى عندها الخصوبة اللاارادية للحياة الطبيعية مع استقلال الحياة الخلقية وحريتها ، ويتحقق فى كنفها « التوافق » بين الظروف المتغيرة ووحدة الشخصية ، ويتم فى رحابها « الانسجام » بين الميل الى المادة والميل الى الصورة . والمشاهد فى لحظات اللعب أن « القوى » تعمل وفقاً لقوانينها الطبيعية ، دون أن تكون مرتبطة ـ مع ذلك ـ بحاجات مادية ، فهى تعمل « من الباطن » دون أن يكون فى نشاطها أى قسر ذاتى أو اى اكراه باطنى . وحين يتلاقى الفعل والانفعال ، أو الايجابية والسلبية ، فهنالك يشعر الانسان بأنه قد تحرر من أسر الطبيعة الحسية ، وان كان من شأن الطبيعة الحسية ـ مع ذلك ـ أن تظل تعمل وفقاً لقانونها الخاص . وهنا يعمل الانسان من تلقاء ذاته ، ويحدد نفسه بنفسه ، صادراً فى سلوكه عن محض حريته ، وكأنما هو يسير على هدى « الميل الى الصورة » ، ولكن الحساسية والمادة ـ مع ذلك ـ تظلان قائمتين دون أن يكون هناك أدنى مساس بوجودهما . وبيت القصيد هنا أن يتوافر من الطاقة الزائدة (أو القوة الفائضة) ما يسمح للوظائف بأن تنطلق من عقالها ، وتمارس نشاطها ، فى حرية تامة . وحين يتحقق مثل هذا « الانطلاق الحر » للقوى ، فهنالك تتجلى « الطبيعة البشرية » بكل تكاملها ، وفى تمام توافقها . واذا كان شيلر حريصاً على ابراز اهمية « الخبرة الجمالية » ـ فى حياة البشر ـ فذلك لأنه قد وجد فيها مظهراً لنزوع الانسان نحو اللامحدود ، وكأن « الحالةالجمالية » هى ذلك « الكل » الذى يضم فى باطنه كل شروط بقائه واستمراره . وآية ذلك اننا حين نكون مستغرقين فى « الحالة الجمالية » ، فاننا نشعر كما لو كنا قد تحررنا من أسر الزمن ، كما أن انسانيتنا عندئذ تتجلى بكل نقائها وتكاملها ، كما لو كانت قد بقيت بمنأى تام عن أى تأثير يمكن أن يلحق بها من جانب القوى الخارجية ! واذن فان « الحالة الجمالية » التى وصفها لنا شيلر ـ فى كتابه « رسائل فى

(١٣) F. Schiller: "Lettres sur l'Education Esthetique de l'Homme", pp. 201-203 & pp. 253-255.

التربية الجمالية للانسان » ـ انما هى تلك الحالة الانسانية التى تعمل فيها شتى القوى (أو الملكات) فى انسجام تام ، وحرية مطلقة ، دون أن تصدر فى فعلها عن حاجات خارجية ؛ ودون أن تكون ثمة صدارة (أو غلبة) لأية وحدة منها على ماعداها . ولم يكن شيلر يرى فى تلك « الحالة » (الجمالية) مجرد وسيلة للحد من الابتذال والفظاظة ، أو مجرد اداة للتخفيف من حدة النزاع والتنافر ، بل هو قد وجد فيها السبيل الأوحد الموصل الى « كمال الحضارة » .

وهكذا نرى أن « مشكلة الحضارة » التى اثارها « روسو » قد لقيت من جانب «شيلر» اجابة مغايرة تماماً لتلك التى قدمها لها ـ من قبل ـ «كانت» . فعلى حين أن «كانت» قد دعا الى قيام **« دولة عادلة »** تقوم على مبدأ الحرية، نجد ان شيلر يدعو الى قيام **« مجتمع جمالى »** يقوم على « الانسجام » . والواقع أن شيلر قد حاول أن يقيم ضرباً من التصالح (أو التوفيق) بين الجمال من جهة ، والمثل الأعلى السياسى من جهة اخرى . وهو قد ميز ثلاثة أنواع من المجتمعات : **مجتمع الفطرة** (أو الطبيعة) الذى تسوده القوة ، **والمجتمع الدينامى** الذى تتم فيه السيطرة على الطبيعة بالطبيعة ، واخيراً **المجتمع الأخلاقى** الذى يُضفى على الطبيعة طابعاً خلقياً نبيلاً ، ويُخضع الارادات الفردية للارادة العامة ، جاعلاً من القسر ظاهرة مقبولة يرتضيها الناس بحريتهم . ولكن « المجتمع الجمالى » ـ فى رأى شيلر ـ هو وحده الذى يخلع على الروح الجماعية طابعاً واقعياً : لأنه يعمل على تنفيذ ارادة الطبيعة وارادة الأخلاق ، من جانب الارادة الخيرة التلقائية للفرد . والسبب فى ذلك أن « العنصر الجمالى » ـ فى الانسان ـ يمثل جانبه « الاجتماعى » (بكل ما لهذه الكلمة من معنى) . ولما كان « الجمال » مظهراً لتوافق القوى وانسجام الملكات ؛ فانه يخلع على كل من الفرد والدولة طابعاً اجتماعياً واضحاً . صحيح انه يقحم على المجتمع الكثير من مظاهر التنافر ، والصراع ، والتناقض . ولكنه يتجاوز هذه الانقسامات جميعاً من خلال « الانسجام الاجتماعى » الذى يخلقه فى نفس كل فرد على حدة . والحق انه اذا كان من شأن لذة الحواس أن تشبع الانسان بوصفه فرداً ، واذا كان من شأن لذة العقل أن تشبع الناس بوصفهم نوعاً ، فان من شأن المتعة الجمالية أن تشبع الأفراد بوصفهم ممثلين للنوع . ولا بد للفرد من أن يسهر على تحقيق الانسجام بين الاشباع الكلى والاشباع الفردى. وآية ذلك أنه لابد للأفراد ـ فى ظل الحضارة الحرة ـ من أن يفرضوا لأنفسهم وبأنفسهم كل قوانينهم : فان القاعدة الأساسية فى « المجتمع الجمالى » هى « منح الحرية عن طريق الحرية » . ومعنى هذا أننا حين نكون بازاء حضارة حرة بمعنى الكلمة ، فلا بد للارادة العامة ـ فى مثل هذه الحضارة ـ من أن تتحقق من خلال طبيعة الأفراد . ولن يكون « النظام » هو فى الآن نفسه « حرية » ، اللهم الا اذا قام على دعامة من الاشباع الحر للأفراد ، بحيث تكون ركيزته الوحيدة هى هذا « الاشباع الفردى » . ولكن لما كان « الزمان » هو الخصم العاتى الذى يتحطم على صخرته كل اشباع ، فلابد للتحرر البشرى من أن يحاول مصارعة الزمن . واذن فلا بد للمجتمع الجمالى الحر من العمل على قهر المسار الهدمى للزمان ، بفعل « غريزة اللعب » التى تقوم بمهمة « الغاء الزمان فى الزمان ! » وهكذا يخلص شيلر الى القول بأن تقدم البشرية نحو صورة عليا من صور الحضارة سيظل رهناً بنشاط غريزة اللعب المحررة التى سيكون من شأنها تحقيق التصالح بين الوجود المطلق والصيرورة ، أو بين الهوية والتغير !

نزعة شيلر الغنائية Lyrisme :

حاول شيلر فى دراسته المسماة باسم « الشعر الساذج ، والشعر العاطفى » (سنة ١٧٩٥) أن يتخذ من الشعر مناسبة للتوفيق بين آراء كانت وتصورات روسو ، فراح يطبق حلم روسو على النظرية الكانتية ، مع اهتمامه — فى الوقت نفسه — بالكشف عن مستقبل الانسانية . ومعنى هذا أن شيلر قد شاء — فى هذا البحث — أن يطبق تاريخ الانسانية على الشعر ، باعتبار ان الشعر هو بمثابة بلورة — فى مجال المخيلة (أو التخيل) — لتطور الانسانية بصفة عامة . وليس الشعراء — فى نظر شيلر — سوى أكثر الناس انسانية : لأنهم يركزون فى أعمالهم على كل مراحل التطور التى مرت بها البشرية . وان شيلر لينطلق هنا من العقل ، فهو لايدخل فى اعتباره تقسيم الوقائع الشعرية الى شعر غنائى ، وشعر ملحمى ، وشعر درامى ، بل نراه يقرر ان بيت القصيد فى دراسة الشعر ليس هو التوقف عند « الشكل » أو « الصورة » ، بل الاهتمام بالطريقة التى نستشعر على نحوها ذلك « الشكل » أو تلك « الصورة » : Empfindungsweise . ولكن شيلر حين وضع هذا القانون ، فانه قد أحال بذلك الشعر كله الى شعر غنائى ، وكأن الشىء الأوحد فى الشعر انما هو طابعه العاطفى الخاص وحساسيته الوجدانية النوعية . صحيح أن التقسيمات التقليدية للشعر قد بقيت قائمة فى نطاق هذا الشعر الغنائى ، ولكن هذه التقسيمات قد استحالت الى فروق فى الشكل ، لا فى المضمون . وهكذا راح شيلر يقسم الشعر الى نوعين اساسيين : شعر ساذج ، وشعر عاطفى . والشعر الساذج يجسد المرحلة الاولى من مراحل تطور البشرية بصفة عامة ، نظراً لأنه شعر واقعى ، صادق ، بسيط ، يصدر عن لاشعور الفنان . وليس فى هذا الشعر أى فصل للذات عن الموضوع ، بل الملاحظ أنه وان يكن شعراً غنائياً ، الا أنه مايزال موضوعياً . وشيلر يصف هذا النوع من الشعر بأنه « تشكيلى » أو « تجسيمى » : لأن الشاعر هنا لا يستسلم لعاطفته ، بل هو يشكل المادة الجمالية على نحو ما يفعل الفنان التشكيلى حين يصوغ مادته الخام . ومعنى هذا أن الشعر الساذج — فى رأى شيلر — انما هو ذلك الشعر الذى يعبر عن المثل الأعلى للانسانية تعبيراً تلقائياً واضحاً ، تمتزج فيه الطبيعة بالشاعر ، دون أدنى عائق أو وسيط . والقدرة المتوافرة لدى الشاعر الساذج هى بمثابة قبس من الالهام : فليس ثمة تأمل أو تفكير ، وليس هناك تصحيح أو تعديل ، وانما يتحقق كل شىء فى وعى سعيد مباشر بالاتحاد مع الطبيعة ، ويجد الشاعر لذة قصوى فى هذه الوحدة الطبيعية الهائلة ! ومن هنا فان عيان الشاعر الساذج عيان واضح لاتشوبه شائبة من غموض ، كما أن صوره تعبير عن نظرته البارعة الفارقة فى نعيم الوحدة مع الطبيعة . وقصارى القول أن الشعر الساذج الذى يتحدث عنه شيلر ، انما هو « الشعر الكلاسيكى » الذى يسوده انطباع الانسجام ، والتوافق ، والتناغم ، وكل ما من شأنه أن يكشف عن « النظام الباطنى » للشاعر (١٤) .

وأما الشعر العاطفى ، فانه يعبر عن المرحلة الثانية من مراحل تطور الانسانية ، وهى مرحلة التصدع ، أو الانقسام ، أو الانفصال . وآية ذلك أننا نجد هنا صراعاً بين الغريزة والوعى ، أو بين الحساسية والعقل . وعلى حين كانت البشرية — فى المرحلة السابقة — غارقة أو مستغرقة بتمامها فى « المتناهى » ، نجد الآن — الى جانب هذا الشعور بما فينا من طابع متناه — تعطشاً الى اللامتناهى ،

(١٤) F. Schiller: "Traite sur le Naif et le Sentimental", (cite par R. Bayer: "Histoire de l' Esthetique ", Paris, Colin, 1961, p. 256).

وحنيناً الى اللامحدود ، وسعياً وراء النفس، والكون ، والله . ومن هنا فان الشاعر العاطفى الذى نلتقى به فى الأزمنة الحديثة انسان ممزق قد افتقد تلك الحالة السعيدة من الاتحاد مع العالم ، فاصبح يحن الى عصر مضى ، كانت فيه اواصر الاتحاد وثيقة بين الانسان وعالمه . وهذا هو السبب فى اننا نجد لدى الشاعر العاطفى الكثير من التأملات الفلسفية ، فضلاً عن اننا نشعر بحنينه الدائم وتوقه الدائب الى « ذلك الذى لم يعد يملكه ! » ، ولما كان الشاعر العاطفى على وعى تام بهذا النقص ، فليس بدعاً ان نراه يحاول استعادة هذه الوحدة بشكل نظرى على صورة « فكرة idea » . وصفوة القول أن قوام الشعر العاطفى هو التناقض بين المتناهى واللامتناهى، او بين الواقعى واللاواقعى .

ان « الشاعر » ـ فيما يقول شيلر ـ قد يكون هو نفسه « الطبيعة » ، أو قد يكون مجرد باحث عن « الطبيعة » . والفارق بين الحالة الاولى والحالة الثانية هو كالفارق بين « الشعر الساذج » ، و « الشعر العاطفى » . والواقع أن فجر الانسانية قد عرف من التوافق بين « المخيلة » و « العقل » ، ماجعل من « الشاعر » نموذجاً للانسان المتحد بالطبيعة ، فكانت الأحاسيس والعواطف تصدر عن الضرورة ، وكانت الأفكار والتصورات تنبع من الواقع (أو الوجود الخارجى) . ثم ظهرت المدنية ، فاختفى بظهورها هذا الانسجام البدائى بين الحساسية والعقل ، وكان من ذلك أن حدثت القطيعة بين الانسان والطبيعة . وعلى حين كان الاقدمون بارعين كل البراعة فى حصر كل موضوعاتهم داخل نطاق « المتناهى » ، أصبح المحدثون اهل قدرة فائقة فى مضمار فن « اللامتناهى » . وهكذا أصبح شعورنا بازاء الطبيعة أشبه مايكون بشوق المريض الى الصحة . ولما كنا قد اصبحنا نحيا فى عصر عاطفى : اعنى فى عصر يجد فيه « المتذوق » نفسه مدفوعاً الى البحث عن شخصية الفنان فيما وراء عمله الفنى ، وكأنما هو يريد أن يسقط « الموضوع» على « الذات » ، أو أن يرى « الموضوع » فى « الذات » ، فقد أصبحنا نتوهم أن بعض كبار الشعراء الكلاسيكيين كانوا مجردين من كل عاطفة ، لمجرد اننا لم نعد نستطيع أن نكتشف شخصياتهم الكامنة خلف أعمالهم الفنية . ولعل هذا ماحدث لشيلر نفسه ـ فى بداية حياته الفنية ـ فقد كان يبغض شكسبير ، ويعتقد انه لم يكن يتمتع بأية عاطفة ، فى حين ان الحقيقة هى « أن الشاعر الساذج أشبه مايكون بالحقيقة الالهية الكامنة وراء الكون ، نظراً لأنه يختفى وراء عمله الفنى ، أو ربما كان الأدنى الى الصواب ان يقال أنه فى الحقيقة صميم عمله الفنى ، كما ان عمله هو عين شخصيته » .

وحينما يتحدث شيلر عن الصور الساذجة للحياة والتعبير ، فاننا نجده يهيب فى العادة بقدماء اليونان . وهو يقول فى هذا بصريح العبارة : « لقد كان الاغريق يمثلون ما كنا عليه يوماً ، وما نزال نحنُ الى أن نعود اليه يوماً ... واننا لنلمح لديهم ذلك الذى لم نعد نملكه ، وما نسعى جاهدين فى سبيل بلوغه ، وان كنا لن نستطيع أن نبلغه ، على الرغم من اننا لانكف عن تمنى الاقتراب منه ، فى حركة مستمرة من التقدم اللانهائى ! » ومن هنا فقد اصبح هذا « العدو » المستمر وراء « اللامتناهى » هو اسلوب الشاعر (أو نمطه الخاص) فى الوجود : اذ ما يكاد يبلغ « اللامتناهى » ، حتى يراه قد استحال الى « متناه » ، مادام « اللامتناهى » المتحقق هو مجرد تناقض فى الحدود ! وقد يكون « اللامتناهى » ـ بحكم تعريفه ـ هو « مالا سبيل الى تمثله » ، ولكن الشعراء يريدون الايحاء الينا بانهم قديرون على التعبير عن « اللامتناهى » ، على الرغم من انهم يعلمون ان وسيلة الشعر فى التعبير هى « الكلمات » ، وأن « الكلمات » بطبيعتها

« متناهية » . وهذا هو السبب فى أن الشعراء المحدثين كثيراً مايلتجئون الى الرمز ، بدلاً من التعبير المباشر ، وكأنهم يريدون أن يثيروا لدينا انطباعاً يكون من شأنه اشاعة التوتر فى نفوسنا نحو « اللامتناهى ! » ، وسواء التجأ الشاعر الى عملية تطهير الكلمات من شوائب الواقع ، أم عمد الى خلق نوع جديد من الشعر يستبقى فيه الكلمات ولكن بعد أن يكون قد اغرقها فى تيار الموسيقى ، أم اتجه نحو تحقيق ضرب من التداعى الحر بين الألفاظ بالاستناد الى قيمها الموسيقية ، فانه ــ فى كل هذه الحالات ــ انما يتخذ من الشعر اداة فنية للتأثير على حساسيتنا بطريقة محددة ، مُهيباً فى ذلك بالجهد الحر لمخيلتنا الابداعية . صحيح انه لابد للشاعر من أن يطلق العنان لخياله ، والا يتدخل فى مسار عملياته التخيلية الا بطريقة حذرة متحفظة ، ولكن من واجبه ــ مع ذلك ــ أن يقوم بتوجيه خياله والتحكم فيه . بل ان شيلر ليمضى الى حد أبعد من ذلك فيقول انه لابد للشاعر من أن يستبعد شتى العناصر العرضية ، لكى يقتصر على تمثيل الموضوعات نفسها ، فى صميم موضوعيتها . وحتى حين يعمل الشاعر على ابراز العناصر الذاتية ، فانه لابد لهذه العناصر من أن تتخذ على يديه طابعاً كلياً (أو شمولياً) . ولا غرو ، فان عالم الحساسية الوجدانية لايخلو من دوائر ، أو مناطق ، أو قوانين ، تَندُّ بطبيعتها عن العَرَضية ، وتفلت من طائلة الذاتية . ومن هنا فانه لابد للشاعر من أن يستبعد العناصر الذاتية البحتة ، لكى يخاطب مافى حساسيتنا من جوانب كلية،محوِّلاً ــ بذلك ــ حساسيته الجزئية (الخاصة) الى حساسية كلية (عامة) . ولكن العواطف نفسها ــ فيما يقول شيلر ــ لا تقبل التمثيل أو التعبير بطريقة مباشرة ، وانما الذى يقبَل التمثيل أو التعبير هو الصورة ، والحركة ، والايقاع ، والشدة ؛ أعنى كل ماهو « كمى » فى العاطفة . واذن فلابد للشاعر من أن يمثل العواطف (أو يعبر عنها) بطريقة رمزية ، بحيث يحقق ضرباً من التماثل بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية . وهذا هو السر فى ذلك التلاعب الفنى الذى يستطيع الشاعر بمقتضاه أن يمضى من « الموضوع » الى « الفكرة » ، كما يستطيع المتذوق بمقتضاه أن يمضى من « الفكرة » الى « الموضوع » . والا ، فماذا عسى أن تكون « الطبيعة » ــ بالنسبة الى الشاعر ــ ان لم تكن هى تركز الفكر وتبلوره ؟ وكيف لنا أن نفسر أشكال الطبيعة ، أن لم نرجع الى مالدينا من صور باطنية أو اشكال ذاتية ؟

واخيراً يحدثنا شيلر عن الشاعر العبقرى، فيقول انه ذلك الذى لايسير الا على هدى الطبيعة والفريزة . واذا لم تكن العبقرية ــ فى رأى شيلر ــ ساذجة ، فانها لن تكون عبقرية على الاطلاق ! وربما كان خير مثال للعبقرية الساذجة فى العصور الحديثة شكسبير من جهة ،وجوته (بصفة خاصة) من جهة اخرى. واذا كان أمثال هؤلاء الشعراء الغباقرة لم يعودوا يحيون فى عالمهم الصحيح (أعنى فى عالم ملائم لهم) ، فما ذلك الا لأن العصر الذى نحيا فيه قد أصبح عصراً صناعياً ملؤه التكلف، والتعسف ، والافتعال ، ولكن هؤلاء العباقرة ــ فى الحقيقة ــ يمثلون مملكة مستقلة قائمة بذاتها ، وهم حينما يظهرون الى عالم الوجود، فانهم يحملون معهم علامة هذا التميز ، أو التفرد ، أو الاستقلال ، وهكذا انتقل شيلر ــ فى خاتمة المطاف ــ من « عالم الفلسفة » الى « عالم الابداع الشعرى ! » .

مكانة شيلر فى عالم الفكر :

رأينا كيف كانت أعمال شيلر الجمالية المتأخرة ثمرة لتأملاته الفلسفية المبكرة ، وكيف كان اهتمامه بفلسفة الحضارة نتيجة لفهمه العميق لدور « الخبرة الجمالية » فى التجربة البشرية . والحق ان « الجمال » قد بقى ــ فى نظر شيلر ــ مظهراً للانسانية المثالية ، وعاملاً على النضج الخلقى والاجتماعى . وعلى حين

كان « كانت » يقرر وجود تعارض بين « الحواس » و « العقل » ، جاء شيلر فأكد أن ثمة مظهراً يخلو تماماً من كل أثر من آثار هذا التناقض ، وما هذا المظهر سوى « المجال الجمالى » . ومن هنا فقد وجد شيلر فى « التأمل » أو « المشاهدة » ، تعبيراً عن حالة التصالح ، أو حالة التطهير (كاثرسيس catharsis) : نظراً لأن الانسان الذى « يتأمل » ، لا يرغب فى شىء ، ولا يجاهد فى سبيل الظفر بأى شىء ، فهو فى حالة من الصفاء أو النقاء لا يفتقر معها الى أى صراع أو نزاع ! وقد سبق لنا ان لاحظنا كيف ثار شيلر على أخلاق العُسر ، والشدة ، والمجاهدة ، باسم أخلاق اليسر ، والتلقائية ، والحرية . ولا شك أن نظرية شيلر فى « القيمة التربوية للفن » قد كانت بمثابة ثمرة لتلاقى نزعته الأخلاقية بنزعته الرومانتيكية ، ولو أن نزعته الأخلاقية قد جاءت فأنقذته ــ فى خاتمة المطاف ــ من أى تهور (أو تطرف) فى النزعة الرومانتيكية .

وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول ان معظم الرومانتيكيين الألمان (وعلى رأسهم **چان پول** Jean-Paul) قد أخذوا عن شيلر نظريته الجمالية ، ولكنهم أضفوا عليها طابعاً متطرفاً شديد الاغراق ، فامتدوا بالحياة الجمالية الى كافة المجالات ، وجعلوا من النشاط الفنى خبرة عادية ملحوظة لدى جميع الأفراد ومتحققة فى سائر اللحظات ، وهكذا استحال « اللعب » ــ على ايديهم ــ الى عملية « انسحاب » من المجتمع ، أو استغراق فى نشاط فردى « لاه » ، فى حين أن شيلر لم يكن يرى فى « لعب الفن » سوى عملية جدية تُعبر عن الانطلاق والحرية . وانتهى بعض الرومانتيكيين الى القول بأن الشىء الوحيد الذى يستحق ــ فى هذه الحياة ــ أن نعيش من أجله انما هو « الفن » أو « النشاط الجمالى » فى حين أن شيلر لم يجعل من « الفن » ــ على حد تعبير أحد النقاد ــ سوى « يوم الراحة » الذى تستجم فيه « الانسانية ! » (١٥) .

بيد أن الفيلسوف الأمريكى المعاصر **« هربرت ماركيوز »** قد وجد فى فلسفة شيلر الجمالية نزعة « مُستقبلية » تؤمن بامكان قيام حضارة بشرية جديدة ، يكون قوامها تغليب « مبدأ اللذة » على « مبدأ الواقع » (بخلاف مافعل **فرويد** مثلاً) . ولم يجانب ماركيوز الصواب حين أوّل « رسائل شيلر فى التربية الجمالية للانسان » على أنها محاولة اصيلة من أجل اعادة بناء الحضارة البشرية بالاستناد الى القوة المحررة للوظيفة الجمالية . ولكن ماركيوز قد عمد فى كتابه « ايروس والحضارة » الى الكشف عن المنطق الباطنى لتراث الفكر الغربى ، لكى يبين لنا كيف أن هذا المنطق كان يضحى بالحساسية لحساب العقل ، وكيف أنه كان يجعل من « الوظيفة الجمالية » احدى « الوظائف الدنيا » بالقياس الى « الوظيفة العقلية » (أو العرفانية) التى كانت تعد احدى « الوظائف العليا » . ومن هنا فقد كان على شيلر ــ فيما يقول ماركيوز ــ أن يبين لنا كيف أن « المخيّلة » ملكة أساسية من ملكات الروح البشرية . وكيف أن « الوظيفة الجمالية » هى القوة الكبرى الكفيلة بالقضاء على حالة **« الاغتـراب »** Aliénation التى وقع الانسان الغربى ضحية لها . وحينما كان على شيلر أن يواجه « المشكلة السياسية » للمجتمع الغربى فى عصره ، فانه لم يجد من حل لهذه المشكلة سوى الدعوة الى تحرير الانسان الاوروبى من ظروف المعيشة اللاانسانية ، عن طريق تحرير غرائزه من القمع ، والكبت ، وشتى مظاهر القسر الخارجية والداخلية معاً . وقد كان شيلر على وعى بأن « الواقع » لايمكن أن يخلو من « قسر » ان لم

---

(١٥) R. Bayer : Histoire de l'Esthetique, Paris, A. Colin, 1961, p. 258.

نقل بأن « الواقع » نفسه صورة من صور « الأسر » ، فلم يكن أمامه سوى أن يربط « الحرية » بعملية « التحرر » من ربقة « الواقع » ، لكى يعلن أن « الانسان لايكون حراً » الا حين يفقد « الواقع » — فى نظره — طابعه الجدى ، وحين تصبح « الضرورة » — فى عينيه — مجرد « أمر سهل .. هيّن » ، وهكذا دعا شيلر الى ضرب من « عدم الاكتراث بالواقع » ، ونادى بأن من مصلحة الانسان أن يتعلق بـ « الظاهر Schein » واعلن أن قيام حضارة انسانية حقة رهن بتحول الوجود البشرى الى « لعب » لا « عمل » ، وارتكاز الحياة الانسانية على « الظاهر » (لاعلى « الحاجة ») . ومعنى هذا انه حين يفقد الواقع طابعه الجدى اللا — انسانى القائم على منطق الحاجة والفقر ، فهنالك يصل الانسان الى حالة « التحرر » التى يمكن معها اشباع الحاجات والرغبات ، دون الالتجاء الى شريعة « العمل » القائم على « الاغتراب » . ولما كان « اللعب » — فى نظر شيلر — هو بمثابة « تحقيق للحرية » ، فليس بدعاً أن نراه يعلى من شأنه بوصفه شيئاً أكثر من « الحقيقة الطبيعية » ، و « الأخلاق الالزامية » . ولهذا يقرر ماركيوز أن « اللعب » — فى فلسفة شيلر — ليس مجرد ترف أو لهو ، أو شىء كمالى صرف ، وكأنما هو « عطلة » يتحرر فيها الانسان من ضغط العالم القمعى ، بل « اللعب » وظيفة جمالية هى بمثابة مبدأ « كلى » — يحكم الوجود بأسره ، ويكون من شأنه احلال « المخيلة » محل « العقل ! » .

ولكننا حتى لو سلمنا مع ماركيوز بأن شيلر قد دعا الى قيام « حضارة جمالية » يتم فيها التحرر من أسر « الحاجة » ، فاننا لانظن أن شيلر قد نادى بتغليب « الحساسية » على « العقل » ، أو اقامة « الأخلاق » على دعامة من « المحسوس ! » . صحيح أن شيلر — كما لاحظ ماركيوز — قد فطن الى خطورة طغيان « العقل » على « الحساسية » ، ولكنه — فيما نعتقد — لم يحاول أن يستبدل طغياناً بطغيان، بالتالى فانه لم يُرد « للفريزة الحسية » — فى حضارة المستقبل — أن تثأر لنفسها من « الفريزة الصورية » ، وحينما قال شيلر قولته المشهورة : « انه طالما كان الانسان نفسه هو العالم ، فليس هناك عالم بَعْدُ بالقياس اليه ، وأما حين يكف عن أن يكون واحداً مع العالم ، فهنالك — وهنالك فقط — يبدو له العالم بالفعل » ؛ فانه قد أراد بهذه العبارة أن ينبهنا الى خطورة « الأطراف » التى قد يقع فيها الانسان حين يُمعن فى التهور أو المبالغة أو التطرف . ولعل القارىء أن يكون قد لاحظ معنا — أكثر من مرة — أن شيلر قد بقى حتى النهاية فيلسوف الوحدة ، والانسجام ، والتوافق ، فلا بد لنا من أن نعود فنقرر أن « الجمال » عنده قد استوعب كلاً من « الحق » ، و « الخير » ، وأن « الفن » — فى رأيه — قد بقى قوة حيوية تسمو بالحياة البشرية (دون أى عنف أو قسر) الى مستوى يعلو على الحياة الحيوانية ، بفعل الانسجام اللا ارادى للفرائز ، والقوى ، والملكات . فهل من عجب بعد ذلك فى أن نرى شيلر الشاعر يهتف قائلاً : « ايه أيها الانسان ، أيها الكائن الفانى ، انما الفن صنيعتك ، وهو لاينتسب الا اليك ، واليك أنت وحدك ! » .

★ ★ ★

المراجـع

اولا : ــ مؤلفات شيلر الفلسفية والجمالية (مرتبة ترتيبا تاريخيا) :

1. " Versuch uber den Zusammenhang der thierischen Natur des Menschen mit seiner geistigen ", 1780.

(رسالة فى العلاقة بين الطبيعة الحيوانية للانسان وطبيعتهالروحية) .

(« فى الرشاقة والكرامة »)

2. "Uber Anmut und Wurde", 1793.

3. "Briefe uber die aisthetische Erziehung des Menschen ", 1795

(« رسائل فى التربية الجمالية للانسان ») .

4. Uber Naive und sentimentalische Dichtung. 1795-96.

(« فى الشعر الساذج والشعر العاطفى ») .

ثانيا : ــ مراجع فى علم الجمال (تعرضت لدراسة فلسفةشيلر الجمالية) :

1. R. Bayer, **Traite d'Esthetique,** Paris, Armand Colin, 1956.
2. R. Bayer, **Histore de l'Esthetique,** Paris, A. Colin, 1961.
3. V. Basch, **La Poetique de Schiller,** 2e ed., Paris, F. Alcan, 1911.
4. R. Huch, **Les Romantiques allemando,** Paris, Grasset, 1935.
5. E. Gilbert & H. Kuhn, **A History of Asthetics,** Macmillan, New York, 1939.
6. F. Schiller, **Esthetique,** trad. Regnier, Paris, Hachette, 1880
7. E. Souriau, **L'Avenir de l'Eshtetique,** Paris, F. Alcan, 1929.
8. Van Tieghem (P.), **Le Romantisme dans la literature Europeenne,** Paris, albin Michel, 1948.





THE OXFORD ENGLISH
DICTIONARY

BEING A CORRECTED RE-ISSUE
WITH AN
INTRODUCTION, SUPPLEMENT, AND BIBLIOGRAPHY
OF
A NEW
ENGLISH DICTIONARY
ON HISTORICAL PRINCIPLES
FOUNDED MAINLY ON THE MATERIALS COLLECTED BY
The Philological Society

AND EDITED BY
JAMES A. H. MURRAY, HENRY BRADLEY, W. A. CRAIGIE, C. T. ONIONS

VOLUME I
A–B
SET

OXFORD
AT THE CLARENDON PRESS

معجـــم أكسفـــورد

عرض وتحليل: الدكتور داود حلمي أحمد السيد

١ ــ الخلفية الحضارية للمعجم

ان دراسة اللغة على اسس تاريخية diachronic principles تمكننا من رؤيتها ككل . فدراسة تطور اللغة الانجليزية مثلاً منذ استعملها الشاعر **كادمون** Cadmon فى القرن السابع الى ماهى عليه الآن فى الأعمال الأدبية أو الصحف اليومية الشعبية فى انجلترا والبلاد الناطقة باللغة الانجليزية ــ تصور لنا الحضارة الانجليزية فى اطارها التاريخى العام. فمعجم اى لغة يعكس التطور الاجتماعى لمتكلميها عبر العصور (١) . لقد صور بو Baugh (٢) تفاعل أحداث القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مع اللغة الانجليزية وأثر ذلك فى الحياة السياسية والاجتماعية فى البلدان الناطقة باللغة الانجليزية. فمن الناحية السياسية والعسكرية أصبحت انجلترا سيدة بحار العالم بلا منازع بعد الانتصارات البحرية التى أحرزتها فى حروب نابليون ، والتى توجها الاميرال نلسون بانتصاره الساحق على الاسطول الفرنسى فى معركة الطرف الأغر فى

(١) Wrenn C. L., The English Language ; Methuen & Co. Ltd., London, 1970., p. 202.

(٢) Baugh C. A. ; A History of the English Language ; Routledge & Kegan Paul, London, 1965, pp. 356.

سنة ١٨٠٥م ، ومكنتها هذه الانتصارات من احتلال مركز الصدارة فى الحياة الاقتصادية والسياسية فى امبراطورية لم تكن تغيب عنها الشمس ، واتخذت من اللغة الانجليزية وسيلة للتخاطب على المستويات المختلفة . أما من الناحية الاجتماعية فكان لاجراءات الاصلاح العظيمة مثل اعادة تنظيم البرلمان ، واعادة صياغة قانون العقوبات ، واعادة النظر فى قانون اعالة الفقراء poor laws ، والقيود التى فرضت على تشغيل الصبية بخاصة ، وقوانين الاصلاح الخاصة بالعاملين فى الصناعة بعامة ،أثرها الفعال فى اقامة المجتمع الانجليزى على اسس ديمقراطية ، فأخذت الشقة بين الطبقات العليا والدنيا تضيق ، كما زادت فرص الكادحين للمشاركة فى المكاسب الاقتصادية والثقافية التى أصبحت متاحة للجميع عبر القرن التاسع عشر . ولقد كان لانشاء أول صحيفة يومية رخيصة الثمن (١٨١٦م) ، وكذلك توفير الخدمات البريدية الرخيصة (١٨٤٠م) ، فضلاً عن تحسين طرق السفر والمواصلات وربط أرجاء انجلترا والدول الناطقة بالانجليزية بعضها ببعض ، دور فعال فى انتشار اللغة الفصحى بين الناس . ومن ناحية اخرى كان لنمو الولايات المتحدة والمستعمرات البريطانية أثر كبير على اطراد أهمية اللغة الانجليزية فى هذه البلدان ، مما جعل سكانها يشعرون بأن لغتهم الانجليزية لاتقل أهمية عن الانجليزية فى بريطانيا نفسها .

وقد انعكست هذه الأحداث السياسية والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية فى انجلترا على معجم اللغة الانجليزية . وكان لنمو العلوم أيضاً ، والتقدم السريع فى ميدان الفكر خلال القرنين الاخيرين أثرهما فى زيادة عدد المفردات الجديدة التى تدل على طرق الحياة الجديدة التى شارك فيها الناس من جميع المستويات فى صورها المختلفة من عمل ولعب ولهو ، كما عملت الحربان العالميتان فى القرن العشرين والفترة التى أعقبت كلاً منهما على اثراء المعجم ، وظهر ذلك فى التفاعل القائم بين حضارة الانجليز بعامة وبين اللغة التى تعبر عنها .

ويرى **بو** (٢) أن من أهم مظاهر الحضارة الغربية التى تؤثر فى اثراء المعجم ، التقدم الهائل فى ميدان الطب والعلوم الطبية المتصلة به ، مثل علوم البكتيريا والكيمياء الحيوية ، وما اليهما لنلحظ الفروق الهائلة بين ماكانت عليه هذه العلوم بالأمس القريب وما وصلت اليه الآن من مذهلات لم تخطر من قبل على بال ، وخاصة فى ميادين التشخيص والعلاج والوقاية والدواء . اما عن علوم المواصلات السلكية واللاسلكية والطيران فما أعجب القفزة التى حققتها هذه العلوم وما وصلت اليه من انجازات تفوق الخيال ، وليست رحلات الفضاء عن أذهاننا ببعيدة . ففى كل ميدان من ميادين العلوم النظرية والتطبيقية ظهرت الحاجة الى آلاف المصطلحات الجديدة لتلاحق تقدم العلوم ، فمعظم هذه المصطلحات فنية وتكنية لايعرفها الا المتخصصون فقط ، على الرغم من أن عدداً لا بأس به منها أصبح مألوفاً للرجل العادى . ففى ميدان العلوم والاكتشافات الحديثة أصبح الرجل العادى على علم ودراية ببعض مصطلحاتها التى تمس حياته اليومية . وأصبح الناس كذلك يتمتعون بعقلية علمية فى الأجيال الثلاثة الماضية وأصبحت الكلمات التى يستخدمونها تعكس مدى المامهم بالعلوم واهتمامهم بها .

ان تأثير المخترعات العلمية فى اللغة لايتوقف على مدى أهميتها ، ومدى تأثيرها فى مسار البشرية وتقدمها . وليس هناك شك فى أن السينما والراديو والتلفزيون لاتقل أهمية عن أجهزة البرق والهاتف وغيرها من المخترعات الحديثة ، فقد استحدثت جميعها كلمات كثيرة

---

(٢) Ibid.

فى اللغة وتداولتها الجماهير . ومثل هذه الاضافات فى الثروة اللغوية تعتمد على مدى دخول هذه الاختراعات فى حياة الناس . ويتجلى ذلك فى العدد الهائل من الكلمات القديمة التى تطور معناها واستعملت للدلالة على اشياء كثيرة متصلة بالسيارة والراديو والبرق والسينما والتلفزيون .

ان معجم اى لغة مرآة تعكس التطور الاجتماعى لتكميلها عبر العصور ، وهو مقياس يبين مدى ارتباط اللغة بتاريخ ثقافة الناطقين بها . ويرى **بو** (٤) مع غيره من العاملين فى حقل اللغة انها مرآة صادقة لما يحرزه الناطقون بها من تقدم ثقافى وحضارى . فهو يرى أن الكلمات ليست سوى رموز يعبر بها الانسان عن أفكاره ، وهى مقياس دقيق لفكر الانسان فى كل زمان ومكان . والمعجم يسير جنباً الى جنب مع تقدم المعرفة . وتسجيل تاريخ ظهور كلمة جديدة فى اللغة هو غالباً تاريخ ظهور شىء مستحدث أو تجربة ، أو ملاحظة طرأت على حياة الناطقين باللغة . فمعجم اكسفورد مثلاً ، يزودنا بشواهد تبين تاريخ الحضارة الانجليزية على ضوء الأدلة اللغوية ، فالكلمتان horsepower « القدرة الحصانية : وحدة لقياس القدرة او العمل ، تساوى مايحتاج اليه لرفع ٥٥٠ باوند الى ارتفاع قدم واحد فى الثانية » ، و lithograph « يطبع بطريقة الطباعة الحجرية » ، استحدثتا فى مطلع القرن التاسع عشر للدلالة على ظهور شيئين استحدثا حينئذ ، أولهما نوع من القوى الآلية الحركة التى وجب قياسها بالقوة الحصانية horsepower ، وثانيهما طريقة الطباعة الحجرية .

ان ظهور كلمات مثل railway « السكك الحديد » ، و locomotive « القاطرة » فى حوالى سنة ١٨٣٥ يسجل أن السكك الحديدية البخارية ظهرت فى هذا التاريخ . وفى سنة ١٨٣٩ ظهرت الكلمتان photography و photograph لأول مرة وكان هذا هو تاريخ ظهور كلمات متعلقة بالتصوير مثل camera « آلة تصوير » و kodak « آلة تصوير » (وهى اسم مخترع آله تصوير ، ومازالت تستخدم كعلامة تجارية) و film ، و enlargement « تكبير » ، و focus « بؤرة » ، و shutter « مصراع آلة التصوير » ، و light meter « مقياس الضوء » . أما كلمة concrete بمعنى الأبنية المسلحة التى تصنع بخلط قطع صغيرة من الحجر بالاسمنت فترجع الى سنة ١٨١٤ ، ولو أن المصطلح reinforced concrete يرجع الى القرن العشرين . وظهرت الكلمة (cable) قبل مد خط التلفراف بين أوروبا وامريكا فى سنة ١٨٥٧ — ١٨٥٨ بوقت قليل ، وكلمة refregirator « ثلاجة كهربائية » فى أمريكا سنة ١٨٤١ . والكلمتان emancipation « تحرير أو عتق » ، و abolitionist « المؤيد لمبدأ أبطال الاسترقاق » تعنيان بالنسبة لكل أمريكى معنى خاصاً متعلقاً بالغاء الرق فى أمريكا وبالحرب الأهلية هناك . وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر دخلت اللغة عدة كلمات تسجل مدى ما أحرزته الحضارة الغربية من تقدم فى ميادين مختلفة ومنها الكلمات typewriter « آلة كاتبة » ، و telephone, ، و apartment house, « عمارة سكنية » ، و oilfield « حقل بترول » ، و feminist, « نصير المراة » ، و motorcyle « دراجة بخارية أو نارية » .

---

(٤) Ibid.

ودخلت كلمة (marathon) اللغة فى سنة ١٨٩٦ ، نتيجة لاحياء الألعاب الاوليمبية فى اثينا فى تلك السنة ، أما الكلمتان battery و blunt فهما من بين مصطلحات لعبة البيسبول فى انجلترا .

أما القرن العشرون فقد أتاح لاجياله المتعاقبة الفرصة لمشاهدة نمو اللغة الانجليزية مباشرة ، وشاهدوها وهى تنمو بسرعة مذهلة . وفى منعطف القرن التاسع عشر ظهرت كلمة questionaire « استطلاع » . وفى عام ١٩٠٤ ظهرت كلمة television ، وفى سنة ١٩٠٦ دشنت البحرية البريطانية مدرعة حربية أسمتها dreadnought ، وسرعان ما انتشر هذا الاسم بين الجماهير وأطلقوه على كل سفينة حربية من هذا الطراز ، وفى سنة ١٩٠٧ ظهرت كلمة raincoat « معطف مطر » ، وكلمة thermos bottle « زجاجة حافظة لدرجة حرارتها الباردة والساخنة » . وتميزت تلك الفترة كذلك بظهور العديد من مصطلحات الطيران منها airplane « طائرة » ، و aircraft « طائرة » ، airman « طيار » ، و monoplane « طائرة أحادية السطح » ، و biplane « طائرة ثنائية السطح » ، و hydroplane « طائرة مائية » . وفى حوالى عام ١٩١٠ بدأت الجماهير تتكلم فى الفن عن حركة futurism « المستقبلية : حركةفى الفن والموسيقى والأدب نشأت فى ايطاليا حوالى ١٩١٠ ، وتميزت بالدعوة الى التخلى عن التقاليد ، ومحاولة التعبير عن الطاقة الدينامية المميزة لحياتنا المعاصرة »،وعن postimpressionistic « الانطباعية المتأخرة : مذهب فى فن الرسم نشأ مابين عامى ١٨٧٥ و ١٨٩٠ كرد فعل للصيغة العلمية والطبيعية التى اتسمت بها المدرسة الانطباعية » ، أما الكلمتان intelligenstia و bolshevik ، فانتشرتا بعد الحرب العالمية الاولى لتشير الاولى الى طبقة المثقفين ، والثانية الى معتنقى المذهب السياسى الثورى فى روسيا . وفى نفس هذه الفترة ظهرت فى أمريكا الكلمتان profiteer «انتهازى» و prohibition « تحريم الخمر » ، وهما متعلقتان بمواقف اجتماعية هابطة . كما ظهرت الكلمات fox trot « اسم رقصة » و plus four « بنطلون رياضى جزؤه العلوى فضفاض ، وجزؤه السفلى ضيق » ، و fair way و foot fault ، و contract ، وauction bridge وكلها مصطلحات رياضية تدل على مدى اهتمام الجماهير ببعض الألعاب الرياضية ، والعاب التسلية passtime . وفى ملحق معجم اكسفورد ١٩٣٣ ظهرت كلمات مثل cillophone (١٩٢١) و rayon (١٩٢٤) . ولعل الكثيرين شاهدوا بالأمس القريب مولد الكلمات nylon « نسيج اصطناعى » ، و transistor ، و deep freeze « التبريد العميق » ، و record player و automation« الأتمتة » : تشغيل الأجهزة اوتوماتيكيا ، وtape recorder « آلة تسجيل » ، و Prefabricqate, « يصنع اجزاء شىء مقدماً » فضلاً عن كلمات أمريكية مستحدثة مثل coffee break « فترة راحة لتناول القهوة » ، و baby sitter « جليسة اطفال » ، ولا ريب أن ماسيأتى به الغد غير قليل .

٢ ـ الخلفية اللغوية للمعجم

كان للدراسات اللغوية التىقامت على اسس تاريخية ، وتمت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، اثرها الملموس فى دراسة اللغة بعامة وصناعة المعاجم بخاصة . ولم يكن الأمر أكثر من مسالة وقت ليأتى العالم الذى يستطيع أن يجمع من ناحية بين عبقرية

صمويل جونسون صاحب المعجم المشهور Dictionary of the English Language ، واحساسه التاريخى باللغة ، وهو القائل فى مقدمة معجمه (٥) : « انه من الممكن جمع معانى الكلمة ، وتسجيلها ، وترتيبها ترتيباً تاريخياً مع ذكرها فى شواهد » ، ويجمع من ناحية اخرى القدرة على استيعاب اكتشافات الدراسات اللغوية التاريخية الجديدة ، وتطبيقها فى صناعة المعاجم . ولم يكن هذا العالم سوى **تشارلس ريتشاردسون** (١٧٧٥ — ١٨٨٥) Charles Richardson **الذى** صنع فى عام ١٨٣٦ معجماً جديداً من نوعه ، اتبع فى وضعه المنهج التاريخى الحديث آنذاك ، واصدره تحت عنوان : (New Dictionary of the English Language) . والمعجم لا يتضمن تعريف الكلمات فقط ، ولكنه يعالج أيضاً معانى الكلمة المختلفة وتطورها مع العناية بتسجيل تطور استعمالاتها فى حقب تاريخ اللغة المتعاقبة وذلك بتسجيل الشواهد المؤرخة .

لم يف معجم **ريتشاردسون** ومن قبله معجم جونسون بالغرض الذى يتوقعه كل من يلجأ الى المعجم ليستعين به لالقاء الضوء على مشكلة لغوية أو اخرى ، ومن ثم اخذت الجمعية الفيلولوجية البريطانية The Philolo gical Society of Great Britain على عاتقها جمع الكلمات التى لاتوجد فى معجمى جونسون وريتشاردسون ، فقدم **دكتور ريتشارد تشيفينكس ترنش** (١٨٠٧—١٨٨٦) Dr. Richard Chevenix Trench عضو الجمعية فى نوفمبر ١٨٥٧م بحثاً (٦) اكد فيه عدم وجود المعجم الذى يمد مستعمله بالشكل والمعنى التاريخى المطلوبين لكل كلمة. وفى العام اللاحق ١٨٥٨م قررت الجمعية الشروع فى صنع مثل هذا المعجم الذى استغرق اعداده اكثر من نصف قرن ، وصدر سنة ١٩٢٨ تحت عنوان : « معجم انجليزى جديد على اسس تاريخية فى عشرة أجزاء »(٧) A New English Dictionary of Historical Principles in Ten Volumes

واعيد اصداره سنة ١٩٦١ تحت عنوان : « معجم اكسفورد للغة الانجليزية فى اثنى عشر جزءاً » The Oxford English Dictionary in Twelve Volumes . كما صدر له ملحق من جزء واحد يحتوى على الكلمات والمعانى الجديدة التى دخلت اللغة الانجليزية بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٦١ ، فضلاً عن الاضافات والتنقيحات التى الحقت بالأجزاء الأصلية . كما يحتوى على تصحيح وتنقيح قائمة الكلمات المهجنة غير الواضحة الأصل Spurious Words ، وذلك بالاضافة الى قائمة الكتب التى اقتبست منها شواهد المعجم الأصلى . ولعل اهمية الملحق نشأت نتيجة للمدة التى استغرقها اعداد المعجم ونشره ، والتى تربى على أكثر من نصف قرن نمت فيها اللغة الانجليزية ، وتأثرت مفرداتها فى خلاله ، وطرأ ما طرأ عليها من تغير عبر السنين التى استغرقها أصحابه فى اعداده وصنعه .

والمعجم فى ايجاز يغطى مفردات اللغة الانجليزية تغطية كاملة بطريقة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ اللغة . فهو يذكر مع كل كلمة معانيها عبر التاريخ موضحة بشواهد مؤرخة من سنة ١١٥٠م حتى صدور آخر طبعة فى سنة ١٩٧١ . هذا الى جانب طرق هجاء

---

(٥) Samuel Johnson ; Preface to a Dictionary of the English Language, 1755.

(٦) Trench, Richard Chevenix, On Some Deficiencies in our English.

* Dictionaries ; John W. Parker and Son, London, 1860.

(٧) معظم الحقائق التى وردت فى هذا البحث وردت فى مقدمة طبعة ١٩٦١ .

الكلمة عبر كل مرحلة من مراحلها التاريخية ، ومعالجة كل كلمة ايتومولوجيا على اسس علمية تاريخية سليمة . ولقد تم جمع أكثر من ٥,٠٠٠,٠٠٠ بطاقة ، دونت عليها الكلمات وشواهدها مقتبسة من أكثر من ٥٠٠٠ مؤلف من مختلف العصور ، سجل فى المعجم منها ١,٨٢٧,٣٠٦ شاهد لتوضيح ٤١٤,٨٢٥ مادة هى كل مواد المعجم . ويذكر المعجم التفاصيل المسهبة عن صعود وهبوط معانى الكلمات ، واستعمال الطبقات الاجتماعية المختلفة لها ، وهى امور لم تجتمع لمعجم واحد من قبل ولا من بعد ، فلم يحدث فى تاريخ اى لغة من اللغات ، أن سجلت لغة فى معجم يدنو من درجة كمال معجم اكسفورد للغة الانجليزية ، كما أن معظم المعاجم التى صنعت بعده مدينة لهذا المعجم العملاق .

يقع تاريخ بدء العمل فى صنع معجم اكسفورد والانتهاء منه مابين (١٨٥٨ ـ ١٩٣٣) ، فى اطار المراحل الثلاث لتاريخ علم اللغة الحديث ، والتى وضع حدودها العالم اللغوى المعاصر **تشارلس فريز** (٨) Charles Fries. فالمرحلة الاولى لعلم اللغة الحديث تبدأ مع مطلع العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، أى قبل الشروع فى صنع المعجم بعقدين ، وتبدأ المرحلة الثالثة لعلم اللغة فى مطلع العقد الثالث من القرن العشرين ، وهو نفس العقد الذى انتهى فيه العمل فى المعجم . ولاشك فى أن عرض ماحدث فى المراحل الثلاث لتاريخ علم اللغة الحديث فى ايجاز ، يلقى الكثير من الضوء على الخلفية اللغوية التى تم فى اطارها صنع المعجم .

يحدد **فريز** بدء المرحلة الاولى (١٨٢٠ ـ ١٨٧٥) بالبحث الذى قام به **رازموس راسك** Rasmus Rask سنة ١٨١٨م . وقد صدر هذا البحث تحت عنوان :

An Investigation into the Origin of the Old Nordic or Icelandic Language

وفيه يبين **راسك** أن افضل الطرق للمقارنة بين اللغات هى :

(١) العناية بدراسة الجذور فى هذه اللغات .

(٢) تحديد الأصوات المتطابقة Sound Correspondences فى هذه الجذور وعقد المقارنات بينها . وبهذا يكون **راسك** قد مهد الطريق أمام القواعد التى وضعها **جريم** grimm عندما قام بدراسة نحو اللغة الالمانية Germanic Grammar (١٨٢١م) ، وكان ذلك بدء استخدام طرق جديدة فى الدراسات المقارنة ، والتى طبقها فى دراسة لغات الاسرة الهندية الاوروبية . وكان هذان البحثان خطوة واسعة الى الأمام فى دراسة اللغة بعامة منذ عصر الفلاسفة الاغريق ، فهما بداية مرحلة جديدة فى علم اللغة ، تتميز بالكشوف فى ميدان العلاقات البيولوجية المتوارثة بين اللغات فى مراحل تاريخها الاولى . ولقد شهدت هذه المرحلة من مراحل تاريخ علم اللغة الحديث بدء العمل فى صناعة المعاجم التاريخية ، ففى المانيا بدأ العمل فى معجم **جريم** Worterbuch فى سنة ١٨٣٧ ولا يزال مستمراً حتى الآن . وفى انجلترا بدأ العمل فى معجم اكسفورد فى سنة ١٨٥٨ م وانتهى سنة ١٩٢٨ .

ويحدد **فريز** المرحلة الثانية فى تاريخ علم اللغة الحديث (١٨٧٥ ـ ١٩٢٥) بظهور بحث **كارل فرنر** Carl Verner (١٨٧٥) ، وبحث **لسكين** Leskien (١٨٧٦) ، وبحوث

(٨) Fries, Charles ; Advances in Linguistics, College English, 25.30-37 (October 1961).

لآخرين عرفوا بجيل النحاة الجدد Neo-Grammarian . وامتازت هذه المرحلة ببحوثها البالغة الدقة فى التغير الصوتى sound change ، كما شهدت هذه الفترة ايضاً تطوراً فى علم :

(أ) الأصوات phonetics ، وهو بدء تحليل الأصوات الكلامية على أساس حركات عضلات أعضاء الكلام mascular movements ، التى تتحكم فى عملية النطق articulation أو على أساس الذبذبات vibrations التى تؤدى الى نتائجها ، وهو المعروف بعلم الصوتيات acoustics .

(ب) وفى علم جغرافية اللغة linguistic geography .

(جـ) وفى تسجيل recording وتحليل analysis اللغات غير المكتوبة unwritten languages .

اما المرحلة الثالثة فى تاريخ علم اللغة الحديث فيحدد **فريز** بدايتها بعام ١٩٢٥ ، عندما ظهر بحث **ادوارد سابير** فى الأصوات الكلامية تحت عنوان : « الانماط الصوتية فى اللغة sound patterns in language » ، وكذلك محاضرات **ده سوسير** فى النحو المقارن (بين عامى ١٨٨١ و ١٨٨٩ فى باريس) . كانت هذه الابحاث تشكل بدء مرحلة جديدة فى علم اللغة البنيوى structural lingusitics .

ومما لاشك فيه ، ان الأبحاث اللغوية التى ظهرت فى المرحلتين الاوليين كان لها تأثير مباشر فى مواد معجم اكسفورد على اسس تاريخية . والى جانب هذه البحوث ذات الأثر البالغ فى تطور دراسة علم اللغة الحديث، كانت هناك ايضاً فى كل مرحلة من مراحل تطوره علامات بارزة على الطريق ، ممثلة فى البحوث والآراء التى اسهم بها أصحابها فى تطويره وارساء قواعده .

ويقف **فريز** وقفات متعاقبة على طريق تاريخ تطور علم اللغة الحديث ليبرز بحوثاً لغوية عامة قام بها رجال من ذوى السمعة العالمية ، وقدموها فى صورة مركزة ولكنها واضحة ، ليبينوا ما أحرزه هذا العلم من تقدم ، ومن امثلة ذلك :

١ ـ كتابان الفهما **دوايت ويتنى** Dwight Whitney استاذ اللغة السنسكريتية فى جامعة « ييل Yale » فى الربع الثالث من القرن التاسع عشر ، وقد صدر الكتاب الأول فى سنة ١٨٦٧ وتضمن اثنتى عشرة محاضرة بعنوان :

Language and the Study of Language : Twelve Lectures on the Principles of Linguistic Science.

سبق أن القاها دوايت ويتنى فى معهد سميثسونيان فى واشنطن ، ثم فى معهد لوويل فى بوسطن فى ديسمبر سنة ١٨٦٤ ، وهذا الكتاب صدر حتى الآن فى خمس طبعات . وصدر الكتاب الثانى فى سنة ١٨٧٥ تحت عنوان :

Life and Growth of Language : An Outline of Kinguistic Science

اما فى المرحلة الثانية فقد صدرت أول طبعة من كتاب **هرمان بول** Herman Paul بعنوان :

Prinzipien der Sprachgischichte (Principles of History)

فى سنة ١٨٨٠ . وصدرت خامس طبعة له فى سنة ١٩٢٠م . وصدر ايضاً كتاب **اتوجسبرسون** Otto Jespersen « اللغة : طبيعتها وتطورها وأصلها Language : Its Nature, Development and Origin

فى سنة ١٩٢٣ ، وكذلك **هولجر بدرسون** تحت عنوان : Linguistic Science in the Nineteenth Century وترجمه **سبارجو** Spargo الى الانجليزية تحت العنوان المذكور فى سنة ١٩٣١ . ومن بين الكتب التى صدرت فى المرحلة الثالثة كتاب **ادوارد سابير** : « اللغة Language » سنة ١٩٣٣ ، وكتاب

ليونارد باومفيلد : « اللغة Language » سنة ١٩٣٣ أيضاً .

واذا كان **فريز** قد قسم تطور تاريخ علم اللغة الحديث الى ثلاث مراحل ، وبين فى كل مرحلة علامات على الطريق ليميز كل مرحلة بما انجز فيها من اعمال لغوية حديثة ، فان **ماكميلان** (٩) يلخص التطورات الأساسية التى طرأت على دراسة اللغة فى الغرب فى القرن التاسع عشر ، ويوردها تحت نقاط رئيسية ثلاث ، اثنتان منهما ايجابيتان ، والثالثة سلبية . أما النقطة الإيجابية الاولى فتتمثل فى تعديل مفهوم اللغة التقليدى تعديلاً جذرياً ، ويتضمن هذا التعديل اقتراحات هامة منها : أن اللغة كلام speech ، وأن اللغة نسق أو نظام system ، وأن للغة أشكالاً منوعة varieties ، وأن اللغة تتغير . أما النقطة الايجابية الثانية فتتمثل فى جمع قدر هائل من الحقائق عن اللغة الانجليزية مع تعديل طرق جمع وتصنيف هذه الحقائق . أما النقطة الثالثة والتى تتبلور فى النواحى السلبية فى الدراسات اللغوية فى القرن التاسع عشر ، فتتمثل فى اللبس والخلط بين مستويات التوصيل discourse ، وخير مثال لها عجز النحاة التقليديين عن التفرقة بين علم اللغة والبلاغة من جهة ، والخلط بين وصف سلوك اللغة وبين سرد تاريخها من جهة اخرى ، وذلك فضلاً عن الخلط بين علم اللغة وبين علم النفس (١٠) .

---

(٩) James B. McMillan, Summary of Nineteenth Century Historical and Comparative Linguistics ; College Composition and Communication, 5. 140-149 (December, 1954)

(١٠) لالقاء المزيد من الضوء على بعض المصطلحات التى وردت فى المناقشة مثل « اللغة » ، و « علم اللغة » و « فقه اللغة،والبلاغة» يؤثر ماكميلان ان يعرف كلاً منها حتى لا يختلط الامر فى ذهن القارىء . يقول ماكميلان (فى نفس المرجع) ان اللغة نظام اتفاقى arbitrary لاشارات صوتية vocal signals تصدر من الانسان ، ويتفاعل بها عند استعمالها فى الجماعات الانسانية » . ويستبعد هذا التعريف الكتابة والايماءات gestures ، واصوات الحيوانات animal noises ، ونظم الشفره code systems المرئية visual او المسموعة auditory ، او الملموسة tactile ، ولا تنحصر اللغة فى نطاق جماعة او جماعات انسانية معينة فقط . اما علم اللغة فهو يدرس سلوك اللغة على اسس علمية . وهو استقرائى inductive وموضوعى objective وتجريبى tentative ، بمعنى ان احكامه ليست نهائية ، فهو يتصف بالنظام systematic ، ويهتم بالحقائق ، وطرق البحث ، والاصول التقريرية reportable ، وهو يستخدم الملاحظة observation والفرضيات hypotheses والتجارب experiments والمسلمات postulates ، والاستنتاجات والاستدلات inferences ، وهو ينتهى الى احكام statements لفظية verbal وصفية او جبرية algebriac عن اللغة . واللغوى الدقيق لا يضمن عمله احكاما من علم التشريح او الثقافة غير اللفظية nonverbal culture . اما معامل الارتباط correlation بين الاحكام اللغوية واحكام الثقافة غير اللفظية فيتبع نظاماً discipline يعرف باسم ما وراء اللغة metalinguistics exolinguistics اما الفيلولوجيا (ولضرورة تعريفها هنا اهمية خاصة ، لان الجمعية التى تصدت لصنع معجم اكسفورد ، يدخل ضمن اسمها لفظ الفيلولوجيا ، وهو اسم قد يخدع من لا دراية له بالمعجم ، فيظن انه معنى بالفيلولوجيا اساساً) فهى فقه اللغة التاريخى والمقارن وهى تدرس اللغة بوصفها اداة تعبير ، ومهمتها الاولى تحقيق النصوص المكتوبة written documents والكتابات الادبية belletristic writing . للتحقق من صحة التاليف author-ship واصالة النص ، وصحة authenticity ، ومصدره provenence ، وتاريخه dating ، ومعناه meaning . وقد تستخدم الفيلولوجيا احكاما لغوية ، بنفس الطريقة والقدر الذى نستخدم به احكاما من الدراسات المعنية بالكتابات والنقوش القديمة paleography والبيلوغرافيا ، وتعريف الفيلولوجيا هنا ، لا يعتبر امتداداً تاريخياً مع علم اللغة على صعيد واحد . اما البلاغة rhetoric ، فهى فن الكتابة بطريقة فعالة effective . وقد تكون البلاغة فن التوصيل العملى او فنون الكلام او الكتابة الجميلة . وقد تتضمن البلاغة احكاما لغوية تستعملها ، ولكن هذه الاحكام تصدر من أناس يعملون فى علم اللغة وهو علم منفصل عن البلاغة . ويجب التأكد من صحة هذه الاحكام بالوسائل المختلفة .

ولعل أبرز التعديلات التى طرات على مفهوم اللغة التقليدى فى القرن التاسع عشر ، هو اثبات فشل فكرة تثبيت اللغة التى سادت ميدان معجمة اللغة فى القرن الثامن عشر وما قبله، فقد رفضها تماماً معجميو القرن التاسع عشر ، واتخذوا منها منطلقاً لمعجمة اللغة على اسس تاريخية .

ويقول **ماكميلان** فى نفس البحث : « ان اللغويين المحترفين لم يخترعوا الفكرة القائلة بأن اللغة بطبيعتها تأبى على نفسها الجمود Costatic ، فلقد كانت هذه الفكرة شائعة، ولذا لم تعن بمناقشتها الدوائر اللغوية التى كانت تعنى بالدراسات الفيلولوجية فى القرن التاسع عشر . ولقد أدى عدم استبعاد احكام تقييم اللغة على اسس غير موضوعية استبعاداً تاماً الى استمرار تباطؤ اختفاء الفكرة التى تعتبر التغيير اللغوى نوعاً من الافساد corruption ، وذلك بالرغم من أن حقيقة التغيير كانت معروفة لدى الجميع . فلقد اكتشف كل من **جريم** Grimm **وفيرنر** Verner **وجراسمان** Grassmann وغيرهم من الفيلولوجيين المهتمين بالدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة ، اطراد التغيير اللغوى regularity of linguistic change وما يعادله من تناسق وانتظام فى بنية اللغة » .

٣ ـ اهداف المعجم

لمعجم اكسفورد اهداف منظورة واخرى غير منظورة . ومن بين اهدافه المنظورة انه جمع كل كلمة ،وما يتصل بها من عبارات اصطلاحية idioms ، عرف أنها استعملت منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، وعالجها فى ترتيب هجائى معالجة تاريخية شاملة ، فضلاً عن سرد تطورها الدلالى semantic development وأورد سلسلة من التعريفات لكل كلمة مع ذكر تاريخ معانيها المختلفة الماضية التى تبين تطورها الدقيق ، وذلك باستخدام الشواهد التاريخية المناسبة والمقتبسة من العصور التاريخية المتعاقبة ، وبالاضافة الى ذلك سجل كل هجاء ظهرت فيه الكلمة فى اى وقت عبر تاريخها ، كما سجل المعجم أيضاً نطقها البريطانى المتداول بالرموز الصوتية phonetic symbols ، فيكون المعجم بذلك قد زود طلبة العلم باكمل سجل للغة الانجليزية برمتها مع كل المادة التى قد يحتاج اليها الطالب لدراسة اى وجه من وجوهها التاريخية (١١) . وجدير بالذكر ان المعجم لايحتوى فقط على مفردات اللغة الفصحى المستعملة فى الأدب والحادثة المتداولة منها أو المائتة absolete ، أو القديمة المهجورة archiac ، بل يحتوى أيضاً على المفردات التكنية technical ، وعلى عدد كبير من الاستعمالات اللهجية dialectal والعامية colloquial (١٢) .

ولتحقيق ذلك الهدف قامت هيئة تحرير المعجم ومعها جيش كبير من القراء المتطوعين

---

(١١) Wrenn ; Op. Cit., p. 100.

(١٢) يعرف كل من Ronald Ridout & D. Waldo Clarke A Reference Book of English (١٩٧٠) صفحة ٧٣ ـ اللهجة dialect بانها شكل من اشكال اللغة variation of the language خاص بمنطقة جغرافية معينة تقع فى اطار المنطقة الكلية التى تستعمل فيها اللغة . وهكذا تكون الـ cockney مثلاً لهجة انجليزية خاصة بجزء معين من لندن (ص ١٠٦) ، اما اللغة العامية فهى الكلام المتداول ، ولكنه لا يليق بالاستعمالات الادبية الرفيعة الخالصة ، ويتمثل الفرق بين اللغة العامية واللهجة الفئوية slang فيما تتمتع به اللغة العامية من احترام . وجدير بالذكر ان ما يعتبر اليوم قد يصبح عامياً غداً ، ومثال ذلك التعبير العامى to cut noice الذى كان فئويا سنة ١٨٩٦ .

بجمع نحو خمسة ملايين شاهد اقتبست جميعها من السجلات الانجليزية وكتب الأدب الانجليزى لاقامة البرهان على وجود مواد المعجم وقد تضمن المعجم منها نحو ١٫٨٠٠٫٠٠٠ شاهد .

ومن بين أهداف المعجم غير المنظورة طريقة هيئة تحرير المعجم في جمع مفردات اللغة الانجليزية لمعجمتها ، وما أحدثته من ثورة فى فن صناعة المعاجم ، وسيظل نحو اللغة الانجليزية ، بفضل هذه الطريقة ، مدينا لمعجم اكسفورد الجديد على الدوام . فلم يترك المعجم وجها aspect من أوجه تاريخ اللغة الانجليزية الا والقى الضوء عليه ، كما دعت اكتشافات المعجم ومعطياته الى اعادة النظر فيلوجيا فى الكثير من القواعد والأحكام المتعلقة بالنصوص كما أدى المعجم لما يمتاز به من اتساع المجال scope والمدى range والغرض وعمق معالجته المكثفة للغة ، خدمات جليلة لكل متعاط لها من ابنائها ومن الأجانب على حد سواء ، هذا ، وبالرغم من انه يعالج الكلمات بالدرجة الاولى ، الا أنه كنز موسوعى يحتوى على الكثير من النفائس الكامنة ، لا فى اللغة الانجليزية وحسب ، بل وفى اللغات المتصلة بها أيضا ، وامتاح من فيضها الباحثون والمؤلفون والكتاب والادباء .

وغنى عن البيان ان للغة الانجليزية علاقات متعددة باللغات الهندية الاوروبية ، وبلغات غيرها احتكت بها واقترضت منها كلمات كثيرة أصبحت جزءا لايتجزأ منها (١٣) .

ومن بين الأهداف غير المنظورة التى حققها المعجم أيضا ، انه المنبع الذى كان ولايزال تنبجس منه معاجم عديدة مختلفة الأحجام والأغراض نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

— Shorter Oxford English Dictionary.
— The Concise Oxford Dictionary of Current English.
— The Pocket Oxford Dictionary.
— Little Oxford Dictionary.
— Oxford Shakespeare Glossary.
— The Oxford Dictionary of English Etymology.

٤ـ نبذة عن تاريخ المعجم وخطة العمل فيه(١٤)

أ ـ نشاة فكرة عمل المعجم : مر المعجم الانجليزى بعامة فى مراحل نموه عبر ثلاثة قرون قبل البدء فى عمل معجم اكسفورد بمراحل ثلاث طبقت فيها مبادىء ثلاثة مختلفة، حددت الهدف منه ، ومن منهج معجمة اللغة. ففى المرحلة الاولى كان المعجميون المبكرون يضعون المسارد glossaries ليضمنوها الكلمات الصعبة غير المألوفة للرجل العادى . ولقد اتسعت الدائرة التى تغطيها المسارد فى القرن السابع عشر على أيدى معجميين مثل **جون بولكار** John Bullokar صاحب معجم English Expositor (١٦١٦)، **وهنرى كوكرمان** H. Cokerman صاحب معجم English Dicationarie (١٥) (١٦٤٣)، **وبلاونت** صاحب المسرد Glossographia (١٦٥٦) ، **وادوارد فيليبس** صاحب معجم New World of Words (١٦٥٨) ، حتى جاء معجميون مثل **جون كيرسى** John Kersey صاحب معجم Dicationarium Anglo-Britanicum

(١٣) Margaret Schluahc ; The Gift of Tongues, Family Relationship among Languages, 1942.

(١٤) رأينا ان نضمن البحث قصة حياة معجم اكسفورد ، لانها فريدة من نوعها ، وذلك لنطلع القارىء على المعاناة التى يعيشها المعجمى فى سبيل صنع معجمه ، والمراحل التكوينية التى يمر بها المعجم قبل ان يرى النور .

(١٥) يلاحظ أن هناك اختلافا بين الهجاء القديم والحديث .

أو A General English Dictionary (١٧٠٨) ، وناثان بيلى Nathan Bailey صاحب معجم Dicationarium Britanicum أو A More Compleat Universal English Dicationary (١٧٣٠) وادخلا كلمات اللغة بعامة فى المعجم

اما المرحلة الثانية فقد طبق فيها جونسون صاحب المعجم المشهور Dicationary of the English Language (١٧٥٥) مبدأ آخر عندما ادخل الشـواهد ليستشهد بهـا على وجود المادة المعجمية فى اللغة ، فضلاً عن القاء الضوء على استعمالاتها المختلفة ، اما الكلمات الموجـودة فى اللغة ولم تدخـل المعجم فكانت تنشر فى ملاحق للمعاجم . وفى المرحلة الثالثة طبـق **ريتشاردسون** Richardson (١٧٧٥ – ١٨٨٥) مبدأ معجمعة اللغـة على اسـس تاريخية ، وذلك بسرد الشـواهد التاريخية التى تعالج تطور المادة المعجمية عبر العصور .

وعندما أصـدر ريتشـاردسون معجمـه New Dicationary of the English Language. (١٨٣٦) وقد ضمنه ثروة لغوية من الشواهد التاريخية ، لم يثر اهتمام الراى العام ، لانه لم يكمـل أوجـه النقص فى معجم صـموبل جونسـون (١٧٥٥) أو معجم American Dictionary (١٨٢٨) لصاحبه **نوح وبستر** Noah Webster (١٧٥٨ – ١٨٤٣) المعجمى الأمـريكى المشـهور ، أو يملأ فـراغ المعجم المـرتقب (١٦) . عندئذ اتخـذت الجمعيـة الفيلولوجية البريطانية The Philological Society of Great Britain قراراً فى عام ١٨٥٧ بتكوين لجنة ثلاثية من هربرت **كولريدج** Herbert Coleridge (١٨٣٠ – ١٨٦١) ، و **ف . ج فورنيفـال** Fredrick James Furnivall (١٨٣٥ – ١٩١٠) ، **وريتشارد** **تشيفينكس ترنش** (١٨٠٧ – ١٨٨٦) مهمتها جمـع الكلمـات التى لم تدون فى المعـاجم الانجليزية ، وطلب من اعضـاء اللجنة تقديم تقرير عن ذلك الى الجمعية فى نوفمبر سـنة ١٨٥٧ . وكانت الفكرة فى بادىء الأمر ، هى اعداد قائمـة هجائيـة بهده الكلمات ونشرها كملحق لمعجم جونسون أو معجم ريتشاردسون . وفى الموعد المضروب قدم مستر كولريدج تقريره عن الكلمات الناقصة فى المعاجم الانجليزية الى الجمعية . وفى نفس الوقت قدم مستر ترنش الى الجمعية بحثاً بعنوان : « حول بعض أوجه النقص فى معجمنا الانجليزى » ، وضـع فيه الاسس التاريخية التى يجب ان تتبع فى صنع المعاجم ، واعقب ذلك البحـث ببحث آخـر مماثل ، طالب فيه بضرورة عمل معجم جديد على ضـوء المعطيات الجديدة لعلـم اللغـة التاريخى .

استهوت الفكـرة الجمعية الفيلولوجيـة البريطانية ، فاجتمعت فى ٧ يناير سنة ١٨٥٨ لرسم خطـة عمل معجم جديد وتحديد منهج جمع مادتـه وتحريـرها ، وتكـوين لجنتين احداهمـا ادبيـة وتاريخيـة ، واخـرى ايتومولوجية تتخصص فى فقه اللغة المقارن .

وجدير بالذكر أن المعجم افاد الى حد كبير من نظـام المتطـوعين الذين لولا جهـودهم ومشاركتهم التى بذلوها طواعيـة لاسـتغرق عمل المعجم وتكلفته أضـعاف الوقت والمـال اللذين انفقا عليه .

ب ـ خطة عمل المعجم : استغرق وضـع خطة عمل المعجم نحو عـام كامل ففى سـنة ١٨٥٩ نشرت الجمعيـة تقـريراً عن مشروع المعجم بعنوان :

Proposals for the Publication of a New English Dictionary by the Philological Society

---

(١٦) لمعرفة المزيد عن تطور المعجم الانجليـزى ارجع الى الموسوعة الامريكية او الموسوعة البريطانية مادة : Dictionary

وتضمن التقرير عدة مبادىء منهجية تبلورت في البندين الأول والرابع من التقرير وتتلخص في التالي :

١ ـ ان المطلب الأساسي لأي معجم انجليزي هو وجوب احتوائه على كل كلمة مستعملة في اللغة منذ حوالي سنة ألف ميلادية .

٢ ـ ان تعالج مفردات اللغة في المعجم على اسس تاريخية بتسجيل اشكالها المختلفة ، وطرق هجائها ، وأن تبين استعمالاتها ومعانيها في الماضي والحاضر بشواهد مستقاة من المؤلفات الانجليزية عبر تاريخها .

أما البنود الاخرى المقترحة فهي توجيهات لجامعي مواد المعجم وضعتها اللجان الأدبية والتاريخية والايتومولوجية في صورة قواعد وارشادات يعمل بها جامعو مفردات اللغة ، فضلاً عن تعليمات إخرى ذات صفة عملية وآلية ، واهمها تلك التي تهدف الى ضمان جمع مفردات اللغة الموجودة فعلاً كاملة ، وذلك باعداد قوائم بالأعمال الأدبية الانجليزية المطبوعة التي نشرت بين عامي ١٢٥٠ م ، ١٥٢٦ ، وبين عامي ١٥٢٦ م و ١٦٧٤ ، وبين عامي ١٦٧٤ و ١٨٥٨ م .

هذه التواريخ لا تتفق مع تواريخ العصور الثلاثة المتعارف عليها في تقسيم تاريخ اللغة الإنجليزية : عصر اللغة الانجليزية القديمة Old English ويمتد من القرن السابع الميلادي الى عام ١١٠٠ م ، وتميزت اللغة فيه بانها متجانسة فيما عدا كلمات قليلة استعيرت من اللاتينية ، وعصر اللغة الانجليزية الوسيطة Middle English ويقع في الفترة ما بين سنة ١١٠٠ م ، وسنة ١٤٥٠ م ، أي يبدا عقب الغزو النورماندي (١٠٦٦ م) وينتهي في سنوات انحسار العصور الوسطى في أواخر القرن الخامس عشر . ويتميز هذا العصر بتمام نجلزة anglicized عدد كبير من الكلمات الاسكندنافية التي دخلت اللغة فضلاً عن الوف الكلمات الفرنسية واللاتينية في أعقاب الغزو النورماندي،ثم اللغة الانجليزية الحديثة Modern English وهو يقع في الفترة ما بين ١٤٥٠/١٥٠٠م الى الوقت الحالي . وينقسم العصر الحديث بدوره الى عصرين : عصر اللغة الانجليزية المبكرة (١٥٠٠ ـ ١٧٠٠ م) وعصر اللغة الانجليزية المتاخرة ويمتد فيما بين ١٧٠٠ م الى الوقت الحالي . ويرى رن Wrenn أنه لما كانت اللغة تنمو نمواً انسانياً طبيعياً ، وعقلياً وعضوياً معاً ، فيتبع ذلك ، اذن ، انها لا تكف عن التغير ، وأن تطورها مستمر ، ومتدفق دائماً . ويكون تقسيم تاريخ أي لغة ، اذن ، الى فترات تاريخية ، لا يعدو أن يكون وسيلة مصطنعة وتقريبية ، يلجأ اليها المؤرخون لتكون في متناول أيدينا كلما احتجنا اليها ، وبالرغم من أن هذه التقسيمات تقريبية فقط فان فكرة تقسيم اللغة بهذه الطريقةلها مزاياها وهيطريقة متبعة بصفة عامة (١٧) .

وقد لجأ معجميو اكسفورد في محاولتهم جمع مفردات اللغة من المؤلفات والوثائق الانجليزية الى تصنيف هذه المؤلفات والوثائق الى ثلاث مجموعات تقع كل منها على التوالي فيما بين عامي ١٢٥٠ و ١٥٢٦ م ، وعامي ١٥٢٦ و ١٦٧٤ م ، وعامي ١٦٧٤ ، و ١٨٥٨م، أي في الفترة فيما بين منتصف عصر اللغة الانجليزية الوسيطة حتى عام ١٨٥٨ (١٨) وهو يقع في عصر اللغة الانجليزية الحديثة .

---

(١٧) Wrenn, op. cit. ; pp 23.

(١٨) لم يحدد عام ١٨٥٨ نهاية للفترة الثالثة الا لانهالعام الذي بدا فيه مشروع المعجم . وغني عن البيان ان الفترة الأخيرة ممتدة حتى الوقت الحاضر .

ولا شك ان مؤلفات الفترة ما بين عامى ١٢٥٠ م و ١٥٢٦ م كانت تكتب بلغة انجليزية وقعت مفرداتها تحت تأثير الغزو الاسكندنافى الكاسح ثم الغزو النورماندى الشامل بعد ذلك ، والذى كان له أثر عميق فى الثقافة الانجليزية بعامة . أما الفترة فيما بين عامى ١٥٢٦ و ١٦٧٤ م فتقع فيما بين بداية عصر اللغة الانجليزية المبكرة ، وهى الفترة التى اكتمل فيها عصر النهضة ، كما انها تضم مؤلفات كبار الشعراء الانجليز ، مثل **سير فيليب سيدنى** ، **وادموند سبنسر** ، **ومارلو** ، **وبن جونسون** ، **وجون ميلتون** ، وعلى رأسهم جميعاً شاعر الانجليزية **وليم شكسبير** الملقب « بصانع اللغة الانجليزية » (١٩) . أما عام ١٧٠٠ م وهو عام وفاة الشاعر دريدن ، فيعتبره مؤرخو اللغة الانجليزية ، ومن بينهم **رن** Wrenn ، التاريخ الذى وصلت فيه اللغة الانجليزية الى الشكل الذى اصبحت عليه الآن . وجدير بالذكر أن صدر عصر اللغة الانجليزية المتأخرة قبل (١٨٥٨ م) يزخر بأسماء اعلام الشعراء والكتاب الانجليز ، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر **بوب** Pope الشاعر ، **وسويفت** الشاعر والكاتب القصصى ، **واديسون** الصحفى ، **وفيلدنج** الكاتب القصصى ، **وينشاردسون** الكاتب القصصى ، **ووردزورث** الشاعر ، **وكولريدج** الشاعر والناقد ، **وتشارلس لام** المؤلف .

ولقد أوضح معجميو اكسفورد أنفسهم أن اختيار السنوات التاريخية ١٥٢٦ م ، ١٦٤٧ م بخاصة ، انما يرجع الى أن عام ١٥٢٦ م هو عام صدور أول طبعة من الانجيل (**العهد الجديد** New Testament) الذى لا يقل أثراً فى تطور اللغة الانجليزية عن الانجيل الذى أوصى بترجمته الى الانجليزية الملك جيمس الأول ، وصدر فى عام ١٦١١ م تحت عنوان : « Authorized version » ، أى « ترجمة الكتاب المقدس المرخص بها من قبل الملك جيمس الأول » . أما عام ١٦٧٤ م فهو عام وفاة الشاعر والسياسى العظيم **ميلتون** .

ويرى **رن** Wrenn ان ميلتون ذو اثر بالغ فى تطور اللغة الانجليزية ، وأن أثره يلقى ضوءاً على اهتمامات دارسى تاريخ اللغة الانجليزية من نواح ثلاث . ان لميلتون آراء خاصة فى الهجاء ، وكثيراً ما أجرى عليه التجارب فى اشعاره لأغراض جمالية تتعلق بالقاء الشعر ، ويعتبر ميلتون نفسه دارساً للغة الانجليزية ، وممارساً عاماً لها ، لا ضريب له ، ثم انه اضاف عدداً من الكلمات والتعبيرات الى حصيلة اللغة الادبية والى لغة الحديث (٢٠) .

ومهما يكن الأمر ، فان ما حدث بين التاريخين ١٥٢٦ م و ١٦٧٤ م من تغيير هائل فى ثروة اللغة الانجليزية فى المفردات ليدل على انه اختيار موفق كما يدل على الاحساس اللغوى المرهف الذى تميز به معجميو اكسفورد ، ونعنى بهم أعضاء اللجان الأدبية والتاريخية والايتومولوجية .

بدأ المتطوعون القيام بدور فعال فى امداد لجنة المعجم بالمادة التى يجمعونها . وفى ابريل سنة ١٨٥٩ كتب كولريدج بحثاً أثار فيه عدداً من التساؤلات عن معالجة الايثومولوجيا ، وعن صعوبة بعض المؤلفات الانجليزية المبكرة ، مستشهداً ببعض الشواهد المقتبسة منها ، ووزع هذا البحث على أعضاء لجنة المعجم ، وعلى المتطوعين ليمدوه باجابات شافية عن هذه التساؤلات . وقد جمع كولريدج الاجابات السليمة وقدمها فى بحث تحت عنوان : « ملاحظات واقتراحات لشرح بعض

---

(١٩) Wrenn ; op. cit. ; p. 28.

(٢٠) Wrenn, op. cit., pp. 170

الكلمات والفقرات الصعبة فى أعمال الكتاب الانجليز »
Hints towards the explanation of some hard words and passages in English Writers
وفى نوفمبر سنة ١٨٥٩ قدم كولريدج ، الذى عُين محرراً ، تقريراً الى الجمعية عن سير العمل فى المعجم المقترح .

وفى شهر ديسمبر سنة ١٨٥٩ قررت الجمعية ما يلى :

١ ـ تعيين لجنة لوضع مجموعة قواعد ليسترشد بها محررو المعجم الجديد .

٢ ـ قيام اللجنة بطبع القواعد التى تم التوصل اليها ، وتوزيع نسخ مطبوعة منها على جميع اعضاء الجمعية ، وتحديد امسية للاجتماع ليناقشها اعضاء الجمعية . ولقد عكف كولريدج نيابة عن اللجنة ، على وضع هذه القواعد واعداد مسودة لها ، ثم نوقشت وعدلت ووسعت فى جلسات متتالية عقدت فى ديسمبر سنة ١٨٥٩ ويناير سنة ١٨٦٠ ، واعيد النظر فيها فى ابريل ومايو من نفس العام ، واخيراً تم طبعها تحت عنوان : « قواعد يجب اتباعها عند تحرير المعجم الانجليزى الجديد للجمعية الفيلولوجية » .
Canones lexicographici, or, Rules to be observed in editing the New English Dictionary of the Philological society.
وظل المعجم المقترح موضع اهتمام الجميع ، ففى ١٠ مايو ـ ١٨٦٠ قدم الاسقف **ديروانت كولريدج** (وهو غير هربرت كولريدج) بحثاً بعنوان « ملاحظات عن الخطة المقترحة للجمعية لعمل معجم انجليزى جديد » .
Observations on the Plan of the Society's proposed New English Dictionary
كما نشرت الطبعة الثانية من بحثى مستر ترنش بعد مراجعتها وزيادة بعض الاضافات اليها . هذا واضيف اليهما تقرير كتبه هربرت كولريدج عن سير خطة العمل واحتمالات المستقبل . ويتناول التقرير ما تم انجازه حتى ذلك الوقت ، والموعد الذى حدده لنشر أول ملزمة بعد سنتين من تاريخه ، وأسماء المتطوعين الذين ابدوا استعدادهم للاسهام فى هذا المعجم .

وقد انهمك كولريدج فى جمع قائمة مفردات من بين المفردات التى يرسلها له المتطوعون الى جانب المفردات الموجودة فعلاً فى المعاجم القديمة، وذلك لاستخدام هذه القائمة كمرشدة فى عملية جمع المفردات . وفى ١٤ فبراير سنة ١٨٦١ ، استطاع كولريدج ان يضع أمام الجمعية الجزء الأول من بحث : « اسس المقارنة Basis of Comparison » بين مواد الفترة الثالثة (١٦٧٤ ـ ١٨٥٨ م) ، ويغطى هذا الجزء الحروف من حرف A الى حرف D . وكان هذا آخر عمل يسهم به كولريدج فى المعجم ، اذ وافته المنية فجأة فى ٢٥ ابريل سنة ١٨٦١ ، عقب نوبة برد ألمت به اثناء عمله المضنى فى المعجم ، وكان عمره اذذاك واحداً وثلاثين عاماً وكانت وفاته فى بدء العمل فى المعجم ضربة قاصمة للمشروع . ومن بين منجزاته نشر سرد glossary يضم مفردات كل ما نشر من آداب القرن الثالث عشر ، واعتبره منهلاً اساسياً للغة الانجليزية الوسيطة (١١٥٠ ـ ١٥٠٠ م) . كما عمل كولريدج أيضاً على حل بعض مشكلات التحرير ، واعد بعض كلمات حرف النشر ، وكان آخرها الكلمتين Affection ، و Affect الا أن هذه القائمة لم تبلغ حد الكمال المعجمى ، لعدم وضوح الرؤية ولضخامة العمل الذى اضطلع به ، والدليل على ذلك الفراغات الكبيرة التى تركها لتملأ فى الوقت المناسب . ولقد طبعت الأبحاث التى قام بها كولريدج عام ١٨٦٢ فى الجزء الثالث من كتيب « اسس المقارنة » .

انتقلت مهمة تحرير المعجم بعد وفاة كولريدج الى فورنيفال ، وكان فى السادسة والثلاثين من عمره . وفى ٢٣ مايو ١٨٦٢ اعد

فورنيفال تقريراً عن حالة جمع مفردات المعجم ، وعن الخطوات الجديدة التى يرى اتباعها لتنفيذ المشروع . كان فورنيفال يرى انه لا بد من مضى فترة طويلة قبل التمكن من طبع المعجم ، وعبر عن ذلك فى قوله « اقد قررت استبعاد كل فكرة عن طبع المعجم قبل خمس سنوات ، الا اذا ظهر لنا من يسدى الينا عوناً كبيراً غير متوقع ، واقترح اذا واتتنا الظروف أن انتهى من اسس المقارنة فى الفترة الثالثة (١٦٧٤ — ١٨٥٨ م) فى النصف الأول من العام القادم (١٨٦٣ م) ، ثم بعد ذلك نقوم بجمع معجمين مختصرين للغة الانجليزية فى الفترتين الاولى ١٢٥٠ — ١٥٢٦ والثانية ١٥٢٦ — ١٦٧٤م » .

القت هذه الكلمات الضوء على ضخامة المشروع الذى بدات تتضح ابعاده ، وعهد الى دكتور كارل لونتز بالاشراف على الايتومولوجية بالاعتماد على معجم وورستر (٢١) الأمريكى Worcester's Dictionary (١٨٤٦) على أن يعرض نتيجة عمله على لجنة الايتومولوجيا قبل طبعها .

مهمة اخرى قام بها فورنيفال ، وهى جمع قائمة الكتب التى تمت قراءتها او التى كانت تقرأ آنذاك (١٢ يوليو ١٨٦١) لخدمة المعجم الجديد . وجاءت القائمة فى اربع وعشرين صفحة ، ونشرت كملحق لكتيب « سير العمل » (٢٢) . بلغ عدد الكتب التى احتوتها القائمة عن الفترة الاولى ١٢٥٠ — ١٥٢٦ م ، ١٤٣ كتابا ، وعن الفترة الثانية ١٥٢٦ — ١٦٧٤ م ٤٨٦ كتابا ، وعن الفترة الثالثة ١٦٧٤ — ١٨٥٨ م ، ٨١ كتابا ، وكان من بين القراء الأساسيين **فورنيفال وكوليريدج** قبل وفاته ، **والفس استوارد ، ووليام هازلت** ، الأديب والكاتب الانجليزى المشهور وآخرون . وفى نفس الوقت كان الجزء الثالث من كتيب « اسس المقارنة » بين الفترات الثلاثة ، ويحتوى على الحروف الواقعة بين حرف M وحرف Z ، فى طريقه الى المطبعة ، ونشر فى مارس ١٨٦٢ م . وقبل نشره قدم فورنيفال الاقتراحات الآتية للجمعية التى اقرتها :

١ — ان يعد المعجم المختصر كخطوة تمهيدية للمعجم الجديد الكبير الذى تقترحه الجمعية كاساس جديد لمقارنة الفترات الثلاث بعضها ببعض ، مما يحتم دراسة كل مادة على حدة فى الفترات الثلاث .

٢ — أن يكون المعجم المختصر بقدر المستطاع ملخصاً لما يجب أن يكون عليه المعجم الكبير ، ويجب أن يحتوى على : النطق وعلاماته المميزة ، والايتومولوجيا ، والجذور roots ، والسوابق واللواحق (اللواصق affixes) وتعريف الكلمات ، والكلمات المتجانسة Homonyms ، وشواهد قصيرة مسجل معها تاريخ كتابتها واسم المؤلف ، وذلك بالنسبة لكل الكلمات التى ارسلت معها شواهد للمحرر ، أما الكلمات ومعانى الكلمات والعبارات الاصطلاحية idioms ، الموجودة فى اللغة ، ولم يرسل المتطوعون البرهان على وجودها الى المحرر ، فيجب الحصول على برهان وجودها فى اللغة من أى مصدر متاح ، هذا ويجب وضع علامة مميزة على مثل هذه الكلمات .

٣ — تخول الجمعية الفيلولوجية المحرر حق الاحتفاظ بالشواهد التى فى حوزته ، وان يوكل تحرير اى جزء من المعجم المختصر الى المساهمين او الى اى متطوعين يثق بهم .

---

(٢١) A Universal and Critical Dictionary of the English Language.

(٢٢) Transactions of the Philological Society.

وقرر المجتمعون ان يقوم مستر فورنيفال بابلاغ كل مساهم متطوع لجمع مادة المعجم بخطة العمل ، وان يقوم أيضاً بتصنيف ما يرسله اليه المساهمون ، ويضمه فى حوزة عدد من مساعدى التحرير ممن يثق بهم . كما استقر الرأى على طبع عينة من مختصر المعجم وعرضها على الجمعية لمناقشتها وابداء الرأى فيها قبل طبعها نهائياً .

كان من الواضح أن هذا العمل يتطلب سنوات طويلة ، وجهداً جهيداً لانجازه . فقد رأى فورنيفال عمل معجم مختصر كبداية للمعجم الكبير على أساس مواجهة الأمر الواقع ويتلخص فى التالى :

١ ـ فى عام ١٨٥٨ م سقط الاتفاق المبرم بين الجمعية الفيلولوجية والناشر الأول بمضى المدة .

٢ ـ فى عام ١٩٦٥ ابرم فورنيفال عقداً شخصياً مع جون مورى الناشر لاتمام المخطوطات ، وكان حجم المجموعة آنئذ صغيراً نسبياً ، ولكنها اخذت تزداد بمضى الوقت مما ادى الى فشل الفكرة وتسببت فى خسارة مادية لفورنيفال .

٣ ـ اثبتت فكرة تعيين مساعدى التحرير انها فكرة صائبة ، خاصة وأن فورنيفال كان يكتب تعليماته الخاصة بمنهجيه فى جمع المفردات فى منشورات لتوجيه المساعدين فى عملهم . فقد قام عدد كبير منهم باعداد قوائم بالمفردات التى تندرج تحت حروف معينة ، فمثلاً فى أوائل سنة ١٨٦٣ م ، أعد احدهم قائمة بالكلمات المندرجة تحت حرف B كجزء من المعجم المختصر . وجاءت هذه المفردات فى ثلاث وتسعين صفحة ، بكل منها ثلاثة أعمدة ، وامام كل كلمة شاهد مؤرخ يبين اول مرة ظهرت فيها الكلمة ، وشاهد آخر مؤرخ لآخر مرة ظهرت فيها الكلمة ان كانت الكلمة مماته .

كما زودت كل كلمة برقم من الأرقام الثلاثة (١ ـ ٢ ـ ٣) ليدل على الفترة التى استعملت فيها ، مقرونة بشاهد على ذلك . هذا مثال لتطبيق المنهج الذى قدمه فورنيفال والذى ما زال يستخدم حتى يومنا هذا . وكان فورنيفال ، فى الفترة ما بين ١٨٦٢ ، و ١٨٧٢ ، يصدر المنشورات والدعوات فى الصحف لكل من يهمهم الأمر ويرغبون فى الاسهام فى تزويد المعجم بما يعن لهم من آراء ومفردات .

وبحلول سنة ١٨٧٢ ، تباطأ العمل فى المعجم لانشغال فورنيفال بامور اخرى ، مما جعل رئيس الجمعية يقترح استبدال فورنيفال بسير هنرى سويت . ومهما يكن الأمر ، فلم ينكر احد فضل فورنيفال . ففى سنة ١٨٦٤ أسس « جمعية النصوص الانجليزية المبكرة Early English Text » . وفى سنة ١٨٦٨ أسس « جمعية تشوسر » الشاعر الانجليزى المشهور (١٣٤٠ م ـ ١٤٠٠ م) ومؤلف قصيدة « حكايات كنتربورى Canterbury Tales » وكان لمجهودات « جمعية النصوص الانجليزية المبكرة » الفضل الكبير فى جمع قدر كاف من مادة اللغة الانجليزية الوسيطة ، مما جعل تطبيق المبدأ التاريخى فى بناء المعجم شيئاً ممكناً . وبالرغم من أن فورنيفال لم يشترك فى اصدار المعجم فى صورته النهائية ، الا انه ترك اثراً واضحاً فى كل صفحة من صفحات المعجم لما اسهم به فى تحريره .

وقبل أن يستعيد المعجم مكانته مرة اخرى فى اطار نشاطات الجمعية الفيلولوجية ، حدث شيء هام أثر فى مجرى تاريخه . ففى ابريل سنة ١٨٧٦ عرضت شركة ماكميلان للطباعة والنشر على مستر مورى Mr. J. A. H. Murray وهو مدرس أسهم بنصيب وافر فى الدراسات اللغوية ، عمل معجم جديد ينافس معجم

وبستر (٢٣) الأمريكى ومعجم وورستر الأمريكى ايضاً . واشترط مورى أن يكــون المعجــم الجديد عملاً اكاديمياً يفضل كل ما سبقه من معاجم . وكانت شركة ماكميلان للنشر على علم بمشروع الجمعية الفيلولوجية البريطانيــة ، وبما وصــلت اليــه الامـــور فى مشروعها ، واستفسرت منها عن امكانية الحصــول على المــادة التى تم جمعهــا . وحصــــلت شركة ماكميلان على جزء من المادة المجموعة ، واعد مستر مورى عينات منها لتكــون نموذجاً لما يجب أن يكون عليــه المعجم ، وتم طبــع هذه العينات ودارت حولها المناقشات وخاصـــة حول المــادة المعجمية التى تمتلكهــا الجمعية الفيلولوجية ، وانتهت المفاوضــات بين شركة ماكميلان وبين الجمعية الى لا شىء .

أثارت المــادة التى اعدها مســتر مــورى اهتمام الجمعية مرة اخرى بمشروعها القديم . وفى مايو سنة ١٨٧٧ ، بدأ المشروع يتحرك من جديد ، وبدات الجمعية فى جمع المادة التى كانت فى حوزة مســاعدى المحــرر فورنيفال الذين انتشروا فى انجلترا وخارجهــا بدوافع حياتية خاصة . وتم أخيراً الاتفاق مع شركة كلارندون فى اكسفورد على طبع ونشر المعجم .

لم تكن الأرض ممهدة أمام مســتر مورى كرئيس تحرير ، اذ واجهته صــعوبات كثيرة عمل على تذليلها . فلقد بدأ مورى فى العمل على ايجاد مكان مناسب يتسع للأوراق التى تحتوى على مادة المعجم ، والتى بلغ وزنها نحو طن ونصف طن من الورق . وكان عليه أن يمضى شهوراً طــويلة فى تقليب وفحص وتصــنيف واستعمال هذه الاوراق . ولم يجد مورى المادة التى جمعها فى حالة تتفق تماماً مع الخطة التى وضعها للمعجم ، اذ وجد مواد كلمات كثيرة، وخاصة الكلمات المتداولة current ناقصة ، فعمل على اضافتها وســد الفراغات بسرعة . ولحاجة العمل الى مزيد من المتطوعين وجــه نداء الى الف متطوع جديد .

وفى ابريل ١٨٧٩ قامت مطابــع كلارندون بطبع الف نسخة من نداء موجه الى المتكلمين باللغة الانجليزيــة لقراءة كتب ، واستخراج شواهد منها للمعجم الجديد الذى تصــدره الجمعية الفيلولوجيــة . وجاء النداء فى اربع صفحات، صفحتان منها تلخيص لتاريخ المعجم من ســنة ١٨٥٧ حتى ســـنة ١٨٧٩ ، وفى الصفحة الثالثة شرح لنوع القــراءة المطلوبة ، وفى الصفحة الرابعة نداء موجه الى الف قارىء متطوع لتكملة المعجم فى ثــلاث ســـنوات ، وبالاضافة الى هذه الصفحات الأربع ، أربع صفحات اخرى ، بها أســماء الكتب المطلوب قراءتهــا ، وبعض التعليمات التى يجب على القراء اتباعها . كان لهذا النداء صدى طيب فى النفوس . وكان على مستر مورى كرئيس تحرير أن يتولى الامــور الآتيــة قبــل البدء الحقيقى فى العمل :

١ ــ ترتيب المادة القديمة وتصنيفها .

٢ ــ ترتيب وتنظيم المادة الجديدة .

٣ ــ تبادل مراســـلات لا حصر لهــا مــع المتطوعين .

ولم يكن هناك نموذج يحتذى به ، اذ كان تطبيق الاســـس التاريخية الجديدة شــيئاً جديداً فى عالم المعاجم ، وكان يتطلب استعداداً اكاديمياً ووعياً عملياً لحل المشكلات بشــكل مرض . ونظراً لقيام أكثر من شخص بعملية

---

(٢٣) ظهرت اول طبعة لمعجم وبستر ١٨٢٨ بعنوان :

An American Dictionary of the English Language.

John S. Kenyon ; Historical Suggestions, in, Richard Braddock, Introductory Readings on the English Language ; Prentice-Hall & Co., New York, 1962, p. 18.

الاختيار فلم يكن هناك منهج عملي محدد لاختيار الشواهد . ولقد اثبت كل من جونسون وريتشاردسون من قبل اهمية العثور على الشاهد الصحيح لاقامة الدليل على وجود وتثبيت الكلمة ومعناها في اللغة ، فضلاً عن تقصي تطورها التاريخي . وكان لا بد كخطوة اولى لعمل المعجم الجديد من جمع الشواهد من كل ما كتب باللغة الانجليزية في العصور الثلاثة المختلفة التي حددتها لجنة جمع الكلمات من قبل .

كان كل من جونسون وريتشاردسون يقوم بهذا العمل بمفرده،ويتوخى الدقة في الاختيار . ولكن هناك اكثر من عقبة عملية يجب تفاديها عندما يشرف اكثر من شخص على اختيار الشواهد . ولذلك صدرت التعليمات والارشادات للقراء المتطوعين في عامي ١٨٥٨ و ١٨٧٩ لتوحيد منهج جمع الشواهد. واستقر الرأي على الآتي :

١ ـ يكتب كل شاهد على بطاقة منفصلة ذات حجم معين . ولتسهيل عملية الفرز ، تكتب الشواهد المقتبسة من مؤلفات وكتابات كل فترة تاريخية من الفترات الثلاث كل على حدة .

٢ ـ تدون في كل بطاقة البيانات الآتية على النحو التالي :

أ ـ تكتب الكلمة المنتقاة في الركن الأيسر العلوي .

ب ـ يكتب تاريخ اصدار الكتاب ، ثم اسم مؤلفه ، واسم الكتاب ورقم الصفحة والسطر بالترتيب المذكور .

جـ ـ يكتب الشاهد نفسه اما كاملاً أو في شكل مناسب .

وفيما يلي شكل البطاقة (مترجماً الى العربية) :

السطر ، رقم الصفحة ، عنوان الكتاب ، تاريخ الكلمة ، اصدار الكتاب
الشاهد

ولتفادي الملل كانت المعلومات الواردة في البند الثاني تطبع على بطاقات مرقمة .

وفيما يلي التعليمات الخاصة بمنهج جمع الشواهد ، والصادرة للقراء كما وردت في منشور سنة ١٨٧٩ م .

١ ـ اقتبس شاهداً لكل كلمة تعتقد انها نادرة rare ، او بطل استعمالها obsolete او قديمة old fashioned ، أو جديدة new ، او غريبة peculiar ، او مستعملة بطريقة غريبة used in a peculiar way .

٢ ـ اعط اهتماماً خاصاً للفقرات التي تدل أو تشير الى ان الكلمة المنتقاة اما جديدة أو مستعملة استعمالاً تجريبياً أو مبدئياً tentative ، او في حاجة الى شرح أو تفسير ككلمة مماثلة أو قديمة مهجورة archiac ، وذلك ليسهل تحديد تاريخ دخولها اللغة أو بطلان استعمالها .

٣ ـ اقتبس اكبر عدد ممكن من الشواهد للكلمات العادية ، وخاصة عندما تستعمل استعمالا مميزاً ، وتفسر نفسها بنفسها تفسيراً ذاتياً أو توحي بمعناها في السياق .

وواضح ان هذه القواعد تطبق بدرجات متفاوتة على كتب مختلفة ، وأن صعوبة اتباعها تتفاوت من قارئ الى آخر ، هذا ، وقد تفاوتت كمية القراءة فعلاً .

تقدم في مايو سنة ١٨٧٩ استجابة للنداء

الموجه للمتطوعين فى ابريل من نفس العام ١٦٥ قارئاً متطوعاً ، اختار ١٢٨ منهم الكتب التى يفضلون قراءتها ، وزودتهم ادارة التحرير بالبطاقات ، وبدأوا العمل . وبلغ عدد الكتب المسجلة امام أسماء القراء ٢٣٤ كتابا ، وبعد عام زاد عدد القراء الى ٧٥٤ قارئا . وكان عدد الكتب المفروض قراءتها ١٥٦٨ كتابا ، تم قراءة ٩٢٤ كتابا منها . وبلغ عدد البطاقات التى وزعت على القراء ٦٢٥٠٣٥ بطاقة ، وبلغ عدد الشواهد التى وصلت رئاسة التحرير ٣٦١٦٧٠ . وفى عام ١٨٨١ بلغ عدد القراء ثمانمائة ، وعدد البطاقات ٨١٧٦٢٥ ، وعدد الشواهد المرسلة الى رئيس التحرير ٦٥٦٩٠٠ .

ولقد تم تدوين اسماء القراء ، والكتب التى قرأوها بين عامى ١٨٧٩ و ١٨٨٤ ، والشواهد التى اقتبسها كل منهم فى ملحق يقع فى ٣٢ صفحة ، الحق بالجزء الأول . وكانت مساهمة قراء الولايات المتحدة موضع تقدير مستر مورى رئيس التحرير ، الذى اطرى جهودهم النابعة من حبهم للغة الانجليزية .

وبينما كانت عملية تجميع المواد القديمة ، وجمع المواد الجديدة، واخضاع الاثنتين لعملية ترتيب منظمة تسير سيراً حثيثاً ، كان مستر مورى يعمل على تحديد الخط الذى سيسير عليه تحرير المعجم . كانت مشكلة معالجة النطق pronounciation وتوضيحه للقراء مثلاً ، محل بحث لفترة طويلة ، ولم يبت فيها برأى الا بعد استشارة أكثر من عالم من ثقات علماء أصوات اللغة ، مثل ايزاك بيتمان Isaac Pitman ، وجيمس ليكى James Lecky وو.ر.ايفانز W. R. Evans . وظل مستر مورى على اتصال دائم بهم طيلة سنة ١٨٨١ ، وربيع سنة ١٨٨٢ ، واستقر الراى على رموز صوتية معينة Notation ، وافق عليها مجلس الجمعية فى مارس سنة ١٨٨٢ .

وفى ابريل ١٨٨٢ ، ارسلت أول نسخة خطية للناشر من ملزمة بها جزء من حرف A ، واعلن مستر مورى فى جلسة الجمعية فى يناير سنة ١٨٨٤ ، أن نشر هذا الجزء سيتم فى أول فبراير ١٨٨٤ ، ووصف المعجم بانه لامثيل له فى عالم المعاجم ، ولا حتى فى عالم الأحلام .

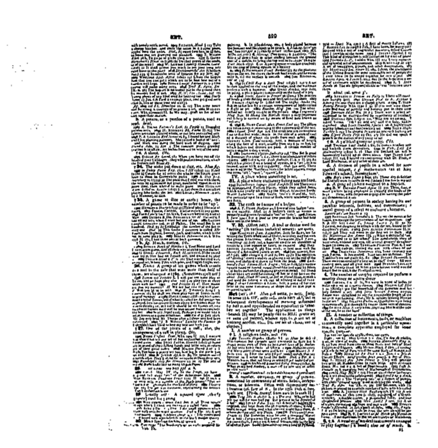
وتمت طباعة ونشر هذا الجزء الصغير من المعجم ، ولم يبق الا النهوض والاسراع ببقية المعجم حتى يكتمل ، ومما ساعد على الاسراع فى اعداد المعجم انضمام **هنرى برادلى** الى مجموعة المحررين، وقد اضطلع بنفسه بتحرير الحروف من B الى F . وفى سنة ١٩٠٠ تم نشر جزء آخر حتى حرف G . ولقد نوه رئيس التحرير فى مقدمة المعجم بمجهود **برادلى** عندما أكد أن المعجمى يولد معجمياً ، ولا يمكن لأى انسان أن يجعل من نفسه معجمياً ، الا اذا كانت لديه القدرة على مثل هذا العمل ، ولذا يرجع الفضل فى اخراج هذا المعجم الضخم الى الوجود ، لجهود المحررين ومساعديهم ممن اوتوا الموهبة المعجمية .

كان توزيع العمل بين المساعدين يتم على ضوء استعداد كل منهم ، فمنهم من أصبح اخصائياً فى اعداد النسخ للمطبعة ، ومنهم من تخصص فى اعداد مسودات المواد المختلفة للمحرر ليدخل عليها التعديلات المطلوبة ، أو يكتبها فى صورة نهائية . ومن بينهم من كان يُوكل اليه تنظيم وادخال المواد الجديدة المطلوبة ، ومنهم من يقوم بالتفريق بين المعنى الأصلى والمعانى الفرعية ، أو كتابه التعاريف ، أو التوفيق والتنسيق بين الترتيب الزمنى للمعانى وبين تطورها المنطقى من المعنى الأصلى للكلمة . لقد كان مثل هذا العمل فى غاية التعقيد بالنسبة للكلمات العادية ، ذات التاريخ الطويل ، مثل الأفعال الكثيرة الاستعمال ، أو صفات الافعال ، أو حروف الجر . كان ذلك واضحا فى حالة الفعل Set الذى استغرق

تحريره نحو اربعين ساعة فى أول الأمـر . فللفعل Set خمســون معنى اذا استعمل بمفرده . اما اذا استعمل فى عبارة بها حرف جر مثلاً مثل Set Off & Set out الخ ، نجد أن له ثلاثة وثمانين معنى آخر . فالفعل يشغل مايقـرب مــن عمــودين فى معجم ويبستـر Webester ، وأكثر من ثلاثــة أعمدة فى معجم اكسفورد المختصر . وعندما اعيدت كتابة المعجم الكبير ، استغرق تحرير الفعل Set أكثر من أربعين يوماً بدلاً من أربعين ساعة ، لهضم الأمثلة العديدة التى تراكمت مع الزمن . ويشغل الفعل الآن أكثر من ثمانى عشرة صفحة فى المعجم ، وتبلغ تقسيماته مائة وأربعة وخمسين تقسيماً . وهنــاك أفعــال اخرى من طراز Set فى اللغة الانجليزية ، مثـل الأفعــال : give, get, put, take استغرق تحرير كل منها ساعات طويلة مــن العمل المتواصل على أيدى محررين مساعدين تخصصوا فى تحرير هذه الفئة من الافعال .

وتخصص مســاعدون آخــرون فى فحص وتحقيق المراجع والتأكد من صحتها ، والبحث عن أمثلة أكثر ملاءمة وصحة للدلالة على التطور التاريخــى للكلمــة ، أو المراجعــة النهائيــة Proof Reading أو اضــافة مواد جديدة فى هذه المرحلة .

ان درجة صعوبة العمل فى المعجم وطبيعته المعقدة لاتظهر الا فى أثناء الممارسة الفعلية ، أثناء مزاولة عمل المعجم . ومهما يكـن مــن الأمر ، فان دقة عمل المساعدين ، سهلت الأمر



على المحرر وجعلته يطمئن الى سلامة النتائج التى يصل اليها والأحكام التى يصـدرها . فبعد مراجعة الملازم مراجعة اولى ، كانت ترسل الى من يهمهم الأمر لقراءتها ، وابداء الرأى فيها مع اية مقترحات يبدونها . وبهذه الطريقة ادخلت على المعجم تحسينات كثيرة ، وصححت اخطاء لغوية ، واخرى مطبعية ، كما ضربت الشواهد التوضيحية الخاصة بتاريخ الكلمات ومعانيها .

انضم الى هيئة التحرير فى سنة ١٨٨٨ **وليام الكسندر كريجى** W. A. Craigie الاستاذ بجامعة سانت اندروز ، كما انضم ايضاً وبصفة نهائية مستر **تشارلس تالبوت انيونز** C. T. Onions فى سنة ١٩١٤ ، وذلك الى جانب مستر مورى ومستر برادلى، فاصبح للمعجم اربعة رؤساء تحرير لكل منهم هيئة تحرير خاصة تعمل تحت اشرافه . وبهذه الطريقة امكن الانتهاء من المعجم فى اقل وقت ممكن .

ولقد بلغ عدد صفحات المعجم ١٥٫٤٨٧ صفحة قام **مورى** بعمل نصفها تقريباً .

ج ـ ظهور المعجم الى الوجود

كانت الأجزاء المبكرة من المعجم تطبع وتنشر وتباع بما قيمته اثنا عشر شلناً ونصفاً للملزمة، على فترات غير متساوية منذ سنة ١٨٩٤ وفق تجهيزها واعدادها للنشر . وبعد نشر الملازم الاولى ، انهالت الطلبات على الناشر طالبة الاسراع فى نشر مابقى من ملازم ، وأن يكون النشر على فترات متساوية لما فى ذلك من فائدة كبرى تعود على العاملين فى حقلى اللغة والأدب . واستجاب الناشر وهيئة التحرير لذلك وصدرت الأجزاء متتالية كل اربعة اشهر،واستمر ذلك لمدة عشرين سنة متتالية . وفى هذه الأثناء تغير اسم المعجم من « معجم اكسفورد الجديد للغة الانجليزية » الى « معجم اكسفورد للغة الانجليزية Oxford English Dictionary » .

استغرق نشر المعجم نحواً من خمسة وسبعين عاماً ، وكان ذلك يعنى أن الأجزاء الاولى تنقصها كلمات جديدة ، ومعان جديدة، مما ادى الى طبع ملحق للمعجم بدأ العمل فيه سنة ١٩٢٨ ، وصدر المعجم ككل سنة ١٩٣٣ .

د ـ المسهمون فى صنع المعجم

اسهم فى عمل المعجم عبر خمسة وسبعين عاماً عشرات من المواطنين البريطانيين ، وبعض المواطنين الأمريكيين ، ذكر المعجم اسماءهم ، وسنذكر أعدادهم فقط وفق العمل الذى اسهموا به ، كما ورد فى المعجم .

ضمت قائمة المساهمين contributors اسماء ١٦٤ قارئاً ، بدأوا العمل قبل عام ١٨٨٤ ، و ٦٢ قارئاً بدأوا العمل بعد سنة ١٨٨٤ ، و ٢٢٦ قارئاً أسهموا فى القراءة لجمع المفردات والشواهد .

اما المحررون المساعدون فينقسمون الى قسمين: القسم الأول ويتكون من ٦٢ شخصاً، عمل بعضهم مع فورنيفال بين عامى ١٨٦٢ ، ١٨٧٩ ، كما عمل بعضهم كقراء قبل أن يصبحوا محررين مساعدين .

عمل بالمعجم ايضاً ٦٥ مساعداً ، مع كثيرين من المحررين ، واسهموا بكثير من الخبرة والمثابرة فى انجازه . وعمل به ايضاً ٢٣ مراجعاً proof readers ، فضلاً عن عدد آخر من المتطوعين لاحصر لهم . اسهم هؤلاء فى اعطاء المعلومات المختلفة للمحررين ، اما من تلقاء انفسهم او رداً على استفسارات جوابية بعث بها المحررون اليهم . واسهم بعضهم فى تزويد المحررين بمعلومات فى ميادين تخصصهم، وخاصة اللغات والتاريخ والقانون والاتيومولوجيا . وعمل بعضهم على تحقيق

الشواهد المشكوك فى صحتها ، وفى البحث عن معلومات خاصة حصلوا عليها من مكتبة المتحف البريطانى . ولم يبخل العاملون فى مكتبة بودليان باكسفورد بمجهودهم لمساعدة العاملين بالمعجم .

٥ ـ منهج اختيار مواد المعجم

لم تكن اللغة الانجليزية القديمةOld English والتى يطلق عليها بعض مؤرخى اللغة الاسم « انجلو ساكسون Anglo-Saxon » (٢٤) ـ بمثل ماهى عليه الآن من ثراء تباهى به اللغات الحية الاخرى . ويعتقد **ماريو باى** Mario Pie اللغوى المشهور واستاذ اللغات الرومانسية بجامعة كولومبيا الأمريكية فى أن أى معجم شامل للغة الأنجلو ساكسون (اى اللغة الانجليزية القديمة) لايزيد عدد المفردات الواردة فيه عن خمسين الف كلمة ؛ وحتى اذا فرض أن نصف عدد كلمات لغة الحديث لم يستطع أن يجد سبيله الى الوثائق والسجلات التى فى متناول اليد الآن ، فان**ماريو باى** يؤكد فى ثقة ان عدد مفردات اللغة الأنجلو ساكسون كانت لاتتعدى المائة الف كلمة . ويرى **باى** كذلك ان اغلب المعاجم الشاملة للغة الانجليزية الحديثة تكشف عن ثروة لغوية من الكلمات تربى على المليون كلمة . واذا فرض ان ثلاثة ارباع هذه الكلمات تقع فى اطار ميادين متخصصة مثل الطب والتكنولوجيا ، أو فى اطار اللغة الاصطلاحية لأصحاب المهن والحرف المختلفة Trade Jargon ، أو العامية الفئوية Slang ، فان **باى** يؤكد حقيقة واحدة تبقى واضحة ، وهى أن الثروة اللغوية الانجليزية من الكلمات قد تضاعفت عشر مرات فى اقل من الف عام (٢٥) .

وان دلت هذه الحقائق على شىء فانما تدل على أن اللغة بعامة كائن حى ينمو ويتطور ويخضع لقانون الموت والحياة ، وتؤكد ذلك نظرة تاريخية تلقى الى الوراء على لغة فقيرة مثل اللغة الانجليزية القديمة التى نمت وتطورت واصبحت الآن عشرة امثال ما كانت عليه من الف سنة ، بعد أن استوعبت منذ الفتح النورماندى فى سنة ١٠٦٦م ، تسعمائة الف كلمة او مايزيد ، بعضها حل مكان كلمات اخرى ماتت ، وبعضها كلمات مشتركة ، ويستعملها الأفراد فى تصريف امورهم الحياتية . واخرى توجد فى قوائم الكلمات العلمية التى تزداد يوماً بعد يوم لتلاحق التطورات العلمية والتكنولوچية التى لاتفتأ تسفر مع شروق كل شمس عن جديد .

رأى مستر **مورى** محرر معجم اكسفورد من قبل، أن الثروة المعجمية لأى لغة حية وواسعة الانتشار وذات مستوى حضارى رفيع كاللغة الانجليزية ، ليست كماً ثابتاً تحيط به حوائط صماء من كل جانب . ويعنى ذلك أن محاولة استيعاب مفردات اللغة وعباراتها ، وامتلاك ناصيتها ككل واضح محدد امر صعب التحقيق . ولتوضيح ذلك يعقد « مورى » فى مقدمة المعجم مقارنة بين تكوين اللغة الانجليزية بمفرداتها وعباراتها وتراكيبها ، وبين مجموعة طبيعية أو نباتية أو حيوانية تمثل أى واحدة منها مجموعة صغيرة نموذجية Model Subgroup تتجمع فيها كل الصفات المميزة للمجموعة الكبيرة ، التى تتصل بدورها

---

(٢٤) يرى كثيون ان البعض يطلق خطأ الاسم Anglo-Saxon على اللغة الانجليزية التى كان يتكلمها سكان الجزر البريطانية قبل سنة ١١٥٠ م نسبة الى المصطلح Anglo-Saxon الذى كان يعرف به الإنجليز فى ذلك الوقت . وسبب خطأ هذا الاسم أن الانجلو ساكسون انفسهم كانوا يسمون لغتهم English وليس Anglo-Saxon .

(٢٥) Mario Pie ; The Story of the English Language, 1968, p. 91.

بمجموعات طبيعية ، او نباتية او حيوانية اخرى لها نفس الصفات المميزة ، ولكن بدرجة اقل ، وتتصل هذه المجموعات بدورها بسلسلة من المجموعات الاخرى ، تقل درجة الصفات المشتركة فى كل منها عن المجموعة التى قبلها ، حتى تتلاشى الصفات المميزة للمجموعة الاولى فى أشكال هامشية غير واضحة المعالم . هذا هو أمر اللغة الانجليزية الحديثة ، وصلتها باللغتين : الانجليزية الوسيطة ، والانجليزية القديمة .

وكوسيلة ملائمةمن وسائل تصنيف مكونات اى ظاهرة طبيعية ذات شكل معين بقصد دراستها ، يلجأ العالم الطبيعى الذى يدرسها الى رسم خط اعتباطى Arbitrary داخل الشكل الذى يمثلها أو خارجه،وذلك لتصنيف مكونات الظاهرة الطبيعية الى مجموعات تفصلها حدود واضحة . ولا شك أن الطبيعة لا ترسم هذا الخط ولا تصنف مكونات الظاهرة الطبيعية الى مجموعات أو فئات . وقياساً على ذلك يرى مستر مورى أن الثروة المعجمية Vocabulary للغة الانجليزية تشتمل على نواة أو كتلة مركزية Central Mass تحتوى على آلاف الكلمات الانجليزية الأصيلة،بعضها فصيح Literary يقع فى دائرة لغة الكتب ، وبعضها عامى colloquial يقع فى دائرة لغة العموم اليومية . أما الكثرة الغالبة من كلمات هذه الكتلة المركزية ،فهى مزيج من اللغتين الفصيحة والعامية معاً ، وتمثل هذه النواة أو الكتلة المركزية بكل مافيها من كلمات ، مجموعة الكلمات المشتركة فى اللغة ، والتى قد لا يستعملها الجميع ولكن يفهمونها . ويرتبط هذا الكم المشترك من الكلمات من كل جانب بمجموعات اخرى من الكلمات تقل درجة تشابه الصفات المشتركة بينها كلما ابتعدت عن النواة او الكتلة المركزية وبدأت فى الاتصال بوضوح متزايد باللهجات المحلية المختلفة وبالعامية الفئوية slang ، وبلغة اهل الحرف cant ، وبالمصطلحات العلمية التى تشترك فى استعمالها وتتداولها كل الامم المتمدينة ، وباللغات الحية الفعلية actual لبلاد وشعوب اخرى .

ومما لاشك فيه أنه ليس لدائرة اى لغة حدود فاصلة تنتهى اللغة عندها فى أى اتجاه : فدائرة اللغة الانجليزية لها مركز محدد وواضح المعالم ، ولكن ليس لها محيط محدد يمكن رؤيته او ادراكه بوضوح . وبالاضافة الى مفردات وعبارات اللغة المشتركة ذات الاتصالات المتشعبة فى كل الاتجاهات ، يقع عدد لاحصر له من اسماء الأعلام proper names والأسماء الدلالية common names — اى الأسماء العامة غير اسماء الأعلام — خارج نطاق المادة المعجمية ، ومع ذلك تتصل بها فى آلاف المواضع حيث تكتسب هذه الأسماء والصفات والأفعال المكونة منها معانى مشتركة متضمنة فيها ، اى تكتسب معانى اضافية توحى بها معانى الكلمات الأصلية . وهنا أيضاً يجب وضع حدود تحكمية arbitrary لتحديد اى الكلمات يدخل المعجم .

ولتوضيح هذه الفكرة عملياً ، وضع « مورى » فى مقدمة المعجم رسماً تخطيطياً diagram على هيئة بيضاوى بداخله اللغة المتداولة ، ويحده من أعلى اللغة الفصحى literary ، ومن أسفل اللغة العامية . وتتصل باللغة المشتركة ، عن طريق اللغة الفصحى ، اللغات الاجنبية ، واللغة العلمية scientific language ، كما يتصل باللغة المتداولة أيضاً ولكن عن طريق اللغة العامية واللهجات المحلية dialects ،واللغة العامية الفئوية ، واللغة التكنية technical .

اللغة الفصحى LITERARY	اللغة العلمية SCIENTIFIC LANGUAGE	اللغات الأجنبية FOREIGN LANGUAGES
اللغة المشتركة COMMON LANGUAGE	اللغة التكنية TECHNICAL LANGUAGE	اللهجات المحلية DIALECTALS
اللغة العامية COLLOQUIAL	العامية الفئوية SLANG	

يوضح الرسم نفسه بنفسه . وهو كمحاولة مرئية يوضح للعين احد أوجه اللغة الذى تحتله مفرداتها فى معجم اكسفورد ، كما يبين العلاقة بين عناصر اللغة المميزة لها والمتمثلة فى النواة أو الكتلة المركزية التى تحتوى على مفردات اللغة وعباراتها المشتركة common ، وبين عناصرها غير المميزة لها aberant ، والتى تتصل بالنواة أو الكتلة المركزية cnetral mass عن طريق جناحى اللغة الرئيسيين المتمثلين فى اللغة الفصحى واللغة العامية . وتحتل الكلمات والعبارات المشتركة المتداولة منطقة الوسط حيث تلتقى الاستعمالات الفصحى والعامية .

٦ ــ منهج تصنيف مفردات اللغة الانجليزية

عند معالجة مادة معجم اكسفورد صنفت مفردات اللغة الانجليزية الى :

(أ) كلمات أساسية main words .

(ب) كلمات ثانوية subordinate words .

(جـ) كلمات مجمعة combinations .

ولقد بين المعجم المقصود بكل واحدة من هذه المصطلحات كالتالى :

أ ــ الكلمات الأساسية : هى كلمات مختلفة أشكالها . فمنها الكلمات أحادية البنية ، وهى التى تتكون من مقطع واحد ، هو جذرها ، مثل كلمة theatre ، أو تتكون من مقطع واحد وما يلتحق به من لواصق ، أى أنها مشتقة مثل كلمة amphitheatrically .
ومنها الكلمات المركبة من أكثر من جزء compound words مثل كلمة almsman وتتركب من كلمة alms وكلمة man ، وكلمة afternoon وتتركب من كلمة noon وكلمة after ، وكلمة almighty وتتركب من كلمة all وكلمة mighty . ومن الكلمات الأساسية أيضاً العبارا تالمركبة من أكثر من كلمة ، ولكنها تعالج على انها كلمة واحدة لاعتبارات تاريخية ، أو لأن معناها لايكتمل الا اذا استعملت كوحدة غير مجزاة ، ومن بين هذه العبارات air-pump (مضخة هوائية)، و foreget-me-not « اسم زهرة ومعناها الحرفى لاتنسانى » ، و adam's apple « تفاحة آدم » .

هذا التقسيم للكلمات الأساسية يتفق مع معطيات علم اللغة الحديث . ولعله لايكون استطراداً مخلاً اذا قلنا ان الدكتوره نلسون فرانسيس تقسم وحدات اللغة الانجليزية المعجمية language units الى كلمات بسيطة simple words ، وكلمات مركبة compound words ، وعبارات اصطلاحية idioms . وتندرج تحت أى من هذه التقسيمات الثلاثة أى وحدة معجمية فى اللغة الانجليزية (٢٦) .

(٢٦) Albert Baugh ; op. cit. p. 382.

والكلمات البسيطة هى الوحدات المعجمية التى تتكون فقط من جذر واحد . وابسط هذه الكلمات تكويناً ، الكلمات المكونة من جذر واحد منفصل يلحق به لواصق الصرف . والكلمات البسيطة ايضاً هى الكلمات التى تتكون من جذرين ، أحدهما متصل bound form ، والآخر منفصل free form ويلحق به واحد او اكثر من لواصق الاشتقاق التى قد تبلغ أربعة لواصق فى بعض الكلمات البسيطة . ومن امثلة هذه الكلمات ذات الجذور المتصلة amphitheatri- cally و unkind ، و friendly ، و likelihood و unsuitability وغيرها كثير . ومن أمثلة الكلمات ذات الجذور المتصلة credible و propel ، و disturbance ، و spectator ، و inseparability والكلمات المركبة هى وحدة معجمية تتركب من أكثر من جذر منفصل،أو جذرين احدهما متصل والآخر منفصل ، او جذرين متصلين ، يلحق او لا يلحق بها لواصق اشتقاق . ومن بين الكلمات المركبة ذات الجذور المنفصلة كلمة blackboard وتتركب من الجذرين black و board ، وكلمة blue bird ، و sunlamp ، و downfall و housekeeper ، ومن أمثلة الكلمات المركبة ذات الجذرين المنفصل والمتصل telegraph ، و multiply ، ومن بين أمثلة الكلمات المركبة ذات الجذرين المتصلين microcosm ، و isotherm .

اما العبارات الاصطلاحية فهى الوحدات المعجمية التى تتكون من كلمة أو أكثر ، بسيطة أو مركبة ، وتدخل ضمن نمط تركيبى عادى . والسبب الوحيد الذى يميزها كوحدات معجمية عن التراكيب النحوية التى تتكون منها ، انها تحتاج الى استظهار وتعلم ، ومن ثم تعرف فى المعجم ككل مثلها فى ذلك مثل اى مادة من مواد المعجم الاخرى . ويعنى ذلك أن معرفة معنى المفردات التى تدخل فى تكوينها ، أو معرفة التركيب النحوى المكونة منه لايساعد على معرفة معناها ككل . ومثال ذلك العبارة first base وهى احدى اصطلاحات لعبة البيسبول ، ومعناها « نقطة الأمان » فى اللعبة. أما اذا وقعت الكلمتان first و base فى جملة مثل « stop at the first basen » فان معناها يصبح : « توقف عند أول قاعدة» . فالعلاقة بين كلمة first : « أول » ، وكلمة base : « قاعدة » تصير علاقة صفة بموصوف . ومن بين العبارات الاصطلاحية الشائعة الاستعمال فى اللغة الانجليزية العبارات المكونة من فعل آحادى القطع غالباً ، وحرف جر يعمل عمل صنفه الفعل adverb . وتشكل هذه العبارات جزءاً هاماً يعتمد عليه المتحدث بالانجليزية فى كتاباته أو حديثه العامى . ومن أهم سمات هذه العبارات استحالة ترجمتها الى اللغات الاخرى بمعناها الحرفى .

ب ــ الكلمات الثانوية : وتشتمل هذه الكلمات على مفردات تمثل أشكالاً اخرى للكلمات الأساسية . ومن امثلة هذا التنوع variants ما نجده من كلمات ذات هجاء مختلف عن الهجاء المشهور للكلمات الأساسية أو اشكال مماثلة للكلمات الأساسية ، أو كلمات تمثل بنية شاذة irregular أو غريبة peculiar للكلمة الأساسية ، ويطلق عليها المعجم الصيغة المشوهة bad formation ، فضلاً عن الكلمات المشكوك فى وجودها فى اللغة ، والكلمات ذات الاستعمالات المبهمة الدلالة ، ويرى المعجم أنها تستحق التسجيل .

ويرتب المعجم الكلمات الأساسية والثانوية فى مسلسل هجائى واحد . ولكن الكلمات الأساسية تطبع (ببنط أسود) ، أما الكلمات الثانوية فتطبع (ببنط أبيض) . ومثال ذلك inflection ، وهى كلمة اساسية وردت فى المعجم فى موضعها الهجائى (ببنط أسود) ،

اما شكليها الآخر inflexion فيكتب أمامها (بينط أبيض) .

جـ ــ الكلمات المجمعة : وهى الكلمات المكونة من تجميع كلمات بسيطة ، احتفظت كل كلمة فيها بهجائها ، سواء اكانت هذه الكلمات المجمعة متصلا بعضها ببعض بواسطة شرطة وصل توحدها hyphen ، أم كانت تربطها وحدة المعنى unity of their signification وتعالج الكلمات المجمعة بطريقة خاصة . فعندما تكون العناصر المكونة لها سهلة وبسيطة جدا ولا تحتاج الى تفسير ، او من الممكن تفسيرها باقتضاب على ضوء علاقتها بالكلمات التى تنحدر معها من أصل واحد ، فانها تعالج تحت الكلمات الأساسية التى ينتمى اليها العنصر الأول فيها .

٧ ــ منهج معالجة مفردات اللغة

أ ــ منهج معالجة الكلمات الأساسية : تعالج كل كلمة أساسية مرة واحدة ، فى هجائها الحديث المتداول . وتعالج الكلمة الأساسية المماثلة فى آخر هجاء عرفت به ، ويمثل الشكل الاملائى spelling الذى وقع عليه الاختيار الشكل الأساسى للكلمة . وتدون جميع الاشكال الهامة الثانوية لكل كلمة أساسية ومتداولة current ، أو مماثة فى المعجم وفق ترتيبها الهجائى ، ويشار ، وهى فى مكانها ، الى الشكل الاساسى الذى عولجت فيه ليرجع اليه الباحث .

وتتبع كل كلمة فى اللغة بعامة نوعاً من أنواع الكلام word class, part of speech ويحدد فى التحليل النحوى grammatical analysis لأى لغة ، أى نوع من أنواع الكلام تتبع الكلمة ، وذلك على ضوء سلوك بناء الجملة morphological paradigms أى ترتيب كلمات الجملة وفق أشكالها وعلاقاتها النحوية . ويكمل ذلك الترتيب ويعززه اختلافات مجموع الصيغ الصرفية للجذور المختلفة للكلمات .

والفرض من التحليل معرفة نوع الكلام الذى تنتمى اليه الكلمة . وجدير بالذكر ان النحويين القدامى درجوا منذ العصور الوسطى على دراسة اللغة الانجليزية كلغة تقسم كلماتها الى تسعة أنواع من الكلام ، وهى : الاسم noun ، والفعل verb ، والصفة adjective ، وصفة الفعل adverb ، وحرف الجر preposition وأدوات الربط conjunction ، واداة التعريف واداة التنكير article وصيغ التعجب interjection . ولقد نتج عن هذا التقسيم صعوبات كثيرة منها عدم وضوح تحديد نوع الكلمة ، وذلك لأن هذا التقسيم ينبع من معنى النوع الذى تنتمى اليه الكلمة ، وليس من السلوك الشكلى لجذر الكلمة ضمن مجموع صيغه العرفية . فكان الفعل يعرف بانه تعبير عن الحدث المعلوم أو المجهول فاعله active and passive action ويعرف الاسم على انه الشخص أو الشيء الذى يحدث الحدث action . أما فى اطار التحليل الشكلى formal analysis ، فان المصطلح « الاسم » يطلق على الكلمات التى تنتمى من حيث السلوك الشكلى الى نوع الكلام الذى يعرف بهذا المصلح .

ولقد بين تطبيق مبدأ التحليل الشكلى لتحديد أنواع الكلام فى اللغة الانجليزية أن بعض الكلمات تتبع أكثر من نوع من أنواع الكلام ، فهى تعمل عمل الاسم ، وتعمل عمل الفعل ، أو الصفة ، فى نفس الوقت . فكلمة work مثلا تعمل عمل الاسم ، وعمل الفعل ، دون ادخال أى تغيير على شكلها كما هو واضح فى المثالين التاليين :

انت تعمل جيداً Your work is well ، وعملك

جيـــد you work well ‏(٢٧) . ولقـد اخـذ معجم اكسفورد ذلـك فى الاعتبـار ، فعالج الكلمات الاساسية التى تنتمى الى اكثر من نوع من انواع الكلام معالجة خاصـة . فعندما يكون للكلمة علاقات نحوية مختلفة ، اى عندما تنتمى الى اكثر من نوع مـن انواع الكـلام ، فانها تعالج ككلمة واحدة فقط ، وتقسم هذه العلاقات النحوية المختلفة الى اقسام يدل على كل منها علامة ا ، ب ، جـ الخ . ولنضرب لذلك مثلاً فئة الاسماء التى تستعمل ايضـاً كصـفات مثـل كلمـة gold ، فيقـال an ounce of gold « أوقية ذهب »، ويقال a gold watch « ساعة ذهب » ، كما يقال a gold coloured watch « سـاعة ذهبيـة اللـون » ، وكذلك فئـة الصـفات التـى تستعمل كأسـماء مثـل كلمـة catholic «كاثوليكى» فهى صفة فى a catholic church « الكنيسـة الكاثوليكيـة » وهى اسـم فى a good catholic « كاثـوليكى طبيـب » . ومثال آخر فئة الصفات التى تستعمل صفات أسماء أحياناً ، وصفات افعال احياناً اخرى . فكلمة according فى according voice of wisdom تصف الاسـم voice ، وتعنى العبـارة ككل « الصـوت المنبثـق من الحكمـة » : وتستعمل كلمة according ايضاً صفة فعل فى He acted according to orders ، اذ تصف الفعل acted وتعنى العبارة « تصرف وفق الأوامر » . ومن بين الكلمات التى لهـا أكثر من علامـة نحويـة فئـة من الكلمات تستعمل كظروف ، وحـروف جر ، وأدوات ربط مثل down, up, about, since, after then وبعض الأفعال تستعمل متعدية تارة ، ولازمة تارة اخـرى ، مثل فعل abide الذى يقع متعدياً فى to abide battle « يلزم المعركة » ، ويقع لازماً فى to abide at home « يمكث فى المنزل » . ولا يعنى استعمال الفعل الواحد كمتعد تارة ولازم اخرى أن الفعل ذو طبيعتين مختلفتين ، فقد يحدث أن يكون الفعل فى وقت لازماً ، ثم يصـبح متعدياً لمفعول فى فتـرة اخرى من فترات تاريخ اللغة ، من غير ان يطرأ على معناه أو شـكله أى تغيير . ومثال ذلـك الفعـل answer ، والعكس صـحيح ، فقد يصـبح الفعل المتعدى لازماً من غير تغيـير فى الشكل والمعنى ، وذلك من خلال الاسـتغناء suppression عن الضمير المنعكس reflexive pronoun ، ومثال ذلك الفعل withdraw فى I withdrew my hand « سـحبت يدى » ، وفى Jesus withdrew himself to the sea « سـحب السـيد المسـيح نفسـه الى البحر » ، ثم فى Jesus withdrew to the sea « انسحب السيد المسـيح الى البحر » اقد عالج المعجم هذه الظاهـرة التاريخيـة تحت مادة الفعل withdrew مع استـعمال هـذه الأمثلة .

وفى اللغة الانجليزية ايضاً كلمات تنتمى الى اكثر من نوع من الكـلام وتسـتعمل بمعان مختلفة دون أن يطرأ عليها تغيير فى الشـكل . ومثال ذلك كلمـة land ، فهى تسـتعمل اسـماً بمعنى « أرض » ، وفعـلاً بمعنى « يرسى » ، وفى اللغة أيضاً كلمات تستعمل أفعالاً وصـفات ، ومثـال ذلـك كلمـة dry « يجفف ، وجاف » ، وكلمات تستعمل أسماء وصفات مثل كلمة animal بمعنى «حيوان» اسـماً ، وبمعنى « حى » صـفة ، وكلمات تستعمل صفات واحوالاً اى صـفات أفعال مثل كلمة fast « سريع ، مسرع » . ويعالج المعجم هذه الكلمات وفق كل اسـتعمال من

‏(٢٧) . Francis, N. W., op. cit. ; pp. 113.

استعمالاتها النحوية باعتبارها كلمة مستقلة بذاتها ، ولكن يشار عند ذكر احداها فى المعجم الى مكان وجود الاخرى .

تشتمل معالجة الكلمات الأساسية أيضاً على عدة مستويات :

(١) اثبات هوية الكلمة identification وهى تشتمل أيضاً على معالجة النطق pronounciation .

(٢) مورفولوجية الكلمة morphology ، ويعالج فيها المعجم جذر الكلمة وصرفها inflection واشتقاقها derivation .

(٣) معنى الكلمة signification .

(٤) الشواهد الايضاحية illustrative quatatons . وسنتناول كلاً منها بالشرح والتفصيل وفق معالجة المعجم لها .

١ ـ اثبات هوية الكلمة الأساسية : يتبع المعجم الخطوات التالية لاثبات هوية الكلمة :

أولاً : تدوين الكلمة فى المعجم فى شكلها الهجائى النموذجى أو المألوف ، متوخياً الامور التالية :

أ ـ فى حالة وجود طريقتين مستعملتين لهجاء الكلمة تذكر الطريقتان فى رأسية الكلمة مثل كلمة analyze, analyse ، وكلمة inflection, inflexion .

ب ـ وضع علامة + قبل الكلمات المماته .
جـ ـ وضع علامة ٩١ قبل الكلمات التى لم تتم (نجلزتها) بعد ؟

د ـ عالج الكلمة النادرة ، وخاصة تلك التى كيفت adapted أو صيغت formed من المرادف اللاتينى،والتى يصعب وصفها بأنها مماته أم لا ، ـ على انها مماته وحية فى نفس الوقت ، فقد لا يحتاج اليها مستعملو اللغة ، ولكن من الممكن استعمالها اذا دعت الحاجة اليها ، ولذلك لم تستبعد من المعجم ، ولم توضع امامها العلامة + .

ثانياً : تصنيف الكلمات الأساسية وفق درجة انتمائها الى اللغة الى ثلاث فئات :

أ ـ كلمات مواطنة naturals ، (ب) كلمات متجنسة (متنجلزة) denizens
جـ ـ كلمات طارئة casual .

أما الكلمات المواطنة فتنتمى اليها كل الكلمات الاصلية native مثل كلمة father وكل الكلمات التى استكملت مقومات مواطنتها فأصبحت انجليزية شكلا واستعمالا مثل street ، rose ، parasol ، gas .

أما الكلمات المتجنسة فهى التى أصبحت كاملة المواطنة من حيث الاستعمال فقط ، دون الشكل البحت أو النطق مثل الكلمات aid-de-camp carte-de-visit, table-d'hote الفرنسية الأصل والشكل والنطق ، وكلمة loucs اللاتينية الأصل والشكل . وتنتمى الى هذه الفئة من الكلمات الأجنبية alien ، كلمات غالباً ما تكون أسماء لأدوات أو ألقاب وما الى ذلك ، ويجد المتكلم نفسه دائماً فى حاجة الى استعمالها لعدم وجود مرادف انجليزى لها مثل shah الفارسية ، و geyser « منبع المياه الساخنة » وهى ايسلندية ، و targum « الترجومة وهى ترجمة آرامية لجزء من التوراة » و shiekh العربية .

أما الكلمات الطارئة casuals فهى كلمات اجنبية من نفس الفئة السابقة ، ولكنها ليست كثيرة الحدوث والاستعمال ، لأنها تؤدى

اغراضاً خاصة ، او مؤقتة . وتعرف بالكلمات الطارئة casuals ، والتى يطلق عليها اللغويون المحدثون المصطلح nonce- words ، بانها كلمات تستعمل فى مناسبة واحدة فقط او فى سياق واحد فقط ، ثم تذهب فى طى النسيان (٢٨) . وتوجد الكلمات الطارئة فى كتب الاسفار والخطابات التى يكتبها غير ابناء اللغة ، وما الى ذلك . ولا تفصل بين الكلمات الاجنبية والكلمات الطارئة حدود فاصلة . وهناك ميل دائم لتسامى الكلمات الاجنبية والطارئة الى فئة الكلمات المواطنة الاصلية .

وقد لاحظ معجميو اكسفورد ايضاً ان الكلمات الطارئة والكلمات الاجنبية الوافدة من لغات بربرية barbarous ، اى من لغات لا تنتمى الى ثقافات عالية ، سرعان ما تصبح مواطنة ، فان الكلمات الفرنسية والكلمات الوافدة من لغات ذات ثقافة عالية ، وخاصة اللغة اللاتينية ، غالباً ما تبقى فى حالة تجنس مستمرة لقرون عديدة ، فمثلاً لا زالت كلمة phenomenon ظاهرة تعامل على أنها كلمة يونانية، وكلمة genus تعامل على أنها لاتينية ، وكلمة aid-de-camp على أنها فرنسية .

ثالثاً : يوضع نطق الكلمة الأساسية او الرمز الصوتى الدال على شكلها بين قوسين . واذا كانت الكلمة تنطق بأكثر من طريقة يسجل كل نطق على حدة، ويصحبذلك أحياناً تفسير يوضح طريقة نطق كل منها . اما الكلمات المماثله فلا يذكر المعجم نطقها ، ولكنه يبين مكان النبر stress فيها بوضع نقطة فى موضع أعلى من مستوى السطر مثل A.nredly و Alfe.res . وفى حالة الكلمات التى لم تكتمل (نجلزتها) بعد ، يذكر طريقتين للنطق ، احداهما أقرب نطق للغة الأصل ، والاخرى قياساً الى أقرب نطق لها فى اللغة الانجليزية . وكثيراً ما يحدث فى الاستعمال الفعلى أن يكون هناك اكثر من طريقة تنطق بها كلمات مثل :
envelope, environs, prestige, chignon, rendez-vous

رابعاً : تحديد نوع الكلام the grammatical designation الذى تنتمى اليه الكلمة .

خامساً : معالجة الكلمات ذات الاستعمال النوعى Specific use بوضع المختصر الدال عليها مثل : (mus.) وهو مختصر كلمة musci الموسيقى ، و (b ot) وهو مختصر كلمة botany « علم النبات » وهكذا .

سادساً : تحدد مرتبة الكلمة الاجتماعية status بوضع المختصر الدال عليها ، مثل (obs) وهو مختصر obsolete ممات ؛ أو (arch.) وهو مختصر archiac قديم مهجور ، أو (coll.) وهو مختصر colloquial عامى ، أو (dial.) وهو مختصر dialectal لهجى، فضلاً عن استعمال كلمة نادر . أما الكلمات المستعملة استعمالاً مؤقتاً فى مناسبة خاصة for the nonce فتوضع أمامها nonce word.

سابعاً : لتحديد تاريخ اشكال الكلمات أو هجائها المبكر يوضع رقم فوق الكلمة ليدل على القرن التى كانت تستعمل فيه مثل ٣ ـ ٦ ويعنى القرنين ١٣ ـ ١٦ .

٢ ـ معالجة مورفولوجية الكلمة وايتومولوجيتها (اشتقاقها التاريخى) : تعالج

---

(٢٨) Robins R. H. ; General Linguistics An Introductory Survey, Longmans, 1968, pp. 227.

فتذكر الزوائد على الجذر وهى اللواصق : the inflectional affixes مثل لواصق الجمع والأزمنة والتفضيل. وكذلك لواصق الاشتقاق derivational affixe ، مثل لواصق تكوين الاسم والفعل ، اما ايتومولوجية الكلمة فتعالج تاريخ اشكالها form history وتوضع بين قوسين مربعين اسودين .

وتشتمل معالجة هذه الأشكال المورفولوجية والتاريخية على :

(١) تحليل اشتقاق الكلمة التاريخى ، وذلك بذكر أصلها الفعلى بعد التأكد منه .

(٢) ذكر اشكال الكلمة التاريخية التالية لشكلها الأصلى the subsequent form-history وذلك لتسجيل ما يكون قد طرأ على ملامحها من تغيير صوتى phonetic change أو انكماش contraction ، أو تحريف corruption او سوء استعمال من جراء تفسير تاريخ اشتقاقها تفسيراً شعبياً محرفاً ، أو من جراء ربطها ربطاً خاطئاً erronous association بكلمات اخرى .

(٣) استيفاء مختلف الحقائق miscellan-eous المتعلقة بتاريخ الكلمة ، وعمرها ، وباندثارها obsolescence ، وبقائها survival ، وبأى تعديل طرأ على شكلها refashioning ، وتغيير نطقها ، وبأى خلط نشأ بينها وبين أية كلمات اخرى .

ويُعتبر شكل الكلمة الواردة فى المعجم هو شكلها الحالى extant form او السليل الصوتى phonetic descendant لكلمة انجليزية سابقة ، بعد أن طرأ عليها تغيير مقصود unconscious ، على السنة الأجيال المتلاحقة التى استعملتها . ولنضرب لذلك مثالاً كلمة acre « فدان » ، وتنطق وفق الرموز الصوتية فى المعجم (éi-kaz) ، كانت وهو الشكل الباقى من الكلمة الانجليزية القديمة Æcer. ، والذى انحدر من الشكل القبل تاريخى prehistoric للكلمة Æcr وهو الشكل الانجليزى الخاص لكلمة akr أو acr والتى انحدرت بدورها من الكلمة الجرمانية الحديثة akra ، وهذه انحدرت بدورها من الكلمة المبكرة akra-z التى انحدرت من الكلمة التوتونية الأصلية akro-z والتى انحدرت بدورها من الكلمة الهندية أوروبية agro-s ، ومن ثم فان الأشكال aker, aker, akr, akra, agros, akraz, akroz, تعتبر كلها اشكالاً متعاقبة successive ومؤقتة لكلمة واحدة استعملت فى عصور متعاقبة . فالكلمة اذن لم تندثر ، بل ولم يمر عام أو يوم من غير أن ينطقها الكثيرون ، ولكن ، وهذا هو المهم ، كان الاستعمال الدائم المستمر يعمل على تحويرها ، فادخل على شكلها التغيير الذى جعل من كلمة acre كلمة تختلف تماماً عن الكلمة agros ، التى تتصل بها عن طريق أشكال وسيطة كثيرة ، أبقت الكتابة على عدد قليل منها ، فى حين ضاع من أشكالها التى لم تكتب عدد كبير . ويرمز الى هذا السليل الصوتى بالرمز (: —) ، ومن ثم تكون الكلمة (اقرأ من الشمال الى اليمين)

Acre : OE, acer : — C. Teut. akro-z

حيث يعنى المختصر OE اللغة الانجليزية القديمة Old English والمختصر C. Teut اللغة التوتونية .

وهناك نوع آخر تتناوله معالجة بنية الكلمة الانجليزية أيضاً ، وهو الكلمات المتبناه ، التى تشكلت وفق انماط عناصر محلية ، فاذا لم يكن الشكل «الحالى» للكلمة قد انحدر فعلاً من أصل توتونى، فيكون قد تم تبنيها adoption اذن فى وقت ما من لغة اجنبية ، وتستعمل فى

الوقت الحالى كأى كلمة انجليزية ، اما كما هى أو فى شكل معدل ، بعد ادخال بعض التغيير المتعمد أو غير المتعمد على شكلها ، قياساً على انماط محلية او أجنبية ، أو منهما معاً . وتبنى الكلمات الأجنبية عملية لغـوية شائعة ، يلجأ اليها متكلمو لغـة ما عندما يتصلون بمتكلمى لغة اخرى لتبادل المنافع أو الافكار ، التى غالباً ما تكون مصحوبة بأسمائها الاجنبية ، وعرفت اللغة الانجليزيـة التبنى على مر العصـور . فمثلاً الكلمات Inch « بوصـة » و Pound « رطـل » ، و Street « شارع » ، و Rose « وردة » ، و Tobacco « طبـــاق » ، و Orange« برتقال » ، و Tea « شـاى » ، و Canoe« قارب » ، كلهـا كلمات متبناة من لغات اخرى احتكت بها اللغة الانجليزيـة عبر العصور .

وتتناول دراسة بنية الكلمات الانجليزيـة أيضاً دراسـة عمليـة التكييف adaptation وتتميز عملية التكييف بأنها ذات طابع امـا علمى واما أدبى ، وهى تتمثل فى تكييف الكلمات الاجنبية على قياسات « analogies » اللغة ، ومن ثم تخليصها من نهاياتها الاجنبية ، ومـن أمثلة ذلك الكلمات اللاتينية واليونانية التى تختصر الى جذورها ، أو تضاف اليها نهايات انجليزية معروفة .

فالكلمات اللاتينية التى عاشت من العصر الجـولى gaulish ، خضـعت لتغييرات صوتية منتظمة regular phonatic change حتى أصبحت فى نهاية الامر كلمات فرنسـية حية تبنتهـا adopted اللغـة الانجليـزية الوسيطة . وقد حدث بعد هذا أن دخلت فى العصور الحديثة كلمات لاتينية عديدة فى اللغة الانجليزية مباشرة ، وذلك بعد أن خضـعت لتعديلات معينة ، حتى ليظن من لا علم له بها أن الكلمات دخلت اللغـة الفرنسية أولاً ، ثم دخلت اللغة الانجليزية بعد ذلك .

والكلمـات الفرنسـية التى تبنتها اللغـة الانجليزية قبل سنة ١٤٠٠م اخذت عموماً من اللغـة الأنجلو فرنسـية التى اسـتعملت فى انجلترا لعدة قرون ، خضعت خلالها لعمليات التغيير الصوتى . لقد كانت اللهجة الأنجلو فرنسية فى القرن الرابع عشر تختلف اختلافاً بيناً لا عن اللغة الباريسية وحسب ، ولكن أيضاً عن كل اللهجات الفرنسية المستعملة فى القارة الاوروبية . واللغة الفرنسـية أصلاً مزيج mixer مـن اللهجـات النورمانـدية norman واللهجـات الفرنسية الشـمالية الاخرى ، ثم دخلت عليها بعض التعديلات بعد امتزاجها باللهجـات الفرنسية مثـل لهجـة Angevin التى يتكلمها سـكان مقاطعـة آنجو Anjou ، واللهجـة الباريسية ، ولهجـة Poitevin وغيرهـا ، واخـذت فى نفـس الوقت تتعرض بدرجات متعاظمة لنفوذ اللغة الفرنسية الأدبية المتزايد ، وفضلاً عن ذلك فقد امتصت اللغة الفرنسية الاوروبية لهجة الشـانل Channel . ويعتبر هذا تطـوراً متميزاً ومسـتقلاً حيـث تنزع فونولوجيتها نحو الأصوات الانجليزية لا الى أصوات لغـات القـارة الاوروبيـة (٢٩) continental . وفى القرن الرابع عشر ماتت اللغة الانجلو فرنسية كلغة المثقفين ، الا انهـا ظلت تتمتع بوجـود مصطنع لفترة طويلة بعد ذلك ، فكانت تستعمل فى كتابة التقارير القانونية حتى القرن السابع عشر ، حيث ظلت تؤثر فى هجـاء الكلمـات الفرنسـية ، وبقى شكلها فى المقطع الاخير لكلمات انجليزية عديدة مثل : (environs, glorious, arrival, language, colour, armour) وهى فى الواقع الاشـكال الانجلوفرنسية التى

(٢٩) Pie, M., op. cit. p. 122.

تختلف عن أشكال اللغة الفرنسية القارية قديمها وحديثها . ويمكن القول كقاعدة عامة: ان البنية الاصلية لكل كلمة انجليزية وسيطة من أصل فرنسى كانت مماثلة identical لشكلها الانجلوفرنسى . كما أنه كلما ظهرت فجوة بين شكل كلمة انجليزية معروفة ومرادفها الفرنسى القديم ، امتلأت هذه الفجوة باستعادة الشكل الانجلوفرنسى والشكل الانجليزى المبكر . وفى القرن الخامس عشر وخاصة على يد **كاكستون** caxton (١٤٢٢ ـ ١٤٩١ م) بدأت أشكال الهجاء الفرنسى وطرقه تؤثر فى اللغة الانجليزية مباشرة .

ومهما يكن من الأمر ، فان دراسة بنية الكلمة وتسجيل الحقائق التاريخية المتعلقة بها تشتمل على صوغ formation الكلمات الانجليزية ، وهى عملية طبيعية امتازت بها اللغة الانجليزية ، وعملت على اثراء معجمها . وهناك أكثر من طريقة عرفتها اللغة الانجليزية لتكوين الكلمات الجديدة ، ومن بينها تجميع كلمات موجودة فى اللغة فعلاً وربطها ، بعضها ببعض . ومثال ذلك تجميع الكلمتين black « أسود » و bird «طائر» فى كلمة blackbird التى تطلق على طائر يعرف باسم « الطائر الأسود » . مثال آخر تجميع الكلمتين noon « بعد » و after « ظهر » فى كلمة واحدة afternoon « بعد الظهر » . وجدير بالذكر ان الكلمة التى اصبحت المقطع الاول فى مثل هذه الكلمات الجديدة هى التى تحمل النبر الأساسى الأقوى : primary stress .

وقد عرفت اللغة الانجليزية كذلك تكوين كلمات جديدة من تجميع كلمة حديثة وكلمة قديمة تستعمل فى الآونة الحديثة كمقطع . ومثال ذلك كلمة shepherd « راعى غنم »، وتتكون من كلمة herd « قطيع » ، والمقطع shep الذى كان يستعمل كلمة مستقلة sheep فى الانجليزية الوسيطة بمعنى «غنم» . وهناك كلمات يتم تجميعها عن قصد للتعبير عن شيء جديد مثل كلمة telephone وتتكون من كلمة phone « صوت » والمقطع tele « بعيد » ، وكلاهما من أصل يونانى قديم . ومن الكلمات ما تجمع أحياناً عن غير قصد مثل كلمة lionize « يستأسد » وتتكون من كلمة lion « أسد » واللاصقة ize ـ وهى من مكونات الافعال فى اللغة .

وعرفت اللغة الانجليزية أيضاً اضافة لواصق الاشتقاق perivational affixes ويطلق عليها المعجم مصطلح living formatives وهى تضاف كلواصق suffixes وسوابق Prefixes لكلمات موجودة فى اللغة ، لتكوين كلمات جديدة . ومثال ذلك اضافة اللاصقة er ـ الى بعض الافعال لتكوين الاسم منها . فعند اضافتها الى الفعل write «يكتب» يصبح اسماً writer « كاتب » ، واضافة السابقة re ـ لنفس الفعل يصبح فعلاً آخر rewrite « يكتب مرة اخرى » .

ولقد حظيت دراسة بنية الكلمات فى لغات مختلفة بنصيب وافر أيضاً فى المعجم . يوجد شبه كبير فى الشكل بين المصطلحات العلمية الحديثة المستقلة فى اللغة الانجليزية والفرنسية والألمانية ، وأحياناً فى جميع اللغات الاوروبية بالدرجة التى تسمح بها الأشكال الكتابية المميزة لكل لغة منها ، وغالباً ما يكون من الصعب ، بل ومن غير المجدى محاولة التأكد فى أى لغة ظهر الاصطلاح العلمى أول مرة كتابة ، فمن الناحية اللغوية يعتبر حدوثه كتابة فى أى لغة صدفة بحتة ، وذلك لشيوع ملكية الكلمة بعامة . وفى مثل هذه الحالات يستخدم المعجم المختصر (mod. f.) . ويعنى

الشكل الحديث « modern form » مشيرا بذلك الى أن اللغة التى ظهر فيها المصطلح لأول مرة أمر غير مؤكد ، ولذا يسجلها المعجم فى شكلها الحديث المتداول .

وتؤكد نلسون فرانسيس أن ظاهرة المصطلحات الحديثة المشتركة التى تميزت بها الأزمنة الحديثة هى احدى نتائج الثورة المتعاظمة فى جميع ميادين المعرفة ، وخاصة فى ميدانى العلوم والتكنولوجيا . ولقد كان لهذه الثورة ومازال أثر عميق فى جميع لغات العالم المتحضر ، لا فى اللغة الانجليزية وحسب ، وكان من نتائجها تكوين ثروة عظيمة من المفردات العلمية المشتركة بين كثير من اللغات حيث تظهر فيها نفس المصطلحات مع تعديل طفيف فى الهجاء والنطق .

ويعنى المعجم باستعمال المختصرات المناسبة للاشارة الى عمليات الاشتقاق التاريخية المختلفة مثل الاشارة (: —) للاشارة الى السلالة الصوتية phonetic descent ، ومثل (a) للاشارة الى التبنى adoptation و (ad) للاشارة الى التكييف adaptation و (f) للاشارة الى تكوين الكلمة formation ، وذلك ليقف القارىء على حقيقة اشتقاق الكلمة عبر تاريخها .

يعالج المعجم كذلك تطور الكلمات الأصلية native ، فيتتبع تاريخها للوصول الى اصولها الانجليزية المعروفة ، أو لاصولها التوتونية اذا أمكن ذلك . ويتم توضيح ذلك والوثوق منه عن طريق الكلمات ذات القرابة cognate فى اللغات واللهجات التوتونية الاخرى ، أما الكلمات الاخرى ذات الاصول الاجنبية فيدرس تاريخها بارجاعها الى الكلمات أو العناصر الاجنبية التى تم تبنيها أو تكوينها مباشرة ، أو بدراسة العناصر المكونة لها component ، أو بمعرفة أول الأشكال السابقة عليها antecedent ، والتى تدرس لا للتعرف عليها فقط بل وللوقوف على المزيد من تاريخها واستعمالها فى اللغة الانجليزية . وتتبع تاريخ هذه الكلمات البعيد ، وتحديد جذورها الآرية ، أو جذورها الاخرى لا يعتبر جزءاً من تاريخها الانجليزى .

لم يستطع المعجم فى كثير من الحالات تحديد اصول كلمات كثيرة ، اما لأن اصولها موضع شك ، أو لأنها غير معروفة . وفى هذه الحالات يسجل المعجم الحقائق التاريخية المتعلقة باصولها وتطورها الى الحد الممكن as far as they go ، وغالباً ما يحدد المعجم أيضاً الاتجاهات التى سلكتها هذه الكلمات ، أما اشتقاق هذه الكلمات التخمينية conjectural etymologies — تاريخياً — فلا يعالجه المعجم الا ليبين مدى اتفاقها او عدم اتفاقها مع الحقائق التاريخية العلمية ، ولأن هذه الحقائق ، غالباً ما تحتاج الى مناقشة مستفيضة ، يقوم المعجم بتوجيه القارىء الى مصادرها ليرجع اليها .

٣ — معنى الكلمة (semasiology)

The signification : بعض الكلمات لها معنى واحد فقط ، ولكن غالباً ما تكتسب الكلمات التى تستعمل لأى فترة من الزمن فى أى لغة سلسلة طويلة من المعانى الدقيقة المتشابكة المعقدة intricate اذ غالباً ما يتسع المعنى الاصلى primitive sense تدريجياً ليتضمن أفكاراً جديدة مرتبطة او متصلة Allied or Associated ideas ، أو يتحول المعنى الاصلى فى جسارة الى معان واستعمالات مجازية وقياسية .

ولما كان المعجم معنياً بمعجمة اللغة الانجليزية على اسس تاريخية لزم توضيح بعض الحقائق عن التغير الدلالى semantic change الذى تتعرض له من معانى

الكلمات عبر الزمن . فبالرغم من وجود اتفاق عام بين اللغويين على تغير معنى الكلمات عبر الزمن ، فما زال يوجد من يظن ان للكلمات معانى دقيقة « true meaning » وأن عامل التغير يبعدنا عن معرفة هذه المعانى الدقيقة ، وهذا زعم يتطلب منا الى حد ما ، اذا أردنا الوقوف على المعنى الحقيقى للكلمة أن نبحث عن معناها الاصلى . وينطلق هذا الاعتقاد من أن معنى الكلمات التى دخلت اللغة الانجليزية المعاصرة من اللغتين اليونانية واللاتينية مثلاً ، واحد فى هذه اللغات الثلاث . ويتبين خطأ اللجوء الى الايتومولوجيا ـ أى الاشتقاق التاريخى المقارن لمعرفة المعنى الحالى للكلمة ، تماماً كما يتبين لنا خطأ اللجوء الى هجاء الكلمة حاليا لمعرفة نطقها . ان تغير الكلمة قد عمل على تغيير معناها الايتومولوجى الذى أصبح غير مستعمل ، أو اصابه الموت . ولاشك أن لدراسة الايتومولوجيا خطرها وفائدتها العظيمة ، ولكن فائدتها فى تقرير معنى الكلمة الحالى موضع شك كبير .

ولنضرب لذلك الأمثلة التى تبين لنا خطورة المنزلق الذى يؤدى بنا الى الخطأ اذا اغفلنا حقيقة تغير معنى الكلمات عبر التاريخ . فكلمة candidate ترتبط بكلمة candidus اللاتينية ، ومعناها « اللون الابيض » ، وهو يختلف تماماً عن معنى كلمة candidate الآن وهو « الشخص المرشح لتولى منصب سياسى » . مثال آخر كلمة « holiday » التى كانت تعنى فى الأصل « يوم دينى » ، وتعنى الآن اجازة ، وتستعمل للاشارة الى اجازة عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد العمال وعيد الاستقلال واجازة الصيف ونصف السنة ، وما الى ذلك من الاجازات غير الدينية . ومثال آخر كلمة « bonfire » ومعناها الأصلى « اشعال نار لحرق جثث الموتى » وتعنى الآن « اشعال نار فى الهواء الطلق كما يحدث فى المعسكرات الكشفية » . يتضح من ذلك أن المعنى الايتومولوجى للكلمات ليس بالضرورة معناها الحالى . وينطبق هذا القول على الكلمة الشائعة « bonfire فما الكلمات الا رموز اصطلاحية بحتة . ولا تعنى الا ما اتفق عليه مستعملوها وارادوا لها أن تعنى . وينسحب ذلك على الكلمات العلمية ، ولو انها اكثر ثباتا ، واقل عرضة لعامل التغير من الكلمات الشائعة (٣٠) . ولا يمكن التنبؤ بالتغير اللغوى على الرغم من انه لا يحدث اعتباطاً بل يسير فى اتجاهات مطروقة ، وعلى الرغم من أن التغير يحدث فى كل اللغات الا انه لايسير بنفس الخطأ فى اللغات التى تربطها صلة القرابة . ومثال ذلك كلمة « knabe » الالمانية ومعناها «صبى» وتربطها صلة قرابة بالكلمتين الانجليزيتين القديمتين cnapa أو cnafa ولهما نفس المعنى ، ولكن سليلتها فى اللغة الانجليزية الحديثة knave تعنى « وغد » وهو معنى جد مختلف عن معنى الكلمة القديم فى كل من الألمانية والانجليزية . مثال آخر كلمة tier الألمانية الحديثة وقريبتها doer فى الانجليزية القديمة وتستعمل للاشارة الى « أى حيوان على الاطلاق » فى حين أن كلمة deer وهى سليلة الكلمة الانجليزية القريبة تعنى نوعاً واحداً من الحيوان وهو « الغزال » . والقدرة على اكتساب معان جديدة صفة تتميز بها كلمات الوصل ، مثل out, against و about و after

(٣٠) Whitehall, Harold, The Development of the English Language, in, Webester's New World Dictionary of the American Language, College Edition, The World Publishing Company, N.Y. 1957.

ولنضرب لذلك أمثلة لبعض معانى كلمة out واستعمالاتها المختلفة :

كحرف جر preposition ويستعمل معها حرف الجر of :

I pulled out of the water.

كاسم noun :

I went into all the outs and ins of the question.

كصفة adjectivet :

My book is out at last.

كصفة فعل adverb :

These leaves are coming out very early this year.

كجزء من مركب :

He is an out-and-out scoundrel. (٣١)

I want an outsiz collar

وكذلك بعض أدوات الربط مثل and ، و or ولنضرب لذلك أمثلة لبعض معانى أداة الربط or :

كأداة ربط تدل على بديل :

Black or white.

You must either tell the truth or say anything.

Whether he stays or goes.

Hurry up or else you'll be late.

لتدل على الاختيار من سلسلة بدائل :

Black or white or grey.

ولتدل على عدم التأكد أو الغموض :

About four or five minutes.

Two or three pounds. (٣٢)

I want a hundred or so (about).

ان هذه القدرة الفائقة التى تتصف بها كلمات الربط والوصل فى اكتساب المعانى الجديدة ، لا تتمتع بها بنفس الدرجة الكلمات التامة المعنى التى تعبر عن الافكار والانطباعات national words مثل الافعال والاسماء والصفات ، وتتفرد الأفعال والصفات بقدر أكبر من قدرة الاسماء على اكتساب معان جديدة . وتتفاوت قدرة الاسماء فيما بينها على توسيع معانيها . فالاسماء الدالة على الحركة actions أو الخواص qualities أو المفاهيم العقلية concepts اقدر على اكتساب المعانى الجديدة من الأسماء الدالة على الأشياء (٣٣) . ولا يعنى ذلك أن الأسماء الدالة على الأشياء ليست نشطة كالأسماء ذات المعانى المجردة . ولنضرب مثلاً كلمة « board »كما وردت فى المعجم :

أجر الكفاف a frugal board ، لوح خشب رفيع a thin board يسقط من على ظهر السفينة to fall over board ، لوح ورق مقوى a card board ، مدرسة داخلية a board school ، عضو هيئة أو مجلس to sit at a council board تمثل فى مسرحية to tread the board ، لائحة التجارة the board of trade ، مسافرون على ظهر سفينة passengers on board .

(٣١) Francis Nelson W., op. cit., p. 89.

(٣٢) Stuart Robertson and Fredric G. Cassidy, Changing Meanings and Values of Words, in, Richard Bradock, Introductory Readings on the English Language, Prentice-Hall 1962.

(٣٣) Clarke A. Melville Spoken English, Oliver and Boyd, London, 1968, p. 124.

يشكل تسجيل تطور معانى الكلمة فى ترتيب تاريخى مسلسل حقيقة على جانب كبير من الأهمية فى دراسة تاريخها ، فالقاء الضوء على تاريخها وتوضيحه يعد من أصعب مهام المعجمى الذى يهدف الى تزويد القارىء بتاريخ الكلمة. فلو كان فى حوزة المعجمى أمثلة مكتوبة لجميع استعمالات كل كلمة منذ البداية لأصبح لديه سجل تاريخى كامل لتطور معانيها ، ولكن السجل التاريخى لتطور معانى الكلمات ليس كاملا دائما بالدرجة التى تمكن المعجمى من تحقيق هذه الغاية ، أى الاستدلال على الترتيب الزمنى لتاريخ استعمال الكلمة .

سجل المعجم معانى الكلمة المختلفة مرتبة ترتيبا مرقما ومسلسلا وفق تاريخ حدوثها فى اللغة ، مسترشداً بما أمكن الحصول عليه من سجلات اللغة . ولما كان تطور المعانى غالباً ما يسير فى خطوط متفرعة ، وأحياناً متوازية ، فان من الواضح صعوبة وضع المعانى كلها فى خط واحد على التعاقب . ومن ثم ، تجد المعانى مرقمة (1,2,3, الخ .) ، ثم نجدها مجموعة أيضاً تحت فروع مرقمة وموضحة بالارقام الرومانية (I, II, III الخ) . وهكذا ، ومع بداية كل فرع جديد يبدأ التسلسل التاريخى من جديد . ويوضع قبلها قسيمات معنى الكلمة ، ومعانيها فى التراكيب المختلفة varieties of constructions العلامات a. b. c. الـخ ، أما تعريفات الفروع ، وهى قلما تحدث ، فتوضع قبلها العلامات (c) ، (b) ، (a) الخ . هذا فيما يختص بالكلمات التى تطورت معانيها فى اللغة نفسها .

أما الكلمات المتبناة adopted ، أو المكيفة adapted ، وهى التى اكتسبت معانيها فى اللغة المأخوذة منها أصلاً كاللاتينية مثلاً فكثيراً ما يحدث أن لا يتفق ترتيب ظهورها فى اللغة الانجليزية مع ترتيب ظهور معانيها فى لغة الأصل ، فيحدد ترتيب معانى هذه الكلمات المتبناة أو المكيفة فى اللغة الانجليزية بأن تنسب الى لغة الأصل أولاً ثم تسجل معانيها وفق استعمالها فى اللغة الانجليزية ، وذلك لأن الكلمة لم تدخل الانجليزية فى أول معنى لها فى لغة الأصل ، بل ربما دخلت اللغة الانجليزية فى معناها المجازى او المحول transferred أو المتخصص specialized ، أو اصطلاح قانونى ، أو نحوى ، أو علمى ، ثم اتخذت لها جذراً origin فى اللغة الانجليزية ، وبدأت تتطور بطريقتها الخاصة . ومهما يكن الأمر ، فقد تؤدى معرفة الانجليز باللغة اللاتينية وآدابها الى تبنى الكلمة اللاتينية فى معناها الأول أحياناً ، أو قد يحدث أن يتسع نطاق استعمال الكلمة التى تبنتها اللغة الانجليزية ، فتبدو وكأنها اكتسبت لنفسها جذراً متأخراً late origin فى اللغة الانجليزية ، ومن ثم يصعب فى هذه الحالة جعل الترتيب التاريخى للمعانى فى اللغة الانجليزية متفقاً مع الترتيب المنطقى الذى ظهرت فيه معانيها فى اللاتينية او فى لغتها الاصلية ، وكل كلمة من هذا النوع تعالج بالطريقة التى تثبت أنها الأفضل فى اظهار حقائق تاريخها واستعمالها . ومن بين هذه الكلمات agony, advent, append . أما المعانى المماته فتوضع علامة + قبلها لتمييزها على الفور عن معانى الكلمات الحية . كما توضع العلامة ql أمام الاستعمالات المغلوطة، والتى بها لبس ، لتمييزها عما عداها .

ولقد تم تفسير معانى كلمات المعجم على اسس جديدة ، الى حد كبير على ضوء اعادة دراسة الشواهد المصاحبة لكل كلمة جمعت لمعجم

اكسفورد . وجدير بالذكر أن معانى الكلمات الموجودة فى معجم جونسون نقلت كما هى الى معجم اكسفورد وكذلك المعانى التى أضافها اليه الاسقف **تود** الذى شغل فى فترة ما منصب رئيس تحرير المعجم . ولتمييز هذه المعانى الجديدة وضعت بين قوسين مصحوبة بالحرف الأول من اسم صاحب المعجم الذى ورد فيه . وحدث نفس الشىء لمعانى معجم ن . بيلى N. Baily ، وغيره من المعجميين الأوائل ممن أصبحت اعمالهم ملكية عامة لمن جاءوا من بعدهم ، واشاد معجم اكسفورد لذلك بفضلهم جميعاً فى ميدان المعاجم .

٤ ــ الشواهد The Quotations :

توضح الشواهد أشكال الكلمة واستعمالاتها وعمرها ومعانيها المختلفة ، ففى حالة الكلمة الحية يستشهد المعجم بأمثلة توضح أول استعمال لها فى اللغة ، أما فى حالة الكلمات الميتة فيستشهد المعجم بآخر استعمال لها . وتوضع الشواهد عقب كل معنى مباشرة وفق حدوثها التاريخى ، بمعدل شاهد واحد لكل قرن ، ولو أن بعض الحالات تستلزم استعمال أكثر من شاهد عن كل قرن . ويحتفظ المعجم بالهجاء الأصلى فى الشواهد لانه يمثل حقيقة هامة فى تاريخ اللغة . بيد أن المعجم لم يلتزم عند اعادة طبع الشواهد فيه بالاشكال التى طبعت بها فى مصادرها الأصلية مثل الانكماش construction او وجود الحروف الاستهلالية capital letters فى غير موضعها ، أو استخدام الحروف المائلة italics والتى وردت بصفة خاصة فى كتب القرن السابع عشر لتوكيد بعض الكلمات والعبارات أو فقرات كاملة . وقد تم كذلك تصحيح بعض الاخطاء البسيطة simple blunders التى قد تضلل القارىء . أما الحروف المائلة التى شاع استعمالها فى الأزمنة الحديثة لتبين الشك الذى قد يكتنف منزلة الكلمة الاجتماعية ، فقد حرص المعجم على استبقائها لأهميتها التاريخية . ولذلك أيضاً حرص المعجم على تسجيل الكلمات القديمة بنفس الحروف التى وردت بها فى النصوص المنقولة عنها ، فمثلاً حرف g الحديث هو نفسه حرف 3 فى الانجليزية القديمة .

لم يستخدم المعجم الشواهد ، مجرد أمثلة يوردها ليبين استعمال الكلمة الكامل ، أو معنى خاصاً لها ، بل يستخدمها ليوضح أيضاً أصل الكلمة ، وانفعالها التدريجى gradual separation عن كلمات أو معان وثيقة الاتصال بها ، أو كبديل سلبى negative evidence لاثبات عدم وجود الكلمة فى هذا التاريخ . وقد يبدو من المستصوب أن نذيل الحواشى بتعليقات لشرح الغرض من استعمال الشواهد الواردة ، ولكن ضيق المكان فى المعجم يجعل ذلك أمراً مستحيلاً ، ولذلك آثر المعجم أن تتحدث الشواهد عن نفسها بنفسها .

ولقد دعت ضرورة جعل المعجم ذا حجم معقول ، الى استعمال أقل عدد ممكن من الشواهد المختارة من المادة المتاحة ، وتقديمها فى صورة مختصرة كلما أمكن ذلك . فالغرض من تقديم الشواهد فى شكلها المختصر انما يهدف الى توضيح الكلمة أو العبارة أو التركيب اللغوى construction . ومن بين الاسس المنهجية التى التزم بها المعجم أنه جعل الشواهد لا تعبر عن رأى محرر المعجم فيها . كما حرص على عدم اختصار الشاهد الى الحد الذى يجعله يطمس المعنى الأصلى ، وتجنباً للاختصار المخل حرص المعجم على الرجوع الى مصدر الشاهد الأصلى ، فذكر

البيانات اللازمة عن صحة الشاهد مثل عنوان المصدر الأصلي ومؤلفه والفقرة التي ورد فيها ، وهنا أيضاً لزم المعجم الاختصار التام ، فذكر تاريخ الشاهد مكتفياً بذكر الاسم الذي اشتهر به المؤلف ، كما اختصر أيضاً عناوين الكتب الى الحد الذي يجعل معرفتها أمراً سهلاً ، اما مباشرة من المصدر نفسه أو في بطاقات المكتبات العامة أو في قوائم المراجع والتراجم . ولقد لجأ المعجم الى طريقة سهلة وموحدة ليعين القارىء على الرجوع الى اسم الكتاب المذكور مع الشاهد ، وذلك باستعمال ارقام برمز كل منها الى معلومة مختلفة عن الكتاب . ومن أمثلة ذلك أن الأعداد الرومانية الاستهلالية أي الكبيرة (IV) ترمز الى الجزء volume أما الأعداد الصغيرة (iv) فترمز الى الكتاب ، اما (IV) lowercase letters فترمز الى الفصل أو ما يرادفه ، وترمز الأرقام الى الصفحة . أما التقسيمات الاخرى مثل القسم الهامشي marginal section فقد بينها المعجم بالعلامة IP ، أما بالنسبة للشعر الدرامي فالعلامات IV, IV, 42 مثلاً تعني IV ، مشهد iv ، سطر ٤٢ ـ act IV, scene iv, line 42 .

٢ ـ منهج معالجة الكلمات الثانوية

Subordinate words

تنقسم الكلمات الثانوية الى ثلاثة انواع :

١ ـ الأشكال الميتة والمتغيرة variant لبعض الكلمات وخاصة الكلمات التي يختلف هجاؤها القديم عن هجائها السائد الآن . وتنسب هذه الكلمات للشكل الاساسي الذي تنتمي اليه ، مصحوبة بمرادف تفسيري اذا كان الشكل الاساسي مماتا ، فمثلاً هجاء كلمة almacantur يمثل شكل الكلمة الممات ، اما كلمة almoise فتمثل الشكل المتغير لكلمة almose التي تمثل بدورها شكلاً متغيراً لكلمة Alms .

٢ ـ **التصريف الشواذ** irregular أو الغريب peculiar للكلمة الأصلية .

٣ ـ **كلمات غير صحيحة التكوين** أو مشكوك في وجودها alleged ، او وردت خطأ في المعاجم ، أو استشهد بها من ثغرات مختارة من أعمال بعض المؤلفين ، ولكنها لا تكون جزءاً من معجم اللغة الانجليزية . ويشير المعجم الى هوية character هذه الكلمات مع ذكر نبذة عن تاريخها .

٣ ـ منهج معالجة الكلمات المجمعة

combinations

قلما تهتم المعاجم ، الا الشامل منها ، بمعالجة نمو الكلمات المجمعة المكونة في كلمتين أو ثلاث . وتعمل هذه الكلمات المجمعة أو العبارات expressions على تضييق الشقة بين خلق الكلمة word-creation والتغير الدلالي semantic change ، لأنها تتكون عادة من كلمات يسهل معرفة معناها وتطوره التاريخي اذا فحصت بمفردها ، أما اذا أصبحت جزءاً من عبارة فانها تكتسب معنى خاصاً بها . ولنضرب مثلاً عبارة white elephant **وتعني** « هدية غير مرغوب فيها » ، في حين أن معناها الحرفي « فيل أبيض » ، وقد اكتسبت معناها هذا من أن ملوك سيام كانوا يهدون من يريدون افلاسه من رجال بلاطهم فيلاً أبيض مقدساً نظراً لما يحتاج اليه من عناية خاصة وتكاليف باهظة . ويرجع أصل عدد كبير من هذه الكلمات المركبة حديثاً الى الاستعمالات

الحديثة ، ومنها كلمات أصبحت كلمة واحدة مركبة مثل blackout « الاظلام التام » ، و dog light « معركة بين الطائرات المقاتلة »، ومنها ما يربطها شرطة وصل hyphen مثل hate-monger « الداعى الى كراهية الناس » (٣٥) .

ولقد أدخل المعجم ضمن هذه المجموعة من الكلمات ، كل الكلمات المكونة من تجميع كلمات بسيطة ، احتفظت كل كلمة منها بهجائها ، سواء كانت هذه الكلمات المركبة متصلة ، بعضها ببعض بشرطة وصل hyphen ، أو تربطها وحدة المعنى unity of signification واستعمال الشرطة لا يعنى شيئاً فى حالات كثيرة، فاستعمالها بين كلمتين لا يعنى بالضرورة ان بينهما وحدة فى المعنى ، اذ توجد فى حالات كثيرة وحدة ظاهرة أو تخصص فى المعنى بين كلمتين لا توجد شرطة وصل تجمع بينهما . وتستعمل شرطة الوصل أصلاً فى اغراض نحوية ، فهى تعنى احد أمرين : فاما أن العلاقة البنيوية بين كلمتين تصل بينهما شرطة وصل أقرب من العلاقة بين كلمتين لا تربطهما هذه الشرطة، وأما أن العلاقة بين كلمتين متعاقبتين، لا تصل بينهما شرطة وصل ، أقل من عادية . ويستشهد المعجم بالجمل الثلاث الآتية ليبين العلاقة بين كلمتين فى حالة وجود شرطة وصل، وفى حالة عدم وجودها . والكلمتان المعنيتان احداهما after وتدل على حدوث شىء عقب شىء آخر ، وتعمل أداة وصل أو حال أو ظرف ، والاخرى consideration ومعناها « دراسة الشىء » :

١) After consideration has been given to the proposal it was duly accepted.

٢) After consideration the proposal was accepted

٣) After-consideration has shown him his mistakes

فى المثال الأول لا توجد علاقة قائمة بين after الظرف و give الفعل . وفى المثال الثانى العلاقة بين after و consideration, علاقة الجار بالمجرور prepositional object . وفى المثال الثالث العلاقة بين الكلمتين هى علاقة الصفة بالموصوف . والعلاقة بينهما فى المثال الثالث اقرب منها فى المثال الأول ، وهى أقل حدوثاً منها فى المثال الثانى لأن after» تستعمل حرف جر أكثر من استعمالها صفة . والمجموعة المكونة من الكلمتين after consideration وبينهما شرطة لا تعتبر كلمة واحدة تماماً ككلمتى subsequent consideration أو Fuller consideration لأن الشرطة هنا ليست اكثر من أداة مساعدة لفهم المعنى عند القراءة ، أما فى حالة الكلام فان التنغيم يقوم بعملها كما فى المثالين التاليين :

1. A'fter considera...tion
2. A..fter considera.tion

ومهما يكن الأمر ، يرى معجميو اكسفورد أن استعمال after-consideration كما ورد فى الجملة المذكورة أعلاه لتأدية هذه الوظيفة فى طريقه الى الزوال لأن الكلمتين اللتين

---

(٣٤) Palmer Harold, A Grammar of English Words, Longmans ; London, 1941, p. 129.

تفصلهما شرطة فى طريقهما لتصبحا كلمة واحدة ، تماما ككلمة reconsideration « اعادة النظر » . وهذه الكلمة المكونة من السابقة ــre و consideration تعتبر كلمة واحدة لا لأن البادئه ليست كلمة مستقلة، بل لأنه توجد فى اللغة أيضاً كلمة reconsider التى اشتقت منها كلمة reconsideration . هذا ولما كانت العلاقة النحوية تصحبها دائماً وحدة المعنى تصبح شرطة الوصل فى كثير من الكلمات المركبة من كلمتين تعبيراً عن وحدة معناهما . وعندما يصبح هذا النوع من وحدة المعنى قويا ، بحيث يصعب تحليل الكلمة المركبة الى عناصرها ، تشطب هذه الشرطة وتكتب الكلمتان كلمة واحدة مثل الكلمات newspaper ، و blackberry ، و postman التى ينطق أحد مقاطعها بنبر واحد قوى a single accent . ولما كان الاختلاف حول استعمال شرطة الوصل اختلاف درجة لا نوع ، توجد فى اللغة بالضرورة كلمات مركبة كثيرة ، لم يتبين بعد الاستغناء عن شرطة الوصل عند كتابتها أم لا . وهناك كلمات كثيرة متخصصة لا تكتب بشرطة وصل ، مثل الاسماء الوصفية discriptive nouns التى تتكون من اسم وصفة مثل blue John ، أو من اسمين يدل معناهما على الملكية possessive case (مضاف ومضاف اليه) مثل Aaron's Rod « عصا هارون » و Sea Horse « حصان البحر » ، أو من اسم وعبارة مكونة من جار ومجرور مثل Jack in a box « عفريت العلبة » .

هل الكلمات المجمعة تهم المعجمى فى شىء ؟ سؤال طالما ردده المعجميون الانجليز ، ولما لم يجدوا الاجابة الشافية ، قسموا الكلمات المجمعة الى ثلاث فئات :

أولاً : الكلمات المجمعة التى تحتفظ كل كلمة فيها بمعناها الكامل ، وتندرج العلاقة بينهما تحت واحدة ن الفصائل النحوية grammatical categories ، وفى المعجم أمثلة كثيرة على ذلك ، فلقد ادرجت فيه ، فى نهاية كل مادة ، عينات منها مطبوعة بالحروف المائلة ، وتم توضيحها بعدد من الشواهد .

ثانياً : الكلمات المجمعة ذات المعنى المتخصص الناقص ، ويمكن شرحه بايجاز على ضوء معانى الكلمات التى بينهما قرابة ، وتعالج هذه الكلمات أيضاً بايجاز فى نهاية المادة الاساسية ، حيث تطبع بحروف صغيرة فى ترتيب هجائى ، ويتبعها شواهد مرتبة أيضاً ترتيباً هجائياً .

ثالثاً : الكلمة المجمعة ذات المعنى المتخصص الكامل ، أو ذات المعانى المختلفة ، أى التى لها تاريخ طويل ، ولذا فهى تتطلب معالجة خاصة . وترقم هذه الكلمات المجمعة بحروف استهلالية صغيرة الحجم فى نهاية المادة الأساسية ، مع الاشارة الى موقعها فى الترتيب الهجائى بين مواد المعجم ، حيث تعالج ككلمات أساسية .

وتحتل الكلمات المركبة مكانها فى المعجم ، اما حيث تقع هجائياً بين مواده ، أو تحت الكلمة التى تكون عنصرها الأول . اما العبارات فتعالج تحت الكلمة الرئيسية فيها ، فمثلاً عبارة on account تعالج تحت كلمة account ، وتعالج الاسماء الخاصة تحت اسمها الاساسى ، فاسم Black Alder مثلاً يعالج تحت كلمة Alder الاساسية لا كلمة Black .

٨ ـ منهج معالجة النطق (٣٥)

النطـــق هـــو الشـــكل الحـــى والفعلـــى actual form للكلمة ، أى هو الكلمة نفسها ، أما هجاؤها السـائد ، فهو مجرد رمز كتابى لها ، حافظت عليه الكتابة كشـكل تقليدى للكلمة ، يمثل آخر حقيقة مكتوبة فى تاريخ شكل الكلمة، وهجاء الكلمة الســـائد هو نقطـة الانطلاق فى البحث عن تاريخ الكلمة السابق ، وهو الشكل التاريخى الوحيــد الــذى يشــهده المعجمى بنفسـه ، وكل ما يســتطيع اثباته بالنسـبة لتاريخها ليس اكثر من الرجوع الى الشواهد التى أقرها معجميون من قبله ، وسجلوا فيها شكل الكلمة .

تسجيل نطق الكلمة السائد ، اذن أمر غاية فى الأهمية ، بالنسبة لأى معجم تاريخى . ولا شك أن أصوات اللغة الانجليزية ، قد تعرضت لتغيرات كثـيرة ومطـردة على مدى تاريخها الطـويل منذ اللغة التوتونيــة ثم الانجليزية القديمة ثم الوسيطة فالحديثـة . ولا شــك أيضاً أن التعرف على الكلمة الحيــة يتم عن طريق الاذن لدى سماعها كأصوات منطوقة ، أو عن طـريق العين لـدى قراءتهـا كحروف مكتوبة . ولقد كتبت رأسـيات مواد المعجم بحروف الكتابة الرومانية،أما الرموز الصوتية لهذه الحروف فهى التى اسـتعملها مسـتر ملفيل بـل Mellville Bell وأسـماها الكـلام المرئى Visible speech .

وينقسم مفتاح النطق فى المعجم الى قسمين : (١) الأصـوات السـاكنة ، (٢) والأصـوات الصائتة . consonants . ويشتمل أيضاً على أصوات اللغات المتصلة باللغة الانجليزية ، مثل الالمانية والفرنسية ، وذلك الى جانب الأصوات القديمة التى استعملت فى معالجة ايتومولوجيا الكلمات .

الخاتمة

وقصـارى القـول ، فان الهـدف من معجم اكسفورد يختلف كل الاختلاف عن اى غرض يرمى اليه أى معجم آخـر . فالمعجم يتقصى تاريخ حياة الكلمة فى اللغة الانجليزية واللغات المتصلة بها ليسجل تاريخ دخـول الكلمة لغة الكلام اذا لم توجد في سجلات اللغة الانجليزية القديمة والتى تعرف باسم الانجلو سكسون ، وليبين نمو كل معنى من معانى الكلمة وصلاتها التاريخية بمعانيها الاخرى ، وفى حالة المعانى أو الكلمات الممانة يسجل المعجم آخر حدوث لها يمكن العثور عليه موضحاً بشواهد مؤرخة، تتكون غالبـاً من جمل تشـــتمل على هـذه الكلمات . ومن بين الملامح المميزة أيضاً لمعجم اكسـفورد طرق الهجـاء المختلفة للكلمة عبر القرون منذ أول مرة ظهـرت فيهـا فى اللغة

---

(٣٥) راجع فى منهج معالجة النطق فى اللغة الانجليزيةالمؤلفات الآتية :

Gimson A. C. ; An Introduction to the Pronounciation of English Edward Arnold, London, 1972.

Jones, Daniel, English Pronouncing Dictionary, Everyman's, London, 1967,

An outline of English Phonatics, Heffer & Sons, Ltd., Cambridge, 1967.

Wijk Axel ; Rules of Pronounciation for the English Language, Oxford University Press, Press, London, 1966.

الانجليزية . وبالاضافة الى ذلك يتضمن معجم اكسفورد المعلومات الاخرى التى تقدمها عادة المعاجم الحديثة مثل الاشارة الى الهجاء المقبول، والنطق والايتومولوجيا الا أن معجم اكسفورد يقدم هذه المعلومات باسهاب اكثر .

ان المعجم الذى استغرق صنعة خمسة وسبعين عاماً ، ويفصل بين ظهور أول جزء منه اربعة واربعون عاماً ، أو بالأحرى تسعة واربعون عاماً ، اذا اخذنا الملحق فى الاعتبار ، يعتبر عملاً من اعظم ما أنتج العقل البشرى .

ولعل خير ما نختم به هذا البحث ، القاء نظرة سريعة على ما اسهم به الأشخاص الذين تضافرت جهودهم لانجاز هذا السفر الضخم عبر خمسة وسبعين عاماً . فكما هو معلوم ، لم يكن المعجم نتاج قريحة عقل فرد واحد مثل جونسون أو ريتشاردسون ، بل هو حصيلة التقاء عقول أعضاء الجمعية الفيلولوچية ومن بينهم ف . ج فورنيفال الذى عرض فى عام ١٨٥٧ على الاسقف بريتشارد ترنش اسقف كتيدرائية وستمنستر فكرة عمل المعجم . وقد أوحى هذا العرض الى « ترنش » كتابة بحثه المشهور عن أوجه النقص فى المعجم الانجليزى ، ومن ثم تبنت الجمعية الفيلولوچية « الفكرة » وشرعت من توها فى عملية جمع مواد المعجم .

والى جانب فورنيفال وترنش هناك أيضاً هربرت كولريدج الذى عمل رئيساً لتحرير المعجم بين عامى ١٨٥٩ و ١٨٦٢ وجاد فى نهايتها بأقصى ما يجود به انسان فى سبيل انجاز عمله ، وذلك بعد أن وضع خطة العمل فى المعجم وأشرف على عملية جمع بعض مادته .

خلف فورنيفال مستر هربرت كولريدج فى رئاسة التحرير ، ولكن حال انشغاله فى تأليف كتبه فى فقه اللغة دون اعطائه قدراً كافياً من وقته للعمل المنتج المباشر فى المعجم فى خلال ثمانية عشر عاماً هى فترة توليه رئاسة التحرير . ولا يخفى أن مؤلفات فورنيفال فى فقه اللغة اسهمت بقدر وفير فى اثراء مادة المعجم . وبعد مشاورات قام بها أعضاء الجمعية الفيلولوچية ومطبعة اكسفورد التى وافقت على تمويل ونشر المعجم ، عين هـ . مورى ، وهو مدرس لغة انجليزية من أصل اسكتلندى رئيساً للتحرير . وسرعان ما دب الحماس فى أوصال المشروع لما كان يتمتع به مستر مورى من عقلية منظمة وقدرة على التأثير فى العاملين معه ، فظهر الجزء الأول بعد خمس سنوات من توليه رئاسة التحرير التى دامت ثمانية وثلاثين عاماً . ولا يستطيع الا المعجمى المجرب بثاقب نظره وعميق خبرته ان يدرك ما أنجزه مستر مورى عندما قدم المادة المعجمية الى القارىء بدون أن يكون لديه مثل يحتذى به ، مما دعا البعض أن يطلقوا على ذلك السفر الهائل « معجم مورى » ولعل الفضل فى هذا الانجاز العظيم يرجع كذلك الى ثلاثة آخرين من رؤساء التحرير الى جانب مستر مورى وهم هنرى برادلى وسير الكسندر كريجى ودكتور تشارلس انيونز .

ان ما يدعو الى الاعجاب حقاً مجهودات المتطوعين من القراء الذين بلغوا الثمانمائة عداً فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية والذين اسهموا بدافع من حبهم للفتهم فى جمع مواد المعجم والشواهد الدالة على وجودها واستعمالاتها المختلفة فى حقب التاريخ المتعاقبة وتسجيلها على بطاقات موحدة الشكل والبيانات زودتهم بها ادارة تحرير المعجم . ولقد بلغ من حماس بعضهم أن قام أحدهم بجمع مائة الف شاهد فى حين جمع آخر ٣٦

الف شاهد ، ومثـل هذا التعاون من جانب القراء المتطوعين مع ادارة المعجم ، ليدعو الى العجب حقاً ، ولا شـك فى ان مجهوداتهم قد وفرت الوقت والمال وعجلت فى اصدار المعجم .

ان معجمه اللغـة نشـاط ذهنى لا يعدله نشــاط فى اى مكان علمى آخـر ، وما يبذله العاملون فى الميادين العلمية الاخرى من جهود جهيدة وما ينفقونه من سنوات عديدة للوصول الى ما يتصورونه اجابة على تساؤلات آثاروها وفروض افترضوها ، ربما يكون دون جدوى ، ولكن معجمة اللغة تدخل السرور على نفس من يعمل فيها بما يضيـفه من مـادة معجمة عند مغيب شمس كل يـوم الى حصـيلة اليـوم السابق ، وتكون النتيجة فى آخر الأمـر عملاً عملاقاً على غرار معجم اكسفورد .

★ ★ ★

المراجـع

Baugh, albert C., A History of the English Language, Routeledge & Kegan Paul, London, 1965.

Clarke, A. Melville, Spoken English, Oliver Boyd, London, 1941.

Francis, Nelson W., The English Language, An Introduction, Background for Writing, W.W., Norton & Co., Inc., New York, 1965.

Fries, Charles, Advances in Linguistics, College English, 25. 30-37 (October, 1961).

Margaret Schlauch, The Gift of Tongues, The Viking Press, Inc, 1942.

Kenyon, John S., Historical Suggestions, in, Richard Braddock, Introductory Readings on the English Language, Prentice-Hall, London, 1962.

Kenyon, John S., Cultural Levels and Functional Varieties of English, College English, 10. 31-36 (October, 1948)

McMillan, James B., Summary of Ninteenth Century Historical and Comparative Linguistics, College Composition and Communication, 5. 140-149 (December, 1954).

Palmer, Harold, A Grammar of English Words, Longmans, London, 1941.

Pie, Mario, The Story of the English Language, Simion & Schuster, New York, 1968.

Pie, Mario and Frank Gaynor, Dictionary of Linguistics, Littlefield, Adams & Co., 1969.

Robins, R. H., General Linguistics, An Introductory Survey, Longmans, 1968.

Roland Ridout & D. Waldo Clarke, A Reference Book of English, Macmillan, 1970.

Stuart Robertson and Fredric, Cassidy, Changing Meanings and Values of Words ; in, Richard Braddock, Introductory Readings on the English Language, Prentice-Hall, London, 1962.

Trench, Richard Chevenix, On Some Deficiencies, In our English Dictionaries, John W. Parker & Son, London, 1860.

Wrenn, C. L., The English Language, Methuen & Co., London, 1970.

★ ★ ★

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

1. Bowett, D. W., **The Search for Peace,** Roulledge & Kegan Paul, 1973.

2. Castaneda, Carlos, **Journey to Ixtlan, the Lessons of Don Juan,** Simon and Schuster New York, 1972.

3. Chasteen, Edgar R., **The Case for Compulsory Birth Control,** Prentice-Hall Inc., Englewood Cliffs, N.J., 1972.

4. Disch, Robert (edit.), **The Ecological Conscience Values for Survival,** Prentic Hall Inc. Englewood Cliffs, N. J. 1970.

5. Friedson, Eliot, **Profession of Medicine, A Study of the Sociology of Applied Knowledge,** Dodd, Mead and Company, New York, 1973.

* * *

العدد التالى من المجلة

العدد الاول المجلد الخامس

ابريل ـ مايو ـ يونيه ١٩٧٤

قسم خاص عن التاريخ
بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسه
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

مطبعة حكومة الكويت




Bibliotheca Alexandrina
0535804